

الفتوحات الإسلامية

بعد مضي الفتوحات النبوية

تأليف

السيد احمد بن زيني دحلان

مفتي مكة

الجزء الأول

الناشر

مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع

١٤ جواد حسني ـ القاهرة

تليفون ٥٦١٥٥

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م

مطبعة المدني
٦٨ شارع العباسية ـ عمارة [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين .

أما بعد : فيقول العبد الفقير خادم طلبة العلم بالمسجد الحرام ، كثير الذنوب والآثام المرتجى من ربه الغفران أحمد بن زيني دحلان ، غفر الله له ولوالديه ومشايخه ومحبيه والمسلمين أجمعين ، هذه وريقات جمعت فيها بغاية الاختصار الفتوحات الإسلامية التى افتتحها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعدهم من الخلفاء والملوك ، فابتدأت بما كان منها فى زمن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه وسميتها (الفتوحات الإسلامية) بعد مضى الفتوحات النبوية ، فأولها بعث جيش أسامة بن زيد رضى الله عنهما ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم جهزه فى زمنه الذى توفى فيه وأمره أن يسير إلى الموضع الذى استشهد فيه أبوه زيد بن حارثة رضى الله عنه وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ومشارف الشام ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مسير جيش أسامة ، فلما استخلف أبو بكر رضى الله عنه وارتد كثير من العرب ، أشار عليه بعض الصحابة رضى الله عنهم بتأخير جيش أسامة رضى الله عنه ، فامتنع وقال أول شيء أنفذه سير الجيش الذى جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت جيش أسامة الذى جهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسار أسامة رضى الله عنه بجيشه كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبث الجنود فى بلاد قضاعة التى ارتدت ، وأغار على إبنى فسى وقتل وغنم ، ورجع لأربعين يوماً ، ولم يحدث أبو بكر رضى الله عنه فى مغيبه شيئاً ، وكان إنفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين ، فإن العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه ، ولما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ثبتت قريش وثقيف على الإسلام ولم يرتد أحد منهم ، وأما قريش فثبتهم الله بسهيل بن

عمرو العامرى رضى الله عنه فإنه خطب أهل مكة خطبة تشبه خطبة أبى بكر التى خطب بها يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وثبت أهل المدينة بها ، فلما جاء خبر وفاة النبى صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة ارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون فقام سهيل بن عمرو رضى الله عنه على باب الكعبة وصاح بهم، فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ألم تعلموا أن الله قال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسل ﴾ وتلا آيات أخر ، ثم قال : والله إنى أعلم أن هذا الدين ليمتد إمتداد الشمس والقمر فى طلوعهما وغروبهما . وقال : يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمنّ هذا الأمر كما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد رأيته قائماً مقامى هذا وحده وهو يقول: قولوا معى لا إله إلا الله تدين إليكم العرب وتؤدى إليكم العجم الجزية ، والله لتنفقن كنوز كسرى وقيصر فى سبيل الله ، فمن بين مستهزىء ومصدق فكان مارأيتم فوالله ليكونن الباقى ، ثم ذكر لهم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلاف أبى بكر رضى الله عنه وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوة فمن رأيناه إرتد ضربنا عنقه ، فتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم وكلمته تامة وإن الله ناصر من نصره ومقو دينكم وأن الله جمعكم على خيركم - يعنى أبا بكر رضى الله عنه - فتراجع الناس وكفوا عما هموا به ، وهذه الخطبة هى المقام الذى أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة بدر ، لما أسر سهيل بن عمرو مع من أسر من كفار قريش يوم بدر وكان فصيحاً بليغاً يخطبهم ويحثهم ويحرضهم على قتال النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما أسر قال عمر رضى الله عنه يارسول الله : دعنى أنزع ثنيتى سهيل ابن عمرو فلا يقوم عليك خطيباً فى مواطن أبداً ، لأن سهيلا كان أعلم مشقوق الشفة العليا والأعلم إذا نزعت ثنيتاه لم يستطع الكلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه « دعه ياعمر فعسى أن يقوم مقاماً تحمده عليه ولا تذمه » فكان ذلك المقام هذه الخطبة التى قام بها حين جاءهم بمكة خبر وفاة النبى صلى الله

عليه وسلم وثبت الله بها أهل مكة ، وكان إسلام سهيل بن عمرو عام فتح مكة واستشهد يوم اليرموك سنة ثنتي عشرة ، وقيل مات في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة ويجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في لؤى بن غالب لأنه من بني عامر بن لؤى ، والنبي صلى الله عليه وسلم من بني كعب بن لؤى ، وكان سهيل رضى الله عنه من أشراف قريش وله ترجمة واسعة ، وأما ثقيف فثبتهم الله بعثمان بن أبي العاص الثقفي رضى الله عنه ، فإنه قام فيهم بمثل ماقام به سهيل بن عمرو في مكة ، وكان قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ظهور مسيلمة الكذاب ودعواه النبوة باليمامة، وظهور طليحة بن خويلد الأسدي ودعواه النبوة في بني أسد وغطفان ، وظهور الأسود العنسي ودعواه النبوة باليمن ، فأما الأسود العنسي فسلط الله عليه فيروزاً الديلمي فقتله وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله قبل وفاته ثم جاءتهم الأخبار بقتله في أول خلافة أبي بكر رضى الله عنه ، وأما مسيلمة وطليحة الأسدي فسيأتي الكلام عليهما . ولما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عظمت مصيبة المسلمين واشرأبت اليهودية والنصرانية وعم النفاق وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية واضطرمت الأرض ناراً وكانت ردتهم مختلفة ، فمنهم من قال لو كان نبياً ما مات ، ومنهم من قال : إنقضت النبوة بموته فلا نطيع أحداً أبداً ، ومنهم من قال : نؤمن بالله ، ومنهم من قال : ونشهد أن محمداً رسول الله ونصلى ولكن لا نعطيكم أموالنا ، فقال أبو بكر رضى الله عنه أن الزكاة مثل الصلاة والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، فجادله في كثير من الصحابة منهم عمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة وغيرهم ، ومن مجادلتهم له قول عمر رضى الله عنه له تألف الناس وارفق فإنهم بمنزلة الوحش ، فقال له أبو بكر رضى الله عنه رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام قد انقطع الوحي وتم الدين أينقص وأنا حي والله لأجاهدنهم مهما استمسك السيف في يدي وإن منعوني عقالا ، وقال له عمر أيضاً إنما شحت العرب على أموالها فلو تركت للناس صدقة هذه السنة فأبى إلا قتالهم ، وقال له عمر أيضاً كيف تقاتل الناس وقد قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم » فقال له أبو بكر رضى الله عنه : أليس قد قال إلا بحقها ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والله لو منعونى عقالا وفى رواية عناقاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ولو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي ، فقال عمر رضى الله عنه فوالله ما هو إلا أن رأيت أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق ، وقال عمر بعد ذلك: والله لقد رجح إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة فى قتال أهل الردة ، وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه لولا أن الله من علينا بأبى بكر أجمعنا أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، فعزم الله لأبى بكر على قتالهم ، ثم اتفق الصحابة كلهم على قتالهم واستصوبوا ما رآه أبو بكر رضى الله عنه ، قال أنس بن مالك رضى الله عنه كره الصحابة أولا قتال مانعى الزكاة ، وقالوا أهل القبلة فتقلد أبو بكر رضى الله عنه سيفه وخرج وحده ، فلم يجدوا بداً من الخروج على أثره وهذا دليل على كمال شجاعته ، وقال أبو بكر بن عياش سمعت أبا حصين يقول : ماولد بعد النبيين مولود أفضل من أبى بكر رضى الله عنه ، لقد قام مقام نبى من الأنبياء فى قتال أهل الردة .

ذكر أول وقعة فى قتال أهل الردة

كان بعض أهل الردة طمعوا فى استيلائهم على المدينة واستئصال الصحابة ليرجعوا الأمر جاهلية كما كانوا ، فتعجل جماعة من عبس وذبيان ، ونزلوا فى الأبرق ، ونزل آخرون بذى القصة ومعهم قوم من بنى أسد وكنانة وبعثوا وفداً إلى أبى بكر يطلبون الاقتصار على الصلاة دون الزكاة ، فأبى أبو بكر ذلك وأخذ فى الاحتراس والتحذر منهم فجعل على أنقاب المدينة علياً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود وغيرهم ، ورجع وفد المرتدين فأخبروا قومهم بقلة أهل المدينة فأغاروا على من كان بأنقاب المدينة ، فبعثوا إلى أبى بكر فخرج فى أهل المسجد الحاضرين فى ذلك الوقت على النواضح ، فهربوا والمسلمون فى اتباعهم إلى ذى خشب ، وكان للمرتدين كمين فى ذى حسى ، فنفروا إبل المسلمين بشنان نفخوها وفيها حبال ، ثم دهدهوها على الأرض فنفرت إبل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم إلى المدينة ولم يصرع مسلم ، فظن المرتدون بالمسلمين الوهن وبعثوا إلى أهل ذى القصة بالخبر فقدموا عليهم وبات أبو بكر رضى الله عنه يعبى الناس وخرج على تعبيته فما طلع الفجر إلا وهم والعدو على صعيد واحد ، فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما ذر قرن الشمس حتى ولوهم الأدبار وغلبوهم على عامة ظهرهم وقتلوا رجالا منهم ، وتبعهم أبو بكر رضى الله عنه ومن معه حتى نزلوا بذى القصة ، وكان ذلك أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرن فى عدد ورجع إلى المدينة فذل له المشركون واعتز المسلمون بواقعة أبى بكر هذه واستبشروا ، ولما قدم أسامة بن زيد استخلفه أبو بكر رضى الله عنه على المدينة وخرج بمن معه من المسلمين إلى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالأبرق ، فقاتل من به فهزم الله المشركين وأخذ الحطيئة أسيراً فطاطأت بنو عبس وبنو بكر ، وأقام أبو بكر بالأبرق أياما ، وغلب على بنى ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين وصدقاتهم ، ثم رجع إلى المدينة ، ولما انهزم بنو عبس وذبيان رجعوا إلى طليحة الأسدى وهو ببزاخة ، ثم قطع أبو بكر رضى الله عنه البعوث وعقد الألوية لعقد أحد عشر لواء وجعل لكل لواء أميراً وعزم أبو بكر على الخروج لقتال المرتدين بنفسه وأمر الناس

بالجهاد فخرجوا وخرج هو فى مائة من المهاجرين والأنصار وخالد بن الوليد يحمل اللواء حتى نزل بذى القصة ، ومكث أياماً ينتظر الناس وبعث إلى من كان حوله من أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، فأقبلوا من كل ناحية حتى كثر الناس ، وجعل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما يكلمان أبا بكر فى الرجوع إلى المدينة لما رأيا عزمه على المسير بنفسه ، وقال عمر ارجع يا خليفة رسول الله تكن للمسلمين فئة وردءاً فإنك إن تقتل يرتد الناس ويعلو الباطل على الحق وأبو بكر يظهر المسير بنفسه ، وأخرج الدارقطنى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال لما برز أبو بكر واستوى على الراحلة أخذ على بن أبى طالب رضى الله عنه بزمامها وقال : إلى أين يا خليفة رسول الله أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً ولما ألحوا عليه فى الرجوع رجع بعد أن بعث الأمراء فى كل ناحية لقتال أهل الردة .

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى بزاخة

لقتال طليحة بن خويلد الأسدى من بنى أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس

ادعى النبوة قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن جبريل يأتيه وسجع للناس الأكاذيب والخرافات التى تمجها الأسماع كقوله والحمام واليمام ومصر والصوام قد ضمن قبلكم بأعوام ليبلغن ملكنا العراق والشام ، وكثر أتباعه من بنى أسد وغطفان ، وكان يأمرهم بترك السجود فى الصلاة ويقول : إن الله ما يصنع بتعفر وجوهكم ، وتقبيح أدباركم شيئاً ، أذكروا الله واعبدوه قياماً ، فبعث أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد رضى الله عنه لقتال طليحة ومعه كثير من المهاجرين والأنصار ومعه أيضاً عدى بن حاتم فى ألف من طيء ، وكان طليحة قد أسلم ثم ارتد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وكان كاهنا فادعى النبوة ، فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم استطار أمر طليحة واجتمعت إليه غطفان وهوازن وغيرهم وارتد أيضاً عيينة بن حصن الفزارى وصار مع طليحة ونزلوا جميعاً ببزاخة فقصدهم خالد بن الوليد بمن معه فتقاتلوا ، واشتد القتال ، ثم انهزموا فقتل من

فقتل منهم وأسلم من أسلم فوثب طليحة على فرسه واحتقب امرأته ونجابها إلى الشام، روى أن طليحة قال لأصحابه لما رأى انهزامهم : ويلكم ما يهزمكم فقال له رجل منهم أنا أخبركم أنه ليس منا رجل إلا وهو يحب أن صاحبه يموت قبله ، وإنا نلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه ، وكان خالد بن الوليد قبل القتال ولقاء القوم أرسل طليعة عكاشة بن محصن الأسدى وثابت بن أرقم الأنصارى فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه ، فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتل طليحة عكاشه وقتل أخوه ثابتاً وقيل إن حبالا أخا طليحة أسر فأرادوا إرساله إلى أبى بكر رضى الله عنه فقال : اضربوا عنقى ولا ترونى محمديكم هذا ، ولما وقع القتال من طليحة وقومه كان خالد رضى الله عنه يحرض المؤمنين ويقول : يا معشر الأنصار الله الله ، واقتحم وسط القوم وكر على أصحاب طليحة ، فاختلطت الصفوف ، واختلطت السيوف بينهم واشتد القتال ، وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما ، وقاتل عيينة بن حصن مع طليحة قتالا شديداً وكذلك قومه ، وكان معه منهم سبعمائة ، ولما انهزم القوم أسر عيينة بن حصن وقرة بن هبيرة القشيرى وأرسلا إلى أبى بكر رضى الله عنه فرجعا إلى الإسلام فقبله منهما ، وأما طليحة فإنه لما انهزم الناس فر وبقى نحو الشام عند بنى غسان إلى أن توفى أبو بكر رضى الله عنه ، ودخل بنو أسد وغيرهم فى الإسلام أسلم طليحة وحسن إسلامه ، ولقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبايعه ، وقال له عمر رضى الله عنه : أنت قاتل عكاشة وثابت والله لا أحبك أبداً ، فقال : يا أمير المؤمنين ما يهمك من رجلين أكرمهما الله بالشهادة على يدى ولم يهنى بأيديهما ، ثم كان لطليحة آثار جميلة فى قتال الفرس لما فتح العراق وكان من الشجعان المشهورين واستشهد رضى الله عنه بنهاوند سنة ثمانى عشرة ، ولما أوقع الله ببنى أسد ما أوقع وانهزموا بث خالد السرايا ليصيبوا ما قدروا عليه فجعلت العرب تسير إلى خالد رغبة فى الإسلام أو خائفة من السيف ، ومنهم من مضى إلى أبى بكر ولم يأت خالداً ولما فرغ خالد من بنى أسد سار إلى أرض بنى تميم ، فلما وصل إلى البطاح من أرض تميم لم يجد بها جمعاً ففرق السرايا فى نواحيها فلقوا اثنى عشر رجلا فيهم مالك بن نويرة التميمى ، وكانوا ممن ارتدو منع الزكاة فأخذوهم وجاءوا بهم خالداً واختلف الذين أخذوهم فى مالك بن نويرة ومن معه ، فقال قوم

انهم أسلموا فما لنا عليهم من سبيل ، وقال قوم لم يسلموا وإن قتلهم وسبيهم حلال ، وكان ذلك رأى خالد فيهم فأمر بهم خالد فقتلوا وقتل معهم مالك، وتزوج خالد امرأته وقيل إن خالداً سمع من مالك كلاماً استدل به على عدم إسلامه من أنه قال : إن صاحبكم قد توفى فعلم خالد أنه أراد أنه صلى الله عليه وسلم ليس بصاحب له ، فتيقن ردته فقتله بعد أن تكرر من مالك قوله فعل صاحبكم شأن صاحبكم ، فقال له خالد وليس بصاحب لك وقيل إنه لما قدم مالك بن نويرة ومعه الأسرى على خالد حبسهم على ضرار بن الأزور وكانت ليلة ممطرة فنادى مناديه أن ادفئوا أسراكم ، وكانت فى لغة كنانة كناية عن القتل فبادر ضرار بقتلهم ، وكان كنانيا وسمع خالد الداعية فخرج متأسفا وقد فرغوا فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه ، ولما قدم خالد على أبى بكر رضى الله عنه سأله عن قتل مالك بن نويرة فأخبره بذلك واعتذر إليه فقبل عذره وأراد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إن أبا بكر رضى الله عنه يقتل خالداً قصاصا فى مالك ابن نويرة فقال : أبو بكر يا عمر : تأول خالد فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، ودفع أبو بكر رضى الله عنه ديات لأولياء مالك بن نويرة ومن قتل معه ، وكان مالك بن نويرة أسلم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وقدم فجعله النبى صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه فجمعها فلما بلغه وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ردها من حيث جاءت وكان أمره ماتقدم ، وكان خالداً رضى الله عنه بعد وقعة مالك بن نويرة رجع من البطاح إلى المدينة واجتمع بأبى بكر رضى الله عنه واعتذر مما كان فى أمر مالك بن نويرة ، فقبل عذره وأمره بالمسير إلى قتال مسيلمة فسار خالد ومن معه لقتال أهل اليمامة التابعين لمسيلمة ، ولنذكر قبل ذلك خبر سجاح بنت الحارث التميمية.

ذكر خبر سجاح

لما ارتد كثير من العرب بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ادعت النبوة سجاح بنت الحارث التميمية وأقبلت من الجزيرة ، وتبعها كثير من قومها وقوم بنى تغلب وكانوا أخوالها وسجعت لهم أسجاع طليحة الأسدى ومسيلمة الكذاب من ذلك قولها : أعدوا

الركاب واستعدوا للنهاب ثم أغيروا على الرباب فليس دونهم حجاب ، وأرادت أن تغزو بجموعها أبا بكر بالمدينة ثم أشاروا عليها بغزو مسيلمة باليمامة فخرجت بمن معها تريد اليمامة وقالت عليكم باليمامة ذوقوا دفيف الحمامة فإنها غزوة صرامة لا يلحقكم بعدها سلامة ، فبلغ ذلك مسيلمة فاحتال عليها وأرسل لها هدية ثم أرسل لها يستأمن على نفسه حتى يأتيها فأمنته ، فجاءها في أربعين من بنى حنيفة وأرسل لها : أبعدى أصحابك ، ففعلت وقد ضرب لها قبة فجمرها وأكثر فيها من رائحة الطيب المحرك للشهوة ، واجتمع بها في تلك القبة ، فقالت له : ما أوحى إليك ربك ، فقال : ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحبلى أخرج منها نسمة تسعى بين صفاق وحشى ، قالت : وماذا أيضاً قال إن الله خلق للنساء أفراجاً وجعل الرجال لهن أزواجاً فتولج فيهن إيلاجاً وتخرجها إذا شاءت إخراجاً فينتجن لهن سخالا إنتاجاً ، قالت : أشهد أنك نبي قال : هل لك أن أتزوجك وآكل بقومى وقومك العرب قالت نعم قال :

ألا قومى إلى النيك فقد هيىء لك المضجع
فإن شئت ففى البيت وإن شئت ففى المخدع
وإن شئت سلقناك وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

قالت بل به أجمع

فإنه أجمع للشمل قال بذلك أوحى إلى فأقامت عنده ثلاثا ثم انصرفت إلى قومها فقالوا لها ما عندك ؟ قالت كان على الحق فتبعته وتزوجته . قالوا هل أصدقك شيئا ؟ قالت لا قالوا فارجعى فاطلبى الصداق ، فرجعت فلما رآها أغلق باب الحصن وقال مالك ؟ قالت أصدقنى ، قال من مؤذنك ؟ قالت شبث بن ربعى الرياحى ، فدعاه وقال له ناد في أصحابك أن مسيلمة رسول الله قد وضع عنكم صلاتين مما جاءكم به محمد ، صلاة الفجر وصلاة العشاء الأخيرة ، فانصرفت ومعها أصحابها ، فقال بعض منهم .

أمست نبيتنا أنثى نطوف بها وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

وصالحها مسيلمة على غلات اليمامة سنة تأخذ النصف والنصف الثانى تترك عنده من يأخذه فأخذت النصف وانصرفت إلى الجزيرة وتركت عنده من يأخذ النصف الباقى ، فلم يفاجئهم إلا وقد جاء خالد إليهم فأرفضوا ، قيل إنها لما قتل مسيلمة سارت إلى أخوالها تغلب بالجزيرة فماتت عندهم ولم يسمع لها ذكر ، وقيل إنها أسلمت وحسن إسلامها وانتقلت إلى البصرة وماتت بها وصلى عليها سمرة بن جندب وهو أمير على البصرة لمعاوية قبل قدوم عبيد الله بن زياد من خراسان وولايته البصرة .

ذكر مسير خالد بن الوليد

رضى الله عنه إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب ابن حبيب الحنفى

كان أبو بكر رضى الله عنه لما بعث السرايا لقتال المرتدين ، أرسل عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه فى عسكر إلى مسيلمة وأتبعه بشرحبيل بن حسنة التميمى وقيل الكندى وكان حليفاً لبنى زهرة رضى الله عنهما ، فجعل عكرمة فوافاهم فنكبوه فانهزم وأقام شرحبيل بالطريق حين أدركه الخبر وكتب عكرمة لأبى بكر بالخبر ، فكتب إليه أبو بكر أن لا ترجع فتوهن الناس امض إلى قتال أهل عمان ومهرة ، وكان قد أرسل إلى قتالهم حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة ، فأمر عكرمة باللحاق بهما ، ثم لما جاء خالد إلى المدينة بعد قصة مالك بن نويرة أمره بالمسير إلى اليمامة لقتال مسيلمة بن حبيب ومسيلمة من بنى حنيفة وهى قبيلة من قبائل ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وكان مسيلمة رئيساً فى قومه فقدم مع وفد بنى حنيفة على النبى ، فأسلم واجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم وسأله أن يجعل له الأمر بعده ، وكان فى يد النبى صلى الله عليه وسلم عسيب من سعف النخل فقال لمسيلمة : لو سألتنى هذا العسيب الذى فى يدى ما أعطيتكه ، فلما رجع إلى اليمامة ارتد عدو الله وادعى النبوة وقال : إنى أشركت فى الأمر مع محمد فاتبعه بنو حنيفة وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد : فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يعتدون ، وبعث الكتاب مع رجلين من قومه ، فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قرأ كتابه « أتشهدان أنى رسول الله ؟ قالا نعم » قال أتشهدان أن مسيلمة رسول الله قالا نعم اشترك معك فى الأمر فقال : أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » ثم كتب إلى مسيلمة فى جوابه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلام على من اتبع الهدى أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، وقد أهلكت أهل الحجر أبادك الله ومن صوت معك » فلما جاءه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخفاه وكتب عن رسول الله كتاباً زعم أنه وصله بثبوت الشركة بينهما ، وأخرج ذلك الكتاب إلى قومه فافتتنوا بذلك ، وكان فى آخر السنة العاشرة من الهجرة ، قال الزمخشرى فى ربيع الأبرار ، قال الجاحظ : كان مسيلمة قبل ادعاء النبوة يدور فى الأسواق التى بين دور العرب والعجم يلتمس تعلم الحيل والنيرنجات واحتيالات أصحاب الرقى والنجوم ، ومما تعلمه من الحيل أنه صب على بيضة من خل حاذق قاطع فلانت حتى إذا مدتها استطالت وعادت واستدقت كالعلك . ثم أدخلها قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارت وعادت كهيئتها الأولى فأخرجها إلى قومه وهم قوم أعراب وادعى النبوة ، فآمن به جماعة ووضع الصلاة عن قومه وأحل الخمر والزنا ونحو ذلك ، واتفق معه بنو حنيفة إلا أفراداً منهم من ذوى عقولهم ، ومن أراد الله به الخير ، ثم اشتغل بتأليف سجعات يزعم أنه يعارض بها القرآن وهى : ركيكة مضحكة للعقلاء منها قوله : الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل له ذنب وثيل ومشفر وخرطوم طويل إن ذلك من خلق ربنا لقليل ومنها قوله : ياضفدع كم تنقنقين أعلاك فى الماء وأسفلك فى الطين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين ، وروى ياضفدع بنت ضفدعين لحسن ماتنقنقين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين أمكثى فى الأرض حتى يأتيك الخفاش بالخبر اليقين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم لا يعدلون ، وسجع اللعين على سورة إنا أعطيناك الكوثر فقال : إنا أعطيناك الجواهر فصل لربك وهاجر إن مبغضك لفاجر ، وفى رواية إنا أعطيناك الجماهر فخذ لنفسك وبادر واحذر أن تحرص أو تكاثر ، وفى رواية . إنا

أعطيناك الكوائر فصل لربك وبادر فى الليالى الغوادر . ولما سمع اللعين والنازعات غرقاً قال : والزارعات زرعا فالحاصدات حصداً والذاريات قمحاً والطابخات طبخا والخافرات حفراً والخابزات خبزاً فالثاردات ثرداً فاللاقمات لقماً والآكلات أكلا لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر ، وله غير ذلك مما يدل على سخافة عقله وعقل من صدقه واتبعه ، روى أن امرأة أتت مسيلمة فقالت ادع الله لنا ولنخلنا ولمائنا فإن محمداً دعا لقومه فجاشت آبارهم وكثر ماؤها قال : كيف صنع قالت : دعا بسجل فدعا لهم فيه ثم تمضمض ومج فيه فأفرغوه فى تلك الآبار ففعل مسيلمة كذلك فغارت تلك المياه ، ولما سمع اللعين أن النبى صلى الله عليه وسلم تفل فى عين على رضى الله عنه وكان أرمد فبرىء تفل فى عين بصير فعمى ، ومسح بيده ضرع شاة حلوب فارتفع درها ويبس ضرعها وحفرت بنو حنيفه بئراً فأعذبوها متاحاً فجاءو إلى مسيلمة وطلبوا منه أن يأتيها وأن يبارك فيها فأتاها فبصق فيها فعادت أجاجا وتوضأ مسيلمة فى حائط فصب وضوءه فيه فلم ينبت ، وقال له رجل بارك على ولدى فإن محمداً يبارك على أولاد أصحابه فلم يؤت بصبى مسح مسيلمة رأسه أو حنكه إلا قرع أو لثغ ، وجاءه رجل فقال : يا أبا ثمامه إنى ذو مال وليس لى مولود يبلغ سنتين حتى يموت غير هذا المولود وهو ابن عشرين ولى مولود ولد أمس أحب أن تبارك فيه وتدعو أن يطيل الله عمره ، فقال سأطلب لك الذى طلبت فجعل عمر المولود أربعين سنة فرجع الرجل إلى أهله مسروراً فتردى الأكبر فى بئر ووجد الصغير ينزع فى الموت فلم يمس من ذلك اليوم حتى ماتا جميعا ، فقالت أمهما فلا والله مالأبى ثمامة عند إلهه مثل منزلة محمد صلى الله عليه وسلم ، كان مسيلمة قبيح الخلقة وذميم الصورة وصفته على عكس صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يزعم أن جبريل يأتيه بالوحى ، وكان اسمه هارون بن حبيب وكنيته أبو ثمامة ولقبه مسيلمة وكان يقال له رحمن اليمامة قبل أنه كان يقول أن الذى يأتيه اسمه رحمن ، وقيل إنه من باب تعنتهم فى كفرهم . ولما فرغ خالد من البطاح ورجع إلى المدينة ورضى عنه أبو بكر رضى الله عنه بعثه إلى مسيلمة فتعجل إلى البطاح وأمده أبو بكر

رضى الله عنه بالرجال فانتظر البعوث حتى قدمت عليه فنهض إلى اليمـامة ، وكان جيشه أربعة آلاف وكان أهل اليمامة أربعين ألف مقاتل ، ولما بلغهم دنو خالد بن الوليد رضى الله عنه خرجوا وعسكروا فى منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفروا إليهم ، وأقبل خالد وجعل على مقدمته شرحبيل بن حسنة فهجم عليه من أصحاب مسيلمة ليلة سرية أربعون أو ستون فبض المسلمون عليهم وقتلوهم ، ثم سار خالد ونازل بنى حنيفة ،واشتدت الحرب ولم يلق المسلمون حرباً مثلها قط وتذامرت بنو حنيفة وقاتلت قتالا شديداً ، وكانت الحرب يومئذ تارة للمسلمين وتارة للـكافرين ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين حتى ألجأوا بنى حنيفة إلى حديقة احتشدوا فيها ، فدخلها المسلمون عليهم وقاتلوهم أشد القتال . فلم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك فى قتله وحشى مولى جبير بن مطعم الذى قتل حمزة رضى الله عنه ورجل من الأنصار أما وحشى فدفع إليه حربته فوقعت بين ثدييه وضربه الأنصارى بسيفه ، واختلف فى هذا الأنصارى فقيل هو أبو دجانة وقيل هو عبد الله بن زيد ، قال ابن عمر فصرخ رجل وقال قتله العبد الأسود ، وقالت جارية على ظهر بيت أمير المؤمنين قتله العبد الأسود ، فولت بنو حنيفة عند قتله مهزومة وأخذهم السيف من كل جانب ، ثم بقى منهم جماعة بالحصون فصالحهم خالد على كل شيء دون النفوس وفى رواية صالحهم على الصفراء والبيضاء والحلقة والـكراع ونصف السبى وكان وحشى يقول : قتلت خير الناس فى الجاهلية وشر الناس فى الإسلام — يعنى حمزة ومسيلمة — وفى تاريخ ابن الوردى لـما عزى رسول الله صلى الله عليـه وسـلم بحمزة حين قتله وحشى بأحد قال بعضهم ويل لوحشى من النار فقال صلى الله عليه وسلم « أما حمزة فأجله قد انقضى وأما وحشى فسوف يدرك الشرف من بعده فقالوا كيف يارسول الله ؟ قال : هو يقتل مسيلمة الـكذاب» فـكان كما قال صلى الله عليه وسلم . واستشهد فى هذه الوقعة كثير من مشاهير المهاجرين والأنصار وفضلاء الصحابة يطول الـكلام بتعداد أسمائهم ، وجملة من قتل من المهاجرين والأنصار من المدينة ثلاثمائة وستون ومن المهاجرين من غير المدينة ثلثمائة رجل، ومن بقية المسلمين ستمائة فجملة من استشهد من المسلمين ألف ومائتان وقيل ألف وثمانمائة

ومن المشركين نحو عشرين ألفاً قتل منهم فى الحديقة فقط سبعة عشر ألفاً ، كما فى تاريخ ابن خلدون وكانت هذه الوقعة فى ربيع الأول من سنة اثنتى عشرة من الهجرة كذا فى تاريخ الخميس ، والذى يقتضيه تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون أنها كانت فى أواخر السنة الحادية عشرة لأنهم ذكروا أن مسير خالد إلى العراق فى أول سنة اثنتى عشرة وكان ذلك بعد فراغه من قتال أهل اليمامة وكان القتال يوما كاملا من بكرة النهار إلى بعد العصر ، وقاتل خالد بن الوليد فى ذلك اليوم قتالا شديداً وكان يقول : شهدت عشرين زحفا فلم أر قوما أصبر لوقع السيوف ولا أضرب بها ولا أثبت أقداماً من بنى حنيفة يوم اليمامة ، وقال أبو برزة الأسلمى لقد اقتحم خالد حتى أعذر وصبر حتى ظفر ، وقال رافع بن خديج خرجنا ونحن أربعة آلاف فانتهينا إلى اليمامة فننتهى إلى قوم هم الذين قال الله فيهم (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) ثم إن الله بمنه وكرمه وفضله رزقنا عليهم الظفر ، وكان مع المسلمين امرأة وهى أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية وهى والدة عبد الله بن زيد الذى قتل مسيلمة مع وحشى وشهدت أمه ذلك اليوم وقطعت يدها فى ذلك القتال وكانت أم عمارة هذه جاءت إلى أبى بكر رضى الله عنه لما تجهز القوم للخروج واستأذنته فى الخروج ، فقال لها أبو بكر رضى الله عنه : ما مثلك يحال بينه وبين الخروج قد عرفناك وعرفنا جراءتك فى الحرب فاخرجى على اسم الله ، وكان مسيلمة قبل خروجهم قد ظفر بابن لها وهو حبيب بن زيد وكان مقبلا من عمان يريد المدينة فسمع به مسيلمة فأرسل من قبض عليه وجىء به أسيراً ، فقال له مسيلمة أتشهد أنى رسول الله ، فقال لا أسمع فقال له أتشهد أن محمداً رسول الله قال : نعم فأمر به فقتل ، وكان كلما قال أتشهد أنى رسول الله قال لا أسمع فإذا قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ، قال : نعم حتى قطعه عضواً عضواً فقطع يديه من المنكبين ورجليه من الوركين ثم أحرقه بالنار ، وهو فى كل ذلك لا ينزع عن قوله ولا يرجع عما بدأ به حتى مات فى النار ، فخرجت أمه مع القوم لتأخذ بثأر ابنها فلما انتهوا إلى اليمامة فكانت تقاتل مع المسلمين ، قالت : فلما انتهينا إلى الحديقة ازدحمنا على الباب فاقتحمناه فضاربناهم ساعة وجعلت أقصد عدو الله مسيلمة لأن أراه

ولقد عاهدت الله لئن رأيته لأكذب عنه أو أقتل دونه ، وجعلت الرجال تختلط والسيوف بينهم تختلف وخرس القوم فلا صوت إلا وقع السيوف حتى أبصرت بعدو الله فشددت عليه ، وعرض لى منهم رجل ضرب يدى فقطعها فوالله ما عرجت عليها حتى انتهيت إلى الخبيث وهو صريع قد قتله ابنى عبد الله وفى رواية وابنى يمسح سيفه بثيابه فقلت: أقتلته ، قال : نعم يا أماه فسجدت شكراً لله تعالى وقطع الله دابرهم ، فلما انقطعت الحرب ورجعت إلى منزلى جاءنى خالد بن الوليد بطبيب من العرب فداوانى بالزيت المغلى وكان والله أشد على من القطع وكان خالد كثير التعهد لى حسن الصحبة لنا يعرف لنا حقنا ويحفظ فينا وصية نبينا ، وعن محمد بن يحيى بن حبان قال : جرحت أم عمارة يوم اليمامة أحد عشر جرحا بين ضربة سيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح وقطعت يدها سوى ذلك ، ولما قدمت المدينة كان أبو بكر رضى الله عنه يأتيها ويسأل عنها وهو يومئذ خليفة ، وممن استشهد يوم اليمامة ثابت بن قيس بن شماس وكان خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفاخر به وفود العرب إذا قدموا عليه يفتخرون بفصاحة خطبائهم وكان يوم اليمامة معه راية الأنصار ، ولما استشهد ودفنه المسلمون سمعوه حين أدخلوه فى قبره يقول محمد رسول الله أبو بكر الصديق عمر الشهيد عثمان البر الرحيم فنظروه فإذا هو ميت ، ذكر ذلك القاضى عياض فى الشفاء ، وبعد وفاته رآه رجل من المسلمين فى منامه يقول له : إنى موصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه أنى لما قتلت بالأمس ، جاء رجل من ضاحية نجد وعلم درعى فأخذها وأتى بها منزله فأكفأ عليها برمته وجعل على البرمة رحلا وخباؤه فى أقصى العسكر إلى جنب خبائه فرس أبلق يستن فى طوله فائت خالد بن الوليد فأخبره فليبعث إلى درعى فليأخذها ، وإذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره أن على من الدين كذا ولى من الدين كذا ، وسعد ومبارك غلاماى حران فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه ، فلما أصبح الرجل أتى خالداً رضى الله عنه فأخبره ، فبعث خالد إلى الدرع فوجدها كما قال وأخبره بوصيته فأجازها ، ولا نعلم أن أحداً من المسلمين أجيزت وصيته بعد موته إلا ثابت بن قيس بن شماس . وقد روى أن بلال بن الحارث رضى الله عنه كان صاحب

الرؤيا ولما انقضى القتال اجتمع خالد بن الوليد ببعض أهل اليمامة وسألهم عن اسجاع مسيلمة ، فقصوها عليه فقال : سبحان الله هذا الكلام ماخرج من ال ولابر ، فأين يذهب بكم عن أحلامكم وقال أبو بكر رضى الله عنه فى حق أهل اليمامة : لن يزالوا من كذابهم فى بلية إلى يوم القيامة إلا أن يعصمهم الله تعالى . وقصة يوم اليمامة طويلة وقع فيها عجائب من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كانت معجزات له صلى الله عليه وسلم وكرامات لهم وكلها مذكورة فى التواريخ ، وفى هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم ، والكلام على بقية أهل الردة الذين قاتلهم غير خالد بن الوليد سيأتى الكلام عليه مؤخراً بعد إتمام الكلام على غزوات خالد بن الوليد بالمشرق والعراق .

ذكر مسير خالد بن الوليد إلى العراق

ولما فرغ خالد بن الوليد من أمر اليمامة بعث إليه أبو بكر رضى الله عنه فى المحرم من سنة اثنتى عشرة ، فأمره بالمسير إلى العراق فسار من اليمامة ، وقيل قدم على أبى بكر رضى الله عنه ، ثم سار من المدينة وانتهى إلى قرية بالسواد وصالحه أهلها على عشرة آلاف دينار فقبضها ووضع الجزية عليهم ، ثم سار إلى الحيرة وخرج إليه أشرافها مع إياس بن قبيصة الطائى الأمير عليها بعد النعمان بن المنذر ، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية أو مناجزة الحرب ، فاختاروا الجزية فصالحوه على تسعين ألف درهم ، ثم سار إلى الأبلة وكان معه عشرة آلاف ، وأمده أبو بكر رضى الله عنه بالمثنى بن حارثة الشيبانى ومعه ثمانية آلاف ، وكان قبل مجيء خالد استأذن أبا بكر رضى الله عنه أن يغزو العراق ، فلما قدم خالد أمر أبو بكر المثنى أن يكون مع خالد ونازلوا الحفير وكان ذلك للفرج أعظم فروج فارس وأشدها شوكة ، وكان صاحبه اسمه هرمز فكان يحارب العرب فى البر ويحارب الهند فى البحر فلما سمع هرمز بهم كتب إلى كسرى ازدشير الملك بالخبر وتعجل هو إلى الكواظم واقترن قومه بالسلاسل لئلا يفروا ، فسمع بهم خالد وكانوا سبقوه فى النزول على الماء فنزل خالد على غير ماء فقال له أصحابه فى ذلك فقال لهم : لعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين ، فحطوا أثقالهم وتقدم خالد إلى الفرس فلاقاهم ، فأرسل الله سحابة فأغدرت

وراء صف المسلمين فقويت قلوبهم وخرج هرمز ودعا خالداً إلى البراز وتواطأ مع أصحابه على الغدر بخالد ، فبرز إليه خالد ومشى نحوه راجلا ونزل هرمز أيضاً وتضاربا فاحتضنه خالد وحمل أصحاب هرمز الذين تواطأ معهم فما شغل ذلك خالداً عن قتله وحمل القعقاع ابن عمرو عليهم فأزاحهم وانهزم أهل فارس وركبهم المسلمون وقتل خالد هرمز وأخذ سلبه وكانت قلنسوته بمائة ألف ، وكانت هذه عادتهم إذا تم شرف الإنسان تكون قلنسوته بمائة ألف ، وبعث خالد بالفتح والاخماس إلى أبى بكر ، وسميت هذه الوقعة ذات السلاسل ، ثم سار خالد فنزل بمكان البصرة وبعث المثنى بن حارثة فى آثار العدو فحاصر حصن المرأة وفتحه فأسلمت وتزوجها وكان كسرى أزدشير لما جاءه كتاب هرمز بمسير خالد أمده بجيش فلقيه المنهزمون فرجعوا ونزلوا الثنى وهو النهر ، وتعرف هذه الوقعة بوقعة الثنى وسار إليهم خالد واقتتلوا وانهزم الفرس وقتل منهم نحو ثلاثين ألفا سوى من غرق وغنم المسلمون غنيمة عظيمة ، وأخذ الجزية من الفلاحين وصاروا فى ذمه وكان فى السبى والد الحسن البصرى وكان نصرانيا ، ولما جاء الخبر إلى كسرى بعث جيشا عظيما وعسكروا بالدلجة فسار إليهم خالد فقاتلهم وهزمهم وقتل كثيراً منهم ثم اجتمعوا على مليس ومعهم كثير من نصارى العرب فسار إليهم خالد فبرز إليه مالك بن قيس فقتله خالد واشتد القتال ثم انهزموا واستأسر الكثير منهم وقتلهم خالد حتى سال النهر بالدم ، وسمى نهر الدم ، وبلغ عدد قتلاهم سبعين ألفا ثم سار إلى أمعيشيا ففزا أهلها وأعجلهم عن أن ينقلوا أموالهم فغنم جميع ما فيها وخربها ، فلما بلغ ذلك أبا بكر رضى الله عنه قال : عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ثم سار إلى الحيرة وحمل الرجال والأثقال فى السفن ، فخرج مرزبان الحيرة فعسكر عند الغربين وأرسل ابنه ليقاطع الماء عن السفن فوقفت على الأرض ، فسار إليه خالد فقتله وجميع من معه ثم سار خالد إلى أبيه فى الحيرة فهرب من غير قتال وحاصر خالد قصور الحيرة وافتتحها وأكثر القتل ، فخرج ابن قبيصة من القصر الأبيض وعمرو بن عبد المسيح بن بقيلة وكان معمرا فقال له خالد : كم أتى عليك قال مئو سنين قيل إن عمره كان أربعمائة سنة قال : فما أعجب ما رأيت قال : رأيت القرى منظومة

ما بين دمشق والحيرة تخرج المرأة فلا تتزود إلا رغيفا وكان معه خادم معه كيس ، فسأله خالد ما فى الكيس قال : فيه سم ساعة وأخذه خالد ونثره فى يده وقال : لم تستصحب هذا معك قال : خشيت أن يكون على غير ما رأيت فيكون الموت أحب إلى من مكروه أدخله على قومى فقال له خالد : لن تموت نفس حتى تأتى على أجلها ، ثم قال خالد بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء وابتلع السم ، فقال ابن عبد المسيح والله لتبلغن ما أردتم مادام أحد منكم هكذا ، وأبى خالد أن يصالحهم إلا على تسليم كرامة بنت عبد المسيح لصحابى اسمه سويل كما فى تاريخ ابن الأثير وقيل شريك كما فى تاريخ ابن خلدون وكرامة بنت عبد المسيح قيل اسمها الشيما ، وسبب اشتراط تسليمها له أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ذكر استيلاء أمته على ملك فارس والحيرة سأله ذلك الصحابى أن يعطى كرامة بنت عبدالمسيح ، قال ابن الأثير وكان رآها شابة فمال إليها فوعده النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فلما فتحت الحيرة طلبها وشهد له شهود بوعد النبى صلى الله عليه وسلم فسلموها لخالد وسلمها له وفاء لوعد النبى صلى الله عليه وسلم إياه فاشتروها منه بألف درهم وصالحهم خالد على مائتى ألف وتسعين ألفا وأهدوا له هدايا ، فبعث بالفتح والهدايا إلى أبى بكر رضى الله عنه فقبلها أبو بكر من الجزية وكتب إلى خالد أن يأخذ منهم بقية الجزية ، وقصة بنت عبد المسيح ذكرها الدميرى فى حياة الحيوان فى ترجمة البغلة فقال : روى الطبرانى وأبو نعيم من طرق صحيحة عن خزيمة بن أوس قال : هاجرت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقدمت عليه عند منصرفه من تبوك فأسلمت فسمعته يقول « هذه الحيرة قد رفعت إليكم ستفتحونها وهذه الشيما بنت بقيلة الأزدية على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود » فقلت يارسول الله إن نحن دخلنا الحيرة فوجدناها على هذه الصفة فهى لى ، قال عليه الصلاة والسلام هى لك ، فأقبلنا مع خالد بن الوليد نريد الحيرة فلما دخلناها كان أول من تلقانا الشيما بنت بقيلة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة شهباء معتجرة بخمار أسود فتعلقت بها وقلت هذه وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلب منى خالد عليها البينة فأتيته بها فسلمها لى ونزل إلينا أخوها عبد المسيح فقال : أتبيعنيها فقلت :

نعم فقال: احتكم ما شئت فقلت : والله لا أنقصها عن ألف درهم فدفع لى ألف درهم فقيل لى: لو قلت مائة ألف درهم لدفعها لك فقلت : لا أحسب مالا أكثر من ألف درهم ، قال الطبرانى وبلغنى أن الشاهدين كانا محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم إنتهى . وفى أسد الغابة أن اسم الصحابى المذكور حزيم بن أوس الطائى وأن المرأة اسمها الشيما وأن الشاهدين محمد بن مسلمة وعبد الله بن عمرو وقيل محمد بن مسلمة ومحمد بن بشير فمن قال إن الصحابى شويل أو شريك فلعله يلقب بذلك ، وكذلك من قال أن اسم المرأة كرامة فلعله لقب لها لأن القصة واحدة ، وهى من معجزاته صلى الله عليه وسلم وأعلام نبوته ، والحيرة مدينة بأرض الكوفة على ساحل البحر كان بها ملك النعمان بن المنذر وغيره من ملوك العرب عمالا لكسرى ملك الفرس ، والآن لا أثر للمدينة المذكورة ومكان المدينة دجلة .

ذكر فتح ما وراء الحيرة

كان الدهاقون يتربصون بخالد ما يصنع بأهل الحيرة ، فلما صالحهم واستقاموا له جاءته الدهاقين من كل ناحية فصالحوه عما يلى الحيرة من الفلاليج على ألفى ألف وبث السرايا فى الثغور ، وأمرهم بالغارة فمخروا السواد كله إلى شاطىء دجلة ، وكتب إلى ملوك فارس يدعوهم إلى الإسلام أو أداء الجزية وأقام بالحيرة سنة يصوب ويصعد والفرس حائرون فيمن يملكونه لأن ملكهم مات فحصل اضطراب بينهم ، ثم سار خالد إلى الأنبار فحاصرهم وأمر الرماة أن يقصدوا عيونهم فرموا رشقا واحداً ثم تابعوا فأصابوا ألف عين فسميت تلك الواقعة ذات العيون ، فأرسلوا يطلبون الصلح على أمر لم يرضه خالد ، فرد الرسل ونحر من إبل العسكر كل ضعيف وألقاه فى خندقهم ثم عبره ، فاجتمع المسلمون والكفار فى الخندق فبذلوا لخالد ما أراد وعقدوا الصلح معه وألحقهم بمأمنهم ليس معهم شىء غير المتاع ثم صالحه من حول الأنبار وأهل كلواذا .

ذكر فتح عين التمر

ولما فرغ خالد من الأنبار سار إلى عين التمر وبها جمع عظيم من العجم ومعهم جمع من العرب من بنى تغلب وغيرهم ، فقال لهم العرب نحن أعلم بقتال العرب فدعونا وخالداً فقالوا صدقتم فتقدم العرب لقتال خالد فأسر أميرهم ثم قتله وهزمهم وأسر كثيراً منهم فانهزم العجم وتركوا الحصن فتحصن المنهزمون من العرب فنازلهم خالد فطلبوا الأمان فأبى ، فنزلوا على حكمه فأخذهم أسرى ثم قتلهم أجمعين وسبى كل من فى الحصن وغنم ما فيه ووجد فى بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل فأخذهم فقسمهم على أهل البلاد منهم سيرين والد محمد بن سيرين ونصير والد موسى بن نصير وحمران مولى عثمان رضى الله عنه ، وأرسل إلى أبى بكر بالخبر والخمس .

ذكر خبر دومة الجندل

لما فرغ خالد من عين التمر جاء كتاب من عياض بن غنم رضى الله عنه وكان أميراً على جيش لقتال نصارى العرب الذين بدومة الجندل ، فكتب لخالد يستمده على من بإزائه من نصارى العرب ، وكانوا قبائل كثيرة فسار إليه خالد فنزل دومة الجندل وعياض عليها من الجهة الأخرى فقاتلوا نصارى العرب من الجهتين فانهزموا إلى الحصن فحاصروهم وافتتحوا الحصن عنوة وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية ، وأقام خالد بدومة الجندل فطمع الأعاجم بالحيرة وكثرت جموعهم بالحصيد ومعهم كثير من نصارى العرب ، وكان خالد جعل على الحيرة القعقاع بن عمرو ، فقاتلهم بالحصيد وقتل من العجم مقتلة عظيمة وهزمهم وغنم المسلمون غنائم كثيرة ثم اجتمع الأعاجم بمضيخ بنى البرشاء وكثرت جموعهم ، فبلغ الخبر خالدا فكتب إلى القعقاع ومن معه من الأمراء ووعدهم ساعة من ليلة يجتمعون فيها إلى المضيخ وخرج قاصداً إليهم ، فلما كانت تلك الساعة من ليلة الوعد اتفقوا جميعا فأغاروا عليهم وهم نائمون من ثلاثة أوجه فقتلوا كثيراً منهم وكان معهم عبد العزى بن أبى رهم ولبيد بن جرير ، وكانا قد أسلما ومعهما كتاب من أبى بكر رضى الله عنه باسلامهما فقتلا فى المعركة

فوداها أبو بكر وأوصى بأولادهما ، وكان عمر رضى الله عنه ينقد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة على خالد فيقول أبو بكر كذلك يلقى من نازل أهل الشرك .

ذكر وقعة الثنى والزميل

كان ربيعة بن بجير التغلبى بالثنى والزميل وهما شرقى الرصافة ومعه جموع يريد بها قتال خالد رضى الله عنه ، فلما أصاب خالد أهل المضيخ أمر القعقاع والأمراء بالمسير ليغيروا عليهم ، وسار خالد من المضيخ واجتمع بالثنى فبيتوا القوم وأغاروا عليهم من ثلاثة أوجه وجردوا فيهم السيوف فلم يفلت منهم مخبر وغنم وسبى ، ولما انهزم من كانوا بالمضيخ كان فيهم الهذيل بن عمران فالحق بجند لهم كان بالبشر فى عسكر ضخم ، فبيتهم خالد بغارة شعواء وقتل منهم مقتلة عظيمة وقسم الغنائم وبعث الخمس إلى أبى بكر رضى الله عنه ثم سار خالد إلى الرضاب وبها جمع من نصارى العرب فهربوا وتفرقوا لما سمعوا بمسير خالد فوصل إليها خالد ولم يلق كيداً .

ذكر وقعة الفراض

ثم سار خالد من الرضاب إلى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة وأفطر بها رمضان لاتصال الغزوات وحميت الروم واستعانوا بمن يليهم من الفرس فأعانوهم واجتمع معهم من العرب تغلب وإياد والنمر وساروا إلى خالد واقتتلوا بالفراض قتالا عظيما ، وانهزمت الروم ومن معهم ، وأمر خالد المسلمين أن لا يرفعوا عنهم السيف ، فقتل فى المعركة وفى الطلب مائة ألف ، وأقام خالد بالفراض عشراً ثم آذن بالرجوع إلى الحيرة لخمس بقيت من ذى القعدة ، وخرج هو من الفراض حاجا سراً ومعه عدة من أصحابه يعسف البلاد فأتى مكة وحج ورجع ، فما توافى جنده بالحيرة حتى وافاهم ولم يعلم بحجه إلا من أعلمه ولم يعلم بذلك أبو بكر رضى الله عنه إلا بعد رجوعه فعتب عليه فى ذلك وكانت عقوبته إياه أن صرفه إلى الشام من العراق ممداً جموع المسلمين باليرموك وكانت غزواته هذه كلها فى أقل من سنة لأنه توجه إلى العراق فى المحرم سنة اثنتى عشرة كما تقدم . ولنذكر بقية

الكلام على قتال أهل الردة الذى جرى من الأمراء غير خالد بن الوليد ثم نرجع لما كان فى فتوح الشام .

ذكر ردة بنى عامر وهوازن وسليم

كانت بنو عامر تقدم إلى الردة رجلا وتؤخر أخرى وتنظر أمر طليحة وما تصنع بنو أسد وغطفان حتى أحيط بهم وأوقع بهم خالد بن الوليد ، وكان رؤساء بنى عامر قرة بن هبيرة وعلقمة بن علاثة وكان علقمة أسلم ثم ارتد فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ولحق بالشام بعد فتح الطائف ، فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم أقبل مسرعا حتى عسكر فى بنى كعب ، فبلغ ذلك أبا بكر رضى الله عنه فبعث إليه سرية عليها القعقاع بن عمرو فأغار على الماء الذى عليه علقمة وكان لا يبرح إلا مستعداً فسابقهم على فرسه فسبقهم وأسلم أهله وولده فأخذهم القعقاع وقدم بهم على أبى بكر رضى الله عنه فجحدوا أن يكونوا على ما كان علقمة ، ولم يبلغ أبا بكر رضى الله عنه أنهم فارقوا دارهم وقالوا له ماذنبنا فيما صنع علقمة فأرسلهم ثم أسلم علقمة فقبل ذلك منه ، وأقبل بنو عامر بعد هزيمة أهل بزاخة يقولون ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله وأتوا خالد بن الوليد فبايعهم على ما بايع أهل بزاخة وأعطوه أيديهم على الإسلام ولم يقبل من أحد من أسد وغطفان وطىء وسليم وعامر إلا أن يأتوه بالذين حرقوا ومثلوا وعدوا على الإسلام فى حال ردتهم فأتوه بهم فمثل بهم وحرقهم ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال ونكسهم من الآبار، وأرسل إلى أبى بكر رضى الله عنه يعلمه . وأما قرة بن هبيرة فكان قد لقى عمرو بن العاص رضى الله عنه عند منصرفه من عمان بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فقال لعمرو اتركوا الزكاة فإن العرب لا تدين لكم بالاتاوة فغضب عمرو وأسمعه كلاما وأبلغ مقالته أبا بكر رضى الله عنه فكتب إلى خالد بذلك فقبض على قرة بن هبيرة وبعث به إلى أبى بكر فأسلم واعتذر فقبل ذلك منه أبو بكر وحقن دمه . ثم اجتمع قبائل من غطفان وهوازن وطىء وأسد إلى سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر فى الجوأب وبلغ ذلك خالداً بعد فراغه من أهل بزاخة فقاتلهم وسلمى واقفة على جملها حتى عقر وقتلت وقتل حول هودجها

مائة رجل فانهزموا . وأما بنو سليم فكان الفجاء بن عبد ياليل قدم على أبي بكر رضى الله عنه يستعينه مدعياً إسلامه ويضمن له قتال أهل الردة فأعطاه وأمره فخرج إلى الجون وارتد وبعث نجبة بن أبي المثنى من بني الشريد وأمره بشن الغارة على المسلمين فى سليم وهوازن فبعث أبو بكر إلى طريفة بن حاجز وعبدالله بن قيس الحاسي فنهضا إليه ولقياه فقتل نجبة وهرب الفجاء فلحقه طريفة فأسره وجاء به إلى أبي بكر رضى الله عنه فأوقد له فى مصلى المدينة حطبا ثم رمى به فى النار مقموطا ، وفات بنو سليم كلهم ودخلوا فى الإسلام . وكان منهم أبو شجرة بن عبد العزى السلمى وهو ابن الخنساء وكان قد ارتد وقال شعراً منه قوله :

فرويت رمحى من كتيبة خالد   وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

يعنى عمر بن الخطاب ، فلما أسلم قبل أبو بكر رضى الله عنه منه الإسلام ؛ فلما كانت خلافة عمر رضى الله عنه قدم المدينة فرأى عمر يقسم مالا فى المساكين فقال أعطنى فإنى ذو حاجة ، ومن أنت ؟ فقال أبو شجرة بن عبد العزى السلمى . قال أى عدو الله لا والله ألست الذى تقول :

فرويت رمحى من كتيبة خالد   وإنى لأرجو بعدها أن أعمرا

وجعل عمر يعلوه بالدرة على رأسه فسبقه عدواً إلى ناقته فركبها ولحق بقومه وقال أبياتاً منها قوله :

ضن علينا أبو حفص بنائله   وكل مختبط يوما له ورق

ذكر ردة أهل البحرين

كانت عبد القيس وبكر بن وائل وغيرهم من أحياء ربيعة قد ارتدوا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فأما عبد القيس فردهم الجارود بن المعلى إلى الإسلام وكان قد أسلم ووفد على النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما رجع إلى قومه دعاهم إلى الإسلام فأسلموا ، فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم ارتدوا وقالوا : لو كان نبيا ما مات فقال لهم الجارود : تعلمون أن لله أنبياء من قبله ولم تروهم وتعلمون أنهم ماتوا ومحمد صلى الله عليه وسلم قد مات

وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأسلموا وثبتوا على إسلامهم ، واجتمعت ربيعة بالبحرين على الردة إلا الجارود ومن تبعه ، وخرج الحطم بن ضبيعة أخو بنو قيس بن ثعلبة فى بكر بن وائل فاجتمع إليه كثير من المرتدين وكثير ممن لم يزل مشركا حتى نزل القطيف وهجر اسم موضع واستغوى من بهما وبعث بعثا إلى دارين وإلى جوأى فحصر المسلمون واشتد الحصر على من بهما ، فبعث أبو بكر رضى الله عنه العلاء بن الحضرمى رضى الله عنه لقتال أهل الردة بالبحرين ومعه جموع من المسلمين فنزل هجر وبعث إلى الجارود أن ينازل بعبد القيس الحطم بن ضبيعة وخندق العلاء والمسلمون على أنفسهم وقاتلوا المرتدين ، وكانوا يتراجعون القتال ويرجعون إلى خندقهم فكانوا كذلك شهراً ، وسمعوا فى بعض الليالى ضوضاء شديدة أى جلبة وصياحا فى المشركين فبعثوا من يأتيهم بالخبر ، فجاءهم بأن القوم سكارى فبيتوهم ووضعوا السيوف فيهم وفر القوم هرابا واقتحموا الخندق فمن بين متردد وناج ومقتول ومأسور وأبادوا القوم وكفى الله شرهم وقسموا الغنائم ثم ندب العلاء الناس إلى دارين وقال لهم قد أراكم الله من آياته فى البر لتعتبروا بها فى البحر فانهضوا إلى عدوكم واستعرضوا البحر وارتحل وارتحلوا ، وكان بينهم وبين دارين البحر فاقتحموا البحر على الخيل والإبل والحمير وغير ذلك وفيهم الراجل ودعا ودعوا ، وكان من دعائهم يا أرحم الراحمين ، يا كريم يا حليم ، يا أحد ، ياصمد ، يا محيي الموتى ، يا حى يا قيوم ، لا إله إلا أنت ياربنا فاجتازوا ذلك الخليج بإذن الله يمشون على مثل رملة فوقها ما يغمر أخفاف الإبل وبين الساحل ودارين يوم وليلة بسفن البحر فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا ، فظفر المسلمون وانهزم المشركون وأكثر المسلمون فيهم القتل فما تركوا بها مخبرا وغنموا وسبوا ، فلما فرغوا رجعوا حتى عبروا كما جاءوا وضرب الإسلام بجرانه فيها ، وكتب العلاء إلى أبى بكر رضى الله عنه يعرفه هزيمة المرتدين وقتل الحطم بن ضبيعة ، ولما قسمت الغنيمة كان للفارس ستة آلاف وللراجل ألفان وكان مع المسلمين راهب من أهل هجر فأسلم فقيل له ما حملك على الإسلام ؟ قال ثلاثة أشياء : خشيت أن يمسخنى الله بعدها فيض فى الرمال وتمهيد ثبج البحر ودعاء سمعته فى عسكرهم فى الهواء سحراً ، اللهم أنت الرحمن الرحيم ، لا إله غيرك البديع فليس قبلك شىء ، والدائم غير الغافل ، الحى

الذى لايموت ، وخالق مايرى وما لايرى ، وكل يوم أنت فى شأن ، علمت كل شىء بغير معلم ، فعلمت أن القوم لم يعانوا بالملائكة إلا وهم على حق ، فكان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يسمعون هذا منه بعد والعلاء بن الحضرمى صحابى مشهور ، توفى سنة أربع عشرة من الهجرة وكان مجاب الدعوة وأصله من حضرموت ونزل جدة ومكة وكان حليفا لحرب بن أمية وكان له فى هذه الغزوة آثار محمودة وكرامات كثيرة منها أنهم سلكوا مفازة وعطشوا عطشا شديدا حتى خافوا الهلاك ، فنزل العلاء وصلى ركعتين ثم قال: ياحليم ، ياعليم ، ياعلى ، ياعظيم ، اسقنا فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقعت عليهم وأمطرت حتى ملؤا الآنية وسقوا الركاب ، قال الراوى : ثم انطلقا حتى أتيا دارين والبحر بيننا وبينهم ، وفى رواية أتينا على خليج من البحر ما خيض فيه قبل ذلك اليوم فلم نجد سفناً. وكان المرتدون قد أحرقوا السفن فصلى ركعتين ثم قال ياحليم ، يا عليم ، ياعلى ، ياعظيم ، اجزنا ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال : جوزوا باسم الله قال : أبو هريرة وكان معه القوم فمشينا على الماء فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولاحافر ، وكان الجيش أربعة آلاف وقال ابراهيم بن أبى حبيبة حبس لهم البحر حتى خاضوا إليهم وجاوزه العلاء وأصحابه مشيا على أرجلهم وكانت تجرى فيه السفن قبل .

ذكر ردة أهل عمان والمهرة

كان على أهل عمان والمهرة عاملان للنبى صلى الله عليه وسلم جيفر وعياذ ابنا الجلندى ، فلما توفى النبى صلى الله عليه وسلم قام بعمان رجل من الأزد يقال له لقيط ابن مالك الأزدى ، فارتد وادعى النبوة وتغلب على عمان ودفع عنها الملكين ، فبعث جيفر إلى أبى بكر بالخبر ، فبعث أبو بكر رضى الله عنه حذيفة بن محصن الحميرى إلى عمان وعرفجة البارقى إلى المهرة وأمرهما أن يكاتبا جيفراً ويأخذا برأيه وكان قد بعث عكرمة بن أبى جهل إلى اليمامة ومسيلمة ، ووقعت عليه النكبة كما مر فأمره بالمسير إلى حذيفة وعرفجة ليقاتل معهما عمان والمهرة ويتوجه إذا فرغ من ذلك إلى اليمن ، فمضى عكرمة فلحق بهما قبل أن يصلا عمان ، وقد عهد إليهم أبو بكر أن ينتهوا إلى رأى عكرمة فراسلوا جيفرا وعياذا وبلغ لقيطا المتغلب

بمجيء الجيوش فعسكر بمدينة دبا وعسكر جيفر وعياذ بصحار واستقدموا عكرمة وحذيفة وعرفجة ، وكاتبوا رؤساء الذين تقدموا بجيوشهم ، ثم عمدوا إلى لقيط وأصحابه فقاتلوهم وقد أقام لقيط عياله وراء صفوفهم وهم المسلمون بالهزيمة حتى جاءهم مددهم من بنى ناجية وعليهم الحريث بن راشد من بنى عبد القيس وسيحان بن صوحان فانهزم العدو وظفر المسلمون وقتلوا من العدو نحو عشرة آلاف ، وسبوا الذرارى والنساء وتم الفتح وقسموا الغنائم ، وبعثوا بالخمس إلى أبى بكر رضى الله عنه وكان الخمس ثمانمائة رأس، وأقام حذيفة بعمان وسار عكرمة إلى المهرة فهزمهم وقتل رئيسهم وأصابوا منهم ألفى نجيبة وأجاب أهل تلك النواحى إلى الإسلام وبعث إلى أبى بكر رضى الله عنه بالفتح ثم ساروا إلى اليمن .

ذكر ردة أهل اليمن

لما ظهر الأسود العنسى وادعى النبوة قبل وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ارتد كثير من أهل اليمن ثم لما قتل فيروز الديلمى الأسود العنسى رجع كثير منهم إلى الإسلام فلما جاءهم خبر وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ارتد الناس إلا القليل ، وكان أبو بكر رضى الله عنه أقام فيروز الديلمى أميراً على صنعاء فكان يقاتل كل من قدر على قتاله وكان باليمن عمال النبى صلى الله عليه وسلم أقامهم قبل وفاته منهم عمرو بن حزم على نجران للصلاة ومعه أبو سفيان بن حرب على الصدقات وعلى مابين زمع وزبيد ونجران خالد ابن سعيد بن العاص، وعلى همذان كلها عامر بن شهر الهمذانى وعلى الجند يعلى بن أمية وعلى مأرب أبو موسى الأشعرى ، وعلى عك الطاهر بن أبى هالة وعلى حضرموت زياد بن لبيد البياضى وعكاشة ابن ثور الغوثى وعلى كندة المهاجر ابن أبى أمية المخزومى ، وكان معاذ بن جبل يعلم القرآن باليمن ينتقد على هؤلاء وهؤلاء فى أعمالهم ، فلما ارتد الناس رجع عمر بن حزم إلى المدينة وتبعه خالد بن سعيد ، وأما المهاجر بن أبى أمية لما ولاه النبى صلى الله عليه وسلم على كندة مرض ولم يصل إليها ، وأقام زياد بن لبيد ينوب عنه ، وكان أبو بكر رضى الله عنه قد حارب أهل الردة أولا بالكتب والرسل ولم يرسل إلى من ارتد وابتدأ بالمهاجرين

والأنصار ثم استنفر كلا على من يليه حتى فرغ من آجر أمور الناس لايستعين بمرتد ،
فكتب إلى عتاب بن أسيد بمكة وعثمان بن أبي العاص بالطائف بركوب من لم يرتد على
من ارتد وكان قد اجتمع بتهامة أو باش من مدلج وخزاعة فبعث عتاب إليهم ففرقهم
وقتلهم واجتمع بشنوءة جمع من الأزد وخثعم وبجيلة فبعث إليهم عثمان بن أبي العاص من
فرقهم وقتلهم ، واجتمع بطريق الساحل من تهامة جموع من علك والأشعريين فسار إليهم
الطاهر بن أبي هالة ومعه مسروق العكي فهزموهم وقتلوهم وأقام بالأجناد ينتظر أمر أبي
بكر ومعه مسروق العكي وبعث أبو بكر رضى الله عنه إلى نجران وكتب أبو بكر إلى
عثمان بن أبي العاص أن يضرب البعوث على مخاليف أهل الطائف فضرب على كل مخلاف
عشرين وأمر عليهم أخاه عبد الرحمن وكتب إلى عتاب بن أسيد أن يضرب على مكة وعملها
خمسمائة ففعل وأمر عليهم أخاه خالداً بن أسيد وأقاموا ينتظرون أمر أبي بكر رضى الله عنه
فأمر المهاجر بن أبي أمية المخزومي أن يسير إلى اليمن ليصلح من أمره ثم يسير إلى عمله الذي
ولاه النبي صلى الله عليه وسلم وأمره بقتال من بين نجران وأقصى اليمن ففعل ذلك ، ومر
بمكة والطائف فسار معه خالد ابن أسيد وعبد الرحمن بن أبي العاص بمن معهما ومر بجرير بن
عبد الرحمن وعكاشة بن ثور فضمهما إليه وكان عمرو بن معد يكرب وقيس بن مكشوح
ممن ارتد فظفر بهما المهاجر فأوثقهما وبعث بهما إلى أبي بكر فتابا فقبل توبتهما وردهما وصار
المهاجر وقتل كل من ظفر به من المرتدين وقاتل من قاتله وقبل توبة من يتوب إلى أن
وصل إلى صنعاء ، وكتب إلى أبي بكر بدخوله صنعاء فجاء الجواب أن يسير إلى كندة
مع عكرمة بن أبي جهل وقد جاءه من ناحية عمان ومعه خلق كثير من المهرة والأزد وناجية
وعبد القيس وغيرهم فساروا مع المهاجر إلى كندة ، وكتب زياد النائب على كندة إلى
المهاجر يستحثه فلقيه الكتاب بالمغارة بين مأرب وحضرموت فاستخلف عكرمة على
الناس وتعجل إلى زياد وشدوا إلى كندة ، وكان قد ارتد كثير منهم وارتد الأشعث
بن قيس السكسكي ، فجعلوه أميراً عليهم فقاتلهم المهاجر وهزمهم وقتل كثيراً منهم
وفروا إلى البخير حصن لهم فتحصنوا فيه مع من استغووه فحاصروهم وسدوا عليهم
الطريق وقطعوا عنهم المدد ، ولحق عكرمة المهاجر وهم محاصرون القوم ، ثم استأمن

الأشعث إلى عكرمة فخرج إليه فجاء به إلى المهاجر فأمنه فى أهله وماله وتسعة من قومه كانوا خرجوا معه ، فقال لهم المهاجرا كتبوا ماشئتم وهلموا الكتاب حتى أختمه ، واشترطوا على أنفسهم أن يفتحوا لهم باب الحصن ففعلوا ، فاقتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية والنساء فكان فى السبى ألف امرأة ، وكان الأشعث بن قيس لما كتب الصحيفة وختم عليها المهاجر كتب التسعة ونسى أن يكتب نفسه فلما فرغوا من القتل والسبى طلب المهاجر الصحيفة التى كتبوها والتى ختم عليها ، فإذا الأشعث ليس مكتوبا معهم فقال المهاجر : الحمد لله الذى أخطأناك يا أشعب ياعدو الله قد كنت أشتهى أن يخزيك الله وشده كتافا ، فقيل له أخره وسيره إلى أبى بكر فهو أعلم بالحكم فيه فسيره إلى أبى بكر مع السبى ، فكان المسلمون يلعنونه ويلعنه سبايا قومه وسماه نساء قومه عرف النار وهو اسم الغادر عندهم ، فلما قدم المدينة قال له أبو بكر ماترانى أصنع بك قال: لا أعلم قال : فإنى أقتلك قال : فأنا إذا راوضت القوم فى عشرة فمايحل دمى ، قال أبو بكر فأوجب الصلح بعد ختم الصحيفة على من فيها وإنما كنت قبل ذلك مراوضا ، فلما خشى القتل قال أو تحتسب فى خيراً فتطلق الأسارى وتقيلنى عثرتى وتفعل بى مثل مافعلت بأمثالى وترد على زوجتى ، وقد كان خطب أم فروة أخت أبى بكر لما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وأخرها إلى أن يقدم الثانية ، فتوفى النبى صلى الله عليه وسلم وارتد فإن فعلت ذلك تجدنى خير أهل بلادى لدين الله فحقن دمه وزوجه أخته وحسن إسلامه وأقام بالمدينة حتى فتح العراق ، وشهد فتح القادسية واليرموك ، وكان مع على رضى الله عنه فى قتال صفين ، وتوفى بالكوفة سنة اثنين وأربعين من الهجرة وقيل بعد على رضى الله عنه بأربعين يوما وصلى عليه الحسن بن على رضى الله عنهما . قال ابن الأثير قد اختلف فى تاريخ حرب المسلمين هؤلاء المرتدين ، فقال ابن اسحق كان فتح اليمامة واليمن والبحرين وبعث الجنود إلى الشام سنة اثنى عشرة وقال أبو معشر ويزيد بن عياض وأبو عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر ان فتوح الردة كلها لخالد وغيره كان سنة إحدى عشرة وكان مسير خالد إلى العراق فى أوائل سنة اثنتى عشرة إلى ذى القعدة منها وهذا القول هو الذى يدل عليه سياق تلك الوقائع .

ذكر فتوح الشام

لما فرغ أبو بكر رضى الله عنه من أهل الردة واستقامت له العرب حدث نفسه بغزو الروم ولم يطلع عليه أحد فبينما هو كذلك إذ رأى شرحبيل بن حسنة فى المنام صورة غزو الشام و بعث الجند فجاءه شرحبيل وجلس إليه فقال : ياخليفة رسول الله أحدثت نفسك بالغزو ؟ وأنت تبعث إلى الشام جنداً ؛ قال نعم : حدثت نفسى بذلك ولم يطلع عليه أحد وما سألتنى إلا لشىء فأخبره شرحبيل بما رأى فأوله أبا بكر ببعثه جند إلى الشام وفتحها عليهم ، ثم أنه بعد ذلك أمر الأمراء وبعث إلى الشام البعوث ، وعن عبدالله ابن أبى أوفى الخزاعى رضى الله عنه قال : لما أراد أبو بكر رضى الله عنه أن يجهز الجنود إلى الشام دعا عمر وعثمان وعليا وعبدالرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، وشاورهم وكلهم استصوبوا رأى أبى بكر رضى الله عنه ، وقالوا ما رأيت من الرأى فامضه فإنا سامعون لك مطيعون لانخالف أمرك وعلى رضى الله عنه فى القوم لايتكلم فقال له أبو بكر ماذا ترى يا أبا الحسن ؟ فقال : أرى أنك مبارك الأمر ميمون النقيبة فإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت عليهم نصرت إن شاء الله تعالى ، قال بشرك الله بخير ومن أين علمت هذا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يزال هذا الدين ظاهراً على كل من ناوأه حتى تقوم الساعة وأهله ظاهرون » فقال أبو بكر : سبحان الله ما أحسن هذا الحديث لقد سررتنى سرك الله فى الدنيا والآخرة ثم إنه قام فى الناس خطيبا ورغب الناس فى الجهاد ثم أمر بلالا فأذن فى الناس انفروا أيها الناس إلى جهاد عدوكم الروم بالشام ، ثم شرع فى بعث الجيوش وكان ذلك فى افتتاح سنة ثلاث عشرة من الهجرة وقيل فى أول السنة التى قبلها حين بعث خالد بن الوليد إلى العراق وكتب الكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وغيرها فكتب لهم جميعا : بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد عزمت أن أوجهكم إلى ناحية بلاد الشام لتأخذوها من أيدى الكفار والطغاة فمن عول منكم على الجهاد والصدام

فليبادر إلى طاعة الملك العلام، ثم كتب ﴿انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ ثم بعث الكتب إليهم وأقام ينتظر قدومهم وكان الذى بعثه بالكتب التى لليمن أنس بن مالك رضى الله عنه فما مرت الأيام حتى قدم أنس رضى الله عنه يبشره بقدوم أهل اليمن وقال ياخليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد إلا بادر لطاعة الله ورسوله وأجابوا دعوتك وقد تجهزوا فى العدد والعديد والزرد النضيد وقد أقبلت إليك ياخليفة رسول الله مبشراً بقدوم الرجال فسر أبو بكر رضى الله عنه بقوله سرورا عظيما، ثم عقد الألوية وأمر الأمراء وبعثهم إلى الشام أفواجا يتبع بعضهم بعضا كلما اجتمع جماعة أمرهم بالتوجه فمن الأمراء الذين عقد لهم الألوية أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وربيعة بن عامر وشرحبيل بن حسنة وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وغيرهم وجعل كل واحد أميراً على جماعة وأمره بالتوجه إلى الموضع الذى عينه له وجعل أبا عبيدة أميراً على الجميع وكلما توجه أمير يودعه أبو بكر رضى الله عنه ويوصيه . فكان يوصيهم بوصايا كثيرة منها تقوى الله وحسن الصحبة والمواظبة على الصلوات فى أوقاتها جماعة وأن يصلح كل منهم نفسه حتى يصلح الله له الناس وأن يكرموا رسل العدو إذا قدموا إليهم وأن يقللوا لبثهم عندهم حتى يخرجوا من عسكرهم وهم جاهلون لم يطلعوا على شىء من الخلل وأن يمنعوا عسكرهم من محادثتهم وأن يكون الأمير هو المتولى لكلامهم وأن يكثروا الحرس ويفرقوهم فى العسكر وأن يكثروا مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم فمن وجده غفل يعاقب بغير إفراط وأن يعاقب بينهم فى الليل ويجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرهما لقرب الأخيرة من النهار وأن لا يغفلوا عن العسكر فيفسدوا ولا يجسسوا عليهم فيفضحوهم ولا يكشفوا على الناس أسرارهم بل يكتفوا بعلانيتهم، وأن يكثروا من مجالسة أهل الصدق والوفاء وأن يشاوروهم، وأن لا يجبنوا فيجبن الناس وأن يجتنبوا الغلول فإن الغلول يقرب الفقر ويدفع النصر، وقال ستجدون أقواما حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له، إلى غير ذلك مما أوصاهم به . وكان أبو بكر رضى الله عنه يدعو لهم إذا خرجوا، فمن دعائه : اللهم

احفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم واحطط أوزارهم وأعظم أجورهم ، ولما بلغ هرقل مسير جيوش المسلمين حشد جيوشه وكان بفلسطين لحث الناس وحرضهم على القتال عن دينهم وبلادهم ثم أتى دمشق ففعل مثل ذلك ثم أتى حمص ففعل مثل ذلك ثم أتى أنطاكية فأقام بها وبعث إلى الروم فحشدهم فجاء منهم مالا يحصى ، ولما دنا أبو عبيدة من الجابية أتاه آت فأخبره أن هرقل بأنطاكية وأنه جمع من الجموع مالم يجمعه أحد كان قبله من آبائه فكتب إلى أبي بكر رضى الله عنه بذلك فجاءه الجواب بعده بالنصر ثقة بوعد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر له أنه ممد له بالرجال ثم أمدهم بجند مع هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص وسعيد بن عامر وبجند مع معاوية مدداً لأخيه يزيد وكان الناس أقبلوا من كل جهة يريدون الجهاد فكان أبو بكر رضى الله عنه كلما اجتمع أناس بعثهم مدداً لمن سبقهم .

ذكر أول وقعة بالشام

أول وقعة بالشام كانت بالعربة من أرض فلسطين خرج ستة قواد من الروم مع كل قائد خمسمائة فكانوا ثلاثة آلاف فبعث إليهم يزيد بن أبي سفيان أبا أمامة الباهلي في خمسمائة فحملوا عليهم وهزموهم وقتلوا كثيراً منهم وقائداً من قوادهم فاجتمع كثير من الروم بالدائنة فساروا إليهم فهزموهم وزحفت جيوش المسلمين حتى قربوا من الشام فعند ذلك فزع الروم وأرسلوا إلى ملكهم فأمدهم بجموع كثيرة نحو تسعين ألفا ، فنزلوا بثنية جلق بأعلى فلسطين وعليهم أخو هرقل شقيقه ونزل هرقل بحمص وكان في جهة فلسطين عمرو بن العاص بمن معه من المسلمين وبعث هرقل ستين ألفا نحو أبي عبيدة بالجابية وبعث جيشا قريبا من ذلك نحو يزيد بن أبي سفيان وكان نازلا بالبلقاء وجيشا نحو شرحبيل بن حسنة ، وكان نازلا ببصرى فرأى المسلمون أن الاجتماع أليق بهم من التفرق فاجتمعوا باليرموك وهو واد بناحية الشام وجاء الروم أيضا واجتمعوا باليرموك وصار الوادي خندقا لهم وأقام الجميع شهر صفر وشهرى ربيع لايقدرون منهم على شيء من الوادي والخندق ، ولا يخرج الروم خرجة إلا أخذهم المسلمون وأديلوا عليهم فكانت بينهم

وقعات ومناوشات فى تلك المدة ولما رأى المسلمون مطاولة الروم استمدوا أبا بكر رضى الله عنه فكتب إلى خالد بن الوليد وهو بالعراق يأمره بالمسير إليهم وأن يأخذ نصف الناس الذين عنده ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيبانى فسار خالد من العراق فى تسعة آلاف ، وقيل ستة وأغار فى طريقه على كثير من المشركين وأخذهم وناله مشقة كثيرة فى مسيره هذا ، وسار فى مفاوز ليس فيهاماء فأمر صاحب كل جماعة أن يعطشوا بعض الإبل المسنة ثم يسقوها المـاء عللا بعد نهل والعلل الشربة الثانية والنهل الأولى ، ثم يصروا آذان الإبل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ، ثم ساروا يوما وليلة وشقوا بطون عشرة من الإبل فمزجوا مافى كرشها من الماء بما كان من الألبان وسقوا ذلك للخيل ففعلوا ذلك أربعة أيام ولما وصل ثنية العقاب وهى من أرض الشام ناشراً رايته وهى راية سوداء كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب أغار على غسان وهم من نصارى العرب الذين بالشام فضجهم وقتل وسبى وأرسل سرية إلى كنيسة بالغوطة فقتلوا الرجال وسبوا النساء وساقوا العيال إلى خالد ثم سار حتى وصل إلى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم ثم صالحهم ، فكانت بصرى أول مدينة فتحت بالشام على يد خالد وأهل العراق ، وقيل إن فتح بصرى كان بعد اليرموك ثم سار خالد فطلع على المسلمين فى ربيع الآخر ، وكان أبو بكر رضى الله عنه كتب لخالد أن يسير من العراق إلى الشام ويلتى أبا عبيدة ومن معه من المسلمين فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام فكتب خالد كتاباً لأبى عبيدة وأرسله مع عمرو بن الطفيل الأزدى وفيه ، أما بعد : فإنى أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف والعصمة فى دار الدنيا من كل سوء ، وقد أتانى كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى بالمسير إلى الشام وبالقيام على جندها والتولى لأمرها والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته فأنت على حالك التى عليه لانعصيك ولا نخالفك ولا نقطع دونك أمراً فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك تمم الله بنا وبك من إحسان ورحمنا وإياك من صلى النار والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فلما قرأ أبو عبيدة كتاب خالد قال بارك الله لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رأى وحيا الله خالداً وكان أبو بكر رضى الله عنه كتب لأبى عبيدة رضى الله عنه أما بعد فإنى قد وليت خالداً

قتال العدو بالشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فإنى لم أبعثه عليك أن لا تكون عندى خيراً منه ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك أراد الله بنا وبك خيراً والسلام .

ذكر وقعة اليرموك

لما وصل خالد بن الوليد وتكامل جمع المسلمين باليرموك وكانوا تسعة وثلاثين ألفاً سوى ستة آلاف مع عكرمة بن أبى جهل ، وقيل كانوا ستة وثلاثين ألفاً سوى من كان مع عكرمة فيكونون جميعاً أربعين ألفاً ، وكان فيهم ألف صحابى منهم نحو مائة ممن شهد بدراً وكان الروم فى مائتى ألف وأربعين مقاتل منهم ثمانون ألفا مقيداً وأربعون ألفا مسلسلا للموت وأربعون ألفا مربوطا بالعمائم لئلا يفروا وثمانون ألفا راجلا، وكان قتال المسلمين لهم على التساند كل أمير على أصحابه لم يجمعهم أحد حتى قدم خالد من العراق ، وكان القسيسون والرهبان يحرضون الروم شهراً ثم خرجوا إلى القتال الذى لم يكن بعده قتال فى جمادى الآخرة ، فلما أحس المسلمون بخروجهم أرادوا الخروج متساندين كما كانوا قبل ذلك فمنعهم خالد وسار فيهم فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال إن هذا يوم من أيام الله لاينبغى فيه الفخر ولا البغى اخلصوا فيه جهادكم وارضوا الله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبية وأنتم متساندون فإن ذلك لايحل ولا ينبغى وإن من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترونه رأياً . قالوا : هات فما الرأى قال : إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر ولو علم بالذى كان لما جمعكم إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا قد فرقت بينكم فالله الله فقد أفرد كل رجل منكم ببلد لاتنقصه منه إن دان من الأمراء ولا يزيد عليه أن دانو له أن تأمير بعضكم لاينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا وإن هذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعده فهلموا فلنتناول الإمارة ، فليكن بعضنا اليوم والآخر غدا والآخر بعد غد حتى تتآمروا كلكم ودعونى أتأمر

اليوم فأمروه وهم يرون أنها كخرجاتهم ، فخرجت الروم فى تعبية لم ير الراؤن مثلها قط. وخرج خالد فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك فخرج فى ستة وثلاثين كردوسا فجعل القلب كراديس ، وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبى سفيان وجعل القعقاع بن عمرو على كردوس وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان وكان القاضى أبا الدرداء والعاص أبا سفيان بن حرب وعلى الطلايع قباث بن أشيم وعلى الأقباض عبد الله بن مسعود ، وقال رجل لخالد ما أكثر الروم وأقل المسلمين فقال خالد ما أكثر المسلمين وأقل الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان والله لوددت أن الأشقر يعنى فرسه براء من توجيه وانهم أضعفوا فى العدد ، وكان فرسه قد حفى فى مسيره ، فأمر خالد عكرمة ابن أبى جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال والتحم الناس وتطارد الفرسان وتقاتلوا ، فإذا هم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة واسمه محمية بن زنيم فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وامداد مع أنه إنما جاء بخبر وفاة أبى بكر رضى الله عنه واستخلاف عمر بن الخطاب وعزل خالد وولاية أبى عبيدة فبلغه خالدا وأبا عبيدة سرا ، وبينماهم كذلك إذ خرج فارس من فرسان الروم يقال له جرجة إلى بين الصفين وطلب خالدا فخرج إليه وأمن كل منهما صاحبه فقال جرجة يا خالد أخبرنى وأصدقنى ولا تكذبنى فإن الحرب لايكذب ولا تخادعنى فإن الكريم لايخادع المسترسل هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم ، قال : لا . قال : ففيم سميت سيف الله فقال: إن الله بعث فينا نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فكنت فيمن كذبه وقاتله ثم إن الله هدانى فتابعته فقال : أنت سيف الله سله الله على المشركين ودعا لى بالنصر قال : فأخبرنى إلى ما تدعو قال : خالد إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب قال: فما منزلة الذى يجيبكم ويدخل فيكم قال : منزلتنا واحدة. قال : فهل له مثلكم من الأجر والذخر قال : نعم وأفضل لأننا اتبعنا نبينا وهو حى يخبرنا بالغيب ونرى منه العجائب والآيات وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ماسمعنا أن يسلم وأنتم لم تروا مثلنا ولم تسمعوا مثلنا ، فمن دخل معكم بنية وصدق كان أفضل منا فقلب جرجة

فرسه وسار مع خالد . وأسلم وعلمه الإسلام واغتسل وصلى ركعتين ثم خرج مع خالد فقاتل الروم وحملت الروم حملة أزالوا المسلمين عن مواقفهم إلى المحامية وعليهم عكرمة بن أبى جهل وعمه الحرث بن هشام رضى الله عنهما فقال عكرمة قاتلت مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أفر اليوم ثم نادى من يبايع على الموت فبايعه عمه الحرث بن هشام وضرار بن الأزور فى أربعة من وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدام فسطاط خالد حتى أثخنوا جميعا جراحا فمنهم من برىء ومنهم من مات وقاتل خالد وجرجة قتالا شديداً فقتل جرجة عند آخر النهار وصلى الناس الظهر والعصر ايماء وتضعضع الروم ، وحمل خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم فرسانهم وتركوا الرجالة ولما رأى المسلمون خيل الروم قد توجهت للهرب أفرجوا لها فتفرقت وقتل الرجالة واقتحموا فى خندقهم فاقتحموه عليهم وهوى فيه المقترنون وغيرهم ثمانون ألفاً من المقترنين وأربعون ألف مطلق سوى من قتل فى المعركة وتجلل الفيقار وجماعة من أشراف الروم برانيسهم وجلسوا فقتلوا متزملين ودخل خالد الخندق ، ثم نزل فى خيمة تذارق أخى هرقل ، فلما أصبحوا أتى خالد لعكرمة بن أبى جهل جريحاً فوضع رأسه على فخذه وبعمر بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه ومسح وجوههما وقطر فى حلوقهما الماء وكان مع المسلمين كثير من النساء فقاتلن فى ذلك اليوم قتالا كثيراً وفى السيرة الحلبية ، وكان أبو سفيان بن حرب فى ذلك اليوم يقاتل ويحرض المسلمين على القتال ويقول الله الله عباد الله انصروا دين الله ينصركم الله وأصيبت إحدى عينيه فى ذلك اليوم فصار أعمى لأنه أصيبت عينه الأخرى فى غزوة الطائف فجاء بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم وسأله أن يدعو الله ويردها له فقال له إن شئت دعوت الله وإن شئت خيراً منها فى الجنة ، فرمى بها وقال خيراً منها فى الجنة قال أنس بن مالك رضى الله عنه رأيته فى خلافة عثمان رضى الله عنه وهو أعمى يقوده قائد فيدخل به على عثمان رضى الله عنه ولما انهزمت الروم كان هرقل بحمص فنادى بالرحيل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين وأمر عليها أميراً كما أمر على دمشق وكان من أصيب من المسلمين ثلاثة آلاف منهم عكرمة وابنه عمرو وعمه الحارث بن هشام وسلمة بن هشام وعمرو بن سعيد وأبان بن سعيد والطفيل عمرو بن طليب بن عمير وهشام بن العاص أخو عمرو بن العاص وعياش بن أبى ربيعة

وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدى السهمى ونعيم بن النحام والنضير بن الحارث العبدرى أخو النضر بن الحارث الذى قتل كافراً يوم بدر وأبو الروم بن عمير العبدرى أخو مصعب بن عمير ، وقيل قتلوا يوم أجنادين أخرج ابن عساكر عن الزهرى أن عكرمة ابن أبى جهل رضى الله عنه كان يوم اليرموك أعظم الناس بلاء . وإنه كان يركب الأسنة ويقاتل قتالا شديداً حتى جرحت الأسنة صدره ووجهه فقالوا له اتق الله وارفق بنفسك ، فقال كنت أنا وأبى من أشد الناس على النبى صلى الله عليه وسلم وكنت أقاتل عن اللات والعزى فأبذل نفسى لها فكيف استبقيها الآن عن الله ورسوله لا والله أبداً ، قال فلم يزداد إلا إقداما حتى مات يومئذ ووجدوا به بضعا وسبعين ما بين ضربة وطعنة ورمية وأخرج ابن المبارك والبيهقى أن عكرمة بن أبى جهل ترجل يوم كذا يقاتل فقال خالد بن الوليد لا تفعل فإن قتلك على المؤمنين شديد ، فقال خل عنى ياخالد فإنه قد كان لك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابقة وإنى وأبى كنا من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى وقاتل حتى قتل ، وكان عكرمة يعظم القرآن غاية التعظيم وذكر الإمام الغزالى فى كتاب آداب تلاوة القرآن من إحياء علوم الدين أن عكرمة المذكور كان إذا نشر المصحف غشى عليه ، ويقول هو كلام ربى هو كلام ربى وروى أبو نعيم وابن منده وابن عبدالبر عن حبيب بن أبى ثابت أن الحارث ابن هشام وابن أخيه عكرمة بن أبى جهل وعياش ابن أبى ربيعة أخا الحارث ابن هشام لأمه جرحوا يوم اليرموك ، فلما أثبتوا دعى للحارث ابن هشام بماء ليشربه فنظر إليه عكرمة فقال ادفعه إلى عكرمة ، فلما أخذه عكرمة نظر عياش فقال ادفعه إلى عياش ، فما وصل إلى عياش حتى مات ولا وصل إلى واحد منهم حتى مات رضى الله عنهم وهذا شأنهم كلهم فى هذا الإيثار . ومما يدل على ذلك أن مثل هذه القصة بعينها قد تكررت من كثير منهم ، فقد روى ابن المبارك عن أبى جهم حذيفة العدوى ، قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شنة من ماء وإناء ، فقلت إن كان به رمق سقيته من الماء ومسحت به وجهه فإذا أنا به ينشغ فقلت أسقيك فأشار أى نعم فإذا رجل يقول آه فأشار ابن عمى أن انطلق إليه فإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، فأتيته فقلت أسقيك فسمع آخر يقول آه ، فأشار هشام

أن انطلق إليه فجئت فإذا هو قد مات فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات ، فأتيت ابن عمى فإذا هو قد مات رحمهم الله تعالى ورضى عنهم ، وهذا الذى ذكرناه فى وقعة اليرموك هو أصح الأقوال وكذا كونها فى سنة ثلاث عشرة هو أصح الأقوال ، وأنها قبل فتح الشام وقيل بعد وقعة اجنادين ، وبعد فتح الشام ، وإن واقعة اليرموك واجنادين كانتا سنة خمس عشرة ، وقيل فى وقعة اليرموك أو جيش الروم كان ستمائة ألف وقيل ألف ألف ، وكان مع الروم من العرب المتنصرة ستون ألفا من غسان ولخم وجذام أن القتال كان بين المسلمين ومتنصرة العرب، فلما هزموا زحف الروم بجيوشهم ودام الحرب أياما كثيرة إلى أن تمت الهزيمة على الروم ، وكان القتلى من الروم لا يحصى عددهم، وقيل كانوا مائة ألف وخمسة آلاف والأسرى كانوا أربعين ألفاً وأن قتلى المسلمين أربعة آلاف ، ولما قسمت الغنائم أصاب الفارس أربعة وعشرون ألف مثقال من الذهب الأحمر والراجل ثمانية آلاف وكذلك من الفضة واتبع خالد بن الوليد المنهزمين من الروم إلى قرب دمشق الشام ومعه كثير من المسلمين يقتلون ويأسرون فيهم وكانت وقعة اليرموك من أعظم وقائع الإسلام ومن المعجزات الدالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر وقعة أجنادين

الأكثرون على أنها بعد اليرموك وقيل أنها كانت قبل اليرموك وحاصلها أن الروم اجتمع كثير من جنودهم ، قيل أنهم كانوا تسعين ألفا بأجنادين فسار لهم جيوش المسلمين ونازلوهم ، وكان على الروم تذارق أخو هرقل لأبويه وقيل كان على الروم القيقلان وأجنادين يروى بكسر الدال وفتحها بين الرملة وبيت جرين من أرض فلسطين ، ولما نزلت الروم بأجنادين واجتمعت المسلمون وعسكروا . عليهم ، بعث القيقلان رجلا عربيا إلى المسلمين يأتيه بخبرهم فدخل فيهم وأقام يوما وليلة ، ثم عاد إليه فقال ما وراءك قال وجدت قوما رهبانا بالليل وفرسانا بالنهار ولو سرق ابن ملكهم قطعوه ولو زنى رجموه لإقامة الحق فيهم فقال إن كنت صدقتنى لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها ثم انتشب القتال بين المسلمين والروم ، وكان قتالا شديداً قتل فيه من المشركين فى المعركة

ثلاثة آلاف وقيل إن قتلاهم بلغوا خمسين ألفا وقتلى المسلمين أربعمائة وخمسة وسبعين وأتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون ، ثم تحصن المنهزمون منهم فى المدائن العظام كدمشق وحمص وايلياء وقيسارية واستشهد رجال من المسلمين منهم الفضل بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه وضرار بن الخطاب الفهرى وآخرون رحمهم الله ورضى عنهم وقتل تذارق أخو هرقل فى وقعة أجنادين وقيل فى وقعة اليرموك .

ذكر فتح دمشق

لما انهزم الروم جاء الخبر لأبى عبيدة أنهم اجتمع لهم جيش بفحل بكسر الفاء وهو موضع بناحية الشام وأتاه الخبر أيضاً بأن أهل دمشق جاءهم مدد من حمص فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك ، فجاءه الجواب يأمره فيه بأن يبدأ بدمشق فإنها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل أهل فحل بخيل تكون بازائهم وإذا فتح دمشق سار إلى فحل ، فإذا فتحت سار هو وخالد إلى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمرو ابن العاص بالأردن وفلسطين ، فامتثل أبو عبيدة أمر عمر رضى الله عنه ، فأرسل إلى فحل طائفة من المسلمين فنزلوا قريبا منها وبثق الروم الماء حول فحل فوحلت الأرض ، فنزل عليهم المسلمون ، فكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق وفلسطين وبعث أبو عبيدة جنداً فنزلوا بين حمص ودمشق ، وأرسل جنداً آخر فكانوا بين دمشق وفلسطين وسار أبو عبيدة وخالد ، فقدموا على دمشق وعلى فسطاس ، فنزل أبو عبيدة على ناحية وخالد على ناحية وعمرو بن العاص على ناحية ويزيد بن أبى سفيان على ناحية فحصرهم المسلمون سبعون ليلة حصاراً شديداً ، وقاتلوهم بالزحف والمجانيق ، وجاءت خيول من هرقل مغيثة دمشق فمنعتها خيول المسلمين التى عند حمص فخذل أهل دمشق وطمع فيهم المسلمين ، واتخذ خالد بن الوليد حبالا كهيئة السلالم وأدهاقا ، والدهق الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان فلما أمسى ذلك اليوم نهض هو ومن معه من جنده الذين قدم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور ، وأثبتوا الحبال بالشرف ، وكان ذلك الموضع أحصن موضع بدمشق وأكثره ماء فصعد المسلمون ثم

تحدر خالد وأصحابه وترك بذلك الموضع من يحميه وأمرهم بالتكبير فكبروا فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال وانتهى خالد إلى من يليه فقتلهم وقصد الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لايدرون ما الحال وتشاغل أهل كل ناحية بما يليهم وفتح خالد الباب وقتل من عنده من الروم ، فلما رأى الروم ذلك قصدوا الجهة الأخرى التى فيها أبو عبيدة ، وقصدوا أبا عبيدة وبذلوا الصلح فقبل منهم وفتحوا له الباب الذى من جهته وقالوا له ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ولم يعلم أبو عبيدة بما صنع خالد ، ودخل أهل كل باب بصلح مما يليهم غير الباب الذى دخل منه أصحاب خالد ، ودخل خالد عنوة فالتقى خالد وأبو عبيدة فى وسط المدينة هذا قتلا ونهبا وهذا صفحا وتسكينا ، فأمر أبو عبيدة خالدا أن يكف وقال إنى صالحت القوم ، فقال خالد إنى دخلتها عنوة فتنازعا فى ذلك ثم أجروا ناحية خالد مجرى الصلح ، وكان صلحهم على المقاسمة وقسموا معهم للجنود التى عند فحل وعند حمص وغيرهم ممن هو ردء للمسلمين هذا هو الصحيح فى كيفية دخول خالد وأبى عبيدة وقيل إن خالدا ومن معه نقبوا جانباً من السور ودخلوا منه ويمكن أن جماعة منهم دخلوا بالحبال التى صنعها وجماعة آخرون نقبوا جانباً من السور ، وأما أبو عبيدة وبقية الأمراء فإنهم دخلوا بالصلح الذى عقد مع أبى عبيدة وقد تقدم أن خبر وفاة أبى بكر واستخلاف عمر وعزل خالد وتولية أبى عبيدة جاءهم وهم فى قتال اليرموك سنة ثلاث عشرة وفتح دمشق كان فى رجب سنة أربع عشرة فى خلافة عمر رضى الله عنه ، وقيل إنما جاءهم خبر وفاة أبى بكر بعد فتح دمشق سنة ثلاث عشرة وأن وفاة أبى بكر رضى الله عنه كان فى الليلة التى دخلوا فيها دمشق وكان ذلك لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة والقائلون بأن خبر وفاته إنما جاء بعد فتح دمشق هم القائلون بأن وقعة اليرموك كانت بعد فتح دمشق وإنها سنة خمس عشرة والقول الأول أصح وإنما عزل عمر رضى الله عنه خالداً لأنه كان ينقم عليه قتل مالك بن نويرة ، وقال أيضاً إن خالداً فيه تبذير للمال يعطى الشاعر إذا مدحه ويعطى للمجاهد والفارس بين يديه فوق ما يستحق ولا يبقى لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئاً ، وكان ذلك اجتهاداً من عمر وما وقع من خالد كان أيضاً

باجتهاد وكل منهما مأجور ولا يريد إلا الحق ولما جاء أمر عمر رضى الله عنه بعزله امتثل أمره ، ومازال أبو عبيدة يستشيره ولا يعمل إلا برأيه ومشورته وكان كل منهما يعرف قدر صاحبه وماخص به من الفضائل رضى الله عنهم ولما فتحت دمشق ، وأرسل أبو عبيدة لعمر رضى الله عنهما بالفتح فكان لعمر وأهل المدينة سرور كثير عند ورود خبر الفتح ، وكتب له عمر أن يرسل الجند الذين جاؤا من العراق مع خالد ، فأرسلهم إلى العراق ، وأمر عليهم هاشم بن عتبة ابن أبى وقاص وبقى خالد مع أبى عبيدة وسيأتى إن شاء الله الكلام على بقية فتوحات العراق .

ذكر غزوة فحل

بكسر الفاء وبالحاء المهملة ، لما فتحت دمشق سار أبو عبيدة إلى فحل واستخلف على دمشق يزيد بن أبى سفيان وبعث خالداً على المقدمة وعلى الناس شرحبيل ابن حسنة وكان على المجنبتين أبو عبيدة وعمرو بن العاص وعلى الخيل ضرار بن الأزور وعلى الرجالة عياض بن غنم ، وتقدم أن الروم بثقوا الماء حول فحل فوحلت الأرض ، فنازل المسلمون أهل فحل وبينهم وبين الروم تلك المياه والأوحال وكتب المسلمون إلى عمر رضى الله عنه ، وأقاموا ينتظرون الجواب فاغترهم الروم فخرجوا عليهم وكان على الروم سقلار بن المخارق فأتوهم والمسلمون حذرون ، وكان شرحبيل بن حسنة لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبية فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد القتال ليلتهم ويومهم ، وأظلم الليل عليهم فانهزم الروم وهم حيارى ، وقد أصيب رئيسهم سقلار والذى يليه نسطوس ، وظفر المسلمين بهم وركبوهم ولم تعرف الروم مأخذهم فانتهت بهم الهزيمة إلى الوحل فركبوه ولحقهم المسلمون فأخذوهم بحيث أنهم صاروا لا يمنعون يد لامس فزحزحوهم بالرماح ، فكانت الهزيمة بفحل والقتل بالردع فأصيب الروم وهم ثمانون ألفا لم يفلت منهم إلا الشريد ، وقد كان الله يصنع بالمسلمين خيراً وهم كارهون كرهوا البثوق والوحل فكانت عونا لهم على عدوهم وغنموا أموالهم واقتسموها ، ثم سار أبو عبيدة وخالد ومن معهما إلى حمص وسيأتى ذكر ذلك .

ذكر فتح بلاد ساحل دمشق

لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن سفيان على دمشق وسار إلى فحل بعث يزيد دحية الكلبي إلى تدمر وأبا الأزاهر القشيرى إلى حوران ، فصالحوا لهما ووليا عليهما ، وسار يزيد إلى مدينة صيدا وعرقة وجبيل وبيروت ، وهى سواحل دمشق على مقدمة أخوه معاوية ، ففتحها فتحا يسيراً وجلا كثيراً من أهلها وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه فى ولاية أخيه يزيد ، ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر وأول ولاية عثمان ، فقصدهم معاوية ففتحها ثم رمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع ، ولما ولى عثمان الخلافة جمع لمعاوية الشام كله فوجه معاوية سفيان بن تجيب الأزدى إلى طرابلس، وهى ثلاث مدن مجتمعة ثم بنى فى مرج على أميال منها حصناً يسمى حصن سفيان فقطع المادة عن أهلها من البر والبحر وحاصرهم ، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا فى أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدهم أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى الروم ، فوجه إليهم بمراكب كثيرة وركبوا فيها ليلا وهربوا ، فلما أصبح سفيان وكان يبيت هو والمسلمون فى حصنه ثم يغدوا على العدو فوجد الحصن خاليا فدخله وكتب بالفتح إلى معاويه فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود وهو الذى فيه الميناء اليوم ثم بناه عبدالملك ابن مروان وحصنه ، ثم نقض أهله أيام عبد الملك ففتحه ابنه الوليد فى زمانه .

ذكر فتح بيسان وطبرية

لما قصد أبو عبيدة حمص من فحل أرسل شرحبيل بن حسنة ومن معه إلى بيسان فقاتلوا أهلها فقتلوا منهم خلقا كثيراً ثم صالحه من بقى مثل صلح دمشق فقبل ذلك منهم ، وكان أبو عبيدة قد بعث أبا الأعور السلمى إلى طبرية يحاصرهم فصالحه أهلها على مثل صلح دمشق أيضا وأن يشاطروا المسلمين المنازل ، فنزلها القواد وخيولها وكتبوا بالفتح إلى عمر رضى الله عنه : ولقرب الزمن فى تلك الغزوات وقرب بعضها من بعض اختلفوا فى تقدم بعضها على بعض والأمر فى ذلك سهل .

ذكر الوقعة بمرج الروم

لما سار أبو عبيدة وخالد ومن معهما من فحل قاصدين حمص بلغ الخبر هرقل فبعث جيشا عليهم توزر البطريق فنزل بمرج الروم غربى دمشق ، ونزل أبو عبيدة أيضا بمرج الروم ونازله يوم نزوله شنش الرومى فى مثل جيش توزر مدداً لتوزروعونا لأهل حمص، فلما نزل أصبحت الأرض من توزر بلاقع وكان خالد بإزائه وأبو عبيدة بإزاء شنش وسار توزر يطلب دمشق ، فلما علم خالد بمسيرة سار خلفه فى جمع ممن معه وبلغ يزيد بن أبى سفيان فعل توزر فخرج من دمشق واستقبله فاقتتلوا فلحقهم خالد ولم يفلت منهم إلا الشريد ، وغنم المسلمون ما معهم فقسمه يزيد فى أصحابه وأصحاب خالد ، وعاد يزيد إلى دمشق ورجع خالد إلى أبى عبيدة ، وقد قتل توزر وقاتل أبوعبيدة شنش فاقتتلوا بمرج الروم فقتلت الروم مقتلة عظيمة وقتل شنش وتبعهم المسلمون إلى حمص ، فلما بلغ هرقل ذلك أمر بطريق حمص بالمسير إليها وكان عنده وسار هو إلى الرها وسار أبو عبيدة إلى حمص .

ذكر فتح حمص وبعلبك وغيرهما

لما فرغ أمر مرج الروم سار أبو عبيدة والمسلمون إلى حمص فنازلوها وقاتلوا أهلها فكانوا يغادونهم القتال ويراوحونهم فى كل يوم بارد ولقى المسلمون برداً شديداً ولقى الروم حصاراً طويلا فصبر المسلمون والروم ، وكان هرقل قد أرسل إلى حمص يعدهم المدد وأمر أهل الجزيرة جميعها التجهز إلى حمص فثاروا نحو الشام ليمنعوا حمص عن المسلمين فسير سعد بن أبى وقاص من العراق السرايا إلى هيت وحصروها ، وسار بعضهم إلى قرقيسا فتفرق أهل الجزيرة وعادوا عن نجدة أهل حمص فكان أهلها يقولون تمسكوا بمدينتكم فإنهم حفاة فإذا أصابهم البرد تقطعت أقدامهم فكانت أقدام الروم تسقط ولا يسقط للمسلمين أصبع ، فلما خرج الشتاء قام شيخ من الروم فدعاهم إلى مصالحة المسلمين فلم يجيبوه وقام آخر فلم يجيبوه ، فناجزهم المسلمون فكبروا تكبيرة فانهدم كثير من

دور حمص وزلزلت حيطانهم فتصدعت فكبروا ثانية فأصابهم أعظم من ذلك فخرج أهلها إليهم يطلبون الصلح ، ولا يعلم المسلمون بما حدث فيهم فأجابوهم وصالحوهم على مثال صلح دمشق ، وأنزلها أبو عبيدة السمط بن الأسود الكندى فى بنى معاوية والأشعث ابن ميناس فى السكون والمقداد فى بلى وأنزلها غيرهم أيضا ، وبعث بالأخماس إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه مع عبدالله بن مسعود وكتب عمر إلى أبى عبيدة أن أقم بمدينتك وادع أهل القوة من عرب الشام ، فإنى غير تارك البعثة إليك ثم استخلف أبو عبيدة على حمص عبادة بن الصامت وسار إلى حماه فتلقاه أهلها مذعنين فصالحهم أبو عبيدة على الجزية لرؤسهم والخراج على أرضهم ومضى نحو شيزر ، فخرج إليه أهلها يسألونه الصلح على ما صالح عليه أهل حماة فصالحهم وصار إلى معرة حمص وهى معرة النعمان نسبت معرة إلى النعمان بن بشير الأنصارى فأذعنوا له بالصلح على ماصالح عليه أهل حمص ، ثم أتى اللاذقية فقاتله أهلها وكان لها باب عظيم يفتحه جمع من الناس فعسكر المسلمون على بعد منها ، ثم أمر فحفر حفائر عظيمة يستر الحفرة منها الفارس راكبا ثم أظهروا أنهم عابرون عنها ورحلوا ، فلما جنهم الليل عادوا واستتروا فى تلك الحفائر وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون المسلمين قد انصرفوا عنهم فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة وملكت عنوة وهرب قوم من النصارى ، ثم طلبوا الأمان على أن يرجعوا إلى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا وتركت لهم كنيستهم ، وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بناه عبادة ابن الصامت ثم وسع فيه بعد ، ولما فتح المسلمون اللاذقية جلا أهل جبلة من الروم عنها فلما كان زمن معاوية بنى حصنا خارج الحصن الرومى وشحنه بالرجال وفتح المسلمون مع عبادة بن الصامت طرسوس ، وكان حصنا فجلا عنه أهله فبنى معاوية مدينة طرسوس ومصرها وأقطع بها القطائع للمقاتلة وكذلك فعل ببانياس وفتح سلمية أيضا .

ذكر فتح قنسرين ودخول هرقل القسطنطينية

ثم أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين ، فلما نزل الحاضر زحف إليهم الروم وعليهم ميناس وكان من أعظم الروم بعد هرقل فاقتتلوا وقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها فماتوا على دم واحد ، وسار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصنوا منه ، فقال المسلمون لهم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا فنظروا فى أمرهم ورأوا ما لقى أهل حمص ، فصالحوهم على مثل صلح حمص ، فأبى خالد إلا على خراب المدينة فأخربها فعند ذلك هرقل القسطنطينية ، وسببه أن خالداً وعياضاً أدربا إلى هرقل من الشام وأدرب عمرو بن مالك من الكوفة فخرج من ناحية قرقيسا وأدرب عبد الله ابن المعتمر من ناحية الموصل ، ثم راجعوا ، فعندها دخل هرقل القسطنطينية فبلغ عمر صنيع خالد قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى وقد كان عزله والمثنى ابن حارثة ، وقال إنى لم أعزلهما عن ريبة ، ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما ، ولما سار هرقل إلى القسطنطينية خرج من الرها فنزل بشمشاط ثم أدرب منها إلى القسطنطينية فلما أراد المسير من شمشاط علا على نشز ، ثم التفت إلى الشام فقال السلام عليك ياسوريا سلام لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومى أبدا إلا خائفا حتى يولد المولود المشئوم ويا ليته لم يولد فما أحلى فعله وأمر فتنته على الروم ، ثم سار فدخل القسطنطينية وأخذ أهل الحصون التى بين إسكندرونة وطرسوس معه لئلا يسير المسلمون فى عمارة ما بين أنطاكية وبلاد الروم وشعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحداً وربما كن عندها الروم فأصابوا من المختلفين فاحتاط المسلمون لذلك .

ذكر فتح حلب وانطاكية وغيرهما من العواصم

لما فرغ أبو عبيدة من قنسرين سار إلى حلب فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا وغدروا فوجه إليهم السمط الكندى فحصرهم وفتحها وأصاب فيها بقراً وغنما فقسم بعضه فى جيشه وجعل بقيته فى المغنم ، ووصل أبو عبيدة إلى حاضر حلب وهو قريب منها فجمع أصنافا

من العرب المتنصرة فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك وأتى حلب فتحصن أهلها وحصرهم المسلمون فلم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنايسهم وحصرهم فأعطوا ذلك واستثنى عليهم موضع المسجد ، ثم سار أبو عبيدة إلى أنطاكية وقد تحصن بها كثير من الخلق من قنسرين وغيرها وحاصرها من جميع الجوانب ثم إنهم صالحوه على الجلاء أو الجزية فجلا بعض وأقام بعض فأمنهم ثم نقضوا فوجه إليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة ففتحها على الصلح الأول ، وكانت أنطاكية عظيمة الذكر عند المسلمين فلما فتحت كتب عمر إلى أبي عبيدة أن رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين واجعلهم بها مرابطة ولى تحبس عنهم العطاء ، وبلغ أبا عبيدة أن جمعاً من الروم بين معرة مصرين وحلب فسار إليهم فلقيهم فهزمهم وقتل عدة بطارقة وسبى وغنم وفتح معرة مصرين على مثل صلح حلب وجالت خيوله ، فبلغت بوقا وفتحت قرى الجومة وسرمين وتيزين وغلبوا على جميع أرض قنسرين وأنطاكية ، ثم أتى أبو عبيدة حلب وقال التاث أهلها فلم يزل بهم حتى أذعنوا وفتحوا المدينة وسار أبو عبيدة يريد قورس فلقيه راهب من رهبانها يسأله الصلح ، فصالحه على مثل صلح أنطاكية وبث خيله فغلب على جميع أرض قورص وفتح تل عزاز ثم سار إلى منبج وصالحه أهلها على مثل صلح أنطاكية وسير عياض بن غنم إلى ناحية دلوك وعبان ، فصالحه أهلها على مثل صلح منبج وولى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملا وضم إليه جماعة وشحن النواحي المخوفة ، وسار إلى بالس وبعث جيشا مع حبيب بن مسلمة إلى قاصرين فصالحهم أهلها على الجزية أو الجلاء فجلا أكثرهم إلى بلد الروم وأرض الجزيرة وقرية جسر منبج ، واستولى المسلمون على الشام من هذه الناحية إلى الفرات ، وعاد أبو عبيدة إلى فلسطين وكان بجبل اللكام مدينة يقال لها جرجومة وأهلها يقال لهم الجراجمة فسار إليهم حبيب بن مسلمة من أنطاكية فافتتحها صلحا على أن يكونوا عونا للمسلمين ، وسير أبو عبيدة جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسى فسلكوا درب بغراسى من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم فلقى جمعا للروم ومعهم عرب من غسان وتنوخ واياد يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة .

ولحق به مالك بن الحارث الأشتر النخعى مدداً من قبل أبو عبيدة وهو بأنطاكية فسلموه وعادوا وسير أبو عبيدة جيشا آخر إلى مرعش مع خالد بن الوليد ، ففتحها على جلاء أهلها بالأمان وأخربها وسير جيشا آخر مع حبيب بن مسلمة إلى حصن الحدث فملكه وكل هذه الفتوحات كانت من سنة ثلاث عشرة إلى سنة خمس عشرة يتلو بعضها بعضا فى أزمان متقاربة وكان فيها أيضا فتح قيسارية وحصر غزة .

ذكر فتح قيسارية وحصر غزة

فى سنة خمس عشرة على الصحيح كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى يزيد بن أبى سفيان أن يرسل معاوية إلى قيسارية وكتب عمر أيضاً إلى معاوية يأمره بذلك فسار معاوية إليها لحصر أهلها فجعلوا يزاحفونه وهو يهزمهم ويردهم إلى حصنهم ثم زاحفوه آخر ذلك مستميتين ، فهزمهم وقتل فيهم مقتلة عظيمة وبلغت قتلاهم فى المعركة ثمانين ألفا وكملها فى هزيمتهم مائة ألف وفتحها وكان علقمة بن مجزز قد حصر القيقار بغزة وجعل يراسله فلم يشفه أحد بما يريد فأتاه كأنه رسول علقمة فأمر القيقار رجلا أن يقعد له فى الطريق إذا رجع فإذا مر به قتله ففطن علقمة فقال لقيقار : إن معى نفراً يشركوننى فى الرأى فأنطلق فآتيك بهم ، فبعث القيقار إلى ذلك الرجل أن لا يتعرض له فخرج علقمة من عنده فلم يعد فكان فعله هذا كما فعل عمرو بن العاص بالأرطبون كما سيأتى ومجزز بجيم وزايين .

ذكر فتح بيسان ووقعة أجنادين

لما انصرف أبو عبيدة وخالد رضى الله عنهما إلى حمص نزل عمرو بن العاص وشرحبيل رضى الله عنهما على أهل بيسان فافتتحاها وصالحا أهل الأردن واجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين وبيسان ، وسار عمرو وشرحبيل إلى الأرطبون ومن معه وكان الأرطبون بأجنادين واستخلف على الأردن أبا الأعور السلمى وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غوراً وكان قد وضع جنداً عظيما بإيلياء وجنداً عظيما بالرملة فلما بلغ عمر بن

الخطاب رضى الله عنه الخبر قال : قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب يعنى عمرو بن العاص فانظروا عم تنفرج ، وكان معاوية قد شغل أهل قيسارية عن عمرو وكان عمرو قد جعل علقمة بن حكيم الفراسى ومسروقا العكى على قتال إيلياء فشغلوا من به عنه ، وجعل أيضا أبا أيوب المالكى على من بالرملة من الروم فشغلهم عنه وتتابعت الإمدادات من عند عمر إلى عمرو ، وأقام عمرو على أجنادين لا يقدر من الأرطبون على شىء ولا تشفيه الرسل فسار إليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول ففطن به الأرطبون وقال لا شك إن هذا هو الأمير أو من يأخذ الأمير برأيه ، فأمر إنسانا أن يقعد على طريقه إذا رجع ليقتله وفطن عمرو لفعله فقال قد سمعت منى وسمعت منك ، وقد وقع لك منى موقع وأنا واحد من عشرة بعثنا عمرو إليك فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا الذى عرضت على الآن فقد رآه الأمير وأهل العسكر وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم ، فقال نعم ورد الرجل الذى أمره بقتله فخرج عمرو ومن عنده ثم علم الرومى أنها خدعة اختدعه بها فقال . هذا أدهى الخلق ، وبلغت خديعته عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال لله در عمرو وعرف عمرو مأخذه إذا قاتله فقاتله بأجنادين قتالا شديداً حتى كثرت القتلى بينهم وانهزم أرطبون إلى إيلياء ونزل عمرو أجنادين وأفرج المسلمون الذين يحصرون بيت المقدس لأرطبون فدخل بيت المقدس .

ذكر فتح بيت المقدس

كان فتح بيت القدس سنة خمس عشرة من الهجرة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقيل سنة ست عشرة فى ربيع الأول . وسبب ذلك أنه لما دخل أرطبون بيت المقدس فتح عمرو بن العاص غزة ثم فتح سبسطيه وفيها قبر يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام وفتح نابلس بأمان على الجزية وفتح مدينه اللد ثم فتح تبق وعمواس وبيت جيرين ويافا ، وقيل فتحها معاوية وفتح عمرو مرج عيون ، فلما تم له ذلك أرسل إلى أرطبون رجلا يتكلم بالرومية وقال له اسمع ما يقول ، وكتب معه كتابا فوصل الرسول ودفع الكتاب إلى أرطبون وعنده وزراؤه فقال أرطبون لا يفتح الله عمرو شيئا من

فلسطين بعد أجنادين ، فقالوا له من أين علمت هذا فقال صاحبها رجل صفته كذا وكذا وذكر صفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرجع الرسول إلى عمرو بن العاص وأخبره بالخبر فكتب إلى عمر بن الخطاب يقول له إنى أعالج عدواً شديداً وبلاداً قد ادخرت لك فرأيك فعلم أن عمراً لم يقل ذلك إلا لشيء سمعه فسار عمر من المدينة ، وقيل إن الروم الذين كانوا ببيت المقدس طلبوا من المسلمين أن يروهم أميرهم فأروهم أبا عبيدة وخالد بن الوليد فقالوا لا نسلم أحداً من هذين مدينة بيت المقدس ولو حاصرتمونا عشر سنين وإنما نسلمها لرجل صفته كذا وكذا ، وذكروا صفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب أبو عبيدة وبقية الأمراء بذلك لعمر بن الخطاب فقدم عليهم ، وكان أبو عبيدة رضى الله عنه لما حصر بيت المقدس أراد أن يصالحهم على مثل صلح أهل مدن الشام فقالوا لانصالحهم إلا أن يكون المتولى العقد عمر بن الخطاب ، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة وأتى بيت المقدس . وفى تاريخ ابن الوردى وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد قال لعمر رضى الله عنه « إنك ستفتتح بيت المقدس بلا قتال » فكان فى الجيئة إظهار معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم فى إخباره بالغيب فتتحها بلا سيف كما أخبره النبى صلى الله عليه وسلم . ولما سار عمر من المدينة استخلف عليها على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال له : على أين تخرج بنفسك إنك تريد عدواً كلباً ، فقال عمر أبادر بالجهاد قبل موت العباس رضى الله عنه إنكم لو فقدتم العباس لا نتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل ، فمات العباس لست سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه فانتقض الناس وسار عمر رضى الله عنه من المدينة وهو على بعير له وعليه غرارتان فى إحداها سويق وفى الأخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد ومعه جماعة من الصحابة ، وكانوا إذا نزلوا منزلا لا يبرح به حتى يصلى الصبح ، ثم يأخذ الجفنة يملأها سويقاً ويصف التمر حولها ويقرب المسلمين ويقول كلو هنيئاً مريئاً فيأكل المسلمون ثم يرحل ، فما زال كذلك فى مسيره حتى قدم الشام ، وقيل إنه لما قدم الجابية كان على فرس وكان قدومه إلى الشام أربع مرات ، الأولى على فرس والثانية على بعير والثالثة على بغل ورجع لأجل الطاعون والرابعة على حمار ، وكتب

إلى أمراء الأجناد أن يوافوه بالجابية ليوم سماه ، ويستخلفوا على أعمالهم ، فكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال : ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم تستقبلوني في هذا الزى وإنما شبعتم منذ سنتين وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا يا أمير المؤمنين إنها يلامعه وإن علينا السلاح قال فنعم إذن واليلامع من السلاح ما برق فلما دخل الجابية جاءه أهل بيت المقدس ، وقد هرب عنهم أرطبون إلى مصر ، فصالحوه على الجزية وفتحوها له ويروى أن الروم امتنعوا من فتح باب السور حتى يروا عمر ويجدوا فيه الصفة التي يجدونها في كتبهم فأمر عمر ببعيره فقدم إليه فاستوى إلى ركوبه عليه وعليه مرقعة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها رأسه وليس معه غير أبي عبيدة رضي الله عنهما سائراً بين يديه حتى قرب من السور ، ووقف بإزاء السور فنظر إليه البطريق وهو خلف السور وزعق بأعلى صوته هذا والله الذي نجد نعته وصفته في كتبنا وهو الذي يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة ، ثم قال لأهل بيت المقدس ويحكم انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة ففتحوا الباب ، وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد والميثاق والذمة وعقد الجزية فخر ساجداً لله على قتب بعيره ، ثم نزل إليهم وقال ارجعوا إلى بلادكم ولكم العهد والذمة إذا سألتموه وأقررتم بالجزية فرجع القوم ولم يغلقوا الأبواب ورجع عمر إلى معسكره وبات فيه ليلة ، فلما كان من الغد قام فدخل إليها ومعه المسلمون وعقد الجزية أيضاً لأهل الرملة وجعل علقمة بن حكيم على نصف فلسطين وأسكنه الرملة ، وجعل علقمة بن مجزز على نصفها الآخر وأسكنه بيت المقدس وضم إليه عمرو بن العاص وشرحبيل ولقياه بالجابية راكبا فقبل ركبته وضم كل واحد منهما محتضنهما ، ثم سار إلى بيت المقدس من الجابية فركب فرسه فرأى فيه عرجا فنزل عنه فأتى ببرذون فركبه فجعل يتجلجل به فنزل وضرب وجهه ، وقال لا أعلم من علمك هذه الخيلاء ، ثم لم يركب برذونا قبله ولا بعده وبقي أرطبون بمصر فلما ملك المسلمون مصر قتل ، ولما دخل عمر بيت المقدس كشف عن الصخرة وأمر ببناء المسجد عليها وأقام عشرة

أيام ثم رجع إلى المدينة ، وكان فى هذه السنة والتى بعدها كثير من الفتوحات بالعراق وسنذكرها إن شاء الله بعد تمام فتوحات الشام ومصر .

ذكر خبر حمص حين قصد هرقل من بها من المسلمين

فى سنة سبع عشره قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بحمص ، وكان المهيج للروم أهل الجزيرة فإنهم أرسلوا إلى ملك الروم وحثوه على إرسال الجنود إلى الشام ووعدوا من أنفسهم المعاونة ففعل ذلك ، فلما سمع المسلمون باجتماعهم عسكروا بفناء مدينة حمص وأقبل خالد من قنسرين إليهم فاستشارهم أبو عبيدة فى المناجزة والتحصين إلى مجيء الغياث ، فأشار خالد بالمناجزة وأشار سائرهم بالتحصين ومكاتبة عمر فأطاعهم وكتب إلى عمر ذلك فكتب عمر إلى أمراء الأجناد بالعراق أن يبعثوا جنداً لإغاثة أبى عبيدة وكان عمر رضى الله عنه قد اتخذ فى كل مصر خيولا على قدر ذلك المصر من فضول أموال المسلمين عدة تكون لهم ، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلى ونفر من أهل الكوفة وفى كل مصر من الأمصار على قدره فإن تأتهم آتية ركب الناس ، وساروا إلى أن يتجهز بقية الناس فلما سمع عمر الخبر كتب إلى سعد بن أبى وقاص بالعراق أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم فإن أبا عبيدة قد أحيط به ، وكتب إليه أيضاً سرح سهيل بن عدى إلى الرقة وهى بلدة على الفرات بتشديد الراء والقاف المفتوحتين فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وأمره أن يسرح عبد الله ابن عتبان إلى نصيبين ليقصد حران والرها وأن يسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وأن يكون عياض بن غنم على أمراء الجزيرة إن كانت حرب فمضى القعقاع من يومه على أربعة آلاف إلى حمص ، وسار عياض بن غنم وأمراء الجزيرة كل أمير إلى كورته وسار عمر بن الخطاب رضى الله عنه من المدينة يريد حمص مغيثا لأبى عبيدة ، ولما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص خبر الجنود الإسلامية فارقوا هرقل ، ورجعوا إلى بلادهم وزحف أبو عبيدة إلى الروم فانهزموا وقدم القعقاع من العراق بعد الوقعة بثلاثة فكتبوا إلى عمر

بالفتح وبقدوم المدد إليهم ، فكتب إليهم أن اشركوهم فى الغنيمة فإنهم نفروا إليكم وانفرق لهم عدوكم ، وقال جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار فلما فرغوا رجعوا وبلغ عمر فى مسيره هذا إلى الجابية فوافاه خبر انهزام الروم ، فكتب الجواب لأبى عبيدة ورجع من الجابية وأصحب معه خالد بن الوليد ومن معه ، ولما قدم سهيل بن عدى على الرقة سرح الوليد بن عقبة إلى عرب الجزيرة فقبض أهل الرقة عن هرقل وساروا مع سهيل بن عدى إلى أياد بن نزار فإنهم دخلوا أرض الروم ، فكتب عمر إلى هرقل بلغنى أن حيا من أحياء العرب تركوا دارنا وأتوا دارك فوالله لتخرجنهم أو لنخرجن النصارى إليك فأخرجهم هرقل وتفرق منهم أربعة آلاف فيما يلى الشام والجزيرة .

ذكر فتح الجزيرة وأرمينية

الجزيرة بلاد تشتمل على ديار بكر ومضر وربيعة بين دجلة والفرات إليها ينسب الإمام الجزرى وأرمينية كورة ، كانت للروم لما أرسل سعد العساكر إلى الجزيرة أرفض به أهل الجزيرة عن الروم وساروا إلى كورهم حين سمعوا بإرسال العساكر من الكوفة ، فنزل عليهم سهيل بن عدى وحاصرهم حتى صالحوه ونازل عبد الله بن عتبان الموصل ونصيبين فصالحوه كصنع أهل الرقة وخرج الوليد بن عقبة فقدم على عرب الجزيرة فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلا إياد بن نزار فإنهم دخلوا أرض الروم فكتب الوليد بذلك إلى عمر ، فكتب عمر إلى هرقل كما تقدم ، ولما أخذوا الرقة ونصيبين ضم عياض إليه سهيلا وعبد الله بن عتبان وسار بالناس إلى حران فلما وصل أجابه أهلها إلى الجزية ، فقبل منهم ثم إن عياضاً سرح سهيلا وعبد الله إلى الرها فأجابوهما إلى الجزية وأجروا كل ما أخذوه من الجزيرة عنوة مجرى الذمة فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحاً ورجع سهيل وعبد الله إلى الكوفة ، وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد انصرافه من الجابية يسأله أن يضم إليه عياض بن غنم إذا أخذ خالد بن الوليد إلى المدينة فصرفه إليه فاستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد بن عقبة على عربها وأبى الوليد بن عقبة

أن يقبل من تغلب الجزية وقال : ليس إلا الإسلام ، فكتب إليه عمر إنما ذلك بجزيرة العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام فدعهم على أن لا ينصروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام وكان فى تغلب عز وامتناع فهم بهم الوليد فخاف عمر أن يسطو عليهم فعزله وأمر عليهم فرات بن حيان وهند بن عمر الجلى ، والصحيح الذى عليه الأكثر أن فتح الجزيرة معدود من فتح أهل الشام وأنه سنة سبع عشرة وقيل إنه من فتح العراق وأنه سنة تسع عشرة وإنما أخذ عمر خالداً معه وعزله عن إمارة الأجناد لأنه رأى منه تبذيراً وسرفاً فى الأموال أعطى مرة للأشعث بن قيس عشرة آلاف وله عطايا كثيرة ، فلما قدم المدينة شكا خالد عمر على الناس وقال له إنك فى أمرى غير مجمل ، فقال له عمر من أين هذا الثراء فقال من الغنائم ، والسهمان مازاد على ستين ألفاً فهو لك ، فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها فى بيت المال ثم قال : ياخالد : والله إنك علىّ لكريم وإنك إلى الحبيب ، وكتب إلى الأمصار إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فخموه وفتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ؛ فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة وعوضه عما أخذ منه ، وكان خالد بن خال عمر رضى الله عنهما لأن أم عمر حنتملة بنت هاشم بن المغيرة وخالد بن الوليد بن المغيرة وكان فى قلنسوة خالد التى يقاتل فيها شعرات من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم فينتصر بها وببركته صلى الله عليه وسلم فلا يزال منصوراً ، وكان يقول : اعتمرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمرة اعتمرها فحلق شعره فاستبق الناس إلى شعره فسبقت إلى الناصية فأخذتها فاتخذت قلنسوة فجعلتها فى مقدم القلنسوة فما وجهته فى وجه إلا وفتح له وسماه النبى صلى الله عليه وسلم سيفاً من سيوف الله يوم غزوة مؤتة لما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه بالمدينة بما وقع فى تلك الغزوة يوم وقوعها فذكر لهم استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة وقال : ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليه ومناقبه كثيرة وله ترجمة واسعة توفى رضى الله عنه فى خلافة عمر رضى الله عنه بحمص وقيل بالمدينة سنة إحدى وعشرين من الهجرة ولما حضرت خالداً الوفاة قال : لقد شهدت مائة زحف

أو زهاءها وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية وها أنا أموت على فراشى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء وما من عمل عندى أرجى من لا إله إلا الله وأنا متترس بها وفى سنة ثمان عشرة وقع بالشام الطاعون المسمى طاعون عمواس مات فيه خمسة وعشرون ألفاً ومات فيه أبو عبيدة واستخلف معاذ بن جبل فطعن أيضاً فيه ومات فاستخلف عمر على الناس عمرو بن العاص وطعن فيه يزيد بن أبى سفيان فاستعمل عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبى سفيان على دمشق وخراجها واستعمل شرحبيل بن حسنة على جند الأردن وخراجها ، ولما حصل ذلك الطاعون قام أبو عبيدة خطيباً فى الناس فقال أيها الناس : إن هذا الوجع رحمة ربكم ووعدة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وإن أبا عبيدة سأل الله أن يقسم له منه حظاً ، فطعن فمات ، واستخلف على الناس معاذ ابن جبل فقام خطيباً بعده فقال أيها الناس : إن هذا الوجع رحمة ربكم ووعدة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وإن معاذاً يسأل الله أن يقيم لآل معاذ حظهم فطعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم قام فدعا به لنفسه فطعن فى راحته فلقد كان يقبلها ثم يقول : ما أحب أن لى بما فيك شيئاً من الدنيا ، فلما مات واستخلف عمرو بن العاص خرج بالناس إلى الجبال ورفعه الله عنهم وكان الناس قد أصابهم من الموت مالم يروا مثله قط وطمع فيهم العدو وطال مكث ذلك الطاعون فإنه مكث شهوراً وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدم إلى الشام فى مدة ذلك الطاعون فلما كان بسرغ وهو موضع قرب الشام بين المغيثة وتبوك لقيه أمراء الأجناد فيهم أبو عبيدة بن الجراح فأخبروه بالوباء وشدته ، وكان معه كثير من المهاجرين والأنصار لأنه خرج بهم غازياً فجمع المهاجرين الأولين والأنصار فاستشارهم فاختلفوا عليه فمنهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ، ومنهم القائل إنه بلاء وفناء فلا نرى أن نقدم عليه فقال لهم قوموا ثم أحضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه ، وأشاروا بالعود فنادى عمر فى الناس أنى مصبح على ظهر فقال أبو عبيدة أفراراً من قدر الله ؟ فقال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة لانتقمت منهم نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عدوتان إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة

أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر منه وإن رعيت المجدبة رعيتها بقدر منه ، وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فحضر فأخبر أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً فى ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إذا سمعتم بهذا الوباء ببلدة فلا تقدموا عليه وإذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه » فكان ذلك الحديث موافقاً لما رآه عمر رضى الله عنه فانصرف بالناس إلى المدينة ومات فى ذلك الطاعون كثير من الصحابة منهم الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو رضى الله عنهما ، ولما فرغ الطاعون كتب أمراء الأجناد إلى عمر رضى الله عنه بما فى أيديهم من المواريث ، فسار عمر إلى الشام واستخلف على المدينة على بن أبى طالب رضى الله عنه فلما قدم الشام قسم المواريث والأرزاق وسد فروج الشام ومصالحها وأخذ يدورها ورجع إلى المدينة فى ذى القعدة . ولما كان بالشام وحضرت الصلاة قال له الناس : لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فما بقى أحد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وبلال يؤذن إلا بكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذكر فتح مصر والاسكندرية

كان ابتداء الأمر وانتهاؤه فى ذلك من سنة ثمان عشرة إلى سنة عشرين وقيل إن فتوح مصر كان فى سنة ست عشرة لأن عمرو بن العاص رضى الله عنه حمل الطعام لأهل المدينة عام الرمادة التى اشتد القحط فيه فى بحر القلزم من مصر إلى المدينة وعام الرمادة كان سنة ثمان عشرة . وقال الجلال السيوطى فى كتابه المسمى بحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ولما كانت سنة ثمان عشرة وقدم عمر بن الخطاب الجابية قام إليه عمرو ابن العاص رضى الله عنه فخلا به فقال يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أسير إلى مصر وحرضه عليها وقال : إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الأرض أموالا ، وأعجزهم عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو بن العاص يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها حتى ركن عمر بن الخطاب لذلك فأذن له فى المسير . وسبب قوة رجاء عمرو بن العاص فى أن الله

يفتتح مصر على يديه قصة وقعت له فى الجاهلية ذكرها السيوطى أيضاً فى حسن المحاضرة ولنذكرها وإن كان فيها طول تتميما للفائدة قال : أخرج بن عبد الحكم عن خالد بن يزيد أنه بلغه أن عمرو بن العاص قدم إلى بيت المقدس بتجارة فى نفر من قريش وإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الاسكندرية قدم للصلاة فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسيح وكان عمرو بن العاص يرعى إبله وإبل أصحابه وكانت رعية الإبل نوباً بينهم فبينما عمرو يرعى إبله إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد فى يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روى، ثم نام الشماس فى مكانه وكان إلى جانب الشماس فى مكانه حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها سهما فقتلها ، فلم استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد نجاه الله منها ، فقال لعمرو ما هذا فأخبره عمرو أنه رماها بسهم فقتلها فأقبل على عمرو فقبل رأسه وقال قد أحيانى الله بك مرتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد ، قال : قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل من تجارتنا فقال له الشماس وكم ترجوأن تصيب من تجارتك قال : رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيراً فإنى لا أملك إلا بعيرين فأملى أن أصيب بعيراً آخر فيكون لى ثلاثة أبعرة فقال له الشماس أرأيت دية أحدكم بينكم كم هى قال : مائة من الإبل فقال : له الشماس لسنا أصحاب إبل نحن أصحاب دنانير قال : عمرو تكون ألف دينار فقال له الشماس إنى رجل غريب فى هذه البلاد وإنما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع إلى بلادى فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى ولك عهد الله وميثاقه أنى أعطيك ديتين لأن الله تعالى أحيانى بك مرتين فقال له عمرو : أين بلادك ؟ قال مصر فى مدينة يقال لها الاسكندرية ، فقال له عمرو : لا أعرفها ولم أدخلها قط ، فقال له الشماس لودخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو : تفى لى بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق فقال الشماس نعم ، لك على الله بالعهد والميثاق أنى أفى لك وأردك إلى أصحابك فقال عمرو : وكم يكون مكثى فى ذلك ؟ قال : شهر ، تنطلق معى ذاهبا عشراً ، وتقيم عندنا عشراً وترجع فى عشر ولك على أن أحفظك

ذاهبا وأبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو : انتظرنى حتى أشاور أصحابى ، فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس وقال : لاتخرجوا وأقيموا حتى أرجع إليكم ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبنى منكم رجل آنس به فقالوا نعم ، وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الاسكندرية فرأى عمرو من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ما أعجبه ذلك وقال ما رأيت مثل مصر قط وكثرة ما فيها من الأموال ونظر إلى الاسكندرية وعمارتها وجودة بنائها ، وكثرة أهلها ، وما بها من الأموال ، فازداد تعجباً ، ووافق دخول عمرو الاسكندرية عيداً فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم أكرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم وفيما أخبروا عن تلك الأكرة على ما وضعها من مضى منهم أن من وقعت الأكرة فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم فلما قدم عمرو الاسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه وجلس عمرو والشماس مع الناس فى ذلك المجلس حيث يترامون بالأكرة وهم يتلقونها بأكمامهم فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فتعجبوا وقالوا ما كذبتنا هذه الأكرة قط إلا هذه المرة أترى هذا الأعرابى يملكنا هذا لا يكون أبداً وإن ذلك الشماس مشى فى أهل الإسكندرية ، وأعلمهم أن عمرو أحياه مرتين وأنه قد ضمن له ألفى دينار وسألهم أن يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها إلى عمرو فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو ومن معه إلى أصحابه فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفاً قال عمرو فكان ذلك المال أول مال تأثلته فلما أكرمه الله بالإسلام وفتح على يديه كثيراً من أرض الشام مالت نفسه إلى فتح مصر ورجا أن يتحقق له وقوع الأكرة فى كمه مع ما صح من قول النبى صلى الله عليه وسلم « لتفتحن عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة » فرغب عمر بن الخطاب فى أن يسيره إليها حتى وافقه على ذلك فعقد له .

على أربعة آلاف رجل كلهم من عك ويقال على ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة فقال عمر سر وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتى كتابى إليك سريعاً إن شاء الله تعالى فإن أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو ابن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين، فأدرك الكتاب عمرو وهو برفح فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل له إنها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو أنتم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا بلى فقال إن أمير المؤمنين عهد إلى وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع وإن لم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله ، فتقدم عمرو بن العاص فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه إلى الفسطاط فكان يجهز على عمرو الجيوش فكان أول موضع قوتل فيه الفرما الروم قتالا شديداً نحو من شهر ثم فتح الله على يديه فهزم الروم وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة وإن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو فيقال إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا ، ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواحر فنزل ومن معه فقال بعض القبط لبعض ألا تعجبون من هؤلاء القوم يقدمون على جموع الروم وإنما هم فى قلة من الناس فأجابه رجل آخر منهم إن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا إلى آخرهم فتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحوا من شهر حتى فتح الله عليه ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالا شديداً وأبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بن

معه حتى نزل على الحصن فحاصرهم بالقصر الذى يقال له باب اليون حيناً وقاتلهم قتالا شديداً يصبحهم ويمسيهم ، فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجلا ، وكتب إليه أنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الألف الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم أنه صار معك اثنى عشر ألفاً ولا تغلب اثنى عشر ألفاً من قلة وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق باباً وجعلوا سكك الحديد موتدة بأفنية الأبواب ، فلما قدم المدد إلى عمرو بن العاص أتى إلى القصر ووضع عليه المنجنيق ، وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعرج واليا عليه وكان تحت يد المقوقس ودخل عمرو إلى صاحب الحصن كأنه رسول فتناظر معه فى شيء مما هم فيه ، فقال أخرج واستشير أصحابى وكان صاحب الحصن أوصى الذى كان على الباب إذا مر به عمرو راجعاً أن يلقى عليه صخرة فيقتله فمر عمرو وهو يريد الخروج برجل من العرب ، فقال قد دخلت فانظر كيف تخرج فرجع عمرو إلى صاحب الحصن فقال إنى أريد أن آتيك بنفر من أصحابى حتى يسمعوا منك مثل الذى سمعت فقال العلج فى نفسه قتل جماعة أحب إلى من قتل واحد فأرسل إلى الذى أمره بقتل عمرو أن لا يتعرض له رجاء أن يأتى بأصحابه فيقتلهم فخرج عمرو فلما أبطأ عليه الفتح قال ، الزبير : إنى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلما إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوا جميعا ، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتجامع الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفا أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهربوا فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فخاف المقوقس على نفسه فحينئذ طلب الصلح من عمرو بن العاص على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو إلى ذلك ، وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر وقال ابن عبد الحكم شهراً ، قال إن المسلمين لما حصروا

باب أليون شهراً كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس ، فلما رأوا حرص المسلمين على فتح الحصن ورغبتهم فيه خافوا أن يظهروا فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلى ودونهم جماعة يقاتلون العرب فلحقوا بالجزيرة ، وأمروا بقطع الجسر وتخلف الأعرج فى الحصن بعد المقوقس فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ، ثم لحقوا بالمقوقس فى الجزيرة ، فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص إنكم قوم ولجتم فى بلادنا وألححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فأرسلوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم فابعث إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به عن شىء ، فلما أتى إلى عمرو بن العاص رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس ، فقال أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم يستحلون ذلك فى دينهم وإنما فعل عمرو ذلك لأجل أن يروا حال المسلمين وماهم فيه ثم رد عليهم عمرو مع رسله إنه ليس بينى وبينك إلا إحدى ثلاث خصال إما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ، فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال كيف رأيتموهم قالوا رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ليس لأحدهم رغبة فى الدنيا ولا نهمة وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد فيهم من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون فى صلاتهم ، فقال عند ذلك المقوقس والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد ولئن لم نغتنم

صالحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقدروا على الخروج من موضعهم ، فرد إليهم المقوقس رسله أن ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عسى أن يكون فيه صلاح لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة أنفار أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبار وهو أحد الشجعان المشهورين والفصحاء المتكلمين وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم وأن لا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث ، فإن أمير المؤمنين أمرني أن لا أقبل شيئاً سوى خصلة من هذه الثلاث خصال وكان عبادة بن الصامت رضى الله عنه أسود فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة فهابه المقوقس لسواده فقال نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره يكلمنى ، فقالوا إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلماً وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وإنا نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به فقال المقوقس لعبادة تقدم يا أسود وكلمنى برفق فإنى أهاب سوادك وإن اشتد على كلامك ازددت لك هيبة فتقدم اليه عبادة فقال قد سمعت مقالتك وإن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود وكلهم أشد سواداً منى وأفظع منظراً ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منى وأنا قد وليت وأدبر شبابى ، وإنى مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوى ولو استقبلونى جميعاً ، وكذلك أصحابى وذلك لأننا إنما رغبتنا وبغيتنا الجهاد فى الله تعالى واتباع رضوان الله وليس غزونا عدونا من حارب الله رغبة فى الدنيا ولا طلبا للاستكثار منها إلا أن الله قد أحل لنا ذلك وجعل ما غنمنا من ذلك حلالا وما يبالى أحدنا أكان له قنطار من الذهب أم كان لا يملك إلا درهما لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها فيسد بها جوعته وشملة يلتحفها فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله واقتصر على هذا لأن نعيم الدنيا ورخاءها ليس برخاء إنما النعيم والرخاء فى الآخرة وبذلك أمرنا ربنا وأمر به نبينا وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا فيما يمسك جوعته ويستر عورته وتكون همته وشغله فى رضا ربه وجهاد عدوه . فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وإن قوله

لأهيب عندى من منظره وإن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب البلاد وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها ثم أقبل المقوقس على عبادة ، فقال أيها الرجل قد سمعت مقالتك وما ذكرته عنك وعن أصحابك ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرته ولا ظهرتم على ما ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه إلينا لقتالكم من جميع الروم مالا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة من لا يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل وإنا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد أقمتم بين ظهرنا شهراً وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن نرأف عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم به ، فقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك أما ماتخافوننا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وإنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما هذا بالذى تخوفنا به ولا بالذى يكسرنا عما نحن فيه إن كان ما قلتم حقاً ، فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا لأن ذلك أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، ومامن شىء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا وإن الله تعالى قال لنا فى كتابه ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وما من رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده ولا إلى أهله وولده وليس لأحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده وإنما همنا ما أمامنا وأما أنا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا لأنفسنا منها أكثر مما نحن فيه فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم إليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل بذلك أمرنى الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو

عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا من قبل أما إن أجبتم إلى الإسلام الذى هو الدين الذى لايقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته ، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان أخانا فى دين الله فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون. نعاملكم على شىء نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وتعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم إذا كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد الله علينا ، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب منكم ما نريد هذا ديننا الذى ندين به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم فقال له المقوقس: هذا مما لا يكون أبداً ماتريدون إلا أن تأخذونا لكم عبيداً ! ما كانت الدنيا ، فقال له عبادة : هو ذاك فاختر ماشئت فقال له المقوقس فلا تجيبونا إلى خصلة غير هذه الثلاث ؟ فرفع عبادة يديه فقال لا : ورب السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم ، فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه فقال : قد فرغ القول فما تقولون ؟ فقالوا أو يرضى أحد بهذا الذل إذا ما أرادوا من دخولنا فى دينهم فهذا لا يكون أبداً أن نترك دين المسيح بن مريم وندخل دينا لا نعرفه وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيداً أبداً فالموت أيسر من ذلك لورضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا ، فقال المقوقس لعبادة قد أبى القوم فما ترى فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون فقام عبادة وأصحابه فقال المقوقس لمن حوله عند ذلك أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة وإن لم تجيبوا إليهم طائعين لتجيبونهم إلى ما هو أعظم منها كارهين ، فقالوا : أى خصلة نجيبهم إليها ؟ قال إذن أخبركم أما دخولكم فى غير دينكم فلا آمركم به وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لاتقدرون عليهم ولن تصبروا صبرهم ولابد من الثلاثة ، قالوا فنكون لهم عبيداً أبدا قال نعم،

تكونوا عبيداً مسلطنين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا فى البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهلوكم وذراريكم ، قالوا فالموت أهون علينا وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة وبالقصر من الروم والقبط جمع كثير ، فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من فى القصر حتى ظفروا بهم ومكن الله منهم فقتل منهم خلق كثير وأسر من أسر وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة ، وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لايقدرون على أن ينفذوا ويتقدموا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى والمقوقس يقول لأصحابه : ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم ماتنظرون فوالله لتجيبونهم إلى ما أرادوا طوعاً أو لتجيبونهم إلى ما أعظم منه كرها فأطيعونى قبل أن تندموا فلما رأوا منهم مارأوا ، وقال لهم المقوقس ماقال أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يوفونه وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رضى الله عنه إنى لم أزل حريصا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت إلى بها ، فأبى ذلك من حضرنى من الروم والقبط فلم يكن لى أن أفتات عليهم ، وقد عرفوا نصحى لك وحبى صلاحهم ورجعوا إلى قولى فاعطنى أمانا أجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى ونفر من أصحابك فإن استقام الأمر بيننا تم ذلك لنا جميعا وإن أبيتم رجعنا إلى ماكنا عليه فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك السؤال ، فقالوا لانجيبهم إلى شىء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير كلها فيئا لنا وغنيمة كما صار القصر ومافيه فقال عمرو قد علمتم ماعهد إلى أمير المؤمنين فى عهده فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد إلى فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم مع ماقد حال من الماء بيننا وبين مانريد من قتالهم ، فاجتمعوا على عهد بينهم واصطلحوا على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم من بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شىء وعلى أن للمسلمين عليهم منزلا لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك لهم ضيافة ثلاثة أيام وإنه

لهم أرضهم وأموالهم لايتعرض لهم فى شىء منها فشرط هذا كله على القبط خاصة وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية فرض الله عليهم الدينارين ورفع ذلك عرفاؤهم بالأيمان المؤكدة فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف وذلك ستة ملايين فكانت فريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار أى اثنى عشر مليونا من الدنانير كل سنة وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا ، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على هذا لازما له مفترضا عليه ممن أقام بالاسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها إلى أرض خرج على أن للمقوقس خيار فى الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليه وإلا كانوا جميعا على ما كانوا عليه وكتبوا به كتابا ، وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه على وجه الأمر كله فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول فى كتابه إنما أتاك من العرب اثناعشر ألفاً وبمصر من بهما من كثرة عدد القبط مالا يحصى فإن كان القبط كرهوا القتال ، وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا فإن عندك بمصر من الروم وبالاسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط إذ لاتقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظفر عليها فإنهم فيكم على قدر قلتهم وضعفهم كأكلة فناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك ، وكتب ملك الروم مثل ذلك إلى جماعة الروم فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم والله أنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا إن الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك إنهم قوم الموت أحب إليهم من الحياة يقاتل الرجل منهم وهو مستقبل ويتمنى أن لايرجع إلى أهله وبلده ولا ولده ويرون أن لهم أجراً عظيما فيمن قتلوا منا ويقولون إنهم إن قتلوا أدخلوا الجنة ، وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة إلا على قدر بلغة العيش من الطعام واللباس ، ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها فكيف نستقيم

نحن وهؤلاء وكيف صبرنا معهم واعلموا معشر الروم والله إنى لا أخرج مما دخلت فيه وصالحت العرب عليه ، وإنى لا أعلم إنكم سترجعون غداً إلى قولى ورأيه وتتمنون أن لو كنتم أطعتمونى وذلك إنى قد عاينت ورأيت وعرفت مالم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ويحكم أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً فى دهره على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة ثم أقبل المقوقس على عمرو بن العاص فقال له إن الملك قد كره ما فعلت وعجزنى وكتب إلى وإلى جماعة الروم أن لانرضى بمصالحتك وأمرهم بقتالك حتى يظفروا بك أو تظفر بهم ولم أكن لأخرج مما دخلت فيه وعاقدتك عليه وإنما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى ، وقد تم الصلح فيما بينك وبينهم ، ولم يأت من قبلهم نقض وأنا متم لك على نفسى والقبط متمون لك على الصلح الذى صالحتهم عليه وعاهدتهم ، وأما الروم فأنا منهم برىء وأنا أطلب منك أن تعطينى ثلاث خصال قال له عمرو وماهن قال لاتنقضن بالقبط وأدخلنى معهم وألزمنى مالزمهم ، وقد اجتمعت كلمتى وكلمتهم على ماعاهدتك فهم متمون لك على ما تحب وأما الثانية فإن سألك الروم بعد اليوم أن تصالحهم فلا تصالحهم حتى تجعلهم فيئاً وعبيداً ، فإنهم أهل لذلك فإنى أهل لذلك فانى نصحتهم فاستغشونى ونظرت إليهم فاتهمونى وأما الثالثة فأطلب إليك إن مت أن تأمرهم أن يدفنونى فى أبى حنس بالاسكندرية ، فأنعم له عمرو بن العاص وأجابه إلى ما طلب على أن يضمنوا له الجسرين جميعاً ويقيموا له الانزال والضيافة والأسواق والجسور ما بين الفسطاط إلى الاسكندرية ففعلوا وصارت لهم القبط أعواناً كما جاء فى الحديث ، واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ، ثم انتقلوا بسلطيس فاقتتلوا بها قتالا شديداً ثم هزمهم الله ثم التقوا بالكربون التقوا بها بضعة عشر يوما وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو يومئذ صلاة الخوف ثم فتح الله يومئذ على المسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأتبعوهم حتى بلغهم الاسكندرية فتحصن بها الروم ، وكانت عليهم حصون مبنية لاترام حصن دون حصن ، فنزل المسلمون ما بين حلوه إلى قصر فارس إلى ماوراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة ورسل ملك

الروم تختلف إلى الاسكندرية فى المراكب بمادة الروم ، وكان ملك الروم يقول لئن ظفرت العرب على الاسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية وإنما كان عيد الروم حين غلبت العرب على الشام بالإسكندرية ، فقال الملك لئن غلبوا على الاسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكها ، فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الاسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسه إعظاماً لها وأمر أن لايتخلف أحد من الروم قال مابقى للروم بعد الاسكندرية حرمة فلما فرغ من جهازه صرعه الله فأماته وكفى الله المسلمين مؤنته وكان موته سنة تسع عشرة . وقال الليث ابن سعد مات هرقل سنة عشرين فكسر الله بموته شوكة الروم فرجع كثير ممن قد توجه إلى الاسكندرية وانتشرت العرب عند ذلك وألحت القتال على أهل الاسكندرية فقاتلتهم قتالا شديداً ، وحاصرت الاسكندرية تسعة أشهر بعد موت هرقل وخمسة قبل ذلك وفتحت يوم الجمعة فى شهر المحرم سنة عشرين وقال ابن عبد الحكم أقام عمرو ابن العاص محاصرا الاسكندرية أشهرا . ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ما أبطأ بفتحها إلا لما أحدثوا وكتب إلى عمرو بن العاص أما بعد فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر إنكم تقاتلونهم منذ سنتين وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم وأن الله تبارك وتعالى لاينصر قوماً إلا بصدق نياتهم وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف إلا أن يكون غيرهم ما غيرهم فإذا أتاك كتابى فاخطب الناس وحضهم على قتال عدوهم ورغبهم فى الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة فى صدور الناس وهم الزبير بن العوام والمقدم بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وأمر الناس جميعاً أن تكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة فيها ووقت الإجابة وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوكم ففعلوا ففتح الله عليهم قال ابن عبد الحكم حدثنى أبى قال لما أبطأ على عمرو بن العاص فتح الاسكندرية استلقى على ظهره ثم جلس فقال إنى فكرت فى هذا الأمر فإنه لايصلح آخره إلا من أصلح أوله

يريد الأنصار فدعا عبادة بن الصامت فعقد له ففتح الله على يديه الاسكندرية من يومهم ذلك ثم روى بن عبد الحكم عن الإمام مالك أن ذلك كان سنة عشرين ، ولما هزم الله الروم وفتحت الاسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر خلف عمرو بن العاص بالاسكندرية ألف رجل من أصحابه ومضى عمرو ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر ورجع من كان هرب من الروم فى البحر إلى الاسكندرية فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم وبلغ عمرو بن العاص فكر راجعاً ففتحها وأقام بها وكتب إلى عمر بن الخطاب أن الله قد فتح علينا الاسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره أن لايجاوزها ويقبح رأيه فى أتباعه من هرب والذين قتلوا من المسلمين من حين حصار الاسكندرية إلى أن فتحت عنوة اثنان وعشرون رجلا ، ولما فتحت بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر بن الخطاب مبشراً له بالفتح فقال معاوية ابن خديج لعمرو بن العاص ألا تكتب معى كتاباً فقال عمرو ما تصنع بالكتاب؟ ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت ، فلما قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجداً وقال الحمد لله وقيل بل كتب عمرو بن العاص مع مرسول كتابا لعمر بن الخطاب وقال فيه : أما بعد فإنى فتحت مدينة لاأصف ما فيها غير إنى أصبت فيها أربعة آلاف متنه وهى المكان الصلب المرتفع بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى وأربعمائة ملهى للملوك . قال ابن عبد الحكم لما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية وجد فيها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر ورحل منها سبعون ألف يهودى فى الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو بن العاص . قيل إن سبب فتح الاسكندرية أن رجلا كان يقال له ابن بسامة كان بواباً فسأل عمرو بن العاص أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو إلى ذلك ففتح له الباب فدخل ، وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى ألف من الرجال فلحق بأرض الروم أهل القوة وركبوا السفن وكان بها مائة مركب من المراكب الكبار تحمل فيها ثلاثون ألفاً مع ماقدروا عليه من المال والمتاع والأهل وبقى من بقى من الأسارى ممن بلغ الخراج فأحصى

يومئذ ستمائة ألف سوى النساء والصبيان فاختلف الناس على عمرو فى قسمتهم وكان أكثر الناس يريدون قسمتها فقال عمرو لا أقدر أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه يعلمه بفتحها وشأنها ويعلمه أن المسلمين طلبوا قسمتها ، فكتب إليه عمر لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئاً للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم فأقرها عمرو وأحصى أهلها وفرض عليهم الخراج فكانت مصر صلحاً بفريضة دينارين دينارين على كل رجل لا يزاد على كل واحد فى جزية أكثر من دينارين إلا أنه يلزم بقدر مايتوسع فيه من الأرض والزرع إلا الاسكندرية فإنهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى من وليهم لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة ، وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب قال كانت قرية من قرى مصر قاتلت ونقضوا فسبوا منها قرية يقال لها بلهيت وقرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطس ، وفرق سباياهم بالمدينة وغيرها فردهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل الذمة وأخرج عن يحيى بن أيوب أن أهل سلطيس وهصيل وبلهيت ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كان لهم ، فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم وقالوا هؤلاء لنافىء مع الاسكندرية ، فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه أن يجعل الإسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكون خراجهم وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ولا يجعلوا فيئا ولا عبيداً ففعلوا ذلك . وأخرج ابن عبد الحكم عن هشام ابن رقية اللخمى أن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه لما فتح مصر قال لقبط مصر من كتمنى كنزاً عنده فقدرت عليه قتلته وأن قبطياً من أهل الصعيد يقال له بطرس ذكروا لعمرو أن عنده كنزاً ، فأرسل إليه فسأله فأنكر وجحد فحبسه فى السجن ، وعمرو يسأل عنه هل يسمعونه يسأل عن أحد فقالوا : لا إنما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور ، فأرسل عمر إلى بطرس فنزع خاتمه من يده فكتب عمرو إلى ذلك الراهب أن أبعث إلى بما عندك وختمه بخاتم بطرس فجاءه رسوله بقلة شامية مختومة بالرصاص ففتحها عمرو فوجد

فيها صحيفة مكتوبا فيها ما لكم تحت الفسقية الكبيرة فأرسل عمرو إلى الفسقية فحبس عنها الماء ثم قلع منها البلاط الذى تحتها فوجد فيها اثنين وخمسين أردبا ذهبا مضروبة ، فضرب عمرو رأس بطرس عند باب المسجد فأخرج القبط كنوزهم شفقة أن يسعى على أحد منهم فيقتل كما قتل بطرس ، ثم ذكر الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة اختلاف العلماء أن مصر فتحت صلحا أو عنوة ، فنقل عن الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب أن مصر كلها صلح إلا الاسكندرية فإنها فتحت عنوة ، ونقل عن عون بن حطان أنه كان بقريات من مصر منهن أم دنين عهد وأخرج عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد قال فتح الله أرض مصر كلها بصلح غير الاسكندرية وثلاث قريات ظاهروا الروم على المسلمين سلطيس وهصيل وبلهيت ، ونقل عن أبى هبيرة أن مصر فتحت عنوة ، وأخرج عن عبد الرحمن بن زياد قال سمعت أشياخنا يقولون أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد وأخرج عن أبى العالية أنه سمع عمرو بن العاص رضى الله عنه يقول لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر على عهد إلا أهل انطابلس فإن لهم عهداً يوفى لهم به ، وزاد فى رواية عن أبى لهيعة أن عمراً قال : إن شئت قتلت وإن شئت خمست وإنه شئت بعت ، وفى رواية عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص أن عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شىء نظراً للاسلام وأهله وأخرج عن زيد بن أسلم ، قال : كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل عهد كان بينه وبين أحد ممن عاهدوه فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد ، وأخرج عن الصلت ابن أبى عاصم أنه قرأ كتاب عمر ابن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد ، وأخرج نحو ذلك عن أبى سلمة بن عبد حمن وعراك بن مالك وسالم بن عبد الله عمر ، وأخرج ابن عبد الحكم ومحمد بن الربيع الجيزى من طرق عن سفيان بن وهب الخولانى ، قال : لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوام فقال : يا عمرو أقسمها فقال عمرو بن العاص لا أقسمها فقال . الزبير : والله لتقسمنها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ، فقال : عمرو لم أكن لأحدث حدثا حتى أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين ، فكتب إليه

عمر بن الخطاب أقرها حتى يفدوا منها حبل الحبلة يعنى ولد الولد ، وروى ابن عبد الحكم عن ابن شهاب ، قال : كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة ، فيجعلها عمر ابن الخطاب رضى الله عنه جميعاً ذمة وحملهم على ذلك فمضى ذلك فيهم إلى اليوم ، قال القضاعى أن فتح مصر كان يوم الجمعة فى شهر محرم سنة عشرين وأنهم ساروا إلى الاسكندرية فى شهر ربيع الأول سنة عشرين وقيل فى آخر جمادى الآخرة ، وأن عمرو ابن العاص رضى الله عنه قفل من الاسكندرية بعد فتحها والمقام بها فى ذو القعدة سنة عشرين ، وقال الليث بن سعد أقام عمرو بالاسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر ، ثم انتقل إلى الفسطاط فاتخذها داراً ، وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية ، ورأى أن يسكنها ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى ذلك فسأل عمرو الرسول هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ، قال نعم يا أمير المؤمنين : إذا جرى النيل فكتب عمر إلى عمرو لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحول عمرو من الاسكندرية إلى الفسطاط ، وأخرج ابن عبد الحكم أيضاً عن يزيد بن أبى حبيب أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو نازل بمدائن كسرى وإلى عامله بالبصرة ، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالاسكندرية ، أن لا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم إليكم قدمت ، فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة وتحول عمرو ابن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط ، قال ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص لما كان بمصر كان له فسطاط ، فلما أراد التوجه إلى الاسكندرية أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ فقال لقد تحرم بنا فأمر به فأقره كما هو حتى يطير الفراخ ، وأوصى به صاحب القصر فلما قفل المسلمون من الاسكندرية ، قال : أين تنزل قال الفسطاط يعنى فسطاطه الذى خلعه وكان مضروبا فى موضع الدار الذى يعرف اليوم بدار الحصا فلذلك سميت مصر الفسطاط ، قال : القضاعى لما رجع عمرو بن العاص من الاسكندرية ونزل

موضع الفسطاط انضمت القبائل بعضها إلى بعض وتنافسوا فى المواضع ، فولى عليهم أمراء فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل ، وقال ابن قتيبة : أن العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط ، قال ابن فضل الله فى المسالك مسجد عمرو بن العاص مسجد عظيم بمدينة الفسطاط بناه عمرو موضع فسطاطه وما جاوره وموضع فسطاطه حيث المحراب والمنبر وبنى عمرو بن العاص داراً لعمر بن الخطاب وكتب له إنا قد اختططنا لك داراً عند المسجد الجامع ، فكتب إلى عمرو أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر وأمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين ، قال ابن لهيعة : هى دار البركة فجعلت سوقاً فكان يباع فيها الرقيق وبنى خارجة بن حذافة غرفة عالية ، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، سلام عليك أما بعد : فقد بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة وأراد أن يطلع على عورات جيرانه فإذا أتاك كتابى هذا فاهدمها إن شاء الله والسلام ، فلما جاءه الكتاب هدمها وسأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح الجبل المقطم بسبعين ألف دينار فعجب عمرو من ذلك ، فكتب فى ذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر سله لم أعطاك به ما أعطاك وهى لا تزرع وهى لا تستنبط بها ماء ولا ينتفع بها فسأله فقال : إنا لنجد صفتها فى الكتب إن فيها غراس الجنة وفى رواية أنا لنجد فى كتابنا أن ما بين هذا الجبل وحيث نزلتم ينبت فيه شجر الجنة ، فكتب بقوله إلى عمر ابن الخطاب فقال صدق فاجعلها مقبرة للمسلمين ، وفى رواية إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين فأقبر فيها من مات قبلك من المسلمين ولا تبعه بشىء فكان أول من دفن فيها رجل من مغافر يقال له عامر ، فقيل عمرت وروى عمرو بن العاص عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض » فقال أبو بكر رضى الله عنه ولم يارسول الله قال: « لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة» ثم قال عمر بن العاص فاحمدوا الله معاشر المسلمين على أولادكم ، ولما فتح عمرو مصر أتى

أهلها إليه حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الأمير : أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها فقال لهم : وما ذاك قالوا : إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبواها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام وإن الإسلام يهدم ما قبله ، فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى لا يجرى النيل قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك فكتب إليه قد أصبت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعث إليك بطاقة فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى ، فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الواحد القهار أن يجريك فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر ، وعن يزيد ابن حبيب أن موسى عليه السلام دعا على فرعون ، فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء وطلبوا من موسى أن يدعو الله رجاء أن يؤمنوا فدعا الله فأصبحوا وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فاستجاب الله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام .

ذكر فتوحات العراق

بعد مسير خالد بن الوليد إلى الشام

لما أراد خالد بن الوليد المسير إلى الشام بأمر أبى بكر رضى الله عنه ، أخذ معه بعض الجند كما تقدم واستخلف على من بقى بالعراق المثنى بن حارثة الشيبانى وهو صحابى من نسل دهل بن شيبان وينتهى نسبه إلى الربيعة بن نزار وفد على النبى عليه السلام سنة تسع مع وفود قومه ، وسيره أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى صدر خلافته إلى العراق قبل مسير خالد بن الوليد إلى العراق وهو الذى أطمع أبا بكر والمسلمين فى الفردوس وهون أمر الفرس عندهم وكان شهما شجاعا ميمون النقيبة حسن الرأى أبلى فى قتال الفرس بلاء

لم يبلغه أحد وكان استخلاف خالد له على جيش العراق بأمر من أبي بكر رضى الله عنه ،
فلما توجه خالد إلى الشام واستخلفه على الجند أقام بالحيرة ، وذلك سنة ثلاث عشرة ،
وكان الفرس قد هلك ملكهم كسرى كما تقدم ثم استقام أمرهم على تملك شهرزان بن
أزدشير بن شهريا بن سابور فوجه إلى المثنى بن حارثة جيشاً عظيما عليهم هرمز جاذويه
فخرج المثنى من الحيرة نحوه فأقام ببابل ، فأقبل هرمز نحوه وكتب ملكهم كسرى الذى
ملكوه عليهم إلى المثنى كتابا إنى قد بعثت إليكم جنداً من وحش أهل فارس إنما هم
رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلكم إلا بهم ، فكتب إليه المثنى إنما أنت أحد رجلين
إما باغ فذلك شر لك وخير لنا وأما كاذب فأعظم الكاذبين عند الله فضيحة ، وعند
الناس الملوك ، وأما الذى يدلنا عليه الرأى فإنكم إنما أضررتم بهم فالحمد لله الذى رد
كيدهم إلى رعاة الدجاج والخنازير فجزع الفرس من كتابه فالتقى المثنى وهرمز ببابل ،
فاقتتلوا قتالا شديداً وكان معهم فيل يفرق الناس فانتدب له المثنى ومعه ناس فقتلوه ،
وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون إلى المدائن يقتلونهم ومات ملكهم كسرى شهرزان لما
انهزم هرمز واختلف الفرس وبقى ما دون دجلة بيد المثنى ، ثم اجتمعت الفرس وملكوا
دخت زنان ابنة كسرى فلم ينفذ لها أمر ، فخلعوها وملكوا سابور بن شهرزان وقام
بتدبير أمره الفراخزاد بن لبنذوان فقتل وثارت بينهم فتنة وحصروا الملك سابور ، ثم
قتلوه وملكوا أزرميد أخت بنت كسرى وتشاغلوا بتلك الفتنة وأبطأ على المثنى خبر
أبى بكر رضى الله عنه ، فاستخلف على المسلمين بشير بن الخصاصية وهو صحابى من نسل
سدوس بن شيبان والخصاصية جدته نسب إليها وهى من الأزد وأبوه يزيد بن سعيد قدم
على النبى صلى الله عليه وسلم ومعه وفد الأزد وكان اسمه زحما ، فسماه النبى صلى الله عليه وسلم
بشيراً ، وكان سير المثنى إلى أبى بكر رضى الله عنهما ليخبره خبر المشركين ويستأذنه فى
الإستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين فإنهم أنشط إلى القتال من غيرهم ، فقدم المدينة
وأبو بكر مريض قد أشفى فأخبره فاستدعى عمر وقال إنى لأرجو أن أموت يومى هذا
فإذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم
ووصية ربكم فقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت وما أصيب الخلق

جيشه وإذا فتح الله على أهل الشام فاردد أهل العراق إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وأهل الجرأة عليهم ، ومات أبو بكر رضى الله عنه ليلا فدفنه عمر رضى الله عنه وندب الناس مع المثنى وكان الانتداب إلى فارس أثقل الوجوه على المسلمين وأكرهها إليهم لشدة سلطانهم وقوة شوكتهم وقهرهم الأمم ، فكان عمر رضى الله عنه يبايع الناس ثلاثة أيام وفى الرابع ندب الناس إلى العراق فكان أول منتدبيه أبو عبيدة بن مسعود الثقفى وهو صحابى أسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وهو والد المختار وانتدب أيضاً سعد بن عبيدة الأنصارى وسليط بن قيس الأنصارى وكان ممن شهد بدراً وتتابع الناس وتكلم المثنى فقال أيها الناس : لا يعظمن عليكم هذا الوجه فإنا قد فتحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد ونلنا منهم واجترأنا عليهم ولنا إن شاء الله ما بعدها فاجتمع الناس فقيل لعمر : أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار قال لا والله لا أفعل وإنما رفعهم الله بسبقهم ومسارعتهم إلى العدو فإذا فعل فعلهم قوم وتثاقلوا كان الذين ينفرون خفافاً وثقالا ويسبقون إلى الرفع أولى بالرياسة فهم والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً ثم دعا أبا عبيد وسعداً وسليطاً وقال لهما لو سبقتما لوليتكما ولأدركتما بها مالكما من السابقة فأمر أباعبيد وقال له : اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ولا يمنعنى أن أؤمر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب وفى التسرع إلى الحرب ضياع الأعراب فإنه لا يصلحها إلا الرجل المكيث وأوصاه بجندل فكان بعث أبى عبيد أول جيش سيره عمر رضى الله عنه ثم بعده سير يعلى بن أمية إلى اليمن وأمره بإجلاء أهل نجران بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن لا يجتمع بجزيرة العرب دينان واعتذر عمر فى عزله المثنى عن الإمارة بقوله إنى لم أعزله وخالد بن الوليد عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض فتنة .

ذكر خبر النمارق

فسار أبو عبيدة الثقفى وسعد بن عبيدة وسليط بن قيس الأنصاريان ومن معهم والمثنى ابن حارثة وأمره عمر بالتقدم إلى أن يقوم عليه أصحابه وأمرهم باستنفار من حسن إسلامه من أهل الردة ففعلوا ذلك وسار المثنى فقدم الحيرة وكان الفرس تشاغلوا عن المسلمين بما وقع بينهم ، ثم ملكوا عليهم بوران بنت كسرى بشرط أن تملك رستم بن الفرخزاد عشر سنين ثم يكون الملك فى آل كسرى ان وجدوا من غلمانهم وإلا ففى نسائهم فدعت بوران مرازبة فارس وأمرتهم أن يسمعوا لرستم ويطيعوا ، وتوجته فدانت له فارس قبل قدوم أبى عبيد ، ثم قدم المثنى إلى الحيرة فى عشر وقدم بعده أبو عبيدة بشهر فكتب رستم إلى الدهاقين أن يؤثروا بالمسلمين وبعث فى كل رستاق رجلا يؤثر بأهله ووعدهم يوما وبعث جندا لمصادمة المثنى وبلغ المثنى الخبر فعجل فخرج من الحيرة ونزل خفان ونزل جيش الفرس النمارق ، فسار إليه أبو عبيدة واقتتلوا بالنمارق قتالا شديداً فهزم الله أهل فارس وأسر رئيس جيشهم واسمه جابان ، ولحق المنهزمون كسكر وبها نرسى بن خالة الملك فسار إليهم أبو عبيد واقتتلوا قتالا شديداً ثم انهزم الفرس وهرب نرسى وغلب المسلمون على عسكره وأرضه وجمعوا الغنائم ، ولما بلغ بوران ورستم هزيمة جابان بعثا الجالينوس بجيش فنزل بباقيشاثا فسار إليه أبو عبيد فهزمه وهرب الجالينوس وغلب أبو عبيد على تلك البلاد ، ثم ارتحل حتى قدم الحيرة وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى عبيد إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية تقدم على قوم تجرؤا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه ، فانظر كيف تكون واحذر لسانك ولا تفشين سرك فإن صاحب السر ما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرره وإذا ضيعه كان بمضيعة فكان أبو عبيد شديد الحذر والتحفظ حسن التدبير محافظا على ما أوصاه به عمر رضى الله عنه .

ذكر وقعة قس الناطف

ويقال لها الجسر واستشهاد أبى عبيدة رضى الله عنه

ولما رجع الجالينوس إلى رستم منهزماً ومن معه من جنده ، قال رستم أى العجم أشد على العرب قالوا بهمن جاذويه المعروف بذى الحاجب فوجهه ومعه فيله ورد الجالينوس معه وقال لبهمن إن انهزم الجالينوس ثانية فاضرب عنقه فأقبل بهمن جاذويه فنزل بقس الناطف ، وأقبل أبو عبيد فنزل بالمروحة فرأت دومة امرأة أبى عبيد فى المنام أن رجلا نزل من السماء بإناء فيه شراب فشرب أبو عبيد ومعه نفر فأخبرت بها أبو عبيد فقال هذه الشهادة إن شاء الله تعالى فعهد إلى الناس فقال إن قتلت فعلى الناس فلان فإن قتل فعليهم فلان حتى أمر الذين شربوا من الإناء وكلهم من قومه ثقيف ، ثم قال فإن قتل فلان فعلى الناس المثنى بن حارثة ثم عبر على الجسر بجيوشه إلى قس الناطف فالتقى مع بهمن وجيوشه واقتتلوا قتالا شديداً ، واشتد الأمر بالمسلمين ، فترجل أبو عبيد والناس ثم مشوا إليهم ثم صافحوهم بالسيوف فجعلت الفيلة لاتحمل على جماعة إلا دفعتهم فنادى أبو عبيد احتوشوا الفيلة وقطعوا بطانها واقبلوا عنها أهلها ووثب هو على الفيل الأبيض فقطع بطانه ووقع الذى عليه ، وفعل القوم مثل ذلك فما تركوا فيلاإلا حطوا رحله وقتلوا أصحابه وأهوى الفيل لأبى عبيد فضربه أبو عبيد بالسيف وخبطه الفيل بيده فوقع فوطئه الفيل وقام عليه ، فلما بصر به الناس تحت الفيل خشعت أنفس بعضهم ثم أخذ اللواء الذى أمر به بعده فقاتل الفيل حتى تنحى عن أبى عبيد فأخذه المسلمون فأحرزوه ، ثم قتل الفيل الأمير الذى بعد أبى عبيد وتتابع سبعة أنفس من ثقيف كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ثم أخذ اللواء المثنى بن حارثة فهرب عنه الناس ، فلما رأى عبدالله بن مرشد الثقفى ما لقى أبو عبيد وما يصنع الناس بادرهم إلى الجسر فقطعه ، وقال أيها الناس : موتوا على مامات عليه أمراؤكم أو تظفروا وحاز المشركون المسلمين إلى الجسر فتواثب بعضهم إلى الفرات فغرق من لم يصبروأسرعوا فيمن صبر وحمى المثنى وفرسان من المسلمين الناس وقال : إنا دونكم فاعبروا على هينتكم ولا تدهشوا ولا تغرقوا أنفسكم وقاتل

عروة بن زيد الخيل وأبو محجن الثقفى قتالا شديداً وقاتل أبو زيد الطائى قتالا شديداً حمية للعرب وكان نصرانيا قدم الحيرة لبعض أمر ، ونادى المثنى من عبر نجا و أمر بعقد الجسر فعبر الناس وكان آخر من قتل سليط بن قيس وعبر المثنى فلما عبر أرفض عنه أهل المدينة وبقى المثنى فى قلة ، وكان قد جرح وأثبت فيه حلق من درعه وكان جملة من مات من المسلمين أربعة آلاف بين قتيل وغريق وقتل من الفرس ستة آلاف وأراد بهمن جازوية العبور خلف المسلمين فأتاه الخبر باختلاف الفرس وأنهم قد ثاروا برستم ونقضوا الذين بينهم وبينه وأنهم صاروا فريقين الفهلوج على رستم وأهل فارس على الفيرزان ورجع بهن إلى المدائن .

ذكر وقعة البويب

لما بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقعة أبى عبيد بالجسر ، ندب الناس إلى المثنى وكان ممن ندب بجيلة وأمرهم إلى جرير بن عبد الله البجلى فاجتمع كثير منهم فأمرهم عمر بالتوجه إلى العراق فأبوا إلا الشام ، فعزم عليهم عمر التوجه إلى العراق وينفلهم ربع الخمس فأجابوا وسيرهم إلى المثنى ، وكتب إلى أهل الردة فلم يأته أحد إلا بعثه إلى المثنى ، وبعث المثنى الرسل فيمن يليه من العرب فتوافدوا إليه فى جمع عظيم وجاءه أنس بن هلال النمرى فى جمع عظيم من النمر نصارى ، وقالوا نقاتل مع قومنا وبلغ الخبر رستم والفيرزان ، فجمعوا جموعهم من وراء الفرات واجتمع المسلمون بالبويب ، وكان على جيش الفرس مهران الهمدانى فأرسل إلى المثنى يقول : إما أن تعبر إلينا وإما أن نعبر إليك ، فقال المثنى : اعبروا فعبر مهران فنزل على شاطىء الفرات وعبر المثنى أصحابه وكان فى رمضان فأمرهم بالإفطار ليقوموا على عدوهم فأفطروا ، وأقبل الفرس فى ثلاث صفوف مع كل صف فيل لهم زجل فقال المثنى لأصحابه ان الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت ودنوا من المسلمين وطاف المثنى فى صفوفه يحرضهم ، وقال إنى مكبراً ثلاثاً فتهيئوا ثم احملوا فى الرابعة فلما كبروا أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم ، فلما طال القتال

واشتد قال المثنى لأنس بن هلال النمرى إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا فإذا حملت على مهران فاحمل معى فأجابه ، فحمل المثنى على مهران فأزاله حتى دخل فى ميمنته ثم خالطوهم واجتمع القلبان وارتفع الغبار والمجنبتان تقتتل ولا يستطيعون أن يفزعوا لنصر أميرهم لا المسلمون ولا المشركون ، وأفنى المثنى قلب المشركين فلما رأوه قد أزال القلب وثبت مجنبتا المسلمين على مجنبتى المشركين وجعلوا يردون الأعاجم على أدبارهم حتى هزموا الفرس ، وسبقهم المثنى إلى الجسر وأخذ طريق الأعاجم فافترقوا مصعدين ومنحدرين ، وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جثثا وبقيت عظام القتلى دهراً طويلا وكانوا يحرزون القتلى مائة ألف وسمى ذلك اليوم يوم الأعشار أحصى مائة رجل من المسلمين قتل كل رجل منهم عشرة من الفرس ، وتبعهم المسلمون إلى الليل ومن الغد إلى الليل وغنم المسلمون غنائم كثيرة وأعطى بجيلة ربع الخمس كما شرط لهم عمر رضى الله عنه .

ذكر خبر الخنافس وسوق بغداد

سوق الخنافس يجتمع بها تجار مدائن كسرى والسواد وقضاعة وربيعة يخفرونهم فركب المثنى وأغار على الخنافس يوم سوقها فانتهب السوق وما فيها وسلب الخضراء ثم رجع إلى الأنبار فتحصن أهلها منه فلما عرفوه نزلوا إليه وأتوه بالأعلاف والزاد وأخذ منهم الأدلاء على سوق بغداد وهو موضع المدينة التى اختطها المنصور فيما بعد وصبحهم فى أسواقهم فوضع السيف فيهم وأخذ ما شاء ، ثم رجع إلى الأنبار وشن الغارات بخيول أصحابه على الأطراف وبعث خيلا على أحياء تغلب بصفين ، فأغاروا عليهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذارية واستاقو الأموال وأغاروا على قوم من تغلب والنمر بشاطىء دجلة ففروا وأدركوهم بتكريت فأصابو ما شاءوا من النعم .

ذكر الخبر الذى هيج أمر القادسية وتملك يزدجرد

لما رأى أهل فارس ما يفعل المسلمون بالسواد قالوا لرستم والفيرزان وهما على أهل

فارس لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم ولم يبلغ من أمركما أن نقركما على هذا الرأى وإن تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت إلا المداين والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما ثم نهلك وقد اشتفينا منكما ، ولم يبق من ولد كسرى من الذكور إلا غلام عمره أحد وعشرون سنه يدعى يزدجرد فملكوه واجتمعوا عليه فاطمأنت فارس واستوثقوا وتبارى المرازبة فى طاعته ومعونته ، فجندوا جنوداً كثيرة ، فبلغ ذلك المثنى والمسلمين فكتبوا إلى عمر بن الخطاب ثم بلغهم أن أهل السواد كفروا وصار من له عهد كمن لاعهد له ، فلما وصل الكتاب إلى عمر رضى الله عنه قال : والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب فلم يدع رأساً ولا ذا رأى وشرف وبسطة ولا خطيباً ولاشاعراً إلا ورماهم به فرماهم بوجوه الناس وغررهم ، وكتب عمر إلى المثنى ومن معه يأمره بالخروج من بين العجم والتفرق فى المياه التى تلى العجم وأن لا يدعوا فى ربيعة ومضر وخلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً إلا أحضروه إما طوعا أو كرها ففعلوا ذلك ، وكان ذلك فى ذى القعدة سنة ثلاث عشرة ، وأرسل عمر فى الحجة عند مخرجه إلى الحج إلى عماله على العرب أن لا يدعوا من له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأى إلا وجهوه إليه فأما من كان على النصف ما بين المدينة والعراق فجاء إليه بالمدينة لما عاد من الحج ، وأما من كان أقرب إلى العراق فانضم إلى المثنى بن حارثة وجاءت إمداد العرب الى عمر ، ولما اجتمع الناس استخلف على المدينة علياً رضى الله عنه وخرج من المدينة حتى نزل على ماء يدعى ضراراً فعسكر به فى ابتداء سنة أربع عشرة ولا يدرى الناس ماذا يريد أيسير أم يقيم فسأله عثمان عن سبب حركته فأحضر الناس فأعلمهم الخبر واستشارهم فى المسير إلى العراق فقال العامة سر وسر بنا معك ، فدخل معهم فى رأيهم وقال : غدواً واستعدوا فانى سائر إلا أن يجىء رأى هو أمثل من هذا ، ثم جمع وجوه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسل يطلب حضور على رضى الله عنه من المدينة فحضر فاجتمع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وعثمان والزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف ثم استشارهم فاتفقوا على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويرميه بالجنود فإن كان الذى يشتهى فهو الفتح وإلا أعاد رجلا وبعث آخر ففى ذلك غبن العدو فجمع عمر بقية النـاس وقال لهم إنى كنت عزمت على المسير حتى صرفنى ذوو الرأى منكم وقد رأيت أنى أقيم وأبعث رجلا فأشيروا على برجل ، وكان سعد بن أبى وقاص بعثه لصدقات هوازن وكتب إليه بانتخاب ذوى الرأى والنجدة والسلاح فجاء كتابه وعمر يستشير الناس فيمن يبعثه يقول سعد فى كتابه : قد انتخبت لك ألف فارس كلهم ذوو نجدة ورأى وصاحب حيطة يحفظ حريم قومه إليهم انتهت أحسابهم ورأيهم فلما وصل كتابه لعمر قالوا له : قد وجدته يا أمير المؤمنين ، قال من هو ؟ قالوا سعد بن مالك وهو سعد بن أبى وقاص ، فانتهى إلى قولهم فأرسل إليه وطلبه وأقره على حرب العراق وأوصاه بوصايا كثيرة وسرحه فيمن اجتمع إليه من نفر المسلمين وهم أربعة آلاف ثم أمده بألفين من أهل اليمن وألفين من أهل نجد وكان المثنى فى ثمانية آلاف وكان سعد بن أبى وقاص من بنى زهرة بن كلاب وهم رهط آمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم فهو سعد بن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وآمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب فيلتقى نسبه مع آمنة فى عبد مناف بن زهرة ومع النبى صلى الله عليه وسلم فى كلاب بن مرة ، وكان سعد رضى الله عنه من السابقين فى الإسلام ومن العشرة المبشرين بالجنة ومن الشجعان المشهورين ، وهو أول من راق دما فى سبيل الله وأول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وشاهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبلى يوم أحد بلاء عظيما ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض وشهد له بالجنة ، ودعا له أن الله يجيب دعوته ، فكان مجاب الدعوة ومناقبه كثيرة رضى الله عنه وبه فتح الله العراق ، ولمـا طعن عمر رضى الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى المستحقين للخلافة ، ومما أوصاه به عمر رضى الله عنه لمـا جعله أميراً على جيوش العراق أن قال لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحب

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله لايمحو بالسيء السيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته فالناس فى ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويذكرون ما عندهم بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ووصاه بالصبر وسار سعد والمثنى قبله ، وصار ينتظر قدومه فمات المثنى قبل قدوم سعد من جراحات كانت به انتقضت عليه ولما وصل سعد رتب الجيوش ولم يزل عمر رضى الله عنه يمده بالرجال حتى استكمل عنده ستة وثلاثون ألفاً وأوصى المثنى قبل موته أخاه المعنى بن حارثة أن يبلغ سعداً إذا قدم أن يقاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ولا يقاتلوهم فى قعر دارهم فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة ثم يكون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أن يرد الله الكرة عليهم فلما بلغ سعد ذلك ترحم على المثنى ومن معه وكان مع سعد تسعة وتسعون من أهل بدر وثلثمائة وبضعة عشر ممن كانت لهم صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك وثلثمائة ممن شهدوا فتح مكة وسبعمائة من أبناء الصحابة وقدم على سعد كتاب عمر بمثل رأى المثنى . روى الطبرانى أن عمر رضى الله عنه كتب إلى سعد بن أبى وقاص قد وجهت إليك وأمددتك بألفى رجل عمر بن معدى كرب وطليحة ابن خويلد ، فشاورهما فى الحرب ولا تولهما وإنما قال ولا تولهما لما يعلم فيهما من شدة الإقدام بالعسكر وعدم التأنى ، وكان كل منهما يعد بألف فارس لشجاعتهما وشدتهما وسيأتى ذكر شىء مما يدل على ذلك ، وكان ملك العرب عامل كسرى بالحيرة قبيصة بن إياس الطائى فلما سمع بمجىء سعد سأل عنه وعنده عبد الله بن سنان الأسدى فأخبره أن سعداً رجل من قريش ، فقال قبيصة والله لأحاد به القتال فإن قريشا عبيد من غلب والله لايخرجون من بلادهم إلا بخفى ، فغضب عبد الله بن سنان من قوله وأمهله حتى دخل قبته فقتله ، ولحق بسعد فأسلم وسار سعد بالجيوش حتى نزل القادسية وهى قريب من موضع الكوفة ، وكتب عمر بن الخطاب لسعد رضى الله عنهما إنكم إذا لقيتم العدو وهزمتموهم فمتى لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو بإشارة أو بلسان كان عندهم

أمانا ، فأجروا لهم ذلك مجرى الأمان والوفاء فإن الخطأ بالوفاء بقية وإن الخطأ بالغدر هلكة فيها وهنكم وقوة عدوكم وكان سعد قد جعل على مقدمة جيشه زهرة بن عبد الله ابن قتادة ابن الحوية التميمي وهو صحابي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم فلما نزل زهرة في المقدمة وأمسى بعث سرية في ثلاثين معروفين بالنجدة وأمرهم بالغارة على الحيرة فلما جاوزوا السليحين سمعوا جلبة ، فمكثوا حتى حاذوهم وإذا أخت ازاد مرد بن ازاد به مرزبان الحيرة تزف إلى صاحب الصنين وهو من أشراف العجم فحمل بكير بن عبد الله الليثي أمير السرية على شيرزاد بن ازاد به فدق صلبه وطارت الخيل على وجوهها وأخذوا الأثقال وآنية أزادبه في ثلاثين أمراء من الدهاقين ومائة من التوابع ومعهم مالا يدرى قيمته فاستاق ذلك ورجع به وأتى به سعداً فقسم ذلك على المسلمين ومكث سعد بالقادسية شهراً لم يأته أحد من الفرس وخيله تغير بالأطراف وتأتى بغنائم كثيرة حتى أخصب المسلمون ، ووصف بعض من كان مع سعد قوم سعد الذين كانوا معه في الجيش للحجاج ابن يوسف بقوله : ما رأينا قط أزهد في دنيا منهم ولا أشد بغضا لها وكانوا أبرار أتقياء ليس فيهم جبان ولا غدار ، فاستغاث أهل السواد إلى يزدجرد وأعلموه أن العرب قد نزلوا القادسية ولا يبقى على فعلهم شيء ، وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات ونهبوا الدواب والأطعمة وإن أبطأت الغياث أعطيناهم بأيدينا وكتب له بذلك الذى لهم الضياع وهيجوه على إرسال الجنود ، فأرسل يزدجرد إلى رستم وقال له : إنى أوجهك في هذا الوجه فأنت رجل فارس اليوم وقد ترى ما حل بالفرس مما لم يأتهم مثله فأظهر له الإجابة ، ثم قال له : دعنى فإن العرب لاتزال تهاب العجم مالم تضربهم بى ولعل الدولة أن تثبت بى إذا لم أحضر الحرب فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة والرأى في الحرب أنفع من بعض الظفر والأناة خير من العجلة وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا فأبى عليه وأعاد رستم كلامه وقال : قد اضطر تضييع الرأى إلى إعظام نفسى وتزكيتها ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به فأنشدك الله في نفسك وملكك ودعنى أقم بعسكرى وأسرح الجالينوس فإن تكن لنا فذلك وإلا بعثنا غيره حتى إذا لم نجد بداً

صبرنا لهم وقد وهناهم ونحن حامون فإنى لا أزآل مرجواً فى أهل فارس مالم أهزم فأبى إلا أن يسير ، فخرج حتى ضرب عسكره بساباط وعلى مقدمته الجالينوس فى أربعين ألفاً ، وخرج هو فى ستين ألفاً وفى ساقته عشرون ألفا وجاءت الأخبار إلى سعد بذلك ، فكتب إلى عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر لا يكربنك ما يأتيك منهم واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه رجالا من أهل المناظرة والرأى والجلد يدعونه إلى الله فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم فأرسل سعد نفراً ممن هم كذلك وأمرهم أن يأتوا يزدجرد فخرجوا من العسكر وتركوا رستم ، واستأذنوا على يزدجرد فأذن لهم فدخلوا وقد أحضر وزراءه ورستم معهم واستشارهم فيما يصنع ويقوله لهم واجتمع الناس ينظرون إليهم وتحتهم خيول كلها صهال وعليهم البرود وبأيديهم السياط ، وأحضر الترجمان وقال سلهم ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا من أجل أننا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا فقال : النعمان بن مقرن لأصحابه : إن شئتم تكلمت عنكم ومن شاء آثرته فقالوا . بل تكلم فقال : إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على إجابته خيرى الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا وقاربه منها فرقة وتباعد منها فرقة ، ثم أمر أن نبتدىء إلى من خالفه من العرب فبدأنا بهم فدخلوا معه على وجهين مكره عليه فاغتبط وطامع فازداد فعرفنا جميعاً فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبتدىء بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزية فإن أبيتم فالمناجزة فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وإن بذلتم الجزية قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم ، فتكلم يزدجرد وقال : إنى لا أعلم أمة فى الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفونا أمركم ولا تطمعوا أن تقدموا لفارس، فإن كان غزوور لحقكم فلا يغرنكم منا وإن كان الجهد فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم، فقام المغيرة بن زرارة الأسدى وقال :

أيها الملك إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الأشراف وإنما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف وليس كل ما أرسلوا به قالوه ولا كل ما تكلمت به أجابوك عنه فجاوبني لأكون الذي أبلغك وهم يشهدون على ذلك ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فهي على ما وصفت وأشد ثم ذكر من سوء عيش العرب وإرسال النبي صلى الله عليه وسلم إليهم نحو قول النعمان وقتال من خالفهم أو الجزية ، ثم قال له : اختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجي نفسك فقال : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم لا شيء لكم عندي ثم استدعى بوقر من تراب فقال احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ثم قال لرسل سعد : ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أني مرسل إليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور فقام عاصم بن عمرو الكناني الليثي ليأخذ التراب وقال : أنا أشرفهم أنا سيد هؤلاء فحمله على عنقه وخرج إلى راحلته فأخذ التراب وركبها وقال لسعد لما جاءه أبشر : قد أعطانا الله مقاليد ملكهم واشتد ذلك على جلساء الملك وقال الملك لرستم ما كنت أرى أن في العرب مثل هؤلاء ما أنتم بأحسن جواباً منهم ولقد صدقني القوم لقد وعدوا أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه على أني وجدت أفضلهم أحمقهم حيث حمل التراب على رأسه فقال رستم أيها الملك إنه أعقلهم وتطير إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه وخرج رستم من عند الملك غضبان كئيبا ، وبعث في أثر الوفد وقال لثقته إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا وإن أعجزوه سلبكم الله أرضكم فرجع الرسول من الحيرة بفواتهم ، فقال ذهب القوم بأرضكم من غير مثال وكان منجما كاهنا وأغار سواد بن مالك التيمي بعد مسير الوفد إلى يزدجرد على النجاف والفراض فاستاق ثلاثمائة دابة بين بغل وحمار وثور وأوقروها سمكا ، وصبح العسكر فقسمه سعد بين الناس ويسمون ذلك اليوم يوم الحيتان ، وبعث سعد سرية أخرى فأصابوا إبلا لبني تغلب والنمر واستاقوها ومن فيها فنحر سعد الإبل وقسمها في الناس فأخصبوا وغار عمرو ابن الحارث على النهرين فاستاق مواشي كثيرة وعاد وسار رستم من ساباط وجمع آلة

الحرب وقال رستم للملك يشجعه بذلك إن فتح الله علينا توجهنا إلى ملكهم فى دارهم حتى نشغلهم فى أهلهم وبلادهم إلى أن يقبلوا المال ، ولما فصل رستم عن ساباط كتب إلى أخيه البنذوان أما بعد فرموا حصونكم وأعدوا واستعدوا فكأنكم بالعرب قدقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم وقد كان من رأيي مدافعتهم ومطاولتهم حتى تعود سعودهم نحوساً فإن السمكة قد كدرت الماء وأن النعام حسنت والزهرة قد حسنت واعتدل الميزان وذهب بهرام ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا ويستولون على ما يلينا وإن أشد ما رأيت إن الملك قال : لتسيرن أو لأسيرن بنفسى ، ولقى جابان رستم على قنطرة ساباط وكانا منجمين فشكا إليه وقال له ألا ترى ما أرى فقال له رستم أما أنا فأقاد بخشاش وزمام ولا أجد بداً من الانقياد ، ثم سار فنزل بكوثى فأتى برجل من العرب فقال ما جاء بكم وماذا تطلبون فقال : جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا قال رستم : فإن قتلتم قبل ذلك قال : من قتل منا دخل الجنة ومن بقى منا أنجزه الله ما وعده فنحن على يقين ، فقال رستم : قد وضعنا إذن فى أيديكم فقال أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها فلا يغرنك من ترى حولك فإنك لست تحاول الأنس وإنما تحاول القدر فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس فغصب أصحابه الناس أبناءهم وأموالهم ووقعوا على النساء وشربوا الخمور فضج أهلها إلى رستم فقال يامعشر فارس والله لقد صدق العربى . والله ما أسلمنا إلا أعمالنا والله إن العرب مع هؤلاء وهم لهم حزب أحسن سيرة منكم إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم فى البلاد بحسن السيرة وكف الظلم والوفاء والإحسان فإذا تغيرتم فلا أري الله إلا مغيراً ما بكم وما أنا بآمن من أن ينزع الله سلطانه منكم ، وأتى ببعض من يشكى منه فضرب عنقه ثم سار حتى نزل الحيرة ودعا أهلها وتهددهم وهم بهم فقال له ابن بقيلة لا تجمع علينا أن تعجز عن نصرتنا وتلومنا على الدفع عن أنفسنا ، ولما نزل رستم بالنجف رأى فى منامه كأن ملكا نزل من السماء ومعه النبى صلى الله عليه وسلم وعمر فأخذ الملك سلاح أهل فارس فختمه ، ثم دفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فدفعه النبى صلى الله عليه وسلم إلى عمر فأصبح رستم حزينا ، وأرسل سعد السرايا ورستم بالنجف

والجالينوس بين النجف والسليحين فطافت فى السواد فبعث سواداً وحميضة فى مائة فأغاروا على النهرين ، وبلغ رستم الخبر فأرسل إليهم خيلا وسمع سعد أن خيله قد وغلت فأرسل عاصم بن عمرو وجابر الأسدى فى آثارهم فلقيهم عاصم وخيل فارس تحوشهم ليخلصوا ما بأيديهم ، فلما رأته الفرس هربوا ورجع المسلمون بالغنائم ، وأرسل سعد عمرو بن معد يكرب وطليحة الأسدى طليعة فساروا فى عشرة فلم يسيروا إلا فرسخا وبعض آخر حتى رأوا مسالحهم وسرحهم على الطفوف قد ملؤوها ، فرجع عمرو ومن معه وأبى طليحة إلا التقدم فقالوا له أنت رجل فى نفسك غدر ولن تفلح بعد قتل عكاشة ابن محصن فارجع معنا ، فأبى فرجعوا إلى سعد فأخبروه بقرب القوم ، ومضى طليحة حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه ويتوسم فهتك أطناب بيت رجل عليه واقتاد فرسه ثم هتك على آخر بيته وحل فرسه ثم فعل بآخر كذلك ثم خرج يعدو به فرسه و نذر به الناس فركبوا فى طلبه فأصبح وقد لحقه فارس من الجند فقتله طليحة ثم آخر فقتله ثم لحق به ثالث فرأى مصرع صاحبيه وهما ابنا عمه فازداد فلحق طليحة فكر عليه طليحة وأسره ولحق الناس فرأوا فارسى الجند قد قتلا وأسر الثالث وقد شارف طليحة عسكره فأحجموا عنه ، ودخل طليحة على سعد ومعه الفارسى ، وأخبره الخبر ، فسأل الترجمان الفارسى عن ذلك فطلب الأمان فأمنه سعد ، فقال أخبركم عن صاحبكم هذا قبل أن أخبركم عمن قبلى باشرت الحروب منذ أنا غلام إلى الآن ، وسمعت بالأبطال ولم أسمع بمثل هذا أن رجلا قطع فرسخين إلى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الرجل منهم الخمسة والعشرة فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فرسان الجند وهتك عليهم البيوت فلما أدركناه قتل الأول وهو يعد بألف فارس ثم الثانى وهو نظيره ثم أدركته أنا ، وخلفت من بعدى من يعدلنى وأنا الثائر بالقتيلين فرأيت الموت واستؤسرت ، ثم أخبره عن الفرس وأسلم ، ولزم طليحة وكان من أهل البلاء بالقادسية وسماه سعد مسلما ، ثم سار رستم وقدم الجالينوس وبهمن ذو الحاجب فنزل الجالينوس بحيال زهرة بن الحوية ونزل ذو الحاجب بطرز ناباذ ونزل رستم بالجزارة ، ثم سار رستم فنزل بالقادسية ، وكان بين مسيره من

المدائن ووصوله القادسية أربعة أشهر لا يقدم لأجل أن يطاول المسلمين رجاء أن يضجروا بمكانهم فينصرفوا وكان قصده أن يطاولهم أكثر من ذلك لولا أن الملك يستعجله وينهضه ، وكان عمر قد كتب إلى سعد يأمره بالصبر والمطاولة أيضاً فاستعد للمطاولة ولم يتضرر بها وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا منها فيل سابور الأبيض ، وكانت الفيلة تألفه فجعل فى القلب ثمانية عشر فيلا وفى الجنبتين خمسة عشر فيلا ، فلما أصبح رستم من تلك الليلة ركب وسار حتى أتى على منقطع عسكر المسلمين ثم صعد حتى إنتهى إلى القنطرة فتأمل المسلمين ووقف على موضع يشرف منه عليهم ولو وقف على القنطرة ، وأرسل إلى زهرة فوافقه فأدار ظهره على أن يصالحه ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه من غير أن يصرح له بذلك بل يقول له كنتم جيراننا وكنا نحسن إليكم ونحفظكم ويخبره عن صنيعهم مع العرب فقال له زهرة ليس أمرنا أمر أولئك إنا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، وقد كنا كما ذكرت إلى أن بعث الله فينا رسولا فدعانا إلى ربه فأجبناه ، فقال الله لرسوله إنى سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى فأنا منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد إلا ذل ولا يعتصم به أحد إلا عز ، فقال رستم ما هو قال أما عموده الذى لا يصلح إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قال وأى شىء أيضاً قال وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله والناس بنو آدم وحواء أخوة لأب وأم قال ما أحسن هذا ثم قال رستم أرأيت إن أجبت إلى هذا معى قومى كيف يكون أمركم أترجعون قال أى والله قال صدقتنى أما أن أهل فارس منذولى أزدشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة وكانوا يقولون : إذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم ، فقال زهرة : نحن خير الناس للناس فلا نستطيع أن نكون كما تقولون بل نطيع الله فى السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا فانصرف عنه ودعا رجال فارس فذاكرهم هذا فأنفوا ، فأرسل إلى سعد أن ابعث إلينا رجلا نكلمه ويكلمنا فدعا سعد جماعة ليرسلهم فقال له ربعى ابن عامر متى نأتهم جميعاً يروا إنا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل فأرسله وحده

فسار إليهم فحبسوه على القنطرة ، وأعلم رستم بمجيئه فأظهر زينته وجلس على سريره من ذهب وبسط البسط والنمارق والوسائد المنسوجة بالذهب وأقبل ربعى على فرسه وسيفه فى خرقة ورمحه مشدود بعصب وقد ، فلما انتهى إلى البسط قيل له : أنزل فحمل فرسه عليها ونزل وربطها بوسادتين شقهما ، وأدخل الحبل فيهما فلم ينهوه وأروه التهاون وعليه درع ، وأخذ عباءة بعيره فتدرعها وشدها على وسطه فقالوا ضع سلاحك فقال : لم آتكم لأضع سلاحى بأمركم أنتم دعوتمونى ، فأخبروا رستم فقال ائذنوا له : فأقبل يتوكأ على رمحه ويقارب خطوه فلم يدع لهم نمرقاً ولا بساطاً إلا أفسده وهتكه برمحه ، فلما دنا من رستم جلس على الأرض وركز رمحه على البسط فقيل له : ماحملك على هذا قال : إنا لا نستحب القعود على زينتكم فقال له ترجمان رستم : ما جاء بكم قال الله جاء بنا وهو بعثنا لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، من قبله قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه دوننا ومن أبى قتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر ، فقال رستم : قد سمعنا قولكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ، قال نعم وأن مما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث فنحن مترددون عنكم ثلاثاً فانظر فى أمرك واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل إما الإسلام وندعك وأرضك أو الجزية فنقبل ونكف عنك وإن احتجت إلينا نصرناك أو المنابذة فى اليوم الرابع إلا أن تبدأ بنا أنا كفيل بذلك عن أصحابى ، قال أسيدهم أنت ؟ قال لا ، لكن المسلمون كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز أدناهم على أعلاهم فخلا رستم برؤساء قومه فقال هل رأيتم كلاما قط أعز وأوضح من كلام هذا الرجل فقالوا معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه فقال ويحكم لا تنظروا إلى ثيابه ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسيرة أن العرب تستخف باللباس وتصون الأحساب ليسوا مثلكم ، فلما كان من الغد أرسل رستم إلى سعد أبعث إلينا ذلك الرجل فبعث إليهم حذيفة بن محصن ، فأقبل فى نحو من ذلك الزى ولم ينزل عن فرسه ووقف على رستم راكباً قال له أنزل قال لا أفعل

فقال له : ما جاء بك ولم لم يجيء الأول قال له إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا فى الشدة والرخاء وهذه نوبتى فقال ما جاء بكم فأجابه مثل الأول فقال رستم المواعدة إلى يوم ما قال نعم ثلاثاً من أمس فرده وأقبل على أصحابه وقال : ويحكم أما ترون ما أرى ، جاءنا الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا وحقر مانعظم وأقام فرسه على زبرجنا وجاء هذا اليوم فوقف علينا وهو فى يمن الطائر يقوم على أرضنا دوننا ، فلما كان الغد أرسل إلى سعد أبعث إلينا رجلا ، فبعث المغيرة ابن شعبة فأقبل إليهم وعليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة لا يوصل إلى صاحبهم حتى يمشى عليها فأقبل المغيرة حتى جلس موضع رستم على سريره فوثبوا عليه وأنزلوه ومعكوه فقال : قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى فكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض فإن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد وأنى لم آتكم ولكن دعوتمونى اليوم علمت أنكم مغلبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول ، فقالت السفلة : صدق والله العربى وقالت الدهاقين : والله لقدرمى بكلام لا تزال عبيدنا ينزعون إليه قاتل الله أولينا حيث كانوا يصغرون أمر هذه الأمة ، ثم تكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وقال : لم نزل متمكنين فى البلاد ظاهرين على الأعداء أشرافاً فى الأمم فليس لأحد مثل عزنا وسلطاننا ننصر عليهم ولا ينصرون علينا إلا اليوم واليومين والشهر للذنوب ، فإذا انتقم الله منا ورضى علينا يرد لنا الكرة على عدونا ، ولم يكن فى الأمم أمة أصغر عندنا أمراً منكم كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئاً وكنتم تقصدوننا إذا قحطت بلادكم فنأمر لكم بشىء من التمر والشعير ثم نردكم وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا الجهد فى بلادكم. فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم وآمر لكل واحد منكم بوقر تمر وتنصرفون عنا فإنى لست أشتهى أن أقتلكم ، فتكلم المغيرة فحمد الله وأثنى عليه وقال : إن الله خالق كل شىء ورازقه فمن صنع شيئاً فإنما هو يصنعه وأما الذى ذكرت به نفسك وأهل

بلادك فنحن نعرفه فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم ، وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال والضيق والاختلاف فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا به والدنيا دول ولم يزل أهل الشدائد يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه ولم يزل أهل الرخاء يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال ، ولو كنا فيما ابتلينا به أهلا لكان عظيم ما ابتلينا به مستجلباً من الله رحمة ورأفة علينا إن الله تبارك وتعالى قد بعث فينا رسولا ، ثم ذكر مثل ما تقدم من ذكر الإسلام والجزية والقتال وقال له : وإن عيالنا قد ذاقوا طعام بلادكم فقالوا لا صبر لنا عنه ، فقال رستم : إذن تموتون دونها ! فقال المغيرة : يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، يظفر من بقى منا بمن بقى منكم ، فاستشاط رستم غضبا ثم حلف أن لا يرتفع الصبح غداً حتى نقتلكم أجمعين ، وانصرف المغيرة وخلا رستم بأهل فارس وقال أين هؤلاء منكم هؤلاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين ، والله لئن كان بلغ من عقلهم وصوتهم لسرهم أن لا يختلفوا فما قوم أبلغ لما أرادوا منهم ولئن كانوا صادقين فما يقوم هؤلاء شىء فلجوا وتجلدوا ، فأرسل رستم رسوله خلف المغيرة وقال له : إذا قطع القنطرة فأعلمه أن عينه تفقأ غداً فأعلمه الرسول بذلك فقال المغيرة : بشرتنى بخير وأجر ولولا أن أجاهد بعد هذا اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت ، فرجع إلى رستم فأخبره فقال أطيعونى يا أهل فارس إنى لأرى فيكم نهمة لا تستطيعون ردها ثم أرسل إليه سعد بقية ذوى الرأى فساروا وكانوا ثلاثة فقالوا لرستم : إن أميرنا يدعوك إلى ماهو خير لنا ولك ، والعافية أن تقبل ما دعاك إليه ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وداركم لكم وأمركم فيكم وما أصبتم كان زيادة لكم دوننا وكنا عوناً لكم على أحد إن أرادكم فاتق الله ولا يكونن هلاك قومك على يديك وليس بينك وبين أن تغبط بهذا الأمر إلا أن تدخل فيه وتطرد به الشيطان عنك فقال لهم : إن الأمثال أوضح من كثير من الكلام أنكم كنتم أهل جهد وقشف لا ينتصفون ولا تمتنعون فلم نسىء جواركم ، وكنا نميركم

ونحسن إليكم فلما طعمتم طعامنا وشربتم شرابنا ووصفتم لقومكم ذلك ووعدتموهم ، ثم آتيتمونا وإنما مثلكم ومثلنا كمثل رجل كان له كرم فرأى فيه ثعلبا فقال : وما ثعلب.؟ فانطلق الثعلب فدعا الثعالب إلى ذلك الكرم ، فلما اجتمعوا إليه سد صاحب الكرم النقب الذى كن يدخلن منه فقتلهن ، فقد علمت أن الذى حملكم على هذا الحرص والجهاد فارجعوا ، ونحن نميركم لأنى لا أشتهى أن أقتلكم ومثلكم أيضا كالذباب يرى العسل فيقول: من يوصلنى إليه وله درهمان فإذا دخل غرق ونشب فيقول: من يخرجنى وله أربعة دراهم ، وقال أيضا : أن رجل وضع سلة وجعل طعاماً فيها فأتى الجرذان فخرقوا السلة فدخلوا فيها فأراد سدها فقالوا له لا تفعل إذن تخرقه ولكن انقب بحياله ثم اجعل قصبة مجوفة فإذا دخلها الجرذان وخرجن منها فاقتل كل ما خرج منها وقد سددت عليهم أن يقتحموا القصبة ولا يخرج منها أحد إلا قتل ، فما دعاكم إلى ماصنعتم ولا أرى عدداً ولا عدة قال : فتكلم القوم وذكروا سوء حالهم وما من الله به عليهم من إرسال رسوله واختلافهم أولا ثم اجتماعهم على الإسلام وما أمرهم به من الجهاد قالوا : وأما ما ضربت لنا من الأمثال فليس كذلك وإنما مثلكم كمثل رجل غرس أرضاً واختار لها أشجاراً وأجرى إليها الأنهار ، وزينها بالقصور ، وأقام فيها فلاحين يسكنون قصورها ، ويقومون على جناتها ، فخلا الفلاحون فى القصور على مالا يحب فأطال أمهالهم فلم يستحيوا ، فدعا إليها غيرهم وأخرجهم منها ، فإن ذهبوا عنها تخطفهم الناس وإن أقاموا فيها صاروا خولا لهؤلاء فيسومونهم الخسف أبداً والله لو لم يكن ما نقول حقا ولم يكن إلا لدينا لما صبرنا عن الذى نحن فيه من لذيذ عيشكم ورأينا من زبرجكم ولقارعناكم عليه ، فقال رستم أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم فقالوا اعبروا إلينا ورجعوا من عنده عشياً وأرسل سعد إلى الناس أن يقفوا موقفهم وأرسل إليهم شأنكم والعبور فأردوا القنطرة فقال لا ولا كرامة أما شيء غلبناكم عليه فلا نرده عليكم فباتوا يسكرون (أى يسدون) العتيق حتى الصباح بالتراب والقصب والبرادع حتى جعلوه طريقاً واستتم بعد ما ارتفع النهار ورأى رستم من الليل كأن ملكا نزل من السماء فأخذ قسى أصحابه

فختم عليها ثم صعد بها إلى السماء فاستيقظ مهموما واستدعى خاصيته فقصها عليهم وقال إن الله ليعظنا لو اتعظنا ، ولما ركب رستم ليغير كان عليه درعان ومغفر وأخذ سلاحه ووثب فإذا هو على فرسه ولم يضع رجله فى الركاب وقال غداً ندقهم دقا فقال له رجل : إن شاء الله فقال وإن لم يشأ ، ثم قال إنما صفا للثعلب حين مات الأسد يعنى كسرى وإنى أخشى أن تكون هذه سنة القرود وإنما قال هذه الأشياء توهينا للمسلمين عند الفرس وإلا فالمشهور عنه الخوف من المسلمين وقد أظهر ذلك إلى من يثق به .

ذكر يوم أرماث

لما عبر الفرس العتيق (اسم للماء مطلقا ويسمى به نهر هناك) وجلس رستم على سريره وضرب عليه طياره وعين فى القلب ثمانيةعشرة فيلا عليها صناديق ورجال ، وفى المجنبتين ثمانية أو سبعة أفيال ، وأقام الجالينوس بينه وبين ميمنته والفيرزان بينه وبين ميسرته وكان الملك يزدجرد قد وضع بينه وبين رستم رجالا على كل دعوة (أى وظيفة) رجلا ، أولهم على باب إيوانه وآخرهم مع رستم فكل ما فعل رستم شيئا قال الذى معه للذى يليه كان كذا ثم يقول الثانى ذلك للذى يليه وهكذا إلى أن ينتهى إلى يزدجرد فى أسرع وقت وأخذ المسلمون مصافهم وكان أميرهم سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أصابه دماميل وعرق النسا فلا يستطيع الجلوس إنما هو مكب على وجهه فى صدره وسادة على سطح القصر يشرف على الناس والصف فى أصل حائطه ولو تعداه الصف فواق ناقة لأخذ برمته وما نقص ذلك من شجاعة سعد رضى الله عنه وعابه بعض من كان يبغضه فقال :

نقاتل حتى أنزل الله نصره ۝ وسعد بباب القادسية معصم
فأبنا وقد آمت نساء كثيرة ۝ ونسوة سعد ليس فيهن أيم

فبلغت أبياته سعداً وكان مجاب الدعوة فقال : اللهم إن كان هذا كاذبا وقال الذى قاله رياء وسمعة فاقطع عنى لسانه فبينما هو واقف فى الصف يومئذ أتاه سهم غرب فأصابه

فكان سبباً لاعتقال لسانه فما تكلم بكلمة حتى لحق بالله تعالى ، ونزل سعد إلى الناس فاعتذر إليهم وأراهم ما به من القروح فى فخذيه وأليتيه ، فعذره الناس وعلموا حاله، ولما عجز عن الركوب استخلف خالد بن عرفطة على الناس فاختلف عليه فأخذ نفراً ممن شغب عليه فحبسهم فى القصر منهم أبو محجن الثقفى وقيدهم وقيل : بل كان حبس أبى محجن بسبب شرب الخمر ، وأعلم الناس أنه قد استخلف خالد بن عرفطة فسمعوا وأطاعوا ، وخطب الناس يومئذ وهو يوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة وحثهم على الجهاد وذكرهم ما وعدهم الله من فتح البلاد ومانال من كان قبلهم من المسلمين من الفرس وكذلك فعل أمير كل قوم وأرسل سعد نفراً من ذوى الرأى والنجدة منهم المغيرة وحذيفة وعاصم وطليحة وقيس الأسدى وغالب وعمرو بن معدى كرب وأمثالهم ، ومن الشعراء الشماخ و الحطيئة وأوس بن مغراء وعبيدة بن الطيب وغيرهم ، وأمرهم بتحريض الناس على القتال ففعلوا ،وكان صف المسلمين مع حائط قديس والخندق فكان المسلمون والمشركون بين الخندق والعقيق ، وقد تقدم أن جيش رستم كان مائة وعشرين ألفاً ، وجيش المسلمين كان بضعة وثلاثين ألفاً ، وكان مع الفرس ثلاثون ألف مسلسل ، وأمر سعد الناس بقراءة سورة الأنفال ، فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها ، فلما فرغ القراء منها قال سعد : الزموا مواقفكم حتى تصلوا الظهر فإذا صليتم فإنى مكبر تكبيرة فكبروا واستعدوا فإذا سمعتم الثانية فكبروا أو البسوا عدتكم فإذا كبرت الثالثة فكبروا و ينشط فرسانكم الناس فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم وقولوا لاحول ولا قوة إلا بالله فلما كبر سعد الثانية برز أهل النجدات فانشبوا القتال وخرج إليهم من الفرس أمثالهم فاعتوروا الطعن والضرب وبرز غالب بن عبد الله الأسدى وأنشد أبياتا فخرج إليه هرمز وكان من ملوك الباب وكان متوجاً فأسره غالب فجاء به سعداً ورجع ، وبرز عاصم بن عمرو التميمى وطارد فارسا فانهزم فتبعه عاصم حتى خالط صفهم فحموه فأسر عاصم رجلا على بغل وعاد به وإذا هو خباز الملك ومعه من طعام الملك وخبيصه فأتى به سعد فنفله أهل موقفه وخرج فارس

فطلب البراز فبرز إليه عمر بن معدى كرب فأخذه وجلد به الأرض فذبحه وأخذ سواريه ومنطقته وحملت الفيلة على المسلمين ففرقت بين الكتائب فنفرت الخيل؛ وكانت الفرس قد قصدت بجيلة بسبعة عشر فيلا فنفرت خيل بجيلة فكادت بجيلة تهلك لنفار خيلها عنها وعمن معها، وأرسل سعد إلى بنى أسد أن دافعوا عن بجيلة وعمن معها من الناس فخرج طليحة بن خويلد وحمال بن مالك فى كتائبهما فباشروا الفيلة وخرج إلى طليحة فيها عظيم منهم فقتله طليحة وقام الأشعث بن قيس فى كندة فقال: معشر كندة لله در بنى أسد أى فريفرون وأى هز يهزون عن مواقفهم أعنى كل قوم ما يليهم وأنتم تنتظرون من يكفيكم أشهد ما أحسنتم أسوة قومكم من العرب فنهضوا ونهض معه فأزالوا الذين بإزائهم فلما رأى الفرس ما يلقى الناس والفيلة من أسد رموهم بجدهم وحملوا عليهم وفيهم ذو الحاجب، والجالينوس، والمسلمون ينتظرون التكبيرة الرابعة من سعد فاجتمعت حلبة فارس على أسد ومعهم تلك الفيلة فثبتوا لهم وكبر سعد الرابعة وزحف إليهم المسلمون ورحا الحرب تدور على أسد وحملت الفيلة على الميمنة والميسرة فكانت الخيول تحيد عنها، فأرسل سعد إلى عاصم بن عمرو التميمى فقال يامعشر بنى تميم أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة قالوا بلى والله ثم نادى فى رجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة، فقال يامعشر الرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وقال يامعشر الثقافة استدبروا الفيلة فقطعوا وضنها (الوضين ما يربط به القتب) وخرج يحميهم ورحا الحرب تدور على أسد وقد جالت الميمنة والميسرة غير بعيد وأقبل أصحاب عاصم فأخذوا بأذناب توابيتها فقطعوا وضنها وارتفع عواؤهم فما بقى لهم فيل إلا عوى وقتل أصحابها ونفس عن أسد وردوا فارسا عنهم إلى مواقفهم واقتتلوا حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة عن الليل ثم رجع هؤلاء وهؤلاء وأصيب من أسد فى تلك العشية خمسمائة وكانوا ردأ للناس وكان عاصم حامية للناس، وهذا اليوم الأول وهو يوم أرماث.

ذكر يوم أغواث

ولما أصبح القوم وكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم فسلم الجرحى إلى النساء

ليقمن عليهم وأما القتلى فدفنوا هنالك على شرف وهو واد بين العذيب وعين الشمس فلما نقل سعد القتلى والجرحى طلعت نواصى الخيل من الشام وكان فتح دمشق قبل القادسية فلما قدم كتاب عمر على أبى عبيدة بن الجراح بإرسال أهل العراق سيرهم والأمير عليهم هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، وكان من الشجعان المشهورين وكان له صحبة أسلم عام الفتح رضى الله عنه وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو التميمى وله صحبة، روى عنه أنه قال شهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعجل القعقاع فقدم على الناس صبيحة هذا اليوم وهو يوم أغواث وقد عهد إلى أصحابه أن يتقطعوا أعشاراً وهم ألف كل ما بلغ عشرة مدى البصر سرحوا عشرة تقدم أصحابه فى عشرة فأتى الناس فسلم عليهم وبشرهم بالجنود وحرضهم على القتال وقال اصنعوا كما أصنع وطلب البراز فقالوا فيه (أى القعقاع) يقول أبو بكر رضى الله عنه لا يهزم جيش فيهم مثل هذا، فخرج إليه ذو الحاجب فعرفه القعقاع فنادى بالثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب الجسر وتضاربا فقتله القعقاع وجعلت خيله ترد إلى الليل وتنشط الناس وكأن لم يكن بالأمس مصيبة وفرحوا بقتل ذى الحاجب وانكسرت الأعاجم بذلك؛ وطلب القعقاع البراز فخرج إليه الفيرزان والبنذوان فانضم إلى القعقاع الحارث بن ظبيان بن الحارث أحد بنى تيم اللات فتبارزوا فقتل القعقاع الفيرزان وقتل الحارث البنذوان، ونادى القعقاع يامعشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها فاقتتلوا حتى المساء فلم ير أهل فارس فى هذا اليوم مايعجبهم وأكثر المسلمون فيهم القتل ولم يقاتلوا فى هذا اليوم على فيل لأن توابيتها كانت قد تكسرت بالأمس فاستأنفوا عملها فلم يفرغوا منها حتى كان الغد وكان القعقاع كلما طلعت قطعة من أصحابه كبر وكبر المسلمون ويحمل ويحملون وحمل بنو عم القعقاع عشرة عشرة على إبل قد ألبسوها وهى مجللة مبرقعة وأطافت بهم خيولهم تحميهم وأمرهم القعقاع أن يحملوها على خيل الفرس يتشبهون بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أغواث كما فعلت فارس يوم أرماث فجعلت خيل الفرس تفر منها وركبتها خيول المسلمين فلما رأى الناس ذلك سروا بهم فلقى الفرس من الإبل أعظم مالقى المسلمون من الفيلة

وحمل رجل من تميم على رستم يريد قتله فقتل دونه ، وخرج رجل من فارس يبارز فبرز إليه الأعرف بن الأعلم العقيلي فقتله ، برز إليه آخر فقتله وأحاطت به فوارس منهم فصرعوه وأخذوه بسلاحه ، فعبر في وجوههم التراب حتى رجع إلى أصحابه، وحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة كلما طلعت قطعة حملت حملة وأصاب فيها وقتل فكان آخرهم برز جهر الهمداني وبارز الأعورين قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه وقاتلت الفرسان إلى نصف النهار ، فلما اعتدل النهار تزاحف الناس فاقتتلوا حتى انتصف الليل فكانت ليلة أرماث تدعى الهدأة وليلة أغواث تدعى السواد ، ولم يزل المسلمون يرون يوم أغواث الظفر وقتلوا أعلامهم وجالت فيه خيل القلب وثبت رجلهم فلولا أن خيلهم عادت أخذ رستم أخذاً وبات الناس على مابات عليه القوم ليلة أرماث وقد ذكرنا أن أبا محجن الثقفي كان قد حبس بالقصر وقيد ، فلما كان يوم أغواث قال لسلمى زوج سعد بن أبي وقاص هل لك أن تخلين عني وتعيريني البلقاء وهي فرس سعد فلله علي إن سلمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلي في قيدي فأبت فلم يزل بها حتى رضيت أن تطلقه فأطلقته ، وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها وخرج للقتال ولم يعلم به أحد ، فلما كان بحيال الميمنة كبر ثم حمل على ميسرة الفرس فكان يقف الناس قصفاً منكراً وتعجب الناس منه وهم لايعرفون من هو فقال بعضهم هو من بعض أصحاب هاشم أوهاشم بنفسه وكان سعد يقول لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء ، وقال بعض الناس هذا الخضر وقال بعضهم لولا أن الملائكة لاتباشر الحرب لقلنا أنه ملك فلما انتصف الليل وتراجع المسلمون والفرس عن القتال أقبل أبو محجن فدخل القصر وأعاد رجليه في القيد فقالت له سلمى : في أي شيء حبسك سعد ؟ فقال والله ماحبسني بحرام أكلته ولاشربته ولكنني كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فقلت :

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة تروى عظامي بعد موت عروقها
ولا تدفني في الفلاة فانني أخاف إذا مامت أن لا أذوقها

فذلك حسبى ، فلما أصبحت سلمى أتت سعداً فصالحته وكانت مغاضبة له وأخبرته بخبر أبى محجن فأطلقه فقال اذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله فقال لاجرم لا أجيب لسانى إلى قبيح أبداً ، وكان عدد قتلى المسلمين وجرحاهم يوم أغواث ألفين بين جريح وميت ومن المشركين عشرة آلاف فجعل المسلمون ينقلون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء وكان النساء والصبيان يحفرون القبور وكان على الشهداء حاجب بن زيد وأما قتلى المشركين فبين الصفين وكان ذلك مما يقوى المسلمين وبات القعقاع تلك الليلة يسرب أصحابه إلى المكان الذى فارقهم فيه وقال إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة فإن جاء هاشم فذاك وإلا جددتم للناس رجاء وجداً لا يشعر به أحد ، وأصبح الناس على مواقفهم فلما ذر قرن الشمس أقبل أصحاب القعقاع فعبى أصحابه وكان المشركون قد باتوا يعملون توابيت الفيلة حتى أعادوها وأصبحوا على مواقفهم وأقبلت الرجالة مع الفيلة يحملونها أن تقطع وضنها ومع الرجالة فرسان يحمونهم فلم تنفر الخيل منهم كما كانت بالأمس لأن الفيل إذا كان وحده كان أوحش وإذا أطافوا به كان أونس ، فلما انتشب القتال كبر المسلمون وتقدموا وكثر الطعن والضرب وأقبل هاشم والحرب قائم فعبى أصحابه سبعين سبعين وحمل حتى خالط القلب واشتد القتال وحمل عمرو بن معدى كرب وضرب فى الفرس حتى ستره الغبار وحمل أصحابه ، فأفرج المشركون عنه بعد ماصرعوه وإن سيفه لفى يده يصادمهم وقد طعن فرسه فأخذ برجل فرس أعجمى فلم يطق الجرى فنزل عنه صاحبه وفر إلى أصحابه وركبه عمرو وبرز فارس ، فبرز إليه رجل من المسلمين يقال له بشر بن علقمة وكان قصيراً فترجل الفارس إليه فاحتمله وجلس على صدره ثم أخذ سيفه ليذبحه ومقود فرسه مشدود فى منطقته فلما سل سيفه نفر الفرس ، فجذبه المقود فقلبه عنه وتبعه المسلم فقتله وأخذ سلبه فباعه باثنى عشر ألفاً ، فلما رأى سعد الفيول قد فرقت بين الكتائب وعادت لفعلها أرسل إلى القعقاع وعاصم بن عمرو أكفيانى الأبيض وكانت كلها آلفة له وكان بازائهما ، وقال لحمال والربيل أكفيانى الأجرب وكان بازائهما فأخذ القعقاع وعاصم رمحين وتقدما فى خيل ورجل وفعل حمال والربيل مثل فعلهما ، فحمل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما فى عين الفيل الأبيض فنفض رأسه

فطرح ساسته ودلى مشفره فضرب به القعقاع فرمى به ووقع لجنبه وقتلوا من كان عليه وحمل حمال والزبيل والأسديان على الفيل الآخر فطعنه حمال فى عينه فأقعى ثم استوى وضربه الزبيل فأبان مشفره وبصر به سائسه فبقر أنف الزبيل وجبينه بالطبرزين ، فأفلت الزبيل جريحا وبقى الفيل جريحا متحيراً بين الصفين كلما جاء صف المسلمين وخزوه وإذا أتى صف المشركين نخسوه وولى الفيل وكان يدعى الأجرب ، وقد عور حمال عينه فألقى نفسه فى العتيق فأتبعته الفيلة فخرقت صف الأعاجم فعبرت فى أثره فأتت المدائن فى توابيتها وهلك من فيها ، فلما ذهب الفيلة وخلص المسلمون والفرس ومال الظل وتزاحف المسلمون فاجتلدوا حتى أمسوا فاشتد القتال وصبر الفريقان ، وجاء الليل وكانت تسمى تلك الليلة ليلة الهرير لتركهم الكلام وإنما كانوا يهرون هريراً ، وأرسل سعد طليحة الأسدى وعمرو بن معدى كرب ليلة الهرير إلى مخاضة أسفل العسكر ليقوموا عليها حرساً خشية أن يأتى القوم منها ، فلما أتياها قال طليحة : لو خضنا وأتينا الأعاجم من خلفهم ، قال عمرو بل نعبر أسفل فافترقا وأخذ طليحة وراء العسكر وكبر ثلاث تكبيرات ، ثم ذهب وقد ارتاح أهل فارس وتعجب المسلمون وطلبه الأعاجم فلم يدركوه . وأما عمرو فإنه أغار أسفل المخاضة ورجع وخرج جماعة من فرسان المسلمين وطاردوا جماعة من الفرس فإذا هم لا يشاءون ولا يريدون غير الزحف فقدم المسلمون صفوفهم وزاحفوهم بغير إذن سعد ، وكان أول من زاحفهم القعقاع فقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له إن لم يستأذنى ، ثم لحقهم أسد : فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت النخع فقال اللهم اغفرها لهم وانصرها ثم حملت بجيلة فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم حملت كندة فقال اللهم اغفرها لهم وانصرهم ثم زحف الرؤساء ورحى الحرب تدور على القعقاع ، وكان سعد قال لهم إذا كبرت ثلاثاً فاحملوا فكبر فى أثناء تلك الحالة تكبيرتين فلما كبر الثالثة لحق الناس بعضهم بعضا وخالطوا القوم واستقبلوا الليل استقبالا بعد ما صلوا العشاء وكان صليل الحديد فيها كصوت القيون (جمع قين وهو الحداد) ليلتهم إلى الصباح وأفرغ الله الصبر عليهم أفرغا وبات سعد بليلة لم يبت بمثلها ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد

ورستم وأقبل سعد على الدعاء ، فلما كان عند الصبح انتمى الناس فاستدل بذلك على أنهم الأعلون وأصبح الناس ليلة الهرير وتسمى ليلة القادسية من بين تلك الليالى وهم حسرى لم يغمضوا ليلتهم كلها ، فسار القعقاع فى الناس فقال أن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة فاحملوا فإن النصر مع الصبر فاجتمع إليه جماعة من الرؤساء وصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه مع الصبح ، فلما رأت ذلك القبائل قام فيها رؤساؤهم وقالوا لا يكونن هؤلاء أجد فى أمر الله منكم ولا هؤلاء يعنى الفرس أجرأ على الموت منكم ، فحملوا فيما يليهم وخالطوا من بإزائهم فاقتتلوا حتى قام قائم الظهيرة فكان أول من زال الفيرزان والهرمزان فتأخرا وثبتا حتى انتهيا وانفرج القلب ، وركد عليهم النقع وهبت ريح عاصف فقلعت طيارة رستم عن سريره فهوت فى العتيق وهى دبور ومال الغبار عليهم ، وانتهى القعقاع ومن معه إلى السرير فعثروا به ، وقد قام رستم عنه حين أطارت الريح الطيارة إلى بغال قد قدمت عليه بمال فهى واقفة ، فاستظل فى ظل بغل وحمله ، وضرب هلال بن علقمة الحمل الذى تحته رستم ، فقطع حباله ووقع عليه أحد العدلين ، ولا يراه هلال ولا يشعر به ، فأزال عن ظهره فقاراً فرآه هلال فضربه ضربة فنفحت مسكا ومضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه واقتحمه هلال عليه وأخذ برجليه ، ثم خرج به فضرب جبينه بالسيف حتى قتله ، ثم ألقاه بين أرجل البغال ، ثم صعد السرير وقال : قتلت رستم ورب الكعبة إلى إلى ، فأطافوا به وكبروا ، فنفله سعد سلبه ولم يظفر بقلنسوته ، ولو ظفر بها لكانت قيمتها مائة ألف ، وقيل إن هلالا لما قصد رستم رماه رستم بنشابة أثبت قدمه بالركاب فحمل عليه هلال فضربه فقتله ثم احتز رأسه وعلقه ونادى : قتلت رستم ، فانهزم قلب المشركين وقام جالينوس على الردم (بالدال) ونادى الفرس إلى العبور وكانت الهزيمة عليهم . وأما المقترنون فإنهم جشعوا ، فتهافتوا فى العتيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبروهم ثلاثون وأخذ ضرار بن الخطاب العلم الأكبر الذى كان للفرس فعوض عنه ثلاثين ألفا وكانت قيمته ألف ألف ومائتى ألف ، وقتل من الفرس فى المعركة عشرة آلاف سوى من قتلوا

فى الأيام قبله ، وقتل من المسلمين قبل ليلة الهرير ألفـان وخمسمائة وقتل ليلة الهرير ويوم القادسية ستة آلاف وجمعت الأسلاب والأموال فجمع شىء لم يجمع قبله ولا بعده مثله . وأمر سعد القعقاع وشرحبيل باتباع المنهزمين حتى بلغ مقدار الخرارة من القادسية وخرج زهرة بن الحوية التميمى فى آثارهم فى ثلثمائة فارس ، ثم أدركه النـاس فلحق المنهزمين والجالينوس يجمعهم فقتله زهرة وأخذ سلبه وقتلوا ما بين الخرارة إلى السلحين إلى النجف وعادوا من أثر المنهزمين ومعهم الأسرى ، فرأى شاب من النخع وهو يسوق ثمانين رجلا أسيراً من الفرس واستكثر سعد سلب الجالينوس ، فكتب فيه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب عمر إلى سعد تعمد إلى مثل زهرة بن الحوية وقد صلى بمثل ما صلى به تفسد قلبه وقد بقى عليك من حربك ما بقى امض له سلبه وفضله على أصحابه عند عطائه بخمسمائة . فلما أتبع المسلمون الفرس كان الرجل يشير إلى الفارس فيأتيه فيقتله به وربما أخذ سلاحه فقتله به وربما أمر رحل فيقتل أحدهما صاحبه ، ولحق سلمان بن ربيعة الباهلى وعبد الرحمن بن ربيعة بطائفة من الفرس قد نصبوا راية وقالوا : لا نبرح حتى نموت فقتلهم سلمان ومن معه وكان قد ثبت بعد الهزيمة بضعة وثلاثون كتيبة من الفرس استحيوا من الفرار فقصدهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين لكل كتيبة منها رئيس ، وكان قتال أهل الكتائب من الفرس على وجهين منهم من هرب ومنهم من ثبت حتى قتل وكان ممن هرب من أمراء الكتائب الهرمزان ، ثم تراجع الناس من طلب المنهزمين وقد قتل مؤذنهم فتشاح المسلمون فى الأذان حتى كادوا يقتتلون وأقرع سعد بينهم فخرج سهم رجل منهم فأذن وفضل أهل البلاء من أهل القادسية عند العطاء بخمسمائة خمسمائة وهم خمسة وعشرون رجلا ، وأما أهل الأيام قبلها فإنه فرض لهم على ثلاثة آلاف وفضلوا على أهل القادسية فقيل لسعد : لو ألحقت بهم أهل القادسية فقال لم أكن لألحق بهم من لم يدركهم قيل له : لو فضلت من بعدت داره على من قاتلهم بفنائه قال : كيف أفضل عليهم وهما شجن العدو ، وهل فعل المهاجرون بالأنصار ، هذا وكانت العرب تتوقع وقعة العرب وأهل فارس بالقادسية فيما بين العذيب إلى عدن أبين وفيما بين الأبلة وإيلة

يرون أن ثبات ملكهم وزواله بها ، وكانت فى كل بلدة مصيخة إليها تنظر ما يكون من أمرها،فلما كانت وقعة القادسية سارت بها الجن فأتت بها أناس من الأنس ، فسبقت أخبار الأنس وكتب سعد إلى عمر بالفتح وبعدة من قتلوا وبعدة من أصيب من المسلمين ، وسمى من يعرف مع سعد بن عميلة الفزارى ، وكان عمر يسأل الركبان من حين يصبح إلى انتصاف النهار عن أهل القادسية ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله ، قال فلما لقى البشير سأله ، من أين ؟ فأخبره ، قال ياعبدالله: حدثنى قال : هزم الله المشركين وعمر يخب معه يسأله والآخر يخبره وهو يسير على ناقته لا يعرفه حتى دخل المدينة وإذا الناس يسلمون عليه بأمرة المؤمنين ، قال البشير : هلا أخبرتنى رحمك الله إنك أمير المؤمنين فقال عمر : لا بأس عليك ياأخى ، وأقام المسلمون بالقادسية فى انتظار قدوم البشير ، وأمر عمر الناس أن يقوموا على أقباضهم ويصلحوا أحوالهم ويتابع إليهم أهل الشام ممن شهدوا اليرموك ودمشق ممدين لهم - والصحيح أن وقعة القادسية كانت سنة أربع عشرة كما تقدم وقيل كانت سنة خمسة عشرة وقيل كانت سنة ستة عشرة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر الوقائع بعد فتح القادسية

إلى أن فتحت مدائن كسرى

لما فرغ سعد رضى الله عنه من أمر القادسية أقام بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فيما يفعل فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً وأن يشركهم فى كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين فى عيالهم ففعل ذلك وسار من القادسية لأيام بقين من شوال فلما وصلت مقدمة المسلمين برس لقوا جنداً من الفرس فقاتلهم المسلمون ، فهزم الله الفرس وقتل المسلمون كثيراً منهم ، وانحاز المنهزمون إلى بابل وكان بها كثير من جندهم وعليهم الفيرزان ، فقصدهم المسلمون فقاتلوهم وقتلوا كثيراً منهم وهزموا الباقين ، فانطلقوا على وجوههم فسار الهرمزان نحو الأهواز فأخذ ما فيها من الأموال لكسرى ، وسار إلى

نهاوند فأخذ ما فيها من الأموال كلها وكان بها كنوز لكسرى ، وسار النخير خان ومهران الرازى إلى المدائن وقطعا الجسر فأقام سعد ببابل وأرسل زهرة بن الحوية إلى نهرشير قبالة المدينة العتيقة من المدائن الغربية ، فتلقاه دهقان ساباط للصلح فأرسله إلى سعد فصالحه على تأدية الجزية ، فوصل سعد والمسلمون إلى نهرشير ليحاصروا المدائن فرأوا الإيوان من بعد ، فقال ضرار بن الخطاب : الله أكبر أبيض كسرى هذا ما وعد الله ورسوله ، وكبر الناس معه فكانوا كلما وصلت طائفة كبروا ثم نزلوا على المدينة محاصرين لها ، وكان نزولهم عليها فى ذى الحجة فحاصروها شهرين ونصبوا عليها عشرين منجنيقاً ودنوا إليهم بالدبابات وأرسل سعد الخيول فأغارت على من ليس له عهد فأصابوا مائة ألف فلاح ، فأرسل سعد إلى عمر بالخبر فكتب له عمر : إن من جاءكم من الفلاحين مما لم يعينوا عليكم فهو فى أمان ، ومن هرب فأدركتموه فشأنكم به فخلى سعد عنهم وأرسل إلى الدهاقين ودعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة فتراجعوا فلم يبق فى غربى دجلة إلى أرض العرب سوادى إلا آمن واغتبط بملك الإسلام ، واشتد الحصار بأهل المدائن الغربية حتى أكلوا السنانير والكلاب وصبروا من شدة الحصار على أمر عظيم فبينما هم يحاصرونهم إذ أشرف عليهم رسول الملك فقال : الملك يقول لكم هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة إلى جبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم وما شبعتم لا أشبع الله بطونكم فقال له أبو مقرن الأسود مقالة أنطقه الله بها ولا يدرى ما قال لهم لا هو ولا من كان معه ، فرجع الرجل فقطعوا دجلة إلى المدائن الشرقية التى فيها الإيوان فقال لأبى مقرن من كان معه ما قلت له فقال : والذى بعث محمداً بالحق ما أدرى وأنا أرجو أن أكون نطقت بالذى هو خير ، وسأله سعد والناس عما قال فلم يعلم ، فنادى سعد فى الناس فنهضوا إليهم فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج رجل إلا رجل ينادى يطلب الأمان فأمنوه فقال لهم ما بقى بالمدينة من يمنعكم فدخلوا فما وجدوا فيها شيئاً ولا أحداً إلا أسارى وذلك الرجل فسألوه لأى شىء هربوا فقال بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتموه أنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفريدون

بأترج كوثى فقال ياويلنا إن الملائكة تتكلم على ألسنتهم ترد علينا فساروا إلى المدينة القصوى فدخل المسلمون المدينة الغربية وأنزلهم سعد المنازل .

ذكر فتح المدائن التى بها إيوان كسرى

لما دخل المسلمون المدائن الغربية كان البحر بينهم وبين المدائن الشرقية التى فيها الإيوان وليس للمسلمين سفن يعبرون فيها ورأى سعد رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمت دجلة فعبرت فعزم سعد لتأويل الرؤيا فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن عدوكم قد اعتصم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليهم معه ويخلصون إليكم إذا شاؤا فى سفنهم فيناوشونكم وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منه قد كفاكم أهل الأيام وعطلوا ثغوركم وقد رأيت من الرأى أن تجاهدوا العدو قبل أن تحصدكم الدنيا إلا أنى قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم فقالوا جميعاً عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل فندب الناس إلى العبور وقال من يبدأ ويحمى لنا الفرائض (وهى فريضة النهر ومن البحر محيط السفن) حتى تتلاحق به الناس لكى لا يمنعوهم من العبور فانتدب له عاصم بن عمرو وذوو البأس فى ستمائة من أهل النجدات استعمل عليهم عاصما فتقدمهم عاصم فى ستين فارسا وجعلهم على خيل ذكور وإناث ليكون أساساً لسباحة الخيل ثم اقتحموا دجلة فلما رآهم الأعاجم وما صنعوا أخرجوا للخيل التى تقدمت مثلها اقتحموا عليها دجلة فلقوا عاصما وقد دنا من الفراض فقال عاصم الرماح الرماح أشرعوا الرماح ، وتوخوا العيون لتقوا فاطعنوا ، وتوخى المسلمون عيونهم ولحقهم المسلمون فقتلوا أكثرهم ومن نجا منهم صار أعور من الطعن وتلاقوا الستمائة بالستين غير متعبين ، ولما رأى سعد عاصما على الفراض قد منعها أذن للناس فى الاقتحام ، وقال قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وتلاحق الناس فى دجلة وأنهم يتحدثون كما يتحدثون فى البر وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطىء شىء ، وكان الذى يساير سعداً سلمان الفارسى رضى الله عنهما فعابت بهم خيولهم وسعد يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل والله لينصرن الله وليه وليظهرن دينه وليهزمن عدوه إن لم يكن

فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات ، فقالوا له سلمان : الإسلام جديد ذللت لهم البحور كما ذلل لهم البر أما والذى نفس سلمان بيده ليخرجن منه أفواجا كما دخل فيه أفواجا فخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيئاً إلا أن مالك بن عامر العنبرى سقط منه قدح فذهبت به جرية الماء فقال الذى يسايره معيراً له أصابه القدر فطاح فقال والله إنى لعلى حالة ما كان الله ليسلبنى قدحى من بين العسكر فلما عبروا ألقته الريح إلى الشاطىء فتناوله بعض الناس وعرفه صاحبه فأخذه صاحبه ولم يغرق منهم أحد غير أن رجلا من بارق يدعى عرقدة زال عن ظهر فرس له أشقر ، وكاد يغرق فثنى القعقاع عنان فرسه إليه فأخذه بيده فأخرجه سالماً وخرج الناس سالمين وخيلهم تنفض أعرافها ، فلما رأى الفرس ذلك وأتاهم أمر لم يكن فى حسابهم خرجوا هاربين نحو حلوان وكان يزدجرد قد قدم عياله إلى حلوان قبل ذلك وخلف مهران والفخيرخان ، وكان على بيت المال بالنهروان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من الثياب والمتاع والآنية والفصوص والالطاف ما لا يدرى قيمته وخلفوا ما كانوا أعدوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة ، وكان فى بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند مسيره إلى القادسية النصف وبقى النصف ، ولما دخلوا المدائن نزل سعد القصر الأبيض وجاء جماعة من الفرس وعقدوا ذمة على تأدية الجزية ، وبعث سعد جماعة إلى الأطراف من كل جهة يغيرون ويؤمنون من أراد الأمان واتخذ سعد إيوان كسرى مصلى ولم يغير ما فيها ، ولما دخل سعد الإيوان قال كم تركوا من جنات وعيون إلى قوله قوماً آخرين وصلى فيه صلاة الفتح ثمان ركعات ، ولم يكن بالمدائن أعجب من عبور الماء وكان يدعى يوم الجراثيم لا يعيا أحد إلا اشمخرت له جرثومة من الأرض يستريح عليها لما يبلغ الماء حزام فرسه .

ذكر ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها

اجتمع عند سعد بعد دخوله المدائن من الغنائم والأموال ما لا يحصى ورأوا بالمدائن قبابا مملوءة سلالا مختومة برصاص فحسبوه طعاما فإذا فيه آنية الذهب والفضة ، وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحا فعجنوا

مراً وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر المروان فازدحموا عليه ، فوقع،
منهم بغل فى الماء فعجلوا وكبوا عليه ، فقال بعض المسلمين أن لهذا البغل لشأناً فجالدهم
المسلمون عليه حتى أخذوه وإذا هو محمل عليه حلية كسرى ووشاحه ودرعه التى فيها
الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة ، ولحق الكلج بغلين معهما فارسان فقتلهما وأخذ
البغلين فإذا عليهما سفطان فيهما تاج كسرى مرصعاً وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب
كسرى التى كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجاً
منظوماً . وأدرك القعقاع فارسياً فقتله وأخذ منه عيبتين ، فى إحداهما خمسة أسياف وفى الأخرى
ستة أسياف وأدراع ، منها درع كسرى ومغافره ، ودرع هرقل ، ودرع خاقان ملك الترك ،
ودرع النعمان ، ودرع داهر ملك الهند ، استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان وهرقل وداهر
وأيام هرب النعمان من كسرى ، وكذا الأسياف فأحضر القعقاع الجميع عند سعد فخيره بين
الأسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام ونفل سائرها إلا سيف كسرى والنعمان
بعث بهما إلى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك وبعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه إلى عمر
ليراه المسلمون وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حماران ، فقتل أحدهما وهرب الآخر
وأخذ الحمارين فإذا على أحدهما سفطان فى أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى
ثفره ولبانه الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل
بالجوهر وفى الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من
ذهب وكل ذلك منظوم وبالياقوت وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر كان كسرى
يضعها على أسطوانة التاج ، وأقبل رجل بحق إلى صاحب الأقباض فقال هو والذى معه
ما رأينا مثل هذا مايعدله ماعندنا ولا يقاربه فقالوا هل أخذت منه شيئاً فقال والله لولا الله
ما أتيتكم به فقالوا من أنت فقال والله لاأخبركم فتحمدونى ولكن أحمد الله وأرضى بثوابه
فأتبعوه رجلا فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس ، وقال سعد والله أن الجيش لذو أمانة
ولولا ماسبق لأهل بدر لقلت أنهم على فضل أهل بدر لقد تتبعت منهم هناة ما أحسبها
من هؤلاء ، وقال جابر بن عبد الله رضى الله عنهما والله الذى لا إله إلا هو ما أطلعنا

على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كأماناتهم وهم طليحة وعمر بن معدى كرب وقيس بن المكشوح ، وقال عمر رضى الله عنه لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته وزبرجده إن قوماً أدوا هذا لذوو أمانة ، فقال على رضى الله عنه : إنك عففت فعفت الرعية فلما جمعت الغنائم قسم سعد الفىء بين الناس بعد ما خمسه وكانوا ستين ألفا فأصاب الفارس اثنا عشر ألفاً وكلهم كان فارساً ليس فيهم راجل ، ونفل من الأخماس فى أهل البلاء ، وقسم المنازل بين الناس وأحضر العيالات فأنزلهم الدوز فأقاموا بالمدائن حتى فرغوا من جلولاء وحلوان وتكريت والموصل ، ثم تحولوا إلى الكوفة وأرسل سعد من الخمس كل شىء أراد أن يعجب منه العرب وما كان يعجبهم أن يقع وكان من جملة ما غنموه بساط كسرى ويقال له القطيف وهو من أعجب ما كان لملك الفرس وهو بساط واحد طوله ستون ذرعا وعرضه ستون ذراعا كانت الأكاسرة تعده للشتاء إذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم فى رياض فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة وخلاف ذلك فصوص كالدر ، وفى حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات ، وفى الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة ، وثمره الجوهر وأشباه ذلك وأراد سعد إخراج خمس القطيف فلم يعتدل قسمته فقال للمسلمين : هل تطيب أنفسكم على أربعة أخماسه ؟ فنبعث به إلى عمر يضعه حيث يشاء ، فإنا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعاً فقالوا نعم فبعث به إلى عمر فلما قدم خمس الغنائم على عمر رضى الله عنه قسمه فى موضعه ثم قال أشير على هذا القطيف فمن بين مشير بإبقائه ذخيرة للملة وآخر مفوض إليه فأشار على رضى الله عنه بقسمته بين المسلمين وقال إن تبقه على هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له ، فقال : صدقتنى إذ نصحتنى فقطعه بينهم فأصاب عليا قطعة منه قال ابن الأثير فباعها بعشرين ألفاً وفى السيرة الحلبية بعشرين ألف دينار وكان النبى صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك الكنانى حين أراد التعرض للنبى صلى الله عليه وسلم وهو مهاجر إلى المدينة

كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ومنطقته وتاجه فلما أتى بذلك كله لعمر بن الخطاب مع جملة ما أتى به من خمس الغنائم دعا سراقة بن مالك وألبسه إياها وكان سراقة رجلا أزب أى كثير شعر الساعدين . فقال عمر : ارفع يديك وقل الله أكبر الحمد لله الذى سلبهما كسرى ابن هرمز الذى كان يقول : أنا رب الناس وألبسهما سراقة رجلا اعرابيا من مدلج ورفع عمر صوته ، ثم أركب سراقة وطيف به فى المدينة إظهاراً لمعجزة النبى صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بذلك قبل وقوعه ولم يأخذ عمر رضى الله عنه شيئا من تلك الغنائم التى قسمها بين الناس وكان يقرأ قوله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ الآية ويقول اللهم إنه لا طاقة لنا أن نحب إلا ما زينته فوفقنى أن أنفقه فى حقه ، وكان رضى الله عنه يبكى ويقول : إن الله زوى الدنيا عن النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه وفتحها لى فأخاف أن أكون مستدرجا وروى البخارى فى صحيحه فى كتاب الرقاق أن عمر رضى الله عنه قال : اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا اللهم إنى أسألك أن أنفقه فى حقه ورواه الدارقطنى بأبسط من هذا فقال : أن عمر بن الخطاب أتى بمال من المشرق يقال له نفل كسرى ، فأمر به فصب وغطى ، ثم دعا الناس فاجتمعوا ثم أمر به فكشف عنه فإذا هو حلى وجواهر ومتاع فبكى عمر رضى الله تعالى عنه وحمد الله عز وجل فقالوا له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ هذه غنائم غنمها الله لنا ونزعها من أهلها فقال ما فتح الله من هذا على قوم إلا سفكوا دماءهم واستحلوا حرمهم قال زيد بن أسلم فبقى من ذلك المال مناطق وخواتم فرفع فقال عبد الله ابن أرقم لعمر رضى الله عنه حتى تحبسه لا تقسمه فقال : إذا رأيتنى فارغا فأذنى به فلما رآه فارغا بسط شيئا فى حش نخلة ثم جاء به فى مكتل فصب فكأنه استكثره ثم قال : اللهم أنت قلت ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ فتلا الآية حتى فرغ منها ثم قال لانستطيع إلا أن نحب مازينت لنا فقنى شره وارزقنى أن أنفقه فى حقه فما قام حتى ما بقى منه شىء .

ذكر وقعة جلولاء وفتح حلوان فى سنة ست عشرة أيضاً

لما انتهى الفرس إلى جلولاء بعد الهرب من المدائن احتفروا خندقاً واجتمعوا على

مهران الرازى وتقدم يزدجرد إلى حلوان وأحاطوا خندقهم بحسك الحديد إلى طرقهم فبلغ ذلك سعداً ، فأرسل إلى عمر فكتب إليه عمر أن سرح هاشم بن عتبة إلى جلولاء واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو وإن هزم الله الفرس فاجعل القعقاع بين السواد والجبل وليكن الجند اثنى عشر ألفاً فيهم وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ففعل ذلك سعد وسار هاشم من المدائن ، فمر ببابل فصالحه دهقانها على أن يفرش له جريب الأرض دراهم ففعل وصالحه ، ثم مضى حتى قدم جلولاء فحاصرهم فى خنادقهم وأحاط بهم وطاولهم الفرس وجعلوا لا يخرجون إلا إذا أرادوا وزاحفهم المسلمون نحو ثمانين يوماً فى كل ذلك ينصر المسلمون عليهم وجعلت الأمداد ترد من يزدجرد إلى مهران وأمد سعد المسلمين وخرجت الفرس وقد احتفلوا فاقتتلوا فأرسل الله عليهم الريح حتى أظلمت عليهم البلاد فتحاجزوا فسقط فرسانهم فى الخندق فجعلوا فيه طرقاً مما يليهم ليصعد منه خيلهم فأفسدوا حصنهم ، وبلغ ذلك المسلمين فنهضوا إليهم وقاتلوهم قتالا شديداً لم يقتتلوا مثله ولا ليلة الهرير إلا أنه كان أعجل وانتهى القعقاع بن عمرو من الوجه الذى زحف فيه إلى باب خندقهم فأخذ به وأمر منادياً ، فنادى يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق فأخذ به فأقبلوا إليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله وإنما أمر بذلك ليقوى المسلمين فحملوا ولا يشكون بأن هاشماً فى الخندق فإذا هم بالقعقاع بن عمرو ، وقد أخذ به ، فانهزم المشركون عن المجال يمنة ويسرة فهلكوا فيما أعدوا من الحسك فعقرت دوابهم وعادوا رجالة واتبعهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا القليل وقتل يومئذ منهم مائة ألف فجللت القتلى المجال وما بين يديه وما خلفه فسميت جلولاء بما جللها من قتالهم فهى جلولاء الوقيعة فصار القعقاع بن عمرو فى الطلب حتى بلغ خانقين ولما بلغت الهزيمة يزدجرد سار من حلوان نحو الرى وقدم القعقاع حلوان فنزلها فى جند ولما سار يزدجرد من حلوان استخلف عليها خسرسنوم وكان الزينبى دهقان حلوان ، فلما قرب القعقاع من حلوان خرج عليه خسرسنوم والزينبى بمن معهما فقتل الزينبى وهرب خسرسنوم ، واستولى المسلمون على حلوان ، وبقى القعقاع بها إلى أن تحول سعد إلى الكوفة فلحقه

القعقاع ، واستخلف على حلوان قباء ، وكان أصله خراسانيا ، وكتبوا إلى عمر بالفتح وبنزول القعقاع حلوان ، واستأذنوه فى اتباعهم فأبى وقال : لوددت أن بين السواد و بين الجبل سد لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم حسبنا من الريف السواد إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال وأدرك القعقاع فى اتباعه الفرس مهران بخانقين فقتله ، وأدرك الفيرزان فنزل وتوغل فى الجبل فتحامى وأصاب القعقاع سبايا فأرسلهن إلى هاشم فقسمهن فاتخذن سرارى فولدن ، وممن ينسب إلى ذلك السبى أم الشعبى وقسمت الغنيمة وأصاب كل واحد من الفوارس تسعة آلاف وتسعة من الدواب ، وقيل إن الغنيمة كانت ثلاثين ألف ألف و بعث سعد الأخماس إلى عمر رضى الله عنه بعد أن قسم الأربعة الأخماس على الغانمين ، فلما قدم الخمس على عمر رضى الله عنه قال : والله لا يجنحه سقف حتى أقسمه ، فبات عبد الله بن عوف وعبد الله بن الأرقم بحرسانه فى المسجد ، فلما أصبح جاء فى الناس فكشف عنه ، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجواهره ، بكى فقال له عبد الرحمن ابن عوف : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ فوالله إن هذا لموطن شكر ، فقال عمر : والله ماذلك يبكينى ، وبالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا ألقى الله بأسهم بينهم ومنع عمر من قسمة السواد لتعذر ذلك بسبب الآجام والغياض ، وتبعيض المياه ، وما كان لبيوت النار وسكك البرد وما كان لكسرى ومن جاء معه ، وما كان لمن قتل وخاف أيضاً الفتنة بين المسلمين فلم يقسمه ومنع من بيعه لأنه لم يقسم وأقروها حبيساً يولونها من أجمعوا عليه بالرضا ، وكانوا لا يجمعون إلا على الأمراء فلا يحلى بيع شىء من أرض السواد ما بين حلوان والقادسية ، واشترى جرير أرضاً على شاطىء الفرات فرد عمر ذلك الشراء وكرهه .

ذكر اتخاذ البصرة والكوفة مصرا من الأمصار

اختلف فى السنة التى اتخذت البصرة فيها مصراً فقيل سنة ست عشرة بعد فتح جلولاء أرسل سعد عتبة بن غزوان رضى الله عنه بأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاتخذها مصراً

وخرج عليه أهل الإبلة فقاتلهم عتبة فهزمهم ، واجتمع أهل دستميسان فقاتلهم عتبة فهزمهم، وأخذ مرزبانها أسيراً وكان من سبي ميسان يسار أبو الحسن البصرى وأرطبان جد عبد الله بن عون بن أرطبان ، وقيل إن اتخاذ عتبة البصرة مصراً كان فى سنة أربع عشرة وقيل خمس عشره ، وأما الكوفة فاتخذها سعد مصراً سنة خمس عشرة دلهم على موضعها ابن بقيلة قال لسعد ألا أدلك على أرض الله ارتفعت عن القبة وانحدرت عن الفلاة فدله على موضعها فتحول سعد من المدائن إليها ، وسبب ذلك أن العرب استوخمت المدائن وبعث سعد أناساً يستطيبون لهم أرضاً ينزلونها فاستطابوا الكوفة وهواءها فتحول إليها سعد ومن معه سنة سبع عشرة .

ذكر فتح تكريت والموصل فى سنة ست عشرة أيضاً

كان ذلك بعد فتح جلولاء وسبب ذلك أن الأنطاق سار من الموصل إلى تكريت وخندق عليه ليحمى أرضه ومعه الروم وإياد وتغلب والنمر والشهارجة ، فبلغ ذلك سعداً فكتب إلى عمر ، فكتب إليه عمر أن سرح إليه عبد الرحمن بن المعتم واستعمل على مقدمته ربعى بن الأفكل وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة ، فسار عبدالله إلى تكريت ونزل على الأنطاق فحصره ومن معه أربعين يوماً فتزاحفوا أربعة وعشرين زحفاً وأرسل عبد الله بن المعتم إلى العرب الذين مع الأنطاق يدعوهم إلى نصرته وكانوا لا يخفون عليه شيئاً ، ولما رأت الروم المسلمين ظاهرين عليهم تركوا أمراءهم ونقلوا متاعهم إلى السفن فأرسلت تغلب وإياد والنمر إلى عبد الله بالخبر وسألوه الأمان وأعلموه أنهم معه فأرسل إليهم إن كنتم صادقين فأسلموا فأجابوه وأسلموا فأرسل إليهم عبد الله إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا أخذنا أبواب الخندق فخذوا الأبواب التى تلى دجلة وكبروا واقتلوا من قدرتم عليه ، ونهض عبد الله والمسلمون وكبروا وكبرت تغلب وإياد والنمر وأخذوا الأبواب فظن الروم أن المسلمين قد أتوهم من خلفهم مما يلى دجلة فقصدوا الأبواب التى عليها المسلمون وأخذتهم سيوف المسلمين وسيوف الربعيين الذين أسلموا تلك الليلة فلم يفلت من أهل الخندق إلا من أسلم من تغلب وإياد النمر ، وأرسل عبد الله بن المعتم ربعى بن الأفكل إلى نينوى.

والموصل ، وقال أسبق الخبر وسرح معه تغلب وإياد والنمر ، فقدمهم ابن الأفكل إلى الحصين فسبقوا الخبر وأظهروا الظفر والغنيمة وبشروهم ووقفوا بالأبواب وأقبل ابن الأفكل فاقتحم عليهم الحصين وكلبو أبوابها فنادوا بالإجابة إلى الصلح وصاروا ذمة وقسموا الغنيمة فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف درهم وسهم الراجل ألف درهم وبعثوا بالأخماس إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وولى حرب الموصل ربعى بن الأفكل والخراج عرفجة بن هرثمة ثم فتحت بقية أعمال الموصل وجميع معاقل الأكراد وصار الجميع للمسلمين .

ذكر فتح ماسبذان فى سنة ست عشرة أيضاً

لما انقضى فتح جلولاء بلغ سعدان أذين بن هرمزان قد جمع جمعاً وخرج بهم إلى السهل ، فأرسل إليهم ضرار بن الخطاب فى جيش فالتقوا بسهل ماسبذان فاقتتلوا فأسرع المسلمون القتال فى المشركين وأخذ ضرار آذين أسيراً فضرب رقبته ثم خرج فى الطلب حتى انتهى إلى السيروان فأخذ ماسبذان عنوة فهرب أهلها فى الجبال فدعاهم فاستجابوا له ، وأقاموا بها حتى تحول سعد إلى الكوفة فأرسل إليه فنزل الكوفة واستخلف على ماسبذان ابن الهذيل الأسدى فكانت أحد فروج الكوفة .

ذكر فتح قرقيسا فى سنة ست عشرة أيضا

لما انقضى فتح جلولاء أرسل سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف فى جند نحو هيت فنازل من بها وقد خندقوا عليهم فلما رأى اعتصامهم بخندقهم ترك الأخبية على حالها وخلف عليهم الحارث بن يزيد يحاصرهم وخرج فى نصف الناس فجاء قرقيسا على غرة فأخذها عنوة فأجابوا إلى الجزية ، ثم أن الحارث بن يزيد راسل أهل هيت فأجابوا إلى الجزية وكانت ثغور الكوفة أربعة : حلوان وعليها القعقاع ، وماسبذان وعليها ضرار بن الخطاب ، وقرقيسا وعليها عمر بن مالك ، والموصل وعليها عبد الله ابن المعتم ، وكان بها خلفاؤهم إذا غابوا عنها .

ذكر غزوة فارس من البحرين فى سنة سبع عشرة

لما كان العلاء الحضرمى على البحرين فى خلافة أبى بكر ثم خلافة عمر رضى الله عنهما ندب الناس لغزو فارس فى البحر وقد كان عمر نهاه عن الغزو فى البحر خوف الغرق فخالفه وندب الناس إلى قتال فارس فأجابوه ففرقهم أجناداً على أحدها الجارود بن المعلى ، وعلى الآخر سوار بن همام ، وعلى الآخر خليد بن المنذر بن ساوى ، وخليد على جميع الناس وحملهم فى البحر إلى فارس بغير إذن عمر فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس فخرجوا إلى اصطخر وبازائهم أهل فارس وعليهم الهربذ فقاتلوهم قتالا شديداً بمكان يدعى طاوس فقتل سوار والجارود وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة ، ثم أراد المسلمون الرجوع إلى البصرة فلم يجدوا إلى الرجوع سبيلا ، وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا ولما بلغ عمر رضى الله عنه صنيع العلاء أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا ، قال : فإنى ألقى فى روعى كذا وكذا نحو الذى كان فأرسل عتبة جيشا كثيفا اثنى عشر ألف مقاتل وعليهم أبو سبرة ابن أبى رهم أحد بنى عامر بن لؤى ، فسار بالناس على الساحل لا يعرض له أحد حتى التقى أبو سبرة وخليد وكان أهل اصطخر حيث أخذوا الطريق على المسلمين جمعوا أهل فارس إليهم من كل وجهة ، فالتقوا هم وأبو سبرة بعد طاوس وقد توافت إلى المسلمين أمدادهم فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين وقتل المشركين وأصاب المسلمون منهم ماشاؤا وهى الغزوة التى شرفت بها نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الأمصار ثم انكفوا بما أصابوا ورجعوا إلى البصرة سالمين .

ذكر الخبر عن فتح الأهواز ومناذر ونهر تيرى

فى سنة سبع عشرة فتحت الأهواز ومناذر ونهر تيرى وقيل سنة عشرين وكان السبب فى هذا الفتح أنه لما انهزم الهرمزان يوم القادسية وهو أحد البيوتات السبعة فى أهل فارس قصد خوزستان فملكها ، وقاتل بها من أرادهم فكان الهرمزان يغير على

بأهل ميسان ودستميسان من مناذر ونهر تيرى فاستمد عتبة بن غزوان سعداً فأمده بجيوش والتقوا هم والهرمزان بين نهر تيرى وبين دلث وتوجه بعض جيوشهم لأخذ مناذر ونهر تيرى فبينما الهرمزان يقاتل الذين التقى معهم جاءه الخبر بأخذ مناذر ونهر تيرى فكسر ذلك قلب الهرمزان ومن معه فهزمه الله وإياهم ، وقتل المسلمون منهم ما شاءوا وأصابوا ما شاءوا ، واتبعوهم حتى وقفوا على شاطىء دجيل ، وأخذوا ما دونه وعسكروا بحيال سوق الأهواز ، وعبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وأقام وصار دجيل بين الهرمزان والمسلمين ، فلما رأى الهرمزان مالا طاقة له به طلب الصلح فاستأمروا عتبة فأجاب إلى ذلك على الأهواز كلها ماخلا نهر تيرى ومناذر وما غلب المسلمون عليه من سوق الأهوار فإنه لا يرد عليهم ثم وقع اختلاف بين المسلمين والهرمزان فى حدود الأرض فحاربهم الهرمزان ومنع ما قبله واستعان بالأكراد فكتب عتبة بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر يأمره بقصده ، وأمده بجنده فالتقوا مع الهرمزان عند جسر سوق الأهواز مما يلى السوق فانهزم الهرمزان وسار إلى رامهرمز وفتح المسلمون سوق الأهواز واتسعت لهم البلاد إلى تستر ثم لم يزل القتال بينهم وبين الهرمزان إلى أن طلب الصلح فأجاب عمر إلى ذلك وأن يكون ما أخذه المسلمون بأيديهم واصطلحوا على ذلك ، وأقام الهرمزان والمسلمون يمنعوه إذا قصده الأكراد ويجبى إليهم .

ذكر فتح رامهرمز وتستر وأسر الهرمزان

كان فتح رامهرمز وتستر والسوس فى سنة سبع عشرة وكان سبب فتحها أن يزدجرد لم يزل وهو بمرو يثير أهل فارس أسفا على ما خرج من ملكهم فتحركوا وتكاتبوا هم وأهل الأهواز وتعاقدوا على النصرة فكتب الأمراء بذلك إلى سعد فكتب إلى عمر فكتب إليه عمر أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفا مع النعمان ابن مقرن ، وعجل ولينزلوا بازاء الهرمزان ويتحققوا أمره ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى ، وكان على البصرة أن ابعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً وأمر عليهم سعد ابن عدى أخا سهيل وأبعث معه البراء بن مالك ، ومجزأة بن ثور وعرفجة بن هرثمة

وغيرهم وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعاً أبا سبرة بن أبى رهم فخرج النعمان بن مقرن في أهل الكوفة فسار إلى الأهواز وسار نحو الهرمزان وهو برامهرمز ، فلما سمع الهرمزان بمسير النعمان إليه بادره بالشدة ورجا أن يقتطفه ومعه أهل فارس فالتقى النعمان والهرمزان بأربك فاقتتلوا قتالا شديداً ، ثم أن الله عز وجل هزم الهرمزان فترك رامهرمز ولحق بتستر وسار النعمان إلى رامهرمز ونزلها وصعد إلى ايذج فصالحه تيرويه على ايذج ورجع إلى رامهرمز فأقام بها ووصل أهل البصرة فنزلوا سوق الأهواز وهم يريدون رامهرمز فأتاهم خبر الوقعة وهم بسوق الأهواز وأتاهم الخبر أن الهرمزان نزل بتستر فساروا نحوه وسار أيضا النعمان وغيره من الأمراء فاجتمعوا على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس والجبال والأهواز وعليهم الخنادق وأمد عمر المسلمين أيضا بأبى موسى وجعله على أهل البصرة وعلى الجميع أبا سبرة فحاصروهم أشهراً وأكثروا فيهم القتل وزاحفهم المشركون أيام تستر ثمانين زحفاً يكون لهم مرة وعليهم مرة فلما كان فى آخر زحف منها ، واشتد القتال قال المسلمون للبراء بن مالك وهو أخو أنس بن مالك رضى الله عنهما يا براء ، اقسم على ربك ليهزمنهم وكان مجاب الدعوة فقال : اللهم أهزمهم لنا واستشهدنى ، فهزموهم حتى أدخلوهم خنادقهم ثم اقتحموها عليهم ثم دخلوا مدينتهم وأحاط بها المسلمون فبينما هم على ذلك وقد ضاقت المدينة بهم وطالت حربهم خرج رجل إلى النعمان يستأمنه على أن يدله على مدخل يدخلون منه ورمى فى ناحية أبى موسى بسهم إن أمنتمونى دللتكم على مكان تأتون المدينة منه فأمنوه فى نشابة فرمى إليهم بأخرى ، وقال انهضوا من قبل مخرج الماء فإنكم تفتحونها فندب الناس إليه فانتدب له عامر ابن قيس وبشر كثير ونهضوا لذلك المكان ليلا وقد ندب النعمان أصحابه ليسيروا مع الرجل الذى يدلهم على المدخل إلى المدينة فانتدب له بشر كثير فالتقوا هم وأهل البصرة على ذلك المخرج فدخلوا فى السرب والناس من خارج ، فلما دخلوا المدينة كبروا فيها وكبر المسلمون من خارج ، وفتحت الأبواب فاجتلدوا فيها ونازلوا كل مقاتل وقصد الهرمزان القلعة فتحصن بها وأطاف به الذين دخلوا فنزل إليهم على حكم عمر فأوثقوه

واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وسهم الراجل ألفاً وجاء صاحب الرمية والرجل الذى خرج بنفسه فأمنوهما ومن أغلق بابه معهما وقتل من المسلمون بشر وكثير وممن قتله الهرمزان بنفسه مجزاة بن ثور والبراء بن مالك، وخرج أبو سبرة بنفسه فى أثر المنهزمين إلى السوس ونزل عليها ومعه النعمان به مقرن وأبو موسى وكتبوا إلى عمر فكتب إلى أبى موسى يرده إلى البصرة فانصرف إليها من السوس وسار زر ابن عبد الله الفقيمى إلى جند يسابور فنزل إليها وأرسل أبو سبرة وفداً إلى عمر ابن الخطاب فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فقدموا به المدينة وألبسوه كسوته من الديباج الذى فيه الذهب وتاجه وكان مكللا بالياقوت، وألبسوه حليته ليراه عمر والمسلمون فطلبوا عمر فلم يجدوه، فسألوا عنه فقيل جلس فى المسجد لوفد من الكوفة فوجدوه فى المسجد متوسداً برنسه وكان قد لبسه للوفد؛ فلما قاموا عنه توسده ونام فجلسوا دونه وهو نائم والدرة فى يده فقال الهرمزان أين عمر قالوا هو ذا فقال أين حرسه وحجابه قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب قال فينبغى أن يكون نبياً قالوا بل يعمل بعمل الأنبياء، فاستيقظ عمر لجلبة الناس فاستوى جالساً ثم نظر إلى الهرمزان؟ فقال الهرمزان قالوا نعم، فقال الحمد لله الذى أذل بالإسلام هذا وغير أشباهه فأمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوباً صفيقاً فقال له عمر ياهرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله، فقال يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم فلما كان الآن معكم غلبتمونا ثم قال له ماحاجتك وما عذرك فى انتقاضك مرة بعد أخرى فقال أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به فى قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا فأتى به فى إناء يرضاه فقال إنى أخاف أن أقتل وأنا أشرب، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه فأكفاه فقال عمر أعيدوا عليه ولا تجمعوا بين القتل والعطش فقال لا حاجة لى فى الماء إنما أردت أن أستمن به فقال له عمر: إنى قاتلك فقال قد أمنتنى فقال كذبت قال أنس صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته قال عمر يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزأة بن ثور والبراء بن مالك

والله لتأتين بمخرج أو لأعاقبنك قال إنك يا أمير المؤمنين قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني ، ولا بأس عليك حتى تشربه وقال لعمر من حوله مثل ما قال أنس فأقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله لا أنخدع إلا أن تسلم فأسلم ففرض له فيمن فرض لهم ألفين وأنزله المدينة وكان المترجم بينهما المغيرة بن شعبة لأنه كان يفقه بالفارسية إلى أن جاء المترجم .

ذكر فتح السوس

لما نزل أبو سبرة على السوس كان بها شهريار أخو الهرمزان فأحاط المسلمون بها وناوشوهم القتال مرات وحاصرهم ثم اقتحموا الباب ودخلوا عليهم فألقى المشركون بأيديهم ونادوا الصلح الصلح فأجابهم إلى ذلك المسلمون بعد ما دخلوها عنوة واقتسموا ما أصابوا وقيل فى فتح السوس أن يزدجرد سار بعد وقعة جلولاء فنزل اصطخر و معه سياه فى سبعين من عظماء الفرس فوجهه إلى السوس والهرمزان إلى تستر ونزل سياه بين رامهرمز وتستر ودعا من معه من عظماء الفرس وقال لهم قد علمتم أنا كنا نتحدث أن هؤلاء القوم سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم فى ايوانات اصطخر ويشدون خيولهم فى شجرها وقد غلبوا على ما رأيتم فانظروا لأنفسكم فقالوا رأينا رأيك قال أرى أن تدخلوا فى دينهم ووجهوا شبرويه فى عشرة من الأساورة إلى أبى موسى فشرط عليهم أن يقاتلوا معه العجم ولا يقاتلوا العرب وإن قاتلهم أحد من العرب منعهم منهم وينزلوا حيث شاءوا ويلحقوا بأشرف العطاء ويعقد لهم ذلك عمر على أن يسلموا فأعطاهم عمر ما سألوا فأسلموا وشهدوا مع المسلمين حصار تستر ومضى سياه إلى حصن قد حاصره المسلمون فى زى العجم فألقى نفسه إلى جانب الحصن ونضح ثيابه بالدم فرآه أهل الحصن صريعاً فظنوه رجلا منهم ففتحوا له باب الحصن ليدخلوه إليهم فوثب وقاتلهم حتى خلوا عن الحصن وهربوا فملكه .

ذكر مصالحة جند يسابور

ثم سار بعض المسلمين عن السوس فنزل بجند يسابور وزر بن عبد الله محاصرهم فأقاموا عليها يقاتلونهم فرمى إلى من بها من عسكر المسلمين بالأمان فلم يفجأ المسلمين إلا وقد فتحت أبوابها وأخرجوا أسواقهم فسألهم المسلمون فقالوا رميتم لنا بالأمان فقبلناه وأقررنا الجزية ، فقال المسلمون ، ما فعلنا وسأل المسلمون بعضهم من فعل ذلك فإذا هو عبد يدعى مكنفاً كان أصله منها فعل هذا فقالوا هو عبد ، فقال أهلها : لا نعرف العبد من الحر ، وقد قبلنا الجزية وما بدلنا فإن شئتم فاغدروا فكتبوا إلى عمر فأجاز أمانهم فأمنوهم وانصرفوا عنهم .

ذكر مسير المسلمين إلى كرمان وغيرها

قيل فى سنة سبع عشرة أذن عمر للمسلمين فى الانسياح فى بلاد فارس وانتهى فى ذلك إلى رأى الأحنف بن قيس حيث ، قال له : يا أمير المؤمنين نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأن فارس لا يزالون يقاتلوننا ما دام ملكهم فيهم فلا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فى الانسياح فنسيح فى بلادهم ونزيل ملكهم فهنا لك ينقطع رجاء أهل فارس فقال عمر صدقتنى والله وأذن فى الانسياح وأمر أبا موسى أن يسير من البصرة إلى منقطع ذمة البصرة فيكون هناك حتى يأتيه أمره وبعث بألوية من ولى مع سهيل بن عدى فدفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس ولواء ازدشير وسابور إلى مشاجع بن مسعود السلمى ولواء اصطخر إلى عثمان بن أبى العاص الثقفى ولواء نساودار أبجرد إلى سارية بن زنيم الكنانى ولواء كرمان إلى سهيل بن عدى ولواء سجستان إلى عاصم بن عمرو ولواء مكران إلى الحكم بن عمير التغلبى فخرجوا ولم يتهيأ مسيرهم فى ذلك الوقت وأمدهم بنفر من أهل الكوفة وسيأتى الكلام على تفصيل ذلك .

ذكر وقعة نهاوند

قيل إنها كانت سنة ثمان عشرة وقيل سنة تسع عشرة وقيل سنة إحدى وعشرين وكان الذى هيج أمر نهاوند أن المسلمين لما خلصوا من جند العلاء من بلاد فارس وفتحوا الأهواز كاتبت الفرس ملكهم وهو بمرو فحركوه وكاتب الملوك بين الباب والسند وخراسان وحلوان فتحركوا وتكاتبوا واجتمعوا إلى نهاوند ولما وصل أوائلهم بلغ سعداً الخبر فكتب إلى عمر وثار بسعد قوم سعوا به وتعصبوا عليه ولم يشغلهم ما نزل بالناس وكان جماعة خالفوا سعداً وصاروا يشكون منه فمن تحرك فى أمره الجراح بن سنان الأسدى فى نفر فقال لهم عمر والله ما يمنعنى ما نزل بكم من النظر فيما لديكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس فى الاستعداد للفرس ، وكان محمد بن مسلمة صاحب العمال يقتص آثار من شكى زمان عمر فطاف بسيد على أهل الكوفة يسأل عنه فما سأل عنه جماعة إلا أثنوا عليه خيرا سوى من مالأ الجراح الأسدى فإنهم سكتوا ولم يقولوا سوءا ومالا يسوغ لهم حتى انتهوا إلى بنى عبس فسألهم وقال أسامة بن قتادة : اللهم أنه لايقسم بالسوية ، ولا يعدل فى القضية ، ولا يغزو فى السرية . فقال سعد : اللهم إن كان قالها رياء وكذبا وسمعة فاعم نصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن ، فعمى واجتمع عنده عشر بنات ، وكان يسمع بالمرأة فيأتيها حتى يجسها فإذا عثر عليها قال دعوة سعد الرجل المبارك ، ثم دعا سعد على أولئك النفر ، فقال : اللهم إن كانوا خرجوا أشراً وبطراً ورياء فاجتهد بلادهم فجهدوا وقطع الجراح بن سنان بالسيوف يوم بادر الحسن بن على رضى الله عنهما ليغتاله بساباط ، وشدخ قبيصة بالحجارة ، وقتل أربد بالوجىء ونعال السيوف وكان سعد رضى الله عنه مجاب الدعوة لأن النبى صلى الله عليه وسلم دعا له بذلك وكان من العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين للاسلام ، ومن أخوال النبى صلى الله عليه وسلم وهو أول رجل رمى بسهم فى سبيل الله وأول رجل أهرق دما من المشركين فى سبيل الله وجمع له النبى صلى الله عليه وسلم أبويه فقال فداك أبى وأمى ، ثم أن محمد بن مسلمة رجع إلى المدينة بسعد وبالقوم الذين شكوا منه فقدموا على عمر فأخبره الخبر فقال كيف تصلى ياسعد قال

أطيل الأوليين وأخفف فى الأخيرتين فقال هكذا الظن بك يا أبا إسحاق ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بيناً فأراد عمر رضى الله عنه الاحتياط وقطع النزاع لئلا يطول الشر ويتسع الأمر فقال من خليفتك ياسعد على الكوفة ؟ فقال عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقره وأمر سعداً بالبقاء معه فى المدينة ولما طعن عمر رضى الله عنه جعله من الستة أصحاب الشورى الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال إن تولوا سعد فأهل هو وإلا فليستعن به الوالى فإنى لم أعزله عن ضعف ولا خيانة هكذا كان سبب نهاوند فابتداء البعث كان فى زمن سعد وأما الوقعة فهى فى زمان عبد الله بن عبد الله ابن عتبان ، فنفرت الأعاجم بكتاب يزدجرد فاجتمعوا بنهاوند على الفيرازن فى خمسة ألفاً ومائة ألف مقاتل ، وكان سعد كتب إلى عمر بالخبر ثم شافهه به لما قدم عليه وقال له إن أهل الكوفة يستأذنون فى الانسياح وأن يبدؤهم بالشدة ليكون أهيب لهم على عدوهم فجمع عمر الناس واستشارهم ، وقال لهم هذا يوم له ما بعده وقد هممت أن أسير فيمن قبل لى ومن قدرت عليه أنزل منزلا وسطا بين هذين المصرين ثم استنفرهم وأكون لهم رداً حتى يفتح الله عليهم أو يقضى ما أحب فإن فتح الله عليهم صببتهم فى بلدانهم فقال طلحة بن عبيد الله يا أمير المؤمنين قد أحكمتك الأمور ، وعجمتك البلابل ، واحتنكتك التجارب ، وأنت وشأنك ورأيك لا ينبوا فى يديك ولا يكل عليه إليك هذ الأمر فمرنا نطع وادعنا نجب واحملنا نركب وقدنا ننقد فإنك ولى هذا الأمر وقد باوت وجربت واحتربت فلم ينكشف شىء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيارهم ، ثم جلس فعاد عمر فقام عثمان فقال أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم وإلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل الحرمين إلى الكوفة والبصرة فتلقى جميع المشركين بجمع المسلمين فإنك إذا سرت قل عندك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز غذاء وأكثر ياأمير المؤمنين لأنك لا تستبقى بعد نفسك من العرب باقية ولا تمتع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز أن هذا يوم له ما بعده من الأيام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغب عنه وجلس فعاد عمر ، فقام على بن أبى طالب فقال أما بعد يا أمير المؤمنين فإنك إذا أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم

وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم وإنك إن أشخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك ما بين يديك من العورات والعيال أقرر هؤلاء فى أمصارهم واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا ثلاث فرق ، فرقة فى حرمهم وذراريهم ، وفرقة فى أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم إن الأعاجم إن ينتظروا إليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصلها فكان ذلك أشد لكلبهم عليك ، وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك وهو أقدر على تغيير ما يكره وأما عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر ، فقال عمر هذا هو الرأى كنت أحب أن أتابع عليه فأشيروا على برجل أوليه ذلك الثغر وليكن عراقياً فقالوا أنت أعلم بجندك وقد وفدوا عليك ، فقال : والله لأولين رجلا يكون أول الأسنة إذا لقيها غداً فقيل من هو ؟ فقال النعمان بن مقرن المزنى ، فقالوا هو لها وكان النعمان يومئذ معه جمع من أهل الكوفة قد اقتحموا جند يسابور والسوس فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى ماه لتجتمع الجيوش عليه ، فإذا اجتمعوا إليه سار بهم إلى الفيرزان ومن معه وكتب عمر إلى عبدالله ابن عبد الله بن عتبان ليستنفر الناس مع النعمان ويجتمعوا عليه بماه فندب الناس فكان أسرعهم إلى ذلك الرواد ليبلوا فى الدين وليدركوا حظاً ، فخرج الناس وعليهم حذيفة ابن اليمان ومعه نعيم بن مقرن أخو النعمان بن مقرن حتى قدموا على النعمان ، وكتب خالد إلى الجند الذى كانوا بالأهواز ليشغلوا فارساً عن المسلمين وعليهم المقترب وحرملة وزر فأقاموا بتخوم أصبهان وفارس وقطعوا أمداد فارس عن أهل نهاوند واجتمع الناس على النعمان وفيهم حذيفة ابن اليمان وعبد الله بن عمر وجرير بن عبد الله البجلى والمغيرة بن شعبة وغيرهم، فأرسل النعمان طليحة بن خويلد الأسدى وعمرو بن معدى كرب وعمرو بن ثنى وهو بن أبى سلمى ليأتوه بخبر القوم فخرجوا وساروا يوماً إلى الليل فرجع إليه عمرو بن ثنى فقالوا ما أرجعك ؟ فقال : لم أكن فى أرض العجم وقتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها ومضى طليحة وعمرو بن معدى كرب فلما كان آخر الليل رجع عمرو ، فقالوا

ما أرجعك ؟ قال سرنا يوماً وليلة ولم نر شيئاً فرجعت ومضى طليحة حتى انتهى إلى نهاوند ، وبين موضع المسلمين الذين هم به ونهاوند بضعه وعشرون فرسخاً ، فقال الناس ارتد طليحة الثانية فعلم كلام القوم ورجع فلما رأوه كبروا فقال ما شأنكم ؟ فأعلموه بالذى خافوا عليه فقال : والله لولم يكن دين إلا العربى ما كنت لأحرز العجم الطماطم هذه العرب العادية فأعلم النعمان أنه ليس بينهم وبين نهاوند شىء يكرهه ولا أحد فرحل النعمان وعبى أصحابه وهم ثلاثون ألفاً فجعل على مقدمته أخاه نعيم بن مقرن وعلى مجنبتيه حذيفة ابن اليمان وسويد بن مقرن وعلى المجردة القعقاع بن عمرو وعلى الساقة مجاشع ابن مسعود ، وقد توافت إليه أمداد المدينة فيهم المغيرة بن شعبة فانتهوا إلى اسبيذهان والفرس وقوف على تعبيتهم وأميرهم الفيرزان وعلى مجنبتيه الزردق وبهمن جاذويه الذى جعل مكان ذى الحاجب وقد توافى إليهم الأمداد بنهاوند كل من غاب عن القادسية لبسوا بدونهم ، فلما رآهم النعمان كبر وكبر معه الناس فتزلزلت الأعاجم وحطت العرب الأثقال وضرب فسطاط النعمان فابتدر أشراف الكوفة فضربوا فسطاطهم ونشب القتال بعد حط الأثقال فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم سجال ، وأنهم انحجزوا فى خنادقهم يوم الجمعة وحاصرهم المسلمون وأقاموا عليهم ما شاء الله ، والفرس بالخيار لايخرجون إلا إذا أرادوا الخروج فخاف المسلمون أن يطول أمرهم حتى إذا كان ذات يوم فى جمعة من الجمع اجتمع أهل الرأى من المسلمين ، وقالوا نراهم علينا بالخيار وأتوا النعمان فى ذلك فوافوه وهو يروى فى الذى رووا فيه فأخبروه فبعث إلى من بقى من أهل النجدات والرأى فأحضرهم فتكلم النعمان فقال: قد ترون المشركين واعتصامهم بخنادقهم ومدنهم وأنهم لايخرجون إلينا إلا إذا شاءوا ولا يقدر المسلمون على إخراجهم ، وقد ترون الذى فيه المسلمون من التضايق ، فما الرأى الذى به نستخرجهم إلى المناجزة وترك التطويل. »

فتكلم عمرو بن ثنى وكان أكبر الناس وكانوا يتكلمون على الأسنان فقال التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم وقاتل من أتاك منهم فردوا عليه رأيه وتكلم عمرو بن معدى كرب فقال ناهضهم وكابدهم ولا تخفهم فردوا جميعاً عليه رأيه وقالوا إنما يناطح بنا

الجدران وهى أعوان علينا وقال طليحة أرى أن تبعث خيلا لينشبوا القتال ، فإذا اختلطوا بهم رجعوا إلينا استطراداً فإنا لم نستطرد لهم فى طول ما قتلناهم فإذا رأوا ذلك طمعوا ، وخرجوا فقتلناهم حتى يقضى الله فيهم وفينا ما أحب فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجردة فأنشب القتال فأخرجهم من خنادقهم كأنهم جبال حديد وقد تواثقوا أن لا يفروا وقد قرن بعضهم بعضاً كل سبعة فى قران وألقوا حسك الحديد خلفهم لئلا ينهزموا فلما خرجوا نكص ثم نكص واغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا هى فلم يبق أحد إلا من يقوم على الأبواب وركبوهم ولحق القعقاع بالناس وانقطع الفرس عن حصنهم بعض الانقطاع . والمسلمون على تعبية فى يوم جمعة صدر النهار وقد عهد النعمان إلى الناس عهده وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا واستتروا بالحجف من الرمى ، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراح وشكا الناس وقال للنعمان ألا ترى ما نحن فيه فما تنتظر بهم ائذن للناس فى قتالهم فقال رويداً رويداً ، وانتظر النعمان بالقتال أحب الساعات كانت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى العدو فيها وذلك عند الزوال فلما كان قريباً من تلك الساعة ركب فرسه وسار فى الناس ووقف على كل راية يذكرهم ويحرضهم ويمنيهم الظفر وقال لهم إنى مكبر ثلاثاً فإذا كبرت الثالثة فإنى حامل فاحملوا وإن قتلت فالأمر بيد حذيفة بن اليمان فإن قتل ففلان حتى عد سبعة آخرهم المغيرة ، ثم قال اللهم أعزز دينك وانصر عبادك واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك وقيل بل قال اللهم إنى أسألك أن تقر عينى اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام وأقبضنى شهيداً فبكى الناس ، ورجع إلى موقفه وكبر ثلاثاً والناس سامعون مطيعون مستعدون للقتال وحمل النعمان والناس معه وانقضت رايته انقضاض العقاب والنعمان معلم ببياض القبا والقلنسوة فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع السامعون بوقعة كانت أشد منهم وما كان يسمع إلا وقع الحديد وصبر لهم المسلمون صبراً عظيما ، وانهزم الأعاجم وقتل منهم ما بين الزوال والأعتام ما طبق أرض المعركة دما يزلق الناس والدواب فلما أقر الله عين النعمان بالفتح استجاب له فقتل شهيداً رمى بسهم فى خاصرته فقتله وزلق

به فرسه فصرع فسجاه أخوه نعيم بثوب وأخذ الراية وناولها حذيفة فأخذها وتقدم موضع النعمان وترك نعيما مكانه وقال لهم المغيرة اكتموا مصاب أميركم حتى تنظروا ما يصنع الله فينا وفيهم لئلا يوهن الناس فاقتتلوا فلما أظلم الليل عليهم انهزم المشركون وذهبوا وتبعهم المسلمون وعمى الله على المشركين قصدهم فتركوه وأخذوا نحو اللهب الذى كانوا دونه فوقعوا فيه فكان الواحد منهم يقع فيقع عليه ستة بعضهم على بعض فى قياد واحد فيقتلون جميعاً وجعل يعقرهم حسك الحديد فمات منهم فى اللهب مائة ألف أو يزيدون سوى من قتل فى المعركة وقيل قتل فى اللهب ثمانون ألفاً سوى من قتل فى الطلب ولم يفلت إلى الشريد ونجا الفيرزان من الصرعى فهرب نحو همذان فتابعه نعيم بن مقرن وقدم القعقاع قدامه فأدركه بثنية همذان وهى إذ ذاك مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلا فحبسه الدواب على أجله فلما لم يجد طريقاً نزل عن دابته وصعد الجبل فتبعه القعقاع راجلا فأدركه فقتل المسلمون الفيرزان على الثنية وقالوا إن لله جنوداً من عسل واستاقوا العسل وما معه من الأحمال وسميت الثنية ثنية العسل ودخل المشركون همذان والمسلمون فى آثارهم ، فنزلوا عليها وأخذوا ما حولها ، فلما رأى ذلك خشرشنوم استأمنهم ولما تم الظفر للمسلمين جعلوا يسألون عن أميرهم النعمان بن مقرن فقال لهم أخوه معقل هذا أميركم قد أقر الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة فاتبعوا حذيفة ودخل المسلمون نهاوند يوم الوقعة بعد الهزيمة واحتووا على الأمتعة والأموال والأسلاب والأثاث وأتاهم الهربذ صاحب بيت النار على أمان فقال لحذيفة أتؤمننى ومن شئت على أن أخرج لك ذخيرة لكسرى تركت عندى لنوائب الزمان قال نعم فأحضر جوهراً نفيساً فى سفطين فأرسلهما حذيفة مع الأخماس إلى عمر ، وكان حذيفة قد نفل منها وأرسل الباقى مع السائب بن الأقرع الثقفى وكان كاتباً حاسباً أرسله عمر إليهم وقال إن فتح الله عليكم فاقسم على المسلمين فيئهم وخذ الخمس وائتنى به وإن هلك هذا الجيش فاذهب فبطن الأرض خير من ظهرها قال السائب فلما فتح الله على المسلمين وأحضر الفارسى السفطين اللذين كانا عنده فإذا فيهما اللؤلؤ والزبرجد والياقوت فلما فرغت من القسمة احتملتهما معى وقدمت

على عمر وكان عمر رضى الله عنه قد قدر الوقعة فبات يتململ ويخرج ويتوقع الأخبار فبينما رجل من المسلمين قد خرج فى بعض حوائجه فرجع إلى المدينة ليلا فمر به راكب فسأله من أين أقبل فقال من نهاوند ، وأخبره بالفتح وقتل النعمان فلما أصبح الرجل يحدث بهذا بعد ثلاث من الواقعة فبلغ الخبر عمر فسأله فأخبره فقال ذاك بريد الجن ثم قدم البريد بعد ذلك فأخبره بما يسره ولم يخبره بقتل النعمان قال السائب فخرج عمر من الغد يتوقع الأخبار قال فأتيت فقال ما وراءك فقلت خير يا أمير المؤمنين فتح الله عليك وأعظم الفتح واستشهد النعمان بن مقرن فقال عمر إنا لله وإنا إليه راجعون ثم بكى فنشج حتى بانت فروع كتفيه فوق كتده فلما رأيت ذلك وما لقى قلت يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده رجل يعرف وجهه فقال أولئك المستضعفون من المسلمين ولكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم وما يصنع أولئك بمعرفة عمر ثم خبرته بالسفطين فقال : أدخلهما بيت المال حتى ننظر فى شأنهما والحق بجندك قال : ففعلت ، وخرجت سريعاً إلى الكوفة وبات عمر ، فلما أصبح بعث فى أثرى رسولا فما أدركنى حتى دخلت الكوفة فأنخت بعيرى وأناخ بعيره على عرقوب بعيرى فقال الحق بأمير المؤمنين فقد بعثنى فى طلبك فلم أقدر عليك إلا الآن قال فركبت معه فقدمت على عمر فلما رآنى قال لى ومالى وللسائب قلت ولماذا قال ويحك والله ما هو إلا أن نمت الليلة التى خرجت فيها فباتت الملائكة تسحبنى إلى السفطين يشتعلان نارا يقولون لنكوينك بهما فأقول إنى سأقسمها بين المسلمين فخذهما عنى فبعهما فى أعطية المسلمين وأرزاقهم قال فخرجت بهما فوضعتهما فى مسجد الكوفة فابتاعهما منى عمر بن حريث المخزومى بألف ألف درهم ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم فباعهما بأربعة آلاف ألف فما زال أكثر أهل الكوفة مالا وكان سهم الفارس بنهاوند ستة آلاف وسهم الراجل ألفين وكان المسلمون يسمون فتح نهاوند فتح الفتوح لأنه لم يكن بعده للفرس اجتماع وملك المسلمون بلادهم ولم يزل أمر يزدجرد فى انتكاس ونقصان وكلما أخذت منه مدينة انتقل إلى أخرى إلى أن قتل فى خلافة عثمان رضى الله عنه سنة إحدى وثلاثين وسيأتى تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى .

ذكر فتح الدينور والصيمرة وغيرهما

لما انصرف أبو موسى من نهاوند وكان قد جاء مدداً على بعث أهل البصرة مر بالدينور فأقام عليها خمسة أيام وصالحه أهلها على الجزية ومضى فصالحه أهل شيروان على مثل صلحهم وبعث السائب بن الأقرع الثقفى إلى الصيمرة مدينة مهرجا نقذف ففتحها صلحاً .

ذكر فتح همذان والماهين وغيرهما

لما انهزم المشركون دخل من سلم منهم همذان وحاصرهم نعيم بن مقرن والقعقاع ابن عمرو ، فلما رأى ذلك خشرشنوم استتاء منهم وقبل منهم الجزية على أن يضمن منهم همذان ودستبي وأن لا يؤتى المسلمون منهم فأجابوه إلى ذلك وأمنوه ومن معه من الفرس وأقبل كل من كان هرب منهم وبلغ الخبر الماهين بفتح همذان وملكها فاقتدوا بخشرشنوم وكاتبوا حذيفة فأجابهم إلى ما طلبوا وأجمعوا على القبول .

ذكر فتح أصبهان

بعث عمر رضى الله عنه إليها عبد الله بن عبد الله بن عتبان وكان شجاعا من أشراف الصحابة ومن وجوه الأنصار وأمده بأبى موسى وكان على جند أصبهان الاسبيذان وعلى مقدمة شهريار بن جاذويه شيخ كبير فى جمع عظيم فاقتتلوا برستاق أصبهان قتالا شديداً ودعا الشيخ إلى البراز فبرز له عبدالله بن ورقاء الرياحى فقتله وانهزم أهل أصبهان وسمى ذلك الرستاق رستاق الشيخ إلى هذا اليوم وصالحهم الاسبيذان على رستاق الشيخ وهو أول رستاق أخذ من أصبهان ثم سار عبدالله إلى مدينة جى وهى مدينة أصبهان والملك بأصبهان الفاذوسفان فنزل بالناس على جى وحاصرهم وقاتلها ثم صالحه الفاذوسفان على أصبهان على أن من أقام الجزية أقام على ماله وأن يجرى من أخذت أرضه عنوة مجراهم ومن أبى وذهب كانت لكم أرضه فخرج الناس من جى ، ودخلوا فى الذمة إلا ثلاثين رجلا من

أصبهان ، فالحقوا بكرمان ، ثم قدم كتاب عمر إلى عبد الله يأمره بالمسير إلى سهيل بن عدى ليكون معه على قتال من بكرمان فسار واستخلف على أصبهان السائب بن الأقرع ولحق بسهيل ونازلوا كرمان حتى فتحوها وسيأتى ذكر ذلك فى فتوحات سنة ثلاث وعشرين .

ذكر فتح زويلة

فى سنة إحدى وعشرين بعث عمرو بن العاص من مصر عقبة بن نافع الفهرى بجيش فافتتح زويلة صلحاً وما بين برقة وزويلة فصار سلما للمسلمين .

ذكر فتح همذان ثانيا

قد تقدم مسير نعيم بن مقرن إلى همذان وفتحها على يده ويد القعقاع بن عمرو ، فلما رجعا عنها كفر أهلها فرجع إليهم نعيم بن مقرن فى سنة اثنتين وعشرين وحاصرهم ، ثم سألوا الصلح ففعل وقبل منهم الجزية وقيل إن ذلك كان سنة أربع وعشرين بعد مقتل عمر رضى الله عنه لستة أشهر وأن نعيما خرج إليهم فى جيش كثيف وقاتلهم قتالا شديداً وكانت وقعة عظيمة تعدل نهاوند فانهزم الفرس هزيمةقبيحة وقتل مقتلة كبيرة لا يحصون، وقيل إن المغيرة بن شعبة حين كان عاملا على الكوفة أرسل جرير بن عبد الله البجلى إلى همذان فقاتله أهلها وأصيب عين جرير بسهم ، فقال احتسبها عندالله الذى زين بها وجهى وسلبنيها فى سبيله ، ثم فتحها على مثل صلح نهاوند وغلب على أرضها قصراً ، وقيل كان فتحها على يد المغيرة بنفسه وكان جرير على مقدمته وقيل فتحها قرظة بن كعب الأنصارى.

ذكر فتح قزوين وزنجان

لما سير المغيرة جريراً إلى همذان ففتحها سير البراء بن عازب فى جيش إلى قزوين فسار البراء حتى أتى أبهر وهو حصن فقاتلوه ثم طلبوا الأمان فأمنهم وصالحهم ثم غزا

قزوين ، فلما بلغ أهلها الخبر أرسلوا إلى الديلمي يطلبون النصرة فوعدهم ووصل المسلمون إليهم فخرجوا لقتالهم ، والديلم وقوف على الجبل لا يمدون يداً ، فلما رأى أهل قزوين طلبوا الصلح على صلح أبهر ، ثم غزا البراء الديلم حتى أدوا إليه الأتاوة وغزا جيلان والطيلسان وفتح زنجان عنوة ولما ولى الوليد بن عقبة السكوفة غزا أيضاً الديلم وجيلان وموقان والببر والطيلسان ثم انصرف .

ذكر فتح الرى

فى سنة اثنتين وعشرين غزا نعيم بن مقرن الرى وخرج من الرى الزينبى أبو الفرخان فلقا نعيما طالباً الصلح ومسالما له ومخالفاً لملك الرى وهو سياوخش ابن مهران بن بهرام فاستمد ملك الرى أهل دنباوند وطبرستان وقومس وجرجان فأمدوه خوفا من المسلمين ، فالتقوا مع المسلمين فى سفح جبل الرى إلى جنب مدينتها فاقتتلوا به ، وكان الزينبى قال لنعيم أن القوم كثير وأنت فى قلة فابعث معى خيلا أدخل بهم مدينتهم من مدخل لا يشعرون به وناهضهم أنت فأنهم إذا خرجنا عليهم لم يشتدوا لك ، فبعث معهم نعيم خيلا من الليل عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو فأدخلهم الزينبى المدينة ولا يشعر القوم وبيتهم نعيم بياناً فشغلهم عن مدينتهم فاقتتلوا وصبروا حتى سمعوا التكبير من ورائهم ، فانهزموا فقتلو مقتلة عظيمة وفاء الله على المسلمين بالرى نحواً مما فى المدائن وصالحه الزينبى على الرى ومرزبة غلبهم نعيم وراسله المصمغان فى الصلح على شى يفتدى به منه على دنباوند فأجابه إلى ذلك وقيل إن فتح الرى كان سنة إحدى وعشرين .

ذكر فتح قومس وجرجان وطبرستان

لما أرسل نعيم إلى عمر بالبشارة وأخماس الرى كتب إليه عمر يأمره بإرسال أخيه سويد بن مقرن ومعه هند بن عمرو الجملى وغيره إلى قومس فسار سويد نحو قومس فلم يقم له أحد ، فأخذها سلما وعسكر بها وكاتبه الذين لجأوا إلى طبرستان منهم أهل المفاوز

فأجابهم إلى الصلح والجزية ، ثم سار إلى جرجان فعسكر بها فكاتبوه وصالحوه على الجزية وقيل إن ذلك كان سنة ثلاثين فى خلافة عثمان رضى الله عنه .

ذكر فتح طرابلس الغرب وبرقة

فى سنة اثنتين وعشرين سار عمرو بن العاص من مصر إلى برقة فصالحه أهلها على الجزية ثم سار إلى طرابلس الغرب فحاصرهم شهراً ، فلم يظفر بها وكان قد نزل شرقيها فخرج رجل من المسلمين من بنى مدلج يتصيد فى سبعة نفر وسلكوا غربى المدينة ، فلما رجعوا اشتد عليهم الحر فأخذوا على جانب البحر ولم يكن السور متصلا بالبحر والبلد فدخلوا المدينة من ذلك الجانب وكبروا ، فلما سمع الروم التكبير فى البلد ظنوا أن المسلمين دخلوها ، فلم يكن لهم ملجأ إلا سفنهم ونظر عمرو ومن معه فرأى السيوف فى المدينة ، وسمعوا الصياح فأقبل بجيشه حتى دخل عليهم البلد فلم يفلت من الروم إلا القليل بما خف معهم فى مراكبهم ، وكان أهل حصن سبرة قد تحصنوا لما نزل عمرو على طرابلس فلما امتنع عليه فتح طرابلس أمنوا أو اطمأنوا فلما فتحت طرابلس سير عمرو جنداً إلى سبره فصبحوها وقد فتح أهلها الباب وأخرجوا مواشيهم لتسرح لأنهم لم يكن بلغهم خبر فتح طرابلس ، فوقع المسلمون عليهم ودخلوا الحصن مكابرة وغنموا مافية وعادوا إلى عمرو ، ثم عاد عمرو إلى برقة وقد اجتمع بها قوم من البربر فصالحوه على ثلاثة عشر ألف دينار يؤدونها جزية وشرطوا أن يبيعوا من أرادوا من أولادهم فى جزيتهم .

ذكر فتح أذربيجان

ولما فتح نعيم الرى بعث سماك بن خرشة الأنصارى وليس بأبى دجانة ممداً لبكير ابن عبد الله بأذربيجان ، وكان بكير قد سار إليها بأمر عمر فأمر عمر نعيما أن يمد بكيراً بسماك بن خرشة وكان بكير حين بعث إليها سار حتى إذا طلع بجبال جرميدان طلع عليهم اسفنديار بن فرخزاد فاقتتلوا فانهزم الفرس وأخذ بكير إسفنديار أسيراً فقال له إسفنديار الصلح أحب إليك أم الحرب ؟ فقال بل الصلح فقال أمسكنى عندك فإن أهل أذربيجان

إن لم أصالح عليهم أو أجىء إليهم لم يقوموا لك وجلوا إلى الجبال التي حولها ومن كان من التحصن تحصن ، فأمسكه عنده وصارت البلاد إليه إلا ما كان من حصر وقدم عليه سماك بن خرشة ممداً وإسفنديار فى أمان وقد افتتح ما يليه وأفتتح عتبة بن فرقد ما يليه ، وكتب بكير إلى عمر يستأذنه فى التقدم فأذن له أن يتقدم نحو الباب وأن يستخلف على ما افتتحه فاستخلف عليه عتبة بن فرقد فأقر عتبة سماك بن خرشد على عمل بكير الذى كان افتتحه ، وجمع عمر أذربيجان كلها لعتبة بن فرقد وكان بهرام بن فرخزاد قصد طريق عتبة وأقام به فى عسكره حتى قدم عتبة فاقتتلوا فانهزم بهرام ، فلما بلغ خبره اسفنديار وهو فى الأسر عند بكير قال : الآن تم الصلح وطفئت الحرب فصالحه وأجاب إلى ذلك أهل أذربيجان كلهم وعادت أذربيجان سلما وكتب بذلك بكير وعتبة إلى عمرو بعثا بما خمسا .

ذكر فتح الباب

الباب مدينة عظيمة بناها كسرى ففى هذه السنة أعنى سنة اثنتين وعشرين أمر عمر رضى الله عنه سراقة بن عمرو ، وكان يدعى ذا النور بالمسير إلى الباب وجعل على مقدمته عبدالرحمن بن ربيعة الباهلى وكان له صحبة وكان أيضاً يدعى ذا النور وجعل على أحد مجنبتيه حذيفة بن سعيد الغفارى وعلى الأخرى بكير بن عبدالله الليثى ، وكان بكير سبقه إلى الباب وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة الباهلى فسار سراقة ، فلما خرج من أذربيجان قدم بكير إلى الباب ، وكان الملك بها يومئذ شهريار وهو من ولد شهريار الذى أفسد بنى إسرائيل وغزا الشام بهم ، فلما أطل عبدالرحمن بن ربيعة على الباب كاتبه شهريار واستأمنه على أن يأتيه ففعل ، فأتاه فقال : إنى بإزاء عدو كلب وأمم مختلفة ليست لهم أحساب ولا ينبغى لذى الحسب والعقل أن يعينهم على ذى الحسب ولست من الفتح ولا الأرمن فى شىء ، وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا منكم ويدى مع أيديكم وجزيتى إليكم والنصر لكم والقيام بما تحبون فلا تسومونا الجزية فتوهنونا بعدوكم ، فسيره عبد الرحمن إلى سراقة فلقيه بمثل ذلك فأجابه بقبول ذلك منه ، ثم قال له سراقة لا بد من الجزية ممن

يقيم ولا يحارب العدو ، فأجابه إلى ذلك ، وكتب سراقة فى ذلك إلى عمر فأجازه عمر واستحسنه .

ذكر فتح موقان

لما فرغ سراقة من الباب أرسل بكير بن عبد الله وحبيب بن مسلمة وحذيفة بن أسيد وسلمان بن ربيعة إلى أهل تلك الجبال المحيطة بأرمينية فوجه بكيراً إلى موقان وحبيباً إلى تفليس وحذيفة إلى جبال اللان وسلمان إلى الوجه الآخر ، وكتب سراقة إلى عمر بفتح الباب وبإرسال هؤلاء النفر إلى الجهات المذكورة فأتى عمر أمراً لم يظن أن تستتم له بغير مؤنة لأنه فرج عظيم وجند عظيم ، فلما استوثقوا واستحلوا الإسلام مات سراقة ، واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة ولم يفتح أحد من أولئك القواد إلا بكير فإنه فض أهل موقان ، ثم تراجعوا على الجزية على كل حالم ديناراً ولما بلغ عمر موت سراقة ، واستخلافه عبدالرحمن بن ربيعة أقر عبد الرحمن على فرج الباب وأمره بغزوة الترك .

ذكر غزوة الترك

لما أمر عبد الرحمن بن ربيعة بغزو الترك ، وكانوا فى بلنجر بأقصى ولاية الباب وهم أمم كثيرة ، فخرج ، عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب ، فقال له شهر يار : ما تريد أن تصنع قال : أريد غزو الترك فى بلنجر قال : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب قال : عبد الرحمن لكنا لا نرضى حتى نغزوهم فى ديارهم وبالله أن معنا أقواماً لو يأذن لهم أميرنا فى الإمعان لبلغت بهم الروم قال : وما هم ؟ قال أقوام صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا فى هذا الأمر بنية ولا يزال هذا الأمر لهم دائما ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم فغزوا بلنجر غزاة فى زمن عمر فقالوا : ما اجترأ علينا إلا ومعه الملائكة تمنعهم من الموت فهربوا منه وتحصنوا ، فرجع بالغنيمة والظفر وقد بلغت خيله البيضاء على رأس مائتى فرسخ من بلنجر وعادوا ولم يقتل منهم

أحد ثم غزاهم أيام عثمان بن عفان غزوات فظفر كما كان يظفر حتى تبدل أهل الكوفة وظهر فيهم الاختلال فغزا عبد الرحمن بن ربيعة بعد ذلك الترك فتذامرت عليه واجتمعوا في الفيافي فرمى رجل منهم رجلا من المسلمين على غرة فقتله وهرب عنه أصحابه ، فخرجوا عليه عند ذلك فاقتتلوا واشتد قتالهم ونادى مناد من الجو صبراً عبد الرحمن وموعدكم الجنة فقاتل عبد الرحمن حتى قتل وانكشف أصحابه ، وأخذ الراية أخوه سلمان بن ربيعة فقاتل بها ونادى من الجو صبراً آل سلمان ، فقال سلمان أو ترى جزعا وخرج سلمان بالناس ومعه أبو هريرة الدوسي على جيلان فقطعوها إلى جرجان ولم يمنعهم ذلك من إنجاء جسد عبد الرحمن فهم يستسقون به إلى الآن .

ذكر فتح خراسان

كان فتح خراسان في سنة ثلاث وعشرين على الصحيح ، وسبب ذلك أن يزدجرد سار إلى الري بعد هزيمة أهل جلولاء وانتهى إليها وعليها أبان جاذويه فوثب على يزدجرد فأخذه فقال : يزدجرد يا أبان تغدر بي ، قال : لا ، ولكن قد تركت ملكك فصار في يد غيرك فأحببت أن أكتتب ما كان لي من شيء وأخذ خاتم يزدجرد واكتتب صكا بكل ما أعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم إلى يزدجرد فسار يزدجرد من الري إلى أصبهان ثم سار منها إلى كرمان والنار التي يعبدونها معهم ، ثم قصد خراسان فأتى مرو فنزلها وبنى للنار بيتا واطمأن وأمن من أن يؤتى وأن له من بقي من الأعاجم وكاتب الهرمزان وأثار أهل فارس ، فنكثوا وأثار أهل الجبال والفيرزان ، فنكثوا فأذن عمر للمسلمين فدخلوا بلاد الفرس ، وكتب للأحنف ابن قيس بالمسير إلى خراسان وكان قبل ذلك قد عقد له لواء عليها مع الألوية التي عقدها فسار بجيش كثيف فدخلها من الطبسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدي ثم سار نحو مرو الشاهجان فأرسل إلى نيسابور مطرف ابن عبد الله بن الشخير وإلى سرخس الحارث بن حسان ، فلما دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ حتى نزلها ونزل الأحنف مرو الشاهجان

وكتب يزدجرد وهو بمرو الروذ إلى خاقان وإلى ملك الصغد وإلى ملك الصين يستمدهم وخرج الأحنف مرو الشاهجان واستخلف عليها حارثة بن النعمان الباهلى بعد ما لحقت به أمداد الكوفة ، وسار نحو مرو الروذ ، فلما سمع يزدجرد سار عنها إلى بلخ ونزل الأحنف مرو الروذ وقدم أهل الكوفة إلى يزدجرد واتبعهم الأحنف فالتقى أهل الكوفة و يزدجرد ببلخ وانهزم يزدجرد وعبر النهر ولحق الأحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم ، فبلخ من فتوحهم وتتابع أهل خراسان فمنهم من هرب ومنهم من شد على الصلح فيما بين نيسابور إلى طخارستان وعاد الأحنف إلى مرو الروذ واستخلف على طخارستان ربعى بن عامر ، وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح فقال عمر : وددت أن بيننا وبينها بحراً من نار ، فقال على ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال لأن أهلها ينتقضون منها ثلاث مرات فيحتاجون فى الثالثة فكان ذلك بأهلها أحب إلى من أن يكون بالمسلمين ، وكتب عمر إلى الأحنف أن يقتصر على مادون النهر ولا يجوزه ولما عبر يزدجرد النهر مهزوما وما أنجده خاقان من الترك وأهل فرغانة والصغد فرجع يزدجرد وخاقان إلى خراسان فنزل بلخ .. ورجع أهل الكوفة إلى الأحنف بمرو الروذ ونزل المشركون عليه بمرو أيضاً وكان الأحنف لما بلغه خبر عبور يزدجرد وخاقان النهر إليه خرج ليلا يستمع هل يسمع برأى ينتفع به فمر برجلين ينقيان علفا وأحدهما يقول لصاحبه لو أسندنا الأمير إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقا ، وكان الجبل فى ظهورنا فلا يأتون من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله عليهم ، فلما أصبح جمع الناس ورحل بهم إلى سفح الجبل وكان معه من أهل البصرة عشرة آلاف ومن أهل الكوفة نحواً منهم وأقبلت الترك ومن معها فنزلت وجعلوا يغادرونهم القتال ويراحونهم وفى الليل ينتحون عنهم فخرج الأحنف ليلة طليعة لأصحابه حتى إذا كان قريباً من عسكر خاقان وقف ، فلما كان وجه الصبح خرج فارس الترك بطوقه فضرب بطبله ثم وقف قريبا من العسكر موقفا يقفه مثله فحمل عليه الأحنف فتقاتلا فطعنه الأحنف فقتله وأخذ طوق التركى ، ووقف فخرج آخر من الترك ففعل مثل فعل صاحبه فحمل عليه الأحنف فتقاتلا

فطعنه فقتله وأخذ طوقه ووقف ثم خرج الثالث من الترك ففعل مثل فعل الرجلين فحمل عليه الأحنف فقتله ، ثم انصرف الأحنف إلى عسكره وكانت عادة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكفاء كلهم يضرب بطبله ، ثم يخرجون بعد خروج الثالث ، فلما خرجوا تلك الليلة بعد الثالث فأتوا على فرسانهم مقتولين فقاتلوا فقام خاقان وتطاير فقال قد طال مقامنا وأصيب فرساننا مالنا فى قتال هؤلاء القوم خير فرجعوا ، وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحداً وأتاهم الخبر بانصراف خاقان والترك إلى بلخ ، وقد كان يزدجرد ترك خاقان مقابل المسلمين بمرو الروذ وانصرف إلى مرو الشاهجان فتحصن حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم ، واستخرج يزدجرد خزائنه من مواضعها وخاقان مقيم ببلخ . فلما جمع يزدجرد خزائنه وكانت كبيرة عظيمة وأراد أن يلحق بخاقان قال له أهل فارس أى شىء تريد أن تصنع قال أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين قالوا إن هذا رأى سوء ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم أوفياء أهل دين وأن عدواً يلينا فى بلادنا أحب إلينا من مملكة عدو يلينا فى بلاده ولادين لهم ولا ندرى ما وفاؤهم فأبى عليهم فقالوا دع خزائننا نردها إلى بلادنا ومن يلينا لا تخرجها من بلادنا فأبى فاعتزلوه وقتلوه وأخذوا الخزائن واستولوا عليها وانهزم منهم ، ولحق بخاقان وعبر النهر من بلخ إلى فرغانة وأقام يزدجرد ببلد الترك فلم يزل مقيما بها زمن عمر كله إلى أن كفر أهل خراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونه وسيرد ذكر ذلك فى موضعه . ثم أقبل فارس بعد رحيل يزدجرد على الأحنف فصالحوه ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة واغتبطوا بملك المسلمين وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية وسار الأحنف إلى بلخ فنزلها بعد عبور خاقان النهر منها ونزل أهل الكوفة فى كورها الأربع ، ثم رجع إلى مرو الروذ فنزلها وكتب بفتح خاقان ويزدجر إلى عمر ولما عبر خاقان يزدجرد النهر لقوا رسول يزدجرد الذى أرسله إلى ملك الصين فأخبرهما أن ملك الصين قال له صف لى هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم فإنى أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل منكم مع كثرتكم

إلا بخير فيهم وشريفكم ، فقلت سلني عما أحببت فقال : أيوفون بالعهد قلت نعم قال : وما يقولون لكم قبل القتال قلت : يدعوننا إلى واحدة من ثلاث : أما دينهم فإن أجبنا أجرونا مجراهم أو الجزية والمنعة أو للنابذة قال : فكيف طاعتهم أمراءهم قلت طوع قوم وارشدهم قال : فما يحلون وما يحرمون فأخبرته قال : هل يحلون عليهم أو يحرمون ماحلل لهم قلت لا ، قال : إن هؤلاء القوم لا يزالون على ظفر حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم ثم قال : أخبرني عن لباسهم فأخبرته وعن مطاياهم فقلت الخيل العراب ووصفتها له قال : نعمت الحصون ووصفت له الإبل وبروكها وقيامها بحملها فقال : هذه صفة دواب طوال الأعناق وكتب معه إلى يزدجرد أنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجند أوله بمرو وآخره بالصين إلا جهالة بما يحق على ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها ولو خلا لهم سر بهم أزالوني ما داموا على وصفهم فسالمهم وارض منهم بالمسالمة ولا تهيجهم ما لم يهيجوك ، فأقام يزدجرد بفرغانة ومعه آل كسرى بعهد من خاقان ، ولما وصل خبر الفتح إلى عمر بن الخطاب جمع الناس وخطبهم وقرأ عليهم كتاب الفتح وحمد الله تعالى في خطبته على إنجاز وعده ، ثم قال ألا وإن ملك المجوسية قد هلك فليس يملكون من بلادهم شبراً يضر بمسلم ألا وإن الله أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم غيركم فإني أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم .

ذكر فتح شهرزور والصامغان

استعمل عمر رضي الله عنه عزرة بن قيس على حلوان فحاول عزرة فتح شهرزور فلم يقدر عليها فغزاها عتبة بن فرقد ففتحها بعد قتال على مثل صلح حلوان ، فكانت العقارب تصيب الرجل من المسلمين فيموت وصالح أهل الصامغان ودار أباذ على الجزية والخراج وقتل خلقاً كثيراً من الأكراد ، وكتب إلى عمر أن فتوحي قد بلغ أذربيجان فولاه إياها وولى هرثمة بن عرفجة للموصل ولم تزل شهرزور وأعمالها مضمومة إلى الموصل حتى أفردت عنها آخر خلافة الرشيد .

ذكر غزو معاوية بلاد الروم

فى هذه السنة أعنى سنة اثنتين وعشرين غزا معاوية بلاد الروم ، ودخلها فى عشرة آلاف من المسلمين ، فأثخن فيهم وغنم ورجع سالماً .

ذكر الخبر عن فتح توج

لما خرج أهل البصرة الذين توجهوا إلى فارس أمراء عليها وكان فيهم سارية بن زنيم الكنانى ، فساروا وأهل فارس مجتمعون بتوج فلم يقصدهم المسلمون بل توجه كل أمير إلى الجهة التى أمر عليها ، وبلغ ذلك أهل فارس فتفرقوا إلى بلدانهم كما افترق المسلمون فكانت تلك هزيمتهم وتشتتت أمورهم فقصد مجاشع بن مسعود السلمى سابور وأزدشير فالتقى هو والفرس بتوج فاقتتلوا ما شاء الله ، ثم انهزم الفرس وقتلهم المسلمون كيف شاءوا كل قتلة وغنموا ما فى عسكرهم وحصروا توج فافتتحوها وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما فيها ، وكان ذلك افتتاح سنة ثلاث وعشرين ، وهذه توج الأخيرة والأولى هى التى استقدمتها جنود العلاء بن الحضرمى أيام طاوس ثم دعوا إلى الجزية ، فرجعوا وأقروا بها وأرسل مجاشع بن مسعود السلمى بالبشارة والأخماس إلى عمر رضى الله عنه .

ذكر فتح اصطخر وجور وغيرهما

فى سنة ثلاث وعشرين قصد عثمان بن أبى العاص الثقفى اصطخر ، وكان عمر عقد له لواء اصطخر لما عقد الألوية لمن أذن لهم فى الانسياح إلى بلاد فارس ، فالتقى عثمان هو وآل اصطخر بجور فاقتتلوا وانهزم الفرس وفتح المسلمون جور ثم اصطخر وقتلوا ما شاء الله ثم فر منهم من فر فدعاهم عثمان إلى الجزية والذمة فأجابه الهربذ إليها فتراجعوا وكان عثمان قد جمع الغنائم لما هزمهم فبعث بخمسها إلى عمر وقسم الباقى فى الناس ، وفتح عثمان كيزرون والنوبندجان وغلب على أرضها وفتح هو وأبو موسى مدينة شيراز وارجان ، وفتح سينيز على الجزية والخراج ، وقصد عثمان أيضاً جنابا ففتحها ولقيه جمع الفرس بناحية

جهرم فهزمهم وفتحها ثم أن شهرك خلع الطاعة فى آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فوجه إليه عثمان بن أبى العاص ابنه وأتته الأمداد من البصرة وأميرهم عبيد الله بن معمر وشبل بن معبد فالتقوا بأرض فارس ، فقال شهرك لابنه وهما فى المعركة وبينهما و بين قرية شهرك ثلاثة فراسخ وتسمى القرية أيضاً شهرك : يا بنى أين يكون غداؤناههنا أم بشهرك قال له : يا أبت إن تركونا فلا يكون غداؤنا ههنا ولا بشهرك ولا يكون إلا فى المنزل وما أراهم يتركوننا فما فرغا من كلامهما حتى شب المسلمون الحرب فاقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل شهرك وابنه وخلق كثير والذى قتل شهرك الحكم بن أبى العاص أخو عثمان وقيل قتله سوار بن همام العبدى حمل عليه فطعنه فقتله وحمل ابن شهرك على ثوار فقتله ، وحوصر الفرس بمدينة سابور فصالح عليها ملكها ازرنبان ، وكان فى جيوش المسلمين أبو صفرة والد المهلب ، قيل أن عبد الله بن معمر أمير الأمداد التى جاءت لهذا الجيش من البصرة بلغه أن ازرنبان يريد الغدر به فقال له أحب أن تتخذ لأصحابى طعاما وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها فى الجفنة التى تلينى فإنى أحب أن أتمشش العظام ففعل وجعل يأخذ العظام الذى لا يكسر إلا بالفؤس فيكسره بيده ويأخذ مخه وكان من أشد الناس فقام ازرنبان وقبل قدمه وقال هذا مقام العائذ بك وأعطاه عهداً .

ذكر فتح نساودار أبجرد

قد تقدم أن عمر رضى الله عنه لما عقد ألوية لمن أذن لهم فى الانسياح فى بلاد فارس عقد لواء لسارية بن زنيم الكنانى على نساودار أبجرد فى سنة ثلاث وعشرين ، فسار حتى انتهى إليهم ، فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء الله ، ثم أنهم استمدوا وتجمعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس ، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير ، وأتاهم الفرس من كل جانب فرأى عمر فيما يرى النائم تلك الليلة معركتهم وعددهم فى ساعة من النهار فنادى من الغد الصلاة جامعة حتى إذا كان فى الساعة التى رأى فيها ما رأى خرج إليهم وكان بن زنيم والمسلمون فى صحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم وإن استندوا إلى جبل من خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد ، فقام عمر على المنبر فقال : يا أيها الناس إنى رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما وصاح عمر وهو يخطب ياسارية بن زنيم الجبل ياسارية الجبل ثم أقبل على

الناس فقال إن لله جنوداً ولعل بعضها أن تبلغهم فسمع سارية ومن معه الصوت فلجئوا إلى الجبل ثم قاتلوهم فهزمهم الله تعالى كذا في الكامل لابن الأثير ، وهذه القصة رواها كثير من أئمة الحديث بأسانيد صحيحة منهم البيهقي وأبو نعيم وابن مردويه واللالكائي وابن الأعرابي والخطيب بألفاظ متعددة والمعاني متقاربة فمنها رواية لابن عمر قال : وجه عمر جيشاً ورأس عليهم رجلا يدعى سارية فبينما عمر يخطب جعل ينادي ياسارية الجبل ثلاثاً ثم قدم رسول الجيش فسأله عمر ، فقال يا أمير المؤمنين هزمنا فبينما نحن كذلك إذا سمعنا صوتا ينادي ياسارية الجبل ثلاثاً فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله تعالى فإن قيل لعمر أنك تصيح بذلك وذلك الجبل الذي كان سارية عنده بنهاوند من أرض العجم وفي رواية لابن عمر أيضاً كان يخطب يوم الجمعة فعرض في خطبته أن قال ياسارية الجبل من استرعى الذئب ظلم ، فالتفت الناس بعضهم لبعض ، فقال لهم علي رضي الله عنه : ليخرجن مما قال ، فلما فرغ سألوه ، فقال : وقع في خلدي أن المشركين هزموا إخواننا وإنهم يمرون بجبل فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد وإن جازوا هلكوا فخرج مني ما تزعمون إنكم سمعتموه فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر في ذلك اليوم ، قال فعدلنا إلى الجبل ففتح الله علينا وفي رواية عن عمرو بن الحارث قال : بينما عمر يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة فقال ياسارية الجبل مرتين أو ثلاث ، ثم أقبل على خطبته فقال بعض الحاضرين لقد جن أنه لمجنون فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن إليه فقال إنك لتجعل لهم على نفسك مقالا بينا أنت تخطب إذ أنت تصيح ياسارية الجبل أي شيء هذا قال إني والله ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت ياسارية الجبل ليلحقوا بالجبل فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتابه وفيه إن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى إذا حضرت الجمعة سمعنا مناديا ينادي ياسارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله وقتلهم ، فقال أولئك الذين طعنوا عليه دعوا هذا الرجل فإنه مصنوع له إنتهى . وأصاب المسلمون في مغانمهم مع سارية سفطا فيه جوهر فاستوهبه منهم سارية وبعث به

إلى عمر فقدم الرسول على عمر وهو يطعم الطعام فأمره فجلس وأكل فلما انصرف عمر تبعه الرسول فظن عمر أنه لم يشبع فأمره فدخل بيته ، فلما جلس أتى عمر بغدائه خبز وزيت وملح جريش فأكلا ، فلما فرغا قال الرجل أنا رسول سارية يا أمير المؤمنين قال مرحباً وأهلا ، ثم دنا حتى مس ركبته وسأله عن المسلمين فأخبره بقصة السفط فنظر إليه وصاح به لا ولا كرامة حتى يقدم على ذلك الجند فيقسمه بينهم فطرده ، فقال يا أمير المؤمنين إنى قد أنضيت جملى واستقرضت فى جائزتى فاعطنى ما أتبلغ به فما زال به حتى أبدله بعيراً من إبل الصدقة ، وجعل بعيره فى إبل الصدقة ورجع الرسول مغضوبا عليه محروماً وسأل أهل المدينة الرسول هل سمعوا شيئاً يوم الوقعة ؟ قال نعم ، وسمعنا ياسارية الجبل وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا .

ذكر فتح كرمان

كان سهيل بن عدى قد عقد له عمر لواء على كرمان مع الألوية التى عقدها فأمره فى هذه السنة أعنى سنة ثلاث وعشرين بالمسير إلى كرمان فسار ولحقه عبد الله بن عتبان وحشد لهم أهل كرمان واستعانوا عليهم بالقفص فاقتتلوا فى أدانى أرضهم ففض الله تعالى المشركين وأخذ المسلمون عليهم الطريق وقتل النسير بن عمرو العجلى مرزبانها ، فدخل النسير من قبل طريق القرى اليوم إلى جيرفت وعبدالله بن عبدالله من مفازة سير فأصابوا ما أرادوا من بعير أو شاة فقوموا الإبل والغنم فتحاصوها بالأثمان لعظم البخت على العرب وكرهوا أن يزيدوا أو كتبوا إلى عمر بذلك ، فأجابهم إذا رأيتم أن فى البخت فضلا فزيدوا .

ذكر فتح سجستان

كان عاصم بن عمرو قد عقد له عمر لواء على سجستان مع الألوية التى عقدها فأمره فى هذه السنة بالمسير إليها فسار ولحقه عبد الله بن عمير فاستقبلهم أهلها فالتقوا هم وأهل سجستان فى أدانى أرضهم فهزمهم المسلمون ثم أتبعوهم حتى حصروهم بزرنج ومخروا أرض

سجستان ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنج وما اجتازوا من الأرضين فأعطوا ، وكانوا قد اشترطوا فى صلحهم أن فنفدهار حمى فكان للمسلمون يتجنبونها خشية أن يصيبوا منها شيئا فيخفر، وأقيم أهل سجستان الخراج وكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجا يقاتلون القندهار والترك وأمما كثيرة .

ذكر فتح مكران بضم الميم وسكون الكاف

كان الحكم بن عمرو التغلبى قد عقد له عمر لواء على مكران مع الألوية التى عقدها فأمره فى هذه السنة بالمسير إليها فسار حتى انتهى إليها ولحقه شهاب ابن المخارق وسهيل ابن عدى وعبد الله بن عتبان ، فانتهى إلى دوين النهر وأهل مكران على شاطئه فاستمد ملكهم ملك السند فأمده بجيش كثيف ، فالتقوا مع المسلمين فانهزموا وقتل منهم فى المعركة مقتلة عظيمة ، وأتبعهم المسلمون يقتلونهم أياما حتى انتهوا إلى النهر ورجع المسلمون إلى مكران فأقاموا بها وكتب الحكم إلى عمر بالفتح وبعث إليه بالأخماس مع صحار العبدى فلما قدم المدينة سأله عمر عن مكران ، فقال يا أمير المؤمنين : هى أرض سهلها جبل وماؤها وشل وتمرها دقل وعدوها بطل وخيرها قليل وشرها طويل والكثير فيها قليل والقليل فيها ضائع وما وراءها شر منها ، فقال أسجاع : أنت أم مخبر لا والله لا يغزوها جيش لحد أبداً وكتب إلى سهيل والحكم بن عمرو أن لا يجوزن مكران أحد من جنودهما وأمرهما ببيع الفيلة التى غنمها المسلمون ببلاد الإسلام وقسم أثمانها على الغانمين .

ذكر فتح بيروذ والأهواز

لما وصلت الخيول إلى الكوار اجتمع ببيروذ جمع عظيم من الأكراد وغيرهم وكان عمر قد عهد إلى أبى موسى أن يسير إلى أقصى ذمة البصرة حتى لا يؤتى المسلمون من خلفهم وخشى أن يهلك بعض جنوده أو يخلفوا فى أعقابهم فاجتمع الأكراد ببيروذ وأبطأ أبو موسى حتى تجمعوا ، ثم سار فنزل بهم ببيروذ فالتقوا فى رمضان بين نهرى تيرى ومناذر ، فقام المهاجر بن زياد وقد تحنط واستقبل القوم وعزم أبو موسى على الناس فأفطروا

وتقدم للمهاجر وقاتل قتالا شديداً حتى قتل ووهن الله المشركين حتى تحصنوا فى قلة وذلة ، واشتد جزع الربيع بن زياد على أخيه المهاجر وعظم عليه فقده فرق له أبو موسى فاستخلفه عليهم فى جند وخرج أبو موسى حتى بلغ أصبهان واجتمع بها بالمسلمين الذين يحاصرون جيا ، فلما فتحت رجع أبو موسى إلى البصرة وفتح الربيع بن زياد الحارثى بيروذ من نهر تيرى وغنم ما معهم .

ذكر خبر سلمة بن قيس الأشجعى والأكراد

كان عمر رضى الله عنه إذا اجتمع إليه جيش من المسلمين أمر عليهم أميراً من أهل العلم والفقه فاجتمع إليه جيش من المسلمين فبعث عليهم سلمة بن قيس الأشجعى فقال : سر باسم الله قاتل فى سبيل الله من كفر بالله فإذا لقيتم عدوكم فادعوهم إلى الإسلام فإن أجابوا وأقاموا بدارهم فعليهم الزكاة وليس لهم من الفىء نصيب وإن ساروا معكم فلهم مثل الذى لكم وعليهم مثل الذى عليكم وإن أبوا فادعوهم إلى الجزية فإن أجابوا فاقبلوا منهم وإن أبوا فقاتلوهم وإن تحصنوا منكم وسألوكم أن ينزلوا على حكم الله ورسوله أو ذمة الله ورسوله فلا تجيبوهم فإنكم لاتدرون أتصيبون حكم الله ورسوله وذمتهما أم لا ، ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً ولا تمثلوا ، فساروا حتى لقوا عدداً من الأكراد المشركين فدعوهم إلى الإسلام أو الجزية فلم يجيبوا فقاتلوهم فهزموهم وقتلوا المقاتلة وسبوا الذرية فقسمه بينهم ، ورأى سلمة جوهراً فى سفط فاسترضى عنه المسلمين وبعث به إلى عمر فقدم الرسول بالبشارة وبالسفط على عمر فسأله عن أمور الناس وهو يخبره حتى أخبره بالسفط فغضب غضباً شديداً وأمر به فوجىء به فى عنقه ثم قال إن تفرق الناس قبل أن تقدم عليهم ويقسمه سلمة فيهم لأسوءنك فسار حتى قدم على سلمة فباعه وقسمه فى الناس ، وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون ألفاً وفى هذه السنة غزا معاوية الروم ، وفتح عسقلان صلحاً ، إلى هنا انتهت الفتوحات التى كانت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . واستشهد عمر رضى الله عنه لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة فكانت خلافته

عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام وقصة استشهاده مشهورة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها. أخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتانى جبريل آنفاً فقلت ياجبريل حدثنى بفضائل عمر بن الخطاب فقال لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح فى قومه مانفدت فضائل عمر» وإن عمر حسنة من حسنات أبى بكر رضى الله عنهما وربما أن العقول القاصرة تستبعد كثرة هذه الفضائل لعمر رضى الله عنه لكن من كان ذا بصيرة وأمعن فكره فيما خص الله به عمر من الفضائل فى نفسه وفيما أجراه الله على يديه وما حصل للإسلام وأهله بسببه من كونه أعز الله به الإسلام فى ابتدائه ومن كثرة الفتوحات التى فتحها الله على يديه حتى كثر العلم واتسع الإسلام وكثر المسلمون يتضح له أن كل خير وقع لأهل الإسلام منذ خلافة عمر رضى الله عنه إلى يوم القيامة كله من فضائل عمر رضى الله عنه ومن حسناته ويكتب الله له مثل أجورهم وذلك شىء لايمكن ضبطه ولا إحصاؤه ولو مكث العبد منذ لبث نوح فى قومه. وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إنى لأرجو لأمتى فى حبهم لأبى بكر وعمر ما أرجو لهم فى قول لا إله إلا الله». وأخرج أبو ذر الهروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «عمر معى وأنا مع عمر والحق بعدى مع عمر حيث كان» وهذا مثل ما قال صلى الله عليه وسلم فى حق على رضى الله عنه وأدر الحق معه حيث دار فكل من عمر وعلى رضى الله عنهما كان مع الحق ولهذا كان على رضى الله عنه مع الخلفاء الثلاثة قبله فى زمن خلافتهم ولم ينازع أحداً منهم لعلمه بأنهم كانوا مع الحق فكان هو معهم، فلما جاءت نوبة خلافته ونوزع فى ذلك قاتل من نازعه فلا يصح أن ينسب إليه أن سكوته فى زمن الخلفاء الثلاثة كان تقية حماه الله من المحاباة فى دين الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر الفتوحات فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه

كانت البيعة لعثمان رضى الله عنه فى أوائل المحرم سنة أربع وعشرين فعزل المغيرة ابن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عملا بقول عمر رضى الله

عنه أوصى الخليفة بعدى أن يستعمل سعداً فإنى لم أعزله عن سوء ولا خيانة فكان أول عامل بعثه عثمان رضى الله عنه .

ذكر خلاف أهل الاسكندرية

فى سنة خمس وعشرين خالف أهل الاسكندرية ونقضوا صلحهم وكان سبب ذلك أن الروم عظم عليهم فتح المسلمين الإسكندرية وظنوا أنهم لايمكنهم المقام ببلادهم بعد خروج الإسكندرية عن ملكهم فكاتبوا من كان فيها من الروم ودعوهم إلى نقض الصلح فأجابوهم إلى ذلك، فسار إليه من القسطنطينية جيش كثير وعليهم منويل الخصى، فأرسلوا بها واتفق معهم من بها من الروم ولم يوافقهم المقوقس بل ثبت على صلحه ، فلما بلغ الخبر إلى عمرو بن العاص سار إليهم وسار الروم إليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديداً فانهزم الروم وتبعهم المسلمون إلى أن أدخلوهم الأسكندرية وقتلوا منهم فى البلد مقتلة عظيمة منهم منويل الخصى ، وكان الروم لما خرجوا من الأسكندرية قد أخذوا أموال تلك القرى من وافقهم ومن خالفهم ، فلما ظفر بهم المسلمون جاء أهل القرى الذين خالفوهم فقالوا لعمرو بن العاص إن الروم أخذوا دوابنا وأموالنا ولم نخالف نحن عليكم وكنا على الطاعة فرد عليهم ماعرفوا من أموالهم بعد إقامة البينة ، وهدم عمرو سور الاسكندرية وتركها بغير سور وفى هذه السنة بلغ سعد بن أبى وقاص عن أهل الرى عزم على نقض العهد فأرسل إليهم وأصلحهم وغزا الديلم ثم انصرف .

ذكر صلح أهل أرمينية وأذربيجان

فى هذه السنة نقضت أهل أذربيجان فأمر عثمان رضى الله عنه الوليد بن عقبة بن أبى معيط أن يغزوهم ، وكان على الكوفة لأن سعد بن أبى وقاص اختصم مع عبدالله بن مسعود فاستحسن عثمان رضى الله عنه أن يعزل سعداً قطعاً للنزاع فعزله وولاها الوليد فغزاهم الوليد وعلى مقدمته عبدالله بن شبيل الأحمسى فأغار على أهل موقان والببر والطيلسان ، ففتح وغنم وسبى ، فطلب أهل كور أذربيجان الصلح فصالحهم وعلى ثمانمائة ألف درهم وقبض

المال وبث السرايا وبعث سلمان بن ربيعة الباهلى إلى أهل أرمينية فى إثنى عشر ألفاً فسار فى أرمينية يقتل ويسبى ويغنم، ثم انصرف وقد ملأ يديه حتى أتى الوليد فعاد الوليد وقد ظفر وغنم وجعل طريقه على الموصل، ثم أتى الحديثة فنزلها فأتاه بها كتاب عثمان فيه أن معاوية بن أبى سفيان كتب إلى يخبرنى أن الروم قد أقبلت على المسلمين فى جموع كثيرة وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة فابعث إليهم رجلا له نجدة وبأس فى ثمانية آلاف أو تسعة آلاف من المكان الذى يأتيك كتابى فيه والسلام ، فقام الوليد فى الناس وأعلمهم الحال وندبهم مع سلمان بن ربيعة الباهلى فانتدب معه ثمانية آلاف ، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم فشنوا الغارات على رض الروم ، فأصاب الناس ماشاءوا من الغنائم وافتتحوا حصونا كثيرة ، وقيل إن الذى أمد حبيب بن مسلمة بسلمان بن ربيعة كان سعيد بن العاص ، وكان على الكوفة بعد عزل الوليد وكان سبب عزل ذلك أن عثمان كتب إلى معاوية أن يغزو حبيب بن مسلمة فى أهل الشام أرمينية وهى غير التى بأذربيجان بالعراق فوجهه إليها فأتى قالى قلا فحصرها وضيق على من بها فطلبوا الأمان على الجلاء أو الجزية فجلا كثير منهم فلحقوا ببلاد الروم وأقام حبيب بها فيمن معه شهراً ، ثم بلغه أن بطريق أرميناقس وهى البلاد التى صارت بعد بيد أولاد السلطان قلج أرسلان السلجوقى وهى ملاطية وسيواس واقسرى وقونية وما والاها من البلاد إلى خليج القسطنطينية قد توجه نحوه فى ثمانين ألفاً من الروم واسم القس المذكور الموريان ، فكتب حبيب إلى معاوية يخبره ، فكتب معاوية إلى عثمان فأرسل عثمان إلى سعيد بن العاص يأمره بإمداد حبيب فأمده بسلمان فى ستة آلاف ، وأجمع حبيب على تبييت الروم فسمعته امرأته أم عبد الله بنت يزيد الكلبية فقالت أين موعدك فقال سرادق الموريان ثم بيتهم فقتل من وقف له ، ثم أتى السرادق فوجد امرأته قد سبقته إليه فكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها حجاب سرادق ولما انهزمت الروم عاد حبيب إلى قالى قلا ، ثم سار منها ونزل مربالا فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم بأمان البطريق المذكور فأجراه عليه وحمل إليه البطريق ما عليه من المال ونزل حبيب خلاط ، ثم سار منها فلقيه صاحب مكس وهى القرية التى من البسفرجان فقاطعه على بلاده ، ثم سار منها إلى أزدشاط وهى

القرية التي يكون منها القرمز الذى يصبغ به فنزل على نهر دبيل وسرح الخيول إليها فحصرها فتحصن أهلها فنصب عليهم منجنيقا فطلبوا الأمان فأجابهم إليه ، وبث السرايا فبلغت خيله ذات اللجم وإنما سميت ذات اللجم لأن المسلمين أخذوا لجم خيولهم فكبسهم الروم قبل أن يلجموها ثم ألجموها ، فقاتلوهم فظفروا بهم ووجه سرية إلى سراج طير وبغروند فصالحه بطريقهما على أتاوة فقدم عليه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده وأتى السيسجان فحاربه أهلها فهزمهم وغلب على حصونهم ، وسار إلى جرزان فأتاه رسول بطريقها يطلب الصلح فصالحه وسار إلى تفليس فصالحه أهلها وهي من جرزان ، وفتح عدة حصون تجاورها صلحاً ، وسار سلمان بن ربيعة الباهلى إلى إيران ففتح البلقان صلحا على أن أمنهم على دمائهم وأموالهم وحيطان مدينتهم ، واشترط عليهم الجزية والخراج ، ثم أتى سلمان مدينة برذعة فعسكر على الثرثور نهر بينه وبينها نحو فرسخ فقاتله أهلها أياماً وشن الغارات فى قراها فصالحوه على مثل صلح البلقان ودخلها ووجه خيله ففتحت رساتيق الولاية ، ودعا أكراد البلاشجان إلى الإسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدى بعضهم الصدقة وهم قليل ووجه سرية إلى شمكور ففتحوها ، وسار سلمان إلى مجمع إرس والسكر ففتحه وصالحه صاحب سكر وغيرها على الأتاوة وصالحه ملك شروان وسائر ملوك الجبال وأهل مسقط والشابران ومدينة الباب وهى غير التى فى العراق ، وهذه بقرب حلب .

ذكر غزو معاوية الروم

فى هذه السنة سنة خمس وعشرين غزا معاوية الروم فبلغ عمورية وهى المسماة عروسا ، فوجد الحصون التى بين أنطاكية وطرسوس خاليه ، فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة حتى انصرف من غزاته ، ثم أغزى بعد ذلك يزيد بن الحر العبسى الصائفة ، وأمره ففعل مثل ذلك ، ولما خرج هدم الحصون إلى انطاكية .

ذكر غزوة أفريقية

فى هذه السنة سير عمرو بن العاص عبد الله بن سعد بن أبى سرح إلى أطراف أفريقيا غازياً بأمر عثمان ، وكان عبد الله من جند مصر ، فلما سار إليها أمده عمرو بالجنود فغنم هو وجنده ، فلما عاد عبد الله كتب إلى عثمان يستأذنه فى غزو أفريقية فأذن له فى ذلك .

ذكر غزوة كابل

فى هذه السنة أرسل عثمان رضى الله عنه عبد الله بن عامر إلى كابل وهى عمالة سجستان ، فبلغها فى قول فكانت أعظم من خراسان حتى مات معاوية فامتنع أهلها .

ذكر فتح أفريقية

كان ذلك فى سنة ست وعشرين قد تقدم أن عبد الله بن أبى سرح ، استأذن عثمان رضى الله عنه فى غزو أفريقية فأذن له وقال إن فتح الله عليك فلك من الفىء خمس الخمس نفلا ، وأمر عثمان عبد الله بن نافع بن عبد القيس وعبد الله بن نافع بن الحارث على جند وسرحهما وأمرهما بالاجتماع مع عبد الله بن أبى سرح على صاحب أفريقية ، فخرجوا حتى قطعوا أرض مصر ووطئوا أرض أفريقية ، وكانوا فى جيش كثير عدتهم عشرة آلاف من شجعان المسلمين فصالحهم أهلها على مال يؤدونه ، ولم يقدموا على دخول أفريقية والتوغل فيها لكثرة أهلها ، ثم إن عثمان ولى عبد الله بن أبى سرح مصر فأرسل إلى عثمان يستأذنه فى غزو أفريقية والاستكثار من الجموع ، فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فأشار أكثرهم بذلك فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبد الله ابن عباس وغيره ، فسار بهم عبد الله بن أبى سرح إلى أفريقية ، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عبد الله بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس الغرب فنهبوا من عندها من الروم ، وساروا نحو أفريقية وبث السرايا فى كل ناحية ، وكان ملكهم اسمه

جرجير وملكه من طرابلس إلى طنجة وكان هرقل ملك الروم قد ولاه أفريقية فهو يحمل الخراج إليه كل سنة ، فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس ، والتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة ، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك ، فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم ، وراسله عبد الله بن أبي سرح يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول إحداهما وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسير عبد الله بن الزبير فى جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مجداً ووصل إليهم وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير فى المسلمين. فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر ففت ذلك فى عضده ، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر ، فإذا أذن الظهر عاد كل فريق إلى خيامه وشهد القتال من الغد ، فلما يرى ابن أبي سرح معهم فسأل عنه فقيل أنه سمع منادى جرجير يقول من قتل عبد الله بن أبي سرح فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتى وهو يخاف على جيش المسلمين إن قتل فحضر عنده عبد الله بن الزبير ، وقال له تأمر مناديا ينادى من أتانى برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته إبنته واستعملته على بلاده ففعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله ، ثم أن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن أبي سرح إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم فى أمداد متصلة وبلاد هى لهم ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين فى خيامهم متأهبين ونقاتل نحن الروم فى باقى المعسكر إلى أن يضجروا ويملوا فإذا رجعوا إلى خيامهم ، ورجع المسلمون ركب من كان فى الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك ، فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه وأقام جميع شجعان المسلمين فى خيامهم وخيولهم عندهم مسرجة ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالا شديداً ، فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى اتبعهم ثم عاد عنهم هو والمسلمون فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً ، فعند

ذلك أخذ عبدالله بن الزبير من كان مستريحا من الشجعان المسلمين ، وقصد الروم فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون ، وقتل جرجير قتله عبدالله بن الزبير وانهزم الروم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية وأعطيت لعبد الله بن الزبير مع مائة ألف ، ونازل عبد الله بن أبى سرح المدينة فحصرها حتى فتحها ، ورأى فيها من الأموال ما لم يكن فى غيرها ، فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألفا ، ولما فتح عبدالله مدينة سبيطلة بث جيوشه فى البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسير عسكراً إلى حصن الأجم ، وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالأمان ، فصالحه أهل أفريقية على ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار وأرسل إلى عثمان بالبشارة بفتح أفريقية ثم عاد عبد الله بن أبى سرح إلى مصر وكان مقامه بأفريقية سنة وثلاثة أشهر ولم يفقد من المسلمين سوى ثلاثة منهم أبو ذؤيب الهذلى الشاعر فدفن هناك .

ذكر انتقاض أفريقية وفتحها ثانية

كان هرقل ملك القسطنطينية يؤدى له كل ملك من ملوك النصارى الخراج من مصر وأفريقية وأندلس وغير ذلك ، فلما صار ملك أفريقية للمسلمين أرسل هرقل بعد مدة إلى أهلها بطريقا وأمر أن يأخذ منهم مثل ما أخذ المسلمون فنزل البطريق فى قرطاجنة وجمع النصارى الذين فى أفريقية وأخبرهم بما أمر الملك فأبوا عليه ، وقالوا نحن نؤدى ما كان يؤخذ منا وقد كان ينبغى له أن يسامحنا لما ناله المسلمون منا ، وكان قد قدم بأمر أفريقية بعد قتل جرجير رجل آخر من الروم فطرده البطريق بعد فتن كثيرة وتغلب الروم على أفريقية فسار ذلك الرجل إلى الشام وبها معاوية ، وقد استقر له الأمر بعد قتل على رضى الله عنه فوصف له أفريقية وطلب أن يرسل معه جيشاً فسير معه معاوية بن خديج السكونى فوصل إلى أفريقية وهى نار تضطرم ومعه عسكر عظيم ، فنزل عند قمونية وأرسل البطريق إليه ثلاثين ألف مقاتل ، فلما سمع بهم معاوية بن خديج سير إليهم جيشاً من

المسلمين فقاتلوهم فانهزم الروم وحصر حصن جلولاء ، فلم يقدر عليه فانهدم الحصن فملكه المسلمون وغنموا ما فيه وبث السرايا فسكن الناس وأطاعوا وعاد إلى مصر .

ذكر غزوة الأندلس

لما افتتحت أفريقية فى خلافة عثمان رضى الله عنه أمر عثمان رضى الله عنه عبد الله بن نافع بن الحصين وعبدالله بن نافع بن عبد القيس أن يسيرا إلى الأندلس ، فأتياها من قبل البحر ، وكتب عثمان إلى من انتدب معهما ، أما بعد : فإن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، فخرجوا ومعهم البربر ، ففتح الله على المسلمين فتوحات كثيرة من أراضى أفريقية وزاد فى سلطان المسلمين مثل أفريقية ، وأما الأندلس فلم تفتح إلا فى خلافة الوليد بن عبد الملك كما سيأتى إن شاء الله .

ذكر غزوة قنسرين

وفى سنة سبع وعشرين غزا معاوية قنسرين فقتل وسبى وغنم ورجع ، وفى سنة ثمان وعشرين كان فتح قبرس على يد معاوية .

ذكر فتح قبرس فى خلافة عثمان

رضى الله عنـه

غزاها معاوية سنة ثمان وعشرون وكان معه جماعة من الصحابة منهم أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرام وكان معاوية قد استأذن عمر رضى الله عنه أن يغزو فى البحر فلم يأذن له خوفا على المسلمين من ركوب البحر ، فلما كانت خلافة عثمان رضى الله عنه استأذن وألح عليه فأذن له ، وقال لاتنتخب الناس ولا تقرع بينهم بل خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ، ففعل وسار المسلمون من الشام إلى قبرس وسار عبد الله بن أبى سرح من مصر ، فاجتمعوا عليها فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة بعد قتل وسبى كثير فى قبرس ويؤدون مثلها لملك الروم ، وفى هذه الغزوة ماتت

أم حرام بنت ملحان الأنصارية ألقتها بغلتها بجزيرة قبرس فاندقت عنقها فماتت تصديقا للنبي صلى الله عليه وسلم حيث أخبرها أنها فى أول من يغزو فى البحر كما فى صحيح البخارى .

ذكر انتقاض أهل فارس

فى سنة تسع وعشرين انتقض أهل فارس فسار إليهم عبيد الله بن معمر ، فالتقوا على باب اصطخر فقتل عبيد الله وانهزم المسلمون ، وبلغ الخبر عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وكان على البصرة بعد عزل أبى موسى وكان لعبد الله بن عامر صحبة فاستنفر أهل البصرة وسار بالناس إلى فارس فالتقوا باصطخر واشتد القتال فانهزم الفرس وقتل منهم مقتلة عظيمة وفتحت اصطخر عنوة وأتى دار أبجرد وقد غدر أهلها ففتحها ، وسار إلى مدينة جور فانتقضت اصطخر فلم يرجع وتمم السير إلى جور وحاصرها إلى أن فتحها ، وكان سبب فتحها أن بعض المسلمين قام يصلى ذات ليلة وإلى جانبه جراب له فيه خبز ولحم فجاء كلب فجره وغدا به حتى دخل المدينة من مدخل لها خفى فلزم المسلمون ذلك المدخل حتى دخلوها منه وفتحوها عنوة ، فلما فرغ منها ابن عامر عاد إلى اصطخر وفتحها عنوة بعد أن حاصرها واشتد القتال عليها ورميت بالمجانيق وقتل بها خلقا كثيرا من الأعاجم ، وأفنى أكثر أهل البيوتات ووجوه الأساورة وكانوا قد لجأوا إليها .

ذكر غزوة سعيد بن العاص طبرستان

فى سنة ثلاثين غزا سعيد بن العاص طبرستان وكان على الكوفة بعد عزل الوليد ابن عقبة وكان أهل طبرستان فى خلافة عمر صالحوا سويد بن مقرن على مال بذلوه ، ثم نقضوا فغزاهم سعيد بن العاص ومعه الحسن والحسين وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة بن اليمان وأناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وخرج بن عامر من البصرة يريد خراسان فسبق سعيداً ونزل نيسابور ، ونزل

سعيد قومس وأتى جرجان فصالحوه على مائتى ألف ثم أتى طميسة فقاتله أهلها ، وضرب سعيد يوماً رجلا بالسيف على حبل عاتقه فخرج السيف من تحت مرفقه فسألوه الأمان وأعطاهم فتح أيضاً نامية وفى هذه السنة غزا حذيفة الباب مدداً لعبد الرحمن بن ربيعة وفى هذه الغزوة رأى حذيفة اختلافاً كثيراً بين الناس فى القرآن ، فلما رجع أشار على عثمان بجمع القرآن فى المصاحف ففعل وقصة ذلك مشهورة لا حاجة لذكرها .

ذكر غزوة الصوارى

فى سنة إحدى وثلاثين غزا معاوية الصوارى وسببها أن المسلمين لما أصابوا من أهل أفريقية وقتلوهم وسبوهم خرج قسطنطين بن هرقل فى جمع له لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام فخرجوا فى خمسمائة مركب أو ستمائة ، وخرج المسلمون وعلى أهل الشام معاوية ابن أبى سفيان وعلى أهل مصر عبد الله بن أبى سرح على طريق البحر وكانت الريح على المسلمين لما شاهدوا الروم فأرسى المسلمون والروم وسكنت الريح فقال المسلمون الأمان بيننا وبينكم فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤن القرآن ويصلون ويدعون ، والروم يضربون بالنواقيس وقربوا من الغد سفنهم ، وقرب المسلمون سفنهم فربطوا بعضها من بعض واقتتلوا بالسيوف والخناجر ، وقتل من المسلمين بشر كثير وقتل من الروم مالا يحصى وصبر الفريقان صبراً لم يصبروا فى موطن قط مثله ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم قسطنطين جريحا ولم ينج من الروم إلا الشريد وسار قسطنطين إلى صقلية فسأله أهلها عن حاله ، فأخبرهم فقالوا أهلكت النصرانية وأفنيت رجالها ولو أتانا العرب لم يكن عندنا من يمنعهم ، ثم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه وأذنوا لهم فى المسير إلى القسطنطينية .

ذكر مقتل يزدجرد شهريار ملك الفرس

فى سنة إحدى وثلاثين كان مقتل يزدجرد واختلف فى كيفية قتله اختلافا كثيراً وكان قد هرب من فارس إلى خراسان ، ولم يزل المسلمون يتبعونه ويقفون أثره من مدينة إلى

مدينة وهو يهرب ، ثم بيته جماعة من الترك فقتلوه وقيل نام عند رجل ينقر الارحاء فقتله وقيل غير ذلك ، وكان ملكه عشرين سنة منها أربع سنين فى دعة وست عشرة فى تعب من محاربة العرب إياه وغاظتهم عليه وكان آخر من ملك آل أزدشير بن بابك وصفا الملك بعد للعرب .

ذكر مسير عبدالله بن عامر إلى خراسان وفتحها

لما قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه نقض أهل خراسان وغدروا فلما افتتح ابن عامر فارس قام إليه حبيب بن أوس التميمى ، فقال له أيها الأمير إن الأرض بين يديك ولم يفتتح منها إلا القليل فسر فإن الله ناصرك ، قال أو لم تؤمر بالمسير وقيل إن الأحنف بن قيس قال له إن عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فالله ناصرك ومعز دينه فسار إلى كرمان ، واستعمل عليها مجاشع بن مسعود السلمى وله صحبة وأمره بمحاربة أهلها ، وكانوا قد نكثوا أيضاً واستعمل على سجستان الربيع بن زياد الحارثى وكانوا أيضاً قد نقضوا الصلح وغدروا ، ثم سار بن عامر الى نيسابور ، وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى البسطين وهما حصنان وهما بابا خراسان ، فصالحه أهلها على ستمائة ألف درهم ، وبعث سرية إلى رستاق زام من أعمال نيسابور ففتحه عنوة وفتح باخرز من أعمال نيسابور أيضاً ، وفتح جوين من أعمال نيسابور أيضاً ، ووجه الأسود بن كلثوم العدوى إلى بيهق من أعمالها أيضاً فقصه قصبته ، ودخل حيطان البلد من ثلمة كانت فيه ودخلت معه طائفة من المسلمين ، فأخذ العدو عليهم تلك الثلمة فقاتل الأسود حتى قتل هو وطائفة ممن معه ، وقام بأمر الناس بعده أخوه أدهم بن كلثوم فظفر وفتح بيهق وكان الأسود يدعو الله أن يحشره فى بطون السباع والطير فلم يواره أخوه ودفن من استشهد من أصحابه ، وافتتح ابن عامر فى هذه الغزوة بشت من نيسابور وهذه بشت بالشين المعجمة وليست ببست التى بالسين المهملة فإن تلك من بلاد الدوان وهذه من خراسان من نيسابور ، وافتتح أيضا خواف واسفراين وارغيان ، ثم

قصد نيسابور بعد ما استولى على أعمالها وافتتحها لحصر أهلها شهراً وكان على كل ربع منها مرزبان للفرس يحفظه ، فطلب صاحب ربع من تلك الأرباع الإمارة على أن يدخل المسلمين المدينة فأجيب إلى ذلك فأدخلهم ليلا ففتحوا الباب وتحصن مرزبانها الأكبر في حصنها ومعه جماعة ، وطلب الأمان والصلح على جميع نيسابور فصالحه على ألف ألف درهم وولى نيسابور قيس بن الهيثم السلمى وسير جيشا إلى نساوابيورد فافتتحوها صلحاً وسير سرية أخرى إلى سرخس مع عبد الله بن خازم السلمى فقاتلوا أهلها ، ثم طلبوا الأمان والصلح على أمان مائة رجل فأجيبوا إلى ذلك ، فصالحهم مرزبانها على ذلك وسمى مائة رجل ولم يذكر نفسه ، فقتله عبد الله ودخل سرخس عنوة وأتى مرزبان طوس إلى ابن عامر فصالحه عن طوس على ستمائة درهم ، وسير جيشاً إلى هراة عليهم عبدالله ابن خازم فبلغ مرزبان هراة ذلك فصار إلى ابن عامر فصالحه عن هراة وباذغيس وبوشنج ، وقيل بل صار ابن عامر فى الجيش إلى هراة فقاتله أهلها ، ثم صالحه مرزبانها على ألف ألف درهم، ولما غلب ابن عامر على هذه البلاد أرسل إليه مرزبان مرو فصالحه على ألفى ألف ومائة ألف درهم ، وأرسل ابن عامر حاتم بن النعمان الباهلى إلى مرزبانها ، وكانت مرو كلها صلحاً إلا قرية منها يقال لها شنج فإنها أخذت عنوة ، ووجه ابن عامر الأحنف ابن قيس إلى طخارستان فمر برستاق يعرف بعد ذلك برستاق الأحنف ويدعى سوانجرد لحصر أهلها فصالحوه على ثلثمائة ألف درهم ، فقال الأحنف : أصالحكم على أن يدخل رجل منا القصر فيؤذن فيه ويقيم فيكم حتى ينصرف فرضوا بذلك ومضى الأحنف إلى مرو الروذ فقاتله أهلها فقتلهم وهزمهم وحصرهم ، وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن ، فكتب إلى الأحنف أنه دعانى إلى الصلح إسلام باذان فصالحه على ستمائة ألف وسير الأحنف سرية ، فاستولت على رستاق بغ واستاقت منه مواشى ثم صالحه أهلها وجمع له أهل طخارستان ، فاجتمع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ، ومن حولهم من خلق كثير واقتتلوا فالتقوا ، وحمل ملك الصغانيان على الأحنف فانتزع الأحنف الرمح من يده وقاتل قتالا شديداً فانهزم المشركون وقتلهم المسلمون قتلا ذريعاً كيف شاءوا وعاد إلى مرو

الروذ ولحق بعض العدو بالجوزجان ، فوجه إليهم الأقرع بن حابس التميمى فى خيل وقال : يا بنى تميم تحابوا وتباذلوا تعدل أموركم ، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم ، فسار الأقرع فلقى العدو بالجوزجان فكانت بالمسلمين جولة ثم عادوا فهزموا المشركين وفتحوا الجوزجان عنوة وفتح الأحنف الطالقان صلحاً وفتح الفارياب ثم سار الأحنف إلى بلخ وهى مدينة طخارستان فصالحه أهلها على أربعمائة ألف وقيل سبعمائة ألف واستعمل على بلخ أسيداً بفتح الهمزة ابن المتشمس ثم سار إلى خوارزم وهى على نهر جيحون فلم يقدر عليها فاستشار أصحابه فقال له حضين بالضاد المعجمة ابن المنذر قال عمرو بن معدى كرب .

إذا لم تستطيع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فعاد إلى بلخ وقد قبض أسيد صلحها ولما تم لابن عامر هذا الفتح قال له الناس ما فتح لأحد مافتح عليك فارس وكرمان وسجستان وخراسان فقال لاجرم لأجعلن شكرى لله تعالى على ذلك أن أخرج محرما من موقفى هذا فأحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم فسار قيس بعد شخوصه فى أرض طخارستان ، فلم يأت بلداً منها إلا صالحه أهلها وأذعنوا له حتى أبى سمجان فامتنعوا عليه فحصرهم حتى فتحها عنوة .

ذكر فتح كرمان

لما سار ابن عامر عن كرمان إلى خراسان واستعمل مجاشع بن مسعود السلمى على كرمان أمره أن يفتحها ، وكان أهلها قد نكثوا وغدروا ففتح هميد عنوة واستبقى أهلها وأعطاهم أماناً وبنى بها قصراً يعرف بقصر مجاشع ، وأتى السيرجان وهى مدينة كرمان فأقام عليها أياماً يسيرة وأهلها متحصنون وفتحها عنوة فجلا كثير من أهلها عنها وفتح جيرفت عنوة ، وسار فى كرمان فدوخ أهلها وأتى القفص وقد تجمع له خلق كثير من الأعاجم الذين جلوا فقاتلهم فظفر بهم وظهر عليهم وهرب كثير من أهل كرمان فركبوا البحر ،

ولحق بعضهم بمكران وبعضهم بسجستان فأقطعت العرب منازلهم وأرضهم فعمدوها واحتفروا لها القنى فى مواضع منها وأدوا العشر .

ذكر فتح سجستان وكابل وغيرهما

قد تقدم ذكر فتح سجستان أيام عمر بن الخطاب ثم أن أهلها نقضوا بعده فلما توجه ابن عامر إلى خراسان ، سير إليها من كرمان الربيع بن زياد الحارثى فقطع المفازة حتى أتى حصن زالق فأغار على أهله يوم مهرجان ، وأخذ الدهقان فافتدى نفسه بأن غرز عنزة وغمرها ذهباً وفضة وصالحه على صلح فارس ثم أتى بلدة يقال لها كركوية فصالحه أهلها وسار إلى زرنج فنزل على مدينة روشت بقرب زرنج فقاتله أهلها ، وأصيب رجال من المسلمين، ثم انهزم المشركون وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأتى الربيع ناشروذ ففتحها ثم أتى شروان فغلب عليها وسار منها إلى زرنج فنازلها وقاتله أهلها فهزمهم وحصرهم ، فأرسل إليه مرزبانها ليصالحه واستأمنه على نفسه ليحضر عنده فأمنه وجلس له الربيع على جسد من أجساد القتلى واتكأ على آخر ، وأمر أصحابه ففعلوا مثله فلما رآهم المرزبان هاله ذلك فصالحه على ألف وصيف مع كل وصيف جام من ذهب ودخل المسلمون المدينة ، ثم سار منها وأتى القرية التى بها مربط فرس رستم الشديد فقاتله أهلها فظفر بهم ، ثم عاد إلى زرنج وأقام بها نحو سنة وعاد إلى ابن عامر واستخلف عليها عاملا فأخرج أهلها العامر وامتنعوا ، فكانت ولاية الربيع سنة ونصفاً وسبى فيها أربعين ألف رأس وكان كاتبه الحسن البصرى ، فاستعمل ابن عامر عبد الرحمن ابن سمرة حبيب بن عبد شمس على سجستان ، فسار إليها فحصر زرنج فصالحه مرزبانها على ألفى ألف درهم وألفى وصيف وغلب عبد الرحمن ما بين زرنج والكش من ناحية الهند وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الدوان ، فلما انتهى بلد الدوان حصرهم فى جبل الزور ، ثم صالحهم ودخل على الزور وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان فقطع يده وأخذ الياقوتتين ، ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر وإنما أردت أن أعلمك أنه لا يضر ولا ينفع وفتح كابل وزابلستان وهى ولاية غزنة

ثم عاد إلى زرنج فأقام بها ، ثم استخلف عليها أمير بن أحمر اليشكرى ، وانصرف فأخرج أهلها أمير بن أحمر وامتنعوا .

غزوة مضيق القسطنطينية

فى سنة اثنين وثلاثين غزا معاوية بن أبى سفيان مضيق القسطنطينية فقتل وسبى وغنم ورجع .

ذكر غزوة بلنجر

لما تتابعت الغزوات على الخزر والترك تذامروا وقالوا كنا لا يقرن بنا أحد حتى جاءت هذه الأمة القليلة فصرنا لا نقوم لها ، فقال بعضهم إن هؤلاء لا يموتون وما أصيب من أحد فى غزوهم ، وكان المسلمون غزوهم قبل ذلك فلم يقتل منهم أحد فلهذا ظنوا أنهم لا يموتون فقال بعضهم أفلا تجربون فكمنوا لهم فى الغياض فمر بالكمين نفر من الجند فرموهم منها فقتلوهم فتواعد رءوسهم على حربهم ثم اتعدوا يوماً ، وكان عثمان قد كتب إلى عبد الرحمن بن ربيعة وهو على الباب أن الرعية قد أبطرها البطنة فلا تقتحم بالمسلمين فإنى أخشى أن يقتلوا فلم يرجع عبد الرحمن عن مقصده فغزا نحو بلنجر وكان الترك قد اجتمعت مع الخزر فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً وقتل عبد الرحمن ، وكان يقال له ذا النون وهو اسم سيفه فأخذ أهل بلنجر جسده فجعلوه فى تابوت فهم يستسقون به ، فلما قتل وقتل كثير ممن معه انهزم الناس وافترقوا فرقتين فرقه نحو الباب ، فلقوا سلمان ابن ربيعة أخا عبد الرحمن ، كان قد سيره سعيد بن العاص مدداً للمسلمين بأمر عثمان ، فلما لقوه نجوا معه ، وفرقة نحو جيلان وجرجان ، فيهم سلمان الفارسى وأبو هريرة .

ذكر خروج الترك مع ملكهم قارن

فى سنة اثنتين وثلاثين خرجت جموع من الترك من ناحية خراسان فى أربعين ألفا عليهم قارن من ملوكهم فانتهى إلى الطبسين واجتمع له أهل بادغيس وهراة وقهستان ،

وكان على خراسان يومئذ قيس بن الهيثم السلمى استخلفه عليها ابن عامر عند خروجه إلى مكة محرما فدوخ جهتها ، وكان معه ابن عمه عبد الله بن خازم فقال لابن عامر أكتب لى على خراسان عهداً ، إذا خرج منها قيس ففعل ، فلما أقبلت جموع الترك قال قيس لابن خازم ما ترى ؟ قال : أرى أن تخرج من البلاد فإن عهد بن عامر عندى بولايتها فترك منازعته وذهب إلى ابن عامر وقيل أشار عليه أن يخرج إلى ابن عامر يستمده ، فلما خرج أشهر عهد بن عامر له بالولاية عند مغيب قيس وسار ابن خازم للقاء الترك فى أربعة آلاف وأمر الناس فحملوا الودك ، فلما قرب من قارن أمر الناس أن يدرج كل رجل منهم على زج رمحه خرقة أو قطناً ثم يكثروا دهنه ، ثم سار حتى أمسى فقدم مقدمته ستمائة ثم اتبعهم وأمر الناس فأشعلوا النار فى أطراف الرماح فانتهت مقدمته إلى معسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهاج الناس على دهش وكانوا آمنين من البيات ، ودنا ابن خازم منهم فرأوا النيران يمنة ويسرة تتقدم وتتأخر وتخفض وترفع فهالهم ذلك ومقدمة بن خازم يقاتلونهم ، ثم غشيهم ابن خازم وأكثروا القتل فى المشركين وقتل ملكهم قارن ، فانهزم المشركون واتبعهم المسلمون يقاتلونهم كيف شاءوا وأصابوا سبياً كثيراً ، وكتب ابن خازم بالفتح إلى ابن عامر ، فرضى وأقره على خراسان .

غزوة حصن المرأة

فى سنة ثلاث وثلاثين غزا معاوية حصن المرأة من أرض الروم بناحية ملاطية فقتل وسبى وغنم ورجع ، وفى هذه السنة كانت غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح أفريقية الثانية حين نقض أهلها العهد .

ذكر انتقاض قبرص وغزوهم فى سنة ٣٣

وفى هذه السنة نقض أهل قبرص وأعانوا الروم على الغزو فى البحر بمراكب أعطوهم إياها فغزا معاوية أهل قبرص وفتحها عنوة وقتل وسبى ، ثم أقرهم على صلحهم وبعث إليهم إثنى عشر ألفا ، فبنوا المساجد وبنى مدينة وفى تاريخ جنابى أن فى سنة خمس

وثلاثين ركب البحر أمير مصر عبد الله بن أبى سرح من الاسكندرية بقصد غزو القسطنطينية فاستقبلهم ملك الروم فى ألف مركب ، وكان المسلمون فى مائة مركب فالتقوا بأسكلة فنكة مغرب أنطاكية فرأى ملك الروم رؤيا عبرت له بتعبير مستخرج من الألفاظ التى رآها ، فجمعت وخرج منها حروف ترجمتها لا تطلب الغلبة فلم يعمل بمقتضى ذلك بل استهان بالمسلمين وقاتلهم ، ففتح الله النصر للمسلمين وولى الكفار هاربين فمنهم من غرق فى البحر ومنهم من أخذه السيف ومنهم من أسر وغنم المسلمون كثيراً من مراكبهم ورجعوا إلى جزيرة رودس وشنوا الغارة وفتحوها فى أسرع زمان وضربوا على من فيها الجزية وأعطوهم الأمان .

ذكر فتح رودس سنة ٣٥

وفى تاريخ ابن الأثير أن فتح رودس كان فى سنة ثلاث وخمسين فى خلافة معاوية فتحها جنادة بن أبى أمية الأزدى ، وسيأتى ذكر ذلك ولعله فتح ثان بعد هذا الفتح انتهت الفتوحات التى كانت فى خلافة عثمان رضى الله عنه ثم وقع الاختلاف بين المسلمين فى شأن الأمراء إلى أن قتل عثمان رضى الله عنه شهيداً وقصته مشهورة لا حاجة لنا إلى ذكرها ، وكان استشهاده لعثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة ، وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوما وقيل إلا ثمانية أيام وقيل بل قتل أيام التشريق وكان عمره اثنتين وثمانين سنة وقيل وثمانين وقيل تسعين ، ثم بويع على رضى الله عنه ووقع الاختلاف بين الصحابة رضى الله عنهم فى قتلة عثمان وكانوا مجتهدين فى طلب الحق ، فمنهم أصاب ومنهم من أخطأ فالمصيب له أجران والمخطىء له أجر واحد فيجب الإمساك عما جرى بينهم وتأويله بأحسن التأويل وحمله على أحسن المحامل ، واستمر الحال إلى أن استشهد على رضى الله عنه سبع عشرة خلت من رمضان سنة أربعين وعمره ثلاث وستون سنة ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر ، ثم بويع ابنه الحسن رضى الله عنه واستمر ستة أشهر ، ثم نزل عن الخلافة لمعاوية رضى الله عنه حقنا لدماء المسلمين وتحقيقاً لقول النبى صلى الله عليه وسلم إن ابنى هذا سيد وسيصلح

الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين ، فكان إجماع الصحابة على خلافة معاوية رضى الله عنه سنة إحدى وأربعين فى ربيع الأول وقيل الآخر ، وفى هذه السنة استعمل عمرو بن العاص على مصر وكان عقبة بن نافع بن عبد قيس على أفريقية فانتهى إلى لواته ومزاته فأطاعوا ثم كفروا فغزاهم من سنته فقتل وسبى ثم افتتح فى سنة اثنتين وأربعين غدامس فقتل وسبى ، وفتح فى سنة ثلاث وأربعين كوراً من كور السودان وافتتح ودان وهى من برقة وافتتح عامة بلاد البربر وهو الذى اختط القيروان سنة خمسين ، وفى سنة اثنتين وأربعين أيضاً غزا المسلمون اللان وغزوا الروم أيضاً وهزموهم هزيمة منكرة وقتلوا جماعة من بطارقتهم ، وفى سنة ثلاث وأربعين غزا بشير بن أبى أرطاة الروم وشتى بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية وفيها أعاد معاوية عبد الله بن عامر على ولاية البصرة وجعل إليه ولاية خراسان وسجستان ، فاستعمل بن عامر عبد الرحمن بن سمرة على سجستان فأتاها وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبطى فكان يغزو البلد قد كفر أهله فيفتحه حتى بلغ كابل فحصرها أشهراً ونصب عليها مجانيق فثلم سورها ثلمة عظيمة فبات عليها عباد بن الحصين ليلة تطاعن المشركين حتى أصبح ، فلم يقدروا على سدها وخرجوا من الغد يقاتلون فهزمهم المسلمون ودخلوا البلد عنوة ، ثم سار إلى بست ففتحها عنوة وسار إلى زران فهرب أهلها وغلب عليها ، ثم سار إلى خشك فصالحه أهلها ، ثم أتى الرخج فقاتلوه فظفر بهم وفتحها ثم سار إلى زابلتان وهى غزنة وأعمالها فقاتله أهلها وقد كانوا نكثوا ففتحها وعاد إلى كابل ، وقد نكث أهلها ففتحها واستعمل ابن عامر على ثغر السند عبد الله ابن سوار العبدى فغزا القيقان فأصاب مغنما ، ثم غزاهم مرة أخرى فاستنجدوا بالترك فقتلوه ، وكان كريماً لم يوقد أحداً فى عسكره ناراً فرأى ذات ليلة ناراً فقال : ما هذه ؟ قالوا امرأة نفساء يعمل لها الخبيص فأمر أن يطعم الناس الخبيص ثلاثة أيام .

ذكر غزوة السند

وفى سنة أربع وأربعين دخل المسلمون مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم وشتوا بها وغزا بشر بن أرطاة فى البحر وغزا المهلب بن أبى صفرة ثغر السند فأتى بنة

والأهواز بين الملتان ، وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقى المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارساً من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعا . وفى سنة ست وأربعين غزا الروم مالك بن عبد الله وشتى فى أرض الروم وقيل : بل كان عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وقيل بل كان مالك بن هبيرة السكونى . وفى سنة سبع وأربعين كان مشتى مالك بن هبيرة بأرض الروم غازياً ومشتى عبد الرحمن القينى بأنطاكية وفيها سار الحكم بن عمرو الغفارى وكان على خراسان إلى جبال الغور فغزاه من بها وكانوا قد ارتدوا فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها وأصاب منها مغانم كثيرة وسبايا ، وكان المهلب بن أبى صفرة مع الحكم بخراسان وغزا معه بعض جبال الترك فغنموا وأخذ الترك عليهم الشعاب والطرق ، فعنى الحكم بالأمر فولى المهلب الحرب فلم يزل يحتال حتى أسر عظيما من عظماء الترك فقال له إما أن تخرجنا من هذا المضيق أو لأقتلنك ، فقال له أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق وسير الأثقال نحوه فإنهم يتجمعون فيه ويخلون ما سواه من الطرق فبادرهم إلى طريق أخرى فما يدركونكم حتى تخرجوا منه ، ففعل ذلك فسلم الناس بما معهم من الغنائم . وفى سنة ثمان وأربعين كان على غزو المسلمين الروم فى الشتاء عبد الرحمن القينى ، وفى الصيف عبد الله بن قيس الفزارى وغزا مالك بن هبيرة السكونى البحر وغزا عقبة بن عامر الجهنى بأهل مصر البحرين وغزا يزيد بن شجرة الرهاوى بأهل الشام فى البحر .

ذكر غزوة القسطنطينية

فى سنة تسع وأربعين وقيل ثمان وأربعين سير معاوية جيشاً كثيفاً إلى بلاد الروم للغزو ، وجعل عليهم سفيان بن عوف الأزدى وكان فى الجيش عبد الله بن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى ويزيد بن معاوية فأوغلوا فى بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية ، واقتتل المسلمون والروم قتالا شديداً واستشهد أبو أيوب رضى الله عنه ودفن بالقرب من سورها وفى سنة خمسين جهز معاوية بسر بن أبى أرطاة وسفيان بن عوف الأزدى لأرض الروم وغزا فضالة ابن عبيد الله الأنصارى فى البحر وفى هذه السنة استعمل معاوية عقبة بن نافع الفهرى على أفريقية وكان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام

عمرو بن العاص وله فى تلك البلاد جهاد وفتوح ، فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس فدخل أفريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف فى أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوه وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا ، وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكانت أجمة مشتبكة بها شىء كثير من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك ، فدعا الله تعالى وكان مستجاب الدعوة ومن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم نادى أيتها الحيات والسباع إنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ارحلوا عنا فإنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل أولادها وتنتقل ورأى ذلك كثير من قبائل البربر فأسلموا وقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم حتى كان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع وكان فى أثناء عمارة المدينة المذكورة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب ودخل كثير من البربر فى الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها . وفى سنة إحدى وخمسين كان على غزو المسلمين فضالة بن عبيدة فشتى بالروم وفى الصيف بسر بن أبى أرطاة وفى السنة المذكورة غزا بلخ الربيع بن زياد والحارث وكان على خراسان ففتحها صلحا وكانت قد نقضت بعد ما صالحهم الأحنف بن قيس وفتح الربيع أيضاً قهستان عنوة وقتل من بناحيتها من الأتراك وبقى منهم نيزك طرخان فقتله قتيبة بن مسلم فى ولايته ، وفى سنة اثنتين وخمسين كان على غزو المسلمين الروم سفيان بن عوف وبسر بن أبى أرطاة فى الشتاء وفى الصيف محمد ابن عبدالله الثقفى . وفى سنة ثلاث وخمسين كان على الجيش فى الشتاء عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى بالروم وفى هذه السنة فتحت رودس جزيرة فى البحر فتحها جنادة بن أبى أمية الأزدى ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شىء على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم ،

فلما توفى معاوية أقفلهم ابنه يزيد وأخذ الجزية والخراج من أهلها ، وفى سنة أربع وخمسين كان على جيش المسلمين فى غزوهم الروم محمد بن مالك شتاء ومعن بن يزيد السلمى صيفاً وفى هذه السنة فتح المسلمون جزيرة أرواد قرب القسطنطينية ومقدمهم جنادة بن أبى أمية ، وفى هذه السنة أيضاً استعمل معاوية على خراسان عبيد الله بن زياد فسار إلى خراسان فقطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل فى جيش وفتح رامنى ونسف وبيكند وهى من بخارى وغنم غنائم كثيرة ، ولما لقى الترك وهزمهم كان مع ملكهم زوجته فعجلوها عن لبس خفيها فلبست أحدهما وبقى الآخر فأخذه المسلمين فقوم بمائتى ألف درهم ، وفى سنة خمس وخمسين كان على جيش المسلمين فى الغزو شتاء عمرو بن محرز وقيل عبدالله بن قيس الفزارى وفى سنة ست وخمسين كان على جيش المسلمين فى غزو الروم جنادة بن أبى أمية وغزا فى البحر يزيد بن شجرة وفى البر عياض بن الحارث ، وفى هذه السنة استعمل معاوية على خراج خراسان وحربها سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فلما قدم خراسان قطع جيحون إلى سمرقند والصغد وهزم الكفار وفتح ترمذ صلحاً ، وفى سنة سبع وخمسين كان على جيش المسلمين بأرض الروم عبدالله بن قيس شتاء ، وفى سنة ثمان وخمسين كان على جيش المسلمين بأرض الروم مالك بن عبدالله الخثعمى وفى البحر عمرو بن يزيد الجهنى وقيل جنادة بن أبى أمية ، وفى سنة تسع وخمسين كان على جيش المسلمين عمرو ابن مرة الجهنى بأرض الروم فى البر ، وفى البحر جنادة بن أبى أمية وقيل لم يكن فى البحر غزو هذه السنة وفى هذه السنة غزا المسلمون حصن كمخ من بلاد الروم ومعهم عمير بن الحباب السلمى ، فصعد عمير السور ولم يزل يقاتل عليه وحده حتى كشف الروم فصعد المسلمون فكان الفتح بعمير وبذلك كان يفتخر ، وفى سنة ستين كانت غزوة لمالك ابن عبيدالله فى سورية وفى السنة المذكورة توفى معاوية رضى الله عنه . وفى سنة إحدى وستين استعمل يزيد على خراسان سلم بن زياد فقدم خراسان وعبر نهر جيحون وكان معه المهلب بن أبى صفرة وكان مما يلى خوارزم مدينة يجتمع فيها كثير من ملوكهم وكان المسلمون يكاتبون أمراءهم بغزو تلك المدينة فيأبون عليها فألح المهلب على سلم وسأله

التوجه إلى تلك المدينة فوجهه فى ستة آلاف فحاصرهم فطلبوا أن يصالحهم على أن يفدوا أنفسهم فأجابهم إلى ذلك وصالحوه على نيف وعشرين ألف ألف وكان فى صلحهم يأخذ منهم عروضاً فكان يأخذ الرأس والدابة والمتاع بنصف ثمنه فبلغت قيمة ما أخذ منهم خمسين ألف ألف وغزا سلم سمرقند ووجه جيشاً إلى خجنده فهزموا واستعمل سلم أخاه يزيد على سجستان فغدر أهل كابل فنكثوا وأسروا أبا عبيدة بن زياد فسار إليهم يزيد ابن زياد فى جيش فاقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل منهم كثير ، فلما بلغ الخبر سلم بن زياد سير طلحة بن عبدالله الخزاعى وهو طلحة الطلحات ففدى أبا عبيدة بن زياد بخمسمائةألف درهم وسار طلحة من كابل إلى سجستان والياً عليها فجبى المال وأعطى زواره ومات بسجستان وفيه يقول القائل .

رحم الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

ذكر غزوة عقبة بن نافع بلاد السوس

وكثير من وقائع أفريقية

فى سنة اثنتين وستين ترك بالقيروان عقبة بن نافع جنداً مع الذرارى والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوى ، وأحضر أولاده فقال إنى قد بعت نفسى من الله عز وجل ، فلا أزال أجاهد من كفر بالله وأوصى بما يفعل بعده ، ثم سار فى عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغايه وقد اجتمع بها خلق كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديداً وانهزموا عنه وقتل فيهم قتلا ذريعا وغنم منها غنائم كثيرة ودخل المنهزمون المدينة وحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها اربة ، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى وهرب بعضهم إلى الجبال فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى عدة دفعات ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم ورحل إلى تاهرت ، فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا فى جمع كثير من المسلمين واقتتلوا قتالا شديداً واشتد الأمر على

المسلمين لكثرة العدو ، ثم أن الله تعالى نصرهم فانهزمت الروم والبربر وأخذهم السيف وكثر فيهم القتل وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجة فلقية بطريق من الروم اسمه بليان فأهدى له هدية حسنة ، ونزل على حكمه ثم سأله عن الأندلس فعظم الأمر عليه فسأله عن البربر فقال هم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله تعالى وهم بالسوس الأدنى وهم كفار لم يدخلوا فى النصرانية وهم بأس شديد ، فسار عقبة إليهم نحو السوس الأقصى وهو مغرب طنجة ، فانتهى إلى أوائل البربر فلقوه فى جمع كثير فقتل فيهم قتلا ذريعا وبعث خيله فى كل مكان هربوا إليه وسار هو حتى وصل إلى السوس الأقصى ، وقد اجتمع له البربر فى عالم لا يحصى فلقيهم وقاتلهم وهزمهم ، وقتل المسلمون فيهم حتى ملوا ، وغنموا منهم وسبوا سبياً كثيراً وسار حتى بلغ ساليان ورأى البحر المحيط فقال : يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك ، ثم عاد فنفر الروم والبربر عن طريقه خوفا منه ، واجتاز بمكان يعرف اليوم بماء الفرس ، فنزله ولم يكن به ماء فلحق الناس عطش كثير وأشرفوا على الهلاك ، فصلى عقبة ركعتين ودعا فبحث فرس له الأرض بيديه فكشف له عن صفاة فانفجر الماء فنادى عقبة فى الناس فحفروا حسا كثير وشربوا فسمى ماء الفرس ، فلما وصل إلى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من الله وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار إلى يهوذا لينظر إليها فى نفر يسير فلما رآه الروم فى قلة طمعوا فيه وأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام ، فلم يقبلوا منه ثم أرسل الروم إلى كسيلة ابن كرم البربرى ليسرع لقتال عقبة فبادر إلى ذلك ، وكان كسيلة المذكور قد أسلم فى مدة امارة أبى المهاجر بأفريقية قبل عقبة وحسن إسلامه وهو من أكابر البربر ، وصحب أبا المهاجر فلما ولى عقبة عرفه أبو المهاجر محل كسيلة وأمره بإكرامه فلم يقبل عقبة واستخف بكسيلة وأتى عقبة مرة بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين فقال كسيلة هؤلاء فتيانى وغلمانى يكفونى المؤنة فشتمه ، وأمره بسلخها فقبح أبو المهاجر ذلك عند عقبة فلم يرجع ، فقال له أوثق الرجل فإنى أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فأضمر

كسيلة الغدر ، فلما كان الآن ورأى الروم قلة من مع عقبة أرسلوا إلى كسيلة وأعلموه حاله ، وكان فى عسكر عقبة ، وقد أضمر الغدر وأعلم الروم بذلك وأطمعهم ، فلما أرسلوه أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة فقال أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه ، فلما كثر جمعه قاتل عقبة فهزمه فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر ، وقاتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وأسر محمد بن أوس الأنصارى فى نفر يسير فخلصهم صاحب قفصة و بعث بهم إلى القيروان فعزم زهير بن قيس البلوى على القتال ، وكان خليفة عقبة بالقيروان فخالفه جيش الصنعانى ، وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس فاضطر زهير إلى العود معهم ، فسار إلى برقة وأقام بها وأما كسيلة فاجتمع إليه جمع من أهل أفريقية ، وقصد أفريقية وبها أصحاب الأنفال والذرارى من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنهم ، ودخل القيروان واستولى على أفريقية وأقام بها ، وحصلت الفتنة بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ، فلما قوى أمر عبد الملك أنفذ الجيوش إلى أفريقية ، وكتب إلى زهير بن قيس البلوى بولاية أفريقية فسار سنة تسع وستين إلى أفريقية بالجيوش فبلغ خبره إلى كسيله ، فاحتفل وجمع وحشد البربر والروم وأحضر أشراف أصحابه وقال : قد رأيت أن أرحل إلى ممش فأنزلها فإن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهد فلا نغدر بهم ونخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثبت هؤلاء من ورائنا فإذا نزلنا ممش أمناهم وقاتلنا زهيراً فإن ظفرنا بهم تبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم من أفريقية وإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجونا فأجابوه إلى ذلك ورحل إلى ممش ، وبلغ ذلك زهيراً فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح ثم رحل فى طلب كسيلة ، فلما قاربه نزل وعبى أصحابه وركب إليه فالتقى العسكران واشتد القتال ، وكثر القتل فى الفريقين حتى آيس الناس من الحياة فلم يزالوا كذلك أكثر النهار ، ثم نصر الله المسلمين وانهزم كسيلة وأصحابه وقتل هو وجماعة من أعيان أصحابه بممش ، وتبع المسلمون الروم والبربر فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا ، وفى هذه الواقعة

ذهب رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم وعاد زهير إلى القيروان ، ثم إن زهيراً رأى بأفريقية ملكا عظيما فأبى أن يقيم ، وقال إنما قدمت للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك وكان عابداً زاهداً فترك بالقيروان عسكراً وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذى شوكة ، ورحل فى جمع كثير يريد مصر وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسير زهير من برقة إلى أفريقية لقتال كسيلة ، فاغتنموا خلوها فخرجوا إليها فى مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية ، وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبياً كثيراً ، وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم زهير من أفريقية إلى برقة فأخبر الخبر فأمر العسكر بالسرعة والجد فى قتالهم ورحل هو ومن معه وكان الروم خلقا كثيراً ، فلما رآه المسلمون استغاثوا به فلم يمكنه الرجوع فباشر القتال واشتد الأمر وعظم الخطب ، وتكاثر الروم فقتلوا زهيراً وأصحابه ، ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية ، ولما سمع عبد الملك ابن مروان بقتل زهير عظم عليه واشتد وكان مشغولا بما كان بينه وبين ابن الزبير فلما قتل ابن الزبير واجتمع المسلمون عليه جهز جيشاً كثيراً ، ثم سيرهم إلى أفريقية واستعمل عليهم وعلى أفريقية حسان بن النعمان الغسانى ، ولم يدخل أفريقية قط جيش مثله فلما ورد القيروان تجهز منها وسار إلى قرطاجنة ، وكان صاحبها أعظم ملوك أفريقية ولم يكن المسلمون قط حاربوها ، فلما وصل إليها كان بها من الروم والبربر مالا يحصى كثرة فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا مراكبهم ، وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس فدخل حسان قرطاجنة بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا ذريعاً وأرسل الجيوش فيما حوله فأسرعوا إليه خوفا ، فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ماقدروا عليه ثم بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا له فى صطفورة وبنزرت وهما مدينتان فسار إليهم وقاتلهم ولقى منهم شدة وقوة فصبر لهم المسلمون فانهزمت الروم وكثر القتل فيهم واستولوا على بلادهم ، ولم يترك حسان موضعا من بلادهم إلا وطئه وخافه أهل أفريقية خوفاً شديداً ، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة باجة فتحصنوا بها وتحصن البربر بمدينة بونه ، فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد

كثرت فى أصحابه ، فأقام بها حتى صحوا ، فلما صبح الناس قال حسان دلونى على أعظم من بقى من ملوك أفريقية فدلوه على امرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة وكانت تخبرهم بأشياء من الغيب ، ولهذا سميت الكاهنة وكانت بربرية وهى بجبل أوراس ، وقد اجتمع حولها البربر بعد قتل كسيلة فسأل أهل أفريقية عنها فعظموا محلها ، وقالوا له إن قتلتها لم تختلف البربر بعد عليك فسار إليها فلما قاربها هدمت حصن باغايه ظنا منها أنه يريد الحصون فلم يعرج حسان على ذلك وسار إليها فالتقوا على نهر نينى واقتتلوا أشد قتال رآه الناس ، فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسر منهم كثير ، وانهزم حسان ، ثم أنها أطلقت الأسرى سوى خالد بن يزيد القيسى وكان شريفاً شجاعا فاتخذته ولداً ، فسار حسان حتى فارق أفريقية وأقام وكتب إلى عبد الملك بالمقام إلى أن يأتيه أمره فأقام بعمل برقة خمس سنين فسمى ذلك المكان قصور حسان إلى الآن ، وملكت الكاهنة أفريقية كلها وأساءت السيرة فى أهلها وعسفتهم وظلمتهم ، ثم سير إليه عبد الملك الجنود والأموال وأمره بالمسير إلى أفريقية وقتال الكاهنة ، فأرسل حسان رسوله سراً خالد بن يزيد وهو عند الكاهنة بكتاب ليتعلم منه الأمور فكتب إليه خالد جوابه فى رقعة يعرفه تفرق البربر ويأمره بالسرعة وجعل الرقعة فى خبزة ، وعاد الرسول فخرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول ذهب ملكهم فيما يأكل الناس فطلب الرسول ، فلم يوجد فوصل إلى حسان وقد اخترق الكتاب بالنار فعاد إلى خالد ، وكتب إليه بما كتب أولا وأودعه قربوس السرج فوصل إلى حسان فسار ، فلما علمت الكاهنة بمسيره إليها قالت العرب يريدون البلاد والذهب والفضة ونحن إنما نريد المزارع والمراعى ولا أرى إلا أن أخرب أفريقية حتى ييأسوا منها وفرقت أصحابها ليخربوها فخربوها وهـدموا الحصون ونهبوا الأموال وهذا هو الحرب الأول لأفريقية ، فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون إليه منها فسره ذلك ، فسار إلى قابس فلقيه أهلها بالأموال والطاعة ، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء وجعل فيها عاملا ، وسار إلى قفصة ليتقرب الطريق فأطاعه من بها واستولى عليها وعلى

القسطيلية ونفزاوة وبلغ الكاهنة قدومه فأحضرت ولدين لها وخالد بن زيد ، وقالت لهم إنى مقتولة فامضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أماناً فساروا إليه وبقوا معه وسار حسان نحوها فالتقوا واقتتلوا أشد القتال ، وكثر القتل حتى ظن الناس أنه الفناء ، ثم نصر الله المسلمون وانهزم البربر وقتلوا قتالا ذريعاً ، وانهزمت الكاهنة ثم أدركت فقتلت ثم أن البربر استأمنوا إلى حسان فأمنهم ، وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم إثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو ، فأجابوه إلى ذلك فجعل على هذا العسكر ابنى الكاهنة ثم فشا الإسلام فى البربر ، وعاد حسان إلى القيروان وأقام لا ينازعه أحد إلى أن توفى عبد الملك سنة ست وثمانين ، فلما ولى ابنه الوليد ولى أفريقية عمه عبد الله بن مروان وعزل حسان ، ثم استعمل الوليد على أفريقية موسى بن نصير سنة تسع وثمانين وسيأتى الكلام على غزواته .

ذكر صلح عبد الملك بن مروان لملك الروم

كانت الصوائف تعطلت من الشام منذ وفاة معاوية لحدوث الفتن بين المسلمين والصوائف الجيوش التى كانت تجهز فى أوان الصيف لسد الثغور وحرب الكفار واستمر ذلك من صدر الإسلام إلى أواخر الدولة العباسية ، ولما اشتدت الفتنة بين الزبير وعبد الملك اجتمعت الروم سنة سبعين واستجاشوا على من بالشام من المسلمين فصالح عبد الملك ملكهم على أن يؤدى إليه كل جمعة ألف دينار خوفا منه على المسلمين ، وفى سنة ثلاث وسبعين خرج الروم من ناحية أرمينية فى ستين ألفاً وكان على أرمينية محمد ابن مروان من قبل أخيه عبد الملك فقاتلهم وهزمهم وأكثر القتل فيهم ، وفى سنة أربع وسبعين استعمل عبد الملك على خراسان أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فلما وصل أمية إلى كرمان استعمل ابنه عبد الله على سجستان فلما قدمها غزا ملك الترك رتبيل ، وكان رتبيل هائباً للمسلمين ، فلما وصل عبد الله إلى بست أرسل رتبيل يطلب الصلح وبذل ألف ألف وبعث إليه بهدايا ورقيق فأبى عبد الله قبول ذلك وقال إن ملأ لى هذا الرواق ذهبا وإلا فلا صلح ، وكان غزا فخلى له رتبيل البلاد حتى أوغل فيها وأخذ

عليه الشعاب والمضايق فطلب أن يخلى عنه وعن المسلمين ولا يأخذ منه شيئاً فأبى رتبيل ، وقال بل يأخذ ثلاثمائة ألف درهم صلحا ويكتب لنا كتاباً : لا يغزوا بلادنا ما كنت أميراً ولا يحرق ولا يخرب ، ففعل ذلك وبلغ ذلك عبد الملك فعزله ، وفى هذه السنة غزا محمد ابن مروان صائفة وكانت الروم خرجت من قبل مرعش وكذا فى السنة التى بعدها ، وفى سنة خمس وسبعين كان على ثغر السند مجاعة بن سعد التميمى من قبل الحجاج فغزا وفتح أماكن من قندابيل ، وفى سنة ست وسبعين غزا محمد بن مروان الروم من ناحية ملاطية. وفى سنة سبع وسبعين غزا الصائفة الوليد بن عبد الملك ، وفى سنة ثمان وسبعين ولى الحجاج عبيد الله بن أبى بكرة سجستان وكان رتبيل ملك الترك مصالحا وكان يؤدى الخراج وربما امتنع ، فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبى بكرة يأمره بمناجزته وأن لا يرجع حتى يستبيح بلاده ويهدم قلاعه ويقيد رجاله ، فسار عبيد الله فى أهل البصرة وأهل الكوفة وكان على أهل الكوفة شريح بن هانىء وكان من أصحاب على رضى الله عنه ومضى عبيد الله حتى دخل بلاد رتبيل فأصاب من الغنائم ماشاء وهدم حصونا وغلب على أرض من أراضيهم وأصحاب رتبيل من الترك يتركون لهم أرضاً بعد أرض حتى أمعنوا فى بلادهم ودنوا من مدينتهم وكانوا منها على ثمانية عشر فرسخا ، فأخذوا على المسلمين العقاب والشعاب فسقط فى أيدى المسلمين ، فظنوا أن قد هلكوا فصالحهم عبد الله على سبعمائة ألف درهم يوصلها إلى رتبيل ليمكن المسلمين من الخروج من أرضه فلقيه شريح فقال له : إنكم لا تصالحون على شىء إلا حسبه السلطان من أعطياتكم وقد بلغت من العمر طويلا وقد كنت أطلب الشهادة منذ زمان وإن فاتتنى اليوم الشهادة ما أدركها حتى أموت ، ثم قال شريح : يا أهل الإسلام تعاونوا على عدوكم فقال له عبيد الله بن أبى بكرة إنك شيخ قد خرفت فقال له شريح إنما حسبك أن يقال بستان عبيد الله وحمام عبيد الله يا أهل الإسلام من أراد منكم الشهادة فإلى فاتبعه ناس من المتطوعة وفرسان الناس وأهل الحفاظ ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلا وقاتل شريح حتى قتل فى أناس من أصحابه ونجا من نجا فخرجوا من بلاد رتبيل ، وفى هذه السنة أصاب أهل الروم أهل أنطاكية وظفروا بهم وفى سنة ثمان وسبعين عزل

عبد الملك أمية بن عبد الله عن خراسان وضمها لأعمال الحجاج فولى على خراسان المهلب ابن أبى صفرة .

ذكر غزوة المهلب ما وراء النهر حين كان والياً على خراسان

فى سنة ثمانين قطع المهلب نهر بلخ ونزل على كش فأتاه ابن عم ملك الختل ودعاه إلى غزو الختل وكان اسم ملكهم الشبل ، فوجه المهلب مع ابن عم الملك ابنه يزيد ابن المهلب فنزل يزيد ناحية ، ونزل ابن عم الملك ناحية فبيته الشبل وأخذه فقتله فحصر يزيد قلعة الشبل ، فصالحوه على فدية حملت إليه ورجع يزيد عنهم ووجه المهلب ابنه حبيبا ، فوافى صاحب بخارى فى أربعين ألفاً فنزل جماعة من العدو قرية فسار إليهم حبيب فى أربعة آلاف فقتلهم وأحرق القرية فسميت المحترقة ، ورجع حبيب إلى أبيه وأقام المهلب بكش سنتين فقيل له لو تقدمت إلى ما وراء ذلك فقال ليت حظى من هذه الغزوة سلامة هذا الجند وصالح المهلب أهل كش على فدية يأخذها منهم ، وأتاه كتاب ابن الأشعث بخلع الحجاج ويدعوه إلى مساعدته فبعث بكتابه إلى الحجاج وأقام بكش .

ذكر تسيير الجنود إلى رتبيل مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

قد تقدم ذكر حال المسلمين حين دخل بهم ابن أبى بكرة بلاد رتبيل ثم استأذن الحجاج عبد الملك فى تسيير الجنود نحو رتبيل فأذن له عبد الملك فأخذ الحجاج فى تجهيز الجيش ، فجعل على أهل الكوفة عشرين ألفاً وعلى أهل البصرة عشرين ألفاً وجد فى ذلك وأعطى الناس أعطياتهم كملا ، وأنفق فيهم ألفى ألف سوى أعطياتهم وأنجدهم بالخيل الرائقة والسلاح الكامل ، وأعطى كل رجل يوصف بشجاعة وغناء وكان يسمى جيش الطواويس لحسنه ، فلما فرغ من أمر الجند بعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بأمر من عبد الملك وكان الحجاج يبغض عبد الرحمن المذكور ، فسيره على ذلك الجيش طاعة لأمر عبد الملك فسار بهم حتى قدم سجستان ، وبلغ الخبر رتبيل فأرسل يعتذر

ويبذل الخراج فلم يقبل منه فسار إليه ودخل بلاده وترك له رتبيل أرضاً أرضا ورستاقا رستاقاً وحصناً حصنا وعبد الرحمن يحوى ذلك وكلما حوى بلداً بعث إليه عاملا وجعل معه أعوانا ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى إذا جاز من أرض عظيمة وملأ الناس أيديهم من الغنائم العظيمة منع الناس من الوغول فى أرض رتبيل وقال نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترىء المسلمون على طرقها وفى العام المقبل نأخذ ما وراءها إن شاء الله تعالى ، ثم كتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه وبما يريد أن يعمل فلما أتى كتابه إلى الحجاج كتب جوابه ، إن كتابك كتاب امرىء يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة وقد صانع عدواً قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم عظيما وأحببت أن تكف عن ذلك العدو وتسخى النفس بمن أصيب من المسلمين فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم والهدم لحصونهم ، وقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم ، ثم أردفه كتاباً آخر بنحو ذلك وفيه أما بعد : فمر من قبلك من المسلمين فليحاربوا وليقيموا بها فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم ، ثم كتب كتابا ثالثاً بذلك ويقول له إن مضيت لما أمرتك به وإلا فأخوك اسحاق بن محمد أمير الناس فدعا عبد الرحمن الناس وقال لهم أيها الناس إنى لكم ناصح ولصلاحكم محب ولكم فى كل مايحيط به نفعكم ناظر وقد كان رأيى فيما بينى وبين عدوى بما رضوه ذوو أحلامكم وأولى التجربة منكم ، وكتبت بذلك إلى أميركم الحجاج فأتانى كتابه يعجزنى ويضعفنى ويأمرنى بتعجيل الوغول بكم فى أرض العدو وهى البلاد التى هلك فيها إخوانكم بالأمس وإنما أنا رجل منكم أمضى إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم فثار إليه الناس ، وقالوا بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع ، فكان أول من تكلم أبو الطفيل عامر ابن واثلة الكنانى وله صحبة رضى الله عنه ، فقال بعد حمد الله أما بعد فإن الحجاج يرى بكم ما رأى القائل الأول أحمل عبدك على الفرس فإن هلك فلك وإن نجا فلك وإن الحجاج مايبالى أن يخاطر بكم فيقحمكم بلايا كثيرة ويغشى اللهوب واللصوب فإن ظفرتم وغنمتم أكل البلاد وحاز المال وكان ذلك زيادة فى سلطانه وإن ظفر عدوكم

كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذين لا يبالى عنهم ولا يبقى عليهم اخلعوا عدو الله الحجاج ، وبايعوا الأمير عبد الرحمن فإنى أشهدكم أنى أول خالع فنادى الناس من كل جانب فعلنا فعلنا قد خلعنا عدو الله ، وقام عبد المؤمن بن شبث بن ربعى فقال عباد الله إنكم إن أطعتم الحجاج جعل هذه البلاد بلادكم ما بقيتم وجمركم تجمير فرعون الجنود (التجمير حبس الجيش فى أرض العدو من غير رجوع) فإنه بلغنى أنه أول من جمر البعوث ولم تعاينوا الأحبة أو يموت أكثركم فيما أرى ، فبايعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم الحجاج فانفوه عن بلادكم ، فوثب الناس إلى عبد الرحمن فبايعوه على خلع الحجاج ونفيه من أرض العراق ، وعلى النصرة لعبد الرحمن ولم يذكروا عبد الملك وجعل عبد الرحمن على بست عياض بن هميان الشيبانى وعلى زوج عبد الله بن عامر التميمى وصالح رتبيل على أن ابن الأشعث إن ظهر فلاخراج عليه أبداً ما بقى وإن هزم فأراد منعه رجع إلى العراق ، وجعل عبد الرحمن على مقدمته عطية بن عمرو العنبرى وجعل على كرمان حريبة بن عمرو التميمى ، فلما بلغ فارس اجتمع الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك ، فاجتمعوا إلى عبد الرحمن فكان أول الناس خلع عبد الملك تيجان بن أبجر من بنى تيم الله بن ثعلبة قام فقال أيها الناس : إنى خلعت أبا ذبان (كنية عبد الملك) كخلعى قميصى نخلعه الناس إلا قليلا منهم وبايعوا عبدالرحمن وكانت بيعته تبايعوا على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم وجهاد المحلين فلما بلغ الحجاج خلعه كتب إلى عبدالملك بخبر عبد الرحمن ويسأله أن يعجل بعثه بجنود إليه ، ولما بلغ المهلب خبر عبدالرحمن ، كتب إلى الحجاج من خراسان أما بعد : فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل ليس يرده شىء حتى ينتهى إلى قراره وأن لأهل العراق شدة فى أول مخرجهم وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم فاتركهم حتى يسقطوا إلى أهاليهم ويشموا أولادهم ، ثم واقعهم عندها فإن الله ناصرك عليهم . فلما قرأ كتابه شتمه وسبه ، وقال ما إلى نظر وإنما نظر إلى ابن عمه يعنى عبد الرحمن لأن كلا من المهلب وعبد الرحمن من قحطان ثم بعد وقوع بعض الوقائع بين الحجاج وعبد الرحمن

نظر فى كتاب المهلب فاستوصب ماقاله قال لله رده أى صاحب حرب هو ، ولما وصل كتاب الحجاج لعبد الملك هاله ودعا خالد يزيد بن معاوية فأقرأه الكتاب ، فقال يا أمير المؤمنين إن كان الحدث من سجستان فلا تخفه وإن كان من خراسان فإنى أتخوفه فجهز الجند إلى الحجاج على البريد من مائة ومن خمسين ومن أقل وأكثر وكتب الحجاج وتتصل بعبد الملك كل يوم بخبر عبد الرحمن : فنزل الحجاج البصرة ولما اجتمع الجند عنده سار من البصرة ليلقى عبد الرحمن ، ولم يتركهم حتى يسقطوا إلى أهاليهم كما كتب إليه المهلب فنزل تستر وقدم بين يديه مقدمة إلى دجيل فلقوا عنده خيلا لعبد الرحمن ، فانهزم أصحاب الحجاج بعد قتال شديد وكان ذلك يوم الأضحى سنة إحدى وثمانين وقتل منهم جمع كثير ، فلما أتى خبر الهزيمة إلى الحجاج رجع إلى البصرة وتبعة أصحاب عبد الرحمن فقتلوا وأصابوا بعض أثقالهم ، وأقبل الحجاج حتى نزل الزاوية وجمع عنده الطعام وترك البصرة لأهل العراق ، فأقبل عبد الرحمن حتى دخل البصرة فبايعه جميع أهلها قراؤها وكهولها مستبصرين فى قتال الحجاج ومن معه من أهل الشام ، ثم دخل عبد الرحمن ومن معه الكوفة وبايعه أهلها وصار له جيش يبلغ مائة ألف فيهم كثير من الصحابة وأبناؤهم وعلماء التابعين وغيرهم ، وممن بايع عبد الرحمن وكان فى جيشه سعيد بن جبير والشعبى وعبد الرحمن بن أبى ليلى وهؤلاء من كبار العلماء التابعين ومن الصحابة أبو طفيل عامر بن واثلة ، ووقع بينهم وبين جيوش الحجاج وقائع كثيرة فى أكثرها كان النصر لجيوش عبد الرحمن ثم أن عبد الملك وأهل الشام ، قالوا إن كان يرضى أهل العراق بنزع الحجاج عنهم نزعناه فإن عزله أيسر من حربهم وتحقن بذلك الدماء ، فبعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان إلى الحجاج فى جند كثيف وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق عزل الحجاج وأن يجريا عليهم أعطياتهم كما يجرى على أهل الشام ، وأن ينزل عبد الرحمن ابن الأشعث أى بلد شاء من بلاد العراق ، فإذا نزله كان واليا عليه ما دام حيا وعبد الملك خليفة فإن أجاب أهل العراق إلى ذلك عزل الحجاج وصار محمد بن مروان أمير العراق وإن أبى أهل العراق قبول ذلك فالحجاج أمير الجماعة ووالى القتال ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك فى

طاعته ، فلم يأب الحجاج أمراً قط كان أشد عليه ولا أوجع لقلبه من ذلك ، فخاف أن يقبل أهل العراق عزله فيعزله عنهم ، فكتب إلى عبد الملك ، والله لو أعطيت أهل العراق نزعى لم يلبثوا إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ولا يزيدهم ذلك إلا جراءة عليك وذكر له أشياء مما فعله أهل العراق أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ثم قال له إن الحديد بالحديد يلمع فأبى عبدالملك إلا عرض عزله على أهل العراق فلما اجتمع عبدالملك بن عبد الله ومحمد ابن مروان مع الحجاج خرج عبد الله بن عبد الملك وقال : يا أهل العراق أنا ابن أمير المؤمنين وهو يعطيكم كذا وكذا ، وخرج محمد بن مروان وقال : أنا رسول أمير المؤمنين وهو يعرض عليكم كذا وكذا فذكر هذه الخصال ، فقالوا : نرجع العشية ، فرجعوا واجتمع أهل العراق عند ابن الأشعث ، فقال لهم : قد أعطيتم أمراً انتهازكم اليوم إياه فرصة ، وإنكم اليوم على النصف ، فإن كانوا اعتدوا عليكم بيوم كذا فأنتم تعتدون عليهم بيوم كذا ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزاء أقوياء القوم لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقصون ، فوالله لا زلتم عليهم جراء ، وعندهم أعزاء أبداً ما بقيتم إن أنتم قبلتم ، فوثب الناس من كل جانب فقالوا : إن الله قد أهلكم فأصبحوا فى الضنك والمجاعة ، والقلة والذلة ونحن ذوو العدد الكثير ، والسعر الرخيص والمادة القريبة والله لا نقبل وأعادوا خلعه ثانية وأبلغوا ذلك عبد الله ابن عبد الملك ومحمد بن مروان فقالا للحجاج : شأنك بعسكرك وجندك واعمل برأيك فإنا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع فقال قد قلت أنه لا يراد بهذا الأمر غيركم فكانا يسلمان عليه بالأمر ويسلم عليهما بالأمرة ، ثم أعيد القتال واشتد الأمر وتفصيل ذلك يطول وجملة الأيام التى اقتتلوا فيها مائة يوم وثلاثة أيام ثم وقعت الهزيمة على أصحاب عبدالرحمن ، ثم رجع الحجاج إلى الكوفة وعاد محمد بن مروان إلى الموصل وعبد الله بن عبد الملك إلى الشام ، وأخذ الحجاج يبايع الناس الذين كانوا مع عبد الرحمن ، وكان لا يبايع أحداً إلا قال أشهد أنك كفرت فإن قال نعم بايعه وإلا قتله فأتاه رجل من خثعم كان معتزلا للناس جميعاً فسأله عن حاله فأخبره باعتزاله ، فقال له أنت متربص أتشهد أنك كافر قال بئس الرجل أنا

أعبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر ، قال إذن أقتلك ، قال وإن قتلتني فقتله ولم يبق أحد من أهل الشام والعراق إلا رحمه ثم أتى بعده بآخر فقال له الحجاج أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر ، فقال له الرجل أتخادعني عن نفسي أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون فضحك منه وخلى سبيله وأتى بمحمد بن سعد ابن أبي وقاص فقال له ياظل الشيطان وأعظم الناس تيها وكبراً تأبى بيعة يزيد بن معاوية وتتشبه بالحسين وعبد الله بن عمر ، ثم صرت مؤذنا لابن الأشعث وجعل يضرب رأسه بعود في يده حتى أدماه ثم أمر به فقتل ، ثم أتى بعمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر ، فقال يا عبد المرأة يقوم بالعامود على رأسك بن الحائك يعني ابن الأشعث وتشرب معه في الحمام ، فقال أصلح الله الأمير كانت فتنة شملت البر والفاجر فدخلنا فيها فقد أمكنك الله منا فإن عفوت فبحلمك وفضلك وإن عاقبت عاقبت مذنبين ، فقال الحجاج أما أنها شملت البر فكذبت ولكنها شملت الفاجر وعوفي منها الأبرار وأما اعترافك فعسى أنه ينفعك فرجا له السلامة ثم أمر به فقتل وأتى الحجاج بأسيرين ، فأمر بقتلهما ، فقال أحدهما إن لي عندك يداً قال وما هي قال ذكر عبد الرحمن بن الأشعث يوماً أمك بسوء فنهيته قال ومن يعلم ذلك قال هذا الأسير الآخر ، فسأله الحجاج فصدقه فقال له الحجاج فلم لم تفعل كما فعل قال وينفعني الصدق عندك قال نعم قال منعني البغض لك ولقومك فقال خلوا عن هذه الفعلة وعن هذه الصدقة وقتل الحجاج يوم الهزيمة ممن قبض عليهم عشرة آلاف ، ولما انهزم أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث نادى منادى الحجاج من لحق بقتيبة بن مسلم الباهلي فهو آمن وكان قد ولى قتيبة الري وسار إليه ، فلحق به ناس كثير وكان منهم الشعبي فذكره الحجاج يوماً فسأل عنه فقالوا له إنه لحق بقتيبة بن مسلم بالري فكتب الحجاج إلى قتيبة يأمره بإرسال الشعبي فأرسله قال الشعبي ، فلما قدمت على الحجاج لقيت يزيد بن أبي مسلم وكان صديقاً لي فاستشرته ، فقال اعتذر مهما استطعت وأشار بمثل ذلك إخواني ونصحائي ، فلما دخلت على الحجاج فرأيت غير ماذكروا لي فسلمت عليه بالأمرة وقلت أيها الأمير إن الناس قد أمروني أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق وأيم

الله لا أقول فى هذا المقام إلا الحق والله قدمردنا عليك وحرضنا وجهدنا فما كنا بالأقوياء الفجرة ولا بالأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا ، فإن سطوت فبذنوبنا ما جرت إليه أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد فالحجة لك علينا فقال الحجاج أنت والله أحب إلى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ، ثم يقول مافعلت ولا شهدت وقد أمنت يا شعبي كيف وجدت الناس بعدنا فقلت أصلح الله الأمير اكتحلت بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفاً ، قال انصرف ياشعبي فانصرفت . وأما سعيد بن جبير فإنه اختفى ثم هرب إلى خراسان وتنقل إلى أماكن كثيرة مختفياً ثم جاور بمكة فلما ولى إمارة مكة خالد بن عبد الله القسرى بعد موت عبد الملك ومبايعة ابنه الوليد قيل لسعيد بن جبير إن خالداً رجل سوء فلو سرت عن مكة ، فقال والله لقد فررت حتى استحييت من الله ويستحبنى ما كتب الله لى ، فلما قدم خالد مكة كتب له الوليد بحمل أهل العراق إلى الحجاج فأخذ سعيد بن جبير وأرسل مع حرسين ، فانطلق أحدهما لحاجة وبقى الآخر ، فقال لسعيد إنى أبرأ إلى الله من دمك فإنى رأيت فى منامى فقيل لى تبرأ من دم سعيد بن جبير فاذهب حيث شئت ، فإنى لا أطلبك فأبى سعيد فرأى ذلك الحرسى تلك الرؤيا ثلاثاً ويأذن لسعيد فى الذهاب وهو لا يفعل ، فقدموا به الكوفة فأنزل فى داره وأتاه قراء الكوفة ، فجعل يحدثهم وهو يضحك وبنية له فى حجره ، فلما نظرت إلى القيد فى رجله بكت ثم أدخلوه على الحجاج فلما أتى به أقبل عليه ، فقال يا سعيد : ألم أشركك فى إمارتى ألم أفعل بك كذا ألم استعملك قال بلى قال فما أخرجك على قال إنما أنا امرؤ من المسلمين يخطىء مرة ويصيب أخرى فطابت نفس الحجاج ، ثم عادوه فى شىء فقال إنما كانت بيعة فى عنقى فغضب الحجاج وانتفخ وقال يا سعيد : ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك قال بلى . قال : ثم قدمت الكوفة والياً فجددت البيعة فأخذت بيعتك لأمير المؤمنين ثانية ، قال بلى . قال : فنكثت بيعتين وتوفى بواحدة للحائك بن الحائك والله لأقتلنك قال . إنى إذن لسعيد كما سمتنى

أمى فأمر به فضربت عنقه فلما سقط رأسه هلل ثلاثاً فلما قتل التبس عقل الحجاج فجعل يقول قيدونا قيدونا فظنوا أنه يريد القيود فقطعوا رجلى سعيد من أنصاف ساقيه ، وأخذوا القيود ، وكان الحجاج إذا نام يراه فى منامه يأخذ بمجامع ثوبه فيقول ياعدو الله فيم قتلتنى فيقول مالى ولسعيد بن جبير مالى ولسعيد بن جبير وعاش الحجاج بعده أياماً ثم هلك قال الإمام الشعرانى فى الطبقات قتله فى شعبان ، وتوفى الحجاج فى رمضان وكان بينهما خمسة عشر يوماً وفى تاريخ ابن خلكان أن الحجاج رؤى فى النوم بعد موته فقيل له ما فعل الله بك ، قال قتلنى بكل قتيل قتلته قتلة وقتلنى بسعيد بن جبير سبعين قتلة وكان عمر سعيد بن جبير سبعاً وأربعين سنة وقيل سبعاً وخمسين ، قيل إن سعيد بن جبير قال اللهم لا تسلطه على أحد بعدى فلم يقتل أحداً بعده . قال الإمام أحمد قتل الحجاج سعيد ابن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه ، وكان قتله سنة أربع وتسعين وقيل خمس وتسعين فبين قتله وانتهاء فتنة ابن الأشعث إحدى عشرة سنة فقد كان ابتداء فتنة ابن الأشعث سنة إحدى وثمانين وانتهاؤها سنة ثلاث وثمانين ، وأما ابن الأشعث فإنه لما انهزمت جيوشه سار إلى رتبيل ملك الترك فأكرمه وآواه ثم أرسل إليه الحجاج يتوعده ويتهدده فقتله وبعث برأسه إلى الحجاج وقيل بل أصابه مرض فمات فقطع رأسه وأرسله للحجاج ، فبعث به إلى عبد الملك فطيف به فى الشام ليريه الناس ثم أرسله لأخيه عبد العزيز بن مروان بمصر فطيف به فى مصر ، وكان ذلك سنة خمس وثمانين .

فتح قالى قلا

فى سنة إحدى وثمانين سير عبد الملك بن مروان ابنه عبيد الله فى جيش ففتح قالى قلا وفى هذه السنة هجم جماعة من الديلم على قزوين فتصايح الناس وأغلقوا الأبواب وقاتلوهم قتالا عظيما ، وظفر المسلمون بهم فلم يفلت منهم أحد وفى هذه السنة كان يزيد بن المهلب فى مفازة بست فى ستين فارساً فلقيهم خمسمائة من الترك فقاتلوهم قتالا شديداً فقتلوا

كثيراً من الترك إلى أن انهزموا ، وفى سنة اثنتين وثمانين توفى المهلب واستخلف على خراسان ابنه يزيد فأقره الحجاج ، وفى سنة أربع وثمانين فتح يزيد بن المهلب قلعة نيزك بباذغيس بعد حصار وقتال فملكها وما فيها من الأموال والذخائر وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وكان نيزك إذا رآها سجد لها معظما لها وفى هذه السنة غزا عبيد الله بن عبد الملك الروم ففتح المصيصة وبنى حصنها ووضع بها ثلاثمائة مقاتل من ذوى البأس ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك وبنى مسجدها وفى هذه السنة غزا محمد بن مروان أرمينية فهزمهم ثم سألوه الصلح فصالحهم ، وفى سنة خمس وثمانين عزل الحجاج يزيد بن المهلب وولى أخاه الفضل بن المهلب فغزا باذغيس وأصاب مغنما فقسمه فأصاب كل رجل ثمانون ثم غزا أخرون (اسم بلد) وشومان فغنم وقسم ما أصاب ولم يكن للفضل بيت مال فكان يعطى الناس كلما جاءه شىء وإن غنم شيئاً قسمه فيهم وفى هذه السنة غزا محمد بن مروان أرمينية فصاف بها وشتى ، وفى سنة ست وثمانين توفى عبد الملك بن مروان وولى ابنه الوليد ، فأبقى الحجاج وولى هذا خراسان قتيبة مسلم الباهلى وباهلة بن قيس عيلان بن مضر ، وعزل الفضل وافتتح قتيبة خوارزم وسمرقند وبخارى وقد كانوا كفروا بعد فتحها الأول وبلغ مالم يبلغه المهلب ولا غيره فجهز قتيبة عند قدومه الجيوش للغزو ، فلما كان بالطالقان أتاه دهاقين بلخ وساروا معه فقطع النهر فتلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفاتيح من ذهب ، ودعاه إلى بلده فمضى معه فسلمها إليه لأن ملك أخرون وشومان كان يسىء جواره ثم سار قتيبة إلى أخرون وشومان وهما من طخارستان فصالحه ملكها على فدية أداها إليه فقبلها قتيبة ثم انصرف إلى مرو (إحدى قواعد إقليم خراسان الأربع وهى مرو وهرة وبلخ وياسور) واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم ففتح صالح بعد رجوع قتيبة كاشان وأورشت وهى من فرغانة وفتح اخشيكت وهى مدينة فرغانة القديمة ، وفى هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم ، وفى سنة سبع وثمانين كتب قتيبة إلى نيزك طرخان صاحب باذغيس أن يطلق من عنده من أسرى المسلمين ، وكتب إليه يتهدده فخافه نيزك فأطلق الأسرى وبعث بهم إليه ، وكتب له قتيبة مع سليم الناصح

مولى عبيد الله بن أبى بكر يدعوه إلى الصلح وإلى أن يؤمنه وكتب إليه يحلف بالله لئن لم يقدم عليه ليغزونه ثم ليطالبنه حيث كان حتى يظفر به أو يموت دونه فقدم سليم بالكتاب فقال له نيزك وكان يستنصحه : يا سليم ما أظن عندصاحبك خيراً كتب إلى كتابالا يكتب إلى مثلى ، فقال له سليم : إنه رجل شديد فى سلطانه ، سهل إذا سوهل صعب إذا عوسر فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك فأحسن حالك عنده فعقد الصلح لأهل باذغيس على أن لا يدخلها قتيبة ، وفى هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم فقتل منهم عدداً كثيراً بسوسنة من ناحية المصيصة وقيل إن الذى غزا فى هذه السنة هشام بن عبد الملك ففتح حصن بواق وحصن الأخرام وحصن بولس وقمقم وقتل من المستعربة نحواً من ألف وسبى ذريتهم ونساءهم .

ذكر غزوة قتيبة بيكند

كانت غزوة بيكند سنة سبع وثمانين وهى أدنى مدائن بخارى سار إليهم قتيبة بجيوشه ، فلما نزل بهم واستنصر الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم فى جمع كثير وأخذوا الطرق على قتيبة ، فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد وهم يقتتلون كل يوم وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تنذر فأعطاه أهل بخارى مالا ليرد عنهم قتيبة فأتاه سراً من الناس وقال له أن الحجاج قد عزل وأتى عامل إلى خراسان فلو رجعت بالناس كان أصلح فأمر به فقتل خوفا من أن يظهر الخبر فيهلك الناس ، ثم أمر الصحابة بالجد فى القتال فقاتلهم قتالا شديداً فانهزم الكفار يريدون المدينة ، وتبعهم المسلمون قتلا وأسراً كيف شاءوا وتحصن من دخل المدينة بها فوضع قتيبة الفعلة ليهدم سورها فسألوه الصلح فصالحهم واستعمل عليهم عاملا وارتحل عنها يريد الرجوع ، فلما سار خمسة فراسخ نقضوا الصلح وقتلوا العامل ومن معه فرجع قتيبة فنقب سورهم فسقط فسألوه الصلح فلم يقبل ودخلها عنوة وقتل ما كان من المقاتلة وكان فيمن أخذوا من المدينة رجل أعور هو الذى

استجاش الترك على المسلمين ، فقال لقتيبة : أفدى نفسى بخمسة آلاف جرية قيمتها ألف ألف ، فاستشار قتيبة الناس فقالوا : هذا زيادة فى الغنائم ، وما عسى أن يبلغ كيد هذا ؟ قال : لا والله لا يروع بك مسلم أبداً فأمر به فقتل وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة مالا يحصر ولا أصابوا بخراسان مثله فقوى المسلمون فلما فرغ قتيبة من فتح بيكند رجع إلى مرو .

ذكر فتح طوانة من بلد الروم

فى سنة ثمان وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك بلد الروم ، وكان الوليد قد كتب إلى صاحب أرمينية يأمره أن يكتب إلى ملك الروم يعرفه أن الخزر وغيرهم من ملوك جبال أرمينية قد أجمعوا على قصد بلاده ففعل ذلك وقطع الوليد البعث على أهل الشام إلى أرمينية وأكثروا عظم جهازه وساروا نحو الجزيرة ، ثم عطفوا منها إلى بلد الروم فاقتتلوا هم والروم فانهزم الروم ثم رجعوا فانهزم المسلمون فبقى العباس فى نفر منهم ابن محيريز الجمحى فقال له العباس أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟ فقال ابن محيريز نادهم يأتوا فنادى العباس : يا أهل القرآن فأقبلوا جميعاً فهزم الله الروم حتى دخلوا طوانة وحصرهم المسلمون وفتحوها قيل وفى هذه السنة أيضاً غزا مسلمة بن عبد الملك الروم أيضاً ففتح ثلاثة حصون أحدها حصن قسطنطين وغزالة وحصن الأخرم ، وقتل من المستعربة نحواً من ألف وأخذ الأموال .

ذكر غزوة نومشكث ورامثنه

فى هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم نومشكث واستخلف على مرو أخاه يسار بن مسلم فتلقاه أهلها فصالحهم ، ثم سار إلى رامثنه فصالحه أهلها وانصرف عنهم وزحف إليه الترك ومعهم الصغد وأهل فرغانة فى مائتى ألف وملكهم ابن أخت ملك الصين ، فاعترضوا المسلمين فلحقوا عبد الرحمن بن مسلم أخا قتيبة وهو على الساقة بينه وبين قتيبة

وأوائل العسكر ميل ، فلما قربوا منه أرسل إلى قتيبة يخبره وأدركه الترك فقاتلوه ورجع قتيبة فانتهى إلى عبد الرحمن وهو يقاتل الترك وقد كاد الترك يظهرون عليه ، فلما رأى المسلمون قتيبة طابت نفوسهم وقاتلوا إلى الظهر وأبلى يومئذ نيزك وهو مع قتيبة فانهزم الترك ورجع قتيبة فقطع النهر عند ترمز وأتى مرو ، وفى سنة تسع وثمانين غزا مسلمة ابن عبد الملك والعباس بن الوليد الروم فافتتح مسلمة حصن عمورية وفتح العباس اخرولية ولقى من الروم جمعاً فهزمهم ، وقيل إن مسلمة قصد عمورية فلقى بها جمعاً من الروم كثيراً ، فهزمهم وافتتح هرقلة وقمونية ، وغزا العباس الصائفة من ناحية البذندون .

ذكر غزوة قتيبة بخارى

فى هذه السنة أتى قتيبة كتاب الحجاج يأمره بقصد وردان خذاه فعبر النهر من زم فلقى الصغد وأهل كش ونسف فى الطريق المفازة فقاتلوه فظفر بهم ، ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى عن يمين وردان ، فلقوه فى جمع كثير فقاتلهم يومين وليلتين فظفر بهم ، وغزا وردان خذاه ملك بخارى فلم يظفر بشىء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج يخبره فكتب إليه الحجاج أن صورها فبعث إليه بصورتها فكتب إليه الحجاج أن تب إلى الله جل ثناؤه مما كان منك وائتها من مكان كذا وكذا ، وكتب إليه أن كش بكش وانسف نسف ورد وردان وإياك والتحويط ودعنى ثنيات الطريق ، فلما ورد الكتاب على قتيبة خرج غازيا سنة تسعين فاستجاش وردان خذاه بالصغد والترك ومن حوله فأتوه وقد سبق إليها قتيبة فحصرها ، فلما جاءتهم إمدادهم خرجوا إلى المسلمين يقاتلونهم ، فقالت الأزد اجعلونا ناحية وخلوا بيننا وبين قتالهم ، فقال قتيبة تقدموا فتقدموا ، وقاتلوهم قتالا شديداً ثم إن الأزد انهزموا حتى دخلوا المعسكر وركبهم المشركون فحطموهم حتى أدخلوهم عسكرهم وجاوزوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين ، فكروا راجعين فانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم عن هذا الموضع فلم يقدم عليهم

أحد من العرب ، فأتى قتيبة بنى تميم فقال لهم يوما كأيامكم فأخذ وكيع ابن حسان بن قيس التميمى اللواء ، وقال يابنى تميم أتسلمونني اليوم قالوا لا ياأبا مطرف وكان هريم بن أبي طلحة على خيل تميم ووكيع رأسهم فقال وكيع ياهريم قدم خيلك ودفع إليه الراية ، فتقدم هريم وتقدم وكيع فى الرجالة فانتهى هريم إلى نهر بينهم و بين الترك فوقف فقال وكيع تقدم يا هريم فنظر هريم نظر الجمل الهائج الصائل وقال أقحم الخيل هذا النهر فإن انكشفت كان هلاكها يا أحمق فقال وكيع يا ابن اللخناء أترد أمرى فخذفه بعمود كان معه فعبر هريم فى الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فعمل عليه جسراً من خشب ، وقال لأصحابه من وطن نفسه على الموت فليعبر و إلا فليثبت مكانه فما عبر معه إلا ثمانمائة رجل، فلما عبر بهم ودنا من العدو قال لهريم اثت مطاعنهم فاشغلهم عنا بالخيل فحمل عليهم حتى خالطهم وحمل هريم فى الخيل فطاعنهم ولم يزالوا يقاتلونهم حتى أحدروهم من التل ونادى قتيبة ما ترون العدو منهزمين فلم يعبر أحد النهر ، حتى انهزموا وعبر الناس ونادى قتيبة من أتى برأس فله مائة فأتى برؤس كثيرة فجاء يومئذ أحد عشر رجلا من بنى قريع كل رجل برأس فيقال له من أنت فيقول قريعى فجاء رجل من الأزد برأس فقيل له من أنت؟ فقال : قريعى فعرفه جهم بن زحر فقال كذب والله إنه أزدى فقال له قتيبة ما دعاك إلى هذا فقال رأيت كل من جاء يقول قريعى فظننت أنه ينبغى لكل من جاء برأس أن يقوله فضحك قتيبة وجرح خاقان وابنه وفتح الله عليهم وكتب بالفتح إلى الحجاج .

ذكر صلح قتيبة مع الصغد

لما أوقع قتيبة بأهل بخارى هابه الصغد فرجع طرخون ملكهم ومعه فارسان فدنا من عسكر قتيبة وطلب رجلا يكلمه ، فأرسل إليه قتيبة حيان النبطى فطلب الصلح على فدية يؤديها إليهم فأجابه قتيبة إلى ما طلب ورجع طرخون إلى بلاده ورجع قتيبة ومعه نيزك .

ذكر غدر نيزك وفتح الطالقان

لما رجع قتيبة من بخارى ومعه نيزك وقد خاف لما يرى من الفتوح فقال لأصحابه أنا مع هذا يعني قتيبة ولست آمنه فلو استأذنته ، ورجعت كان الرأى قالوا أفعل فاستأذن قتيبة ، فأذن له وهو بآمل فرجع يريد طخارستان ، وأسرع السير حتى أتى النوبهار وقال لأصحابه لا أشك أن قتيبة قد ندم على إذنه وسيبعث إلى المغيرة ابن عبد الله يأمره بحبسى وندم قتيبة على إذنه له فأرسل إلى المغيرة يأمره بحبس نيزك وسار نيزك وتبعه المغيرة فوجده قد دخل شعب خلم فرجع المغيرة وأظهر نيزك الخلع ، وكتب إلى أصبهبذ بلخ وإلى باذان ملك مرو الروذ وإلى ملك الطالقان وإلى ملك الفرياب وإلى ملك الجوزجان يدعوهم إلى خلع قتيبة فأجابوا فواعدهم الربيع أن يجتمعوا ويغزوا قتيبة وكتب إلى كابل شاه يستظهر به ويبعث إليه بثقله وماله وسأله أن يأذن له أن اضطر إليه أن يأتيه فأجابه إلى ذلك وكان جبغويه ملك طخارستان ضعيفاً فأخذه نيزك فقيد بقيد من ذهب لئلا يخالف عليه وكان جبغويه هو الملك ونيزك عبده فاستوثق منه ، وأخرج عامل قتيبة من بلاد جبغويه وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء وقد تفرق الجند فبعث أخاه عبد الرحمن بن مسلم فى اثنى عشر ألفاً إلى البروقان ، وقال أقم بها ولا تحدث شيئاً فإذا انقضى الشتاء سر نحو طخارستان ، واعلم أنى قريب منك فسار فلما كان آخر الشتاء كتب قتيبة إلى نيسابور وغيرها من البلاد ليقدم عليه الجنود ، فقدموا قبل أوانهم فسار نحو الطالقان وكان ملكها قد خلع وطابق نيزك على الخلع فأتاه قتيبة فأوقع بأهل الطالقان فقتل من أهلها مقتلة عظيمة وصلب منهم سماطين أربعة فراسخ فى نظام واحد ، ثم استعمل على الطالقان أخاه عمرو ابن مسلم ثم سار إلى الفارياب فخرج إليه ملكها مذعناً فقبل منه ولم يقتل بها أحداً واستعمل عليها رجلا من أهله وبلغ ملك الجوزجان خبرهم فهرب إلى الجبال ، وسار قتيبة إلى الجوزجان فلقيه أهلها سامعين مطيعين فقبل منهم ولم يقتل بها أحداً ، واستعمل عليها عامر بن مالك الحمانى ثم أتى بلخ فلقيه أهلها فلم يقم بها إلا يوماً واحداً وسار يتبع أخاه عبد الرحمن إلى شعب خلم ، ومضى نيزك إلى بغلان ، وخلف مقاتلة على

فم الشعب ومضائقه ليمنعوه ووضع مقاتلته فى قلعة حصينة من وراء الشعب ، فأقام قتيبة أياما يقاتلهم على مضيق الشعب لا يقدر على دخوله ولا يعرف طريقا يسلكه إلى نيزك إلا الشعب أو مفازة لا تحتملها العساكر فبقى متحيراً ، فقدم إنسان فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة التى من وراء الشعب فأمنه قتيبة وبعث معه رجالا فانتهى بهم إلى القلعة من وراء شعب خلم فطرقوهم وهم آمنون فقتلوهم وهرب من بقى منهم ومن كان فى الشعب ، فدخل قتيبة الشعب فأتى القلعة ومضى إلى سمنجان فأقام بها أياما ، ثم سار إلى نيزك وقدم أخاه عبد الرحمن فارتحل نيزك من منزله فقطع وادى فرغانة ووجه ثقله وأمواله إلى كابل شاه ومضى حتى نزل الكرز وعبد الرحمن يتبعه فنزل عبد الرحمن حذاء الكرز ونزل قتيبة بمنزله بينه وبين عبد الرحمن فرسخان ، فتحصن نيزك فى الكرز وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد وهو صعب لا تطيقه الدواب فحصره قتيبة شهرين حتى قل ما فى يد نيزك من الطعام وأصابهم الجدرى وجدر جبغويه وخاف قتيبة الشتاء فدعا سليما الناصح وكان يصادق نيزك فقال انطلق إلى نيزك واحتل لتأتينى به من غير أمان فإن احتال وأبى فأمنه واعلم أنى إن عاينتك وليس هو معك صلبتك ، قال فاكتب إلى عبد الرحمن لا يخالفنى فكتب إليه فقدم عليه فقال له ابعث رجالا ليكونوا على فم الشعب فإذا خرجت أنا ونيزك فليعطفوا من ورائنا فيحولوا بيننا وبين الشعب ، فبعث عبد الرحمن خيلا فكانت هناك وحمل سليم معه أطعمة وأخبصة أوقاراً وأتى نيزك فقال له إنك أسأت إلى قتيبة وغدرت قال نيزك فما الرأى قال أرى أن تأتيه فإنه ليس ببارح وقد عزم على أن يشتو مكانه هلك أو سلم قال نيزك كيف آتيه على غير أمان قال ما أظنه يؤمنك لما فى نفسك عليك لأنك قد ملأته غيظا ، ولكنى أرى أن لا يعلم حتى تضع يدك فى يده فإنى أرجو أن يستحى ويعفو ، قال إنى أرى نفسى تأبى هذا وهو إن رآنى قتلنى فقال سليم : ما أتيتك إلا لأشير عليك بهذا ولو فعلت لرجوت أن تسلم وتعود حالك عنده فإذا أبيت فإنى منصرف وقدم سليم الطعام الذى معه ولا عهد لهم بمثله فانتهبه أصحاب نيزك فساءه ذلك ، فقال له

سليم إنى لك من الناصحين أرى أصحابك قد جهدوا وإن طال بهم الحصار لم آمنهم أن يستأمنوا بك فائت قتيبة فقال لا آمنه على نفسى ولا آتيه إلا بأمان وإن ظنى أن يقتلنى وإن أمننى ولكن الأمان أعذر إلى ، قال ابن خلدون ولم يزل يفتل له فى الذورة والغارب وهو يمتنع حتى قال وأنه قد أمنك ، وقوله ولم يزل الخ ، هو مثل من أمثال العرب يضرب فى الخداع والمماكرة اه ميدانى ، فقال سليم : قد أمنك أفتتهمنى ؟ قال لا ، وقال له أصحابه : أقبل قول سليم فلا يقول إلا حقاً فخرج معه ومع جبغويه وصول طرخان خليفة جبغويه ، وحبس طرخان صاحب شرطته وشقران ابن أخى نيزك فلما خرجوا من الشعب عطف الخيل التى خلفها سليم فحالوا بين الأتراك أصحاب نيزك والخروج فقال نيزك : هذا أول الغدر قال سليم تخلف هؤلاء عنك خير لك ، وأقبل سليم ونيزك ومن معه حتى دخلوا على قتيبة فحبسهم وكتب إلى الحجاج يستأذنه فى قتل نيزك ، واستخرج قتيبة ما كان فى الكرز من متاع ومن كان فيه فقدم به على قتيبة فانتظر بهم كتاب الحجاج فأتاه كتابه بعد أربعين يوما يأمره بقتل نيزك ، فدعا قتيبة الناس واستشارهم فى قتله واختلفوا فقال ، ضرار بن حصين إنى سمعتك تقول أعطيت الله عهداً أن أمكنك منه أن تقتله فإن لم تفعل فلا ينصرك الله عليه أبداً فدعا نيزك فضرب عنقه بيده ، وأمر بقتل صول وابن أخى نيزك وقتل من أصحابه سبعمائة ، وقتل اثنى عشر ألفاً وصلب نيزك وابن أخيه وبعث برأسه إلى الحجاج وأخذ الزبير مولى عباس الباهلى حقا لنيزك فيه جوهر فكان أكثر من بلاده مالا وعقاراً من ذلك الجوهر ، وأطلق قتيبة جبغويه ومن عليه وبعث به إلى الوليد فلم يزل بالشام حتى مات الوليد فلما قتل قتيبة نيزك رجع إلى مرو وأرسل ملك الجوزجان يطلب الأمان فأمنه على أن يأتيه فطلب رهنا ويعطى رهائن فأعطاه قتيبة حبيب بن عبدالله ابن حبيب بن محمد وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته وقدم على قتيبة ثم رجع فمات بطالقان فقال أهل الجوزجان أنهم سموه فقتلوا حبيبا وقتل قتيبة الرهائن الذين كانوا عنده وذلك سنة إحدى وتسعين .

ذكر قتل زاهر ملك السند وفتح السند

قد تقدم ذكر أول غزو المسلمين فى السند فى سنة ثلاث وأربعين فى خلافة عثمان رضى الله عنه وأن عبد الله بن عامر استعمل على ثغر السند عبد الله بن سوار العبدى وفى سنة أربع وأربعين غزا المهلب بن أبى صفرة ثغر السند عاملا للحكم ابن عمرو الغفارى حين كان على خراسان ، وفى سنة خمس وسبعين كان على خراسان ، وفى سنة خمس وسبعين كان على ثغر السند مجاعة بن مسعر التميمى من قبل الحجاج ، وفى سنة تسع وثمانين تم فتح بقية السند المسلمين على يد محمد بن القاسم بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى ابن عم الحجاج لأن الحجاج هو ابن يوسف بن الحكم فيجتمع هو والحجاج فى الحكم بن أبى عقيل . ولى الحجاج محمد بن القاسم المذكور واستعمله على ذلك الثغر وسير معه ستة آلاف مقاتل وجهزه بكل مايحتاج إليه حتى المال والإبر والخيوط فسار محمد إلى مكران فأقام بها أياما ثم أتى فنزبور ففتحها ثم سار إلى ارمائيل ففتحها ، ثم سار إلى الدبيل فقدمها يوم الجمعة ووافته سفن كان حمل فيها الرجال والسلاح والاداة فخندق حين نزل الدبيل وأنزل الناس منازلهم ونصب منجنيقا يقال له العروس كان يمد به خمسمائة رجل وكان بالدبيل بدعظيم والبد صنم فى بناء عظيم وكان تحت منارة عظيمة مرتفعة ، وفى رأس المنارة دقل عظيم ، وعلى الدقل راية حمراء إذا هبت الريح أطافت بالمدينة ، وكانت تدور وكل ما يعبد فهو عندهم بد فحصر الدبيل وطال حصارها فرمى الدقل بحجر العروس فكسره فتطير الكفار بذلك ثم خرجوا إليه فناهضهم القتال فهزمهم حتى ردهم إلى البلد وأمر بالسلاليم فنصبت فصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل فيها ثلاثة أيام وهرب عامل ذاهر ملك السند عنها وأنزلها محمد بن القاسم أربعة آلاف من المسلمين وبنى جامعها وسار عنها إلى البيرون ، وكان أهلها بعثوا إلى الحجاج فصالحوه ، فلقوا محمد بالميرة وأدخلوه مدينتهم ، ثم سار عنها فجعل لايمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهرا دون مهران فأتاه أهل سربيلس فصالحوه ووظف عليهم الخراج ، ثم عبر نهر مهران واستعد ملك السند لمحاربته واسمه زاهر بن صمصمة ، ثم عقد الجسر على النهر فقاتله ذاهر وهو على فيل.

وحوله الفيلة ومعه التكاكرة وهم قواد السند فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع بمثله وترجل داهر فقاتل حتى قتل عند المساء ثم انهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاءوا فلما قتل داهر لحقت امرأة داهر بمدينة راور فساروا إليها وخافته فأحرقت نفسها وجواريها وملك المدينة ولحق المنهزمون بمدينة برهمناباذ العتيقة ففتحها عنوة وقتل من وجد بها وخربها ، ثم استولى على مدائن السند واحدة واحدة وقطع نهر بياس إلى الملتان فحاصرها وقطع الماء عنها فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وقتل سدنة البد وهم ستة آلاف وأصابوا ذهباً كثيراً ؛ فجمع فى بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع يلقى إليه من كوة فى وسطه وسميت الملتان فرج بيت الذهب والفرج الثغر ، وكان بد الملتان يهدى إليه الأموال ويحج من البلاد ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ويزعمون صنمه هو أيوب النبى صلى الله عليه وسلم وعظمت فتوح بن محمد بن القاسم ونظر الحجاج فى النفقة على ذلك الثغر فكان ستين ألف ألف درهم ونظر فى الخمس الذى حمل إليه فكان مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف فقال ربحنا النصف وهو ستون ألف ألف وأدركنا ثأرنا ورأس داهر . ولما مات الحجاج سنة خمس وتسعين كان محمد بن القاسم بالملتان فأتاه خبر وفاته فرجع إلى الرور والبغرور ، وكان قد فتحهما فأعطى الناس ووجه إلى البيلمان جيشاً فلم يقاتلوا أو أعطو الطاعة ، ثم أتى محمد الكيرج فخرج إليه دوهر فقاتله فانهزم دوهر وقيل بل قتل ونزل أهل المدينة على حكم محمد فقتل وسبى ومات الوليد ابن عبد الملك وولى أخوه سليمان فعزل محمد بن القاسم عن السند وولاها يزيد ابن أبى كبشة السكسكى فأخذ محمداً وقيده وحمله إلى العراق ، فبكى أهل السند على محمد فلما وصل إلى العراق حبسه صالح بن عبد الرحمن بواسط فعذبه صالح ثم قتله وكان الحجاج قتل آدم صالح ، وكان يرى رأى الخوارج ومات يزيد بن أبى كبشة بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوما واستعمل سليمان بن عبد الملك على السند حبيب ابن المهلب ؛ فقدمها ، وقد رجع ملوك السند إلى ممالكهم وغلبوا عليها فنزل حبيب على شاطىء مهران فأعطاه أهل الرور الطاعة وحارب قوما فظفر بهم ؛ ثم مات سليمان واستخلف عمر بن عبد العزيز فكتب إلى الملوك يدعوهم

إلى الإسلام والطاعة على أن تملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فأسلم جيشبة بن ذاهر والملوك ، وتسموا بأسماء العرب وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر بن عبد العزيز على ذلك الثغر .

ذكر غزو الهند وفتحه

لما كان عمرو بن مسلم الباهلي عاملا لعمر بن عبد العزيز على السند غزا بعض الهند فظفر ثم إن الجنيد بن عبد الرحمن المرى ولى السند أيام هشام إن عبد الملك فأتى الجنيد شط مهران فمنعه جيشبة بن ذاهر العبور وأرسل إليه إنى قد أسلمت وولانى الرجل الصالح بلادى ولست آمنك فأعطاه رهنا وأخذ منه رهناً على خراج بلاده ، ثم ترادوا وكفر جيشبة وحارب وقيل أنه لم يحارب ولكن الجنيد تجنى عليه فأتى الهند وجمع جموعاً ، وأعد السفن ، واستعد للحرب ، فسار إليه الجنيد بالسفن فالتقوا فى بطيحة ، فأخذ جيشبة أسير فقتله وهرب صصة ابن ذاهر وهو يريد أن يمضى إلى العراق ويشكو غدر الجنيد فلم يزل الجنيد يؤنسه حتى وضع يده فى يده فقتله وكان ذلك سنة سبع ومائة وغزا الجنيد الكيرج من آخر الهند ، وكانوا قد نقضوا فاتخذ كباشاً وصك بها سور المدينة والكباش آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الحبل فتدق الحائط فينهدم ، فلما صك الصور بالكباش ثلمة فدخلها : فقتل وسبى ووجه العمال إلى المرمذ والمندل ، ودهنج وبروبج ، وبعث جيشاً إلى أزين فأغاروا عليها وحرقوا ربضها وفتح البيلمان وحصل عنده سوى ما حمل أربعون ألف ألف وحمل مثلها وولى الجنيد الهند تميم ابن زيد القينى فضعف ووهن ، ثم مات ، وفى أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم ثم ولى الحكم بن عوام الكلبى وقد كفر أهل الهند إلا أهل قصة فبنى مدينة سماها المحفوظة وجعلها مأوى للمسلمين ، وكان معه عمر بن محمد بن القاسم الثقفى وكان يفوض إليه عظيم الأمور فأغزاه من المحفوظة فلما قدم عليه وقد ظفر أمره فبنى مدينة سماها المنصورة فهى التى ينزلها الأمراء واستخلص ما كان قد غلب عليه العدو ورضى الناس بولايته ثم قتل الحكم وكان العمال يقاتلون العدو فكانوا يفتتحون ناحية ويأخذون ما تيسر لهم لضعف الدولة الأموية بعد ذلك إلى أن جاءت الدولة العباسية .

ذكر فتوحات موسى بن نصير بأفريقية

فى سنة تسع وثمانين استعمل الوليد على أفريقية موسى بن نصير فوصل إلى أفريقية وكان البربر قد طمعوا فى البلاد وبلغه أن بأطراف البلاد قوماً خارجين عن الطاعة فوجه إليهم ابنه عبد الله فقاتلهم فظفر بهم وسبى منهم ألف رأس وسير ابنه أيضاً فى البحر إلى جزيرة ميورقة فنهبها وغنم منها مالا يحصى وعاد سالماً فوجه ابنه هارون إلى طائفة أخرى فظفر بهم وسبى منهم نحو ذلك وتوجه هو بنفسه إلى طائفة أخرى فغنم نحو ذلك ، فبلغ الخمس ستين ألف رأس من السبى ولم يذكر أحد أنه سمع بسبى أعظم من هذا ثم إن أفريقية قحطت واشتد بها الغلاء فاستسقى الناس وخطبهم ولم يذكر الوليد فقيل له فى ذلك فقال هذا مقام لا يدعى فيه لأحد ولا يذكر إلا الله عز وجل فسقى الناس ورخصت الأسعار ، ثم خرج غازيا إلى طنجة يريد من بقى من البربر وقد هربوا خوفاً منه فتبعهم وقتلهم قتلا ذريعاً حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد فاستأمن البربر إليه وأطاعوه واستعمل على طنجة مولاه طارق بن زياد وجعل معه جيشاً كثيفاً جلهم البربر وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض، وعاد إلى أفريقية فمر بقلعة مجانة فتحصن أهلها منه وترك عليها من يحاصرها حتى فتحت وحينئذ لم يبق له فى أفريقية من ينازعه ، وقيل كانت ولاية موسى سنة ثمان وسبعين استعمله عليها عبد العزيز بن مروان وهو حينئذ على مصر لأخيه عبد الملك ، وفى هذه السنة أعنى تسعاً وثمانين غزا مسلمة بن عبد الملك الترك من ناحية اذربيجان ففتح حصونا ومدائن هناك وغزا مسلمة أيضاً أرض الروم سنة تسعين ففتح حصوناً خمسة وغزا العباس بن الوليد حتى بلغ ارذن .

ذكر غزوة قتيبة بن مسلم شومان وكش ونسف

فى سنة إحدى وتسعين سار قتيبة إلى شومان فحصرها وكان سبب ذلك أن ملكها طرد عامل قتيبة من عنده فأرسل إليه قتيبة رسولين أحدهما من العرب اسمه عياش والآخر من أهل خراسان يدعوان ملك شومان أن يؤدى ما كان صالح عليه فقدما على شومان ،

فخرج أهلها إليهما فرموهما فانصرف الخراسانى وقاتلهم عياش فقتلوه ووجدوا به ستين جراحة وبلغ قتله قتيبة فسار إليهم بنفسه ، فلما أتاها أرسل أخاه صالح بن مسلم إلى ملكها، وكان صديقاً له يأمره بالطاعة ويضمن له رضا قتيبة إن رجع إلى الصلح فأبى وقال لرسول صالح أتخوفنى من قتيبة وأنا أمنع الملوك حصناً فأتاه قتيبة وقد تحصن ببلده فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن فهشمه ، وقتل رجل فى مجلس الملك بحجر فلما خاف أن يظهر عليه قتيبة جمع ما كان فى الحصن من مال وجوهر ورمى به فى بئر بالقلعة لا يدرك قعرها ثم فتح القلعة وخرج إليهم فقاتلهم حتى قتل وأخذ قتيبة القلعة عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية ثم سار إلى كش ونسف ففتحهما وامتنعت عليه فارياب فأحرقها فسميت المحترقة وسير من كش ونسف أخاه عبد الرحمن إلى الصغد وكان ملكها طرخون فقبض عبد الرحمن من طرخون ما كان صالحه عليه قتيبة ودفع إليه رهناً كان معه ، ورجع إلى قتيبة ببخارى وكان قد سار إليها من كش ونسف فرجعوا إلى مرو ولما كان قتيبه ببخارى تملك بخارى خذاه وكان غلاما حدثا وقتل من يخاف أن يضاده وقيل إن قتيبة سار بنفسه إلى الصغد، فلما رجع عنهم قالت الصغد لطرخون إنك رضيت بالذل واستطبت الجزية وأنت شيخ كبير لا حاجة لنا فيك ، فحبسوه وولوا غوزك فقتل طرخون نفسه وفى هذه السنة غزا عبد العزيز بن الوليد الصائفة ، وفيها عزل الوليد عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأرمينية واستعمل عليها أخاه مسلمة بن عبد الملك فغزا مسلمة الترك من ناحية اذربيجان حتى بلغ الباب وفتح مدائن وحصونا ونصب عليها المجانيق وغزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم فى سنة ثنتين وتسعين ، ففتح حصوناً ثلاثة ، وجلا أهل سوسنة إلى بلاد الروم .

ذكر فتح الأندلس

فى سنة اثنتين وتسعين فى خلافة الوليد بن عبد الملك غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير الأندلس فى إثنى عشر ألفا وكانوا قبل ذلك سبعة آلاف فنزلوا جبل طارق ثم أمدهم موسى بخمسة آلاف فصاروا إثنى عشر ألفاً فلقى ملك الأندلس بعد أن جمع

جيوشه فى أعمال شذونة فزحف له طارق بجميع من معه وزحف الملك وكان جيشه مائة ألف واتصلت الحرب ثمانية أيام ، ثم قتل ملكهم قتله طارق بيده وهزم الله الكفار وسار طارق متبعا لهم فأدرك خلقاً من المنهزمين فقاتلوه قتالا شديداً ثم انهزموا ولم يلق المسلمون بعدها حربا مثلها ولم تقف هزيمة العدو على موضع بل كانوا يسلمون له بلداً بلداً ومعقلا معقلا فتوغل فى بلاد الأندلس وفتحها مدينة بعد مدينة ، والكلام على ذلك يطول ، وهو مبسوط فى التواريخ واستقامت الأمور هناك وعلا الإسلام ، وأما القتلى من الكفار من أول الفتح إلى آخره فشىء كثير لا يمكن إحصاؤه والقتل من المسلمين بالنسبة لذلك قليل جداً ، وأما الغنائم من الذهب والفضة والخيل والجواهر والاثاث وبقية الأشياء فشىء كثير لا يمكن حصره ولا ضبطه وكانت توجد الطنفسة منسوجة بقضبان الذهب ، وتنظم السلسلة من الذهب باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ، فكان الجند إذا وجدوها لا يستطيعون حملها فيأتون بالفأس فيضربون به وسطها فيأخذ أحدهم نصفها والآخر النصف الآخر ومما وجد فى تلك الغنائم مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الجواهر الثمينة ووجد فيها ألف سيف ملوكى مرصعة بالجواهر ووجد فيها من الدر والياقوت أكيال من أوانى الذهب والفضة ما لايحيط به وصف ومما وجدوه مائدة سليمان عليه السلام ، قيل إنها من منهوبات بخت نصر لما خرب بيت المقدس ، وقيل إنها لم تكن لسليمان ، وإنما أصلها أن العجم فى أيام ملكهم كان أهل الثروة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فصاغوا من من ذلك المال تلك المائدة وكانت مصوغة من الذهب ، وقيل من الذهب والفضة مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد لم ير الراؤن مثلها وكان عليها طوق لؤلؤ وطوق ياقوت وطوق زمرد كلها مكللة بالجواهر وحافاتها وأرجلها منها وكان لها ثلاثمائة وستون رجلا وقيل خمسة وستون فحملت إلى الوليد ومعها ثلاثون ألف رأس من السبى ومن الذهب والفضة والجواهر ونفائس الأمتعة مالا يقدر قدره ، وكان ابتداء القتال والفتح لليلتين بقيتا من رمضان سنة اثنتين وتسعين ، والتحق موسى بن نصير بمولاه طارق بن زياد فى رمضان سنة ثلاث وتسعين ومعه ثمانية عشر ألفا وتوغلا فى الأندلس إلى أن وصلوا إلى الجبل

بلاد الإفرنج فنمى الخبر إلى الوليد بن عبد الملك واشتد قلقه على المسلمين فبعث إليهم يأمرهم بالرجوع ، قيل انهم انتهوا إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار ، فأصابوا فيها صنما عظيما قائما كالسارية مكتوبا فيه بالنقر كتابة عربية قرئت فإذا فيها يابنى إسماعيل انتهيتم ، فارجعوا وإن سألتم إلى ماذا ترجعون أخبرتكم أنكم ترجعون إلى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق بعض وقد فعلتم ، فرجعوا سنة خمس وتسعين وولى موسى على أفريقية ابنه عبدالله وعلى الأندلس ابنه عبد العزيز وعلى طنجة ابنه عبد الملك فصار جميع الأندلس والمغرب بين أولاده ورجع هو ومولاه طارق قيل كان رجوعهم قبل وفاة الوليد وقيل بل كان بعد موت الوليد وولاية سليمان وقيل قدموا والوليد مريض مرض الموت ثم اتسع أمر المسلمين بالأندلس وصار لهم ملك ضخم ، ثم استولى عليها النصارى شيئا فشيئا إلى سنة تسعمائة وأربع ، فاستولوا عليها جميعا وبقى قليل من المسلمين لا ناصر لهم قاموا فى بعض الجبال على النصارى ثم تقووا عليهم وأخرجوهم وكان آخرهم خروجاً سنة ألف وعشر وأسأل الله أن يهيىء للاسلام من ينصره حتى يسترجع ما استولى عليه الكفار .

ذكر غرق المسلمين الذين حصل منهم غلول فى غنائم الأندلس

لما فتح موسى بلاد الأندلس سير طائفة من عسكره فى البحر إلى جزيرة سردانية . وهى فى بحر الروم من أكبر الجزائر كثيرة الفواكه ، فدخلها المسلمون وعمد النصارى إلى مالهم من آنية ذهب وفضة فألقوا الجميع فى الميناء التى لهم وجعلوا أموالهم فى سقف بنوه للبيعة العظمى التى لهم تحت السقف الأول وغنم المسلمون فيها مالا يحد ولا يوصف ، وأكثروا الغلول فاتفق أن رجلا اغتسل فى الميناء فعلقت رجله فى شىء ، فأخرجه فإذا صحفة من فضة فأخذ المسلمون جميع ما فى الميناء ، ثم دخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة فنظر إلى حمام فى سقف الكنيسة فرماه بسهم فأخطأه ووقع فى السقف وانكسر لوح فنزل منه شىء من الدنانير فاستخرج المسلمون جميع ما كان فى السقف وأخذوه وازدادوا

غلولا ، فكان بعضهم يذبح الهرة ويرمى ما فى جوفها ويملأ جلدها دنانير ويخيط عليه ويلقيه فى الطريق ، فإذا خرج أخذها وكان يضع قائم سيفه على الجفن ويملؤه ذهبا ، فلما ركبوا فى البحر سمعوا قائلا يقول : اللهم غرقهم فغرقوا عن آخرهم فوجدوا أكثر الغرق والدنانير على أوساطهم . وفى سنة خمس وثلاثين ومائة غزا هذه الجزيرة عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى وكان على الأندلس فقتل من بها قتلا ذريعاً ، ثم صالحوه على الجزية فأخذت منهم ثم منعوا وبقيت لم يغزها أحد بعده فعمرها الروم ، فلما كانت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة أخرج إليها المنصور بن القائم العلوى صاحب أفريقية أسطولا من المهدية فمروا بجنوة ففتحوا المدينة وأوقعوا بأهل سردانية وسبوا فيها وأحرقوا مراكب كثيرة وأخربوا جنوة وغنموا ما فيها . وفى سنة ست وأربعمائة غزاها محمد العامرى من الأندلس وكان صاحبها فى البحر فى مائة وعشرين مركباً ففتحها وقتل فأكثر وسبى النساء والذرية فسمع بذلك ملوك الروم فجمعوا إليه وساروا إليه من البر الكبير فى جمع عظيم فاقتتلوا وانهزم المسلمون وأخرجوا من جزيرة سردانية ولم يغز بعد ذلك .

ذكر غزوة سجستان

وفى سنة اثنتين وتسعين غزا قتيبة بن مسلم سجستان وأراد قصد رتبيل الأعظم ، فلما نزل قتيبة سجستان أرسل رتبيل إليه رسلا بالصلح فقبل ذلك وانصرف واستعمل عليهم عبد ربه بن عبد الله الليثى .

ذكر صلح خوارزم شاه وفتح خام جرد

فى سنة ثلاث وتسعين صالح قتيبة بن مسلم خوارزم شاه وكان سبب ذلك أن ملك خوارزم كان ضعيفاً فغلبه أخوه خرزاد على أمره وكان أصغر منه وكان إذا بلغه أن عند أحد ممن هو منقطع إلى الملك جارية أو مالا أو دابة أو بنتاً أو أختاً أو امرأة جميلة أرسل إليه وأخذه منه وكان لا يمتنع عليه أحد ولا الملك فإذا قيل للملك قال لا أقوى به وهو مغتاظ عليه ، فلما طال ذلك عليه كتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه ليسلمها له واشترط عليه

أن يدفع إليه أخاه وكل من يضاده ليحكم فيهم بما يرى ولم يطلع أحداً من مرازبته على ذلك فأجابه قتيبة إلى ماطلب وتجهز للغزو وأظهر قتيبة أنه يريد الصغد وسار من مرو وجمع خوارزم شاه أجناده ودهاقينه ، وقال إن قتيبة يريد الصغد وليس بغازيكم فهلموا نتنعم فى ربيعنا هذا فأقبلوا على الشرب والتنعم فلم يشعروا حتى نزل قتيبة فى هزارسب فقال خوارزم شاه لأصحابه ماترون قالوا نرى نقاتله قال لكنى لا أرى ذلك لأنه قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة ، ولكنى أصرفه بشىء أؤديه إليه فأجابوه إلى ذلك ، فسار خوارزم شاه ونزل بمدينة الفيل من وراء النهر وهى أحصن بلاده وقتيبة لم يعبر النهر ، فأرسل إليه خورزام شاه فصالحه على عشرة آلاف رأس وعين ومتاع وعلى أن يعينه على خام جرد فقبل قتيبة ذلك ، وقيل صالحه على مائة ألف رأس ، ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى خام جرد وكان أحد أعداء خوارزم شاه وكان يغازى خوارزم شاه فقاتله فقتله عبد الرحمن وغلب على أرضه وقدم منهم بأربعة آلاف أسير فقتلهم قتيبة وسلم قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه فقتلهم ودفع أموالهم إلى قتيبة .

ذكر فتح سمرقند

لما قبض قتيبة صلح خوارزم شاه قام إليه المجشر بن مزاحم السلمى فقال له سراً إن أردت الصغد يوماً من الدهر فالآن فإنهم آمنون من أن يأتيهم عامل وإنما بينك وبينهم عشرة أيام فقال ، أأشار عليك بهذا أحد قال لا ، قال أفسمعه منك أحد قال لا قال والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك ، فلما كان الغد أمر أخاه عبد الرحمن فسار فى الفرسان والرماة وقدم الأثقال إلى مرو فسار يومه ، فلما أمسى كتب قتيبة إذا أصبحت ، فوجه الأثقال إلى مرو وسر بالفرسان والرماة إلى الصغد واكتم الأخبار فإنى فى الأثر ، ففعل عبد الرحمن ما أمره وخطب قتيبة الناس وقال لهم أن الصغد شاغرة برجلها وقد نقضوا العهد الذى بيننا وصنعوا ما بلغكم وإنى أرجو أن تكون خوارزم والصغد كقريظة والنضير ، ثم سار فأتى الصغد فبلغها بعد عبد الرحمن بثلاث أو أربع فحصرهم بسمرقند شهراً واستجاشوا ملك الشاش وأخشاد خاقان وفرغانة وكتبوا لهم إن العرب

إن ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها» فنظروا وقالوا إنما نؤتى من سفلتنا فإنهم لا يجدون كجدنا فانتخبوا أهل النجدة من أبناء الملوك والمرازبة والأساورة والأبطال وولوا عليهم ابن خاقان ، وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة فيبيتوه فإنه مشغول بحصار سمرقند فساروا ، وبلغ قتيبة الخبر فانتخب من عسكره ستمائة فارس من الشجعان وبعث بهم أخاه صالح بن مسلم ، وأمرهم بالمسير إلى عدوهم فساروا فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم ، فجعل صالح له كمينين ، فلما مضى نصف الليل جاءهم عدوهم ، فلما رأوا صالحاً حملوا عليه فلما اقتتلوا شد الكمينان عن يمين وشمال فلم ير قوم كانوا أشد من أولئك ، قال بعض أصحاب صالح إنا لنقاتلهم فى الليل إذ رأيت قتيبة وقد جاء سراً فضرب ضربة أعجبتنى فقلت كيف ترى بأبى وأمى قال اسكت فض الله فاك ثم قاتلوهم أشد القتال فهزموهم وقتلوهم وقتلوا ابن خاقان ولم يفلت منهم إلا الشريد وحوينا أسلابهم وسلاحهم واحتززنا رؤسهم وأسرنا منهم أسرى ، فسألناهم عمن قتلنا فقالوا ماقتلتم إلا ابن ملك أو عظيما أو بطلا كان الرجل منهم يعد بمائة فجمعوا له جموعاً وأرادوا قتاله ، فوجه قتيبة جموعا إلى خوارزم مع المغيرة بن عبد الله وعزل إياساً من سمرقند وولى أخاه عبد الله بن مسلم ، فلما قدم المغيرة على سمرقند خشى ملكهم من أبناء الذين كان قتلهم ففر إلى بلاد الترك وجاء المغيرة فقتل وسبى وملك خوارزم وصالحه الباقون على الجزية .

ذكر غزوة قتيبة الشاش وفرغانة

فى سنة أربع وتسعين قطع قتيبة النهر وفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل ، فساروا معه فوجههم إلى الشاش وتوجه هو إلى فرغانة فأتى خجندة فجمع له أهلها جموعاً واقتتلوا معه مراراً كل ذلك يكون ظفر للمسلمين ، ثم أن قتيبة أتى كاشان مدينة فرغانة وأتاه الجنود الذين وجههم إلى الشاش ، وقد فتحوها وأحرقوا أكثرها وانصرف إلى مرو . وفى هذه السنة غزا العباس بن الوليد أرض

الروم ، ففتح أنطاكية ، وفيها غزا عبد العزيز بن الوليد غزالة و بلغ والوليد بن هشام المعيطى برج الحمام ويزيد بن أبى كبشة أرض سورية .

ذكر غزوة الشاش

فى سنة خمس وتسعين بعث الحجاج بجيش من العراق إلى قتيبة فغزا بهم الشاش فلما كان بشاش أو بكشماهان أتاه موت الحجاج فى شوال فغمه ذلك ورجع إلى مرو وتفرق الناس فأتاه كتاب الوليد قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك فى جهاد أعـداء المسلمين وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك فأتم مغازيك وانتظر ثواب ربك ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأنى أنظر إلى بلائك والثغر الذى أنت فيه وفى هذه السنة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح هرقلة وفيها فتح آخر الهند إلا الكيرج والمندل وقد تقدم ذكر ذلك وفى هذه السنة افتتح العباس بن الوليد قنسرين .

ذكر فتح قتيبة مدينة كاشغر

فى سنة ست وتسعين غزا قتيبة كاشغر ، فسار وحمل مع الناس عيالاتهم ليضعهم بسمرقند ، فلما عبر النهر استعمل رجلا على معبر النهر ليمنع من يرجع إلا بجواز منه ومضى إلى فرغانة ، وأرسل إلى شعب عصام من يسهل الطريق إلى كاشغر وهى أدنى مدائن الصين وبعث جيشا مع كبير بن فلان إلى كاشغر فغنم وسبى سبيا فختم أعناقهم وأوغل حتى بلغ قريب الصين ، فكتب إليه ملك الصين أن أبعث إلى رجلا شريفا يخبرنى عنكم وعن دينكم ، فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وغير ذلك وخيول حسنة وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابى ، فقال لهم إذا دخلتم عليه فأعلموه أنى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أطأ بلادهم وأختم ملوكهم وأجبى خراجهم ، فساروا وعليهم هبيرة فلما قدموا عليه دعاهم ملك الصين فلبسوا ثيابا بياضا تحتها الغلائل وتطيبوا ولبسوا

النعال والأردية ودخلوا عليه وعنده عظماء قومه ، فجلسوا فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده فنهضوا فقال الملك لمن حضره كيف رأيتم هؤلاء ، فقالوا رأينا قوما ماهم إلا نساء مابقى منا أحد إلا انتشر ماعنده ، فلما كان الغد دعاهم فلبسوا الوشى والعمائم الخز والمطارف وغدوا عليه فلما دخلوا قيل لهم ارجعوا ، وقال لأصحابه كيف رأيتم هذه الهيئة قالوا هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك ، فلما كان اليوم الثالث دعاهم فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر وأخذوا السيوف والرماح والقسى وركبوا فنظر إليهم ملك الصين فرأى مثل الجبل ، فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمرين فقيل لهم ارجعوا فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون فقال الملك لأصحابه كيف ترونهم ، فقالوا ماراًينا مثل هؤلاء ، فلما أمسى بعث إليهم أن ابعثوا إلى زعيمكم ، فبعثوا إليه هبيرة بن مشمرج فقال له قد رأيتم عظيم ملكى وإنه ليس أحد يمنعكم منى ، وأنتم فى يدى بمنزلة البيضة فى كفى ، وإنى سائلكم عن أمر فإن لم تصدقونى قتلتكم ، قال سل قال لم صنعتم بزيكم الأول اليوم الأول والثانى والثالث ماصنعتم قال أما زينا اليوم الأول فلباسنا فى أهلنا وأما اليوم الثانى فزينا إذا أتينا أمراءنا ، وأما الثالث فزينا لعدونا قال ماأحسن مادبرتم دهركم فقولوا لصاحبكم ينصرف فإنى قد عرفت قلة أصحابه وإلا بعثت عليكم من يهلككم ، قالوا كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون يعنون الشام وأما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل ولسنا نكرهه ولا نخافه ، وقد حلف أميرنا أن لاينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم وتعطوا الجزية ، قال فإنا نخرجه من يمينه ونبعث تراب أرضنا فيطؤه ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ، ثم بعث إليه بهديه وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم وشىء من تراب أرضهم ، وأجاز العشرة الوافدين فأحسن جائزتهم فقدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ووصل الخبر إلى قتيبة فى هذه الغزوة بموت الوليد فرجع .

ذكر مقتل قتيبة بن مسلم

كان قتيبة فحل عمال الدولة الأموية والحجاج فرعونها ، ومكث قتيبة على خراسان ثلاث عشرة سنة ، وفتح كثيراً من المدائن التي كانت فتحت قبله ثم كفر أهلها وتغلبوا ، فقاتلهم حتى فتحها ، وفتح غيرها أيضاً كما تقدم . وفى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين قتل وعمره سبع وأربعون سنة ، وسبب قتله موافقته للوليد بن عبد الملك حين أراد خلع أخيه سليمان وذلك أن عبد الملك بن مروان عهد بالخلافة لابنه الوليد ، ثم من بعده لأخيه سليمان ، فأراد الوليد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لابنه عبد العزيز فلم يوافقه على ذلك إلا الحجاج وقتيبة بن مسلم ثم مات الحجاج ثم مات الوليد ولم يتمكن من خلع أخيه فبويع لأخيه سليمان فخاف قتيبة منه وكان سليمان بن عبد الملك صديقاً ليزيد بن المهلب ، فخاف قتيبة أن يعزله ويولى يزيد بن المهلب فدعا الناس لخلع سليمان ، وكان قتيبة قد عزل وكيع ابن حسان عن رئاسة بنى تميم وصيرها لضرار بن حصين الضبي ، فلما أراد خلع سليمان لم يوافقه وكيع وتجمع معه كثير من قومه ، فثار من ذلك فتنة بين المسلمين بخراسان يطول الكلام بذكرها فقتل فيها قتيبة وقتل معه من أهله أخوته عبد الرحمن وعبد الله وصالح وحصين وعبد الكريم ومسلم وقتل كثير ابنه ، وكان عدة من قتل مع قتيبة من أهل بيته أحد عشر رجلا ونجا عمر بن مسلم أخو قتيبة وحمل رأس قتيبة ورؤس أهل بيته إلى سليمان بن عبد الملك ، وقام بالأمر بخراسان وكيع بن حسان تسعة أشهر ولما قتل قتيبة ، قال رجل من أهل خراسان يا معشر العرب : قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات لجعلناه فى تابوت فكنا نستقى به ونستفتح به ، وفى هذه السنة جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية واستعمل ابنه داود على الصائفة ففتح حصن المرأة وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الوضاحية ففتح الحصن الذى فتحه الوضاح صاحب الوضاحية وفيها غزا عمر بن هبيرة أرض الروم فى البحر فشتى بها .

ذكر ولاية يزيد بن المهلب خراسان

كان سليمان بن عبد الملك ولى يزيد بن المهلب العراق وبعد مقتل قتيبة بتسعة أشهر ولاه خراسان فأقام عمالا له بالعراق وتوجه إلى خراسان .

ذكر فتح جرجان وطبرستان

فى سنة ثمان وتسعين غزا يزيد بن المهلب جرجان وطبرستان ، لما قدم خراسان وسبب غزوهما واهتمامه بهما أنه لما كان عند سليمان بن عبد الملك بالشام كان سليمان كلما فتح قتيبة فتحاً يقول ليزيد ألا ترى ما يفتح الله على قتيبة فيقول يزيد ما فعلت جرجان التي قطعت الطريق وأفسدت قومس ونيسابور ، ويقول هذه الفتوح ليست بشيء الشأن هي جرجان ولم تكن جرجان يومئذ مدينة إنما هي جبال ومخارم وأبواب يقوم الرجل على باب منها فلا يقدم عليه أحد فلما ولاه سليمان خراسان لم يكن له همة غير جرجان ، فسار إليها فى مائة ألف من أهل الشام والعراق وخراسان سوى الموالى والمتطوعة فابتدأ بقهستان فحاصرها ، وكان أهلها طائفة من الترك وكان أهلها يخرجون ويقاتلون فيهزمهم المسلمون فى كل ذلك فإذا هزموا دخلوا الحصن ، فخرجوا ذات يوم وخرج إليهم الناس فاقتتلوا قتالا شديداً ، ثم انهزموا ودخلوا الحصن ، ثم ألح عليهم القتال وقطع عنهم المواد واشتد عليهم الحصار فطلب الصلح صول دهقان قهستان على أن يؤمنه على نفسه وأهله وماله ليدفع له المدينة بما فيها ، فصالحه ووفى له ودخل المدينة فأخذ مما كان فيها من الأموال والكنوز والسبى مالا يحصى ، وقتل أربعة عشر ألف تركى صبراً وكتب إلى سليمان بن عبد الملك بذلك ، ثم خرج حتى أتى جرجان وكان أهل جرجان قد صالحهم سعيد بن العاص ، وكانوا يجبون أحياناً مائة ألف وأحياناً مائتى ألف وأحياناً ثلاثمائة ألف وربما أعطوا ذلك وربما منعوه ثم امتنعوا وكفروا فلم يعطوا خراجاً ولم يأت جرجان بعد سعيد أحد ومنعوا ذلك الطريق ، فلم يكن يسلك طريق خراسان أحد إلا على فارس وكرمان وأول من صير الطريق من قومس قتيبة بن مسلم حين ولى خراسان وبقى أمر جرجان

كذلك حتى ولى يزيد بن المهلب، فأتاهم فاستقبلوه بالصلح وزادوه وهابوه ، فأجابهم إلى ذلك وصالحهم ، فلما فتح قهستان وجرجان طمع فى طبرستان أن يفتحها فعزم على أن يسير إليها ، فاستعمل عبد الله بن المعمر اليشكرى على ساسان وقهستان وخلف معه أربعة آلاف ، ثم أقبل إلى أدنى جرجان مما يلى طبرستان فاستعمل على إيز وسار راشداً بن عمر وجعله فى أربعة آلاف ودخل بلاد طبرستان ، فأرسل إليه الأصبهبذ صاحبها يسأله الصلح وأن يخرج من طبرستان فأبى يزيد ورجى أن يفتحها ، ووجه أخاه أبا عيينة من وجه وابنه خالد بن يزيد من وجه وأبا الجهم الكلبى من وجه ومع كل منهم جيش وقال : إذا اجتمعتم فأبو عيينة على الناس فسار أبو عيينة وأقام يزيد معسكراً واستجاش الاصبهبذ أهل جيلان والديلم، فأتوه فالتقوا فى سفح الجبل فانهزم المشركون فى الجبل وتبعهم المسلمون حتى انتهوا إلى فم الشعب فدخل المسلمون وصعد المشركون فى الجبل ، وأتبعهم المسلمون يرومون الصعود ، فرماهم العدو بالنشاب والحجارة فانهزم أبو عيينة والمسلمون يركب بعضهم بعضاً يتساقطون فى الجبل حتى انتهوا إلى عسكر يزيد وكف عدوهم عن أتباعهم ، وخافهم الأصبهبذ ، فكانت أهل جرجان ومقدمهم المرزبان يسألهم أن يبيتوا من عندهم من المسلمين وأن يقطعوا عن يزيد المادة والطريق فيما بينه وبين بلاد الإسلام ويعد أن يكافئهم على ذلك ، فثاروا بالمسلمين فقتلوهم أجمعين وهم غارون فى ليلة وقتل عبد الله بن المعمر ومن معه فلم ينج منهم أحد وكتبوا إلى الأصبهبذ بأخذ المضايق والطرق وبلغ ذلك يزيد بن المهلب وأصحابه فعظم عليهم وهالهم وفزع يزيد إلى حيان النبطى ، وكان من رؤساء جنده ليسير إلى الأصبهبذ فى عمل الصلح فأتى حيان الأصبهبذ فقال له : أنا رجل منكم وإن كان الدين فرق بينى وبينكم فأنا لكم ناصح فأنت أحب إلى من يزيد بن المهلب . وقد بعث يستمد وإمداده منه قريبة وإنما أصابوا منه طرفاً ولست آمن من أن يأتيك من لا تقوم له فأرح نفسك وصالحه فإن صالحته صير حده على أهل جرجان بغدرهم وقتلهم أصحابه فصالحه على سبعمائة ألف وأربعمائة وقر زعفران أو قيمته من العين وأربعمائة رجل على كل رجل منهم ترس وطيلسان ومع كل رجل جام من فضة وخرقة حرير وكسوة ، ثم رجع حيان

إلى يزيد بن المهلب فقال ابعث من يحمل صلحهم فقال من عندهم أو من عندنا فقال من عندهم وكان يزيد قد طابت نفسه أن يعطيهم ما سألوا ويرجع إلى جرجان فأرسل يزيد من يقبض ما صالحهم عليه حيان وانصرف إلى جرجان .

ذكر فتح جرجان الفتح الثانى

قد تقدم ذكر فتح قهستان وجرجان ثم غدر أهله بأصحاب يزيد بن المهلب فلما صالح يزيد أصبهبد طبرستان سار إلى جرجان وعاهد الله لئن ظفر بهم لا يرفع السيف حتى يطحن بسائل دمائهم ويأكل من ذلك الطين ، فأتاها وحصر أهلها بحصن فجأة سبعة أشهر وهم يخرجون إليه فى الأيام فيقاتلون ويرجعون ، وكانوا متمنعين فى الجبل والأوعار ، فبينما هم كذلك إذا ظفروا برجل يعرف الطرق فضمن له اليزيد دية إن دلهم على الحصن وطرقه ومعالمه ، فانتخب معه يزيد ثلاثمائة رجل واستعمل عليهم ابنه خالد بن يزيد ، وقال يزيد للرجل متى تصلون قال : غداً العصر فساروا ، فلما كان الغد وقت الظهر أحرق يزيد كل حطب عنده حتى اضطرمت النيران ونظر العدو إلى النار فهالهم ذلك فهجم خالد بن يزيد ومن معه عليهم قبل العصر وهم آمنون من ذلك الوجه وسار يزيد بمن معه يقاتلهم من جهة أخرى فما شعروا إلا بالتكبير من ورائهم ، فانقطعوا جميعاً إلى حصنهم وركبهم المسلمون فأعطوا ما بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد فسبى ذراريهم وقتل مقاتلهم وصلبهم فرسخين إلى يمين الطريق ويساره ، قيل إن الذين قتلهم أربعين ألفاً فلذلك كان عمر بن عبد العزيز يسمى يزيد بن المهلب جباراً وأجرى الماء على الدم ، وعليه أرحاء ليطحن بدمائهم ليبر بيمينه ، فطحن وخبز وأكل وبنى مدينة جرجان ولم تكن بنيت قبل ذلك مدينة ، ورجع إلى خراسان ، واستعمل على جرجان جهم بن زحر الجعفى ، وكتب بالفتح إلى سليمان وأخبره أنه قد حصل من الخمس ستمائة ألف ألف ، فقال له كاتبه المغيرة بن أبى قره مولى بنى سدوس لا تكتب تسميه المال فإنك من ذلك بين أمرين إما استكثره فأمرك بحمله وإما سمحت نفسه لك به فأعطاكه فتكلف الهدية فلا يأتيه من قبلك شىء إلا استقله فكأنى بك قد استغربت ما سميت ولم يقع منه موقعا ويبقى المال الذى سميت.

مخلداً فى دواوينهم ، فإن ولى وال بعده أخذك به وإن ولى من يتحامل عليك لم يرض بإضعافه، فاكتب فسله القدوم ، وشافهه بما أحببت ، فهو أسلم يقبل منه وأمضى الكتاب. فكان الأمر كما قال كاتبه فإن عمر بن عبد العزيز لما ولى بعد سليمان طالبه بذلك المال سنة تسع وتسعين وعزله وقيده وحبسه ، ثم هرب من السجن فى شدة مرض عمر بن عبدالعزيز ، ثم لما بويع يزيد بن عبدالملك بعد عمر ابن عبد العزيز طلب يزيد بن المهلب فجمع جموعا وقاتل يزيد بن عبد الملك بعد أن خلعه وبايع الناس لنفسه ، وكانت جموع يزيد بن المهلب نحو مائة ألف وآخر الأمر قتل هو وكثير من أخوته وأهل بيته ، وذلك سنة اثنتين ومائة وقصة ذلك طويلة مذكورة فى التواريخ ، قيل إن يزيد بن المهلب أصاب فى غنائم جرجان تاجاً فيه جوهر فقال لأصحابه : أترون أحداً يزهد فى هذا ؟ قالوا لا فدعا محمد بن واسع الأزدى فقال خذ هذا التاج قال لا حاجة لى فيه ، قال عزمت عليك فأخذه فأمر يزيد رجلا ينظر لما يصنع به فلقى سائلا فدفعه إليه فأخذ الرجل السائل فأتى به يزيد فأخبره فأخذ يزيد التاج وعوض السائل مالا كثيراً .

ذكر محاصره القسطنطينية

وفى هذه السنة أعنى سنة ثمان وتسعين سار سليمان بن عبد الملك إلى دابق وجهز جيشاً مع أخيه مسلمة بن عبد الملك ليسير إلى القسطنطينية وسبب ذلك أنه مات ملك الروم فأتى اليون من اذربيجان لسليمان بن عبد الملك ، فأخبره بموته ، وضمن له فتح الروم فوجه ذلك الجيش مع أخيه مسلمة فسار إلى القسطنطينية ، فلما دنا منها أمر كل فارس أن يحمل معه مدين من طعام على عجز فرسه إلى القسطنطينية ففعلوا ، فلما أتاه أمر بالطعام فألقى أمثال الجبال وقال للمسلمين لا تأكلوا منه شيئاً وأغيروا فى أرضهم وازرعوا ، وعمل بيانا من خشب ، فشتى فيها وصيف وزرع الناس وبقى الطعام فى الصحراء ، والناس يأكلون ما أصابوا من الغارات والزرع ، وأقام مسلمة قاهر للروم معه أعيان الناس فأرسل الروم إلى مسلمة يعطونه عن كل رأس ديناراً فلم يقبل فقالت الروم لأليون إن صرفت عنا المسلمين ملكناك ، فاستوثق منهم فأتى مسلمة فقال له : إن الروم قد علموا

أنك لا تصدقهم القتال وإنك تطاولهم ما دام الطعام عندك فلو أحرقته أعطوا الطاعة بأيديهم ، فأمر به فأحرق فقوى الروم وأصابوا المسلمون حتى كادوا يهلكون وبقوا على ذلك حتى مات سليمان سنة تسع وتسعين وقيل إنما خدع أليون مسلمة بأن سأله أن يدخل من الطعام إلى الروم بمقدار ما يعيشون به ليلة واحدة ليصدقوا أن أمر مسلمة وأمرهم واحد وأنهم فى أمان من السبى والخروج من بلادهم فأذن له ، وكان أليون قد أعد السفن والرجال فنقلوا تلك الليلة الطعام فلم يتركوا فى تلك الحظائر إلا مالا يذكر وأصبح أليون محاربا وقد خدع مسلمة خديعة لو كانت لامرأة لعيبت بها ولقى الجند ما لم يلقه جيش آخر حتى أن الرجل كان يخاف أن يخرج من العسكر وحده وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب وسليمان مقيم بدابق ودخل الشتاء فلم يقدر أن يمدهم حتى مات ، فلما بويع عمر بن عبد العزيز بعده بعث إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين ووجه له خيلا عتاقا وطعاما كثيراً وحث الناس على معونتهم فرجعوا سنة تسع وتسعين ، وفى سنة مائة وإحدى توفى محمد بن مروان وتوفى عمر بن عبد العزيز فبويع ليزيد بن عبد الملك وكان فى مدته الحروب المتقدم ذكره بينه وبين يزيد بن المهلب .

غزوة الترك

فى سنة اثنتين بعد قتل يزيد بن المهلب استعمل يزيد بن عبد الملك على العراق وخراسان أخاه مسلمة بن عبد الملك ، فاستعمل مسلمة على خراسان سعيد الملقب خذينة ومعناه الدهقانة ربة البيت لأنه كان رجلا لينا متنعما ، وهو سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص فجده الحارث أخو مروان بن الحكم فاستضعفه الناس وسموه خذينة فطمعت الترك فجمعهم خاقان ووجههم إلى الصغد وعلى الترك صول ، فأقبلوا حتى نزلوا بقصر الباهلى محاصرين لما فيه من المسلمين وفيها أهل مائة بيت من المسلمين بذراريهم وكان على سمرقند عثمان بن عبد الله بن مطرف بن الشخير ، استعمله سعيد خذينة فكتبوا إليه يستمدونه ، وخافوا أن يبطىء عليهم المدد فصالحوا الترك على أربعين ألفا وأعطوهم سبعة عشر رجلا

رهينة وندب عثمان الناس فانتدب أربعة آلاف مع المسيب بن بشر الرياحى من سائر القبائل فقال لهم المسيب من أراد الغزو والصبر على الموت فليتقدم ، فرجع عنه ألف وقال ذلك أيضاً بعد فرسخ فرجع ألف آخر ثم أعادها ثالثة بعد فرسخ فاعتزله ألف فلما كان على فرسخين من العدو وأخبره بعض الدهاقين بأن القوم أتاهم ملك الترك وبايعه كل الدهاقين غيرى ، وأنا فى ثلاثمائة ومقاتل ، فهم معكم وعندى الخبر قد كانوا صالحهم وأعطوهم سبعة عشر رجلا رهينة فلما بلغهم مسيركم إليهم قتلوا الرهائن وميعادهم أن يقاتلوا غداً ويفتحوا لهم القصر يعنى الباهلى الذى فيه أهل مائة بيت ، فبعث المسيب إلى القصر المذكور رجلين عجمياً وعربياً يأتيانه بالخبر فجاؤا فى ليلة مظلمة ، وقد أجرت الترك الماء بدائر القصر لئلا يصل إليه أحد ودنوا من القصر فصاح بهما الربيئة فقالا له اسكت وادع لنا فلانا من المسلمين الذين فى القصر فدعاه فأعلماه قرب العسكر وسألاه هل عندكم اجتماع غداً ، فقال لهما نحن مستميتون وقد أجمعنا على تقديم نسائنا للموت أمامنا حتى نموت جميعاً غدا فرجع إلى المسيب ، فأخبراه فقال لمن معه إنى سائر إلى هذا العدو المحاصرين للقصر فمن أحب أن يذهب فليذهب ، فلم يفارقه أحد ، وبايعوه على الموت فأصبح وسار وقد ازداد القصر تحصيناً بالماء الذى أجره الترك ، فلما كان بينه وبين الموضع الذى فيه الترك نصف فرسخ نزل ، وكان قد أجمع على بياتهم فلما أمسى أمر أصحابه بالصبر وحثهم عليه ، وقال ليكن شعاركم يا محمد ولا تتبعوا مولياً وعليكم بالدواب التى لهم فأعقروها فإنها إذا عقرت كانت أشد عليهم منكم وليست بكم قلة فإن سبعمائة سيف لا يضرب بها فى عسكر إلا أوهنوه وإن كثر أهله فلما دنوا منهم وكبروا وذلك فى السحر ، وثار الترك وخالطهم المسلمون فعقروا الدواب وترجل المسيب فى رجال معه فقاتلوا قتالا شديداً ، وانقطعت يمين رجل من المسلمين ، فأخذ السيف بشماله فقطعت فجعل يذب بيده حتى استشهد وقتلوا كثيراً منهم وعظيما من عظمائهم ، فانهزمت الترك ونادى منادى المسيب لا تتبعوهم واقصدوا القصر لإطلاق من فيه ، واحملوا من فيه ولا تحملوا من متاعهم إلا الماء ومن حمل امرأة أو صبياً أو رجلا ضعيفاً لا يقدر على المشى حسبة فأجره على الله ومن

أبى فله أربعون درهما وإن كان فى القصر أحد من أهل عهدكم فاحملوه ، فأتوا القصر وحملوا من فيه وأخرجوهم ثم ساروا إلى سمرقند ورجعت الترك من الغد ، فلم يروا فى القصر أحداً ورأوا قتلاهم فقالوا لم يكن الذين جاؤنا بالأمس من الأنس، قال بعض من كان بالقصر لما التقوا ظننا أن القيامة قد قامت لما سمعنا من هما هم القوم ، ووقع الحديد وصهيل الخيل وفى هذه السنة غزا عمر بن هبيرة الروم من ناحية أرمينية وهو على الجزيرة قبل أن يلى العراق فهزمهم وأسر منهم خلقاً كثيراً ، وقتل سبعمائة أسير وفيها غزا عباس بن الوليد بن عبد الملك الروم فافتتح دلسة .

ذكر غزوة الصغد

وفى هذه السنة عبر سعيد خذينة النهر وغزا الصغد وقد كانوا نقضوا العهد وأعانوا الترك على المسلمين ، فقال الناس لسعيد إنك قد تركت الغزو وقد أغار الترك وأعانهم أهل الصغد فقطع النهر وقصد الصغد فلقيه الترك وطائفة من الصغد ، فهزمهم المسلمون ، فقال سعيد لاتتبعوهم وقال هم جباية أمير المؤمنين يعنى يأخذ منهم المال ففى استئصالهم ضياع له ، وفى رواية قال هم بستان أمير المؤمنين وقد هزمتموهم أفتريدون بوارهم ، وقد قاتلتم ياأهل العراق الخلفاء غير مرة فهل أبادوكم ، فانكفوا عنهم ثم سار المسلمون إلى واد بينهم وبين المرج فقطعه بعض العسكر ، وقد أكمن لهم الترك فخرجوا عليهم وانهزم المسلمون إلى الوادى ، ثم تلاحق المسلمون ، وجاء الأمير والناس فانهزم العدو وكان سعيد إذا بعث سرية ، فأصابوا وغنموا وسبوا رد السبى وعاقب السرية فثقل سعيد على الناس وضعفوه وسعوا فى عزله ، فعزل سنة ثلاث ومائة وولى مكانه سعيد الحرشى بالحاء المهملة والشين المعجمة من بنى الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ينتهى إلى قيس بن عيلان بن مضر ، وفى سنة ثلاث ومائة غزا العباس بن الوليد الروم ففتح مدينة يقال لها دلسة .

ذكر الوقعة بين الحرشى والصغد

لما قدم الحرشى خراسان كان الناس بازاء العدو وقد نكبوا فخطبهم وحث الناس

على الجهاد ، وقال إنكم لاتقاتلون بكثرة ولا بعدة ولكن بنصر الله وعز الاسلام فقولوا لاحول ولا قوة إلا بالله ولما سمع أهل الصغد بقدوم الحرشى خافوا على أنفسهم لأنهم كانوا قد أعانوا الترك على أصحاب خذينة ، فأجمع عظماؤهم على الخروج من بلادهم فقال لهم ملكهم لاتفعلوا وأقيموا وأحملوا خراج مامضى واضمنوا له خراج مايأتى وعمارة الأرض والغزو معه إن أراد ذلك ، واعتذروا مما كان منكم وأعطوه رهائن قالوا نخاف أن لايرضى ولايقبل ذلك منا ولكن نأتى خجندة فنستجير بملكها ونرسل إلى الأمير فنسأله الصفح عما كان منا ونوثق أنه لايرى أمراً يكرهه ، فقال لهم ملكهم أنا رجل منكم والذى أشرت به عليكم خير لكم فأبوا وخرجوا إلى خجندة وأرسلوا إلى ملك فرغانة يسألونه أن يمنعهم وينزلهم مدينة فأراد أن يفعل فقالت أمه لايدخل هؤلاء الشياطين مدينتك ، ولكن فرغ لهم رستاقا يكونون فيه فأرسل إليهم سمو رستاقا تكونون فيه حتى أفرغه لكم وأجلونى أربعين يوما وقيل عشرين يوما فاختاروا شعب عصام بن عبدالله الباهلى ، وكان قتيبة قد خلفهم فيه فقال نعم ولا أنا على عقد وجوار حتى تدخلوه إن أتتكم غزية قبل أن تدخلوه ليس لكم على جوار فرضوا ، ففرغ لهم الشعب فجاء الخبر إلى الحرشى فغزاهم وعاجلهم قبل أن يدخلوا شعب عصام وخرج أهل الصغد للقتال ، فانهزموا وقد كانوا حفروا خندقا وغطوه بالتراب ليسقط فيه المسلمون عند القتال فلما انهزموا أخطأهم الطريق وأسقطهم الله فى ذلك الخندق، ثم حاصرهم الحرشى ونصب عليهم المجانيق فأرسلوا إلى ملك فرغانة ليجيرهم فقال قد شرطت عليكم أن لاجوار قبل الأجل الذى بينى وبينكم فطلبوا الصلح من الحرشى على أن يردوا مافى أيديهم من سبى العرب ويعطوا ما كثر من الخراج ولا يتخلف أحد منهم بخجندة ولا يقتلوا أحداً ، فإن أحدثوا حدثا استبيحت دماؤهم فقبل منهم وخرجوا من خجندة ونزلوا فى العسكر وبلغ الحرشى أنهم قتلوا امرأة من كان فى أيديهم من المسلمين ، فقتل الذى قتلها فخاف منه بعض عظمائهم أن يقتله فنقض وخرج واعترض الناس ومعه جماعة منهم فقتل ناسا وتضعضع العسكر ولقوا منه شراً وانتهى إلى ثابت بن عثمان بن مسعود فقتله ثابت وقتل الصغد أسرى عندهم من المسلمين

مائة وخمسين رجلا ، فأخبر الحرشى بذلك فأمر بقتلهم وعزل التجار عنهم فقاتلهم الصغد بالخشب ولم يكن لهم سلاح فقتلوا عن آخرهم ، وكانوا ثلاثة آلاف وقيل سبعة آلاف وغنم أموال الصغد وذراريهم وأخذ منه ما أعجبه ، وكتب إلى يزيد بن عبد الملك بالفتح وسرح الحرشى سرية إلى حصن يطيف به وادى الصغد فتلقوها على فرسخ وقاتلوا فهزموا ودخلوا الحصن فحصروا فيه ، ثم طلبوا الصلح على أن لا يتعرض لنسائهم وذراريهم و يسلموا القلعة ، فقبل منهم ذلك وبعث الأمناء لقبض مافى القلعة فقبضوه وباعوه وقسموه ، وسار الحرشى إلى كش وصالحوه على عشرة آلاف رأس وولى نصر بن سيار قبض صلح كش وكان فى نسف خزائن منيعة فوجه إليها المسربل بن الخريت وكان صديقا لملكها ، فجاء للملك وأخبره بما صنع الحرشى بأهل خجندة وخوفه ، قال فما ترى قال أن تنزل بأمان ، قال فما أصنع بمن لحق بى ، قال تجعلهم فى أمانك فصالحهم فأمنوه وبلاده ورجع الحرشى إلى بلاده ومعه الملك فقتله وصلبه ومعه الأمان وكانت هذه الوقائع سنة أربع ومائة وفيها عزل الحرشى عن خراسان ووليها مسلم بن سعيد الكلابى .

ذكر غزو المسلمين بلاد الخزر وظفر الخز بهم

فى هذه السنة دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهرانى ، فاجتمعت الخزر وهم التركمان فى جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك ولقوا لمسلمين فى مكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالا شديداً فقتل كثيرا من المسلمين واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع مافيه ، وأقبل المنهزمون إلى الشام فقدموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة ، فقال ثبيت يا أمير المؤمنين ماجبنت ولا نكبت عن لقاء العدو ولقد الصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحى وضاربت حتى انقطع سيفى غير أن الله تبارك وتعالى يفعل مايريد .

ذكر غزوة أخرى على الخزر

ولما تمت الهزيمة المذكورة على المسلمين طمع الخزر فى البلاد فجمعوا وحشدوا فولى

يزيد على أرمينية الجراح بن عبد الله الحكمي وأمده بجيش كثيف فسار لغزو الخزر فتسامعوا به ، فعادوا حتى نزلوا بالباب والأبواب ونزل الجراح إلى برذعة ، فأقام بها حتى استراح هو ومن معه وسار نحو الخزر فعبر نهر الكر ، فسمع بأن بعض من معه من أهل تلك الجبال قد كاتب ملك الخزر يخبره بمسير الجراح إليه ، فحينئذ أمر الجراح ، مناديه فنادى فى الناس أن الأمير مقيم ههنا عدة أيام فاستكثروا من الميرة ، فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخزر يخبره أن الجراح مقيم ويشير عليه بترك الحركة ، فلما كان الليل أمر الجراح بالرحيل فسار مجداً حتى انتهى إلى مدينة الباب الأبواب ، فلم ير الخزر فدخل البلد وبث السرايا للنهب والغارة على مايجاوره فغنموا ، وعادوا من الغد وسار الخزر إليه وعليهم ابن ملكهم ، فالتقوا عند نهر الران واقتتلوا قتالا شديداً فظفروا بالخزر وهزموهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون فقتل منهم خلق كثير ، وغنم المسلمون جميع مامعهم وساروا حتى نزلوا على حصن يعرف بالحصين لنزوله أهله بالأمان على مال يحملونه ، فأجابهم ونقلهم عنها ثم سار إلى مدينة يرغو فأقام عليها ستة أيام وهو مجد فى قتالهم فطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم منه .

ذكر فتح بلنجر

ثم سار الجراح إلى بلنجر وهو حصن مشهور من حصونهم فنازله وكان أهل الحصن قد جمعوا ثلاثمائة عجلة فشدوا بعضها إلى بعض ، وجعلوها حول حصنهم ليحتموا بها وتمنع المسلمين من الوصول إلى الحصن وكانت تلك العجل أشد شىء على المسلمين فى قتالهم ، فلما رأوا الضرر الذى عليهم انتدب جماعة منهم نحو ثلاثين رجلا وتعاهدوا على الموت وكسروا جفون سيوفهم ، وحملوا حملة رجل واحد وتقدموا نحو العجل ، وجد الكفار فى قتالهم ورموا من النشاب ماكان يحجب عين الشمس ، فلم يرجع أولئك حتى وصلوا إلى العجل وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذى يمسكها وجذبوها ، فانحدرت وتبعها سائر العجل لأن بعضها كان مشدوداً إلى بعض ، وانحدر الجميع إلى المسلمين والتحم

القتال واشتد وعظم الأمر على الجميع حتى بلغت القلوب الحناجر ، ثم أن الخزر انهزموا واستولى المسلمون على الحصن عنوة وغنموا جميع ما فيه فأصاب الفارس ثلاثمائة دينار ، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً ثم أن الجراح أحضر صاحب بلنجرورد إليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عيناً لهم يخبرهم بما يفعله الكفار ، ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه ، ثم أن الترك والتركمان تجمعوا وأخذوا الطرق على المسلمين فكتب صاحب بلنجر إلى الجراح يعلمه بذلك فعاد مجداً حتى وصل إلى رستاق ملى وأدركهم الشتاء فأقام المسلمون به ، وكتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك يخبره بما فتح الله عليه وبما اجتمع من الكفار ويسأله المدد فوعده إنفاذ العساكر إليه ، وأدرك يزيد أجله قبل إنفاذ الجيش وكان موته فى شعبان سنة خمس ومائة فلما مات يزيد وبويع أخوه هشام بن عبد الملك أرسل إلى الجراح وأقره على عمله ووعده المدد ، ثم أرسله إليه فقوى أمر الجراح فغزا اللان فى سنة ست وصالحه أهلها فأدوا الجزية ثم إن هشاماً عزل الجراح عن أرمينية سنة سبع ومائة وولاها أخاه مسلمة بن عبدالملك إلى سنة إحدى عشره ثم عزل أخاه مسلمة وولاها الجراح ثانية فدخل بلاد الخزر من ناحية تفليس ، ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالماً فجمعت الخزر جموعها وحشدت وسارت إلى بلاد الإسلام من ناحية اللان ، فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فاستشهد الجراح ، ومن كان معه بمرج أردبيل وكان قد استخلف أخاه الحجاج بن عبدالله على أرمينية ولما قتل الجراح طمع الخزر وأوغلوا فى البلاد حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب على المسلمين، وكان الجراح خيراً فاضلا ، وكان أولا من عمال عمر بن عبد العزيز على خراسان ورثاه كثير من الشعراء ، ولما بلغ هشاماً خبره دعا سعيد الحرشى ، وكان قد عزل عن خراسان فقال له : بلغنى أن الجراح قد انحاز عن المشركين قال كلا يا أمير المؤمنين الجراح أعرف بالله من أن ينهزم ، ولكنه قتل قال فما رأيك ، قال تبعثنى على أربعين دابة من دواب البريد ثم تبعث إلى كل يوم أربعين رجلا ، ثم اكتب إلى أمراء الأجناد يوافونى ،

ففعل ذلك هشام وسار الحرشي فكان لا يمر بمدينة إلا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد ، ولم يزل كذلك حتى وصل إلى مدينة أرزن فلقيه جماعة من أصحاب الجراح وبكوا وبكى لبكائهم وفرق فيهم نفقة وردهم معه وجعل لا يلقاه أحد من أصحاب الجراح إلا ورده معه ووصل الاخلاط وهى ممتنعة عليه فحصرها وفتحها وقسم غنائمها فى أصحابه ، ثم سار عن خلاط وفتح القلاع والحصون شيئاً بعد شيء إلى أن وصل إلى برذعة فنزلها وكان ابن خاقان يومئذ بأذربيجان يغير وينهب ويسبي ويقتل وهو محاصر مدينة ورثان فخاف الحرشي أن يملكها فأرسل بعض أصحابه إلى أهل ورثان سراً يعرفهم وصولهم ويأمرهم بالصبر فسار القاصد ولقيه بعض الخزر ، فأخذوه وسألوه عن حاله فأخبرهم وصدقهم فقالوا له إن فعلت ما نأمرك به أحسنا إليك وأطلقناك وإلا قتلناك قال فما الذى تريدون ؟ قالوا : تقول لأهل ورثان إنكم ليس لكم مدد ولا من يكشف ما بكم وتأمرهم بتسليم البلد إلينا فأجابهم إلى ذلك فلما قارب المدينة وقف بحيث يسمع أهلها كلامه فقال لهم : أتعرفوننى قالوا نعم أنت فلان قال : فإن الحرشي قد وصل إلى مكان كذا فى عساكر كثيرة وهو يأمركم بحفظ البلد والصبر ففى هذين اليومين يصل إليكم ، فرفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل وقتلت الخزر ذلك الرجل ورحلوا عن مدينة ورثان فوصلها الحرشي فى العساكر وليس عندها أحد فارتحل يطلب الخزر إلى أردبيل ، فسار الخزر عنها ، ونزل الحرشي باجروان فأتاه فارس على فرس أبيض فسلم عليه وقال له هل لك أيها الأمير فى الجهاد والغنيمة ، قال كيف لى بذلك قال هذا عسكر الخزر فى عشرة آلاف ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبايا وقد نزلوا على أربعة فراسخ فسار الحرشي ليلا ، فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه فى أربعة جهات فكبسهم مع الفجر ووضع المسلمون فيهم السيف ، فما بزغت الشمس حتى قتلوا أجمعون غير رجل واحد وأطلق الحرشي من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان فلما دخلها أتاه ذلك الرجل صاحب الفرس الأبيض فسلم وقال هذا جيش للخزر ومعهم أموال للمسلمين ، وحرم الجراح وأولاده بمكان كذا فسار الحرشي إليهم فما شعروا إلا والمسلمون معهم فوضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاءوا ولم يفلت من الخزر

إلا الشريد ، واستنقذوا من معهم من المسلمين والمسلمات وغنموا أموالهم ، وأخذ أولاد الجراح فأكرمهم وأحسن إليهم وحمل الجميع إلى باجروان ، وبلغ خبر ما فعله الحرشي بعساكر الخزر ابن ملكهم فوبخ عساكره وذمهم ونسبهم إلى العجز والوهن فحرض بعضهم بعضاً وأشاروا عليه بجمع أصحابه ، والعود إلى قتال الحرشي فجمع أصحابه من نواحي أذربيجان فاجتمع معه عساكر كثيرة وسار الحرشي فالتقيا بأرض برزند واقتتل الناس أشد قتال وأعظمه ، فانحاز المسلمون يسيراً فحصرهم الحرشي فأمرهم بالصبر ، فعادوا إلى القتال وصدقوهم الحملة واستغاث من مع الخزر من الأسارى ونادوا بالتكبير والتهليل والدعاء فعندها حرض المسلمون بعضهم بعضاً ولم يبق أحد إلا وبكى رحمة للأسرى ، واشتدت نكايتهم فى العدو فولوا الأدبار منهزمين وتبعهم المسلمون حتى بلغوا بهم نهر أرس وعادوا عنهم وحووا ما فى عساكرهم من الأموال والغنائم ، وأطلقوا الأسرى والسبايا وحملوا إلى باجروان ثم أن ابن ملك الخزر جمع من لحق به من عساكره وعاد بهم نحو الحرشي فنزل على نهر البيلقان وبلغ الخبر الحرشي فسار نحوه فى عساكر المسلمين فوافاهم وهم على نهر البيلقان ، فالتقوا هناك فصاح الحرشي بالناس فحملوا حملة صادقة ضعضعوا صفوف الخزر وتابع الحملات وصبر الخزر صبراً عظيما ، ثم كانت الهزيمة عليهم فولوا الأدبار منهزمين وكان من غرق منهم فى النهر أكثر ممن قتل وجمع الحرشي الغنائم وعاد إلى باجروان فقسمها ، وأرسل الخمس إلى هشام بن عبدالملك وعرفه ما فتح الله به على المسلمين ، فكتب إليه هشام يشكره وأقام بباجروان فأتاه كتاب هشام يأمره بالمسير إليه ، واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك على أرمينية وأذربيجان فوصل إلى البلاد ، وسار إلى الترك فى شتاء شديد حتى جاز البلاد فى آثارهم ، وفى سنة ثلاث عشرة ومائة فرق مسلمة الجيوش ببلاد خاقان ففتحت مدائن وحصون على يديه ، وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه فى جمع لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وقد جاز مسلمة بلنجر ، فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فأوقدوا النيران ، ثم ترك خيامهم وأثقالهم وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان

وطوى المراحل كل مرحلتين فى مرحلة حتى وصل إلى الباب والأبواب فى آخر رمق فعزله هشام وولى أرمينية وأذربيجان مروان بن محمد وسيأتى الكلام إن شاء الله على غزواته وما افتتحه وإنما تابعنا الكلام إلى سنة ثلاث عشرة لارتباط بعضهم ببعض ، ولنرجع إلى إتمام الكلام على الفتوحات الحاصلة فى غير أذربيجان وأرمينية من سنة خمس إلى سنة ثلاث عشرة فيقول كان فى سنة خمس غزوة لسعيد بن عبد الملك بأرض الروم فبعث سرية فى نحو ألف مقاتل فأصيبوا جميعاً وفى سنة ١٠٤ استعمل مسلم بن سعيد الكلابى أميراً بخراسان بعد عزل الحرشى عنها فغزا الترك بما وراء النهر سنة ١٠٥ فلم يفتح شيء وقفل فتبعه الترك فلحقوه والناس يعبرون جيحون فوقف على الساقة عبيد الله بن زهير ومعه خيلى بنى تميم حتى عبر الناس سالمين وغزا مسلم أيضاً تلك السنة فشين ، فصالح أهلها على ستة آلاف رأس ودفع إليه القلعة . وفى سنة خمس أيضاً غزا مروان بن محمد الصائفة اليمنى فافتتح قونية من أرض الروم وكمخ .

ذكر غزو مسلم بن سعيد الكلابى الترك

فى سنة ست ومائة قطع مسلم النهر ولحق به من لحق من أصحابه، فلما بلغ بخارى أتاه كتاب خالد بن عبيد الله القسرى يخبره بولايته العراق ويأمره بإتمام غزواته فسار إلى فرغانة فلما وصلها بلغه أن خاقان قد أقبل عليه وأنه فى موضع ذكروه فارتحل فسار ثلاث مراحل فى يوم وأقبل إليهم خاقان فلقى طائفة من المسلمين وأصاب دواب لمسلم وقتل جماعة من المسلمين ، ثم أطاف خاقان بالمعسكر وثار الناس فى وجوههم فأخرجوهم من المعسكر فرحل مسلم بالناس فسار ثمانية أيام والترك يحيطون بهم وأصاب الناس عطش وأحرق الناس ماثقل من الأمتعة فحرقوا ما قيمته ألف ألف وأتوا خجندة فأصابتهم مجاعة ، ولما أراد عبور النهر والترك محيطون به ، أمر مسلم الناس أن يخترطوا سيوفهم ويحملوا ؛ ففعلوا وصارت الدنيا كلها سيوفا فأفرجوا لهم فعبروا ثم وافاه كتاب خالد بن عبد الله بعزله وولاية أخى خالد وهو أسد بن عبد الله القسرى ، وفى سنة سبع

ومائة ملك الحميد بن عبد الرحمن بعض بلاد السند وقتل صاحبه جيشبة وتقدم تفصيل ذلك .

ذكر غزوة بالأندلس

فى سنة سبع ومائة غزا عنبسة بن شحيم الكلبى عامل الأندلس لهشام بن عبد الملك بلد الفرنج فى جمع كثير ونازل مدينة قرقونة وحصر أهلها فصالحوه على نصف أعمالهم وعلى جميع ما فى المدينة من أسرى المسلمين واسلابهم وأن يعطوا الجزية ويلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه فعاد عنهم عنبسة .

ذكر غزوة الغور

فى هذه السنة غزا أسد بن عبد الله الغور ، وهو جبال هراة فعمد أهلها إلى أثقالهم فصيروها فى كهف ليس إليه طريق ، فأمر أسد باتخاذ توابيت ووضع فيها الرجال ودلاها بسلاسل ، فتواصلوا إلى الكهف فاستخرجوا ما قدروا عليه .

ذكر غزوة الختل والغور

فى سنة ثمان ومائة قطع أسد النهر وأتاه خاقان فلم يكن بينهما قتال وقيل عاد مهزوماً من الختل وأظهر أنه يريد يشتوا بسرخ دره فأمر الناس فارتحلوا ووجه راياته وسار فى ليلة مظلمة إلى سرخ دره فكبر الناس فقال ما لهم فقالوا هذه علاماتهم إذ قفلوا فقال المنادى ناد أن الأمير يريد الغوريين فمضى إليهم فقاتلوهم يوما وصبروا لهم ثم عادوا من الغد ، فاقتتلوا وانهزم المشركون وحوى المسلمون عسكرهم وظهروا على البلاد وأسروا وسبوا وغنموا ورجعوا . وفى هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك الروم مما يلى الجزيرة ففتح قيسارية وهى مدينة مشهورة وفيها أيضاً غزا ابراهيم بن هشام ففتح حصناً من حصون الروم وفيها أيضاً سار ابن خاقان ملك الترك إلى أذربيجان فحصر بعض مدنها فسار إليه

الحارث بن عمر الطائى فالتقوا فاقتتلوا فانهزم الترك وتبعهم الحارث حتى عبر نهر ارس فعاد إليه ابن خاقان فعاود الحرب أيضاً فانهزم ابن خاقان وقتل من الترك خلق كثير وفى سنة تسع ومائة فصل هشام بن عبد الملك ولاية خراسان عن ولاية العراق وعزل أسداً عن خراسان واستعمل على خراسان أشرس بن عبد الله السلمى وله وقائع مع أهل سمرقند ستأتى ، وفى هذه السنة غزا عبد الله بن عقبة الفهرى فى البحر وغزا معاوية بن هشام أرض الروم ففتح حصنا يقال له طيبة وفيها غزا أيضاً مسلمة بن عبدالملك الترك من ناحية أذربيجان وتقدم ذكر ذلك . وفى هذه السنة أيضاً غزا بشر بن صوفان عامل أفريقية جزيرة صقلية فغنم شيئاً كثيراً ثم رجع إلى القيروان .

ذكر ماجرى لأشرس بن عبد الله بن السلمى

مع أهل سمرقند وغيرها

فى سنة عشر ومائة أرسل أشرس جماعة إلى سمرقند وغيرها مما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فدعوهم لذلك فأسلموا فجاء الخبر إلى أشرس بأن الخراج قد انكسر فكتب أشرس إلى العامل بلغنى أنهم لم يسلموا رغبة وإنما أسلموا نفوراً من الجزية فانظروا من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سوراً من القرآن فارفعوا الجزية عنه وعزل ذلك العامل وولى ابن هانى فكتب لأشرس إنهم أسلموا ، وبنوا المساجد ؟ فكتب إليه أشرس أن يعيد الجزية على من كانت عليه ولو أسلم فاعتزلوا فى سبعة آلاف على فراسخ من سمرقند وامتنعوا وأرادوا القتال ، فكتب أشرس بوضع الخراج عنهم فرجعوا وضعف أمرهم ثم تتبعوا وحبسوا وأقيمت عليهم العقوبات وخرقت ثيابهم وألقيت مناطقهم فى أعناقهم ، وأخذت الجزية ممن أسلم فكفرت الصغد وبخارا واستجاشوا بالترك ، فخرج أشرس غازياً فنزل آمل وأقام شهراً وقدم قطن بن قتيبه بن مسلم فى عشر آلاف ، فعبر النهر ولقى الترك وأهل الصغد وبخارى ومعهم خاقان فحصروا قطنا فى خندقه ، وأغار الترك على سرح المسلمين فبعث أشرس خيلا استنقذت من أيدى

الترك ما أخذوه ، ثم عبر أشرس النهر بالناس ولحق بقطن ولقيهم العدو فانهزموا أمامهم وسار أشرس بالناس حتى جاء بيكند ، فحصرها المسلمون فقطع أهل البلد عنهم الماء وأصابهم العطش فرحلوا قاصدين البلد فاعترضهم دونها العدو ، فقاتلوهم قتالا شديداً حتى أزالوا الترك عن الماء ، وحمل قطن بن قتيبة فى جماعة تعاقدوا على الموت فانهزم العدو واتبعهم المسلمون يقتلونهم إلى الليل ، ثم رجع أشرس إلى بخارى وجهز عليها عسكراً يحاصرونها ثم حاصر خاقان مدينة كمرجة من خراسان وبها جمع من المسلمين ، فأغلقوا الباب وقطعوا القنطرة التى على الخندق ليمنعوا الكفار من الدخول إليهم ، ثم أمر خاقان بقطع الخندق فجعلوا يلقون فيه الحطب الرطب ليعبروا عليه ، وجعل المسلمون يلقون حطباً يابساً على الحطب الرطب حتى سوى الخندق ، فأشعلوا فيه النيران وهاجت ريح شديدة صنعاً من الله فاحترق الحطب فى ساعة واحدة وكانوا جمعوه فى سبعة أيام ثم فرق خاقان على الترك أغناما وأمرهم أن يأكلوا لحمها ويحشوا جلودها ترابا ويكبسوا خندقها ففعلوا ذلك ، فأرسل الله سحابة فأمطرت مطراً شديداً فاحتمل السيل ما فى الخندق وألقاه فى النهر الأعظم ورماهم المسلمون بالسهام فأصابت بازغرى نشابة فى سرته فمات من ليلته وكان داهية وكان خاقان لا يخالفه فدخل عليهم بموته أمر عظيم ، فلما امتد النهار جاءوا بالأسرى الذين عندهم وهم مائة فقتلوهم ، وكان عند المسلمين مائتان من أولاد المشركين رهائن فقتلوهم واستماتوا واشتد القتال ، ولم يزل أهل كرجة كذلك حتى أقبلت جنود العرب ، فنزلت فرغانة فعير خاقان قومه فى طول المدة وعدم الفتح ، قال زعمتم أنها تفتح فى خمسة أيام فصارت الخمسة شهرين ، وأمرهم بالرحيل وشتمهم فقالوا أمهلنا إلى الغد وانظر مايصنع ، فلما كان الغد وقف خاقان وتقدم ملك الطاربنده فقاتل المسلمين ، وقتل منهم ثمانية وجاء حتى وقف على ثلمة إلى جنب بيت فيه مريض من تميم فرماه التميمى بكلوب فتعلق بدرعه ثم نادى النساء والصبيان فجذبوه فسقط لوجهه ورماه رجل بحجر ، فأصاب أصل أذنه فصرع وطعنه آخر فقتله فاشتد قتله على الترك ، وأرسل خاقان إلى المسلمين أنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها دون افتتاحها

فارحلوا أنتم عنا فقالوا له ليس من ديننا أن نعطى بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم فأعطاهم الترك الأمان على أن يرحل خاقان عنهم ويرحلوا هم عنها إلى سمرقند أو الدبوسية فرأى أهل كرجة ماهم فيه من الحصار ، فأجابوا إلى ذلك فأخذوا من الترك رهائن أن لا يعرضوا لهم وطلبوا أن كورصول التركى يكون معهم فى جماعة ليمنعهم إلى الدبوسية فسلموا إليهم الرهائن وأخذوا هم أيضاً من المسلمين رهائن وارتحل خاقان عنهم ، ثم رحلوا هم بعده فقال الأتراك الذين مع كور صول إن بالدبوسية عشرة آلاف مقاتل ولا نأمن أن يخرجوا علينا ، فقال لهم المسلمون إن قاتلوكم قاتلناهم معكم ، فساروا فلما صار بينهم وبين الدبوسية فرسخ نظر أهلها إلى الفرسان فظنوا أن كرجة فتحت ، وأن خاقان قد قصدهم فتأهبوا للحرب فأرسل المسلمون إليهم يخبرونهم خبرهم فلقوهم وحملوا من كان يضعف عن المشى ومن كان مجروحاً ، فلما بلغ المسلمون الدبوسية أرسلوا إلى من عنده الرهائن يعلمونه بوصولهم ويأمرونه بإطلاقهم فجعلت العرب تطلق رجلا من الرهن والترك رجلا حتى بقى سباع بن النعمان مع الترك ورجل من الترك عند العرب وجعل كل فريق يخاف من صاحبه الغدر فقال سباع خلوا رهينة الترك فخلوه وبقى سباع مع الترك ، فقال له كورصول ما حملك على هذا قال وثقت بك وقلت ترفع نفسك عن الغدر ، فوصله كورصول وأعطاه سلاحه وبرذوناً وأطلقه وكان مدة حصار كرجة ثمانية وخمسين يوماً فيقال أنهم لم يسقوا إبلهم خمسة وثلاثين يوما ، وفى هذه السنة ارتد أهل كردر فأرسل إليهم أشرس جنداً فظفروا بهم ، وفى هذه السنة غزا معاوية بن هشام الروم ، ففتح صملة وغزا الصائفة عبد الله بن عقبة الفهرى ، وفيها مات الحسن البصرى وعمره سبع وثمانون سنة وفيها أيضاً مات محمد بن سيرين وعمره إحدى وثمانون سنة .

ذكر غزوة ما وراء النهر

فى سنة إحدى عشرة ومائة عزل هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله عن خراسان ، واستعمل عليها الجنيد بن عبد الرحمن المرى الغطفانى القيسى فلما قدم خراسان سار إلى ماوراء النهر ، وأرسل الجنيد إلى أشرس وهو يقاتل أهل بخارى والصغد أن

أمدنى بخيل وخاف أن ينقطع دونه ، فوجه إليه أشرس عامر ابن مالك الحمانى فى جماعة ، فلما كان عامر ببعض الطريق عرض له الترك والصغد فدخل حائطاً حصيناً وقاتلهم على الثلمة ، وكان ممن معه واصل بن عمرو القيسى وعاصم بن عمر السمرقندى ، فاستداروا مع جماعة من القوم حتى صاروا من وراء الماء الذى هناك ، ثم جمعوا قصباً وخشباً وعبروا عليه فلم يشعر خاقان إلا والتكبير من خلفه ، وحمل المسلمون على الترك فقاتلوهم وقتلوا عظيما من عظمائهم وانهزم الترك ، وسار عامر إلى الجنيد فلقيه وأقبل معه فلما انتهى إلى فرسخين من بيكند تلقته خيل الترك فقاتلهم ، فكاد الجنيد يهلك ومن معه ، ثم أظهره الله وسار حتى قدم العسكر فظفر الجنيد وقتل الترك وزحف إليه خاقان فالتقوا دون زرمان من بلاد سمرقند ، وأسر الجنيد من الترك ابن أخى خاقان فبعث به إلى هشام ورجع الجنيد إلى مرو وقد ظفر ، وفى هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى ، وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى حتى أتى قيسارية وغزا فى البحر عبد الله بن أبى كريم ، وفى سنة اثنتى عشرة ومائة كان دخول الجراح بن عبدالله الحكمى بلاد الخزر وقتله ، وتقدم الكلام على ذلك مستوفى .

ذكر وقعة الجنيد بن عبد الرحمن المرى بالشعب

فى سنة ثنتى عشرة ومائة خرج الجنيد من مرو غازيا طخارستان فوجه عمارة بن حريم إلى طخارستان فى ثمانية عشر ألفاً ووجه إبراهيم بن بسام الليثى فى عشرة آلاف إلى وجه آخر وجاشت الترك فأتوا سمرقند وعليها سورة بن الحر فكتب سورة إلى الجنيد أن خاقان جاش الترك فخرجت إليهم فلم أطق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث ، فأمر الجنيد الناس بعبور النهر فقال له جماعة من جنده: أن الترك ليسوا كغيرهم لا يلقونك صفاً ولا زحفاً ، وقد فرقت كثيراً من الجند ولا يعبر النهر فى أقل من خمسين ألفاً فاكتب إلى عمارة فليأتك وامهل ولا تعجل قال فكيف بسورة ومن معه من المسلمين لو لم أكن إلا فى بنى مرة أو من طلع معى من الشام لعبرت ، ثم عبر الجنيد بمن كان حاضراً ، فنزل كش وتأهب للسير وبلغ الترك مسيره فغوروا الآبار التى فى طريق كش فقال الجنيد أى

طريق إلى سمرقند أصلح ؟ فقالوا طريق المحترقة ، فقال المجشر بن مزاحم السلمى : القتل بالسيف أصلح من القتل بالنار طريق المحترقة كثير الشجر والحشيش ولم يزرع منذ سنين فإن لقينا خاقان أحرق ذلك كله فقتلنا بالنار والدخان ولكن خذ طريق العقبة فهو بيننا وبينهم سواء ، فأخذ الجنيد طريق العقبة فارتقى فى الجبل فأخذ المجشر بعنان دابته، وقال أنه كان يقال أن رجلا مترفاً من قيس يهلك على يديه جند من جنود خراسان وقد خفنا أن تكون فقال ليفرغ روعك قال أما ما كان بيننا مثلك فلا ، فبات فى أصل العقبة ثم سار بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربع فراسخ ، ودخل الشعب فصبحه خاقان فى جمع عظيم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك ، فحمل خاقان على المقدمة فرجعوا إلى العسكر والترك وتتبعهم وجاؤا من كل وجه فرتب الجنيد جيشه وجعل على كل جهة رئيساً مشهوراً بالشجاعة وشد نصر بن سيار هو ومن معه على العدو فكشفوهم ، ثم كروا عليهم وقتل يومئذ من الأزد ثمانون رجلا وصبر الناس يقاتلون حتى أعيوا فكانت السيوف لاتقطع شيئا فقطع عبيدهم الخشب يقاتلون به حتى مل الفريقان، فكانت المعانقة ثم تحاجزوا فبينا الناس كذلك إذ أقبل رهج وطلعت فرسان فنادى منادى الجنيد الأرض فترجل وترجل الناس ثم نادى ليخندق كل قائد على حياله فخندقوا وتحاجزوا ، وقد أصيب من الأزد مائة وتسعون رجلا وكان قتالهم يوم الجمعة فلما كان يوم السبت قصدهم خاقان وقت الظهر ، فلم يجد موضعاً للقتال أسهل من الموضع الذى نزل به قبائل بكر بن وائل فقصدهم ، فلما قربوا حملت بكر عليهم فأفرجوا لهم وسجد الجنيد واشتد القتال بينهم ، فلما رأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه ، فقال له عبدالله بن حبيب اختر إما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر ، قال هلاك سورة أهون على ، قال فاكتب له فليأتك من سمرقند فى أهل سمرقند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه فكتب إليه الجنيد يأمره بالقدوم ، فقال لسورة حليس بن غالب الشيبانى أن الترك بينك وبين الجنيد فإن خرجت كروا عليك فاختطفوك فكتب إلى الجنيد إنى لا أقدر على الخروج فكتب إليه الجنيد يا ابن اللخناء تخرج وإلا وجهت إليك شداد بن خليد

الباهلى وكان عدوه فأخرج والزم الماء ولا تفارقه فأجمع على المسير ، وقال إذا سرت على النهر لا أصل فى يومين وبينى وبين هذا الوجه ليلة فإذا سكنت الرجل مرت فجاءت عيون الأتراك فأخبروهم بمقالة سورة ورحل سورة واستخلف على سمرقند موسى بن أسود الحنظلى ، وسار فى اثنى عشر ألفاً، فأصبح على رأس جبل فتلقاه خاقان حين أصبح وسار ثلاثة فراسخ وبينه وبين الجنيد فرسخ ، فقاتلهم أشد القتال وصبروا فقال غوزك لخاقان اليوم حار فلا نقاتلهم حتى يحمى عليهم السلاح ، فوافقهم وأشعل النار فى الحشيش وحال بينهم وبين الماء فقالوا سورة لعباد ماترى ياأبا سليم ؟ فقال : أرى أن الترك يريدون الغنيمة، فاعقر الدواب وأحرق المتاع وجرد السيف فإنهم يخلون لنا الطريق وإن منعونا شرعنا الرماح ونزحف زحفا وإنما هو فرسخ حتى نصل إلى العسكر ، فقال لا أقوى على هذا ولا فلان وفلان وعد رجالا ولكن أجمع الخيل فاصكهم بها سلمت أم عطبت وجمع الناس وحملوا فانكشف الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهيب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون سورة ، فاندقت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ، ولم ينج منهم غير ألفين ويقال ألف وكان ممن نجا عاصم بن عمير السمرقندى وانحاز المهلب بن زياد العجلى فى سبعمائة إلى رستاق يسمى المرغاب فنزلوا قصراً هناك فأتاهم الاسكندر صاحب نسف ومعه غوزك فأعطاهم غوزك الأمان،فقال قريش بن عبدالله العبدى لاتثقوا بهم ولكن إذا جننا الليل خرجنا عليهم حتى نأتى سمرقند فعصوه فنزلوا بالأمان فساقهم إلى خاقان فقال لا أجيز أمان غوزك فقاتلهم الوجف بن خالد ومعه المسلمون فأصيبوا غير سبعة عشر رجلا فقتلوا غير ثلاثة وقتل سورة فى اللهب ، فلما قتل خرج الجنيد من الشعب يريد سمرقند مبادراً فقال له خالد بن عبيد الله سر وأسرع فقال له المجشر انزل وأخذ بلجام دابته ، فنزل ونزل الناس معه فلم يستتم نزولهم حتى طلع الترك ، فقال المجشر له لو لقونا قبل نزولنا ونحن نسير ألم يهلكونا فلما أصبحوا تناهضوا ، فجال الناس فقال الجنيد أيها الناس إنها النار فرجعوا ونادى الجنيد أى عبد قاتل فهو حر ، فقاتل العبيد قتالا عجب منه الناس فسروا بما رأو من صبرهم ، وصبر الناس حتى انهزم العدو ومضوا

فقال موسى بن الثغراء تفرحون بما رأيتم من العبيد إن لكم منهم ليوما أروزبان أى ذى
رياسة ، ومضى الجنيد إلى سمرقند فحمل عيال من كان فى سورة إلى مرو وأقام بالصغد
أربعة أشهر ، ولما انصرف الترك بعث الجنيد بالخبر إلى هشام وكتب إليه أن سورة عصانى
أمرته بلزوم الماء فلم يفعل ، فتفرق عنه أصحابه فأتتنى طائفة وطائفة إلى نسف وطائفة إلى
سمرقند وأصيب سورة فى بقية أصحابه فكتب هشام إلى الجنيد : قد وجهت إليك عشرة
آلاف من أهل البصرة وعشرة آلاف من أهل الكوفة ومن السلاح ثلاثين ألف رمح
ومثلها ترسة ومثلها سيفا فافرض أى ماشئت فى العطا فلا غاية لك فى الفريضة بخمسة عشر
ألفا ، ولما سمع هشام مصاب سورة قال إنا لله وإنا إليه راجعون مصاب سورة بخراسان
ومصاب الجراح بالباب، وأبلى نصر بن سيار يومئذ بلاء حسنا وأرسل الجنيد ليلة بالشعب
رجلا ، وقال له تسمع مايقول الناس وكيف حالهم ففعل ثم رجع إليه ، فقال رأيتهم طيبة
أنفسهم يتناشدون الأشعار ويقرأون القرآن فسره ذلك ، قال عبيد بن حاتم بن النعمان
رأيت فساطيط بين السماء والأرض فقلت لمن هذه فقالوا لعبد الله بن بسطام وأصحابه ،
فقتلوا فى غد فقال رجل مررت فى ذلك الموضع بعد ذلك بحين فشممت رائحة المسك وأقام
الجنيد بسمرقند وتوجه خاقان إلى بخارى وعليه قطن قتيبة بن مسلم فخاف الجنيد الترك
على قطن بن قتيبة فشاور أصحابه: فقال قوم نلزم سمرقند وقال قوم نسير منها فنأتى ربنجن ،
ثم كش ثم إلى نسف فنتصل منها إلى أرض زم ونقطع النهر وننزل آمل فنأخذ عليه الطريق
واستشار عبدالله بن أبى عبدالله مولى بنى سالم ، وأخبره بما قالوا فاشترط عليه أن لايخالفه
فيما يشير به عليه من ارتحال ونزول وقتال فقال نعم ، قال فإنى أطلب إليك خصالا قال
وماهى قال تخندق حيثما نزلت ولا يفوتنك حمل الماء ولو كنت على شاطىء نهر وأن
تطيعنى فى نزولك وارتحالك قال نعم ، قال أما أشاروا عليك فى مقامك بسمرقند حتى يأتيك
الغياث فالغياث يبطىء عنك وأما ماأشاروا من طريق كش ونسف فإنك إن سرت بالناس
من غير الطريق فتت فى أعضادهم وانكسروا عن عدوهم ، واجترأ خاقان وهو اليوم قد
استفتح بخارى فلم يفتحوا له ، فإن أخذت غير الطريق بلغ أهل بخارى مافعلت فيستسلموا

لعدوهم وإن أخذت الطريق الأعظم هابك العدو والرأى عندى أن تأخذ عيال من قتل مع سورة فتقسمهم على عشائرهم وتحملهم معك ، فإنى أرجو بذلك أن ينصرك الله على عدوك وتعطى كل رجل تخلف بسمرقند ألف درهم وفرسا ، فأخذ برأيه وخلف بسمرقند عثمان بن أبى عبد الله بن الشخير فى أربعمائة فارس وأربعمائة راجل فشتم الناس عبد الله بن أبى عبدالله ، وقالوا ما أراد إلا هلاكنا فخرج الجنيد وحمل العيال معه وسرح الأشحب بن عبيد الحنظلى ومعه عشرة من الطلائع وقال كلما مضيت مرحلة تسرح رجلا يعلمنى الخبر وسار الجنيد فأسرع سيره ، فقال له عطاء الدوسى انظر ضعف شيخ فى العسكر فسلحه سلاحا تاما بسيفه ورمحه وترسه وجعبته ، ثم سر على قدر مشيه وإنا لا نقدر على سرعة المسير والقتال ففعل الجنيد ذلك ، ولم يعرض للناس عارض حتى خرجوا من الأماكن المخوفة ودنا من الطواويس ؛ وأقبل إليه خاقان بكر مبنية أول يوم من رمضان واقتتلوا ، فأتاه عبد الله بن أبى عبدالله وهو يضحك ، فقال الجنيد ليس هذا يوم ضحك قال الحمد لله إذ لم يلقك هؤلاء فى جبال معطشة وعلى ظهر إنما أتوك وأنت مخندق آخر النهار كالين وأنت معك الزاد ، فقاتلوا قليلا ، ثم رجعوا ، ثم قال للجنيد ارتحل فإن خاقان ود أنك تقيم فيطوى عليك إذا شاء ، فسار وعبد الله على الساقه ، ثم أمره بالنزول فنزل واستقى الناس وباتوا ، فلما أصبحوا ارتحلوا ، فقال عبد الله أتوقع أن خاقان يصدم الساقة اليوم فشدوها بالرجال فقواهم الجنيد وجاءت الترك فمالت على الساقة ، فاقتتلوا واشتد القتال بينهم وقتل مسلم بن أحوز عظيما من عظماء الترك فتطيروا من ذلك وانصرفوا من الطواويس ، وسار المسلمون فدخلوا بخارى يوم المهرجان فتلقوهم بالدراهم البخارية فأعطاهم عشرة عشرة ، قال عبد المؤمن بن خالد : رأيت عبد الله ابن أبى عبد الله فى الشام بعد موته فقال ، حدث الناس عنى برأيى يوم الشعب وكان الجنيد يذكر خالد ابن عبدالله فيقول : زبدة الناس من الزبد صنبور من صنبور قل من قل هيفة من الهيف ، والهيفة الضبع والقل الفرد والصنبور الذى لا أخ له وقدمت الجنود من الكوفة والبصرة على الجنيد فسرح معهم جوثرة ابن زيد العبرى فيمن انتدب معه وبقى الجنيد فى ولايته

إلى سنة ست عشرة ومائة كما سيأتى ، وفى هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح خرشنة وفى سنة ثلاث عشرة ومائة غزا عبد الله البطل أرض الروم ومعه عبد الوهاب ابن بخت ، فانهزم الناس عن البطل ، فحمل عبدالوهاب وهو يقول ما رأيت فرساً أجبن منه وسفك الله دمى إن لم أسفك دمك ، ثم ألقى بيضته عن رأسه وصاح أنا عبد الوهاب ابن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم فى نحو العدو فمر برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الرى أمامك فخالط القوم فقتل وقتل فرسه ، وفى هذه السنة أيضاً تفرق مسلمة بن عبدالملك بالجيوش ببلاد خاقان ، ففتحت حصون مداين على يديه وقتل منهم وأسر وسبى وأحرق ودان له من كانوا وراء جبال بلنجر وقتل ابن خاقان فاجتمعت تلك الأمم جميعا الخزر وغيرهم على خاقان فى جمع لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وقد جاز مسلمة بلنجر فلما بلغه خبرهم أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا خيامهم وأثقالهم ، وعاد هو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطوى المراحل كل مرحلتين فى مرحلة حتى وصل إلى الباب والأبواب فى آخر رمق وقد تقدم ذكر ذلك وأعيد هنا ليرتبط الكلام ببعضه.

ذكر قتل عبد الرحمن الغافقى أمير الأندلس

وفى سنة ثلاث عشر أيضاً كان غزو من المسلمين الذين بأفريقية على بلاد أفرنجة ، وذلك أن هشام بن عبد الملك ، كان قد استعمل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى على أفريقية والأندلس ، فاستعمل عبيدة على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فغزا أفرنجة وأوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة ، وكان فيما أصاب صورة رجل بكسر الراء وسكون الجيم من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزمرد فكسرها وقسمها فى الناس ، فبلغ ذلك عبيدة فغضب غضباً شديداً وكتب إليه يتهدده فأجابه عبد الرحمن وكان رجلا صالحا ، أما بعد : فإن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الله للمتقين منها مخرجاً يعنى فإن الله قادر أن ينجينى مما تتهددنى به ، ثم خرج غازياً مرة ثانية ببلاد الفرنج فقتل هو ومن معه شهداء .

ذكر ولاية مروان بن محمد أرمينية وأذربيجان بعد انقضاء
غزو مسلمة بن عبد الملك

فى سنة أربع عشرة ومائة استعمل هشام بن عبدالملك مروان بن محمد بن مروان وهو ابن عمه على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية وكان سبب ذلك أنه كان فى عسكر مسلمة بأرمينية حين غزا الخزر ، فلما عاد مسلمة سار مروان إلى هشام فلم يشعر به حتى دخل عليه ، فسأله عن سبب قدومه فقال ضقت ذرعا بما أذكره ولم أر من يحمله غيرى ، قال وما هو قال مروان قد كان من دخول الخزر إلى بلاد الإسلام ، وقتل الجراح وغيره من المسلمين، مادخل به الوهن على المسلمين ، ثم رأى أمير المؤمنين أنه يوجه أخاه مسلمة بن عبد الملك إليهم فوالله ماوطىء من بلادهم إلا أدناه ، ثم أنه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك فكتب إلى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فاستعد القوم وحشدوا فلما دخل بلادهم لم يكن له فيهم نكاية ، وكان قصاراه السلامة وقد أردت أن تأذن لى فى غزوة أذهب بها عنا العار وانتقم من العدو ، وقال قد أذنت لك قال وتمدنى بمائة وعشرين ألف مقاتل قال قد فعلت قال : وتكتم هذا الأمر عن كل واحد قال قد فعلت وقد استعملتك على أرمينية فودعه وسار إلى أرمينية واليًا عليها وسير هشام الجنود من الشام والعراق والجزيرة ، فاجتمع عنده من الجنود والمتطوعة مائة وعشرون ألفًا ، فأظهر أنه يريد غزو اللآن وقصد بلادهم ، وأرسل إلى ملك الخزر يطلب منه المهادنة فأجابه إلى ذلك ، وأرسل إليه ملك الخزر من يقرر الصلح فأمسك الرسول عنده إلى أن فرغ من جهازه وما يريد ، ثم أغلظ لهم القول وآذنهم بالحرب وسير الرسول إلى صاحبه بذلك ووكل به من يسيره على طريق فيه بعد وسار هو فى أقرب الطريق ، فما وصل الرسول إلى صاحبه إلا ومروان قد وافاهم فأعلمه صاحبه الخبر ، وأخبره بما قد جمع له مروان وحشد واستعد ، فاستشار ملك الخزر أصحابه فقالوا إن هذا قد اغترك ودخل بلادك إن أقمت إلى أن تجمع جنودك لم يجتمعوا عندك إلا بعد مدة فيبلغ منك ما يريد ، وإن أنت لقيته على حالك هذا هزمك وظفر بك ، والرأى أن تتأخر إلى أقصى بلادك وتدعه

وما يريد فقبل رأيهم وسار حيث أمروه ، ودخل مروان البلاد وأوغل فيها وأخربها وغنم وسبى وانتهى إلى آخرها وأقام فيها عدة أيام حتى أذلهم وانتقم منهم ودخل بلاد ملك السرير ، فأوقع بأهله وفتح قلاعا ودان له الملك وصالحه على ألف رأس نصفين خمسمائة غلاما وخمسمائة جارية سود الشعور ومائة ألف مد من البر تحمل إلى الباب وصالحه أهل قرمان على مائة رأس نصفين وعشرين ألف مد من البر ثم دخل أرض زريكران فصالحه ملكها ، ثم أتى أرض حمزين فأبى حمزين أن يصالحه فحاصرهم فافتتح حصنهم عنوة ثم أتى سغدان فافتتحها صلحاً ووظف على طيرشانشاه عشرة آلاف مدبر كل سنة تحمل إلى الباب ، ثم نزل على قلعة صاحب اللكز وقد امتنع من أداء الوظيفة فخرج ملك اللكز يريد ملك الخزر فقتله راع بسهم وهو لا يعرفه فصالح أهل اللكز مروان واستعمل عليهم عاملا وسار إلى قلعة شروان وهى على البحر فأذعن أهلها بالطاعة وسار إلى الدودانية فأوقع بهم ، ثم عاد ، وفى هذه السنة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى فأصاب ربض أقرن ، وغزا عبد الله البطال الروم والتقى هو وقسطنطين فى جمع فهزمهم البطال وأسر قسطنطين ، وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى وبلغ قيسارية ، وفى سنة خمس عشرة ومائة غزا معاوية ابن هشام أرض الروم وغزا عبد الملك بن قطن عامل الأندلس أرض البشكنس فغنم ، وعاد سالما ، وفى سنة ست عشرة ومائة غزا معاوية ابن عبد الملك أرض الروم الصائفة وفيها عزل هشام ابن عبد الملك الجنيد بن عبد الرحمن المرى عن خراسان واستعمل عليها عاصم ابن عبد الله الهلالى ، وسبب ذلك أن الجنيد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فغضب هشام لعداوته ليزيد بن المهلب لأنه خلع أخاه يزيد ابن عبد الملك كما تقدم فولى عاصما خراسان ، وكان الجنيد أصابه استسقاء فقال هشام لعاصم : إن أدركته وبه رمق فأزهق نفسه ، فقدم عاصم وقد مات الجنيد ، وفى هذه السنة استعمل هشام على أفريقية عبد الله بن الحجاب الموصلى فسير جيشاً إلى صقلية وهى بكسرات مشددة اللام جزيرة بالمغرب ، فلقيهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزمت الروم ، وكانوا قد أسروا جماعة من المسلمين منهم عبد الرحمن بن زياد فبقى

أسيراً إلى سنة إحدى وعشرين ومائة ، وفى سنة ست عشرة أيضاً جهز عبيد بن الحجاب جيشاً مع حبيب بن أبى عبيدة وسيرهم إلى أرض السودان فظفر بهم ظفراً لم يظفر أحد مثله وأصاب ماشاء ، ثم غزا البحر ثم انصرف سالماً وفيها سير أيضاً ابن الحجاب جيشاً إلى السوس فغنموا وظفروا وعادوا ، وفى سنة سبع عشرة ومائة غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وغزا سليمان بن هشام الصائفة اليمنى من نحو الجزيرة وفرق سراياه فى أرض الروم وفيها بعث مروان بن محمد وهو عن أرمينية بعثين وافتتح أحدهما حصوناً ثلاثة من اللان ، ونزل الآخر على تومانشاه فنزل أهلها على الصلح وفى هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك عاصم بن عبد الله عن خراسان وأعاد أمر خراسان لوالى العراق خالد بن عبد الله القسرى ، فولى خالد خراسان أخاه أسد بن عبد الله وهذه ولايته الثانية ؛ وسيأتى ذكر غزواته ، وفيها بعث عبيد الله بن الحجاب حبيب بن أبى عبيدة ابن عقبة بن نافع غازياً إلى المغرب فبلغ السوس الأقصى وأرض السودان فلم يقاتله أحد إلا ظفر به وأصاب من الغنائم والسبى أمراً عظيماً فملىء أهل المغرب منه رعباً ، وأصاب فى السبى جاريتان من البربر ليس لكل واحدة منهما غير ثدى واحد ورجع سالماً وسير جيشاً فى البحر سنة سبع عشرة ومائة أيضاً إلى جزيرة السردانية وهى جزيرة كبيرة ببحر المغرب ففتحوا منها ونهبوا وغنموا وعادوا وسير جيشاً إلى صقلية سنة اثنتين وعشرين ، فلم يلقه أحد إلا هزمه فظفر ظفراً لم ير مثله حتى نزل على مدينة سرقوسة وهى من أعظم مدن صقلية فقاتلوه فهزمهم وحصرهم فصالحوه على الجزية ، وفى سنة ثمان عشرة ومائة غزا معاوية وسليمان ابنا هشام بن عبد الملك أرض الروم ، وفى السنة كانت وفاة معاوية المذكور فى حياة والده وأعقب أولاداً منهم عبد الرحمن الداخل بن معاوية ابن هشام الذى ملك الأندلس ثم وأولاده بعده ، وفى هذه السنة غزا أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان طخارستان ثم أرض جبوية فغنم وسبى وفيها غزا مروان بن محمد ابن مروان . أرمينية ودخل أرض ورنيس من ثلاثة أبواب فهرب منه ورنيس إلى الخزر ونزل حصنه فحصره مروان ونصب عليه المجانيق ، فقتل ورنيس قتله بعض من

فاجتاز به وأرسل رأسه إلى مروان فنصبه لأهل خصمه فنزلوا على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية .

ذكر مقتل خاقان

لما كانت سنة تسع عشرة ومائة غزا أسد بن عبد الله القسرى بلاد الختل فافتتح منها قلاعا وامتلأت أيدى العسكر من السبى والشاء ولما بلغ الخبر خاقان جيش جيوشه وقصد أسد ، فعبر المسلمون النهر راجعين إلى بلادهم فتبعهم خاقان والتقوا بعد عبور النهر ؛ واقتتلوا قتالا شديداً وهزموا خاقان ثم مضى أسد إلى بلخ وشتى فيها ثم قصدهم خاقان بجيوشه إلى بلخ ، ثم التقوا على فرسخين من الجوزجان فانهزم خاقان ومن معه تبعهم المسلمون ثلاثة فراسخ وغنموا مائة وخمسين ألفاً من الشاء وذواب كثيرة ، ورجع أسد إلى بلخ ثم وصل خاقان إلى بلاده وأخذ فى الاستعداد للحرب ولاعب يوما خاقان بالنرد كورصول فغمزه كورصول وتشاجرا فصك كورصول يد خاقان فكسرها فحلف خاقان ليكسرن يده فتنحى وجمع جمعاً ثم بيت خاقان فقتله وتفرقت الترك واشتغلت الترك بغير بعضهم على بعض ، وأرسل أسد مبشراً إلى هشام فلما بلغ هشام بن عبد الملك مقتل خاقان سجد شكراً لله ثم غزا أسد الختل مرة ثانية وفرق عسكره فى أودية الختل فملأوا أيديهم من الغنائم والسبى وهرب أهله إلى الصين ، وفى سنة تسع عشرة أيضاً غزا الوليد بن القعقاع أرض الروم وغزا مروان بن محمد ابن مروان من أرمينية فدخل بلاد اللان وسار فيها حتى خرج منها إلى بلاد الخزر فمر ببلنجر وسمندر ، وانتهى إلى البيضاء التى يكون فيها خاقان وكان ذلك قبل مقتل خاقان فهرب منه خاقان ، وفى سنة عشرين توفى أسد بن عبد الله بمدينة بلخ وفيها عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله عن العراق وولى يوسف بن عمر الثقفى وولى نصر بن سيار الكنانى خراسان بعد موت أسد بن عبد الله ، وفى هذه السنة غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك الصائفة وفتح سندرة وغزا إسحاق ابن مسلم

العقيلى تومانشاه وافتتح قلاعها وخرب أرضها وفى هذه السنة توفى مسلمة ابن عبد الملك بن مروان ، وفى سنة إحدى وعشرين ومائة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير .

ذكر غزوات نصر بن سيار الكنانى ما وراء النهر

كان نصر بن سيار عاقلا حازما شجاعا مدبراً عمرت خراسان فى مدة ولايته عمارة لم تعمر قبلها وأحسن الولاية والجباية ، مكث والياً على خراسان إلى سنة ثلاثين ومائة فكانت مدة ولايته عشر سنين ، وكان قبل ولايته من أمراء الأجناد بخراسان وولى على بعض من المدائن ، وكان جعفر بن حنظلة الذى استخلفه أسد على خراسان عند موته قد عرض على نصر أن يوليه بخارى ، فاستشار البخترى بن مجاهد مولى بنى شيبان فقال له لا تقبلها لأنك شيخ مضر وكأنك بعهدك قد جاء على خراسان كلها ، فلما أتاه عهده بعث إلى البخترى ليأتيه فقال البخترى لأصحابه قد ولى نصر خراسان فلما أتاه سلم عليه بالإمارة فقال من أين علمت ، فقال كنت تأتينى ، فلما بعث إلى علمت أنك قد وليت ولما مات أسد بن عبد الله ، وبلغ خبر موته هشام بن عبد الملك استشار عبد الكريم ابن سليط الحنفى ، وكان عالما فيمن يوليه خراسان ، فقال عبد الكريم يا أمير المؤمنين أما رجل خراسان حزما ونجدة فالكرمانى فأعرض عنه ، وقال ما اسمه قال جديع بن على قال لا حاجة لى فيه وتطير قال فالمسن المجرب يحيى بن نعيم بن هبيرة الشيبانى قال هشام ربيعة لا تسد بها الثغور ، قال عبد الكريم فقلت فى نفسى كره ربيعه واليمن فارمه بمضر فقلت عقيل ابن معقل الليثى إن غفرت هنته قال ما هى قلت ليس العفيف ، قال لا حاجة لى فيه ، فقلت منصور بن أبى الخرقاء السلمى إن غفرت نكره فإنه مشؤوم قال غيره قلت فالمجسر بن مزاحم السلمى عاقل شجاع له رأى مع كذب فيه قال لا خير فى الكذب قلت يحيى بن الحصين قال ألم أخبرك أن ربيعة لا تسد بها الثغور ، قال فقلت نصر بن سيارة قال هو لها قلت هو عفيف مجرب عاقل إن عفوت له واحدة قال ما هى قلت عشيرته بخراسان قليلة قال لا أبا لك تريد أكثر منى عشيرة أنا عشيرته ، فكتب عهده وبعثه مع عبد الكريم .

فأعطاه نصر لما أتاه به عشرة آلاف درهم ، واستعمل نصر على خراسان رجال مضر إلى أربع سنين لم يستعمل أحداً من غير مضر ، وغزا نصر فى سنة إحدى وعشرين ما وراء النهر مرتين إحداهما من نحو الباب الحديد فسار من بلخ من تلك الناحية ، ثم رجع إلى مرو وخطب الناس . وأخبرهم أنه أقام منصور بن عمر بن أبى الخرقاء على كشف المظالم ، وأنه قد وضع الجزية عمن قد أسلم وجعلها على من كان يخفف عنه من المشركين ، فرغبوا فى الإسلام ، فلم تمض جمعة حتى أتاه ثلاثون ألف مسلم كانوا يؤدون الجزية عن رؤسهم وثمانون ألفاً من المشركين كانت قد ألقيت عنهم ، فحول ما كان على المسلمين إليهم ووضعه عن المسلمين ثم صنف الخراج ووضعه مواضعه ، ثم غزا الثانية إلى زرشغر وسمرقند ثم رجع ثم غزا الثالثة إلى الشاش من مرو فحال بينه وبين عبور نهر الشاش كورصول فى خمسة عشر ألفاً ، وكان معهم الحارث بن سريج وكان قبل ذلك من أمراء المسلمين على جند خراسان ، ثم وقعت فتنة بينهم فاعتزلهم وصار مع خاقان ثم مع كورصول ، فعبر كورصول أربعين رجلا فبيت العسكر فى ليلة مظلمة ومع نصر ملك بخارى فى أهل بخارى ومعه أهل سمرقند وكش ونسف وهم عشرون ألفاً فنادى نصر أن لا يخرجن أحد واثبتوا على مواضعكم ، فخرج عاصم ابن عمير السعدى وهو على جند سمرقند فمرت به خيل الترك فحمل على رجل فى آخرهم فأسره فإذا هو ملك من ملوكهم وصاحب أربعة آلاف قبة ، ثم تبين أنه كورصول ، فأتى به إلى نصر فقال له نصر من أنت قال كورصول فقال نصر الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو الله ، قال ما ترجو من قتل شيخ وأنا أعطيك أربعة آلاف بعير من إبل الترك وألف برذون تقوى به جندك وتطلق سبيلى فاستشار نصر أصحابه فأشاروا بإطلاقه فلم يوافقهم ، ثم سأله عن عمره قال لا أدرى قال كم غزوت قال اثنتين وسبعين غزوة قال أشهدت يوم العطش ، قال نعم قال نصر لو أعطيتنى ما طلعت عليه الشمس ما أفلت من يدى بعد ما ذكرت من مشاهدك وقال لعاصم بن عمير السعدى قم إلى صلبه فخذه ، فقال من أسرنى فقال نصر وهو يضحك أسرك يزيد بن قران الحنظلى ، وأشار إليه قال هذا لا يستطيع أن يغسل إسته أو لا يستطيع أن يتم له بوله فكيف يأسرني أخبرنى من أسرنى ، قال أسرك عاصم ابن

عمير قال لست أجد ألم القتل إذا كان أسرنى فارس من فرسان العرب فقتله وصلبه على شاطئ النهر ، فلما قتل كورصول أحرقت الترك ابنتيه وقطعوا آذانهم وقطعوا شعورهم وأذناب خيلهم ، فلما أراد نصر الرجوع أحرقه لئلا يحملوا عظامه ، فكان ذلك أشد عليهم من قتله وارتفع إلى فرغانة فسبى بها ألف رأس وكتب يوسف بن عمير أمير العراق إلى نصر سر إلى هذا الغادر دينه فى الشاش يعنى الحارس بن سريج فإن أظفرك الله به وبأهل الشاش ، فخرب بلادهم واسب ذراريهم وإياك وورطة المسلمين . فقرأ الكتاب على الناس واستشارهم فقال يحيى بن الحصين أنظر أهذا من أمير المؤمنين أو من الأمير فقال نصر يا يحيى تكلمت بكلمة أيام عاصم ، فبلغت الخليفة فحظيت بها وبلغه الدرجة الرفيعة فقلت أقول مثلها سر يا يحيى فقد أوليتك مقدمتى فلام الناس يحيى ، فسار إلى الشاش فأتاهم الحارث بن سريج فنصب عليهم عرادتين بالتشديد تثنية عرادة شىء أصغر من المنجنيق وأغار الاخرم وهو فارس الترك على المسلمين ، فقتلوه وألقوا رأسه إلى الترك فصاحوا وانهزموا ، وسار نصر إلى الشاش فتلقاه ملكها بالصلح والهداية والرهن واشترط عليه نصر إخراج الحارث بن سريج عن بلده ، فأخرجه إلى فاراب ، ثم تنقل الحارث فى بلاد الترك إلى سنة ست وعشرون ثم اصطلح مع المسلمين ، ورجع إلى خراسان سنة سبع وعشرين فكانت مدة مفارقته للمسلمين واتصاله بالترك ثنتى عشرة سنة ، ورد عليه نصر ما كان أخذ له ثم استعمل نصر على الشاش بعد الصلح مع أهله نيزك بن صالح مولى عمرو ابن العاص ، ثم سار حتى نزل قباء من أرض فرغانة وكانوا أحسوا بمجيئه فأحرقوا الحشيش وقطعوا الميرة فوجه نصر إلى ولى صاحب فرغانة فحاصروه فى حصن وغفلوا عنه فخرج وغنم دواب المسلمين ، فوجه إليهم نصر رجالا من تميم ومعهم محمد بن المثنى ، وكمن المسلمون لهم فخرج الترك ، واستاقوا بعض الدواب فخرج عليهم المسلمون فهزموهم وقتلوا الدهقان ، وأسروا منهم وأسروا ابن الدهقان فقتله نصر ثم سألوه الصلح فأرسل نصر سليمان ابن صول بكتاب الصلح إلى صاحب فرغانة فأمر به فأدخل به الخزائن ليراها ، ثم رجع إليه فقال كيف رأيت الطريق فيما بيننا وبينكم قال سهلا كثير الماء والمرعى فكره ذلك وقال

ما أعلمك قال سليمان قد غزوت غرشستان وغور الختل وطبرستان فكيف لا أعلم قال فكيف رأيت ما أعددنا ؟ قال عدة حسنة ، ولكن ماعلمت أن المحور لايسلم من خصال لايأمن أقرب الناس إليه وأوثقهم في نفسه أويفنى ماجمع فيسلم برمته أو يصيبه داء فيموت فكره ما قال له ، وأمر فأحضر كتاب الصلح فأجاب إليه وسيرأمه معه ، وكانت صاحبة أمره فقدمت على نصر فأذن لها وجعل يكلمها وكانت مماقالت له كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء لا يكون ملكا ، وزير يبث إليه ما في نفسه ويشاوره ويثق بنصيحته ، وطباخ إذا لم يشتهي الطعام اتخذ له ما يشتهي وزوجة إذا دخل عليها مغتما فنظر إلى وجهها زال غمه وحصن إذا فرغ أتاه فأنجاه تعني البرذون وسيف إذا قاتل لايخشى خيانته وذخيرة إذا حملها عاش بها أين كان من الأرض ، ثم دخل تميم بن نصر في جماعة ، فقالت من هذا قالوا هذا فتى خراسان تميم بن نصر فقالت : ماله نبل الكبير ولاحلاوة الصغير ثم دخل الحجاج ابن قتيبة بن مسلم الباهلي فقالت من هذا ؟ فقالوا الحجاج بن قتيبة بن مسلم فأحبته وسألت عنه ، وقالت يا معشر العرب مالكم وفاء ولا يصلح بعضكم بعضاً قتيبة الذي ذلل لكم ما أرى وهذا ابنه تقعده دونك فحقه أن تجلسه أنت هذا المجلس وتجلس أنت مجلسه وعقدت الصلح ورجعت .

ذكر غزو مروان بن محمد بن مروان

في سنة إحدى وعشرين غزا مروان بن محمد بأرمينية وهو واليها ، فأتى قلعة بيت السرير فقتل وسبى ودخل غوميك وهو حصن فيه بنت الملك وسريره فهرب الملك منه حتى أتى حصناً يقال له خيزج فيه سرير من ذهب فسار إليه مروان ونازله صيفيته وشتويته فصالح الملك على ألف رأس كل سنة ومائة ألف مد فصالحه وسار مروان ؛ فدخل أرض أزر وبطران فصالحه ، وسار حتى أتى حمزين فأخرب بلاده وحصر حصناً له شهراً فصالحه ثم أتى مروان أرض مسداره فافتتحها على صلح ثم نزل مروان كيران فصالحه طبرسران وفيلان وكل هذه الولايات على شاطىء البحر من أرمينية إلى طبرستان وفي هذه السنة غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح بها مطامير وفي هذه السنة قتل البطال واسمه عبد الله

أبو الحسين الأنطاكى وقتل معه جماعة من المسلمين ببلاد الروم وكان كثير الغزو إلى الروم والإغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم ، حكى أنه دخل بلادهم فى بعض غزواته هو وأصحابه فدخل قرية لهم ليلا وامرأة تقول لصغيرها وهو يبكى تسكت وإلا سلمتك للبطال ثم رفعته بيدها وقالت خذ يا بطال وكان قريبا منها ولم تعلم به فتناوله من يدها وكان عبدالملك بن مروان يرسله مع ابنه مسلمة إلى بلاد الروم وأمره مرة على رؤساء أهل الجزيرة والشام وأمر ابنه مسلمة أن يجعله على مقدمته وطلائعه وقال أنه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس وله قصص ووقائع كثيرة .

ذكر صلح نصر بن سيار مع الصغد

فى سنة ثلاث وعشرين ومائة صالح نصر بن سيار الصغد وسبب ذلك أن خاقان لما قتل فى ولاية أسد بن عبد الله تفرقت الترك فى إغارة بعضها على بعض فطمع أهل الصغد فى الرجعة إليها ، وانحاز قوم منهم إلى الشاش ، فلما ولى نصر ابن سيار أرسل إليهم يدعوهم إلى الرجوع إلى بلادهم وأعطاهم ما أرادوا وكانوا يسألون شروطا أنكرها أمراء خرسان ، منها أن لا يعاقب من كان مسلما فارتد عن الإسلام ولا يعدى عليهم فى دين لأحد من الناس ، ولا يؤخذ أسراء المسلمين منهم إلا بقضية قاض وشهادة عدول فعاب الناس فى ذلك على نصر وتكلموا فيه ، فقال لو عاينتم شوكتهم فى المسلمين مثل ما عاينت ما أنكرتم ذلك وأرسل رسولا إلى هشام بن عبدالملك فى ذلك فأجابه إليه ، وفى سنة أربع وعشرين ومائة غزا سليمان بن هشام الصائفة فلقى إليون ملك الروم فهزمه وقتل وسبى وغنم . وفى سنة خمس وعشرين توفى هشام الصائفة بن عبد الملك وبويع الوليد بن يزيد بن عبد الملك فأقر نصر بن سيار على خراسان ، ثم ثارت فتن بين أولاد عبد الملك وقتل الوليد بن يزيد سنة ست وعشرين ، وبويع اليزيد ابن الوليد بن عبد الملك وتوفى بعد ستة أشهر وبويع أخوه إبراهيم بن الوليد ثم خلع بعد سبعين يوما وبويع مروان بن محمد سنة سبع وعشرين فأقر نصر ابن سيار على ولاية خراسان ، واستمر مروان بن محمد خمس سنين وعشرة أشهر وثارت الفتن بينه

وبين بنى العباس وقتل مروان بن محمد سنة اثنتين وثلاثين وعمره اثنتان وستون سنة ، وقامت الدولة العباسية وتفصيل ذلك كله طويل مذكور فى التواريخ والقصد فى هذا الكتاب ذكر الفتوحات التى فيها جهاد الكفار وفى مدة هذه الفتن انقطع الغزو والجهاد وانتشرت الفتن بين المسلمين فى كل قطر وإقليم .

ذكر غزو ملك الروم ملاطية

نشأ من الفتن التى كانت بين المسلمين فى هذه السنين أن الروم طمعوا فى البلاد ، فأقبل قسطنطين ملك الروم إلى ملاطية وكمخ فى سنة ثلاث وثلاثين فى خلافة السفاح أول خلفاء بنى العباس ، فلما أقبل قسطنطين نازل كمخ فأرسل أهلها إلى أهل ملاطية يستنجدونهم فسار إليهم منها ثمانمائة مقاتل فقاتلهم الروم فانهزم المسلمون ونازل الروم ملاطية وحصروها ، وأرسل قسطنطين إلى أهل ملاطية إنى لم أحصركم إلا على علم من المسلمين واختلافهم فلكم الأمان وتعودون إلى بلاد المسلمين حتى احترز ملاطية ، فلم يجيبوه إلى ذلك فنصب المجانيق فأذعنوا وسلموا البلد على الأمان وانتقلوا إلى بلاد الإسلام وحملوا ما أمكنهم حمله وما لم يقدروا عن حمله ألقوه فى الآبار والمجارى وسار ملك الروم إلى قاليقلا فنزل مرج الحصى وأرسل كوشان الأرمنى فحصرها ، فنقب إخوان من الأرمن من أهل المدينة ردماً كان فى سورها فدخل كوشان ومن معه المدينة فغلبوا عليها وقتلوا رجالا وسبوا النساء وساقوا الغنائم إلى ملك الروم ، وفى هذه السنة كان متولياً على خراسان أبو مسلم القائم بدعوة بنى العباس فوجه أبا داود خالد إبراهيم الذهلى إلى الختلى فدخلها فلما انتهى إلى أرض فرغانة تحالف أخشيد فرغانة وملك الشاش واستمد أخشيد ملك الصين فأمده بمائة ألف مقاتل فحصروا ملك الشاش فنزل على حكم ملك الصين وبلغ الخبر أبا مسلم فوجه إلى حربهم زياد بن صالح فالتقوا على نهر طراز فظفر بهم المسلمون وقتلوا منهم زهاء خمسين ألفاً وأسروا نحو عشرين ألفاً وهرب الباقون إلى الصين .

ذكر غزوة كش

في سنة أربع وثلاثين غزا أبو داود خالد بن إبراهيم الذهلي أهل كش فقتل ملكها وهو سامع مطيع وقتل أصحابه وأخذ منهم الأواني الصينية المنقشة المذهبة لم ير مثلها ، ومن السروج ومتاع الصين من الديباج والطرف شيئاً كثيراً ، وحمله إلى أبي مسلم وهو بسمرقند وقتل عدة من دهاقينهم ورجع أبو داود إلى بلخ ، وفي سنة خمس وثلاثين غزا عبد الله جزيرة صقلية وغنم بها وسبي بعد أن غزا أيضاً تلمسان ، وفي سنة ست وثلاثين توفي السفاح وبويع أخوه المنصور وقتل أبامسلم سنة سبع وثلاثين وولي خراسان بعدقتل أبي مسلم أبا داود خالدبن إبراهيم الذهلي ، وفي سنة ثمان وثلاثين خرج قسطنطين ملك الروم إلى بلاد الإسلام ، فدخل ملاطية عنوة ، وغلب وقهر أهلها وهدم سورها وعفا عمن فيها من المقاتلة والذرية فبعث المنصور أخاه العباس بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما ومعه صالح بن علي وعيسى بن علي في جيش فبنوا ما كان ملك الروم أخربه من السور ملاطية ، ثم غزوا الصائفة سنة تسع وثلاثين ومائة من درب الحدث فوغلوا في أرض الروم وغزوا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة وكانتا نذرتا إن زال ملك بني أمية تجاهداً في سبيل الله ، وغزا من درب ملاطية جعفر بن حنظلة المهراني ، وفي هذه السنة كان الفداء بين المنصور وملك الروم فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم وبناها وعمرها ورد أهلها إليها وندب إليها جنداً من أهل الجزيرة وغيرهم ، فأقاموا فيها وحموها ولم يكن بعد ذلك صائفة إلى سنة ست وأربعين لاشتغال المنصور بالفتنة التي كانت بينه وبين بني عبد الله بن الحسن بن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وقيل أن الحسن بن قحطبة غزا الصائفة سنة أربعين مع عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، وأقبل قسطنطين ملك الروم في مائة ألف فبلغ جيحان فسمع كثرة المسلمين فأحجم عنهم ثم لم يكن بعدها صائفة إلى سنة ست وأربعين لكن حصلت وقائع وغزوات بخراسان وغيرها في هذه المدة كما سترى ذلك . وفي سنة تسع وثلاثين ومائة كان دخول عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأندلس وتملكها وخرجت الأندلس عن ولاية بني

العباس وقصة تملك عبد الرحمن الداخل الأندلس طويلة ملخصها أنه لما قامت الدولة العباسية أخذوا يتتبعون بنى أمية قتلا ، فهرب عبد الرحمن المذكور مختفياً ومازال يتنقل حتى دخل الأندلس وكان بالأندلس رجال من بقايا مواليهم فأعانوه حتى انتزع الأندلس من عمال بنى العباس بعد حروب كثيرة ، واستفحل ملكه وملك بنيه بعد الأندلس وكان دخوله بالأندلس فى خلافة المنصور العباسى وكان المنصور يعجب من أمره ويسميه صقر قريش وأراد استرجاع الأندلس من يده فلم يتمكن له والكلام على ذلك طويل ذكرته فى التاريخ الذى جمعته فى أخبار الأندلس ملخصاً من نفح الطيب وغيره ، ولما استقامت أموره وتمكنت دولته بلغه عن بعض من أعانه أنه يقول لولا أنا ما توصل لهذا الملك ، وكان منه أبعد من النجم وقال قائل آخر إنما أعانه سعده لا عقله وتدبيره فحركه ذلك إلى أن قال :

لا يلف ممتن علينا قائل ... لولاى ما ملك الإمام الداخل
سعدى وحزمى والمهند والقنا ... ومقادر بلغت وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب ... نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا ... أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله ... خير السعادة ما حواها العاقل
أبنى أمية قد جبرنا صدعكم ... بالغرب رغما والسعود قبائل
وما دام من نسل إمام قائم ... فالملك فيكم إمام متواصل

وما زال مستمر فى ملكه ثلاث وثلاثين سنة وأربعة أشهر إلى أن توفى سنة ١٧٢ وعمره تسع وخمسون سنة ، واستمر الملك فى بنيه إلى أواخر القرن الرابع وسيأتى ذكر كثير من غزواته وفتوحاته ولنرجع إلى تمام الكلام على فتوحات بنى العباس ففى سنة ١٤٠ مات أبو داود خالد بن إبراهيم الذهلى عامل خراسان وأقيم مقامه عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى ثم ظهر منه مخالفة وعصيان وأراد خلع المنصور فجهزه عليه فى سنة إحدى وأربعين ابنه المهدى وعمره نحو خمس عشرة سنة ومعه جيش ، فأسر عبد الجبار وبعث به إلى المنصور

فقتله ، وصارت ولاية خراسان للمهدى بن المنصور ، وكان كثير من أهل خراسان قد نقضوا لما تغيرت الدولة واسترجع بعض الكفار ما كان لهم من الملك فكتب المنصور إلى ابنه للمهدى أن يغزوا طبرستان .

ذكر غزو طبرستان

فى سنة إحدى وأربعين ومائة كتب المنصور إلى ابنه المهدى وهو على خراسان أن يغزوا طبرستان وينزل الرى ويوجه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة والجنود إلى الأصبهبذ وكان الأصبهبذ يومئذ محاربا للمصمغان ملك دنباوند معسكراً بإزائه فلما بلغه دخول جنود الإسلام بلاده ودخول أبى الخصيب سايره فقال المصمغان للأصبهبذ متى قهروك صاروا إلى فاجتمعوا على حرب المسلمين فانصرف الأصبهبذ إلى بلاده فحارب المسلمين فطالت تلك الحروب فوجه المنصور عمر بن العلاء إلى طبرستان وكان عالما ببلاد طبرستان فأخذ الجنود وقصدالرويان ، ففتحها وأخذ قلعة الطلق وما فيها وطالت الحروب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل منهم فأكثر وصار الأصبهبذ إلى قلعته فحصر فطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من الذخائر ، وكتب بذلك ؛ فوجه المنصور رجالا أحصوا ما فى الحصن وانصرفوا ودخل الأصبهبذ بلاد جيلان من الديلم وأخذت ابنته وقصدت الجنود بلد المصمغان فظفروا به وبالجيرة أم منصور بن المهدى ، وفى سنة اثنتين وأربعين ومائة خلع الطاعة عيينة بن موسى بن كعب عامل السند فبعث المنصور عمر بن أبى حفص العتكى عاملا على السند والهند فسار وغلب عليها بعد حروب .

ذكر نكث الأصبهبذ

فى سنة اثنتين وأربعين ومائة نكث الأصبهبذ بطبرستان العهد بينه وبين المسلمين وقتل من كان ببلاده منهم ، فلما انتهى الخبر إلى المنصور سير مولاه أبا الخصيب وخازم بن خزيمة وروح بن حاتم ، فأقاموا على الحصن يحاصرونه وهو فيه فلما طال عليهم المقام احتال أبو الخصيب فى ذلك فقال لأصحابه اضربونى واحلقوا رأسى ولحيتى ففعلوا ذلك ولحق بالأصبهبذ فقال له فعل بى هذا تهمة منهم لى أن يكون هواى معك وأخبره أنه معه وأنه

دليل على عورة عسكرهم فقبل ذلك الأصبهبذ وجعله فى خاصته ولطفه وكان باب حصنهم من حجر يلقى القاء يرفعه الرجال وتضعه عند فتحه وأغلاقه وكان الأصبهبذ يوكل به ثقاة أصحابه نوبا بينهم ، فلما وثق الأصبهبذ إلى أبى الخصيب وكله بالباب فتولى فتحه وإغلاقه حتى أنس به ثم كتب أبو الخصيب إلى روح وخازم وألقى الكتاب فى سهم وأعلمهم أنه قد ظفر بالحيلة وواعدهم ليلة فى فتح الباب فلما كانت تلك الليلة فتح لهم فقتلوا من فى الحصن من المقاتلة وسبوا الذرية وأخذوا أسكلا أم ابراهيم بن المهدى وكان مع الأصبهبذ سم فشربه ومات .

ذكر نكث الديلم

فى سنة ثلاث وأربعين نكث الديلم وثاروا بالمسلمين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة فبلغ ذلك المنصور فندب الناس إلى قتال الديلم وجهادهم فساروا إليهم وقتلوهم وأخضعوهم سنة أربع وأربعين . وفى سنة خمس وأربعين كان ابتداء بناء مدينة بغداد وانتقال المنصور إليها سنة ست وأربعين وفيها خرجت الترك والخزر بباب الأبواب فقتلوا من المسلمين بأرمينية جماعة كثيرة ، وفى سنة ست وأربعين غزا الصائفة جعفر بن حنظلة البهرانى وغزا مالك ان عبد الله الخثعمى بلاد الروم فغنم غنائم كثيرة ، وفى سنة سبع وأربعين أغار استرخان الخوارزمى فى جمع الترك على المسلمين بناحية أرمينية وسبى من المسلمين خلقاً ودخلوا تفليس فسير المنصور إلى محاربتهم جبرائيل بن يحيى وحرب بن عبد الله فى جند كثير فقاتلوهم ، فهزم جبرائيل وقتل حرب من أصحابه وقتل من أصحاب جبرائيل خلق كثير . وفى سنة سبع وأربعين غزا العباس بن محمد أرض الروم ومعه الحسن بن قحطبة ومحمد بن الأشعث وأغزا عبد الرحمن الداخل صاحب الأندلس مولاه بدراً إلى بلاد العدو فجاوز إليه وأخذ الجزية .

ذكر خروج أستاذسيس

فى سنة خمسين ومائة خرج أستاذسيس فى أهل هراة وبادغيس وسجستان وغيرها من خراسان وكان فيما قيل فى ثلاثمائة ألف مقاتل فغلبوا على عامة خراسان وساروا حتى

التقوا هم وأهل مرو الروذ فخرج إليهم الأجشم بالمروذى فى أهل مرو الروذ فقاتلوه قتالا شديداً فقتل الأجشم المروذى وأكثر القتل فى أصحابه وهزم عدة من القواد ، فوجه المنصور وهو بالرازان خازم بن خزيمة إلى المهدى فولاه المهدى محاربة أستاذ سيس وضم إليه القواد فسار إليه خازم وأخذ معه من انهزم وجعلهم فى أخريات الناس يكثر بهم من معه وكان معه من هذه الطبقة اثنان وعشرون ألفاً ، ثم انتخب منهم ستة آلاف وضمهم إلى اثنى عشر ألفاً كانوا معه من المنتخبين وكان بكار بن سلم العقيلى فيمن انتخب وتعبى للقتال ، وكان لؤلؤة مع الزبرقان ، فسكر بهم وراوغهم فى أن ينقلهم من موضع إلى موضع وخندق إلى خندق حتى قطعهم ثم سار خازم إلى موضع فنزله وخندق عليه وعلى جميع أصحابه وجعل له أربعة أبواب وجعل على كل باب ألفا من أصحابه الذين انتخبوا وأتى أصحاب أستاذسيس ومعهم الفوس والرازة والزبر ليحطموا الخندق ، فأتوا الخندق من الباب الذى عليه بكار بن سلم فحملوا على أصحاب بكار حملة هزموهم بها فرمى بكار بنفسه فترجل على باب الخندق وقال لأصحابه لا يؤتى المسلمون من ناحيتنا فترجل معه من أهله وعشيرته نحو خمسين رجلا ، وقاتلوهم حتى ردوهم وأقبل على الباب الذى عليه خازم رجل من أصحاب أستاذسيس اسمه الحريش وهو الذى كان يدبر أمرهم فلما رآه خازم مقبلا بعث إلى الهيثم بن شعبة وكان فى الميمنة يأمره أن يخرج من الباب الذى عليه بكار فإن من بإزائه قد شغلوا عنهم ويسيروا حتى يغيب عن أبصارهم ، ثم يرجع من خلف العدو وقد كانوا يتوقعون قدوم أبى عون وعمرو بن مسلم بن قتيبة من طخارستان ، وبعث خازم إلى بكار يقول له إذا رأيت رايات الهيثم قد جاءت فكبروا وقولوا قد جاء أهل طخارستان ففعل ذلك الهيثم وخرج خازم فى القلب على الحريش يشغلهم بالقتال وصبر بعضهم لبعض فبينما هم على ذلك نظروا إلى أعلام الهيثم قد أقبلت فتنادوا بينهم جاء أهل طخارستان ، وحمل أصحاب خازم فكشفوهم ولقيهم أصحاب الهيثم فطعنوهم بالرماح، ورموهم بالنشاب وخرج نهار بن حصين من ناحية الميسرة وبكار بن سلم وأصحابه من ناحيتهم فهزموهم ووضعوا فيهم السيوف فقتلهم المسلمون فأكثروا فكان عدد من قتل سبعين ألفاً وأسروا أربعة عشر ألفاً ، ونجا

أستاذ سيس إلى جبل فى نفر يسير فحصرهم خازم وقتل الأسرى ووافاه أبو عون وعمرو ابن سلم ومن معهما فنزل أستاذسيس على حكم أبى عون فحكم أن يوثق أستاذ سيس وبنوه وأهل بيته بالحديد وأن يعتق الباقون وكانوا ثلاثين ألفا ، فأمضى خازم حكمه وكسا كل رجل ثوبين وكتب إلى المهدى بذلك فكتب المهدى إلى المنصور وقد قيل أن أستاذ سيس قد ادعى النبوة ، وأظهر أصحابه الفسق وقطع السبيل قيل أنه جد المأمون أبو أمه مراجل وابنه غالب خال المأمون وفى هذه السنة قدم المهدى من خراسان ، فقدم عليه أهل بيته من الشام والكوفة والبصرة وغيرها فهنوه بمقدمه فأجازهم وحملهم وكساهم وفعل بهم المنصور مثل ذلك وبنى له الرصافة وفيها غزا الصائفة عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام بن محمد بن على. وفى سنة اثنتين وخمسين ومائة استعمل المنصور على خراسان حميد بن قحطبة فغزا كابل وغزا الصائفة عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام ، وفى سنة ثلاث وخمسين غزا الصائفة معيوف بن يحيى فوصل إلى حصن من حصون الروم ليلا وأهله نيام فسبى وأسر من كان فيه ثم قصد اللاذقية الخراب فسبى منها ستة آلاف رأس سوى الرجال البالغين . وفى سنة أربع وخمسين غزا الصائفة زفر بن عاصم الهلالى فبلغ الفرات، وفى سنة خمس وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى وفيها طلب ملك الروم الصلح إلى المنصور على أن يؤدى الجزية ، وفى سنة ست وخمسين غزا الصائفة زفر ابن عاصم الهلالى ، وفى سنة سبع وخمسين غزا الصائفة يزيد بن أسيد السلمى فسبى وغنم ، وفى سنة ثمان وخمسين توفى المنصور وبويع ابنه محمد المهدى وغزا الصائفة معيوف بن يحيى من درب الحدث فلقى العدو فاقتتلوا ثم تحاجزوا . وفى سنة تسع وخمسين غزا العباس بن محمد الصائفة رومية فبلغوا القرة وفتحوا مدينة للروم ومطمورة ولم يصب من المسلمين أحد ورجعوا سالمين .

ذكر فتح مدينة باربد بالهند

فى سنة ستين ومائة فتحت مدينة باربد وكان المهدى سير فى سنة تسع وخمسين جيشاً فى البحر وعليهم عبد الملك بن شهاب المسمعى إلى بلاد الهند فى جمع كثير من

الجند والمتطوعة وفيهم الربيع بن صبيح ، فساروا حتى نزلوا على مدينة باربد فلما نازلوها حصروها من نواحيها وحرض الناس بعضهم بعضا على الجهات وضايقوا أهلها ففتحها الله عليهم عنوة ، واحتمى أهلها بالبلد الذى لهم فأحرقه المسلمون عليهم فاحترق بعضهم وقتل الباقون واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلا وأفاءها الله عليهم ، وفى سنة ستين أيضاً غزا ثمامة بن العبس الصائفة وغزا الغمر بن العباس الخثعمى بحر الشام . وفى سنة إحدى وستين غزا الصائفة ثمامة بن الوليد فنزل بدابق وجاشت الروم فى ثمانين فأتى ثمامة عمق مرعش فقتل وسبى وأتى مرعش فحاصرها فقاتلهم وقتل من المسلمين عدة كثيرة وكان عيسى بن على مرابطاً بحصن مرعش فانصرف الروم إلى جيحان وبلغ الخبر المهدى فعظم عليه وتجهز لغزو الروم كما سنذكره ، وفى سنة اثنتين وستين خرجت الروم إلى الحدث فهدموا سورها وغزا الصائفة الحسن بن قحطبة فى ثمانين ألف مرتزق سوى المتطوعة فبلغ اذرولية وأكثر التحريق والتخريب فى بلاد الروم ولم يفتح حصناً إلا لقى جمعا ورجع الناس سالمين وفيها غزا يزيد بن أسيد السلمى من ناحية قاليقلا فغنم وافتتح ثلاثة حصون وسبى .

ذكر غزو المهدى

فى سنة ثلاث وستين تجهز المهدى لغزو الروم فخرج وعسكر بالبردان وجمع الأجناد من خراسان وغيرها وسار عنها واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادى وعمره نحو عشرين سنة واستصحب معه ابنه هارون الرشيد وعمره نحو سبع عشرة سنة ، وسار على الموصل والجزيرة وعبر الفرات إلى حلب وأرسل وهو بحلب فجمع من بتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم وسار عنها مشيعا لابنه هارون الرشيد حتى جاز الدرب وبلغ جيحان فسار هارون بالجيش ، حتى نازل حصن سمالو فحصره ثمانية وثمانين يوما ونصب عليه المجانيق ففتحه الله عليهم بالأمان ووفى لهم وفتحوا فتوحا كثيرة ورجعوا ولما عاد المهدى من الغزاة زار بيت المقدس ، وفى سنة أربع وستين ومائة غزا عبد الكبير بن

عبد الحميد بن زيد بن الخطاب من درب الحدث فأتاه ميخائيل البطريق فى تسعين ألفاً ، فخاف عبد الكبير ومنع الناس من القتال ورجع بهم فأراد المهدى قتله فشفع فيه فحبسه ، وفى هذه السنة غزا عبد الرحمن الأموى صاحب الأندلس بلاد الإفرنج فدوخها ونهب وسبى وبلغ قلهرة وفتح مدينة فكيرة وهدم قلاع تلك الناحية وسار إلى بلاد البشكنس ونزل على حصن مثمين الأقرع فافتتحه ثم تقدم إلى ملدوثون بن اطلال وحصر قلعته وقصد الناس جبلها وقاتلوهم فيها فملكوها عنوة وخربوها ثم رجعوا .

ذكر غزو هارون الرشيد الروم

فى سنة خمس وستين سير المهدى ابنه هارون الرشيد لغزو الروم فى خمسة وتسعين ألفاً وتسعمائة وثلاثة وتسعين رجلا فأوغلوا فى بلاد الروم ولقيهم عسكر نقيطا قومس القوامسة فبارزه يزيد بن مزيد الشيبانى فأثخنه يزيد وانهزمت الروم ، وغلب المسلمون على عسكرهم وساروا إلى الدستق وهو صاحب المسالح أى الثغور فحمل لهم مائة ألف دينار وثلاثة وتسعين ألفا وأربعمائة وخمسين ديناراً ومن الفضة إحدى وعشرين ألف ألف درهم وأربعة عشر ألفا وثمانمائة درهم ، وسار الرشيد حتى بلغ خليج القسطنطينية وملك الروم يومئذ عطسة امرأة أليون وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو فى حجرها فجرى الصلح بينها وبين الرشيد على الفدية وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى الطريق ، وذلك أنه دخل مدخلا ضيقا مخوفا فأجابته إلى ذلك ومقدار الفدية سبعون ألف دينار كل سنة ورجع عنها وكانت الهدنة ثلاث سنين ، وكان مقدار ما غنم المسلمون إلى أن اصطلحوا خمسة آلاف رأس سبياً وستمائة وثلاثة وأربعين رأساً ومن الدواب الذلل بأدواتها عشرين ألف رأس وذبح من البقر والغنم مائة ألف رأس ، وقتل من الروم فى الوقائع قبل الصلح أربعة وخمسون ألفا ، وقتل من الأسرى صبراً ألفان وتسعون أسيراً ، وفى سنة ثمان وستين ومائة نقض الروم الصلح ، فوجه على بن سليمان وهو على الجزيرة وقنسرين يزيد بن البدر ابن البطال فغنموا وظفروا وفى سنة تسع وستين ومائة توفى المهدى وبويع ابنه موسى

الهادي وغزا الصائفة معيوف بن يحيى الراهب وقد كانت الروم قبل ذلك جاءوا مع بطريقهم إلى الحديثة فهرب الوالى وأهل السوق فدخلها الروم فقصدهم معيوف فبلغ مدينة أشنة فغنم وسبى ، وفى سنة سبعين ومائة توفى الهادى وبويع أخوه هارون الرشيد واستمر إلى سنة ثلاث وتسعين ومائة فكانت مدته ثلاثاً وعشرين سنة وكان يحج سنة ويغزوا سنة ، وفى سنة إحدى وسبعين توفى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام صاحب الأندلس وكانت دولته بالأندلس ثلاثاً وثلاثين سنة ثم صار الملك لأولاده بعده فقام بالأمر بعده ابنه هشام.

وفى سنة أربع وسبعين غزا الصائفة عبد الملك بن صالح الهاشمى من قبل هارون الرشيد .

وفى سنة خمس وسبعين غزاها ابنه عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح وفيها سار هشام ابن عبد الرحمن صاحب الأندلس إلى بلاد الإفرنج فقصد ألبة والقلاع ، فلقيه العدو فظفر بهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وفتح الله عليه ، وفى السنة التى بعدها غزا عبد الملك ابن عبد الواحد ففعل مثل ذلك وكذا فى سنة سبع وتسعين فدخلوا بلاد العدو فبلغوا أريونة وجرندة وكان بها حامية الإفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وأشرف على فتحها فرحل عنها إلى أريونة ففعل مثل ذلك وأوغل فى بلادهم ووطىء أرض برطانية فاستباح حريمها وقتل مقاتلتها ، وجاس البلاد شهوراً يخرب الحصون ويحرق ويغنم وقد أجفل العدو من بين يديه هارباً وأوغل فى بلادهم ورجع سالماً معه من الغنائم مالا يعلمه إلا الله تعالى وهى من أشهر مغازى المسلمين بالأندلس وفعل مثل ذلك فى السنتين اللتين بعدها ، وتوفى هشام صاحب الأندلس سنة ثمانين ومائة وقام بالأمر بعده ابنه الحكم .

ومن غزوات الرشيد الشهيرة غزوة أرض الروم فى سنة إحدى وثمانين فتح فيها حصن الصفصاف وفيها غزا عبد الملك بن صالح أرض الروم فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة ، وفى هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم وكان عدة الأسرى ثلاث آلاف وسبعمائة . وفى سنة اثنتين وثمانين ومائة غزا الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك صالح فبلغ أفسوس مدينة أصحاب الكهف .

ذكر غزو الخزر بلاد الإسلام

فى سنة ثلاث وثمانين ومائة خرج الخزر من باب الأبواب فأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وانتهكوا أمراً عظيما لم يسمع بمثله فولى الرشيد أرمينية ليزيد بن مزيد الشيبانى مضافاً إلى أذربيجان ، ووجه إليهم فظفر بهم ، وفى سنة ست وثمانين ومائة ملك الفرنج لعنهم الله مدينة برشلونة بالأندلس وأخذوها من المسلمين ونقلوا حماة ثغورهم إليها وتأخر المسلمون إلى ورائهم وكان سبب ملكهم إياها اشتغال المسلمين بفتنة كانت بينهم .

ذكر غزو الروم

وحيث ذكر الروم هنا وفيما تقدم وفيما يأتى فالمراد بهم النصارى اليونان الذين كان لهم ملك القسطنطينية وهم غير النصارى المعروفين بالإفرنج كالفرنسيس وانكلترا ، وفى سنة سبع وثمانين ومائة دخل القاسم بن الرشيد أرض الروم فأناخ على قرة وحصرها ، ووجه العباس بن جعفر بن محمد الأشعث فحصر حصن سنان حتى جهد أهلها فبعث إليه الروم ثلاثمائة وعشرين أسيراً من المسلمين على أن يرحل عنهم ، فأجابهم ، ورحل عنهم صلحاً وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها ربنى . فخلعها الروم ، وملكت نقفور فكتب نقفور إلى الرشيد من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد : فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه إليها لكن ذلك لضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها وإلا فالسيف بيننا وبينك ، فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه ، فدعا بداوة وكتب على ظهر الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ماتراه دون ماتسمعه والسلام ثم سار من يومه حتى نزل على هرقلة ففتح وغنم وأحرق وخرب فسأله نقفور

المصالحة على خراج يحمله كل سنة فأجابه إلى ذلك ، فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وكان البرد شديداً فأمن رجعة الرشيد إليه ، فلما جاء الخبر بنقضه ماجسر أحد على إخبار الرشيد خوفاً على أنفسهم العودة فى مثل ذلك البرد ، وإشفاقاً من الرشيد فاحتيل له بشاعر من أهل جندة فقال أبياتاً منها :

نقض الذى أعطيته نقفور ... فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه ... فتح أتاك به الإله كبير
فتح يزيد على الفتوح يؤمنا ... بالنصر فيه لواؤك المنصور

فلما سمع الرشيد ذلك قال أو قد فعل ذلك نقفور فرجع إلى بلاد الروم فى أشد زمان وأعظم كلفة حتى بلغ بلادهم ، فأقام بها حتى شفى واشتفى وبلغ ما أراد ورجع وفى هذه السنة ملك الإفرنج مدينة تطيطلة بالأندلس فتجهز الحكم صاحب الأندلس ، وسير العسكر مع ابن عم له ، فلقى المشركين وقاتلهم ، ففض جمعهم وهزمهم وقتل أكثرهم ، ونجا الباقون منهزمين ، وفى سنة ثمان وثمانين ومائة غزا إبراهيم بن جبرائيل الصائفة ، ودخل أرض الروم فخرج إليه نقفور ملك الروم واقتتلوا وقتل من الروم أربعون ألفاً وسبعمائة ، وفى سنة تسع وثمانين كان الفداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم .

ذكر فتح هرقلة وقبرص وغيرهما

فى سنة تسعين غزا هارون الرشيد الروم فى مائة ألف وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة سوى الأتباع والمتطوعة وفتح هرقلة وأخربها ، ووجه داود بن عيسى سائراً فى أرض الروم فى سبعين ألفاً يخرب وينهب ففتح الله عليه وفتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودلسة وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف ومقدونية ، واستعمل حميد بن معيوف على سواحل الشام ومصر فبلغ قبرص ، وكانوا قد نقضوا العهد فهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفاً ، ثم سار الرشيد إلى طوانة فنزل بها وبعث نقفور بالخراج والجزية

عن رأسه أربعة دنانير ، وعن رأس ولده دينارين ، وعن بطارقته كذلك وكتب نقفور إلى الرشيد فى جارية من سبى هرقلة كان خطبها لولده فأرسلها إليه .

ذكر غزو الفرنج بالأندلس

فى سنة إحدى وتسعين ومائة تجهز الزريق ملك الفرنج بالأندلس وجمع جموعه ليسير إلى مدينة طرطوشة ليحصرها فبلغ ذلك الحكم صاحب الأندلس فجهز العساكر وسيرها مع ولده عبد الرحمن ، فاجتمعوا فى جيش عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة فساروا فلقوا الإفرنج فى أطراف بلادهم قبل أن ينالوا من بلاد المسلمين شيئاً فاقتتلوا وبذل كل من الطائفتين جهده واستنفذوا معه ، فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الكفار وكثر القتال فيهم والأسر ، ونهبت أموالهم وأثقالهم ، وعاد المسلمون ظافرين غانمين ، وفى هذه السنة غزا يزيد بن مخلد الهبيرى أرض الروم فى عشرة آلاف فأخذت الروم عليه المضيق فقتلوه وخمسين رجلا ، وسلم الباقون ، وفيها أمر الرشيد بهدم الكنائس التى فى الثغور ، وألزم أهل الذمة بمخالفة هيئة المسلمين فى لباسهم وركوبهم ، وفى سنة اثنتين وتسعين تحركت الخرمية بناحية أذربيجان ، فوجه إليهم الرشيد عبد الله بن مالك فى عشرة آلاف فقتل وسبى وأسر فأمره الرشيد بقتل الأسرى وبيع السبى ، وفى هذه السنة كان الفداء الثانى بين المسلمين والروم وكان عدة الأسرى من المسلمين ألفين وخمسمائة أسير ، وفى سنة ثلاث وتسعين توفى هارون الرشيد وبويع إبنه الأمين ثم وقع الاختلاف بينه وبين أخيه المأمون إلى أن قتل الأمين سنة ثمان وتسعين ومائة ، وكان المأمون بخراسان فبويع وقدم العراق سنة اثنتين ومائة وقيل سنة أربع .

ذكر الغزو بالأندلس إلى بلاد الفرنج

فى سنة مائتين جهز الحكم صاحب الأندلس جيشاً مع وزيره عبد الكريم ابن مغيث إلى بلاد الفرنج فسار بالعساكر حتى دخل أرضهم وتوسط بلادهم فخربها ونهبها وهدم عدة من حصونها كلما أهلك موضعاً وصل إلى غيره فاستخرج خزائن ملوكهم ، فلما رأى

ملكهم فعل المسلمين ببلادهم كاتب جميع ملوك تلك النواحى مستنصراً بهم فاجتمعت إليه النصرانية من كل أوب فأقبل فى جموع عظيمة بإزاء عسكر المسلمين وبينهم نهر، فاقتتلوا قتالا شديداً عدة أيام والمسلمون يريدون أن يعبروا النهر وهم يمنعون المسلمين من ذلك فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون إليهم فاقتتلوا أعظم قتال فانهزم المشركون إلى النهر ، فأخذهم السيف والأسر فمن عبر النهر سلم وأسر جماعة من ملوكهم وقامصتهم وعاد الفرنج ولزموا جانب النهر يمنعون المسلمون من جوازه فبقوا كذلك ثلاثة عشر يوما يقتتلون كل يوم فجاءت الأمطار وزاد النهر وتعذر جوازه وقفل عبد الكريم عنهم ، وفى سنة إحدى ومائتين وقع انتقاض فى الديلم فسير المأمون عبدالله ابن خورداذ به وإلى طبرستان فافتتح جبال طبرستان وأسر ملك الديلم وأشخصه إلى المأمون ، وفى سنة ست ومائتين توفى الحكم صاحب الأندلس وقام بالأمر بعده ابنه عبد الرحمن الأوسط وفى هذه السنة غزا المسلمون من أفريقية جزيرة سردانية فغنموا وأصابوا من الكفار وأصيب منهم ثم عادوا ، وفى سنة ثمان ومائتين سير عبد الرحمن ابن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى الإفرنج واستعمل عليه الوزير عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث فساروا إلى ألبة والقلاع فنهبوا بلاد ألبة وأحرقوها وحصروا عدة من الحصون ففتحوا بعضها وصالحه بعضها على مال وإطلاق الأسرى من المسلمين فغنم أموالا جليلة القدر واستنقذوا من أسارى المسلمين وسبيهم كثيراً وعادوا سالمين ، وفى سنة عشر ومائتين سير عبد الرحمن بن الحكم أيضاً جيشاً إلى بلاد الإفرنج واستعمل عليه ابنه عبيد الله المعروف بابن البلنسى ، فسار ودخل بلاد العدو وتردد فيها بالغارات والسبى والقتل والأسر ولقى جيوش الأعداء فى ربيع الأول فاقتتلوا وانهزم المشركون وكثر القتل فيهم وكان فتحاً عظيما ، وفيها افتتح عسكر سيره عبد الرحمن أيضاً حصن القلعة من أرض العدو وتردد فيها بالغارات منتصف شهر رمضان ، وفى سنة اثنتى عشرة ومائتين سير عبد الرحمن أيضاً جيشاً إلى بلاد الإفرنج فوصلوا إلى برشلونة ، ثم ساروا إلى جرندة وقاتل أهلها فأقام الجيش شهرين ينهبون ويقتلون ويخربون ثم رجعوا ، وفى

هذه السنة سير زيادة الله ابن إبراهيم بن الأغلب عامل المأمون على أفريقية جيشا فى البحر إلى جزيرة صقلية وكان الروم تغلبوا عليها فلما وصلوا إليها ملكوا كثيراً منها ثم أمد الروم قسطنطين ملكهم بجيوش ووقعت وقائع كثيرة ثم كان النصر للمسلمين وقتلوا من الروم خلقا كثيراً .

ذكر غزو المأمون إلى الروم

فى سنة خمس عشرة ومائتين سار المأمون إلى الروم فى المحرم وانتهى إلى طرسوس ودخل منها فى بلاد الروم فى جمادى الأولى ودخل ابنه العباس من ملطية فأقام المأمون على حصن قرة حتى افتتحه عنوة وهدمه وقيل أن أهله طلبوا الأمان فأمنهم وفتح قبله حصن ماجدة ، ووجه اشناش إلى حصن سندس فأتاه برئيسه ووجه عجيف بن عنبسة وجعفر الخياط إلى صاحب حصن سناد فسمع وأطاع ، ثم رجع المأمون . وفى سنة ست عشرة ومائتين عاد المأمون إلى بلاد الروم وسبب ذلك أنه بلغه أن ملك الروم قتل ألفا وستمائة من أهل طرسوس والمصيصة فسار حتى دخل أرض الروم وقيل أن سبب دخوله أن ملك الروم كتب إليه بدأ بنفسه ، فسار ولم يقرأ كتابه فلما دخل أرض الروم أناخ على أنطيغوا فخرجوا على صلح ثم سار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه المعتصم فافتتح ثلاثين حصناً ومطمورة ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وقتل وأحرق وأصاب سبيا ورجع ، ثم سار المأمون إلى كيسوم فأقام بها يومين ثم ارتحل إلى دمشق ثم إلى مصر ثم رجع إلى الروم سنة سبع عشرة ومائتين فأناخ على لؤلؤة وهى اسم الحصن مائة يوم ثم رحل عنها وترك عجيفا عليها فخدع وأسر ثمانية أيام ، ثم أطلق ثم جاء ملك الروم فأحاط بعجيف فبعث إليه المأمون الجنود فارتحل ملك الروم وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بأمان وأرسل ملك الروم يطلب المهادنة فلم يتم ذلك ، وفى سنة ثمان عشرة ومائتين توفى المأمون وهو فى بلاد الروم عند نهر البذندون وحمل إلى طرطوس فدفن بها وبويع أخوه المعتصم بوصية منه وعهد إليه فى هذه السنة ودخل كثير من أهل الجبال وهمذان وأصفهان وماسبذان وغيرها فى دين الخرمية ، وتجمعوا فعسكروا فى عمل

همذان فوجه إليهم المعتصم العساكر وعليهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فأوقع بهم فى أعمال همذان وقتل منهم ستين ألفاً وهرب الباقون إلى بلاد الروم ، والخرمية فرقة من المجوس يعتقدون مذهب التناسخ وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره والرجل منهم ينكح أمه وأخته وبنته ورئيسهم بابك الخرمى وكان للمعتصم معهم وقائع يطول الكلام بذكرها إلى أن أباد كثيراً منهم بالقتل والأسر .

ذكر خروج الروم إلى زبطرة

فى سنة ثلاث وعشرين ومائتين خرج ملك الروم إلى بلاد الإسلام وأوقع بأهل زبطرة وغيرها قيل أنه خرج فى مائة ألف وقيل أكثر من ذلك فقتل أهل زبطرة الرجال وسبى الذرية والنساء وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبى المسلمات ومثل بمن صار فى يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم فنفر إلى قتالهم أهل الثغور من الشام والجزيرة إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح .

ذكر فتح عمورية وهى بروسة

لما خرج ملك الروم ، وفعل فى بلاد الإسلام ما فعل بلغ الخبر المعتصم فاستعظمه وكبر لديه وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهى أسيرة فى أيدى الروم وامعتصماه ، فأجابها وهو جالس على سريره لبيك لبيك ، ونهض من ساعته وصاح فى قصره النفير النفير وبلغه أن عمورية عين النصرانية وأشرف عندهم من القسطنطينية فتجهز بما لم يعهد من السلاح وحياض الأدم وغير ذلك وفرق عساكره ثلاث فرق ، فخربوا بلاد الروم وقتلوا كثيراً وأحرقوا ووصلوا إلى فانورية ، ثم اجتمعوا فى عمورية وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وكانت فى غاية الحصانة وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن العربى فى كتابه المسمى بالمسامرة فتح عمورية فقال فتحها المعتصم فى رمضان سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وسبب فتحها أن رجلا وقف على المعتصم فقال يا أمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء

أسيرة قد لطمها علج على وجهها ، فنادت وامعتصماه فقال العلج وما يقدر عليه المعتصم يجيء على أبلق ينصرك وزاد فى ضربها فقال المعتصم ، وفى أى جهة عمورية ، فقال له : الرجل هكذا ، وأشار إلى جهتها فرد المعتصم وجهه إليها ، وقال لبيك أيتها الجارية لبيك هذا المعتصم بالله أجابك ثم تجهز إليها فى اثنى عشر ألف فرس أبلق وفى هذه التلبية يقول له فى قصيدة أبو تمام حبيب الطائى .

لبيت صوتا رطيباً قد هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

فلما حاصرها وطال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له إنا نرى أنك ماتفتحها إلا فى زمان نضج العنب والتين فبعد عليه ذلك واغتم لذلك فخرج ليلة متجسساً فى العسكر يسمع مايقول الناس ، فمر بخيمة حداد يضرب نعال الخيل ، وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة يضرب نعال الخيل ويقول فى رأس المعتصم فقال له معلمه اتركنا من هذا مالك وللمعتصم فقال ماعنده تدبير ، له كذا وكذا يوما على هذه المدينة على قوته ولا يفتحها لو أعطانى الأمر مابت غداً إلا فيها فتعجب المعتصم مما سمع وانصرف إلى خيامه وترك بعض رجاله موكلا بالغلام فلما أصبح جاءوا به فقال ماحملك ياهذا على مابلغنى عنك فقال الذى بلغك حق ولكن ماوراء خبائك ، وقد فتح الله عمورية فقال قد وليتك ، وخلع عليه وقدمه على الحرب ، فجمع الرماة ، واختار منهم أهل الإصابة وجاء إلى بدن من أبدان الصور وفى البدن من أوله إلى آخره خط أسود من خشب عرضه ثلاثة أشبار أو أكثر فحمى السهام بالنار وقال للرماة : من أخطأ منكم ذلك الخط الأسود ضربت عنقه وإذا بذلك الخط خشب ساج ، فعند ماحصلت فيه السهام المحمية قامت النار فيه واحترق ، فنزل البدن كما هو وتحامى الرجال ، ودخل البلد بالسيف ، وذلك قبل الزمان الذى ذكره المنجمون وفى ذلك يقول أبو تمام حبيب الطائى فى قصيدته التى امتدح بها المعتصم عند فتح عمورية .

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لأسود الصحائف فى متونهن جلاء الشك والريب

إلى آخر ماذكره فى القصيدة فلما دخلها ومعه الرجل الذى بلغه حديث الجارية قال له سر بى إلى الموضع الذى رأيتها فيه فسار به وأخرجها من موضعها وقال لها ياجارية هل أجابك المعتصم وملكها العاج الذى لطمها والسيد الذى كان يملكها وجميع ماله وأخذ السيف الروم، وأقبل الناس بالأسرى والسبى من كل وجه وأقام عليها خمس وخمسين يوما وفرق الأسرى على القواد وسار إلى نحو طرسوس ثم رجع إلى دار ملكه .

ذكر غزوات زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب عامل أفريقية

قد تقدم ذكر غزوة من غزواته سنة اثنتى عشرة ومائتين ، ثم كانت له غزوة فى سنة ثلاث عشرة ، وكذا فى سنة أربع عشرة وهكذا إلى سنة ثلاث وعشرين ومائتين . والكلام على تفصيل تلك الغزوات طويل ، وفى أكثرها كان النصر للمسلمين ، وتوفى زيادة الله المذكور سنة ثلاث وعشرين ، وولى بعده أخوه الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب وسير سرية سنة أربع وعشرين إلى صقلية فغنمت وسلمت . وفى سنة خمس وعشرين استأمن عدة حصون إلى المسلمين من جزيرة صقلية منها حصن البلوط وقرلورة ومرو، وسار أسطول المسلمين إلى قلورية فتتحها ، والتى أسطول صاحب القسطنطينية فهزموه بعد قتال ، فعاد الأسطول إلى القسطنطينية مهزوما فكان فتحاً عظيما ، وفى سنة ست وعشرين ومائتين سارت سرية للمسلمين بصقلية إلى قصر بانة ، فغنمت وأحرقت وسبت فلم يخرج إليهم أحد فسارت إلى حصن الغيران وهو أربعون غار فغنمت جميعها. وفى سنة ثلاث وعشرين سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى إلبة والقلاع ، فنزلوا حصن الفرات ، وغنموا مافيه وقتلوا أهله ، وسبوا النساء والذرية وعادوا ، وسير جيشاً أيضاً فى سنة أربع وعشرين فكان بينهم وبين المشركين حرب شديدة ، فانهزم المشركون وقتل منهم مالا يحصى وفعل مثل ذلك سنة خمس وعشرين ومائتين. وفى سنة أربع وعشرين نقض كثير من أهل طبرستان فجهز المعتصم عليهم الجيوش ، وقاتلهم كثيراً وأسر آخرين حتى رجعوا إلى الطاعة ، وتوفى المعتصم سنة سبع وعشرين ومائتين وبويع ابنه الواثق وفى هذه السنة سير عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً إلى أرض

العدو فلما كانوا بين أربونة وشرطانية تجمعت الروم عليهم ، وأحاطوا بالعسكر وقاتلوهم الليل كله ، فلما أصبحوا أنزل الله نصره على المسلمين وهزم عدوهم . وفى هذه السنة أيضاً سير عبد الرحمن بن الحكم جيشاً ، وجعل عليه عبد الله المعروف بابن البلنسى إلى بلاد العدو فوصلوا إلى ألبة والقلاع فخرج إليه المشركون فى جمعهم وكان بينهم حرب شديد وقتال عظيم ، فانهزم المشركون وقتل منهم مالا يحصى وجمعت الرؤوس أكداساً أى مجموعاً بعضها فوق بعض حتى كان الفارس لايرى من يقابله وفيها خرج ملكهم لذريق فى عسكره ، وأراد الغارة على مدينة سالم من الأندلس فسار إليه فرتون بن موسى فى عسكر جرارة فلقيه وقاتله فانهزم لذريق وكثر القتل فى عسكره وسار فرتون إلى الحصن الذى كان بناه أهل ألبة وراء ثغور المسلمين فحصره وافتتحه وهدمه .

ذكر غزوات بأفريقية

وفى سنة ثمان وعشرين ومائتين غزا فى البحر بأفريقية الفضل بن جعفر الهمدانى فنزل مرسى مسينى وبث السرايا فغنموا غنائم كثيرة واستأمن إليه أهل نابل وصاروا معه وقاتل الفضل الروم الذين بها مدة سنتين واشتد القتال ، فلم يقدر على أخذها فمضى بطائفة من العسكر واستدروا خلف جبل مطل على المدينة فصعدوا إليه ، ونزلوا إلى المدينة وأهل البلد مشغولون بقتال الفضل ابن جعفر ومن معه ، فلما رأى أهل البلد أن المسلمين دخلوا عليهم من خلفهم انهزموا وفتح البلد وفتح أيضاً مدينة مسكان ، وفى سنة تسع وعشرين ومائتين خرج أبو الأغلب العباس بن الفضل فى سرية فبلغ شرة فقاتله أهلها قتالا شديداً فانهزمت الروم وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف رجل ، واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر ولم يكن بصقلية مثلها . وفى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين حصر الفضل بن جعفر مدينة مسينى ، فأخبر الفضل أن أهل مسينى قد كاتبوا البطريق الذى بصقلية لينصرهم فأجابهم وقال لهم إن العلامة عند وصولى أن يوقد النار ثلاث ليال على الجبل القلانى ، فإذا رأيتم ذلك فى اليوم الرابع أصل إليكم فنجتمع أنا وأنتم على المسلمين بغتة . فأرسل الفضل من أوقد النار على ذلك الجبل ثلاث ليال ، فلما رأى أهل مسينى النار أخذوا

فى أمرهم وأعد الفضل ما ينبغى أن يستعد به ، وكمن الكمناء ، وأمر الذين يحاصرون المدينة أن ينهزموا إلى جهة الكمين ، فإذا خرج أهلها عليهم قاتلوهم فإذا جاوزوا الكمين عطفوا عليهم ، فلما كان اليوم الرابع خرج أهل مسينى وقاتلوا المسلمين وهم ينتظرون وصول البطريق فانهزم المسلمون واستجروا الروم حتى جاوزوا الكمين ، ولم يبق بالبلد أحد إلا خرج فلما جاوزوا الكمين عاد المسلمون عليهم وخرج الكمين عليهم من خلفهم ووضعوا السيف فيهم فلم ينج منهم إلا القليل ، فسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم ويسلموا المدينة فأجابهم المسلمون إلى ذلك وأمنوهم وسلموا المدينة. وفى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وصل عشر شلنديات من الروم فأرسلوا بمرسى الطين وخرجوا ليغيروا فضلوا الطريق فرجعوا خائبين وركبوا البحر راجعين فغرق منها سبع قطع ، وفى سنة أربع وثلاثين ومائتين صالح أهل رغوس وسلموا المدينة للمسلمين بما فيها فهدمها المسلمون وأخذوا منها ما أمكن حمله ، وفى سنة خمس وثلاثين سار طائفة من المسلمين إلى مدينة قصريانة ، فغنموا وسبوا وأحرقوا وقتلوا فى أهلها ، وكان الأمير على صقلية للمسلمين محمد بن عبد الله بن الأغلب وكان مقيما بمدينة بلرم ولم يخرج منها ، وإنما كان يخرج الجيوش والسرايا فتفتح وتغنم ، وكانت إمارته عليها تسع عشرة سنة وتوفى سنة ست وثلاثين ومائتين ، وفى سنة ثمان وعشرين ومائتين بعث عبد الرحمن بن الحكم صاحب الأندلس جيشاً عليهم الحارث بن بزيغ لقتال الإفرنج فوقع القتال وأصاب الحارث ضربة فى وجهه قلعت عينه ، ثم أسر فجهز عبد الرحمن بن الحكم جيشاً واستعمل عليه ابنه محمد فأوقع بالإفرنج وقتل ملكهم غرسية وكثيراً من قومه ، وأطلق الحارث ابن بزيغ ، وفى ثلاث ومائتين خرج جماعة كثيرون فى بحر الأندلس من المجوس وأوقعوا المسلمين فى مدائن كثيرة فجهز عليهم عبد الرحمن بن الحكم جيوشاً كثيرة مع قواده فقاتلوا المجوس قتالا شديداً وهزموهم وقتلوا كثيراً منهم فى وقائع كثيرة ، وفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، بعث الواثق جيشاً لقتال الروم فقصدوا جليقية وقتلوا وأسروا وسبوا وغنموا ثم قصدوا مدينة أليون فحصروا ورموها بالمجانيق فخاف أهلها فتركوها بما فيها ، وخرجوا هاربين فغنم المسلمون منهم

ما أرادا وخربوا البلاد ولم يقدروا على هدم سورها لأن عرضه سبع عشر ذراعاً فتركوه ومضوا وقد ثلموا فيه ثلماً كثيرة وفى هذه السنة أمر الواثق بفداء المسلمين ، واجتمع المسلمون والروم على نهر اللامس وأحضر المسلمون من معهم من الأسرى وأحضر المشركون من معهم من الأسرى وكان النهر بين الطائفتين ، فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيلتقيان فى وسط النهر ويأتى كل إلى أصحابه ، فإذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا ، وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا حتى فرغوا ، وكان النهر مخاضة تعبره الأسرى وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربعمائة وستين نفسا ، ومن النساء والصبيان ثمانمائة نفس والملحق بالمسلمين من أهل الذمة مائة نفس ، ولما فرغوا من الفداء غزا أحمد بن سعيد بن مسلم الباهلى المقدم فى أمر الفداء شاتيا فأصاب الناس ثلج ومطر فمات من المسلمين مائتا نفس وأسر نحوهم وغرق بالبدندون خلق كثير وجاء بطريق من الروم ينذره ، فقال وجوه الناس لأحمد إن عسكراً فيه سبعة آلاف لا تتخوف عليهم ، فإن كنت كذلك فواجه القوم وأطرق بلادهم ففعل وغنم نحوا من ألف بقرة وعشرة آلاف شاة ورجع فعزله الواثق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعى. وتوفى الواثق سنة اثنتين وثلاثين وبويع أخوه المتوكل بن المعتصم ، وفى سنة خمس وثلاثين سير عبد الرحمن ابن الحكم صاحب الأندلس جيشاً كثيفاً لقتال الإفرنج فبلغوا ألبه وغنموا وظفروا ، وفى سنة ست وثلاثين سير جيشا إلى برشلونة فقتلوا من أهلها فأكثروا وأسروا جما غفيراً وغنموا وعادوا سالمين وكذا فى سنة سبع وثلاثين وتوفى الحكم سنة ثمان وثلاثين وقام بالأمر بعده ابنه محمد .

ذكر غزوات وفتوحات بأفريقية

قد تقدم أن ابتداء فتوح المسلمين لأفريقية كان فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه على يد عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة عشرين من الهجرة . ولما كانت خلافة هارون الرشيد ولى على أفريقية إبراهيم بن الأغلب التميمى سنة أربع وثمانين ومائة وتوارث بنوه الملك بعده عمالا لخلفاء بنى العباس واستمر ذلك فيهم إلى سنة مائتين.

وست وتسعين فزالت دولتهم لما صار ملك أفريقية للفطاميين ويقال لهم العبيديون فكانت مدة ملك بنى الأغلب مائة سنة واثنتى عشرة سنة وكان مقر ملكهم القيروان واتسع ملكهم وقوى بأفريقية وصارلهم أموال كثيرة وخيل وجنود وافرة وملك ضخم ومراكب فى البحر ولهم كثير من المآثر المحمودة والمواقف المشهودة والغزوات الكثيرة والفتوحات الشهيرة وقد تقدم ذكر كثير منها وسيأتى غيرها وأكثر فتوحات أفريقية كان على أيديهم وتقدم أن أول من اختط مدينة القيروان عقبة بن نافع القهرى رضى الله عنه ولد فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولم تثبت له صحبة وكان صالحا من كبار التابعين وخيارهم وكان خط القيروان سنة خمسين من الهجرة حين كان أميراً على أفريقية فى خلافة معاوية رضى الله عنه ، فلما اختطها صارت قاعدة أفريقية ومقر ملكها ثم بعد سنين كثيرة صارت مدينة تونس بدلا عنها وأفريقية بلاد واسعة قال فى القاموس : إن أفريقية قبالة الأندلس ، وقال السيد مرتضى فى شرحه على القاموس : إن أفريقية قبالة جزيرة صقلية منحرفة إلى الشرق والأندلس منحرفة عنها إلى جهة المغرب وصقلية بكسرات مشددة اللام جزيرة عظيمة بالمغرب كثيرة البلدان والقرى والمواشى افتتح المسلمون كثيراً من مدائنها وقراها بعد غزوات كثيرة، وكان أول الغزو إليها زمن ولاية معاوية بن خديج على أفريقية فى خلافة معاوية رضى الله عنه ، ولم يفتحها وتتابع الغزو إليها فى زمن ولاية بنى الأغلب من أول دولتهم إلى آخرها ، وتملكوا أكثر الجزيرة ولم يزل الفتح فيها والغزو إليها ولم يتم فتحها إلى أن انقضت ولاية بنى الأغلب سنة مائة وست وتسعين وجزيرة صقلية الآن داخلة فى إيطاليا واعلم أن المغرب يشتمل على ثلاث ممالك عظام : وهى ، المغرب الأدنى والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ، فالمغرب الأدنى القيروان ، وتونس وطرابلس الغرب وأعمال كل منها والمغرب الأوسط تلمسان ، والجزائر وأعمالها وذلك الآن بيد الفرنسيس تملكوه من سنة ألف ومائتين وست وأربعين والمغرب الأقصى فاس ومراكش والسوس وأعمالها وذلك الآن بيد سلطان فاس وإنما قيل لذلك المغرب الأقصى لأنه أبعد من دار الخلافة فى صدر الإسلام ، وكان قبل استحداث مدينة تونس موجود مدينة عظمى تسمى (قرطاجنة) بتشديد النون المفتوحة

وكانت مدينة شهيرة من عجائب الدنيا وكانت عند الروم تضاهى مدينة رومة وكان بها كثير من ملوك الفرنج ومعهم من الفرنج أمم لا تحصى فغزاها المسلمون سنة تسع وستين من الهجرة بأربعين ألفاً من الجند أميرهم حسان بن النعمان فى خلافة عبد الملك بن مروان فحاصرها حسان بن النعمان بمن معه من الجند إلى أن افتتحها وقتل كثيراً ممن كان فيها ونجا قوم منهم فى المراكب إلى جزيرة صقلية وقوم منهم إلى الأندلس ، ولما انصرف عنها حسان ابن النعمان دخلها قوم من أهل الضواحى والبادية ، وتحصنوا بها ، فرجع إليهم حسان وقاتلهم أشد قتال وافتتحها عنوة وأمر بتخريبها وإعفاء أثرها وكسر قنواتها فذهبت كأمس الدابر ولم يبق بها إلا آثار خفيفة تدل على ما كان فيها من عجائب الصنعة وأحكام العمل وعمر إنقاضها مدينة تونس بالقرب منها ومن غزوات بنى الأغلب غزوة لزيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب فى سنة مائتين واثنتين جهز جيشاً فى مراكب البحر إلى مدينة سردانية وهى جزيرة كبيرة ببحر المغرب كانت للروم فغنموا وقتلوا كثيراً ورجعوا سالمين ، وفى سنة سبع ومائتين سير جيشاً ففتحوا مواضع من جزيرة صقلية وسير أيضاً جيشاً فى سنة ثنتى عشرة ، ففتحوا أيضاً مواضع كثيرة من جزيرة صقلية ثم وقع اختلاف بين ملوك الروم الذين كانوا فى صقلية ، فاستنجد بعض منهم بزيادة الله ابن الأغلب ووعده بأنه يملكه جزيرة صقلية فسير معه جيشاً فى ربيع الأول من سنة ثنتى عشرة ومائتين ، فوصلوا إلى مدينة مازر من صقلية ثم ساروا فلقيهم جمع من الروم فقاتلهم المسلمون قتالا شديداً فانهزمت الروم وقتل كثير منهم وغنم المسلمون أموالهم ودوابهم ، واستولى المسلمون على عدة حصون من الجزيرة ثم توجهوا إلى حصار قصريانة وهى من جزيرة صقلية وبث المسلمون السرايا فى كل ناحية فغنموا شيئاً كثيراً ، وافتتحوا عمرانا كثيرة حول سرقوسة ، وحاصروا سرقوسة براً وبحراً ولحقتهم الأمداد من أفريقية فضيقوا على سرقوسة فوصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير من الروم مدداً لجماعاتهم وذلك فى سنة ثلاث عشرة ومائتين وقد حــــل بالمسلمين وباء شديد هلك فيه كثير منهم ، فلما رأى المسلمون شدة الوباء ووصول

الروم تحمــل المسلمون فى مراكبهم ليصيروا ويتركوا الحصار ، فوقف الروم فى مراكبهم على باب المرسى فمنعوا المسلمين من الخروج ، فلما رأى المسلمون ذلك أحرقوا مراكبهم ، وعادوا ورحلوا إلى مدينة ميناو فحصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن وسار طائفة منهم إلى حصن جرجنت فقاتلوا أهله ، وملـكوه وسكنوا فيه ، واشتدت نفوس المسلمين بهذا الفتح وفرحوا ثم ساروا مدينة قصريانة ووصل جيش كثير من القسطنطينية مدداً لمن فى الجزيرة فتلقاهم والمسلمون واقتتلوا ، فانهزم الروم وقتل منهم خلق كثير ودخل منهم من سلم قصريانة ، ثم أن سرية للمسلمين سارت للغنيمة فخرج عليها طائفة من الروم ، فاقتتلوا وانهزم المسلمون وعادوا من الغد ومعهم جمع من عسكر المسلمين ، فخرج إليهم الروم وقد اجتمعوا وحشدوا وتصافوا مرة ثانية واقتتلوا ، فانهزم المسلمون أيضاً وقتل منهم نحو ألف قتيل ، وعادوا إلى معسكرهم وخندقوا عليهم فحصرهم الروم ودام القتال بينهم ، فضاقت الأقوات على المسلمين ، فعزموا على بيات الروم ، فعلموا بهم ففارقوا الخيام ، فلما خرج المسلمون لبيات الروم لم يجدوا أحداً وأقبل عليهم الروم من كل ناحية فأكثروا القتل فى المسلمين وانهزم الباقون من المسلمون ودخلوا ميناو فحصرهم الروم ودام الحصار على المسلمين حتى أكلوا الدواب والـكلاب ، فلما سمع بذلك من فى مدينة جرجنت من المسلمين ، هدموا المدينة وساروا إلى مازر ، ولم يقدروا على نصرة إخوانهم من المسلمين ودام الحال إلى أن دخلت سنة أربع عشرة ومائتين ، وقد أشرف المسلمون على الهلاك إذ أقبل أسطول كبير من المسلمين الذين فى الأندلس خرجوا غزاة ووصلوا أيضا فى ذلك الوقت مراكب كثيرة من أفريقية مدداً للمسلمين ، فبلغت عدة الجميع ثلاثمائة مركب ، فنزلوا إلى الجزيرة فانهزم الروم عن حصار المسلمين وفرج الله عنهم وسار المسلمون إلى مدينة بلرم وكانت للروم فحصروها وضيقوا على من بها فطلب صاحبها الأمان لنفسه ولأهله ولماله فأجيب إلى ذلك وسار فى البحر إلى بلاد الروم ودخل المسلمون البلد فى رجب سنة ست عشرة ومائتين ، فلم يروا فيه إلا أقل ثلاثة آلاف إنسان وكان فيه لما حصروه سبعون ألفاً ، ماتوا كلهم وبقى المسلمون إلى

سنة تسع عشرة ومائتين ، ثم ساروا إلى مدينة قصريانة ، فخرج إليهم من كان فيها من الروم فاقتتلوا أشد قتال ، ففتح الله على المسلمين وانهزم الروم إلى معسكرهم ، ثم رجعوا فى الربيع فقاتلوهم ، فنصر الله أيضاً المسلمين ، ثم سار المسلمون أيضاً سنة عشرين إلى قصريانة . فقاتلهم الروم فهزمهم الله تعالى ، وانتصر المسلمون عليهم ، وأسرت امرأة لبطريقهم وابن له وغنم المسلمون ما كان فى معسكرهم وعادوا إلى بلرم ثم سيروا عسكراً إلى ناحية طبرمين فغنموا غنائم كثيرة ثم عدا بعض عسكر المسلمين على أمير المسلمين وهو محمد بن سالم فقتلوه ولحقوا بالروم، فأرسل زيادة الله بن الأغلب من أفريقية الفضل بن يعقوب عوضاً عنه فسار فى سرية إلى ناحية سرقوسة فأصابوا غنائم كثيرة ، ثم سارت سرية كبيرة فغنمت وعادت فعرض لهم الملك صاحب صقلية ومعه جمع كثير من الروم فتحصنوا من الروم فى أرض وعرة وشجر كثيف فلم يتمكن الملك من قتالهم ووافقهم إلى العصر ، فلما رأى أنهم لا يقاتلونهم عاد منهم ، فتفرق أصحابه وتركوا التبعية ، فلما رأى المسلمون ذلك حملوا عليهم حملة صادقة فانهزم الروم وطعن الملك وجرح عدة جراحات وسقط عن فرسه فأتاه حماة أصحابه ، واستنقذوه جريحاً وحملوه وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ومتاع ودواب فكانت وقعة عظيمة وسير زيادة الله بن الأغلب من أفريقية إلى صقلية أبا الأغلب إبراهيم بن عبد الله أميراً على تلك الجيوش فوصل إليهم منتصف رمضان ، فبعث أسطولا فلقوا أسطول الروم فغنم المسلمون ما فيه من مال وأسروا ما فيه من رجال فضرب أبو الأغلب رقاب كل من فيه و بعث أسطولا آخر إلى قوصرة فظفر بحراقة فيها رجال من الروم رجل من أهل أفريقيــة كان مسلما فتنصر فأتى بهم فضربت رقابهم ، وسارت سرية أخرى إلى جبل النار والحصون التى فى تلك الناحية فأحرقوا الزرع وغنموا وأكثروا القتل ثم سير أبو الأغلب سنة إحدى وعشرين ومائتين سرية إلى جبل النار أيضاً ، فغنموا غنائم كثيرة حتى بيع الرقيق بأبخس الأثمان وعادوا سالمين . وفيها سير أبو الأغلب أيضاً سرية إلى قسنطياسة ، فغنموا وسبوا ولقيهم العدو فكانت بينهم حرب استظهر فيها الروم وفيها أيضاً جهز أسطولا فساروا نحو الجزائر فغنموا غنائم عظيمة وفتحوا مدناً

ومعاقل وعادوا سالمين ، وفيها أيضاً سير سرية إلى مدينة قصريانة ، فخرج إليهم العدو فاقتتلوا ، فانهزم المسلمون وأصيب منهم جماعة ثم كانت وقعة أخرى بين الروم والمسلمين فانهزم الروم وغنم المسلمون منهم تسعة مركب كبار برجالها وشلندى ، فلما جاء الشتاء وأظلم الليل رأى رجل من المسلمين غفلة من أهل قصريانة ، فتقرب ورأى طريقا فدخل منهم ولم يعلم به أحد ثم انصرف إلى العسكر فأخبرهم ، فجاءوا معه فدخلوا من ذلك الموضع ، وكبروا وملكوا ربضه ، وتحصن المشركون منهم بحصنه ، وطلبوا الأمان فأمنوهم ، وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا إلى بلرم . وفى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وصل كثير من الروم فى البحر إلى صقلية ، وكان المسلمون قد حاصروا جفلوذى وقد طال حصارها ؛ فلما وصل الروم رحل المسلمون عنها ؛ وجرى بينهم وبين الروم الواصلين حروب كثيرة ؛ ثم جاء المسلمون الخبر بوفاة زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب أمير أفريقية فوهن المسلمون ثم تشجعوا وضبطوا أنفسهم (سرقوسة) بسين مفتوحة وقاف وواو وسين ثانية (وبلرم) بفتح الباء الموحدة واللام وتسكين الراء وبعدها ميم (ميناو) بميم وياء تحتها نقطتان ونون بعد الألف وواو (جرجت) بجيم وراء وجيم ثانية مفتوحة وثاء فوقها نقطتان و (قصريانة) بالقاف والصاد المهملة والراء والياء تحتها نقطتان وبعد الألف نون مشددة وهاء وهذه الغزوات هى التى ذكرت مجملة قبل هذا الموضع بورقة استحسنا تدارك ذكرها تفصيلا لما اشتملت عليه من الفوائد ، ولما توفى محمد ابن عبدالله أمير صقلية سنة ست وثلاثين كما تقدم . اجتمع المسلمون بها على ولاية العباس ابن الفضل ابن يعقوب فولوه أمرهم ، وكتبوا بذلك إلى محمد بن الأغلب أمير أفريقية ، فأرسل إليه عهداً بولايته فكان العباس يرسل السرايا وتأتيه الغنائم إلى أن أتاه عهده بولايته فخرج بنفسه وأرسل سرية إلى قلعة أبى ثور ، فغنموا وأسروا وعادوا فقتل الأسرى ثم توجه إلى مدينة قصريانة فنهب وأحرق وخرب ليخرج إليه البطريق فلم يفعل فعاد العباس ، وفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين خرج حتى بلغ قصريانة وهى المدينة التى بها دار الملك بصقلية وكان قبلها يسكن سرقوسة ، فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك

إلى قصريانة لحصانتها فخرج العباس ومعه جمع عظيم فغنم وخرب ، وأتى قطانية وسرقوسة ونوطين ورغوس فغنم من جميع هذه البلاد وخرب وأحرق ونزل على شبرة وحصرها خمسة أشهر فصالحه أهلها على خمسة آلاف رأس . وفي سنة اثنتين وأربعين سار العباس في جيش كثيف ففتح حصونا جمة . وفي سنة ثلاث وأربعين سار إلى قصريانة فخرج أهلها فلقوه فهزمهم وقتل فيهم فأكثر وقصد سرقوسة وطبرمين وغيرهما فنهب وخرب وأحرق ونزل القصر الجديد وحصره وضيق على من به من الروم فبذلوا له خمسة عشر ألف دينار فلم يقبل منهم وأطال الحصر فسلموا إليه الحصن على شرط أن يطلق مائتي نفس فأجابهم إلى ذلك وملكه وباع كل من فيه سوى مائتي نفس وهدم الحصن .

ذكر فتح قصريانة

في سنة أربع وأربعين ومائتين فتح المسلمون مدينة قصريانة وهي المدينة التي بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة ، فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك إلى قصريانة لحصانتها وسبب فتحها أن العباس سار في جيوش المسلمين إلى مدينة قصريانة وسرقوسة ، وسير جيشاً في البحر فلقيهم أربعون شلندى للروم فاقتتلوا أشد قتال فانهزم الروم وأخذ المسلمون منهم عشر شلنديات برجالها ، وعاد العباس إلى مدينته ، فلما كان الشتاء سير سرية فبلغت قصريانة فنهبوا وخربوا وعادوا وكان معهم أسير من الروم له عند الروم قدر ومنزلة ، فأمر العباس بقتله فقال استبقني ولك عندى نصيحة قال وما هي قال أملككم قصريانة والطريق في ذلك أن القوم في هذا الشتاء وهذه الثلوج آمنون من قصدكم إليهم فهم غير محترسين ترسل معى طائفة من عسكركم حتى أدخلكم المدينة ، فانتخب العباس ألفي فارس أنجادا أبطالا وسار إلى أن قاربها وكمن هناك مستتراً وسير عمه رباحا في شجعانهم فساروا مستخفين في الليل والرومى معهم مقيد بين يدى رباح فأراهم الموضع الذى ينبغى أن يملك ، فنصبوا السلالم وصعدوا حتى وصلوا إلى سور المدينة قريباً من الصبح والحرس نيام فدخلوا من باب صغير فيه يدخل منه الماء ، وتلقى فيه الأقذار ، فدخل المسلمون كلهم فوضعوا السيف في الروم وفتحوا الأبواب وجاء العباس في باقي العسكر

فدخلوا المدينة وصلوا الصبح بها يوم الخميس وبنى فيها فى الحال مسجداً ونصب فيه منبراً ،
وخطب فيه يوم الجمعة وقتل من وجد فيه من المقاتلة وأخذوا ما فيها من بنات البطارقة
بحليهن وأبناء الملوك وأصابوا فيها ما يعجز الوصف عنه وذل الشرك يومئذ بصقلية ذلا عظيما
ولما سمع الروم بذلك أرسل ملكهم بطريقاً من القسطنطينية فى ثلاثمائة شلندى وعسكر
كثير ، فوصلوا إلى سرقوسة ، فخرج إليهم العباس من المدينة ولقى الروم وقاتلهم فهزمهم
فركبوا فى مراكبهم هاربين وغنم المسلمون منهم مائة شلندى وكثر القتل فيهم ولم يصب من
المسلمين ذلك اليوم غير ثلاثة نفر بالنشاب ، وفى سنة ست وأربعين ومائتين نكث كثير
من قلاع صقلية فخرج العباس إليهم وقاتلهم ، فانهزم الروم وقتل كثير منهم وسار إلى بعض
القلاع التى نكثت فحصرها ، فأتاه الخبر بأن كثيراً من عساكر الروم قد وصلت ، فرحل
إليهم وجرى بينه وبينهم قتال شديد فهزمهم وعاد إلى قصريانة فحصنها وشحنها بالعساكر
وفى سنة سبع وأربعين ومائتين سار العباس إلى سرقوسة ، فغنم وسار إلى غيران فرقة
فاعتل ومات بعد ثلاثة أيام فنبشه الروم وأحرقوه وكانت ولايته إحدى عشرة سنة
وأدام الجهاد شتاء وصيفاً وغزا أرض قلورية وانكبردة وأسكنها المسلمون .

ذكر مسير الروم إلى أرض مصر

فى سنة تسع وثلاثين ومائتين فى خلافة المتوكل جاءت ثلاثمائة مركب للروم مع ثلاثة
رؤساء فأناخ أحدهم فى مائة مركب بدمياط وبينها وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون ماؤها
إلى صدر الرجل ، فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر فجازه قوم فسلموا
وغرق كثير من نساء وصبيان ومن كان به قوة سار إلى مصر وكان على معونة مصر
عنبسة بن إسحاق الضبى ، فلما حضر العيد أمر الجند الذين بدمياط أن يحضروا إلى مصر ،
فساروا منها ، فاتفق وصول الروم وهى فارغة من الجند فنهبوا وأحرقوا وسبوا وأحرقوا
جامعها وأخذوا ما بها من سلاح ومتاع وغير ذلك وسبوا من النساء المسلمات والذميات
نحو ستمائة امرأة وأوقروا سفنهم من ذلك ، وكان عنبسة قد حبس بسر بن الأكشف

بدمياط فكسر قيده ، وخرج يقاتلهم وتبعه جماعة وقتل من الروم جماعة وسارت الروم إلى أشنوم تنيس ، وكان عليه سور وبابان من حديد قد عمله المعتصم فنهبوا مافيه من سلاح وأخذوا البابين ، ورجعوا ولم يعرض لهم أحد وغزا الصائفة فى هذه السنة على بن يحيى الأرمنى ، وفى سنة أربعين كان قتال بين محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس وبين الإفرنج فكان النصر له عليهم وقتل منهم نحو ثمانية آلاف ، وفى سنة إحدى وأربعين قتلت تدورة ملكة الروم من أسرى المسلمين اثنى عشر ألفا فإنها عرضت النصرانية على الأسرى من تنصر تركته ومن أبى قتلته وأرسلت تطلب المفادة لمن بقى منهم ففداهم المتوكل وكانوا سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ومن النساء مائة وخمسا وعشرين امرأة .

ذكر إغارة البجاة على مصر

(ومجاوزة أرض النبوة والبجاة أهل تلك الأرض)

فى سنة إحدى وأربعين أغارت البجاة على أرض مصر وكانت قبل ذلك لا تغزو بلاد الإسلام لهدنة قديمة ، وفى بلادهم معادن الذهب يؤدون منها الخمس إلى أهل مصر فامتنعوا أيام المتوكل ، وقتلوا من وجدوه من المسلمين ، فلما بلغ الخبر المتوكل شاور وزراءه فى أمرهم فذكروا له أنهم أهل بادية وأهل إبل وشياه ، وأن الوصول إلى بلادهم صعب ، لأنها مفاوز بين أرض الإسلام وبينها مسيرة شهر فى أرض قفرة وجبال وعرة وأن كل من يدخلها من الجيوش يحتاج أن يتزود للمدة التى يتوهم أنه يقيمها إلى أن يخرج إلى بلاد الإسلام فإن جاوز تلك المدة هلك وأخذتهم البجاة باليد وأن أرضهم لا ترد على سلطان شيئا ، فأمسك المتوكل عنهم فطمعوا ، وزاد شرهم حتى خاف أهل الصعيد على أنفسهم منهم ، فولى المتوكل محمد بن عبد الله القمى محاربتهم ، وكتب إلى عنبسة بن إسحاق عامل حرب مصر بإزاحة علته وإعطائه من الجند ما يحتاج إليه ففعل ذلك وسار محمد إلى البجاة وتبعه ممن يعمل فى المعادن والمتطوعة عالم كثير فبلغت عدتهم نحو عشرين ألفا بين فارس وراجل ، ووجه إلى القلزم فحمل فى البحر سبعة مراكب موفورة بالذخيرة ، وأمر أصحابه

أن يوافوه بها فى ساحل البحر مما يلى بلاد البجاة وسار حتى جاوز المعادن التى يعمل منهم الذهب وسار إلى حصونهم وقلاعهم وخرج إليه ملكهم ، وكان معه صنم من حجارة كهيئة الصبى يسجد له فى جيش كثير أضعاف من مع القمى ، وكانت البجاة على الإبل فتحاربوا أياماً وطاولهم البجاة . لتفنى أزواد المسلمين وعلوفاتهم ، فيأخذوهم بغير حرب فأقبلت تلك المراكب التى فيها الأقوات فى البحر ، ففرق القمى ما كان فيها فى أصحابه فاتسعوا فيها فلما رأى ملك البجاة ذلك صدقهم القتال ، وجمع لهم فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً وكانت إبلهم ذعرة تنفر من كل شىء ، فلما رأى القمى ذلك جمع كل جرس فى عسكره وجعلها فى أعنـاق خيله ثم حملوا على البجاة فنفرت إبلهم لأصوات الأجراس ، فحملتهم على الجبال والأودية ، وتبعهم المسلمون قتلا وأسراً حتى أدركهم الليل ثم رجع إلى معسكره ولم يقدر على إحصاء القتلى لكثرتهم ، ثم إن ملكهم طلب الأمان فأمنه على مملكته وبلاده فأدى لهم الخراج للمدة التى كان منعها وهى أربع سنين وسار القمى إلى المتوكل فخلع عليه وعلى أصحابه ، وفى هذه السنة أغارت الروم على عين زربة فأخذت من كان بها أسيراً من الزط (الزط جيل من السودان طوال الأجسام) من نسائهم وذراريهم ودوابهم ، وفى هذه السنة أيضاً سير محمد صاحب الأندلس الجيوش إلى غزو الإفرنج فدخلوا بلادهم ووصلوا إلى البتة والقلاع وافتتحوا بعض حصونها وعادوا ، وفى سنة اثنتين وأربعين خرجت الروم من ناحية سميساط حتى قاربوا آمد وخرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا وأسروا نحواً من عشرة آلاف ثم رجعوا فخرج قوم من المتطوعة فى آثارهم فلم يلحقوهم وكتب المتوكل إلى على بن يحيى الأرمينى أن يسير إلى بلادهم ثانياً ففعل وفى هذه السنة سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشاً إلى بلاد الإفرنج فدخلوا إلى برشلونة وحاربوا قلاعها وجاوزوها إلى ما وراء أعمالها ، ففتحوا كثيراً وافتتحوا حصناً من أعمال برشلونة يسمى طراجة من آخر حصون برشلونة . وفى سنة أربع وأربعين بعث المتوكل بغا الكبير فى العساكر الصائفة لدخل بلاد الروم فدوخها واكتسحها من سـائر النواحى ثم رجع ، وفى سنة خمس وأربعين أغارت الروم على سميساط فقتلوا ونهبوا وأسروا خلقاً

كثيراً وغزا على بن يحيى الأرمينى الصائفة ومنع أهل لؤلؤة رئيسهم من الصعود إليها فبعث إليهم ملك الروم يضمن لكل رجل منهم ألف دينار على أن يسلموا إليه (لؤلؤة) قلعة الصقالبة ، فأصعدوا البطريق إليهم ثم أعطوا أرزاقهم الفائتة وما أرادوا ، ثم سلموا البطريق ولؤلؤة إلى بلكاجور فسيره إلى المتوكل ، فبذل ملك الروم فى فدائه ألف مسلم كانوا مأسورين عنده ، وفى سنة ست وأربعين أيضا غزا عمر ابن عبيد الله الأقطع الصائفة فجاؤا بسبعة عشر ألف رأس ، وغزا قربياس فجاء بخمسة آلاف رأس ، وغزا الفضل ابن قارون فافتتح حصن أنطاكية ، وغزا بلجا كورفغنم وسبى ، وغزا على بن يحيى الأرمينى فأخرج خمسة آلاف رأس ومن الدواب والرمك والحمير نحواً من عشرة آلاف رأس . وفى هذه السنة كانت الفداء على يد على بن يحيى الأرمينى ففودى بألفين وثلاثمائة وسبعة وستين نفراً ، وفى هذه السنة والتى قبلها خرج المجوس من بلاد الأندلس فى مراكب إلى بلاد الإسلام فأمر محمد بن عبد الرحمن صاحب البلاد بإخراج العساكر إلى قتالهم ، فوصلت مراكب المجوس إلى أشبيلية فحلت بالجزيرة ودخلت إلى قتالهم وأحرقت المسجد الجامع ، ثم جازت إلى العدوة ، ثم تقدموا إلى حائط إفرنجة وأغاروا وأصابوا من النهب والسبى كثيراً ثم انصرفوا فلقيتهم مراكب محمد فقاتلوهم فأحرقوا مركبين من مراكب المجوس وأخذوا مركبين آخرين فغنموا مافيها ، فحمى المجوس عند ذلك وجدوا فى القتال واستشهد جماعة من المسلمين ، ثم مضت مراكب المجوس حتى وصلت إلى مدينة بنبلونة فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجى فافتدى نفسه منهم بتسعين ألف دينار وفى هذه السنة غزا عامل طرسوسة بنبلونة ، فافتتح حصن بيلسان وسبى أهله ، ثم كانت على المسلمين فى اليوم الثانى وقعة استشهد فيها جماعة ، وفى سنة سبع وأربعين غزا محمد صاحب الأندلس فى جيوش كثيرة بنبلونة ، فوطىء بلادها ودوخها وخربها ونهبها وقتل فيها فأكثر وافتتح حصوناً وأسر فوتون بن غرسية فحبسه بقرطبة عشرين سنة ثم أطلقه ، وفى هذه السنة قتل المتوكل قتله خدمه الأتراك وبويع ابنه المنتصر ، ومات بعد ستة أشهر وبويع المستعين ابن المعتصم .

ذكر فتوحات وغزوات بأفريقية

لما توفى أمير صقلية العباس بن الفضل سنة سبع وأربعين ولى الناس عليهم ابنه عبد الله وكتبوا إلى الأمير بأفريقية بذلك ، وأخرج عبد الله السرايا ففتح قلاعاً متعددة وبعد خمسة أشهر وصل من أفريقية خفاجة بن سفيان أميراً على صقلية وكان وصوله سنة ثمان وأربعين فأكثر الغزوات والسرايا على الروم بتلك النواحى وشن عليهم الغارات ففتح حصوناً كثيرة واستمر إلى سنة خمس وخمسين وتوفى وأقيم بعده ابنه محمد ، وكان الروم يحاصرون مالطة فسير إليهم جيشاً سنة ست وخمسين ، فلما سمع الروم بذلك رحلوا ثم قتل محمد بن خفاجة سنة سبع وخمسين قتله خدمه الخصيان ، وهربوا فطلبهم الناس فأدركوهم ، فقتلوهم ، وفى سنة ثمان وأربعين ومائتين سار جيش للمسلمين بالأندلس إلى مدينة برشلونة وهى للفرنج فأوقعوا بأهلها فراسل صاحبها ملك الفرنج يستمده فأرسل إليه جيشاً كثيفاً وأرسل إليه المسلمون يستمدون فأتاهم المدد فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالا شديداً فملكوا أرباضها وبرجين من أبراج المدينة فقتل من المشركين خلق كثير وسلم المسلمون وعادوا وقد غنموا ، وفى سنة ثمان وأربعين غزا وصيف التركى بلاد الروم ومعه إثنا عشر ألفاً فدخل بلاد الروم وافتتح حصن فرورية ، وفى سنة تسع وأربعين سير محمد صاحب الأندلس جيشاً إلى مدينة ألبة والقلاع من بلاد الفرنج فجالت الخيل فى ذلك الثغر وغنمت وافتتحت بها حصوناً منيعة ، وفى سنة تسع وأربعين أيضاً غزا جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصناً ومطامير واستأذنه عمر بن عبيد الله الأقطع فى المسير إلى بلاد الروم فأذن له فسار فى خلق كثير من أهل ملطية ، فلقيه الملك فى جمع عظيم من الروم بمرج الأسقف فحاربه محاربة شديدة قتل فيها من الفريقين خلق كثير ، ثم أحاطت به الروم وهم خمسون ألفاً وقتل عمر وممن معه ألفان من المسلمين ، فلما قتل عمر ابن عبيد الله خرج الروم إلى الثغور الجزرية وكلبوا عليها وعلى أموال المسلمين وحرمهم ، فبلغ ذلك على بن يحيى وهو قافل من أرمينية إلى ميافارقين فى جماعة من أهلها ومن أهل السلسلة فنفر إليهم فقتل فى نحو من أربعمائة رجل ، ولما اتصل الخبر ببغداد وسامراً بقتل عمر بن عبيد الله وعلى بن

يحيى وكانا من شجعان الإسلام شديداً بأسهما عظيما غناؤهما عن المسلمين فى الثغور شق ذلك عليهم مع استعظامهم قتل الأتراك للمتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير وقام بعض الأجناد يطلبون أرزاقهم وثار من ذلك فتن متتابعة يطول الكلام بذكرها واستمرت إلى أن خلع المستعين وبويع المعتز ابن المتوكل سنة إحدى وخمسين ومائتين، ثم قتل المستعين سنة اثنتين وخمسين ومائتين وفى سنة ثلاث وخمسين أيام المعتز غزا محمد بن معاذ من ناحية ملطية فانهزم وأسر .

ذكر غزوة عظمى من الأندلس على بلاد الإفرنج

فى سنة إحدى وخمسين وقيل اثنتين وخمسين سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس جيشاً مع ابنه المنذر إلى بلاد الفرنج ، فساروا وقصدوا الملاحة وكانت أموال لذريق ملك الفرنج بناحية ألبة والقلاع ، فلما عم المسلمون بلدهم بالخراب والنهب جمع لذريق عساكره وسار يريدهم فالتقوا بموضع يقال له فج المركوين فاقتتلوا فانهزم الفرنج إلا أنهم لم يبعدوا واجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة فتبعهم المسلمون وحملوا عليهم واشتد القتال فولى الفرنج منهزمين لا يلوون على كل شىء وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وكان عدد ما أخذ من رؤوس الفرنج ألفين وأربعمائة واثنين وتسعين رأساً ، وكان فتحاً عظيما وعاد المسلمون بالغنائم الكثيرة ، وسير جيشاً أيضاً فى السنة التى بعدها فقصدوا ألبة والقلاع ومدينة مانة وقتلوا من أهلها عدداً كثيراً ثم قفلوا سالمين ، وفى سنة ثلاث وخمسين أيضاً سير جيشاً ، فافتتحوا حصون جرفيق وغلبوا على أكثرها ، وفى سنة خمس وخمسين ومائتين خلع المعتز ثم قتل وبويع المهتدى ابن الواثق وخلع ، ثم قتل سنة ست وخمسين وبويع المعتمد على الله بن المتوكل وفى سنة تسع وخمسين ومائتين خرجت عساكر الروم فنازلوا سميساط ، ثم نالوا ملطية وقاتلهم أهلها فانهزم الروم وقتل بطريق من بطارقتهم ، وفى هذه السنة سارت سرية للمسلمين بأفريقية إلى سرقوسة ، فصالحهم أهلها على أن يطلقوا الأسرى من المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا ثلاثمائة وستين أسيراً فلما أطلقوهم عادوا منهم .

ذكر القتال مع صاحب الزنج

ابتدأ ظهور صاحب الزنج وكان فى سنة خمس وخمسين ومائتين وذكر القتال معه، ملحق بالقتال مع الكفار لأنه وإن كان يدعى الإسلام لكن ما فعله بأهل الإسلام أشنع مما تفعله الكفار كما ستراه والكلام على قصته طويل مبسوط فى التواريخ وتلخيصها أن رجلا من بنى عبد القيس اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم كان فى سر من رأى وأصله من الرى وكان متصلا بحاشية المنتصر بن المتوكل يمدحهم بشعره ويستمنحهم من عطائهم، ثم أنه شخص من سر من رأى سنة تسع وأربعين ومائتين إلى البحرين، وادعى نسبته فى العلويين، فقال مرة أنه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وقال مرة أنه من ولد الحسن بن عبيد الله بن العباس ابن على بن أبى طالب ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه جماعة كثيرة من أهلها ومن غيرهم وخالفه آخرون، فجرى بين الطائفتين عصبية وقتال قتل فيه جماعة وكان أكثر البحرين قد أحلوه محل نبى وجبى الخراج ونفذ فيهم حكمه وقاتلوا أصحاب السلطان بسببه، فقام منهم جماعة وتنكروا له فانتقل إلى الاحساء وصحبه جماعة من أهل البحرين، ثم تنقل فى البادية وقال أوتيت فى تلك الأيام بالبادية آيات من آيات أمانتى ظاهرة للناس. منها أنى لقنت سوراً من القرآن، فجرى بها لسانى فى ساعة وحفظتها فى دفعة واحدة منها سبحان والكهف وص، ومنها إنى تفكرت فى الموضع الذى أقصده حيث نبت بى البلاد فأظلتنى غمامة وخوطبت منها فقيل لى أقصد البصرة إلى غير ذلك من مقالاته المخترعة، وفى تاريخ الخلفاء للجلال السيوطى إنه ادعى أنه أرسل إلى الخلق فرد الرسالة وكان له منبر يصعد إليه ويسب عثمان وعليا ومعاويا والزبير وطلحة وعائشة وفى تاريخ ابن الأثير وابن خلدون أنه كان يرى رأى الخوارج وهذا يبطل انتسابه إلى العلويين، وكان أول ظهوره للناس سنة خمس وخمسين ومائتين، وكان فى مبدأ أمره يدعوا الغلمان من الزنوج الذين يسكنون السباخ فى جهة البصرة، فاجتمع له منهم خلق كثير وكان يعدهم بالعتق ويرغبهم فى الإحسان فإذا جاء أحد من موالى الزنوج يطلبون عبيدهم يأمر كل عبد أن يضرب مولاه

ثم يحبسهم، ثم يطلقهم ، فامتنع موالى الزنوج من طلب عبيدهم وكان يخطب النبيذ وغيرهم ممن تبعه فى كل وقت ويرغبهم ولم يزل هذا دأبه والزنوج يأتون إليه بكثرة ويتابعونه ويدخلون فى أمره واتخذ له راية وكتب عليها قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ الآية فكثرت جيوشه ، واستحكم أمره، وشن الغارات وبث أصحابه يمينا وشمالا للاغارة والنهب ، وسار الجيش إلى الإبلة فخرجوا له بأربعة آلاف فهزمهم وملك الإبلة ثم سار إلى القادسية ، فملكها ونهبها فكثر عنده المال والسلاح ، فخرج جماعة من أهل البصرة لقتاله فهزمهم وقتل منهم ، وأخذ سلاحهم ، ثم خرجت طائفة أخرى فكذلك ، وأخرى فكذلك ، ثم خرج له قائد من البصرة بجيش فهزمهما وقتل منهما ، وكان معهما سفن ألقتها الريح إلى الشط ، فغنم ما فيها ، وكثر شغبه وفساده ، وجاء أبو هلال من قواد الأتراك فى أربعة آلاف مقاتل فلقيه فهزمه وقتل كثيراً من أصحابه ، ثم خرج إليه أبو منصور أحد موالى الهاشميين فى عسكر عظيم فهزمهم ، وكان من أعيان أصحابه يحيى بن محمد الأزرق البحرانى وسليمان بن جامع وهو قائد جيشه وذكر ريحان أحد غلمان السورجيين وهو أول من صحبه منهم ، إنه كان موكلا بغلمان مولاه أنقل لهم الدقيق ، فأخذنى أصحابه فساروا بى إليه وأمرونى أن أسلم عليه بالأمرة ففعلت فسألنى عن الموضع الذى جئت منه فأخبرته ، وسألنى عن أخبار البصرة فقلت : لا أعلم لى . وسألنى عن غلمان السورجين وعن أحوالهم ومايجرى لهم ، فأعلمته فدعانى إلى ما هو عليه فأجبته فأمرنى أن أحتال على من قدرت عليه من الغلمان الزنج وأقبل بهم عليه ووعدنى أن يجعلنى قائداً على من أتيته بهم فعدت إليه من الغداة وقد أتيته بجماعة من الزنج ، وجاء جماعة مع الغلمان الدباشين وما زال يدعو غلمان أهل البصرة وغيرهم فيقولون إليه للخلاص من الرق والتعب ، فاجتمع عنده خلق كثير منهم ، فخطبهم ووعدهم أن يجعلهم قواداً ويملكهم الأموال ، وحلف لهم بالإيمان أن لا يغدر بهم ولا يخذلهم . ولا يدع شيئاً من الإحسان إليهم ولمن أتى به وجاء إليه بعض موالى العبيد وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم لكل منهم عبده ، فبطح أولئك الموالى ، وأمر

كل من عنده من العبيد ، فضربوا مواليهم كل سيد خمسمائة صوت ، وكان إذا خطب العبيد يذكرهم ما كانوا فيه من الشقاء وسوء الحال ، وإن الله تعالى أبعدهم من ذلك ، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم العبيد والأموال ، وجاءه مرة رجل من رؤساء الزنج يكنى بأبى صالح بثلاثمائة من الزنج ، فلما كثروا جعل القواد فيهم منهم وقال لهم : كل من أتى منكم برجل فهو مضموم إليه وما زالت جيوشه تكثر من الزنج وغيرهم حتى بلغت ألوفاً مؤلفة وأعداداً لا تحصى فشن الغارات على القرى والأمصار وأكثر القتل والنهب وجهز له الخليفة الجيوش الكثيرة المرة بعد الأخرى . وهو يهزم تلك الجيوش ويقتل كثيراً منها ويسبى من القرى والأمصار والنساء والذرية ومازال أمره هكذا أربع عشرة سنة حتى ظفروا به وقتلوه واضمحل أمره قال الجلال السيوطى فى تاريخ الخلفاء استمر القتال مع صاحب الزنج من حين تولى المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم ابن هارون الرشيد سنة ست وخمسين ومائتين إلى سنة سبعين ومائتين فقتل فيها رئيس الزنج لعنه الله ، قال وذكر الصولى إن الذين قتلهم من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف إنسان وقتل باليوم الواحد بالبصرة ثلاثمائة ألف ، ولما قوى أمر صاحب الزنج صار المباشر لقتاله وقيادة الجيوش الموفق طلحة بن المتوكل وهو أخو الخليفة المعتمد على الله بن المتوكل وباشر معه أيضاً لقيادة بعض تلك الجيوش ابنه أبو العباس أحمد الذى صار بعد المعتمد على الله خليفة ، ولقب بالمعتضد . قال المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب : شخص الموفق لمحاربة صاحب الزنج فى صفر سنة سبع وسبعين ومائتين ، وقدم الموفق ابنه أبو العباس فى ربيع الآخر إلى سوق الجيش وقيادته وكان رجل يقال له الشعرانى من أصحاب صاحب الزنج قد تحصن فى جمع كثير من الزنج ففتح أبو العباس ابن الموفق هذا الموضع وغنم جميع ما كان فيه ثم فتح مواضع كثيرة وقتل من كان فيها من الزنج وسار الموفق إلى الأهواز فأصلح ما أفسده الزنج ثم عاد إلى البصرة فلم يزل منازلا لصاحب الزنج حتى قتل فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر يقتل الصغير والكبير والذكر والأنثى ويحرق ويخرب وقد كان أتى البصرة فى وقعة واحدة من وقائعه فقتل ثلاثمائة ألف من

الناس وكان المهلبي من أصحاب صاحب الزنج بعد هذه الوقعة بالبصرة ، فنصب منبراً وكان يصلي يوم الجمعة بالناس ويخطب على ذلك المنبر ويدعو لصاحب الزنج ويلعن جبابرة بني العباس وكثيراً من الصحابة ، فاجتمع من بقي من أهل البصرة وأرادوا الخروج على المهلبي ليقتلوه فعلم بهم فوضع السيف فيهم فمن ناج سالم ومن مقتول ومن غريق ، واختفى كثير من الناس في الدور والآبار ، فكانوا يظهرون في الليل فيأخذون الكلاب فيذبحونها فيأكلونها والفيران والسنانير فأفنوها حتى لم يقدروا منها على كل شيء ، فكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه وعدموا من ذلك الماء العذب . وذكر عن امرأة منهم أنها حضرت امرأة تنازع وعندها أختها وقد احتوشوها ينظرون أن تموت فيأكلون لحمها ، قالت المرأة فما ماتت حتى ابتدرنا فقطعناها وأكلناها ولقد حضرت أختها ثم جاءت وهي تبكي ومعها رأس أختها فقيل لها ويحك مالك تبكين ؟ قالت : اجتمعوا على أختي فما تركوها حتى تموت موتا حسناً حتى قطعوها فظلموني فلم يعطوني من لحمها شيئاً إلا رأسها وهي تشتكي ظلمهم لها في أختها ومثل هذا كثير وأعظم مما وصفنا ، ثم قال المسعودي : وبلغ من أمر عسكر صاحب الزنج أنه كان ينادي فيه عن المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس ، فتباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة وينادى عليها بنسبها هذه فلانة ابنة فلان الفلاني ولكل زنجي منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تخدم الوصائف ولقد استغاثت إلى صاحب الزنج امرأة من ولد الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه عنهما كانت عند بعض الزنج وسألته أن ينقلها إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هي فيه فقال هو مولاك وأولى بك من غيره ، ثم قال المسعودي وقد تكلم الناس في مقدار ما قتل في هذه السنين من الناس فمكثر ومقلل فأما المكثر فإنه يقول أفنى من الناس مالا يدركه العد ولا يقع عليه الإحصاء ولا يعلم ذلك إلا الله تعالى عالم الغيب فيما فتح من هذه الأمصار والبلدان والضياع وأباد أهلها والمقلل يقول أفنى من الناس خمسمائة ألف ألف انتهى . وقال الجلال السيوطي في تاريخ الخلفاء ، ولما قتل هذا

الخبيث لعنه الله تعالى أتى برأسه على رمح ودخلوا به بغداد وعملت الزينة وضج الناس بالدعاء للموفق طلحة ومدحه الشعراء وكان يوماً مشهوداً وترجع الناس إلى المدائن التى كان أخذها وهى كثيرة كواسط والبصرة وغيرها انتهى . وبالجملة فإن هذه القضية كانت مصيبة عظمى على أهل الإسلام هذا تلخيص قصة صاحب الزنج باختصار وإن أردت تفصيل الوقائع والحروب التى كانت لهذه القصة فى تلك السنين فانظرها فى التواريخ تجدها مبسوطة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ملك الروم ولؤلؤة

فى سنة ثلاث وستين ومائتين سلمت الصقالبة لؤلؤة إلى الروم وهى قلعة الصقالبة ، وكان سبب ذلك أن أحمد بن طولون قد أدمن الغزو بطرسوس قبل أن يلى مصر ، فلما ولى مصر سنة خمس وخمسين كان يؤثر أن يلى طرسوس ليغزو منها أميراً فلم يجب إلى ذلك وكان العمال الذين يأتون إلى طرسوس يسيئون السير وآل الأمراء إلى استيلاء الروم على القلعة المذكورة فشق ذلك على أهل طرسوس لأنها كانت شجى فى حلق العدو ولم يكن يخرج الروم فى بر ولا بحر إلا رأوه وأنذروا به واتصل الخبر بالمعتمد على الله فقلد طرسوس أحمد بن طولون واستعمل عليها من يقوم بغزو العدو وتحفظ ذلك الثغر وقيم الجهاد . وفى هذه السنة سير محمد صاحب الأندلس ابنه المنذر فى جيش كبير وجعل طريقه على مارده فلما جاوزها إلى أرض العدو تبعه تسعمائة فارس من العسكر فخرج عليهم جمع كثير من الفرنج فاقتتلوا قتالا كثيراً صبروا فيه وقتل من الفرنج عدد كثير ، ثم استظهر المشركون على التسعمائة فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم عن آخرهم وأكرمهم الله بالشهادة وفى سنة أربع وستين غزا بالصائفة عبد الله بن رشيد بن كاووس فى أربعين ألفاً من أهل الثغور الشامية فأثخن فى الروم وغنم ورجع ، فلما رحل عن البدندون خرج عليه جمع من الروم فأحاطوا بالمسلمين فاستمات المسلمون ونزلوا وعرقبوا دوابهم وقاتلوا حتى قتلوا إلا خمسمائة فإنهم حملوا حملة رجل واحد ونجوا على دوابهم وقتل وقتل الروم من قتلوا وأسروا

عبدالله بن رشيد بعد ضربات أصابته وحمل إلى ملك الروم فبعث به إلى أحمد بن طولون صاحب مصر ومعه كثير من الأسرى وأهدى لابن طولون عدة مصاحف .

ذكر ملك المسلمين مدينة سرقوسة

في سنة أربع وستين ومائتين ملك المسلمون سرقوسة وهي من أعظم مدائن صقلية ، وكان سبب ملكها أن جعفر بن محمد أمير صقلية غزاها فأفسد زرعها وزرع ما حولها من بلاد صقلية التي بأرض الروم ، ونازل سرقوسة وحصرها براً وبحراً وملك بعض أرباضها فوصل مراكب الروم نجدة لها فسير إليها أسطولا فأصابوها فتمكنوا حينئذ من حصرها ، فأقام العسكر محاصراً لها تسعة أشهر وفتحت عنوة وقتل من أهلها عدة ألوف وأصيب فيها من الغنائم مالم يصب بمدينة أخرى ولم ينج من رجالها إلا الفذ النادر وأقاموا فيها بعد فتحها شهرين ثم هدموها ، ثم وصل بعد هدمها من القسطنطينية أسطول فالتقوا هم والمسلمون فظفر بهم المسلمون وأخذوا منهم أربع قطع فقتلوا من فيها ، وانصرف المسلمون إلى بلادهم وفي هذه السنة سير محمد بن عبد الرحمن صاحب الأندلس ابنه المنذر في جيش إلى مدينة بنبلونة وجعل طريقه على سرقسطة فقاتل أهلها ثم انتقل إلى تطيلة وجال في مواضع ، ثم دخل بنبلونة فخرب كثيرا من حصونها وأذهب زروعه وعاد سالماً . وفي سنة خمس وستين خرج خمسة من بطارقة الروم إلى أدنه ، فقتلوا وأسروا وقتل نحواً من ألف وأربعمائة وأسروا نحواً من أربعمائة وكان أرجوز والي الثغر فعزل عنها في سنة ست وستين ومائتين ، ووردت سرية من الروم إلى ديار ربيعة فأسرت نحواً من مائتين وخمسين إنسانا ومثلت بالمسلمين فنفر إليهم أهل الموصل ونصيبين ، فرجعت الروم ، وفي هذه السنة لقي أسطول المسلمين أسطول الروم عند صقلية ، فظفر الروم بعد قتال شديد ولحق من سلم منهم إلى مدينة بلرم من صقلية ، وفي هذه السنة أيضاً غزا عامل ابن طولون الثغور الشامية في ثلاثمائة من أهل طرسوس ، واعترضهم أربعة آلاف من الروم ، فاقتتلوا قتالا شديداً وقتل المسلمون خلقاً كثيرا من العدو وأصيب من المسلمين جماعة وفي سنة سبع وستين ولي جزيرة صقلية الحسن ابن العباس فبعث السرايا إلى كل

ناحية وخرج إلى قطانية فأفسد زرعها ، وزرع طبرمين وقطع أشجارها ، وسار إلى بقارة فأفسد زرعها ، وانصرف إلى بلرم وأخرجت الروم سرايا فأصابوا من المسلمين كثيراً وفى سنة ثمانى وستين سارت سرية من صقلية فلقيهم جيش الروم،فأصيب المسلمون كلهم غير سبعة نفر وعزل الحسن بن العباس عن صقلية ووليها محمد بن الفضل فبث السرايا فى كل ناحية من صقلية وخرج هو فى جيش عظيم ، فسار إلى مدينة قطانية فأهلك زرعها ثم رحل إلى أصحاب الشلندية فقاتلهم فأصاب فيهم فأكثر القتل ، ثم رحل إلى طبرمين فأفسد زرعها ثم رحل فلقى عسكر الروم فاقتتلوا وانهزم الروم وقتل أكثرهم فكانت عدة القتلى ثلاثة آلاف قتيل ووصلت رؤسهم إلى بلرم ، ثم سار المسلمون إلى قلعة كان الروم بنوها عن قريب ، وسموها مدينة الملك فملكها المسلمون عنوة وقتلوا مقاتلتها وسبوا من فيها . وفى هذه السنة خرج ملك الروم المعروف بابن الصقلية فنازل ملطية فأعانهم أهل مرعش والحدث فانهزم ملك الروم ، وغزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية الفرغانى عامل ابن طولون فقتل من الروم بضعة عشر ألفاً وغنم الناس فبلغ السهم أربعين ديناراً . وفى سنة تسع وستين خرج محمد بن الفضل أمير صقلية فى عسكر ناحية رمطة وبلغ العسكر إلى قطانية ، فقتل كثير من الروم وسبى وغنم ، ثم انصرف إلى بلرم . وفى سنة سبعين زحف الروم فى مائة ألف ، ونزلوا قلمية على ستة أميال من طرسوس فخرج إليهم بازمار عامل طرسوس لابن طولون ليلا فبيتهم وقتل منهم سبعين ألفا وجماعة من البطارقة ، وقتل مقدمهم بطريق البطارقة وغنم منهم سبعة صلبان ذهب وفضة وكان معظمها من ذهب مكللا بالجواهر وغنم خمسة عشر ألف دابة ومن السروج والسيوف مثل ذلك وأربعة كراسى من ذهب ومائتين من فضة وعشرين علما من الديباج وآنية كثيرة ونحوا من عشرة آلاف علم ديباج وديباجا كثيرا وغير ذلك . وفى هذه السنة أراد إسماعيل بن موسى أحد أمراء الأندلس بناء مدينة مارده ، فلما سمع الفرنجى صاحب برشلونة جمع وحشد يريد منعه من ذلك فسمع به اسماعيل فقصده وقاتله وهزمه وقتل أكثرهم وبقى أكثر القتلى فى تلك الأرض دهراً طويلا . وفى سنة إحدى وسبعين

سارت سرية للمسلمين بصقلية إلى رمطة ، فخرجت وغنمت وسبت وأسرت كثيراً وعادت وسار جيش كثير من صقلية إلى قطانية فأهلك مافيها وسار إلى طبرمين فقاتل أهلها وأفسد زرعها وتقدم فيها فأتى رسول بطريق الروم يطلب الهدنة ، والمفاداة فهادنه ثلاثة أشهر وفاداه ثلاثمائة أسير من المسلمين ورجع الجيش ، وفى سنة اثنتين وسبعين غزا الصائفة بازمار وخرجت سرية من صقلية إلى الروم الذين بها فغنمت وعادت وفيها قدم بطريق من القسطنطينية فى عسكر كبير ، فنزل على مدينة سبرينة فحصرها وضيق على من بها من المسلمين فسلموها على أمان ولحقوا بصقلية ، ثم سار عسكر البطريق إلى مدينة مقتية فحصروها حتى سلمها أهلها بأمان ، وفى سنة ثلاث وسبعين غزا بالطائفة بازمار وتوغل فى أرض الروم وقتل وغنم وأسر وسبى وعاد إلى طرسوس وفيها توفى محمد ابن عبد الرحمن صاحب الأندلس ومدة ملكه أربع وثلاثين سنة وولى بعده ابنه المنذر وتوفى بعد سنة وأحد عشرا شهراً وبويع أخوه عبد الله .

ذكر غزو الروم ووفاة بازمار

فى سنة ثمان وسبعين خرج بازمار غازياً فى جيش فبلغوا شكند ونازلوها فأصاب بازمار شظية من حجر منجنيق فرجع ومات فى الطريق ودفن بطرسوس وفى سنة تسع وسبعين توفى المعتمد على الله وبويع المعتضد بن الموفق بن المتوكل وفى سنة ثمانين غزا اسماعيل بن أحمد الساماني صاحب خراسان بلاد الترك وافتتح مدينة ملكهم وأسر أباه وامرأته خاتون ونحواً من عشرة آلاف وقتل منهم خلقاً كثيراً وغنم من الدواب مالا يحصى ، وأصاب الفارس من الغنيمة ألف درهم وفى سنة إحدى وثمانين غزا المسلمون الروم فدامت الحرب بينهم اثنى عشر يوماً فظفر المسلمون وغنموا غنيمة كثيرة وعادوا .

ذكر حصر الصقالبة القسطنطينية

فى سنة ثلاث وثمانين صارت الصقالبة إلى الروم فحصروا القسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وخربوا البلاد فلم يجد ملك الروم منهم خلاصاً فجمع من عنده من

أسارى المسلمين وأعطاهم السلاح وسألهم معونته على الصقالبه ففعلوا لكون الصقالبة كفار فكشفوا الصقالبة وأزاحوهم عن القسطنطينية ، ولما رأى ملك الروم ذلك خاف من المسلمين على نفسه فردهم وأخذ منهم السلاح وفرقهم فى البلاد حذراً من جناياتهم عليه ، وفى هذه السنة كان الفداء بين المسلمين والروم فكان جملة من فدى من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس وفى سنة خمس وثمانين غزا راغب مولى الموفق فى البحر فغنم مراكب كثيرة فضرب أعناق ثلاثة آلاف من الروم كانوا فيها وأحرق المراكب وفتح حصونا كثيرة وعاد سالماً ، وفيها غزا ابن الأخشيد صاحب مصر بأهل طرسوس ففتح الله على يديه ، وبلغ إسكندرونة . وفى سنة سبع وثمانين غزا أبو العباس أحمد بن الأغلب مدينة بلرم براً وبحراً فخرج إليه أهلها فقاتلوه ثم انهزموا ، ووقع القتل فيهم وملك البلد ثم رحل إلى طبرمين فقطع كرومها وقاتلوهم ثم رحل إلى قطانية فحصرها فلم ينل منها غرضاً فرجع إلى صقلية إلى أن دخلت سنة ثمان وثمانين فتجهز للغزو وطاب الزمان وعمر الأطول وسيره إلى قطانية ونصب عليها المجانيق وأقام أياما ثم انصرف إلى مسينى وجاز إلى ربو وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلهم على باب المدينة وهزمهم وملك المدينه بالسيف وغنم من الذهب والفضة مالا يحد وشحن المراكب بالدقيق والأمتعة ورجع إلى مسينى وهدم سورها ووجد بها مراكب وصلت من القسطنطينية ، فأخذ منها ثلاثين مركبا ورجع إلى المدينة . وفى سنة ثمان ومائتين سير المعتضد جيشا إلى صائفة الروم ففتحوا حصونا كثيرة ورجعوا بأسرى كثيرة ثم إن الروم ساروا فى البر والبحر إلى ناحية كيسوم فأخذوا من المسلمين أكثر من خمسة عشر ألفا وعادوا . وفى سنة تسع وثمانين توفى المعتضد وبويع ابنه المكتفى . وفى سنة إحدى وتسعين ومائتين خرجت الترك فى خلق كثير إلى ما وراء النهر فوجه إليهم صاحب خراسان إسماعيل السامانى جيشا كثيراً وتبعهم من المتطوعة خلق كثير فساروا نحو الترك فوصلوا إليهم وهم غارون فكبسهم المسلمون مع الصبح وقتلوا منهم خلقا عظيما لا يحصون وانهزم الباقون واستبيح عسكرهم وعاد المسلمون سالمين غانمين ، وفى هذه السنة خرج من الروم

بمائة ألف عشرة صلبان مع كل صليب عشرة آلاف إلى الثغور فقصد جماعة منهم الحدث (بلدة الروم) فأغاروا وسبوا وأحرقوا وفى هذه السنة غزا من طرسوس القائد المعروف بغلام زرافة ففتح مدينة أنطاكية بالسيف وقتل خمسة آلاف من الروم ، وأسر مثلهم واستنقذ من الأسارى خمسة آلاف وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع فقسمها مع غنائم أنطاكية فكان السهم ألف دينار ، وفى سنة اثنتين وتسعين أغار الروم على مرعش ونواحيها فنفر أهل المصيصة وأهل طرسوس وأجلوهم وأصيب جماعة من المسلمين ، وفى هذه السنة كان الفداء فكان جملة من فودى من أسرى المسلمين ألف نفس ومائتى نفس ، وفى سنة ثلاث وتسعين أغارت الروم على قورس من أعمال حلب فقاتلهم أهلها قتالا شديداً ثم انهزموا وقتل الروم أكثرهم ودخل الروم قورس فأحرقوا جامعها وساقوا من بقى من أهلها ، وفى سنة أربع وتسعين غزا ابن كيلغ من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف رأس سبى ودواب ومتاع ودخل بطريق من بطارقة الروم فى الأمان وأسلم ، وفيها أيضاً غزا ابن كيغلغ فبلغ شكند وفتح الله عليه وسار إلى أليس فغنموا منهم نحواً من خمسين ألف رأس وقتلوا مقتلة عظيمة من الروم وانصرفوا سالمين ، وكان بطريق على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأرسل ذلك البطريق إلى المكتفى يطلب الأمان فأعطاه فخرج من حصنه ومعه مائتا أسير من المسلمين كانوا معه فى الحصن ، وكان ملك الروم أرسل ليقبض عليه فأعطى المسلمين سلاحاً ، فخرجوا معه وقبضوا على الذين أرسلهم ملك الروم ليقبضوا عليه ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا ما فى عسكرهم فاجتمعت الروم لمحاربة البطريق ، فسار إليهم جمع من المسلمين ليخلصوه ومن معه من أسرى المسلمين فبلغوا قونية فبلغ الخبر إلى الروم فانصرفوا عنه فانصرف البطريق ومن معه إلى بغداد وأخرب المسلمون قونية وأرسل ملك الروم إلى الخليفة المكتفى ، فطلب الفداء ، وفى سنة ثلاث وتسعين افتتح إسماعيل السامانى صاحب خراسان مدائن كثيرة من بلاد الأتراك والديلم ، وفى سنة خمس وتسعين توفى المكتفى وبويع أخوه المقتدر بن المعتضد ، وفى هذه السنة فودى من المسلمين ثلاثة آلاف نفس رجالا ونساء ، وفى سنة

ست وتسعين كان ابتداء دولة العبيديين بأفريقية وتفصيل ذلك طويل مذكور فى التواريخ وفى هذه السنة بعث المقتدر جيشاً لغزو الروم وعليه مؤنس الخادم فظفر وغنم وأسر منهم جماعة وعاد ، وفى سنة سبع وتسعين وجه المقتدر القائد ابن سيا لغزو الصائفة وكذا فى سنة ثمان وتسعين . وفى سنة تسع وتسعين غزا الصائفة رستم أمير الثغور من ناحية طرسوس فحصر حصن مليح الأرمنى ثم دخل بلده وأحرقها . وفى سنة ثلاثمائة توفى عبدالله بن محمد صاحب الأندلس وبويع حفيده عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله واستمر عبد الرحمن الناصر خمسين سنة وهو أول من تسمى منهم بأمير المؤمنين لما رأوا ظهور الضعف من خلفاء بنى العباس ، وكانوا قبل ذلك يقال لمن ولى منهم الأمير فلان وغزا عبد الرحمن الناصر فى بلاد الفرنج غزوات كثيرة وأثخن فيهم حتى خضعوا له وصاروا يهادونه ويلتمسون رضاه وتفصيل غزواته يطول الكلام بذكرها ، وسيأتى ذكر شىء منها . وفى سنة اثنتين وثلاثمائة سار الوزير المقتدر على بن عيسى لغزو الصائفة فلم يتيسر له فغزاها ثانية فى برد شديد وثلج ، وغزا أيضاً بشر الخادم وإلى طرسوس بلاد الروم ففتح فيها وغنم وسبى وأسر مائة وخمسين بطريقاً وكان السبى نحواً من ألفى رأس وفى سنة ثلاث وثلاثمائة أغارت الروم على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم وظهرت للروم أيضا فأوقعوا بجماعة من مقاتلة طرسوس والغزاة فقتلوا منهم نحو ستمائة فارس ولم تكن للمسلمين صائفة فى هذه السنة لكثرة الفتن فى بغداد فى مدة المقتدر وفيها خرج مليح الأرمنى إلى مرعش وعاث فى بلدها وأسر جماعة ممن حولها وعاد . وفى سنة أربع وثلاثمائة سار مؤنس الخادم إلى بلاد الروم لغزو الصائفة بجيوش كثيرة وفتح حصوناً كثيرة من الروم وعاد فأكرمه المقتدر وخلع عليه . وفى سنة خمس وثلاثمائة جاءت رسل من ملك الروم للخليفة المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فأجيبوا إلى ذلك وأنفذ المقتدر مع مؤنس للفداء مائة ألف وعشرين ألف دينار وكان قبل ذلك عقد لثمال الخادم على الغزاة فى بحر الروم ، وسار وكان قبل ذلك أيضا غزا جنى الصفوانى بلاد الروم فغنم ونهب وسبى وعاد سالما فقرئت الكتب على المنابر ببغداد

بذلك ثم جاءت رسل ملك الروم بطلب الهدنة ، وفى سنة ثلاثمائة و ثمان غزا عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس إلى جليقية فاستنجد عليه ملوك الإفرنج بعضهم بعضا فهزمهم ووطىء بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب الحصون وفى سنة اثنتى عشر وثلاثمائة غزا بنبلونة وفعل أكثر من ذلك وله غزوات غيرها يطول الكلام بذكرها والجلالقة هم الأسبنيول . وفى سنة عشر انقضت الهدنة التى كانت بين المقتدر وملك الروم فغزا المسلمون فى البر والبحر فغنموا وسلموا ، ودخل أهل طرسوس ملطية فظفروا و بلغوا من بلاد الروم وأظفر بهم ما لم يظنوه وعادوا وفى سنة إحدى عشرة غزا مؤنس بلاد الروم فغنم وفتح حصوناً وغزا ثمان أيضا فى البحر فغنم من السبى ألف رأس ومن الدواب ثمانية آلاف رأس ومن الغنم مائتى ألف رأس ومن الذهب والفضة شيئاً كثيراً . وفى سنة اثنتى عشرة جاء رسول ملك الروم بهدايا يطلب الهدنة وتقرير الفداء فأجيب إلى ذلك ، ثم غدروا بالصائفة فدخل المسلمين بلاد الروم فأثخنوا ونهبوا وسبوا وعادوا . وفى سنة ثلاث عشرة كتب ملك الروم إلى أهل الثغور يأمرهم بحمل الخراج فإن فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال إننى قد صح عندى ضعف ولاتكم فلم يفعلوا ذلك ، فساروا إليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية بها وسبى منها سنة أربع عشرة وفتح الروم أبواباً من الربض فدخلوا فقاتلهم أهلها وأخرجوهم وخربوا قرى كثيرة من قراها ونبشوا الموتى ومثلوا بهم وقصد أهل ملطية بغداد مستغيثين ، فلم يغاثوا فعادوا بغير فائدة وغزا أهل طرسوس صائفة فغنموا وعادوا .

ذكر حرب بين المسلمين والروم

فى سنة خمس عشرة وثلاثمائة خرجت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم فوقع عليها العدو فاقتتلوا فاستظهر الروم وأسروا من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبراً وسار الدمستق فى جيش عظيم إلى مدينة دبيل فحاصرها وضيق عليها و الدمستق عندهم

ملك عظيم يلى بلاد الروم التى هى شرقى دجلة القسطنطينية ويكون تحت أمر الملك الذى فى القسطنطينية ، وكان مع الدمستق دبابات ومجانيق ومزاريق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد وكان الرامى بها من أشجعهم فرماه رجل من المسلمين بسهم فقتله وأراح الله المسلمين منه ، وكان الدمستق يجلس على كرسى عال ليشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على مايراه فصبر له أهل البلد وهو ملازم للقتال حتى وصلوا إلى سور المدينة فنقبوا فيه نقوباً كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها ومن فيها من العسكر قتالا شديداً فانتصر المسلمون وأخرجوا الروم منها وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل ، وفى هذه السنة أيضا غزا ثمال الصائفة من طرسوس ولقى جمعا كثيراً من الروم فاقتتلوا فانتصر المسلمون عليهم وقتــلوا من الروم كثيراً وعاثوا فى أنعامهم وغنموا ثلاثمائة رأس من الغنم ولقيهم رجل من رؤساء الأكرام يعرف بابن الضحاك وكان له حصن يعرف بالجعفرى وكان قد ارتد عن الإسلام وتنصر ، وسار إلى ملك الروم وخدمه فأجزل له القطيعة وأمره بالعود إلى حصنه فلقيه المسلمون فقاتلوه فأسروه وقتلوا كل من معه ، وفى سنة ست عشرة وثلاثمائة خرج الدمستق فى عساكر الروم فحاصر خلاط وملكها صلحاً وجعل الصليب فى جامعها ورحل إلى بدليس ففعل بها كذلك وخاف أهل أرزن وغيرهم ففارقوا بلادهم وانحدر أعيانهم إلى بغداد واستغاثوا إلى الخليفة فلم يغاثوا ، وفى هذه السنة وصل سبعمائة رجل من الروم والأرمن إلى ملطية ومعهم الفؤس والمعاول وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل ثم ظهر أن مليحاً الأرمنى وضعهم ليكونوا بهـا فإذا حصرها سلموها إليه فعلم أهل ملطية فقتلوهم وأخذوا ما معهم ، وفى سنة سبع عشرة خلع المقتدر وبويع أخوه القاهر ثم بعد يومين أعيد المقدر وخلع القاهر وكانت هذه الفتنة هائلة وبسببها ضعفت الثغور الجزرية عن دفع الروم عنهم منها ملطية وميافارقين وآمد وارزن وغيرها وعزموا على طاعة ملك الروم والتسليم إليه لعجز الخليفة المقتدر بالله عن نصرهم وأرسلوا إلى بغداد يستأذنون فى التسليم ويذكرون عجزهم ويستمدون العساكر لتمنع عنهم فلم يحصلوا على فائدة فعادوا فصالحوا الروم وملكوهم

م البلاد . وفى سنة سبع عشرة أيضاً كان دخول القرامطة مكة يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة فنهبوا أموال الحجاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه وقلعوا الحجر الأسود وأنفذوه إلى هجر ، وقلعوا باب البيت ، وأصعدوا رجلا ليقلع الميزاب وكان من ذهب فأصيب بسهم من جبل أبى قبيس فما أخطأ نحره وخر ميتاً فأصعدوا آخر مكانه فسقط من فوق إلى أسفل على رأسه ومات فهاب الثالث الأقدم على القلع فتركوا قلع الميزاب وكان جملة من قتلوه من الطائفين والمصلين والمحرمين فى مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألفاً وسبوا من النساء والذرية مثل ذلك وتلك مصيبة ما أصيب الإسلام بمثلها وكان رئيسهم عدو الله المكنى بأبى طاهر ، ركض عند الكعبة فرسه ، وسيفه مشهور بيده ، وصفر لفرسه عند البيت الشريف فبال وراث قيل إن الذين قتلهم فى المطاف ألف وسبعمائة وملأ بئر زمزم من رؤسهم والكلام على هذه القصة وغيرها من وقائعهم طويل مذكور فى التواريخ وقاتلهم خلفاء بنى العباس ، ولهم معهم وقائع كثيرة (وكان ابتداء ظهورهم) سنة ثمان وسبعين ومائتين ولهم عقائد قبيحة يكفرون بها وإن كانوا يدعون الإسلام ويزعمون أنهم يدعون الناس للبيعة للمهدى المنتظر وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وكل ذلك زور وباطل قال ابن الأثير ولم يكن لمحمد بن اسماعيل ولد اسمه عبد الله ، ومكث الحجر الأسود عندهم فى هجر اثنتين وعشرين سنة وكانوا يريدون تحويل الحج إلى هجر فلما آيسوا من ذلك أرجعوه إلى موضعه من البيت وكان ذلك سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، وابتلى أبو طاهر رئيسهم بداء الأكلة فصار يتناثر لحمه بالدود ، وتقطعت أوصاله ، وطال عذابه ، ومات شر ميتة ولعذاب الآخرة أشد وأبقى وإنما ذكرنا هذه القصة ، لأن قتال هؤلاء وما فعلوه ملحق بقتال الكفار وأفعالهم ولا عبرة بكونهم يدعون الإسلام فإنهم كانوا يستبيحون دماء المسلمين ويرون ضلال كافة المسلمين ومن عقائدهم الزائغة المكفرة أن الصلاة ركعتان قبل طلوع الشمس وركعتان قبل غروبها فقط وأن النبيذ حرام والخمر حرام ولا غسل من الجنابة إلا الوضوء كوضوء الصلاة وأن محمد بن الحنفية رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غير ذلك من

ضلالاتهم واستمرت شوكتهم إلى سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ثم اضمحل أمرهم شيئا فشيئا حتى لم يبق لهم دولة .

تنبيـــــه

يوجد على وجه الحجر الأسود قطع كانت تكسرت منه ثم ألصقت به واشتهر على ألسنة كثير من الناس أن سبب تكسر هذه القطع من القراطمة لما أخرجوا من الحجر الأسود وليس الأمر كذلك بل سبب تكسرها ما ذكره السنجارى فى تاريخ مكة ونص عبارته فى سنة أربعمائة وأربع عشرة يوم النفر الأول وكان جمعة دخل المسجد رجل أشقر بيده سيف مسلول ودبوس من حديد فتقدم بعد أن فرغ الإمام من صلاة الجمعة ، وقصد الحجر الأسود فضربه بالدبوس ثلاث مرات وقال إلى متى يعبد هذا الحجر ومحلى وعلى فليمنعنى مانع من هذا فإنى أريد رب هذا البيت نخافه أكثر الحاضرين ، وكاد يهرب فسار إليه رجل فضربه بخنجر فقتله وقطعه الناس بالسلاح ثم أحرقوه فحصل فى الحجر الأسود شظب ، وخرج منه قطع صغار أعادها سدنة الكعبة وأمير مكة وألصقوها بالملك فصارت آثار ذلك باقية إلى الآن اهـ . ولنرجع إلى ما كنا بصدده : وفى سنة تسع عشرة وثلاثمائة غزا ثمال وإلى طرسوس بلاد الروم فعبر نهراً ، ونزل عليهم ثلج إلى صدور الخيل وأتاهم جمع كثير من الروم فواقعوهم فنصر الله المسلمين فقتلوا من الروم ستمائة ، وأسروا نحواً من ثلاثة آلاف وغنموا من الذهب والفضة والديباج وغيره شيئاً كثيراً وعاد ثمال إلى طرسوس ودخل بلاد الروم صائفة فى جمع كثير من الفارس والراجل فبلغوا عمورية ، وكان قد تجمع بها كثير من الروم ففارقوها لما سمعوا خبر ثمال ، ودخل المسلمون فوجدوا فيها من الطعام والأمتعة شيئاً كثيراً فأخذوا وأحرقوا ما كانوا عمروه منها وأوغلوا فى بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا أنقرة وهى التى تسمى الآن انكورية وعادوا سالمين ولم يلقوا كيداً فبلغت قيمة السبى مائة ألف دينار وستة وثلاثين ألف دينار ، وفى هـذه السنة كاتب ابن الديرانى وغيره من الأرمن وهم بأطراف أرمينية الروم وحثوهم على

قصد بلاد الإسلام وواعدوهم النصر فسارت الروم فى خلق كثير فخربوا بذكرى وبلاد خلاط وما جاورها وقتل من المسلمين خلق كثير ، وأسروا كثيراً منهم فبلغ خبرهم مفلحا غلام يوسف بن أبى الساج وهو والى أذربيجان فسار فى عسكر كبير وتبعه كثير من المتطوعة إلى أرمينية وقصد بلد ابن الديرانى ومن وافقه فخربه وقتل أهله ونهب أموالهم وبالغ الناس فى كثرة القتلى من الأرمن حتى قيل إنهم كانوا مائة ألف قتيل والله أعلم وتحصن ابن الديرانى بقلعة له ، وفى هذه السنة أيضاً سارت الروم إلى سميساط فحصروها فاستصرخ أهلها بسعيد بن حمدان صاحب الموصل وديار ربيعة فتجهز وسار مسرعاً إليهم وقد كاد الروم يفتحونها ، فلما قاربهم هربوا منه فسار إلى مطلية وكان أهلها قد ضعفوا فصالحوا الروم وسلموا مفاتيح البلد إليهم فحكموا على المسلمين وكان فى ملاطية جمع من الروم ومن عسكر مليح الأرمنى ومعهم بنى ابن نفيس صاحب المقتدر وكان قد تنصروهو مع الروم فلما أحسوا بإقبال سعيد خرجوا منها وخافوا أن يأتيهم سعيد بن حمدان فى عسكره من خارج المدينة ويثور أهلها بهم فهلكوا ففارقوها ودخلها سعيد ثم استخلف عليها أميراً وعاد عنها ودخل بلاد الروم غازياً وقدم بين يديه سريتين فقتلا من الروم خلقاً كثيراً قبل دخوله إليها ، وفى سنة عشرين قتل المقتدر (استطراد) قال العلامة القطبى فى تاريخه كان المقتدر فى كل عام يصرف يوم عرفة من الإبل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغنم خمسين ألفاً وكان يصرف فى كل سنة فى طريق مكة والحرمين ثلاثمائة ألف دينار وخمسة عشر ألف دينار وكان فى داره إحدى عشر ألف غلام خصى غير الصقالبة والروم والسود وختن خمسة من أولاده فصرف فى ختانهم ستمائة ألف دينار وقدم مرة عليه رسل ملك الروم بهدايا لطلب المدنة فعمل للمقتدر موكباً عظيما لإرهاب العدو فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل صفين من باب الشماسية إلى دار الخلافة ببغداد لتمر الرسل بين الصفين فى هذه المسافة وأقام بعدهم الخدم وهم سبعة آلاف خادم ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب ونصبت الستور على حيطان دار الخلافة ، فبلغت ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج ، وكانت البسط الفاخرة التى فرشت فى الأرض اثنين وعشرين ألف بساط ، وفى

الحضرة مائة سبع فى سلاسل الذهب والفضة وكان من جملة الزينة شجرة صيغت وصنعت من الذهب والفضة والجواهر وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة ، وعلى الأغصان طيور من ذهب وفضة ينفخ الريح فيها فيسمع لكل طير تغريد وصفير خاص وهذا بعد وهن الدولة العباسية وضعفها فكيف كانت زينتها فى أيام قوة دولتهم فى كمال وصفها فسبحان من لايزول ولا يزال ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال ولا تغييره الشؤون ولا تحوله الأحوال وهو الله الكبير المتعال لا إله إلا هو وحده لاشريك له ولا ضد ولاند ولا مثال كون الأكوان وقدرها تقديرها ، الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً ، انتهى . ولنذكر قصة قتل المقتدر فإن فيها اعتباراً لكل من كانت له بصيرة وهى تدل على أن هوان الدنيا وخسة قدرها عند الله تعالى وذوى البصائر من عباده . وحاصلها أن مؤنساً الخادم كان عبداً خصيا من عبيد المعتضد والد المقتدر ، فلما صارت الخلافة للمقتدر زاده فى رفعة القدر وولاه قيادة كثير من جيوشه وصار من أعظم وزرائه ، وفى سنة عشرين وثلاثمائة حصلت وحشة بينه وبين المقتدر فسار مؤنس إلى الموصل مغاضباً للمقتدر فاستولى المقتدر على اقطاع مؤنس وماله وأملاكه وأملاك أصحابه وكتب إلى بنى حمدان أمراء الموصل بصد مؤنس عن الموصل وقتاله فجرى بين مؤنس وبينهم قتال فانتصر مؤنس واستولى على الموصل واجتمعت عليه العساكر من كل جهة فسار بهم إلى جهة بغداد ، ثم لما وصل إلى بغداد نزل عند باب الشماسية بجنوده فخرج المقتدر إلى قتال مؤنس بمن بقى معه من العساكر لأن كثيراً منهم انعزلوا عنه وانحدروا إلى واسط ليكونوا مع مؤنس ، ولما خرج المقتدر للقتال كان بين يديه الفقهاء والقراء ومعهم المصاحف منشورة ، وعليه البردة النبوية ، ووقف على تل فألح عليه أصحابه بالتقدم إلى القتال فتقدم ، ثم انهزمت أصحابه فلقى المقتدر قوم من العسكر مغاربة فقال لهم ويحكم أنا الخليفة فقالوا : قد عرفناك ياسفلة أنت خليفة إبليس فضربه واحد منهم بسيفه فسقط إلى الأرض ، فذبحوه وقطعوا رأسه ورفعوه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذوا ما عليه حتى سراويله وكشفت عورته

ثم حفروا له فى موضعه ودفنوه وعفى قبره واحملوا رأسه إلى مؤنس وهو بالراشدية لم يشهد الحرب ، فلما رأى مؤنس رأس المقتدر لطم وجهه وبكى ثم إن القاهر أخا المقتدر لما بويع بعد قتل المقتدر وتمكن له الأمر قتل مؤنساً ولم تطل مدة القاهر بل خلع سنة اثنتين وعشرين وسملت عيناه وعاش دهرا طويلا أعمى محبوسا فى دار الخلافة ، ثم أطلقوه وأهملوه فوقف يوماً بجامع منصور بين الصفوف وقال تصدقو على فأنا من قد عرفتم وذلك فى أيام المستكفى ليشع عليه فمنعوه من الخروج إلى أن مات سنة تسع وثلاثين وعمره ثلاثة وخمسون سنة ولما خلع القاهر بويع الراضى بن المقتدر ، وفى هذه السنة سار الدمستق إلى سميساط فى خمسين ألفا ونازل ماطية وحصرها مدة طويلة هلك أكثرها بالجوع وضرب خيمتين على إحداها صليب وقال : من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليرد إليه أهله وماله ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه ونبلغه مأمنه فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التى عليها الصليب طمعا فى أهلهم وأموالهم وسير مع الباقين بطريقاً يبلغهم مأمنهم ثم افتتحوا سميساط وخربوا أعمالها وأكثروا القتلى وفعلوا الأفاعيل الشنيعة وصار أكثر البلاد فى أيديهم، وفتحوا بلدة جنوة ومروا بسردانية فأوقعوا بأهلها ثم مروا بقرقيسا من ساحل الشام فأحرقو مراكبها وعادوا سالمين ، وفى سنة ست وعشرين كان الفداء بين المسلمين والروم ، وكان عدة من فودى المسلمين ستة آلاف وثلاثمائة أسير ما بين ذكر وأنثى ، وفى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة توفى الراضى وبويع أخوه المتقى بن المقتدر ، وفى سنة ثلاثين وصل الروم إلى قريب حلب ونهبوا وخربوا البلاد وسبوا نحو خمسة عشر ألف إنسان . وفى هذه السنة غزا الثمالى من ناحية طرسوس إلى بلاد الروم فقتل وسبى وغنم وعاد سالماً وقد أسر عدة من بطارقتهم . وفى سنة إحدى وثلاثين أرسل ملك الروم إلى المتقى بالله يطلب منه منديلا يزعم أن المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه وإنه فى بيعة الرهاو ذكر أنه إن أرسل المنديل أطلق عدداً كبيراً من أسارى المسلمين ، فأحضر المتقى بالله القضاة والفقهاء واستفتاهم ، فاختلفوا فبعض رأى تسليمه إلى الملك وإطلاق سراح الأسرى وبعض قال إن هذا المنديل لم يزل من

تقديم الدهر فى بلاد الإسلام لم يطلبه ملك من ملوك الروم وفى دفعه إليهم غضاضة وكان فى الجماعة على بن عيسى الوزير فقال إن خلاص المسلمين من الأسر من الضر والضنك الذى هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل فأمر الخليفة بتسليمه إليهم وإطلاق الأسرى، ففعل ذلك وأرسل إلى الملك من يستلم الأسرى من بلاد الروم فأطلقوا .

ذكر خروج الروسية على بلاد الإسلام

فى سنة اثنتين وثلاثين خرجت طائفة من الروسية فى البحر إلى نواحى أذربيجان وركبوا فى البحر فى نهر الكر وهو نهر كبير، فانتهوا إلى مدينة برذعة، فخرج إليهم نائب ملك الديلم بأذربيجان فى جموع من الديلم والمتطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل فلقوا الروس، فلم يكن إلا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم وقتلوا عن آخرهم وتبعهم الروس إلى البلد فهرب من كان له مركوب وترك البلد فنزله الروس ونادوا فيه بالأمان، وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية لمقاتلتهم فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم وكان عامة البلد يخرجون ويرمون الروس بالحجارة ويصيحون بهم، فينهاهم الروس عن ذلك فلم ينتهوا سوى العقلاء فإنهم كفوا أنفسهم وسار العامة والرعاع لا يضبطون أنفسهم، فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه وأن لا يقيموا بعد ثلاثة أيام فخرج من كان له ظهر يحمله وبقى أكثرهم بعد الأجل فوضع الروسية فيهم السلاح فقتلوا منهم خلقا كثيراً وأسروا بعد القتل بضع عشرة ألف نفس وجمعوا من بقى بالجامع وقالوا اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم وسعى لهم إنسان نصرانى فقرر على كل رجل عشرين درهما فلم يقبل منهم إلا عقلاؤهم فلما رأى الروس أنه لا يحصل منهم شىء قتلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم إلا الشريد وغنموا أموال أهلها واستعبدوا السبى واختاروا من النساء من استحسنوها .

ذكر مسير المرزبان بن محمد بن مسافر ملك الديلم إليهم

لما فعل الروس بأهل برزعة ما ذكرناه استعظمه المسلمون وتنادوا بالنفير وجمع المرزبان

ابن محمد الناس واستنفرهم فبلغت عدة من معه ثلاثين ألفا وسار بهم فقاتلوهم فامتنعوا عليه فأكمن لهم بعض الأيام فهزمهم وقتل أميرهم ونجا الباقون إلى حصن البلد وحاصرهم المرزبان حتى هربوا من البلد ، وحملوا ما قدروا عليه ، وطهر الله البلد منهم وملك الروس أيضا فى هـذه السنة رأس عين واستباحوا ثلاثا وقاتلهم الأعراب ففارقوها وكانوا ثمانين ألفاً مع من سبق ، وفى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة خلع المتقى بن المستكفى بن المكتفى بن المعتضد ومكث سنة وأربعة أشهر ثم خلع وبويع المطيع لله بن المقتدر ابن المعتضد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة حين تغلب بنو بويه على الخلفاء وبنو بويه كزبير ويقال أيضاً بسكون الواو وفتح الياء ينتهى نسبهم إلى ملوك الفرس وإنما نسبوا إلى الديلم لأنهم طال مقامهم ببلادهم ، وخدموا كثيراً من عمال الخلفاء حتى صاروا قواد جيوش ثم تقوى أمرهم حتى تغلبوا على الخلفاء وصار الملك بأيديهم وليس للخلفاء إلا الاسم والدعاء على المنابر وكتابة المناشير وكتابة أسمائهم على الدراهم والدنانير وأخبارهم طويلة مذكورة فى التواريخ ، ودخل معز الدولة بن بويه بغداد بجيوشه سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وخلع الخليفة المستكفى بن المكتفى وأقام فى الخلافة المطيع لله بن المقتدر وكان ابتداء ظهورهم سنة عشرين وثلاثمائة ، ومازالوا يتغلبون على ممالك بنى العباس شيئا حتى تغلبوا على بغداد سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وصاروا يتوارثون الملك بالتغلب إلى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، فقامت دولة السلجوقية وتغلبوا عليهم وعلى الخلفاء أيضا ، وفى سنة خمس وثلاثين كان الفداء بالثغور بين المسلمين والروم على يد نصر الثملى أمير الثغور لسيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وحمص وكان عدة الأسرى ألفين وأربعمائة أسير وثمانين أسيراً من ذكر وأنثى وفضل الروم على المسلمين مائتان وثلاثون أسير لكثرة من معهم من الأسرى فوافاهم ذلك سيف الدولة ومن هذا التاريخ صار أمر العواصم إلى سيف الدولة بن حمدان صاحب حلب وحمص ، وفى سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة غزا سيف الدولة بن حمدان بلد الروم فلقيه الروم واقتتلوا فانهزموا سيف الدولة وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس ، وفى سنة ثمان وثلاثين غزا سيف الدولة أيضا بلاد الروم

وأوغل فيها وفتح حصونا كثيرة وسبى وغنم ، فلما أراد الخروج من بلاد الروم أخذوا عليه المضايق فهلك من كان معه من المسلمين أسراً وقتلا واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة فى عدة يسيرة .

ذكر غزوة بصقلية

فى سنة أربعين غزا الروم بصقلية الحسن بن على الكلبي عامل المنصور العبيدى وجاءت جنود من القسطنطينية مدداً للروم بصقلية فاقتتلوا مع المسلمين أشد القتال ، ثم انهزم الروم وركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى الليل وغنموا جميع أثقالهم وسلاحهم ودوابهم ، وفى سنة إحدى وأربعين ملك الروم مدينة سروج وسبو أهلها وغنموا أموالهم وأخربوا المساجد ، وفى سنة ثلاث وأربعين غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم فقتل وأسر وسبى وغنم ، وكان فيمن قتل قسطنطين بن الدمستق فعظم الأمر على الروم وعلى الدمستق لجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار إليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث فاشتد القتال بينهم وصبر الفريقان ، ثم أن الله تعالى نصر المسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق كثير وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته ، وعاد الدمستق مهزوماً مسلولا ، وفى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة سار سيف الدولة فى جيوش إلى بلاد الروم وغزاها حتى بلغ خرشنة وصارخة وفتح عدة حصون وسبى وأسر وأحرق وخرب وأكثر القتل فيهم ورجع إلى أذنة ، فأقام بها ثم رجع إلى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا وساروا إلى ميافارقين وأحرقوا أسوارها ونهبوا وخربوا وسبوا أهلها ونهبوا أموالهم وعادوا ، وفى هذه السنة سار الروم فى البحر فأوقعوا بأهل طرسوس وقتلوا منهم ألفاً وثمانمائة رجل ، وأحرقوا القرى التى حولها وفعلوا مثل ذلك أيضا بطرسوس والزها سنة ثمان وأربعين ، وفى سنة تسع وأربعين غزا سيف الدولة بلاد الروم فى جمع كثير فأثر فيها آثاراً كثيرة وأحرق وفتح عدة حصون وأخذ من السبي والغنائم والأسرى شيئا كثيراً ، وبلغ إلى خرشنة ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق ، فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك

ثقلا تقدر على العودة منه والرأى أن ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجبا برأيه يحب أن يستبدل ولا يشاور أحد لئلا يقال أنه أصاب برأى غيره وعاد من الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف فى أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو فى ثلاثمائة رجل بعد جهد ومشقة وهذا من سوء رأى كل من تجهل آراء الناس العقلاء والله أعلم بالصواب ، وفى سنة ثلاث مائة وخمسين سار قفل عظيم من أنطاكية إلى طرسوس ومعهم صاحب أنطاكية فخرج عليهم كمين للروم ، فأخذ من كان فيهما من المسلمين وقتل كثيراً منهم ، وأفلت صاحب أنطاكية وبه جراحات ، وفى هذه السنة غزا نجاغلام سيف الدولة بلاد الروم من ناحية ميافارقين وغنم ما قيمته عظيمة وسبى وأسر وخرج سالماً .

ذكر استيلاء الروم على مدينة زربة

وهو ثغر قرب المصيصة والمصيصة بلدة بالشام

فى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة نزل الروم مع الدمستق على عين زربة وهى فى سفح جبل عظيم وهو مشرف عليها وهم فى جمع عظيم فأنفذه بعض عسكره فصعدوا الجبل فملكوه ، فلما رأى ذلك أهلها وأن الدمستق قد ضيق عليه ومعه الدبابات وقد وصل إلى إلى السور وشرع فى النقب طلبوا الأمان فأمنهم الدمستق وفتح له باب المدينة فدخلها فرأى أصحابه الذين فى الجبل قد نزلوا إلى المدينة فندم على إجابتهم إلى الأمان ونادى فى البلد أول الليل بأن يخرج أهله إلى المسجد الجامع ومن تأخر فى منزله قتل فخرج من أمكنه الخروج ، فلما أصبح أنفذ رجاله فى المدينة وكانوا ستين ألفاً وأمرهم بقتل من وجدوه فى منزله فقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان ، وأمر بجمع ما فى البلد من السلاح فكان شيئاً كثيراً ، وأمر من فى المسجد أن يخرجوا من البلد حيث شاءوا يومهم ذلك ومن أمسى قتل . فخرجوا مزدحمين فمات بالزحمة جماعة ومروا على وجوههم لا يدرون أين يتوجهون وماتوا فى الطرقات وقتل الروم من وجدوه بالمدينة آخر النهار وأخذوا كل ما خلفه الناس من أموالهم وأمتعتهم وهدموا سور المدينة وأقام الدمستق

فى بلد الإسلام إحدى وعشرى يوماً وفتح حول عين زربة أربعة وخمسين حصناً للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان ، وكان من جملة تلك الحصون التى فتحت بالأمان حصن أمر أهله بالخروج منه فخرجوا فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة عظيمة فجردوا سيوفهم . فاغتاظ الدمستق لذلك ، فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا أربعمائة رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق ، فلما أدركه الزمن الذى يصوم فيه النصارى انصرف على أن يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية وكان ابن الزيات صاحب طرسوس قد خرج فى أربعة آلاف من الطرسوسيين فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم ، وقتل أخاً لابن الزيات فعاد إلى طرسوس وكان قد قطع الخطبة لسيف الدولة ابن حمدان ، فلما أصابهم هذا الوهن أعاد أهل البلد الخطبة لسيف الدولة ابن حمدان ، وأرسلوا له بذلك ، فلما علم ابن الزيات حقيقة الأمر صعد إلى روشن فى داره فألقى نفسه إلى نهر تحته فغرق وأرسل أهل بقراس للدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضهم .

ذكر استيلاء الروم على مدينة حلب وعودهم منها بغير سبب

فى هذه السنة استولى الروم على مدينة حلب دون قلعتها وكان سبب ذلك أن الدمستق سار إلى حلب ولم يشعر به المسلمون لأنه كان قد خلف عسكره بقيسارية . ودخل بلادهم كما ذكرناه ، فلما قضى صوم النصارى وخرج إلى عسكره من البلاد جريدة ولم يعلم به أحد وسار بهم فمنذ وصوله سبق خبره وكبس مدينة حلب ولم يعلم به سيف الدولة بن حمدان ولا غيره ، فلما بلغها وعلم سيف الدولة الخبر أعجله الأمر عن الجمع والاحتشاد ، فخرج إليه فيمن معه فقاتله فلم يكن له قوة الصبر لقلة من معه ، فقتل أكثرهم ولم يبق من أولاد داود بن حمدان أحد بل قتلوا جميعهم ، فانهزم سيف الدولة فى نفر يسير ، وظفر الدمستق بداره ، وكانت خارج مدينة حلب تسمى الدارين ، فوجد فيها لسيف الدولة ثلاثمائة بدرة من الدراهم وأخذ له ألفاً وأربعمائة بغل ومن خزائن السلاح مالا يحصى ، فأخذ الجميع

وخرب الدار وملك الحاضر ، وحصر المدينة فقاتله أهلها وهدم الروم فى السور ثلمة ، فقاتلهم أهل حلب عليها فقتل من الروم كثير ودفعوهم عنها ، فلما جنهم الليل عمروها ، فلما رأى الروم ذلك تأخروا إلى جبل جوشن ، ثم أن رجالة الشرطة بحلب قصدوا منازل الناس وخانات التجار لينهبوها ، فلحق الناس أموالهم ليمنعوها ، فخلا السور منهم فلما رأى الروم السور خالياً من الناس قصدوه وقربوا منه فلم يمنعهم أحد فصعدوا إلى أعلاه فرأوا الفتنة قائمة فى البلد بين أهله ، فنزلوا وفتحوا الأبواب ، ودخلوا البلد بالسيف يقتلون من وجدوا . ولم يرفعوا السيف إلى أن تعبوا وضجروا وكان فى حلب ألف وأربعمائة من الأسرى فتخلصوا . وأخذوا السلاح وقتلوا الناس وسبى من البلد بضعة عشر ألف صبى وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة ، فلما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه الغنيمة أمر الدمستق بإحراق الباقى وأحرق المساجد . وكان قد بذل لأهل البلد الأمان على أن يسلموا إليه ثلاثة آلاف صبى وصبية ومالا ذكره ، وينصرف عنهم فلم يجيبوه إلى ذلك فملكهم كما ذكرناه وكان عدة عسكره مائتى ألف رجل منهم ثلاثون ألفا بالجواشن وهى الصدر والدرع وثلاثون ألفاً للهدم ، وإصلاح الطرق من الثلج ، ومعه أربعة آلاف بغل تحمل الحسك الحديد ، وهى أداة للحرب من حديد لها شوك تلقى حول العسكر للحفظ من الدخول إليهم ، ولما دخل الروم البلد قصد الناس القلعة فمن دخلها نجا بحشاشة نفسه وأقام الدمستق تسعة أيام وأراد الانصراف عن البلد بما غنم فقال له ابن أخت الملك وكان معه : هذا البلد قد حصل فى أيدينا فليس من يدفعنا عنه فلأى سبب تنصرف عنه ؟ فقال له الدمستق : قد بلغنا ما لم يكن الملك يؤمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وأحرقنا وخلصنا أسرانا وبلغنا ما لم يسمع بمثله فتراجعا الكلام إلى أن قال له الدمستق أنزل على القلعة فحاصرها فإننى مقيم بعسكرى على باب المدينة ، فقدم ابن أخت الملك إلى القلعة ومعه سيف وترس وتبعه الروم فلما قرب من باب القلعة ألقى عليه حجر فسقط ورمى بخشب ، فقتل فأخذه أصحابه ، وعادوا إلى الدمستق ، فلما رآه قتيلا قتل من معه من أسرى المسلمين ، وكانوا ألفا ومائتى رجل وعاد إلى بلاده ولم يعرض لسواد حلب ، وأمر أهله بالزراعة والعمارة ليعود إليهم بزعمه .

ذكر فتح طبرمين من صقلية

وفى هذه السنة سارت جيوش المسلمين بصقلية ، وأميرهم حينئذ أحمد ابن الحسن ابن على بن أبى الحسن عامل العبيديين إلى قلعة طبرمين من صقلية أيضاً وهى بأيدى الروم ، فحاصروها وهى أمنع الحصون وأشدها على المسلمين فامتنع أهلها ودام الحصار عليهم ، فلما رأى المسلمون ذلك عمدوا إلى الماء الذى يدخلها ، فقطعوه عنها وأجروه إلى مكان آخر ، فعظم الأمر عليهم وطلبوا الأمان فلم يجابوا إليه ، فعادوا وطلبوا أن يؤمنوا على دمائهم ويكونوا رقيقاً للمسلمين وأموالهم فيئاً ، فأجيبوا إلى ذلك ، وأخرجوا من البلد وملكه المسلمون ، وكانت مدة الحصار سبعة أشهر ونصف وأسكن القلعة نفراً من المسلمين وسميت المعزية نسبة للمعز العبيدى صاحب أفريقية وسار جيش إلى رمطة مع الحسن بن عمار فحصروها وضيقوا عليها ، فلما رأى الروم ذلك خافوا وأرسلوا إلى ملك القسطنطينية يعلموه الحال ويطلبون منه أن ينجدهم بالعساكر فجهز إليهم عسكراً عظيماً يزيدون على أربعين ألف مقاتل وسيرهم فى البحر فوصلت الأخبار إلى الأمير أحمد أمير صقلية فأرسل إلى المعز بأفريقية يعرفه ذلك ويستمده ويسأله إرسال العساكر إليه سريعاً وشرع هو فى إصلاح الأسطول والزيادة فيه وجمع الرجال المقاتلة فى البر والبحر وأما المعز فإنه جمع الرجال وحشد وفرق فيهم الأموال الجليلة وسيرهم مع الحسن بن على والد أحمد فوصلوا إلى صقلية فى رمضان وساروا إلى الذين يحاصرون رمطة فكانوا معهم على حصار فأما الروم فإنهم وصلوا أيضاً إلى مدينة صقلية فى شوال ونازلوا عند مدينة مسينى وزحفوا منها بجموعهم التى لم يدخل صقلية مثلها إلى رمطة ، فلما سمع الحسن ابن عمار مقدمة الجيش الذين يحاصرون رمطة ذلك جعل عليها طائفة من عسكره يمنعون من يخرج منها وبرز بالعساكر للقاء الروم وقد عزموا على الموت ووصل الروم وحاطوا بالمسلمين ، ونزل أهل رمطة إلى من يليهم ليأتوا المسلمين من ظهورهم ، فقاتلهم الذين جعلوا هناك لمنعهم وأبعدوهم عما أرادوا ، وتقدم الروم إلى القتال وهم مدلون بكثرتهم وبما معهم من العدد وغيرها والتحم القتال وعظم الأمر على المسلمين وألحقهم العدو بخيامهم وأيقن

الروم بالظافر فلما رأى المسلمون عظم ما نزل بهم اختاروا الموت ورأوا أنه أسلم لهم وأخذوا بقول الشاعر .

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

فحمل بهم الحسن بن عمار أميرهم وحمي الوطيس حينئذ وحرضهم على قتال الكفار وكذلك فعل بطارقة الروم وحملوا وحرضوا عساكرهم ، وحمل منويل مقدم الروم ، فقتل في المسلمين فطعنه المسلمون فلم يؤثر فيه لكثرة ما عليه من اللباس ، فرمى بعضهم فرسه فقتله ، واشتد القتال عليه فقتل هو وجماعة من بطارقته فلما قتل انهزم الروم أقبح هزيمة وأكثر المسلمون فيهم القتل ووصل المنهزمون إلى حرف خندق عظيم كالحفرة فسقطوا فيها من خوف السيف فقتل بعضهم بعضا حتى امتلأت ، وكانت الحرب من بكرة إلى العصر وبات المسلمون يقاتلونهم في كل ناحية وغنموا من السلاح والخيل وصنوف الأموال مالا يحد وكان في جملة الغنيمة سيف هندي مكتوب عليه هذا سيف هندي وزنه مائة وسبعون مثقالا طالما ضرب به بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إلى المعز مع الأسرى والرؤوس وسار من سلم من الروم إلى ريو ، وأما أهل رمطة فإنهم ضعفت نفوسهم وكانت الأقوات قد قلت عندهم فأخرجوا من فيها من الضعفاء وبقي المقاتلة فزحف إليهم المسلمون وقاتلوهم إلى الليل ولزموا القتال في الليل أيضاً وتقدموا بالسلاليم فملكوها عنوة وقتلوا من فيها وسبوا الحرم والصغار وغنموا ما فيها وكان شيئاً كثيراً عظيما ورتب فيها من المسلمين من يعمرها ويقيم فيها ، ثم إن الروم تجمع من سلم منهم وأخذوا معهم من في صقلية وجزيرة ريو منهم وركبوا مراكبهم يحفظون نفوسهم فركب الأمير أحمد في عساكره وأصحابه في المراكب أيضاً وزحف إليهم في الماء ، وقاتلهم واشتد القتال بينهم وألقى جماعة من المسلمين نفوسهم في الماء وخرقوا كثيراً من المراكب التي للروم فغرقت وكثر القتل في الروم فانهزموا لا يلوي أحد على أحد ، وسارت سرايا المسلمين في مدائن الروم فغنموا منها فبذل أهلها لهم كثيراً من الأموال وهادنوهم ، وكانت هذه الوقائع في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة والمدنة في سنة أربع

وخمسين ، وهذه الوقعة الأخيرة تعرف بوقعة المجاز (ولنرجع) إلى تمام الكلام على حوادث سنة إحدى و خمسين ففيها أخذ الروم حصن دلوك وثلاثة حصون مجاورة له وفيها سير سيف الدولة حاجبه فى جيش مع أهل طرسوس إلى بلاد الروم فغنموا وقتلوا وسبوا وعادوا فقصد الروم حصن سيسية فملكوه وفيها سار نجا غلام سيف الدولة فى جيش إلى حصن زيادة فلقيه جمع من الروم فهزمهم واستأمن إليه من الروم خمسمائة رجل وفى هذه السنة أيضاً فى شوال أسرت الروم أبا فراس بن سعيد بن حمدان بن منبج وكان متقلداً لها وكان ذا فصاحة و بلاغة وله ديوان شعر جيد وبقى أسيراً إلى سنة خمس وخمسين فافتداه سيف الدولة بمال جزيل وتسامه منهم ، وفى سنة إحدى وخمسين أيضا سار جيش من الروم إلى جزيرة أقريطش فأرسل أهلها إلى المعز العبيدى صاحب أفريقية يستنجدونه ، فأرسل إليهم نجدة فقاتلوا الروم ، فانتصر المسلمون وأسروا من كان بالجزيرة من الروم ، وفى سنه اثنتين وخمسين دخل أهل طرسوس بلاد الروم غازين ودخلها أيضاً نجا غلام سيف الدولة من درب آخر وأوغل أهل طرسوس فى غزوتهم حتى وصلوا إلى قونية وعادوا ، وفى هذه السنة اجتمع جماعة كثيرة من الأرمن وقصدوا الرها فأغاروا عليها فغنموا وأسروا وعادوا موفورين .

ذكر حصر الروم المصيصة ووصول الغزاة إلى خراسان

فى سنة ثلاث وخمسين حصر الروم مع الدمستق المصيصة وقاتلوا أهلها ، ونقبوا سورها واشتد قتال أهلها على النقب حتى دفعوهم عنه بعد قتال عظيم وأحرق الروم رستاقها ورستاق إدنة وطرسوس لمساعدتهما أهلها ، فقتل من المسلمين خمس عشر ألف رجل وأقام الروم فى بلاد الإسلام خمسة عشر يوما لم يقصدهم من يقاتلونهم فعادوا لغلاء الأسعار وقلة الأقوات ثم أن إنسانا وصل إلى الشام من خراسان يريد الغزو ومعه خمسة آلاف رجل وكان طريقهم على أرمينية وميافارقين ، فلما وصلوا إلى سيف الدولة فى صفر أخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم لدفعهم عن المسلمين،

فوجد الروم قد عادوا ، وافترق الغزاة الخرسانية إلى الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم إلى بغداد ومنها إلى خراسان ولما أراد الدمستق العود إلى بلاد الروم أرسل إلى أهل المصيصة وادنة وطرسوس إنى منصرف عنكم لا لعجز ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء وأنا عائد إليكم فمن انتقل منكم فقد نجا ومن وجدته بعد عودى قتلته ، ثم نزل ملك الروم بعد ذلك على طرسوس وحصرها وجرى بينهم وبين أهلها حروب كثيرة سقط فى بعضها الدمستق إلى الأرض وكاد يؤسر فقاتلت عليه الروم وخلصوه وأسر أهل طرسوس بطريقاً كبيراً من بطارقة الروم ، ورحل الروم عنهم وتركوا عسكراً على المصيصة مع الدمستق فحصرها ثلاثة أشهر لم يمنعهم منها أحد فاشتد الغلاء على الروم وكثر فيهم الوباء فمات كثير منهم فاضطروا إلى الرحيل .

ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس

فى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة سار نقفور ملك الروم إلى قيسارية ليقرب من بلاد الإسلام وأقام بها ونقل أهله إليها فأرسل إليه أهل طرسوس والمصيصة يبذلون له أتاوة ويطلبون منه أن ينفذ إليهم بعض أصحابه يقيم عندهم فعزم على إجابتهم فأتاه الخبر بأنهم قد ضعفوا وعجزوا وأنهم لا ناصر لهم وأن الغلاء قد اشتد عليهم ، وقد عجزوا عن القوت ، وأكلوا الكلاب والميتة وقد كثر فيهم الوباء ، فيموت منهم فى اليوم نحو ثلاثمائة ألف نفس ، فعاد نقفور عن إجابتهم وأحضر الرسول ، وأحرق الكتاب على رأسه ، واحترقت لحيته وقال لهم أنتم كالحية فى الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ونهشته وأنتم إنما أطعتم لضعفكم وإن تركتكم حتى تستقيم أحوالكم تأذيت بكم وأعاد الرسول وجمع جيوش الروم وسار إلى المصيصة بنفسه فحصرها وفتحها عنوة بالسيف ووضع السيف فيهم فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف ونقل كل من بها إلى بلد الروم وكانوا نحو مائتى ألف إنسان ، ثم سار إلى طرسوس فحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان فأجابهم إليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل

وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقي ففعلوا ذلك وساروا براً وبحراً وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلاً لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا فى طاعة الملك وتنصر بعضهم والعياذ بالله تعالى. وأراد الملك المقام بها ليقرب من بلاد الإسلام ثم عاد إلى القسطنطينية وأراد الدمستق أن يقصد ميافارقين وبها سيف الدولة فأمره الملك باتباعه إلى القسطنطينية . وفى هذه السنة نزلت طائفة من الترك على بلاد الخزر فاستنصر أهل الخزر بأهل خوارزم فلم ينجدوهم وقالوا أنتم كفار فإن أسلمتم نصرناكم فأسلموا إلا ملكهم فنصرهم أهل خوارزم وأزالوا الترك عنهم ثم أسلم ملكهم بعد ذلك .

ذكر خروج الروم إلى بلاد الإسلام

فى سنة خمس وخمسين وثلاثمائة فى شوال خرجت الروم فقصدوا مدينة آمد ونزلوا عليها وحاصروها وقتلوا أهلها فقتل منهم ثلاثمائة رجل ، وأسر نحو أربعمائة أسير ولم يمكنهم فتحها فانصرفوا إلى دارا وقربوا من نصيبين ولقيهم قافلة واردة من ميافارقين فأخذوها وهرب الناس من نصيبين خوفاً منهم حتى بلغت أجرة الدابة مائة درهم وأرسل سيف الدولة الأعراب ليهرب معهم وكان فى نصيبين ، فاتفق أن الروم عادوا قبل هربه فأقام بمكانه وساروا من ديار الجزيرة إلى الشام فنازل أنطاكية فأقاموا عليها مدة طويلة يقاتلون أهلها . فلم يمكنهم فتحها فخربوا بلدها ونهبوه وعادوا إلى طرسوس ، وفى سنة ست وخمسين توفى سيف الدولة وملك ابنه أبو المعالى شريف ، وفى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وصلت سرية كبيرة من الروم إلى أنطاكية فقتلوا فى سوادها وغنموا وسبوا اثنى عشر ألفاً من المسلمين ، وفى سنة ثمان وخمسين دخل ملك الروم الشام ولم يمنعه أحد ولا قاتله فسار فى البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها وكان صاحب طرابلس قد أخرجه أهلها لشدة ظلمه فقصد قلعة عرقة فأخذه الروم وجميع ماله وكان كثيراً وقصد ملك الروم حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها

فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهباً وتحريقاً وملك ثمانية عشر منبراً وأما القرى فكثيرة لا تحصى وأقام فى الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ما شاء ولا يمنعه أحد إلا بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم فأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم الهيبة العظيمة فى قلوب المسلمين فأراد أن يحصر أنطاكية وحلب فبلغه أن أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه فامتنع من ذلك وعاد ومعه من السبى نحو مائة ألف رأس ولم يأخذ إلا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فنهم من قتله ومنهم من أطلقه ، وكان بحلب قرعويه غلام سيف الدولة فصانع الروم عليها فعادوا إلى بلادهم فقيل كان سبب عودهم كثرة الأمراض والموت وقيل ضجروا من طول السفر والغيبة عن بلادهم فعادوا على عزم الرجوع وسير ملك الروم سرية إلى الجزيرة فنهبوا وسبوا وأحرقوا وعادوا .

ذكر ملك الروم أنطاكية

فى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ملك الروم مدينة أنطاكية وسبب ذلك أنهم حصروا حصناً بالقرب من أنطاكية يقال له حصن لوقا ووافقوا أهله وهم نصارى على أن يرحلوا منه إلى أنطاكية ويظهر أنهم إنما انتقلوا منه خوفاً من الروم فإذا صاروا بأنطاكية أعانوهم على فتحها وانصرف الروم عنهم بعد موافقتهم على ذلك وانتقل أهل الحصن ونزلوا بأنطاكية بالقرب من الجبل الذى بها ، فلما كان بعد انتقالهم بشهرين جاءت الروم مع أخى نقفور الملك وكانوا نحو أربعين ألفاً فأحاطوا بسور أنطاكية وصعدوا الجبل إلى الناحية التى بها أهل حصن لوقا ، فلما رآهم أهل البلد قد ملكوا تلك الناحية طرحوا أنفسهم من السور وملك الروم البلد ووضعوا فى أهله السيف ، ثم أخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد وقالوا لهم اذهبوا حيث شئتم وأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان والصبايا فحملوهم إلى بلاد الروم سبياً وكانوا يزيدون على عشرين ألفاً .

ذكر ملك الروم مدينة حلب وعودهم عنها

لما ملك الروم أنطاكية أنفذوا جيشاً كثيفاً إلى حلب وكان أبو المعالى شريف بن سيف الدولة محاصراً لها وبها قرعويه غلام سيف الدولة متغلباً عليها فلما سمع أبو المعالى خبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عنهم وحصروا البلد وبه قرعويه وأهل البلد قد تحصنوا بالقلعة فملك الروم المدينة وحصروا القلعة فخرج إليهم جماعة من أهل حلب وتوسطوا بينهم وبين قرعويه وترددت الرسل فاستقر الأمر بينهم على هدنة مؤبدة على مال يحمله قرعويه إليهم وأن يكون الروم إذا أرادوا الغزو لا يمكن قرعويه أهل القرى من الجلاء عنها ليبتاع الروم ما يحتاجون إليه منها وكان مع حلب حماة وحمص وكفر طاب والمعرة وأفامية وشيزر وما بين ذلك من الحصون والقرى وسلموا الرهائن إلى الروم وعادوا من حلب وتسلمها المسلمون .

ذكر ملك الروم ملازكرد

وفى هذه السنة أرسل ملك الروم جيشاً إلى ملازكرد من أعمال أرمينية فحصروها وضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة وقهراً وعظمت شوكتهم وخافهم المسلمون فى أقطار البلاد وصارت كلها سائبة لا تمتنع عليهم يقصدون أيها شاءوا لضعف ملوك الإسلام عن مدافعتهم ووقوع الفتن بينهم .

ذكر ما فعله الروم بالجزيرة

فى سنة إحدى وستين وثلاثمائة فى المحرم أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا فى ديار الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين وقاموا فى الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعل الروم من النهب والقتل والأسر والسبى فاستعظمه الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وأنهم لا مانع

لهم عنهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة المطيع لله وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وأغلقت الأبواب فأسمعوه ما يقبح ذكره .

ذكر انهزام الروم وأسر الدمستق

فى سنة اثنتين وستين وثلاثمائة كانت وقعة بين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وبين الدمستق بناحية ميافارقين وكان سببها ما ذكرناه من غزو الروم بلاد الإسلام ، فلما رأوا أنهم لا مانع لهم قوى طمعهم على أخذ آمد فسار الدمستق إليها وبها هزار مرد غلام أبى الهيجاء بن حمدان فكتب إلى أبى تغلب بن ناصر الدولة يستصرخه ويعلمه الحال ، فسير إليه أخاه هبة الله بن ناصر الدولة واجتمعا على حرب الدمستق ، وكان الدمستق فى كثرة فلقياه فى مضيق لا تجول فيه الخيل ، والروم على غير أهبة فانهزموا وأخذ المسلمون الدمستق أسيراً ولم يزل محبوساً إلى أن مرض سنة ثلاث وستين وبالغ أبو تغلب فى علاجه وجمع الأطباء له فلم ينفعه ذلك ومات . وفى سنة ثلاث وستين أصاب الخليفة المطيع لله فالج فثقل لسانه وتعذرت عليه الحركة فخلع نفسه وبويع لابنه الطائع لله ، وفى سنة ست وستين توفى الحكم بن عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس وأقيم بعده ابنه هشام وكان صغيراً ولقب المؤيد ، وقام بأمره الوزير المنصور ابن أبى عامر واشتغل بالغزو وفتح من بلاد الأعداء كثيراً وامتلأت الأندلس بالغنائم واستمر المنصور ستاً وعشرين سنة غزا فيها اثنتين وخمسين غزوة يطول الكلام بذكرها وسيأتى ذكر شىء منها . ومن محاسن غزواته أنه دخل بلاد الفرنج غازيا فجاز الدرب إليها وهو مضيق بين جبلين وأوغل فى بلاد الفرنج يسبى ويخرب ويغنم ، فلما أراد الخروج رآهم قد سدوا الدرب وهم عليه يحفظونه من المسلمين ، فأظهر أنه يريد المقام فى بلادهم وشرع هو وعسكره فى عمارة المساكن وزرع الغلات وأحضروا الحطب والتبن والميرة وما يحتاجون إليه ، فلما رأوا عزمه على المقام مالوا إلى السلم فراسلوه فى ترك الغنائم والجواز إلى بلاده فقال : أنا عازم على المقام فتركوا له الغنائم فلم يجبهم إلى الصلح فبذلوا له مالا ودواب تحمل له ماغنمه من بلادهم فأجابهم إلى الصلح وفتحوا الدرب فجاز إلى بلاده .

ذكر غزوات بالهند

وكان القائم بتلك الغزوات السلطان سبكتكين بضم السين وفتح الباء وسكون الكاف الأولى وفتح التاء وكسر الكاف الثانية وبنوه بعده وسبكتكين كان فى الأصل غلاماً لأبى إسحاق بن البتكين صاحب جيش غزنة للسامانية ملوك خراسان عمل الخلفاء العباسيين ، وكان سبكتكين مقدماً عند مولاه أبى إسحاق المذكور فلما مات أبو إسحاق لم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للتقدم فاجتمع عسكره واتفقوا على تقديم سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته فقدموه عليهم وولوه أمرهم سنة ست وستين وثلاثمائة فأحسن السيرة فيهم ، وصار لهم ملك ضخم توارثه بنوه فى كابل والهند وخراسان إلى سنة سبع وأربعين وخمسمائة فتكون مدة ولايتهم مائتى سنة وثلاث عشر سنة تقريباً ، وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة ولا سيما السلطان محمود بن سبكتكين فإن آثاره فى الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة ، وكان مقر سلطنتهم غزنة فهى دار ملكهم وهى من مدائن كابل ، وهذا ذكر أول غزواتهم ، ففى سنة ست وستين وثلاثمائة غزا سبكتكين وهو والد السلطان محمود صاحب غزنة فافتتح قلاعاً حصينة على شواهق الجبال وعاد سالما ظافراً ، ولما رأى جبال ملك الهند ما دهمه وأن بلاده تملك من أطرافها جمع الجيوش الكثيرة واستكثر من الفيول وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فسار سبكتكين عن غزنة إليه ومعه عساكره وخلق كثير من المتطوعة ، فالتقوا واقتتلوا أياما كثيرة وصبر الفريقان وبالقرب منهم عقبة غورك ، وفيها عين ماء لاتقبل نجساً ولا قذراً وإذا ألقى فيها شىء من ذلك اكفهرت السماء وهبت الرياح وكثر الرعد والبرق والأمطار ولا تزال كذلك إلى أن تطهر من الذى ألقى فيها فأمر سبكتكين بالقاء نجاسة فى تلك العين فجاء الغيم والرعد والبرق وقامت القيامة على الهنود لأنهم رأوا مالم يروا مثله وتوالت عليهم الصواعق والأمطار واشتد البرد حتى هلكوا وعميت عليهم المذاهب واستسلموا لشدة ما عاينوه ، وأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب الصلح وترددت الرسل فأجابهم إليه بعد امتناع على مال يؤديه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه فاستقر ذلك ورهن عنده

جماعة من أهله على تسليم البلاد وسير معه سبكتكين من يتسلمها فإن المال والفيلة كانت معجلة فلما أبعد ملك الهند قبض على من معه المسلمين وجعلهم عنده عوضا عن رهائنه فلما سمع سبكتكين بذلك جمع العساكر وسار نحو الهند فأخرب كل مامر عليه من بلادهم وقصد لمغان وهى من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعار الإسلام وسار عنها يفتح البلاد ويقتل أهلها فلما بلغ ما أراده عاد إلى غزنة فلما بلغ الخبر ملك الهند جمع العساكر وسار فى مائة ألف مقاتل فلقيه سبكتكين وأمره أصحابه أن يتناوبوا القتال مع الهنود ففعلوا ذلك فضجر الهنود من دوام القتال معهم وحملوا حملة واحدة فعند ذلك اشتد الأمر وعظم الخطب وحمل المسلمون أيضا جميعهم واختلط بعضهم ببعض فانهزم الهنود وأخذهم السيف من كل جانب وأسر منهم مالا يعد وغنم أموالهم وأثقالهم ودوابهم الكثيرة وذل الهنود بعد هذه الواقعة ولم يقم لهم بعدها راية ورضوا بأن لايطلبوا فى أقاصى بلادهم ، ولما قوى سبكتكين بعد هذه الوقعة أطاعه الأفغانية والخلج وصاروا فى طاعته .

ذكر غزوة للأمير أبي القاسم الكلبي أمير صقلية

فى سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة فى ذى القعدة سار الأمير أبو القاسم من صقلية يريد الجهاد وسبب ذلك أن ملكا من ملوك الإفرنج يقال له بودويل خرج فى جموع كثيرة يريد صقلية فحصر قلعة مالطة وملكها وأصاب سريتين فسار الأمير أبو القاسم بعساكره ليرحله عنها فلما قاربها خاف وجبن فجمع وجوه أصحابه وقال لهم إنى راجع من مكانى هذا فلا تكسروا على رأيي فرجع هو وعساكره وكان أسطول الكفار يساير المسلمين فى البحر ، فلما رأوا المسلمين راجعين أرسلوا إلى بروديل ملك الفرنج يعلمونه ويقولون له إن المسلمين خائفون منك فألحق بهم فإنك تظفر فجرد الفرنجى من عساكره أثقالهم وسار جريدة وجد فى السير فأدركهم فى العشرين من المحرم سنة ثنتين وسبعين فتعبى المسلمون للقتال واقتتلوا واشتدت الحرب بينهم فحمل طائفة من الفرنج على القلب والاعلام فشقوا العسكر ووصلوا إليها وقد تفرق كثير من المسلمين عن أميرهم واختل

عظمائهم فوصل الفرنج إليه فأصابته ضربة على أم رأسه فقتل وقتل معه جماعة من أعيان الناس وشجعانهم ثم إن المنهزمين من المسلمين رجعوا مصممين على القتال ليظفروا أو يموتوا واشتد حينئذ الأمر وعظم الخطب على الطائفتين فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم نحو أربعة آلاف قتيل وأسر من بطارقتهم كثير وتبعهم المسلمون إلى أن أدركهم الليل وغنموا من أموالهم كثيراً وأفلت ملك الفرنج هاربا ومعه رجل يهودى كان خصيصاً به فوقف فرس الملك فقال له اليهودى اركب فرسى فإن قتلت فأنت لولدى فركبه الملك ونجا وقتل اليهودى ولما قتل الأمير أبو القاسم كان معه ابنه جابر فقام مقام أبيه ورحل بالمسلمين لوقته ولم يمكنهم من إتمام الغنيمة فتركوا كثيراً منها .

ذكر دخول الروسية فى دين النصرانية

قد تأخر دخول الروسية فى النصرانية عن بقية الإفرنج سكان أوروبا وذلك أنه كان أول دخول الروسية فى دين النصرانية سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ، وسبب ذلك أنه وقع اختلاف بين ملوك الروم مع بعضهم فاستنجد بعض منهم بملوك الإسلام وذلك البعض هو ورد الرومى وكان من أكابر رؤسهم وقواد جيوشهم وعظماء بطارقتهم فطمع فى الملك ولا قدرة له على قتال بقية المتنازعين فكاتب أبا تغلب حمدان أمير حلب والموصل نيابة عن الخليفة واستنجد به وصاهره فأجابه ابن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور ، فحصل له جيش ضخم فقصد قتال الروم بذلك الجيش فأخرجوا له جيشا بعد جيش وهو يهزمهم فقوى جنانه فقصد القسطنطينية ومع تلك الجيوش أيضا ورد الرومى الطالب لتملك القسطنطينية فجمعوا له جيوشاً كثيرة ، وقاتلوه قتالا شديداً حتى انهزم فرجع ورد الرومى إلى بلاد الإسلام وقصد ديار بكر ونزل بظاهر ميافارقين وكاتب عضد الدولة بن بويه المتغلب بالعراق على الخلفاء ، ووعد ببذل الطاعة فأجابه بجواب حسن ووعده بأنه ينصره فبلغ ذلك ملوك الروم وكان ملكان منهما أخوين مشتركين فى ملك القسطنطينية فكاتبا عضد الدولة ، وبعثا له بهدايا واستمالاه فقوى فى نفسه ترجيح جانبهما وأعرض عن نصرة ورد الرومى وكتب لنائبه بديار بكر وهو أبو على التميمى أن

يقبض على ورد الرومى وأصحابه فشرع يدبر الحيلة عليه فبلغ الخبر بعض أصحاب ورد فقالوا له إن ملوك الروم قد كاتبوا عضد الدولة وراسلوه فى أمرنا ، ولاشك أنهم يرغبونه بالمال وغيره فيسلمنا إليهم فالرأى أن نرجع إلى بلاد الروم ونصطلح معهم إن أمكننا أو نحاربهم ونبذل أنفسنا فإما ظفرنا أو متنا كراما فقال ورد ما هذا رأى ولا رأينا من عضد الدولة غير الجميل ولا يجوز أن ننصرف قبل أن نعلم ما عنده فلما قال لهم ورد فارقه ذلك كثيرمن أصحابه ، فطمع فيه أبو على التميمى نائب عضد الدولة بديار بكر فكاتبه وطلب حضوره عنده والاجتماع به فأجابه ورد إلى ذلك وحضر عنده فلما اجتمع به قبض عليه وعلى ولده وأخيه وبعض أصحابه وذلك سنة سبعين وثلاثمائة وحبسهم بميافارقين ، ثم حملهم لعضد الدولة ببغداد فبقوا فى الحبس إلى أن مات عضد الدولة سنة خمسة وسبعين وصار ملك بنى بويه لصمصام الدولة فأطلق ورد الرومى ومن كان محبوساً معه ، وشرط عليه إطلاق عدد كثير من أسارى المسلمين وأن يسلم له سبع حصون عينها من بلاد الروم برساتيقها ، وأن لايقصد بلاد الإسلام لاهو ولا أحد من أصحابه مدة حياته وجهزه مما يحتاج إليه من مال وغيره فسار ورد إلى بلاد الروم واستمال فى طريقه خلقاً كثيراً من أهل البوادى وغيرهم وأطمعهم فى العطاء والغنيمة فاجتمع معه جيش فسار به حتى نزل بملطية فتملكها فقوى بها وبما فيها من مال وغيره وقصد من ملوك الروم ورديس بن لارن وراسله واستماله فاستقر الأمر بينهما على أن تكون القسطنطينية وما جاورها من شمال الخليج لورديس والجانب الآخر لورد وتحالفا . ثم اجتمعا فقبض ورديس على ورد وحبسه ثم ندم فأطلقه عن قريب وعبر ورديس الخليج وحصر القسطنطينية وبها الملكان وضيق عليهما فكاتبا ملك الروسية واستنجدا به وعرضا عليه التزوج بأخت لهما فأجابهما لما طلباه منه من النجدة فامتنعت أختهما من تسليم نفسها إلى من يخالفها فى الدين ، فتنصر ملك الروسية فكان ذلك أول دخول الروسية فى النصرانية ثم تزوجها وسار بجنوده إلى قتال ورديس فاقتتلوا فقتل ورديس واستقر الملكان فى ملكهما وكاتبا ورد واصطلحا معه وأقراه على ما بيده من الممالك ، وبقى دهرا طويلا ثم هلك مسموما .

استطراد

حينما ذكر بعض المؤرخين إبتداء دخول الروسية فى النصرانية فينبغى أيضاً ذكر إبتداء دخول غيرهم من دول الإفرنج فى النصرانية وذلك يتوقف أولا على ذكر ابتداء كل دولة منها وكيف كانت دياناتها قبل دخولها فى النصرانية وبيان ذلك أن أقدم الدول وأقواها فى أوائل الدهور دولة الفرس فإنهم كانوا أقوى الدول وكانت الدول فى أقطار الأرض تخضع لهم وتنقاد لأمرهم وينتهى نسب ملوك الفرس إلى وشهنج وهو مهلائيل ابن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام وكان وشهنج ملكا مسلما صالحا له ملك واسع وآثار حميدة كثيرة ثم تغير من جاء بعده من عقبه فأحدثوا دين المجوسية ، واتخذوا إلهين اثنين النور والظلمة فأثبتوا إلها وهو النور وشيطان وهو الظلمة وقالوا إن النور هو الله ، وقالوا إنه قديم وسموه يزدان وقالوا : إن الظلمة إله مخلوق وهو الشيطان وسموه اهرمن فاصل دينهم مبنى على تعظيم النور وهو يزدان ، وتحقير الظلمة وهو اهرمن ، فلما عظموا النور عبدوا النار ، وقيل أن الفرس وملوكهم ينتهى نسبهم إلى فارس ارم بن سام بن نوح عليه السلام ، وقيل أنهم من ولد كيومرث وهو آدم عليه السلام ، ويقولون أن الملك فيهم من كيورث وهو آدم عليه السلام وبقى فيهم إلى أن استلبه منهم المسلمون من هذه الأمة فى أوائل ظهور الإسلام ، وكان فى زمن مدة ملكهم موجوداً فى مشارق الأرض ومغاربها ملوك كثيرة ولكن هم كانوا أقوى الملوك وكان أكثر الملوك ينقادون لهم ويدخلون تحت طاعتهم ، ومن جملة الملوك الذين كانوا يخضعون لهم ملوك اليونان وملوك الروم ، إلى أن صار ملك اليونان للاسكندر ، فقاتلهم وقهرهم واستلب الملك منهم وجعل فى أرضهم ملوكا من أكابرهم صاروا تحت طاعته يسمعون ملوك الطوائف وكانوا عشرين ملكا وكذلك قهر الاسكندر ملوك الروم فكانوا تحت طاعته فمن حين غلبة الاسكندر للملوك الفرس صار ملك اليونان أقوى الملوك ، ودخل تحت طاعته ملوك الفرس وملوك الروم . وهذا الاسكندر يقال له الاسكندر الرومى مع أنه كان من اليونان لكنه نسب إلى الروم لغلبته إياهم وقهره لهم ودخولهم تحت طاعته وينتهى نسب اليونان إلى يونان بن يافث بن نوح عليه السلام وكان مبدأ ملك اليونان قبل ميلاد إبراهيم عليه

السلام لكنهم كانوا تحت طاعة ملوك الفرس إلى زمن غلبة الاسكندر للفرس ، فصار الروم أيضا تحت طاعته ، وقيل أن أول من ظهر أمره من اليونان رجل اسمه الن واد سنة أربع وسبعين لمولد موسى عليه السلام ، وقيل إن تاريخ ظهور ملك اليونان سنة ثمان وستين وخمسمائة لوفاة موسى عليه السلام وكان تاريخ غلبة الاسكندر للفرس والروم بعد مضى خمسة آلاف سنة ومائتين وإحدى وثمانين سنة من هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض وذلك أيضاً بعد مضى ثلاثة آلاف سنة وتسع وثلاثين سنة من الطوفان وذلك أيضاً بعد مضى ألف وتسعمائة سنة وثمان وخمسين سنة من مولد إبراهيم عليه السلام وبعد مضى ألف وستمائة سنة وثلاث عشرة سنة من وفاة موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام فكان ميلاده بعد غلبة الاسكندر بثلاثمائة وثلاث ستين وكان الناس قبل ميلاد عيسى عليه السلام يؤرخون بغلبة الاسكندر ثم بعد ميلاد عيسى عليه السلام صاروا يؤرخون بميلاد عيسى عليه السلام وتركوا التاريخ بغلبة الاسكندر ولما بعث نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم اصطلح المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه على أنهم يؤرخون بالهجرة وكان بين الهجرة وميلاد عيسى عليه السلام ستمائة وإحدى وثلاثين سنة وقيل ستمائة وإحدى وعشرين سنة وكان اليونان يعبدون الكواكب وكانت لهم أصنام على صور الكواكب يعبدونها وكان من اليونان الفلاسفة الذين دونوا علم الطب اليونانى وكان كثير منهم ينكرون حدوث العالم ويقولون أنه قديم يعتقدون التأثير الطبيعى ولما غلب الاسكندر ملوك فارس والروم بقى الملك فى اليونان إلى مضى ثلاثة عشر ملكا منهم وذلك فى مدة مائتين واثنتين وثمانين سنة أولها من غلبة الاسكندر ثم غلبهم الروم واستلبوا الملك منهم فصارت الغلبة لملك الروم وهذا الاسكندر الذى غلب فارس والروم غير الاسكندر المذكور فى القرآن الذى يقال له ذو القرنين كما حقق ذلك جماهير المفسرين للقرآن فإنهم حققوا أن الاسكندر ذا القرنين المذكور فى القرآن كان مسلما صالحاً بل قيل بنبوته وأنه كان قبل الاسكندر الرومى بدهور طويلة ، وأما الروم الذين غلبوا اليونان واستلبوهم ملكهم فإنهم من عقب روم ابن عيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام فغلب الروم اليوم واستلبوهم

ملكهم بعـــد مضى مائتين واثنين وثمانين سنة من غلبة الاسكندر ولم يرجع اليونان ملكهم واستمروا رعية لغيرهم وسكنوا المورة واستمروا رعية أيضاً إلى ظهور الدولة العثمانية فلما كانت سنة ألف ومائتين وست وثلاثين حصل منهم خروج عن الطاعة للسلطان محمود الثانى العثمانى فجهز عليهم وقاتلهم ثم توسط بعض الدول بينهم بالصلح وتوسطوا أيضاً فى جعلهم دولة مستقلة ببلاد المورة فكان الأمر كذلك إلى هذا الوقت. وأما الأروام فإنهم بعد فتح السلطان محمد القسطنطينية سنة ثمان وخمسين وثمانمائة انقرضت دولتهم ولم ترجع لهم دولة بل هم رعية للدولة العثمانية إلى الآن وكان انتقال ملك اليونان للروم قبل ميلاد المسيح عليه السلام بمائة وخمس وأربعين سنة وكانت ديانة الروم عبادة الكواكب والأصنام التى على صور الكواكب فكانوا تابعين فى ذلك لليونان لأن الغالب على الناس أن يكونوا على دين ملوكهم واستمر الروم على ذلك إلى أن دخلوا فى دين النصارى وذلك بعد مضى مائتين وسبع وثلاثين سنة من ميلاد المسيح عليه السلام، ثم أن بعض ملوك الروم أعاد عبادة الأصنام وصار يقتل من يتبع الملة المسيحية وبعضهم يقبلها ويردها إلى أن تملك منهم قسطنطين فارتضى الملة المسيحية ودخل فيها وأمر الناس بالدخول فيها والتمسك بها وكان ذلك سنة ثلاثمائة وست من ميلاد المسيح فتنصر الروم جميعا وكان مقر ملك الروم مدينة روما إلى أن بنى القسطنطينية فإن الملك قسطنطين المذكور هو الذى بناها ونقل كرسى السلطنة من روما إلى القسطنطينية وكان ذلك سنة ثلاثمائة واثنى عشرة من ميلاد المسيح عليه السلام وقيل أن هذا تاريخ بناء القسطنطينية وأما نقل كرسى السلطنة إليها فكان سنة ثلاثمائة وثلاثين من ميلاد المسيح عليه السلام. وأما مدينة رومة فأول من بناها ملك من ملوك الروم قبل غلبتهم لليونان اسمه روملس ويقال لها رومة ورومية وكان بناؤه إياها قبل ميلاد المسيح بسبعمائة وثلاث وخمسين سنة. وأما بيان كيفية غلبة اليونان للفرس وغلبة الروم لليونان والمحاربات الواقعة بينهم فلا حاجة إلى ذكر شىء منها لأن ذلك شىء طويل لافائدة فى ذكره. ولما ملك الروم اليونان وغلبوا عليهم واستلبوهم ملكهم خضع للروم كثير من الملوك ودخل تحت طاعتهم كثير من الملوك الذين لايستطيعون محاربتهم الروم كملوك الإفرنج الذين فى أوروبا وكثير من ملوك أفريقيا وآسيا وصار

ملك الروم ضخما قويا واسعاً واستمر ذلك إلى سنة أربعمائة وست وسبعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بمائة وست وأربعين سنة فاستلب ملك إيطالية ملك رومة وانتزعها من ملك القسطنطينية وهو ملك الروم وفصلها عن ملكه وصارت من ممالك إيطاليا لكنه لم يستقل بملكها بل نازعه فى ذلك كثير من دول أوروبا ووقع بينه وبينهم محاربات وانتزاع ورجوع مرة بعد أخرى والكلام على ذلك طويل وما صار لملك إيطاليا استقلال تام بالملك إلى سنة ألف وسبع وعشرين من ميلاد المسيح الموافق ذلك سنة أربعمائة وثمان عشرة هجرية فاستقلالهم بالملك تأخر إلى هذا الوقت وإن كانوا متقدمين بالنسبة إلى وجود أصل ملكهم فهم أقدم دول أوروبا بالنسبة لكونهم أول من أخرج رومة عن طاعة ملك الروم وإن كان تمام استقلالهم متأخراً ، وأما أول الاستقلال فهو سنة أربعمائة وست وسبعين مسيحية وذلك قبل الهجرة بمائة وست وأربعين سنة بل كان لهم ملوك أيضاً قبل ذلك لكنهم كانوا تحت طاعة ملوك الروم بل وقال بعضهم : أن أول وفودهم إلى أرض إيطاليا وسكناهم فيها كان قبل ميلاد المسيح بألف وسبعمائة سنة فهذا وجه قول من قال انهم أقدم ملوك الإفرنج الذين فى أوروبا ومن حين وفودهم فى ذلك الوقت كان لهم رئيس بمنزلة الملك . وأما دخولهم فى دين النصارى فكان بعد ميلاد المسيح عليه السلام بخمسمائة سنة ثم لم يزل دين النصارى ينتشر عند الإفرنج سكان أوروبا إلى سنة خمسمائة وست وتسعين من ميلاد المسيح ، ثم زاد انتشاره حتى عم أكثرهم ، وتأخر عن الدخول فيه الروسية لأنهم إذ دخلوا فيه سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم ولما كانت إيطاليا أقدم تلك الطوائف كان تأسيس دينهم ومقر رؤساء الدين عندهم وقد كانت النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام مثل ما كانوا عليه حين كان بين أظهرهم من الإقرار لله بالوحدانية وله بالرسالة مع الإقرار بأنه عبد الله ورسوله ثم بعد رفعه دخلت عليهم شبه حصل بسببها الافتراق فى دينهم فانقسموا ثلاث طوائف ملكانية ونسطورية ويعقوبية فالملكانية مصرحة بالتثليث كما قال الله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قالُوا إنَّ اللهَ ثَالِثُ ثلاثة﴾ فهؤلاء يقولون الآلهة ثلاثة المسيح وأمه والله ويقولون أن المسيح ناسوت كلى قديم

أزلى من قديم أزلى ويقولون أن مريم ولدت إلهاً أزلياً ويطلقون لفظ الأبوة على الله تعالى وتنزه عما يقول الظالمون علواً كبيراً ويطلقون أيضاً لفظة النبوة على عيسى عليه السلام إطلاقا حقيقيا . وأما النسطورية فخالفوا الملكانية فلم يقولوا بالامتزاج بل قالوا أن الكلمة أشرقت على جسد عيسى كاشراق الشمس على كوة أو على بلور ، وأما اليعقوبية فيقولون انقلبت الكلمة لحما ودما فصار الإله هو المسيح كما حكى الله عنهم ذلك بقوله ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الذينَ قالُوا إنَّ اللهَ هُوَ المسيحُ بنُ مَرْيمَ ﴾ ، وأما المسلمون فقالوا كما ذكر الله تعالى ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ له كُنْ فيكُون ﴾ فهذا هو المراد من الكلمة (ومن الشبه) التى دخلت على النصارى حتى قالوا بألوهية عيسى عليه السلام أنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى وما عقلوا أن ذلك بأمر الله بل هو فعل الله وخلقه وإيجاده أجراه على يد عيسى عليه السلام وقد أقام الله عليهم الحجة فى إبطال زعمهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ما المسيحُ بنُ مَرْيَم إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَة كانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعامَ انظرْ كيفَ نُبينُ لهمُ الآياتِ ثم انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُون﴾ ، فقوله سبحانه وتعالى كانا يأكلان الطعام برهان على افتقارهما إلى الطعام كافتقار جميع الحيوانات فكيف يكون إلهاً من يفتقر إلى الطعام ولا يكون قوامه إلا به ، وأيضاً أكل الطعام يستلزم البول والغائط فكيفَ يكون إلها من يحتاج إلى أن يبول ويتغوط فأكل الطعام كناية عن البول والغائط لكن لم يعبر بالبول والغائط لفحش الإتيان بلفظهما والقرآن العزيز ألفاظه فى غاية النزاهة والعذوبة مع غاية الفصاحة والبلاغة ، ومن شبههم أيضا كون المسيح ولد بلا أب فنسبوه إلى الله تعالى وغاب عن عقولهم آدم عليه السلام فإنه أغرب من عيسى عليه السلام فإنه بلا أب ولا أم ، وقد أبطل الله لهم هذه الشبهة حيث قال أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون فخلق آدم بلا أب ولا أم أعجب من خلق عيسى من أم بلا أب وبعد دهور طويلة افترق النصارى فرقتين إحداهما تسمى كاثوليكية والأخرى بروتستانية ومع ذلك فبينهم اختلاف كثير ويتشعب من اختلافهم مذاهب كثيرة ليس هذا محل تفصيلها والمذهب

الكاثوليكى عند النصارى هو الأسقف العظيم، والحبر الكبير القسيس الفخيم ويسمونه البابا ومقره وسكناه رومة عند دولة إيطاليا فله الرئاسة على كل متمسك بالمذهب المذكور بمعنى أن له النظر فى إجراء الأحكام الدينية الباطنية فهو عندهم بمنزلة القطب عند المسلمين وكان له عندهم ملك سياسى فى الأراضى التى تحت سلطته وأكثر إيطاليا على المذهب الكاثوليكى، وكانوا فى سنة سبعمائة وست وعشرين من ميلاد المسيح الموافق مائة وثمانية من الهجرة جعلوا للبابا دولة جمهورية تكون تحت رياسته فكان ذلك التاريخ مبدأ أمره ولم يزل يترقى فى أمر البابا حتى صارت له سطوة الدين والدنيا، فكانت لهم ممالك واسعة فى الأرض وكانوا رؤساء فى الدين والدنيا بحيث أنهم صار لهم حق كبير فى تولية ملوك أوروبا وعزلهم حسب مشيئتهم، فكانت لهم سطوة سائدة على كل ملوكهم وكان لغيرهم من الملوك تاج واحد وأما هم فكان لهم ثلاث تيجان واحد فوق واحد دلالة على كمال السلطنة وعلوها وبلغ اعتبارهم عندهم أنهم عند ما كانوا يركبون على الخيل يمسك لهم الركاب كثير من ملوكهم وكانوا إذا أمروا بمحاربة أمة لا يخالفهم أحد ويحرقون من خالفهم بالنار وهو حى وكان البابا مرة ألزم أمبراطور ألمانيا أن يقف حافياً ثلاثة أيام فى فصل الشتاء أمام باب قصره ليطلب الغفران ورفس البابا مرة برجله تاج ملك جرمانيا حيث كان جاثياً أمامه يطلب الغفران . قال بعض مؤرخى الإفرنج المتأخرين إن جهالة تلك الأعصار طمست بصائر الشعوب حتى لم يروا خطأ فى رؤساء الدين فكانوا يذعنون لكل أحكامهم ويخضعون لكل مايستقر عليه رأيهم كأنه منزل من الله تعالى لايشوبه عيب فلما بلغت شوكتهم إلى هذا الحد لم يبق فى أوروبا مملكة إلا واضطربت من أفعالهم ولا ملك إلى تعكر من مطامعهم ولا كرسى إلا وارتج من شوكتهم فنشأ من ذلك فتن كثيرة كان منها انحطاط أمر الباباوات شيئاً فشيئاً إلى سنة ألف وثمانمائة وإحدى وسبعين مسيحية الموافق ألفاً ومائتين وثمانياً وثمانين هجرية فسقط أمرهم بالكلية ودخل الإيطاليون إلى عاصمة مملكة البابا وأخذها منه، وأبقوه على الكاثوليكية رئيساً فقط ومقره فى الكنيسة الرومانية وليس له من الرياسة غير ذلك واستمر الأمر كذلك إلى

هذا الوقت ،وأما الأحكام بين الرعايا ومايتعلق بالسياسة وتدبير الملك فقدجعلوا لها قوانين ودونوها بعقولهم واتخذوا لكل نوع منها مجالس مخصوصة وهكذا سائر دول أوروبا مع أنه كان عندهم فى الإنجيل وفى الكتب القديمة أحكام مدونة تتعلق بالعبادات والمعاملات والأنكحة فتركوا كثيرا منها وأسسوا تلك القوانين العقلية ورأوها أقوى فى تثبيت ملكهم ثم أن الملكانية الذين تقدم إنهم يسمون كاثوليكية استمروا على المذهب الكاثوليكى إلى القرن التاسع ، فلما كثر المنكرون برياسة البابا صاحب رومة وصاروا يسمعون المنكرين لرئاسته بروتستان وصارت هذه التسمية عندهم مثل تسمية المبتدعين الخارجين عن مذهب أهل السنة عند المسلمين فإن المسلمين أهل السنة يسمون المخالفين لهم بالمبتدعة فصار عندهم النصارى الملكانية لايسمى كاثوليكيا إلا من اعترف برئاسة البابا ومن لم يعترف بها فهو بروتستان بمنزلة المبتدع عند المسلمين وكان هذا الاصطلاح عندهم فى القرن التاسع من قرون الهجرة النبوية فهذا هو الفرق الأعظم عندهم بين الفريقين ومع ذلك فالذين يسمونهم بروتستان كثيراًمنهم لايستأنفون من هذه التسمية لكن الأكثر منهم إذا قيل له أنت بروتستان يستأنف من ذلك ولايرضى بهذا اللقب لأنه بمنزلة المبتدع ويقول أنا كاثوليكى وإن كان غيرمعترف برئاسة البابا ثم إن بين الفريقين أيضا اختلافا فى مسائل كثيرة أعظمها أن البروتستان لايعترفون برئاسة البابا بل يقولون هو من جملة رؤساء الأساقفة ولاتنحصر رئاسة الأساقفة فيه بل هى فيه وفى أسقف القسطنطينية وأسقف اسكندرية لامزية ولارئاسة لأحد الثلاثة على الآخرين ولايزيد قدر أحد الثلاثة على الآخرين وأما الكاثوليكية الأصليون عندهم فهم المعترفون برئاسة البابا صاحب رومة على غيره ،ومن الاختلاف الواقع بينهم أن بعض البروتستان يخالف مذهب الملكانية الأصلى للفريقين فى اعتقاد التثليث لأنهم نظروا فى كتب أهل الإسلام وأدلتهم بواحدانية الله فاعترفوا بصحة تلك الأدلة واعترفوا بوحدانية الله تعالى لكنهم لم يعترفوا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واعترفوا برسالة عيسى المسيح عليه السلام وقالوا إنه عبدالله ورسوله ويوافقون النصارى فى بقية دياناتهم فهذا موضع من مواضع المخالفة بينهم وبين

الكاثوليكية لكن هذا الاعتقاد أعني اعتقاد الوحدانية لله تعالى لا يقول به كل البروتستان بل بعضهم، والبعض الآخر من البروتستان يقولون بالتثليث مثل الكاثوليكية لكنهم سموهم بروتستان لعدم اعترافهم برئاسة البابا بل يقولون أصول الأساقفة أسقف رومة وأسقف القسطنطينية وأسقف الاسكندرية ثم أن جميع الفريقين لهم عبادات مشروعات مختلفة اختلافاً كثيراً لم يتفقوا كلهم على شيء منها إلا الدعاء فإنهم كلهم اعترفوا بمشروعيته وأما صلاتهم وصيامهم وفى عباداتهم فهم مختلفون فيها اختلافاً كثيراً فمن ذلك أن الصوم يقول الكاثوليكية أنه فرض ويقول البروتستان أنه سنة وليس بفرض والصوم المذكور هو صوم أربعين يوما فى فصل الربيع الذى يكون قبل الصيف بحيث يكون آخر الأربعين موافقاً آخر الربيع هذا متفق عليه بينهم لكن الكاثوليكية الأكثر منهم وهم أهل الديانة القوية منهم يقولون إن الصوم هو إمساك عن تناول الطعام والشراب من طلوع الشمس إلى غروبها فى الأربعين يوما وأما البروتستان وبعض الكاثوليكية الذين ضعفت ديانتهم فإنهم يجوزون فى حالة الصيام تناول الطعام والشراب لكنهم يقولون لا يجوز تناول اللحم بجميع أنواعه وكذا ماتولد من الحيوان كاللبن والسمن إلا الحوت فإنهم يجوزون تناوله حالة الصيام ويتناولون أيضا الخبز والحلوى وسائر الأطعمة غير اللحم ماعدا الحوت ويشربون الخمر والماء فى حالة الصيام ومن الفرق الفريق بين أن لكل منهم أولياء يعتقدون فيهم ويتوسلون بهم لكن بينهم اختلاف فى بعض الأولياء فهذا البعض يعترف به أحد الفريقين دون الآخر وبالعكس فإذا كان الأولياء الذين يعتقدهم الكاثوليك لا يعتقدهم إنسان يقولون أنه بروتستان وهناك فرقة يسمونهم اللاتينية وفرقة يسمونهم أهل الديانة الروسية (أرثوذكس) وذلك بسبب عدم اعترافهم برئاسة البابا وإن كانوا موافقين الكاثوليك فى جميع ماهم عليه من الديانات والاعتقادات ومع ذلك فكثير من اللاتينية وأهل الديانة الروسية يقولون : نحن كاثوليك افتخاراً بهذا اللقب فيقولون لهم كذبتم أنتم لاتينية أو من أهل الديانة الروسية حيث أنكم لم تعترفوا برئاسة البابا وهناك فروق كثيرة بين طوائفهم ومذاهب مختلفة يكفر فيها بعضهم

بعضا لا حاجة إلى ذكرها وإنما المدار عندهم فى الفرق بين الكاثوليكية والبورتستان، الاعتراف برياسة البابا وعدم الاعتراف بها وقد عرفت أن الأصل الأصيل عندهم فى تأسيس الديانات والأقدمية فى الملك هى دولة إيطاليا ومع ذلك فبعض منهم ينكرون رياسة البابا فيكونون عندهم بروتستان لكن الأكثر منهم يعترفون بها فيقرون لهم بأنهم كاثوليك وبعض من الفرنسيس والانكليز وغيرهم خرجوا عن ملة النصارى بالكلية فى الباطن وإن كانوا يعترفون بها فى الظاهر ، وأما فى الباطن فصاروا كالزنادقة عند المسلمين فهؤلاء لا يعترفون فى الباطن بشىء من دياناتهم بل ولا بنبوة عيسى ولا غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بل بعض منهم ينكرون الصانع ولا يعترفون ببعث ولا نشور ويقولون : ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ومايهلكنا إلا الدهر ، فهؤلاء دهرية لكنهم لا يتظاهرون بذلك بل يخفونه ويظهرون أنهم على ملة النصارى وفى هذا القدر كفاية فلنتمم الكلام على ذكر بقية دولهم وكيفية ابتداء كل دولة ومتى كان دخولهم فى النصرانية (أما دولة الفرنسيس) فأصلهم أيضا شعوب وقبائل مختلفة دخلت تلك البلاد فى أوقات مختلفة واستوطنوا تلك الأرض التى هم فيها الآن وأخص تلك القبائل وأشهرها قوم يقال لهم أيضا الافرنك بالكاف ثم غيرت بجيم فصار الإفرنج وقيل أصله فرنك بالكاف فأبدلت الكاف سينا فصار فرنسه وفى تاريخ ابن خلدون عند ذكره الفرنسيس قال هذه الأمة المعروفة بالفرنجة تسميها العامة بالإفرنسيس نسبة إلى بلد من أمهات بلدانهم تسمى إفرنسية وينتهى نسب أكثر منهم إلى يافث بن نوح عليه السلام ومع ذلك فقد اختلط بهم كثير من غير جنسهم وصاروا ملحقين بهم والغالب أنه إذا أطلق الإفرنج إنما ينصرف إليهم فيراد بهم الفرنسيس وقد يطلق اسم الإفرنج على غيرهم من تلك الطوائف الساكنين بأوروبا حتى صار هذا الإطلاق شائعا فى هذه الأزمان وابتدأ الملك فى الفرنسيس من سنة أربعمائة وعشرين من ميلاد المسيح وذلك قبل الهجرة بمائتين واثنتين من السنين هذا ابتداء انتظام الملك فيهم واستقلالهم فيه ، وأما قبل ذلك فكان لهم ملوك لم ينتظم أمرهم ولم يكمل لهم الاستقلال بل كانوا تارة

يكون لهم استقلال وتارة يكونون تحت طاعة غيرهم وقهره ، وأما إذا اعتبر ابتداؤهم الأصلى فإنه كان قبل ميلاد المسيح بخمسة قرون وكانوا تحت قهر ملوك اليونان ثم بعد ذهاب ملك اليونان صاروا تحت قهر ملوك الروم فلا يحسب لهم ملك مستقل فى تلك الأزمان وكانت دياناتهم عبادة الأوثان التى على صور الكواكب وعبر بعضهم عن دياناتهم قبل دخولهم فى النصرانية بأنها تشبه أهل الهند عباد الأوثان ، ثم دخلوا فى النصرانية سنة ست وتسعين وأربعمائة من ميلاد المسيح عليه السلام وكان أول من دخل منهم فى النصرانية الملك كاويس وأكثرهم يدعون أنهم على المذهب الكاثوليكى وكثير منهم على المذهب البروتستانى ومنهم من لا يتدين بدين النصارى ولا غيرهم وينكرون بعثة الأنبياء عليهم السلام بل منهم من ينكر الصانع ولكنهم يتسترون ويقولون أنهم على دين النصارى ومن ملوك الفرنسيس المشهورين بن كارلويس الكبير المسمى شارلمان كان ساعياً فى ترقى أسباب العلوم العقلية والفنون الأدبية والصناعية التى يتسع بها ملكهم وشاع صيته وانتشر ذكره ، ومكث فى الملك خمساً وأربعين سنة وكان معاصراً لهارون الرشيد وكان بينه وبينه مكاتبات وأهدى إليه الرشيد مرة شطرنجا ثميناً وساعة فلكية من مخترعات بلاد المشرق وأهدى إليه أيضا أنواعا كثيرة من البزورات التى تزرع وليست فى بلادهم الإفرنجية وأرسل له مفاتيح كنيسة فى بيت المقدس ، وأمر الرشيد العمال الذين كانوا فى بيت المقدس أن يعاملوا الزوار الذين يأتون من بلاد الفرنسيس للزيارة أحسن المعاملة ومات شارلمان المذكور سنة ثمانمائة وأربع عشرة مسيحية الموافق مائة وتسعا وتسعين هجرية فيكون موته بعد وفاة الرشيد ، وأما عدد سكان أرضهم وعدد رعاياهم وعساكرهم وما هو عندهم من الأموال والسلاح وغير ذلك فلا حاجة بنا إلى ذكره وكذا ما كان يقع بينهم وبين بقية الدول الإفرنج من المحاربات وتغلب بعضهم على بعض فلا حاجة بنا إلى ذكره ، نعم وقع بينهم وبين الانكليز أمر غريب عجيب وهو أنهم تحاربوا ومكث الحرب بينهم واستدام نحو مائة وست عشرة سنة تارة تكون الغلبة لهؤلاء وتارة لهؤلاء وكان ابتداء ذلك الحرب من سنة ألف وثلاثمائة وسبع وثلاثين مسيحية الموافق سبعمائة وثمانيا

وثلاثين هجرية وانتهاؤه بالصلح بينهم سنة ألف وأربعمائة وثلاث وخمسين مسيحية الموافق سنة ثمانمائة وسبعا وخمسين هجرية وذلك مبسوط فى تواريخهم ويسمونه حرب المائة سنة وكان استيلاء الفرنسيس على الجزائر بأفريقية سنة ألف ومائتين وست وأربعين وفى سنة ألف ومائتين وست وتسعين أدخلوا المحاكم التونسية فى حمايتهم (وأما دولة الإنكليز) ويقال لها دولة انكلترا أو بريطانية فكان أول ظهورهم قبل ميلاد المسيح بخمس وخمسين سنة وكان بينهم وبين الإفرنج دول أوروبا محاربات كثيرة ولم ينتظم الملك لهم ولم يتم الاستقلال إلا سنة ثمانمائة وسبع وعشرين مسيحية الموافق مائتين وثلاثا وأربعين هجرية ، وكان أول دخولهم النصرانية سنة خمسمائة وست وتسعين وذلك قبل الهجرة بست وعشرين وهم أيضاً مثل الفرنسيس فيهم الكاثوليكية والبرتستان والدهرية ، وما أصلهم الذى تنتهى إليه أنسابهم ، فهم مجتمعون من أصناف وفروع شتى وفيهم جماعة من الكليتيين وجماعة ينتهى نسبهم إلى يافث بن نوح عليه السلام ولهم جزيرتان منفصلتان إحداها جزيرة بمملكة بريطانيا والأخرى جزيرة إيرلندا ولذلك اشتهرت مملكتهم بمملكة بريطانيا وإيرلندا ، وكانوا فى أول أمرهم كالوحوش ويلبسون جلود الوحوش ، وكانت مساكنهم حقيرة يقيمونها تارة من الأعواد وأوراق الشجر وتارة من الطين وكان شغلهم صيد الحيوانات يتعيشون منها وحالهم يشبه أجلاف العرب، وكانوا يسجدون للصخور والحجارة وينابيع الماء ثم لم يزل أمرهم يظهر ، ويقوى حتى صارت لهم دولة قوية وكان استيلاؤهم على الهند مبتدؤه سنة ألف وسبعمائة وسبع وخمسين مسيحية الموافق سنة ألف ومائة وثنتين وسبعين هجرية وتمام استيلاؤهم على الهند سنة ألف وثمانمائة وست عشرة مسيحية الموافق سنة ألف ومائتين وثمانية هجرية وكان تمام استيلائهم المذكور بعد حروب وعناء شديد ، وأما استيلائهم على جبل الطارق الذى فى المغرب فكان سنة ألف ومائة وست عشرة هجرية انتزعوه من الإسبانيول فى السنة المذكورة وقد حاول الإسبانيول والفرنسيس انتزاعه بعد ذلك من الانكليز مراراً عديدة فلم يتيسر لهم ذلك وكان الإسبانيول قبل أخذه منهم قد انتزعوه من المسلمين

سنة ثمانمائة وسبع وستين هجرية وهذا الجبل من أعظم الحصون فى العالم ويعتبر مفتاحا للبحر المتوسط وهو مقابل للجزيرة الخضراء التى هى من بلاد الأندلس فاصل بينهما وبين إفريقية ، ويسمى جبل الفتح وجبل طارق وهو طارق بن زياد الذى فتح الأندلس سنة ثنتين وتسعين من الهجرة ، وطارق هذا هو مولى موسى بن نصير بضم النون وفتح الصاد مصغراً وموسى المذكور هو مولى عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك بن مروان ووالد عمر بن عبد العزيز فسمى الجبل باسم طارق المذكور لأنه نزل بالمسلمين عنده لما قصد فتح الأندلس ويسمى جبل الفتح أيضاً للعلة المذكورة والعامة يسمونه جبل الطار وصوابه جبل طارق .

وأما دولة النمسا المسماة أيضاً أوستوريا

فهم أيضاً من أصناف شتى وأكثرهم من التتار ، وابتداء دولتهم كان من سنة ثلاث وثلاثين من ميلاد المسيح وكان بعض دول أوروبا يدخلونهم تحت طاعتهم ويتغلبون عليهم وما حصل للنمسا استقلال الملك التام إلا من سنة تسعمائة واثنتين وثمانين مسيحية الموافق سنة مائتين وثمانيا وأربعين هجرية ودخولهم فى النصرانية فى حدود السنين التى دخل فيها من تقدم ذكرهم ومثل ذلك يقال فيمن يأتى ذكرهم من الدول الروسية فإنه تأخر دخولهم فى النصرانية إلى سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية كما تقدم .

وأما دولة البروسية

فهو قسم كبير من جرمانيا ويقال لجرمانيا أيضا ألمانيا وهم أمم كثيرة لهم ملوك شتى والبروسية طائفة منهم وابتداء دولتهم من سنة أربع وخمسين من ميلاد المسيح واستقلالهم التام بالملك من سنة ألف وثلاثمائة وخمسة عشرة مسيحية الموافق سنة ثمانمائة وثمان عشرة هجرية ثم انضم إلى حمايتهم كثير من الدول الصغار من دول جرمانيا فقوى ملكهم واتسع .

وأما دولة الروسيا المسماة بالموسكوف

فهو أيضا مجتمعون من أجناس كثيرة ومنهم من ينتهى نسبه إلى يافث ابن نوح عليه السلام وكانوا قبل استقلالهم فى الملك تحت الرومانية قبل ميلاد المسيح ثم لما تقوى بعض دول أوروبا تغلبوا عليهم فكانوا تحت طاعتهم وما كان لهم الاستقلال التام بالملك إلا من سنة ثمانمائة واثنتين وستين مسيحية الموافق مائتين وثمانيا وأربعين هجرية وكانوا يعبدون الأوثان كغيرهم من دول أوروبا ودخولهم فى النصرانية سنة ثلاثمائة وخمس وسبعين كما تقدم .

وأما دولة أسبانيا ويقال لهم أيضاً الأسبانيول

فهم أيضاً من أجناس مختلفة وكان لهم ملوك فى القديم تابعون لدولة اليونان ثم لدولة الرومانيين بعد اليونان ثم تغلب عليهم بعض من هو أقوى منهم من ملوك أوروبا ثم استولى المسلمون على أكثر ممالكهم لما فتح الأندلس فكان الأندلس تحت يد أسبانيا إلى سنة اثنتين وتسعين هجرية فانتزعه المسلمون منهم وبقى لهم ملك ضعيف فى آخر الأندلس ووقع بينهم وبين المسلمين حروب كثيرة ثم انتزعوا الأندلس من المسلمين شيئاً فشيئاً إلى أواخر التسعمائة من الهجرة ثم أخرجوا من بقى من المسلمين بالأندلس فى سنة ألف وعشر واستقلوا بالملك وكانت ديانتهم عبادة الأوثان كغيرهم ممن تقدم ودخلوا فى النصرانية فى الزمن الذى دخل فيه من تقدم ذكرهم .

وأما دولة البرتغال

فكانت تابعة أيضاً للرومانيين ، وكانت ممالكهم فى أواخر الأندلس فلما استولى المسلمون على الأندلس أضافوها إلى ما بيدهم من الأندلس ثم انتزعت من المسلمين سنة أربعمائة وتسع وثمانين هجرية واستولى عليها الأسبانيول ثم انتزعها البرتغال من الأسبانيول ، واستقبلوا بالملك فيها سنة ألف وخمسين هجرية .

وأما دولة هولاندا ويقال لهم الفلمنك

فكانت تحت طاعة أسبانيا وكان بين الدولتين حروب كثيرة استمرت نحو ثمانين سنة إلى أن استقلوا بالملك فى حدود تسعمائة وسبع وثمانين من الهجرة وكان فى السنين المذكورة استيلاؤهم على بلاد الجاوى وكان دخولهم فى النصرانية فى حدود السنتين التى دخل فيها من تقدم ذكرهم .

وأما دولة الدنيمارك

فكانت تحت طاعة ملوك أوروبا إلى سنة ست وتسعين وثلاثمائة وألف مسيحية الموافق سبعمائة وتسعا وتسعين هجرية فاستقلوا بالملك .

وأما دولة السويد والنورويج

فكانت أيضاً تحت ملوك أوروبا ثم ساروا تحت طاعة الدنيمارك ثم استقلوا بالملك سنه ألف وخمسمائة وثلاث وعشرين مسيحية الموافق تسعمائة وثلاثين هجرية :

وأما دولة البلجيك

فهى من ممالك جرمانيا وما صار استقلالها إلا من سنة ألف وثمانمائة وثلاثين مسيحية الموافق سنة ألف ومائتين وأربعين هجرية .

وأما دولة السويسرة

فكانت أيضا يتداول التملك عليها ملوك أوروبا واستقلت بالملك سنة ألف وستمائة وثمان وأربعين مسيحية الموافق سنة ألف وثمانيا وخمسين هجرية .

وأما دولة باواريا

فملكتهم تجمع ملوكا كثيرة كل واحد منهم له مملكة صغيرة وكانت تلك الممالك وملوكها تحت طاعة من قوى من ملوك أوروبا ثم صارت ممالك باواريا مستقلة سنة خمسمائة

وثلاثين مسيحية الموافق لما قبل الهجرة باثنين وتسعين سنة ، ثم صارت هذه الممالك فى هذه السنين تابعة لملك البروسية .

فائدتان

الأولى : تتفرع مسألة فقهية على معرفة تاريخ دخول هذه الطوائف فى دين النصرانية وهى أنه إن كان دخولهم فيه قبل نسخه فإنهم يلحقون بأهل الكتاب فى حل أكل ذبيحتهم وفى حل تزوج المسلمين نساءهم وإن كان دخولهم فيه بعد نسخه فلا يلحقون بأهل الكتاب فيما ذكر ونسخ دينهم إنما كان ببعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قال الإمام الرازى فى تفسيره عند تفسير قوله تعالى ﴿ والمُحصنَاتِ مِنَ الذينَ أوتُوا الكتابَ مِنْ قَبلِكُم ﴾ ما نصه قال الكثير إنما يحل نكاح الكتابية التى دانت بالتوراة والإنجيل قبل نزول القرآن قالوا والدليل عليه قوله تعالى ﴿ والمُحصنَاتِ مِنَ الذينَ أوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبلِكُمْ ﴾ فقوله من قبلكم يدل على أن من دان بالكتاب بعد نزول القرآن خرج عن حكم أهل الكتاب اه . وذكر الخطيب الشربينى فى تفسيره مثل ذلك فى حل أكل ذبائحهم وهذا الذى ذكره كل منهما هو مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه وأما أهل المذاهب الثلاثة فلم يقولوا بهذا التفصيل بل أطلقوا القول بحل أكل ذبائح أهل الكتاب وحل التزويج من نسائهم ولو دخلوا فى دين أهل الكتاب بعد نسخه .

الفائدة الثانية

كانت دول الفرنج قبل ظهور الإسلام فى غاية التوحش وعدم المعرفة بالحرب والصنائع وأنواع السياسات وتدبر الحروب وأنواع العلوم العقلية وما وجد ذلك فيهم وما انتشر إلا بعد ظهور الإسلام ومخالطتهم للمسلمين فتعلموا ذلك منهم فحصل لهم التمدن والحضارة قال بعض مؤرخيهم عند ذكر الحروب التى كانت بينهم وبين المسلمين فى القرن السادس أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى المسماة بحرب الصليب ما نصه أن تلك الحروب وإن هلك فيها كثير من النفوس وذهب فيها كثير من الأموال من غير حصول على

المقصود لكنه أعقب نتائج نافعة لهم منها أنهم من ذلك الوقت شرعوا فى ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم المسلمين صناعة التجارة والزراعة وكثيراً من العلوم العقلية والفلكية وألفوا التواريخ النافعة وتوسعوا فى معرفة علم الفلك وألفوا فيه وتخلقوا بأخلاق الحضر وتعودوا الأسفار براً وبحراً لاستكشاف أحوال الأقطار واكتشفوا أمريكا فى أسفارهم سنة ثمانمائة وتسعين هجرية ولم تكن قبل ذلك معلومة لأحد قط واكتسبوا من المسلمين أنواع الفروسية واللعب بالخيل والرماح وتعاطوا المعانى الغريبة فى كلامهم وأشعارهم لاسيما من كانوا منهم مخالطين للمسلمين بالأندلس وتعلموا أيضاً المشورة فى الأحكام وعلموا أن الملك يفسد باستبداد وعدم المشورة فدونوا لهم أحكاماً وقوانين يرجعون إليها واستكثروا من جمع كتب الإسلام وترجمتها بلسانهم ليعلموا معانيها فأخذوا منها ما يكون به صلاح الملك واتخذوا مدارس لتعليم أنواع الفنون وعرفوا أن الملك لا ينتظم إلا بذلك كله ومن مقالات بعض مؤرخيهم لا تصلح السكنى ببلد حتى تكون الشريعة فيها أقوى من السلطان ، ومراد بالشريعة ما أسسوه من القواعد العقلية لأحكامهم وسياسة ملكهم ، وإذا كان هذا فى تلك الأحكام العقلية فكيف إذا رجع المسلمون إلى شريعتهم المطهرة المؤسسة بالوحى من الله تعالى وتمسكوا بها حتى يكون حكم السلطان تابعاً لحكمها فلا شك أنها تكون أقوى من السلطان ، وقال بعض مؤرخيهم أيضا ما بلغت أمة من الأمم غاية الاستقامة إلا باحترام قوانين أحكامها المؤسسة على العدل كما أن عدم احترامها يكون منشأ الرجوع إلى القهقرى ولا يتوهم أن ذلك لبركة فى قوانينهم العقلية ، وإنما ذلك بسبب ابتنائها على التجارب العادى ومراعاة الوازع الدنيوى ، وأما الشريعة المطهرة فهى أقوى من ذلك كله لأنها مبنية على الوحى الإلهى الذى يحصل من اتباعه كمال البركة وإذا كانت مخالفة قوانينهم يرونها موجبة للانحطاط فلا شك أن مخالفة الشريعة المطهرة يحصل منها كمال الانحطاط مع ما يعقب ذلك من العذاب فى الدار الآخرة وقال بعض مؤرخيهم وبالجملة فبالسبب المذكور وهو مخالفة الأوروباويين للأمة الإسلامية المتقدمة عليهم فى التمدن والحضارة كان ابتداء التمدن عند الأوروباويين .

تتميم

ذكر كثير من المفسرين للقرآن العزيز وكثير من المؤرخين أن الذين ملكوا الدنيا من مشرقها إلى مغربها ثلاثة مسلمان وكافر ، أما المسلمان فهما سليمان بن داود عليهما السلام وذو القرنين وأما الكافر فهو النمروذ الذى كان فى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام وزاد بعضهم رابعاً كافراً وهو بختنصر فيكونون أربعة مسلمان وكافران لكن قال ابن الأثير فى الكامل أن بختنصر لم يملك الدنيا كلها وإنما كان له ملك واسع وهو الذى خرب بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل وأسر سبعين ألفاً منهم لأن الله سلطه عليهم لما كثرت فيهم المعاصى والمخالفات وبختنصر هذا مجوسياً من مجوس بابل ولم يعرف له أب وكان عاملا على العراق لملك الفرس وكان بين ابتداء ملكه وتخريبه بيت المقدس تسعة عشر سنة وبين الهجرة وتخريبه بيت المقدس ألف وثلاثمائة وتسع وستون سنة وبقى خرابا سبعين سنة ، ثم عمر وتراجعت إليه بنو إسرائيل والذى عمره بعض ملوك الفرس بوحى من الله تعالى إلى النبى أرمياء عليه السلام فأخبر ذلك النبى ملك الفرس فامتثل أمره وعمره ثم خرب مرة ثانية بعد رفع عيسى عليه السلام بأربعين سنة وذلك قبل الهجرة بخمسمائة ونيف وخمسين سنة وكان ذلك التخريب لما قتل اليهود يحيى بن زكريا عليه السلام فسلط الله عليهم الفرس والروم فقتلوهم وسبوهم ونفوهم من ديارهم وخربوا بيت المقدس وقد ذكر الله تعالى هذين التخريبين فى القرآن العزيز فى سورة الإسراء فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ الآية . وذكر المرة الثانية فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أى بعثناهم وسلطناهم ليسوؤا وجوهكم وبقى خرابا إلى أن عمره ملك من ملوك الروم بعد تنصرهم وبنى كنيسة قمامة على القبر الذى تزعم النصارى أن عيسى دفن فيه وخربوا هيكل بيت المقدس إلى الأرض وأمروا أن يلقى فى موضعه قمامات البلد وزبالته فصار موضع الصخرة الشريفة مزبلة ، وبقى على ذلك إلى أن قدم عمر بن الخطاب رضى الله

عنه الشام سنة ست عشرة من الهجرة وفتح بيت المقدس فأزال ذلك وأرجع موضع الصخرة كما كان والله سبحانه وتعالى أعلم ولنرجع إلى ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات الإسلامية فنقول : وفى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة خلع الطائع لله ، وبويع القادر بالله ، أحمد بن إسحاق بن المقتدر ، وفى سنة اثنتين وثمانين نزل ملك الروم بأرمينية ، وحصر خلاط وملاذكرد وارجيش فضعفت نفوس الناس عنه ، ثم هادنه أبو على الحسن بن مروان الكردى مدة عشر سنين ، فعاد ملك الروم إلى بلاده . وفى هذه السنة سار بغراخان ايلك ملك الترك بعساكره إلى بخارى ، فسير إليه الأمير نوح بن منصور السامانى جيشاً كثيراً ، ولقيهم أيلك فهزمهم ، فعادوا إلى بخارى وهو فى أثرهم ، فخرج الأمير نوح بنفسه وسائر عساكره ولقيه فاقتتلوا قتالا شديداً أجلت المعركة عن هزيمة ايلك ، فعاد منهزما إلى بلاده وفى سنة ثلاث وثمانين جمع ملك الترك جيوشاً كثيرة ، وسار إلى بخارى فملكها بسبب اختلاف وقع بين المسلمين مع بعضهم . وفى سنة سبع وثمانين توفى سبكتكين صاحب غزنة ووقع اختلاف بين ولديه اسماعيل ومحمود وتم الملك لمحمود فاستولى على خراسان وغيرها وصار ملك ضخم وجاءه التقليد من الخليفة القادر بالله ولقب يمين الدولة .

ذكر غزوة يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين

صاحب غزنة

فى سنة اثنتين وتسعين تجهز بجيوش كثيرة لغزو الهند وقصد برشور فأتاه عدو الله جيبال ملك الهند فى عساكر كثيرة فاختار يمين الدولة من عساكره خمسة عشر ألفاً ، وسار نحوه فالتقوا واقتتلوا وصبر الفريقان فلما انتصف النهار انهزم الهنود وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر ملك الهند ومعه جماعة كثيرة من أهله وعشيرته وغنم المسلمون منهم أموالا جليلة ، وجواهر نفيسة ومن جملة ذلك قلادة كانت فى عنق ملكهم من الجواهر العديم النظير قومت بمائتى ألف دينار وأصيب أمثالها فى أعناق مقدمى الأسرى ، وغنموا خمسمائة

ألف رأس من العبيد وفتح من بلاد الهند بلاداً كثيرة فلما فرغ من غزوته أحب أن يطلق ملك الهند الذى أسره ليراه الهنود فى شعار الذل فأطلقه بما قرره عليهم فأدى المال. ومن عادات الهنود أنهم من حصل منهم فى أيدى المسلمين أسيراً لم ينعقد له بعدها رئاسة. فلما رأى ملك الهند حاله بعد خلاصه حلق رأسه ثم ألقى نفسه فى النار فاحترق بنار الدنيا قبل نار الآخرة .

ذكر غزوة أخرى فى الهند أيضاً

لما فرغ يمين الدولة السلطان محمود سبكتكين من أمر جبال رأى أن يغزو غزوة أخرى فسار نحو ويهند فأقام عليها محاصراً لها حتى فتحها وقهرها ، وبلغه أن جماعة من الهنود قد اجتمعوا بشعاب تلك الجبال عازمين على الفساد والعباد فسير إليهم جيشاً من عسكره فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فيهم ولم ينج منهم إلا الشريد الفريد وعاد إلى غزنة سالماً ظافراً .

ذكر غزوة بهاطية من بلاد الهند

فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة غزا يمين الدولة بهاطية ، من بلاد الهند وهى مدينة حصينة عالية السور يحيط بها خندق عميق فامتنع صاحبها ثم إنه خرج إلى ظاهرها فقاتل المسلمين ثلاثة أيام ثم انهزم فى الرابع وطلب المدينة ليدخلها هو وأصحابه فسبقه المسلمون إلى باب البلد فملكوه عليهم وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم فقتل المقاتلة وسبيت الذرية وأخذت الأموال وأما الملك فإنه لما عاين الهلاك أخذ جماعة من ثقاته وسار إلى رؤوس تلك الجبال فسير إليه يمين الدولة سرية فلم يشعر الملك وقد أحاطوا به وحكموا السيوف فى أصحابه فلما أيقن بالعطب أخذ خنجراً ، فقتل نفسه وأقام يمين الدولة بهاطية وأصلح أمرها ورتب قواعدها وعاد منها إلى غزنة واستخلف بها من يعلم من أسلم من أهلها ما يجب عليهم تعليمه ولقى فى عوده شدة شديدة من الأمطار وكثرتها وزيادة الأنهار فغرق مما معه ومن عسكره شىء عظيم .

ذكر غزوة المولتان

فى سنة ست وتسعين وثلاثمائة غزا السلطان يمين الدولة المولتان وكان سبب ذلك أن وليها كان قد أسلم ثم نقل عنه خبث الاعتقاد ونسب إلى الألحاد ودعى أهل ولايته إلى ماهو عليه فأجابوه ، فرأى يمين الدولة أن يجاهده ويستنزله عما هو عليه فسار نحوه فرأى الأنهار التى فى طريقه كثيرة الزيادة عظيمة المد ، وخاصة سيحون فإنه منع جانبه من العبور فأرسل إلى أندبال يطلب إليه أن يأذن له فى العبور من بلاده إلى المولتان فلم يجبه إلى ذلك فابتدأ به قبل المولتان فدخل بلاده وجاسها وأكثر القتل فيها والنهب لأموال أهلها والإحراق لأبنيتها ففر اندبال من بين يديه وهو فى أثره كالشهاب فى أثر الشيطان من مضيق إلى مضيق إلى أن وصل قشمير ولما سمع ملك المولتان بخبر إقباله علم عجزه عن الوقوف بين يديه والعصيان عليه فنقل أمواله إلى سرنديب وأخلى المولتان فوصل يمين الدولة إليها ونازلها فإذا أهلها فى ضلالهم يعمهون فحصرهم وضيق عليهم وتابع القتال حتى افتتحها عنوة وألزم أهلها عشرين ألف درهم عقوبة لعصيانهم .

ذكر غزوة كواكير

ثم سار عن المولتان إلى كواكير وكان بها ستمائة صنم فافتتحها وأحرق الأصنام فهرب صاحبها إلى قلعة له فسار خلفه إليها وهى حصن كبير يسع خمسمائة ألف إنسان وفيه خمسمائة فيل وعشرون ألف دابة وفى الحصن ما يكفى الجميع . مدة فلما قام بها يمين الدولة وبقى بينهما سبعة فراسخ رأى من الغياض المانعة من سلوك الطريق ما لأحد طاقة عليه ، فأمر بقطعها ورأى فى الطريق واديا عظيم العمق بعيد القعر فأمر أن يعلم منه مقدار ما يسع عشرين فارساً فطموه بالجلود المملوءة ترابا ووصل إلى القلعة فحصرها ثلاثة وأربعين يوما وأرسله صاحبها فى الصلح فلم يجبه ، ثم بلغه اختلاف فى خراسان ، فأراد الرجوع فصالح ملك الهند على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف فضة ولبس خلعة يمين الدولة بعد أن استعفى من شد المنطقة وقطع أصبعه الخنصر وأنفذها إلى يمين الدولة توثقة فيما يعتقدونه وعاد

يمين الدولة إلى خراسان لإصلاح ما اختلف فيها وكان عازماً على الدخول فى بلاد الهند.

ذكر غزوة إلى الهند

فى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة سار يمين الدولة نحو الهند وسبب ذلك أن بعض أولاد ملوك الهند كان قد أسلم على يده واستخلفه على بعض ماافتتحه من بلادهم ، فلما كان الآن بلغه أنه ارتد عن الإسلام ومال لأهل الكفر والطغيان فسار إليه مجداً فحين قاربه فر الهندى من بين يديه واستعاد يمين الدولة تلك الولاية وأعادها إلى حكم الإسلام واستخلف عليها بعض أصحابه وعاد إلى غزنة .

ذكر غزوة بهيم نغر

فى سنة ثمان وتسعين غزا يمين الدولة وانتهى إلى شاطىء نهر هند منذ فلاقاه هناك ابرهمن بال بن اندبال فى جيوش الهند فاقتتلوا مليا من النهار وكادت الهند تظفر بالمسلمين ثم أن الله تعالى نصرهم عليهم فظفر بهم المسلمون فانهزموا على أعقابهم وأخذهم المسلمون بالسيف وتبع يمين الدولة أثر ابرهمن بال حتى بلغ بهيم نغر وهى على جبل عال ، وكان الهند قد جعلوها خزانة لصنمهم الأعظم فينقلون إليها أنواع الذخائر قرنا بعد قرن واعلاق الجواهر وهم يعتقدون ذلك دينا وعبادة فاجتمع فيها على طول الأزمان مالم يسمع بمثله فنازلهم يمين الدولة وحاصرهم وقاتلهم ، فلما رأى الهنود كثرة جمعه وحرصهم على القتال وزحفهم إليه مرة بعد أخرى خافوا وجبنوا وطلبوا الأمان وفتحوا باب الحصن وملك المسلمون القلعة وصعد يمين الدولة إليها فى خواص أصحابه وثقاته فأخذ منها من الجواهر مالا يحد ومن الدراهم تسعين ألف ألف درهم شاهية ومن الأوانى الذهبيات والفضيات بسبعمائة ألف وأربعمائة منّ وكان فيها بيت مملوء من الفضة طوله ثلاثون ذراعا وعرضه خمسة عشر ذراعا إلى غير ذلك من الأمتعة وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم ففرش تلك الجواهر فى صحن داره وكان قد اجتمع عنده رسل الملوك فأدخلهم إليه فرأوا مالم يسمعوا بمثله .

ذكر غزوة بالهند

فى سنة أربعمائة تجهز يمين الدولة إلى الهند عازما على غزو نارين فسار إليها واخترقها واستباحها ونكس أصنامها فلما رأى ملك الهند أنه لا قوة له به راسله فى الصلح والهدنة على مال يؤديه وخمسين فيلا وأن يكون فى خدمته ألفى فارس لا يزادون فقبض منه ما بذله وعاد عنه إلى غزنة .

ذكر غزوة يمين الدولة بلاد الغور وغيرها

فى سنة إحدى وأربعمائة غزا يمين الدولة بلاد الغور وهى بلاد تجاور غزنة وكان الغور كفاراً يقطعون الطريق ويخيفون السبيل وبلادهم جبال وعرة ومضايق غلقة ، وكانوا يحتمون بها ويعتصمون بصعوبة مسلكها ، فلما كثر ذلك منهم أنف يمين الدولة أن يكون مثل أولئك المفسدين جيرانه وهم على هـذه الحال من الفساد والكفر فجمع العساكر وسار إليهم حتى انتهى مقدمة جيشه إلى مضيق قد شحن بالمقاتلة فتناوشوا الحرب وصبر الفريقان فسمع يمين الدولة الحال فجد فى السير إليهم وملك عليهم مسالكهم فتفرقوا وساروا إلى عظيم الغور فبرز من مدينته فى عشرة آلاف مقاتل فقاتلهم المسلمون إلى أن انتصف النهار فرأوهم أشجع الناس وأقواهم على القتال فأمر يمين الدولة عساكره أن يولوا الأدبار على سبيل الخديعة والاستدراج ففعلوا ، فلما رأى الغور ذلك ظنوه هزيمة فاتبعوه حتى أبعدوا عن مدينتهم فعطف المسلمون عليهم ووضعوا السيف فيهم فأبادوهم قتلا وأسراً وكان فى الأسرى كبيرهم وزعيمهم ودخل المسلمون المدينة وملكوها وغنموا ما فيها وفتحوا تلك القلاع والحصون التى لهم جميعاً فلما رأى كبيرهم مافعل المسلمون شرب سماً كان معه فمات وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين وأظهر يمين الدولة فى تلك الأعمال شعار المسلمين وجعل عندهم من يعلمهم شرائعه وعاد ثم سار إلى طائفة أخرى من الكفار فقطع مفازة من رمل ولحق عساكره عطش شديد كادوا يهلكون منه فلطف الله سبحانه

وتعالى بهم وأرسل عليهم مطراً سقاهم وسهل عليهم السير فى الرمل فوصل إلى الكفار وهم جمع عظيم ومعهم ستمائة فيل فقاتلهم أشد قتال صبر فيه بعضهم لبعض ثم إن الله نصر المسلمين وهزم الكفار وأخذ غنائمهم وأكثر القتل فيهم وعاد سالماً مظفراً منصوراً .

ذكر فتح يمين الدولة نادرين

فى سنة أربع وأربعمائة سار يمين الدولة إلى الهند فى جمع عظيم وحشد كثير وقصد واسطة البلاد من الهند فسار شهرين حتى قارب مقصده ورتب أصحابه وعساكره فسمع عظيم الهند به ، فجمع من عنده من قواده وأصحابه وبرز إلى جبل هناك صعب المرتقى ضيق المسالك فاحتمى به وطاول المسلمين وكتب إلى الهنود يستدعيهم من كل ناحية فاجتمع عليه منهم كل من يحمل سلاحاً ، فلما تكاملت عدته نزل من الجبل وتصاف هو والمسلمون واشتد القتال وعظم الأمر ثم إن الله تعالى منح المسلمين أكتافهم فهزموهم وأكثروا القتل فيهم وغنموا ما معهم من مال وفيل وسلاح وغير ذلك ، فلما فرغ من غزوته أرسل إلى الخليفة القادر بالله يخبره فكتب له منشوراً وعهداً بخراسان وما بيده من الممالك ولقبه نظام الدين .

ذكر غزوة تانيشر

فى سنة خمس وأربعمائة ذكر ليمين الدولة أن بناحية تانيشر فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة فى الحرب وإن صاحبها غال فى الكفر والطغيان والعناد للمسلمين فعزم على غزوه فى عقر داره وأن يذيقه شربة من كأس قتاله فسار فى الجنود والعساكر والمتطوعة فلقى فى طريقه أودية بعيدة القعر وعرة المسالك وقفاراً فسيحة الأقطار والأطراف بعيدة الأكناف والماء بها قليل فلقوا شدة وقاسوا مشقة إلى أن قطعوها ، فلما قاربوا مقصدهم لقوا نهراً شديد الجرية صعب المخاضة وقد وقف صاحب تلك البلاد على طرفه يمنع من عبوره ومعه عساكره وفيلته التى كان يدل بها أى يتعزز بها فأمر يمين الدولة شجعان عسكره بعبور النهر واشتغال الكفار بالقتال ليتمكن باقى العسكر من

بالعبور ففعلوا ذلك وقاتلوا الهنود وشغلوهم عن حفظ النهر حتى عبر سائر العسكر فى المخاضات وقاتلوهم من جميع جهاتهم إلى آخر النهار فانهزم الهند وظفر المسلمون وغنموا ما معهم من أموال وفيلة وعادوا إلى غزنة موفرين ظافرين .

ذكر غزوة إلى الهند

فى سنة ست وأربعمائة غزا يمين الدولة الهند على عادته فضل أدلاؤه الطريق ووقع هو وعسكره فى مياه فاضت من البحر فغرق كثير ممن معه وخاض الماء بنفسه أياما حتى تخلص وعاد إلى خراسان .

ذكر غزوة قشمير وقنوج وغيرهما

فى سنة سبع وأربعمائة سار يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين من غزنة إلى الهند عازماً على غزو قشمير إذ كان قد استولى على ما بينه وبين قشمير من بلاد الهند وأتاه المتطوعة نحو عشرين ألف مقاتل مما وراء النهر وغيره من البلاد وسار إليها ثلاثة أشهر سيراً دائما وعبر نهر سيحون وجيلوم وهما نهران عميقان شديدا الجرية فوطىء أرض الهند وأتاه رسل ملوكها بالطاعة وبذل الأتاوة فلما بلغ درب قشمير أتاه صاحبها وأسلم على يده وسار بين يديه إلى مقصده فبلغ ماجون فى العشرين من رجب وفتح ماحولها من الولايات الفسيحة والحصون المنيعة حتى بلغ حصن هودب وهو آخر ملوك الهند فنظر هودب من أعلى حصنه فرأى من العساكر ما هاله وأرعبه ، وعلم أنه لا ينجيه إلا الإسلام ، فخرج فى نحو عشرة آلاف ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص فقبله يمين الدولة وسار عنه إلى قلعة كلجند وهو من أعيان الهند وشياطينهم ، وكان على طريقه غياض ملتفة لا يقدر السالك على قطعها إلا بمشقة فسير كلجند عساكره وفيوله إلى أطراف تلك الغياض يمنعون من سلوكها ، فترك يمين الدولة عليهم من يقاتلهم وسلك طريقا مختصرة إلى الحصن فلم يشعروا إلا وهم معهم فقاتلهم قتالا شديداً فلم يطيقوا الصبر على حد السيوف فانهزموا وأخذهم من خلفهم ، ولقوا نهراً عميقا بين أيديهم فاقتحموه فغرق أكثرهم ، وكان القتلى والغرقى قريباً من خمسين ألفا وعمد كلجند إلى زوجته فقتلها . ثم قتل نفسه

بعدها ، وغنم المسلمون أمواله وملكوا حصونه ثم سار نحو بيت متعبد لهم وهو من مهرة الهند وهو من أحصن الأبنيه على نهر ولهم به من الأصنام كثير منها خمسة أصنام من الذهب الأحمر مرصعة بالجواهر وكان فيهما من الذهب ستمائة ألف وتسعون ألفاً وثلاثمائة مثقال وكان بها من الأصنام المسوغة من النقرة نحو مائتى صنم فأخذ يمين الدولة ذلك جميعه وأحرق الباقى وسار نحو قنوج وصاحبها راجيال ، فوصل إليها فى شعبان فرأى صاحبها قد فارقها وعبر الماء المسمى كنك وهو ماء شريف عندهم يرون أنه من الجنة وأن من غرق نفسه فيه طهر من الآثام فأخذها يمين الدولة وأخذ قلاعها وأعمالها وهى سبع على الماء المذكور وفيها قريب من عشرة آلاف بيت صنم يذكرون أنها عملت من مائة ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف كذبا منهم وزوراً ولما فتحها أباحها عسكره ، ثم سار إلى قلعة البراهمة فقاتلوه وثبتوا ، فلما عضهم السلاح علموا أنهم لاطاقة لهم فاستسلموا للسيف فقتلوا ولم ينج منهم إلا الشريد ، ثم سار نحو قلعة آسى وصاحبها جندبال فلما قاربها هرب جندبال وأخذ يمين الدولة حصنه وما فيه ثم سار إلى قلعة شروة وصاحبها جندرآى ، فلما قاربه نقل ماله وفيوله نحو جبال هناك منيعة يحتمى بها وعمى خبره فلم يدر أين هو ، فنازل يمين الدولة حصنه فافتتحه وغنم ما فيه وسار فى طلب جندرآى جريدة وقد بلغه خبره ، فلحق به فى آخر شعبان فقاتله ، فقتل أكثر جند جندرآى وأسر كثيراً منهم ، وغنم ما معه من مال وفيول وهرب جندرآى فى نفر من أصحابه فنجا وكان السبى فى هذه الغزوة كثيراً حتى أن أحدهم كان يباع بأقل من عشرة دراهم ، ثم عاد إلى غزنة ظافراً ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة فبنى بناء لم يسمع بمثله ووسع فيه وكان جامعها القديم صغيراً وأنفق ماغنمه فى هذه الغزوة فى بنائه وفى هذه السنة تفرقت ممالك الأندلس وصار عامل كل قطر منه متغلباً على ما بيده لضعف ملوك بنى أمية ، وكثرت الفتن بينهم وبين العلويين بنى إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى .

ذكر خروج الترك من الصين

فى سنة ثمان وأربعمائة خرج الترك من الصين فى عدد كثير يزيدون على ثلاثمائة ألف خركاه وكانوا أجناساً منهم الخطابية الذين ملكوا ماوراء النهر ، وكان خروجهم للاستيلاء على ممالك الإسلام وكان أقرب بلاد الإسلام إليهم بلاساغون وكان ملكها من صالحى ملوك الإسلام يحب العلم وأهله ويميل إلى أهل الدين ويصلهم ويقربهم واسمه طغان خان، وكان قد ملك أيضاً تركستان ومرض مرضاً شديداً وطال به المرض فطمعوا فى البلاد لذلك فساروا إليه وملكوا بعض ممالكه وغنموا وسبوا ، وبقى بينهم وبين بلاساغون ثمانية أيام فلما بلغه الخبر ، وكان مريضاً بها سأل الله أن يعافيه فينتقم من الكفرة ويحمى البلاد منهم ثم يفعل به بعد ذلك ما أراد فاستجاب الله له وشفاه فجمع العساكر وكتب إلى سائر بلاد الإسلام ويستنفر ، فاجتمع إليه الناس من المتطوعة مائة ألف وعشرون ألفاً ، فلما بلغ الترك خبر عافيته وجمعه العساكر وكثرة من معه عادوا إلى بلادهم ، فسار خلفهم نحو ثلاثة أشهر حتى أدركهم وهم آمنون لبعد المسافة فكبسهم وقتل منهم زيادة عن مائتى ألف رجل وأسر نحو مائة ألف وغنم من الدواب والخركاهات وغير ذلك من الأوانى الذهبية والفضية ومعمول الصين مالاعهد لأحد بمثله وعاد إلى بلاساغون ، فلما بلغها عاوده مرضه فمات منه ، وما أشبه قصته بقصة سعد بن معاذ الأنصارى فى غزوة الخندق فإنه دعا الله لما جرح فى أكحله أن يبقيه حتى يأخذ ثأره من بنى قريظة فاستجاب الله دعاءه ثم بعد الانتقام منهم وقتلهم انفجر جرحه ومات رضى الله عنه ولما مات طغان خان ملك بعده أخوه رسالان خان ولقب شرف الدولة .

ذكر غزوة يمين الدولة إلى الهند والأفغانية

فى سنة تسع وأربعمائة سار يمين الدولة إلى الهند غازيا واحتشد وجمع واستعد وأعد أكثر مما تقدم وقصد بيدا اللعين وكان أعظم ملوك الهند مملكة وأكثرهم جيشاً وتسمى مملكته كجوراهة وسار يمين الدولة عن غزنة وابتدأ فى طريقه بالأفغانية وهم كفار يسكنون

الجبال ويفسدون فى الأرض ويقطعون الطريق بين غزنة وبينه ، فقصد بلادهم وسلك مضايقها وفتح مغالقها وخرب عامرها وغنم أموالهم وأكثر القتل فيهم والأسر وغنم المسلمون من أموالهم الكثير ، ثم استقل على المسير وبلغ إلى مكان لم يبلغه فيما تقدم من غزواته ، وعبر نهر كنك ولم يعبره قبلها فلماجازه رأى قفلا قد بلغت عدة أحماله ألف عدد فغنمها وهى من العود والأمتعة الفائقة وجد به السير فأتاه فى الطريق خبر ملك من ملوك الهند يقال له بروجيبال قد سار من بين يديه ملتجئا إلى بيدا ليحتمى به عليه فطوى المراحل فلحق برجيبال ومن معه رابع عشر شعبان وبينه وبين الهنود نهر عميق ، فعبر إليهم بعض أصحابه وشغلهم بالقتال ثم عبر هو وباقى العسكر إليهم فاقتتلوا عامة نهارهم فانهزم بروجيبال ومن معه وكثر فيهم القتل والأسر وأسلموا أموالهم وأهليهم ، فغنمها المسلمون وأخذوا منهم الكثير من الجواهر وأخذوا مايزيد على مائتى فيل ،وسار المسلمون يقتصون آثارهم وانهزم ملكهم جريحا وتحير فى أمره ، وأرسل إلى يمين الدولة يطلب الأمان فلم يؤمنه ولم يقنع منه إلا بالإسلام وقتل من عساكره مالا يحصى وسار بروجيبال ليلحق ببيدا فانفرد به بعض الهنود فقتله ، فلما رأى ملوك الهند ذلك تابعوا رسلهم إلى يمين الدولة يبذلون له الطاعة والأتاوة وسار يمين الدولة بعد الوقعة إلى مدينة بارى وهى من أحصن القلاع والبلاد وأقواها فرآها من سكانها خالية وعلى عروشها خاوية فأمر بهدمها وتخريبها وعشر قلاع معها متناهية الحصون وقتل من أهلها خلقا كثيراً ، وسار يطلب بيدا الملك فلحقه وقد نزل إلى جانب نهر وأجرى الماء من بين يديه فصار وحلا وترك عن يمينه وشماله طريقا يبسا يقاتل منه إذا أراد القتال ، وكان عدة من معه ستة وخمسين ألف فارس ومائة ألف وأربعة وثمانين ألف راجل وسبعمائة وستة وأربعين فيلا فأرسل يمين الدولة طائفة من عسكره للقتال ، فأخرج إليهم بيدا مثلهم ولم يزل كل عسكر يمد أصحابه حتى كثر الجمعان واشتد الضرب وأظلمان فأدركهم الليل وحجز بينهم ، فلما كان الغد بكر يمين الدولة إليهم فرأى الديار منهم بلاقع وركب كل فرقة منهم طريقا مخالفا لطريق الأخرى ووجد خزائن الأموال والسلاح بحالها فغنموا الجميع واقتفى آثار المنهزمين فلحقوهم فى الغياض والآجام

وأكثروا فيهم القتل والأسر ونجا بيدا فريداً وحيداً وعاد يمين الدولة إلى غزنة منصوراً.

ذكر فتح قلعة من الهند

فى سنة أربع عشرة وأربعمائة غزا يمين الدولة الهند وأوغل فيها فغنم وقتل حتى وصل إلى قلعة على رأس جبل منيع ليس له مصعد إلا من موضع واحد وهى كبيرة تسع خلقا وبها خمسمائة فيل وفى رأس الجبل من الغلات والمياه وجميع مايحتاج الناس إليه فحصرهم يمين الدولة وأدام الحصار وضيق عليهم واستمر القتال فقتل منهم كثيراً ، فلما رأوا ماحل بهم أذعنوا له وطلبوا الأمان فأمنهم وأقر ملكهم فيها على خراج يأخذه منهم وأهدى له هدايا كثيرة منها طائر على هيئة القمرى من خاصيته أنه إذا أحضر الطعام وفيه سم دمعت عينا هذا الطائر وجرى منها ماء وتحجر فإذا حك وجعل على الجراحات الواسعة ألحمها.

ذكر فتح سومنات

فى سنة ست عشرة وأربعمائة فتح يمين الدولة فى بلاد الهند عدة حصون ومدن وأخذ الصنم المعروف بسومنات وهذا الصنم كان أعظم أصنام الهند وهم يحجون إليه كل ليلة خسوف فيجتمع عنده ماينيف على مائة ألف إنسان ، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت الأجساد اجتمعت إليه على مذهب التناسخ فينشئها فيمن شاء ، وكانوا يحملون إليه كل علق نفيس ويعطون سدنته كل مال جزيل وله من الأوقاف مايزيد على عشرة آلاف قرية ، وقد اجتمع فى البيت الذى هو فيه من نفيس الجوهر مالا تحصى قيمته ولأهل الهند نهر كبير يسمى كنك يعظمونه غاية التعظيم ويلقون فيه عظام من يموت من كبرائهم ويعتقدون أنها تساق إلى جنة النعيم وبين هذا النهر وبين سومنات نحو مائتى فرسخ وكان يحمل من مائه كل يوم إلى سومنات مايغسل به ويكون عنده من البرهميين كل يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه وثلاثمائة رجل يحلقون رؤوس زواره وثلاثمائة

وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون على باب الصنم ولكل واحد من هؤلاء شيء معلوم كل يوم وكان يمين الدولة كلما فتح من الهند فتحاً وكسر صنماً يقول الهنود أن هذه الأصنام قد سخط عليها سومنات ولو أنه راض عنها لأهلك من قصدها بسوء ، فلما بلغ ذلك يمين الدولة عزم على غزواه وإهلاكه ظناً منه أن الهنود إذا فقدوه ورأوا كذب ادعائهم دخلوا فى الإسلام فاستخار الله تعالى وسار عن غزنة عاشر شعبان فى هذه السنة فى ثلاثين ألف فارس من عساكره سوى المتطوعة وسلك سبيل الملتان فوصلها منتصف شهر رمضان وفى طريقه إلى الهند برية قفر لاساكن فيها ولاماء ولاميرة فتجهز هو وعسكره على قدرها ، ثم زاد بعد الحاجة عشرين ألف جمل تحمل الماء والميرة وقصد انهلوارة فلما قطع المفازة رأى فى طرفها حصوناً مشحونة بالرجال وعندها آبار قد غوروها ليتعذر عليه حصرها فيسر الله له ففتحها عند قربه منها بالرعب الذى قذفه الله فى قلوبهم وتسلمها وقتل سكانها وأهلك أوثانها وامتازوا منها بالماء ومايحتاجون إليه وسار إلى انهلوارة فوصلها مستهل ذى القعدة فرأى صاحبها المدعو بهيم قد أجفل عنها وتركها وأمعن فى الهرب وقصد حصناً له يحتمى به فاستولى يمين الدولة على المدينة وسار إلى سومنات فلقى فى طريقه عدة حصون فيها كثير من الأوثان شبه الحجاب النقباء لسومنات على ماسول لهم الشيطان فقاتل من بها وفتحها وخربها وكسر أصنامها ، وسار إلى سومنات فى مفازة قفرة قليلة الماء فلقى عشرين ألف مقاتل من سكانها لم يدينوا الملك ، فأرسل إليهم السرايا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا مالهم وامتاروا من عندهم وساروا حتى بلغوا دبولواره وهى على مرحلتين من سومنات وقد ثبت أهلها ظناً منهم أن سومنات يمنعهم ويدفع عنهم فاستولى عليها وقتل من رجالها وغنم أموالها وسار عنها إلى سومنات فوصل يوم الخميس منتصف ذى القعدة فرأى حصناً حصيناً مبنياً على ساحل البحر بحيث تبلغه أمواجه وأهله على الأسوار يتفرجون على المسلمين واثقين أن معبودهم يقطع دابرهم ويهلكهم فلما كان الغد وهو يوم الجمعة زحف وقاتل من به فرأى الهنود من المسلمين قتالاً لم يعهدوا مثله ففارقوا السور فنصب المسلمون عليه السلاليم وصعدوا إليه وأعلنوا

بكلمة الاخلاص وأظهروا شعار الإسلام فحينئذ اشتد القتال وعظم الخطب وتقدم جماعة الهنود إلى سومنات فعفروا له خدودهم ، وسألوه النصر وأدركهم الليل فكف بعضهم عن بعض فلما كان الغد بكر المسلمون إليهم وقاتلوهم فأكثروا فى الهنود القتل وأجلوهم عن المدينة إلى بيت صنمهم سومنات فقاتلوا على بابه أشد قتال ، وكان الفريق منهم بعد الفريق يدخل إلى سومنات فيعتنقونه ويبكون ويتضرعون إليه ويخرجون ،فيقاتلون إلى أن يقتلوا ، حتى كاد الفناء يستوعبهم فبقى منهم القليل فدخلوا البحر إلى مركبين لهم لينجوا فيهما فأدركهم المسلمون ، فقتلوا بعضاً وغرقوا بعضاً ، وأما البيت الذى فيه سومنات فهو مبنى على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص وسومنات من حجر طوله خمسة أذرع ثلاثة مدورة ظاهرة ، وذراعان فى البناء وليس بصورة مصورة فأخذه يمين الدولة فكسره ، وأحرق بعضه وأخذ بعضه إلى غزنه فجعله عتبة الجامع وكان بيت الصنم مظلماً وإنما الضوء الذى عنده من قناديل الجوهر الفائق وكان عنده سلسلة ذهب فيها جرس وزنها مائتا منّ ، كلما مضى طائفة من الليل حركت السلسلة فيصوت الجرس فيقوم طائفة من البرهميين إلى عبادتهم وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية ، وعليها الستور المعلقة المرصعة بالجوهر كل واحد منها منسوب إلى عظيم من عظمائهم وقيمة مافى البيوت يزيد على عشرين ألف ألف دينار فأخذ الجميع . وكانت عدة القتلى تزيد على خمسين ألف قتيل ، ثم إن يمين الدولة ورد عليه الخبر أن بهيم صاحب انهلوارة قد قصد قلعة تسمى كندهة فى البحر بينها وبين البر من جهة سومنات أربعون فرسخاً ، فسار إليها يمين الدولة من سومنات فلما حاذى القلعة رأى رجلين من الصيادين ، فسألهما عن خوض البحر هناك ، فعرفاه أنه يمكن خوضه لكن أن تحرك الهواء يسيراً غرق من فيه ، فاستخار الله تعالى وخاضه هو ومن معه فخرجوا سالمين فرأوا بهيم وقد فارق قلعته وأخلاها فعاد عنها وقصد المنصورة وكان صاحبها قد أسلم ثم ارتد عن الإسلام ، فلما بلغه خبر مجىء يمين الدولة فارقها واحتمى بغياض أشبه فقصده يمين الدولة من موضعين ، أحاط به وبمن معه فقتلوا أكثرهم وغرق منهم كثير ولم ينج

منهم إلا القليل ثم سار إلى بهاطية فأطاعه أهلها ودنوا له فرحل إلى غزنة ، فوصلها عاشر صفر من سنة سبع عشرة وأربعمائة .

ذكر غرق الأسطول بجزيرة صقلية

فى سنة ست عشرة وأربعمائة خرج الروم إلى جزيرة صقلية فى جمع كثير وملكوا ما كان للمسلمين فى جزيرة قلورية وهى مجاورة لجزيرة صقلية ، وشرعوا فى بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم مع ابن أخت الملك فبلغ ذلك المعز بن باديس عامل أفريقية للعبيديين ، فجهز أسطولا كبيراً أربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقاً كثيراً وتطوع جمع كثير بالجهاد رغبة فى الأجر ، فسار الأسطول فى كانون الثانى فلما قرب من جزيرة قوصرة ، وهى قريب من بر أفريقية خرج عليهم ريح شديد ونوء عظيم فغرق أكثرهم ولم ينج منهم إلا اليسير .

ذكر غزوة للمسلمين إلى الهند

فى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة غزا أحمد بن ينالتكين النائب عن يمين الدولة ببلاد الهند مدينة للهنود وهى من أعظم مدنهم يقال لها نرسنى ، ومع أحمد نحو مائة ألف فارس وراجل وشن الغارة على البلاد ونهب وسبى وخرب الأعمال وأكثر القتل والأسر فلما وصل إلى المدينة دخل من أحد جوانبها ونهب المسلمون فى ذلك الجانب يوماً من بكرة النهار إلى آخر النهار ، ولم يفرغوا من نهب سوق العطارين والجواهرجيين حسب ، وباقى أهل البلد لم يعلموا بذلك لأن طوله منزل من منازل الهنود وعرضه مثله فلما جاء المساء لم يجسر أحد على المبيت فيه لكثرة أهله فخرج منه ليأمن على نفسه وعسكره ، وبلغ من كثرة ما نهب أنهم اقتسموا الذهب والفضة كيلا ولم يصل إلى هذه المدينة عسكر المسلمين قبله ، فلما فارقه أراد العود إليه مرة أخرى فلم يقدر على ذلك ومنعه أهله وفى هذه السنة توفى يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين وعمره إحدى وستون سنة ، ومدة ملكه أربع

وثلاثون سنة ، وكان صالحاً عاذلا محباً للعلماء مكرماً لهم ومحباً للجهاد ووقع بعده اختلاف بين ابنيه محمد ومسعود وتم الملك للمسعود .

ذكر خروج ملك الروم إلى الشام وانهزامه

فى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة خرج ملك الروم إلى القسطنطينية فى ثلاثمائة ألف مقاتل إلى الشام ، فلم يزل بعساكره حتى بلغ قريب حلب ، فلحقهم عطش شديد ، وكان أصحابه مختلفين عليه ، وعبر على عسكره جمع من العرب ليسوا بالكثير فظن أنها كبسة فخاف ورحل وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون وأخذوا من الملك أربعمائة بغل محملة مالا وثياباً وهلك كثير من الروم عطشاً ونجا الملك وحده ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شىء ألبتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا . حتى أن الملك لبس خفاً أسود وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر ، فتركه ولبس الأسود ليعمى خبره على من يريده وانهزموا وغنم المسلمون جميع ما كان معهم .

ذكر غزوة فضلون الكردى الخزر وما كان منه

كان فضلون الكردى هذا بيده قطعة من اذربيجان ، استولى عليها وملكها فاتفق أنه غزا الخزر فى هذه السنة فقتل منهم وسبى شيئاً كثيراً فلما أراد العود إلى بلاده أبطأ فى سيره وظن أنه دوخهم وشغلهم بما عمله بهم فاتبعوه مجدين وكبسهم وقتلوا من أصحابه والمتطوعة الذين معه أكثر من عشرة آلاف قتيل واستردوه والغنائم التى أخذت منهم ، وغنموا أموال العساكر الإسلامية وعادوا .

ذكر غزو ملك الروم مدينة الرها

فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ملك الروم مدينة الرها وكان بالرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر الكبير بيد ابن عطير والصغير بيد ابن شبل فراسل ابن عطير ارمانوس ملك الروم وباعه ما بيده بعشرين ألف دينار وعدة قرى فتسلموا البرج الذى له

ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب بن شبل وقتل الروم للمسلمين وخربوا المساجد فسمع نصر الدولة بن مروان ملك بلاد الكرد الخبر فسير جيشاً إلى الرها فحصروها وفتحوها عنوة ، واعتصم من بها من الروم بالبرجين واحتمى النصارى غيرهم بالبيعة التى لهم وهى من أكبر البيع وأحسنها عمارة فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد ، وبقى الروم بالبرجين وسير إليهم ابن مروان عسكراً نحو عشرة آلاف مقاتل فانهزم أصحاب بن مروان من بين أيديهم ودخل الروم البلد وملكوها وما جاورها من بلاد المسلمين ، فصالحهم ابن وثاب النميرى على حران وسروج وحمل إليهم خراجاوفى هذه السنة توفى الخليفة القادر بالله وكانت خلافته إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهروبويع بعده ابنه القائم بأمر الله .

ذكر ملك الروم قلعة أفامية

فى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ملك الروم قلعة أفامية بالشام بسبب اختلاف العمال من المسلمين فدخل حسان بن المفرج الطائى بلد الروم هاربا من الدزبرى عامل فى الشام لخليفة مصر ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ومعه عسكر كثير فسار إلى أفامية فكبسها وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم .

ذكر فتح قلعة سرستى وغيرها من بلاد الهند

فى سنة خمس وعشرين وأربعمائة قصد السلطان مسعود بن محمود سبكتكين قلعة سرستى وهى من أمنع حصون الهند وأحصنها فحصرها وقد كان أبوه حصرها غير مرة فلم يتهيأ له فتحها فلما حصرها مسعود راسله صاحبها وبذل له مالا على الصلح فأجابه إلى ذلك وكان فيها قوم من التجار المسلمين فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها لمسعود من جملة ما تقرر عليه فكتب التجار رقعة فى نشابة ورموا بها إليه يعرفونه فيها ضعف الهنود دونها لو أنه إن صابرهم ملكهم ، فرجع عن الصلح وطم خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره وفتح الله عليه وقتل كل من فيها وسبى ذراريهم وأخذ ما جاورها من البلاد ثم

رحل عنها إلى قلعة نفسى وحصرها فرآها عالية لاترام يرتد البصر دونها وهو حسير إلا أنه أقام عليها يحصرها ، فخرجت عجوز ساحرة فتكلمت باللسان الهندى طويلا وأخذت مكنسة فبلتها بالماء ورشته منها إلى جهة عسكر المسلمين فرض وأصبح لا يقدر أن يرفع رأسه وضعفت قوته ضعفاً شديداً فرحل عن القلعة لشدة المرض فحين فارقها زال ما كان بها وأقبلت الصحة والعافية إليه وسار إلى غزنة .

ذكر غزوة ملك الروم قلعة بركوى

هذه قلعة متاخمة للأرمن كانت فى يد أبى الهيجاء بن ربيب الدولة ابن أخت وهودان ابن مملان فتنافر هو وخاله فأرسله خاله إلى الروم فأطمعهم فيها فسير ملك الروم إليها جمعا كثيراً فملكوها سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، فبلغ الخبر إلى الخليفة فأرسل إلى أبى الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة فاصطلحا ولم يتمكنا من استعادتها واجتمع إليها خلق كثير من المتطوعة فلم يقدروا على ذلك لثبات قدم الروم بها ، وفى سنة سبع وعشرين اجتمع ابن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا جموعا وأمدهما نصر الدولة بن مروان بعسكر كثيف فساروا جميعاً إلى السويد وربض الرها وكان الروم قد أحدثوا عمارتها فى ذلك الوقت ، واجتمع إليها أهل القرى المجاورة لها فحصرها المسلمون وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وغنموا ما فيها وسبوا خلقا كثيراً وقصدوا الرها فحصروها وقطعوا الميرة عنها واشتد الأمر فخرج البطريق الذى فيها متخفياً ولحق بملك الروم وعرفه الحال فسير معه خمسة آلاف فارس فعاد بهم فعرف ابن وثاب مقدم عساكر نصر الدولة الحال فكمنا لهم ، فلما قاربوهم خرج الكمين عليهم فقتل من الروم خلق كثير وأسر البطريق وحمل إلى باب الرها وقالوا لمن فيها إما أن تفتحوا الباب وإلا قتلنا البطريق والأسرى الذين معه ففتحوا الباب للعجز عن حفظه وتحصن أجناد الروم بالقلعة ودخل المسلمون المدينة وغنموا ما فيها ، وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبى وأكثر القتل وأرسل ابن وثاب إلى آمد مائة وستين راحلة عليها رءوس القتلى وأقام محاصراً للقلعة ثم إن ابن حسان بن الجراح الطائى سار فى خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدة لمن

بالرها فسمع ابن وثاب بقربه فسار إليه مجداً ليلقاه قبل وصوله فخرج من الرها بجمع من الروم إلى حران فقاتلهم أهلها وسمع ابن وثاب الخبر فعاد مسرعا فوقع على الروم فقتل منهم كثيراً وعاد المنهزمون إلى الرها ثم صالح ابن وثاب الروم الذين بالرها لعجزه عنهم وسلم إليهم ربض الرها وكثر الروم بها وعمروها وحصنوها ، وفى سنة تسع وعشرين هادن المستنصر بالله العبيدى صاحب مصر ملك الروم وشرط عليه إطلاق خمسة آلاف أسير وشرط الروم عليه أن يعمروا بيعة قمامة ، فأرسل الملك إليها من عمرها ، وأخرج على عمارتها مالا جزيلا ثم انتقضت الهدنة سنة ٣٢ وجهز الروم جيشاً فالتقوا مع جيش المسلمين بين مدينة حماة وافامية ، واشتد القتال ، ثم إن الله نصر المسلمين وأذل الكافرين فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة وأسر بن عم للملك وبذلوا فى فدائه مالا جزيلا وعدة وافرة من أسراء المسلمين وانكف الروم عن الأذى بعدها . وفى سنة اثنتين وثلاثين أيضا قتل مسعود بن محمود سبكتكين وتملك ابنه مودود والقاتل لمسعود أولاد أخيه محمد والقصة طويلة ليس هذا محل ذكرها ، وفى سنة خمس وثلاثين أخرج ملك الروم من القسطنطينية المسلمين والغرباء ونادى أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة فمن أقام بعدها كحل فخرج منها أكثر من مائة ألف إنسان ولم يبق بها أكثر من اثنى عشر نفسا فضمنهم الروم فتركهم .

ذكر تملك مودد بن مسعود بن محمد سبكتكين

عدة من حصون بلاد الهند

وفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة اجتمع ثلاثة من ملوك الهند وقصدوا لهاوور وحصروها فجمع مقدم العساكر الإسلامية بتلك الديار من عنده منهم وأرسل إلى صاحبه مودود يستنجده فأرسل إليه العساكر ، فاتفق أن بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد إلى طاعة مودود فرحل الملكان الآخران إلى بلدهما فسارت العساكر الإسلامية إلى أحدهما فانهزم منهم وصعد إلى قلعة له منيعة هو وعساكره فاحتموا بها وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل وحصرهم المسلمون وضيقوا عليهم وأكثروا القتل فيهم فطلب

الهنود الأمان على تسليم الحصن ، فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلا بعد أن يضيفوا إلى ذلك باقى حصون ذلك الملك الذى لهم فحملهم الخوف وعدم الأقوات على إجابتهم إلى ما طلبوا وتسلم المسلمون الجميع وغنموا الأموال وأطلقوا ما فى الحصون من أسرى المسلمين ، وكانوا نحو خمسة آلاف نفر ، فلما فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثانى فتقدم إليهم ولقيهم فاقتتلوا قتالا شديداً وانهزمت الهنود وأجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل وجريح وأسر ضعفاؤهم وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابهم ، فلما رأى باقى الملوك من الهند مالقى هؤلاء أذعنوا بالطاعة وطلبوا الأمان وحملوا الأموال وطلبوا الإقرار على بلادهم فأجيبوا إلى ذلك .

ذكر أخبار الروم والروسية

وفى سنة خمس وثلاثين ورد إلى القسطنطينية عدد كثير من الروسية فى البحر يريدون حرب الروم ، فاجتمعت الروم على حربهم وكان بعضهم قد فارق المراكب إلى البر فألقى الروم فى مراكبهم النار فلم يهتدوا إلى إطفائها فهلك كثير منهم بالحرق والغرق ، وأما الذين فى البر فقاتلوا ثم انهزموا فلم يكن لهم ملجأ فمن استسلم أولا استرق ومن امتنع حتى أخذ قهراً قطع الروم أيمانهم وطيف بهم فى البلد ولم تسلم منهم إلا قايل مع ابن ملك الروسية وفى سنة تسع وثلاثين سير المعز بن باديس صاحب أفريقية أسطولا إلى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد .

ذكر غزو السلجوقية بلاد الروم

ولنذكر أولا ابتداء ظهور الدولة السلجوقية أصلهم من الترك الذين مما وراء النهر أسلم جدهم سلجوق ووافقه على الإسلام جماعة منهم ، فخرج بهم من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وصار يقاتل الكفار من الترك ووقع بينه وبين ملوك خراسان المسلمين وقائع وقتال يطول الكلام بذكره وولد له أولاد قاموا بالجهاد بعده وكثرت جموعهم وقويت شوكتهم وصاروا يتغلبون على ممالك خراسان والعراق شيئا فشيئا إلى أن دخلوا

بغداد وأذهبوا دولة بنى بويه وتغلبوا على الخلفاء كما كان بنو بويه وكان دخولهم بغداد فى خلافة القائم بأمر الله بن القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وكان الداخل منهم بغداد السلطان طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق ، وتوفى السلطان طغرلبك سنة خمس وخمسين وأربعمائة وصار الملك بعده لابن أخيه إلب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق ، واستمر الملك فى بنيه إلى سنة تسع وثمانين وخمسمائة وكان ابتداء تملكهم طوس ، وقيل الرى سنة أربعمائة وتسع وعشرين فتكون مدة ملكهم مائة وستين سنة وطغرلبك ضبطه ابن خلكان بقوله بضم الطاء وسكون الغين المعجمة وضم الراء وسكون اللام وفتح الباب الموحدة بعدها كاف وهو اسم تركى مركب من طغرل وهو اسم علم وبك معناه أمير وسلجوق بفتح السين المهملة وسكون اللام وضم الجيم وسكون الواو وبعدها قاف ، وكانت هذه الغزوة التى سنذكرها قبل تملكهم بغداد وهذه الغزوة التى سنذكرها هى أنه فى سنة أربعين وأربعمائة غزا السلجوقية بلاد الروم وقائد الجيش الأمير إبراهيم إينال أخو السلطان طغرلبك السلجوقى فظفروا وغنموا ووصلوا إلى ملاذ كرد وأزرن الروم وقاليقلا وبلغوا طرابزون وتلك النواحى كلها ولقيهم عسكر للروم يبلغون خمسون ألفا فاقتتلوا واشتد القتال بينهم ، وكانت بينهم عدة وقائع تارة يظفر هؤلاء وتارة هؤلاء وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين فأكثروا القتل فى الروم وهزموهم وأسروا جماعة كثيرة من بطارقتهم وممن أسر قاريط ، وكان من ملوكهم فبذل فى فداء نفسه ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف فلم يجب إلى ذلك ، ولم يزل السلجوقية يجوسون تلك البلاد إلى أن صار بينهم وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما واستولى المسلمون على تلك النواحى فنهبوها وغنموا ما فيها وسبوا أكثر من مائة ألف رأس وأخذوا من الدواب والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه الاحصاء وحملت الغنائم على عشرة آلاف عجلة ومن جملة الغنائم عشرة آلاف درع ، ثم فى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة أرسل ملك الروم إلى السلطان طغرلبك هدية عظيمة وطلب منه الصلح والمعاهدة فأجابه إليها وعمر ملك الروم مسجداً بالقسطنطينية وكان بها كثير من المسلمين فأقاموا بالمسجد المذكور الصلاة

والخطبة لطغرلبك بأمر ملك الروم ثم بعد ذلك دانت الناس لطغرلبك وتمكن فى ملكه وتملك كثيراً من البلاد قبل دخوله بغداد .

ذكر غزوة أخرى للسلجوقية

فى سنة ست وأربعين وأربعمائة سار طغرلبك سلطان السلجوقية إلى أرمينية وقصد ملازكرد وهى للروم فحصرها وضيق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد ، وأخربها وهى مدينة حصينة وأثر السلطان المذكور فى هذه الغزوة آثاراً عظيمة ، ونال منهم من النهب والقتل والأسر شيئا كثيراً ، وبلغ فى غزوته هذه إلى أرزن الروم وعاد إلى أذربيجان لما هجم الشتاء ومن السلجوقية قتلمش ابن عم طغرلبك كانت له ولبنيه دولة فى قونية وأقصرا وبلاد الروم لأن السلجوقية لما انتشروا فى البلاد طالبين للمالك دخل قتلمش هذا إلى بلاد الروم وملك قونية وأقصرا ونواحيها وافتتح بلاداً واسعة ، وبقى الملك فى بنيه إلى ظهور الدولة العثمانية فمن تلك الممالك التى افتتحوها وكانت تحت أيديهم قونية وأقصرا وسيواس وتوقات وأنقورية وملطية وبلاد البستان وقيسارية وتيكسار وأماسية وأعمال هذه المدن .

ذكر فتح ألب أرسلان مدينة آنى

وغيرها من البلاد النصرانية

فى سنة ست وخمسين وأربعمائة غزا السلطان ألب أرسلان بلاد النصارى فسار من الرى إلى أذربيجان ثم سلك مضايق إلى أن وصل إلى نقجوان فأمر بعمل السفن لعبور نهر ارس ، فقيل له إن سكان خوى وسلماس من أذربيجان لم يقوموا بواجب الساعة وأنهم قد امتنعوا ببلادهم فسير إليهم عميد خراسان ودعاهم إلى الطاعة وتهددهم إن امتنعوا فأطاعوهم، وصاروا من جملة حزبه وجنده واجتمع عليه هناك من الملوك والعساكر مالا يحصى فلما فرغ من جميع العساكر والسفن سار إلى بلاد الكرج وجعل عسكراً مع ولده ملكشاه ونظام الملك وزيره ، فسار ملكشاه ونظام الملك إلى قلعة فيها جمع كثير من الروم فنزل

أهلها منها وتخطفوا من العسكر ، وقتلوا منهم فئة كثيرة فنزل نظام الملك وملكشاه وقاتلوا من بالقلعة ، وزحفوا إليهم فقتل أمير القلعة وملكها المسلمون ، وساروا منها إلى قلعة سرمارى وهى قلعة فيها المياه الجارية والبساتين فقاتلوها وملكوها وأنزلوا منها أهلها وكان بالقرب منها قلعة أخرى ففتحها ملكشاه وأراد تخريبها ، فنهاه الوزير نظام الملك عن ذلك وقال هى ثغر للمسلمين وشحنها بالرجال والأموال والسلاح والذخائر وسلم هذه القلاع إلى أمير نقجوان، وسار ملكشاه ونظام الملك إلى مدينة مريم نشين وفيها كثير من الرهبان والقسيسين وملوك النصارى وعامتهم يتقربون إلى أهل هذه البلدة وهى مدينة حصينة سورها من الأحجار الكبار الصلبة المشددة بالرصاص والحديد وعندها نهر كبير فأعد نظام الملك لقتالها مايحتاج إليه من السفن وغيرها وقاتلها وواصل قتالها ليلا ونهاراً وجعل العساكر عليها يقاتلون بالنوبة ، فضجر الكفار وأخذهم الإعياء والكلال فوصل المسلمون إلى سورها ونصبوا عليه السلالم وصعدوا إلى أعلاه لأن المعاول كانت عن نقبه لقوة حصره ، فلما رأى أهلها المسلمين على السور فت ذلك فى أعضادهم أى أضعفهم وسقط فى أيديهم ودخل ملكشاه ونظام الملك البلد وأحرقوا البيع وخربوها وقتلوا كثيرا من أهلها وأسلم كثير منهم فنجوا من القتل واستدعى ألب أرسلان ابنه ملكشاه ، ونظام الملك فلحقوه فى بلاد الكرج وفرح بما يسره الله من الفتح على يد ولده وفتح ملكشاه فى طريقه عدة من القلاع والحصون وأسر من النصارى ما لا يحصى ، ثم ساروا جميعا مع السلطان ألب أرسلان إلى تسبيذ شهر فجرى بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها من المسلمين كثير ، ثم إن الله تعالى يسر فتحها فملكها ألب أرسلان وسار منها إلى مدينة أعال لال وهى حصينة عالية الأسوار شاهقة البنيان وهى من جهة الشرق والغرب على جبل عال وعلى الجبل عدة من الحصون ومن الجانبين الآخرين نهر كبير فلما رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها وكان ملكها من الكرج وهكذا ما تقدم من البلاد التى ذكرنا فتحها وعقد السلطان جسراً على النهر عريضا ، واشتد القتال وعظم الخطب فخرج من المدينة رجلان يستغيثان ويطلبان الأمان والتمسا

من السلطان أن يرسل معهما طائفة من العسكر فسير جمعاً صالحاً فلما جاوز الفصيل أحاط بهم الكرج من أهل المدينة وقاتلوهم فأكثروا القتل فيهم ولم يتمكن المسلمون من الهزيمة لضيق المسلك وخرج الكرج من البلد وقصدوا العسكر واشتد القتال ، وكان السلطان ذلك الوقت يصلى فأتاه الصريخ فلم يبرح حتى فرغ من صلاته ، وركب وتقدم إلى الكفار وقاتلهم وكبر المسلمون عليهم فولوا منهزمين فدخلوا البلد والمسلمون معهم ودخلها السلطان وملكها ، واعتصم جماعة من أهلها فى برج من أبراج المدينة فقاتلهم المسلمون فأمر السلطان بإلقاء الحطب حول البرج وإحراقه ففعل ذلك وأحرق البرج ومن فيه وعاد السلطان إلى خيامه وغنم المسلمون من المدينة مالا يحد ولا يحصى ولما جن الليل عصفت ريح شديدة وكان قد بقى من تلك النار التى أحرق بها البرج بقية كثيرة فأطارتها الريح فاحترقت المدينة بأسرها ، وملك السلطان قلعة حصينة كانت إلى جانب تلك المدينة ثم سار منها إلى ناحية قرس ومدينة آنى وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما دسل ورده ونوره فخرج أهلها مذعنين بالإسلام وخربوا البيع وبنوا المساجد وسار منهما إلى مدينة آنى فوصل إليها فرآها مدينة حصينة شديدة الامتناع لاترام ثلاثة أرباعها على نهر رأس والربع الآخر نهر عميق شديد الجرية لو طرحت فيه الحجارة الكبار لأخذها وحملها والطريق إليها على خندق عليه سور من الحجارة الصم وهى بلدة كبيرة عامرة كثيرة الأهل فيها مايزيد على خمسمائة بيعة فحصرها وضيق عليها إلا أن المسلمين قد أيسوا من فتحها لما رأوا من حصانتها فعمل السلطان برجا من خشب وشحنه بالمقاتلة ونصب عليه المنجنيق ورماة النشاب فكشفوا الكرج عن السور وتقدم المسلمون إليه لينقبوه فأتاهم من لطف الله مالم يكن فى حسابهم ، فانهدمت قطعة كبيرة من السور بغير سبب فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها مالا يحصى عددهم بحيث أن كثيراً من المسلمين عجزوا عن دخول البلد بسبب كثرة القتل وأسروا نحواً مما قتلوا ، وسارت البشرى بهذه الفتوحات فى البلاد فسر المسلمون وقرىء كتاب الفتح ببغداد فى دار الخليفة بالثناء فبرز خط الخليفة على ألب أرسلان والدعاء له ورتب فيها أميراً فى عسكر جرار وعاد عنها وقد راسله ملك الكرج

فى المدنة فصالحه على أداء الجزية كل سنة فقبل ذلك . وفى سنة اثنتين وستين وأربعمائة أقبل ملك الروم من القسطنطينية فى عسكر كثيف إلى الشام ونزل على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم جموعاً للعرب ثم ارتحل وعاد إلى بلاده ولم يمكنه المقام لشدة الجوع .

ذكر خروج ملك الروم إلى خلاط وأسره

فى سنة ثلاث وستين وأربعمائة خرج أرمانوس ملك الروم فى مائتى ألف من الروم والفرنج والروس والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد فجاءوا فى تجمل كثير وزى عظيم وقصدوا بلاد الإسلام فوصلوا إلى ملازكرد من أعمال خلاط فبلغ السلطان ألب أرسلان الخبر وهو بمدينة خوى من أذربيجان وسمع مافيه ملك الروم من كثرة الجموع فلم يتمكن من جمع العساكر لبعدها وقرب العدو فسير الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى همدان وسار هو فيمن معه من العساكر وهم خمسة عشر ألف فارس وجد فى السير وقال لهم إنى أقاتل محتسباً صابراً فإن سلمت فنعمة من الله وإن كانت الشهادة فإن ابنى ملكشاه ولى عهدى .وساروا ، فلما قاربوا العدو جعل له مقدمة ، فصادفت مقدمته عند خلاط مقدم الروسية فى نحو عشرة آلاف ، فاقتتلوا فانهزمت الروسية وأسر مقدمهم ، وحمل إلى السلطان فجذع أنفه وأنفذ بالسلب إلى نظام الملك وأمره أن يرسله إلى بغداد فلما تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المهادنة ، فقال ملك الروم لاهدنة إلى بالرى ، فانزعج السلطان لذلك فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى إنك تقاتل عن دين الله وقد وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان وأرجو أن يكون الله تعالى كتب باسمك هذا الفتح فألقهم يوم الجمعة بعد الزوال فى الساعة التى تكون الخطباء على المنابر فإنهم يدعون للمجاهدين بالنصر والدعاء مقرون بالإجابة ، فلما كانت تلك الساعة صلى بهم وبكى السلطان فبكى الناس لبكائه ودعا ودعوا معه وقال لهم : من أراد الانصراف فلينصرف فما هاهنا سلطان يأمر وينهى وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنط وقال إن قتلت فهذا كفنى وزحف إلى الروم وزحفوا إليه ، فلما قاربهم ترجل وعفر وجهه على التراب

وبكى أو كثر الدعاء ، ثم ركب وحمل وحملت العساكر معه فحصل المسلمون فى وسطهم وحجز الغبار بينهم المسلمون فيهم كيف شاءوا وأنزل الله نصره عليهم فانهزم الروم وقتل منهم مالا يحصى حتى امتلأت الأرض من جثث القتلى وأسر ملك الروم أسره بعض الغلمان ، فأراد قتله ولم يعرفه فقال له خادم مع ملك الروم لاتقتله فإنه الملك وكان هذا الغلام الذى أسره قد عرضه سيده على نظام الملك فرده استحقاراً له فأثنى عليه سيده فقال نظام الملك عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً ، فكان كذلك فلما أسر الغلام ملك الروم أحضره عند سيده فقصد السلطان ، وأخبره بأسر الملك فأمر بإحضاره ، فلما أحضره ضربه السلطان ألب أرسلان ثلاثة مقارع بيده ، وقال ألم أرسل لك فى الهدنة فأبيت فقال دعنى من التوبيخ وافعل ماتريد فقال السلطان ما عزمت أن تفعل بى إن أسرتنى ، فقال أفعل القبيح قال له فما تظن أنى أفعل بك قال إما أن تقتلنى وإما أن تشهرنى فى بلاد الإسلام والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى نائباً عنك ، قال ماعزمت على غير هذا ففداه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وأن يرسل إليه عساكر الروم فى أى وقت طلبها وأن يطلق كل أسير فى بلاد الروم واستقر الأمر على ذلك وأنزله فى خيمة ، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهز بها وأطلق له جماعة من البطارقة ، وخلع عليه من الغد فقال ملك الروم أين جهة الخليفة فدل عليها فقام وكشف رأسه وأوما إلى الأرض بالخدمة وهادنه السلطان خمسين سنة وسيره إلى بلاده وسير معه عسكراً أوصلوه إلى مامنه وشيعه السلطان فرسخاً . وأما الروم فإنهم لما بلغهم خبر الوقعة وأسر الملك وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد ، فلما وصل أرمانوس الملك إلى قلعة دوقية بلغه الخبر فلبس الصوف وأظهر الزهد وأرسل إلى ميخائيل يعرفه ماتقرر مع السلطان وقال إن شئت أن تفعل ما استقر وإن شئت أمسكت ، فأجابه ميخائل بإيثار ما استقر وطلب وساطته وسؤال السلطان فى ذلك وجمع أرمانيوس عنده من المال وكان مائتى ألف دينار فأرسله إلى السلطان وطبقاً ذهبا عليه جواهر بتسعين ألف دينار وحلف له أن لا يقدر

على غير ذلك ثم إن أرمانيوس استولى على أعمال الأرمن وبلادهم ومدح الشعراء السلطان ألب أرسلان وذكروا هذا الفتح فأكثروا لأنه يشبه فتوحات الصحابة رضى الله عنهم .

ذكر مقتل السلطان ألب أرسلان

فى سنة خمس وستين وأربعمائة قصد السلطان ألب أرسلان ماوراء النهر لقتال ملك من ملوك الإسلام خرج عن طاعته إسمه الملك شمس الملك فعقد على جيحون جسراً وعبر عليه فى نيف وعشرين يوماً وعسكره يزيد على مائتى ألف فارس فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يعرف بيوسف الخوارزمى جرى منه جناية وارتكاب وحمل إلى قرب سريره مع غلامين فأراد عقابه على ارتكابه فأمر أن تضرب له أربعة أوتاد وتشد أطرافه إليها ، فقال له يوسف يامخنث مثلى يقتل هذه القتلة ، فغضب السلطان ألب أرسلان ، وأخذ القوس والنشاب وقال للغلامين خلياه ورماه السلطان بسهم ، فأخطأه ولم يكن يخطىء سهمه ، فوثب يوسف يريده والسلطان على سريره فقام عنه وعثر فوقع فبرك عليه يوسف وضربه فى خاصرته بسكين كانت معه ، وقتل الأتراك يوسف وقطعوه ونهض السلطان فدخل إلى خيمة أخرى ومات السلطان من جراحته تلك بعد أيام ، وكان أهل سمرقند لما بلغهم عبور السلطان النهر اجتمعوا وختموا ختمات وسألوا الله أن يكفيهم أمره فاستجاب الله لهم ولما جرح السلطان قال : مامن وجه قصدته وعدو أردته إلا استعنت بالله تعالى عليه ، ولما كان أمس صعدت على تل فارتجت الأرض تحتى من عظم الجيش وكثرة العسكر فقلت فى نفسى أنا ملك الدنيا وما يقدر أحد علىّ فعجزنى الله تعالى بأضعف خلقه وأنا أستغفر الله وأستقيله من ذلك الخاطر وتملك بعده ابنه ملكشاه ، وفى سنة سبع وستين وأربعمائة توفى القائم بأمرالله وبويع حفيده المقتدى بأمر الله ، وفى سنة ثمان وستين أخذت مدينة منبج من الروم ورجعت إلى الإسلام والذى انتزعها منهم نصر بن محمود بن مرداس.

ذكر فتوح فى بلاد الهند

فى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة غزا الملك إبراهيم بن مسعود بن محمود سبكتكين صاحب غزنة بلاد الهند فحصر قلعة أجور وهى على مائة وعشرين فرسخاً من لهاور وهى قلعة حصينة فى غاية الحصانة كبيرة تحتوى على عشرة آلاف رجل من المقاتلة فقاتلوه وصبروا تحت الحصر ، وزحف إليهم غير مرة فرأوا من شدة حربه ماملأ قلوبهم خوفاً ورعباً فسلموا القلعة إليه وفتح أيضاً قلعة روبال وكانت على رأس جبل وليس لها طريق إلا من مكان ضيق مملوء بالفيلة والمقاتلة وبها من رجال الحرب ألوف كثيرة فتابع عليهم الوقائع ، وألح عليهم بالقتال بجميع أنواع الحرب إلى أن ملك القلعة واستنزلهم منها وكان فى موضع يقال له دره نوره أقوام من الكفار لم يتعرض إليهم أحد من الملوك فسار إليهم إبراهيم ودعاهم إلى الإسلام أولا فامتنعوا من إجابته وقاتلوه فظفر بهم وأكثر القتل فيهم وتفرق من سلم منهم فى البلاد وسبى واسترق من النسوان والصبيان مائة ألف ، ثم قصد موضعاً آخر يقال له وره فى طريقه عقبات كثيرة وأشجار ملتفة وأهله كفار فقاتلهم ثلاثة أشهر إلى أن نصره الله عليهم فقتل كثيراً منهم وسبى وغنم وعاد سالماً ، وكان إبراهيم ابن مسعود بن محمود عاقلا ذا رأى متين فمن آرائه أن السلطان ملكشاه السلجوقى جمع عساكره يريد قتال إبراهيم المذكور فى غزنة وينتزع الملك منه ونزل باسفرار ، فكتب إبراهيم بن مسعود كتاباً إلى جماعة من أعيان أمراء ملكشاه يشكرهم ويعتذر لهم بمافعلوا من تحسين قصد ملكشاه بلاده ليتم لنا ما استقر بيننا من الظفر به وتخليصهم من يده ويعدهم الإحسان على ذلك ، وأمر القاصد بالكتب أن يتعرض ملكشاه فى الصيد ففعل ذلك فأخذ وأحضر عند السلطان فسأله عن حاله فأنكره ، فأمر السلطان بجلده فجلد فدفع الكتب إليه بعد جهد ومشقة ، فلما وقف ملكشاه عليها تحيل على أمرائه وترك المسير إلى إبراهيم وعاد إلى بلده ولم يقل لأحد أمرائه فى هذا الأمر شيئاً خوفاً أن يستوحشوا منه ثم وقعت المكاتبة بينه وبين إبراهيم والمصافاة حتى زوج إبراهيم ابنه مسعوداً بابنة ملكشاه .

ذكر فتح أنطاكية وانتزاعها من الروم

فى سنة سبع وسبعين وأربعمائة سار سليمان بن قتلمش السلجوقى صاحب قونية إلى الشام فملك مدينة أنطاكية ، وكانت للروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة حصرها بعساكرها ونصب السلالم فصعدوا عليها وأخذ البلد فقاتله أهل البلد فهزمهم مرة بعد أخرى وقتل كثيراً من أهلها ثم أذعنوا له فعفا عنهم وتسلم القلعة ، وأحسن إلى الرعية ورجع سالماً .

ذكر استيلاء الفرنج على جزيرة صقلية

فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة خرج الفرنج بجموع كثيرة وتملكوا جزيرة صقلية بعد حروب كثيرة وكان ملوك المسلمين بصقلية لما ضعف أمر الخلفاء قد تفرقوا ممالك صقلية وصارت كل جهة منها بيد ملك متغلب عليها مستبد لايسأل عن غيره فصار الفرنج ينتزعون تلك الممالك منهم مملكة بعد مملكة إلى أن بقى بأرض المسلمين قصريانة وجرجنت فحصرها الفرنج فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة بجيوش كثيرة، فكان من ذلك ذل للمسلمين وتضييق شديد عليهم حتى أكلوا الأموات ، فلما اشتد الأمر عليهم أذعنوا إلى التسليم فتسلمها الفرنج لعنهم الله تعالى فى السنة المذكورة فصارت الجزيرة كلها بأيديهم وفى سنة خمس وثمانين توفى السلطان ملكشاه السلجوقى ووقع بين أولاده اختلاف وحروب كثيرة لطلب الملك ، وفى سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفى المقتدى بأمر الله وبويع ابنه المستظهر بالله ثم إن الفرنج لما ملكوا صقلية بالتمام كان الملك عليهم رجار الفرنجى من ملوك إيطاليا ثم طمعوا فى تملك كثير من أفريقية فخرجوا فى أسطول كبير وجم غفير من مشهورى فرسان الفرنج فحاصروا مدينة جربة ونزلوا بساحتها وأداروا المراكب بجهاتها فاجتمع أهلها وقاتلوا قتالا شديداً وقتل منهم بشر كثير ، ثم انهزموا وملك الفرنج الجزيرة وغنموا أموالها وسبوا حريمها ونساءها وهلك أكثر رجالها ومن بقى منهم أخذوا لأنفسهم أماناً من صاحب صقلية وأفتكوا أسرهم وسبيهم وحريمهم ،

ثم بعد مدة سارت مراكب الفرنج من صقلية إلى طرابلس الغرب فحصروها وعلقوا الكلاليب فى سور البلد ونقبوه ثم وصل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد فقوى أهل البلد بهم فخرجوا إلى الأسطول فحملوا عليه حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة ، وقتل منهم خلق كثير ، ولحق الباقون بالأسطول وتركوا الأسلحة والأثقال والدواب والآلات فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج إلى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا إلى المغرب فوصلوا إلى جيجل ، فلما رآهم أهل البلد هربوا إلى البرارى والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذى بناه الأمير يحيى بن عبد العزيز ابن حماد للنزهة . ثم عادوا وجهزوا جيشاً كبيراً وسيروه إلى طرابلس الغرب فأحاطوا بها براً وبحراً ، فخرج إليهم أهلها وأنشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع وقع اختلاف بين أهل طرابلس مع بعضهم آل الأمر فيه إلى قتال بعضهم بعضاً فانتهز الفرصة الفرنج ، ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتد القتال فملكت الفرنج البلد عنوة وقهراً بالسيف فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ إلى البربر والعرب ، ثم نودى بالأمان فى كافة الناس فرجع كل من فر منها وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خنادقها ولما رجعوا أخذوا رهائن من أهلها وولوا عليها رجلا من أهلها وأخذوا رهائنه وحده وأعادوا رهائن غيره واستقامت أمور المدينة وألزم ملكهم أهل صقلية والروم بالسفر إليها وعمرت سريعاً ، ثم إن أهل قابس عصى أميرهم على الحسن بن على بن يحيى بن تميم أمير أفريقية وكاتب صاحب صقلية و بذل له الطاعة وقال أريد منك خلعة وعهداً بولاية قابس لأكون نائباً عنك ، فسير إليه صاحب صقلية الخلعة والعهد فلبسها وقرىء العهد بمجمع من الناس فسمع بذلك الحسن أمير أفريقية فجهز عسكراً كثيراً فساروا إلى قابس ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بالأمير الذى ملكها لصاحب صقلية وقبضوا عليه بعد قتال بينهم وبينه وسيروه إلى أمير أفريقية فقتله بعد تعذيبه بأنواع العذاب ، من ذلك أنهم قطعوا ذكره وجعلوه فى فيه ، وتولى على قابس معمر بن رشيد وهرب جماعة من أقارب الأمير الأول

إلى صقلية وشكوا إلى صاحب صقلية واستجاروا به فغضب لذلك فجهز أسطولا كثيراً ، بلغ نحو مائتين وخمسين شينيناً مملوءة رجالا وسلاحا وقوتا وقصدوا المهدية وكان بها أمير أفريقية الحسن بن على وكان قد حصل بأفريقية فى تلك السنين قحط وغلاء شديد حتى أن أكثر الناس فارقوا البلاد والقرى وصاروا إلى صقلية ، فلما علم الحسن بن على بمسير الفرنج إليه جمع الفقهاء والأعيان وشاورهم فى القتال فقالوا نقاتل عدونا فإن بلدنا حصين فقال أخاف أن يحصرونا براً وبحراً بيننا وبين الميرة ، وليس عندنا ما نقتات به شهراً ، فنؤخذ قهراً وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسرى والقتل خيراً من الملك فالرأى أن نخرج بالأهل والولد ونسلم البلد ، فمن أراد أن يفعل ذلك فليبادر ثم أمر فى الحال بالرحيل ، وأخذ معه من حضره وما خف حمله وخرج ناس كثير معهم بأهله وأموالهم وأولادهم ، ومن الناس من اختفى عند النصارى وفى الكنائس ثم دخل الفرنج البلد بلا ممانع ولا مدافع ، ووجدوا قصر الأمير بحاله لم يأخذ الحسن منه إلا ما خف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأوا الخزائن مملوءة من الذخائر وكل شىء نفيس غريب يقل وجود مثله فختم الفرنج عليه وجمعوا سرارى الحسن من قصره ونهبت المدينة مقدار ساعتين ثم نادوا بالأمان فخرج من كان مستخفياً وبعد جمعة رجع أهل البلد ، وأما الحسن أمير أفريقية فإنه سار إلى ملك مراكش عبد المؤمن بن على فأكرمه وأحسن نزوله وبقى عنده مكرماً إلى أن فتح المهدية عبد المؤمن بن على كما سيأتى ذكر ذلك ، ولما استقر الفرنج بالمهدية سيروا أسطولا إلى سفاقس وأسطولا إلى مدينة سوسة وأسطولا إلى قابس ، فأما أهل سوسة فإنهم لما سمعوا خبر المهدية وكان أميرهم على بن الحسن أمير أفريقية خرج على المذكور والتحق بأبيه الحسن وخرج الناس لخروجه ودخل الفرنج البلد بلا قتال وأما سفاقس فإن أهلها أتاهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج إليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى أبعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم إلى البلد وقوم إلى البرية وقتل منهم كثير ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر من بقى من الرجال وسبى الحريم ثم نودى بالأمان فعاد أهلها إليها وافتكوا حريمهم ، وفعلوا مثل ذلك بقابس وملكوها ، ثم سار الفرنج

إلى قلعة قبلية وهى قلعة حصينة ، فلما وصلوا إليها سمع بذلك العرب ، فاجتمع منهم خلق كثير وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم وقتلوا من الفرنج خلقا كثيرا فرجعوا خاسرين إلى المهدية ثم رجع الفرنج إليهم مرة أخرى وملكوها ، والحاصل أن الفرنج لما ملكوا صقلية تتابعت أغاراتهم على أفريقية فملكوا الجزائر ومالطة وجربة وتطاون وغير ذلك وصار الفرنج من طرابلس الغرب إلى قرب تونس ومن الغرب إلى القيروان ، وكانت هذه الوقائع متتابعة فى سنين وكان انتهاؤها سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وذكرناها متتابعة ليتصل بعضها ببعض ، وفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة اختلف ملك الفرنج صاحب صقلية ، وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك صاحب صقلية جميع بلاد أفريقية ، وكان القتال بينه وبين صاحب القسطنطينية براً وبحراً والظفر فى جميع ذلك لصاحب صقلية حتى دخل فم المينا وأخذ عدة شوانى لصاحب القسطنطينية وأسر كثيراً من الروم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب ، وكان الذى يفعل هذا بالروم وبالمسلمين جرجى وزير صاحب صقلية ثم هلك جرجى ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه فعقد صلحا مع صاحب القسطنطينية وسكنت الفتنة ، وفى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة هلك رجار ملك صقلية وكان عمره قريبا من ثمانين سنة وملك بعده ولده غليالم وكان فاسد التدبير وسلك طريقة ملوك الإسلام من الجنائب والحجاب وغير ذلك وأسكن فى جزيرة صقلية الفرنج مع المسلمين وإكرام المسلمين ومنع من التعدى عليهم وقربهم فخرج عن حكمه عدة حصون من حصون صقلية وتعدى الأمر إلى أفريقية فإنه لما كانت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة قوى طمع الناس فيه فخرج عن طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة ، وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه أهل أفريقية منهم أهل سفاقس وقد كان أبوه رجار لما فتحها استعمل عليها أبا الحسين العريانى وكان من العلماء الصالحين ، فأظهر العجز والضعف وقال له استعمل ولدى فاستعمل ولده عمر بن أبى الحسين ، وأخذ أباه رهينة إلى صقلية ، فلما أراد المسير إليها قال لولده عمر إنى كبير السن وقد قارب أجلى ، فمتى أمكنتك الفرصة فى الخلاف على العدو

فافعل ولا تراقبهم ولا تنظرنى أنى أقتل وأحسب أنى قدمت ، فلما وجد الفرصة دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال : يطلع جماعة منكم إلى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم فقالوا له : إن سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال : هو أمرنى بهذا وإذا قتل بالشيخ ألوف من الأعداء فما مات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم ، ثم تبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وفعل مثل فعله ، وبعدها محمد ابن رشيد بقابس ، وسار عسكر لعبد المؤمن إلى بونة فملكوها ، وخرج جميع أفريقية عن حكم الفرنج ما عدا المهدية وسوسة وأرسل عمر بن أبى الحسين إلى زويلة ، وهى مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد إلى زويلة ، فأعانوا أهلها على من بها من الفرنج ، وقطعوا الميرة عن المهدية ، فلما اتصل الخبر بغليالم ملك صقلية أحضر أبا الحسين والدعمر صاحب سفاقس وعرفه ما فعل ابنه وأمره أن يكتب إليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعودة إلى طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال له من قدم على هذا لا يرجع بكتاب ، فأرسل ملك صقلية إليه رسولا يتهدده ويأمره بترك ما ارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك ، فلما كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا ، وأرسل عمر إلى الرسول يقول له : هذا أبى قد دفنته وقد جلست للعزاء فاصنعوا ما أردتم ، فعاد الرسول إلى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبى الحسين فأخذ أباه وصلبه فلم يزل يذكر الله حتى مات وأما أهل زويلة فإنهم كثر جمعهم بالعرب وبأهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليها وكانت الأقوات بالمهدية قليلة ، فسير إليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح ، فدخلوا البلد وأرسلوا إلى العرب ، وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم وأهل زويلة فانهزمت العرب وبقى أهل زويلة وأما أهل سفاقس فإنهم ركبوا فى البحر فنجوا وبقى أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا إلى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج إلا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم إلى عبد المؤمن ، فلما قتلوا من قتلوا هرب من سلم من الحرم

والصبيان والشيوخ فى البر ولم يعرجوا على شىء من أموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ، ونهبوا الأموال واستقر الفرنج بالمهدية إلى أن أخذها عبد المؤمن وسيأتى إن شاء الله ذكر ذلك هذا حاصل ما كان من الفرنج فى أفريقية . وأما ما كان منهم فى هذه السنين فى الديار الشامية فسيأتى ذكره عند ذكر الحرب المسمى بحرب الصليب لكن ينبغى قبل ذلك أن نذكر بقية ما كان بالأندلس من الفتوحات والغزوات وما يتبع ذلك ثم بعد إتمام ذلك نذكر حرب الصليب .

إتمام الكلام على غزوات الأندلس وما يتبع ذلك

قد تقدم ذكر بعض غزوات الأندلس باختصار ولو بسط الكلام فيها لطال وبقى كثير من غزواتها وأخبارها لم يذكر ، فينبغى إتمام الكلام على ذلك تتميما للفائدة ، وأكثر التواريخ لم يذكروا فيها كثيراً من أخبار الأندلس فصار المشهور المستفيض عند أكثر الناس أخبار غير الأندلس مع أن المسلمين كان لهم بالأندلس ملك ضخم ، وكانت لهم وقائع ومجامع وأخبار عجيبة فينبغى ذكر كثير من ذلك ، وإن كان بعض تلك الأخبار زيادة على الغزوات والفتوحات التى لأجلها كان جمع هذا الكتاب لأن ذكر ذلك يحصل به زيادة فائدة ولا يخل بمقصود الكتاب وقد تقدم أن الأندلس فتح فى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة اثنتين وتسعين على يد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بضم النون مصغراً والصاد المهملة وهو مولى عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز وعبد العزيز هو أخو عبد الملك بن مروان و الأندلس مشتمل على فحول العلماء المبرزين فى كثير من الفنون ومشتمل على كثير من العجائب والمعادن وغير ذلك ، قال فى نفح الطيب نقلا عن لسان الدين بن الخطيب خص الله بلاد الأندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الأقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية والسلاح وكثرة وصحة الهواء وابيضاض ألوان الأسنان ونبل الأذهان وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الإدراك وأحكام التمدن بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها أعادها الله للاسلام ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وقال أيضاً إن الأندلس بلد كريم البقعة طيب التربة

خصب الجنان منبجس الأنهار الغزار و العيون العذاب قليل الهوام وذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر الاعتدال وتوسط الحال تتصل فواكهه أكثر الأزمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة ، وفى نفح الطيب أن من الأندلس مدينة شنترة من خواصها أن القمح والشعير يزرعان فيها ويحصدان عند مضى أربعين يوما من زراعته ، وأن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر ، قال ابن اليسع قال لى أبو عبد الله اليا كورى وكان ثقة أبصرت عند المعتمد بن عباد رجلا من أهل شنترة أهدى إليه أربعا من التفاح ما يقل الحامل على رأسه غيرها دور كل واحدة خمسة أشبار وفى الأندلس من أنواع المعادن مالا يحصى وفيها المدن الحصينة والمعاقل المنيعة و القلاع الحريزة والمصانع الجليلة وطول الأندلس ثلاثون يوماً وعرضه سبعة أيام ويشقها أربعون نهراً كباراً وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسط ، وفيها من القرى والحصون مالا يحصى كثرة حتى قيل إن عدد القرى التى على نهر اشبيلية اثنى عشر ألف قرية ، وقيل إن طول الأندلس أربعون يوما وعرضه ثمانية عشر يوما ، وأما طيب ثمار الأندلس فلا يعادله شىء فى الدنيا . قال بعض العلماء إن النصارى حرموا جنة الآخرة فأعطاهم الله جنة الدنيا يعنى بذلك الأندلس وقال بعضهم إن المرية مدينة من مدائن الأندلس كان بها لنسج طرز الحرير ثلاثمائة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نول وللاسقلاطون كذلك وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية كذلك. وكان بها من الحمامات نحو الألف واتسع ملك المسلمين فيها وكانت دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان وعدد دور الرعايا الواجب على أهلها المبيت داخل السور مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار غير دور الوزراء وأكابر الناس وعدة دور أهل الدولة ستة آلاف دار وثلاثمائة دار ومساجدها ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثون مسجداً وحماماتها سبعمائة وكانت قرطبة قبة الإسلام وبها استقر سرير الخلافة المروانية وهى معدن العلماء وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد ومسجدها ليس له نظير فى الدنيا طوله ثلاثمائة وثلاثون ذراعاً وعرضه مائتان وخمسون ذراعا وسواريه ألف وأربعمائة

وهو مزخرف بالرخام والمرمر وماء الذهب واللازورد وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منها منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا في الأحكام إليه وكانوا لا يكون فيهم مقلص إلا من حفظ الموطأ وقيل إلا من حفظ عشرة آلاف حديث وحفظ المدونة وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويخبرونه بأحوال بلدهم ويجعلون في مساجدهم نوابا يصلون بالناس الجمعة نيابة عنهم ، وتقدم أن ملوك بني أمية الذين كانوا بالأندلس أول من تملك منهم عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ويقال له عبد الرحمن الداخل كان ابتداء ملكه بالأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة هرب من الشام مستخفيا حين كان ابتداء دولة بني العباس، وكانوا يقتلون بني أمية ، فلما كان بالأندلس تغلب على عمال بني العباس الذين كانوا بالأندلس وانتزع الملك منهم فكان له ملك ضخم وكان في عصر المنصور ثاني خلفاء بني العباس وكان المنصور يسميه صقر قريش ، قال المنصور يوماً لأصحابه : أخبروني عن صقر قريش من هو قال أمير المؤمنين يعنون المنصور الذي راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء وأباد الأعداء قال ماصنعتم شيئاً قالوا فمعاوية قال ولا هذا قالوا فعبد الملك بن مروان قال ولا هذا قال فمن يا أمير المؤمنين قال عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي عبر البحر وقطع القفر ودخل بلداً أعجمياً مفرداً فمصر الأمصار وجند الأجناد ودون الدواوين ، وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته أن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللاله صعبه وعبد الملك كان ببيعة له عقدها وأمير المؤمنين يعني نفسه بطلب غيره واجتماع شيعته وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه اهـ.

وقد كانت مدة ملك عبد الرحمن الداخل اثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة وعمره تسع وخمسون أو ثمان وخمسون سنة ومن عقبه الخليفة عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ولي الملك سنة ثلاثمائه وتوفي سنة ثلاثمائة وخمسين واتسع الملك بالأندلس في مدته ومن اتساعه أنه بني تجاه قرطبة مدينة سماها الزهراء لسكناه هي

من عجائب الدنيا دالة على عظم قدر بانيها وأنفق فيها من الأموال خمسة وسبعين مائة ألف دينار وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألفا فتى وسبعمائة وخمسين فتى لهم من اللحم كل يوم ثلاثة عشر ألف رطل غير أنواع الطير والحوت وعدد النساء بقصر الزهراء الصغار والكبار والخدم ستة آلاف وثلاثمائة وأربعة عشر وعدد الصبيان الصقالبة ثلاثة آلاف وسبعمائة وسبع وثمانون وقيل ستة آلاف وثمانمائة وثمانون والمرتب من الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر ألف خبزة وينقع لها من الحمص كل يوم ستة أقفزة وأما أوصاف مدينة الزهراء فإنها طويلة ، ثم لما كثرت الفتن في الأندلس هدمت تلك المدينة . ومن أغرب مايحكى عن الناصر أنه أراد الفصد يوما فقعد في البهو الكبير المشرف بأعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك فأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو كذلك إذا أطل زرزور فصعد على إناء من ذهب في المجلس وأنشد ذلك الزرزور :

أيها الفاصد رفقاً بأمير المؤمنينا　　　انما تفصد عرقاً فيه محيي العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف الناصر ذلك وسر غاية السرور وسئل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور فذكروا له أن أم ولده الحكم صنعت ذلك وأعدته لذلك الأمر فوهب لها مانيف على ثلاثين ألف دينار ، وتقدم أن الناصر مكث في الملك خمسين سنة وكان إذا حصل له يوم كان مسروراً فيه بدون نكد وتكدير يكتبه ووجد ذلك مكتوبا بخطه فإذا هي أربعة عشر يوما في تلك الخمسين سنة وكان جده هشام بن عبد الرحمن الداخل يقتدي في سيرته بعمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته يسألون الناس عن سيرة عماله ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه جور من أحد عماله أوقع به وأسقطه وأنصف منه ولم يستعمله ولما وصفه زياد بن عبد الرحمن للامام مالك رضي الله عنه قال نسأل الله أن يزين موسمنا بمثل هذا وفي رواية نسأل الله أن يزين حرمنا بملككم أو كلاما هذا معناه فبلغ هشاما ماقاله مالك مع مابلغه من جلالة مالك ودينه فحمل هشام الناس على مذهب مالك ، وكانوا قبل ذلك يأخذون بمذهب الأوزاعي ، فهشام هو السبب

فى انتشار مذهب الإمام مالك بالمغرب وغزا هشام مدينة أريونة الشهيرة وافتتحها واشترط على المعاهدين من أهل جليقية أن ينقلوا عدداً من أحمال التراب من سور أريونة المفتحة يحملونها إلى باب القصر بقرطبة فبنى منه المسجد الذى أمام باب الجنان ومناقب هشام هذا كثيرة ، قال فى العقد الفريد فى وصفه هو أحسن الناس وجها وأشرفهم نفساً الكامل المروءة الحاكم بالكتاب والسنة الذى أخذ الزكاة على حلها فوضعها فى حقها لم يعرف منه هفوة فى حداثته ولا زلة فى أيام صباه وكان يصر الصرر بالأموال فى ليالى المطر والظلمة ، ويبعث بها إلى المساجد فيعطى من وجد فيها يريد بذلك عمارة المساجد بالعلم والعبادة أوصى رجل فى زمنه بمال فى فك سبية من أرض العدو فطلبت فلم توجد أسيرة احتراساً منه للثغر واستنفاذاً لأهل السبى وكان فى أيامه المنجم الضبى وكان مشهوراً بكمال المعرفة فى علم النجوم ، فلما ولى هشام الملك سأله عن مدة ملكه فأخبره أنه نحو ثمانية سنين فأطرق هشام ساعة ثم رفع رأسه وقال ياضبى ما أخوفنى أن يكون النذير كلمنى بلسانك والله إن هذه المدة لو كانت فى سجدة لله تعالى لكانت قليلا فى طاعته ثم ازداد زهداً فى الدنيا وفعلا للخير توفى سنة ثمانين ومائة وولى بعده ابنه الحكم ابن هشام وكان الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل يشبه بأبى جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى توطيد الدولة وشدة الملك وقمع الأعداء وغضب الحكم يوما على خادم فأمر بقطع يده ، وحضر عنده زياد بن عبد الرحمن فقال له زياد أصلح الله الأمير إن مالكا حدثنى فى خبر رفعه أن من كظم غيظاً يقدر على انفاذه ملأه الله تعالى أمناً وإيماناً يوم القيامة فأمر أن يمسك عن الخادم وأن يعفى عنه ثم قال له : آلله إن مالكاً حدثك بهذا فقال زياد آلله إن مالكا حدثنى بهذا ، ومما يحكى عن الحكم بن هشام أن عمه سعيد الخير بن عبد الرحمن الداخل كان له خصومة مع ابن بشير وكان مع سعيد الخير وثيقة فيها شهادات وشهود من جملتهم الحكم بن هشام كان شهد قبل أن يصير خليفة فجاء عمه سعيد الخير يطلب منه الشهادة وهو خليفة ، فخشى أن القاضى يرد شهاداته فأرسل قبل أن يؤدى الشهادة ورقة بخطه للقاضى يخبره بأنه يشهد على ذلك القاضى أن يقبل

فأبى شهادته ، فلم يغضب من رد شهادته بل قال إن القاضى رجل صالح ولا تأخذه في الله لومة لائم ومن أخبار عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام أنه أغضب جاريته طروب فهجرته وكان يحبها فأرسل إليها يترضاها فأبت وأغلقت باب مجلسها فأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ففعلوا وبنوا عليها بالبدر فأقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً راغباً في المراجعة على أن لها جميع ماسد به الباب من البدر فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر في بيتها فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الأمور مع محصر الخصى فلا يرد شيئاً تبرمه وخلف عبد الرحمن المذكور من الذكور مائة وخمسين ومن الإناث خمسين وكانوا يسمونه عبد الرحمن الأوسط ومن أخبار عبد الرحمن الناصر أنه لما بنى الزهراء صنع لهقبة لجلوسه وزخرفها وزينها بالذهب، وصنع طعاماً دعا إليه العلماء وجلس في تلك القبة ، فلما حضر العلماء ومعهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى فلما رأى تلك القبة جعلت دموعه تتحادر على لحيته ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ماظننت أن الشيطان لعنه الله تعالى بلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما أتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين ، فانفعل عبد الرحمن الناصر لقوله وقال له انظر ما تقول وكيف أنزلتني منزلتهم قال: نعم أليس قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ الآية ؟ فوجم الخليفة وطرق ملياً ودموعه تتساقط خشوعاً لله تعالى ثم أقبل على منذر فقال له جزاك الله ياقاضى عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجل جزائه وكثر في الناس أمثالك وأمر بنقض سقف القبة الذى طلوه بالذهب وأعادها على صفة ليس فيها مايذكر عليه فيه ، وكان القاضى منذر بن سعيد ذا علم متين وذكاء رصين متفنناً في العلوم ، عاملا بعلمه ، ورعا زاهداً ، وكان خطيباً بليغاً ، آية في الوعظ ، لا يسمع أحد وعظه إلا خشع وبكى ، وكان حاضراً الجواب قوى الحجة ذا منظر جميل وخلق حميد ، وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم وإقبال عليهم ، قد أفردت ترجمته بتأليف ، ولد رضى الله عنه سنة خمس وستين ومائتين وتوفى سنة خمس وخمسين.

وثلاثمائة وعمره تسعون سنة . ولاه الناصر قضاء الجماعة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، ولبث قاضياً من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى أن توفى الناصر فأبقاه فى قضاء الجماعة الحكم بن الناصر واستمر منذر المذكور فى القضاء إلى أن توفاه الله سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ، فكانت مدة ولايته لقضاء الجماعة ست عشرة سنة وقضاء الجماعة عند أهل المغرب هو المعبر عنه عند أهل المشرق بقاضى القضاة ، وله رحمه الله تآليف منها كتاب أحكام القرآن والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من كتب الفقه وغيرها وقد تقدم ذكر غزو عبد الرحمن الناصر الجلالقة سنة ثمان وثلاثمائة وأنه وطىء بلادهم ودوخ أرضهم وفتح معاقلهم وخرب حصونهم ، ثم غزا بنبلونة سنة ثلاثمائة واثنتى عشرة ودخل دار الحرب ودوخ البسائط وفتح المعامل وخرب الحصون وأفسد العمائر وجال فيها وتوغل فى قاصيتها والعدو يحاذيه فى الجبال والأوطار فلم يقدر العدو أن يظفر منه بشىء ورجع سالماً ، وقسم الغنائم ، ثم بعد مدة ثار عليه بعض المسلمين واستعان بالنصارى فظفر بذلك الثائر وقتله وقتل من كان معه من النصارى أهل ألبة وسار إليهم وفتح ثلاثين حصناً من حصونهم وكان البشكنس ملكوا عليهم امرأة يقال لها طوطرة وانعقد بينه وبينهم صلح ثم نقضوا ذلك الصلح فغزا طوطرة ملكة البشكنس فى بنبلونة ودوخ أرضها واستباحها ورجع إلى قرطبة ثم غزا الجلالقة سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وسار إليهم بنفسه فنزل على دار مملكة الجلالقة وهى مدينة سمورة عليها سبعة أسوار من أعجب البنيان قد أحكمته الملوك السابقة وبين الأسوار وصلات ومياه واسعة فافتتح منها سورين وكان جيشه مائة ألف أو يزيدون والتقى مع ردمير ملك الجلالقة وكان معه جنود كثيرة من الفرنج وحصل القتال الشديد بين الفريقين فكان النصر فى أول الأمر للمسلمين ، ثم رجع النصارى عليهم فحصل الانهزام للمسلمين وكتب الله الشهادة لكثير منهم وكان الذين قتلوا من المسلمين نحو خمسين ألفاً ثم والى عليهم الغزوات وصار يبعث الجيوش مع قواده وقتل منهم أضعاف ماقتلوا من المسلمين قبل ذلك ، وقد ذكر العلامة أحمد بن عبدربه الأندلسى فى كتابه المسمى بالعقد الفريد اثنتين وعشرين غزوة من غزواته ونظم كل غزوة

منها فى منظومة من الرجز وكان معاصراً له قال وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج مالم يطؤه قبل ذلك فى أيام سلفه حتى أذعن له أمم النصرانية وأوفدوا إليه رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والسلم والاعتمال فيما يعن فى مرضاته ووصل إلى سدته الملوك من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلونة وما يليها من الثغور فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مراكبه ، ثم سما ملكه فتملك سبتة وفاسا وغيرهما من بلاد المغرب وطار صيته ، وانتشر ذكره وأطاعته بنو إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر حتى صار ملكه فى غاية الضخامة ورفعة الشأن وتقدم أن مدة ملكه كانت خمسين سنة وأنه توفى فى سنة خمس وثمانمائة وبويع بعده ابنه الحكم المستنصر بالله ، فقام بأعباء الملك أتم قيام ، ولما توفى والده الناصر طمع الجلالقة فى الثغور فغزاهم الحكم بنفسه واقتحم بلد فردلندين فنازل شنب اشتبير وفتحها عنوة واستباحها وقفل فبادروا إلى عقد السلم معه واتقبضوا عما كانوا فيه ، ثم غزا غالباً مولاه وسار إلى مدينة سالم ليتوصل منها إلى دخول دار الحرب فجمع له الجلالقة ولقيهم فهزمهم واستباحهم وأثخن فيهم وأوطأ العساكر بلد فردلين ودوخها وكان لبشكنس قد انقض فأغزاه الحكم صاحب سرقسطة فى العساكر ، وجاء ملك الجلالقة لقصر البشكنس فهزمهم فامتنعوا بقورنية وعاثوا فى نواحيها ، ثم أغزا الحكم بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبى إلى بلاد برشلونة فعاثت العساكر فى نواحيها وأغزى هزيل بن هاشم ومولاه غالباً إلى بلاد القوس فعاثا فيها وقفلا وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور فى كل ناحية وكان أعظمها فتح قلمرية من بلاد البشكنس على يد غالب مولاه ، ثم عمرها الحكم واعتنى بها ثم فتح بعض عماله قطونية وغنم فيها من الأموال والسلاح والأقوات والأثاث والغنم والبقر والرمك والأطعمة والسبى ما لا يحصى كان كل ذلك فى أقرب الزمن ، وفى سنة أربع وخمسين وثلاثمائة جهز جيشاً مع مولاه غالب إلى بلد إلبه ومعه يحيى بن محمد التجيبى وقاسم ابن مطرف فدوخوا بلادهم ورجعوا غانمين ، وفى هذه السنة ظهرت مراكب المجوس فى البحر الكبير فأفسدوا بسائط أشبونة من الأندلس وناشبهم الناس القتال وأخرج الحكم القواد لاحتراس السواحل ، ثم جاءت الأخبار بأن العساكر نالت

منهم من كل جهة ، فرجعوا إلى مراكبهم ثم كانت وقادة أردون ابن أذفونش ملك الجلالقة يتوقع مظاهرة الحكم مستجيراً به من ابن عم له خرج عليه فأكرمه الحكم ووعده النصر من عدوه وخلع عليه ، ثم بعث ابن عمه أيضاً يطلب البيعة والدخول فى الطاعة فتقبل بيعتهم على شروط ثم بعث ملك برشلونة وملك طركونة وغيرهما من ملوك الفرنج كلهم يطلبون المعاهدة والدخول فى طاعة الحكم ، وبعثوا بهدايا جزيلة فتقبلهم الحكم وعقد لهم الصلح والبيعة ، وشرط عليهم أن يهدموا الحصون التى تضر بثغور المسلمين وأن لا يظاهروا عليه أهل ملتهم وأن ينذروا بما يكون من النصارى فى الاجلاب على المسلمين ، ثم وصلت رسل غرسية ملك بشكنس يسألون الصلح والدخول فى الطاعة والبيعة فعقد لهم فاغتبطوا ورجعوا ، ثم أوصلت أم لذريق وهو القومس الأكبر فاحتفل لقدومها فعقدت السلم لابنها فرجعت وصنع لقدوم هؤلاء الملوك عليهم احتفالات ومواكب فيها إظهار عز الإسلام يطول الكلام بذكرها وكلها مذكورة فى التواريخ ، وكانوا عند دخولهم على الحكم يكشفون رؤسهم ويخلعون برانطهم إعظاماً له ويقبلون يده ويقول كل واحد منهم أنا عبد أمير المؤمنين ، وإذا قام كل واحد منهم للانصراف يكون مقهقراً لا يولى الخليفة ظهره تعظيما له ويعلمون له بالدعاء ، وكان الحكم عاملا نبيلا أقام للعلماء والعلم سوقا نافقاً ، واجتمع عنده من خزائن الكتب مالم يجمعه أحد من الملوك قبله ، قال ابن حزم إن عدد الفهرست التى فيها أسماء بعض الكتب أربع وأربعون فهرستا ، وفى كل فهرست عشرون ورقة ليس فيها إلا أسماء الدواوين وأما غير الدواوين من سائر فنون العلوم فشىء كثير قيل إن كتبه كلها كانت أربعمائة ألف مجلد وقلما يوجد كتاب منها إلا وله فيه قراءة ونظر ومكتوب على هوامشه خطه ولما ألف أبو الفرج الأصفهانى كتابه المسمى بالأغانى بعث للحكم نسخة فأجازه بألف دينار ، تولى الحكم سنة ست وستين وثلاثمائة ومدة ملكه ست عشرة سنة ، وخلف ابنه هشام المؤيد ، وكان عمره تسع سنين وكان جعله ولى عهده واستوزر له محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور المعافرى ومعافر بطن من حمير وكان يخدم أم هشام المؤيد ثم ترقى إلى أن ولاه الحكم قضاء بعض

المواضع فظهرت نجابته ثم ترقى إلى أن ولاه الزكاة والمواريث ، ثم استوزره لابنه فحجب الخليفة هشاما المؤيد وباشر الوزير المذكور تدبير الملك بنفسه وله صفات حميدة مذكورة فى التواريخ ومفردة بالتأليف وجاشت الروم فى أول ولاية هشام فجهز عليهم الوزير المذكور جيوشاً له لدفاعهم فنصره الله عليهم فتمكن حبه من قلوب الناس خاصتهم وعامتهم ، واستجلب الناس بكرمه وحسن أخلاقه ، فانتشر صيته وأعلى مراتب العلماء وقمع أهل البدع وأوسع الجند فى العطاء وكان ذا عقل ورأى وشجاعة وكرم و بصيرة بالحروب ودين متين وكان عالما متفنناً ، وسيرة هذا الوزير وهو منصور بن أبى عامر طويلة مذكورة فى التواريخ وأباد المتغلبين على الخلافة المارقين عن الطاعة وكرر الغزو والجهاد واستبد فى جميع الأمور بحيث لم يبق ذكر لأحد من رجال الدولة ولا من أولاد الخلفاء بل الذكر والتصرف كله له وحده والخليفة محجور عليه واستمر ذلك سبعاً وعشرين سنة وكان يغزو كل سنة غزوتين غزوة فى الصيف وغزوة فى الشتاء قال فى نفح الطيب إن المنصور بن أبى عامر تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس وغادرهم صرعى فى البقاع وتركهم فى أذل من وتد بقاع .

ذكر غزوة من غزواته

سبب هذه الغزوة أن أحد رسله سار فى بعض مسيراته إلى غرسية ملك البشكنس ابن شانجة فوالى فى إكرامه وتناهى فى بره واحترامه وطالت إقامته عنده فلا متنزه إلا ومر عليه متفرجاً ولا منزل إلا سار إليه معرجا فحل مرة أكبر الكنائس هناك فبينما هو يجول فى ساحتها ويجيل العين فى ساحتها إذ عرضت له امرأة قديمة الأثر قويمة على طول الكسر فكلمته وعرفته بنفسه وقالت له أرضى المنصور ، أن يتنعم بلبوس العافية ولى سنين مأسورة مختبية ، وناشدته الله أن يبلغ المنصور خبرها ، فلما رجع إلى المنصور عرفه بما يجب تعريفه وهو مصغ إليه حتى تم كلامه ، فلما فرغ قال له المنصور : هل وقفت هناك على أمر أنكرته أم لم تقف على غير ماذكرته فتذكر أمر المرأة المأسورة ، فأعلمه بقصتها فلانةعلى أن لم يبدأ به كلامه ثم أخذ للتجهز للجهاد من فوره فلما تم جهازه

وتكاملت جنوده ، سار حتى وافى ابن شانجة ، فأخذت هيبته بسمعه وبصره ، فبادر بالكتاب إليه ليتعرف ما الجلية ، ويحلف أنه ماجنى ذنباً ولا جفا عن مضجع الطاعة فعنف المنصور رسل ابن شانجة وقال لهم ، قد كان وعدنى على أنه لا يبقى ببلاده مأسورة ولا مأسور ، ولو بعثه إلى فى حواصل الطيور ، وقد بلغنى بقاء فلانة المسلمة فى تلك الكنيسة والله لا انتهى عن أرضه حتى اكتسحها فرجعوا إلى ابن شانجة وأخبروه فأرسل المرأة ومعها امرأتان أخريان وأقسم أنه ما أبصرهن ولا سمع بهن قبل ذلك وأعلمه أن تلك الكنيسة قد بالغ فى هدمها تحقيقاً لقوله . وتضرع إليه فى الأخذ فيه بطوله فاستحى منه وصرف الجيش عنه وأوصل المرأة ومن معها إلى نفسه وألحق توحشهن بأنسه وأوصلها إلى أهلها ورجع من غزوته ، وكان الخليفة هشام لا يراه خاص وعام ولا يخاف منه بأس ولا يرجى منه أنعام وأغنى الناس عنه وأزال أطماعهم منه وصيرهم لا يعرفونه وأمرهم لا يذكرونه ولا يعهد فيه إلا الاسم السلطانى فى السكة التى يتعامل الناس بها والدعوة على المنابر وربما أركبه فى بعض السنين ، وجعل عليه برنسا ويركب معه بعض جواريه ، ويجعل عليهن ، مثل ما عليه ، فلا يعرف من بينهن ويأمر من ينحى الناس عن طريقه حتى ينتهى إلى موضع تنزهه ثم يعود وأخذ فى اغتيال من يخشى منه خوفا من أن يثوروا به وكانت غزواته نحو الخمسين يطول الكلام بذكرها وكلها كانت من مفاخر الإسلام حتى اشتدت هيبته فى قلوب الكفرة اللئام ، ومما يحكى مما كان فى بعض غزواته أن بعض الأجناد نسى رايته مركوزة على جبل بقرب إحدى مدائن الروم فأقامت عدة أيام لا يعرف الروم ما وراءها بعد رحيل العسكر ، وهذا مما يفتخر به أهل التوحيد على أهل التثليث لأنهم لما أشربت قلوبهم الخوف من المنصور وعلم كل من ملوكهم أنه لا طاقة له بحربه لجأوا إلى الفرار وتحصنوا بالمعاقل والقلاع ولم يحصل منهم غير الإشراف من بعد والاطلاع ، ومن مفاخر المنصور بعض غزواته أنه مر بين جبلين عظيمين فى طريق ضيق بوسط بلاد الفرنج ، فلما جاوز ذلك المحل وهو آخذ فى التحريق والتخريب والغارات والسبى يمينا وشمالا لم يجسر أحد من الفرنج على لقائه ، حتى أقفرت البلاد مسافة أيام ثم

عاد من ذلك الطريق فوجد الإفرنج قد استجاشوا من ورائهم وضبطوا ذلك المحل الضيق الذى بين الجبلين وكان الوقت شتاء ، فلما رأى مافعلوه رجع واختار منزلا من بلادهم لجيشه ونزل به فيمن معه من العساكر وأمرهم ببناء دور ومنازل وأن يجمعوا آلات الحرث ونحوها ليعلم الفرنج أنه أراد الإقامة بأرضهم وبث سراياه فسبت وغنمت فلما طال البلاء على العدو أرسلوا إليه فى طلب الصلح وأن يخرج بغير أسرى ولا غنائم ، فامتنع من ذلك ، فلم نزل رسلهم تتردد إليه حتى سألوه أن يخرج بغنائمه وأسراه فأجابهم أن أصحابى قد أبوا أن يخرجوا وقالوا إنا لا نكاد أن نصل إلى بلادنا إلا وقد جاء وقت الغزوة الأخرى فنقعد ههنا إلى وقت الغزوة الأخرى . فإذا غزونا عدنا ، فما زال الفرنج يسألونه أن يرتحل إلى أن قرر عليهم أن يحملوا على دوابهم مامعهم من الغنائم والسبى وأن يمدوه بالميرة حتى يصل إلى بلاده وأن ينحو جيف القتلى عن طريقه بأنفسهم ففعلوا ذلك كله وانصرف عنهم ولعمرى أن هذا العز ماوراءه مطمح ونصر لا يكاد الزمان يجود بمثله ويسمح خصوصاً إزالتهم جيف قتلاهم عن الطريق وقد تقدم ذكر هذه الغزوة مختصراً فإعادتها لا تخلو من فائدة .

خبر عجيب من أخبار المنصور

ومن أخبار المنصور بن أبى عامر أنه قدم عليه رسول ملك الروم الذى هو أعظم ملوكهم فى ذلك الزمان وكان قصد ملك الروم من إرساله إياه أن يطلع على أحوال المسلمين وقوتهم ، فلما علم المنصور به قبل وصوله أمر أن يغرس نيلوفر كثير عند بركة عظيمة فى بستان من بساتينه ، ثم أمر بأربعة قناطير من الذهب وأربعة من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً على قدر ماتسع النيلوفرة ثم ملأ بها جميع النيلوفر الذى عند البركة فلما جاء رسول ملك الروم إليه أحضر عنده قبل الفجر فى مجلسه السامى فى موضعه المسمى بالزاهرة المشرف على موضع البركة ، فلما قرب طلوع الفجر جاء ألف من الصقالبة عليهم أقبية الذهب والفضة ومناطق الذهب والفضة وبيد خمسمائة منهم أطباق من الذهب وبيد

خمسمائة أطباق من الفضة فتعجب الرسول من حسن صورهم وجميل هيئتهم ولم يدر ما المراد لحين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر من البركة فبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر وصاروا يجتنونه كما يجتنى الثمر من الشجر وكانوا يجعلون الذهب فى أطباق الفضة والفضة فى أطباق الذهب حتى التقطوا جميع ذلك وجاءوا به فوضعوه بين يدى المنصور حتى صار كوماً بين يديه ، فتعجب رسول ملك الروم من ذلك وأعظمه وظن أن ذلك ثمر ذلك الشجر فطلب المهادنة من المسلمين وذهب مسرعا إلى مرسله ، وقال له لاتعاد هؤلاء القوم فإنى رأيت الأرض تخدمه بكنوزها وهذه القصة من الغرائب وأنها لحيلة عجيبة فى إظهار عز الإسلام وأهله وكان المنصور بن أبى عامر آية من آيات الله سبحانه وتعالى فى السعد ونصرة الإسلام .

غزوة أخرى من غزواته

سبب هذه الغزوة أنه لقيته امرأة حين رجع من بعض غزواته فقالت له يا منصور استمع ندائى فأنت فى طيب عيشك وأنا فى بكائى فسألها عن مصيبتها فذكرت أن لها ابناً أسيراً فى بلاد سمتها له وأخبرته أنها لا يهنأ عيشها لفقده فرحب المنصور بها وأظهر الرقة بسببها وأمر بالتجهز إلى الغزو وسار بجيوشه حتى بلغ تلك البلاد التى سمتها له وفيها ابنها فجاسوا أقطار تلك الديار وتخللها قتلا وأسراً ونهباً وتخريباً حتى دوخها حتى خلص ابنها ، وجميع من كان هناك من الأسرى ، ورجع مظفراً منصوراً فهكذا تكون الهمة السلطانية والنجدة الإيمانية ، ومن مناقبه التى لم تكن لغيره من الملوك أن أكثر جنده من السبى الذى كان يأخذه من العدو ومن محاسن أخباره أنه خط بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره يقرأ فيه ومن قوة رجائه أنه اعتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته ومواطن جهاده فكان الخدم يأخذونه منه بالمناديل فى كل منزل من منازله حتى اجتمع له منه صرة ضخمة وعهد إليهم أن يجعلوه فى حنوطه فكان كذلك ، وكان يحمل تلك الصرة حيث سار . ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم ينهزم فى حرب قط وما انصرف من موطنه إلا قاهراً غالبـــا على كثرة ما زاول من الحروب قيل له مرة إن فلانا

مشئوم فلاتستخدمه فقال أف لسعد لا يغطى على شؤمه فاستخدمه ولم ينله من شؤمه الذى به جرت العادة شيء .

ذكر غزوة أخرى من غزواته

من غزواته المشهورة غزوة مدينة شنت ياقب وهى قاصية غليسية وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل به من الأرض الكبيرة وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا وللكعبة المثل الأعلى فيها يحلفون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب الحوارى أحد الاثنى عشر الحواريين وكان أخصهم بعيسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام وهم يسمعونه أخاه للزومه إياه وياقب بلسانهم يعقوب وكان اسقفا ببيت المقدس ، ثم خرج يستقرىء الأرض داعياً إلى الله لمن فيها حتى انتهى إلى هذه القاصية ثم عاد إلى الشام فمات بها وعمره مائة وعشرون سنة فاحتمل أصحابه جثته فدفنوه بهذه الكنيسة ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصدها والوصول إليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها فخرج المنصور إليها من قرطبة غازياً بالصائفة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة لست بقين من جمادى الآخرة ودخل على مدينة قورية ، فلما وصل إلى مدينة غليسية وافاه عدد عظيم من القوامس المتمكنين فى الطاعة ، فصاروا فى عسكر المسلمين وكان المنصور أمر بإنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى وانس من ساحل غرب الأندلس وجهزه برجاله وحمل فى الأسطول الأقوات والعدة والسلاح استظهاراً على نفوذ العزيمة إلى أن خرج ذلك الأسطول بموضع برتقال على نهر دوين فدخل فى النهر إلى المكان الذى عينه لهم المنصور للعبور منه فعقد هنالك جسراً بقرب الحصن ، وجعله يتصل بالأسطول فوجهوا ما كان فيه من الميرة إلى الحصن ثم منه إلى الجند فتوسعوا فى التزود منه إلى أرض العدو ، ثم نهض منه يريد شنت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر ، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارس وما يتصل بها ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طريق ولم يهتد الأدلاء إلى سواه

فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه حتى قطعه العسكر وعبروا بعده وادى بنية وانبسط المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة وأرضين وانتهت مغيرتهم إلى دير قشان وبسيط بلنبو على البحر المحيط، وفتحوا حصن شنت بلاية وغنمو وعبروا بساحته إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحى فسبوا من فيها ممن لجأ إليها وانتهى معسكر إلى جبل مراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه، ثم جاز المسلمون بعد هذا خليجا فى معبرين أرشد الأدلاء عليه، ثم نهر أبلة ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى فى الفضل يقصد نساكهم إليه من أقاصى بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما فغادره المسلمون قاعاً صفصفا ثم كان النزول بعده على شنت ياقب وذلك لليلتين خلتا من شعبان فوجدها المسلمون خالية من أهلها، فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها ووكل المنصور بقبر ياقب من يحفظه ويدفع الأذى عنه وكانت مصانعها بديعة محكمة فغودرت هشيما كأن لم تغن بالأمس ونشفت بعد ذلك سائر البسائط وانتهت الجيوش إلى مدينة شنت ما تكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط وهى غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا ورائها انتقال.

وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقب، وقد بلغ غاية لم يبلغها قبله مسلم، فجعل فى طريقه وهو راجع القصد على عمل برمند بن أردون تعيش جيوشه فى عمله تخربه وتفسده حتى وقع فى عمل القوامس المعاهدين الذين كانوا معه فى عسكره فأمره بالكف عنها ومر مجتازاً حتى خرج على حصن بليقية فأجاز هنالك القوامس الذين كانوا معه وأكرمهم على أقدارهم وكساهم وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من بلقية وكان مبلغ ما كساه فى غزاته هذه ملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين ألفين ومائتين وخمسا وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازى وإحدى وعشرين كساء من صنوف الحبر وكسائين عنبربن، وإحدى عشر سقلاطونا وخمسة عشر مرشيا وسبعة أنماط ديباج وثوبى ديباج رومى.

وفروة فنك ووافى قرطبة بجميع العساكر سالما غانما وعظمت المنة على المسلمين ولم تجد بشنت ياقب إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر فسأل عن مقامه فقال أونس بيعقوب فأمر بالكف عنه .

غزوة أخرى من غزواته

سبب هذه الغزوة أن جماعة من صنهاجة وهم من البربر قدموا على المنصور ابن أبى عامر من المغرب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة ، فنزلوا عليه بقرطبة فأكرمهم وأجرى عليهم الوظائف وسألهم عن سبب انتقالهم من أفريقية إلى الأندلس فقالوا إنما اخترناك على غيرك وأحببنا أن نكون معك نجاهد فى سبيل الله تعالى فاستحسن ذلك منهم ووعدهم ووصلهم فأقاموا أياما ، ثم دخلوا عليه وسألوه إتمام ما وعدهم به من الغزو فقال انظروا ما أردتم من الجند لأجل أن نعطيكم فقالوا ما يدخل معنا بلاد العدو وغيرنا إلا الذين معنا من بنى عمنا ومن بقية صنهاجة وموالينا ، فأعطاهم الخيل والسلاح والأموال ، وبعث معهم دليلا ، وكان الطريق ضيقا ، فأتوا أرض جليقية فدخلوها ليلا وكمنوا فى بستان بالقرب من المدينة وقتلوا كل من به وقطعوا أشجاره ، فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد فضربوا عليهم وأخذوا جميع الخارجين وقتلوهم جميعهم ، ورجعوا فتسامع العدو فركبوا فى أثرهم فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوة ، فلما جاوزهم العدو خرجوا عليه من ورائهم وضربوا فى ساقتهم وكبروا ، فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدو كثير ، فانهزموا وتبعهم صنهاجة فقتلوا خلقا كثيرا ، وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا إلى قرطبة ، فعظم ذلك عند ابن أبى عامر ورأى من شجاعتهم ما لم ير من جند الأندلس ، فأحسن إليهم وجعلهم بطانته ، فلما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم ورغبوا فى الجهاد ، فقالوا للمنصور بن أبى عامر : لقد نشطنا هؤلاء للغزو ، فجمع الجيوش الكثيرة من سائر الأقطار وخرج إلى الجهاد بنفسه وكان رأى فى المنام تلك الليلة كأن رجلا أعطاه الاسبراج ، وهو اسم لنبت فأخذه من يده وأكل منه ، فعبره على بن

أبى جمعة فقال له : أخرج إلى بلد اليونان فإنك ستفتحها فقال من أين أحذت هذا ؟ فقال : لأن الاسراج يقال له فى المشرق الهليون كبرذون ، فملك الرؤيا قال لك هاليون ، فخرج بتلك الجيوش ونازلها وهى من أعظم مدائنهم ، واستمد أهلها الفرنج وأمدوهم بجنود كثيرة واقتتلوا ليلا ونهاراً فكثر القتل فى الفرنج ، وصبرت صنهاجة صبراً عظيما ، ثم خرج قومص كبير من الفرنج لم يكن لهم مثله فجال بين الصفوف وطلب البراز فبرز إليه جلالة ابن زيرى الصنهاجى فحمل كل منهم على صاحبه ، فطعنه الفرنجى فمال عن الطعنة وضرب الفرنجى بالسيف على عاتقه فسقط الفرنجى إلى الأرض وحمل المسلمون على النصارى ، فانهزموا إلى بلادهم وقتل منهم ما لا يحصى وملك المدينة وغنم بن أبى عامر غنيمة عظيمة لم ير مثلها ، واجتمع من السبى ثلاثون ألفاً وأمر بالقتلى فنضدد بعضهم على بعض ، وأمر مؤذنا فأذن فوق القتلى المغرب وخرب مدينة قامونة ورجع سالما هو وعساكره قال فى نفح الطيب وانتهت هيبة المنصور بن أبى عامر وضبطه للجند إلى غاية لم يصلها ملك قبله فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلا فى الاطراق حتى أن الخيل لتتمشل فى الاطراق مثل فرسانها فلا تكثر الصهيل والحمحمة ، ولقد وقعت عينه مرة على بارقة سيف قد سله بعض الجند أقصى الميدان لهزل أوجد بحيث ظن أن لحظ المنصور لايناله فقال على بشاهر السيف فمثل بين يديه لوقته فقال ماحملك على أن شهرت سيفك فى مكان لاتشهر فيه إلا عن إذن فقال إنى أشرت به إلى صاحبى مغمداً فزلق من غمده فقال إن مثل هذا لايسوغ بالدعوى وأمر به فضربت عنقه بسيفه وطيف برأسه ونودى عليه بذنبه ، وذكر أيضا أن المنصور كان به داء فى رجله واحتاج فيه إلى الكى فأمر الذى يكويه أن يكويه وهو قاعد فى موضع مشرف على أهل مملكته فجعل يأمر وينهى ويتصرف فى أموره ورجله تكوى والناس لايشعرون حتى شموا رائحة الجلد واللحم وهو غير مكترث بذلك فتعجب الناس من ذلك ، وذكر فى نفح الطيب كثيراً من أخباره فى الكرم والعفو والحلم وحسن الخلق ثم قال وأخبار المنصور تحتمل مجلدات فلنمسك العنان ، توفى المنصور بن أبى عامر فى غزوة

للإفرنج فى شهر صفر سنة ثلاثمائة واثنتين وتسعين بمدينة سالم لسبع وعشرين سنة من ملكه وقام بالأمر بعده ابناه عبد الملك وعبد الرحمن واحداً بعد واحد فقام بالأمر أولاً ابنه عبد الملك فجرى على سنن أبيه فى السياسة والغزو وكانت أيامه أعياداً دامت مدة سبع سنين ثم قام بالأمر بعده الابن الآخر عبدالرحمن وجرى على سنن أبيه وأخيه فى الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه ثم ثاب له رأى فى الاستيثار بالمملكة فطلب أن هشاما يجعله ولى عهده فأجابه لذلك لتغلبه عليه وأحضر لذلك أرباب الشورى وأهل الحل والعقد وكتب عهده بذلك فقرىء فى ذلك المجمع ، وكتب القضاة والوزراء وسائر الناس شهاداتهم بخطوطهم ، ثم سعى كثير من الأمويين وغيرهم فى نقضه وأثاروا لذلك فتنة إلى أن قتلوا عبد الرحمن سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، ثم خلعوا الخليفة هشاما وبايعوا محمد ابن هشام بن عبدالجبار بن أمير المؤمنين الناصر ، ثم أعيد هشام ثم فقد سنة ثلاث وأربعمائة وقيل قتل وثار من ذلك فتن كثيرة يطول الكلام بذكرها آل الأمر فيها إلى زوال ملكهم وافتراق كلمتهم وكل يوم يخلعون خليفة ويبايعون آخر ثم صار فى كل مملكة خليفة يدعى أمير المؤمنين ، وتبدد شمل الجماعة بالأندلس ، ثم سار الملك فى طوائف متغلبين فى كل ناحية ملك مستقل متغلب ، ولا حاجة بنا إلى ذكر أسمائهم وعند ذلك استفحل أمر النصارى ، وصاروا يتغلبون على ممالك الأندلس ، ويملكونها قطراً بعد قطر وناحية بعد ناحية ، وصاروا ملوك الطوائف لا يسأل بعضهم عن بعض ولا يحامى ولا يدافع إلا عن نفسه وربما تقاتلوا مع بعضهم وتغلب بعضهم على بعض .

ذكر أول مدينة تملكها الطاغية

أول مدينة تملكها الطاغية بلنسية سنة ست وخمسين وأربعمائة ، وتعرف هذه الوقعة بوقعة بطرنة اسم موضع هناك ، وذلك أن الإفرنج خذلهم الله تعالى انتدبت منهم قطعة كثيفة ونزلت على بلنسية فى السنة المذكورة وأهلها جاهلون بالحرب معرضون عن أمر الطعن والضرب مقبلون على لذات الأكل والشرب ، ولما نازلها الفرنج أظهروا لأهلها الندم على منازلتها والضعف عن مقاومة من فيها وخدعوهم بذلك فانخدعوا

وأطمعوهم فطمعوا ، وكان المتغلب على تملكها من ملوك الطوائف عبد العزيز بن أبى عامر المعافرى ثم إن العدو جعل فى مواضع خارج المدينة كمناء وجماعة من الفرسان فظن أهل البلد أن العدو تفرق وارتحل عنهم ، فخرجوا فى زينتهم ومعهم أميرهم فصبر العدو لهم استدراجا ومكراً حتى خرج الناس كأنهم فى عيد فخرج عليهم الكمناء وعطفوا عليهم بالقتل والأسر حتى استأصلوهم وما نجا منهم إلا من بقى أجله، وخلص الأمير نفسه ، واستولى العدو على بلنسية وكانت بلنسية فى شرقى الأندلس ، وكان فى شرقى الأندلس من المدائن العظيمة بلنسية ومرسية وتطيلة وسرقسطة ولاردة ودانية والسهلة والثغر الأعلى ولكل واحدة من هذه أعمال واسعة ، وكان أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود الجذامى ملكا مستبداً بمدينة تطيلة ، ثم ملك سرقسطة والثغر الأعلى وبلنسية ولاردة ودانية والسهلة ، فكان استيلاء العدو أولا على بلنسية فى السنة المذكورة وسيأتى ذكر رجوعها للمسلمين ثم استرجاع النصارى إياها مرة أخرى .

ذكر تملك العدو بربشتر وسرقسطة وذلك قصبة برطانية

من الممالك التى فى شرقى الأندلس بربشتر وسرقسطة والثغر الأعلى ومدينة تطيلة ومرسية وبلنسيه وغير ذلك والمتغلبون عليها من ملوك الطوائف بنو سليمان ابن محمد بن هود الجذامى من سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وكان قبلهم متغلبا عليها بنو منذر بن مطرق التجيبى فانتزعها منهم بنو هود فى السنة المذكورة فلما كانت سنة ست وخمسين وأربعمائة نازلها جيش الأردمليش وحاصرها وقصر الأمير يوسف بن سليمان بن هود فى حمايتها ووكل أهلها إلى نفوسهم ،فأقام العدو عليها أربعين يوما ووقع فيما بين أهلها تنازع فى القوات لقلته واتصل الخبر بالعدو فشدد القتال عليها والحصر لها وكان لها مدينتان فدخل المدينة الأولى خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة أفرنجى ، ثم اتفق أن القناة التى كان الماء يجرى فيها من أنهر إلى المدينة تحت الأرض فى سرب موزون فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب

الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال فأعطاهم العدو الأمان ، فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع إلا القائد بن الطويل والقاضى ابن عيسى ومعهما نفر من الوجوه ، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة مالا يحصى حتى أن الذى خص بعض مقدمى العدو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ، ومن وقار الحلى والكسوة ما يحمل خمسمائة جمل وقدر القتل والأسرى مائة ألف نفس ومن نوادر ماجرى لهذه المدينة لما فسدت القناة ، وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادى من كان بالقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو لولدها فيقول لها أعطينى ما معك فتعطيه ما معها من كسوة وحلى وغيرها وكان السبب فى قتلهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله فشرع فى قتلهم ، فلما قتل منهم نيفاً عن ستة آلاف نادى الملك بتأمين من بقى وأمر أن يخرج من بقى بالبلد فازدحموا على الباب إلى أن مات منهم خلق كثير ونزلوا من الأسوار الحبال خشية من الازدحام فى الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء وقد كان تحيز فى المدينة جماعة ولم يخرجوا وكانوا مقدار سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا فى نفوسهم ، وانتظروا ما ينزل بهم ، فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك فى الزحمة نودى فى تلك البقية أن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان وأوهقوا وأزعجوا ، فلما حصل منهم بمن معه من أهله فى منزله اقتسمهم الإفرنج لعنهم الله تعالى بأمر الملك وأخذ كل منهم داراً بمن فيها نعوذ بالله تعالى، وكان جماعة من أهل المدينة فروا ولاذوا برءوس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة ، وكادوا يهلكون من العطش ، فأمنهم الملك على نفوسهم ، وبرزوا فى صورة الهلكى من العطش فأطلق سبيلهم فبينما هم فى الطريق إذا لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن بقى أجله وكان الفرنج لعنهم الله تعالى لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بحضرة زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأمور والأحوال مالم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ومن لم يرض منهم أن يطأ بعض النساء ذوات المهنة أعطاهن خدمة وغلمانه يعيثون فيهن وبلغ الكفرة منهم ما لا يمكن أن يوصف

على الحقيقة ، ولما عزم ملكهم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجوار الأبكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم ألوفا حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه من ملوكهم وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة ومن الرجالة ألفين ، وممن كان فى هذه الوقعة الشنعاء أن بعض تجار اليهود جاء بربشتر بعد الحادثة ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا كن حصان فى سهم قومس منهم كان يعرفه قال فذهبت إلى منزله واستأذنت عليه ، فوجدته جالسا مكان رب الدارمستويا على فراشه رافلا فى نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شىء من رياشهما وزينتهما ووصفائه مضمونات الشعر قائمات على رأسه ساعيات فى خدمته ، فرحب بى وسألنى عن قصدى فعرفته وجهه وأشرت إلى وفور ما أبذل له فى بعض اللواتى كن واقفات على رأسه وفيها كانت حاجتى فتبسم ، وقال بلسانه ما أسرع ماطمعت فيمن عرضناه لك أعرض عنهن وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصنى من سبى ، وأسرى من أقاربك فقلت له أما الدخول إلى الحصن ، فلا رأى لى فيه وبقربك أنست وبكنفك اطمأننت فأعطنى بعض من هنا فإنى أعطيتك رغبتك قال وما عندك فقلت العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب فقال كأنك تشتهينى ما ليس عندى يا باجة ينادى بعض أولئك الوصائف يريد بهجه ، فغيره بعجمته ، قومى فأعرضى عليه مافى ذلك الصندوق ، فقامت إليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وإسفاط الحلى فكشف وجعل بين يدى العلج حتى كادت توارى شخصه ، ثم قال لها أرنى من تلك التخوت فأدنت منه قطعة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر حتى حار لذلك ناظرى وبهت واسترذلت ماعندى ، ثم قال لى لقد كثر هذا عندى كل شىء حتى ما ألتذ به ، ثم حلف لى أنه لولم يكن عنده شىء من ذلك ، ثم بذل لى أحد مثل ذلك ماسخوت بهذه الجارية التى تطلبها نفسى فهى ابنة صاحب المنزل وله حسب فى قومه واصطفيتها لنفسى لمزيد جمالها لأجل أن تلد لى وفعلنا هذا مثل ما كان قومها يصنعون بنسائنا إذا ملكونا حين كان دولتهم وقد رد الله لنا الكرة عليهم فنصرنا فيما نراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة ، وأشار إلى جارية أخرى كانت مغنية لوالدها ، ثم قال

لها يا فلانة خذى عودك فأخذت العود وقعدت تسويه وإنى أتأمل دمعها يقطر على خدها فتسارع العلج مسحه بيده واندفعت تغنى بشعر مافهمته أنا فضلا عن العلج وأظهر الطرب فلما يئست مما عنده قمت منطلقا وأطلعت على كثرة ما بأيديهم من السبى والمغنم فطال تعجبى ، قال فى نفح الطيب فهذا مقنع لمن تدبره وتذكرة لمن تذكره ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم﴾ فإن أهل الأندلس لما توالت عليهم النعم انهمكوا فى اللذات والشهوات وحل بهم داء التقطع ، وقد أمروا بالتواصل والألفة فأصبحوا على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لامحالة وأنهم كانوا يعللون أنفسهم بالباطل ويغتروا بالنعيم الزائل ، وقد بعدوا عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم وغفلوا عن سد ثغورهم حتى جاس عدوهم بخلال ديارهم ، ثم سرى البثق إليهم جميعا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ذكر إسترجاع المسلمين بربشتر وسرقسطة

ولما كانت السنة التى بعد أخذها وهى سبع وخمسين وأربعمائة ثار أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها ، والمتهم على أهلها لانحرافهم إلى أخيه صمد لها مع أمداد المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وسعى لاصمات سوء المقالة عنه، وقد كتب الله تعالى عليه منها مالا يمحوه إلا عفوه تعالى فتأهب لقصد بربشتر فى جموع من المسلمين ، فجاهدوا الكفار بها جلاداً ارتاب منه كل جبان وأعز الله تعالى أهل الحقيقة والشجعان وحمى الوطيس بينهم إلى أن نصر الله تعالى أولياءه وخذل أعداءه وولوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة فاقتحمها المسلمون عليهم وملكوهم أجمعين إلا من فر من مكان الوقعة ، ولم يدخل المدينة فأجيل السيف فى الكافرين واستؤصلوا أجمعين إلا من استرق من أصاغرهم وفدى من أعاظمهم وسبوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارى ، وأصيب فى منحة النصر المتاح طائفة من حماة المسلمين الجادين فى نصرة الدين نحو الخمسين كتب الله لهم الشهادة وقتل فئة من أعداء الله الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف راجل فغسلها المسلمون من رجس الشرك وجلوها من صدى الإفك واسترجع بلنسية المأمون

ابن ذى النون ، وولى عليها أبا بكر بن عبد العزيز المنصور فداخله ابن هود فى الانتقاض فعدل واستبد ببلنسية وضبطها وذلك سنة ثمان وستين وأربعمائة ، ثم مات أبو بكر بن عبد العزيز ، فتملكها بعده ابنه القاضى عثمان بن أبى بكر وبقى إلى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فلما تملك الطاغية طليطلة فى هذا العام كما سيأتى وتسلمها من القادر بن ذى النون وشرط عليه القادر أن يمكنه من تملك بلنسية فسار معه الطاغية بجيوشه إلى أن ملكه بلنسية ، وذلك أن المسلمين لما أقبل عليهم القادر بن ذى النون ومعه جيوش الطاغية خافوا أن يتملكها الطاغية فخلعوا القاضى عثمان بن أبى بكر وسلموها للقادر بن ذى النون وذلك سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وبقى إلى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وكان ذلك بعد دخول يوسف بن تاشفين الأندلس وتغلبه على ملوك الطوائف كما سيأتى بيانه فجهز جيشاً لتخليص بلنسية من القادر بن ذى النون وجعل إمارة بلنسية للقاضى أبى أحمد جعفر بن عبد الله ابن حجاف فحصر بها القادر بن ذى النون الذى مكن الأذفونش من طليطلة ، ثم هجم عليه القاضى فى جماعة من المرابطين فقتلوه وذلك سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة ، وتملك بن حجاف بلنسية ، ثم رجع عنه طائفة المرابطين الذين كان استنصر بهم وأعانوه على تملكه إياها ، وصار خائفا من استيلاء الطاغية عليه وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين فيبطىء عليه النصر ، وفى أثناء ذلك أنهض يوسف بن أحمد بن هود صاحب سرقسطة لذريق الطاغية للاستيلاء على بلنسية فدخلها وعاهده القاضى بن حجاف واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر بن ذى النون فأقسم أنها ليست عنده فاشترط عليه أنه إن وجدها عنده قتله فاتفق أنه وجدها عنده فأحرقه بالنار وعاث فى بلنسية ، وكان الاستيلاء عليه سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وقيل فى التى قبلها وهذا الطاغية الذى أخذها يقال له أيضاً القنبيطور وحاصرها قبل أخذها عشرين شهراً قيل أنه دخلها صلحاً وقيل بل عنوة وحرقها وعاث فيها وممن أحرقوا فيها الأديب أبا جعفر بن البناء الشاعر المشهور ، ثم وجه إليها جيشا أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين وجعل أميراً على الجيش أبا محمد مزدلى ففتحها الله تعالى على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمائة وبقيت بلنسية بيد المسلمين إلى سنة ستمائة

وثلاثين ثم أخذها العدو وسيأتى ما كان بعد ذلك ، ومما استولى عليه العدو مدينة المرية وهى من مدائن الأندلس العظيمة الشهيرة استولى عليها العدو سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة. وأحصى عدد من سبى من أبكارها فكان أربعة عشر ألفا : قال ابن حبيش وهو آخر الحفاظ بالأندلس كنت فى قلعة المرية لما وقع الاستيلاء عليها أعادها الله للاسلام فتقدمت إلى زعيم النصارى وهو ابن بنت الأذفونش وقلت له إنى أحفظ نسبك منك إلى هرقل فقال لى قل فذكرته له، فقال لى أخرج أنت وأهلك ومن معك طلقا بلا شىء ، ثم أنها بعد أن أخذت فى السنة المذكورة استرجعها المسلمون سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وبقيت بيد المسلمين إلى أن أخذها الكفار مرة أخرى سيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى .

ذكر تملك الطاغية طليطلة

قال فى نفح الطيب أن الأندلس ينقسم إلى مشرق ومغرب ومتوسطة وكل واحد من الأقسام الثلاثة مشتمل على مدائن عظيمة كل مدينة منها مملكة مستقلة مشتملة على أعمال وقرى ومزارع وبساتين وأقطار واسعة وخلائق لا يحصون فى غاية التنعم والرفاهية فمن المتوسطة قرطبة وطليطلة وجيان وقسطلة وغرناطة والمرية ومالقة وغير ذلك مما يطول ذكره ، ومن شرق الأندلس مرسية وبلنسية وشاطبة ومانية والسهلة والثغر الأعلى وسرقسطة وتطيلة وغير ذلك مما يطول ذكره ومن غرب الأندلس أشبيلية وماردة وأشبونه وشب وشريش ولبلة والخضراء وبطليوس وغير ذلك مما يطول ذكره ، ولما ضعف أمر الخلافة وافترق ملوك الأندلس وكثر الاختلاف بينهم وانتشرت الفتن صارت الممالك بيد ملوك كثيرة يسمون ملوك الطوائف لكل مملكة ملك مستقل ينفذ أمره ونهيه فيما كان تحت يده من الممالك ، وهم مختلفون فى اتساع ممالكهم وعدم اتساعها وكان ابتداء تفرق الممالك واستبداد تملك الطوائف من سنة سبع وأربعمائة وصاروا يقاتل بعضهم بعضاً فيتغلب بعضهم على بعض ويستولى على ما بيد الآخر وكان عدد أولئك الملوك خمسة عشر لا حاجة إلى ذكر أسمائهم ، وكان أعظم الممالك عندهم قرطبة وهى مقر دار

الخلافة وسرير الملك والسلطنة وكان المستولى على قرطبة من ملوك الطوائف المعتضد بن عباد ، وكانت قبل تغلبه عليها عند أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور المعافرى الـكلبى استبد بها من سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، ثم صارت لبنيه من بعده فأخذها منهم ابن ذى النون صاحب طليطلة سنة إحدى وستين وبقيت عنده إلى سنة تسع وستين وأربعمائة فانتزعها منهم المعتضد بن عباد بعد قتال وضمها إلى ما كان بيده من الممالك ، فصار ابن عباد أعظم ملوك الطوائف فـكانوا يهابونه ويهـادونه ويخضعون له ويخشون سطوته وكان أبو المعتضد وهو الذى أسس له هذا الملك قيل إنه من لخم وينتهى نسبه إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة فى الجاهلية وتوفى المعتضد بن عباد سنة إحدى وستين وأربعمائة ، وصار الملك بعده لابنه المعتمد محمد بن عباد فاتسع ملـكه وشمخ سلطانه أكثر مما كان لأبيه ، وكان أيضا من أعظم الممالك طليطلة ، وكانت لبنى ذى النون وكانت قبلهم ليعيش بن محمد بن يعيش من أول الفتنة والتفرق إلى سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، فانتزعها منهم وتغلب عليها اسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذى النون أصله من البربر من قبيلة هوارة وضمها إلى ما كان بيده من الممالك فاتسع ملـكه ، وتوفى سنة تسع وعشرين وأربعمائة فولى بعده ابنه المأمون أبو الحسن يحيى فاستفحل ملـكه وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه ، وتوفى سنة سبع وستين وأربعمائة ، فولى بعده حفيده القادر بالله يحيى بن اسماعيل بن المأمون يحيى فانتزعها الطاغية منه ، وهى من المتوسطة من الأندلس ، وكانوا يسمونها وجهاتها الثغر الأدنى ، ويسمون سرقسطة وجهاتها الثغر الأعلى ، وتسمى طليطلة أيضاً مدينة الأملاك لأنها ملـكها اثنان وسبعون ملـكا ، قيل إن سليمان بن داود عليه السلام دخلها وكذا عيسى بن مريم عليهما السلام ، ودخلها أيضاً ذو القرنين ، وهى مدينة حصينة قديمة من بناء العمالقة ، ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة ورسانيق مريعة وضياع بديعة وقلاع منيعة وبها القنطرة العجيبة البناء يعجز الواصفون عن وصفها ، وطول تلك القنطرة ثلاثمائة باع وعرضها ثمانون باعا على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جرى ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها فى الجو تسعون ذراعا وهى تصعد المـاء إلى أعلى القنطرة ، ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة وبنى المأمون فيها قصراً تأنق فى بنائه وأنفق مالاً كثيراً

وصنع فيه بحيرة وبنى فى وسطها قبة وسيق الماء إلى أعلى القبة على تدبير أحكمه المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة متواليها كلها محيطا بها متصلا بعضه ببعض فكانت القبة فى غلالة من الماء يسكب ولا يفتر ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شىء ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل فبينما هو فيها يوماً إذ سمع منشداً يقول :

أتبنى بنــاء الخالدين وإنمــا ... بقاؤك فيها لو علمت قليل

لقد كان فى ظل الأراك كفاية ... لمن كل يوم يعتريه رحيل

فلم يلبث بعد هذا إلا يسيراً حتى قضى نحبه وذلك سنة خمس وثلاثين وأربعمائة وولى بعده ابنه يحيى القادر بالله إلى أن أخذت منه ، ثم صارت له بلنسية بواسطة الطاغية إلى أن قتل كما تقدم وبطليطلة بساتين محدقة وأنهار مخترقة ورياض وجنان وفواكه حسان مختلفة الطعوم والألوان ، وفيها إيوان كبير يقال إن الخيل تلعب فيه وكان بنو ذى النون ملوك طليطلة لهم دولة كبيرة وبلغوا فى البذخ والترف إلى الغاية فطمع فى ملكهم الطاغية المسمى بالأذفونش واشتغل القادر يحيى صاحبها بالخلاعة والمجون وأكثر مهاداة الإفرنج ومصانعتهم ليتلذذ باللعب وامتدت يده إلى أموال الرعية ، ولم تزل الفرنج تأخذ حصونه شيئا بعد شىء حتى أخذت منه طليطلة وسلبته ملكه ، ولما أرادوا أخذها سار إليها الأذفونش بجيوشه وسار يتملك قراها وأعمالها ويضيق عليها بالحصار وكان ذلك كله فى مدة سبع سنين ، فلما اشتد عليهم الحصار رضى صاحبها والمسلمون أن ينزلوا عنها وقد فنى بالقتل والأسر والنهب كثير منهم فى قراها وبواديها قال ابن بسام بعد ذكره وقعة بطرنة المتقدم ذكرها وذكر ما صار للمسلمين عند أخذها ، وهكذا جرى لأهل طليطلة فإن العدو خذله الله استظهر عليهم وقتل جماهيرهم وكان من جملة ماغنمة الفرنج من أهلها لما خرجوا إليهم من ثياب الترفه ألف عفارة خارجاً عما سواها وكان أخذ الطاغية طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وأعطى الأمان لصاحبها القادر بالله ولمن بقى بها من المسلمين، ثم لما ملكها الطاغية صار يستميل أهلها الباقين فيها ويظهر لهم صورة العدل حتى حبب التنصر إلى كثير من الطغام منهم وقيل للملكهم الطاغية ينبغى أن تلبس التاج كمن كان قبلك من

الملوك فقال حتى نأخذ قرطبتهم وأعد لذلك ناقوساً تأنق فيه وأخذ فى الاستعداد لتملك قرطبة ، ومما يدل على عظم مدينة طليطلة وحصانتها إن المسلمين لما استرجعوا ما تملكه الأعداء من المدائن والقرى عجزوا عن استرجاع طليطلة وبقيت فى يد العدو إلى آخر المدة ، ولما فتح المسلمون الأندلس فى أول الأمر ألقى الله الرعب فى قلوب النصارى وصاروا يأخذون فى الفرار ولم يثبت منهم أحد بعد أول وقعة كانت بينهم وبين المسلمين حتى أنهم أخلوا طليطلة فوجدها المسلمون خالية ووجدوا فيها مائدة سليمان عليه السلام وقيل إنها ليست لسليمان وإنما هى لملوكهم تأنقوا فى صنعها وكانت مصوغة من الذهب مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ،ولم ير الراؤن مثلها وكان لها ثلاثمائة وخمسة وستون رجلا بكسر الراء وسكون الجيم وكان عليها طوق من اللؤلؤ وطوق من الياقوت وطوق من الزمرد ، وكلها مكللة بالجوهر وحافاتها وأرجلها وكانت أرجلها منها فأخذها طارق بن زياد فاتح الأندلس وأتحف بها الوليد بن عبد الملك .

ذكر ماجرى بعد استيلاء العدو على طليطلة بين العدو والمعتمد بن عباد صاحب قرطبة

قد تقدم أن ابن عباد كان أعظم ملوك الطوائف وذلك لأنه قاتل كثيراً من ملوك الطوائف وانتزع منهم كثيراً من ممالكهم فصار له قرطبة واشبيلية وبطليوس وشريش وقرمونة ورندة وغير ذلك ، فكان الباقون من ملوك الطوائف يهابونه ويلتمسون رضاه ولما رأى ابن عباد قوة الأذفونش الطاغية صار يداهنه ويهاديه ويخضع له وجعل له ضريبة على نفسه يؤديها إليه كل سنة ، فلما تملك الأذفونش طليطلة وأرسل إليه المعتمد الضريبة المعتادة التى كان يدفعها كل سنة فلم يقبلها الأذفونش وأرسل إليه يتهدده ويتوعده المسير إلى قرطبة ليفتحها إلا أن يسلم إليه الحصون المنيعة التى يريدها فيبقى العهد للمسلمين وكان رسول الأذفونش إلى المعتمد معه جمع من النصارى أتباع الأذفونش كانوا نحو خمسمائة فارس ،فلما وصل إلى المعتمد أنزله وحده وفرق أصحابه على قواد عسكره ، ثم أمر المعتمد قواد عسكره أن يقتل كل منهم من كان عنده من أولئك النصارى الذين جاؤا

مع رسول الأذفونش فقتلوهم وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه وسلم من أولئك النصارى المرسلين ثلاثة نفر فرجعوا إلى الأذفونش وأخبروه الخبر ، وكان قد تجهز إلى قرطبة ليحاصرها فرجع إلى طليطلة ليزيد فى التجهز و يجمع مابقى من آلات الحصار ويكثر الجيوش والعدة ، فلما بلغ المعتمد اهتمام الطاغية فى التجهز رحل إلى اشبيلية لتدبير هذا الأمر وسمع بذلك العلماء من مشايخ قرطبة وتحققوا جميع ماجرى وعلموا قوة الفرنج وضعف المسلمين وتأملوا فى أمر ملوك الطوائف فوجدهم منهمكين فى اللذات والشهوات . ويقاتل بعضهم بعضا ويستعين بعضهم على بعض بالفرنج ، فاجتمع العلماء يتشاورون فى هذا الأمر فقال بعضهم هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الإفرنج وملكوا كثيراً منها ولو استمرت الحال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت ، ثم ساروا إلى قاضى القضاة المسمى عندهم بقاضى الجماعة وكان فى ذلك الوقت هو القاضى عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة وإعطائهم الجزية للطاغية بعد أن كانوا يأخذونها منه ، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك ، قال ما هو ؟ قالوا نكتب إلى عرب أفريقية و نبذل لهم إذا وصلوا إلينا أنصاف أموالنا ونخرج معهم مجاهدين فى سبيل الله ، فقال لهم إذا وصلوا إلينا يخربون بلادنا ويطمعون فينا ويبدؤن بنا قبل الإفرنج ، ثم يذهبون بأموالنا إلى بلادهم ويتركونا مع الإفرنج فيزدادون قوة علينا والذى أراه أن المرابطين أتباع يوسف بن تاشفين ملك مراكش أقرب إلينا من عرب أفريقية وكان يوسف بن تاشفين له ملك ضخم وقوة عظيمة ، فى مراكش وفاس وأعمالها ، فاستحسن العلماء ما قاله قاضى الجماعة. ثم ذهب قاضى الجماعة إلى المعتمد بن عباد وعرض عليه ما قالوه واستحسنوه فاستحسنه المعتمد بن عباد وقال للقاضى المذكور أنت الرسول إلى ملك مراكش يوسف بن تاشفين فامتنع وأراد أن يبرىء نفسه من تهمة تقع عليه ، فلم يقبل منه المعتمد هذا الامتناع بل ألح عليه المعتمد إلى أن رضى وعزم على المسير إليه ، فكان ما سيأتى ذكره ، وينبغى قبل ذكر مسير قاضى الجماعة أن نذكر شيئا مما يتعلق بدولة يوسف بن تاشفين ملك مراكش، وكيف كان ابتداء أمره ليعلم بذلك كيف ترقت دولته حتى كانت فى غاية القوة والمتانة ،

وتعرف دولته بدولة المرابطين والمتلثمين لأنهم كانوا يتلثمون دائماً وهم عدة قبائل أشهر تلك القبائل قبيلة لمتونة ، وكان يوسف بن تاشفين منهم ، ومنهم قبيلة جدالة وملطة ، واختلفوا فى انتهاء نسبهم اختلافاً كثيراً فاختار ابن الأثير أنهم ينسبون إلى حمير فهم على قوله من العرب وكان أول مسيرهم من اليمن فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه فسيرهم إلى الشام زمن فتوحات الشام ، ثم انتقلوا إلى مصر ، ثم دخلوا المغرب مع موسى بن نصير ثم توجهوا مع طارق بن زياد فاتح الأندلس ثم أحبوا الانفراد ودخلوا الصحراء واستوطنوها ثم توحشوا وتوالد منهم قبائل كثيرة واختار بن خلدون أنهم ليسوا من العرب وإنما هم من البربر وإن نسبهم ينتهى إلى يافث بن نوح ، ولما توحشوا فى البوادى صاروا لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين والصلاة ، ثم حج رجل منهم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، فلما رجع صحب معه واحداً من العلماء ، وكان فقيهاً صالحاً اسمه عبد الله بن يس الكرولى وقصد بمجيئه إلى قومه أن يعلمهم الأحكام والشرائع فجاء معه فأكرموه وصار يعلمهم وينقادون له ، ثم جعلوا عليهم أميراً من لمتونة وهو أبو بكر بن عمر وكان هو رأس لمتونة ، ثم صاروا يقاتلون أهل البغى والفساد ممن كان قريباً منهم فقوى أمرهم ، ثم خرجوا إلى السوس الأقصى وصاروا يأخذون الزكاة ووقع بينهم وبين أهل السوس قتال إلى أن انقادوا لهم ثم قاتلوا أهل سجلماسة إلى أن انقادوا لهم أيضاً ، ثم توفى أميرهم أبو بكر بن عمر بعد أن استخلف ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر ، ثم توفى أبو بكر أيضاً سنة اثنتين وستين وأربعمائه فاجتمعت طوائفهم على ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وملكوه عليهم ولقبوه أمير المسلمين فكثرت جموعهم وقوى أمرهم ، وكان يوسف المذكور مشهوراً بالعقل والصلاح وحسن التدبير ، فظهر أمرهم ، وعلا شأنهم فقصدوا موضع مدينة مراكش وكان قاعاً صفصفاً لا عمارة فيه فاختط يوسف هناك مدينة مراكش ونزلها بمن كان معه من القبائل ثم لم يزل يتملك مدائن المغرب مدينة بعد مدينة حتى صار له من القوة والمتانة ما هو مشهور مذكور فى التواريخ والكلام على ذلك طويل ، فلما نزل بأهل الأندلس ما نزل من الكفار قصدوه ، فبعثوا إليه قاضى الجماعة بقرطبة القاضى عبد الله بن محمد بن أدهم ،

فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بمكاتبة من المعتمد بن عباد وعلماء قرطبة فأبلغه الرسالة وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش ، وكان أمير المسلمين بمدينة سبتة ، ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس وأرسل إلى مراكش في طلب ما بقي من العساكر وأقبلت إليه يتلو بعضها بعضاً ، فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار إلى أن اجتمع بالمعتمد بن عباد بأشبيلية فكانت غزوة الدلاقة المشهورة .

ذكر غزوة الدلاقة

لما اجتمع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمعتمد بن عباد بأشبيلية وجده قد جمع عساكره وكان فيهم من أهل قرطبة عسكر كثير ومعهم من المتطوعة من سائر بلاد الأندلس خلق كثير ، فلما وصلت الأخبار إلى الأذفونش الطاغية جمع عساكره وسار من طليطلة وكتب إلى أمير المسلمون يوسف بن تاشفين كتابا باللسان العربى كتبه له بعض المخذولين ممن يدعون الانتساب إلى الإسلام يغلظ فيه القول ويصف ماعنده من القوة والعدد والعدة ، وبالغ الكاتب فى الكلام وتجاوز الحد فأمر ابن تاشفين كاتبه أن يكتب الجواب لأذفونش فكتب كلاما كثيراً ، فلما قرأة على أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين قال هذا كلام طويل أحضر كتاب الأذفونش وكتب فى ظهره الذى سيكون ماستراه لا ما استقر ماؤه ، فلما رجع الكتاب إلى الأذفونش ارتاع لذلك وعلم أنه بلى برجل له عزم وحزم فازداد استعداداً وكان فى جيشه أربعون ألف ذراع ، وجملة جيشه ثلاثمائة ألف بغاية الاستعداد فرأى فى منامه كأنه راكب على فيل وبين يديه طبل صغير وهو ينقر فيه فقص رؤياه على القسيسين فلم يعرفوا تأويل هذه الرؤيا فأحضر رجلا من علماء المسلمين فقص الرؤيا عليه فاستعفاه من تعبيرها فلم يعفه فطلب منه الأمان على نفسه إذا عبرها له فأمنه فقال له تأويل هذه الرؤيا يؤخذ من كتاب الله عز وجل وهو وهوقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ إلى آخر السورة وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ وهذا التأويل

يقضى هلاك هذا الجيش الذى جمعته ، فقال الأذنوفش للذى عبر له الرؤيا بهـذا الجيش ألقى إله محمد صاحب كتابكم وأقاتل بهذا الجيش الجن والإنس وملائكة السماء ، فانصرف ذلك المعبر وقال لبعض المسلمين : هذا الأذفونش هالك وكل من معه وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مهلكات « شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » وكان الأذفونش استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ، ونشروا أناجيلهم ، وأيقنوا بالنصر والظفر اغتراراً بكثرتهم وقوة استعدادهم وما علموا أن النصر من عند الله وأن العاقبة للمتقين ، ثم سار أمير المسلمين والمعتمد ابن عباد بجيوشهما وجيوش ملوك الطوائف حتى أتوا أرضاً يقال لها الزلاقة من بلد بطليموس ، وأتى الأذفونش بجيوشه ، فنزل موضعاً بينه وبينهم ثمانية عشر ميلا ولم يبق أحد من ملوك الطوائف بالأندلس إلا بادر وأعان بالمال والرجال وخرج بنفسه وأخرج عساكره ولـكن لم يبلغ عدد مقدار جيش العدو ، وقيل لأمير المسلمين أن ابن عباد ربما أنه لا ينصح ولا يبذل نفسه دونك فأرسل أمير المسلمين يأمره أن يكون فى المقدمة ففعل ذلك وسار ، وقد ضرب الأذفونش خيامه فى سفح جبل والمعتمد فى سفح جبل يتراءون ، ونزل أمير المسلمين وراء الجبل الذى عنده المعتمد ، وظن الأذفونش أن عساكر المسلمين ليس إلا الذين يراهم مع ابن عباد فتيقنوا الغلب ، وأرسل الأذونونش إلى المعتمد فى ميقات القتال فقال يكون يوم الاثنين ، فقد وصلنا على حال تعب ، واستقر الأمر على هذا . فركب الأذوفونش ليلة الجمعة سحراً وصبح بجيشه وجيش المعتمد بكرة الجمعة غدرا وظناً منه أن ذلك المخيم هو جميع عساكر المسلمين فوقع القتال بينهم فصبر المسلمون وأحاط عليهم الأذفونش بجموعه من كل جهة ، وحمى الوطيس واستحر القتال فى أصحاب ابن عباد وقاتل ابن عباد بنفسه قتالا لم يعهد مثله لأحد وجرح جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه وجرحت يمنى يديه وطعن فى أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر وهو يقاسى حياض الموت ويضرب يميناً وشمالا وكان ابن عباد قد بعث إلى أمير المسلمين يستحث نصرته فبينما هم

فى القتال إذ وصل أمير المسلمين بجيوشه وبعد أن كاد المسلمون يهزمون وقصد خيام الفرنج ومحلة الأذفونش فاقتحموها وأحرقوها وفتكوا فيها وضربت الطبول وزعقت البوقات فاهتزت الأرض وتجاوبت الجبال والآفاق وتراجعت الروم إلى محلاتهم بعد أن علموا أن أمير المسلمين فيها فصدموا أمير المسلمين فخرج لهم عنها ثم كر عليهم ، فأخرجهم منها ، ثم كروا عليهم فخرج لهم عنها ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أن أمير المسلمين حشمه السودان فترجل منهم زهاء أربعة آلاف ودخلوا المعترك بالدرق والسيوف والمزاريق ، فطعنوا الرجال والخيل فرمحت الخيل بفرسانها وأحجمت عن أقرانها ، وكان أهل الأندلس لا يعرفون الجمال وليست فى بلادهم ، فجاء أمير المسلمين معه بجمال كثيرة فكانت من جملة أسباب النصر لأن خيل العدو كانت تجمح من رؤية الجمال ومن رغائبها وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ومن منفعة تلك الجمال أنه كان يحدق بها العسكر وقت نزولهم وكان يحضرها الحرب فيكثر رغاؤها ثم تحول أناس من جيش أمير المسلمين جاءوا إلى موضع القتال ، فلقيهم من بين أيديهم ووضع السيف فيهم فلم يتمالكوا الثبات وأنزل الله النصر وأنزل السكينة على المسلمين فانهزم العدو وأخذهم السيف من كل جانب، وصدق المسلمون جميعاً الحملة فتزلزت الأرض بحوافر خيولهم وأظلم النهار بالعجاج والغبار وخاضت الخيل فى الدماء فانكشف الطاغية وفر هاربا منهزما وقد طعن فى إحدى ركبتيه طعنة بقى يخمع بها وأفلت فاراً مع نفر يسير من قومه وهلك الباقون وكان موضع القتال متسعا جداً فما كان فيه موضع قدم إلا وفيه من تلك الوقعة ميت أو دم وجمع المسلمين من رؤوس القتلى كوما فكانوا يؤذنون عليها إلى أن جيفت فأحرقوها ، قيل لم يرجع من الفرنج إلى بلادهم غير ثلاثمائة فارس وغنم المسلمون كل مالهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك ، وجمع أمير المسلمين الغنائم وعف عنها وأعطاها ملوك الأندلس وعرفهم أن مقصده الجهاد ونيل الثواب العظيم وأقام أربعة أيام لجميع الغنائم وعاد ابن عباد إلى أشبيلية ورجع أمير المسلمين إلى الجزيرة الخضراء وعبر إلى سبتة وسار إلى مراكش ولما بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ، ففقدهم ولم يسمع إلا نوح الثكلى فاهتم ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غما وهوى إلى أمه الهاوية وكانت هذه الوقعة

فى يوم الجمعة فى العشر الأول من رمضان سنة تسع وسبعين وأربعمائة فكانت هذه الغزوة من أعظم غزوات المسلمين وفتوحاتهم .

ذكر ما كان بعد غزوة الذلاقة

ولما فرغ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من غزوة الذلاقة أقام بالأندلس أيام ثم لما أراد التوجه إلى مراكش ، ترك جيشاً عظيما بالأندلس لقصد غزو الإفرنج وشكا إليه كثير من علماء الأندلس جور ملوك الأندلس الذين اقتسموها وانهماكهم من اللذات والشهوات والمعاصى ، فوعظ الملوك وزجرهم ونهاهم عن المكوس ، وعن الظلم والجور والانهماك فى اللذات والشهوات ثم رجع إلى مراكش فجاءته الأخبار بأنهم تقاعدوا عن جهاد الكفار واستغرقوا الأوقات فى اللذات والشهوات ، وزادوا فى الظلم عما كانوا ، فاستفتى علماء العراق فيهم فأفتوه بجواز انتزاع الملك منهم ، فعبر إليهم فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة وانتزع الملك منهم واستولى على الأندلس بعد قتاله لبعض للتملكين لها وقتل بعضهم وأسر بعضهم وحملهم إلى مراكش وحبسهم إلى أن ماتوا وصار ملك الأندلس كلها بيده ويد عماله مضافاً ذلك إلى ما بيده من المغرب الأقصى وأكثر من الغزو والجهاد بالأندلس هو وجنوده ، وتوفى سنة خمسمائة وكان الإمام الغزالى لما بلغه حسن سيرته أراد زيارته فرحل من العراق إلى الشام ثم بلغه موته قبل أن يصل إليه فرجع ، وكان يوسف بن تاشفين يخطب لبنى العباس وكان قد طلب منهم تقليداً لأنه قيل له لاتجب طاعتك وتنفذ أحكامك إلا إذا كانت ولايتك من الخليفة ، فأرسل رسلا إلى الخليفة ومعهم هدية وطلب التقليد فكتب له المستظهر بالله العباس بن المقتدى بأمر الله بن القائم بأمر الله ابن القادر بالله ابن إسحاق بن المقتدر بالله ابن المعتضد وعقد له على الأندلس وبقية الممالك التى كانت تحت يده ، ولقبه أمير المسلمين وناصر الدين وبايعوا بعد وفاته ولده على بن يوسف بن تاشفين وكان حليما عاقلا صالحاً عادلا .

ذكر خروج الفرنج بالأندلس بعد وفاة يوسف بن تاشفين

لما توفى يوسف بن تاشفين قوى وطمع النصارى فى الاستيلاء على الأندلس فخرج الأذفونش الإفرنجى صاحب طليطلة سنة خمس وخمسمائة ، يطلب ما بأيدى المسلمين من ممالك الأندلس فجمع وحشد فأكثر فسار إليه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من مراكش فى عساكره وجموعه فلقيه فاقتتلوا أشد القتال فكان الظفر للمسلمين وانهزم الإفرنج وقتلوا قتلا ذريعاً وأسر منهم شىء كثير وسبى منهم وغنم من أموالهم مايخرج عن الإحصاء فخافه الإفرنج بعد ذلك . وفى سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج ابن ردمير من ملوك الإفرنج بجموع كثيرة فالتقى مع أمير المؤمنين على بن يوسف بن تاشفين بجموعه فكانت الهزيمة على المسلمين ثم رجع بن ردمير إلى بلاده ثم اشتغل أمير المسلمين بأمر محمد بن تومرت الذى ادعى أنه المهدى ، فاتسع الخرق فى الأندلس فأرسل أمير المسلمين ابنه تاشفين أميراً على الأندلس لجهاد الكفار ووقع بينه وبين ردمير وقائع وانتصر فى بعضها على ردمير فمات مغموماً من الهزيمة بعد عشرين يوماً ، وكان من أشد ملوك الفرنج على المسلمين فكفى الله المسلمين شره وبقى من ملوك الفرنج الأذفونش الذى كان قد تملك طليطلة فوقع بينه وبين المسلمين وقائع ثم عقدوا معه صلحاً عشرين سنة .

ذكر قيام محمد بن تومرت المدعى أنه المهدى المنتظر

اعلم أن هذه القضية الكلام عليها طويل مذكور فى التواريخ وتلخيص ذلك باختصار أن محمد بن تومرت رجل من جبل السوس يدعى أنه شريف علوى حسنى قرأ علوما بالمغرب ، ثم ارتحل إلى المشرق والعراق واجتمع بكثير من العلماء وأخذ عنهم قيل منهم الإمام الغزالى وقيل لم يجتمع بالغزالى وكان يرى منامات يؤولها بالقيام بأمر الأمة ، منها أنه شرب البحر مرتين وقيل كان له معرفة بالرمل والنجوم فقام فى نفسه أنه المهدى المنتظر وكتم ذلك فى أول أمره وأظهره فى آخره وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة والتقشف

فابتدأ أولا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتبعه جماعة يأخذون عنه العلم ويجتمعون معه على الذكر وكان أعظمهم عبد المؤمن بن على الكومى القيسى وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وعبدالله الونشريسى ، وكان الونشريسى عالماً متضلعاً بالعلوم فأمره أن يكتم ماعنده من العلوم ويجعل نفسه أبكم ويقوم بخدمة الشيخ وقال له أبق العلوم عندك مكتومة إلى أن نحتاج إلى إخراجها فى وقت يكون إخراجها فيه كالمعجزة والبرهان لإتمام مانريد فامتثل أمره وبقى أبكم بين الناس أبله ولعابه يجرى على صدره ولايتكلم إلا مع الشيخ فى وقت الخلوة ثم إنهم دخلوا مراكش فرأوا نساء راكبات على بغال وهن سافرات الوجوه وكانت تلك عادة لهن فى تلك البلاد فأنكروا عليهن وضربوا بعض البغال فسقطت من فوقها امرأة فإذا هى أخت أمير المسلمين فرفع الأمر إلى أمير المسلمين وأخبروه بأن هذا الرجل يتحدث فى تغيير الدولة فأحضروه ومن معه ، وحضر عند أمير المسلمين جماعة من العلماء ووقع بينهم وبين ابن تومرت مجادلات فأقام الحجة عليهم بوجود كثير من المنكرات بين أظهرهم ولم ينكروها ، ووعظ أمير المسلمين حتى أبكاه فقال مالك بن وهيب وكان عالماً صالحا ، يكثر مجالسة أمير المسلمين بل كان أحد وزرائه أن عندى النصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها ، فقال أمير المسلمين ما هى ؟ فقال إنى خائف عليك من هذا الرجل وأرى أنه لايريد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إنما يريد الفتنة والغلبة على بعض النواحى فاقتله وقلدنى دمه وإن لم تقتله فخلده فى الحبس ، فقال بعض الحاضرين من جلساء أمير المسلمين يقبح على أمير المسلمين أن يبكى من موعظة هذا الرجل ، ثم يسىء إليه فى مجلس واحد وأن يظهر منك الخوف منه على عظم ملكك وهو رجل فقير لايملك سد جوعه فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس واستهون أمره وصرفه وسأله الدعاء فلما خرج من عند الملك قال لأصحابه لامقام لكم بمراكش مع وجود مالك بن وهيب فساروا إلى اغمات ثم ذهبوا إلى جبل تينمل وكان جبلا عظيما فيه كثير من القبائل وكثير من الزروع والفواكه واتصلوا بالسوس وذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة واجتمع عليه خلق كثير وتسامع به أهل تلك النواحى وجعل يعظهم ويذكرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الإسلام وما غير منها وما حدث من الظلم والفساد وإنه لايجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل

بل الواجب قتالهم ومنعهم عما هم فيه فتابعه قبائل كثيرة وسمى أتباعه الموحدين ، وأعلمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر بالمهدى الذى يملأ الأرض عدلا وأن مكانه الذى يخرج منه المغرب الأقصى ، فقام إليه عشرة رجال أحدهم عبد المؤمن . فقالوا : لا يوجد هـذا إلا فيك فأنت المهدى ، فبايعوه على ذلك فانتهى خبره إلى أمير المسلمين فجهز جيشاً ، وسيره إليه مع بعض أصحابه ووعد المهدى أصحابه بالنصر ، فلقوا جيش أمير المسلمين ، فهزموهم وأخذوا أسلابهم وقوى ظنهم فى صدق المهدى وأقبلت إليه أفواج القبائل من الحلل التى حوله شرقا وغربا وبايعوه وألف لهم كتابا فى التوحيد سماه المرشد وكتابا فى العقيدة ونهج لهم طريق الأدب بعضهم مع بعض ، والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن ويزهدهم فى الدنيا ، وكان قوته كل يوم برغيف وقليل من زيت أو سمن ، وكان يحرضهم على قتال عدوهم وإخراج الأشرار من بينهم ، وكان يستميل الأحداث وذوى الغرة بالراء بعد الغين المعجمة ، وكان ذوو الحلم والعقل من أهاليهم ينهونهم عنه ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك ، فلما علم بذلك خشى أن يفسدوا عليه من اتبعه ويسلموه للملك فصار يسأل ويتجسس عن هؤلاء الذين يمنعون أولادهم وعشائرهم من اتباعه ويكتب أسماءهم فى جريدة عنده ولم يطلع على ذلك أحداً إلا عبد الله الونشريسى الأبكم الذى يخدمه ليترتب الأمر معه ، وقد تقدم أنه أمر أن يكتم ما عنده من العلم ويظهر البله والبكم فقال له فى هذا الوقت هذا وقت إظهار ما عندك ، وأمره أن يفعل ما سنذكره فخرج المهدى يوماً لصلاة الصبح فرأى فى جانب محرابه إنسانا حسن الثياب طيب الرائحة فأظهر أنه لا يعرفه وقال من هـذا ؟ فقال أنا الونشريسى ، فقال المهدى : ما قصتك فقد كنت أبكم لا تتكلم ، فقال أتانى آت الليلة من السماء فغسل قلبي وعلمنى الله القرآن والموطأ وغيره من العلوم والأحاديث ، فبكى المهدى بحضرة الناس ثم قال نحن نمتحنك فقال أفعل وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أى موضع سئل وكذلك الموطأ وغيره من كتب الفقه والأصول وبقية العلوم فعجب الناس من ذلك واستعظموه ثم قال لهم أن الله أعطانى نوراً أعرف به أهل الجنة من أهل النار وآمركم أن تقتلوا أهل النار

يتركوا أهل الجنة ، وقد أنزل الله ملائكة إلى البئر التى فى موضع كذا يشهدون بصدق وكان قد وضع فى البئر رجالا ثلاثة يشهدون بصدقه فسار المهدى والناس معه وهم يبكون إلى البئر وصلى المهدى عند رأسها ركعتين ، وقال يا ملائكة الله أن عبد الله الونشريسى قد زعم كيت وكيت فقال من فى البئر صدق ، فلما قيل ذلك من البئر قال المهدى أن هذه البئر مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة فالمصلحة أن تطم لئلا يقع فيها نجاسة أو مالا يجوز وقال ذلك لئلا يظهر الرجال منها فيفشون السر فيفسد الأمر الذى دبره فألقوا فيها من الحجارة والتراب ماطمها وأهلك من فيها من الرجال ثم نادى أهل الجبل بالحضور إلى ذلك الموضع فحضروا ليتميز أهل الجنة من أهل النار فكان الونشريسى يعمد إلى الرجل الذى عرفه المهدى به أنه يخاف عاقبته وكتبه فى الجريدة التى أطلعه عليها فيقول هذا من أهل النار فيقتل وإلى الشاب الغر ومن لا يخاف منه فيقول من أهل الجنة فيترك على يمينه ولم يزل يجمعهم فى أيام مرة بعد أخرى ويفعل ذلك حتى تتبع كل من يخشى منه فقتله قال ابن الأثير فى الكامل فكان عدة من قتلهم سبعين ألفا ، وصار الباقون معه على نيات صادقة وقلوب متفقة على طاعته فجهز منهم جيشا وجعل الأمير عليهم عبد المؤمن بن على وسيرهم لقتال المرابطين قوم أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وتتابع القتال بينهم مراراً وشرح ذلك يطول واستمر أمره يعلوا إلى سنة أربع وعشرين فمرض مرضاً شديداً وكان عبد المؤمن غائبا مع الجيوش التى تقاتل أهل مراكش فأوصى المهدى بأن خليفته عبد المؤمن وأمرهم باتباعه وتسليم الأمر إليه والانقياد له ثم توفى ، فلما رجع عبد المؤمن بايعه الناس وانقادوا له وتسمى دولته دولة الموحدين لأن المهدى سماهم بذلك كما تقدم فجهز الجيوش وأزال ملك بنى تاشفين وفتح البلدان وملك كثيراً من مدائن المغرب وكل ذلك مبسوط فى التواريخ وصار لعبد المؤمن ملك عظيم فى المغرب والأندلس توارثه بنوه بعده إلى سنة ثمان وستين وستمائة فانتزع الملك منهم بنو مرين فكانت مدة دولة بنى عبد المؤمن مع مهديهم مائة واثنتين وخمسين سنة قال فى نفح الطيب كانت دولة بنى عبد المؤمن من أعظم الدول الإسلامية وكان كل واحد يلقب أمير المؤمنين ومسلكهم مسلك الخلفاء

وكانوا يدعون على المنابر لمهديهم محمد بن تومرت ويضربون اسمه على السكة وتوفى عبد المؤمن سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وعمره ثمان وستون سنة ومدة ملكه ثلاث وثلاثون سنة وكان عاقلا حازماً سديد الرأى حسن السياسة كثير البذل للأموال إلا أنه كان سفاكا للدماء على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويلزم الناس فى سائر بلاده بالصلاة ومن ترك الصلاة قتله وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين ومما نقل من كرمه أن شاعر مدحه بقصيدة مطلعها .

ماهز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

فأشار إليه أن يقتصر على هذا البيت ولا يتمم قراءة القصيدة وأمر له بألف دينار فقيل له لم لم تسمع تمام القصيدة فقال عبد المؤمن وماعسى أن يقول بعد قوله ماهز عطفيه البيت يعنى أنه لا يمكن أن يأتى بمدح أعظم مما فى هذا البيت وفى المؤنس فى أخبار تونس للعلامة أبى القاسم الرعينى القيروانى أن هذا الشاعر بعد أن قبض الألف دينار عاد إليه من الغد وأنشده البيت المذكور فأسكته وأمر له بألف دينار أخرى ثم لم يزل ينشده كلما دخل عليه ويأمر له بألف دينار إلى أن وصله بأربعين ألفاً فحسده بعض الشعراء . وقال له إلى متى تفعل هكذا وما يؤمنك من تغيير أخلاق أمير المؤمنين وقد وصلك بما فيه غناؤك فارتحل من فوره إلى بلده ثم سأل عنه عبد المؤمن فأخبره برحيله فقال لا حول ولا قوة إلا بالله لقد ظن بنا غير ما أردناه ولو طال مقامه لزدناه على ذلك وكان لعبد المؤمن معرفة بالشعر والأدب يحكى عنه أنه مر ببعض طرق مراكش ومعه وزيره أبو جعفر بن عطية فأطلت من شباك جارية بارعة الجمال فقال :

عبد المؤمن : قدت فؤادى من الشباك إذ نظرت

فقال ابن عطية : حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن : كأنما لحظها فى قلب عاشقها

فقال ابن عطية : سيف المؤيد عبد المؤمن بن على

ويقال لعبد المؤمن القيسي نسبة إلى قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ويقال له الكومي نسبة إلى كومية قرية بتلمسان وكان المهدي محمد بن تومرت يقول له إن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمان برجل من قيس » وأرجو أن تكون أنت وكان أبوه صانعاً في عمل الطين يعمل منه الآنية ويبيعها قال ابن خلكان في ترجمة عبد المؤمن كان في صباه يوماً نائماً تجاه أبيه ، وكان أبيه مشتغلا بعمل الآنية من الطين فسمع أبوه دويا في السماء فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار فنزلت كلها مجتمعة على ابنه عبد المؤمن وهو نائم فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها فرأته أمه على تلك الحالة فصاحت خوفا على ولدها ، فسكتها أبوه فقالت : أخاف عليه ، فقال : لا بأس عليه بل إني متعجب مما يدل عليه ثم أنه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ووقف ينتظر ماذا يكون من أمر النحل فطار عنه بأجمعه فاستيقظ الصبي وما به ألم فتفقدت أمه جسمه فلم تر به أثراً ولم يشك لها ألما وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر ، فمضى إليه أبوه وأخبره بما رآه من النحل مع ولده فقال ذلك الرجل يوشك أن يكون لولدك هذا شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب فكان من أمره ما كان ، وتقدم أن من أصحاب المهدي عمر بن يحيي الهنتاني قيل إنه ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه صار بعد المهدي من وزراء عبد المؤمن وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا يسمون بالحفصيين استمر ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمائة وإحدى وثمانين فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية وكانوا يلقبون بالحفصيين وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة وهم من فروع دولة المهدي محمد بن تومرت واختلف الناس في أمر ابن تومرت فقال بعض العلماء إنه أراد إظهار الحق فاجتهد وأخطأ وقال بعضهم أنه كان على الأمة شراً من الحجاج ويزيد والله أعلم بحقيقة الحال (والمذكور) ما كان من الفتوحات في مدة عبد المؤمن وبنيه وفي مدة الحفصيين ملوك تونس .

ذكر أول تجهيز لعبد المؤمن على الأندلس

قال ابن الأثير فى الكامل فى حوادث سنة إحدى وأربعين وخمسمائة : فى هذه السنة سير عبد المؤمن بن على جيشاً إلى جزيرة الأندلس فملكوا ما فيها من بلاد الإسلام وسبب ذلك أن عبد المؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء إليه جماعة من أعيان الأندلس ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التى هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم فى زمرة أصحابه الموحدين وإقامتهم لأمره فقبل عبد المؤمن منهم ذلك وشكرهم عليه وطيب قلوبهم ، وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشاً كثيفاً وسيره معه وعمر أسطولا وسيره فى البحر فسار الأسطول إلى الأندلس ، وقصدوا مدينة اشبيلية وصعدوا فى نهرها وبها جيش من الملثمين وهم أتباع يوسف بن تاشفين ويقال لهم المرابطون فحصروها براً وبحراً وملكوها عنوة ، وقتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا ، واستولت العساكر على البلاد التى كان لعبد المؤمن من كان بها وانتزعت عساكر عبد المؤمن كثيراً من مدائن الأندلس التى كانت فى طاعة المرابطين مدينة بعد مدينة بعد حروب يطول ذكرها ، وفى سنة اثنتين وأربعين حصر الفرنج مدينة المرية من الأندلس وضيقوا عليها براً وبحراً فملكوها عنوة وأكثروا القتل بها والنهب ، وملكوا أيضاً مدينة شاسه وولاية جيان وكلها بالأندلس ، وفى سنة ثلاث وأربعين ملك الفرنج بالأندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وإفراغة ولم يبق للمسلمين شىء فى تلك الجهات إلا واستولى الفرنج عليه وفى سنة خمس وأربعين سار السليطين وهو الأذفونش وهو ملك طليطلة وأعمالها وهو من ملوك الجلالقة نوع من الفرنج فى أربعين ألف فارس إلى مدينة قرطبة فحصرها وهى فى ضعف وغلاء فبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكراً كثيراً وجعل مقدمهم أبا زكريا يحيى بن يرموز وأنفذهم إلى قرطبة ، فلما قربوا منها لم يقدروا أن يلقوا عسكر السليطين فى الوطاء وأرادوا الاجتماع بالمسلمين المحصورين بقرطبة ، فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة ، فساروا نحو خمسة وعشرين يوما فى الوعرة فى مسافة أربعة

أيام فى السهل فوصلوا إلى الجبل المطل على قرطبة ، فلما رآهم السيلطين وتحقق أمرهم رحل عن قرطبة ليذهب إليهم ، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القائد بن غليون وهو من أبطال أهل الأندلس وأمرائها ، فلما رحل الفرنج خرج من قرطبة لوقته وصعد إلى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا وقال لهأدخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها ، فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السيلطين على رأس الجبل الذى كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذى خفته عليكم لأنى علمت أن السليطين ما ارتحل إلا طالبا لكم فإن من الموضع الذى كان فيه إلى الجبل طريقاً سهلا ولو لحقكم هناك نال مراده منكم ومن قرطبة ، فلما رأى السليطين أنهم قد فاتوه علم أنهم دخلوا قرطبة ولم يبق له طمع فى قرطبة فرحل عائداً إلى بلاده ، وكان حصره لقرطبة ثلاثة أشهر ، وفى سنة ست وأربعين سير عبد المؤمن جيشاً كثيفاً نحو عشرين ألف فارس إلى الأندلس مع أبى حفص عمر الهنتانى وسير معهم نساءهم فكن يسرن مفردات عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضربه الخدم بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا إلى غرناطة وبها جمع من المرابطين جماعة ابن تاشفين فحصرها عمر وعسكره وضيقوا عليها فجاء إليه أحمد بن ملحان صاحب مدينة وادى آش وأعمالها بجماعته ووحدوا وصاروا معه وأتاه إبراهيم بن همشك صهر بن مردنيش صاحب جيان وأصحابه ووحدوا وصاروا أيضاً معه فكثروا جيشه وحرضوه على المسارعة إلى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الأندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز ، فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه ، فأرسل إلى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول إليه الفرنجى فى عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا إلى باقوارة وبينها وبين مرسية التى هى مقر ابن مردنيش مرحلة فسمعوا بوصول الفرنجى مع ملك برشلونة فرجع جيش عبد المؤمن وحصروا مدينة المرية وهى للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء فى العسكر وعدمت الأقوات فرحلوا عنها وعادوا إلى أشبيلية فأقاموا بها ، وفى سنة إحدى وخمسين استعمل عبد المؤمن ابنه أبا سعيد عثمان على سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة فعبر

أبو سعيد البحر إلى مالقة وهى من الأندلس واتخذها داراً وكاتبه ميمون بن بدر اللمتونى صاحب غرناطة ورضى أنه يوحد ويسلم إليه غرناطة فقبل ذلك منه أبو سعيد وتسلم غرناطة فسار ميمون إلى مالقة بأهله وولده فتلقاه أبو سعيد وأكرمه ووجهه إلى أبيه عبد المؤمن بمراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وأكرمه ، وانقرضت بذلك دولة المرابطين ويقال لهم أيضاً الملثمون كما تقدم ، ولم يبق لهم إلا جزيرة ميورقة مع أحمد بن غانية ، فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش ، وسار إلى مدينة المرية وهى بأيدى الفرنج ، أخذوها من المسلمين سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاه الأسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية براً وبحراً ، فلجأ الفرنج إلى حصنها فحصروهم ونزل وعسكره على الجبل المشرف عليها ، وبنى أبو سعيد سوراً على الجبل المذكور إلى البحر وعمل عليه خندقاً فصارت المدينة والحصن الذى فيه الفرنج محصوراً بهذا السور والخندق ولا يمكن من ينجدهما من أن يصل إليهما ، فجمع الأذفونش ملك الفرنج بالأندلس المعروف بالسليطين جموعا من الفرنج بلغت اثنى عشر ألف فارس ومعه محمد بن سعد بن مردنيش فى ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول إلى المدينة ليدفعوا المسلمين عنها ، فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين فى عوده قبل أن يصل إلى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر فضاقت الميرة وقلت الأقوات على الفرنج فطلبوا الأمان ليسلموا الحصن فأجابهم أبو سعيد إليه وتسلم الحصن ورحل الفرنج فى البحر عائدين إلى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين، وفى سنة سبع وخمسين وخمسمائة أرسل غرناطة من بلاد الأندلس وهى لعبد المؤمن إلى الأمير إبراهيم بن همشك صهر بن مردنيش فاستدعوهم إليهم ليسلموا إليه البلد وكان قد وحد كما تقدم وصار من أتباع عبد المؤمن وفى طاعته وممن يحرض على قصد بن مردنيش ، فلما وصل إليه رسل أهل غرناطة طمع فى الملك فسار معهم إليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذى كان عنده وتوجه إلى غرناطة لنصرة أصحابهم المسلمين الذين بغرناطة ، فعلم بذلك ابراهيم

ابن همشك فاستنجد بن مردنيش ملك البلاد بشرق الأندلس فأرسل إليه ألفى فارس من أنجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحى غرناطة فالتقوا هم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن من قبل وصول أبى سعيد إليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم أبو سعيد بمن معه فاقتتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الأعيان والفرسان المشهورين والرجالة والاجلاد حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ أبوسعيد ولحق بمالقة ، وسمع عبدالمؤمن الخبر فسير فى الحال ابنه أبا يعقوب فى عشرين ألف مقاتل فيهم جماعةمن شيوخ الموحدين فجدوا السير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه إلى غرناطة ليعين ابن همشك ، فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش فى الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذى أمر به لابن همشك أولا وهم ألف فارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكر عبدالمؤمن إلى جبل قريب من غرناطة فأقاموا فى سفحة أياما ، ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذى بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جميع جهاتها فما لحقوا أن يركبوا فقتلوهم عن آخرهم وأقبل عسكر عبد المؤمن بجملته فنزلوا بضواحى غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك أنهم لاطاقة لهم ، ففروا فى الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة ، وفى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفى عبد المؤمن فبايع الموحدون ابنه محمد ثم خلعوه بعد خمسة وأربعون يوما وبايعوا أخاه يوسف بن عبد المؤمن وتلقب بأمير المؤمنين كأبيه ، قال ابن خلكان كان يوسف فقيها حافظا متقنا نشأ فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان وفى قراءة العلم بين أفاضل العلماء كان أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها فى الجاهلية والإسلام ويقال أنه كان يحفظ صحيح البخارى وكان يحفظ القرآن مع جملة من الفقه وسيأتى الكلام على فتوحاته ولتميم الكلام على جميع فتوحات أبيه عبد المؤمن فى غير الأندلس .

ذكر فتوح المهدية

المهدية مدينة من مدائن أفريقية كانت المهدية فى يد الحسن بن على بن محمد بن تميم

الصنهاجى وكان من عمال العبيديين ملوك مصر ثم تغلب عليها فملكها الفرنج وانتزعوها من يده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وفر الأمير المذكور منها وقصد عبد المؤمن فأكرمه وأحسن نزله ، وكان أهل سفاقس وزويلة يقاتلون الفرنج لتخليص المهدية فلم يقدروا وانهزموا مرة بعد أخرى وقتل كثير منهم وذلك سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، ثم دخل الفرنج زويلة وقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ونهبوا الأموال ، فقصد جماعة من أهل زويلة عبدالمؤمن وهو بمراكش يستجيرون به فأكرمهم وأخبروه بماجرى على المسلمين وأنه ليس فى ملوك الإسلام من يقصد سواه ، فدمعت عيناه وقال أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين ، وأمر بإنزالهم وأن يعطوا ألفى دينار ، ثم جهز الجيوش وسار واستعد لذلك ثلاث سنين فاجتمع معه مائة ألف مقاتل ومن الأتباع والسوقة أمثالهم ، وصار بجيوشه شهر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وكان يقع من حفظه لعسكره أنهم كانوا يمشون بين الزرع فلا يتأذى منهم أهل الزرع ولا يصيبون شيئا منه وإذا نزلوا صلوا جميعهم مع إمام واحد بتكبيرة واحدة ولا يتخلف منهم أحد كائنا من كان خوفا من عقابه لأنه كان يقتل من يتأخر منهم وقدم بين يديه أمير أفريقية الذى فر منها حين أخذها الفرنج وهو الحسن ابن على بن محمد بن تميم الصهاجى ، فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس فى شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وكان ملك تونس بيد أحمد بن خراسان ، وأقبلت أساطيل عبد المؤمن فى البحر سبعين شينيا وطريدة وشلندى فلما نازل تونس أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال فلم يبق إلا أخذها ودخول الأسطول إليها فجاءت ريح عاصف منعت الموحدين من دخول البلد ، فرجعوا ليباكروا القتال ويتملكوا ، فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهل تونس إلى عبدالمؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم فأجابهم إلى الأمان لهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم على أنفسهم وأهليهم ويقاسمهم أموالهم وأملاكهم نصفين وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله منها فاستقر الأمر على ذلك وتسلم البلد وأرسل إليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل أمناءه ليقاسموا الناس أموالهم ، وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض

الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم ، ثم سار عبد المؤمن منها إلى المهدية والأسطول يحاذيه فى البحر ، فوصل إليها ثامن عشر رجب وكان بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غاية رمية سهم فدخل عبد المؤمن من زويلة وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة فى ساعة واحدة ومن لم يجد له موضعاً من العسكر نزل بظاهرها وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد مايخرج عن الاحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها ، وضيق موضع القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها فكأنها كف فى البحر وزندها متصل بالبر ، وكان أول من بناها واتخذها مدينة عبيد الله المهدى أول ملوك العبيديين بناها سنة ثلاث وثمانمائة الفرنج ، وكان يخرج شجعانهم إلى أطراف العسكر فينالون منهم ويعودون سريعاً ، فأمر عبد المؤمن أن يبنى سورا من جهة غرب المدينة يمنعهم من الخروج ، وأحاط الأسطول بها فى البحر وركب عبد المؤمن فى شينى ومعه الحسن بن على الذى كان صاحبها وطاف بها فى البحر فهاله مارأى من حصانتها وعلم أنها لاتفتح بقتال لابراً ولا بحراً وليس لها إلى المطاولة بالحصار وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والأقوات وترك القتال ، فلم يمض غير قليل حتى صارت الغلات والأقوات فى العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل إلى العسكر من بعيد يقول متى حدثت هذه الجبال ، فيقول لهم هى حنطة وشعير فيتعجبون من ذلك وتمادى الحصار ، وفى مدته أطاع عبد المؤمن أهل سفاقس وطرابلس وجبال نفوسة وقصور أفريقية ، وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف ، فلما رأى أهل قفصة ذلك أطاعوه وكان الفرنج قد تملكوا صقلية فى سنة أربع وثمانين وأربعمائة جاؤها بجموع كثيرة وانتزعوها من عامل العبيديين وبقيت فى أيديهم وصار لهم فيها قوة عظيمة فكانوا يمدون هؤلاء المحصورين فى المهدية ففى شهر شعبان من السنة المذكورة أعنى سنة أربع وخمسين وخمسمائة جاء أسطول صاحب صقلية من ملوك الفرنج فى مائة وخمسين شينيا

غير الطرائد وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الأندلس وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم فأرسل إليه ملك الفرنج يأمر بالمجيء إلى المهدية فقدموا فى التاريخ المذكور ، فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا المدينة فخرج إليهم أسطول عبد المؤمن وركب فيه العسكر جميعه ووقفوا على جانب البحر ، فاستعظم الفرنج ما رأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب فى قلوبهم ، وبقى عبد المؤمن يمرغ وجهه على الأرض ويبكى ويتضرع إلى الله تعالى ويدعوا للمسلمين بالنصر ثم اقتتلوا فى البحر ، فانهزمت شوانى الفرنج وأعادوا القلوع راجعين إلى بلادهم فتبعهم الموحدين فأخذوا منهم سبع شوانى ولو كان معهم شوانى لأخذوا أكثرهم وكان أمراً عجيبا وفتحا قريبا وعاد أسطول المسلمين مظفراً منصوراً ، وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ويئس أهل المهدية من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر إلى آخر الحجة من السنة المذكورة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج إلى عبد المؤمن عشرة وسألوه الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الإسلام ودعاهم إليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون إليه أياماً بالكلام اللين فأجابهم إلى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم فى البحر ولم يصل إلى صقلية إلا النفر اليسير وكان صاحب صقلية يقول إن قتل عبد المؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله أكثرهم بالغرق فى البحر، وكان مدة ملكهم للمهدية اثنتى عشرة سنة ودخل عبد المؤمن المهدية بكرة عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة وأقام بها عشرين يوماً فرتب أحوالها وأصلح ما انثلم من سورها ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن ابن على الذى كان صاحبها وأمره أن يقتدى برأيه فى أفعاله وأقطع الحسن بهسا اقطاعا وأعطاه دوراً نفيسة يسكنها ورحل من المهدية أول صفر من السنة المذكورة وتوجه إلى بلاد المغرب وجهز جيوشاً إلى الأندلس .

ذكر فتوحات يوسف بن عبد المؤمن

لما استقرت البيعة له بعد موت أبيه وخلع أخيه أخذ منهج أبيه وسار سيرته واستكثر من الجيوش، ومهد البلاد، فسار له ملك ضخم أكثر من أبيه فكان ملكه من ناصية أفريقية إلى بلاد القبلة وبلاد الأندلس، يجبى إليه خراجها دون مكت ولاجور، فكثرت الأموال وأمنت الطرق، ثم رحل إلى الأندلس لكشف مصالح دولته وتفقد أحوالها، وفى صحبته مائة ألف فارس، ونزل اشبيلية، وشرع فى استرجاع بلاد المسلمين من أيدى الفرنج، وكانوا قد استولوا على كثير منها، فاتسع ملكه، وحاصر الأذفونش فى طليطلة وضيق عليه شهوراً، فراسله الأذفونش فى أنه يسلم المدينة ويعطيهم الأمان على نفوسهم فامتنع يوسف من ذلك، فلما اشتد بهم العطش سمع لهم فى بعض الليالى لغط عظيم وأصوات هائلة، وذلك أنهم اجتمعوا بأسرهم، ودعوا الله تعالى فجاءهم مطر عظيم ملأ ما كان عندهم من الصهاريج، فارتووا وتقووا على المسلمين فهادنهم سبع سنين وانصرف عنهم إلى اشبيلية وكان يرتفع إليه فى كل سنة من خراج اشبيلية وأعمالها حمل مائة وخمسين بغلا خارجاً عما يرتفع إليه من بقية البلاد، وفى سنة خمس وستين وخمسمائة اتفق ابن مردنيش ملك شرق الأندلس هو والفرنج على يوسف بن عبد المؤمن، فاستفحل أمرهم فجهز يوسف العساكر، فجاسوا بلاد مردنيش، وخربوها وأخذوا مدينتين من بلاده، وأخافوا عساكره وجنوده، وأقاموا ببلاده مدة يتنقلون فيها ويجبون أموالها. وفى سنة سبع وستين توفى الأمير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرق الأندلس، وهى مرسية وبلنسية وغيرهما، وأوصى أولاده أنهم بعد موته يقصدون يوسف بن عبد المؤمن، وكان قد اجتاز إلى الأندلس فى هذا العام فى مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش، فقدموا عليه بعد موت أبيهم فحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالأموال الجزيلة وأقاموا معه. وفى سنة ثمان وستين توجه يوسف إلى الأندلس بعساكره، ونزل أشبيلية، ثم سار منها وقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رندى فحصرها، واجتمعت الفرنج على ابن الفنش فى جمع كثير فلم يقدروا على لقاء المسلمين، فاتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الأقوات عندهم

وهم فى جمع كثير فاضطروا إلى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا إلى اشبيلية وهو مع ذلك يجهز العسكر ويسيرها إلى غزو الفرنج فى كل وقت فكان له بها عدة وقائع وغزوات ظهر منها للعرب من الشجاعة ما لا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز إليه أحد ، ثم عاد يوسف بن عبد المؤمن إلى مراكش ، وأما وقائعه مع من خرج عن طاعته من المسلمين فى أفريقية فكثيرة لا حاجة بنا إلى ذكرها وهى مذكورة فى التواريخ ، وفى سنة ست وسبعين أتاه رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس الصلح معه فهادنه عشر سنين ، وفى سنة ثمانين وخمسمائة سار يوسف إلى الأندلس فى جمع عظيم من عساكر المغرب وقصد غربى بلاد الأندلس فحصر مدينة تشتير شهراً وهى للفرنج فأصابه بها مرض فمات به فى ربيع الأول من السنة المذكورة وحمل فى تابوت إلى اشبيلية وقيل إنه أصابته طعنة فمات منها وبعد أن وصلوا به إلى اشبيلية حملوه فى التابوت إلى جبل تينمل ودفنوه هناك عند أبيه عبد المؤمن بجانب قبر المهدى محمد ابن تومرت واتفق شيوخ الموحدين على مبايعة ابنه يعقوب فبايعوه ولقبوه المنصور .

(لطيفة) يحكى أن الأديب أحمد بن عبد السلام الكورانى كان من ظرفاء الندماء وكوران قبيلة من البربر وكان يجالس عبد المؤمن ثم ابنه يوسف ثم ابنه يعقوب فاتفق أنه حضر يوما عند يوسف بن عبد المؤمن وهناك الطبيب سعيد الغمارى وغمارة أيضا قبيلة من البربر فقال يوسف : من عجائب الدنيا شاعر من كوران وطبيب من غمارة فقال الكورانى وضرب لنا مثلا ونسى خلقه أعجب منهما والله خليفة من كومية فقال يوسف فى نفسه أعاقبه بالحلم والعفو ففيه تكذيبه فعفا عنه ولم يعاقبه .

ذكر فتوحات يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

كان يعقوب المذكور ديناً مقيما للحدود فاستقامت له الدولة وانقادت إليه بأسرها ، فأقام راية الجهاد وأحسن السيرة فى الناس ورتب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال ورتب

المقاتلة فى سائر بلادها ، وكان يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وكان مشاركا فى علوم كثيرة ، ومن لطائفه أنه بعث لبعض عماله أن ينظر له رجلا لتأديب أولاده فبعث له العامل رجلين وكتب معهما كتاباً يقول فيه بعثت إليك برجلين أحدهما بحر فى علمه والآخر بر فى دينه فلما امتحنهما لم يرض بهما فوقع على ظهر كتاب العامل ظهر الفساد فى البر والبحر ، وفى سنة ست وثمانين بلغه أن الفرنج ملكوا مدينة شلب وهى فى غرب الأندلس فتجهز إليها بنفسه وحاصرها وأخذها وأنفذ فى الوقت جيشا من الموحدين ومعهم جماعة من العرب ، ففتحوا أربع مدن كانت بيد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة وخافه صاحب طليطلة وسأل الصلح فصالحه خمس سنين وعاد إلى مراكش ، فلما انقضت مدة الهدنة ولم يبق منها سوى القليل خرجت طائفة من الفرنج فى جيش كثيف إلى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عيثا فظيعا فانتهى الأمر إلى يعقوب وهو بمراكش فتجهز لقصدهم فى جيش كبير وذلك فى سنة إحدى وتسعين فسمع الفرنج بذلك ، فجمعوا خلقا كثيراً من أقاصى بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه وبعد أن عزم يعقوب على المسير بعد جمع جيوشه أصابه مرض شديد حتى أيس منه أطباؤه فتأخر عن المسير، فطمع المجاورون له من العرب وغيرهم فى البلاد ، وعاثوا فيها وأغاروا على النواحى والأطراف ، وكذلك فعل الأذفونش فيما يليه من بلاد المسلمين بالأندلس ، فاقتضى الحال تفرقة جيوش الأمير يعقوب لإصلاح ما فسد فى الأطراف واشتغلوا بالمدافعة والممانعة فكثر طمع الأذفونش فى البلاد ، وبعث رسولا إلى الأمير يعقوب يتهدده ويتوعده ويطلب منه بعض الحصون من بلاد الأندلس وكتب له رسالة من إنشاء بعض من خذله الله ممن يدعى أنه من المسلمين وهى: باسمك اللهم فاطر السموات والأرض وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح أما بعد : أيها الأمير فلا يخفى على كل ذى عقل لازب ولا ذى لب ثاقب أنك أمير الملة الحنفية كما أنه هو أمير الملة النصرانية وأنك لا يخفى عليك ما هو عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعايا وإخلادهم إلى الراحات ، وأنا أسوسهم بحكم القهر والخسف وأخلى الديار ، وأسبى الذرارى ، وأمثل بالكهول وأقتل الشبان ولا عذر لكم عن التخلف عن نصرتهم ، وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم

تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ولا تقدرون لى دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً ، ثم حكى أنك أخذت فى الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطل نفسك عاماً بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، ولا أدرى الجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك ثم حكى لى عنك أنك لا تجد سبيلا إلى الحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم بها فها أنا أقول لك ما فى ذلك وأعتذر عنك ولك أن تتوجه بجملة من عندك بالمراكب والشوانى ، وأجوز إليك بجملتى ، وأبارزك فى أعز الأماكن عندك فإن كانت لك الغلبة فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدنة مثلت بين يديك وإن كانت لى كانت يد العليا عليك ، واستحققت أمارة الملتين والتقدم على الفئتين ، والحكم على البرين والله يوفق الإرادة ويوضح السعادة ، لا رب غيره ولا خير إلا خيره ، فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب فى أعلاه إرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون والجواب ما تراه لا ما تسمعه أو تقرأه وكتب أيضاً بيتاً مشهوراً للمتنبى .

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسل إلا الخميس العرمرم

وأعاد الكتاب إليه وجمع العساكر الكثيرة من المسلمين وعبر إلى الأندلس فى جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيها ودانيها وأقبلوا إليه مجدين مصممين على القتال واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان شمالى قرطبة فاقتتلوا قتالا شديداً استشهد فيه كثير من المسلمين وكانت الدائرة فى أول الأمر على المسلمين ، ثم تراجعوا وعادوا على الفرنج فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفاً وأسر منهم ثلاثة عشر ألفاً وقيل ثلاثون ألفاً وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً فمن الخيام مائة ألف وثلاث وأربعون ألفا ومن الخيل ستة وأربعون ألفا وقيل ثمانون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة ألف وقيل أربعمائة

ألف جاء بها الكفار لحمل أثقالهم لأنهم لا إبل عندهم بالأندلس ومن الدروع التي صارت لبيت المال ستون ألفا غير ما أخذه المسلمون منها ، وأما الذهب والفضة والجواهر والأموال ، فلا تحصى وبيع الأسير بدرهم والحمار بدرهم وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع ، ونجا الفنش بروحه وهو ملك النصارى إذ ذاك إلى طليطلة في أسوء حال وحلق رأسه ونكس الصليب وحلف أن لا ينام على فراش ولا يقرب النساء ولا يركب فرسا ولا دابة حتى يأخذ بالثأر وصار يجمع الرجال من البلاد البعيدة ويستعد للقاء ثم لقيه يعقوب بالجيوش مرة ثانية فهزمه وساق خلفه إلى طليطلة وحصره فيها ورمى عليه بالمجانيق ولم يبق إلى فتحها فخرجت إليه والدة الأذفونش وبناته ونساؤه يبكين بين يديه ويسألنه إبقاء البلد عليهن فرق لهن ومن عليهن بها ووهب لهم أموالا كثيرة وعفا بعد القدرة ورجع إلى قرطبة فأقام بها شهراً يقسم الغنائم ، فجاءته رسل الفنش بطلب الصلح فصالحه وهادنه خمس سنين وأمن الناس وكان يعقوب قد نادى في عسكره من غنم شيئاً فهو له وأحصى ما حمل إليه من السلب فكان زيادة على سبعين ألفاً ، وهذه الوقعة تسمى وقعة الأرك وهو اسم الموضع الذي كانت فيه الوقعة ولم يسمع بعد وقعة الزلاقة التي كانت على يد أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين بمثل وقعة الأرك هذه بل صرح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة وكان جملة من استشهد من المسلمين في هذه الوقعة نحو عشرين ألفاً وعظم أمر الإسلام بالأندلس بعد هذه الوقعة ومدح الشعراء يعقوب بعد هذا الفتح بقصائد كثيرة وأجازهم بعطيات وافرة فمنهم ابن منقذ وكان شاعراً بليغاً مدحه بقصيدة منها قوله :

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته ... إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إلى معدن التقوى إلى معدن الندى ... إلى من سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل ... إلى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقناً ... أن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك الغنى فبلغتها ... وأدنى عطاياك العلا والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود باقياً ... تبلغك الآمال ما أنت آمل

وعدد أبيات القصيدة أربعون بيتا فأعطاه أربعين ألفا وإنما صالح يعقوب الفرنج وهادنهم لأنه بلغه قيام ثائر من المرابطين بأفريقية فأراد يعقوب الرجوع إلى مراكش لقمع هذا الثائر وأخماده فرجع وقمعه وأخمده .

(لطيفة) قال الشيخ محيي الدين بن العربي رضى الله عنه فى الفتوحات المكية كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد جازت الأندلس لقتال العدو فلقيت رجلا من رجال الله فسألنى ماتقول فى هذا الجيش هل يفتح له وينتصر فى هذه السنة أم لا فقلت له ما عندك أنت فى ذلك؟ فقال أن الله تعالى قد ذكره فى كتابه وبشر نبيه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ وموضع البشرى فتحا مبينا من غير تكرار الألف فى مبينا فإنها لإطلاق الوقوف فى تمام الآية فنظرت وحسبت الحروف فوجدت الفتح يكون فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة ثم جزت إلى الأندلس فى السنة المذكورة وقد نصر الله جيش المسلمين فهذا من الفتح الإلهى لهذا الشخص اهـ .

فتحا مبينا

٤٨٩ ١٠٢ وتوفى الأمير يعقوب بمدينة سلا وقيل بمراكش سنة خمس وتسعين

٥٩١ وعمره إحدى وأربعون سنة قال بن خلكان فى ترجمة يعقوب المذكور ، ثم حكى لى جمع كثير بدمشق سنة ثمانين وستمائة أن بالقرب من المجدل البليدة التى من أعمال البقاع العزيزية بالشام قرية يقال لها حمارة وإلى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب وكل أهل تلك النواحى متفقون على ذلك وليس عندهم فيه خلاف اهـ . قال فى نفح الطيب توفى السلطان يعقوب سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة سلا وكانت ولايته خمس عشرة سنة وما يقال أنه ساح فى الأرض وتخلى عن الملك ووصل إلى الشام ودفن بالبقاع لا أصل له وإن حكى ابن خلكان بعضه وممن صرح ببطلان هذا القول الشريف الغرناطى فى شرح مقصورة حازم ، وقال أن ذلك من هذيان العامة لولوعهم بالسلطان المذكور انتهى . قال ابن خلكان وسمعت عن الأمير يعقوب حكاية

يليق أن تذكر ههنا وهي أن الأمير أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاني كان قد تزوج أخت الأمير يعقوب المذكور وأقامت عنده ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها يعقوب المذكور وأقامت عنده فسير الأمير عبد الواحد في طلبها فامتنعت فشكا الأمير عبد الواحد إلى قاضي الجماعة بمراكش وهو أبو عبد الله محمد بن علي بن مروان فاجتمع القاضي المذكور بالأمير يعقوب وقال له: إن أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله، فسكت الأمير يعقوب ومضى على ذلك أيام، ثم إن الأمير عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير يعقوب وقال له: أنت قاضي المسلمين وقد طلبت أهلي فما جاءوني، فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له يا أمير المؤمنين: إن الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله وهذه الثانية فسكت الأمير يعقوب، ثم بعد ذلك بمدة لقي الأمير عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور فقال له يا قاضي المسلمين قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنها، فاجتمع القاضي بالأمير يعقوب وقال له يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني من القضاء فقال يا أبا عبد الله ما هذا إلا جد كبير، ثم استدعى خادما وقال له في السر تحمل أهل الشيخ عبد الواحد فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئا يكرهه وتبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره، قال ابن خلكان وهذه حسنة بعدله وللقاضي أيضا فإنه بالغ في إقامته منار الشرع بالعدل انتهى.

ذكر محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن

وما جرى في مدته من الغزو

لما توفي الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بايع شيوخ الموحدين ابنه محمدا ولقبوه الناصر، وكان النصارى بالأندلس لما سمعوا بموت يعقوب أخذوا يتغلبون على كثير من الحصون بالأندلس، وكان محمد المذكور حديث السن عمره نحو تسع عشرة سنة فاستخف بكثير من وزراء أبيه ورجال دولته وبكثير من رجال الأندلس العارفين بالقتال حتى أنه قتل بعض رجال دولته وشنق بعضهم فكان ذلك سببا لفساد النيات ولقوة الشكيمة

للإفرنج ، فلما بلغه قوة شكيمتهم وطمعهم فى التغلب على بعض الحصون بل أخذوا بعضها بالفعل شرع فى التجهز للسير لقتالهم فتجهز فى ستمائة ألف مقاتل ودخله الإعجاب بكثرة من معه من الجيوش واستعد له العدو بجموع كثيرة ، فلما التقوا وتقاتلوا فى شهر صفر سنة تسع وتسعمائة انهزم المسلمون وكثر القتل فيهم ولم ينج من الستمائة ألف الذين مع محمد ابن يعقوب غير عدد يسير لم يبلغوا الألف فكانت هذه الوقعة هى الطامة الكبرى على الأندلس بل على المغرب كله وما ذلك إلا اسوء التدبير والاعتماد على القوة وكثرة الجند والله غالب على أمره ، واستولى العدو بعدها على كثير من الأندلس وتسمى هذه الوقعة بوقعة العقاب ، ثم كثر الثائرون والخارجون أيضاً فى المغرب وتوفى محمد بن يعقوب المذكور سنة ست عشرة وستمائة ثم تفرقت كلمة بنى عبدالمؤمن وكثر الاختلاف والقتال بينهم مع بعضهم وانتشرت فتن كثيرة بينهم ، فكانوا كلما بويع لواحد منهم خلعوه وخرجوا عليه إلى أن انقضت دولتهم ، وكانوا كلهم يدعون لمهديهم محمد بن تومرت على المنابر فى الخطبة ويسترحمون عليه ويكتبون اسمه على سكة الدراهم والدنانير إلا العاشر من خلفائهم وهو أبو العلاء إدريس الملقب بالمأمون بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فإنه أمر بإسقاط اسم مهديهم محمد بن تومرت من السكة والخطبة وألف فى ذلك رسالة طويلة أفصح فيها بتكذيب مهديهم المذكور وضلاله وصار يلعنه ، وكان إدريس المأمون عالما فصيحا متمكنا فى علم الأصول والفروع ناظما ناثراً وكان سفاكا للدماء وكانوا يسمونه حجاج المغرب قتل مائة من شيوخ الموحدين وسفك دماء كثيرة من دماء الخارجين الثائرين عليهم وقتل فى يوم واحد أربعة آلاف ، ونصب رؤسهم على أسوار مدينة مراكش مات سنة ثلاثين وستمائة ، وكان تمام انقضاء دولتهم سنة ثمان وستين وستمائة فكانت مدة دولتهم مع مهديهم مائة واثنتين وخمسين سنة وجملة من تولى منهم مع مهديهم ستة عشر شخصا فسبحان الملك الباقى الذى لا يعترى ملكه الزوال والنقصان وتفصيل ملوكهم مع الفتن التى وقعت بينهم ذكرته فى تاريخ جمعته فى أخبار الأندلس ، وكان المنتزع الملك من بنى عبد المؤمن جماعة من بنى مرين وسنذكرهم إن شاء الله تعالى ونذكر ما كان منهم من الغزو لكفار الأندلس لكن ينبغى قبل ذكرهم أن نذكر الحفصيين ملوك تونس

لأنهم من فروع دولة الموحدين والجميع من فروع دولة محمد بن تومرت للمهدى على زعمهم والحفصيون ملوك تونس هم أولاد أبى حفص عمر الهنتانى وهو الوزير الثانى لمحمد بن تومرت لأنه أول قيامه بدعواه كان الملازمون القائمون بأمره ثلاثة عبد المؤمن بن على وعبد الله الونشريسى ، وأبو حفص عمر الهنتانى أما عبد المؤمن فقد تقدم الكلام عليه وعلى أولاده الذين ورثوا الملك منه إلى أن ذهب ملكهم وأما عبد الله الونشريسى فقتل فى بعض الحروب التى كانت أول ظهور محمد بن تومرت ، وأما أبو حفص عمر الهنتانى فكان وزيراً لعبد المؤمن وكان ولى العهد بعده ، ثم احتال عليه عبد المؤمن وخلعه وجعل ولاية العهد لابنه محمد ثم يوسف بن عبد المؤمن ، وكان عبد المؤمن فى مدة ملكه اتخذ أبا حفص عمر الهنتانى وزيراً وخليلا يقربه ويدنيه ويستشيره فى أموره كلها ، ثم صار أبناء عبد المؤمن يقربون أبناء أبى حفص ويدنونهم ويتخذون منهم وزراء وأمراء ، وفى سنة ستمائة وثلاث فى مدة ملك محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن جعلت ولاية تونس لعبد الواحد بن أبى بكر بن أبى حفص عمر الهنتانى وتوارثها بنو عبد الواحد المذكور ، وبقى ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمائة وإحدى وثمانين فانتزع ملك تونس منهم سلاطين آل عثمان ، فكانت مدة تملك تونس لبنى حفص ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة وعدة ملوكهم ثمانية وعشرون ملكا فدولتهم أيضاً من فروع دولة المهدى محمد بن تومرت ، وكان لهم ملك ضخم وجرى منهم غزوات وفتوحات سيأتى كثير منها بعد إتمام الكلام على دولة بنى مرين المنتزعين ملك بنى عبد المؤمن وبعد ذكر ما كان منهم من الغزوات والفتوحات بالأندلس .

ذكر دولة بنى مرين وغزواتهم بالأندلس

اعلم أن بنى مرين قبيلة من قبائل البربر وكانوا متوحشين يسكنون الصحراء والقفار وكانت لهم مواش ثم صارت لهم خيل وقوة فلما ضعف ملك بنى عبد المؤمن ورأى بنو مرين ضعفهم ، واختلال ملكهم تخلصوا من الصحراء والقفار وتفرقوا فى جهات المدن والأمصار وأوجفوا بخيلهم وركابهم وظهرت لهم رياسة وقوة شوكة ، فخلعوا طاعة بنى

عبد المؤمن من بعد أن كانوا تحت طاعتهم ، فصار كثير من رعايا بنى عبد المؤمن يحتمون ببنى مرين ويلتجئون إليهم لاسيما إذا وقعت عليهم مظلمة من بنى عبد المؤمن ، فتمسك كثير من الناس بمعتصمات بنى مرين وأظلم الجو بينهم وبين عبد المؤمن وثار من ذلك فتن كثيرة بين الفريقين ، ووقع بينهم محاربات يطول الكلام بذكرها فصار بنو مرين يقوى أمرهم كلما ضعف ملك بنى عبد المؤمن ، إلى أن استلبوهم الملك وانتزعوه منهم واستولوا عليه وأول ما ظهرت الرياسة فى بنى مرين بعد الخمسين والخمسمائة من الهجرة ، وأول من ظهرت عليه الرياسة منهم محيو بن أبى بكر بن حمامة فقدموه رئيساً عليهم إلى أن توفى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فقام بالرياسة بعده ابنه عبد الحق بن محيو إلى أن توفى سنة أربع عشرة وستمائة فقام بالرياسة بعده ابنه عثمان بن عبد الحق إلى أن توفى سنة سبع وثلاثين وستمائة ثم بعده أخوه محمد بن عبد الحق إلى أن توفى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، ثم أخوه أبو يحيى بن عبد الحق إلى أن توفى سنة ست وخمسين وستمائة ، فقام بالرياسة بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق وفى هذه المدة السابقة كانت محاربات كثيرة بينهم وبين بنى عبد المؤمن ، فقوى أمرهم وانتشر صيتهم واستولوا على مدائن وقرى ، منها مكناسة وفاس وتلمسان وطنجه فسبته وغير ذلك إلا تونس وأعمالها فإن ملكها كان بيد الحفصيين أبناء أبى حفص عمر الهنتاتى أحد أصحاب المهدى محمد بن تومرت ، وقد تقدم ذكر ذلك ، وكان تملك بنى مرين فاس سنة ست وأربعين وستمائة وآخر الأمر ملكوا مراكش سنة ثمان وستين وستمائة وقتلوا أبا دبوس الملقب بالواثق وهو آخر ملوك بنى عبد المؤمن ، واستقر الملك لبنى مرين على يد يعقوب بن عبد الحق فهو الذى ينبغى أن يكون أولهم ، ولما استقرت دولته بمدينة مراكش جاءته البيعة من أهل الأندلس ، وجاء جماعة منهم يستنصرون به على النصارى المتغلبين على أكثر الأندلس وسيأتى ذكر تجهيزه لغزو العدو بالأندلس إن شاء الله تعالى .

ذكر ما كان من استيلاء العدو على كثير من مدائن الأندلس

مدة ضعف دولة بنى عبد المؤمن

كان بالأندلس عمال لبنى عبدالمؤمن متفرقون فى أقطارها ومدائنها ، فلما حصل الضعف لدولتهم وانتشرت الفتنة بينهم مع بعضهم وبين بنى مرين واشتغلوا بقتالهم اغتنم العدو الفرصة وصار يقتطع كثيراً من المدائن والمعاقل والحصون ويستولى عليها ، ولم يوجد بالأندلس من الجيوش والرجال من يدافع العدو ويقاتله وقد كثرما استولى عليه الطاغية فى هذه المدة التى ضعف فيها ملك بنى عبد المؤمن ، وبعض المدائن استولى عليها العدو قبل ظهور الضعف فى دولتهم فمن ذلك مدينة تطيلة وأختها طرشونة استولى عليها الطاغية سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، وكان ذلك فى أول دولة بنى عبد المؤمن وآخر دولة المرابطين بل كان قد استولى قبل ذلك على طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما تقدم حتى أنه يوسف بن تاشفين لما عبر الأندلس ، وكانت وقعة الزلاقة عجز عن تخليص طليطلة من يد الطاغية ، واستولى الطاغية على مدينة سرقسطة سنة سبع وخمسين وأربعمائة ثم استرجعت ، ثم استولى عليها ثانيا سنة خمسمائة واثنتى عشرة ، واستولى على بلنسية سنة أربعمائة وسبع وخمسين ، ثم ارتجعها المسلمون ثم تكرر استيلاؤهم عليها واسترجاعها كما تقدم ، ثم تغلب العدو عليها وأخذها مرة أخرى سنة ست وثلاثين وستمائة ، واستولى على حصن زوطة سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكان من أمنع الحصون سلمة بن هود لصاحب طليطلة لما عجز عن مقاومته واستولى العدو على مدينة المرية سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وكان قبل ذلك استولى على مدينة لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، ثم ارتجع الموحدون المرية سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وبقيت بيد المسلمين سنين ، ثم ارتجعها العدو خذله الله مرة أخرى واستولى على كورة ماردة سنة ست وعشرين وستمائة وعلى ميورقة سنة سبع وثلاثين وستمائة وعلى جزيرة شقرة سنة تسع وثلاثين وستمائة وعلى قرطبة دار الخلافة سنة ست وثلاثين وستمائة وعلى شرقى الأندلس شاطبة وغيرها سنة خمس وأربعين وستمائة واستولوا سنة أربع وأربعين وخمسمائة على مدينه طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون الإرادة وإفراغة وعلى مرسية صلحاً فى العام

المذكور وحصروا اشبيلية سنة خمسين وأربعين وستمائة وملكوها فى العام القابل وبيان وقائع أخذ الطاغية لهذه المدائن يطول الكلام بذكره ، وذلك مشتمل على ماتتقرح له الأكباد وتنسجم له العيون ، ولما أخذت قواعد المدائن وأمهاتها بالأندلس مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها انحاز أهل الإسلام إلى قطعة من شرقى الأندلس كانت بيد المسلمين منهم محمد بن يوسف ابن هود الجذامى كان آباؤه لهم ملك بالأندلس من جملة ملوك الطوائف فكان محمد بن يوسف المذكور بمرسية من شرقى الأندلس ، وكان هناك عمال لبنى عبد المؤمن فتغلب عليهم وأخرجهم واستعان على ذلك ببعض أهل الأندلس وعلمائهم وأعيانهم ، وصار الملك له وخطب لبنى العباس وأقام الدعوة لهم ثم كثر المنازعون له والثائرون عليه من المسلمين ومن الفرنج وطمعوا فيه فاضطربت عليه الأمور ، وكان ممن نازعه من المسلمين بنو الأحمر وهم قوم ينسبون إلى سعد ابن عبادة رضى الله عنه الأنصارى سيد الخزرج فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كان تحت أيديهم بعض مدائن بغرب الأندلس ، فانتزعوا ما كان تحت يد محمد بن يوسف بن هود وضموه إلى ما كان تحت أيديهم ، وكان أول من قام من بنى أحمر محمد بن نصر وكان أبوه نصر فى دولة بنى عبد المؤمن من أمراء الأجناد وكان محمد بن نصر يقال له محمد الشيخ وبويع سنة تسع وعشرين وستمائة ، وخطب لأبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص عمر الهنتاتى وكان أبو زكريا المذكور إذ ذاك صاحب تونس وكان قد استفحل ملكه بتونس وأفريقية فخلع طاعة بنى عبد المؤمن ودعا لنفسه وتسمى بأمير المؤمنين فبايع ابن الأحمر الناس له ليفسد على ابن هود بيعته لبنى العباس ودخل مع ابن الأحمر فى تلك البيعة أهل جيان وشريش وكان الطاغية فى ذلك الوقت محاصراً بلنسية ، وذلك سنة ست وثلاثين وستمائة ، ثم أرسل ابن الأحمر جماعة من أعيان أهل الأندلس لأبى زكريا الحفصى بتونس فقدموا عليه وعقدوا له بيعة أهل الأندلس واستصرخوا به يريدون منه النجدة فى قتال النصارى فأجابهم إلى مطالبهم وعقد أبو زكريا لتلك البيعة يوماً مشهوداً بتونس وأنشد شاعر أهل الأندلس القصيدة المشهورة التى أولها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   أن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست   فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وهي قصيدة طويلة بليغة مذكورة في نفح الطيب فأجاب أبو زكريا بيعتهم ولبى دعوتهم وجهز أساطيل فيها المال والرجال ، فلما وصلوا الأندلس وجدوا الطاغية الحاصر بلنسية قد ملكها ، ثم ملك مرسية أيضاً صلحا وكان ممن قام بالأندلس أيضا أبو محمد اشقيلولة واستولى على قمارش ووادى آش وكان بينه وبين ابن الأحمر مصاهرة وقرابة مع منافسة باطنية ، فاستعان به ابن الأحمر على ابن هود وكان ابن هود قبل أن يتغلبوا عليه قد جاءه خطاب وتقليد من الخليفة العباسي المستنصر بالله بن الظاهر بن الناصر فقوي ابن هود لما جاءه التقليد فبايعه ابن الأحمر وترك الخطبة لأبي زكريا الحفصي صاحب تونس وأفريقية ، ثم قام بأشبيلية أبو مروان الباجي فداخله ابن الأحمر على أن يزوجه ابنته فأطاعه أبو مروان فدخل ابن الأحمر اشبيلية ثم فتك بابن مروان فقتله ، ثم أن أهل اشبيلية بعد شهر كاتبوا ابن هود ودخلوا في طاعته وأخرجوا ابن الأحمر ، ثم تغلب ابن الأحمر على غرناطة سنة خمس وثلاثين وستمائة بمواطأة من أهلها فجاءته بيعتهم وهو بجيان فجاء إلى غرناطة فدخلها وجعلها كرسى مملكته ، ثم تغلب على مالقة ، وفى هذه المدة التي وقعت فيها هذه الفتن بين المسلمين بالأندلس قوى أمر النصارى وطمعوا فيما بأيدى المسلمين وتلقفوا كثيراً من مدائن الأندلس وحصونها وداخلهم ابن هود ، وهادنهم بالصلح ليدفعوا عنه ابن الأحمر وأعطاهم كثيراً من المعاقل والحصون ، قيل أنه أعطاهم ثلاثين حصنا وجعل على نفسه ضريبة لهم كل سنة أربعمائة ألف دينار ، ثم ثار على ابن هود وزيره ابن الرميمى فقتله واستولى على ما بيده ، ثم استولى ابن الأحمر على ما بيد الرميمى سنة ثلاث وأربعين وستمائة ، ثم بايع ابن الأحمر أهل ميروقة سنة ثلاث وستين وستمائة وحصل لأعقاب ابن هود فى هذه الفتن خطوب كثيرة وحروب بينهم وبين ابن الأحمر ، ثم دخلوا فى طاعته فبعث ابن الأحمر ابن اشقيلولة فتسلم منهم مرسية ، وخطب لابن الأحمر وعوضهم عن مرسية حصينا من عملها سنة ثمان وستين وستمائة ، ثم انقرضت دولة بنى هود بالكلية ، وكان ابن الأحمر فى أول أمره يداخل النصارى ويستعين بهم على ابن هود ، فلما داخل النصارى ابن هود وأعطاهم الحصون المتقدم ذكرها وجعل لهم الضريبة على نفسه فزع إليهم

ابن الأحمر لأنهم كفوا عن معاضدته التى كانت منهم له قبل ذلك وصاروا معاضدين لابن هود ثم لما رأى ابن الأحمر أمر النصارى يقوى ورآهم تغلبوا على قرطبة وغيرها خاف أن يستولوا على ما بيده فسخطهم ونبذ عهدهم وصار محترساً منهم وحاز فى تملكه مدائن بغرب الأندلس وبالمتوسطة من الأندلس من ذلك غرناطة والمرية ومالقة ونحوها ، وتوفى ابن الأحمر محمد الشيخ بن يوسف ابن نصر سنة ستمائة وإحدى وسبعين فبويع بعده ابنه محمد الفقيه ابن محمد الشيخ ، وكان ممن بقى من ملوك الأندلس بنو اشقيلولة وكانوا نظراء لابن الأحمر فى الرياسة وبينه مصاهرة ومنافسة ، وكان الرئيس فيهم أبا محمد صاحب مالقة وأخاه أبا إسحاق صاحب وادى آش وقمارش ، ثم أن ابن الأحمر محمد الفقيه فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة بعث جماعة من المسلمين إلى بنى مرين يستصرخون بهم ويسألونهم النصرة والإعانة على قتال النصارى وكان فى ذلك الوقت قد تمكن الملك فى مراكش والمغرب الأقصى لبنى مرين وكان الملك فى ذلك الوقت من بنى مرين يعقوب ابن عبد الحق .

ذكر أول تجهيز من بنى مرين لغزو النصارى بالأندلس

لما جاء الصريخ من أهل الأندلس مع الجماعة الذين بعثهم بن الأحمر محمد الفقيه ابن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر جهز السلطان يعقوب بن عبد الحق جيوشاً كثيرة من مدينة فاس ومراكش فاجتازت إلى الأندلس مع بعض أولاد السلطان يعقوب ، والتقوا مع النصارى وقاتلوهم أشد القتال وهزموهم شر هزيمة وملأوا أيديهم من غنائمهم وأسلابهم وتحصن النصارى فى حصونهن ومعاقلهم فى المدائن التى ملكوها ورجع بنو مرين سالمين منصورين ، ولم يخلصوا فى هذه الغزوة شيئا من المدائن التى ملكها العدو .

غزوة أخرى لبنى مرين إلى الأندلس

فى سنة أربع وسبعين وستمائة جمع أمير المسلمين السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى جموعاً كثيفة واستنفر المسلمين من كل ناحية وغزا الأندلس بنفسه ، فلما وصل طريف لقيه ابن الأحمر محمد الفقيه صاحب غرناطة والرئيس أبو محمد بن أشقيلولة صاحب مالقة فأكرمهما وفاوضهما فى أمر الجهاد ، ثم أمرهما بالرجوع إلى بلديهما فانصرف

ابن الأحمر مغاضباً لكلمات صدرت من ابن أشقيلولة أغضبته ، وجاء الخبر للسلطان يعقوب أن زعيم النصارى جمع جموعا كثيرة يضيق عنها الفضاء فرتب السلطان جيوشه للقائه ، ثم التقوا وتقاتلوا قتالا شديداً وهزم الله النصارى هزيمة قبيحة حتى قال بعض المؤرخين إن المسلمين بعد أن هزموا يوم العقاب الذى كان فى دولة الموحدين فى مدة محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ما انصروا حتى دخل السلطان يعقوب بن عبد الحق المرينى الأندلس وفتك بهم وقتل الله زعيم النصارى فى هذه الوقعة وكان اسمه ذننة وقتل من جيشه أكثر من أربعة آلاف وهزم الباقون شر هزيمة وملك السلطان من الأندلس رندة والجزيرة الخضراء وطريفا وجبل طارق وغير ذلك ، وأعز الله به الدين بعد تمرد النصارى ولما قتل ذننة زعيم النصارى فى القتال المذكور بعث السلطان يعقوب رأس ذننة إلى ابن الأحمر فقيل إن ابن الأحمر طيبه وأكرمه ورده إلى النصارى وجعل ذلك صنيعاً عندهم وكرامة لهم وولاية أخلصها لهم وكان ذلك منه انحرافا عن السلطان يعقوب قال ابن خلدون وظهرت شواهد عليه بعد حين ورجع أمير المسلمين من غزوته إلى الجزيرة منتصف ربيع الأول من سنته فقسم الغنائم فى المجاهدين وما أخذوه من أموال عدوهم وسباياهم وأسراهم بعد إخراج الخمس لبيت المال على موجب الكتاب والسنة ليصرف فى مصارفه وكان مبلغ الغنائم فى هذه الغزوة مائة ألف من البقر وأربعة وعشرين ألفاً من الأسارى وسبعة آلاف وثمانمائة وثلاثين أسيراً ومن الكراع أربعة عشر ألفاً وأما الغنائم فشىء كثير خارج عن الحصر وكذا السلاح وأقام أمير المسلمين بالجزيرة أياما .

غزوة أخرى

بعد فراغ الغزوة السابقة ورجوع السلطان إلى الجزيرة وإقامته أياماً خرج غازيا من الجزيرة إلى أشبيلية فجاس خلال ديارها ، وتتبع نواحيها وأقطارها ، وأثخن بالقتل والنهب فى جهاتها وعمرانها ، ثم ارتحل إلى شريش فأذاقها وبال العيث والاكتساح ، ثم رجع إلى الجزيرة بعد شهرين ثم رجع إلى المغرب من السنة المذكورة بعد أن رتب فى الأندلس جيشاً يقيم هنالك ليدوم الغزو والجهاد للكفار .

غزوة أخرى لبنى مرين إلى الأندلس

في سنة ست وسبعين وستمائة تجهز السلطان يعقوب بن عبد الحق وسار بجموعه ونزل بطريف آخر المحرم ، ثم ارتحل إلى رندة ووافاه الرئيسان أبو محمد ابن أشقيلولة صاحب مالقة وأخوه أبو إسحاق صاحب قمارش يريدان الغزو معه ولم يأته ابن الأحمر صاحب غرناطة فارتحل السلطان ومن معه إلى منازلة أشبيلية وكان بأشبيلية إذ ذاك ملك الجلالقة بن أذفونش فخار وجبن عن اللقاء وبرز إلى ساحة البلد محامياً عن أهله ، فرتب أمير المسلمين جيوشه وجعل ابنه يوسف في المقدمة وزحف في التعبية فانحجز العدو إلى البلد واقتحموا أثرهم في الوادي وأثخنوا فيهم إلى أن جاء الليل وبات العسكر ليلتهم على ظهور خيولهم وقد أضرموا النيران بساحة العدو ، وضربوا الحصار عليهم وبثوا السرايا والغزوات في سائر النواحي حتى أبادوا عمرانها وملكوا حصن قطيانة عنوة وكذا حصن جليانة وحصن القليعة وأثخنوا في القتل والسبي ، ثم ارتحل السلطان إلى الجزيرة الخضراء بالغنائم فارتحل وقسم الغنائم في المجاهدين .

غزوة أخرى

في منتصف ربيع الثاني من السنة المذكورة ارتحل السلطان من الجزيرة الخضراء غازياً إلى شريش ، فأذاقها نكال الحرب وأقفر نواحيها وقطع أشجارها وحرق كثيراً من ديارها وأعمالها ونواحيها وأثخن فيها بالقتل والأسر وتحصن العدو بمدينة شريش وجبن عن اللقاء ، فأراد السلطان أخذ الأطراف ليتسهل حصار البلد وبعث ابنه يوسف في سرية للاغارة على أشبيلية وحصون الوادي فبالغ في النكاية ، واكتسح حصن روطة وشلوقة وغليانه والقناطر ، ثم صبح أشبيلية وانكفأ إلى أمير المسلمين فقفلوا جميعاً إلى الجزيرة الخضراء فأراحوا وقسموا الغنائم في المجاهدين .

غزوة أخرى

ثم لما كان السلطان بالجزيرة الخضراء حث المسلمين على غزو قرطبة ورغبهم في عمرانها وثروة مساكنها وخصب بلادها فانعطفوا إلى جانبه وأرسل لابن الأحمر يستنفره ودارت بينهما مكاتبات فيها عتاب زال به ما كان في نفس ابن الأحمر فعزم على لقاء السلطان .

وخرج أمير المسلمين من الجزيرة الخضراء لأول جمادى ووافاه ابن الأحمر بناحية أرشذونة فأكرم وصوله فنازلوا جميعاً حصن بني بشر وملكوه عنوة وقتلوا المقاتلة وسبوا النساء ونقلوا الأموال وخربوا الحصن ، ثم بث السرايا والغارات في البسائط واكتسحها وامتلأت الأيدي وأثرى العسكر وتقروا المنازل والعمران في طريقهم حتى احتلوا بساحة قرطبة وانحجزت حامية العدو من وراء الأسوار وانبثت بعوث المسلمين وسراياهم في نواحيها فنسفوا آثارها وخربوا عمرانها واكتسحوا قراها وضياعها وترددوا على جهاتها وملكوا حصن بركونة عنوة ، ثم أرجونة كذلك وجبن العدو عن اللقاء وأيقن بخراب العمران .

فجنح إلى السلم وأرسل لأمير المسلمين يطلب السلم فدفعه إلى ابن الأحمر وجعل الأمر في ذلك إليه تكرمة لمشهده ووفاء بحقه فأجابهم ابن الأحمر إلى الصلح بعد عرضه على أمير المسلمين وأذنه فيه لما فيه من المصلحة وجنوح أهل الأندلس إليه منذ المدد الطويلة فانعقد السلم وقفل أمير المسلمين من غزواته وجعل طريقه على غرناطة كرسي ملك ابن الأحمر احتفالا به ، وخرج له أمير المسلمين عن الغنائم كلها فاحتوى عليها ابن الأحمر وقال له السلطان يعقوب يكون حظ بني مرين من هذه الغزوة الأجر والثواب مثل ما فعل يوسف بن تاشفين مع أهل الأندلس يوم الزلاقة ، ودخل أمير المسلمين إلى الجزيرة الخضراء في أول رجب من العام المذكور فأراح ونظر في ترتيب المصالح على الثغور وكان بنو أشقيلولة مع أمير المسلمين في هذه الغزوة وفارقوه بعد فراغ الغزو ولما قفلوا اعتل أبو محمد صاحب مالقة ثم مات غرة جمادى من السنة المذكورة فلحق ابنه محمد السلطان آخر شهر رمضان وهو بالجزيرة فنزل للسلطان عن مالقة ودعاه إلى اجتيازها لأنه رأى ابن الأحمر يطمع في انتزاعها منه ولا قدرة له على دفاعه ، وقال للسلطان إن لم تجزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الأحمر

فقبلها السلطان منه وعقد عليها أمير المسلمين لابنه أبى زيان منديلا ، ثم سار أمير المسلمين إليها بعد انقضاء شهر الصيام فوافاه سادس شوال وبرز إليه أهلها فى يوم مشهود واحتفلوا له احتفال أيام الزينة سروراً بقدومه ودخوله فى إيالته وأقام فيها إلى خاتم سنته ، ثم عقد عليها لعمر بن يحيى وكان من صنائع دولتهم وأنزل معه المسالح وزيان ابنه وابن أبى عباد ابن عبد الحق فى طائفة من أبطال بنى مرين واستوصاه بمحمد ابن أشقيلولة . ولما علم ابن الأحمر أن أمير المسلمين تملكها شق عليه ، ثم ارتحل السلطان إلى الجزيرة ، ثم إلى المغرب سنة سبع وسبعين وستمائة ، وقد اهتزت الدنيا لقدومه وامتلأت القلوب بما أعطاه الله من نصر المسلمين ، لكن نشأ من تملكه مالقة غيظ لابن الأحمر وعظم عليه الأمر فتظاهر بطاغية النصارى ، واتفق معه على منع دخول السلطان الأندلس بعد هذه المرة إن أراد ذلك فاغتنم الطاغية مظاهرة ابن الأحمر له ، فنكث عهد أمير المؤمنين وأغزى أساطيله الجزيرة الخضراء حيث مسالح السلطان وعساكره ، واحتال ابن الأحمر على عامل مالقة فأخذها منه وراسلوا بعض الثائرين على السلطان بالمغرب وحثوهم على إفساد الثغور ، واتصل الخبر بأمير المسلمين وهو بمراكش وبلغه أن المسلمين فى الجزيرة الخضراء فى شدة من ضيق الحصار ، فعقد لابنه على الغزو وأغزى الأساطيل فى البحر إلى جهاد العدو .

غزوة أخرى لبنى مرين بالأندلس

لما بلغ أمير المسلمين ما تقدم من نكث الطاغية العهد ومظاهرة ابن الأحمر فعقد السلطان لابنه ، فوصل إلى طنجة فى شهر صفر من سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وأوعز إلى البلاد البحرية لإعداد الأساطيل بسبتة ، وطنجة رسلا وقسم الاعطاءات واستنفر الناس فتوفرت همم المسلمين على الجهاد وصدقت عزائمهم على الموت ، ولما رأى ابن الأحمر ما نزل بالمسلمين فى الجزيرة الخضراء من حصار الطاغية لها وإشرافه على أخذها أخذته الحمية الإسلامية ، وأعد أساطيله وكانت اثنى عشر وبعثها مدداً للمسلمين وأغاثة لهم وكانت أساطيل أمير المسلمين تناهز السبعين وقيل اثنين وسبعين وبعث الأمير صاحب سبتة

خمسة وأربعين أسطولا ، وأساطيل الطاغية تناهز أربعمائة ، وتلاقوا مع العدو وأخلصوا لله عزائمهم وصدقوا فى نياتهم وأوعظهم خطباؤهم والتحم القتال ونزل الصبر ، فلم يكن كلا ولا حتى نضحوا العدو بالنبل فانكشفوا وتساقطوا فى البحر فاستلحمتهم السيوف وغشيهم اليم وملك المسلمون أساطيلهم ودخلوا مرفأ الجزيرة وفرضتها عنوة فاختل عسكر الطاغية ودخلهم الرعب وخرج الناس المحصورون من البلد وانتشرت النساء والصبيان بساحته فغنموا كثيراً من الحنطة والادام والفواكه حتى ملأوا أسواق البلد من ذلك أياما وأجاز الأمير يوسف من حينه إلى الأندلس وأرهب العدو فى كل ناحية ، ثم صده عن التوسع شأن الفتنة مع ابن الأحمر فرأى أن يعقد مع الطاغية صلحا ويصل به يداً لينازل غرناطة كرسى ملك ابن الأحمر فأجابه الطاغية إلى ذلك رهبة من بأسه وموجدة على ابن الأحمر فى إعداده المدد لأهل الجزيرة وتظاهر الطاغية بالعداوة لابن الأحمر ، وبعث الطاغية أساقفته لعقد الصلح فأجازهم الأمير يوسف إلى أبيه أمير المسلمين فغضب لذلك وأنكر على ابنه ولم يرض بما أراده ابنه وزوى عنه وجه رضاه وأرجعهم إلى طاغيتهم مخفق السعى وجاء أهل الجزيرة الخضراء إلى أمير المسلمين فلقوه بأرض السوس فولى عليهم أبنه أبا زيان منديل فنزل بالجزيرة وأتم الصلح مع الطاغية ونازل المرية براً وبحراً وكانت لابن الأحمر فامتنع أخذها عليه وانضوى إليه أهل الحصون القريبة بطاعتهم حذراً من الطاغية فتقبلهم ونازل الطاغية ابن الأحمر بغرناطة وحاصره فرجع ابن الأحمر لمسالمة بنى مرين وبعث لأبى زيان بن السلطان فى طلب الصلح فأنهى الأمر إلى أبيه فأشفق السلطان على المسلمين وعلى ما نال ابن الأحمر من منازلة الطاغية فراسله السلطان إلى أن تم الصلح بينه وبين ابن الأحمر وارتحل الطاغية من غرناطة واشترط السلطان على ابن الأحمر إرجاع مالقة للسلطان .

غزوة أخرى

من لطف الله بالمسلمين وعنايته ببنى مرين أن أوقع الخلاف بين الطاغية ابن أذفونش وابنه شانجة حتى سلب أباه ملكه وتغلب عليه ، فوفد على السلطان بطارقة الطاغية وزعماء دولته مستصرخين على ابنه شانجة مخبرين بأنه خرج على أبيه فى طائفة من النصارى

فغلبوه على أمره فجاؤا يطلبون النصرة من أمير المسلمين ليرجع للطاغية ملكه وينتزعوه من ابنه ففرح أمير المسلمين بافتراقهم وأحب الدخول إلى الأندلس ليقضى مأربه من جهاد الكفار فأجاب أمير المسلمين رسل الطاغية ووعدهم بالقيام مع الطاغية ليرجع ملكه إليه وينتزعه من ابنه الغاصب له ، فأوعز إلى الناس بالجهاد وأمرهم بالنفير وجهز الجيوش وأجاز إلى الجزيرة الخضراء فاحتل بها فى ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين وستمائة واجتمعت عليه مسالح الثغور بالأندلس وسار حتى نزل صخرة عباد فوافاه الطاغية بنفسه ذليلا لعز الإسلام مؤملا صريخ السلطان فأكبر وفادته وأكرم موصلة وعظم قدره ، وذكر ابن خلدون وابن الخطيب أن هذا الطاغية لما اجتمع بالسلطان يعقوب قبل يده إعظاما لقدره وخضوعا لعزه فدعا السلطان بماء فغسل يده من تلك القبلة بمحضر من كان هنالك من جموع المسلمين والفرنج والتمس الطاغية من السلطان أن يمده بشىء من المال يستعين به فأمده لنفقاته مائة ألف من مال المسلمين استرهن فيها الطاغية تاجه بقى بيد المسلمين فخرا للأعقاب ، ودخل السلطان معه دار الحرب حتى نازل قرطبة وبها شانجة بن الطاغية الخارج على أبيه السالب الملكه فقاتلها أياما ثم تنقل فى جهاتها ونواحيها وارتحل إلى طليطلة فعاث جهاتها وخرب عمرانها حتى انتهى إلى حصن مجريط من أقصى الثغر فامتلأت أيدى المسلمين من الغنائم وضاق معسكره منها ورجع السلطان إلى الجزيرة ، فاحتل بها لشعبان من السنة التى اتصلت يد السلطان بيد الطاغية بخشى ابن الأحمر غائلته فجنح إلى موالاة شانجة الخارج على أبيه ووصل يده بيده وأكد له العقد وأضرمت له الأندلس نارا وفتنة ، ولم يغن ذلك شانجة شيئا ، فلم يزل السلطان مع الطاغية حتى ظهر على ابنه وذلك أن السلطان كان اشترط على ابن الأحمر إرجاع مالقة فلم يفعل فنهض السلطان إلى مالقة ونازلها فاتح ثنتين وثمانين فتغلب على الحصون القريبة ، ثم حاصر مالقة فضاق النطاق على ابن الأحمر فالتجأ إلى الأمير يوسف بن السلطان وخاطبه مستصرخا لوقع هذا الخرق وجمع كلمة الإسلام فأجابه وأجاز لشهر صفر ، فوافى السلطان أمير المسلمين بمعسكره على مالقة ورغب منه السلم لابن الأحمر والتجافى عن مالقة فأسعف رغبة ابنه لما يؤمل فى ذلك من رضا الله

فى جهاد عدوه وإعلاء كلمته وانعقد السلم وانبسط أمل ابن الأحمر ونجدت عزائم المسلمين وقفل السلطان إلى الجزيرة وبث السرايا فى دار الحرب فأوغلوا وأثخنوا ، ثم استأنف الغزو بنفسه إلى طليطلة فخرج من الجزيرة غازياً غرة ربيع الثانى من سنة ثنتين وثمانين وستمائة حتى انتهى إلى قرطبة فأثخن وغنم وخرب العمران وافتتح حصونا ، ثم رجع إلى الجزيرة فى شهر رجب وقسم الغنائم ، ثم رجع إلى المغرب ، وفى فاتح سنة ثلاث وثمانين بلغه مهلك الطاغية بن أذفونش واجتماع النصرانية على ابنه شانجة الخارج على أبيه فتحركت إلى الجهاد عزائم السلطان .

غزوة أخرى

فى سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على جهاد العدو بالأندلس فجمع الجيوش ونهض من مراكش فى شهر جمادى الآخرة واحتل برباط الفتح منتصف شعبان فقضى صومه ، ثم شرع فى إرسال الجنود إلى الجزيرة الخضراء إلى خاتمة سنته ، ثم أجاز البحر بنفسه غرة صفر من سنة أربع وثمانين ، ولما انتهى إلى الجزيرة سرح فى البلاد العدو وبث السرايا والغارات فى جميع النواحى فأثخنوا القتل والتخريب والسبى للنساء والذرية وركب غازيا بنفسه كثيراً من تلك الجهات وجرى فى هذه الغزوات ما يطول الكلام بذكره وتعداد الجهات والحصون التى أخربوها وسلبوا ما فيها وبقى النصارى متحصنين فى حصونهم المنيعة لا يقدرون على المبارزة لقتال ولا على الخروج من حصونهم ، فاستيقن الطاغية شانجة وأهل ملته أن بلادهم قد فنيت وأرضهم قد خربت وتبينوا العجز عن المدافعة والحماية فجنحوا إلى السلم وضرعوا إلى أمير المسلمين فى كف عاديته عنهم واجتمع النصارى إلى طاغيتهم شانجة خاشعة أبصارهم وسألوه أن يبعث إلى أمير المسلمين الملأ من كبار النصارى يسألونه الصلح فأجابهم شانجة إلى ما دعوه إليه ، فأوفد إلى أمير المسلمين وفداً من بطارقتهم وكبار دولتهم فردهم أمير المسلمين اعتزازاً عليهم فأعادهم الطاغية بترديد الرغبة على أن يشترط أمير المسلمين ما شاء من عز دينه وقومه ، فأسعفهم أمير المسلمين لما تيقن ذكرهم لعز الإسلام لأنه أراد الرجوع إلى المغرب لإصلاح ما فسد من الرعايا بقيام بعض الثوار

الخارجين عن طاعته فعقد الصلح مع طاغية النصارى واشترط عليهم ما أراد من ذلك أنهم يقفون عند مرضاته فى ولاية جيرانه من الملوك أو عداوتهم ورفع الضريبة عن تجار المسلمين المقيمين بدار الحرب من ممالكهم وترك التضريب بين ملوك المسلمين والدخول بينهم فى فتنة .

ذكر وفادة الطاغية على السلطان

لما رجعت رسل الطاغية إليه بعد عقد الصلح وفد على الطاغية رسل ابن الأحمر ليعقد السلم معه دون أمير المسلمين وأن تكون يده ويده واحدة على السلطان فأخبرهما بما عقده من أمير المسلمين ، ثم قال هذا أمير المسلمين ، ولست أطيق مقاومته ولا دفاعه عنكم فانصرفوا ، ثم أشار عليه بعض رجال دولته بالوفادة إلى أمير المسلمين لتتمكن الألفة ، فقبل إشارتهم والتقى قبل ذلك بولى عهد أمير المسلمين وهو ابنه يوسف وكان نازلا على فراسخ من شريش فلقيه وبات فى معسكر المسلمين ، ثم ارتحل من الغد للقاء أمير المسلمين بالاحتفال فأمر المسلمين للقاء الطاغية ، وقومه وإظهار شعار الإسلام وأبهته فاحتفلوا وأظهروا عز الملة وشدة الشوكة ووفور الحامية فلقيه أمير المسلمين بأحسن مبرة وأتم كرامة يليق بها مثله من عظماء الملل ، وقدم هدية سنية لأمير المسلمين وابنه فقبلاها منه وقابلاه بكفائها ومضاعفتها وكمل عقد الصلح وتقبل الطاغية سائر الشروط ، ورضى بعز الإسلام وانقلب إلى قومه وسأله السلطان أن يبعث له من كتب المسلمين التى استولى عليها النصارى ، فلما رجع بعث إليه ستة عشر حملا وقفل أمير المسلمين إلى الجزيرة فى آخر شعبان وصام بها رمضان ثم أعمل نظره فى الثغور وترتيب المصالح ، ثم اعتل وهو بالجزيرة واستمر به المرض إلى أن توفى لآخر المحرم من سنة خمس وثمانين وستمائة فكانت مدة ملكه تسعاً وعشرين سنة ، وكان ابنه ولى عهده فى أقصى المغرب بعثه أبوه لتفقد الأحوال وهو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق ، فأخذ البيعة له وزراء أبيه وعظماء قومه وحضر بنفسه فى شهر صفر فأخذوا البيعة على الخاصة والعامة وكان أول

شيء أحدث من أمره أن بعث إلى ابن الأحمر وضرب موعداً للقائه فبدر إليه ولقيه بظاهر مريالة لأول ربيع، فلقيه هو بعزة وتكريم ، وتجاوز له عن جميع الثغور الأندلسية التي كانت لمالكة والده السلطان يعقوب ما عدا الجزيرة وطريف وتفرق على أكمل حالات المصافاة والوصلة ، ورجع السلطان يوسف إلى الجزيرة فوفاه بها الطاغية شانجة فجددوا عقد السلم الذي عقده له أمير المسلمين يعقوب رحمه الله فأجابه .

غزوة أخرى

في سنة سبع وثمانين نما الخبر للسلطان يوسف بن يعقوب بأن الطاغية انتقض العهد وتجاوز التخوم وأغار على الثغور ، فأرسل السلطان إلى قائد المسالح بالأندلس أن يدخل إلى دار الحرب وينازل شريش ويشن الغارات على بلاد الطاغية فنهض لذلك وجاس خلالها وتوغل في أقطارها وأبلغ في النكاية ، وفصل السلطان في ربيع الآخر سنة تسعين من تازى غازيا واستنفر أهل المغرب وقبائله فنفر وشرع في أجازتهم البحر وبعث الطاغية أساطيله فالتقوا مع أساطيل السلطان في شعبان فاقتتلوا وانكشف المسلمون ووقعت عليهم هزيمة قدرها الله عليهم واستشهد كثير منهم محصلهم الله تعالى ، ثم أغزا له ثانيا فجبنت أساطيل الطاغية عن اللقاء ، ثم ملكتها أساطيل السلطان .

غزوة أخرى

ثم أجاز السلطان بنفسه في أواخر رمضان سنة إحدى وتسعين واحتل بطريف ، ثم دخل دار الحرب غازيا فنازل حصنا منيعا ثلاثة أشهر وضيق عليهم وبث السرايا في أرض العدو ورد الغارات على شريش واشبيلية ونواحيها إلى أن بلغ الغاية في النكاية للعدو والإثخان وقضى من الجهاد وطراً وزاحمه فصل الشتاء وانقطاع الميرة عن العسكر فأفرج عن الحصن ورجع إلى الجزيرة ، ثم أجاز إلى المغرب فاتح سنة اثنتين وتسعين .

غزوة أخرى

فى سنة أثنتين وتسعين تظاهر ابن الأحمر والطاغية واتفقا على منع السلطان إن أراد المجيء بعد المرة السابقة ، وسبب ذلك أنه لما أجاز السلطان إلى الأندلس سنة إحدى وتسعين ، وأبلغ من نكاية العدو أهم الطاغية أمره وثقلت عليه وطأته وحذر بن الأحمر أيضاً غائلة السلطان ، ورأى أن مغبة حاله الاستيلاء على الأندلس وأن يغلبه على أمره ويستابه ملكه ففاوض الطاغية وتحدثوا أن استمكانه من الأجازة إليهم إنما هو لقرب مسافة بحر الزقاق وانتظام ثغور المسلمين وحوانيها فإن ذلك يسهل عبور شوانيهم وسفنهم وأن أم تلك الثغور طريف ، وأنهم إذا استمكنوا منها وملكوا من المسلمين تكون أساطيلهم بمرفأها بمرصد أساطيل المسلمين فتمنع عبورها فاعتزم الطاغية على منازلة طريف ليتملكها وزعم له ابن الأحمر مظاهرته على ذلك ووعده بالمدد وإرسال الميرة لأقوات العساكر أيام منازلتها ووعده الطاغية أنها تكون لابن الأحمر إن خلصت من أيديهم فأناخ الطاغية بعساكر النصرانية على طريف وألح عليها بالقتال ونصب الآلات واحتلت أساطيله ببحر الزقاق فحالوا بين صريخ المسلمين ووصوله إلى السلطان ، وجمع ابن الأحمر عساكره على طريف وهيأها قريباً منه وسرب إليه المدد من السلاح والرجال والميرة من الأقوات واتصلت هذه الحال أربعة أشهر حتى أصاب أهل طريف الجهد ونال منهم الحصار غاية المشقة فراسلوا الطاغية فى الصلح والنزول عن البلد لصالحهم واستنزلهم ووفى لهم بعده ، واستشرف ابن الأحمر أن الطاغية يسلمه طريفا حسبما كان الوعد بينهما فأعرض الطاغية عن ذلك واستأثر بها بعد أن كان ابن الأحمر نزل للطاغية عن ستة من الحصون عوضاً عنها ، ففسدت ذات بينهما ورجع ابن الأحمر يطلب التمسك بالسلطان ليستعين بها على الطاغية فأوفد ابن عمه أبا سعيد ووزيره أبا سلطان الدانى فى وفد من رجال دولته على السلطان لتجديد العهد وتقرير المعذرة ، فوافوا السلطان فقبلهم وقبل ما اعتذروا به ، وأحكموا الصلح ورجعوا لابن الأحمر بإسعاف غرضه من المؤاخاة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أنه كان

جيش لبنى مرين مقيما بالأندلس دائما للغزو ، فقدر الله أن فى خلال ذلك توفى قائد الجيش الذى بالأندلس لبنى مرين فعقد السلطان لابنه ولى عهده أبى عامر على ثغور الأندلس التى فى طاعته مع النظر فى أمر الجيش الذى بالأندلس وأنفذه إلى قصر المجاز بعساكر فوافاه ابن الأحمر هناك وقدم له هدية وللسلطان هدية أيضاً فتلقاه الأمير أبو عامر واحتفل فى مبرته ، ثم قدم ابن الأحمر على السلطان فوافاه بطنجة فبالغ فى تكرمته وبسط له ابن الأحمر العذر فى شأن طريف فقبل عذره ونزل له ابن الأحمر عن الجزيرة ورندة والغربية وعشرين حصنا من ثغور الأندلس كانت قبل ذلك لسلطان المغرب ، وعاد ابن الأحمر إلى الأندلس خاتمة سنة اثنتين وتسعين محبواً مجبوراً وأجازت عساكر السلطان معه لحصار طريف وعقد السلطان على حربها لوزيره عمر الحرباش ، فنازلها مدة فامتنع عليه أخذها فأفرج عنها وهلك الطاغية شانجة سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، واجتمع النصارى على ابنه أذفونش هراندة وحصل قيام ثائرين من المسلمين بتلمسان خرجوا عن طاعة السلطان فاعتزم السلطان على التجهيز والمسير إليهم بنفسه وانتشر بذلك فتنة يطول الكلام بذكرها فسافر السلطان بجيوشه إليهم وطالت تلك الفتنة إلى سنة إحدى وسبعمائة ومات ابن الأحمر فى هذه السنة بالأندلس ، وقام بالأمر بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع بن محمد الفقيه بن محمد الشيخ بن يوسف بن نصر وبعث ولده للسلطان بتلمسان فأحكموا الأمر والعهد بينهما ، وكتب السلطان إلى رجاله المقيمين بثغور الأندلس فى إعانتهم وأمدهم بالرجال ، سنة اثنتين وسبعمائة فكانت لهم نكاية فى العدو ثم بدا لابن الأحمر محمد المعروف بالمخلوع أن يصل يده بالطاغية هراندة بن شانجة فكاتبه وأحكم عقد السلم بينه وبينه واتصل الخبر بالسلطان وهو محاصر لتلمسان فسخطه واستنفره الصريخ ، فبعث ابنه أباسالم لسد تلك الفرجة وجمع إليه العساكر واستعد ابن الأحمر لمدافعة ابن السلطان فدخل أهل سبتة فى خلع السلطان والقبض على عامله فتم له ذلك فسار أبو سالم ابن السلطان بعساكره إلى سبتة وحاصرها مرة ، ثم بيتوا ليلة فاحتل معسكره فأخرج عنها منهزماً فسخطه السلطان واعتزم على النهوض لذلك بنفسه إلا أنه قد أشرف على فتح تلمسان

فلم يمكنه النهوض بنفسه وكانت هذه الفتنة متصلا بعضها ببعض وأنجز الأمر فيها إلى سنة ست وسبعمائة فقدر الله بهلاك السلطان يوسف وهو محاصراً تلمسان طعنة خصى من عبيده وهو على غفلة بمواطأة وزير من وزراء السلطان ، ثم صار الاختلاف الكثير بين أولاده واختلف بنو مرين فيما يختارونه للملك منهم ، وبايعوا بعضهم ثم خلعوه ، وبايعوا آخر ثم خلعوه وبايعوا آخر من أخواته ، والكلام على ذلك طويل لا حاجة بنا إلى ذكره ، ووقعت بينهم مع بعضهم فتنة هائلة واستمر الأمر بينهم إلى سنة عشرة وسبعمائة فاستقر الملك لأخي السلطان يوسف المطعون وأخوه الذى استقر الأمر له هو أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، وفى خلال هذه الفتن قتل بالأندلس أبو الجيوش نصر بن محمد الفقيه أخاه محمد المخلوع بن محمد الفقيه بن الأحمر وذلك سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، فثار عليه ابن عمه أبو الوليد اسماعيل بن فرج الملقب بالرئيس ابن سعيد بن اسماعيل بن يوسف بن نصر ، وانقطع الملك عن أولاد محمد الشيخ ابن يوسف بن نصر ، وصار فى أولاد ابن سعيد فرج الرئيس بن اسماعيل بن يوسف بن نصر ، لأنه لما ثار أبو الوليد على أبي الجيوش صالحه أبو الجيوش سنة سبع عشرة وسبعمائة على الخروج إلى وادى آش فلحق بها وجدد له بها ملكا إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ودخل أبو الوليد غرناطة فأصل لنفسه وبنيه ملكا ، وفى هذه المدة التى فيها هذه الفتن اغتنم الطاغية الفرصة ونازل الجزيرة الخضراء ، ثم أقلع عنها على صلح بعد أن أذاقها من الحصار شدة ، وبعده نازل جبل الفتح المسمى جبل طارق وتقدم أن طارقا هو أول من فتح الأندلس وتسميه العامة الآن جبل الطار ، فتغلب عليه الطاغية وتملكه وذلك سنة تسع وسبعمائة وتراسل هراندة بن أذفونش مع صاحب برشلونة وأمره أن يشغل أهل الأندلس من ورائهم فنازل المرية وحاصروها ونصب عليها الآلات وحفر العدو تحت الأرض سربا مقدار مايسير فيه عشرون راكبا ، وتفطن المسلمون لذلك فاحتفروا قبالتهم مثله إلى أن نفذ بعضهم إلى بعض فاقتتلوا من تحت الأرض وبعث ابن الأحمر عسكراً مدداً لأهل المرية ونبذ عهد الطاغية فلقيهم جمع للنصارى كان الطاغية بعثهم لحصار مرشانة فهزمهم

عسكر ابن الأحمر واستباحهم ونزل قريباً من العسكر الطاغية ، وأقامت عسكر الطاغية على سماتة واسطبونة وزحفت عسكر بنى مرين المقيمون بالأندلس للجهاد على عسكر اسطبونة وقتلوا قائده الفنش وثلاثة آلاف من قومه ، ودخل بعض عسكر المسلمين برجلين فحاصرهم جموع النصارى فجاء مدد للمسلمين فانفض النصارى المحاصرون له ، وكان الطاغية بطاهر الجزيرة فارتحل يريد لقاء مدد للمسلمين ، فخالف أهل البلد إلى معسكره وانتهبوا محلاته وفساطيطه وصار للمسلمين القوة وامتلأت أيديهم من غنائمهم وأسراهم ، ثم هلك الطاغية أثناء هذه الهزائم سنة اثنتى عشرة وسبعمائة وهو هراندة ابن شانجة وولى بعده ابنه الهنشة وكان طفلا صغيراً جعلوه تحت نظر عمه دون بطرة ابن شانجة مع زعيم للنصارى اسمه جوان فكفلاه واستقام أمرهم على ذلك وشغل السلطان أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ملك المغرب بشأن ابنه على فإنه خرج على أبيه وكان بينهما مايطول ذكره ، فاغتنم النصارى الفرصة وقوى أمرهم بالأندلس فزحفوا على غرناطة كرسى سلطنة ابن الأحمر سنة ثمان عشرة وسبعمائة وأناخوا عليها بعسكرهم وأممهم فبعث أهل الأندلس صريخهم إلى السلطان أبى سعيد وهو فى شغله فيما كان بينه وبين ابنه وكان بالأندلس كما تقدم جيش لبنى مرين جعلوه مقيما دائما بالأندلس لقصد الجهاد ودفع العدو وكان الرئيس على أولئك المجاهدين عثمان بن أبى العلاء إدريس بن عبد الله ابن عبد الحق المرينى ، فلما جاء صريخ أهل الأندلس للسلطان أبى سعيد اعتذر إليهم السلطان بسبب ما هو مشغول به من أمر ابنه ، واعتذر إليهم أيضا بوجود عثمان ابن أبى العلاء رئيس الجيش بالأندلس ، وكان له قوة ورياسة وكان السلطان يخشى منه التغلب على السلطنة ، فتفرق كلمة بنى مرين فشرط عليهم أن يقبضوا على عثمان ابن أبى العلاء ويدفعوه إليه برمته فيبقى عنده ويبعث إليهم من يقوم بتدبير جيوش بنى مرين بالأندلس مع مايمكنه من إرسال العساكر ، ثم إذا تم الجهاد بعد ابن أبى العلاء إليهم احتياطاً على المسلمون لئلا تفترق الكلمة فلم يمكنهم ذلك لقوة رياسة عثمان ابن أبى العلاء بعصابته من قومه فأخفق سعى هؤلاء المستصرخين بالسلطان ولم تحصل لهم نجدة منه وأطالت أمم النصرانية الحصار على غرناطة وأكثر الجيوش وطمعوا فى

تملكها ، ثم أن الله تعالى نفس محنتهم ودافع بيد قدرته كما ستراه مذكوراً حالا فى هذه الغزوة العظمى .

غزوة عظمى

لما أراد الله حصول النصر والفرج للمسلمين الذين حاصرهم العدو بغرناطة سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وفق الله شيخ الغزاة من بنى مرين المقيمين بالأندلس للجهاد وهو عثمان ابن أبى العلاء المتقدم ذكره حتى كان النصر بسببه وإعانته فكانت هذه من الغرائب والعجائب بل هى من أعظم معجزات النبى صلى الله عليه وسلم فى نصرة الله لأمته والقصة طويلة ، وملخصها أن النصارى عزموا فى ذلك العام على استئصال المسلمين وإخراجهم من الأندلس بحيث لا يبقى شىء من الأندلس تحت يد المسلمين فتجهزوا لغزو غرناطة التى فيها أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر وأتاها الطاغية دون بطرة فى جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكا من ملوك الفرنج ، وكان النصارى وملوكهم قبل ذلك رحلوا إلى من يرجعون إليه فى دينهم وهو البابا صاحب رومة فدخل ملكهم دون بطرة صاحب طليطلة على البابا وسجد له وتضرع وطلب منه استئصال من بقى من المسلمين بالأندلس وأكد عزمه فقلق المسلمون بغرناطة وغيرها وعزموا على الاستنجاد بالسلطان أبى سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى صاحب فاس ومراكش وأنفذوا إليه رسلا ، فاعتذر إليهم كما تقدم بيانه ، فرجعوا إلى أعظم الأدوية وهو الالتجاء إلى الله تعالى وأخلصوا النيات مع حصول غاية الاضطرار ، وأقبل الإفرنج فى جموع لا تحصى فقضى ناصر من لا ناصر له سواه بهزيمة جيش النصرانية وقتل طاغيتهم دون بطرة ومن معه وكان نصراً عزيزاً ويوماً مشهوداً ، وكان سلطان الأندلس إذ ذاك الغالب بالله أبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أبى سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر . وشيخ الغزاة المقيم بالأندلس من بنى مرين الشيخ العالم أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء إدريس ابن عبد الحق المرينى فاجتهد ابن الأحمر فى تحصين البلاد والثغور ، فلما بلغ النصارى ذلك التحصين ، عزموا على منازلة الجزيرة الخضراء فانتدب ابن الأحمر لردهم وجهز الأساطيل

والرجال ، فلما رأوا ذلك عزموا على استئصال المسلمين وتوجهوا إلى طليطلة ليكملوا التأهب بذلك فأعدوا غاية الأهبة ووصلت الأثقال والمجانيق آلات والحصار والأقوات والمراكب ، ووصل العدو إلى غرناطة كرسى ملك ابن الأحمر وامتلأت الأرض بهم فتقدم بن الأحمر إلى شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء وسأله الخروج للجهاد وانجاد المسلمين بمن معه من الغزاة والشجعان فخرج إليهم يوم الخميس الموفى عشرين من ربيع الأول سنة تسع عشرة وسبعمائة ، ولما كانت ليلة الأحد أغارت سرية من العدو على سرية من المسلمين فخرج إليهم جماعة من فرسان الأندلس الرماة فقطعوهم من الجيش وفرت تلك السرية أمامهم إلى جهة سلطانهم فتبعهم المسلمون إلى الصبح فاستأصلوهم فكان هذا أول النصر ، ولما كان يوم الأحد ركب شيخ الغزاة لقتال العدو فى خمسمائة آلاف من أبطال المسلمين المشهورين ، فلما شاهدهم الفرنج عجبوا من إقدامهم مع قلتهم فى تلك الجيوش العظيمة فركب النصارى بجملتهم وحملوا عليهم فقاتلهم المسلمون أشد قتال ، وهزم الله الفرنج أقبح هزيمة وأخذتهم السيوف وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام وقتل الله دون بطرة ملك النصارى وقتلوا الملوك الخمسة والعشرين الذين كانوا معه جميعهم وخرج أهل غرناطة لجمع الأموال وأخذ الأسرى ، فاستولوا على أموال عظيمة ، منها من الذهب ثلاثة وأربعون قنطاراً ، ومن الفضة مائة وأربعون قنطاراً ، ومن السبى سبعة آلاف وكان من جملة السبى امرأة الطاغية وأولاده ، فبذلت فى نفسها مدينة طريف وجبل الفتح وثمانية عشر حصناً فلم يقبل المسلمون ذلك ، وزادت عدة القتلى من النصارى فى هذه الغزوة على خمسين ألفاً ويقال إنه هلك منهم بالوادى مثل هذا العدد لعدم معرفتهم بالطرق ، وأما الذين هلكوا بالجبال والشعاب فلا يحصون واستمر البيع فى الأسرى والأسباب والدواب ستة أشهر ووردت البشائر بهذا النصر إلى سائر البلاد ، ومن العجب ! أنه لم يقتل من المسلمين والأجناد سوى ثلاثة عشر فارساً وقيل عشرة أنفس ، وكان عسكر المسلمين خمسة آلاف وخمسمائة منهم ألف وخمسمائة فارس وأربعة آلاف رجالة ، وكانت الغنيمة تفوق الوصف ، وسلخ الطاغية دون بطرة وحشى جلده قطناً وعلق على باب غرناطة وبقى معلقاً سنوات وطلب النصارى

المدنة فعقدت لهم ، وكانت هذه الغزوة سنة تسع عشر وسبعمائة وكانت وفاة شيخ الغزاة عثمان بن أبى العلاء سنة ثلاثين وسبعمائة وعمره ثمان وثمانون سنة ، واستوفى فى المشهور سبعمائة واثنتين وثلاثون غزوة رحمه الله تعالى ورضى عنه ، وكتبوا على قبره ترجمة طويلة تدل على علو شأنه فى العلم والعمل والإخلاص فى الجهاد وكانت وفاة ابن الأحمر سنة سبع وعشرين وسبعمائة وولى بعده ابنه أبو الحجاج يوسف وتوفى السلطان عثمان المرينى سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ، وولى بعده ابنه أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب ابن عبد الحق المرينى .

ذكر استخلاص جبل الفتح من النصارى

قد تقدم أن الطاغية تملك جبل الفتح سنة تسع وسبعمائة وكان هذا الجبل للمسلمين من أحسن الثغور ، وكان شجاً فى حلق العدو وهو فاصل بين أفريقية والأندلس فأهم المسلمين شأنه ، وكان ابن الأحمر قدم على السلطان فى سنة اثنتين وثلاثين فأكبر مقدمه وأركب المسلمين للقائه وبالغ فى إكرامه فتذاكر معه فى شأن استخلاص الجبل المذكور فاتفقا على التجهيز لاستخلاصه ، فأمر السلطان أبو الحسن بالتجهيز لاستخلاصه وعقد لابنه الأمير أبى مالك على جيش من بنى مرين وأنفذه مع ابن الأحمر لمنازلة الجبل فاحتل بالجزيرة ، وتتابع إليه الأسطول بالمدد وأرسل ابن الأحمر حاشرين فى الأندلس يجمعون الناس ويستنفرونهم لذلك فتسايلوا إليه واجتمع معسكرهم جميعاً بساحة جبل الفتح وأبلوا فى حربه ومنازلته بلاء حسناً إلى أن تغلبوا عليه وملكوه سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، وافتتحه المسلمون عنوة وقتلوا من كان به من النصرانية ، وغنموا ما كان معهم ووافاهم الطاغية ومعه أمم كثيرة مدداً لقومه بعد مضى ثلاثة أيام من الفتح وقد شحنه المسلمون بالأقوات ونقلوها من الجزيرة على خيولهم ، ولما وصل الطاغية أناخ بجيوشه عليه وبرز أبو مالك بعساكره فنزل بحذائه ، ونزل أيضاً عسكر الأندلس بحذاء الطاغية وتحصن العدو فى محلتهم فبادر بن الأحمر إلى لقاء الطاغية وسبق الناس إلى فسطاطه ، وتلقاه

الطاغية راجلا حاسراً إعظاما له فسأله ابن الأحمر الإفراج عن هـذا المعقل فرأى الطاغية أن تملكه الجبل وانتزاعه من المسلمين شديد عسر عليه فأجاب ابن الأحمر إلى ماسأل وأتحفه بذخائر ممالديه وارتحل لفوره، وأخذ الأمير أبو مالك فى تثقيف أطراف الثغر وسد فروجه وأنزل الحامية به ونقل الأقوات وكان هذا الفتح فتحا طوق دولة السلطان أبى الحسن قلادة الفخر طول الدهر، وكانت مدة منازلة المسلمين إلى أن ملكوه ستة أشهر ثم أراد السلطان أبو الحسن أن يحصن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع العدو فى منازلته ولا يجد طريقا للتضييق عليه عند محاصرته ورأى الناس ذلك من المحال فأنفق السلطان كثيراً من الأموال وأرضى العمال حتى بنوا سوراً أحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال، ثم زاد فى التحصين بعده ابنه أبو عنان.

ذكر غزوة للسلطان أبى الحسن إلى الأندلس

كان السلطان أبو الحسن بعد استيلائه على جبل الفتح اشتغل بقتال جماعة ثائرين عليه بتلمسان واستمر ذلك إلى سنة تسع وثلاثين وسبعمائة فرجعوا إلى طاعته فتوجهت همته بعد ذلك لغزو النصارى بالأندلس فقصد أولا ولاية ابنه أبى مالك على ثغور عمله بالأندلس وصرفه إليها وكان الطاغية مدة اشتغال السلطان بقتال أهل تلمسان قد اعتز على المسلمين ونازل السلطان أبا الوليد بن الأحمر بغرناطة مراراً ووضع عليه جزية فتقبلها لعدم قدرته على دفاعه وأقبل الطاغية على التهام المسلمين بالأندلس، فلما فرغ السلطان أبو الحسن من شأن أهل تلمسان دعته نفسه إلى الجهاد، فأوعز ابنه الأمير أبى مالك أمير الثغور سنة أربعين بالدخول إلى دار الحرب وجهز إليه عساكر كثيرة ثم شخص بنفسه غازياً، فتوغل فى بلاد الطاغية واكتسحها وأكثر القتل والسبى وغنم عساكره غنائم كثيرة، فلما شرع فى الرجوع عن أرضهم اتصل به الخبر بأن النصارى جمعوا له وأجدوا السير فى اتباعه فأشار عليه وزراؤه بالخروج من أرضهم وأن يصير إلى مدن المسلمين ويتحصن بهـا فامتنع من الرجوع وكان قرماً ثابتا إلا أنه غير

بصيرٍ بالحروب لصغر سنه ، فصبحهم عساكر النصرانية فى مضاجعهم قبل أن يركبوا وأدركوا الأمير أبا مالك قبل أن يركب على فرسه فقتلوه وكتب الله له الشهادة وقتلوا كثيراً من قومه ، واحتووا على عسكره بما فيه من الأموال ، ورجعوا على أعقابهم واتصل الخبر بالسلطان أبى الحسن ففجع لهلاك ابنه واسترجع واسترحم له واحتسب عند الله أجره وشرع فى أجازة لعساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل وفتح ديوان العطاء وعرض الجند وأزاح عللهم واستنفر أهل المغرب وارتحل إلى سبتة ليباشر أحوال الجهاد فتسامعت أمم النصرانية بذلك فاستعدوا للدفاع وأخرج الطاغية أسطوله إلى الموضع المعروف عندهم بالزقاق ليمنع السلطان من الأجازة واستحث السلطان أساطيل المسلمين من مراسى العدو وبعث إلى ملوك بنى حفص بأفريقية بتجهيز أسطولهم ، فبعثوا إليه عشرين أسطولا مشحونة بالعساكر وتوافت أساطيل المسلمين بسبتة تناهز المائة فناجزوا أسطول النصارى التى بالزقاق وزحفوا عليهم وتواقفوا ملياً ثم قربوا الأساطيل بعضها إلى بعض وقرنوها للمصاف فلم يمض إلا قليل حتى هبت ريح النصر وأظفر الله المسلمين بعدوهم وخالطوهم فى أساطيلهم ، واستلحموهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح وألقوا أشلاءهم باليم وقتلوا قائدهم واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة واستولى المسلمون عليها فبرز الناس لمشاهدتها وطيف بكثير من رؤوس العدو فى جوانب البلد ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء وعظم الفتح وجلس السلطان أبو الحسن للتهنئة ، وأنشدت الشعراء القصائد بين يديه وكان يوما من أعز الأيام ولله الحمد والمنة ثم شرع السلطان فى أجازة من عنده من العساكر الغزاة والمتطوعة والمرتزقة ، ولما استكمل أجازة العساكر أجاز هو فى أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين ، ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها وهى بيد النصارى وأحاط عسكره بفنائها ووافاه سلطان الأندلس ابن الأحمر بعسكر الأندلس وأحاط الجميع بطريف نطاقا واحداً ونصبوا عليها الآلات ، وجهز الطاغية أسطولا آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن العسكر وطال حصارهم للبلد ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات ، واختلت أحوال العسكر واحتشد الطاغية أمم النصرانية وأعانه البرتغال صاحب اشبونة ، وغزب

الأندلس فجاء معه فى قومه وزحف على المسلمين لستة أشهر من منازلتهم ، ولما قرب معسكرهم أرسلوا قطعة من جيش النصارى إلى طريف فدخلوها ليلا على غفلة من العسس وأحسوا بهم آخر الليل ، فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان وقالوا له لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته وزحف الطاغية من الغد فى جموعه ، وعبى السلطان مواكب المسلمين صفوفاً وتزاحفوا ، ولما نشب القتال كان للعدو جيش كمين فبرز وخالفوهم إلى معسكر السلطان وعمدوا إلى فسطاط السلطان ، ودفعه عنهم من كان عند الفسطاط للحراسة فاستلحموهم وقتلوهم ، وكان مع السلطان فى هذه بعض نسائه فوصل هؤلاء المهاجمون إلى النساء فدافع النساء عن أنفسهن فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان عائشة بنت عمه أبى يحيى بن يعقوب وفاطمة بنت سلطان أفريقية أبى يحيى الحفصى وغيرهن من حظاياه فقتلوهن عن آخرهن واستلبوهم وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً وأحس المسلمون الذين يقاتلون الكفار بما وراءهم فى معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان هجم فى طائفة من قومه حتى خالط الكفار فى صفوفهم ، فأحاطوا به وقبضوا عليه وولى السلطان متحيزاً إلى فئة المسلمين واستشهد كثيراً من الغزاة ووصل الطاغية بنفسه إلى فسطاط السلطان أبى الحسن ، وأنكر على قومه قتل النساء والولدان ووقف منه لمنتهى أثره ثم انكفأ راجعاً إلى بلاده ولحق ابن الأحمر بغرناطة كرسى ملكه . وخلص السلطان إلى الجزيرة ثم إلى الجبل ثم ركب إلى سبتة ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم ، ولما رجع الطاغية من طريف استأسد أى صار كالأسد على المسلمين بالأندلس وطمع فى التهامهم وجمع عساكر النصرانية ونازل قلعة بنى سعيد ثغر غرناطة على مرحلة منها وجمع الآلات والأيدى على حصارها واشتدمخنقها وأصابهم الجهد من العطش ، فنزلوا على حكمه وذلك سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وانصرف إلى بلده ، وأما السلطان أبو الحسن فإنه لما جاز إلى سبتة ألزم نفسه بالعود إلى الجهاد وذهب إلى فاس وبعث فى الأمصار للاستنفار وأخرج قواده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى

أ كبتمل منها عدة وافرة ، ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها وقدم عساكره إلى العدوة مع وزيره ، وبعث إلى الجزيرة بعض أقارب الوزير وبعث إليهم مدداً وبلغ الطاغية الخبر فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق للمدافعة ، وتلاقت الأساطيل ، ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعداد ، وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق ، وملكوا دور المسلمين وأقبل الطاغية من أشبيلية فى عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفأ أساطيل المسلمين وأمل فى أن ينظمها بملكيته مع جارتها طريف وحشر الفعلة والصناع بالآلات وجمع الأيدى عليها وطاولها الحصار واتخذ أهل العسكر بيوتا من الخشب للمطاولة، وجاء السلطان أبو الحجاج بن الأحمر بعساكر الأندلس فنزل قباله الطاغية ظاهر جبل الفتح على سبيل الممانعة وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة ليبعث المدد من الفرسان والمال والميرة فلم يغنهم ذلك شيئاً ، واشتد الحصار عليهم وأصابهم الجهد ، وأجاز إليه السلطان ابن الأحمر ليفاوضه فى شأن السلم مع الطاغية بعد إذن الطاغية له فى الجواز مكر به وترصد له بعض الأساطيل فى طريقه ، فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الطريق وضاقت أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان ، وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا عن البلد فبذل لهم الأمان وخرجوا ، فوفى لهم وأجازوا إلى المغرب ، وذلك سنة ثلاث وأربعين فأنزلهم السلطان أبو الحسن ببلاده على خير نزل ولقاهم من الميرة والكرامة ما أعاضهم عما فاتهم وخلع عليهم وأجازهم بجوائز سنية لا يزال الناس يتحدثون بها وانكفأ السلطان إلى حضرته موقنا بظهور أمر الله وإنجاز وعده فى رجوع الكرة وعلو الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون ، ثم ثار على أبى الحسن ثائرون بالمغرب وتوالت فتن كثيرة إلى أن توفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة وولى بعده إبنه أبو عنان وثار بينه وبين إخوته فتن كثيرة وأما سلطان الأندلس أبو حجاج بن الأحمر فقتل فى الصلاة يوم عيد الفطر طعنه أسود مدسوس عليه وولى بعده ابنه محمد الغنى بالله وذلك سنة خمس وخمسين وسبعمائة ثم خلع سنة ستين ثم أعيد سنة ثلاث وستين والكلام على ذلك طويل لا حاجة لنا بذكره واستمر فى ملكه إلى أن توفى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة

وكان قد قوى ملكه وسلطانه بعد رجوعه إلى ملكه سنة ثلاث وستين حتى صار ملك المغرب وسلطان بنى مرين تحت أمره ووقع فى هذه السنين فتن بالأندلس بين النصارى مع بعضهم وذلك أن المنش ملك النصارى هلك سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وولى بعده ابنه بطرة وثارت فتن وحروب بينه وبين إخوته وانتهز الفرصة ابن الأحمر، وجمع جيوش المسلمين للجهاد ودخل بعساكر المسلمين فأثخن فى أرض النصرانية وخرب معاقلهم ومدنهم ثم رجع إلى غرناطة وذلك فى سنة سبع وستين وسبعمائة ، ثم تشوف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة الخضراء إلى المسلمين فتراسل ابن الأحمر مع ملك مراكش وفاس وكان السلطان حينئذ السلطان عبد العزيز بن السلطان أبى الحسن واتفقا على أن ابن الأحمر يزحف بعساكره وملك المغرب يمده بالمال والأساطيل لعزة جمع العسكر عليه لما كان فيه من الفتن فأوعز صاحب المغرب إلى أساطيله فعمرت وسارت وبعث بمال كثير وذخائر وزحف ابن الأحمر بعساكره واستعدت الآلات للحصار فنازلها أياماً قلائل فأيقن النصارى بالملكة لبعدهم عن الصريخ ويأسهم من مدد ملوكهم فألقوا باليد وسألوا النزول على حكم السلم فأجابهم السلطان ابن الأحمر إليه ونزلوا عن البلد وأقيمت فيه شعائر الإسلام ومراسمه ومحيت منه كلمة الكفر ومعالمه ، وكان ذلك فى سنة سبعين وولى عليها ابن الأحمر من قبله ولم تزل تحت نظره إلى أن تمحض له النظر فى هدمها خشية استيلاء النصرانية عليها فهدمت سنة ثمان وسبعمائة وأصبحت خاوية كأن لم تغن بالأمس والبقاء لله وحده وتوفى الغنى بالله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن الأحمر سلطان الأندلس سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وولى ابنه يوسف وتوالت فتن كثيرة فقصد الإفرنج البرتغال مدينة سبتة سنة أربع عشرة وثمانمائة فى مراكب كثيرة فقاتلهم أهلها ، ثم تغلب عليهم الفرنج فملكوها وبقيت معهم نحو مائتين وخمسين سنة ثم انتزعها الأسبانيول منهم ثم توالت فتن بين بنى الأحمر مع بعضهم فى الأندلس وجرت أمور يطول الكلام بشرحها وآل الأمر فيها إلى خروج ملك الأندلس عن أيدى المسلمين فأخذ العدو مالقة سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة ، وأخذوا غرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة وانقرض ملك بنى مرين سنة تسعين وثمانمائة وانتقم الملك لوزرائهم

بنى وطاس ، ثم منهم للأشراف السعديين والكلام على ذلك يطول ، ولما حاصر العدو غرناطة أصاب المسلمون وقت حصار العدو لهم بها شدة الجوع وتفاقمت عليهم الخطوب فكاتبوا العدو فى الصلح واشترط شروطاً وعقدوا وثائق ومكنوا العدو من غرناطة وكانت الشروط سبعة وستين شرطا منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال ومنها إبقاء الناس وأماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم ومنها أن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك وأن لا يدخل النصارى دار مسلم وأن لا يغضبوا أحداً وأن لا يتولى على المسلمين فى الأحكام نصرانى ولا يهودى وأن يفك من كان أسير منهم ومنها إن أراد الجواز إلى المغرب لا يمنع ولا يؤاخذ من قتل أحداً من النصارى أيام الحرب إلى غير ذلك من بقية الشروط ، ثم أن النصارى نقضوا تلك الشروط شيئاً فشيئا ونكثوها عروة عروة إلى أن آل الأمر إلى حملهم المسلمين على التنصر حتى صاروا يقولون لبعض المسلمين أن جدك ما كان نصرانيا فأسلم فى زمن كذا فلا بد أن ترجع نصرانيا كما كان أجدادك السابقون ، فلما فحش هذا الأمر قام جماعة من المسلمين كانوا بموضع يقال له البازين فقتلوا النصارى الذين كانوا عندهم فخرج الأمر من سلطانهم بقتل المسلمين إلا من تنصر فإنه ينجو من القتل فتنصر خلق كثير فى البادية والحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى واجتمعوا فى بعض القرى متحصنين بها ، فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا وبقى جماعة من المسلمين صعدوا جبلا واحتموا فيه وقاتلهم العدو فقتلوا من العدو خلقا كثيراً فأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم ، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين ، ولم يكن متنصراً فى البواطن يعبد الله فى خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فى البحث حتى أنهم أحرقوا منهم كثير بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكينة الضعيفة فضلا عن غيرها من الحديد ، وقام المسلمون الذين تحصنوا فى بعض الجبال على النصارى مراراً ، ثم تغلب النصارى عليهم ولم يقيض الله لهم ناصراً إلى أن كان آخر وقت أخرجهم النصارى فيه سنة ألف وعشر فخرج ألوف من المسلمين إلى فاس وألوف إلى تلمسان ووهران

وجمهورهم خرج إلى تونس وتسلط على كثير منهم الأعراب ومن لايخشى الله ونهبوا أموالهم فى البوادى والطرقات وأكثر النهب والأخذ وقع على الذين ذهبوا إلى تلمسان وفاس ، وأما الذين ذهبوا إلى تونس فأكثرهم سلم من ذلك وقد عمر هؤلاء الخارجون من الأندلس كثيراً من القرى الخالية فى تلك المواضع التى ذهبوا إليهم ومنهم جماعة بسلا وتطاون والجزائر ، واستخدم سلطان المغرب منهم عسكراً جراراً ووصل جماعة منهم إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها لأنهم كانوا عدداً كثيراً لايحصيهم إلا الله تعالى والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، قال فى نفح الطيب والسلطان الذى أخذت منه غرناطة آخر سلاطين بنى الأحمر الذى انقرضت بانقراض دولته مملكة الإسلام بالأندلس ومحيت رسومها هو السلطان أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير على بن السلطان يوسف بن السلطان الغنى بالله محمد واسطة عقدهم والمشيد مبانيهم الأنيقة وسلطان دولتهم على الحقيقة ابن السلطان أبى الحجاج يوسف ابن السلطان اسماعيل بن الرئيس أبى سعيد فرج بن اسماعيل بن نصر بن قيس الأنصارى الخزرجى رحمهم الله جميعاً وانتهى السلطان المذكور إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه متلهفاً على ماخلفه وبنى بفاس قصوراً ، قال فى نفح الطيب وعهدى بذريته بفاس إلى الآن سنة سبع وثلاثين وألف يأخذون من أموال الفقراء والمساكين ويعدون من جملة الشحاذين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، هذا خلاصة ما كان بالأندلس بغاية الاختصار ولنرجع إلى تمام الكلام على ما كان بالديار الشامية وغيرها ، وليكن الابتداء بذكر حرب الصليب .

ذكر ابتداء الحروب الصليبية

اعلم أن أمير المسلمين منذ افتتحوا الشام فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إنما كان قتالهم فى تلك الأراضى مع الروم ملوك القسطنطينية ، ثم صار من الخلفاء والأمراء الإسلامية غزوات وفتوحات كثيرة وافتتحوا فيها كثيراً من ممالك

الروم وتقدم بيان ذلك ، ثم لما كان آخر القرن الخامس وظهر الضعف فى الخلفاء العباسيين واستولى على مصر وبعض الشام الخلفاء العبيديون وتغلب على كثير من الممالك الإسلامية العمال الذين فيها طمع ، فى ممالك الشام الإفرنج الذين نشأت لهم دول فى أوربا بعد ضعف الملوك الرومانية ، فتجمعت جموع من الإفرنج ملوك أوربا وساروا لتملك الممالك الإسلامية التى فى الشام وأعمالها وكان ذلك سنة أربعمائة وتسعين هجرية ، وكان من أسباب قيامهم وهيجانهم لتلك الحروب أن رجلا منهم اسمه بطرس الناسك ترهب وانفرد عن أهله سائحا متنسكا فزار بيت المقدس وأخذته الحمية فى استخلاص تلك الأماكن من أيادى المسلمين ، فلما رجع إلى بلاد إيطاليا اجتمع مع البابا وخاطبه فى ذلك فوافقه البابا على استحسان أفكاره وما قام بنفسه وعزم فى الحال على اتخاذ الأسباب والوسائط المقتضية لإتمام هذا المشروع ، فأمر بطرساً أن ديجول فى أقطار البلاد مناديا ومبشراً الشعوب بإنقاذ النصارى واستخلاص تلك الأراضى من أيادى المسلمين فأخذ بطرس يجول من مكان إلى آخر منذراً ومحركا قلوب الناس للاشتراك فى هذا العمل ، فاجتاز من إيطاليا إلى فرنسا ، ثم سار إلى أكثر ممالك أوروبا زارعا بين الجميع هذه الأفكار مهيجاً إياهم للنهوض والقيام ، وفى أثناء ذلك عقد البابا عدة مجامع فى إيطاليا وفرنسا ، وطرح فيها هذه المسألة أمام الجمهور الحاضرين منتهضا همتهم للمبادرة والاستعداد فى هذا المشروع ، وجعل للرعايا القائمين بذلك إنعامات ورفع عنهم كثيراً من الضرائب والخراجات ، فنهض أحد الأساقفة وطلب من البابا أن يكون أول من يجاهد فى هذا السبيل ، فسلمه البابا راية الصليب فتبعه جملة من رؤساء الدين ومن عامة الناس ورسموا جميعا على صدورهم صورة الصليب بلون أحمر وجعلوا هذه العلامة على الأسلحة والألوية والرايات والبنود ومن ذلك الوقت سموا الصليبيين ودعيت حروبهم بالحروب الصليبية وإذا أراد الله ظهور أمر هيأ أسبابه فظهر لهم أمور وأسباب قوى بها عزمهم على ما أرادوا ، فمن ذلك ما ذكره بعض مؤرخيهم أنه فى أثناء المناداة بهذه الحروب وتجهيز الناس للدخول فيها ظهر لهم جملة من العجائب فى السماء والأرض منها تساقط بعض النجوم السماء على

الأرض وظهر بانتقالها علامة حمراء دموية فى جانب الأفق وظهر لهم عمود نارى على شكل حربة ذات حديد بقرب الشمس وشوهد فى الجو صورة مدن وعساكر وخيول وأسلحة وفرسان مرسومة بالصلبان ومنها أنه كان يرى فى مدة ستة أيام متوالية على أثواب للنسيخية صلبان من نور مطبوعة على ملابسهم بطريقة عجيبة بحيث لا يمكن لأحد أن يمحوها بالماء ولا بالنار فهذه المرائى التى كانت تتراءى لهم شددت عزائمهم وجعلتهم لا يتوقفون عن السفر وكانوا يستعدون من يوم إلى يوم حتى بلغ عددهم ثلاثمائة ألف مقاتل وكان الملك الكبير منهم المتقدم فى قيادة جيوشهم يسمى بردويل ، وكان بينه وبين صاحب صقلية مصاهرة وصداقة ، فأراد أن يكون مرور جيوشهم على أفريقية فيتملكوها ثم يسيرون منها إلى الشام فأرسل إلى صاحب صقلية يقول له قد جمعت جموعاً كثيرة ، وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى أفريقيا أفتحها وأكون مجاوراً لك فجمع صاحب صقلية أصحابه واستشارهم فى ذلك فقالوا : وحق الإنجيل هذا جيد لنا ولهم وتصبح البلاد كلها بلاد النصرانية ، فرفع رجله لهم وضرط ضرطة عظيمة وقال : وحق دينى هذه خير من كلامكم ، قالوا وكيف ذلك قال إذا وصلوا إلى أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى أفريقية وعساكر من عندى أيضاً فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عنى ما يصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفتحوا رجعوا إلى بلادى وتأذيت بهم ويقول تميم أمير أفريقية غدرت بى ونقضت ما بينى وبينك من العهود وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا مع أن بلاد أفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة وأخذناها ، وأحضر رسول بردويل وقال له : إذا عزمتم على جهاد المسلمين فأفضل ذلك فتح القدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر وأما أفريقية فبينى وبين أهلها عهد وإيمان لا يمكننى نقضها فلما لم يمكنهم صاحب صقلية من المرور عليه عزموا على التوجه إلى الشام من طريق القسطنطينية فمنعهم ملك الروم من الاجتياز ببلاده إلا بشرط أنهم يحلفون له أنهم يسلمون له أنطاكية إذا ملكوها ، وكان يظن أنهم لا يقدرون على تملك البلاد الشامية لما فيها من جنود الإسلام وهو يريد هلاك الإفرنج خوفاً من أنهم يتغلبون عليه لأنه يرى قوتهم تزيد

كلما مضى زمن من الأزمان ، فلما اشترط عليهم أن يعطوه أنطاكية إذا ملكوها أجابوه إلى ذلك وقبلوا شرطه وعبروا الخليج عند القسطنطينية طالبين القسطنطينية ليجتمعوا فيها ، وكانوا أجناساً عديدة وفرقاً كثيرة من الإيطاليين والفرنساويين وغيرهم من سكان أوروبا وكان بطرس الناسك المتقدم ذكره متوحشاً بثوبة الرهبانى قائداً للفرقة الأولى منهم فساروا بهم على طريق ألمانيا وهنكاريا وبلغاريا فكانوا ينهبون ويخطفون من سكان المدن والسواحل وهم سائرون فوثب عليهم الأهالى وقاتلوهم وقتلوا منهم عدداً كثيراً وبعد أن قاسوا أهوالا شديدة انتهوا إلى القسطنطينية فأذن لهم ملكها أن يقيموا فى المدينة إلى أن يحضر رفقاؤهم ثم نقلهم ملك القسطنطينية فى مراكبه إلى سواحل آسيا ، فلما انتهوا إليها التقتهم عساكر الإسلام فى نواحى قونية وكانت تلك العساكر لملوك السلجوقية الذين كانت ممالكهم فى الروم وأحاطوا بهم وقاتلوهم قتالا شديداً فاستظهر المسلمون عليهم وتمكنوا منهم واستولوا على مضاربهم وذخائرهم ، فلم ينج منهم إلا القليل فهكذا كانت نهاية الوقعة الأولى . وأما بطرس الناسك فكان قد رجع إلى القسطنطينية قبل حدوث هذه الوقعة متشكياً من عدم انتظام الصليبيين وعدم طاعتهم وانقيادهم لرؤسائهم ولكن لما بلغته هذه الأخبار المحزنة أقسم بأنه لا يرجع قط عن عزمه حتى يشاهد حرباً صليبياً ثانيا .

ذكر تملك الفرنج قونية وأنطاكية

وقد تقدم أن الروم كانوا قد استولوا على أنطاكية سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وبقيت بأيديهم إلى سنة أربعمائة وسبع وسبعين فانتزعها منهم سليمان بن قتلمش السلجوقى ، فلما كانت هذه السنة أعنى سنة أربعمائة وتسعين كان الأمير العامل على أنطاكية باغيسان التركمانى وبلغ أهل أوروبا ما حل بأصحابهم من النكال حزنوا جداً وتحركت عزائمهم على أخذ الثأر والاستيلاء على تلك الديار فتجهز منهم جيش جرار وساروا كالأولين إلى أن وصلوا إلى قونية فالتقتهم جيوش الإسلام ووقع بينهم عدة معارك شديدة وكانت الغلبة فيها لطوائف الإفرنج فاستولوا على مدينة قونية وكان ملكها بيد قلج أرسلان السلجوقى وهو الذى قابلهم بجموعه فهزموه وملكوا منه قونية ، ثم تقدموا إلى أنطاكية فحصروها

تسعة أشهر ، ثم ملكوها فى جمادى الأولى سنة ٤٩٠ من صاحبها باغيسان التركمانى بعد أن ظهر منه الشجاعة وجودة الرأى والحزم ما لم يشاهد من غيره لأنهم لما قدموا على أنطاكية قابلهم بجيوشه وقاتلهم قتالا شديداً وجرت وقائع متعددة وهجمات هائلة ثم لما عجز هرب ، ثم قتل ، ولما دخل الإفرنج أنطاكية قتلوا من فيها من المسلمين ونهبوا أموالهم ، ولما سمع صاحب الموصل بتملكهم أنطاكية جمع عساكره وسار إلى الشام وهو الأمير قوام الدولة أبو سعيد كربوقا ، ثم أقام بعساكره بمرج دابق واجتمع معه عساكر الشام تركها وعربها سوى من كان بحلب وحمص وسنجار واجتمع كثير من الأمراء وعظمت المصيبة على الإفرنج وأرسلوا إلى كربوقا يطلبون منه الأمان لما أقبل بالجيوش على أنطاكية فامتنع وقال لا تخرجوا إلا بالسيف وحاصرهم ، ثم أن كربوقا المذكور أساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء وتكبر عليهم فخبثت نياتهم عليه ، ولما ضاق الأمر على الإفرنج وقلت الأقوات عندهم خرجوا من أنطاكية واقتتلوا مع المسلمين وكان معهم راهب مطاع فيهم ، وكان داهية من الرجال فقال لهم قبل خروجهم أن المسيح كان له حربة مدفونة بالقيسان الذى بأنطاكية وهو بناء عظيم إن وجدتموها فإنكم تظفرون وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن قبل ذلك حربة فى مكان فيه وعفا أثرها وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم وحفروا فى جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم أبشروا بالظفر فخرجوا فى اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة وستة ونحو ذلك فقال المسلمون لكربوقا ينبغى أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال لا تفعلوا أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ولم يمكنهم من معاجلتهم فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء إليهم هو بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بأنطاكية منهم أحد ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والإعراض عنهم وثانيا من منعهم عن قتل الفرنج وتمت الهزيمة على المسلمين ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح

ولا رمى بسهم وانهزم كربوقا معهم ، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله وخافوا أن يتبعوهم وثبت جماعة من المسلمين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة فقتل الفرنج منهم ألوفاً وغنموا ما فى المعسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة فصلحت حالهم وعادت عليهم قوتهم .

ذكر تملك الفرنج معرة النعمان

ثم سار الفرنج بجيوشهم إلى معرة النعمان ، وحاصروها وقاتلهم أهلها قتالا شديداً ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية ولقوا منهم الجد فى حربهم ، والاجتهاد فى قتالهم فعملوا عند ذلك برجاً من خشب يوازى سور المدينة ووقع القتال عليه فلم يضر المسلمين ذلك ، فلما كان الليل خاف قوم من المسلمين ، وتداخلهم الفشل والهلع ، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور الكبار امتنعوا بها ، فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذى كانوا يحفظونه فرآهم طائفة أخرى من المسلمين منهم ففعلوا كفعلهم فخلا مكانهم أيضا من السور ولم تزل تتبع طائفة منهم التى تليها فى النزول حتى خلا السور ، فصعد الفرنج إليه على السلالم ، فلما علوه تحير المسلمون ودخلوا دورهم ، فوضع الفرنج فيهم السيف ثلاثة أيام فقتلوا ما يزيد على مائة ألف وسبوا السبى الكثير وملكوا المعرة وأقاموا أربعين يوماً .

ذكر مصالحة أهل عرقة وحمص للفرنج

ثم ساروا إلى عرقة فحصروها أربعة أشهر ، ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها وراسلهم منقذ صاحب شيزر فصالحهم عليها ، ثم ساروا إلى حمص وحصروها ، فصالحهم صاحبها جناح الدولة ، ثم ساروا إلى عكا فلم يقدروا عليها .

ذكر تملك الفرنج بيت المقدس

ثم ساروا لبيت المقدس وكانوا ألف ألف ، وكان فيها رجل يعرف بافتخار الدولة عاملا للعبيديين ملوك مصر لأن بيت المقدس كان بأيديهم انتزعوه من خلفاء بنى العباس ،

فلما وصل الفرنج إليه حصروه نيفاً وعشرين يوماً ثم ملكوا المدينة المذكورة لسبع بقين من شعبان سنة أربعمائة واثنتين وتسعون هجرية وركبوا الناس بالسيف ولبث الفرنج بالبلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا فضة نقرة ، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلا ، وغنموا منه مالا يقع عليه الاحصاء ، وورد المستنفرون من الشام إلى بغداد صحبة القاضى أبى سعيد الهروى فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون ، وأوجع القلوب ، وقاموا بالجامع يوم الجمعة ، فاستغاثوا وبكوا وأبكوا ، وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال ، وسبى الحريم والأولاد ، ونهب الأموال ، وكانوا صياماً فى رمضان ، فلشدة ما أصابهم أفطروا ، وأنشأ الشعراء فى ذلك قصائد تبكى لها العيون ، وتنفطر لها القلوب ، وكان ذلك فى خلافة المستظهر بالله المقتدى بأمر الله العباسى وكان فى ذلك الوقت اختلاف كثير بين السلاطين السلجوقية وفتن قائمة بينهم بالعراق فلم تحصل منهم نتيجة ولا من الخليفة وبعث المصريون جيشاً لقتال الفرنج لما بلغهم ما وقع بالقدس واقتتلوا مع الفرنج ثم انهزموا وحصرهم الفرنج بعسقلان وضيقوا عليهم فبذلوا لهم اثنى عشر ألف دينار وقيل عشرين ألفاً . فارتحلوا عنهم ورجعوا إلى القدس وجعلوها دار ملكهم ، ثم استولى الفرنج على أكثر سواحل الشام فملكوا يافا وغيرها من القلاع والحصون ، وكانت محنة فاحشة على المسلمين ، ثم فى سنة أربع وتسعين وأربعمائة ساروا إلى مدينة عكا فلم يقدروا على فتحها وكانوا قد عمروا مدينة يافا وسموها إلى قمص من الفرنج وأقيم بملك القدس أفرنسكى آخر وقيل بل أقام بها بردويل بنفسه ومكث بيت المقدس بأيدى الفرنج إحدى وتسعين سنة ، وكذا ما جاوره من سواحل الشام وعجز ملوك الإسلام عن استرجاعه إلى أن استرجع ذلك السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة كما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر تملك الفرنج مدينة سروج وحيفا وقيسارية

فى هذه السنة ملك الفرنج مدينة سروج من الجزيرة وقتلوا كثيراً من أهلها وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم وملكوا أيضاً مدينة حيفا بالقرب من عكا على ساحل البحر ، وملكوا مدينة قيسارية ، وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها ، وفى سنة ٤٩٥ ساروا إلى طرابلس الشام فقاتلهم أهلها وقتلوا من الفرنج نحو ثلاثمائة ثم هادنهم الفرنج على مال وخيل ، ثم رحلوا عنهم إلى الطرسوس وهى من أعمال طرابلس فحصروها وملكوها وقتلوا من بها من المسلمين ، ثم ساروا إلى حصن الطوبان فقاتلهم بن العريض وأسر فارساً من أكابر الفرنج فبذلوا فى فدائه عشرة آلاف دينار وألف أسير ، فلم يجيبهم بن العريض إلى ذلك .

وفى هذه السنة أيضا سار الفرنج إلى حمص وقائدهم ملك من ملوكهم يسمى صنجيل فحاصروها وملكوا أعمالها ونزل القمص على عكا وضيق عليها وكاد يأخذها ونصب عليها المنجنيقات والأبراج وكان له فى البحر ست عشرة قطعة ، فاجتمع المسلمون من سائر السواحل وأتوا إلى منجنيقاتهم فأحرقوها وأحرقوا سفنهم وكان ذلك نصراً عجيباً للمسلمين أذل الله به الكفار وفيها سار القمص الفرنجى إلى بيروت وحاصرها وضايقها وطال المقام عليها فلم يرفيها طمعاً فرحل عنها ، وفيها فى رجب خرجت عساكر من مصر إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقى فى أيديهم من بلاد الشام فسمع بهم بردويل صاحب القدس فسار إليهم وقاتلهم فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وانهزم بردويل فاختفى فى أجمة قصب فأحرقت تلك الأجمة ولحقت النار بعض جسده ونجا منها إلى الرملة فتبعه المسلمون وأحاطوا به فتنكر وخرج منها إلى يافا وكثر القتل والأسر فى أصحابه ، وفى سنة ٤٩٦ جاءتهم جيوش المسلمين من مصر ووقعت بينهم وقائع يطول ذكرها كانت الغلبة فى بعضها للمسلمين وفى بعضها للفرنج وخرجت هذه السنة وبيد الفرنج لعنهم الله البيت المقدس وفلسطين ماعدا عسقلان وبيدهم أيضاً يافا وأرسوف وقيسارية وحيفا وطبرية ولاذقية ولهم بالجزيرة الرها وسروج ، وكان صنجيل يحاصر طرابلس الشام والمواد تأتيه وبها فخر الملك بن عمار وكان يرسل أصحابه فى المراكب

يغزون على البلاد التى بيد الفرنج و يقتلون من وجدوا فيها ، وفى سنة ٤٩٧ أغار الفرنج من الرها على مرج الرقة وقلعة جعبر واستاقوا المواشى وأسروا من وقع بأيديهم من المسلمين ، وفى هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة اللاذقية وفيها الأجناد والتجار فاستعانوا بها على حصار طرابلس براً و بحراً وضايقوها وقاتلوها أياماً فلم يروا فيها مطمعاً فرحلوا إلى مدينة جبيل فحاصروها وقاتلوا أهلها قتالا شديداً فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أمانا وسلموا البلد إليهم فلم تف الفرنج لهم بالأمان وأخذوا أموالهم وعاقبوهم بالعقوبات وأنواع العذاب، فلما فرغوا من جبيل ساروا إلى مدينة عكا واستعانوا بملكهم صاحب المقدس على حصارها فنازلوها وحاصروها فى البر والبحر ، ثم ملكوها وفعلوا بأهلها الفعال الشنيعة ، ثم ساروا إلى حران ووقع بينهم و بين المسلمين وقائع يطول ذكرها كان النصر فيها للمسلمين وقتلوا من الفرنج اثنى عشر ألفاً وأسروا القمص فافتداه الفرنج بخمسة وثلاثين ألف دينار وستين أسيراً من المسلمين ، وفى سنة ٤٩٨ سار الفرنج إلى حصن ارتاح ووقع بينهم و بين المسلمين قتال شديد وانهزم المسلمون وقتل وأسر كثير منهم وملك الإفرنج الحصن ، وفى سنة ٤٩٩ وقع بينهم وبين المسلمين قتال على حصن كان بيد الفرنج بينه وبين دمشق يوما ، فملكه المسلمون وقتلوا من كان بالحصن من الفرنج واستبقوا الفرسان أسرى وكانوا مائتى فارس وملكوا أيضاً منهم حصن رفنية وهو من حصون الشام وقتلوا به خمسمائة من الفرنج ، وفى هذه السنة ملك الفرنج حصن إفامية وكان من أمنع الحصون الشامية وقتلوا من فيه من المسلمين ، وفى سنة ٥٠٠ وقعت وحشة بين ملك القسطنطينية والفرنج الذين بالشام ، ثم وقع بينهم قتال شديد انهزم فيه الإفرنج ولم يزل الفرنج يتابعون الحصار على طرابلس الشام و بيروت والكلام على ذلك يطول إلى أن ملكوها سنة ٥٠٣ وقتلوا وأسروا كثيراً من الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا من الأموال مالا يحصى ، ثم ملكوا بانياس وصيدا وصور وحصن أرتاب وهو قريب من حلب وغير ذلك ، وفى سنة إحدى عشرة وقيل أربع عشرة قصد بردويل بجيوشه الديار المصرية ليأخذها فانتهى إلى غزوة ودخلها وخربها وأحرق

مساجدها وزحل عنها وهو مريض فهلك فى الطريق (والحاصل) أن الفرنج لم يزالوا يتملكون كثيراً من الممالك الشامية و يقع بينهم و بين المسلمين الوقائع الهائلة التى يطول الكلام بذكرها حتى لم يبق بيد للمسلمين سوى حمص وحماة والشام وحلب و بعض القرى الحقيرة واستمر الحال إلى سنة ١١٢٨ مسيحية للموافق سنة ٥٢٢ هجرية فصار ملك حلب والموصل للسلاطين السلجوقية وانتزعوها من بعض أمراء المسلمين المتغلبين عليهما ، فأقاموا فيها عماد الدين زنكى والد السلطان محمود نور الدين الآتى ذكره وكان لعماد الدين شجاعة وشهامة وعزم شديد على جهاد الكفار فشن على الإفرنج الغارات ووالى عليهم الغزوات واسترجع كثيراً مما ملكوه وتوفى مقتولا قتله بعض مماليكه سنة ٥٤١ ، وكان أبوه أق سنقر مملوكا للسلطان ملك شاه السلجوقى ، ولما قتل عماد الدين وصار ملك حلب لابنه السلطان نور الدين محمود كان على الفرنج أشد من أبيه فزاد فى قتالهم ونكايتهم وكان من أهل العلم والصلاح والتقوى والاستقامة وله ترجمة طويلة سيأتى ذكرها ، فأول ما ابتدأ فى ولايته أنه جهز جيشاً لقتال الإفرنج وفتح مدينة ارتاح وأرفا وأماكن أخر ، وفى سنة ١١٤٧ مسيحية الموافق ٥٤٢ هجرية اشتدت حروب السلطان محمود وتوالت غزواته وفتوحاته فاستمد الفرنج الذين كانوا فى مدائن الإسلام بالفرنج أهل أوروبا فأمدوهم بنجدة عظيمة تحت قيادة ملك جرمانيا وألمانيا وملك فرنسا لويز السابع وقبل قدوم ملك فرنسا بأيام يسيرة وصل ملك جرمانيا إلى فلسطين فى حالة يرثى لها إذ كان قد تلف أكثر من نصف جيشه فى الطريق بعضهم بالجوع والمرض و بعضهم بالسيف فى المعارك التى أثارها عليهم الأعداء فى أثناء الطريق ، فلما بلغ سواحل سوريا وافته مواكب السلطان نور الدين بجيوش الإسلام وفتكت بعساكره فانهزم مع باقى جيشه وبينما هو راجع التقى بملك فرنسا مع جنوده وقد وصلوا فى حالة أحسن من حالته فالتقتهم جيوش الإسلام فى نواحى أنطاكية وانتشبت بينهم نيران القتال واستمر القتال بينهم مدة أيام وكانت الدائرة على ملك الفرنسيس وجنوده فانقلب راجعا ببقية قواده وجيوشه ونزلوا فى السفن وساروا إلى القدس وانضموا إلى مافيه من العساكر مع بقايا

العساكر الجرمانية ، وفى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج طرابلس الغرب ، وفى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة غزا نور الدين الفرنج من نواحى أنطاكية وقتل البرنس صاحب أنطاكية وهزم الفرنج هزيمة قبيحة وقتل منهم جميعاً كثيراً وأسر مثلهم. وأكثر الشعراء من القصائد بمدحه وتهنئته وفتح نور الدين فى هذه السنة والتى تليها حصونا كثيرة ، وكان الفرنج نازلوا دمشق مراراً وحاصروها فلم يقدروا على تملكها. واستمر القتال والغزوات بينهم و بين السلطان نور الدين إلى سنة ١١٧٣ مسيحية. الموافق سنة ٥٦٩ ، وكان السلطان صلاح الدين بن أيوب من أتباع السلطان نور الدين ، فجهزه إلى مصر سنة ٥٦٤ وتملك مصر وانتزعها من العبيديين وقصة ذلك طويلة مذكورة فى التواريخ ، وكان السلطان صلاح الدين فى العلم والتقوى والصلاح مثل السلطان نور الدين ، فلما توفى السلطان نور الدين سنة ٥٦٩ جمع السلطان صلاح الدين بين ملوك مصر والشام فصار الملك فيهما له وتابع الغزوات فى قتال الفرنج لاستخلاص ما بأيديهم من ممالك المسلمين وأول قتال وقع بينه وبين الإفرنج كان فى حياة نور الدين سنة ٥٦٥، وذلك أنه جاءت جموع كثيرة منهم وحاصروا مدينة دمياط وضيقوا على من بها فتجهز السلطان صلاح الدين من مصر بجيوش حافلة وقاتلهم وأمده السلطان نور الدين بجيوش كثيرة وشن عليهم السلطان نور الدين الغارات بالشام ووالى على المدائن التى بأيديهم الغزوات فارتحلوا من دمياط ورجعوا خائبين ، وفى سنة ٥٦٦ سار السلطان صلاح الدين من مصر وأغار على الفرنج بعسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه فأتاه ملك الفرنج بعساكره ليرده فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيراً وعاد صلاح الدين إلى مصر ، ثم غزا إيلة براً وبحراً وانتزعها من الفرنج ، وفى سنة ٥٦٩ كتب بعض أهل مصر أتباع العبيديين الذين انقرضت دولتهم إلى الفرنج الذين بالشام والذين بصقلية أن يرسلوا إليهم جيوشاً يستعينون بهم على إخراج السلطان صلاح الدين من الديار المصرية فبعث إليهم الفرنج مائة أسطول تحمل الرجالة وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كباراً تحمل آلة الحرب وأربعين مركباً تحمل

الأذواد وفيها من الرجالة خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف وخمسمائة ، ونازلوا الاسكندرية في السادس والعشرين من ذى الحجة سنة خمسمائة وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الاسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ونزل الفرنج فى البر مما يلى البحر وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد القتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم وسيرت الكتب بالحال إلى مصر إلى السلطان صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار، ثم عادوا الفرنج القتال اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قرب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية من كان قريباً من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر ، فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل جهة فارتاع الفرنج واشتد القتال ، فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال ، فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته ولم يزل القتال إلى آخر النهار ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وفشل الفرنج وكثر القتل فيهم والجراح ، وأما صلاح الدين فإنه لما وصله خبر منازلة الفرنج الاسكندرية سار من مصر بعساكره ، وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً وسير مملوكا له مبشراً لأهل الاسكندرية بقدوم صلاح الدين والعساكر فوصل المملوك الاسكندرية وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال ، فنادى فى البلد يبشرهم بمجىء صلاح الدين والعساكر مسرعين ، ثم وصل صلاح الدين بعساكره فى أثر المملوك ، فلما سمع الناس ذلك فرحوا وعادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب القتال وألم الجراح ، وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله وسمع الفرنج بوصول صلاح الدين فى عساكره فسقط فى أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً ، فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة

الكثيرة والتجملات العظيمة وكثر القتل فى الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر ، وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها ، فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين فى الماء وخرق بعض شوانى الفرنج فغرقت ، فخاف الباقون من ذلك ، فولوا بشوانيهم هاربين واحتمى ثلاثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ، ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم . وسنة خمسمائة وإحدى وسبعون عظم ملك صلاح الدين فكاتبه الفرنج وطلبوا منه صلحاً وهدنة فهادنهم على شروط معلومة ، وفى سنة خمسمائة وثلاثة وسبعون انتقض الصلح لأمور جرت ، فسار السلطان صلاح الدين من مصر بجيوشه قاصداً قتال الفرنج وكان ذلك فى جمادى الأولى من السنة المذكورة فوصل إلى عسقلان فى الرابع والعشرين من الشهر هو وجنوده فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا فى تلك الأعمال مغيرين ، فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد طمعوا وساحوا فى الأرض آمنين ، ووصل صلاح الدين الرملة عازما على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل إلى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم إلا والإفرنج قد أشرفت عليهم بجنودها وأبطالها وكان مع صلاح الدين بعض العسكر لأن أكثرهم تفرقوا فى طلب الغنيمة ، فلما رأى الفرنج وقف لهم فيما معه وقاتلهم فقتل جماعة من الفريقين وقتل ابن تقى الدين ابن أخى صلاح الدين ، ثم صارت الهزيمة على المسلمين وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل إليه فقتل الفرنجى بين يديه ، وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسير قليلا ويقف قليلا ، ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل ، فسلك البرية إلى أن مضى فى نفر يسير إلى مصر ، ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من الدواب جوعا وعطشا وسرعة سير ، وأما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج فى الغارة فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير وكان من جملة من أسر الفقيه عيسى الهكاوى وكان من أشد الناس قتالا وكان جامعاً بين العلم والدين والشجاعة ، وأسر أيضاً أخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين

فضلا الطريق فأخذوا منهم جماعة من أصحابهما وبقوا سنين فى الأسر ، فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار وفدى أيضاً جماعة كثيرة من الأسرى ، ولما حصلت هذه الهزيمة سار الفرنج إلى مدينة حماه وحاصروها وكان الأمير عليها شهاب الدين الحارمى فقاتلهم هو وأهل البلد ، وكاد الفرنج يملكون البلد واشتد القتال وعظم الخطب وهجم الفرنج على بعض البلد ودام القتال ليلا ونهاراً ، واستقتل المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال ، ثم أنزل الله عليهم النصر فأكثروا القتل فى الفرنج ، وأخرجوهم من البلد ، فارتحلوا خائبين ، وكفى الله المسلمين شرهم ، ثم ساروا وحاصروا حارم فلم يتم لهم أخذها فساروا عنها ، وفى سنة أربعة وسبعين وخمسمائة فى ربيع الأول سار جمع كثير من الفرنج إلى مدينة حماه وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً فى النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى فى طريقهم وأسروا وقتلوا ، فلما سمع العسكر المقيمون بحماه ساروا إليهم وهم قليل متوكلون على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا ، وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والأسر فيهم واستردوا ما غنموا من السواد وكان صلاح الدين بحمص فحملت الرؤوس والأسر والأسلاب إليه فأمر بقتل الأسرى فقتلوا لأن الإمام مخير فى الأسرى بين القتل والفداء والمن بلا فداء ، وفى ذى القعدة من هذه السنة اجتمع الفرنج، وساروا إلى دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا ، فأرسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه ومعه كثير من العسكر يقاتلهم ونصره الله عليهم وقتل كثيراً منهم وقتل جماعة من مقدميهم منهم همفرى وكان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب فأراح الله من شره .

وفى سنة ٥٧٥ بنى الفرنج حصناً منيعاً بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام فكان يعرف بمخاضة الأحزان ، فلما سمع بذلك صلاح الدين بذل للفرنج ستين ألف دينار ليهدموه بغير قتال فامتنعوا فسار من دمشق إلى بانياس وأقام بها وبث الغارات على الفرنج ، ثم سار إلى الحصن بعساكره فحاصروا الحصن وقاتلوا من به وعاد هو إلى بانياس وخيله تغير على بلاد العدو وأرسل جماعة من عسكره مع جالبى الميرة فلم تشعر

إلا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار في العساكر مجداً فوافاهم وهم في القتال فقاتل الفرنج قتالا شديداً ، وحملوا على المسلمين حملات يزيلونهم عن مواقفهم ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريداً وأسر كثيراً منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضاً أخاه صاحب جبيل وصاحب طبرية وغيرهم من مشاهير فرسانهم ، فأما ابن بيرزان فإنه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار ، وإطلاق ألف أسير من المسلمين ، ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة ، وتجهز للدخول إلى ذلك الحصن ومحاصرته فأحاط به ، وبث العساكر للاغارة على الفرنج في تلك الأطراف ، ثم زحف المسلمون على الحصن واشتد القتال وعظم الأمر ، ونقبوا الحصن وأشعلوا النيران فيه ، وانتظروا سقوط السور وكان عرضه تسعة أذرع بالنجارى ، فلم يسقط إلا بعد أيام ، فدخلوا المسلمون الحصن عنوة ، وقتلوا كل من فيه وأطلقوا من كان فيه من أسرى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيراً ن أسرى الفرنج وأدخل الباقين إلى دمشق فسجنوا وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالأرض ، وكان جملة من الفرنج قد اجتمعوا بطبرية ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر بأخذه تفرقوا ، وفي سنة ثمانية وسبعون وخمسمائة فتح المسلمون شقيفاً وأخذوه من الفرنج وهو من أعمال طبرية مطل على السواد وكان على المسلمين منه أذى شديد ، ولما بلغ الفرنج مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة وربما عاقوا المسلمين عن السير بأن يقفوا على بعض المضايق فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه بن أخى صلاح الدين الخبر ، فجمع من عنده من عساكر الشام وقصد ما بأيديهم من البلاد وأغار عليها ونهب وبورية وما يجاورها من البلاد وأسر الرجال وقتل وسبى النساء وغنم الأموال وفتح منهم الشقيف ، ففرح المسلمون بفتحه فرحا عظيما لما كان يحصل لهم من الأذى منه ، ولما وصل صلاح الدين إلى دمشق سار إلى طبرية وكان الفرنج

بجموعها نازلة بطبرية فنزل بالقرب منها وأغار ابن أخى صـــــلاح الدين على بيسان فدخلها قهراً وغنم ما فيهـا وقتل وسبى وأغارت العساكر والعربان فى تلك الولاية حتى قابلوا مرج عكا وسار جماعة من الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فقاتلهم المسلمون قتالا شديداً ، وأثخنوا القتل فيهم فرجعوا ورجع صلاح الدين إلى دمشق ، ثم سار منها إلى بيروت يريد حصارها وفتحها فأتاه الخبر أن البحر ألقى مركباً للفرنج فيه جمع عظيم منهم إلى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس ، فأسر المسلمون من بهسا بعد أن غرق كثير منهم وكان عدد الأسرى ألفاً وستمائة وستا وسبعين أسيراً ، فضربت بذلك البشائر وسار أسطول للمسلمين من مصر فى البحرفلقوا أسطولا للفرنج فيه ثلاثمائة منهم معهم الأموال والسلاح مرسلين إلى فرنج الساحل فقاتلهم المسلمون فظفروا بهم وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم وغنموا مامعهم، ثم أغارصلاح الدين على بيسان فأحرقها وخربها وقتل من فيهـا ثم أغار على الـكرك وأطرافها ثم وصل إلى نابلس فأحرقهـا وخربها وقتل وسبى وأسر ولم يزل يشن على الفرنج الغـارات فى كل الأطراف ويطول الـكلام بذكر وقائعه مع الفرنج إلى أن فتح طبرية بعـد قتـال شديد ووقائع هائلة وأكثر القتل والأسر فى الفرنج ، وكان جيش صلاح الدين لما حاصرطبرية ثمانين ألفاً ، فلما أشرف عليها وحاصرها وافاه ملك الفرنج الذي ببيت المقدس بجيوش هائلة للمدافعة والمحاماة عن أهل طبرية لأنها كانت عندهم من أهم مراكزالبلاد وهناك التقى العسكران وماجت الأرض بالمساكروا ستمر القتال بين الفريقين وكانت الدائرة على أهل الصليب فانقلبوا منهزمين على الأعقاب طالبين النجاة بعد أن فقد منهم نحو ثلاثين ألفاً . ووقع الملك أسيراً مع خواصه وأكابر رؤسائه فى أيدى الإسلام وعند نهاية الحرب قتل صلاح الدين مائتين وثلاثين رجلا من أعيان الإفرنج المأسورين ، وأما الملك فإنه أرسله إلى دمشق ، ثم سار صلاح الدين إلى عكا وحاصرها وضيق عليها فطلب أهلهـا الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الإقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله وتركوا الباقى على حاله ودخل المسلمون

عكا يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، ثم تتابعت الفتوحات بعد فتح طبرية وعكا وهما فتحان عظيمان ، وفى الحقيقة هما أول الفتوحات والذى كان قبلهما إنما كان إغارة فى الأطراف وغزوات وسريات وسبب تأخر الفتوحات إلى سنة ٥٨٣ مع أن السلطان نور الدين توفى سنة ٥٦٩ وصار الملك بعده لصلاح الدين ، ثم أن كثيراً من عمال السلطان نور الدين الذى تحت حكمهم كثير من ممالكه امتنعوا من الدخول تحت طاعة السلطان صلاح الدين ووقع بينه وبينهم محاربات فى هذه السنين يطول الكلام بذكرها حتى أدخلهم تحت طاعته وصفا له الأمر وقبل ذلك ما كان متمكنا من التفرغ لقتال الفرنج كل التفرغ ، وأما فى هذه السنة سنة ٥٨٣ فقد تفرغ لهم كل التفرغ وتوجه غاية التوجه ، ولما ارتحل الفرنج من عكا ودخلها المسلمون وغنموا ما بقى مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والبندق والسلاح وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيراً ، فإنها كانت مقصد التجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله فغنمه المسلمون ، وأقام صلاح الدين بعكا أياما لإصلاح حالها وتقرير قواعدها ، ثم ارتحل وفرق العساكر إلى الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيوف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوا وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ، وقدموا بما سد الفضاء وبعث أخا سيف الدين إلى مدينة يافا فحصرها وملكها وغنم ما فيها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها مالم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وسار صلاح الدين وابن أخيه تقى الدين وكثير من العساكر وحاصروا تبنين وضايقوها وهى من القلاع المنيعة على جبل ، فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصر أطلقوا من كان عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة وأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وسيرهم إلى مأمنهم ، ثم رحل إلى صيدا فاجتاز فى طريقه بصرفند فأخذها صفواً عفواً بغير قتال ، ثم سار إلى صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة ، فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من ممانع ومدافع ، فلما وصلها صلاح الدين

تسلمها ساعة وصوله ، ثم سار عنها إلى بيروت وهى من أحصن مدن الساحل فلما وصل إليها رأى أهلها قد صعدوا على سورها ، وأظهروا القوة والجلد والعدد ، وقاتلوا على سورها قتالا شديداً واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه ، وزحف المسلمون إليهم مرة بعد أخرى ، فبينما الفرنج يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى غلبة وقهـــراً ، فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحة فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة وكان مدة حصرها ثمانية أيام ثم أراد صلاح الدين المسير إلى جبيل وكان صاحبها من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جبيل على شرط إطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فأمر بإرساله إليه فأحضره مقيداً ، وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه وأطلق أسرى المسلمين الذين به وأطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان صاحب جبيل من أعيان الفرنج وأصحاب الرأى والمكر والشر يضرب به المثل بينهم ، وكان للمسلمين عدو أزرق فكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين على ما سيأتى بيانه ، ولما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرها كان أمر عسقلان والقدس عنده أهم الأسباب منها أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام ، وكان يختار أن تتصل الولايات فيسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم إلى غير ذلك من الأغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان ، واجتمع بأخيه سيف الدين العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة ، وكان صلاح الدين قد أحضر من دمشق ملك الفرنج الذى أسر فى وقعة طبرية ومعه مقدم الداوية وقال لهما إن سلمتما البلاد إلى فلكما الأمان فأرسلا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد وجبهوهما بما يسوءهما ، فلما

رأى السلطان ذلك جد فى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها وزحف بجيوشه إليها مرة بعد أخرى وتقدم النقابون فنقبوا منه شيئا وملكهم يكرر إليهم المراسلات بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم أنه إذا أطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من أقصى بلاد الفرنج وأدانيها وهم لايجيبون إلى مايقول ولا يسمعون مايشير به ، ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا وإذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين فى تسليم البلد على شروط اشترطوها فأجابهم صلاح الدين إليها وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة المذكورة وكان مدة الحصار أربعة عشر يوماً وسيرهم صلاح الدين ونساؤهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان ، ثم أقام صلاح الدين بظاهر عسقلان وبث السرايا من أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة والداروم وغزة والخليل و بيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية ، ثم لما فرغ من أمر عسقلان وما يجاورها من البلاد سار إلى فتح بيت المقدس وكان قد أرسل أسطولا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا لهم مركباً غنموه وشانياً أخذوه ، وكان فى بيت المقدس البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأناً من ملكهم و به أيضاً باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك ، وبه أيضاً من خلص فرسانهم كثيرون وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحى عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق يبلغون ستين ألفاً مابين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض مايجب عليه من حفظه وحصنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة بحسب استطاعتهم و نصبوا المنجنيقات فيمنعون من يريد الدنو منه والنزول إليه ، فلما قرب صلاح الدين منه رأى على سوره من الرجال ما هاله وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة مااستدلوا به على كثرة

الجمع وبقى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لأنه فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمودا وكنيسة صهيون، فانتقل إلى هذه الناحية فى العشرين من رجب ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقاتل كل من الفريقين أشد قتال كل يرى ذلك دينا حتما واجبا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطانى بل كانوا يمنعون فلا يمتنعون ويزجرون فلا ينزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين بن مالك وهو من أكابر الأمراء وكان محبوبا إلى الخاصة والعامة ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج من موافقهم فأدخلوهم بلدهم ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا إلى السور فنقبوه وزحفوا والرماة يحمونهم والمنجنيقات تولى الرمى لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكن المسلمون من النقب ، فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمى المتدارك وتمكن النقابون من النقب وأنهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس لصلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم فى طلب الأمان فامتنع السلطان صلاح الدين من إجابتهم وقال لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة ٤٩٢ من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها ، فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الأمر وتحريره فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغبه فى الأمان وسأله فيه ، فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه ، فلما آيس من ذلك ، قال أيها السلطان : أعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة فإذا رأينا الموت لا بد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها دينارا

واحداً ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة ، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع ، ثم نقتل من عندنا من أسرى المسلمين هم خمسة آلاف ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا وقاتلنا كم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراما ، فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وألا يخرجوا ويحملوا على ركوب مالا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أى شيء تتجلى وتحسب أنهم أسرى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم ، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير ويؤخذ من الطفل من الذكور والأناث ديناران وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار ، فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره ورتب صلاح الدين على أبواب البلد فى كل باب أميناً من الأمراء ليأخذ من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الأمناء الأموال وتفرقت أيدى سبا ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعم الناس وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطى وأخذ أسيراً ستة عشر ألف إنسان ما بين رجل وامرأة وصبى ، وأظهر صلاح الدين من علو الهمة والشفقة والرحمة ما لا مزيد عليه فكان يرضى من الفقراء والمحتاجين بما تيسر عليهم حتى أنه أطلق ثلاثة آلاف رجل بدون فدية فكان فى المدينة الملكة زوجة الملك المأسور ، وعند مقابلة صلاح الدين إياها أظهر لها من الرقة واللطف وكرم الأخلاق ما لا يوصف ، وكان يكلمها ودموعه تجرى وأطلق لها مالها وحشمها واستأذنته فى المسير إلى زوجها ، وكان محبوساً بقلعة نابلس فأذن له فأتته ، وأقامت عنده ، وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعه أموال البيع منها الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها مما لا يعلمه إلا الله تعالى وكان له المال مثل ذلك فلم

يعرض له صلاح الدين فقيل له إن أخذ ما معه يقوى به على المسلمين فقال لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور ، وأمر صلاح الدين بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار ، ولما كانت الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين ، ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا وإماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له إن نور الدين محموداً كان قد عمل منبراً لبيت المقدس رجاء أن يفتحه الله على يديه وأمر الصناع بتحسينه وإتقانه ولم يعمل فى الإسلام مثله ، فأمر بإحضاره فحمل من حلب ونصب ببيت المقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله ، ثم أمر صلاح الدين بعمارة المسجد الأقصى ، واستنفاذ الوسع فى تحسينه وإزالة ما أحدثوه من التصويرات وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها وكان سبب تغطيتها بالرخام أن القسيسين باعوا كثيراً منها للفرنج الواردين إليهم من دخل البحر للزيارة فكانوا يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعله فى مذبحها فخاف بعض ملوكهم أن تفنى فأمر بها ففرش فوقها الرخام حفظا لها ، فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الإسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفا ، وأما الإفرنج من أهله فإنهم أقاموا وشرعوا فى بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الإفرنج فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم ، ويأخذ منهم الجزية ، فأجابهم إلى ذلك فاستقروا ، واشتروا حينئذ من أموال الفرنج التى تركوها أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسرة والصناديق وغير ذلك وتركوها وأيضا من الرخام الذى لا يوجد مثله من الأساطين والألواح وغير ذلك

شيئا كثيراً وساروا وفرق صلاح الدين على أرامل وأيتام القتلى من الفرنج مالا كثيراً وسمح للمتوجلين على القشلات والمستشفيات أن يبقوا فى المدينة سنة أخرى لملاحظة المرضى والعاجزين والاعتناء بهم، ثم أقام صلاح الدين بظاهر القدس إلى الخامس والعشرين من شهر شعبان يرتب أمور البلد وأحوالها وتقدم بعمل الربط والمدارس ، فجعل دار الاستبتار مدرسة للشافعية ، وهى فى غاية ما يكون من الحسن وكانت مدة استيلاء الفرنج على بيت المقدس إحدى وتسعين سنة لأنهم ملكوه سنة اثنتين وأربعمائة ، وأخذ منهم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فلما فرغ من أمر البلد سار إلى مدينة صور وكان قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيس صاحبها والحاكم فيها ، وكان تاجراً من تجارهم وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ فى تحصين البلد ووصل صلاح الدين إلى عكا وأقام فيها أياما ، فلما سمع المركيس بوصوله إليها جد فى عمل سور صور وخنادقها وتعميقها وواصلها من البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها ، ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب من البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار فى الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل بقارب سور البلد بحيث يرى القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث أن يتصل القتال على أهل البلد على أن الموضع الذى يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التى وصلت من البحر إلى البحر فلا يكاد الطير يطير عليهما فإن المدينة كالكف فى البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبى الساعد والقتال إنما هو فى الساعد ، فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والشروخ والدبابات والعرادات شىء أصغر من المنجنيق والشرخ نصل لم يركب والدبابة آلة تتخذ للحرب فتدفع فى أصل الحصن فينقبون وهم فى جوفها وكان عشيرة صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الأفضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقى الدين وكذلك سائر الأمراء ، وكان للفرنج شوانى وحراقات يركبون فيها فى البحر ويقفون من جانب الموضع الذى

يقاتل المسلمون منه أهل البلد ، فيرمون المسلمين من جانبهم بالشروخ ويقاتلونهم ، وكان ذلك يعظم على المسلمين لأن أهل البلد يقاتلونهم بين أيديهم وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو إلى بلد فأرسل صلاح الدين إلى الشوانى التى جاءته من مصر ، وهى عشر قطع وكانت بعكا فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها ، فكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه براً وبحراً وضايقوهم حتى كادوا يظفرون ، فجاءت الأقدار بما لم يكن فى الحساب وذلك أن خمس قطع من شوانى المسلمون باتت فى بعض تلك الليالى مقابل مينا صور ليمتنعوا من الخروج والدخول إليهم فباتوا ليلتهم يحرسون ، فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا إلا بشوانى الفرنج قد نازلتهم فأزالتهم وضايقتهم فأوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم مينا صور والمسلمون فى البر ينظرون إليهم ، ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق وتقدم السلطان إلى الشوانى الباقية وأمرهم بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فحين رأى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا أنفسهم من شوانيهم إلى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور فى البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال ، وفى بعض الأيام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط ، فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام ، فلما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول رحل عنها وندم على ما فرط منه قبل ذلك فإنه كان كلما فتح مدينة وأمن أهلها الفرنج يجهزهم بأموالهم ورجالهم إلى الصور من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك ، فصار فيها بالساحل فرسان الفرنج بأموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وأرسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فأجابوهم

بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصر وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلتجئون إليها فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها فلا ينبغى للملك أن يترك الحزم وأن ساعدته الأقدار فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطاً مضيعاً للحزم أعذر له عند الناس، فرحل عنها آخر شوال إلى عكا وأذن للعسكر بالعود إلى أوطانهم والاستراحة فى الشتاء والعود فى الربيع فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام ومصر وبقى فى حلقته الخاصة مقيما بعكا وكان قد أرسل قبل ذلك جماعة لحصار هونين فلما كان محاصراً مدينة صور أرسل أهل هونين يطلبون الأمان فأمنهم فسلموا ونزلوا منها فوفى لهم بالأمان ولما دخل المحرم سنة ٥٨٤ سار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب وهى مطلة على الأردن ونازلها ظنا منه أن ملكها سهل وهو فى قلة من العسكر، فلما رآها عالية منيعة والوصول إليها معتذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد لأن البلاد الساحلية من عكا إلى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ما عدا هذه الحصون وكان أهل القلاع يقطعون الطريق على المجتازين فكان أحب شىء أن يتملكها ليأمن الطريق للمجتازين، فلما حصرها ورآها منيعة يبطىء ملكها رحل عنها وجعل عليها جماعة يحاصرونها وسار إلى دمشق وكتب إلى البلاد جميعاً باجتماع العساكر وسار من دمشق منتصف ربيع الأول ووصل إلى حمص ثم أغار على مواضع للفرنج ووصل إلى قريب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها ثم عاد إلى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها مالا يحصى، ونزل على حصن الأكراد من الجانب الشرقى من حمص وأقام إلى آخر ربيع الآخر وكانت جبلة من أعمال أنطاكية بيد الفرنج وفيها كثير من المسلمين ولها قاض مسموع الكلمة عند الفرنج والمسلمين وجعله الفرنج يحكم على المسلمين واسمه منصور بن شبيل فأخذته الغيرة للدين فجاء إلى السلطان صلاح وتكفل له بفتح جبلة واللاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الأولى فنزل بانطرسوس سادسه فرأى الفرنج قد أدخلوا المدينة واحتموا فى برجين حصينين كل واحد منهما قلعة حصينة ومعقل منيع فخرب المسلمون دورهم

ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائرهم وحاصروا أحد البرجين فنزل إليه من فى أحدهما بأمان وسلموه فأمنهم وخرب البرج وألقى حجارته فى البحر وترك من فى البرج الآخر فخرج صلاح الدين ولاية انطرسوس ورحل عنها وأتى مرقبة وقد رحل عنها أهلها وساروا إلى المرقب وهى من حصونهم التى لا ترام ولا تحدث أحداً نفسه بملكه لعلوه وامتناعه والطريق تحته والحصن على يمين المجتاز إلى جبلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد واتفق أن ابن صاحب صقلية أرسل نجدة إلى فرنج الساحل ستين قطعة من الشوانى وكانوا بطرابلس فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاؤا ووقفوا فى البحر تحت المرقب فى شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام ، فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بوضع سرر وأخشاب فصفت على الطريق مما يلى البحر من أول المضيق إلى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الفرنج من الدنو إليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلة ثانى عشرة جمادى الأولى وتسلمها وقت وصوله وكان قاضيها قد سبق إليها ودخل ، فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها إليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها واحتموا بقلعتها فما زال قاضى جبلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط الأمان وأن يأخذ رهائنهم يكونون عنده إلى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة وكانوا بأنطاكية وقرر صلاح الدين أحوال جبلة وجعل فيها أميراً .

ذكر فتح اللاذقية

وسار إلى اللاذقية فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما ، فدخل المسلمون المدينة وحصروا الحصنين وزحفوا إليهما ونقبوا الأسوار وعظم القتال واشتد الأمر عند الوصول إلى السور ، فلما أيقن الفرنج بالعطب دخل اليهم قاضى جبلة فخوفهم من المسلمين فطلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين. ورفعوا الأعلام الإسلامية على الحصنين وسلم صلاح الدين اللاذقية لابن أخيه تقى الدين.

عمر وجعله أميراً عليها ولما نازل صلاح الدين اللاذقية وصل أسطول صقلية الذى تقدم ذكره فوقف بإزاء ميناء اللاذقية ، فلما سلمها الفرنج الذين بها إلى صلاح الدين عزم أهل هذا الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها الفرنج غيظا عليهم حيث سلموها سريعا فسمع بذلك أهل اللاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية فكان ذلك سبب مقامهم فيها ، ثم أن مقدم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الأرض بين يديه ، وقال ما معناه إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونوا مماليك وجنداً تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم وإلا جاءك من البحر مالا طاقة لك به فيعظم عليك الأمر ويشتد الحال ، فأجابه صلاح الدين بنحو من كلامه مع إظهار القوة والاستهانة بكل من يجىء من البحر وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم من القتل والأسر فانقلب على وجهه ورجع إلى أصحابه .

ذكر فتح صهيون

ثم رحل صلاح الدين فى السابع والعشرين من جمادى الأولى وقصد قلعة صهيون . وهى قلعة منيعة شاهقة فى الهواء صعبة المرتقى على قمة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق فى بعض المواضع بحيث أن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال وقد عملوا لها خندقا عميقاً لا يرى قعره وخمسة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم إلى ولده الظاهر صاحب حلب ، فنزل على المكان الضيق من الوادى ونصب عليه المنجنيقات أيضاً ، فرأى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم فى الشجاعة بالمنزله المشهورة ودام رشق السهام فى قسى اليد والشرخ وغير ذلك فخرج أكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع وزحف المسلمون إليهم فتعلقوا بقرية من الجبل فتسلقوا بين الصخور حتى التحقوا بالسور فملكوا منها ثلاثة وغنموا ما فيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتمى الفرنج بالقصة التى للقلعة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الأمان ، فلم يجبهم صلاح الدين إليه فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه إلى أمير يقال له ناصر الدين فحصنه وجعله من أحصن الحصون . ...

ذكر فتح عدة حصون

ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا فى تلك النواحى فملكوا حصن بلاطنوس وحصن العيد وحصن الجماهرين فانسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل إلى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر ، فملك قلعة بكاس بغير قتال ، وتقدم إلى قلعة الشغر وهى وبكاس على الطريق السهل المسلوك إلى اللاذقية وجبلة والبلاد التى افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلامية فلما نازلها رآها منيعة حصينة لاترام ولا يوصل إليها بطريق من الطرق إلا أنه أمرهم بمزاحفتهم ونصب المنجنيق إليها ففعلوا ذلك ورموا بالمنجنيق ، فلم يصل من أحجاره إلى القلعة شىء إلا القليل الذى لايؤذى فبقى المسلمون أياما لايرون فيها طمعا وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر التطرق إليهم وبلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم فى ذكر القلعة وأعمال الحيلة فى الوصول إليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً فقال صلاح الدين أو يأتى الله بنصر من عنده وفتح فبينما هم فى الحديث إذ أشرف عليهم افرنجى ونادى يطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين فأجيب إلى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثة أيام فإن جاءهم من يمنعهم وإلا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به ، فلما كان اليوم الثالث سلموها إليه وسبب استمهالهم أنهم أرسلوا إلى صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه أن يرحل عنهم المسلمين وإلا سلموها وإنما فعلوا ذلك لرعب قذفه الله فى قلوبهم وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضاً ، فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه إلى أمير يقال له قلج وأمره بعمارته ورحل عنه ، وكان قد سير ولده الظاهر غازى صاحب حلب إلى سرمينية فحصرها وضيق على أهلها واستنزلهم على قطيعة قدرها عليهم ، ثم هدم الحصن وعفى أثره وكان فى هذه الحصون من أسارى المسلمين الجم الغفير فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة واتفق أن فتح هذه الحصون كلها فى

ست جمع مع أنها كانت فى أيدى أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين ، فسبحان من إذا أراد أن يسهل الصعب فعل وهى جميعها من أعمال أنطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى .

ذكر فتح قلعة برزية

ولما رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار إلى قلعة برزية وكان قد وصفت له وهى تقابل حصن أفامية وتناصفها فى أعمالها وبينها بحيرة تجمع من ماء العاصى وعيون تنفجر من جبل برزية وغيره وكان أهلها أضر شىء على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون فى الأذى ، فلما وصل إليها نزل شرقيها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ، ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعاً يقاتلها منه فلم يجده إلا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لايمكن أن تقاتلا من جهة الشمال والجنوب ألبتة فإنها لايقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل لعلوه وصعوبته وأما جهة الغرب فإن الوادى المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعا كثيرا حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزله المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليها منجنيقا أبطلها ، وكان ابن الأثير صاحب التاريخ مع صلاح الدين فى هذه الغزوة طالبا للجهاد قال : ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شىء إليها امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق وهى التى أبطلت منجنيق المسلمين، فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لاينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم فإذا تعبوا وكلوا عادوا ويزحف القسم الثانى فإذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا فإنه لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك فإذا تعبوا وأعيوا سلموا القلعة ، فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم أحد الأقسام وزحفوا وخرج

الفرنج من حصنهم فقاتلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنويات والطارقيات ومشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل ، فلما قربوا من الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فإنهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج إلى أسفل الجبل فلا يقوم لها شيء ، فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاصة فقاتلوا قتالا شديداً وكان الزمان حراً شديداً فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم ، وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم إلى قريب الظهر ، ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدم إليهم وبيده جماق يردهم وصاح فى القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم لجاء الفرنج ما لا قبل لهم به وكان القسم الأول قد استراحوا فقاموا أيضا معهم فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج (وبلغت القلوب الحناجر) وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحرب والقتال فخالطهم المسلمون ، فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون معهم وكان طائفة قليلة فى الخيام شرقى الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لم يروا فيه مقاتلا وليكثروا فى الجهة التى فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع فصعدوا أيضاً الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهراً ودخل الفرنج القلعة التى للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلعة وأرجلهم فى القيود والخشب المثقوب ، فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحى القلعة كبروا فى سطح القلعة وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا أعلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملكها المسلمون عنوة ونهبوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله وأمست خالية لا ديار بها ، وألقى المسلمون النار فى بعض بيوتهم فاحترقت ، قال ابن الأثير ، وأعجب ما يحكى من السلامة أنى رأيت رجلا من المسلمين فى هذه الواقعة قد جاء فى طائفة من المؤمنين شمال القلعة إلى

طائفة أخرى من المسلمين جنوبي القلعة وهو يعدو فى الجبل عرضا فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عشرة فاسترجع الناس ، وجاء الحجر إليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت فى الأرض فوق موضع الرجل فضربه المنحدر عن الأرض وجاز الرجل ، ثم عاد إلى الأرض من جانبه الآخر ولم ينله منه أذى ولا ضرر وقام الرجل حتى لحق بأصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتمست أم الجبان ، وأما صاحب برزية فإنه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له ومعها زوجها . فتفرقهم العسكر فأرسل صلاح الدين فى الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض ، فلما قرب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة صاحب أنطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً عن الأحوال التي تؤثر فأطلق هؤلاء لأجلها ثم بعد فتح برزية رحل صلاح الدين من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف من عسكره .

ذكر فتح درب ساك

ثم سار عنه إلى درب ساك فنزل عليها ثامن رجب وهى من القلاع الحصينة التى يدخرونها لحمايتهم عند نزل الشدائد فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فهدمت من سورها شيئا يسيراً فلم يبال من فيه بذلك فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم النقابون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط واتسع المكان الذى يريد أن المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ، ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب أنطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينظرون جوابه إما بإنجادهم وإزاحة المسلمين عنهم وإما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم فى التسليم ، فلما علموا عجزه عن نصرتهم وخافوا هجوم المسلمين عليهم وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم طلبوا الأمان فأمنهم على شرط أن

لا يخرج أحد إلا بثيابه التي عليه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شيء مما بها ثم أخرجهم منه وسيرهم إلى أنطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

ذكر فتح بغراس

ثم سار صلاح الدين عن درب ساك إلى قلعة بغراس فحصرها بعد أن اختلف أصحابه في حصرها فنهم من أشار به ومنهم من نها عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من أنطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج أن يكون أكثر العسكر في اليزك مقابل أنطاكية فإذا كان الأمر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر الوصول إليها فاستخار الله تعالى وسار إليها وجعل أكثر عسكره يزكا مقابلا أنطاكية يغيرون على أعمالها وكانوا حذرين من الخوف من أهلها أن غفلوا لقربهم منها وصلاح الدين في بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم تؤثر فيها شيئا لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم إلا أن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء إليها فخفف الأمر عليهم ، فبينما هو على هذه الحال إذ قد فتح باب القلعة وخرج منه إنسان يطلب الأمان فأجيب إلى ذلك فأذن له في الحضور فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك فأجابهم إلى ماطلبوا فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح ، وأمر صلاح الدين المسلمين بتخريبه فخرب ، ثم ندم على ذلك بعد لأنه حصل منه بعد ذلك مضرة على المسلمين لأن ابن اليون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته وهو مجاور فجدد عمارته وأتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى منهم السواد الذي لحلب .

ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب أنطاكية

لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها فخاف صاحب أنطاكية من ذلك وأشفق منه فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار صلاح الدين من عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس يقترعوا ويجددوا مايحتاجون إليه فأجاب إلى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر وسير رسوله إلى صاحب أنطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الأسرى وكان صاحب أنطاكية فى ذلك الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فإنه كان الفرنج قد سلموا إليه طرابلس بعد موت صاحبها وجميع أعمالها مضافا إلى ما كان له ، فلما سلمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائبا عنه . وأما صلاح الدين فإنه عاد إلى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منهـا إلى دمشق وفرق أكثر العساكر وكان مع صلاح الدين الأمير عز الدين أبو فليتة قاسم بن المهنا العلوى الحسينى وهو أمير مدينة النبى صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته وكان يكرمه كثيراً وينبسط معه ويرجع إلى قوله فى أعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فأشير عليه بتفريق من بقى من العسكر فقال إن العمر قصير والأجل غير مأمون وقد بقى بيد الفرنج من الحصون الكرك وصفد وكوكب وغيرها ولا بد من الفراغ منها فإنها فى وسط بلاد الإسلام ولا يؤمن من شر أهلها وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم .

ذكر فتح الكرك وما يجاوره

كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكراً يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين وكان صلاح الدين قد جعله على قلعة الكرك فى جمع من العسكر يحصرها ، ويكون مطلعاً على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو إليه

حرب ساك وبغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة إليه ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى مقدم العسكر الذى يحصرها فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضا ما يقاربه من الحصون كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الإسلام هناك جرانه وأمنت قلوب من فى ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فإنهم كانوا من بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين .

ذكر فتح قلعة صفد

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق وأشير عليه بتفريق من بقى من العسكر قال لأعد من الإفرنج من صفد وكوكب وغيرها فأقام بدمشق إلى منتصف رمضان وسار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمى إليها ليلا ونهاراً بالحجارة والسهام ، وكان أهلها قد قاربت ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى فى المدة التى كانوا فيها محاصرين فإن عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم ، فلما رأى أهله جد صلاح الدين فى قتالهم خافوا أن يقيم إلى أن يفنى ما بقى معهم من أقواتهم وكانت قليلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو أنهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنه وساروا إلى مدينة صور ، وكفى الله المؤمنين شرهم فإنهم كانوا فى وسط البلاد الإسلامية .

ذكر فتح كوكب

لما كان صلاح الدين يحاصر صفداً اجتمع من بصور من الإفرنج وقالوا إن فتح المسلمون قلعة صفد لم يبق كوكب ولو أنها معلقة بالكواكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سراً رجال وسلاح وغير ذلك ، فأخرجوا مائتى رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم ، فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدرة الله تعالى أن رجلا من المحاصرين كوكب خرج متصيداً فلقى رجلا من

تلك النجدة فاستغربه بتلك الأرض فضربه ليعلمه بحاله ،وما الذى أقدمه إلى هناك ، فأقر بالحال ودله على أصحابه ، فعاد الجندى المسلم إلى مقدم العسكر فأعلمه الخبر والفرنجى معه فركب فى طائفة من العسكر إلى الموضع الذى اختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم فى الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الفرنج فحملوا إلى صلاح الدين وهو على صفد فأحضرهما ليقتلهما فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما ماأظن أن ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان يفعل فيه الاعتذار والاستعطاف فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا ولما فتح صفد سار عنها إلى كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهددهم بالقتل والسبي والنهب إن امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد فى قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمى الأحجار إليهم وزحف مرة بعد أخرى وكانت الأمطار كثيرة لاتنقطع ليلا ولا نهاراً فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذى يريدونه وطال مقامهم عليها وفى آخر الأمر زحف إليهـــا دفعات متناوبة فى يوم واحد ووصلوا إلى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والخروج فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا إلى السور الأعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف القعدة وسيرهم إلى صور ، فوصلوا إليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جموعهم وتابعوا الرسل إلى الفرنج الذين فى أوروبا والأندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويطلبون الإمداد والنجدة وفى كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين فى إطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك ، واجتمع المسلمين بفتح كوكب وصفد من حد أيلة إلى أقصى أعمال بيروت لاينفصل بينه غير مدينة صور وجميع أعمال أنطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد وكوكب سار إلى البيت المقدس فعيد فيه عيد الأضحى ، ثم سار منه إلى عكا ، فأقام بها حتى انسلخت سنة أربعة وثمانين وخمسمائة ودخلت سنة خمسة وثمانون وخمسمائة وهى

مسيحية سنة تسعة وثمانون ومائة بعد الألف فني ربيع الأول من هذه السنة سار إلى شقيف أرنوم وهي من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط صاحب صيدا ، وكان أرناط هذا من أعظم الناس دهاء ومكرا ، فدخل إليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودة وقال له أنا محب لك ومعترف بإحسانك ، وأخاف أن يعرف المركيس صاحب صور ما بيني وبينك ، فينال أولادي وأهلي منه أذى فإنهم عنده ، فأحب أن تمهلني حتى أتوصل في تخليصهم من عنده ، وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ونسلم الحصن إليك ، وأكون أنا وهم في خدمتك نقنع بما تعطينا من إقطاع ، فظن صلاح الدين صدقه فأجابه إلى ماسأل فاستقر الأمر بينهما على أن يسلم الشقيف في جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين صاحب أنطاكية ، فأمر تقي الدين ابن أخيه شاهنشاه أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتيه غيرهم ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة ، وكان أيضاً منزعج الخاطر كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بها من الإمداد في البحر وأن ملك الفرنج الذي كان أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس ، فلما اصطلح هو وصاحب صور بعد اختلاف كان بينهما ومنهما قد اجتمعا في جمع لا يحصى ، وخرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها فكان هذا وأشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه إلا أنه مع هذه الأشياء مقيم على العهد مع صاحب الشقيف في مدة الهدنة يشترى الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفه ، وكان صلاح الدين يحسن الظن به وإذا قيل له عنه ما هو فيه من المكر ، وإن قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور ، وحينئذ يبدى فضيحته ، ويظهر مخالفته لا يصدق فيه ، فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده أرناط صاحب الشقيف وقد بقي من الأجل ثلاثة أيام فقال له في معنى تسليم الشقيف ، فاعتذر بأولاده وأهله وأن صاحب صور لم يمكنه من المجيء إليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ

علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيسا ذكره يحمل رسالته إلى من بالشقيف ليسلموه فأحضروه عنده فساره بما لم يعلموا فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف ، فأظهر أهله العصيان فأرسل صلاح الدين أرناط صاحب الشقيف إلى دمشق وسجنه وتقدم إلى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه من الذخيرة والرجالة ، وجاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها أن الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذى لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين جريدة فى شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل إليهم ، وقد فات الأمر وذلك من الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنه لمقصدهم فلقيهم اليزك على مضيق هناك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم لحرب شديد يشيب لها الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين أيضاً جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس فحمل وحده . على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله تعالى ، ثم أن الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا فعادوا إلى مكانهم ، ولما وصل صلاح الدين إلى اليزك وقد فاتته الوقعة أقام عندهم فى خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين ، فركب فى بعض الأيام فى عدة يسيرة على أن ينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى مايشاهده ، وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد المصاف فى الحرب ، فساروا مجدين وأوغلوا فى أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراء ظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراءهم كمين فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر ، فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم ما يخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد ، فقاتلوهم ، فلم يلبسوا أن أماتوهم وقتل معهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم فى حق أنفسهم رحمهم الله تعالى ورضى عنهم ، وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى

الأولى ، فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل إليهم فى عسكره فحملوه على الفرنج إلى الجسر وقد أخذوا طريقهم ، فألقوا أنفسهم فى الماء فغرق منهم نحو مائة ذراع سوى من قتل ، وعزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم ، فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معهم خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور ، فلما عادوا إليها عاد صلاح الدين إلى تبنين ، ثم إلى عكا ينظر حالها ثم إلى المعسكر والمخيم ، ولما عاد صلاح الدين إلى العسكر أتاه الخبر أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متعددين فكتب إلى من بعكا من العسكر ووعدهم يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ورتب كمينا فى موضع من تلك الأودية والشعاب ، واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيئاً من قتال ، ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم ، فإذا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا موضع الكمين ، ثم يعطفوا عليهم ، ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة ، فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلوا وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الأمر ودامت الحرب وطال على الكمين الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين إليهم قاصدين فأتوهم وهم فى شدة الحرب فازداد الأمر شدة على شدته وكان منهم أربعة أمراء من ربيعة طى وكانوا يجهلون تلك الأرض فلم يسلكوا مسلك أصحابهم فسلكوا الوادى ظنا منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين ، فلما رآهم الفرنج بالوادى فعلموا أنهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم وأما المملوك فإنه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبوك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو بآخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتاً ، ثم أن المسلمين جاؤا من الغد إلى مواضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حياً فحملوه فى كساء وهو لا يكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا إليه فرأوه وقد قويت نفسه فأقبلوا عليه بمشروب فعوفى ثم كان بعد ذلك لا يحضر مشهداً إلا كان له فيه الأثر العظيم .

ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها

لما كثر جمع الفرنج بصور على ما ذكرناه مع أن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان وسيرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الأموال مالا يفنى على كثرة الانفاق فى السنين الكثيرة ثم إن الرهبان والقسيسين وخلقاً كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد ، وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم وأخذهم البطرك الذى كان بالقدس ، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً ويستنجدون أهلها ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس وصوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوا صورة رجل عربى والعربى يضربه وقد جعلوا الدماء فى صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحصروا وحشدوا حتى النساء فإنهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الأقران ومن لم يستطع منهم الخروج بنفسه استأجر من يخرج عوضا عنه يعطيهم مالا على قدر حالهم فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالا يتطرق إليه الإحصاء حتى أن بعض الأسرى منهم حدث أن له والدة ليس لها ولد سواه وما كانت تملك من الدنيا غير بيت فباعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاذ بيت المقدس فأخذ أسيراً ، فكان عند الفرنج من الباعث الدينى والنفسانى ما هذا حده فخرجوا على الصعب والذلول براً وبحراً من كل فج عميق وحاصروا عكا ثلاث سنين حتى ملكوها وكان ابتداء تجمعهم وسيرهم هذا المسير سنة ٥٨٥ ﻫ وهى مسيحية سنة ١١٨٩ فنازلوا عكا منتصف رجب من السنة المذكورة والامداد تأتيهم فى كل وقت بالمال و الرجال والمسلمون يقاتلونهم وفى سنة ١١٩٠ مسيحية وهى سنة ٥٨٦ هجرية قامت لهم التجريدة الثالثة ونفروا نفرا عاما من بلاد أوروبا تحت راية فيليب ملك فرنسا وفريدريك ملك جرمانيا وريكاردوس الأول ملك انكلترا الملقب بقلب الأسد وغيرهم من الأمراء ، فنهضوا جميعاً وقصدوا بلاد فلسطين بمائتى سفينة مشحونة

بالعساكر والمهمات وعند وصولهم إلى مدينة صور وهى الباقية بأيديهم تقدموا منها إلى مدينة عكا وحاصروها مع من كان قبلهم محاصرها حتى تم عدد المحاصرين ستمائة ألف ولاقى المسلمين من حربهم أشد البلاء وكان ابتداء مسيرهم من صور ثامن رجب سنة ٥٨٥ يموج بعضهم فى بعض ومعهم الأموال العظيمة والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم ولزموا ساحل البحر فى سيرهم لا يفارقونه فى السهل والوعر والضيق والسعة ومراكبهم تسير مقابلهم فى البحر فيها سلاحهم وذخائرهم لتكون عدة لهم إن جاءهم مالا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا ، ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدين برحيلهم ، فسار حتى قاربهم ، ثم جمع أمراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون فى غير الطريق التى سلكوها فقالوا لاحاجة بنا إلى احتمال المشقة فى مسايرتهم فإن الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ما نريده ومن الرأى أننا نسير فى الطريق الواسع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم فعلم ميلهم إلى الراحة المعجلة فوافقهم ، وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقالوا أن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض فلا يتهيأ لنا ازعاجهم ولا نيل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول إلى عكا ، فخالفوه فتبعهم وساروا على طريق واسع فسبقهم الفرنج ، وكان صلاح الدين قد جعل فى مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم فلم يقدم الفرنج عليه مع قلتهم ، فلو أن العساكر اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا كان بلغ غرضه منهم وصدهم عنها ولكن إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه ، ولما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ، ولم يبق للمسلمين طريق إلى عكا ، فنزل صلاح الدين عليهم ، وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل القياظية وميسرته إلى النهر الجارى ، ونزلت الأثقال بصفورية وسير الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر فأتاه الناس من كل البلاد ، وكانت الإمداد تأتى المسلمين فى البر وتأتى الفرنج

في البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة مابين صغيرة وكبيرة ، ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول إليهم ولا إلى عكا حتى انسلخ رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان ، فلم ينل منهم مايريد وبات الناس على تعبية ، فلما كان الغد باكرهم بالقتال بحده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة إلى الظهر وصبر الفريقان صبراً حار له من رآه ، فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقى الدين ابن أخى صلاح الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم ، فركب بعضهم بعضاً لايلوى أخ على أخ والتجأوا إلى من يليه من أصحابه واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد وملك تقى الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منها واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه وأدخل صلاح الدين إليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أراده فإن للصدمة الأولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غداً ونقطع دابرهم وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كثيرة .

ذكر وقعة أخرى

ثم إن المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم فى إستئصالهم فتقدموا على تعبيتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على ما فرطوا فيه بالأمس ، وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا فى حفر خندق يمنع عن الوصول إليهم فألح المسلمون عليهم فى القتال فلم يتقدم الفرنج إليهم ولافارقوا مرابضهم ، فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم أن جماعة من العرب بلغهم أن جماعة من الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم فى معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان ، فلما خرج جمع الفرنج على عادتهم حمل عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كانوا معهم وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين فأحسن إليهم بالجوائز والخلع .

ذكر الوقعة الكبرى على عكا

لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقى المسلمين إلى عشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه ، ثم أن الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا : إن عسكر مصر لم يحضروا والحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون إذا حضروا فالرأى أننا نلتقى غداً لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العسكر والإمداد إليهم وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائباً عن بعضهم مقابل أنطاكية ليرد صاحبها عن أعمال حلب وبعضهم فى حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضاً وعسكر فى مقابل صور لحماية ذلك البلد وعسكر بمصر يكونون بثغر دمياط والاسكندرية وغيرهما والذى بقى من عسكر مصر لم يصلوا لطول بيكارهم ، فكان هذا مما أطمع الفرنج فى الظهور إلى قتال المسلمين وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم إلى القتال ومنهم من هو فى خيمته ومنهم من قد توجه فى حاجة من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه إلى غير ذلك ، فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الأرض قد ملؤها طولا وعرضاً وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ، فلما رأى الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا إليه ، فلما قربوا منه تأخر فلما رأى صلاح الدين الحال وهو فى القلب أمد تقى الدين برجال من عنده ليتقوى تقى الدين فلما رأى الفرنج قلة الرجال فى القلب وأن كثيرا منهم قد سار نحو الميمنة مدداً لهم عطفوا على القلب ، فحملوا حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم ولم يبق بين أيديهم فى القلب من يردهم ، فقصدوا التل الذى عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مروابه ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه ، ثم أن الفرنج نظروا إلى ورائهم فرأوا أمدادهم قد انقطعت عنهم فرجعوا خوفاً أن ينقطعوا عن أصحابهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين الذين صادفوهم وهم راجعون ، وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قد تبعهم يناديهم

ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال فاجتمع منهم معه جماعة فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة ، فأخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد وقتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى وكان عدة القتلى عشرة آلاف قتيل سوى من كان جانب البحر ، ثم أمر بالقتل فألقوا فى النهر الذى يشرب منه الفرنج وكان من جملة الأسرى ثلاثة نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل ، ولولا أن العساكر تفرقت فى الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج الاستئصال والهلاك على أن الباقين بذلوا جهدهم وجدوا فى القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج فى معسكرهم لعلهم يفرغون منهم فجاء للمسلمين الصريخ بأن رجالهم وأموالهم نهبت ، وكان سبب هذا أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب ، فسار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه وكان فى عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون فى جمعها وتحصيلها فأمر بالنداء بإحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والعلب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه ففاته ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج وأصلحوا شأن الباقين منهم .

ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا

لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الأرض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الأمزجة فساداً وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح كان يعتاده ، فحضر عنده الأمراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له ، وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأى أننا نبتعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فإن رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وإن أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه ، ثم أن مزاجك منحرف والألم شديد ولو وقع أرجاف لهلك الناس والرأى على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الأطباء على ذلك ، فأجابهم إليه لما يريد الله أن يفعله وإذا أراد الله بقوم سوءاً

فلا مرد له وما لهم من دونه من وال فرحلوا إلى الخروبة رابع شهر رمضان وأرسل لمن في عكا من المسلمين يأمرهم بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله ، فلما رحل هو وعساكره أمر الفرنج وانبسطوا فى تلك الأرض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البحر ومراكبهم أيضاً فى البحر تحصرها وشرعوا فى حفر الخندق وعمل السور من التراب الذى يخرجونه من الخندق وجاؤا بما لم يكن فى الحساب ، وكان اليزك كل يوم يواقعهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون إنما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم فحينئذ ظهر رأى المشيرين بالرحيل أنه غير صواب ، وكان اليزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الأمر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليها ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم ، فقال لهم إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير فتأخر الأمر إلى أن عوفى ، فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا وأحكموا أمورهم وحصنوا أنفسهم بما وجدوا إليه السبيل وكان من بعكا يخرجون إليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد ولما برىء صلاح الدين من مرضه كان الشتاء قد دخل عكا ، فأقام بمكانه إلى أن ذهب الشتاء وكان يزك وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج ، وفى منتصف شوال وصلت إليه العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين فقويت نفوس الناس به وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس شيئاً كثيراً ومعه من الرجالة الجم الغفير ، ووصل بعده الأسطول المصرى ومقدمه الأمير لؤلؤة وكان شهما شجاعا مقداما خبيراً بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة ، ووقع فى طريقه على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالا كثيرة وميرة عظيمة ودخلت سنة ست وثمانين ، فلما دخل صفر سمع الفرنج أن صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذى فى المعسكر عندهم قليلا وأن الوحل الذى فى مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد أن ينحدر إلى اليزك فاغتنموا ذلك وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر ، فقاتلهم

المسلمون وحموا نفوسهم بالنشاب وأحجم الفرنج عنهم حتى فنى نشاب المسلمين فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال وعظم الأمر ، وعلم المسلمون أنه لاينجيهم إلا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل إلى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج إلى خندقهم ، ولما عاد صلاح الدين إلى المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس إلى نصر إخوانهم فأتاه الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم ، فأقام ثم أنه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبة من دمشق وحمص وحماه وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل تل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون .

ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول

كان الفرنج فى مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً طول كل برج منها فى السماء ستون ذراعا وعملوا كل برج منها خمس طبقات كل طبقة مملوءة من المقاتلة وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التى تمنع النار من إحراقها وأصلحوا الطرق لها، وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها من العشرين فى ربيع الأول فأشرفت على السور وقاتل بها من عليه فانكشفوا وشرعوا فى طم خندق البلد ، فأشرف على أن يملك عنوة وقهراً فأرسل أهل البلد إلى صلاح الدين إنسانا سبح فى البحر فأعلمه مافيه من الضيق وماقد أشرفوا عليه فى أخذهم وقتلهم ، فركب هو وعساكره وتقدم إلى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما شغلهم عن مكاثرة البلد فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكا إلى أن الأمر قد خف عمن بالبلد ، ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسئم الفريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلا ونهاراً والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج فإنهم لم يتركوا حيلة إلا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيئاً وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار

والهلاك ، فأتاهم الله بنصر من عنده وأذن فى إحراق الأبراج وكان سبب ذلك أن إنسانا من أهل دمشق وكان مولعا بجميع آلات النفاطين ، وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار ، فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أباشرها بنفسى إنما أشتهى معرفتها ، وكان بعكا لأمر يريده الله فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا شرع فى عمل مايعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شىء من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش وهو متولى الأمور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيقى أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ماأعطيه حتى أحرقه وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه مايكاد يقتله فازداد غيظا لقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة فى الرمى بالنفط وغيره فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فأجابه إلى ذلك وأمر المنجنيقى بامتثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم أن الذى ألقاه قد تمكن من البرج والتصق به حتى إذا جاءته النار اشتعل سريعاً ألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار ، فاشتعل البرج وألقى قدراً ثانية وثالثة فأضرمت النار فى نواحى البرج وأعجلت من فى طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه وكان فيه من الزرديات والسلاح شىء كثير وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الأولى لا تعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعى فى الخلاص حتى عجل الله لهم النار فى الدنيا قبل الآخرة ، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثانى وقد هرب من فيه لخوفهم فأحرقه وكذلك الثالث وكان يوماً مشهوداً لم ير الناس مثله والمسلمون الذين مع صلاح الدين خارج البلد ينظرون ويفرحون وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحاً بالنصر وخلاص المسلمين من القتل لأنهم ليس فيهم أحد إلا له فى البلد إما نسيب وإما صديق وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والاقطاع الكثيرة، فلم يقبل منه الحبة الفردة وقال إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه وسيرت الكتب

إلى البلاد بالبشائر وأرسل صلاح الدين يطلب العساكر الشرقية فأول من أتاه صاحب سنجار بعساكره وديار الجزيرة، ثم صاحب الموصل بعساكره ثم صاحب أربل بعساكره وكان كل منهم إذا وصل يتقدم إلى الفرنج بعساكره وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الأسطول من مصر ، فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه أسطولا يلقاه ويقله فركب صلاح الدين فى العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشىء فكان القتال بين الفريقين براً وبحراً وكان يوماً مشهوداً لم يؤرخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج مركباً فيه من الرجال والسلاح ، وأخذ الفرنج من المسلمين مثل ذلك إلا أن القتل فى الفرنج كان أكثر منه فى المسلمين ووصل الأسطول الإسلامى سالما .

ذكر وصول ملك الألمان الشام وموته

فى هذه السنة كان خروج ملك الألمان من بلاده والألمان نوع من الفرنج من أكثرهم عدداً وأشدهم بأساً وكان قد أزعجه تملك المسلمين بيت المقدس فجمع عساكره وأزاح عليهم وسار إلى بلاده ، وكان طريقه على القسطنطينية وكان ملك القسطنطينية عقد صلحاً مع صلاح الدين ، وصار يكاتبه ويظهر له المودة ، فأرسل ملك الروم لصلاح الدين يخبره بقدوم ملك الألمان ويعده أنه لا يمكنه من العبور فى بلاده ، فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم تمكن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم فضاقت بهم الأزواد والأقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وساروا على بلاد الإسلام وهى مملكة الملك قلج أرسلان السلجوقى وكان من ملوك الإسلام ، فلما وصلوا إلى أوائلها سار بهم المسلمون فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويأخذون ماقدروا عليه من أموالهم ، وكان الزمان شتاء والبرد فى تلك البلاد شديد والثلج متراكم فأهلكهم البرد والجوع والقتل والأخذ فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين بن قلج أرسلان السلجوقى ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد إلى قونية ، فساروا حتى بلغوا أنطاكية

وكانوا نيفا وأربعين ألفاً ووقع فيهم مرض ووباء فمات كثير منهم ودخل ملكهم فى نهر ليغتسل فغرق فجعلوا ابنه ملكا عليهم بدله، ثم ساروا حتى وصلوا إلى عكا، فلما رأوا ما نالهم من المشقات أراد كثير منهم العودة إلى بلادهم فركبوا فى مراكب غرقت بهم ولم يبق منهم إلا القليل ولما بلغ صلاح الدين إقبالهم استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم إلى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستسلم من بعكا من عساكرنا لكنه أسير بعض عساكره إلى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عادياتهم ، وكان حال المسلمين كما قال الله تعالى ﴿ إِذْ جَاؤُكُمْ مِن فَوْقِكُمْ وَمِن أَسفَلَ مِنكُمْ وإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرُ وتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنونَا هُنالِكَ ابْتَلِىَ المؤْمُنونَ وزُلْزِلُوا زِلزَالاً شَدِيداً ﴾ لكن كفى الله شرهم وأقل عددهم بما أصابهم من العوارض والبلايا فى طريقهم .

ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا

وفى هذه السنة أعنى سنة ٥٨٦ فى العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا إلى المسلمين وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أخو صلاح الدين فركب المصريون واصطفوا للقاء الفرنج فاقتتلوا قتالا شديداً ، فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فكر المصريون ورجعوا عاطفين عليهم فقاتلوهم فى وسط خيامهم فأخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا ، وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم إلا الشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل ، ولما جرت عليهم هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم ، فلما كان بعد يومين أتتهم أمداد فى البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكند هنرى ابن أخى ملك فرنسا لأبيه وابن أخى ملك انكلترا لأمه وصل معه من الأموال شىء كثير يفوته الإحصاء فلما وصل جند الأجناد وبذل الأموال ، فعادت نفوسهم قوية واطمأنت ، وأخبرهم أن الأمداد

واصلة إليهم يتلوا بعضها بعضاً فتماسكوا وحفظوا مكانهم ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين ، وكانت منزلة المسلمين ، وكانت قد انتنت بريح القتلى ، فاختار الانتقال إلى موضع يتسع فيه المجال فانتقلوا من مكانهم إلى الخروبة فى اليوم السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة ، ثم أن الكند هنرى نصب منجنيقا ودبابات وعرادات للتوصل إلى دخول عكا ، فخرج من بعكا من المسلمين ، فأخذوها وقتلوا عندها كثيراً من الفرنج ثم إن الكند هنرى بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقا آخر ، فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين الذين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق فعمل تلا من تراب بالبعد من البلد فكان الفرنج ينقلون التل إلى القرب من البلد بالتدريج ويستترون به فلما قرب إلى البلد وصار بحيث يصل من عنده حجر المنجنيق نصبوا من ورائه منجنيقين وصار التل سترة لهما وكانت الميرة قد قلت بعكا ، فأرسل صلاح الدين إلى الاسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك فى المراكب إلى عكا ، فتأخر إنفاذها فسير إلى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك فسير بطسة عظيمة مملوءة من كل ما يريدونه وأمر من بها فلبسوا ملبس الفرنج وتشبهوا بهم فرفعوا عليها الصلبان ، فلما وصلوا إلى عكا لم يشك الفرنج أنها لهم فلم يعرضوا لها فلما حازت مينا عكا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم إلى أن أتتهم الميرة من الاسكندرية ، وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر فى نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحى الاسكندرية وأخذ من معها ، ثم أن الفرنج وصلهم كتاب من البابا وهو كبيرهم الذى يصدرون عن أمره وكان قوله عندهم كقول النبيين لا يخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومة الكبرى يأمرهم فى كتابه بملازمة ماهم بصدده ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً ويعلمه بوصول الإمداد إليهم فازدادوا قوة وطمعا .

ذكر خروج الفرنج من خنادقهم

لما تتابعت الإمداد إلى الفرنج وجند لهم الكند هنرى جمعا كثيراً بالأموال التى

وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومفاجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها ، وخرجوا حادى عشر من شوال من السنة المذكورة فى عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة ، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ على عكا ولقى الفرنج على تعبية حسنة ، وكان أولاد الأفضل على والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخوه العادل أبو بكر فى الميمنة ومعه عساكر مصر من انضم إليه ، وكان فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماه ومعز الدين صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق أن صلاح الدين أخذه مغص كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر إليهم ، فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس ، فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غرب النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضاً وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس ، وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم والجالشية فى أكتافهم يقاتلون تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام ، وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ما أصابهم ولولا ذلك الألم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصل وإنما الله فى كل شىء حكمة وله أمر هو بالغه ولا راد لما أراد ، فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقاً كثيراً ، وفى الثالث والعشرين من شوال أيضا كمن جماعة المسلمين وتعرض جماعة أخرى من المسلمين الفرنج فخرج إليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيئاً من قتال وتطاردوا لهم وتبعهم الفرنج حتى جاوزوا الكمين فخرج من كان فى الكمين من المسلمين عليهم فقتلوهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورية فصبروا على هذا ، ولما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف

الفرنج على مراكبهم التى عندهم لأنها لم تمكن فى الميناء ، فسيروها إلى صور لأنها كانت بأيديهم ، فانفتح الطريق إلى عكا فى البحر للمسلمين ، فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة ، وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى ، وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم . فدخل إليها عشرون أميراً ، فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة إلى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم فتفرق خلق كثير ، فانحسر الشتاء والأمر كذلك ، وعادت مراكب الفرنج إلى عكا ، وانقطع الطريق إلا من سابح يأتى بكتاب ، ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ذكر وصول فيليب ملك الفرنسيس ثم ملك انكلترا

فى هذه السنة أعنى سنة خمسمائة وسبعة وثمانون ثانى عشر ربيع الأول وصلت إمداد الفرنج فى البحر إلى الفرنج الذين على عكا ، وكان أول من وصل منهم الملك فيليب ملك الفرنسيس ومعه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوسهم ، وكان صلاح الدين يركب كل يوم ويقصد الفرنج شغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل إلى مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشوانى والمراكب وشحنها بالمقاتلة وتسيرها فى البحر ليمنع الفرنج من وصول شىء من شوانيهم إلى عكا ففعل ذلك صاحب بيروت وسير الشوانى فى البحر فصادفت خمسة مراكب للفرنج مملوءة رجالا من أصحاب ملك انكلترا الملقب بقلب الأسد المسمى ريكاردوس الأول ، وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرص ليملكها من ملك الروم لأنها كانت بأيديهم فاقتتلت شوانى المسلمين مع مراكب انكلترا فغلبهم المسلمون واستظهروا عليهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وأما الفرنج الذين على عكا فإنهم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات

رابع جمادى الأولى ، فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من موضعه الذى كان فيه ونزل قريباً من خنادق الفرنج مقابلة لئلا يتعب العسكر كل يوم فى المجىء إليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خنادقهم فكانوا يشتغلون بقتاله فيخف القتال عمن بالبلد ، ثم وصل ملك انكلترا ثالث عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ بعد أن استولى فى طريقه على جزيرة قبرص وأخذها بالمكر والخديعة من الروم ، فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها ، فكان ذلك زيادة فى ملكه وقوة للفرنج ، فلما فرغ منها سارعنها إلى من بعكا من الفرنج فوصل إليهم فى خمس وعشرين قطعة كبار مملوءة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتها فى المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكراً وجلداً وصبراً وبلى المسلمون منه بالداهية التى لا مثيل لها ولما وردت الأخبار بقدومه أمر صلاح الدين بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال والعدد والأقوات فتجهزت وسيرت من بيروت وفيها سبعمائة مقاتل فلقيها ملك انكلترا مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتاله ، فلما آيسوا من الخلاص نزل مقدم من بها فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع مافيها وكانت عكا محتاجة إلى رجال ، ثم أن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش ، فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيراً من التراب مستطيلا وما زالوا يقربونه إلى البلد ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف غلوة فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه ، فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع ولا منع .

ذكر ملك الفرنج عكا

فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمان وخمسمائة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من فى عكا أن الأمير سيف الدين على

ابن أحمد الهكاوى المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج إلى ملك الفرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحوق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك فعاد على بن أحمد إلى البلد فوهن من فيه وضعفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم ثم أن أميرين ممن كان بعكا لما رأيا ما فعلوا بالمشطوب وأن الفرنج لم يجيبوا إلى الأمان اتخذوا الليل جملا وركبا فى شىء صغير وخرجا سراً من أصحابهم ولحقا بعسكر المسلمين وخرج معهما جماعة ، فلما أصبح الناس وعلموا ذلك ازدادوا وهنا إلى وهنهم ، وضعفا إلى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ، ثم أن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين فى معنى تسليم البلد فأجابهم إلى ذلك ، واشترط أن يطلق من أسراهم بعدد من فى البلد ليطلقوهم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فأرسل إلى من بعكا من المسلمين أن يخرجوا من عكا يداً واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التى يخرجون منها بعساكره ، فشرعوا فى ذلك واشتغلوا باستصحاب ما يملكونه ، فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ما عزموا عليه من استصحاب ما يملكونه لظهوره ، فلما عجز الناس عن حفظ البلد ، وزحف إليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهر من بالبلد على السور يحركون أعلامهم ليراها المسلمون الذين خارج البلد وكانت هى العلامة إذا اخترمهم أمر ، فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلباً منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو فى أولهم وكان الفرنج زحفوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا فى مقابلة من فى البلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج إلى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف للمركيس صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه وأن يكون مدة تحصيله المال والأسرى إلى شهرين ، فلما حلفوا له سلم البلد إليه ودخلوه سلما ، فلما ملكوه غدروا

واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم وراسلوا صلاح الدين فى إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم، فشرع فى جمع المال، فلما اجتمع عنده مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم، فأشاروا عليه بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه، وأن يضمن الداوية ذلك والداوية طائفة من الفرنج كان لهم وفاء فراسلهم صلاح الدين فى ذلك، فقال الداوية: لانحلف ولانضمن لأنا نخاف غدر من عندنا وقال ملوك الفرنج إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل شيئاً وأعاد الرسالة إليهم وقال نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقى وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء له فقالوا لانحلف إنما ترسل إلينا المائة ألف دينار التى حصلت والأسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد عندنا حتى يجىء باقى المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يعبأ به ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان إلى ذلك، فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج، وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم وإذا أكثر من عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف وهم خلق كثير واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له، فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف فى المال الذى كان جمعه وسير الأسرى والصليب إلى الشام وكان ملك الفرنسيس قد توجه قبل ذلك إلى صور لترتيب أموره وبقى فى عكا ملك انجلترا إلى أن تم استيلاؤه عليها وغدر بالمسلمين وفعل بهم ما تقدم، وارتحل إلى عسقلان فى عشر شعبان واستمرت عكا بأيديهم بعد استيلائهم عليها، وبقيت عندهم مائة سنة وثلاثين إلى سنة ستمائة وتسعين فافتتحها، وانتزعها منهم السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور قلاوون. وسيأتى أنه سار إليها بجيوشه وعساكره

ونصب عليها المجانيق العظيمة وقاتلهم عليها أشد القتال إلى أن ملكها وقتل من فيها من الفرنج وغنم منها أموالا لا تحصى ، وكان نزوله عليها فى أوائل جمادى الأولى من السنة المذكورة أعنى سنة ٦٩٠ وفتحها يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، ومن عجائب الإتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها ثم قتلوهم فقدر الله عز وجل فى سابق علمه أنها تفتح فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة على يد صلاح الدين بن قلاوون فكان ، فتوحها فى مثل الشهر الذى ملكها فيه الفرنج وفى مثل اليوم الذى ملكوها فيه من الشهر ولقب السلطان الذى فتحها مثل لقب السلطان الذى أخذت منه إذ كل منهما يلقب صلاح الدين ولله فى كل شىء حكمة وكل شىء عنده بمقدار لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص لاراد لما قضاه وقدره ثم فتح السلطان صلاح الدين قلاوون بقية البلدان التى كانت بيد الفرنج من أرض الشام وقطع دابرهم وطهرت أرض الشام وسواحلها منهم فلله الحمد على ذلك .

ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان

لما فرغ الفرنج لعنهم الله من إصلاح أمر عكا رحلوا مستهل شعبان قاصدين عسقلان وكان توجههم من جهة حيفا مع شاطىء البر لا يفارقونه ومراكبهم تسايرهم فى البحر محاذية لهم ، فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى فى عسكره بالرحيل فساروا فضايقوا الفرنج فى مسيرهم وأرسلوا إليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة فلما وصل الفرنج حيفاً نزلوا بها ، ونزل المسلمون قريباً منهم ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويقتلون من قدروا عليه منهم فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون ، وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلا كثيراً ونزل الفرنج بها ونزل المسلمون قريباً منهم ولما ، نزلوا قيسارية خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن

جماعتهم فأوقع بهم المسلمون فقتلوا منهم وأسروا ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق ، فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة فألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتلوا كثيراً منهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة منهم على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لايلوى أحد على أحد والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج أنها هزيمة تبعتهم واشتهرت الهزيمة ، وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين قطعة كثيرة الشجر فدخلها المسلمون فظن الفرنج أنها مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق ، ثم سار الفرنج إلى يافا ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ، ثم سار صلاح الدين إلى الرملة وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا قد رأيت ما كان منا بالأمس وإذا جاء الإفرنج عسقلان ووقفنا فى وجوههم نصدهم عنها فهم لاشك يقاتلوننا فنزاح عنها وينزلون عليها فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا لأن العدو قد قوى بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج عن أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها ، فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها فلم يجب أحد إلى ذلك وقالوا إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها فخربت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة سنة ٥٨٧ وألقيت حجارتها فى البحر وهلك فيها من الأموال والذخائر التى للسلطان والرعية مالا يمكن حصره وعفى أثرها حتى لايبقى للفرنج فى قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها وكان المركيس صاحب صور لعنه الله تعالى لما كان بعكا أحس من ملك انكلترا الغدر به ليتملك منه صور فهرب من عنده إلى صور فحصنها وكان رجل الفرنج شجاعاً ورأيا وكل هذه الحروب هو الذى أثارها فلما خربت عسقلان أرسل ملك انكلترا يقول له مثلك لا ينبغى أن يكون ملكا . ويتقدم على الجيوش

تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل لما بلغك أنه قد شرع فى تخريبها كنت سرت إليه مجداً فرحلته وملكتها صفواً عفواً بغير قتال ولا حصار فإنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها وحق المسيح لو أننى معك كانت عسقلان بأيدينا اليوم لم يخرب منها غير برج واحد وقد عمر الفرنج عسقلان فى المحرم سنة ٥٨٨ وملكوها ثم أن صلاح الدين لما خرب عسقلان مضى إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة اللد، ثم سار صلاح الدين إلى القدس وحصنها واعتبر ما فيه من ذخائر وسلاح وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج إليه وعاد إلى المخيم ثامن رمضان وفى مدة إقامة الفرنج بيافا خرج ملك انكلترا من معسكره ومعه نفر من عسكره فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديداً وكاد ملك انكلترا يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضاً وقعت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج كان النصر فيها للمسلمين،

ذكر رحيل الفرنج إلى نطرون

لما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد نزلوا يافا ولم يفارقوها وشرعوا فى عمارتها رحل من منزلته إلى نطرون ثالث عشر رمضان وخيم بها فراسله ملك انكلترا يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أخى صلاح الدين فاستقرت القاعدة أن ملك انكلترا يزوج أخته من الملك العادل ويكون القدس وما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل وتكون عكا وما بأيدى الفرنج من البلاد لأخت ملك انكلترا مضافا إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها الأول، فعرض العادل ذلك على أخيه صلاح الدين فأجاب إلى ذلك، فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إلى أخت ملك انكلترا وأنكروا عليها ذلك فامتنعت من الإجابة وكان الملك العادل فى مدة الخوض فى الصلح يجتمع فى بعض الأوقات مع ملك انكلترا ويتذاكران حديث الصلح وطلب من الملك العادل مرة أن يسمعه غناء المسلمين، فأحضر له مغنية تضرب

بالجنك فغنت له ، فاستحسن ذلك ، ثم أن الصلح لم يتم بينهما لما امتنعت أخت ملك انكلترا ، ثم تبين أن ملك انكلترا كان يفعل ذلك خديعة ومكراً ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس فسار صلاح الدين إلى الرملة ومعه العسكر وترك الأثقال فى نطرون وقرب من الفرنج وبقى عشرين يوما ينتظرهم ، فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات ينتصر فيها المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين إلى نطرون ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذى القعدة على عزم قصد بيت المقدس فقرب بعضهم من بعض وعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت فى العسكرين فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الأوحال والأمطار بينهما .

ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس

لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم والأمطار متتابعة والناس فيها فى ضنك وحرج من شدة البرد ولبس السلاح والسهر فى تعب دائم ، وكان كثير من العسكر قد طال عليهم البيكار فأذن لهم فى العبور إلى بلادهم للاستراحة وسار هو إلى بيت المقدس فيمن بقى معه فنزلوا جميعاً داخل البلد وقدم إليه عسكر من مصر فقويت نفوس المسلمين بالقدس ، وسار الفرنج من نطرون ثالث ذى الحجة على قصد بيت المقدس ، فكانت بينهم وبين يزك المسلمين وقعات أسر المسلمون فى وقعة منها نيفا وخمسين فارساً من مشهورى الفرنج وشجعانهم ، وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد مارث منه فأحكم الموضع الذى تملك البلد منه وأتقنه ، وأمر بحفر خندق خارج الفصل وسلم كل برج لأمير يتولى عمله ، ثم أن الحجارة قلت عند العمالين ، فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة فيقتدى به الأمراء والعسكر ، فكان يجتمع من العمالين فى اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام ثم أن الفرنج رجعوا إلى رملة فى العشرين من ذى الحجة ، وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل ، فلما بعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة

فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ، ثم أن ملك إنجلترا قال لمن معه من الفرنج الشاميين.
صوروا لى مدينة القدس فإنى ما رأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ماعدا موضعا
يسيراً من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فأخبروهم أنه عميق وعن المسلك فقال
هذه مدينة لايمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا ، وكلمة المسلمين مجتمعة لأننا إن.
نزلنا فى الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل إليهم منها إلى
الرجال الذخائر وما يحتاجون إليه وإن نحن افترقنا بعضنا على جانب الوادى وبعضنا من
الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع إحدى الطائفتين ، ولم يتمكن للطائفة.
الأخرى إنجاد أصحابهم لأنهم إن فارقوا مكانهم خرج من البلد عن المسلمين فغنموا مافيه
وإن تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فإلى أن يتخلصوا من الوادى ويلحقوا
بهم يكون ، وقد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى مايتعذر علينا من إيصال مانحتاج إليه.
من العلوفات والأقوات ، فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى.
للجالبين لها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة فعادوا خائبين خاسرين، ثم دخلت.
سنة ٥٨٨ ثمان وثمانين وخمسمائة فعمر الفرنج عسقلان كما تقدم وجرى بينهم وبين المسلمين.
حين عمارتها قتال شديد وعدة وقائع ، فكان المسلمون تارة تواقع طائفة منهم وتارة
تقطع عليهم الميرة ، وأخذوا منهم قوافل كبيرة ، وفى شهر ربيع من هذه السنة جعل
صلاح الدين للباطنيين من الاسماعيلية عشرة آلاف دينار إن قتلوا ملك انكلترا أو
المركيس صاحب صور فتمكنوا من قتل المركيس صاحب صور فقتلاه ، ثم قتلا فتملك.
صور الكند هنرى وتقدم أنه ابن أخت ملك الفرنسيس وابن أخت ملك انكلترا لأمه.
وفى تاسع جمادى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ، ثم ساروا.
إلى بيت المقدس وصلاح الدين فيه ، وكان سبب طمعهم أن صلاح الدين فرق كثيراً من
عساكره لأجل الشتاء ليستريحوا فظنوا أنهم ينالون غرضهم ، فلما سمع صلاح الدين
بقربهم منه فرق أبراج البلد على الأمراء وسار إلى الفرنج وكانوا على فرسخين من القدس
فصب عليهم البلاء وتابع إرسال السرايا فعلموا أنهم إذا نازلوا القدس كان الشر إليهم

أسرع والتسلط عليهم أمكن فرجعوا القهقرى ، وركب المسلمون أكتافهم بالرماح والسهام ، ولما بعد الفرنج عن يافا سير صلاح الدين سرية من عسكره إليها فقاربوها وكمنوا عندها ، فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم وقتلوا منهم وأسروا وغنموا ، وكان ذلك آخر جمادى الأولى وفى تاسع جمادى الآخرة بلغ الفرنج خروج قفل كبير من مصر فأسر الفرنج إليهم وأخذوا بعض القفل بنواحى الخليل وسلم البعض ثم أن الفرنج أيقنوا أنهم لا طاقة لهم بالمسلمين إذا فارقوا البحر وبعدوا عنه ، فرجعوا إلى عكا وأقاموا بها ، فلما علم صلاح الدين بذلك جمع العساكر وسار إلى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنازلها وقاتل من بها إلى أن ملكها بالسيف عنوة فى عشرين من رجب وغنم ما فيها وقتل كثيراً وأسر كثيراً وكان بها أكثر الأموال التى غنموها من قفل مصر وتحصن من بقى من الفرنج بالقلعة فحاصرهم فجاءتهم نجدة من عكا ومعهم ملك انكلترا فأخرج من بيافا من المسلمين وتتابع إليه المدد من عكا وبرز إلى ظاهر المدينة ، واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم ، فلم يقدم إليه أحد فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل وأكل ثم رجع إلى يافا .

ذكر الهدنة مع الفرنج

فى العشرين من شعبان من هـذه السنة عقدت هدنة بين المسلمين والفرنج لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر وسببها أن ملك انكلترا لما رأى اجتماع العساكر وأنه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل بلد للمسلمين يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده ، فأرسل إلى صلاح الدين فى الصلح فلم يجبه صلاح الدين بل طلب منه المصاف والحرب فأعاد الفرنجى رسله مرة بعد أخرى وأرسل إلى الملك العادل أخى صلاح الدين فى تقرير الهدنة ، فأشار هو وجماعة من الأمراء بالاجابة إلى الصلح وعرفوا صلاح الدين ماعند العساكر من الضجر والملل وماقد هلك من أسلحتهم ودوابهم ومانفد من نفقاتهم وقالوا إن هذا الفرنجى إنما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده ، فإن تأخرت

إجابته إلى أن يجىء الشتاء وينقطع الركوب فى البحر نحتاج إلى البقاء هنا سنة أخرى. فيعظم الضرر على المسلمين وأكثروا القول فى هذا المعنى فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى الصلح فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة وكان فى جملة من حضر عند صلاح الدين من الفرنج باليان بن بارزان الذى كان صاحب الرملة ونابلس ومن جملة ماقال لصلاح الدين ماعمل أحد فى الإسلام مثل ماعملت ولا هلك من الفرنج مثل ماهلك منهم هذه المدة فإننا أحصينا من خرج إلينا فى البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف مقاتل ماعاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلته أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج فى زيارة بيت المقدس. فزاروه وعادت كل طائفة إلى بلادها ورجع ملك انكلترا إلى بلاده وأقام بالساحل الشامى ملكا على الفرنج وعلى البلاد التى بأيديهم الكند هنرى ، وسار صلاح الدين إلى القدس وصام به رمضان ، ثم سار إلى دمشق فى شوال وفرح الناس به لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الإسلام ، وكانت هذه الهدنة من لطف الله بالمسلمين لأن الله لما علم قرب وفاة صلاح الدين قدر وقوع هذه الهدنة لأنه لو توفى صلاح الدين فى مدة الحرب لزاد طمع الفرنج فى بلاد الإسلام ، وانتشر شرهم ولربما أنه لايوجد بعده من يقوم مقامه ، وكانت وفاة صلاح الدين بدمشق فى السابع والعشرين من شهر صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة بعد أن مرض أياما ، وكان رحمه الله عالما صالحا حليما حسن الأخلاق متواضعا صبوراً كثير المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد فى الكفار وفتوحاته تدل على ذلك وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتا واحدة ولم يخلف داراً ولا عقاراً ولم يوجد فى خزانته غير سبعة وأربعين درهما وديناراً واحداً صورى وكانت ولادته سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة فكان عمره قريبا من سبع وخمسين سنة وكان مدة ملكه الديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وملكه الشام قريبا من تسع عشرة سنة ، وكان رحمه الله مشغوفا بالانفاق فى سبيل الله تعالى فكان إذا عقر أو جرح لأحد من العسكر فرس فى سبيل الله يعوضه مثله ويزيده فى عطائه وحسبوا مما وهبه من الخيل الحاضرين

معه فى الجهاد مدة ثلاث سنين فكان اثنى عشر ألف رأس ، وكان كريما شديد الكرم كثير البذل للأموال لا سيما المجاهدين ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب لإنسان من المجاهدين أو موعود بهبته وصاحبه ملازم فى طلبه وما حضر للقتال إلا واستعار فرسا يقاتل عليه ، فإذا نزل عنه جاء صاحبه وأخذه وكانت مجالسه حافلة بأهل العلم والدين والفضل يحب مناظرة العلماء بين يديه ويشاركهم فى المناظرة أحسن مشاركة فى المسائل الغامضة حتى صار لمداومة مجالسته للعلماء أعرف منهم بالأحكام الفرعية والأدلة الشرعية ، وكان كثير الإكرام للعلماء متواضعا لهم مواظبا على الفرائض الخمس لم يؤخر صلاة عن وقتها ولا صلى إلا فى جماعة وكان متوكلا على الله لا يفضل فى عزمه يوما على يوم وكان كثير التغافل عن سيئات خدمه وأتباعه وزلاتهم ، يسمع ما يكره ولا يتأثر به ولا يخبر بخطيئته من أخطأ منهم حتى أن بعض مماليكه رمى بعضا آخر بسرموزة فأخطأته ووقعت قريبا من السلطان وكادت تصيبه فالتفت إلى الجهة الأخرى تغافلا عنها وصار يكلم من بجانبه وكان طاهر المجلس طاهر اللسان ، قال العماد الكاتب مات بموته الرجال وفات بفواته الأفضال وغاضت الأيادى وفاضت الأعادى وانقطعت الأرزاق وأظلمت الآفاق وفجع الزمان ورزىء الإسلام وكانت مجالسته كلها مجالس الآخرة لأنها إما فى إقامة عدل ينشره أو جهاد يتجهز له أو سماع الأحاديث النبوية أو بر يوليه أو إحسان يوصله إلى ذوى الحاجات وأرباب الضرورات إلى غير ذلك من أنواع البر وأبواب القربات مع ما انطوى عليه من السجايا الجليلة والأخلاق الطاهرة والحياء الذى لا مزيد عليه والسخاء الذى لا يلحق فيه وكان يهب الجزيل ولا يراه بل يرى الفضل لآخذه وكان دائم البشر والبشاشة لا يرد سائلا ولا يصد نائلا ولا يخجل قائلا ولا يخيب آملا ، سأل مرة بعض الأمراء عن تخلفه عن غزوة تخلف عنها فذكر دينا عليه فأحضر الغرماء وتحمل الدين عن ذلك الأمير وكان ذلك الدين اثنى عشر ألف دينار ، وكان كل مماليكه وخواصه وجميع أمرائه وأجناده يقتدون به فى أخلاقه وكرمه وحسن سجاياه فكانوا أعف من الزهاد وأكثر عبادة من العباد قال العماد الكاتب ورأى لى يوما دواة محلاة بشىء يسير من الفضة

وأنكرها فقلت له أن الإمام أبا محمد الجوينى ذكر وجها فى جواز مثل ذلك فقال لى لا تتبع الرخص فلم أكتب بها بعد ذلك وكان كثير الأوراد والأذكار وتلاوة القرآن وكانت أوقاته كلها مستغرقة بالعبادة علما وعملا وقلباً وقالباً هجر لذة الدنيا وزينتها وأخرج من قلبه محبتها وبهجتها فكان كالأسير فى هذه الدار لا يؤمل بفك الأسر عنه إلا فى دار القرار وكان لشدة حبه لسماع الحديث النبوى على قائله أفضل الصلاة والسلام يسمعها بين الصفين وسبب ذلك أنه قيل له إنك يامولانا سمعت الحديث فى جميع المواطن الشريفة إلا بين الصفين حين القتال فأحضر جزءاً من أجزاء الحديث وقرىء عليه هو وجنوده على ظهور الخيل بين الصفين يمشون تارة ويقفون أخرى والرؤوس تندر والرؤوس تقصر وواظب على ملازمة ذلك وتكراره فى كثير من مواقفه ، وكان ذلك من أسباب النصر العظيم والفتح المبين وكان رحمه الله شجاعاً من أعظم الشجعان قوى النفس والقلب شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر حتى كان يقابل بالجمع القليل الجيوش الكثيرة من الفرنج مع أن نجدتهم كانت أيضاً متواصلة وعساكرهم متواترة وهو مع ذلك لا يزداد إلا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل فى ليلة واحدة من الفرنج مايزيد على سبعين مركبا عند محاربة عكا وصار بعض أتباعه يعدون تلك المراكب من بعد العصر إلى غروب الشمس وكلها كانت مشحونة بعساكر الفرنج ويخبرونه بها ، وهو مع ذلك لا يزداد إلا قوة نفس وشجاعة وشهامة .قال القاضى ابن شداد ولما انعقد الصلح سألت بعض ملوك الفرنج وهو جالس بين يدى السلطان يوم انقطاع الصلح عن عدتهم فقال خمسمائة ألف قلت فكم هلك منكم فقال إما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فكثير لا نعلم عددهم وما رجع إلى بلادهم إلا القليل ، وكان رحمه الله إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخرق صفوف العساكر من الميمنة والميسرة ويأمرهم بالتقدم تارة والوقوف تارة فى مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاورهم ليدبر الأمر على ما يقتضيه الحال وكان رحمه الله له كمال المعرفة بتدبير الحرب ومكايده وما استعظم عدوه قط ولا استكثره لشدة توكله على الله تعالى وقوة وثوقه به وكان رحمه الله تعتريه أمراض فى أيام منازلته للعدو فكان شديد الصبر

ولا يخل المرض بشيء مما يلزمه واعتراه أيام محاربة عكا دماميل كثيرة من وسطه إلى ركبتيه بحيث أنه لا يستطيع الجلوس فكان لم يزل متكئاً على جنبيه وهو فى الخيمة وامتنع من الجلوس على الطعام مع من كان يجلس معهم لعجزه عن الجلوس ، فكان يأمر بالطعام أن يفرق بين الناس وهو مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى الظهر يطوف على الأطراف ويدبر أمر جيوشه صابراً على شدة الألم وقوة ضربان الدماميل فكانوا يتعجبون من شدة صبره فكان يقول لهم إذا ركبت يزول عنى ألمها حتى أنزل وهذه كرامة عظيمة أكرمه الله تعالى بها ، وكان رحمه الله إذا جاء الشتاء يعطى الجيش دستوراً فيتفرقون ويبقى هو فى طائفة يسيرة من جنده فى مقابلة العدو أكثر ممن معه بأضعاف مضاعفة ، وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الله شديد القيام على المبتدعة والفلاسفة لا تأخذه فى الله لومة لائم وكان حسن العشرة لطيف الأخلاق جميل المحاضرة طيب المفاكهة حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفا بسيرهم وأحوالهم عالما بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث أن محاضرة يستفيد منه مالا يسمعه من غيره ، ومن محاسن أخلاقه مع خدمه أنه طلب الماء مرة فلم يحضر وعاود الطلب فى مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر فقال يا أصحابنا قد قتلنى العطش فأحضر الماء فشربه ولم ينكر التوانى فى إحضاره . وكان مرة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت ، فلما برىء منه أدخل الحمام فكان الماء حاراً فطلب ماء بارد فأحضره الذى يخدمه فسقط من الماء شيء على الأرض . فناله منه شيء فتألم له لضعفه ، ثم طلب البارد أيضاً فأحضر فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك ، فلم يزد على أن قال للغلام إن كنت تريد قتلى فعرفنى فاعتذر إليه فسكت عنه ، ومن كرمه أنه أخرج فى مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر ويكفى دليلا على كرمه أنه لما مات لم يخلف فى خزانته غير دينار واحد صورى وأربعين درهما ناصرية مع أن أولاده الذين خلفهم كانوا سبعة عشر ولداً وبنتاً فلم يبال بكونه ولم يترك مالا يرثونه بعده ولا خلف داراً ولا عقاراً ولا ضيعة

ولا بستانا وذلك لشدة زهده فى الدنيا وقوة وثوقه بالله تعالى وتوكله عليه ، ولما انقضت دولة العبيديين بمصر واستولى هو على مصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع مايفوت الاحصاء ففرقه جميعه ولم يأخذ لنفسه شيئاً ومن تواضعه رحمه الله أنه لم يتكبر على أحد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين وكان يحضر عنده الفقراء الصوفية ويعمل لهم السماع المعروف عند الصوفية فإذا قام أحد منهم لتواجد يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ ذلك الفقير ولم يلبس قط شيء مما ينكره الشرع ولما مرض مرض الموت حضر عنده ليلة من تلك الليالى القاضى الفاضل وكان القاضى الفاضل أعظم وزرائه وحضر أيضاً بعض أولاده والعماد الكاتب قال العماد فأجلسناه وأسندنا ظهره إلى مخدة وأحضر ماء فاتراً ليشربه عقيبه شراب يلين الطبع فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدة حره فغير وعرض عليه ثانياً فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات سبحان الله لايمكن أحدا تعديل الماء ، قال العماد فخرجت أنا والقاضى الفاضل من عنده وقد اشتد منا البكاء لما شاهدناه من مرضه والقاضى الفاضل يقول أنظر إلى هذه الأخلاق التى قد أشرف المسلمون على مفارقتها والله لو أن هذا ببعض الناس كان ضرب بالقدح رأس من أحضره وكان رحمه الله له إمام راتب ملازم مواظب فإن غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم إذا عرفه متقياً متجنباً للإثم وكان يأخذ بالشرع ويعطى به ، ولم يكن إلى المنجم مصغيا ولم يزل لقوله ملغيا لايتعيف ولا يتطير ولا يتعين ولا يتحير بل إذا عزم توكل على الله فلا يفضل يوما على يوم ولا زمان على زمان إلا بتفضيل الشرع ومازال ناصراً للتوحيد وقامعا جميع أهل البدع بالتبديد شافعى المذهب أصولا وفروعاً معتقلا له معقولا ومسموعا يدنى أهل التنزيه ويقصى أهل التشبيه ويديم استفادة فقه الفقيه واستفادة نباهة النبيه ووجاهة الوجيه فالعالمون فى عدله والعالمون فى نصه والبلاد فى أمنه والعباد فى منه وكان رحمه الله حسن العقيدة ، وكان قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع معتقد أهل السنة والجماعة فحفظها ، وكان يحفظها الصغار من أولاده وكان من القائمين بالليل للتهجد وكان يحب سماع القرآن العظيم ويشترط على من يتخذه

لإماما أن يكون عالما بعلوم القرآن العظيم متقيا لحفظه وكان رحمه الله خاشع القلب سريع الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه وكان شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به لوحلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهما إلا فى الجهاد لصدق وبر فى يمينه ، ولقد هجر فى محبة الجهاد الأهل والأولاد والوطن والمسكن وسائر الملاذ وقنع من الدنيا فى ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ذات ريح وكادت تقتله لما وقعت عليه ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومسابرة ولهتماماً ومناقبه رحمه كثيرة قد أفردت بالتأليف اللهم اجعل مقره جنات النعيم وأقر عينه بالنظر إلى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين أجمع بيننا وبينه فى دار كرمك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهو مع ماجمع الله فيه من الصفات حسنة من حسنات السلطان محمود نور الدين بن زنكى فإن السلطان محمود نور الدين هو الذى أقامه حتى صار من الكاملين ومن عباد الله المقربين (وقد) تقدم الوعد بذكر ترجمة للسلطان نور الدين المذكور عند ذكر وفاته سنة خمسمائة وتسع وستين وترجمته واسعة أفردت بالتأليف ولنذكر نبذة منها لعلنا ننال ببركة السلطانين أنواع التشريف وقد تقدم أن السلطان نور الدين هو ابن عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر كان جده آق سنقر من مماليك السلطان ملك شاه السلجوقى ولاه الولايات الجليلة ثم بعده ابنه عماد الدين زنكى ولى كثيراً من الولايات وفتح أعظم الفتوحات ، ثم صار الأمر بعده لولده السلطان محمود نور الدين فكان له ولاية حلب والموصل وغيرهما من الممالك ففتح كثيراً من البلاد التى استولى عليها النصارى ، وبعث السلطان صلاح الدين إلى مصر فانتزعها من أيدى العبيديين ، فما ذكروه فى ترجمة السلطان نور الدين أنه كان عالما فقيهاً على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه عابداً ورعا زاهداً ، فمن زهده وورعه أنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فى الذى يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت إليه زوجته الضيق فأعطاها ثلاثة دكاكين فى حمص كانت له يحصل له منها فى السنة نحو عشرين ديناراً فاستقلتها فقال

ليس لى إلا هذا وجميع ما بيدى أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك وكان يصلى كثيراً بالليل وله فيه أوراد حسنة وكان كما قيل .

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه وسمع الحديث وأسمعه طلباً الأجر من الله تعالى ، وأما عدله فإنه لم يترك فى ممالكه على سعتها مكساً ولا عشوراً بل أبطلها جميعها فى مصر والشام والجزيرة والموصل وكان الولاة قبله قد جاروا فى ذلك غاية الجور حتى وصلوا إلى أنهم يأخذون فى المائة الخمسة وأربعين فأبطل ذلك كله فبارك الله له فى الغنائم وفتح له الفتوحات حتى انتزع هو والسلطان صلاح الدين كثيراً من الممالك الشامية وغيرها من أيدى النصارى ، وكانوا قد استولوا عليها قريباً من مائة سنة وقد تقدم بيان ذلك بالاختصار وكان رحمه الله يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها وله فى ذلك أخبار عجيبة فمن ذلك أن بعض رعيته ادعى عليه بدعوى غير صحيحة ولا ثابتة ، وشكاه على القاضى الذى أقامه هو لتنفيذ الأحكام الشرعية فاستدعاه القاضى فحضر مجلس الحكم ، وقال للقاضى إنى قد جئت محاكما فاسلك معى مثل ماتسلكه مع غيرى ، وساوى خصمه فى المجلس وحاكمه ، فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال أشهدوا أنى قد وهبت لخصمى هذا كل الذى حاكمنى فيه وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندى وإنما حضرت معه لئلا يظن أنى ظلمته فحيث ظهر أن الحق لى وهبته له ، وهذا غاية العدل والانصاف بل غاية الإحسان وهى درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق ، وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة ، وتفرق الكلمة وإلا فقد انقاد إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التى يعاقب بها الملوك فى هذه الأعصار على الظنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعد ، فدفع الله بهذا الفعل من الناس من الشر ما كان يوجد فى غير ولايته وكان للسلطان نور الدين شيخ يحبه ويعتقده يقال له الشيخ عمر الملا ولقب

بأمره بالملا لأن الشيخ عمر المذكور كان يملى تنانير الجص بأجرة يتقوت منها فكان لا يأكل إلا من كسب يده وذلك حلال وكان نازلا بالموصل ، وكان السلطان نور الدين يرسل إليه من حلب من يأتيه منه بشيء يفطر عليه فى رمضان يكون حلالا فكان الشيخ عمر الملا يرسل للسلطان نور الدين أكياساً فيها الفتيت والرقاق فكان نور الدين يفطر عليه وكان إذا قدم السلطان نور الدين الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر الملا ويقبل قوله ويعمل بإشاراته ويأمر عماله بالموصل والجزيرة أن يعملوا بقول الشيخ عمر ويقبلوا إشاراته لعلمه وصلاحه وديانته وورعه فاتفق أنه كثر الدعار وأرباب الفساد بالموصل والجزيرة فحضر العمال والنواب عند الشيخ عمر الملا وقالوا له أنه قد كثر الدعار وأرباب الفساد ولا يستقيم الأمر إلا بشيء من السياسة كالقتل والصلب وإذا أخذ مال إنسان فى البرية من يجيء يشهد له فلو كتبت إلى السلطان نور الدين أن يأذن لنا فى شيء من السياسة فوافقهم الشيخ عمر الملا ، وكتب للسلطان نور الدين يسأله فى أن يأذن لهم فى شيء من السياسة التى يمنع بها الدعار وأهل الفساد وقال إذا أخذ مال إنسان فى البرية من يجيء يشهد له فقلب السلطان نور الدين كتابه وكتب له على ظهره أن الله تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم وأن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه كامل فيها ولو علم أن الشريعة تحتاج إلى زيادة لإتمام المصلحة لشرعه فمالنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى ، فلما وصل الكتاب إلى الشيخ عمر الملا جمع أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال انظروا فى كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد فعرفوا أن ما قاله السلطان نور الدين هو الصواب وأن الصلاح إنما يكون بالعمل بالشريعة وكان السبب فى إسقاطه المكوسات أن وزيره موفق الدين خالد بن القيسرانى رأى فى منامه أنه يغسل ثيابه فقص ذلك عليه ففكر ساعة ، ثم أمر بكتابة أسقاط المكوسات وقال هذا تفسير منامك ، وكان فى تهجده يقول ارحم العشار المكاس وبعد أن أبطل ذلك طلب من الناس الذين أخذت منهم قبل ذلك أن يجعلوه فى حل وقال والله ما أخرجناه إلا فى جهاد عدو الإسلام يعتذر

بذلك إليهم عن أخذها منهم وكان رحمه الله لا يفعل شيئاً من الأعمال إلا بنية صالحة من ذلك أنه كان يخرج بالعساكر ويجرون الخيل فى صورة اللعب ويريد بذلك تمرين الخيل والعسكر على الكر والفر ، فكتب إليه الشيخ عمر ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة بينة فكتب إليه نور الدين والله يحملنى على ذلك اللهو واللعب وإنما نحن فى ثغر والعدو قريب منا وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب فى الطلب ولا يمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفاً إذ لابد من الراحة للجند ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على إدمان السير فى الطلب ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها فى الحرب فهذا والله الذى بعثنى على ذلك ، قال ابن الأثير فانظر إلى هذا الملك العظيم العديم النظير الذى قيل فيه أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله فإن من يجىء إلى اللعب بنية صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات يقل فى العالم مثله وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين بعلمهم وكان رحمه الله كثير المطالعة للكتب الدينية متبعا للآثار النبوية مواظبا على الصلوات فى الجماعات عاكفا على قراءة القرآن ، حريصا على فعل الخير عفيف البطن والفرج مقتصداً فى الإنفاق متحريا فى المطاعم والملابس لم تسمع منه كلمة فحش فى رضاه ولا فى ضجره وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها قال ابن الأثير قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى زمننا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه وإنعام يسديه، فلو كان فى أمة لافتخرت به ، أما زهده وعبادته وعلمه فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين وإذا أراد أخذ شىء من الأموال المرصدة لمصالح المسلمين أحضر الفقهاء واستفتاهم فى أخذ ما يحل له من ذلك فيأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده إلى غير ألبتة ولم يلبس قط

ماحرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة ومنع من شرب الخمر و بيعها فى جميع بلاده ومن إدخالها أى بلدة ما وكان يحد شاربها الحد الشرعى وكل الناس عنده فيه سواء ، وكان يصلى فيطيل الصلاة وله أوراد فى النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء ينام ويستيقظ نصف الليل و يقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر ويشتغل بمهام الدولة ومصالح المسلمين ، وأرسلت له زوجته تخبره بأن النفقة قلت عليها ولم يكفها ما كان قرره لها وطلبت منه الزيادة فتنكر واحمر وجهه وقال للرسول من أين أعطيها ما يكفيها والله لا أخوض النار فى هواها ، إن كانت تظن أن الذى بيدى من الأموال لى فبئس الظن إنما هى أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة للتنفق إن كان من عدو الإسلام وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها ، ثم قال للرسول لى بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها وكان يحصل منها قدر قليل وذلك نحو عشرين ديناراً ، وحكى أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يحضرها عنده فوصفت له فلم يلتفت إليها وبينما هم معه فى حديثها إذ جاءه رجل صوفى فأمر له بها فقيل إنها لا تصلح لهذا الرجل ولو أعطى غيرها كان أنفع له فقال أعطوها له ليبيعها وينتفع بثمنها فإنى أرجو أن أعوض عنها فى الآخرة فسلمت إلى ذلك الصوفى فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة وقيل باعها فى همذان بألف دينار ، وكان الملوك قبله فى الجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفا ولا ينكر منكراً حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه وألزم بذلك اتباعه وذويه فاقتدى به عماله ومن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة فإن قال قائل كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة وتجبى إليه الأموال الكثيرة فليذكر نبى الله سليمان عليه السلام فإنه مع ملكه كان سيد الزاهدين فى زمانه ونبينا صلى الله عليه وسلم قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق ، وهو على الحقيقة سيد الزاهدين من جميع العالمين و إنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا ، وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة وأعدلهم حكما ، فمن عدله أنه لم يترك فى بلد من بلاده ضريبة ولا مكسا ولا عشراً

بل أطلقها رحمه الله جميعها فى بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه ، وكان المكس فى مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً ، وهذا لم تتسع له نفس غيره ، وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان ، القوى والضعيف عنده فى الحق سواء ، وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك إلى حاجب ولا أمير ، فلا جرم إن سار ذكره فى شرق الأرض وغربها . ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول نحن مسخرون لها نمضى أوامرها ، حكى أنه دخل يوما إلى خزانة المال فرأى فيها مالا أنكره فسأل عنه فقيل له أن القاضى كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا فقال إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال فى هذه الجهة شىء وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده على صاحبه ، فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين فرده كمال الدين إلى الخزانة وقال إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عنى أنه له فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه فذكروا له قول كمال الدين فرد إليه وقال للرسول قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال وأما أنا فرقبتى رقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدى الله تعالى يعاد قولا واحداً ، ومن عدله أيضاً بعد موته وهو من أعجب ما يحكى أن إنسانا كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله تعالى فلما توفى تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكا فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكى وقد شق ثوبه وهو يقول يانور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق مالا يحصى وكلهم يبكى ويصيح ، فوصل الخبر إلى صلاح الدين فقيل له احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين والناس معه ، وطيب قلبه ، وأزاح ظلامته ، ووهبه شيئاً أنصفه فبكى أشد من بكائه الأول فقال له صلاح الدين لم تبكى قال أبكى على سلطان عدل فينا بعد موته فقال صلاح الدين : هذا هو الحق ، وكل ما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه

ومن عدل نور الدين رحمه الله أنه بنى داراً للكشف سماها دار العدل ، فكان يجلس فيها لفصل الخصومات فى الأسبوع يومين وعنده القاضى والفقهاء ، وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما فإنه أصبر الناس فى الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا ، وأجودهم بمعرفة بأمور الأجناد وأحوالهم ، وبه كان يضرب المثل فى ذلك ، وكان الناس يقولون أنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه كأنما خلق عليه لا يتحرك ولا يتزلزل وكان إذا حرق الحرب أخذ قوسين وترسين وباشر القتال بنفسه ، وكان يقول طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها ، سمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابورى الفقيه الشافعى وهو يقول ذلك فقال له : بالله لا تخاطر بنفسك والإسلام والمسلمين فإنك عمادهم ، ولئن أصبت والعياذ بالله تعالى فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، وأخذت البلاد فقال . ياقطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا قبلى من حفظ البلاد والإسلام ، ذلك الذى لا إله إلا هو ، وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى وأكثر ما ملكه من بلادهم بحسن تدبيره فى أعمال الحيل عليهم ومن جيد الرأى ما سلكه مع سليح بن ليون ملك الأرمن فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله فى خدمته سفراً وحضراً ، وكان يقاتل به الإفرنج وكان يقول إنما حملنى على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك وقلاعه منيعة وليس لنا طريق إليها هو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام فإذا طلب انحجز فيها فلا يقدر عليه ،فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج ولما توفى نور الدين وملك غيره وغير هذا الطريق ملك متولى الأرمن بعد سليح كثير من بلاد الإسلام وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه وكان رحمه الله يكرم العلماء ويكثر الإحسان إليهم ، ويبالغ فى تعظيمهم حتى أنه إذا أدخل عليه الفقيه أو الصوفى أو الفقير يقوم له ويمشى بين يديه ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه مع أنه كان له هيبة عظيمة فى قلوب الملوك والأمراء وما كان أحد من الأمراء يقدر أن يجلس فى مجلسه إلا بعد الإذن له فى ذلك ، وكان يكاتب العلماء بخط يده وينبسط معهم

ولا يرد لهم قولا وإذا أعطى أحداً من العلماء أو الفقراء شيئاً يقول إن هؤلاء لهم فى بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا ، وكان مجلسه كما روى فى صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس حكم وحياء لا تنتهك فيه الحرم ، ولا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة فى أمر الجهاد ، وقصد بلاد العدو لا يتعدى هذا وقد حضر الحافظ بن عساكر مجلس صلاح الدين لما ملك دمشق ، فرأى فيه من اللغو وسوء الأدب من الجالسين فيه مالا حد له فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين ، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدثين وقلة استماعه ، فقام وبقى مدة لا يحضر المجلس الصلاحى ، وتكرر من صلاح الدين الطلب له فحضر فعاتبه صلاح الدين على انقطاعه فقال : نزهت نفسى عن مجلسك فإنى رأيته كبعض مجالس السوقة لا يسمع فيه إلى قائل ولا يرد فيه جواب متكلم وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل كأنما على رؤسنا الطير تعلوه الهيبة والوقار ، فإذا تكلم أنصتنا ، وإذا تكلمنا استمع لنا فأمر صلاح الدين أصحابه أن لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ بن عساكر ، قال ابن الأثير فهكذا كانت أحواله جميعها رحمه الله تعالى منضبوطة محفوظة وأما حفظ أصول الديانات فإنه كان مراعياً لها لا يهملها ولا يمكن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحق ومتى أقدم مقدم على ذلك أدبه بما يناسب بدعته وكان يبالغ فى ذلك ويقول نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل ، وحكى أن إنسانا بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر النسك والزهد وقد كثر أتباعه وأظهر شيئاً من التشبيه فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه فطيف به فى البلد جميعه ونودى عليه هذا جزاء من أظهر فى الدين البدع ، ثم نفاه إلى حران فأقام بها إلى أن مات وكان لنور الدين رحمه الله مجالس يقرأ فيها كتب الحديث مع جماعة من العلماء ، فمر به يوماً أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفه وكان من عادة الجند أنهم يربطون سيوفهم بأوساطهم ، فلما سمع هذا الحديث أبطل ما كان عليه الجند وخرج من غد ذلك اليوم متقلداً سيفه فاقتدى به الجند وفعلوا

مثل ما فعله فهذا يدل على أنه لم يفرط فى الإقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم فى كل سنة تبلغه عنه وأمر رحمه الله بإسقاط ألقابه فى الدعاء له على المنبر وطلب من ابن القيسرانى أن يكتب له صورة ما ينبغى أن يدعى له به فكتب له إذا أراد الخطيب أن يدعو له يقول اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك الخاضع لهيبتك المعتصم بقوتك المجاهد فى سبيلك المرابط لأعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه مقصودى أن لا يكذب على المنبر أنا بخل بكل ما يقال لا أفرح بما لا أعمل وكتب فى آخر الرقعة ، ثم تبدأ بالدعاء اللهم أره الحق اللهم اسعده اللهم انصره اللهم وفقه من هذا الجنس، ودخل فى أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر ، فمات بها وخلف ولداً صغيراً ومالا كثيراً فكتب بعض من كان بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه مات تاجر موسر وخلف ولداً صغيراً وخلف عشرين ألف دينار وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة وينفق على الصغير شيئاً يسيراً ويمسك الباقى إلى الخزانة فكتب على رقعته ، أما الميت فرحمه الله وأما الولد فأنشأه الله وأما المال فثمرة الله وأما الساعى فلعنه الله وكفى السلطان نور الدين منقبة ما ذكره العلامة السيد السمهودى فى تاريخ المدينة المسمى خلاصة الوفا فى أخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم أن السلطان المذكور رأى النبى صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يقول له فى كل مرة يامحمود أنقذنى من هذين الشخصين وهما شخصان أشقران تجاهه فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر ذلك له فقال هذا أمر حدث بالمدينة النبوية ليس له غيرك فتجهز بمقدار ألف راحلة وما يتبعها وسار حتى دخل المدينة على حين غفلة من أهلها ثم أمر بكتابة أسماء الناس ليتصدق عليهم وتصدق بأموال كثيرة ولا يعطى كل إنسان إلا بيده لينظر إليه رجاء أن يرى الشخصين الأشقرين اللذين أراه إياهما النبى صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق أحد ولم يشاهد فيمن حضر عنده الشخصين الأشقرين فسأل هل بقى أحد فقالوا لم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان فى الرباط الذى فى قبلة حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فجدوا فى طلبهما حتى أحضروهما فلما رآهما قال لوزيرها هذان فسألهما عن حالهما

فقال جئنا للمجاورة فقال لهما أصدقانى وعاقبهما حتى أقرا أنهما من النصارى وأنهما وصلا لكى ينقلا من بالحجرة الشريفة باتفاق من ملوكهما ووجدهما قد حفرا الأرض من تحت حائط المسجد القبلى لجهة الحجرة الشريفة ويجعلان التراب فى بئر فى الرباط وقيل كانا يجعلان التراب فى محفظتيهما ويخرجان يلقيانه فى الخارج فضرب أعناقهما عند الشباك الذى هو فى شرقى الحجرة خارج المسجد ثم أحرقهما بالنار وحفر خندقا حوالى الحجرة الشريفة وسكب فيه الرصاص والنحاس المذاب واستحفظه غاية الاستحفاظ ، ثم ركب السلطان نور الدين راجعاً إلى الشام ، وكان السلطان محمود المذكور موصوفا بكثير من الصفات الحميدة وقد اتسع ملكه وخطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن ويذكرون اسمه بعد ذكر الخليفة العباسى والسلطان السلجوقى وترجمته واسعة قد أفردت بالتأليف ، وفى هذا القدر كفاية وإنما ذكرنا ترجمته وترجمة السلطان صلاح الدين لغرابة وجودهما فى الزمن الذى كثر فيه جور الملوك والسلاطين ليعلم أنهما فتحا البلاد وانتزعاها من النصارى بالعدل لا سيما فى بيت المال وليعلم أيضاً أن الخلفاء الراشدين إنما فتحوا البلاد بالعدل فى بيت المال ، وقد ذكر كثير من العلماء أن الدعاء مستجاب عند قبر السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين ، اللهم اجعل مقرهما جنات النعيم وأقر أعينهما بالنظر إلى وجهك الكريم يا أرحم الراحمين واجمع بيننا وبينهما فى دار كرامتك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين اهـ .

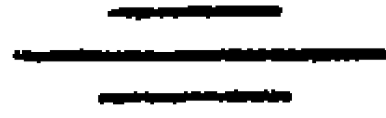
(ولنرجع) إلى تمام الكلام على ما كنا بصدده من ذكر الفتوحات فنقول: بعد وفاة السلطان صلاح الدين فقد وقع اختلاف كثير بين أولاده ليس هذا محل ذكره وصار ملكه مقسما بين أولاده وأخيه الملك العادل ثم تغلب أخوه عليهم فمنهم من انتزع الملك منه ومنهم من مات فى ملكه ثم صفا الأمر لأخيه فقسم الممالك بين أولاده كما سيأتى ذكره ولما مات صلاح الدين كان ملك مصر لولده العزيز عثمان فجدد الهدنة من الفرنج وزاد فى مدة الهدنة واستمر الأمر إلى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وكان الملك الأفضل على بن

صلاح الدين ملك دمشق بعد وفاة أبيه فانتزعها منه أخوه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وجعل فيها عمه الملك العادل وأعطى الأفضل صرخد وكان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامة فكان يرسل الشوانى تقطع الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك إلى الملك العادل أخى صلاح الدين وكان بدمشق ولى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا أسامة من ذلك فأرسل الفرنج إلى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون إن لم تنجدونا وإلا أخذ المسلمون البلاد فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة سنة ٥٩٣ وكان أكثرهم من ملك ألمان ، فلما سمع الملك العادل بذلك أرسل إلى الملك العزيز بمصر يطلب العساكر وكذا من بقية الأطراف واجتمعوا على عين جالوت فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال سنة ٥٩٣ ورحلوا إلى يافا وملكوا المدينة وامتنع بها من بالقلعة التى بها فخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهراً بالسيف وأخذوا كل من بها أسراً وسبياً ووصل الفرنج من عكا إلى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بما وقع فعادوا ، وعاد المسلمون إلى عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت ، فعزم المسلمون على تخريب بيروت فسار إليها الملك العادل بجمع من العسكر فهدموا سور المدينة سابع ذى الحجة سنة ٥٩٣ وشرعوا فى تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم أسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج من عكا إلى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا الفرنج بنواحى صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل وسار الفرنج سابع ذى الحجة سنة ٥٩٣ فوصلوا إلى بيروت ، فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة ، فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقى منها ، فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها ، وسافرت العساكر الإسلامية إلى صور فقطعوا أشجارها وخربوا مالها من قرى وأبراج ، فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت إلى صور وأقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين ، ثم أتاهم الخبر أن الفرنج يريدون أن يحصروا حصن تبنين ، فسير العادل إليه عسكراً يحمونه ورحل الفرنج من صور

ونازلوا تبنين أول صفر سنة ٥٩٤ أربع وتسعين وخمسمائة وقاتلوا من به وجدوا فى القتال ونقبوه من جهاتهم ، فلما علم العادل بذلك أرسل إلى الملك العزيز بمصر يطلب منه الحضور بنفسه فسار العزيز مجداً بمن معه من العساكر ، فلما سمع الفرنج بوصوله رحلوا إلى عكا وعاد العزيز إلى مصر وبقى العادل ، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج وانعقد بينهم صلح ، وعاد العادل إلى دمشق .

انتهى الجزء الأول من كتاب الفتوحات الإسلامية

ويليه الجزء الثانى



فهرس

الجزء الأول

من كتاب « الفتوحات الإسلامية »

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة
ذكر صلح أهل أرمينية وأذربيجان	١٤٤
« غزو معاوية الروم	١٤٦
« غزوة أفريقية	١٤٧
« غزوة كابل	١٤٧
« فتح أفريقية	١٤٧
« انتقاض أفريقية وفتحها ثانية	١٤٩
« غزوة الأندلس	١٥٠
« غزوة قنسرين	١٥٠
« فتح قبرص فى خلافة عثمان رضى الله عنه	١٥٠
« انتقاض أهل فارس	١٥١
« غزوة سعيد بن العاص طبرستان	١٥١
« غزوة الصوارى	١٥٢
« مقتل يزدجرد شهريار ملك الفرس	١٥٢
« مسير عبدالله بن عامر إلى خراسان وفتحها	١٥٣
« فتح كرمان	١٥٥
« فتح سجستان وكابل وغيرها	١٥٦
« غزوة مضيق القسطنطينية	١٥٧
« ذكر غزوة بلنجر	١٥٧
« خروج الترك مع ملكهم قارن	١٥٧
« غزوة حصن المرأة	١٥٨
« انتقاض أهل قبرص وغزوهم فى سنة ٣٣	١٥٨
« فتح رودس سنة ٣٥	١٥٩
« غزوة السند	١٦٠
« غزوة القسطنطينية	١٦١
« غزوة عقبة بن نافع بلاد السوس وكثير من وقائع أفريقية	١٦٤
« صلح عبد الملك بن مروان لملك الروم	١٦٩
« غزوة المهلب ماوراء النهر حين كان والياً على خراسان	١٧١
« تسيير الجنود إلى رتبيل مع عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث	١٧١
« فتح قالى‌قلا	١٧٨

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

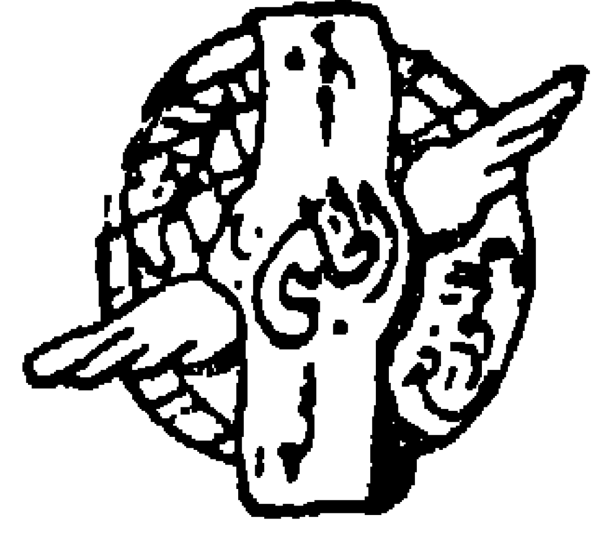
الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع | صفحة

الموضوع — صفحة

تم فهرس الجزء الأول



الفتوحات الإسلامية

بعد مضي الفتوحات النبوية

تأليف

السيد احمد بن زيني دحلان

مفتي مكة

الجزء الثاني

الناشر

مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع

١٤ جواد حسني ـ القاهرة

تليفون ٥٦١٥٥

١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م

مطبعة المدني
٦٨ شارع العباسية ـ عمارة النجدة

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ملك الفرنج القسطنطينية

فى سنة ستمائة ملك الفرنج مدينة القسطنطينية فى شعبان وانتزعوها من الروم وأزالوا ملك الروم عنها ، وكان سبب ذلك أن ملك الروم تزوج أخت ملك الفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج ، فرزق منها ولداً ذكراً ، وكان لملك الروم أخ فوثب الأخ على الملك فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه ، فهرب ولد الملك إلى خاله ملك فرنسيس مستنصراً به على عمه ، فاتفق ذلك وقد اجتمع ذلك كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام لاستنقاذ بيت المقدس فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصداً لإصلاح الحال بينه وبين عمه ، ولم يكن له طمع فى سوى ذلك ، فلما وصلوا خرج عمه فى عساكر الروم محاربا لهم فوقع القتال بينهم فى ذى القعدة سنة خمسمائة وتسعة وتسعون ، فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخل الفرنج معهم فهرب ملك الروم إلى أطراف البلاد . وقيل إن ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وإنما حصروه فيها ، وكان فى الروم من يريد الصبى فألقوا النار فى البلد ، فاشتغل الناس بذلك ففتحوا بابا من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك فى ذلك الصبى وليس له من الحكم شيء ، وأخرجوا أباه من السجن إنما الفرنج هم الحكام فى البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب وفضة وغير ذلك حتى ما على الصلبان وما هو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وما على الأناجيل من ذلك أيضا فعظم ذلك على الروم وتحملوا منه خطباً عظيماً فعمدوا إلى ذلك الصبى الذى تملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الأبواب واستحضروا الملك وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ستمائه فأقام الفرنج بظاهره محاصرين الروم ، وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلا ونهاراً وكان الروم قد ضعفوا ضعفاً كثيرا فأرسلوا

إلى السلطان زكى الدين السلجوقى صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد إلى ذلك سبيلا ، وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفاً ولعظم البلد لا يظهر أمرهم فتواطئوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحوا الأبواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالروم قتلا ونهبا ، فأصبح الروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئاً ، ودخل جماعة من أعيان الروم الكنيسة العظمى التى تدعى أياصوفيا فجاء الفرنج إليها فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسلون بها إلى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة ، وكان رؤساء الفرنج الذين ملكوا القسطنطينية ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفى مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية ، وكان شيخاً أعمى إذا ركب تقادفرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الأفرنسيس ، والثالث يقال له كندافلند وهو أكثرهم عددا ، فلما استولوا على القسطنطينية اقترعوا على الملك فخرجت القرعة على كندافلند فأعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتى ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، فلما خرجت القرعة ملكوه عليها وعلى ما يجاورها وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة أقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الأفرنسى البلاد التى هى فى الخليج مثل أزنيق ولزيق ، ولكن لم يحصل لأحد منهم شىء غير الذى أخذ القسطنطينية ، وأما الباقى فلم يسلم له من به من الروم بل دافعوا عما بأيديهم وبقى لهم ، وأما البلاد التى كانت لملك القسطنطينية شرق الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين السلجوقى ومن جملتها أزنيق فإنه تغلب عليها بطريق كبير من بطارقة الروم اسمه كسكرى وبقيت بيده ولم تزل القسطنطينية بأيدى الفرنج من هذا التاريخ إلى سنة ستين وستمائة ، فتجمع الروم وقصدوها وقاتلوا الفرنج وانتزعوها منهم وعادت لملكهم ، ولما ملك الفرنج القسطنطينية فى السنة المذكورة ، أعنى سنة ستمائة تقوى ملكهم بالشام فخرج كثير منهم من القسطنطينية فى البحر إلى الشام وأرسلوا بعكا ، وعزموا على قصد بيت المقدس حرسه الله ، فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا

كثيراً من بلاد الإسلام بنواحى الأردن وسبوا وفتكوا فى المسلمين ، وجاء أسطول منهلم إلى قوة من الديار المصرية فاستولوا عليها ونهبوها خمسة أيام وعساكر مصر فى مقابلتهم وبينهم النيل ليس لهم وصول إليهم لأنهم لم تكن لهم سفن ، وكان الملك العادل بدمشق ، فأرسل فى جمع العساكر من الشام ومصر فساروا ، ونزل بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على بعض الأطراف منها فأخذوا كل من بها ودام الأمر فى إغارات بينهم وبين المسلمين إلى أن انقضت السنة ودخلت سنة إحدى وستمائة ، فانعقد صلح بينهم وبين الملك العادل على أن دمشق وأعمالها وما بيد العادل من الشام يبقى له ونزل لهم عن كثير من المناصفات فى الرملة وغيرها ، وأعطاهم ناصرة وغيرها ، وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماه ، فلقيهم صاحبها ناصر الدين محمد بن تقى الدين بن أخى صلاح الدين شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم ، وكان فى قلة فهزموه إلى البلد فخرج العامة إلى قتال الفرنج فقتلوا منهم جماعة ، ثم عاد الفرنج إلى عكا بعد أن انعقد صلح بينهم وبين صاحب حماه . وفى سنة ثلاث وستمائة ملك غياث الدين السلجوقى انطالية باللام مدينة للروم على ساحل البحر وهى غير أنطاكية بالكاف وكان تملكه لها بعد قتال وحصار لأهلها ثم قتل من كان فيها من الفرنج .

ذكر غارات الفرنج بالشام وحصن الأكراد

فى سنة أربع وستمائة كثر الفرنج الذين بطرابلس الشام ، وأكثروا الإغارة على بلد حمص وولايتها ونازلوا مدينة حمص ، وكان جمعهم كثيراً ، فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركو قوة ولا قدرة على دفعهم ومنعهم ، فاستنجد بالملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وغيره من ملوك الشام ، فلم ينجده أحد إلا الظاهر غازى ، فإنه سير له عسكراً أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ، ثم أن الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا ، فحاصرها وغار على أطرافها ، فصالحه صاحبها

الفرنجى على قاعدة استقرت من إطلاق أسرى من المسلمين ، وخرج ذلك ، ثم سار إلى حمص ثم إلى طرابلس وحاصروا موضعاً منها يسمى القلعات ، ثم ملكه صلحاً وأطلق صاحبه وغنم ما فية من دواب وسلاح ، وخربه وتقدم إلى طرابلس ، فنهب وأحرق وسبى وغنم ، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج فى الصلح فلم يتم ودخل الشتاء ، فجعل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها ، وعاد إلى دمشق فشتى بها وكان سبب خروج الملك العادل من مصر بالعساكر أن أهل قبرص الفرنج أخذوا عدة قطع من أسطول مصر وأسروا من فيها ، فأرسل العادل إلى صاحب عكا فى رد ما أخذوه ويقال له نحن فى صلح فلم غدرتم بأصحابنا فاعتذر بأن أهل قبرص ليس لى عليهم حكم ، وأن مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم أن أهل قبرص ساروا إلى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم وتعذرت عليها الأقوات وعاد حكم قبرص إلى صاحب عكا فأعاد العادل مراسلته ، فلم ينفصل بينهما فسار بالعساكر وفعل بعكا ما ذكرنا فأجابه حينئذ صاحب عكا إلى ما طلب وأرسل الأسرى ثم لم تزل الوقائع تتوالى وتتتابع والصلح يتم تارة وينقطع أخرى إلى أن دخلت سنة أربع عشرة وستمائة فحصلت وقائع شتى .

ذكر ظهور الفرنج إلى الشام ومسيرهم إلى مصر

وملكهم دمياط

كان من أول هذه الحادثة إلى آخرها أربع سنين غير شهر وحاصلها أنه فى سنة أربع عشرة وستمائة وصلت أمداد الفرنج فى البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج فى الغرب والشمال إلا أن المتولى لها كان صاحب رومية البابا لأنه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لا يرون مخالفة أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم ، فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمى الفرنج وأمر كل ملك من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشا ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا ، وكان الملك العادل بن أيوب بمصر فسار منها إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى الدوبرز وسار الفرنج من عكا ليقصدوه فسار

العادل نحوهم فوصل إلى نابلس عازما على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلى عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه ، فنزل على بيسان من الأردن فتقدم الفرنج إليه فى شعبان عازمين على محاربته لعلمهم أنه فى قلة بالنسبة إليهم لأن عساكره كانت متفرقة فى البلاد ، فلما رأى الملك العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم فى الطائفة التى معه خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازماً كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل إلى البلاد فى تجمع العساكر فوصل إلى مرج الصفر فنزل فيه ، وكان أهل بيسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا فلم يفارقوا بلادهم ظنا منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه ، فلما أقدموا كان إقدامهم على غفلة من الناس فلم يقدر على النجاة إلا القليل فأخذ الفرنج كل ما فى بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا شيئاً كثيراً ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس وبثوا السرايا فى القرى فوصلت إلى خسفين ونوى وأطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ، ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبى والأسرى مالا يحصى كثرة سوى ما قتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما واستراحوا فيها، ثم جاءوا إلى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف ، وعادوا إلى عكا وكان هذا من نصف رمضان إلى العيد والذى سلم من تلك البلاد وكان مخفا قدر على النجاة ولما سار العادل إلى مرج الصفر رأى رجلا فى طريقه يحمل شيئا وهو يمشى تارة ويقعد تارة ويستريح فعدل العادل إليه وحده فقال له ياشيخ لاتعجل وارفق بنفسك فعرفه الرجل فقال ياسلطان المسلمين أنت لاتعجل فإنا إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الأعداء كيف لا نعجل قال ابن الأثير وبالجملة فالذى فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر ، ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق فى قطعة صالحة من الجيش إلى نابلس يمنع الفرنج عن بيت المقدس ولما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا ، وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهى قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل بناها عن

قريب فتقدموا إليها وحصروها وزحفوا إليها وصعدوا فى جبلها حتى وصلوا إلى سورها، وكادوا يملكونه فاتفق أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوك الفرنج فعادوا عن القلعة وتركوها وقصدوا عكا وكان مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوما ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ، ثم ساروا فى البحر إلى ديار مصر فتوجه الملك المعظم إلى قلعة الطور فخربها إلى أن ألحقها بالأرض لأنها قريبا من عكا يتعذر حفظها .

ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها

لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة فساروا فى البحر إلى دمياط ، فوصلوا فى صفر فأرسلوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل فإن بعض النيل يصب فى البحر المالح عند دمياط وقد بنى المسلمون فى النيل برجاً كبيراً منيعاً وجعل فيه سلاسل من حديد غلاظاً ومدوها فى النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد فى النيل إلى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لايقدر أحد على منعها من أقاصى ديار مصر وأدانيها ، فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سوراً وجعلوا خندقاً يمنعهم ممن يريدهم وشرعوا فى قتال من بدمياط وعملوا آلات وأبراجاً يزحفون بها من المراكب إلى هذا البرج الذى للمسلمين فى النيل ليقاتلوا من فيه ويملكوه وكان البرج مشحوناً بالرجال وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهوصاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدو من العبور إلى أرضها وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ، فلم يظفروا منهم بشىء وكسرت آلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ، ثم بعد ذلك ملكوا البرج ، فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل بهم مراكبهم من البحر المالح فى النيل ويتحكموا فى البر فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ، ثم أنهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً متتابعاً

حتى قطعوه ، فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وحرقها وغرقها فى النيل فمنعت المراكب من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجاً هناك يعرف بالأزرق وكان النيل يجرى عليه قديماً فحفروا ذلك الخليج وعمقوه وأجروا الماء فيه إلى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال لها بورة على أرض الجيزة أيضاً مقابل المنزلة التى كان فيها الملك ليقاتلوه فإنهم لم يكن لهم طريق يقاتلونه فيها وكانت دمياط يحجز بينهم وبينه، فلما صاروا فى بورة حاذوه ، فقاتلوه فى الماء وزحفوا عليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شىء لأن الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون ولا يصل إليهم أذى وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل أن الملك العادل ولد الملك الكامل توفى بالشام فى جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة ، فلما جاء خبر وفاته لابنه الملك الكامل ضعفت نفوس الناس لأن الملك العادل هو السلطان فى الحقيقة وأولاده وإن كانوا ملوكا إلا أنهم تحت حكمه والأمر إليه وهو الذى ملكهم البلاد فاتفق مدته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عمادالدين أحمد بن على ويعرف بابن المشطوب وهو من الأكراد الهكارية وهو أكبر أمير بمصر وله لفيف كثير وجميع الأمراء ينقادون له ويطيعونه ولاسيما الأكراد ، فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء أن يخلعوا الملك الكامل من الملك ويملكوا أخاه الملك الفائز بن العادل ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر الملك الكامل ففارق المنزلة ليلا مع بعض أصحابه ، وسار إلى قرية يقال لها أشمون طناح فنزل عندها فأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل إنسان منهم هواه ولم يقف الأخ على أخيه ولم يقدروا على أخذ شىء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير الذى يخف حمله وتركوا الباقى بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل ، وأما الفرنج فإنهم أصبحوا من الغد فلم يروا أحداً من المسلمين على شاطىء النيل كجارى عادتهم فبقوا لا يدرون ما الخبر وإذ قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته ، فعبروا حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين بغير منازع

ولا ممانع وكان عبورهم فى العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة فندموا مافى عسكر المسلمين فكان عظيما يعجز العادين ، وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لأنه لم يثق بأحد من عسكره ، وكان الفرنج قد ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة فاتفق من لطف الله بالمسلمين أن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس وابن الملك العادل بعد هذه الحركة بيومين وصل إلى أخيه الكامل والناس فى أمر مريج فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه ، وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام فاتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر ابن الملك العادل ولم يمهل الله تعالى ابن المشطوب بل أخذه أخذة رابية فإنه بعد اتصاله بالملك الأشرف والتحاقه بجنده وقعت منه خيانة فقبض عليه وحبسه الى أن مات ، ولما عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق ، وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شىء على أهل دمياط إنها لم يكن بها من العسكر أحد لأن السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها ، فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر ، وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها براً وبحراً وعملوا عليها خندقا يمنعهم ممن يريد من المسلمين ، وكانت هذه عادتهم وأداموا القتال واشتد الأمر على أهلها وتعذرت عليهم الأقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ومع هذا صبروا صبراً لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض ودام الحصار عليهم نحو ثمانية أشهر من أواخر ذى القعدة إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من بقى من أهلها عن الحفظ لقلتهم ، وتعذر القوت عندهم فسلموا البلد من هذا التاريخ بالأمان فخرج منهم قوم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيادى سبا .

ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج

لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا السرايا فى كل ما جاورهم من البلاد ينهبون

ويقتلون فجلا أهلها عنها وشرع الفرنج فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى أنها بقيت لا تـكاد ترام ، وأما الملك الـكامل فإنه أقام بالقرب منهم فى أطراف بلاده يحميها ، ولما سمع الفرنج فى بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق إلى الشام فخرب بيت المقدس فى ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة ، وإنما فعل ذلك لأن الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الإسلام وكافة أهله وبلاده على خطة الخسف فى شرق الأرض وغربها لأن التتر أقبلوا من المشرق حتى وصلوا إلى نواحى العراق وأذربيجان وإيران وغيرها ، وأقبل الفرنج من الغرب فملـكوها مثل دمياط فى الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على أن تملك وخافهم الناس كافة ، وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء ، وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو ولات حين مناص والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ولو مكنهم الملك الـكامل من الجلاء لتركوا البلاد خاوية على عروشها ، وإنما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الـكامل كتبه إلى أخويه الملك المعظم صاحب دمشق والملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وديار بكر يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فإن لم يمـكن فيرسلان العساكر إليه ، فسار الملك المعظم بنفسه إلى الملك الأشرف فرآه مشغولا بمادهمه من اختلاف الـكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن يطيعه فعذره وعاد عنه وبقى الأمر كذلك مع الفرنج إلى سنة ثمان عشرة وستمائة ثم أن الملك الأشرف زال عنه الخلاف ورجع الملوك الخارجون عن طاعته إليه واستقامت له الأمور والملك الـكامل مقابل الفرنج ، فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة علم الملك الـكامل بزوال المانع للأشراف عن إنجاده ، فأرسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق فسار الملك الأشرف بعساكره إلى دمشق ثم سار إلى مصر وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الـكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من النيل يسمونه بحر اشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجراخ إلى عسكر المسلمين وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملـكون الديار المصرية ، فلما سمع الملك الـكامل بقرب أخيه الملك الأشرف فرح

بذلك فلما وصل إلى مصر توجه إليه فلقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصراً وظفراً وأما الملك المعظم صاحب دمشق فأنه سار إلى دمياط ظنا منه أن أخويه وعسكريهما قد نازلوا دمياط وقيل بل أخبر فى الطريق أن الفرنج قد توجهوا إلى دمياط فسابقهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخوه من خلفهم ، ولما اجتمع الأشرف بالكامل استقر الأمر بينهما على التقدم إلى الخليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنج ، وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا شوانى الفرنج فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الأموال والسلاح ، ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم والرسل مترددة بينهم وبين الفرنج فى تقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين ماعدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب بيت المقدس ليعمروه بها ، فلم يتم بينهم أمر وقالوا لابد من الكرك فبينما الأمر فى هذا وهم يمتنعون فاضطر المسلمون إلى قتالهم ، وكان الفرنج لاقتدارهم فى نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ظنا منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم ولا تقدر على مقابلتهم وأن القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لأمر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التى عليها الفرنج ففجروا النيل وخرقوا مواضع منه حتى خرج منه ماء كثير وسال كالبحر ، فركب الماء أكثر تلك الأرض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق فنصب الملك الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشمون وعبر العساكر عليها فملك الطريق الذى يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط ، فلم يبق لهم خلاص واتفق فى تلك الحال أنه وصل إليهم مركب كبيرة للفرنج من أعظم المراكب وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون إليه فوقع عليه شوانى المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمركب المذكور وما معه من الحراقات وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى

أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا الصواب بمفارقتهم دمياط فى أرض يجهلونها هـذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف على المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود إلى دمياط فرأوا ما أملوه بعيد أو حيل بينهم وبين مايشتهون لكثرة الوحال والمياه حولهم والوجه الذى يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون ، فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وأن ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وأن المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة إذ أقبل جيش كبير له وهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا ، وإذا هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل إليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط كما تقدم فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والإيمان سابع رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة وانتقل ملوك الفرنج وكندودهم وقامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن على تسليم دمياط وكان أولئك الملوك الذين صاروا رهائن كثيرين منهم فليب ملك الفرنسيس ونائب بابا صاحب رومية وملك عكا وكندريش وغيرهم وأرسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط فى تسليمها ، فلم يمتنع من بها وسلموها إلى المسلمين تاسع رجب المذكور ، وكان يوماً مشهوداً ومن العجب أن المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة فى البحر فلو سبقوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليمها ، ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمراً كان مفعولا ومما اتفق أنه لما انعقد الصلح وحضر ملك الفرنسيس وملوك الفرنج عند الملك الكامل محمد وكان فى مجلس الكامل أخواه الملك المعظم عيسى والملك الأشرف موسى وكثير من ملوك الإسلام قام راجح الحلى وأنشد قصيدة بليغة تهنئة للملك الكامل محمد وفيها بيت ظريف وهو قوله :

أعباد عيسى إن عيسى وحزبه ... وموسى جميعا يخدمون محمدا

وأشار إلى الملك المعظم عيسى والملك الأشرف موسى والملك الكامل محمد ولما أراد ملوك الفرنج الحضور عند الملك الكامل طلبوا منه رهينة تكون عندهم فأرسل لهم ولده الملك الصالح أيوب وعمره خمس عشرة سنة ، ثم لما تم الصلح وتسلم المسلمون دمياط ارتحل ملك الفرنسيس فيليب ومن معه من الملوك إلى بلادهم وكانت مدة ملك فيليب على الفرنسيس ثلاثاً وأربعين سنة وهلك سنة ستمائة وعشرين هجرية ، ولما دخل المسلمون دمياط رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصيناً عظيما بحيث لا ترام ولا يوصل إليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه ورده إلى أربابه وأعطى المسلمون ظفراً لم يكن فى حسابهم فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التى بالشام ليعيدوا لهم دمياط فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد التى بالشام بأيديهم على حالها فالله تعالى هو المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو وكفاهم أيضاً شر التتر كما سيأتى .

ذكر وفاة الملك العادل التى تقدمت الإشارة إليها

قد تقدم أن الفرنج لما دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ، ساروا فى البحر إلى دمياط ووصلوها فى صفر وكان الملك العادل بالشام فى مرج الصفر ، ثم انتقل إلى عالقين ومرض وتوفى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ونقل إلى دمشق ودفن بها وكان ابنه الملك الكامل أمامه هو ملكا فى مصر نيابة عنه وكان وقت وفاة أبيه مشتغلا بقتال الفرنج النازلين على دمياط كما تقدم ، وكان عمر الملك العادل لما توفى خمساً وسبعين سنة لأن ولادته كانت سنة أربعين وخمسمائة وقيل ثمانية وثلاثين وخمسمائة ، وكان ملكا عظيماً ذا رأى ومعرفة تامة قد حكته التجارب حسن السيرة جميل الطوية وافر العقل حازماً للأمور صالحا محافظا على الصلوات فى أوقاتها متبعا لأرباب السنة مائلا إلى العلماء حتى صنف له فخر الدين الرازى كتاب تأسيس التقديس ، وذكر اسمه فى خطبته وسيره إليه من بلاد خراسان ، وكان الملك العادل فى حياة أخيه صلاح الدين تابعا له

تحت طاعته ينقله فى الولايات وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ وقع بينه وبين أولاده أخيه صلاح الدين أمور يطول الكلام بذكرها إلى أن استقل بمملكة الديار المصرية والشامية ، وكان استقلاله بمملكة الديار المصرية سنة ست وتسعين وخمسمائة واستقلاله بمملكة الديار الشامية سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وملك بلاد اليمن سنة اثنتى عشرة وستمائة ، وسير إليها ولد ولده الملك المسعود ابن الملك الكامل ثم أن الملك العادل لما انتزع الملك من أولاد أخيه صلاح الدين واستقل به قسم ممالكه بين أولاده وكان رجلا مسعوداً ، وكذا أولاده ولم يخلف أحد من الملوك أمثالهم فى نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم ودانت لهم العباد وملكوا خيار البلاد وكان يتردد بينهم وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى ، وكان بالغالب يصيف بالشام لأجل الفواكه والثلج والمياه الباردة ويشتى فى الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد وعاش فى أرغد عيش ، وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد حتى يقال كما فى تاريخ ابن خلكان إنه كان يأكل وحده خروفا لطيفا مشويا وخلف ستة عشر ولداً ذكراً غير البنات رحمه الله تعالى .

ذكر خروج الفرنج إلى الشام وعمارة صيدا

وتملكهم بيت المقدس

لما توفى الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس ابن الملك العادل طمع الفرنج فى الشام وكانت وفاة الملك المعظم سنة أربع وعشرين وستمائة فى ذى القعدة وصار ملك دمشق لولده الناصر داود ، ثم انتزعها منه عمه الكامل وأعطاه الكرك بدلا عن دمشق وبعد وفاة الملك المعظم خرج كثير من الفرنج من بلادهم القاصية إلى بلادهم التى ملكوها فى الشام عكاوصوروغيرهما ، فكثر جمعهم وكان معهم امبراطور الألمان واسمه فرديك وقيل بل هوصاحب جزيرة صقلية ومعنى الإمبراطور بلغة الفرنج ملك الأمراء فاستولوا على صيداً وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين فملكوها وعمروا سورها وكان خراباً وأزالوا عنها حكم

المسلمين فعظمت شوكتهم وقوى طمعهم واستولى فى طريقه على جزيرة قبرص وكانت عند ملك انكلترا ، ولما بلغ الملك الكامل أنهم يقصدون دمشق وبيت المقدس خرج بعساكره من مصر وترددت الرسل بينه وبين الامبراطور واستقرت القاعدة بينهما على الصلح أن المسلمين يسلمون الفرنج بيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من أعماله ويكون باقى البلاد للمسلمين مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية ، وكان سور بيت المقدس قد خربه الملك المعظم كما تقدم ، فلما تسلم الفرنج بيت المقدس شرط عليهم عدم عمارة السور واستعظم المسلمون تملك الفرنج بيت وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه وكان تسلمهم إياه سنة ست وعشرين وستمائة ، وفى سنة ثمان وعشرين وستمائة انتهى تاريخ ابن الأثير المسمى بالكامل ، وتوفى مؤلفه سنة ثلاثين ببلاده الموصل ، وفى سنة ثمان وعشرين أيضا قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة وهى من المدن المضافة إلى حلب ودخلوا إليها ، وكانت حلب بيد شهاب الدين الأتابك تابع الملك العزيز بن الظاهر غازى بن صلاح الدين وكان شهاب الدين الأتابك مملوكا للسلطان الظاهر غازى ، فلما بلغه دخول الفرنج مدينة جبلة سير إليهم العساكر فقاتلوا الفرنج وقتل كثيراً منهم وأخرجهم واسترد الأسرى والغنيمة ، وفى سنة ٦٣٤ أغار الفرنج على ربض ديرسال وهى لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر فيهم القتل والأسر وعاد عسكر حلب بالأسرى ورؤوس الفرنج وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع . وفى سنة ٣٥ توفى الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف موسى وكثر الاختلاف بين أولاد الملك الكامل وليس هذا محل ذكره ، وكان الملك الكامل من أعظم الملوك وله مشاركة فى العلوم وملك مصر أربعين سنة عشرين نيابة عن أبيه وعشرين استقلالاً وتوفى وعمره ستون سنة .

ذكر استرجاع بيت المقدس للمسلمين

فى سنة ٦٣٧ قصد الناصر داود بن الملك المعظم القدس وحاصرها وفتحها وكان الناصر

داود بن الملك المعظم له ملك الكرك أعطاه إياه عمه الملك الكامل بعد أن انتزع منه دمشق كما تقدم ، فصار بيت المقدس له أيضاً لما فتحه وتقدم أن تسليم بيت المقدس للافرنج كان سنة ست وعشرين فتكون مدة بقائه تحت أيديهم إلى أن استرجعه الناصر داود إحدى عشر سنة ، ومن غريب الاتفاق أن الناصر صلاح الدين استخلص بيت المقدس أولا والناصر داود استخلصه ثانياً ولذلك قال جمال الدين بن مطروح :

المسجد الأقصى له آية سارت فسارت مثلا ثائرا
إذ قد غدا للكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا وناصر طهره آخر

وفى سنة اثنتين وأربعين وقع اختلاف بين صاحب دمشق وهو الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل وبين ابن أخيه صاحب مصر وهو الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل وأدى ذلك الاختلاف إلى القتال ، فلما كان القتال بينهما استعان صاحب دمشق بالفرنج الذين فى عكا ووعدهم بجزء من بلاد مصر فخرجت الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا بعسكر دمشق ، ووصل لقتالهم عسكر مصر مع ركن الدين بيبرس مملوك الملك الصالح أيوب والتقى الفريقان بظاهر غزة ، فانهزم الفرنج وعسكر دمشق واستولى الملك الصالح أيوب على غزة والسواحل وبيت المقدس انتزعه من الناصر دواد ووصلت الأسرى والرؤوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام ، ثم استولى الملك الصالح أيوب على دمشق سنة ثلاث وأربعين وستمائة وانتزعها من عمه الصالح إسماعيل ابن الملك العادل ، وفى سنة خمس وأربعين وستمائة فتح الملك الصالح عسقلان وطبرية بعسكر جهزه مع فخر الدين بن الشيخ وقد كان تسليمها للفرنج سنة إحدى وأربعين وستمائة استمرتا إلى الآن ففتحتا .

ذكر ملك الفرنج دمياط مرة أخرى غير المرة السابقة

فى سنة ٦٤٧ سار لويز ملك الفرنسيس فى خمسين ألفاً وقصد دمياط وحاصرها ، ثم ملكها فى شهر صفر وكان ذلك فى مدة سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك

الكامل فركب فى عصائب المسلمين لقتالهم فحاصرهم واستمر محاصراً لهم إلى أن توفى فى شعبان ، وكان ولده توران شاه غائباً بحصن كيفا فقام بالأمر شجرة الدر زوجة أبيه الملك الصالح إلى أن حضر ابنه توران شاه . فقام مقام أبيه ، وتقدم الفرنج عن دمياط إلى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين فى مستهل رمضان وقعة عظيمة ثم نزل الفرنج شرمساح ، ثم قربوا من المسلمين ، ثم كبسوا المسلمين على المنصورة ثم اشتد القتال بينهم وبين المسلمين براً وبحراً ، فكان النصر أخيراً للمسلمين بعد أن كان أولا للفرنج ، وكانت لهم مراكب كثيرة بالبحر ، وفى حسن المحاضرة للجلال السيوطى أن الشيخ عزالدين ابن عبد السلام كان مع عسكر المسلمين فقال بأعلى صوته مشيراً إلى الريح ياريح خذيهم فجاءت ريح قوية على مراكب الفرنج فكسرتها وحصل الفتح والنصر للمسلمين ، وغرق أكثر الفرنج وصرخ صارخ فى المسلمين قائل الحمد لله الذى أرانا فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم رجلا سخر الله له الريح ، وحمل المسلمون على الفرنج فردوهم على أعقابهم وأخذ المسلمون من مراكبهم ٣٢ مركباً منها ٩ شوانى فضعف الفرنج لذلك وأرسلوا يطلبون القدس وبعض السواحل الشامية ، ويتركون دمياط فلم تقع الإجابة إلى ذلك وكانوا قد فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم ، فلم يبق لهم صبر على المقام فرحلوا متوجهين إلى دمياط فركب المسلمون أكتافهم وبذلوا فيهم السلب فلم يسلم منهم إلا القليل وبلغت عدة القتلى ٣٠ ألفاً وانحاز ملكهم ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ، ثم أحيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة وقيد ملكهم وأركب على جمل وطيف به ثم حبس فى دار ابن لقمان ووكل به الطواشى صبيح ثم انعقد الصلح معه على تسليم دمياط وأن يطلق ويدفع ثمانمائة ألف دينار ، وقيل إنه افتدى نفسه بقناطير من الذهب تبلغ ٧ ملايين فرنك فأطلق ورجع إلى بلاده ، فلما وصلها أخذ فى الاستعداد ونودى الرجوع لحرب المسلمين فندم المسلمون على إطلاقه فأنشأ جمال الدين بن مطروح قصيدة كتبت ، وأرسلت إليه وأنشدها القاصد بين يديه وهو قائم منها قوله :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق عن قوْل نصيح
أتيت مصراً تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر ياطبل ريح
وكل أصحابك أوردتهم ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم ... غير قتيل أو أسير جريح
وقل لهم اضمروا عودة ... لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشى صبيح

فلما سمع المقالة دلت نفسه ونأى عن العودة إلى مصر ثم أراد أن يأخذ ثأره من تونس لأمر جرى بينه وبين ملكها وهو أبو عبد الله محمد بن أبى زكريا الحفصى الملقب بالمستنصر بالله (وحاصل) ما كان بينه وبين ملك الفرنسيس المذكور أنه جرى ذكره يوما عند المستنصر فهضم من جانبه وقال هو الذى أسره هؤلاء وأطلقوه ، وأشار إلى بعض الأتراك الذين كانوا يخدمون بين يديه ، وكان قد استخدم منهم جماعة فبلغت مقالة المستنصر ملك الفرنسيس فحقد عليه وتجهز بجنوده يريد أخذ تونس وذلك سنة ٦٦٨ فسار ومعه ٣٠ ألفاً وأساطيله ٣٠٠ بين كبار وصغار وحاصر تونس ستة أشهر فقال بعض أدباء تونس :

يافرنسيس هذه أخت مصر ... فتهيأ لما إليه يصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر ... وطواشيك منكر ونكير

فقدر الله هلاك ملك الفرنسيس وهو محاصر تونس ، قيل أصابه سهم فقتله وقيل أصابه مرض الوباء فقتله وذلك سنة ٦٦٩ وهلك كثير من جنده بالوباء وتملك بعده ابنه فعقد صلحاً مع أهل تونس وارتحل عنهم وكفى الله شرهم ، وذكرنا قصة تونس قبل مجىء الموضع الذى ينبغى أن نذكر فيه أعنى سنة تسع وستين لتتصل هذه القصة بالقصة السابقة لما بينهما من التناسب .

ذكر خروج التتر وتملكهم بغداد وانقراض

الدوله العباسية من بغداد

قال ابن خلدون أن التتر من شعوب الترك وأن الترك كلهم من ولد كومر بن يافث ابن نوح عليه السلام ومساكنهم بلاد الصين مما وراء نهر سيحون وهم أمم كثيرة وسيحون نهر مما وراء النهر قريب خجند بعد سمرقند وهو فى حدود بلاد الترك ويطلق أيضاً على نهر الهند وأما جيحون فهو نهر خوارزم وجيحان نهر الشام ، وفى سنة ست وخمسين وستمائة ، كان استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية (وينبغى قبل ذلك) أن نذكر ابتداء أمر التتر وكيف كان خروجهم على أهل الإسلام ، وذكر كثير من المؤرخين أن حادثة التتر حادثة عظمى ومهيبة كبرى عمت الخلائق وخصت المسلمين بشدة بلائها فلو قال أن العالم منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى وقت خروج التتر لم يبتل بمثلها لصدق فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها ومن أعظم مايذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج ، وأما الدجال فإنه يبقى من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا أحداً بل قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام والنساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح فإن قوما خرجوا من أطراف الصين وعبروا نهر سيحون فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاسغون ، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما سنذكره ، ثم تعبر منهم طائفة إلى خراسان فيفرغون منها ملكا وقتلا وتخريبا ونهبا ثم يتجاوزونها إلى الرى

بهمذان وبلد الجبل ومافيه من البلاد إلى حد العراق ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرمينية وغيرهما ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج إلا الشريد النادر فى أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله ، ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرمينية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها إلى بلاد اللادن واللزك ومن كان هنالك من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريباً ، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا إلا بقدر مسيرهم لاغير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسيجان وكرامان ففعلوا فيها مثل مافعل هؤلاء وأشد هذا مالم يطرق الأسماع مثله فإن الاسكندر الذى اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة وإنما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتله أحد إنما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة فى نحو سنة ولم يبت أحد من أهل البلاد التى يطرقونها إلا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه ، ثم أنهم لايحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم بل كان معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير وأما دوابهم التى يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لاتعرف الشعير فهم إذا نزلوا منزلا لايحتاجون شيء من خارج ، وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولا يحرمون شيئاً فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير والحشرات وبنى آدم ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فإذا جاء الولد لا يعرف أباه ولقد بلى الإسلام والمسلمون فى مدتهم بمصائب لم يبل بها أحد من الأمم فهؤلاء التتر قبحهم الله أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها ، وكانوا كلما ملكوا مدينة قتلوا العلماء والصلحاء والزهاد والعباد والخواص والعوام وخربوا الجوامع وأحرقوا المصاحف وفعلوا أشياء لم يسمع بمثلها وفى مدتهم أيضا كان خروج الفرنج لعنهم

الله من المغرب إلى الشام ، ثم قصدوا ديار مصر وانتشرت الفتن فى ممالك الإسلام فإنا لله وإنا إليه راجعون، قال ابن الأثير نسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين نصراً من عنده فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم قال تعالى ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُم مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ وهؤلاء التتر نوع من الترك ومساكنهم كانت جبال طمغاج من جبال الصين وبينها وبين بلاد الإسلام مايزيد على ستة أشهر ومملكة الصين متسعة دورها ستة أشهر وهى منقسمة ستة أجزاء كل جزء مسيرة شهر وعلى كل جزء ملك يقال له عندهم خان وواحد منهم رئيس على الجميع ، ولما انتهت الرياسة إلى واحد منهم يقال له جنكزخان كان ابتداء خروجهم على بلاد الإسلام ذلك سنة ست عشرة وستمائة فى خلافة الناصر لدين الله العباسى بن المستضىء بأمر الله بن المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله بن المستظهر بالله بن المقتدى بأمر الله بن القائم بأمر الله بن القادر بالله بن إسحاق بن المعتضد ، وكانت مدة خلافة الناصر ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر لأنه كانت ولايته الخلافة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ووفاته سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، فكان أكثر فتنة التتر فى مدته وكان سبب خروجهم أن ملكا من ملوك الإسلام كان مالكا لخراسان وما وراء النهر يقال له خوارزم شاه كان بينه وبينهم فتنة فاقتتلوا معه واتسع أمرهم حتى كان منهم ما كان ، وكان خوارزم شاه منتسباً إلى شخص يقال له أنوش تكين وهو مملوك لبعض أمراء السلجوقية وكان حسن الطريقة فترقى إلى أن صار مقدما مرجوعا إليه فولد له ابن يقال له محمد خوارزم شاه وانتشأ عارفا أديبا واشتهر عنه العقل وحسن التدبير ، فقدر الله أن وقعت فتنة فى خوارزم سنة أربعمائة وتسعين ، وقتل أمير خوارزم وكانت تحت حكم السلاطين السلجوقية والخلفاء العباسية فولوا ملك خوارزم لمحمد خوارزم شاه بن أنوشتكين ، ثم توارث الملك بنوه واتسع ملكهم وعظم أمرهم وصار كل ملك منهم يقال له خوارزم شاه ولم يزل ملكهم يقوى ويتسع حتى تغلبوا على الممالك وصار ملكهم من حد العراق إلى تركستان وملكوا خراسان جميعه وغزنة وكابل وبعض الهند وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبل وبعض فارس فلم يزالوا يتوارثون الملك إلى سنة

خمسمائة وست وتسعين ، فكان الملك منهم فى التاريخ المذكور لمحمد خوارزم شاه بن أنوشتكين بن أرسلان بن أطسن بن محمد خوارزم شاه بن أنوشتكين ، فاتسع ملكه غاية الاتساع حتى صار يتطلب تملك بغداد ، قال الجلال السيوطى فى تاريخ الخلفاء فى وصف خوارزم شاه المذكور أنه أباد الملوك وأخذ الممالك وعزم على قصد الخليفة ، فلم يتهيأ له مدة وكان خوارزم شاه قسم ممالكه بين أولاده وكانوا أربعة وضرب لكل منهم نوبة مثل نوبته وكان تحته سبع وعشرون ملكا تضرب نوبة لكل واحد منهم فى أوقات الصلوات وانفرد هو بنوبة فى القرنين تضرب وقت طلوع الشمس وغروبها وكانت سبعاً وعشرين دبداية والدبداب هو الطبل الكبير ، وكانت هذه السبع والعشرون من الذهب مرصعة بأنواع الجواهر ، فلما انتهى أمر ملكه إلى هذا الحد احتقر أمر التتر سكان الصين وصار يغازيهم ويغير على بلادهم وهم أيضا يغازونه ويغيرون على بلاده ثم انعقد صلح بينهم وبينه ومهادنة وصار تجارهم يأتون إلى بلاده ، ثم أن عامل خوارزم شاه على آخر مملكته مما يليهم كانت له قوة ومعه عشرون ألف فارس ، وكان خال خوارزم شاه فشرهت نفسه إلى أموال التجار واتفق أنه دخل فى محل ملكه كثير من التجار والأتراك معهم أموال للتجار من التتر وأموال الملك التتر ، فكتب ذلك العامل إلى خوارزم شاه يقول له : إن هؤلاء القوم قد جاءوا بزى التجارة وما قصدهم إلا التجسس وإن أذنت لى فيهم قبضت عليهم ، فأذن له فقبض عليهم وأخذ أموالهم ثم وقعت مكاتبات بين ملك التتر وخوارزم شاه فى إطلاقهم وكتب ملك التتر لخوارزم شاه يتهدده إن لم يطلقهم، فغضب وأمر بقتلهم فقتلهم ذلك العامل وسير إليه ما كان معهم من الأموال وكان شيئا كثيراً ، ففرقه خوارزم شاه على تجار سمرقند وبخارى وأخذ منهم قيمة تملكهم ، فلما بلغ الخبر جنكزخان أرسل جماعة إلى خوارزم شاه يتهدده ويقول : أنت قتلت جماعتى فاستعد للحرب فإنى واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به فقتل خوارزم شاه أكثر هؤلاء الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم إلى جنكزخان فقالوا له إن خوارزم شاه يقول لك أنا سائر إليك ولو أنك فى آخر الدنيا حتى أنتقم منك وأفعل بك كما فعلت بأصحابك وتجهز

خوارزم شاه وسار بعد الرسول مبادراً لسبق خبره ويكبسهم ، وأدمن السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل إلى بيوتهم فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأطفال فأوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية ، وكان سبب غيبة الكفار أنهم ساروا لمقاتلة ملك من ملوك الترك فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم فى الطريق الخبر بما فعل خوارزم شاه بمخلفتهم فجدوا السير وأدركوه قبل أن يخرج من أرضهم وتصافوا للحرب واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله ثلاثة أيام بلياليها ، وجرى الدم فى الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته وأحصى من قتل من المسلمين فكانوا عشرين ألفا ، وأما الكفار فلا يحصى من قتل منهم ، ثم رجع الكفار إلى بلادهم ورجع المسلمون إلى بخارى واستعدوا لمجىء جنكزخان إليهم .

ذكر تملك جنكزخان بخارى

ثم جاءهم جنكزخان بعد خمسة أشهر بجيوشة وحاصر مدينة بخارى وفيها خوارزم شاه واقتتلوا ثلاثة أيام متتابعة ولم يكن لعسكر خوارزم شاه قوة لمقاومة جنكزخان ، ففارق خوارزم شاه بعساكر بخارى وسار إلى خراسان فأرسل أهل بخارى الشيخ بدر الدين قاضى خان إلى التتر ليطلب الأمان للناس فأعطوهم الأمان ، وكان قد بقى من عسكر خوارزم شاه طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة فلما أجابهم جنكزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة ، وكان ذلك رابع ذى الحجة سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارى ولم يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه إلينا وساعدونا على قتال من بالقلعة ، وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى فى البلد أن لا يتخلف أحد ومن تخلف قتل فحضروا جميعهم ، فأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب حتى أن الكفار كانوا يأخذون المنابر وربعات القرآن ويلقونه فى الخندق فإنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحو أربعمائة من المسلمين فبذلوا جهدهم ، ومنعوا القلعة

اثنى عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم ووصل النقابون إلى سور القلعة فنقبوه ، واشتد حينئذ القتال ، ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام ، فغضب اللعين جنكزخان ورد أصحاب ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجدوا فى القتال ، وقد تعب من فى القلعة وجاءهم مالا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة ، وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم ، فلما فرغ من القلعة أمر أن يكتب له رؤساء البلد ففعلوا ذلك فلما عرضت أسماؤهم عليه بإحضارهم فحضروا فقال أريد منكم الأموال التى باعكم خوارزم شاه التى كانت مع التجار الذين قتلهم خوارزم شاه فى أول ابتداء الأمر كما تقدم ذكرهم وقال لهم أنها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شىء منها بين يديه ، ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التى عليه ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط بالمسلمين الذين أخرجهم من البلد فأمر أصحابه أن يقتسموهم فاقتسموهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدى سبا وتمزقوا كل ممزق ، واقتسموا النساء أيضاً وأصبحت بخارى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس وارتكبوا من النساء الأمر العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً مما نزل بهم ، فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك ، فقاتل حتى قتل ، وممن فعل ذلك ، واختار أن يقتل ولا يرى ما نزل بالمسلمين الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده وولده فإنهما لما رأيا ما يفعل بالحرام قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضى صلاح الدين خان ومن استسلم أخذ أسيراً وألقوا النار فى البلد والمساجد والمدارس وعذبوا الناس بأنواع العذاب لطلب المال .

ذكر مسير جنكزخان إلى سمرقند

لما انقضى أمر بخارى ارتحل جنكزخان وجنوده نحو سمرقند ، وقد تحققوا عجز خوارزم شاه عن مقاتلتهم وكان هو بمكان بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم

من أهل بخارى أسارى فساروا بهم مشاه على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشى قتل ، فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والأثقال ومع كل عشرة من الأسارى علم ، فظن أهل البلد أن الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بسمرقند وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية وأما عامة أهل البلد فلا يحصون كثرة فخرج إليهم شجعان أهله وأهل القوة والجلد رجالة ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمى أحد لما فى قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين فقاتلهم الرجالة بظاهر البلد فلم يزال التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم وكان الكفار قد كمنوا لهم كميناً لهم فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولا فبقوا فى الوسط وأخذهم السيف من جانب فلم يسلم منهم أحد وقتلوا عن آخرهم شهداء رضى الله عنهم وكانوا سبعين ألفاً ، رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعف نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكا نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا فطلبوا الأمان فأجابوهم إلى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم تقدر العامة على منعهم وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم ففعلوا ذلك ، فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم ، فلما كان اليوم الرابع نادوا فى البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل سمرقند مثل فعلهم مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبى والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع وتركوا ما فى البلد على حاله وافتضوا الأبكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب فى طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبى ، وكان ذلك فى المحرم سنة سبع عشرة وستمائة ، وكان خوارزم شاه بمنزلته كلما اجتمع إليه عسكر سيره إلى سمرقند فيرجعون ولا يقدرون على الوصول إليها نعوذ بالله من الخذلان وسير مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسير مرة عشرين ألفاً فعادوا أيضا .

ذكر سير التتر إلى خوارزم شاه وانهزامه وموته

لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان لعنه الله وسير عشرين ألف فارس ، وقال لهم اطلبوا خوارزم شاه اين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر المغربة بتشديد الراء المكسورة لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لأنهم هم الذين أوغلوا فى البلاد ، فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا وقصدوا موضعاً يسمى بنجاب ومعناه خمس مياه منها نهر جيحون فوصلوا فلم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار وألبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ، ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل فى الماء وأمسكوا أذنابها ، وتلك الحياض التي من الخشب مشدودة إليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزم شاه إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة ، وكان المسلمون قد ملئوا خوفا ورعبا منهم وقد اختلفوا فيما بينهم فإنهم كانوا قبل ذلك ثابتين متماسكين بسبب أن نهر جيحون بينهم ، فلما عبروه إليهم لم يقدوا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا وطلب طائفة منهم جهة ورحل خوارزم شاه لا يلوى على شىء فى نفر من خاصته ، وقصدوا نيسابور ، فلما دخل اجتمع إليه بعض العسكر ، فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها وكانوا لم يتعرضوا فى مسيرهم لشىء لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير فى طلبه لا يمهلونه حتى يجمع لهم جموعا ، فلما سمع بقربهم منه رحل إلى مازندران وهى له أيضاً فرحل التتر المغربون فى أثره ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه فكان كلما رحل من منزلة نزلوها ، فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان تعرف باب سكون وله هناك قلعة فى البحر ، فلما نزل هو وأصحابه فى السفن وصلت التتر ، فلما رأوا خوارزم شاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر ، فلما آيسوا من لحاق خوارزم شاه رجعوا فهم الذين قصدوا الرى وما بعد كما سنذكر وقبل أن خوارزم شاه سار من مازندران حتى وصل إلى الرى ، ثم منها إلى همذان والتتر فى أثره ففارق همذان فى نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره وعاد إلى

مازندران وركب فى البحر إلى هذه القلعة ، ثم لما وصل إلى القلعة المذكورة قدر الله تعالى انقضاء أجله فتوفى بها ، وكان رحمه الله عالماً فاضلا بالفقه والأصول وغيرهما مكرما للعلماء محبا لهم محسناً إليهم بكثير مجالستهم ويحب مناظرتهم بين يديه وكان صبوراً على التعب وإدمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات إنما همه فى الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظما لأهل الدين مقبلا عليهم ببركاتهم ومناقبه رحمه الله تعالى كثيرة ، وكان قد اتسعت ممالكه من جهة العراق إلى تركستان وملك بلاد غزنة وبعض الهند .

ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران

لما آيس التتر المغربة من إدراك خوارزم شاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها فإنها لم تزل ممتنعة فى قديم الزمان وحديثه حتى أن المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة جميعاً من العراق إلى أقاصى خراسان بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولايقدرون على دخول البلاد إلى أن ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين وهؤلاء الملاعين ملكوها صفواً عفواً لأمر يريده الله تعالى ولما ملكوا مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ، ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الرى فرأوا فى الطريق والدة خوارزم شاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التى لم يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة وكان سبب ذلك أن والدة خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الرى لتصل إلى أصفهان وهمذان وبلاد الجبل تمتنع فيها فصادفوها فى الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها الرى فكان فيما معها ما ملأ عيونهم وقلوبهم ومما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع والنفيس من الجوهر وغير ذلك وسيروا الجميع إلى جنكزخان بسمرقند .

ذكر وصول التتر إلى الرى وهمذان

فى سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله إلى الرى فى طلب خوارزم شاه

محمد لأنه بلغهم أنه مضى نحو الرى منهزماً منهم فجدوا السير فى أثره وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار وكذلك أيضا من المفسدين الذين يريدون النهب والشر ، فوصلوا إلى الرى على حين غفلة من أهلها فلم يشعروا إلا وقد وصلوا إليها وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الأطفال وفعلوا الأفعال التى لم يسمع بمثلها ولم يقيموا بل مضوا مسرعين فى طلب خوارزم شاه فنهبوا فى طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها وفعلوا فى الجميع أضعاف ما فعلوا فى الرأى وأحرقوا وخربوا ووضعوا السيف فى الرجال والنساء والأطفال فلم يبقوا على شىء وتموا على حالهم إلى همذان فلما قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الجمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك جمله هدية لهم ليطلب الأمان لأهل البلد فأمنوهم ، ثم فارقوها وسار إلى زنجان ففعلوا أضعاف ما فعلوا من قبل ثم وصلوا إلى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدوا فى قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف فاقتتلوا هم وأهل البلد فى باطنه حتى صاروا يقتلون بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصى ثم فارقوا قزوين فعد القتلى من أهل قزوين فزادوا على أربعين ألف قتيل رحمهم الله تعالى .

ذكر وصول التتر إلى أذربيجان

لما هجم الشتاء على التتر فى همذان وبلد الجبل رأوا برداً شديداً وثلجا متراكماً فساروا إلى أذربيجان ففعلوا فى طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدم منهم ، وخربوا وأحرقوا ووصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان فلم يخرج إليهم ولا حدث نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلا ونهاراً لا يفيق ، وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع إليهم ، فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لأنه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعى به كثيرة لأجل دوابهم فوصلوا إلى موقان وتطرقوا فى طريقهم إلى بلاد الكرج ، فجاء إليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل ، فقاتلوهم والكرج

فانهزمت الكرج وقتل أكثرهم وأرسل الكرج إلى أوزبك صاحب أذربيجان يطلبون منه الصلح وإزالة ما كان بينهم وبينه وأن يتوافق معهم على دفع التتر فاصطلحوا على أنهم يجتمعون إذا انحسر الشتاء ، وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف بن الملك العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم وظنوا جميعهم أن التتر يصبرون من الشتاء إلى الربيع ، فلم يفعلوا كذلك بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضاف إليهم مملوك تركي من مماليك أوزبك صاحب أذربيجان اسمه أقوش وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم ، فاجتمع معه خلق كثير ، وأرسل التتر فى الانضمام إليهم فأجابوه إلى ذلك ومالوا إليه للجنسية ، فاجتمعوا وساروا فى مقدمة التتر إلى الكرج فملكوا حصنا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وخربوها وقتلوا أهلها ونهبو أموالهم حتى وصلوا إلى قريب تفليس ، فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها إليهم فلقيهم أقوش فيمن اجتمع إليه فاقتتلوا قتالا شديداً صبروا فيه كلهم ، وقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وأدركهم التتر ، وقد تعب الكرج من القتال ، وقتل منهم كثير فلم يثبتوا للتتر وانهزموا أقبح هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم ما لا يحصى كثرة وكانت الوقعة فى ذى القعدة من هذه السنة أعنى سنة سبعة عشر وستمائة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ، ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله فى قديم الزمان وحديثه أن طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان ، قال ابن الأثير فى الكامل وكان هو موجوداً فى ذلك العصر مطلعاً على تلك الأحوال قال وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها والحق بيده ، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن ، وكل من جمع التاريخ فى زماننا هذا فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم ، فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ

جاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن هـذا العدو الـكافر التتر وقد وطئوا بلاد ما وراء النهر وخربوها ، وناهيك به سعة بلاد وتعدت طائفة منهم النهر إلى خراسان فملـكوها وفعلوا مثل ذلك ، ثم إلى الرى وبلاد الجبل وأذربيجان ، وقد اتصلوا بالـكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الآخر الفرنج قد ظهروا من بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ، ووصلوا إلى مصر فملـكوا مثل دمياط ، وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها ولا إخراجهم منها وباقى ديار مصر على خطر فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ومن أعظم الأمور على المسلمين أن سلطانهم خوارزم شاه محمد قد عدم ، ولم يعرفوا حقيقة خبره فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته وتارة يقال أنه دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته وهذا أمر عظيم حتى أصبح مثل خراسان وعراق العجم وغيرهما سائبا لامانع له ولاسلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد ويترك ما أراد على أنهم لم يبقوا على مدينة إلا خربوها كلما مروا عليه نهبوه وما لا يصلح لهم أحرقوه فكانوا يجمعون الأبريسم تلالا ويلقونه فى النار وكذلك غيره من الأمتعة .

ذكر تملك التتر مراغة

فى صفر سنة ثمانية عشر وستمائة تملك التتر مدينة مراغة من أذربيجان ، وسبب ذلك أننا ذكرنا سنة سبعة عشر وستمائة ما فعله التتر بالـكرج وانقضت تلك السنة وهم فى بلاد الـكرج ، فلما دخلت سنة ثمانية عشر وستمائة ساروا من ناحية الـكرج لأنهم رأوا أن بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج إلى قتال وصدام فعدلوا عنهم وهذه كانت عادتهم إذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها فوصلوا إلى تبريز ، وصالحهم صاحبها بمال وثياب ودواب ، فساروا عنه إلى مدينة مراغة فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لأن صاحبها كانت امرأة وكانت مقيمة بقلعة رويفذ وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » فلما حصروها قاتلهم أهلها فنصبوا

عليها المجانيق وزحفوا إليها ، فكانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون ، فإن عادوا قتلوا فكانوا يقاتلون من أمامهم كرها ، فكانوا كما قيل كالأشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر ، وكان التتر يقاتلون وراء المسلمين ، فيكون القتل أولا فى المسلمين الأسارى وهم بنجوة منه ، فأقاموا على المدينة عدة أيام ثم ملكوها عنوة وقهراً رابع صفر ووضعوا السيف فى أهلها فقتل منها ما يخرج عن الحد والإحصاء ، ونهبوا كل ما يصلح لهم وما لا يصلح لهم أحرقوه واختفى بعض الناس عنهم ، وكانوا يأخذون الأسارى ويقولون : لهم نادوا فى الدروب أن التتر قد رحلوا فإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل قال ابن الأثير وبلغنى أن امرأة من التتر دخلت داراً وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنونها رجلا فوضعت السلاح وإذا هى امرأة فقتلها رجل أخذته أسيراً قال وسمعت من بعض أهل مراغة أن رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فما زال يقتلهم واحداً حتى أفناهم ولم يمد أحد منهم يده إليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيراً نعوذ بالله من الخذلان ، ثم رحلوا من مراغة قاصدين نحو مدينة أربل ، قال ووصل الخبر إلينا بذلك فى الموصل فخفنا حتى أن بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف وجاءت كتب مظفر الدين صاحب أربل إلى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر فسير جمعاً صالحاً من عسكره وأراد أن يمضى إلى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق فلا يجوزها أحد فإنها جميعها جبال وعرة ومضايق لا يقدر أحد أن يجوزها إلا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز إليه ووصلت كتب الخليفة الناصر ورسله إلى الموصل وإلى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر فإنهم ربما عدلوا عن جبال أربل لصعوبتها إلى هذه الناحية ويطرقون العراق فسار مظفر الدين من أربل فى صفر ، وسار إليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير ، وأرسل الخليفة أيضاً للملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه فى عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم ، فاتفق أن الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلهم إلى مصر يستنقذوا دمياط

من الفرنج فاعتذر الملك الأشرف إلى الخليفة بأخيه وقوة الفرنج وإن لم يتداركها خرجت هى وغيرها وشرع يتجهز للمسير إلى الشام ليدخل مصر ففعل ذلك واستنقذوا دمياط كما ذكرناه فيما سبق ، فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سير الخليفة إليهم مملوكه قشتمر وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الأمراء فى نحو ثمانمائة فارس فاجتمعوا هناك ليتصل بهم فى عسكر الخليفة وكان المقدم على الجميع مظفر الدين ، فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر وحكى مظفر الدين قال لما أرسل إلى الخليفة فى معنى قصد التتر قلت له إن العدو قوى وليس لى من العسكر ما ألقاه به فإن اجتمع معى عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد فأمرنى بالمسير ووعدنى بوصول العسكر ، فلما سرت لم يحضر عندى عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواش فأقمت وما رأيت المخاطرة بنفسى وبالمسلمين ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظنا منهم أن العسكر يتبعهم ، فلما لم يروا أحداً يطالبهم أقاموا وأقام العسكر الإسلامى عند دقوقا فلما لم يروا أن العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا إلى بلادهم .

ذكر تملك التتر همذان وقتل أهلها

وهمذان بفتح الميم وبالذال المعجمة بعدها ألف ونون اسم مدينة بناها همذان بن الفلوج بن سام بن نوح وأما همدان بسكون الميم وبالدال المهملة بعد ألف ونون فاسم قبيلة باليمن لما تفرق العسكر الإسلامى عاد التتر إلى همذان فنزلوا بالقرب منها وكان لهم بها شحنة أى حاكم يحكم فيها ، فأرسلوا إليه يأمرونه ليطلب من أهلها مالا وثيابا وكانوا قد استنفذوا أموالهم فى طول المدة وكان رئيس همذان شريفا علويا وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة وهو الذى يسعى فى أمور أهل البلد من التتر ويوصل إليهم ما يجمعه من الأموال ، فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان ما يحملونه إليهم فحضروا عند الرئيس ومعه إنسان فقيه قد قام فى اجتماع الكلمة على الكفار قياما مرضيا فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا ولم يبق لنا ما نعطيهم وقد هلكنا من أخذهم أموالنا

وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم فى أهلها بما يختاره فقال الشريف إذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة فليس لنا إلا مصانعته بالأموال فقالوا له أنت أشد علينا من الكفار وأغلظوا له فى القول فقال أنا واحد منكم فاصنعوا ما شئتم ، فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا فى البلد فتقدم التتر إليهم وحصروهم ، وكانت الأقوات متعذرة فى تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر أحد على الطعام إلا قليلا وأما التتر فلا يبالون بعدم الأقوات لأنهم لا يأكلون إلا اللحم من أى حيوان كان ولو من الحشرات والوحوش وبنى آدم ولا يأكل دوابهم إلا نبات الأرض حتى أنها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه فى أوائلهم فقتل من التتر خلق كثير وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا ، ثم خرجوا من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الأول وقتل من التتر أكثر من اليوم الأول وجرح الفقيه أيضاً عدة جراحات وهو صابر وأرادوا أيضاً الخروج فى اليوم الثالث فلم يطق الفقيه الركوب وطلب الناس الرئيس العلوى فلم يجدوه وكان قد هرب فى سرب صنعه إلى ظاهر البلد هو وأهله إلى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها ، فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون ما يصنعون إلا أنهم لما اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا فأقاموا فى البلد ولم يخرجوا منه وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم فلما لم يروا أحداً خرج إليهم من البلد طمعوا واستدلوا بذلك على ضعف أهله فقصدوهم وقاتلوهم وذلك فى رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ، ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس فى الدروب فبطل السلاح للزحمة واقتتلوا بالسكاكين فقتل من الفريقين ما لا يحصيه إلا الله تعالى وقوى التتر على المسلمين وأفنوهم قتلا ولم يسلم إلا من كان عمل نفقاً يختفى فيه وبقى القتل فى المسلمين عدة أيام ثم ألقوا النار فى البلد فأحرقوه ورحلوا عنها إلى مدينة أردويل وكان السبب فى ملكها أعنى همذان أن أهل البلد لما شكوا إلى الرئيس الشريف ما يفعل بهم الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة

لينفذ إليهم عسكراً مع أمير يجمع كلمتهم فاتفقوا على ذلك فكتب إلى الخليفة ينهى إليه ما هم عليه من الخوف والذل وما يركبهم به العدو من الصغار والخزى ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه ، فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال إلى التتر يعلمهم ذلك فأرسلوا إلى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا إلى الرئيس ينكرون عليه الحال فجحد فأرسلوا إليه كتبه وكتب الجماعة فسقط فى أيديهم وتقدم إليهم التتر حينئذ وقاتلوهم وجرى القتال كما ذكرنا إلى أن ملكوهم .

ذكر مسير التتر إلى أذربيجان وملكهم أردويل وغيرها

لما فرغ التتر من همذان ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى أردويل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا القتل وخربوا أكثرها وساروا منها إلى تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائى وجمع كلمة أهلها وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان وكان أميراً متخلفاً لا يزال منهمكا فى الخمر ليلا ونهاراً يبقى الشهر والشهرين لا يظهر وإذا سمع هيعة طار مجفلا وله جميع أذربيجان وإيران وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها ، فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز وقصد نقجوان وسير أهله ونساءه إلى خوى ليبعد عنهم فقام هذا الطغرائى بأمر البلد وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع وحذرهم عاقبة التخاذل والتوانى وحصن البلد بجهده وطاقته ، فلما قاربه التتر وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم وأنهم قد حصنوا المدينة وأصلحوا السور والخندق أرسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا فاستقر الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك فسيروه إليهم فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سرار فنهبوها وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها إلى بيلقان من بلاد إيران فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها ، فلما وصلوا إلى بيلقان حصروها فاستدعى أهلها منهم رسولا يقررون معه الصلح فأرسلوا إليهم رسولا من أكابرهم

ومقدميهم فقتله أهل البلد فزحف التتر إليهم وقاتلوهم ثم أنهم ملكوا البلد عنوة في شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى يشقون بطون الحبالى ويقتلون الأجنة وكانوا يفجرون بالمرأة ، ثم يقتلونها وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحداً بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحدهم منهم إليه يداً فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب وصاروا إلى مدينة كنجة وهى أم بلاد إيران فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة ذريتهم بقتال الكرج وحصانتها فلم يقدموا عليها فأرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا إليهم ما طلبوا فساروا عنهم .

ذكر وصول التتر إلى بلاد الكرج

لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان وإيران بعضه بالتملك وبعضه بالصلح ساروا إلى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضاً ، وكان الكرج قد أعدوا لهم واستعدوا وسيروا جيشاً كبيراً إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها فوصل إليهم التتر فالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين فأخذهم السيف فلم يسلم منهم إلا الشريد . قال ابن الأثير : ولقد بلغنى أنهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفا ونهبوا ما وصلوا إليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم ، فلما وصل المنهزمون إلى تفليس وبها ملكهم جمع جموعاً أخرى وسيرهم إلى التتر أيضاً ليمنعوهم من توسط بلادهم فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك ، فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس فأخذوا البلاد ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ورأوا بلاداً كثيرة المضايق والدربندات فلم يتجاسروا على الوغول فيها فعادوا منها وداخل الكرج منهم خوف عظيم قال ابن الأثير حتى سمعت عن بعض أكابر الكرج ، وكان قدم رسولا أنه قال من حدثكم أن التتر انهزموا أو أسروا فلا تصدقوه وإذا حدثتم أنهم قتلوا فصدقوا فإن القوم لا يفرون أبداً ولقد أخذنا أسيراً منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسر .

ذكر وصولهم إلى دربند شروان وما فعلوه

لما عاد التتر من بلاد الكرج قصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخى وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ، ثم أن التتر صعدوا سورها بالسلاليم وقيل بل جمعوا كثيراً من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتل الناس منهم وممن قتل من غيرهم وألقوا بعضه فوق بعض فصار مثل التل وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة ، وقاتلوا أهلها فصبروا تلك الليلة فأنتنت تلك الجيف وانهضمت ، فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب فأعادوا الزحف وملازمة القتال فضجر أهلها ومسهم التعب والكلال والإعياء فضعفوا ، فملك التتر البلد وقتلوا فيه كثيراً ونهبوا الأموال واستباحوها ، فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك ، فأسلوا رسولا إلى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له ليرسل إليهم رسولا يسعى بينهم فى الصلح فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه فأخذوا أحدهم فقتلوه ، ثم قالوا للباقين إن أنتم عرفتمونا طريقا نعبر فيه فلكم الأمن وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم إن هذا الدربند ليس فيه طريق ألبتة ولكن فيه موضع هو أسهل ما فيه من الطرق فساروا معهم إلى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلفوا الدربند وراء ظهورهم .

ذكر ما فعلوه باللان وقفجاق

لما عبر التتر دربند شروان ساروا فى تلك الأعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك فنهبوا وقتلوا من اللكز كثيراً وهم مسلمون وكفار وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ووصلوا إلى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا عندها جمعاً من قفجاق فقاتلوهم فلم تظفر إحدى الطائفتين بالأخرى فأرسل التتر إلى قفجاق يقولون نحن وأنتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ولا دينكم مثل دينهم ونحن نعاهدكم أننا لا نتعرض إليكم ونحمل إليكم من الأموال والثياب ماشئتم وتتركوا بيننا وبينهم ، فاستقر الأمر بينهم على مال حملوه وثياب

وغير ذلك فحملوا إليهم ما استقر وفارقهم قفجاق فأوقع التتر باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يسمعوا بهم إلا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقع بهم الأول فالأول وأخذوا منهم أضعاف ما حملوا إليهم وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وأبعدوا فمنهم من اعتصم بالغياض ومنهم من اعتصم بالجبال ومنهم من لحق ببلاد الروس وأقام التتر في بلاد قفجاق وهى أرض كثيرة المراعى فى الشتاء والصيف وفيها أماكن باردة فى الصيف كثيرة المرعى وأماكن حارة فى الشتاء كثيرة المرعى وهى غياض على ساحل البحر ووصلوا إلى مدينة سوداق وهى مدينة قفجاق التى منها مادتهم فإنها على بحر خزرية والمراكب تصل إليها وفيها الثياب فتشترى منهم وتبيع عليهم الجوارى والمماليك والبرطاس والقندر والسنجاب وغير ذلك مما هو فى بلادهم وبحر خزرية هذا متصل بخليج القسطنطينية ولما وصل التتر إلى سوداق ملكوها وقتلوا أهلها وتفرق أهلها الذين سلموا من القتل فمنهم من صعد الجبال بأهله وماله ومنهم من ركب البحر وسار إلى بلاد الروم التى بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان السلجوقى .

ذكر ما فعله التتر بقفجاق والروس

لما استولى التتر على أرض قفجاق وتفرق أهل قفجاق كما ذكرنا سارت طائفة كثيرة منهم إلى الروس وهى بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم وأهلها يدينون بالنصرانية ، فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على قتال التتر إن قصدوهم وأقام التتر بمدينة قفجاق مدة ، ثم أنهم ساروا سنة عشرين وستمائة إلى بلاد الروس فسمع الروس بقفجاق وخبرهم . وكانوا مستعدين لقتالهم فساروا إلى طريق التتر ليلقوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها . فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس وقفجاق فيهم وظنوا أنهم عادوا خوفاً منهم وعجزوا عن قتالهم فجدوا فى اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقفون أثرهم إثنى عشر يوماً ثم إن التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم

إلا وقد لقوهم على غرة منهم لأنهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم فلم يجتمعوا للقتال إلا وقد بلغ التتر منهم مبلغاً عظيما ، فصبر الطائفتان صبراً لم يسمع بمثله، ودام القتال بينهم عدة أيام ثم إن التتر ظفروا واستظهروا فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر وكثر القتل فى المنهزمين . فلم يسلم منهم إلا القليل ونهب جميع مامعهم ومن سلم وصل إلى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها ، فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم وحملوا مايعز عليهم وساروا يقطعون البحر إلى بلاد الإسلام فى عدة مراكب فلما قربوا المرسى الذى يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق إلا أن الناس نجوا وكانت العادة جارية أن السلطان له المركب الذى ينكسر فأخذ من ذلك شيئاً كثيراً وسلم باقى المراكب وأخبر من بها بهذه الحال .

ذكر عود التتر من بلاد قفجاق والروس إلى ملكهم

لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة ، فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدة مواضع وخرجوا إليهم فلقوهم واستجروهم الى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم وأخذوهم بالسيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل ، فساروا إلى سقسين عائدين إلى ملكهم جنكزخان وخلت أرض قفجاق منهم فعاد من سلم من قفجاق إلى بلادهم وكان الطريق منقطعاً منذ دخلها التتر ، فلم يصل منهم شىء من البرطاس والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل إلى تلك البلاد فلما فارقها التتر وعاد القفجاق إليها اتصل الطريق وحملت الأمتعة كما كانت هذه أخبار التتر المغربة ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع .

ذكر ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارى وسمرقند

قد ذكرنا مافعله التتر المغربة التى سيرها ملكهم جنكزخان لعنه الله إلى خوارزم

شاه وأما جنكزخان فإنه بعد أن سير هذه الطائفة إلى خوارزم شاه وبعد انهزام خوارزم شاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام سير قسما منها إلى بلاد فرغانة ليملكوها وسير قسما آخر إلى ترمذ وسير قسما آخر منها إلى كلابة وهى قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وأمنع الحصون فصارت كل طائفة إلى الجهة التى أمرت بقصدها ونازلها واستولت عليها ، وفعلت من القتل والأسر والسبى والنهب والتخريب وأنواع العذاب مثل مافعل أصحابهم فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند ، فجهز جيشاً آخر ، فعبروا جيحون إلى خراسان .

ذكر تملك التتر خراسان

لما سار الجيش المنفذ إلى خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم ، فسلم البلد . وكان ذلك سنة سبع عشرة وستمائة ولم يتعرضوا إليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان وميمند واندخوى وقاريات ، فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة ولم يتعرضوا إلى أهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا إلى الطالقان وهى ولاية تشتمل عدة بلاد ، وفيها قلعة حصينة يقال لها منصور كوه لا ترام علوا وارتفاعاً ، وبها رجال يقاتلون شجعان فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهاراً ولا يظفرون منها بشيء فأرسلوا إلى جنكزخان يعرفونه عجزهم عن تملك هذه القلعة لكثرة ما فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها ، فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم وحصرها ، ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى ، فأمرهم بمباشرة القتال وإلا قتلهم ، فقاتلوا معه وأقام عليها أربعة أشهر أخرى ، فقتل من التتر عليها خلق كثير ، فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه ، ففعلوا ذلك وصاروا يعملون صفاً من خشب وفوقه صفا من تراب ، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عالياً يوازى القلعة فاجتمع من بها وفتحوا بابها وخرجوا منها وحملوا حملة رجل واحد ، فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب ونجوا ، وأما الرجالة فقتلوا ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والأطفال

ونهبوا الأموال والأمتعة ثم إن جنكزخان جمع أهل البلاد الذين أعطاهم الأمان ببلخ وغيرها وسيرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو ، فدخلوا إليها ، وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين مايزيد على مائتي ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو وهم عازمون على لقاء التتر ، ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم والاستيلاء عليهم ، فلما وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا وصبر المسلمون وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة حتى أن بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين إن قيل إن التتر يقتلون فصدقوا وإن قيل انهم ينهزمون فلا تصدقوا ، فلما رأى المسلمون صبر التتر وإقدامهم ولوا منهزمين ، فقتل التتر منهم وأسروا الكثير ، ولم يسلم إلا القليل ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم ، وأرسل التتر إلى ماحولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو ، فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا إلى مرو وحصروها وجدوا فى حصرها ولازموا القتال ، وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والأسر فيهم ، فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذى بها مقدما على من فيها يقولون له : لاتهلك نفسك وأهل البلد واخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلد ونرحل عنك فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد فأمنوهم فخرج إليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه وقال له : أريد أن تعرض على أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه اقطاعاً ويكون معنا فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبضوا عليه وعلى أميرهم وكتفوهم ، فلما فرغوا منهم قال اكتبوا إلى تجار البلد ورؤساؤه وأرباب الأموال فى جريدة واكتبوا إلى أرباب الصناعات والحرف فى نسخة أخرى واعرضوا ذلك علينا ، ففعلوا ما أمرهم فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهلهم ، فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد فجلس على كرسى من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم فأحضروا وضربت أعناقهم صبراً والناس ينظرون إليهم ويبكون ، وأما العامة فإنهم قسموا الرجال والنساء والأطفال والأموال فكان يوما مشهوداً من كثرة الصراخ والبكاء والعويل ، وأخذوا أرباب الأموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات فى طلب الأموال فربما مات أحدهم من شدة

الضرب ولم يكن بقى له ما يفتدى به نفسه ، ثم أنهم أحرقوا البلد وأحرقوا تربة السلطان سنجر السلجوقى ونبشوا القبور طلبا للمال ، فبقوا كذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم أجمعين وأمر بإحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل فيهم العلماء والصلحاء والزهاد والعباد كما كان ذلك من التتر المغربة فيما أخذوه من البلاد كما تقدم فإنا لله وإنا إليه راجعون مما جرى على المسلمين وسبحان من يدبر ملكه كيف يشاء ولا يسأل عما يفعل ، ثم ساروا إلى نيسابور فحصروها خمسة أيام وبها جمع صالح من العسكر الإسلامى ، فلم يكن لهم بالتتر قوة فملكوا المدينة وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو وأقاموا خمسة عشر يوما يخرجون ويفتشون المنازل على الأموال وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم أن قتلاهم سلم منهم كثير لكونهم لم يتمموا قتلهم حتى تزهق أرواحهم وأن كثيراً منهم نجوا إلى بلاد الإسلام فأمروا بأهل نيسابور أن تقطع رؤسهم لئلا يسلم من القتل أحد ففعلوا ذلك، فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم إلى طوس ففعلوا كذلك أيضا وخربوها وخربوا المشهد الذى فيه على الرضا ، الرضا بن موسى الكاظم والذى فيه فيه هارون الرشيد وجعلوا الجميع خرابا، ثم ساروا إلى هراة وهى من أحصن البلاد فحصروها عشرة أيام ثم ملكوها وأمنوا أهلها وقتلوا منهم البعض وجعلوا عند من سلم منهم شحنة وساروا إلى غزنة فلقيهم جلال الدين بن خوارزم شاه لأنه كان متملكا ذلك القطر فقاتلهم وهزمهم كما سنذكره ، فلما سمع بذلك أهل هراة وثبوا على الشحنة فقتلوه فلما عاد المنهزمون إلى هراة وجدوا عسكرا جاءهم مداد من جنكزخان فانضموا إليهم ودخلوا هراة قهرا وعنوة وقتلوا كل من فيها ونهبوا الأموال وسبوا الحريم ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها وأحرقوها وعادوا إلى ملكهم جنكزخان وهو بالطالقان يرسل السرايا إلى بلاد خراسان ففعلوا بخراسان مثل ما فعلوا فى غيرها ولم يسلم من شرهم وفسادهم شىء من البلاد وكان جميع ما فعلوه بخراسان سنة سبع عشرة وستمائة .

ذكر تملكهم خوارزم وتخريبها

وأما الطائفة من الجيش التى سيرها جنكزخان إلى خوارزم فإنها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلد ، فساروا حتى وصلوا إلى خوارزم وفيها عسكر كبير من المسلمين وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس ودام الحصر لهم خمسة أشهر فقتل من الفريقين خلق كثير إلا أن القتلى من التتر كانوا أكثر لأن المسلمين كان يحميهم السور ، فأرسل التتر إلى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدهم بخلق كثير ، فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفاً متتابعاً فملكوا طرفاً منه ، فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم فى طرف الموضع الذى ملكوها فلم يقدروا على إخراجهم ، ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون فى المحلة التى تليهم فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون ، فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ، ثم إنهم فتحوا السد الذى كان يمنع ماء جيحون عن البلد فدخل الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الأبنية وبقى موضعه ماء كالبحر ولم يسلم من أهله أحد ألبتة فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله منهم من يختفى ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ، ثم يسلم ومنهم من يلقى نفسه بين القتلى فيظنون أنه مقتول فينجو ، وأما أهل خوارزم فمن اختفى منهم من التتر غرقه الماء أو قتله فأصبحت خرابا يبابا .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فإنا لله وإنا إليه راجعون قال ابن الأثير : وهذا لم يسمع بمثله فى قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله الحور بعد الكور ومن الخذلان بعد النصر ، فلقد عمت هذه المصيبة الإسلام وأهله فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لأن القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرين ومضى الجميع تحت السيف ، ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا إلى ملكهم بالطالقان .

ذكر تجهيز جنكزخان الجيوش إلى غزنة لقتال

جلال الدين بن خوارزم شاه

لما فرغ التتر من خراسان وعادوا إلى ملكهم جهز جيشاً كثيفاً وسيره إلى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزم شاه مالكا لها ، وقد اجتمع إليه من عسكر أبيه نحو ستين ألفا وذلك غير من كان عنده من عسكر مملكته ، فلما وصل التتر إلى أعمال غزنة خرج إليهم المسلمون مع جلال الدين بن خوارزم شاه فالتقوا فى موضع يقال له بلق ، فاقتتلوا هناك قتالا شديداً وبقوا كذلك ثلاثة أيام ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ، ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان فلما سمع أهل هراة بذلك ساروا بالوالى الذى عندهم التتر فقتلوه فسير إليهم جنكزخان عسكراً فاجتمعوا مع المنهزمين من غزنة ودخلوا هراة وملكوا البلد ، وقتلوا أهله وخربوه وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم ، ثم أن جلال الدين بن خوارزم شاه بعد أن هزم جيش جنكزخان أرسل رسولا إلى جنكزخان يقول له أى موضع تريد يكون فيه الحرب حتى تأتى إليه ، فجهز جنكزخان عسكراً كثيراً أكثر من الأول مع بعض أولاده ، وسيره إليه ، فوصل إلى كابل فتوجه العسكر الإسلامى إليهم وتصافوا هناك ، وجرى بينهم قتال عظيم ، فانهزم التتر ثانيا وقتل منهم كثير وغنم المسلمون ما معهم وكان عظيما وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير ، فاستنقذوهم وخلصوهم ، ثم أن المسلمين جرى بينهم فتنة مع بعضهم لأجل الغنيمة وسبب ذلك أن أميراً منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الأتراك ، كان شجاعاً مقداماً ذا رأى فى الحرب ومكيدة ، واصطلى الحرب مع التتر بنفسه ، وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملئتم منهم رعبا ، وهو الذى كسر التتر على الحقيقة ، وكان من المسلمين أيضاً أمير كبير يقال له ملك خان بينه وبين خوارزم شاه نسب ، وهو صاحب هراة ، فاختلف هذان الأميران فى الغنيمة فاقتتلوا ، فقتل بينهم أخ لبغراق فقال بغراق : أنا أهزم الكفار ويقتل أخى لأجل هذا السحت . فغضب وفارق العسكر وسار إلى الهند ، فتبعه من العسكر ثلاثون ألفاً ،

كلهم يريدون أن يكونوا تبعاً له ، فاستعطفه جلال الدين بكل طريق ، وسار بنفسه إليه وذكره الجهاد وخوفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقاً ، فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا ، فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر أن جنكزخان قد وصل فى جموعه وجيوشه ، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل من فارقهم من العسكر عزم على مفارقة غزنة ولم يقدر المقام ، فسار نحو بلاد الهند فوصل إلى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن ما يعبر فيه وكان جنكزخان يقص أثره مسرعاً ، فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه جنكزخان بجيوشه ، فاضطر المسلمون حينئذ إلى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا فى ذلك كالأشقر إن تأخر ينحر ، وإن تقدم يعقر فتصافوا واقتتلوا أشد قتال ، اعترفوا كلهم أن ما مضى من الحروب كان لعباً بالنسبة إلى هذا القتال ، وبقوا كذلك ثلاثة أيام فقتل الأمير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير ، وكان القتل فى الكفار أكثر ، والجراح أعظم ، فرجع الكفار عنهم فأبعدوا ونزلوا . فلما رأى المسلمون أنهم لا مدد لهم وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح ، ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك ، فأرسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمون إلى الهند ومعهم جلال الدين وقيل أنهم عبروا بغير سفن وأن جلال الدين اقتحم النهر العظيم هو وعساكره وما نجا منهم إلا أربعة آلاف حفاة عراة ورمى الموج جلال الدين مع ثلاثة من خواصه إلى موضع بعيد وفقده أصحابه ثلاثة أيام ، ثم وجدوه وأعتدوا بمقدمه عيداً ثم جرى بين جلال الدين وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين وملك إلى لهاور من الهند وأما جنكزخان وعساكره فإنهم عادوا إلى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين إلى الهند وبعدهم عنهم فلما وصلوا غزنة ملكوها لخلوها من العساكر والحامى فقتلوا أهلها ونهبوا الأموال وسبوا الحريم ولم يبقوا أحدا من العلماء والصلحاء وغيرهم وخربوها وأحرقوها وفعلوا بسوادها وما حولها من المدائن والقرى وكذلك فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ثم رجع جنكزخان بجيوشه إلى بلاده وأما الممالك التى ملكها وخربها فترك الكثير منها ولم يجعل له عمالا

فيها فرجع إليها أهلها وتملكها ملوكها الذين كانوا فيها (غريبة عجيبة) لما وصل جلال الدين إلى حافة نهر السند ولم يجد من السفن ما يعبر فيه وجنكزخان خلفه يقص أثره ضاقت الأرض بما رحبت على جلال الدين ومن معه ورأى والدته وأم ولده وجماعة من حرمه يبكين ويصحن يقلن له بالله عليك أقتلنا أو خلصنا من الأسر، فأمر بهن فغرقن فى النهر وهذه من عجائب البلايا ونوادر المصائب والرزايا .

ذكر عود التتر إلى الري وهمذان وغيرهما

فى سنة إحدى وعشرين وصل طائفة من التتر من عند ملكهم جنكزخان وهؤلاء غير الطائفة الغربية التى ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرى وكان من سلم من أهل الرى قد عادوا إليها وعمروها فلم يشعروا بالتتر إلا وقد وصلوا إليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا فى أهلها السيف وقتلوهم كيف شاءوا ونهبوا البلد وخربوه وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك ثم إلى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا من التتر الأولين فإنهم لم يقربوهما ولا أصيب أهلهما بأذى ، فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلها وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ، ثم ساروا فى البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ثم قصدوا همذان وكان قد اجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسراً ونهباً وخربوا البلد ، وكانوا لما وصلوا إلى الرى رأوا بها عسكراً كثيراً من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم وانهزم الباقون إلى أذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا إلا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين ، فوصل طائفة منهم إلى تبريز وأرسلوا إلى صاحبها أزبك بن البهلوان يقولون له إن كنت موافقنا وعلى طاعتنا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية وإلا فعرفنا أنك غير موافق لنا ولا فى طاعتنا فعمد ابن البهلوان إلى من عنده من الخوارزمية فقبض عليهم ، ثم قتل بعضهم وجعل بعضا منهم أسرى وأرسل رؤوس من قتلهم إلى التتر وأرسل معها الأسرى وأنفذ مع الجميع من الأموال والثياب والدواب شيئاً كثيراً ، فعادوا عن بلاده وساروا نحو خراسان وفعل التتر هذا كله من هذه العودة وليسوا فى كثرة بل

كانوا نحو ثلاثة آلاف وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ست آلاف فارس ، ولكن وقع الرعب فى قلوبهم من التتر وإن كانوا قليلا وكان عسكر ابن البهلوان أكثر من ذلك كله ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم ، قال ابن الأثير فنسأل الله أن ييسر للاسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم فقد دفعوا إلى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الأموال واسترقاق الأولاد وسبى الحريم وقتلهن وتخريب البلاد .

ذكر وصول جلال الدين بن خوارزم شاه

إلى خوزستان والعراق

فى أول سنة اثنتين وعشرين وصل جلال الدين بن خوارزم شاه إلى بلاد خوزستان والعراق واستناب نوابا فى ممالك الهند واستولى على كرمان وأصفهان وباقى عراق العجم وفارس وقاربت جيوشه بغداد فخاف هل بغداد منه ، ثم سار إلى تبريز وأذربيجان وكثرت عساكره واستفحل أمره وصار ينتزع الممالك من يد الملوك الذين كانت الممالك بأيديهم والكلام على ذلك طويل ، وصار يفعل فى كثير من البلاد التى يتملكها من القتل والأسر والنهب مثل ما يفعل التتر ، وفى هذه السنة توفى الخليفة الناصر لدين الله وكانت مدة خلافته قريباً من سبع وأربعين سنة ، قيل إن أصل قيام التتر كان بمكاتبته لهم يأمرهم بقتال خوارزم شاه ليشغلوه عن تطلبه ملك العراق والله أعلم بحقيقة الحال ، وولى الخلافة بعد الناصر ولده الظاهر بأمر الله ومكث تسعة أشهر ، وتوفى وولى ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور ، ثم المستعصم ختام خلفائهم كما سيأتى ، ولما قوى أمر جلال الدين بن خوارزم شاه ، واستفحل ملكه بلغه سنة أربع وعشرين وستمائة أن طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا إلى دمغان بالقرب من الرى عازمين على بلاد الإسلام فسار إليهم وحاربهم واشتد القتال بينه وبينهم ، فانهزموا منه فأوسعهم قتلا وتبع المنهزمين مدة أيام يقتل ويأسر فبينما هو كذلك قد أقام بنواحى الرى خوفا من جمع آخر للتتر إذ أتاه الخبر بأن كثير منهم واصلون إليه فأقام ينتظرهم فوصلوا إليه فى سنة خمس وعشرين وجرى بينه وبينهم حروب كثيرة كان فى أكثرها الظفر لهم عليه وفى

الأخير كان الظفر له عليهم فهزمهم ، وهؤلاء التتر الذين جاءوه فى هذه المرة كانوا قد سخط جنكزخان على مقدمهم وأبعده وأخرجه من بلاده فقصد خراسان هو وجيوشه فرآها خرابا فقصد الرى ليتغلب على تلك النواحى والبلاد فلقيه بها جلال الدين واقتتلوا أشد القتال إلى ان كانت آخر هزيمة على التتر كما ذكرنا ، وجاءت مكاتبة من طولى بن جنكزخان لجلال الدين يقول له إن هؤلاء ليسوا من أصحابنا إنما نحن أبعدناهم ، فلما آمن جانب ابن جنكزخان لأنه هلك سنة أربع وعشرين وستمائة وكانت مدة ملكه نحو ثلاث ثلاث وعشرين سنة ولما آيس من الحياة جمع أولاده وقسم بينهم الممالك وجعل التخت للرئيس عليهم وهو ولده الصغير طولى خان ، ثم هلك عن قرب وتولى مكانه ولده هلاكو الذى كان على يده أخذ بغداد .

ذكر خروج التتر إلى أذربيجان وما كان منهم

أول سنة فى ثمان وعشرين وصل التتر من بلاد ماوراء النهر إلى أذربيجان ، وكان جلال الدين قد ضعف ملكه لأنه كان سيء السيرة قبيح التدبير لم يترك أحداً من الملوك المجاورين له إلا عاداه ونازعه الملك ووقع بينه وبينهم حروب وهزموه فى آخر الأمر فى كثير منها فضعفت شوكته ، وكتب إلى التتر بعض الملوك الذين كان يحاربهم يحثونهم على المجيء لاستئصال جلال الدين ويعرفونهم ضعفه عن لقائهم فهذا كان أيضاً من أسباب مجيئهم ، فلما أقبل التتر فى هذه المرة ولم يقدم جلال الدين على لقائهم وقتالهم فدخلوا بلاده واستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد ، ثم قصدوا أذربيجان فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به وجلال الدين لا يقدر على منعهم من البلاد ، وقد ملىء رعبا وخوفا وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلفوا عليه ، وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر ، وكان السبب فى ذلك أن أمراً غريباً فعله جلال الدين أظهر من قلة عقله مالم يسمع بمثله وذلك أنه كان له خادم خصى وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج فاتفق أن ذلك الخادم مات ، فأظهر من الهلع والجزع عليه بمالم يسمع بمثله ولا مجنون ليلى وأمر الجند والأمراء

أن يمشوا فى جنازته رجالة وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس رجالة ومشى جلال الدين بعض الطريق راجلا فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب ، فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم ففعلوا فأنكر عليهم حيث لم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم فشفع فيهم أمراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصى وإنما كان يستصحبه معه أين ساروا وهو يلطم ويبكى وامتنع من الأكل والشرب وكان إذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا إلى قلبج ولا يتجاسر أحد أن يقول أنه مات فإنه قيل له مرة أنه مات فقتل القائل له ذلك إنما كانوا يحملون إليه الطعام ويعودون يقولون إنه يقبل الأرض ويقولون إننى الآن أصلح مما كنت فلحق أمراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ماحملهم على مفارقة طاعته والانحياز مع وزيره فبقى حيران لايدرى مايصنع لاسيما لما خرج التترهذه المرة فحينئذ دفن الغلام الخصى وأرسل إلى الوزير واستماله إلى أن حضر عنده ، فلما وصل إليه بقى أياما ثم قتله جلال الدين وهذه نوادر غريبة لم يسمع بمثلها تدل على الخذلان .

ذكر وصول جلال الدين إلى آمد وانهزامه عندها وما كان منه

فى سنة ثمان وعشرين أيضاً حضر التتر مراغة من أذربيجان ، ثم ملكوها بالأمان وقتلوا فى البلد إلا أنهم لم يكثروا فى القتل واشتد خوف الناس منهم بأذربيجان ، فلما رأى جلال الدين مايفعله التتر بأذربيجان ورأى ما هو عليه من الضعف والوهن فارق أذربيجان يريد الخليفة وملوك الأطراف ليعضدوه على التتر ويخوفهم عاقبة أمرهم ، فلم يشعر وهو بالقرب من آمد إلا وقد كبس التتر ليلا وخالطوا مخيمه فهرب جلال الدين ثم لم يزل ينتقل فى الهرب من وضع إلى موضع وهو بغاية الذل بعد ذلك العز إلى أن دخل قرية من قرى ميافارقين فلحقه التتر فى تلك القرية فهرب إلى جبل هناك فيه أكراد يتخطفون الناس فأخذوه وسلبوه وأرادوا قتله ، فقال جلال الدين لأحدهم إنى أنا السلطان فاستبقنى أجعلك ملكا فجعله الكردى عند امرأته ، ومضى إلى الجبل فحضر كردى آخر معه حربة فقال للمرأة لم لاتقتلون هذا الخوارزمى فقالت المرأة قد أمنه زوجى

فقال الكردى إنه السلطان ، وكان قد قتل كاخا بخلاط خيراً منه وضربه بالحربة فقتله وكان ذلك منتصف شوال سنة ثمانى وعشرين وستمائة فسبحان من لا يزول ملكه وفى ذلك عبرة لأولى الأبصار ، ومما ينبغى أن يذكر فى هذه الأخبار العجيبة الدالة على كمال قدرة الله تعالى ، وأنه يتصرف فى عباده كيف يشاء ، وقصة الصناديق التى كانت لأبيه محمد خوارزم شاه وذلك أن خوارزم شاه لما هرب من التتر كما تقدم تفصيل ذلك والتتر تتبعه نزل لما وصل عراق العجم عند بسطام وأحضر خوارزم شاه كاتبا كان معه عشرة صناديق ، ثم قال أنها كلها جواهر لاتعلم قيمتها ثم أشار إلى صندوقين منها وقال إن فيهما من الجواهر ما يساوى خراج الأرض بجملتها ، ثم أمر بحمل العشرة الصناديق إلى قلعة ازدهن وهى من أحصن قلاع الأرض ، وأخذ خط النائب بها بوصول الصناديق المذكورة مختومة فلما استولى جنسكزخان على تلك البلاد حملت إليه الصناديق بختومها فأخذ جميع مافيها ولم ينتفع خوارزم شاه الذى جمعها بشىء منها وقد تقدم أنه مات فى مهربه ذلك ، قال ابن الأثير فسبحان من بدل أمنهم خوفاً وعزهم ذلا وكثرتهم قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ولما دخل التتر ديار بكر والجزيرة يطلبون جلال الدين وقع منهم من الفساد والنهب والقتل والتخريب شىء كثير ونهبوا سواد آمد وارزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعرد فقاتلهم أهلها فبذل لهم التتر الأمان فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم، فلم يسلم منهم إلا من اختفى وقليل ماهم قال ابن الأثير وحكى لى بعض التجار وكان قد وصل من آمد أنهم حزروا القتلى فكانوا يزيدون على خمسة عشر ألف قتيل ، وكان مع هذا التاجر جارية من أسعرد فذكرت أن سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فمنعته ولم يكن لها ولد سواه ، فلم يصغ إلى قولها فمشت معه قليلا فقتلا جميعاً وورثها ابن أخ للأم فباعها من هذا التاجر وذكرت من كثرة القتلى أمراً عظيما وأن مدة الحصار كانت خمسة أيام ، ثم ساروا منها إلى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك ، وساروا من طنزة إلى وادى القريشية وكان فيه طائفة من الأكراد وفيه ميناه جارية وبساتين والطريق إليه ضيق فقاتلهم

بالأكراد فمنعوهم عنه وقتل منهم كثير فعاد التتر ، ولم يبلغوا منهم غرضا وساروا فى البلاد لامانع يمنعهم ولا أحد يقف بين أيديهم فوصلوا إلى ماردين فنهبوا ما وجدوا من بلدها واحتمى صاحب ماردين بقلعة ماردين ، ثم وصلوا إلى نصيبين والجزيرة ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به وأغلقت أبوابها فعادوا عنها ومضوا إلى سنجار ووصلوا إلى الجبال من أعمال سنجار فنهبوها ودخلوا إلى الخابور ، فوصلوا إلى عرابان فنهبوا وقتلوا ومضى طائفة منهم إلى الموصل ، فوصلوا إلى قرية تسمى المونسة من الموصل فنهبوها واحتمى أهلها بخان فيها فقتلوا كل من فيه . قال ابن الأثير وحكى لى عن رجل منهم أنه قال اختفيت منهم ببيت فيه تبن فلم يظفروا بى وكنت أراهم فى نافذة فى البيت فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان فيقول لا بالله فيقتلونه ، فلما فرغوا من القرية ونهبوا ما فيها وسبوا الحريم رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ، و يضحكون و يغنون بلغتهم ويقولون لا بالله ومضى نصف طائفة منهم إلى نصيبين الروم فنهبوها وقتلوا فيها ، ثم عادوا إلى آمد ثم إلى بلد بدليس فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيراً وأحرقوا المدينة ، قال ابن الأثير وحكى لى إنسان من أهلها قال ولو كان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لأن الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير ، ثم ساروا من بدليس إلى خلاط فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها باكرى وهى من أحصن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وقصدوا مدينة أرجيش من أعمال خلاط وهى مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك وكان هذا فى ذى الحجة من سنة ثمان وعشرين وستمائة ، قال ابن الأثير ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم حتى قيل أن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد لا يتجاسر أحد يمد يده إلى ذلك الفارس ، ولقد بلغنى أن إنساناً منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التترى ما يقتله به فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى وأحضر سيفاً فقتله به ، وحكى لى رجل قال كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلا فى طريق فجاءنا فارس

من التتر وقال لنا مقالا يأمرنا فيه أن يكتف بعضنا بعضا فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فو الله ما جسر أحد يفعل ذلك فأخذت سكيناً وقتلته وهربنا فنجونا، وأمثال هذا كثيرة فهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها، فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين ويرحمهم ويرد العدو عنهم ، والعجب أن هذا العدو فعلوا هذه الأفعال فى هذه المرة وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس، فسبحان من بيده ملكوت كل شىء يعز من يشاء ويذل من يشاء ولا يسأل عما يفعل، وهم يسألون ، ولما وصل التتر إلى بلاد أذربيجان أطاعهم أهلها جميعا وحملوا إليهم الأموال والثياب الخطابى والخابى والعتابى وغير ذلك ، وسبب طاعتهم أن جلال الدين لما انهزم إلى آمد من التتر تفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق وتخطفهم الناس وفعل التتر بديار بكر والجزيرة وأربل وخلاط ما فعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف فى وجههم فارس وملوك الإسلام منحجزون فى الأنقاب وانضاف إلى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فإنه لما لم يظهر له فى ذلك الوقت خبر ولا علموا له حالا سقط فى أيديهم وأذعنوا للتتر بالطاعة ، وحملوا إليهم ما طلبوا من الأموال والثياب من ذلك مدينة تبريز التى هى أصل بلاد أذربيجان ومرجع الجميع إليها وإلى من بها فإن ملك التتر نزل فى عساكره بالقرب منها وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته ويتهددهم أن امتنعوا عليه فأرسلوا إليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب الأبريسم وغيرها وكل شىء حتى الخمر وبذلوا له الطاعة ، فأعاد الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدمهم عنده فقصده قاضى البلد ورئيسه وجماعة من أعيان أهله وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى وهو الذى يرجع الجميع إليه إلا أنه لا يظهر شيئاً من ذلك ، فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائى فقالوا أنه رجل منقطع ماله بالملوك تعلق ونحن الأصل فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صناع الثياب الخطابى وغيرها ما يستعمل لملكهم الأعظم فإن هذا هو من أتباع ذلك الملك ، فأحضروا الصناع فاستعملهم فى الذى أراد ووزن أهل تبريز الثمن وطلب منهم

خركاه أى خيمة لملكهم أيضا فعملوا له خركاه لم يعمل مثلها وعملوا غشاءها من الأطلس الجيد المزركش وعملوا من داخلها السمور والقندر فجاءت عليهم بجملة كثيرة وقرر عليهم من المال كل سنة شيئاً كثيراً ، ومن الثياب كذلك وترددت رسلهم إلى ديوان الخلافة وإلى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم لا ينصرون جلال الدين بن خوارزم شاه قال ابن الأثير ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الرى كان قد انتقل إلى الموصل ، وأقام بها هو ورفقاء له ، ثم سافر إلى الرى فى العام الماضى قبل خروج التتر ، فلما وصل التتر إلى الرى أطاعها أهلها وساروا إلى أذربيجان وسار هو معهم إلى تبريز فكتب إلى أصحابه بالموصل يقول أن الكافر لعنه الله ما يقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتى لا تنقطع قلوب المسلمين فإن الأمر عظيم ولا تظنون أن هذه الطائفة التى وصلت إلى تصيبين والخابور والطائفة الأخرى التى وصلت إلى اربل ودقوقا كان قصدهم النهب إنما أرادوا أن يعلموا هل فى البلاد من يردهم أم لا ، فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من ممانع ومدافع وأن البلاد خالية من ذلك ومن العساكر فقوى طمعهم وهم فى الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام إلا أن كان فى بلد الغرب فإن عزمهم على قصد البلاد جميعاً فانظروا لأنفسكم هذا مضمون الكتاب فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وفى هذه السنة أعنى سنة ٦٢٨ كان انتهاء ما فى الكامل تاريخ ابن الأثير وكانت وفاته سنة ٦٣٠ وهو الإمام عز الدين على بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ولد بجزيرة ابن عمر سنة ٥٥٥ ، ثم سار إلى الموصل وسمع من كثير من الأشياخ المقيمين بالموصل ، ثم رحل إلى بغداد ثم إلى الشام والقدس وسمع هناك من جماعة ثم عاد إلى الموصل وانقطع فى بيته عاكفا على العلم تعليما وتصنيفاً وكان إماما فى علم الحديث حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة خبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وله تصانيف كثيرة منها أسد الغابة فى أخبار الصحابة وهو كتاب جليل ومنها التاريخ الكبير المسمى بالكامل وله غير ذلك . ومن تلامذته الذين أخذوا عنه ابن خلكان صاحب التاريخ المشهور ونسبت الجزيرة إلى ابن عمر قيل هو رجل من أهل ترقعيد من أعمال الموصل اسمه

عبد العزيز بن عمر بنى هذه المدينة فأضيفت إليه ثم أن العساكر الخوارزمية الذين كانوا عند جلال الدين تفرقوا فى ديار بكر والموصل وحلب وأكثروا العبث والفساد وفعلوا مثل أفعال التتر من الزنا والفواحش والقتل وكذلك التتر أكثروا العبث والفساد فيما استولوا عليه من البلاد ولم يزل يشتد بالمسلمين وشرح ماجرى فى تلك السنين من الخوارزمية والتتر يطول والقصد الاختصار، وفى سنة ٦٤١ قصدت التتر بلاد غياث الدين كينخسروا السلجوقى صاحب بلاد الروم ، فأرسل واستنجد بالحلبيين فأرسلوا إليه نجدة مع ناصح الدين الفارس وجمع العساكر من كل جهة ، والتقى مع التتر فانهزمت عساكر الروم هزيمة قبيحة وقتل التتر منهم خلقا كثيراً وأسروا كثيراً ، وتحكمت التتر فى البلاد واستولوا أيضاً على خلاط وآمد وهرب غياث الدين كينخسروا إلى بعض المعاقل ، ثم أرسل إلى التتر وطلب الأمان ودخل فى طاعتهم . وفى سنة ثلاثة وأربعون وستمائة قصدت التتر بغداد وخرجت عساكر بغداد للقائهم ، ولم يكن للتتر بهم طاقة فولى التتر منهزمين على أعقابهم تحت الليل ، ثم لما قدر الله وأراد من الأزل أنه لابد من استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية قدر سبحانه وتعالى لذلك أسبابا ، وجعل لذلك علامات ومقدمات ، أما الأسباب فأعظمها خروج المسلمين عن كمال الاستقامة وانهماكهم فى المعاصى والشهوات ، وأما العلامات والمقدمات فقد أوجد الله فى تلك السنين علامات ومقدمات كان الناس يظنون عند مشاهدتها أن القيامة تقوم فى تلك السنين ، ثم تبين بعد ذلك أنها مقدمات وعلامات لانقراض الدولة العباسية وضعف أهل الإسلام ، وقال الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة كان لانقراض الخلافة ببغداد وما جرى على المسلمين بتلك البلاد مقدمات نبه عليها العلماء منها أنه فى يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وستمائة هبت ريح عاصفة شديدة بمكة فألقت ستارة الكعبة المشرفة فماسكنت الريح إلا والكعبة عريانة قد زال عنها شعار السواد ومكثت إحدى وعشرين يوما ليس عليها كسوة ، وقال الحافظ عماد الدين بن كثير وكان هذا فألا على زوال دولة بنى العباس ومنذراً بما سيقع

بعد هذا من كائنة التتر لعنهم الله تعالى ، ومنها قال ابن كثير فى سنة سبع وأربعين طغى الماء على بغداد حتى أتلف شيئاً كثيراً من المحال والدور الشهيرة وتعذرت إقامة الجمعة بسبب ذلك ، وفى هذه السنة هجمت الفرنج على دمياط فاستحوذوا عليها وقتلوا خلقاً من المسلمين . وفى سنة خمسين وقع حريق بحلب احترق بسببه ستمائة دار فيقال إن الفرنج لعنهم الله ألقوه فيها قصداً . وفى سنة اثنتين وخمسين ظهرت نار فى أرض عدن فى بعض جبالها بحيث أنه يطير شررها إلى البحر فى الليل ويصعد منها دخان عظيم فى أثناء النهار ، فتاب الناس وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد وشرعوا فى أفعال الخير والصدقات. وفى سنة أربع وخمسين زادت دجلة زيادة مهولة فغرق خلق كثير من أهل بغداد ومات خلق تحت الهدم ، وركب الناس المراكب واستغاثوا بالله وعاينوا التلف ودخل الماء من أسوار البلد وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون داراً وانهدم مخزن الخليفة يعنى موضع خزانة أموال المسلمين ، وهلك شىء كثير من خزانة السلاح قال السبكى فى الطبقات وكان ذلك من جملة الأمور التى هى مقدمة لواقعة التتر ، وفى هذه السنة فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة وقع بالمدينة الشريفة صوت يشبه صوت الرعد البعيد تارة وتارة ، وأقام على هذه الحالة يومين ، فلما كان ليلة الأربعاء تعقب الصوت زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان واضطرب المنبر الشريف واستمرت تزلزل ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة خامس الشهر ، فظهر من الحرة نار عظيمة وسالت أودية ، منها سيل الماء وسالت الجبال ناراً وسارت نحو طريق الحاج العراق ، فوقفت وأخذت تأكل الأرض أكلا ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل إلى ضحوة النهار واستغاث الناس بنبيهم صلى الله عليه وسلم وأقلعوا عن المعاصى واستمرت النار فوق الشهر وخسف القمر ليلة الاثنين منتصف الشهر وكسفت الشمس فى غدوة وبقيت أياما متغيرة اللون ضعيفة النور واشتد فزع الناس وصعد علماء البلد إلى الأمير يعظونه فطرح المكس ورد على الناس ما كان تحت يده من أموالهم، ولما جاء النجاب إلى بغداد بخبر هذه النار قال له الوزير إلى أى الجهات ترمى شررها ؟ قال إلى جهة الشرق ، وفى ليلة الجمعة مستهل رمضان من هذه السنة احترق

المسجد الشريف النبوى ابتدأ حريقه من زاويته الغربية من الشمال وكان قد دخل أحد خدمة المسجد إلى خزانة هناك ومعه نار فعلقت فى الآلات واتصلت بالسقف سرعة ثم دبت فى السقوف فأعجلت النار عن قطعها فما كان إلا ساعة حتى احترق سقف المسجد أجمع ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها واحترق سقف الحجرة النبوية الشريفة واحترق المنبر الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب عليه وعد ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من الآيات وكانت كلها منذرة بما يعقبها فى السنة الآتية من الكائنات انتهى ما ذكره الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة وذكر السيد السمهودى فى خلاصة الوفا زيادة إيضاح لسبب ذلك الحريق ، فقال احترق المسجد النبوى ليلة الجمعة أول شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أول الليل لدخول أبى بكر ابن أوحد الفراش الحاصل الذى فى الزاوية الغربية الشمالية لاستخراج قناديل لمنائر المسجد وترك الضوء الذى كان فى يده على أقفاص القناديل فيه مشاق فاشتعلت النار فيه وأعجزه طفؤها وعلقت ببسط وغيرها مما فى الحاصل وعلا الالتهاب حتى علقت بالسقف مسرعة أخذت قبلة ، وأعجلت الناس عن إطفائها بعد أن نزل أمير المدينة واجتمع معه غالب أهلها ، فلم يقدروا على إطفائها وما كان إلا أقل من القليل حتى استولى الحريق على جميع سقف المسجد وما احتوى عليه من المنبر النبوى والأبواب والخزائن والمقاصير والصناديق ولم يبق خشبة واحدة أى كاملة وكذا الكتب والمصاحف ، ووقع السقف الذى كان على أعلى الحجرة على سقف بيت النبى صلى الله عليه وسلم فوقعا جميعاً فى الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدسة ، ولم يكن فى ذلك الزمن قبة على القبور المقدسة وإنما كان سقف فقط وأول من جعل ذلك السقف قبة السلطان المنصور قلاوون الصالحى سنة ثمان وسبعين وستمائة فجعلت قبة صغيرة مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها بأخشاب أقيمت على رؤوس السوارى المحيطة الحجرة الشريفة ولما كانت عمارة السلطان قايتباى للمسجد النبوى سنة سبع وثمانين وثمانمائة جعلت القبة المشرفة متناهية فى العلو وجعلت من الآجر وأسس لها دعائم عظام أرض المسجد وقد بسط العلامة السمهودى فى خلاصة الوفا الكلام على النار التى ظهرت

بالحرم لأنها من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم من حيث أنه أخبر عنهـا قبل وقوعها فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لاتقوم الساعة حتى تظهر نار » وفى رواية البخارى « تخرج نار فى أرض الحجاز تضىء أعناق الإبل ببصرى » وفى مسند الفردوس وكامل بن عدى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لاتقوم الساعة حتى يسيل واد من أودية الحجاز بالنار تضىء له أعناق الإبل ببصرى » ، ثم أطال الـكلام فى بيان ذلك ثم قال ، قال النووى تواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام ، وكانت فى زمنه أى النووى وكان ابتداء ذلك زلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة لـكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تـكررها واشتدت فى يوم الثلاثاء وظهرت ظهوراً عظيما ، ثم ليلة الأربعاء ثالث الشهر فى الثلث الأخير من الليل حدثت زلزلة عظيمة جداً أشفق النـاس منها واستمرت تزلزل بقية الليل ، ثم إلى يوم الجمعة ولهـا دوى أعظم من الرعد فتموج الأرض وتتحرك الجدران حتى وقع فى يوم واحد دون ليلته ثمان عشرة حركة ، ونقل عن أبى شامة عن القاشانى قال تزلزلت الأرض يوم الجمعة زلزلة عظيمة إلى أن اضطربت منائر المسجد وسمع لسقفه صرير عظيم ، فلمـا كان يوم الجمعة نصف النهـار ظهرت تلك النار فثار من محل ظهورها فى الجو دخان متراكم غشى الأفق سواده فلمـا تراكمت الظلمات وأقبل الليل سطع شعاع النار ، فظهرت مثل المدينة العظيمة فى جهة المشرق وقال القرطبى ، وكانت ترى على صفة البلد العظيمة عليها سور محيط عليه شراريف وأبراج ومنائر ويرى رجال يقودونها لاتمر على جبل إلا دكته وأذابته ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر أزرق له دوى كدوى الرعد يأخذ الصخور بين يديه ، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم فانتهت النار إلى قرب المدينة ومع ذلك فـكان يأتى المدينة نسيم بارد وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر قال ، وقال لى بعض أصحابنا رأيتها صاعدة فى الهواء من نحو خمسة أيام ، وسمعت أنها رؤيت من مكة ومن جبال بصرى ، وقال القطب القسطلانى وكان موجوداً فى ذلك العصر وهو جد القسطلانى شارح البخارى وأن ضوءها استولى على

ما بطن وظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتأثر من لهيبها النيران وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة ولونها هى يعترية حمرة والقمر كأنه كسف ، وقال أبو شامة إنها رؤيت من مكة ومن الفلاة جميعها ومن ينبع قال وأخبرنى من أثق به ممن شاهدها بالمدينة أنه بلغه أنه كتب بتيما على ضوئها الكتب وتيما اسم موضع الشمس والقمر فى مدتها ما يطلمان إلا كاسفين ، قال أبو شامة وظهر عندنا بدمشق أثر ذلك الكسوف من ضعف النور على الحيطان وكنا حيارى من ذلك إلى أن بلغنا خبرها ، وقال القطب القسطلانى ، وقد أخبرنى جماعة أنهم شاهدوها من جبال ساية وجاءمن أخبر أنه أبصرها بتيما وبصرى هى منهما مثل ما هى من المدينة فى البعد ، وقال العماد بن كثير أخبرنى قاضى القضاة صدر الدين الحنفى قال أخبرنى والدى الشيخ صفى الدين مدرس مدرسة بصرى أنه أخبره غير واحد من الأعراب . صبيحة الليلة التى ظهرت فيها هذه النار أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم فى ضوء تلك النار فظهر أنها الموعود بها ، وتمت بذلك المعجزة لحصول ما أخبر به صلى الله عليه وسلم وأنارتها بتلك الأماكن البعيدة ليتم الإنذار واختصاص ظهورها بيوم الجمعة لا يخفى وكانت نعمة فى صورة نقمة أى لأنه نعمة من كونها معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم دالة على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم وكانت أيضاً سبباً لتوبة الناس والتجائهم إلى الله تعالى ونقمة من حيث الإنذار والتخويف. فوجلت القلوب منها وأشفقت وأعتق أمير المدينة وهو عز الدين منيف بن شيخة جميع مماليكه ورد على الناس مظالمهم وأبطل المكس وهبط للنبى صلى الله عليه وسلم وبات فى المسجد ليلة الجمعة والسبت ومعه جميع أهل المدينة حتى النساء والصغار وأهل النخل يتضرعون ويبكون كاشفين رؤوسهم مقرين بذنوبهم مستجيرين بنبيهم صلى الله عليه وسلم. فصرف الله تعالى عنهم تلك النار العظيمة ذات الشمال فمالت من وادى أحيلين إلى جهة الشمال ، واستمرت مدة ثلاثة أشهر فطالت مدتها ليشتهر أمرها وينزجر عامة الخلق بها وعظم أمرها ليشاهد منها عنوان نار الآخرة وأرسل أمير المدينة عدة من الفرسان إليها ، فلم تجسر الخيل على القرب منها ، فترجل أصحاب الخيل وقربوا منها فذكروا أنها ترمى

بشرر كالقصر ولم يظفروا بجلية أمرها ، فجرد الأمير عزمه لذلك فوصل منها إلى قدر غلوتين بالحجر ولم يستطع أن يجاوز موقفه من حرارة الأرض وأحجار كالمسامير تحتها نار سارية ومقابلة ما يتصاعد من اللهب نارا كالجبال الراسيات والتلال المجتمعة السائرات. تقذف بزبد الأحجار كالبحار المتلاطمة الأمواج وعقد لهيبها فى الأفق قتاما حتى ظن الظان أن الشمس والقمر كسفا إذ سلبا بهجة الإشراق فى الآفاق ، وقال القطب القسطلانى إنها لم تزل مارة على سبيلها وهى تسحق ما والاها وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى وأن طرفها الشرقى آخذ بين الجبال فحالت دونه ، ثم وقفت وأن طرفها الشامى وهو الذى يلى الحرم اتصل بجبل يقال له عير على قرب من شرقى جبل أحد ومضت فى الشظاه التى فى طرفها وادى حمزة رضى الله عنه حتى استقرت تجاه حرم النبى صلى الله عليه وسلم فطفئت ، قال وأخبرنى شخص أعتمد عليه أنه عاين حجراً ضخما من حجارة الحرم كان بعضه خارجا عن حد الحرم فعلقت بما خرج منه ، فلما وصلت إلى ما دخل منه فى الحرم طفئت وخمدت وقال أبو شامة أن سيل هذه النار انحدر مع وادى الشظاه حتى حاذى جبل أحد وكادت النار تقارب حرة العريض ثم سكن قتيرها الذى يلى المدينة ، وطفئت مما يلى العريض ورجعت تسير فى المشرق ، وقال كثير من المؤرخين أنها سالت سيلا ذريعاً فى واد يكون طوله مقدار أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف وهى تجرى على وجه الأرض والصخر يذوب كما يذوب الرصاص ، ولم يزل يجتمع منه فى آخر الوادى عند منتهى الحرم أى فى المشرق حتى قطعت فى وسط وادى الشظاه إلى جهة جبل عير فسدت الوادى المذكور بسد عظيم من الحجر المسبوك بالنار ، قال السيد السمهودى وآثار ذلك السد موجودة اليوم هناك ويسمى الحبس وانقطع وادى الشظاه بسبب ذلك وصار السيل ينحبس خلف السد المذكور حتى يصير بحراً مد البصر عرضاً وطولا ، وأما ما ذكره بعضهم من أن تلك النار ليس لها حر فلعل ذلك كان آخر أمرها فهذه الآيات كلها مقدمات لأخذ التتر بغداد وانقراض الدولة العباسية وظهور الضعف والخلل لأهل الإسلام، وذكر الإمام القرطبى فى تذكرته أن هؤلاء التتر هم الذين ذكرهم النبى صلى الله عليه وسلم،

فى قوله « يقاتلونــكم قوم صغار الأعين كأن وجوههم المجان المطرقة » بفتح الراء المشددة وفى رواية « عراض الوجوه ذلف الأنوف غلاظها » وأطال فى بيان روايات الحديث وقال إن هذا الأمر الذى أخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم قد وقع كما أخبر ونقل مثل ذلك عن الحافظ بن دحية وغيره وأطال فى بيان ذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر أخذ التتر بغداد وقتلهم الخليفة

قد تقدم ما تملـكه التتر من ممالك الإسلام فى السنين المتقدمة وصاروا بعد ذلك يدبرون الأمر فى أخذ بغداد ويتخوفون من كثرة العساكر الموجودة عند الخليفة وعزموا على أخذها فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة فانهزمت عساكرهم وضعف عزمهم ، ولما كان أخذهم إياها مقدراً فى علم الله تعالى محدوداً بأيام مخصوصة سهل لهم الأسباب التى توصلهم إلى ذلك عند مجىء وقته فمن ذلك أن وزير الخليفة كان رافضيا ، ويحب نقل الخلافة من بنى العباس إلى العلويين ، وسولت له نفسه أن ذلك يسهل إذا قويت شوكة التتر وأنه يعقد معهم صلحاً وينقل الخلافة للعلويين على زعمه فصار يكاتب التتر ويظهر لهم أنه يحب استيلاءهم وأن أمر المسلمين يكون تابعا لأمرهم ، وكان الخليفة المستعصم بالله مفوضاً أمور الخلافة إلى الوزير المذكور وكان صحيح العقيدة يعتقد مذهب أهل السنة وتميل إلى الخير والصلاح ويحب أهل الخير والصلاح لـكنه كان قليل المعرفة بتدبير الملك مهملا للأمور المهمة محباً لجمع المال ، فأهمل أمر التتر وانقاد إلى وزيره محمد بن محمد ابن العلقمى حتى كان فى ذلك هلاكه وهلاك الرعية فإن ابن العلقمى كتب كتابا إلى هلاكو ملك التتر وهو ابن طولى بن جنكز خان إنك تحضر إلى بغداد وأنا أسلمها لك وكان من جملة الأسباب التى حملته على ذلك وقوع فتنة فى تلك الأيام بين الرافضة وأهل السنة فى بغداد ، أدت تلك الفتنة إلى نهب عظيم وخراب وقتل عدة من الرافضة ، فغضب لذلك ابن العلقمى وجسر التتر على العراق ليتشفى من أهل السنة ، فلما كتب لملك التتر يحثه على الحضور كتب ملك التتر أن عساكر بغداد كثيرة فإن كنت صادقاً

فيما قلته وداخلا فى طاعتنا فرق عساكر بغداد ونحن نحضر فلما وصل كتابه إلى الوزير دخل على الخليفة المعتصم وقال له إن جندك كثيرة وكانوا أكثر من مائة ألف وعليك كلفة كثيرة والعدو قد رجع والصواب أنك تعطى دستور الخمسة عشر ألفا من العساكر ليتوفر معلومهم فأجابه المستعصم لذلك فخرج الوزير لوقته ومحا اسم من ذكر من الديوان ثم نفاهم من بغداد ومنعهم من الإقامة بها ، ثم بعد شهر فعل مثل فعلته الأولى ومحا اسم عشرين ألفا من الديوان ، ثم كتب إلى ملك التتر بما فعل وكان تدبير الوزير أن التتر إذا قدموا بغداد يقتلون الخليفة ويضعفون شوكة بنى العباس ثم يعودون إلى سبيلهم فيبقى هو على ما هو عليه من العظمة والعساكر وتدبير المملكة فيقوم عند ذلك بدعوة العلويين الرافضة من غير ممانع ، ثم يضع السيف فى أهل السنة هكذا كان يقصده ، ولما بلغ ملك التتر ما فعل الوزير ابن العلقمى من محو العساكر وأضعاف أمر الخلافة سار بجيوشه فى أول سنة ست وخمسين وستمائة ومعه أيضا الكرج وعسكر الموصل وخلائق لا يحصون وقصد بغداد ونزل عليها وصار الخليفة المستعصم يستدعى العساكر ويتجهز لحرب التتر ، وقد اجتمع أهل بغداد وتحالفوا على قتال التتر وخرجوا إلى أهل ظاهر بغداد وقاتلوا التتر قتالا عظيما وكثرت الجراحات والقتلى فى الفريقين إلى أن نصر الله عساكر بغداد وانكسر التتر أقبح كسرة ، وساق المسلمون خلفهم وأسروا منهم جماعة ، وعادوا بالأسرى ورؤوس القتلى إلى ظهر بغداد ونزلوا بخيامهم مطمئنين بهروب العدو وانهزامه ، فأرسل الوزير ابن العلقمى فى تلك الليلة جماعة من أصحابه فقطعوا شط الدجلة فخرج ماؤها على عساكر بغداد وهم نائمون فغرقت مواشيهم وخيلهم وأموالهم وصار السعيد منهم من لقى فرسا يركبها وأرسل إلى الوزير ملك التتر يعرفه بما فعل ويأمره بالرجوع إلى بغداد فرجع بعساكره إلى ظاهر بغداد ، فلم يجدوا هنالك من يراهم ، فلما أصبحوا خرج لهم طائفة من عسكر المسلمين وعليهم الدويدار فالتقوا مع طلائع التتر فانهزم المسلمون لقلتهم وأحاطت عساكر التتر ببغداد فقال الوزير ابن العلقمى للخليفة المستعصم بالله أنى أخرج إلى تلافى هذا الأمر ، واعقد الصلح وأقرره فأذن له فى

ذلك فخرج وتوانق لنفسه ورجع وأخبر الخليفة أن ملك التتر رغب أن يزوج ابنته بابنك وأن تكون الطاعة له كما كانت الملوك السلجوقية ويرحل عنك فخرج المستعصم فى أعيان دولته وأعيان العلماء ، وأكابر أهل الوقت ليحضروا العقد ، فلما حضروا عند ملك التتر أمر بالقبض عليهم وضربت أعناقهم وقتلوا الخليفة بوضعه وولده فى عدلين ، وأمر التتر برفسهما إلى أن ماتا ، وقيل أغرقهما ودخلت التتر بغداد واقتسموها وكل أخذ ناحية وبقى السيف يعمل أربعة وثلاثين يوما وقل من سلم ولم يرحموا شيخا كبيراً لكبره ولا صغيراً لصغره ، ولا عالما لعلمه ونهبت دار الخلافة ومدينة بغداد حتى لم يبق فيها لا ماقل ولا ما جل ثم أحرقت بغداد بعد أن قتل أكثر أهلها قيل أن عدة من قتل يزيد على ألفى ألف وثلاثين ألف إنسان ثم نادوا بالأمان ، وانقرضت الخلافة من بغداد بقتل المستعصم، هذا وبقيت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة وكانت مدة خلافة المستعصم خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأياما وعمره نحو ٤٧ سنة ، وأما الوزير ابن العلقمى فلم يتم له ما أراد فلم يلبث أن أمسكه ملك التتر بعد قتل المستعصم بأيام ووبخه بألفاظ شنيعة معناها أنه لم يكن له خير فى مخدومه ولا فى دينه فكيف يكون له خير فى ملك التتر ، ثم أنه قتله شر قتلة قيل أن ابن العلقمى قتل بعد المستعصم وقيل قتله هو بقى يركب أكديشا فقادته عجوز ياابن العلقمى أهكذا كنت تركب فى أيام المستعصم فلم يجبها ، وكان بعد أن قتل الخليفة يظن أن رياسته تبقى له فأبقوها له أياما إلى أن قتلوه قيل أنه فى تلك الأيام التى أبقوا له فيها بعد قتل الخليفة دخل عليه بعض التتر ممن ليس له وجاهة راكبا فرسه فسار إلى أن وقف بفرسه على بساط الوزير وخاطبه بما أراد وبال الفرس على بساط الوزير وأصاب الرشاش ثياب الوزير وهو صابر لهذا الهوان يظهر قوة النفس وإنه بلغ مراده ، ولما انعكست عليه الأمور ندم حيث لا ينفعه الندم وكان يقول بعد ذلك جرى القضاء بعكس ما أملته لأنه عومل بأنواع الهوان من أراذل التتر والمرتدة ، وقال له بعض أهل بغداد يامولانا أنت فعلت هذا جميعه حمية وحميت الشيعة وقد قتل من الأشراف الفاطميين مما لا يحصى وكان دخول التتر بغداد وقتلهم الخليفة المستعصم فى العشرين من المحرم سنة ٦٥٦

وبقى الوزير ابن العلقمى إلى أوائل المحرم سنة ٥٧ فتكون المدة التى بقى فيها بعد قتل الخليفة سنة واحدة وقيل إنما مكث بعد قتل الخليفة أياماً قلائل وإن التتر لم يقتلوه وإنما مات غما وكمداً لما انعكست عليه الأمور وعض يده ندماً ، وفى تاريخ ابن كثير عن الشيخ عفيف الدين يوسف بن البقال أحد الزهاد وقال كنت بمصر فبلغنى ما وقع ببغداد من القتل الذريع فأنكرته بقلبى وقلت يارب كيف هذا وفيهم أطفال ومن لاذنب له فرأيت فى المنام رجلا وفى يده كتاب فأخذته فإذا فيه :

دع الاعتراض فما الأمر لك ولا الحكم فى حركات الفلك
ولا تسأل الله عن فعله فمن خاض لجة بحر هلك

قال الجلال السيوطى فى حسن المحاضرة بعد ذكره ذلك قلت أجرى الله عادته أن العامة إذا زاد فسادها وانتهكوا حرمات الله ، ولم تقم عليهم الحدود أرسل الله عليهم آية فى أثر آية فإن لم ينجع ذلك فيهم أتاهم بعذاب من عنده وسلط عليهم من لا يستطيعون له دفاعا ، ثم قال الجلال وقد وقع فى هذه السنين ما يشبه الآيات الواقعة فى مقدمات واقعة التتر وأنا خائف من عقبى ذلك فاللهم سلم سلم انتهى ، وإذا كان هذا فى زمانه وهو القرن التاسع فما بالك بزماننا وهو القرن الرابع عشر . فنسأل الله السلامة وحسن الاستقامة فقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى بعض . والله لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

فائدتان

الأولى : استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية من بغداد قد جاء الأخبار به قبل وقوعه مأثوراً عن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فإنه كان يقول إن الخلافة تصير إلى ولده حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم فكان كما قال والظاهر أن مثل هذا الخبر لا يقال بالرأى ولا بالحدس والتخمين وإنما يكون

بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم فيكون الأخبار بذلك قبل وقوعه من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، وهذا الذى ذكرنا أنه مأثور عن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ذكره كثير من المؤرخين منهم الملك المؤيد صاحب حماه فى تاريخه وكذلك ابن الوردى وغيرهما وعبارة بن الوردى بلغ بعض خلفاء بني أمية عن على بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه يقول أن الخلافة تصير إلى ولده فأمر الأموى بعلى بن عبد الله فحمل على جمل وطيف به وضربه ، وكان يقال عند ضربه هذا جزاء من يفترى ويقول إن الخلافة تكون فى ولده فكان على بن عبد الله يقول أي والله لتكونن الخلافة فى ولدى ، ولا تزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان فينتزعها منهم فكان كما قال. والعلج المذكور هلاكو ، وفى تاريخ ابن خلكان إن الأموى الذى أمر بضربه وحمله على جمل هو الوليد بن عبد الملك ، ثم قال ابن الوردى قلت قال ابن خلكان فى تاريخه إن علياً رضي الله عنه افتقد عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يوماً وقت صلاة الظهر فقال لأصحابه ما بال أبي العباس لم يحضر الظهر فقالوا ولد له مولود فلما صلى على رضى الله عنه قال امضوا بنا إليه فأتاه فهنأه فقال شكرت الواهب وبورك لك فى الموهوب ما سميته فقال أو يجوز أن أسميه حتى تسميه فأمر به فأخرج إليه فأخذه فحنكه ودعا له ثم رده إليه وقال خذ إليك أبا الأملاك قد سميته علياً وكنيته أبا الحسن ودخل على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يوماً على هشام بن عبد الملك ومعه ابنا ابنه محمد ، وهما السفاح والمنصور ابنا محمد بن على المذكور فأوسع له هشام على سريره وسأله عن حاجته ، فقال ثلاثون ألف درهم على دين فأمر بقضائها ، ثم قال على لهشام وتستوصى بابنى هذين خيراً ففعل فشكره وقال وصلت الرحم، فلما ولى على بن عبد الله بن عباس قال هشام لأصحابه أن هذا الشيخ قد اختل وأسن وخلط فصار يقول أن هذا الأمر سينقل إلى ولده فبلغ ذلك على بن عبد الله بن عباس فقال والله ليكونن ذلك وليملكن هذان يعنى السفاح والمنصور فكان الأمر كذلك وكان على بن عبد الله هذا عظيم المحل عند أهل الحجاز وكان يلقب بالسجاد كان يصلى كل يوم ألف ركعة لأنه كان له خمسمائة أصل زيتون يصلى

فى كل يوم إلى كل أصل ركعتين وكان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمهم ، وكان إذا قدم مكة حاجا أو معتمراً عطلت قريش مجالسها فى المسجد الحرام وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجلسه إعظاماً وإجلالا وتبجيلا له فإن قعد قعدو وإن نهض نهضوا وإن مشى مشوا خلفه ، وحوله ولا يزالون كذلك حتى يخرج من الحرم وكان إذا طاف كأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله ، وكان مع هذا الطول يكون إلى منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب نظرت عجوز إلى على بن عبد الله بن عباس وهو يطوف فقالت من هذا الذى فرع الناس (فرع بالعين المهملة أى علا عليهم) فقيل لها على بن عبد الله بن عباس فقالت (لا إله إلا الله) أن الناس ليرذلون عهدى بالعباس يطوف بهذا البيت كأنه فسطاط أبيض وذكر هذا كله المبرد فى الكامل وذكر أن العباس كان عظيم الصوت وجاءتهم مرة غارة وقت الصباح فصاح واصباحاه فلم تسمعه حامل فى الحى إلا وضعت والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ . وتوفى على بن عبد الله المذكور سنة سبع عشرة ومائة وعمره ثمانون سنة ، وكانت مدة خلافة بنى العباس خمسمائة سنة وأربعا وعشرين سنة لأن ابتداء دولتهم سنة اثنين وثلاثين ومائة وانتهاؤها سنة ست وخمسين وستمائة وعدد خلفائهم سبعة وثلاثون خليفة ، فسبحان الملك الحق الذى لا يزول ملكه وهو الباقى بعد فناء خلقه .

الفائدة الثانية

أول خلفاء بنى حرب بن أمية معاوية رضى الله عنه وآخرهم معاوية وأول خلفاء بنى الحكم مروان بن الحكم وآخرهم مروان بن محمد وأول خلفاء بنى العباس عبد الله السفاح وآخرهم عبد الله المستعصم ، وأول ملوك بنى الأحمر الذين تداولوا ملك الأندلس فى آخر المدة محمد بن يوسف بن نصر وآخرهم محمد بن سعد وأول ملوك بنى مرين ملوك المغرب الأقصى عبدالحق وآخرهم عبدالحق فانظر كيف توافقت أسماء ملوك هذه الدول وأسماء ملوك آخرها وذلك بتقدير الله وتدبيره فإنه سبحانه وتعالى له فى كل شىء حكمة بل مامن ذرة فى العالم

إلا وهى مشتملة على حكمة بل على حكم كثيرة ، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم وسيأتى ذكر ماتملكه التتر بعد بغداد وهلك هلاكو بن طولى بن جنكزخان سنة ثلاث وستين وسبعمائة وترك خمسة عشر ابناً وملك بعده ابنه أبغاء البلاد التى كانت بيد أبيه وهى إقليم خراسان وكرسيه نيسابور وإقليم عراق العجم ويعرف ببلاد الجبل وكرسيه أصفهان وإقليم عراق العرب وكرسيه بغداد وإقليم أذربيجان وكرسيه تبريز وإقليم خوزستان وكرسيه تستر وتسميها العامة تشتر وإقليم فارس وكرسيه شيراز وإقليم ديار بكر وكرسيه الموصل وإقليم الروم وكرسيه قونية وغيرهما ما ليس فى الشهرة مثل هذه الأقاليم العظيمة . ومدة ملك هلاكو عشر سنين ، قال ابن الوردى قلت مات هلاكو على دينه بعلة الصرع وبنوا على قبره قبة بقلعة تلا وفى تاريخ الذهبى أنه هلك سنة ٦٦٤ هـ كلام ابن الوردى ، وفى تاريخ القرمانى ما نصه ذكر الذهبى فى تاريخه أن هلاكو سفك دم ألف ألف أو يزيدون فهل يقدر المؤرخون أن يجمعوا ويصفوا سوء أفعاله ومع هذا فإن الله تعالى قد وفقه للاسلام إلا أن الكفار المغولية ميلوه إلى دين المجوسية فانقاد إليهم وقصد الممالك الإسلامية بالسوء ثم نزل القرمانى ، ذكر البيضاوى فى تاريخه أن الله تبارك وتعالى ألهم إلى بعض أوليائه بفيض فضله أن يظهر شيئاً من الكرامات المحمدية عند هلاكو منهم أبو يعقوب ومحمد خواجا دربندى قدس الله سرهما فحضرا عند هلاكو ، ودخلا النار ، وشربا السموم والنحاس المذاب ، فلما عاين هلاكو ذلك رجع عن الكفر والزندقة وخاف من الأولياء وعظم الملة الإسلامية وأهلها وأسلم ومات بعلة الصرع فى بلد مراغة ونقل إلى قلعة تلا ودفن بها وبنى عليه قبة اهـ ، ولم يذكر إسلامه ابن خلدون ولا الملك المؤيد ولا ابن الشحنة خليجزر ذلك وإنما الذين ذكروا إسلام أحمد بن أبغا بن هلاكو والله سبحانه وتعالى أعلم ، قال الجلال السيوطى فى تاريخ الخلفاء ولما فرغ هلاكو من قتل الخليفة وأهل بغداد أقام على العراق نوابه وحسن لهم ابن العلقمى أن يقيموا خليفة علويا فلم يوافقوه وأطرحوه وصار لهم فى صورة بعض الخدام والغلمان ومات كمداً لا رحمه الله ولا عفا عنه ، ثم بعد تملكهم بغداد كتب هلاكو للملك الناصر صلاح الدين بن أيوب وكان

ملك دمشق بيد الملك الناصر المذكور فكتب له هلاكو ثلاث مرات يأمره بالدخول في طاعته ويتهدده ويذكر له تملكه لأكثر البلاد وما فعله بأهل الإسلام فكاتبه الملك الناصر وصانعه وأرسل له هدايا ليعلمه بعجزه عن ملتقى التتر .

ذكر مسير التتر إلى ميافارقين فى البلاد الشامية

وفى سنة ٥٥ أيضاً قصدت التتر ميافارقين بعد استيلائهم على بغداد وكان صاحب ميافارقين حينئذ الملك الكامل محمد بن الملك المظفر غازى بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب فحاصره التتر وضايقوا ميافارقين مضايقة شديدة وصبر أهل ميافارقين مع الملك الكامل على الجوع الشديد ودام ذلك سنتين حتى عجزوا وسلموا ، فملك ميافارقين والبلاد والجزيرة وسير هلاكو جيوشه إلى حلب والديار الشامية وارتجت الأرض منهم وتزلزلت الناس فى جميع الأرض وسار فى سنة سبع وخمسين إلى خدمة هلاكو عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلون أبنا كيخسرو السلجوقى صاحب الروم وأقاما معه مدة ثم عاد إلى بلادهما ، وكذلك صانع هلاكو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وحمل إليه الأموال، ووصل إلى خدمة هلاكو بعد أخذ بغداد ، وفى سنة ٥٧ أيضاً نازل هلاكو شرق الفرات وحران وملكهما وأرسل ولده سموط بن هلاكو إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب فى أواخر ذى الحجة من سنة ٥٧ وكان الحاكم فى حلب الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين نائباً عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف ، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج الملك المعظم ولم يكن من رأيه الخروج وأكمن لهم التتر عند الباب المعروف بباب الله ، وتقاتلوا فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد ، ثم عادوا عليهم وهرب المسلمون وخرج كمين التتر فطلب المسلمون دخول حلب هاربين والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنق فى أبواب البلد جماعة من المنهزمين ، ثم رحل التتر إلى إعزاز فتسلموها بالأمان ، وفى تاسع صفر من سنة ثمان وخمسين استولت التتر على حلب وذلك أن هلاكو حصرها بجيوشه إلى أن ملكوها وقتل من المسلمين خلق كثير ، وصعد إلى القلعة خلق ، ودام القتل والنهب نحو أسبوع ثم نادى هلاكو بالأمان ولم يسلم من

القتال إلا جماعة كانت بأيديهم فرامانات بالأمان من التتر ولما فتحت حلب وصل كبراء حماة إلى حلب بمفاتيح حماة وحملوها إلى هلاكو فأمنهم وأرسل إليهم بشحنة والشحنة بالكسر ضابط البلد وفى الفارسى بالفتح ، ولما بلغ الناصر وهو بدمشق أخذ حلب رحل بعساكره إلى الديار المصرية ومعه المنصور صاحب حماة ، ثم وصل التتر إلى نابلس واستولوا عليها ، ثم استولوا على دمشق وسائر الشام إلى غزة وشحنوا البلاد وقدم على هلاكو صاحب حمص فقبله وأعادها إليه ثم رحل هلاكو إلى حارم ، فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين وإلى قلعة حلب فأحضر وسلمت إليه فغضب هلاكو وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم وسبى النساء ، ثم عاد هلاكو إلى الشرق وتقدم أن ميافارقين ملكوها بعد محاصرتها سنتين وصاحبها الكامل محمد بن المظفر غازى الصابر ثابت حتى ضعف من عنده عن القتال فاستولوا عليها فى هذا الوقت وقتلوه وطافوا برأسه فى البلاد بالمغانى والطبول وعلق رأسه بباب الفراديس من أبواب دمشق ، فلما عادت دمشق للمسلمين دفن بمشهد الحسين داخل باب الفراديس ، وأما دمشق فلكوا المدينة بالأمان فما نهبوا ولا قتلوا وعصت قلعتها فنصبوا عليها المجانيق ثم تسلموها بالأمان ونهبوا ما فيها وخربوا سور القلعة وأحرقوا آلاتها وزرد فاناتها ثم نازلوا قلعة بعلبك ، ثم ملكوها وخربوا قلعتها وكانوا اعتقلوا نقيب قلعة دمشق وواليها ، ثم بعد شهرين ضربوا أعناقهما ثم إن العساكر الإسلامية اجتمع بمصر وسار بهم الملك المظفر قطر ملك مصر يريدون الشام لقتال التتر وبلغ ذلك كتبغا نائب هلاكو على الشام ، فجمع من الشام من التتر وسار إلى قتال المسلمين فالتقوا عند عين جالوت واقتتلوا فانهزمت التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا وقدر الله كمال النصر للمسلمين بهذه الهزيمة ، واسترجع المسلمون دمشق وغيرها مما ملكوه من الديار الشامية بعد حصول اليأس من النصر على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكر إلا هزموه وكان النصر والفتح المظيم يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، ولما أراد الملك قطر أن يتجهز من مصر للخروج لقتال التتر

بالشام أراد أن يأخذ من الناس شيئاً من المال يستعين به على قتالهم فجمع العلماء فحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقال لا يجوز أن يؤخذ من الرعية شيء حتى لا يبقى فى بيت المال شيء ، وتبيعوا مالكم من الفوائض والآلات ويقتصر كل منكم على فرسه وسلاحه ويتساووا فى ذلك هم والعامة ، وأما أخذ أموال العامة مع بقاء ما فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا ذكره فى حسن المحاضرة للجلال السيوطي وذكر الإمام النووى أنه أفتى بيبرس المتولى بعد قطز بمثل ما أفتى به العز بن عبد السلام وأرسل له الفتوى من الشام ونص المقصود من ذلك ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام فى بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض أوضياع أو غيرذلك، قال وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان أعز الله أنصاره متفقون على هذا ، قال الجلال السيوطى ، فلما أراد السلطان الظاهر بيبرس الخروج إلى الشام لقتال التتر أخذ فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو ، فكتب له فقهاء الشام بذلك فقال هل بقى أحد فقيل نعم بقى الشيخ محيي الدين النووى فطلبه فحضر فقال اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع فقال ما سبب امتناعك فقال أنا أعرف إنك كنت فى الرق للأمير بندقدار وليس لك مال، ثم منّ الله عليك وجعلك ملكا وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب وعندك مائة جارية لكل جارية حق من الحلى ، فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية ، فغضب السلطان الظاهر بيبرس من كلامه وقال أخرج من بلدى يعنى دمشق فقال السمع والطاعة وخرج من نوى ، فقال الفقهاء إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ممن يقتدى به فأعده إلى دمشق فرسم برجوعه فامتنع الشيخ وقال لا أدخلها والظاهر بها فمات الظاهر بعد شهر ، قال الحافظ الذهبى كان الظاهر بيبرس خليقا للملك لولا ما كان فيه من الظلم قال والله يرحمه ويغفر له فإن له أياما بيضا فى الإسلام ومواقف مشهودة وفتوحات معدودة ، وقال أيضاً فى حسن المحاضرة فى موضع آخر وكان فى الظاهر بيبرس محاسن وغيرها وظلم أهل الشام غير مرة وأفتاه جماعة بموافقة هواه ، فقام الشيخ

محيي الدين النووى فى وجهه وأنكر عليه ، وقال أفتوك الباطل وكان بمصر منقمعا تحت كلمة الشيخ عز الدين عبد السلام لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى أنه قال لما مات الشيخ عز الدين ما استقر ملكي إلى الآن ، ومن محاسنه ما حكاه ابن كثير فى تاريخه أنه حضر إلى دار العدل فى محاكمة فى بئر بين يدى القاضى تاج الدين بن بنت الأعز فقام الناس له لما جاء سوى القاضى فإنه أشار إليه أن لا يقوم فقام هو وغريمه بين يدى القاضى وتداعيا ، وكان الحق بيد السلطان وله بينة عادلة به فانتزعت البئر من يد الغريم وهو أحد الأمراء ، ومن محاسن الظاهر بيبرس أنه أكمل عمارة المسجد النبوى من الحريق المتقدم ذكره وصنع منبراً للمسجد النبوى وحج فى سنة سبع وستين فغسل الكعبة بيده بماء الورد وزار المدينة الشريفة ، فرأى الناس يلتصقون بالقبر فقاس ما حوله بيده وأرسل فى العام الذى يليه درابزان من خشب فأدير حول القبر الشريف .

ذكر عود التتر إلى الشام

لما وصل الخبر إلى التتر بانهزام عساكرهم من الشام وخروجه من تحت أيديهم جهزوا جيشاً من سنتهم تلك ووصلوا إلى حلب فى آخر السنة أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة وملكوها وبذلوا السيف فى أهلها وأفنوا غالبهم وسلم القليل منهم ، واجتمع كثير من عساكر الإسلام بحمص وسار إليهم التتر فالتقوا بظاهر حمص خامس المحرم من سنة تسع وخمسين وستمائة ، وكان التتر أكثر من المسلمين بكثير ففتح الله على المسلمين بالنصر وولى التتر منهزمين وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون كيف شاؤوا وسار من سلم من التتر إلى أفامية فقاتلهم المسلمون عندها فرحلوا وتوجهوا إلى الشرق .

مبايعة شخص بالخلافة وإثبات نسبته

فى شهر رجب من هذه السنة أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة قدم شخص إلى مصر من بنى العباس الذين سلموا فى بغداد من قتل التتر واسمه أحمد بن الظاهر ابن الناصر

فعقدوا له مجلساً بمصر حضره العز بن عبد السلام وغيره من العلماء والسلطان الظاهر بيبرس وأثبتوا نسبه وعلى هذا يكون عم المستعصم ، وجاء جماعة من العرب العارفين به فشهدوا بنسبه ، فبايعه الملك السلطان بيبرس والعلماء والناس بالخلافة ، واهتم الملك الظاهر بأمره واحتفل به وجهز معه عساكر كثيرة ، ووجههم لقتال التتر طمعاً أنه يستولى على بغداد . ثم جاءت الكتب منه أنه استولى وعساكره على عانة والحديثة ، وأنه كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على الوصول إليهم ثم قبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليها التتر وقاتلوا الخليفه المذكور وقتلوه وقتلوا غالب أصحابه ونهبوا ما كان معهم وجاءت الأخبار إلى مصر بذلك فى آخر السنة المذكورة ، وفى آخر سنة ستين من ذى الحجة حضر أيضاً شخص آخر من بنى العباس الذين سلموا من قتل التتر اسمه أيضاً أحمد بن حسن بن أبى بكر بن على بن حسن بن الراشد بن المسترشد ابن المستظهر فأثبتوا نسبه وبايعه السلطان بيبرس والعلماء ولقبوه الحاكم بأمر الله وأشركه السلطان فى الدعاء لا غير وبقى عقبه بمصر ويبايعهم السلاطين وليس بيده من الملك والتصرف شىء بل الأمر بيد السلاطين المتملكين مصر ، واستمر ذلك إلى دخول السلطان سليم بمصر سنة تسعمائة واثنتين وعشرين ، وفى سنة إحدى وستين وستمائة جهز الملك الظاهر عساكره من مصر وغازوا على عكا وأعمالها وهى بيد الفرنج فغنموا وعادوا ، ثم ركب الملك الظاهر بنفسه ومعه جماعة اختارهم وأغار ثانيا على عكا وبلادها وهدم برجا كان خارج البلد وهدم الكنيسة المسماة بالناصرة وكانت من أكبر مواطن عبادات النصارى لأن منها خرج دين النصرانية وتوجه عسكر كثير إلى أنطاكية وبلادها وهى أيضاً بيد الفرنج فساروا إليها وأغاروا على أطرافها وضايقوها وعادوا ومعهم ما ينوف على ثلاثمائة أسير ، وفى سنة ثلاث وستين سار الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية بعساكره المتوافرة إلى جهاد الفرنج بساحل الشام ونازل قيسارية وضايقها وفتحها بعد ستة أيام وأمر بها فهدمت ، ثم سار إلى أرسوف وفتحها ، وفى سنة أربع وستين سار من مصر بعساكره المتوافرة إلى الشام وجهز عسكره إلى ساحل طرابلس الشام وكانت بيد الفرنج ففتحوا القليعات وعرقا

ونزل هو على صفد وضايقها بالزحف وآلات الحصار ولاصق الجند القلعة وكثر القتل والجراح فى المسلمين ، ثم فتحها وقتل أهلها عن آخرهم ثم بعث كثيراً من العساكر إلى بلاد سيس يقتلون ويأسرون كيف شاؤا ، وفى سنة ثلاث وستين هلك هلاكو بن طولى بن جنكزخان واستقر ولده أبغا على ما كان بيده من الممالك واستمر إلى سنة إحدى وثمانين وهلك واستقر بعده أخوه تكدار بن هلاكو ، ثم أسلم وتسمى أحمد وخاطب بذلك الملوك الكثيرة فى عصره وأرسل إلى مصر يخبرهم ويطلب المساعدة وسار يأمر التتر بالإسلام ، فثار لذلك فتنة بين التتر مع بعضهم إلى أن قتلوا أحمد المذكور سنة اثنين وثمانين وستمائة ، وتملك أرغو ابن أبغا وعدل عن دين الإسلام وأحب دين البراهمة من عبادة الأصنام وانتحال السحر والرياضة وأصابه داء الصرع وهلك سنة تسعين ، وتملك كتخاتوا بن أبغا إلى سنة ثلاث وتسعين فقتل وتملك بيدوا بن طرغاى بن هلاكو وقتل سنة خمس وتسعين وتملك قازان بن ارغو بن ابغا هلاكو سنة ثلاث وسبعمائة ، فولى بعده أخوه خربند بن أرغو وابتدأ أمره بالدخول فى الإسلام وتسمى بمحمد وتلقب غياث الدين ، ثم صحب الروافض وساء اعتقاده وحذف ذكر الشيخين من الخطبة ونقش أسماء الأئمة الإثنى عشر على سكته ، ثم أنشأ مدينة قزوين وهمذان وسماها السلطانية ونزلها واتخذ بها بيتاً لطيفاً بلبن من الذهب والفضة وأنشأ بإزائها بستاناً جعل فيه أشجار الذهب بثمر اللؤلؤ والفصوص وأجرى اللبن والعسل أنهاراً وأسكن به الغلمان والجوارى تشبيهاً له بالجنة وأفحش فى التعرض لحرمات قومه وهلك مسموماً سنة ست عشرة وسبعمائة ، وخلف ابنه أبا سعيد طفلا ابن ثلاثة عشرة سنة فبويع له وأظهر الإسلام واستقامت الأمور بواسطة وزير لأبيه يسمى جوبان واستمر أبو سعيد إلى أن مات سنة ست وثلاثين وسبعمائة وكان قد انعقد صلح بينه وبين ملك مصر الملك الناصر قلاوون سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وحج الأكابر من قرابة أبى سعيد ملك التتر بالعراقيين واتصلت المهاداة بينه وبين الملك الناصر ، ولما مات أبو سعيد لم يعقب واختلف أهل دولته وانقرض الملك من بنى هلاكو وافترقت الأعمال التى كانت فى ملكهم وأصبحت طوائف فى خراسان وفى عراق العجم وفارس وأذربيجان وكذلك

في بلاد الروم ، ولما هلك أبو سعيد سنة ست وثلاثين نصب أمراء قومه الوزير غياث الدين والملك موسى خان من أسباطهم وقام بدولته الشيخ حسن بن حسين بن بيبغا بن أملكان وهو ابن عمة السلطان أبي سعيد فتغلب وتمكن الشيخ حسن وصار الملك والحل والعقد بيده إلى أن توفي سنة سبع وخمسين وسبعمائة، فولي مكانه ولده أويس وتوفي سنة ست وسبعين وسبعمائة ، وتملك ابنه حسين بن أويس، ثم تغلب عليه أخوه أحمد بن أويس وقبض عليه وقتله سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ، واستمر أحمد بن أويس إلى سنة خمس وتسعين وسبعمائة فجاء تيمورلنك بجموعه وملك العراق وبغداد فقدم أحمد بن أويس على سلطان مصر السلطان برقوق مستجيرا به مستصرخا به على طلب ملكه ، وكان ذلك في ربيع سنة ست وتسعين وسبعمائة ، فأجاب صريخه ونادى في عسكره بالتجهيز وسيأتي إتمام الكلام على ذلك عند ذكر تيمورلنك وذكرنا ملوك التتر متتابعين إلى آخرهم ليتصل الكلام ببعضه ، ولنرجع إلى ذكر بقية فتوحات الملك الظاهر مع بقية محاربات التتر وملوك مصر بالشام .

ذكر فتح يافا وأنطاكية وعكا

في سنة ست وستين وستمائة توجه الملك الظاهر بيبرس بعساكره المتوافرة إلى الشام وفتح يافا وأخذها من الفرنج ، ثم توجه إلى أنطاكية ونازلها وشدد الحصار عليها إلى أن ملكها بالسيف وقتل أهلها وسبي الذراري والنساء وغنم أموالا جليلة ، ثم توجه إلى بغراس فملكها ، وفي سنة تسع وتسعين نازل حصن الأكراد إلى أن ملكه، ثم رحل إلى حصن عكا ونازله وجد في قتاله إلى أن ملكه ثم توجه إلى حصن القرين ونازله وملكه. وفي سنة سبعين وستمائة أغارت التتر على عينتاب وعلى سروج وقيطون وانتهوا إلى قرب أفامية ثم رجعوا ثم نازلوا البيرة ونصبوا عليها المجانيق وضايقوها فسار إليهم الملك الظاهر بيبرس وأراد عبور الفرات إلى بر البيرة فقاتله التتر على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتر فرحلوا عن البيرة وتركوا آلات الحصار بحالها فصارت للمسلمين، وفي سنة ثلاث وسبعين توجه الملك الظاهر بيبرس إلى بلاد سيس فدخلها بعساكره المتوافرة فغنموا ثم رجعوا

إلى دمشق ، وفى سنة ٦٧٤ قصد التتر البيرة ونازلوها فتوجه إليهم الملك الظاهر بعساكره فلما سمعوا به ارتحلوا ، وفى سنة ٧٥ غزا الملك الظاهر بلاد الروم بعساكره المتوافرة والتقى فى طريقه بجيش من التتر فقاتلهم وهزمهم وقتل كثيرا منهم وقتل مقدمهم وأسر كثيرا منهم ، ثم سار إلى قيسارية فملكها ثم سار إلى عمق حارم يقتل ويأسر ثم عاد إلى دمشق، وفى سنة ٧٥ أيضا كان ابتداء عمل المحمل فى مدة الملك الظاهر بيبرس يطوفون به فى مصر قبل خروجه لترغيب الناس فى الحج وتهييجهم ، ثم يسافرون به مع كثير من الحجاج من طريق البر وعند رجوعهم يزورون النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى سنة ٧٦ حج الملك الظاهر بنفسه وزار النبى صلى الله عليه وسلم وتصدق بصدقات كثيرة على أهل الحرمين وغسل الكعبة بيده ، ثم رجع ثم توفى فى الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦ ومدة ملكه نحو ١٧ سنة وولى بعده ولده الملك السعيد بركه وخلع سنة ٧٨ وولى ولده الآخر سلامش وخلع بعد شهرين وولى الملك المنصور قلاوون الصالحى وكل هؤلاء يقال لهم المماليك البحرية ويقال لدولتهم الدولة التركية والذين بعدهم يقال لهم الجراكسة إلى أن تملك مصر السلطان سليم (والحاصل) أن ملوك مصر بعد الفاطميين الملوك الأيوبية وأولهم السلطان صلاح الدين وآخرهم الملك الأشرف موسى ابن يوسف ابن الملك المسعود قسيس بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب والملك العادل أخو السلطان صلاح الدين توارث الملك بنوه بعده إلى سنة ٦٤٨ وكانوا استكثروا من المماليك البحرية فتغلبوا على الملك وصار فيهم بعد ساداتهم وبقى الملك فى المماليك البحرية ١٣٦ سنة من سنة ٦٤٨ إلى ٧٨٤ وعدد ملوكهم ٢٤ وكان لهم مماليك من الجراكسة فتغلبوا على الملك وأول ملوك المماليك البحرية عز الدين أيبك وآخرهم الملك الصالح شعبان بن الحسين بن الناصر قلاوون وملوك الجراكسة هم مماليك المماليك البحرية وأولهم الملك الظاهر برقوق وآخرهم قانصوه الغورى ومدة ملك الجراكسة ١٣٨ سنة من سنة ٦٨٤ إلى سنة ٨٢٢ وعدد ملوكهم ٢٣ والسبب الجارى بتقدير الله تعالى لتملك المماليك البحرية أنه فى آخر الدولة الأيوبية كان هجوم الفرنسيس على دمياط وتملكهم إياها ، وكان ملك مصر بيد الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك

الكامل محمد فمرض ومات وأوصى بالملك لولده توران شاه وكان غائباً فى قلعة حصن كيفا وكانت زوجة الملك الصالح شجرة الدرأم ولده خليل مدبرة للأمور ، فأخفت موت الملك الصالح وأقامت على ذلك مدة وهى قائمة بالأمر والنهى إلى أن حضر ولده توران شاه وقابل الفرنسيس وهزمهم وقتل منهم أكثر من مائة ألف وأسر ملكهم كما تقدم ذلك كله ، ثم شرع فى أبعاد مماليك أبيه وأهانتهم وكانوا هم الأمراء فاتفقوا على قتله وقتلوه ، ثم اتفقوا على إعطاء السلطنة لشجرة الدر فكانت تعلم على المناشير ويدعى لها على المنابر فكان الخطيب يقول بعد الدعاء للخليفة واحفظ اللهم الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصم صاحبة السلطان الملك الصالح ويكتب اسمها على السكة ٨٠ يوماً وجعلت النائب عنها فى الأحكام عز الدين أيبك وهو من مماليك الملك الصالح نجم الدين ابن أيوب ، ثم أطلقت ملك الفرنسيس بشروط كما تقدم ، ثم تزوجت بنائبها فجاءهم مكتوب من بغداد من الخليفة العباسى يوبخهم فيه على تمليك امرأة ويقول لهم إن لم يكن عندكم رجل نرسل إليكم رجلا يتولى عليكم فاتفقوا على أن يملكوا رجلا من بنى أيوب فملكوا الملك الأشرف موسى المتقدم ذكره وكان صغيراً وأشركوا معه شجرة الدر ونائبها عز الدين أيبك ، ثم خلعوا الملك الأشرف وجعلوا السلطنة لعز الدين أيبك استقلالا ، ثم أنه أراد أن يتزوج بنت ملك الموصل فشق ذلك على زوجته شجرة الدر فاتفقت مع الطواشي محسن الجوهرى على قتل عز الدين أيبك فهجموا عليه فى الحمام فقتلوه ، فلما سمع مماليكه بقتله عزموا على قتل شجرة الدر فسبقتهم زوجة عز الدين أم ولده فدخلت هى وجواريها على شجرة الدر فقتلوها بالقباقب وأقاموا فى السلطنة نور الدين ولد عز الدين أيبك وعمره عشر سنين وجعلوا النائب عنه أحد مماليك أبيه وهو الأمير قطز ، ثم لما هجم التتر على الأقطار الشامية استحسن أهل الحل والعقد أن يخلع الملك الصغير نور الدين وأن تكون السلطنة استقلالا للأمير قطز يستقل بتدبير الملك والقيام بقتال التتر فأقاموا قطز فى السلطنة ولقبوه الملك المظفر وخلعوا نور الدين بن عز الدين أيبك ، ثم خرج الملك المظفر قطز بالعسكر إلى الشام لقتال التتر فالتقى معهم عند عين جالوت من أرض كنعان فقاتلهم،

قتالا شديداً إلى أن هزموهم وأسر منهم خلقاً كثيراً وتعلق المنهزم منهم برؤس الجبال وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم وأسر ابنه وأرسل قطز خلفهم بيبرس ومعه عسكر فتبعهم إلى أطراف البلاد وأتم المظفر قطز السير بالعساكر إلى دمشق وتضاعف شكر العالم لله تعالى على هذا النصر العظيم من بعد اليأس من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام لأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه وكان القتال مع التتر وهزيمتهم يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وفي يوم دخول قطز دمشق شنق جماعة من المسلمين المنتسبين للتتر ولما قرر قطز أمر الشام وحلب وغيرها سار من دمشق بالعساكر راجعاً إلى مصر وكان الأمير بيبرس سأله أن يوليه حلب فامتنع فاتفق مع بعض الذين كانوا مع قطز على قتله ، وساروا معه إلى دمشق يترقبون الفرصة فلما وصل إلى موضع بينه وبين الصالحية مرحلة وقد خرج النائب بمصر مع العساكر الذين بمصر لاستقبالهم من الصالحية فبينما الملك قطز سائر إذ ثارت أرنب بين يديه فساق جواده خلفها ، وساق معه بيبرس والذين تواطؤا معه على قتل قطز وأبعدوا عن العساكر السائرة معهم ، ثم وقفوا فتقدم واحد منهم وشفع عند قطز في إنسان فأجابه إلى ذلك فأهوى ليقبل يديه وقبض عليهما فحمل عليه بيبرس وضربه بالسيف ، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه وكان ذلك سابع ذي القعدة من السنة المذكورة ، ثم سار بيبرس ومن معه حتى وصلوا الصالحية فوجدوا العساكر التي خرجت من مصر لاستقبالهم ومعهم نائب السلطنة فارس الدين أقطاي ينتظرون قدوم الملك قطز فلما علم نائب السلطنة الخبر منهم سألهم من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال نائب السلطنة ياخوند اجلس في مرتبة السلطنة ومعنى خوند الكبير الشأن فجلس واستدعى العساكر للتحليف فحلفوا له واستقر الملك لبيبرس ، ثم ساق وسبق العساكر إلى قلعة الجبل ففتحت له ودخلها وكانت مصر قد زينت لقدوم قطز فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس فسبحان من يدبر ملكه كيف شاء ولا يسأل عما يفعل فإن له في كل شيء حكمة ، وكان بيبرس في الأصل مملوكا لا يدكين البندقدار الصالحي ثم اشتراه الملك الصالح نجم الدين

ابن أيوب، قال ابن الوردى فى تاريخه إن الملك الظاهر بيبرس كان على قدم الديانة وكان ملازما للخمس فى أوقاتها وألزم حاشيته بها وحكى عنه أنه ما شرب خمراً قط ومنع كل مسكر وكان يحصل من مكس المسكر بمصر كل يوم ألف دينار فأبطله ، ولما حج رؤى بباب الكعبة محرماً يأخذ بأيدى ضعفاء الرعية ليصعدوا وعمل الستور الديباج للكعبة والحجرة النبوية وخطب مرة المجد إسماعيل الواسطى والسلطان بيبرس حاضر فقال فى الخطبة أيها السلطان إنك لن تدعى يوم القيامة يا أيها السلطان لكن تدعى باسمك وكل منهم يسأل عن نفسه إلا أنت فإنك تسأل عن رعاياك فاجعل كبيرهم أبا وأوسطهم أخا وصغيرهم ولدا فاستعذب وعظه وأجزل عطاه وكان له فى السنة عشرة آلاف أردب تفرق على الفقراء والمساكين ووقف أوقافا على جهات عديدة واستن سنن المعمرين ونصب للناس خيمة وفتح أنطاكية وبغراس والقصير وحصن الأكراد وحصن عكا والقرين وصافيتا ومرقبة وأمنت لهيبته السبل ويكفيك فعله بالتتر بعين جالوت وخوضته إليهم غمرات الموت مرات فشكر الله سعيه وإنما ذكرت مبدأ دولة المماليك البحرية والجراكسة إلى آخر ما تقدم استطرادا وإن كان خارجا عما التأليف بصدده تكثيراً للفوائد ولما فى ذلك من الاعتبار لذوى الأبصار والله ولى التوفيق .

﴿ ولنرجع ﴾ إلى ما نحن بصدده فى سنة ثمانين وستمائة جاءت جيوش من التتر إلى البلاد الشامية ، وكان ذلك فى مدة سلطنة الملك المنصور قلاوون بمصر فخرج لقتالهم فكان المصاف العظيم بين المسلمين والتتر بظاهر حمص فنصر الله المسلمين بعد ما كانوا أيقنوا بالبوار وانهزم التتر هزيمة قبيحة وكثر القتل والأسر فيهم وكان عدة جيش التتر ثمانين ألفاً وعاد السلطان إلى دمشق والأسرى والرؤوس بين يديه وفى سنة أربع وثمانين وستمائة سار الملك المنصور قلاوون بعساكره ونازل حصن المرقب وهو حصن فى غاية العلو والمتانة والحصانة لم يطمع أحد من الملوك الماضين فى فتحه فلما زحف العسكر عليه أخذ الحجارون فى النقب ونصبت عليه عدة مجانيق ، فلما تمكنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهله الأمان فأجابهم السلطان رغبة فى إبقاء عمارته لو أخذه بالسيف لهدمه

فيحصل التعب فى إعادة عمارته فأعطى أهله الأمان على أن يتوجهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح وتسلم الحصن وقرر أمره ورتبه وارتحل إلى الوطأة بالساحل وأقام بمروج ثم سار ونزل تحت حصن الأكراد، ثم سار ونزل على بحيرة حمص وفى سنة ست وثمانين سار إلى القلعة صهيون ونصب عليها المجانيق وضايقها بالحصار فأجابه صاحبها إلى تسليمها بالأمان فتسلمها ثم سار إلى اللاذقية وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع الجهات فركب طريقاً إليه فى البحر بالحجارة وحاصر البرج المذكور ، ثم تسلمه بالأمان وهدمه ثم رجع إلى مصر وأرسل جيشاً إلى النوبة فغنموا وعادوا ، وفى سنة ثمان وثمانين سار السلطان بعساكره ونازل طرابلس الشام وكانت بيد الفرنج ونصب عليها المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار ، وشدد عليها القتال حتى فتحها بالسيف ودخلها العسكر عنوة فهرب بعض أهلها إلى المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم ونساؤهم وغنم المسلمون غنيمة عظيمة، وكان فى البحر قريبا من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة فهرب إليها كثير من الفرنج رجالا ونساء فاقتحم العسكر الإسلامى البحر وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة فقتلوا من فيها من الرجال وسبوا من فيها من النساء والصغار وغنموا ما فيها من الأموال ، وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس الشام سنة ثلاث وخمسمائة فبقيت فى أيديهم إلى هذه السنة أعنى سنة ثمان وثمانين وستمائة فيكون مدة لبثها مع الفرنج مائة سنة وخمساً وثمانين سنة وشهوراً وتوفى الملك المنصور قلاوون سنة تسع وثمانين وأقيم فى السلطنة بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل .

ذكر فتح عكا

فى سنة تسعين وستمائة جهز السلطان صلاح الدين خليل بن قلاوون عساكره الوافرة لفتح عكا وصحب معه المجانيق وآلات الحصار فنازلها وشدد عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها واشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى ظهر يوم الجمعة السابع عشر من شهر جمادى الآخرة بالسيف ، ولما هجمها المسلمون هرب جماعة ممن كانوا فيها من الفرنج إلى المراكب وقتل المسلمون من بقى منهم بعكا

وكانوا كثيرين وغنموا شيئاً يفوت الحصر ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولى على عكا وأخذوها من السلطان صلاح الدين الأيوبى ظهر الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها من المسلمين ، ثم قتلوهم فبقيت تحت أيديهم مائة سنة وثلاث سنين فقدر الله فى سابق علمه أنها تفتح فى هذه السنة فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على يد السلطان صلاح الدين فكان فتوحها فى مثل اليوم الذى ملكها الفرنج فيه وكذلك لقب السلطانين إذ كل منهما يلقب صلاح الدين وتقدم التنبيه على ذلك عند ذكر أخذ الفرنج لها .

ذكر فتوح عدة حصون

لما فتحت عكا ألقى الله الرعب فى قلوب الفرنج الذين بساحل الشام فأخلوا صيداً وبيروت وتسلمها المسلمون وهرب أهل مدينة صور فأرسل السلطان من تسلمها ثم تسلم عثليث ثم الطرطوس واتفق لهذا السلطان من السعادة مالم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للاسلام ، وكان أمرا لا يطمع فيه ولا يرام وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام ، فلله الحمد والمنة على ذلك قد تقدم فتح حلب سنة أربع وستين وكان التتر قد خربوا قلعتها ، فأمر السلطان بعمارتها فتمت فى سنة إحدى وتسعين وكان تخريبها فى سنة ثمان وخمسين فكان لبثها على التخريب نحو ثلاث وثلاثين سنة .

ذكر فتح قلعة الروم

هى قلعة على جانب الفرات فى غاية الحصانة سار إلى فتحها السلطان صلاح الدين قلاوون فى سنة إحدى وتسعين بكثير من الجيوش ونصب عليها المجانيق واشتدت مضايقتها ودام حصارها ، وفتحت بالسيف وقتل أهلها وسبيت ذراريهم واعتصم جماعة من أهلها بالقلعة ، فحوصروا ورمى عليهم بالمنجنيق فطلبوا الأمان فلم يؤمنهم إلا على

أرواحهم خاصة وأن يكونوا أسرى فأجابوا إلى ذلك ثم أمر السلطان بعمارة القلعة ورجع إلى دمشق ، وفى سنة ثلاث وتسعين قتل السلطان صلاح الدين قتله بعض مماليك أبيه وتسلطن بعده أخوه الملك الناصر ، وفى سنة سبع وتسعين وستمائة تجهزت العساكر من مصر ثم ساروا إلى الشام ، ثم ساروا إلى بلاد سيس وشنوا عليهم الغارات وكبسوهم وغنموا وعادوا ثم ساروا مرة أخرى ونزلوا على حمص وحاصروها وضيقوا على أهلها ، وكان بها من الأرمن جمع كثير فقل عليهم الماء واشتدت بهم العطش وهلك النساء والأطفال فأخرج أهل حمص منها نحو ألف مائتين من النساء والأطفال فتقاسمهم العساكر واستمر الحصار فضاقت على الأرمن الأرض وهلكو من كثرة من قتل منهم وغنم منهم المسلمون غنائم كثيرة فطلبوا الأمان وسلموا حمص وحموص وجميع البلاد التى فى جنوبى نهر جيحان ثم سلمت تل حمدون بعدها ، ثم باقى الحصون فى شتاء سنة سبع وتسعين وستمائة فرتب المسلمون فيها من يقوم بها ويحميها ، وفى سنة تسع وتسعين وستمائة أقبلت التتر بجموع كثيرة وعبروا الفرات إلى حلب ، ثم إلى حماه فخرجت لهم جموع المسلمين والتقوا بجمع الروم من شرقى حمص واقتتلوا قتالا شديداً وانهزمت جيوش المسلمين وساق التتر خلفهم إلى غزوة والقدس وبلاد الكرج وغنموا من المنهزمين شيئاً كثيراً وأخذ أهل دمشق الأمان وملكه التتر وعصت عليه القلعة فحصرو ، فصبر المسلمون على الحصار ولم يسلموها وأحرقت الدور التى حول القلعة والمدارس ثم إن عساكر مصر لما وصلوا إلى مصر رسم لهم بالنفقة فأنفق السلطان عليهم أموالا جليلة وأصلحوا أحوالهم وجددوا عدتهم وخيولهم وخرجوا من مصر فى العشر الأول من رجب من سنة تسع وتسعين وكاتبوا المسلمين الذين بالشام فى السر وصاروا معهم ، فلما خرجت العساكر من مصر بلغ ذلك التتر فخافوا وساروا من وقتهم إلى الديار الشرقية وخلا الشام منهم فوصلت العساكر الإسلامية إلى الشام ورتبوا أمراءها وغيرهم وفعلوا مثل ذلك بحلب وحماه وغيرها ولما استولى التتر على الشام طمع الأرمن فى البلاد التى افتتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها ، فتركها الذين كانوا بها وأخلوها من العسكر والرجال فاستولى

الأرمن عليها وارتجعوا حموص وتل حمدون وكوبر وسر فندكار والنقير وغيرها ولم يبق مع المسلمين من جميع تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان واستولى الأرمن أيضاً على غيرها من الحصون و البلاد التى كانت جنوبى نهر جيحان ، وفى سنة سبعمائة عادت التتر وقصدت الشام وعبروا الفرات فى ربيع الآخر ، وجفلت المسلمون منهم وخلت بلاد حلب ، وأقامت التتر ببلاد سرمين والمعرة وتيزلين والعمق وغيرها ينهبون ويقتلون ، وكان ذلك فى مدة السلطان الناصر قلاوون ، فسار السلطان والعساكر الإسلامية لقتالهم من مصر ووصلوا إلى العوجاء واتفق فى تلك المرة تتابع الأمطار إلى الغاية واشتدت الوحول حتى تقطعت الطرقات وتعذرت الأقوات وعجزت العساكر عن المقام على تلك الحال فرحل السلطان والعساكر وعادوا إلى الديار المصرية فوصلوا مصر فى عاشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وأما التتر فإنهم أقاموا يتنقلون فى بلاد حلب وأعمالها نحو ثلاثة أشهر ثم أن الله تعالى تدارك المسلمين بلطفه ورد التتر على أعقابهم بقدرته فعادوا إلى بلادهم وعبروا الفرات فى أواخر جمادى الآخرة من هذه السنة ورجع عساكر حلب إلى حلب وتراجعت الجفال إلى أماكنهم ، ولما كان أوائل هذه القصة وجاءت الأخبار إلى مصر بعود التتر إلى الشام أخرج غالب الأغنياء من أهل الشام ومصر ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة وأعانتهم. وفى سنة إحدى وسبعمائة خرجت العساكر الإسلامية لقتال الأرمن وانتشروا فى بلاد سيس وحرقوا الزروع وقتلوا من وجدوه وغنموا شيئاً كثيراً . وفى سنة اثنتين وسبعمائة غزا المسلمون جزيرة أرواد وهى جزيرة فى بحر الروم قبالة أنطرطوس قريبا من الساحل اجتمع فيها كثير من الفرنج وبنوا فيها حصونا وسوروا وتحصنوا فى هذه الجزيرة وكانوا يطلعون منها ويقطعون الطريق على المسلمين المترددين فى ذلك الساحل فاتخذ المسلمون أسطولا وساروا إليها من الديار المصرية فى بحر الروم ووصلوا إليها فى المحرم من هذه السنة وجرى بينهم وبين الفرنج قتال شديد ونصر الله المسلمين وملكوا الجزيرة المذكورة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها وعادوا إلى الديار المصرية بالأسرى والغنائم .

ذكر دخول التتر إلى الشام وكسرتهم مرة بعد أخرى

فى سنة اثنتين وسبعمائة عاودت التتر قصد الشام وساروا إلى الفرات وأقاموا عليها مدة فى أزوارها ، وسارت منهم طائفة قدر عشرة آلاف وأغاروا على القريتين وتلك النواحى ، وكانت العساكر الإسلامية قد اجتمعت بحماه وأرسلوا جماعة من العسكر لقتال الذين أغاروا على القريتين فالتقوا بالتتر سابع شعبان فى موضع يقال له الكوم واقتتلوا وصبر الفريقان ، ثم نصر الله المسلمين وولى التتر منهزمين وترجل بينهم جماعة كثيرة عن خيلهم وأحاط بهم المسلمون بعد فراغهم من الواقعة وبذلوا لهم الأمان فلم يقبلوا وقاتلوا بالنشاب وعملوا سروج الخيل ستائر وناوشهم العساكر من الضحى إلى انفراك الظهر ، ثم حملوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم فكان هذا النصر عنوان النصر الثانى على ما نذكره ، ثم عاد المسلمون إلى حماه منصورين ثامن عشر شعبان .

ذكر المصاف الثانى والنصرة العظيمة

ثم بعد وقعة الكوم سار التتر بجموعهم العظيمة ووصلوا إلى حماه فى الثالث والعشرين من شعبان من السنة المذكورة ، وجاء كثير من العساكر الإسلامية من دمشق ومصر وجاء السلطان الناصر بباقى العساكر الإسلامية والتقى الفريقان فى ثانى رمضان واشتد القتال بينهم واستشهد من المسلمين خلق كثير ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهزموا التتر وأكثروا القتل فيهم فولوا منهزمين لا يلوى بعضهم على بعض وحال الليل بين الفريقين فنزل التتر على جبل هناك بطرف مرج الصفر وأشعلوا النيران ، فأحاط المسلمون بهم ، فلما أصبح الصباح وشاهد التتر كثرة المسلمين انحدروا من الجبل يبتدرون الهرب فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وكان طريقهم أرض متوحلة فتوحل فيها عالم كثير من التتر ، فأخذ بعضهم أسرى وقتل بعضهم وساق كثير من العساكر الإسلامية فى أثر التتر المنهزمين إلى القريتين ووصل التتر إلى الفرات وهى فى قوة زيادتها ، فلم يقدروا على العبور والذى عبر فيها هلك ، فساروا على جانبها إلى جهة بغداد فانقطع أكثرهم على شاطىء الفرات

وهلك من الجوع وأخذ منهم العرب جماعة كثيرة وأخلف الله تعالى بهذه الواقعة ماجرى على المسلمين فى المصاف الذى كان ببلدة حمص سنة تسع وتسعين وستمائة ، وفى سنة ثلاث وسبعمائة خرجت العساكر من مصر ودخلوا بلاد سيس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالأمان وارتجعوها من الأرمن وهدموها إلى الأرض .

ذكر إغارة عسكر حلب على بلاد سيس

عند الدروب المجاورة لحلب وكانت كرسى ملك الأرمن والأرمن قوم دخلوا فى الملة النصرانية وكانت مواطنهم أرمينية ، ثم لما ملك المسلمون بلادهم وضربوا عليهم الجزية وأخذوا منهم خلاط ، وكانت كرسى ملكهم فانتقل ملكهم إلى سيس وكانوا يؤدون الضريبة للمسلمين ، ولما ظهر التتر دخلوا فى طاعتهم وأجلبوا معهم فى غزواتهم إلى الشام ، ثم صار ملوك مصر يغزون بلادهم ويغيرون عليهم ففى أوائل المحرم من سنة خمس وسبعمائة خرجت عساكر من حلب للاغارة على بلاد سيس فدخلوها ، وكان أمير العسكر ضعيف العقل قليل التدبير مشتغلا بشرب الخمر ففرط فى حفظ العسكر ولم يكشف خبر العدو واستهان بهم فجمع صاحب سيس جموعا كثيرة من التتر ، وانضم إليهم الأرمن والفرنج ووصلوا على غرة إلى عسكر حلب فالتقوا بالقرب من إياس فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولوا يبتدرون الطريق وتمكنت منهم التتر والأرمن فقتلوا وأسروا غالبهم واختفى من سلم من تلك الجبال ولم يصل إلى حلب منهم إلا القليل عرايا بغير خيل وفى هذه السنة سار عسكر من دمشق إلى جبال الظنيين وكانوا عصاة مارقين من الدين فأحطت بهم العساكر الإسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجلوا عن خيولهم وصعدوا فى تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنيين وغيرهم من المارقين وطهرت تلك الجبال منهم وهى جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وأمنت الطرق بعد ذلك فإنهم كانوا يقطعون الطرق ويتخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار ، وفى سنة ثمان وسبعمائة ملك الفرنج مدينة رودس وأخذتها من الروم قال الحافظ بن حجر فى تاريخ مصر فتحت رودس فى خلافة

معاوية رضى الله عنه وأمر جماعة من المسلمين بالإقامة بها ، فلما ولى يزيد أمرهم بالتحول خشية عليهم ففعلوا وتركوها ووضع الجزية والخراج على أهلها ثم ملكها الروم واستولوا عليها وتغلبوا ثم أخذتها الفرنج منهم ، وفى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة أقبلت التتر بجموعها وجفل أهل حلب وبلادها عند سماعهم الأخبار بإقبال التتر ثم وصلت التتر إلى بلاد سيس وكذلك وصلوا إلى الفرات ، ثم نازلوا الرحبة وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق وأخذوا فيها الثقوب فقام أهل الرحبة بحفظ القلعة أحسن قيام وصبروا على الحصار وقاتلوا أشد القتال فتجهزت العساكر الإسلامية من كل ناحية لانجادهم وأصاب التتر شدة جوع وغلاء وفناء وتعذرت عليهم الأقوات وسمعوا بإقبال جيوش الإسلام فارتحلوا خائبين بعد حصار نحو شهر وتركوا المجانيق وآلات الحصار على حالها فنزل أهل الرحبة واستولوا عليها ونقلوها إلى الرحبة ورجعت عساكر الإسلام وكفى الله المؤمنين القتال .

ذكر فتح ملاطية وكانت بيد الأرمن

فى سنة ٧١٥ فتحت ملاطية ، وهى مدينة مشهورة بأرض الروم ذات أشجار وأنهار وهى قاعدة الثغور ويحف بها جبال قيل أنه كان بها اثنى عشر ألف نول يعمل الصوف وسبب تجهز الجيوش لفتحها أنه كان بها جماعة من المسلمين اختلطوا بالنصارى حتى أنهم زوجوا الرجل النصرانى بالمسلمة وكانت ، الأجناد من المسلمين لا ينقطعون عن الإغارة على العدو ببلاد الروم وغيرها وكانت طريقهم فى غالب الأوقات تكون قريب ملطية فاتفق أن أهل ملاطية ظفروا ببعض الغيار المذكورين ، فأسروهم وقتلوا جماعة من المسلمين فلما جرى ذلك أرسل السلطان ناصر الدين قلاوون عسكراً ضخما من الديار المصرية ، فساروا إلى دمشق ورسم السلطان لجميع عساكر الشام بالمسير معه وكذا عسكر حماه وحلب وسار الجميع حتى وصلوا ملطية ونازلوها فى الثانى والعشرين من المحرم من السنة المذكورة فأحدقوا بهـا وحاصروها وخرج جماعة منها وطلبوا الأمان لأنفسهم فأمنوا واتفق أن الباب الذى فتح لخروجهم قبالة عسكر حماه فهجموا على المدينة من الباب المذكور

وخرج الأمر عن الضبط لكثرة العساكر الطاعة فنهبوا جميع ما فيها من أموال المسلمين والنصارى حتى لم يدعوا فيها إلا ما كان مطموراً ولم يعلموا به وكذلك استرقوا جميع أهلها بين المسلمين والنصارى ، ثم بعد ذلك وقع الإنكار التام على من استرق مسلما أو مسلمة وعرضوا الجميع فأطلق جميع المسلمين من الرجال والنساء وأما أموالهم فإنها ذهبت واستمرت النصارى فى الرق عن آخر ، ثم لما كان من نهب ملطية ما ذكرناه ألقى العسكر فيها النار فاحترق غالبها ، وخرب العسكر ما أمكن من أسوارها وأقام جيش المسلمين يوماً واحداً وليلة ثم ارتحلوا عائدين إلى بلادهم وبعثوا رسلا إلى صاحب بلاد سيس فى إعادة البلاد التى فى جنوبى جيحان وزيادة القطيعة فزاد القطيعة حتى جعلها نحو ألف درهم .

ذكر الإغارة على سيس وبلادها

فى سنة عشرين وسبعمائة برزت المراسيم السلطانية من السلطان الناصر قلاون بتجهيز العساكر والإغارة على بلاد سيس فخرجت عساكر من مصر والشام وحماه وحلب ودخلوا بلاد سيس فى منتصف ربيع الآخر ونازلوا قلعة سيس وزحفت العساكر عليها حتى بلغوا السور وغنموا غنائم كثيرة وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشى وكانوا شيئا كثيرا وأقاموا ينهبون ويخربون ورجعوا سالمين منصورين .

ذكر فتوح إياس من بلاد سيس

فى سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة توجهت العساكر حتى نازلوا إياس من بلاد سيس وحاصروها وملكوها بالسيف وعصت عليهم القلعة التى فى البحر فأقام المسلمون عليها منجنيقاً عظيما ، وركب المسلمون إليها بطريقين فى البحر إلى أن قاربوا القلعة فهربت الأرمن وأخلوها وألقوا فى القلعة ناراً ، فملك المسلمون القلعة وهدموا ما قدروا على هدمه وعاد كل عسكر إلى بلاده . وفى سنة سبع وعشرين وسبعمائة فى رمضان

ورد إلى دمشق مائة وأربعون أسيراً من بلاد الفرنج وذلك أن قاضى القضاة جلال الدين أشهد أنه جعل لكل من يحضر أسيراً مبلغا عينه وكتب بذلك مكتوبا وعرف الفرنج ذلك فجعلوا الأسرى من تجاراتهم وأحضروهم فأعطوا من وقف الأسرى ستين ألف درهم وأطلقوا الأسرى بحمد الله تعالى .

غزوة عساكر حلب بلاد سيس

فى سنة خمس وثلاثين وسبعمائة غزا عسكر حلب بلاد سيس وخربوا أذنة وطرسوس وأحرقوا الزرع واستاقوا المواشى وأتوا بمائتين وأربعين أسيراً وماعدم من المسلمين سوى شخص واحد غرق فى النهر ، وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم ، فلما علم إياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسوهم فى خان ثم أحرقوه فقل من نجا فعلوا ذلك بنحو ألفى رجل من التجار البغاددة وغيرهم فى يوم عيد الفطر فلله الأمر من قبل ومن بعد ، وفى سنة ٧٣٧ توجهت العساكر المصرية والشامية لغزو بلاد الأرمن فنزلوا فى ثانى شوال على مينا إياس وحاصروها ثلاثة أيام ثم قدم رسول الأرمن دمشق ومعه كتاب من نائب الشام بالكف عنهم على أن يسلموا القلاع والبلاد التى فى شرق نهر جيحان فتسلموا منهم ذلك وهو شىء كثير وملك كبير كالمصعبة وكوبرا والمارونية وسرفندكاد وإياس وباناس ونجيمة والتقير فخرب المسلمون برج إياس الذى فى البحر واستنابوا فى البلاد نوابا وعادوا سالمين ولله الحمد وهذا فتح اشتمل على فتوح وترك الأرمن جسداً بلا روح ، وفى سنة ٧٤١ توفى السلطان الملك الناصر محمد قلاوون وأقيم بعده ولده الملك المنصور أبو بكر ، وفى سنة ٤٤ أغارت التركمان مرات على بلاد سيس فقتلوا ونهبوا وشفوا الغليل من الأرمن . وفى سنة ٥٠ ملكت التركمان قلعة كابان بالحيلة وهى من أمنع قلاع سيس وقتلوا رجالها وسبوا النساء والأطفال فبادر صاحب سيس لاستنقاذها فصادفه ابن دلقادر فأوقع بالأرمن وقتل منهم خلقاً وانهزم الباقون .

واقعة الإسكندرية سنة سبع وستين وسبعمائة

قال ابن خلدون كان أهل قبرص من أمم النصرانية من بقايا الروم وإنما ينسبون هذا العهد إلى الإفرنج لظهور الإفرنج على سائر الأمم النصرانية وكان على أهل قبرص جزية معلومة يؤدونها إلى صاحب مصر وما زالت من لدن فتحها على يد معاوية وكانوا إذا منعوا الجزية يسلط صاحب الشام عليهم أساطيل المسلمين فيفسدون مراسيها ويعيثون في سواحلها حتى يستقيموا لأداء الجزية وكان الظاهر بيبرس بعث إليها سنة ٦٦٩ أسطولا من الشوانى فطوقت مرساها ليلا فتكسرت لكثرة الحجارة المحيطة بها فى كل ناحية ثم غلب لهذه العصور أهل جفوة من الإفرنج على جزيرة رودس حازتها من يد اليشكرى صاحب القسطنطينية سنة ٧٨ وأخذوا مخنقها وأقام أهل قبرص معهم بين فتنة وصلح وحرب إلى آخر أيامهم وجزيرة قبرص هذه على مسافة يوم وليلة فى البحر قبالة طرابلس منصبة على سواحل الشام ومصر فاطلعوا فى بعض الأيام على غرة فى الاسكندرية فأخبروا حاجبهم فعزم على انتهاز الفرصة فيها فنهض فى أساطيله واستنفر من سائر الإفرنج ووافا مرساها سابع عشر من المحرم سنة ٧٦٧ فى أسطول عظيم يقال أنه بلغ سبعين مركبا مشحونة بالعدد والعدد ومعه الفرسان المقاتلة بخيولهم ، فلما أرسى بها قدمهم إلى السواحل وعبى صفوفه وزحف وقد غص الساحل بالنظارة وبرزوا من البلد على سبيل النزهة لا يلقون بالا لما هم فيه ولا ينظرون مغبة أمره لبعد عهدهم بالحرب وحاميتهم يومئذ قليلة وأسوارهم من الرماة المناضلين دون الحصون الخالية ونائبها القائم بمصالحها فى الحرب والسلم خليل بن عوام غائب يومئذ فى قضاء غرضه فما هو إلا أن رجعت تلك الصفوف على التعبية ونضحوا القوم بالنبل فأجفلوا متسابقين إلى المدينة وأغلقوا أبوابها وصعدوا إلى الأسوار ينظرون ووصل القوم إلى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة واضطرب أهلها وماج بعضهم فى بعض ثم أجفلوا إلى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليه من أموالهم وسالت بهم الطرق والأباطح ذاهبين فى عروجه حيرة ودهشا وشعر بهم الأعراب أهل

الضاحية فتخطفوا الكثير منهم وتوسط الإفرنج المدينة ، ونهبوا ما مروا عليه من لدور وأسواق البر ودكاكين الصيارفة ومقاعد التجار وملأوا سفنهم من المتاع والبضائع والذخيرة والصامت واحتملوا مااستولوا عليه من السبي والأسرى وأكثر ما فيهم الصبيان والنساء ثم تسايل إليهم الصريخ من العرب وغيرهم فانكفأ الإفرنج إلى أساطيلهم ومكثوا فيها بقية يومهم وأقلعوا من الغد وطار الخبر إلى كافل الدولة بمصر الأمير بيبغا لأن السلطان الأشرف شعبان كان صغيراً وكان بيبغا كافل دولته وقائماً بتدبير أمر دولته فقام في ركائبه وخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعه ابن عوام نائب الاسكندرية منصرفاً من الحج ومعهم كثير من الأمراء والعساكر ونياتهم في الجهاد صادقة حتى بلغهم الخبر في طريقهم بإقلاع العدو فلم يثنه ذلك واستمر إلى الاسكندرية وشاهد ما وقع بها من معرة الحرب وآثار الفساد فأمر بهدم ذلك وإصلاحه ورجع إلى دار الملك وقد امتلأت جوانحه غيظا وحنقاً على أهل قبرص فأمر بإنشاء مائة أسطول معتزما على غزو قبرص بجميع من معه من عساكر المسلمين بالديار المصرية واحتفل في الاستعداد لذلك واستكثر من آلات الحصار ومن السلاح وكمل غرضه من ذلك كله ثم لم يقدر على إنجاز غرضه إلا في سنة ثمانمائة وتسع وعشرين كما سيأتي إن شاء الله وسبب هذا التأخير كثرة الفتن الواقعة بين أمراء مصر مع بعضهم .

انقراض دولة الأرمن والاستيلاء على سيس

في سنة ست وسبعين وسبعمائة في دولة الملك الأشرف شعبان بن حسن بن الناصر قلاوون تجهز جيش المسلمين لغزو بلاد سيس وكان قائد الجيش الماردينى نائب حلب فحاصرهم شهرين ونصب عليها المجانيق واستدعى أصناف التركمان للقتال فلما طال الحصار عليهم واشتد الضيق بهم نزل رئيسهم تكفور بالأمان فأرسله إلى مصر ودقت البشائر بذلك قال ابن خلدون سافر نائب حلب سنة ست وسبعين بالعساكر إلى بلاد الأرمن ففتح سائر أعمالها واستولى على ملكها تكفور بالأمان فوصل بأهله وولده إلى الأبواب

السلطانية ورتبت لهم الأرزاق واستولى السلطان على سيس وانقرض منها ملك الأرمن وجعل السلطان نيابة سيس ليعقوب شاه ثم أضيف إليها طرسوس واذنة وإياس وغيرها ، وفى سنة ثمانين وسبعمائة نازل الإفرنج طرابلس الشام فجهز السلطان عدة مراكب صحبة يلبغا الناصرى فالتقى بهم فهزمهم ، ثم أمر العساكر أن يتأخروا فطمع فيهم الفرنج إلى أن بعدوا عن البحر فرجع عليهم بالعساكر فهزمهم وقتل كثيراً منهم وفر من بقى وطلعوا إلى المراكب . وفى سنة خمس وثمانين وسبعمائة نازل الفرنج بيروت فى عشرين مركباً فراسل المسلمون نائب الشام فتقاعد عنهم واعتل باحتياجه إلى مرسوم من السلطان فنادى إينال اليوسفى بالغزو والجهاد فنفر معه جماعة فحال بين الإفرنج والبحر وقتل كثيراً منهم ونزل إليه بقية الإفرنج من المراكب يقاتلونه فهزمهم وقتل كثيراً منهم وغنم من مراكبهم ستة عشر مركباً قبضها واستولى عليها فكان للمسلمين بذلك سرور عظيم ، وفى سنة سبع وثمانين وسبعمائة أنشأ المسلمون شوانى كثيرة لغزو الإفرنج فى البحر الرومى واجتهدوا فى عملهم وسيروا الشوانى إلى دمياط فوجدوا بساحل دمياط غرابا للإفرنج فكبسوا عليه واستولوا عليه وأسروا من فيه ، وفى سنة تسعين وسبعمائة كانت وقعة عظيمة بناحية سيواس بين المسلمين والتتر كان النصر فيها للمسلمين ، وفى هذه السنين كان ظهور تيموورلنك بالديار الهندية وخراسان والعراق وكان ظهوره من أشد المحن والبلايا على هذه الأمة أفسد فى الأرض وأهلك الحرث والنسل ولنذكر تخاليص وقائعه ، ثم نعود إلى إتمام الكلام على فتوحات ملوك مصر والروم والله المستعان وسيأتى أن مسير تيمور إلى الشام كان سنة ثلاث وثمانمائة وحل إنذار من الله بذلك المسير الذى كان فيه البلاء قبل وقعه وذلك أن أول إنذار هو الحريق الذى وقع فى المسجد الحرام سنة اثنتين وثمانمائة قال النجم ابن فهد وتحدث أهل المعرفة بأن هذا ينذر بحادث جليل يقع فى الناس وكان كذلك فقد وقعت المحن العظيمة بقدوم تيموورلنك إلى بلاد الشام وبلاد الروم وسفك دماء المسلمين وسبى ذراريهم ونهب أموالهم وإحراق منازلهم ودورهم وكان ذلك الحريق الواقع فى المسجد الحرام المنذر بذلك فى أواخر شوال سنة ثمانمائة واثنتين فى مدة سلطنة الملك الناصر

فرج بن برقوق وكان الحريق من جهة الجانب الغربى واتصل منه بالسقف وعم الحريق الجانب الغربى وبعض الرواقين المقدمين من الجانب الشامى إلى محاذاة باب الباسطية بما كان من السقوف والأساطين وكانت السقوف كلها من الخشب الساج وصار التعمير لهذا كله بعد ذلك وأعيد السقف خشبا كما كان وفرغوا من التعمير سنة ثمانمائة وأربع وكان أمير مكة الشريف حسن بن عجلان .

ذكر ظهور التيمور

إنما ذكرنا التيمور وقتاله وإن كان يدعى الإسلام لأن قتاله مثل قتال الكفار لأنه فعل أفعالا مع المسلمين أكثر مما تفعله الكفار من القتل والأسر والتخريب وكان رافضيا شديد الرفض ، وسبب خروجه أن ملوك التتر اقتسموا الممالك وانتشرت الفتن بينهم مع بعضهم وكثر عليهم الثوار والخارجون وكان ذلك كله سببا لضعف دولة التتر وموجبا لقيام تيمور وغيره واختلفوا فى نسب تيمور فقيل أن نسبه ينتهى إلى جنكزخان ملك التتر ، وفى تاريخ ابن خلدون أن تيمور ينسب هو وقومه إلى جغطاى بن جنكزخان وجزم بعضهم بأن نسبه إلى جغطاى بن جنكزخان إنما هو من جهة أمه لا من جهة أبيه وكان أول ظهوره سنة سبعمائة وثلاث وسبعين وأرخه بعضهم بقوله « عذاب » ٧٧٣ وهو أحد الدجالين الموعود بهم فى الأخبار النبوية فإنه تغلب على الممالك الإسلامية وأكثر القتل وأفسد الأرض وأهلك الحرث والنسل وكان مبدأ أمره وأمر أبيه أنهما كانا فقيرين وكان أبوه إسكافيا من قرية من أعمال كش وهى مدينة من مدائن ما وراء النهر ونشأ ولده تيمور جلدا قويا ذا جسم غليظ فكان لشدة فقره يسرق كثيرا فسرق فى بعض الليالى شاة واحتملها فشعر به الراعى فرماه بسهمين أصاب بأحدهم فخذه وبالآخر كتفه فأعابهما فكان أعرج اليمناوين ولذلك كان يقال له نصف إنسان ومع هذا لم يترك السرقة فما زال كذلك حتى اشتهر أمره وإفساده فظفر به السلطان حسين ملك هراة فأمر بضربه ثم بصلبه فضرب ثم تشفع فى ترك صلبه الأمير غياث الدين بن السلطان حسين المذكور فقال له أبوه السلطان حسين هذا أصل مادة الفساد لئن بقى ليهلكن العباد والبلاد فقال له ابنه غياث

الدين وما عسى أن يصدر من نصف آدمى وقد أصيب بالدواهى فما زال يراجع أباه حتى قبل شفاعته ووهبه له وعفى عنه ، ثم أن غياث الدين اصطحبه معه وقربه وأدناه وجعله من خواصه وزوجه أخته ورقاه حتى صار من وزرائه ، فلما صار الملك لغياث الدين بعد موت أبيه حسين ازدادت منزلة تيمور وصار مقدماً على كثير من الجند فطغى وبغى على مولاه غياث الدين ومبدأ ذلك أن زوجة تيمور وهى أخت السلطان غياث الدين وقع بينها وبين تيمور شىء أغضبه فقتلها ولم يراع حرمة مولاه ثم لم يسعه الأمر إلا بالخروج على السلطان غياث الدين وخلع الطاعة ولبس التمرد والطغيان فتملك بما كان تحت يده من الجند كثيرا من الممالك حتى استصفى ممالك ما وراء النهر وذلت لأوامره ملوك الدهر وشرع فى استخلاص بقية البلاد واسترق العباد فكان يجرى فى جسد العالم مجرى الشيطان من بنى آدم ويدب فى البلاد دبيب السم فى الأجساد ، ثم أرسل إلى مخدومه سلطان هراة الملك غياث الدين يطلب منه الدخول فى طاعته ليجازيه على إحسانه بإساءته فيتحقق بذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم « كتب الله على كل نفس خبيثة أن لا تخرج من الدنيا حتى تسىء إلى من أحسن إليها » فأرسل غياث الدين يقول له أما كنت خادمالى وأحسنت إليك وأسبلت ذيل نعمتى عليك وذلك بعد أن نجيتك من الضرب والصلب فإن لم تكن إنسانا يعرف الإحسان فكن كالكلب ، فلم يصغ لذلك بل عبر جيحون بمن معه من الجند وتوجه إلى محاصرة مولاه غياث الدين بهراة ولم يكن لغياث الدين قوة إلى قتاله والوقوف بين يديه فحصن نفسه فى القلعة فحاصره وضيق عليه ، ثم أمنه وقبض عليه وحبسه ومنع عنه الطعام والشراب حتى مات جوعا وعطشا ثم عاد إلى خراسان فانتقم أولا من أهل سجستان فوضع السيف فيهم وأفناهم عن آخرهم ثم خرب المدينة ورحل عنها ، ولم يزل هذا دأبه حتى تخلص له جميع ممالك العجم ودانت له ملوكهم والأمم ووصفه بعضهم بقوله وكان رجلا ذا قامة شاهقة كأنه من بقايا العمالقة عظيم الجبهة والرأس شديد القوة والبأس أبيض اللون مسربا بحمرة عظيم الأطراف عريض الأكتاف مستكمل البنية مسترسل اللحية أعرج اليمناوين وعيناه كشمعتين جهير الصوت لا يهاب الموت وكان من أبهته

وعظمته أن ملوك الأطراف وسلاطين الأكناف مع استقلالهم كانوا إذا قدموا عليه وتوجهوا بالهدايا والتقاديم إليه يجلسون على أعتاب العبودية والخدمة نحوا من مد البصر من سرادقاته وإذا أراد هو منهم واحداً أرسل من الخدمة نحوه قاصداً فينادى ذلك الواحد باسمه فينهض فى الحال يعدو نحوه ممتثلا أمره ودخل تحت طاعته ملوك السلجوقية أصحاب قونية كما كانوا داخلين تحت طاعة التتر، ولما ملك أصبهان والعراق والعجم والرى وفارس وكرمان بعد حروب هلك فيها ملوكهم وبادت جموعهم وخربت ديارهم وسبيت نساؤهم خافه السلطان أحمد بن أويس المتملك بغداد بعد التتر كما تقدم فجمع عساكره وأخذ فى الاستعداد له، ثم عدل إلى مصانعته ومهاداته فلم يغن ذلك عنه ومازال تيمور يخادعه بالملاطفة والمراسلة إلى أن فتر عزمه وفرق عساكره فنهض إليه يسرع السير فى غفلة عنه حتى انتهى إلى دجلة وسبق النذير إلى السلطان أحمد فأسرى بغلس ليلة وحمل ما أقلته رواحله من أمواله وذخائره وترك سفن دجلة ومر بنهر الحلة وصبح مشهد على رضى الله عنه ووافى تيمور وعساكره دجلة فى حادى عشر من شهر شوال سنة ٧٩٥ ولم يجد السفن فاقتحم بعساكره النهر ونازل بغداد وبعث عساكر فى اتباع السلطان أحمد، فساروا إلى الحلة وقد قطع جسرها فخاضوا النهر عندها وأدركوا السلطان أحمد بمشهد على، واستولوا على أثقاله ورواحله فكر عليه فى جموعه وقتل الأمير الذى كان عليهم فرجع بقية عسكرهم ونجا السلطان أحمد إلى الرحبة من تخوم الشام، فأراح بها وأرسل النائب بالرحبة يخبره بالسير إلى سلطان مصر السلطان الظاهر برقوق فسرح بعض خواصه فتلقوه بالنفقات والأزواد، ثم قدم السلطان أحمد إلى مصر، وخرج السلطان الظاهر برقوق إلى ملاقاته وأمر الأمراء بالمشى فى خدمته وأكرمه وأخبره السلطان أحمد أن تيمور أخذ بلاد العجم والعراق وأنه أرسل قصاده إلى السلطان برقوق فكتب السلطان برقوق إلى نائب الرحبة أن يقتل قصاد تيمور ففعل ذلك وأخبر السلطان أحمد الملك الظاهر برقوق بأنه جاء مستنصراً مستصرخاً به على من أراد انتزاع الملك منه فأجاب الملك الناصر صريخه ووعده بالنصر وتجهيز الجيوش، وكان قدوم السلطان أحمد على الملك

الظاهر فى شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وسبعمائة لأنه كان أصابه مرض فى طريقه تأخر بسببه عن سرعة الوصول وكان السلطان أحمد ترك نائباً له على بغداد ثم جاءتهم الأخبار بأن تيمورلنك حاصر بغداد ، ثم تملكها وعاث فيها وكان دخوله بغداد يوم عيد الأضحى فتقرب على زعمه بأن جعل المسلمين قرابين ، وقتل خلقاً كثيراً ثم أمر عسكره بأن يأتيه كل واحد برأسين من أهل بغداد فأتوا بالرؤوس ، فجمعها وأمر أن يبنى منها مآذن على صور المنائر وعجز بعض الجند عن المجيء برؤوس الرجال فقطع رؤوس النساء والأطفال واستصفى ذخائر السلطان أحمد واستوعب موجود أهل بغداد بالمصادرات لأغنيائهم وفقرائهم حتى مستهم الحاجة وأقفرت جوانب بغداد من العيش ثم أن تيمور بعد أن استولى على بغداد زحف فى عساكره إلى تكريت وأناخ عليها بجموعه أربعين يوما فحاصرها حتى نزلوا على حكمه فقتل من قتل منهم ثم خربوها وأقفرها وانتشرت عساكره فى ديار بكر إلى الرها ، ووقفوا عليها ساعة من النهار فملكوها وانتسفوا نعمها وافترق أهلها ، فبلغ الخبر إلى الملك الظاهر برقوق فنادى بالتجهيز إلى الشام وأفاض العطاء واستوعب الحشد من سائر أصناف الجند وارتحل إلى الشام ومعه السلطان أحمد ابن أويس وكان العدو تيمور قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً وملكها وعاثت عساكره فيها واكتسحت نواحيها وامتنعت عليه قلعتها ، فارتحل عنها إلى بلاد الروم ومر بقلاع الأكراد وأغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها ، وفى هذه المدة جهز السلطان برقوق عساكر كثيرة وبعثها مع السلطان أحمد إلى بغداد فملكها وضرب السكة باسم السلطان برقوق كما ذكر ذلك العلامة ابن الشحنة فى تاريخه ، وبقى السلطان برقوق بالشام مستجمعاً لعساكره مترقباً لقتال تيمور والوثبة به متى استقبل جهته ، فبلغ ذلك تيمور فلم يتجرأ على الإقدام بل رجع إلى بلاد خراسان ولم يقدر على الرجوع ودخول الديار الشامية إلا بعد وفاة السلطان برقوق كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

ذكر كتاب تيمور إلى السطان برقوق

كتب تيمور إلى الملك الظاهر السلطان برقوق كتابا يقول فيه بعد البسملة اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اعلموا أننا جند الله فى أرضه مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه لا نرق لشاك ولا نرحم عبرة باك قد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل ثم الويل لمن لم يكن من حزبنا قد خربنا البلاد وأيتمنا الأولاد خيولنا سوابق وسيوفنا صواعق وسهامنا خوارق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال ملكنا لا يرام وجارنا لا يضام من سالمنا سلم ومن رام حربنا ندم فإن أنتم قبلتم شرطنا وأطعتم أمرنا فلكم مالنا وعليكم ما علينا وإن خالفتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم وذلك بما كسبت أيديكم فالحصون لا تمنع والعساكر لا ترد ولا تدفع ودعاؤكم لا يسمع لأنكم أكلتم الحرام وأضعتم الجمعة وارتكبتم الآثام فأبشروا بالمذلة والهوان فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وتقولون أنه قد صح عندكم أننا كفرة فقد ثبت عندنا أنكم فجرة وقد سلطنا عليكم من بيده أمور مدبرة وأحكام مقدرة فعزيزكم عندنا ذليل وكثيركم لدينا قليل ، وقد أوضحنا لكم الخطاب فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطا ويدخل علينا منكم الخطا وترمى الحرب نارها وتلقى أوزارها وتدهون معا بأعظم داهية ، ولا يبقى لكم باقية ، وينادى عليكم منادى الفناء هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً الآن قد أنصفناكم إذ راسلناكم ، فردوا رسلنا بجواب هذا الكلام والسلام ، فلما سمع السلطان برقوق هذا الكتاب اغتاظ غيظاً عظيما وأمر بكتابة الجواب ، فكتب الجواب بإنشاء ابن فضل الله العمرى وصورته بعد البسملة والإصدار قد حصل الوقوف على كتاب ورد ، فقولكم أنكم مخلوقون من سخطه مسلطون على من يحل عليه غضبه وأنكم لا ترقون لشاك ولا ترحمون عبرة باك وقد نزع الرحمة من قلوبكم فذلك من أكبر عيوبكم وهذه صفات الشياطين لا صفات السلاطين قل ياأيها

الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ففى كل كتاب لعنتم وعلى لسان كل رسول بالسوء ذكرتم وبكل قبيح وصفتم وعندنا العلم بكم من حين خلقتم وأنتم الكفرة كما زعمتم ألا لعنة الله على الكافرين ، نحن المؤمنون حقا لا يدخلنا عيب ولا يخامرنا ريب القرآن على نبينا نزل والرب بنا رحيم لم يزل ، إنما الدار لكم خلقت ، وجلودكم اضرمت إذا السماء انفطرت ومن أعجب العجاب تهديد الرتوت باللتوت والسباع بالضباع والكماة بالكراع ونحن خيولنا برقية وسهامنا يمنية وسيوفنا شديدة المضارب وذكرنا فى المشارق والمغارب إن قتلنا كم فنعم البضاعة وأن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، وقولكم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال فالقصاب لا يبالى بكثرة الغنم وكثير الحطب يكفيه قليل من الضرم كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين الفرار الفرار من الرزايا لا من المنايا ونحن من الطمأنينة على عادة الأمنية إن قتلنا فشهداء وإن عشنا كنا سعداء ألا إن حزب الله هم الغالبون أبعد أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين — يعنى الخليفة العباسى الذى كان إذ ذاك بمصر — تطلبون منا الطاعة لا سمعا لكم ولا طاعة وطلبتم أن نوضح لكم أمرنا قبل أن يكشف الغطا ويدخل علينا منكم الخطا هذا الكلام فى نظمه تركيك وفى سلكه تفكيك لو كشف لبان بعد التبيان أكفرا بعد إيمان واتخاذ رب ثان لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا قل لكاتبك الذى وضع رسالته ووصف مقالته وصل كتاب كسرير الباب أو كطنين الذباب فسنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ، فلما وصل الكتاب إلى تيمور غضب غضباً شديداً وقدر الله بوفاة السلطان برقوق بعد ذلك بقليل وكان تيمور ألقى الله الرعب فى قلبه من السلطان برقوق ، فلما بلغه خبر وفاته استبشر وأنعم على مخبره بجملة مستكثرة وكانت وفاته فى سنة ٨١ وأقيم بعده فى السلطنة ولده الملك الناصر فرج فأخذ تيمور فى التجهيز بالجيوش لقصد بلاد الشام والروم وكان فى نفسه من قتال السلطان برقوق قصادة من أعانته السلطان أحمد بن أويس على تملك بغداد وكان فى نفسه أيضا على السلطان بايزيد العثمانى لأنه تملك بلاداً كثيرة كانت للسلطان السلجوقى وقرابته تملكها السلطان بايزيد

بعد وفاته وكان السلطان السلجوقى قد كاتب تيمور وأعطاه الطاعة خافا من السلطان بايزيد وكانت تلك البلاد لبنى قلج أرسلان من ملوك السلجوقية وهم الذين افتتحوها وأقاموا فيها دعوة الإسلام وانتزعوها من يد ملوك الروم أهل قسطنطينية وأضافوا إليها كثيراً من أعمال الأرمن ومن ديار بكر ، فانفسحت أعمالهم وعظمت ممالكهم وكان كرسيهم بقونية ومن أعمالها أقصر أنطاكية والعلايا وطغرل ودمرلو وقرا حصار ومن ممالكهم أذربيجان ومن أعمالهم أفشهر وكامخ وقلعة كغونية ومن ممالكهم قيسارية ومن أعمالها نكرا وفلية ومقال ، ومن ممالكهم أيضاً سيواس وأعمالها ومن أعمالها نيكسارو ماسية وتوقات وكنكرة كوريه وسامول وصفوى وطرخو وبرلو ، ومما استضافوه من بلاد الأرمن ، خلاط وأرمينية الكبرى ووان وسلطان وأرجيس وأعمالها من ديار بكر خربوط وملطية وسميساط ومسارة ، فكانت لهم هذه الأعمال وما يتصل بها من الشمال إلى مدينة بروسية ، ثم إلى خليج القسطنطينية واستفحل ملكهم فيها وعظمت دولتهم وكان ملوك مصر ينازعونهم فى بعضها ثم طرق دولة السلجوقية الهرم والفشل كما يطرق الدول ، ولما استولى التتر على ممالك الإسلام استولوا أيضا على كثير من هذه الممالك ولحق غياث الدين السلجوقى مع عياله بقونية ، ثم استقر فى طاعة التتر هو وأخواته واقتسموا ممالكهم عمالا للتتر ثم بقيت بيد بنيهم بعدهم يتوارثونها إلى ظهور تيمورلنك وكان فى ذلك الوقت ظهور قوة السلطان بايزيد العثمانى ، فاستولى على كثير من تلك الممالك فأرسل الباقون من ملوك السلجوقية إلى تيمور يعطونه الطاعة ليحتموا به من السلطان بايزيد فقدر الله تلك الأيام موت بعض ملوكهم وظهور الضعف فيهم ، فاستولى السلطان بايزيد أيضاً على بعض ممالكهم هذا هو السبب فى أن تيمور كان له قصد قوى فى التوجه إلى قتال السلطان بايزيد وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

ذكر تجهيز تيمور الجيوش لقصد الشام

قد ذكرنا أن تيمور فرح واستبشر بوفاة السلطان برقوق ثم إنه فى سنة ثلاث وثمانمائة أخذ فى التجهيز إلى المسير إلى الديار الشامية فجمع عساكر كثيرة تبلغ ٨٠٠ ألف فاجتاز أولاً على سيواس لحاصرها وأخذها وكان فيها عامل للسلطان بايزيد قيل أنه أمن أهلها وحلف لهم أن لا يضع السيف فيهم فلما تمكن منهم حفر لهم حفائر ودفنهم فيها أحياء وكانوا ٣٠٠٠ مسلم ، ثم حرقها وخربها وتوجه نحو البتين فوجد أهلها قد رحلوا عنها فخربها وأحرقها ، ثم توجه إلى ملطية فهرب منها من كان بها قبل أن يصل إليه فخربها ثم اجتاز على بهسنى فحاصرها ونصب عليها المنجنيق وهدم بعض قلعتها ثم أخذها صلحاً ثم نازل حلب تاسع ربيع الأول من السنة المذكورة ، وكان فيها من العساكر الإسلامية جمع كثير من دمشق وطرابلس وحماه وصفد وغزة وغيرها فاختلفت آراؤهم بين قائل دخلوا المدينة وقاتلوا من الأسوار وقائل خرجوا ظاهر البلد بالخيام وكان الأمير على حلب نائب السلطان هو الأمير دمرداش الخاصكى لما رأى اختلافهم أذن للناس فى إخلاء البلد والتوجه حيث شاءوا وكان نعم الرأى لو فعلوا به ، فلما لم يفعلوا برأيه ضربوا خيامهم بظاهر البلد تلقاء العدو وحضر قاصد مرسل من تيمور فقتله الأمير القائم على عسكر دمشق قبل أن يسمع كلامه وبئس ما فعل ، وفى اليوم العاشر من ربيع وقع قتال يسير . وفى الحادى عشر زحف تيمور بجيوشه وفيلته فدهم المسلمين خلق كأمواج البحر فولوا على أدبارهم منهزمين نحو البلد وازدحموا فى الأبواب ومات منهم خلق كثير والعدو وراءهم يقتل ويأسر وتعلقت أمراء عساكر المسلمين بالقلعة ومعهم خلق كثير فاقتحمت عساكر تيمور المدينة وامتدت أيديهم فى أقطارها وجالت خيولهم بأرجائها سفكاً ونهباً وأسراً واحتمى بالمساجد خلق كثير من النساء المخدرات والكواعب وغيرهم فمالوا عليهم وقبضوهم أسرى فى الحبال وأسرفوا فى قتل كثير من الرجال والأطفال ونهب الأموال وتخريب المنازل واقتضاض الأبكار وانتهاك الستور واستمر الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام وهم

مع ذلك مشتغلون بنقب القلعة وهدم الخندق ، وكان المسلمون قد جمعوا أكثر أموالهم بالقلعة ، ثم اعتصم بها الأمراء وخلق كثير ، فلما رأى دمرداش أمير حلب اشتداد الأمر نزل مع طائفة من الأمراء من القلعة يطلبون الأمان فأجابهم تيمور وخلع عليهم فاطمأن خاطرهم فنزل بقية أصحابهم من القلعة كل أمير مع طائفة فنظم تيمور كل رجلين فى قيد وفرقهم فى قومه ثم أذن لهم فى النهب قال ابن الشحنة أخذ القلعة بالأمان والأيمان التى ليس معها إيمان وفى ثانى يوم صمد بنفسه إلى القلعة وأقام بحلب نحواً من شهر وأصحابه تغدو فى نهب المدينة والقرى وتعيث بقطع أشجارها وهدم أحجارها وأمر أن يبنى من رءوس الرجال شبه المآذن فبنيت مرتفعة فى الهواء نحو عشرة أذرع ودورها نيف وعشرون ذراعا والوجوه بارزة تسفى عليها الرياح وعدة تلك المنائر المتخذة من الرءوس عشر وسلم من قتله كثير من العلماء وغيرهم ، واختلفوا ، ثم أعطاهم الأمان قال بن الشحنة ولما طلع القلعة فى ثانى يوم كان طلوعه فى آخر النهار فطلب علماء حلب فحضرنا إليه فأوقفنا ساعة ثم أمر بالجلوس ناس وطلب من معه من أهل العلم فقال لأمير من أمراء دولته وهو المولى عبد الجبار ابن العلامة نعمان الدين المذكور من العلماء المشهورين بسمرقند قل لهم أنى سائلكم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التى افتتحها ولم يوضحوا لى الجواب فلا تكونوا مثلهم ولا يجيبنى إلا أعلمكم وأفضلكم ليعرف ما يتكلم به فإنى خالطت العلماء ولى بهم اختصاص وألفة ولى فى طلب العلم طلب قديم قال ابن الشحنة وكان قد بلغنا عنه أنه يعنت العلماء فى الأسئلة ويجعل ذلك سبباً لقتلهم أو تعذيبهم فقال الشيخ القاضى شرف الدين موسى الأنصارى الشافعى هذا شيخنا يعنى الشيخ محمد بن الشحنة وهو مدرس هذه البلاد ونقيبها وإليه المرجع سلوه والله المستعان فقال عبد الجبار مخاطبا ابن الشحنة مترجما مقالة تيمور سلطاننا يقول أنه بالأمس قتل منا ومنكم فمن الشهيد قتيلنا أم قتيلكم فوجم الجميع وقالوا فى أنفسهم هذا الذى بلغنا عنه من التعنت فسكت القوم وفتح الله بالجواب على ابن الشحنة فاستحضر سريعاً جواباً بديعاً فقال هذا السؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه وأنا مجيب بما أجاب

به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له القاضى شرف الدين موسى الأنصارى بعد أن انقضت الحادثة والله العظيم إنك لما قلت هذا السؤال سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاب عنه اختل عقلى مع أن القاضى شرف الدين كان محدث زمانه وهو معذور بما شاهد من الأهوال فى تلك الأيام ومثل هذا السؤال لا يمكن عنه الجواب فى هذا المقام لشدة سطوة تيمور بمن خالف مرامه ووقع فى نفس الأمير عبد الجبار مثل ذلك فقال لابن الشحنة يسخر من كلامه كيف سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أجاب وألقى تيمور سمعه وبصره إلى ابن الشحنة فقال ابن الشحنة جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله إن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليعرف مكانه فأينا فى سبيل الله . فقال عليه الصلاة والسلام من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله فمن قاتل مناومنكم لإعلاء كلمة الله فهو الشهيد فقال تيمور خوب يعنى طيب واستحسن ذلك الجواب وقال عبد الجبار ما أحسن ما قلت وانفتح باب المؤانسة فقال تيمور إنى رجل نصف آدمي وقد أخذت بلاد كذا وكذا وعدد سائر ممالك العجم والعراق والهند وسائر بلاد التتر ، فقلت اجعل شكر هذه النعمة عفوك عن هذه الأمة ولا تقتل أحداً فقال والله إنى لم أقتل أحداً قصداً وإنما أنتم قتلتم أنفسكم فى الأبواب يعنى الازدحام ووالله لا أقتل منكم أحداً يعنى الآن وأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم وتكررت الأسئلة منه والأجوبة من العلماء وطمع كل واحد من الفقهاء الحاضرين فى التقدم وجعل يبادر إلى الجواب ويظن أنه فى المدرسة بين طلبته والقاضى شرف الدين ينهاهم ويقول : اسكتوا ليجاوب هذا الرجل يعنى ابن الشحنة فإنه يعرف ما يقول وآخر سؤال سأل عنه ما تقولون فى على ومعاوية ويزيد ، فأسر القاضى شرف الدين إلى ابن الشحنة وكان إلى جانبه وقال اعرف كيف تجيبه فإنه شيعى فلم يفرغ من كلامه إلا وقد قال القاضى علم الدين القفصى الصيفى المالكى كلاما ما معناه أن الكل مجتهد فغضب تيمور غضبا شديداً وقال على على الحق ومعاوية ظالم ويزيد فاسق وأنتم حلبيون تبع لأهل دمشق وهم يزيديون قتلوا الحسين ، فأخذ ابن الشحنة فى ملاطفته بالاعتذار عن المالكى بأنه أجاب بشيء

وجده مكتوبا فى كتاب لا يعرف معناه فعاد إلى ما كان عليه من البسط ، وأخذ عبد الجبار يباسط ابن الشحنة والقاضى شرف الدين ، فقال على ابن الشحنة : هذا عالم مليح وقال عن القاضى شرف الدين هذا رجل فصيح ، فسأل تيمور ابن الشحنة عن عمره فقال : مولدى سنة تسع وأربعين وسبعمائة وقد بلغت الآن أربعا وخمسين سنة ، وقال القاضى شرف الدين كم عمرك ؟ فقال أنا أكبر من هذا يعنى ابن الشحنة بسنة فقال تيمور أنتم فى عمر أولادى فإن عمرى اليوم بلغ خمسا وسبعين سنة وحضرت صلاة المغرب فأمنا عبد الجبار وصلى تيمور إلى جانب ابن الشحنة قائما يركع ويسجد ثم تفرقوا ، وفى اليوم الثانى غدر بكل من فى القلعة وأخذ جميع ما كان فيها من الأموال والأقمشة والأمتعة مما لا يحصى حتى قيل إنه لم يكن أخذ من مدينة قط مثل ما أخذ من هذه القلعة ولا ما يقاربه وعاقب غالب المسلمين بأنواع العقوبات وحبسوا بالقلعة ما بين مقيد ومزنجر ومسجون ومترسم عليه ونزل تيمور من القلعة بدار النيابة ، وصنع وليمة على زى المغل ووقف سائر الملوك والنوابين فى خدمته وأدار عليهم كؤوس الخمر والمسلمون فى عقاب وعذاب وسبى وقتل وأسر وجوامعهم ومدارسهم وبيوتهم فى هدم وحرق وتخريب ولما كان آخر شهر ربيع الأول طلب ابن الشحنة والقاضى شرف الدين وأعاد عليهما السؤال فى حق على ومعاوية ويزيد فقال ابن الشحنة الحق كان مع على وليس معاوية من الخلفاء فإنه صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الخلافة بعدى ثلاثون سنة وقد تمت بعلى والحسن فقال تيمور على على الحق ومعاوية ظالم فقال ابن الشحنة قال لصاحب الهداية يجوز تقلد القضاء من ولاة الجور فإن كثيرا من الصحابة والتابعين تقلدوا القضاء من معاوية وكان الحق مع على فى نوبته فانسر لذلك وطلب الأمراء الذين عينهم للاقامة بحلب وقال لهم موصيا على ابن الشحنة والقاضى شرف الدين أن هذان الرجلين نزلا عندكم فأحسنوا إليهما وإلى أصحابهما ومن ينضم إليهما ولا تمكنوا أحدا من أذيتهما ورتبوا لهما علوفة ولا تدعوهما فى القلعة بل اجعلوا إقامتهما فى المدرسة بمتى السلطانية التى تجاه القلعة وفعلوا ما أوصاهم به إلا أنهم لم ينزلونا من القلعة وقال لهما الذى ولى الحكم بحلب ، إنى أخاف

كما قال ابن الشحنة والذى فهمته من نسق تيمور فى ملكه أنه إذا أمر بسوء فعلوه بسرعة ولا يحيد عنه وإذا أمر بخير فالأمر لمن وليه ، وفى أول ربيع الآخر برز إلى ظاهر البلد متوجهاً نحو دمشق وفى ثانى يوم أرسل يطلب علماء حلب فحملوا إليه المسلمون فى أمر مريج وفى قطع رؤوس فقال العلماء لما طلبوا ما الخبر فقيل لهم أن تيمور طلب من عسكره أن يأتوه برؤوس من المسلمين على عادته التى كان يفعلها فى البلاد التى يأخذها فخاف العلماء أن تقطع رؤوسهم وتحمل إليه مع ما وقع لهم من الأمان منه فلما وصلوا إليه أرسلوا له رسولا يقول له أنهم قد حضروا وهو قد حلف أن لا يقتل أحداً منهم صبرا فجاء الرسول وهم ينظرون إليه من بعد وهو يأكل من لحم سليق بين يديه فى طبق فتكلم معه يسيرا ، ثم أرسل إليهم بشىء من ذلك اللحم ليأكلوه فلم يفرغوا من أكله إلا وزعجة قائمة وتيمور صوته عال وساق شخصا هكذا وآخر هكذا وجاء أمير يتعذر إلى العلماء وقال لهم إن سلطاننا لم يأمر بإحضار رؤوس المسلمين إنما أمر بقطع رؤوس القتلى وأن يجعل لنا قبة إقامة لحرمته على جارى عادته فقهموا منه غير ما أراده وأنه أطلقكم فامضوا حيث شئتم وركب تيمور من ساعته وتوجه نحو دمشق فعاد علماء حلب إلى القلعة ورأوا أن المصلحة فى الإقامة بها وأخذ الأمير موسى فى الإحسان إليهم وقبول شفاعتهم وتفقدوا أحوالهم مدة إقامته بحلب ، وأما تيمور فإنه توجه قاصدا دمشق وكان الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق قد جاء من مصر بعساكره لتحصين حمايتها من تيمور وجاء معه الخليفة العباسى الذى كان بمصر وهو المتوكل على الله ، فلما دخل الملك الناصر فرج دمشق أقام بها يومين ثم خرج فى اليوم الثالث وخيم بقبة يلبغا .

ذكر دخول تيمور دمشق

فى اليوم العاشر من جمادى الأولى سنة ٨٠٣ جاءت عساكر تيمور بأطراف دمشق ونظهر بعض عسكر تيمور على جبل بما يلى عقبة دمر وهم مقدار ألف فارس فخرج إليهم من عسكر الناصر فرج دون المائة فاقتتلوا معهم فانهزم أصحاب تيمور هزيمة قوية ثم رجعوا

على عسكر الملك الناصر وقبضوا على ثلاث فوارس وجاءوا بهم إلى تيمور فأمر عسكره
تلك الليلة أن يضرموا نارا عظيمة فى مواضع متعددة فتخيل للسلطان الملك الناصر فرج
ابن برقوق أن عسكر تيمور ملأوا الأرض بقدر أماكن النار وأخذ تيمور اثنين من
الأسارى وأدخلهما فى أسياخ وشواهما على النار كالغنم وأطلق الثالث فرجع وأخبر
السلطان فرج بذلك وسمعت العسكر بذلك فانقطع قلوب العسكر ففى تلك الليلة ارتحل
السلطان فرج ورجع إلى الديار المصرية هاربا وصحبه الخليفة والأمراء مع كل
أمير مملوكان أو ثلاثة ليس معهم خيل ولا قماش وتشتت بقية العسكر حفاة عراة وأما
أهل دمشق فلم يعلموا برجوع السلطان فأصبحوا ورأيهم جميعاً المناصبة للحرب فركبوا
الأسوار وأعلنوا بالنداء يستحث بعضهم بعضاً على الجهاد فتراموا مع التتر عسكر تيمور
وقتلوا منهم وغنموا من خيلهم وكانت بينهم مقاتلة هائلة حتى قتلوا من التتر نحوا من ألف
وفى آخر النهار حضر اثنان من أصحاب تيمور ينادى أحدهم يطلب الصلح وأن يحضر أحد
ممن يعقل حتى يكلمه الملك فوقع الاختيار على إرسال القاضى ابن مفلح الحنبلى فغاب ثم
رجع وأخبر أنه اجتمع بتيمور وتلطف معه حتى قال له تيمور بلد الأنبياء وقد اعتقتها
صدقة عن أولادى وأخذ ابن مفلح يحل عزائم أهل البلد حتى صاروا فرقتين فرقة ترى
ما يراه ابن مفلح من بذل الطاعة وهم الفقهاء ونحوهم وفرقة باقية على المحاربة وهم سواد
الناس فباتوا تلك الليلة على ذلك ، ثم أصبحوا وقد غلب رأى ابن مفلح ومن عادة تيمور
إذا أخذ بلداً صلحاً أن يخرج إليه أهل البلد من كل نوع تسعة أشياء ويسمون ذلك
الطقزات فطلب منهم تجهيز ذلك وهموا بإخراجه من باب النصر فمنعهم نائب القلعة وهددهم
بإحراق البلد فأعرضوا عن ذلك وتدلوا من أعلى السور فباتوا فى مخيم تيمور ورجعوا
وقد تقرر منهم قضاة ووزير ومستخرج للأموال ومعهم فرمان ومرسوم فيه تسعة أسطر
يتضمن الأمان لأهل دمشق خاصة فقرىء ذلك على المنبر وفتحوا الباب الصغير وقعد أمير من أمراء
تيمور ثم شرعوا فى جباية الأموال التى قرروها عليهم وهى ألف ألف دينار وحملت إليه
فلما وضعت بين يديه غضب وأمر أن تحمل إليه ألف ألف تومان والتومان عشرة آلاف

دينار فرجعوا يأخذون في جباية الأموال فتزايد البلاء وفي أثناء الجباية حرقوا ما بين الجامع والقلعة بالنار وذلك نحو من ثلث البلد ثم سلم الناس الذين كانوا محاصرين في القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً من الاستيلاء على البلد وجمعت الأموال التي قررها ثانياً وحضرت بين يديه فقال لابن مفلح وأصحابه هذه ثلاث آلاف دينار ببلادنا وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف ألف أراكم عجزتم عن الاستخلاص، ثم طلب منهم ما تركه العسكر من كل شيء ثم طلب جميع ما في البلد من الأموال والدواب فكان عدتها نحو اثنى عشر ألفاً ثم طلب جميع ما فيها من السلاح، فلما انقضى ذلك كله أمر باستكتاب خطط دمشق وكتب بها أوراقا وفرقها على أمرائه فحينئذ طمت الأمواج فنزل كل أمير في خط وطلب سكان ذلك الخط فكان الرجل يطالب بالمال الثقيل الذي لا يقدر عليه فإذا امتنع عوقب بأنواع العذاب ثم تخرج نساؤه وبناته فيوطأن بين يديه فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوما، فلما علموا أنهم قد أتوا على ما في البلد خرجوا منها وهجم عليهم بعد خروج الأمراء بقية عساكرهم كالجراد المنتشر فانتهبوا ما بقي وسبوا النساء والثياب والرجال وتركوا الأطفال وأطلقوا النار في الجامع والبلد فاحترقت حتى صارت ترمى بشرر واستمر ذلك ثلاثة أيام حتى اندرست رسومها، وفي ثالث شعبان ركب تيمور وسار نحو حلب راجعا بلاده وكانت إقامته بدمشق أربعة وسبعين يوما ثم بعد رحيله كل من بقي يعدو عليهم ويغريهم البادية والفلاحون وجرى عليهم منهم ما يجري من تيمور، وفي السابع عشر من شعبان وصل تيمور إلى الجبول شرقي حلب ولم يدخل حلب بل أمر المقيمين بها من جهته بتخريب القلعة وإحراق المدينة وقتل كثير من الناس ففعلوا ونزلوا من القلعة، قال ابن الشحنة فبقيت الناس تضطرم في أرجائها وبعد ثلاثة أيام ارتحل عنا من كان بحلب من أصحاب تيمور ولم يبق من التتر أحد ولم يقدر منا أحد على الإقامة ببيته من النتن والوحشة ولا يمكن السلوك في الأزقة من ذلك، ثم عمرت حلب وتراجع الناس وجاءها أمير من السلطان، وفي سنة أربع وثمانمائة كان مسير تيمور لقتال السلطان بايزيد ابن مراد.

ذكر القتال الواقع بين تيمور والسلطان بايزيد
ابن السلطان مراد

سبب مسير تيمور لقتال السلطان بايزيد أن جماعة من ملوك الطوائف ببلاد الروم الذين اقتلع ممالكهم السلطان بايزيد ساروا إلى تيمور يشكون إليه من السلطان بايزيد ويرغبونه إلى الروم ويستنجدون به عليه فى رد ممالكهم فأجابهم تيمور إلى سؤالهم فساروا فى سنة أربع وثمانمائة إلى بلاد الروم وأرسل السلطان بايزيد فى الصلح على عادته من المكر والدهاء وكتب للسلطان بايزيد إنك رجل مجاهد فى سبيل الله وأنا لا أحب قتالك ولكن أنظر أى البلاد التى كانت مع أبيك وجدك فاقتنع بها وسلم إلى البلاد فلما وقف السلطان بايزيد على كتابه قال لرسله أيخوفنى بهذه الترهات ويستفزنى بهذه الخزعبلات أو يحسب أنى مثل ملوك الأعاجم أو التتر الدشت الأغنام أو ما يعلم أن أخباره عندى أن أول أمره حرامى سفاك الدماء نقاض العهود إلى غير ذلك من أمثال هذا الكلام وكتب له الجواب على هذا المنوال وكان السلطان بايزيد فى تلك السنة محاصراً مدينة القسطنطينية وقد قارب أن يفتحها فتركها وتوجه لقتال تيمور وأجرى عساكره كالسيول الهامرة وكان قد استخدم عنده كثيراً من عسكر التتر حتى صاروا أكثر جنده فأرسل تيمور إلى زعمائهم ورؤسائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا فوعده بالمعاونة وكان تيمور قد نزل أنقورية فجاءه السلطان بايزيد بجيوشه ووقع القتال الشديد بينهما ، ثم اندفع التتر من عسكر السلطان بايزيد واتصلوا بعسكر تيمور كما وعدوه واستمر القتال من الضحى إلى العصر فانهزمت بقية عساكر السلطان بايزيد وصار القبض عليه أسيراً بيد تيمور وأكثروا القتل والفساد وكان ذلك يوم الأربعاء سابع عشر ذى الحجة سنة أربع وثمانمائة ورجع به تيمور معه إلى تبريز فمرض هناك وتوفى هناك رابع شعبان سنة خمس وثمانمائة وقسم تيمور بلاد الروم على الملوك الذين استنصروا به وزعموا أن السلطان بايزيد انتزعها منهم ثم أن

السلطان محمد ابن السلطان بايزيد استرجع ذلك إلى ملكه لما استقر السلطنة كما سيأتى ، وفى سنة خمس وثمانمائة انعقد صلح بين تيمور وسلطان مصر وحصل بينهما مودة ومهاداة وأرسل تيمور إلى سلطان مصر هدية وفيلا ، وفى سنة ست وثمانمائة عدا قرا يوسف حاكم أذربيجان على السلطان أحمد بن أويس وانتزع بغداد منه ورحل السلطان أحمد إلى حلب ودخلها فى زى فقير ثم مشى عسكر تيمور على بغداد وكبسوا بها قرا يوسف ونهبوه وأخذوا بغداد وتوجه قرا يوسف هاربا إلى الشام فأمسك وحبس حسب مرسوم سلطان مصر ثم ورد مرسوم بطلب السلطان أحمد من حلب وإرساله إلى دمشق ثم ورد مرسوم آخر بإمساكه واعتقاله بها فأمسك ، وفى سنة سبع وثمانمائة كان هلاك تيمور بمدينة أترار وحملوه إلى سمرقند ودفنوه بها وعمره قد جاوز ثمانين سنة ومدة ملكه نحو ست وثلاثين سنة وتملك بعد حفيده خليل ابن أمير شاه بن تيمور ومكث قليلا وهلك وتفرق ملكهم بأيدى المتغلبين وتغلب على بغداد من التركمان إلى أن انتزعها منهم اسماعيل شاه سلطان العجم ثم انتزعها منه الدولة العثمانية والبقاء لله وحده وبقى لتيمور عقب كان منهم سلاطين فى الهند ولنرجع إلى إتمام الكلام على فتوحات سلاطين مصر ثم نذكر ابتداء الدولة العثمانية وفتوحاتها ، إعلم أن سلاطين مصر بعد السلطان برقوق كثرت بينهم الفتن لأجل طلب السلطنة واستمر الحال إلى سنة خمس وعشرين وثمانمائة فتسلطن الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى فجهز جيوشاً لقتال أهل قبرس .

ذكر تجهيز الجيوش لقتال أهل قبرس

قال العلامة القطبى قبرس بالسين لا بالصاد كما يغلط فيه العوام وهى جزيرة فى البحر الشامى مقدارها مسيرة ستة عشر يوماً وبها قرى ومزارع وأشجار ومواش وبها معدن الزاج القبرسى ومنها يجاب إلى سائر الأقطار بها ثلاث مدن ومن قبرس إلى طرابلس الشام مجريان فى البحر وقد تكرر استيلاء المسلمين عليها وانتزاع الكفار إياها وقد تقدم أن أول من غزاها معاوية رضى الله عنه وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار

فنقضوا ثم غزاهم ثانية وقتل وسبى سبياً كثيراً روى أنه لما افتتحت مدائن قبرس واشتغل المسلمون بتقسيم السبى فيها بينهم بكى أبو الدرداء رضى الله عنه وتنحى عنهم ثم احتبى بحمائل سيفه ودموعه على خديه فقيل له أتبكى فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله وأذل الكفر وأهله فضرب على منكبيه وقال ويحك ما أهون الخلق على الله تعالى إذا تركوا أمره فبينما هى قوة ظاهرة وقوة قاهرة لهم على الناس إذا تركوا أمره فصار حالهم على ما ترى من السبى والإهانة ويريد بذلك أن رغبتهم فى السبى وحب المال دليل على تهاونهم بالقيام بأمر الله فيرجع أمرهم إلى الذل والهوان ، وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام وبينها وبين جزيرة رودس مسيرة يوم واحد وإنما سميت جزيرة قبرس بوثن هناك كان يسمى قابرس يعظمه الكفار ويعظمون لأجله جزيرة قبرس وهى جزيرة رخاؤها شامل والخير بها كامل وأهلها موصوفون بالغنى واليسار وبها معادن الصفر ويجمع منها اللاذن الحسن الرائحة وبعض منه يغلب رائحة العود فى طيبه وهو الذى يجمع من على الشجر خاصة وكان يحمل إلى ملك القسطنطينية لأنه أفضله وما يتساقط على وجه الأرض يبيعونه للناس وكان الأوزاعى يقول إنا نرى هؤلاء يعنى أهل قبرس أهل عهد وأن صلحهم وقع على شىء فيه شرط لهم وشرط عليهم وأنه لا يسعهم نقضه إلا بأمر عنيف عندهم ورأى عبد الملك بن صالح فى حدث أحدثوه أن ذلك نقض لعهدهم فكتب إلى عدة من الفقهاء يشاورهم فى أمرهم منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو إسحاق الفزارى ومحمد بن الحسن فاختلفوا عليه وأجاب كل واحد بما ظهر له وانتهى خراج قبرس الذى يؤدونه إلى المسلمين بعد المائتين من الهجرة إلى أربعة آلاف ألف وسبعمائة ألف وأربعين ألفاً وقد كان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى سلطان مصر كثير الغزو إلى طرف الفرنج وتسلطن سنة ٨٢٦ ففى سنة ست وعشرين وثمانمائة كثرت الأخبار بأن الفرنج تحركوا على المسلمين فجهز عدة أجناد إلى السواحل فندب عدة إلى دمياط وعدة إلى الأسكندرية وعدة إلى غيرها وجهز مركبين إحداهما من بيروت والأخرى من صيدا فنازلوا جزيرة الماغوص سنة ٨٢٧ فانتهبوها وأحرقوا ما بها من القرى

ومابساحلها من المراكب وقتلوا وأسروا وقدموا سالمين غانمين وكان عدد الأسرى ألفاً وستمائة نفس . وفى سنة ٢٨ جهز جندا كثيراً وتوجه صحبتهم عدد كثير من المتطوعة وسافروا إلى دمياط وكان ملك قبرس بعث تسعة أغربة يقفون على فم دمياط لمنع الأغربة من الدخول فى البحر المالح ، فلما أبصروا مراكب المسلمين وجيوشهم انهزموا بغير قتال. ثم توجه المسلمون من جهة طرابلس فوصلوا إلى الماغوصة فطلع الخيالة وأكثر المشاة إلى البر وضربوا خيامهم وأرسل صاحب الماغوصة يطلب الأمان فأعطوه ثم ركبوا فى الحال وداسوا من قدروا عليه وأوسعوهم تحريقاً وتخريباً وأوقع الله الرعب فى قلوب الكافرين حتى كان الثلاثة من المسلمين ينتصرون على أكثر من مائة كافروجاء أخو صاحب قبرص فى ألف فارس وثلاثة آلاف راجل فلم يقدر أن يقدم فرجع من غير قتال ، فلما تمت للمسلمين هذه الحالة فى الماغوصة قصدوا المالحة وأحرقوا ما مروا عليه إلى مكان يقال له رأس العجوز فخيموا هناك وجهزوا من الغنائم شيئاً كثيراً ثم ساروا فى مراكب وحاصروا الحصن الذى هناك إلى أن أخذوه عنوة وملأوا أيديهم من الغنائم والأسرى وأحرقوا الحصن ، وكان عدة من قتل من الفرنج فى شهرين خمسة آلاف ولم يقتل من المسلمين فى هذه الغزوة إلا ثلاثة عشر نفراً ، ثم رجعوا ثم بلغ الأشراف أن صاحب قبرس أرسل إلى ملوك الفرنج يستنصر بهم على المصريين يشكو عليهم ما جرى على بلاده ، فأرسل لكل منهم له نجدة من المراكب والفرسان فأمر الملك الأشرف بزيادة تجديد مراكب وبذل الأموال حتى كان عدة تلك المراكب مائة قطعة وأزيد ، وندب الناس لجهاد الكفار فأجابه إلى ذلك كثير من الأمراء والعساكر والمتطوعة وساروا متوجهين فى شعبان سنة ٨٢٩ تسعة وعشرون وثمانمائة ، فلما وصلوا إلى المسلمون وجدوا الحصن الذى كانوا خربوه قد عمر وشحن بالمقاتلة ، فأحاطوا به وصعدوا على السلالم فملكوا البرج الأول وهزموا الفرنج ، ثم أحاطوا بقرية من قرى قبرس فطلب أهلها الأمان فأمنوهم ثم أرسلوا الرسل إلى ملك قبرس يدعونه إلى الطاعة فأبى وقتل الرسول فهاج المسلمون لقتاله والتقوا بجنوده فقاتلوهم واشتد الأمر فاتفق أن ملك قبرس أراد الهرب فركب ثم وقع عن فرسه

فأركبوه ، فوقع ثانياً فأركبوه فسكبا به الفرس فاندهش قومه من ذلك وانهزموا وولوا الأدبار فرآه بعض الأتراك فأراد قتله فصاح أنا الملك فأسروه واستمر المسلمون خلف الفرنج ورشقوهم نبلا فلم يزلوا كذلك إلى أن غربت الشمس ، وكان جملة من قتل من الإفرنج فى ذلك اليوم ستة آلاف وقيد ملك قبرس وقتل أخوه ولم يسلم من الإفرنج إلا من بادر إلى البحر وركب وهرب ، وملك المسلمون كثيراً من مراكبهم ، ثم حمل ملك قبرس إلى مصر وطيف به ، ثم قرروا عليه مائتى ألف دينار يحمل منها وهو بمصر النصف ويرسل النصف إذا رجع وألزم يحمل عشرين ألف دينار كل سنة وألف ثوب صوف ، وكان الفرنج قد طمعوا فى تملك السواحل ، فلما وقع هذا الفتح عظم فرح المسلمين وانقطعت أطماع الفرنج من تملكهم بلاد المسلمين قال بعض المؤرخين ومن مناقب السلطان برسباى أنه أخذ بلاد قبرس وأسر ملكها ، وهو فى تحت مملكته بمصر لم يتحرك .

ذكر الغزو إلى رودس

فى سنة ٨٤٤ جهز الملك الظاهر جقمق سلطان مصر سنة عشر غرابا مشحونة بالمقاتلة للغزو إلى بلاد رودس ، وفى سنة ٨٤٥ اهتم لذلك اهتماما كثيراً . وفى سنة ٨٤٧ سارت المراكب المجهزة لغزو رودس فى جمع كثير ونزلوا على قشتيل ووقع بينهم وبين من فيه من الكفار قتال وقتل جمع من الطائفتين واشتغل بعض المسلمين بما لا يليق من الفساد كالزنا ونحوه ولم يحصلوا على طائل وقتل من المسلمين أكثر من مائة وجرح أكثر من خمسمائة ، قال البدر العينى كانت سفرتهم هذه ملعبة وارتد منهم عدة مماليك ، ولما وصل المسلمون إلى رودس وجدوا أهلها مستعدين استعداداً هائلا وهى محصنة بآلات الحصار والقتال بكل ما أمكنت قدرتهم ثم حصل القتال بينهم فعادوا من غير أن ينالوا طائلا وفى تاريخ القرمانى غير هذا ، فإنه ذكر أن فى سنة خمس وأربعين انتصر الجيش المجهز إلى رودس ورجعوا ومعهم بنت الملك وكثير من الأسرى ومن السبى من النساء والصبيان وصحبتهم من الذهب العين ثمانية عشر صندوقا يبلغ ما فيها نحو ثلاثة قناطير من الذهب

ومعهم أيضا اثنتا عشرة جرة من النحاس مختومة الفم بالرصاص فى كل جرة قنطار ونصف من الذهب وغير ذلك من الجواهر واليواقيت والتحف أخذ ذلك كله من قلعة قشليل من أعمال رودس وهدمت القلعة فى هذه الغزوة . وفى سنة ٨٦٦ بعث الملك الظاهر خوشقدم سلطان مصر تجريدة من العسكر إلى قبرص لتقرير الملك لصاحبها القائم بها ودفع المتغلبين عليه ففعلوا ذلك وعادوا سالمين ، وفى هذه السنين انتشرت فتن كثيرة بمصر زيادة عما كان قبل ذلك وكلها كانت بين الأمراء بمصر لطلب السلطنة فضعف أمر الغزو والجهاد منهم وظهرت قوة للدولة العثمانية بأرض الروم وأكثروا الغزو والجهاد وفتحوا كثيراً من البلاد فلنذكر ما حصل الوقوف عليه من ذلك على سبيل الاختصار .

ذكر الدولة العثمانية وفتوحاتها ثبت الله عليهم

ووفقهم لما يحبه ويرضاه

اتفق العلماء على أن من وقف على سير الدول الإسلامية ، يعلم علما قطعياً أن الدولة العثمانية من أحسن سير الدول الإسلامية بعد الخلفاء الراشدين لأنهم متمذهبون بمذهب أهل السنة صحيحو العقيدة ناصرون لأهل السنة قائمون بتعظيم الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ليس عندهم شيء من الزيغ والابتداع ولهم الفتوحات الشهيرة والجهاد والغزوات الكثيرة قائمون بشعائر الإسلام لا سيما فى الحرمين الشريفين ، فإن لهم فيهما الصدقات والخيرات الكثيرة وقائمون أيضاً بشعائر الحج وتأمين الطرق للحجاج والزوار فيجب على كل مسلم أن يدعو لهم بالتثبيت والتأييد والإعانة والنصر والتوفيق لما يحبه الله ويرضاه واشتهر أنهم من التركمان ، وإن كان نسبهم ينتهى إلى يافث بن نوح عليه السلام ، وقيل أن أصلهم من العرب فقد ذكر العلامة السنجارى فى تاريخه نقلا عن صاحب دور الأعيان فى أصل منبع آل عثمان أن أصلهم من عرب الحجاز وأنهم من المدينة المنورة ، وأن جدهم الأعلى هاجر من بلاد الحجاز ، قال مؤرخ الدولة العثمانية الشهير بخير الله أفندى لا نريد

أن ندخل فى هذا البحث لكن غاية ماتقول أن هذه العائلة الشريفة هى أشرف العشائر الإسلامية ، ثم ذكر أن جدهم هو أول من تسلطن منهم بالروم وهو ابن أرطغرل بن سليمان شاه ، وسليمان شاه سلطانا فى بلاد ماهان بالقرب من بلخ ، فلما ظهر التتر أفسدوا فى الأرض وخربوا البلاد ، وكان من جملة ماخربوه بلخ وأعمالها ، فترك سليمان شاه البلاد مع من تركها من الملوك وغيرهم وقصد بلاد الروم ، وكان قد سمع بدولة السلجوقية التى فى الروم وعظم شوكتهم وكثرة غزوهم إلى الكفار فخرج وتبعه فى ذلك خلق كثير فلما وصلوا إلى أذربيجان تقاتلوا مع الكفار وغنموا منهم شيئاً كثيراً ، ثم قصدوا ناحية حلب فوصلوا إلى نهر الفرات أمام قلعة جعبر ولم يعلموا المعبر ، فعبروا النهر فغلب عليهم الماء ، فغرق سليمان شاه ، ومات غريقا شهيداً فأخرجوه ودفنوه عند قلعة جعبر وقبره هناك مشهوراً يزار ويتبرك به ، وكان مع سليمان شاه أولاده الثلاثة وهم سنقور وكون طوغدى وأرطغرل ، فلما وصلوا إلى موضع يقال له ياسين أو مسى رجع سنقور وكون طوغدى أبناء سليمان شاه إلى بلاد العجم وتخلف أرطغرل جد الملوك العثمانية مع أبنائه الثلاثة وهم كوندزالب وصاروينى وعثمان ومكث أرطغرل فى ذلك المواضع يجاهد الكفار ثم أرسل ابنه صاروينى إلى صاحب قونية وسيواس السلطان علاء الدين السلجوقى يستأذنه فى الدخول إلى بلاده ويطلب منه موضعاً ينزل فيه فعين له جبال طومانج وجبال أرمنك وما بينهما موضعاً للسكنى ، فأقبل أرطغرل مع أربعمائة بيت من قومه فتوطنوا فى قره جه طاغ . وفى سنة خمس وثمانين وستمائة نازل السلطان علاء الدين السلجوقى بنفسه كركثيرة ومعه الأمير أرطغرل قلعة كوتاهية وهى يومئذ بيد الكفار ففوض أمر القلعة إلى الأمير أرطغرل وسار هو إلى قتال التتر بسبب تعرضهم لبعض بلاده ، ولم يزل الأمير أرطغرل يجتهد حتى فتحها عنوة وغنم من الأموال شيئاً كثيراً فازداد عند السلطان علاء الدين قربا ومنزلة ولم يزل الأمير ارطغرل يجاهد فى سبيل الله حتى توفى فى سبيل الله سنة سبع وثمانين وستمائة فتأسف عليه وعين مكانه ولده الأمير عثمان فلما رأى السلطان علاء الدين جده واجتهاده فى الجهاد وعلم نجابته فى فتح البلاد فأكرمه وأمده بأنواع

الإضافة والإمداد وجعله سلطانا مشاركا للسلطان علاء الدين فى السلطنة وأرسل إليه الراية السلطانية ، والخلع السنية والطبل والزمر فلما ضرب الطبل بين يدى (السلطان عثمان) نهض قائما على قدميه إعظاما للسلطان علاء الدين وما زال قائما حتى فرغوا ، فمن ذلك اليوم كان بين العساكر العثمانية القيام على أرجلهم عند ضرب طبل السلطنة فى الأسفار والأعياد ، وكانت سلطنة السلطان عثمان سنة تسع وتسعين وستمائة ، وكانت سلطنته على البلاد التى افتتحها أبوه والتى افتتحها هو قبل أن يتسلطن منها مدينة قره حصار وحصن قره وقصبة وينى كوى وقلعة بلاجك ومدينة ينى شهر وغير ذلك ولما تسلطن جعل كرسى سلطنته قره حصار ، ثم نقله إلى ينى شهر وكان كثير من التتر تغلبوا على بعض ممالك السلجوقية فقاتلهم أبوه ثم قاتلهم هو وأبادهم وانتزعها منهم قبل أن يتسلطن وكان ذلك من جملة أسباب محبة السلطان علاء الدين له قال بعض المؤرخين : أن الوقوف على ترجمة هؤلاء السلاطين وفتوحاتهم العجيبة يستوجب أن يعتقد أنهم أعظم ملوك الإسلام ، فإن كل واحد منهم فعل أفعالا باهرة وغزا غزوات قاهرة يستحق أن تخلد فى بطون الأسفار لكى يقتدى بهم الملوك الذين يأتون بعدهم ويعلموا أن أفعال هؤلاء السلاطين تستحق أن تقدم على أفعال الأكاسرة والقياصرة وبقية الملوك والسلاطين الذين تدونت أسماؤهم فى كتب التواريخ ومن طالع تواريخ هؤلاء السلاطين تظهر له عظمة أفعالهم وبطشهم وشجاعتهم التى قاوموا بها جميع الدول المحيطة بهم ، فكانوا يفتحون المدن العظيمة والحصون المشيدة ويقهرون الجبابرة العظام ويتسلطون على الممالك براً وبحرا إلى أبعد مكان ، فكانت ترتعد من سطوتهم قلوب جميع الدول الأفرنكية ويعطونهم الطاعة والخضوع وكان السلطان عثمان جدهم واسطة عقدهم ومؤسس دولتهم ، وكان السلطان علاء الدين قد كبر وشاخ وطعن فى السن حين أن أشرك معه السلطان عثمان لأنه تولى السلطنة سنة ٦٥٤ أربع وخمسون وستمائة واستمر إلى أن توفى سنة ٧٠٠ وبقى بعض ممالكهم تحت يد بنيه وأبناء عمه مع ضعفهم عن حفظها وآخر من بقى فى السلطنة منهم السلطان مسعود بن كيكاوس وتوفى مسعود سنة ٧١٨ فاضمحلت دولتهم وكان لهم من

لتتر عساكر كثيرة كانوا متغلبين عليهم فاستولى عليهم السلطان عثمان وبنوه من بعده وصارت الممالك كلها بأيديهم ، ومن الممالك التي افتتحها السلطان بعد سلطنته حصن الصفصاف المعروف بقلعة بلاجك وكان الخليفة هارون الرشيد غزا بنفسه الروم ففتح هذا الحصن ثم استولى عليه الكفار واستمر بأيديهم إلى أن افتتحه الغازى السلطان عثمان المذكور وسيأتى ذكر بقية فتوحاته ، وكان السلطان عثمان المذكور عادلا زاهداً فى الدنيا راغبا فى الآخرة شجاعا مرابطا فى سبيل الله مجاهداً يراعى الأبطال ويحسن للأيتام والأرامل ومن زهده فى الدنيا أنه توفى لم يترك من المال شيئاً وإنما ترك بعضا من الخيل وشيئا من الغنم التى ترعى فى نواحى بروسا باسم السلاطين العثمانية وهى من نسل تلك الأغنام وترك أيضا بعد وفاته قفطانا وعمامة وبعض مناطق من القطن وملعقة وملاحة فهو سلطان مبارك خرج من صلبه السلاطين العظام الذين شيدوا الإسلام وكان صحيح العقيدة على عقيدة أهل السنة يحب الصحابة وأهل البيت والعلماء والصالحين ويحسن إليهم ويعظمهم ويقوم بحقوقهم وكان شديد التعظيم لشعائر الدين وللقرآن العظيم . يحكى أنه قبل أن يتسلطن سافر إلى موضع نزل فى طريقه ضيفاً عند إنسان فلما أراد النوم هيأ له صاحب المنزل موضعاً لينام فيه فلما دخل ذلك الموضع رأى مصحفاً معلقاً فى جدار ذلك الموضع فكبر عليه أن ينام وذلك المصحف معلقاً بذلك الموضع ورأى أن ذلك يخل بتعظيم القرآن فوقف على قدميه قائما إلى الصباح مستقبلاً للمصحف ويداه على صدره وذلك دليل على قوة إيمانه وصحة اعتقاده رحمة الله تعالى وكان كثير التردد على الشيخ العارف بالله تعالى أدبالى القرمانى فرأى السلطان عثمان ليلة فى منامه أن قمراً خرج من حضن الشيخ المذكور فدخل فى حضنه ثم نبتت من سرته شجرة عظيمة ملأت أغصانها الآفاق ورأى تحتها جبالا راسيات وتجرى عندها عيون وأنهار والناس يشربون من تلك المياه ويملأون منها وينتفعون من المياه فلما استيقظ السلطان عثمان قصد الشيخ المذكور وقص رؤياه عليه فقال له الشيخ وكان من المكاشفين لك البشرى بمنصب السلطنة وسيعلو أمرك وينتفع الناس بك وبأولادك

وأنى زوجتك ابنتى هذه فقبلها السلطان عثمان وتزوج بها فولدت له أولاداً منهم السلطان أورخان وهو جد سلاطين آل عثمان أيد الله دولتهم على ممر الزمان وبسط الكلام على فتوحات السلطان عثمان الغازى وغزواته مذكورة فى التواريخ المبسوطة لا سيما التواريخ التى باللسان التركى وكذلك مناقبه وبقية سيرته كل ذلك شىء طويل مذكور فى التواريخ المذكورة وإنما الذى يمكن ذكره هنا من ذلك شىء يسير من مناقبه وغزواته وفتوحاته فمن غزواته وفتوحاته قرا حصار وجعلها كرسى ملكه كما تقدم إلى أن فتح ينى شهر فنقل كرسى ملكه إليها ثم فتح حصن يار حصار وقصبة اينة كول وينى شهر وأظهر فيها شعار الإسلام . وفى سنة ٧٠٠ اشتغل بقتال الكفار فى طرف ازنيق حتى أعجزهم أمره مقدار خمس سنين فأرسل صاحب ازنيق إلى ملك الروم صاحب القسطنطينية يستنجد به فأمده بجيوش كثيرة فى سفائن عديدة فلما وصلوا إلى الساحل من طرف يلاق أوه كمن لهم المسلمون فكبسوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فلم ينج منهم إلا الشاذ النادر وفى غضون ذلك توفى السلطان علاء الدين السلجوقى سنة سبعمائة وكثر الهرج والمرج فى بلاده فالتحق أكثر عساكره بالغازى السلطان عثمان كذلك . وفى سنة ٧٠٧ فتح السلطان عثمان مرمرة وفى هذه السنة اتفق كثير من ملوك الروم على قتال السلطان عثمان المذكور فاجتمعوا فى جحافل كثيرة نحو ثلاثين ألفاً فقاتلوا المسلمين أمام قيسون حصارى فكان يوما شديداً على الكفار قتل فيه كثير من الكفار ومن رؤسائهم وهرب الباقون وتحصنوا بحصن أعمال بروسا وفاز المسلمون بالغنائم واستولوا على حصن كستل، ثم ساروا إلى أولوبار فغلبوا عليها واصطلح معهم صاحبها على خراج يؤديه. وفى هذه السنة أيضاً استولى على حصن كتة والبلاد الملحقة بها وقسم البلاد على أولاده وأقطعهم إياها واستقر هو فى ينى شهر وتمكن بها وجعلها دار الأمان وبنى فيها البقاع وأشاد القلاع وأسكن فيها الجند وفى سنة ٧٠٨ فتح حصن لفكة وحصن آق حصار وحصن توق حصار وأسكن فيها المسلمين وأظهر شعائر الدين . وفى هذه السنة أعنى سنة ٧٠٨ كان أول حدوث البارود وأما حدوث المدافع فكان سنة ٧٦٢ وفى سنة ٧١٢ افتتح حصن كيوة وحصن طرقلوينى جه سى

وحصن تكور بيكارى وغيرها ، وفى سنة ٧١٣ افتتح حصن أونوس وبلادها وعينه كلى وراويهاس حصار وغير ذلك ، وفى سنة ٢٢ نازل الغازى السلطان عثمان المذكور مدينة بروسا وحاصرها مدة، ثم لما اشتد الحصار أمر ببناء قلعتين فى طرف المدينة وأسكن فيها الجند وأمرهم بالتضييق على أهل البلد وقطع الميرة عنهم وجعل فى إحدى القلعتين أحد بنى عمه وفى القلعة الأخرى أحد الشجعان من عبيده، ثم رجع السلطان إلى بنى شهر ، وفى سنة ٧٢٣ وسبعمائة فتحت قلعة قدكرية وبلادها وبلاد ملارنى وبلاد اقبازى ، وفى سنة ٢٠ فتحت بلاق أباد وحصن قاندرى وهذه البلاد تعرف الآن بقوجه نسبة إلى فاتحها لأن الأمير الذى فتحها يقال له قوجه ومعناه باللغة التركية شيبة . وفى هذه السنة فتحت حصون كثيرة منها حصن بولى وحصن صحانونى وما ينضم إليها وفيها فتحت بلاد قره مرسل على يد الأمير قره مرسل فسميت تلك البلاد باسم فاتحها وهى بلاد كثيرة يخرج منها الفواكه الكثيرة تجلب فواكهها إلى القسطنطينية وفى هذه السنة أيضاً أرسل السلطان عثمان ابنه أورخان إلى فتح بروسا وصحبته عساكر كثيرة وكان السلطان عثمان إذ ذاك مريضاً بعلة النقرس فتخلف عن ذلك الغزو وقعد فى بنى شهر ، وفى مدة حصار ابنه مدينة بروسا توفى السلطان عثمان المذكور وقيل بل عاش بعد فتح المدينة أياما فكانت وفاته سنة ٧٢٦ ومولده سنة ٦٥٦ وعمره ٦٩ سنة ومدة ملكه ٢٦ سنة . ولما توفى كان بيده الممالك التى افتتحها هو وأبوه أرطغرل والممالك التى افتتحها السلجوقية فكانت بأيديهم وكان ملكهم لها على التدريج فى سنين متعدد وهى قونية ووان واقصرا وقيسارية وسيواس وبلاد آيدين ومنيسا وصاروخان وحميد وكرسان وبرقسطمونى وأنكورية وملطية ومرعش والبستان وتوقات وأماسيه ونيكسار وأرزنجان وسامسون وجانيق وعنتاب وتسلطن بعده ولده أورخان فى ابتداء سنة سبع وعشرين ولما توفى السلطان عثمان جاء الخبر لابنه السلطان أورخان وهو محاصر مدينة بروسا كما تقدم .

ذكر فتح بروسا

ثم أنه بالغ وبذل جهده فى حصار أهلها وقتالهم حتى افتتحها واستولى على القلعة وأسكنها المسلمين وجعلها داراً للاسلام بعد أن كانت معقلا لأهل الأوثان والأزلام ونقل

كرسى ملكه إليها وجعلها دار السلطنة وبنى بها جامعا ومدرسة وتكية يطبخ فيها الطعام للفقراء والأيتام والغرباء وهذه المدينة من أعظم المدن الإسلامية وأعمرها وهى مدينة كثيرة الثمار والعيون .

ذكر فتوحاته فى بلاد اليونان

ولما نقل السلطان أورخان كرسى الملك إلى مدينة بروسا أخذ فى الاهتمام والإستعداد لافتتاح مدن جديدة فجهز الجيوش وجند الجنود وهاجم بلاد اليونان فافتتح أكثر بلدانها وعامل أهلها بالشفقة والرحمة حتى أن كثيراً من النساء الروميات اللاتى فقدن أولادهن ورجالهن فى تلك الحروب كن يستغثن به ويقعن على قدميه ويطلبن المساعدة والرعاية فكان يلاطفهن بالكلام وينعم عليهن بما يسر خواطرهن فمالت إليه قلوب الناس وما زال يتقدم فى فتوحاته حتى أشرف على خليج القسطنطينية وبوغاز كليبولى واجتاز ابنه سليمان بوغاز شنق قلعة وفتح مدينة كليبولى وهى مفتاح القسطنطينية ، وفى سنة ٧٣١ سار السلطان أورخان بعساكر ففتح حصون قيسون حصارى وفتح أزميد وفتح مدينة أزينوب وكانت من أعظم مدائن الكفار وجمع عظمائهم فغنم المسلمون منها غنائم كثيرة وفتح حصونا كثيرة ، وفى سنة ٧٥٨ أمر السلطان أورخان ولده الأمير سليمان أن يجتاز البحر الأبيض إلى طرف روم إيلى للجهاد ولم يكونوا يملكون السفن فعملوا ألواحا شبه السفن فركبوا عليها فى الليل من موضع يقال له كر فوصلوا إلى ذلك البر فصادفوا حصناً يسمى جمنا فاستولوا عليه بما فيه ثم هجموا على قلاع أخرى فاستولوا عليها قهراً .

ذكر القتال مع كليبولى

وكان الأمير سليمان بن أورخان المذكور على جانب عظيم من الشهامة والعدالة فلما رأى الكفار حسن سيرته ونشر عدله وضبط جنده أطاعوه ورضوا به فسار أمر المسلمين ينمو وصيتهم يسمو فخرج لقتالهم صاحب كليبولى فى عسكر كبير وكان المسلمون فى عسكر قليل فتوكلوا على الله وتوسلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوهم قتالا شديداً فانتصر المسلمون واستولوا على عدة حصون منها مدينة كليبولى وهى مدينة جليلة

على شاطىء البحر وبينها وبين القسطنطينية ٨٦ ميلا ونصف ميل ومنها قلعة قره جلك وقليعة جيره بول وهى بلاد متسعة ومنها قلعة دركور ومنها تكفور طاغى وغير ذلك وخرب الكنائس والبيع وبنى مكانها مساجد ومعابد ، وفى سنة ٧٦٠ خرج الأمير سليمان المذكور للصيد فكبا به الفرس فمات لوقته فجزع عليه أبوه جزعاً شديداً وفى هذه السنة عبر الأمير مراد الغازى ابن السلطان أورخان إلى طرف روم إيلى من خليج كليبولى ففتح مدينة جورلى وهى من القسطنطينية مسيرة ثلاث مراحل ولم يزل مراد الغازى يحاصر البلاد ويقاتل الكفار حتى فتح مدينة ديمتوقة وهى من كبار البلاد الإسلامية ، وفى سنة ٧٦١ توفى السلطان أورخان وعمره ٨٣ سنة ودفن بمدينة بروسا ومدة ملكه ٣٥ سنة وكان ملكا جليلا ذا سيرة مرضية وكرم وافر وعدل متكاثر طاهر الاعتقاد سليم الفؤاد عدواً لأهل الكفر والإلحاد وكان كثير الغزو والجهاد وبنى كثيراً من الجوامع والمدارس وأجرى فيها الخيرات الكثيرة رحمه الله تعالى وتسلطن بعده ولده (السلطان مراد الأول) فلما جلس على سرير الملك وحاصر مدينة أنكورية وكانت عصت عليه ففتحها عنوة وكانت من أمنع الحصون ، فلما سمع بخبره ابن قرمان صاحب مدينة لارندة خشى على بلاده فجمع جموعا من التتر وورشق وطورعود والتركمان وغيرهم وسار بجموع لا تحصى لقتال السلطان مراد المذكور فجرى بينهما قتال شديد وحرب أكيد ، ثم انجلى الأمر عن هزيمة بن قرمان وانتصر السلطان مراد .

ذكر فتح أدرنة

وفى هذه السنة أيضا جهز السلطان مراد جيشا وأرسله لفتح أدرنة ، وجعل عليه شاهين لالا الأتابك ، فاقتتلوا قتالا شديدا وعجزوا عن أخذها ، وسألوا السلطان مراد أن يقدم عليهم بنفسه فسار السلطان مع جيوش الموحدين وغزاة المجاهدين فاجتاز البحر ، فلما سمع الكفار بقدومه تزلزلت أركانهم وهرب سلطانهم ، فلما سمع المسلمون بذلك هجموا على المدينة فأخذوها وأرسلوا السلطان بذلك فحمد الله وأثنى عليه وجاء فدخل المدينة ،

وهى من أعظم مدن الدنيا تجرى من تحتها ثلاثة أنهار وبينها وبين القسطنطينية سبعون ميلا ، ثم أرسل لالا شاهين الأتابك ففتح مدينة فلبه ثم فتح زغرة بنواحيها وعادوا إلى مدينة بروسا . ومن غزواته أنه سار إلى أقليمى الصرب والبلغار وفتح فيهما فتوحات وأثخنهم قتلا وأسراً وكان ببر الأناضول جملة من أمراء الأتراك لم يزالوا باقين على الاستقلال فحاربهم وأخضعهم واستولى على مقاطعة كرميان وغيرها من الولايات ثم على مدينة كوتاهية وخضع لسلطنته معظم مقاطعة مكذونيا وبلاد الأرناؤود وفتح كثيراً من بلاد اليونان وعبر بحر مرمرة وفتح مدنا وقلاعا جهة تاساليا .

ذكر ابتداء اختراع عسكر الانكشارية

وفى سنة ثلاث وستين وسبعمائة أشار خليل باشا على السلطان بأن يأخذ خمس الأسارى من الغانمين على زقاق كليبولى وكان الغزو والجهاد فى بلاد الروم ايلى متتابعاً ، فكانت تسبى الأسارى وتأتيه كالسيل الهامى والبحر الطامى فاجتمع منهم عند السلطان طائفة كثيرة ، فأمرهم السلطان بتعليم علم الرمى بالبندق فتعلموا ثم ميزهم وأرسلهم إلى خدمة الشيخ الحاج بكتاش ليعلمهم بعلامة ويسميهم باسم ويدعوا لهم بالخير والظفر فلما اجتمعوا عند العارف بالله تعالى الشيخ قطع كم قبائه وكان من لبد فألبسه رأس رئيسهم ودعا لهم بالبركة وسماهم ينك جرى والجارى على الألسن انكشارى ومعناه العسكر الجديد لأن السلطان عثمان كان أكثر عساكره من فرسان التركمان ولم يكن لهم معرفة بالضبط والربط العسكرى ولا انتظام لهم حال القتال فاستصوب السلطان أورخان ترتيب عساكره على هذا الوجه فأحدث وجاق الانكشارية ورتبه ولم يتممه وصار تمام انتظامهم على يد ابنه السلطان مراد واستمر وجاق الانكشارية إلى زمن السلطان محمود الثانى فأبطله وأبادهم كما سيأتى سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف وأحدث النظام الجديد الموجود الآن وفى سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة اشترى السلطان مرادخان من صاحب بلاد حميد خمس قلاع وهى بلواج ويكى وآق شهر وقره شهر وأغاج وسيدى شهر . وفى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة خرج السلطان مراد المذكور إلى

فقتل رئيس الكفار ابن لازقا وكان قد تجمع لقتاله أهل اليونان والصرب والافلاق والبغدان وأهل الماعن والمجر والبلغار وتحزبوا جميعاً عليه فاتفق موافاته بعسكر الكفار بموضع يقال له قوصو ببلاد الروم ايلى فالتحم بين الفريقان القتال إلى أن هبت رياح النصر للمسلمين وقتل رئيس القوم الكافرين وانقلب الكفار على أدبارهم صاغرين .

ذكر استشهاد السلطان مراد الأول

ثم أنه لما انهزم الكفار أقبل من أمرائهم أمير يقال له يلواش فى خيله ورجله مظهراً الطاعة فلما هم بتقبيل يد السلطان ضربه بخنجر كان فى كمه فمن ذلك سن العثمانية عند قدوم الوافد وتقبيل يد السلطان أن يمسك أحد من طرف كمه وآخر من كمه الآخر احترازاً من ذلك ، فمات السلطان سنة سبعمائة واثنتين وتسعين من ضربة ذلك الخنجر وخرجت أمعاؤه فدفنوا أمعاءه هناك وحملوا جسده ودفنوه بمدينة بروسا وقتلوا ذلك الكافر الذى ضربه وقطعوه بالخناجر وكان السلطان مراد المذكور رحمه الله ملكا جليلا عارفاً وكان أفنى عمره فى الجهاد وكان شجاعا مقداماً عالى الهمة توفى وعمره خمس وستون سنة ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة وتسلطن بعده ولده (السلطان السعيد يلدرم بايزيدخان). وبعد جلوسه أخذ فى محاربة الصرب الذين كان أبوه يحاربهم وتقوت عساكره إلى أن وصلت إلى ودين وتملكوا مدينة أسكوب والتزم ملك الصرب أن يزوج أخته للسلطان المذكور وأن يدفع خراجاً سنويا ومن فتوحاته أنه استولى على جزيرة رودس وكانت للمسلمين فتملكها النصارى وتكرر انتزاعها منهم مرة بعد أخرى وآخر الأمر انتزعها هذا السلطان منهم . وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فتح السلطان المذكور قرطوة وهى معدن الفضة الخالصة التى لا نظير لها وفتح بلاد اسكوب وهى من أجل البلاد الإسلامية وفتح قلعة ودين فخاف ابن آيدين من السلطان المذكور وسلم مفاتيح قلاعه إليه وفيها أطاع السلطان أهل بلاد قرسى وصاروخان وفيها هرب صاحب قسطمونى وهو ابن منتشا فأرسل السلطان من يضبط تلك القلاع . ولما نقض العهد علاء الدين صاحب بلاد

قرمان وبلغ السلطان أنه أغار على بعض بلاد أناضولى هجم عليه السلطان فانهزم فلحقه بموضع يقال له آق جارى فأسر هو وابناه فنازل السلطان مدينة قونية وهى كرسى مملكته وحاصرها وكان وقت إدراك الغلال ، فرسم السلطان بأن لا يتعرض أحد لشىء من الغلال وأن لا يظلموا أحداً وأذن لأهل القلعة بأن يخرجوا ويشتغلوا ويبيعوا على مقدار ماشاءوا فخرج أهل القلعة وأصلحوا شأن غلالهم وحصادهم وباعوها من العسكر على أبلغ وجه أرادوا فلما شاهدوا ذلك رجعوا إلى أنفسهم فقالوا إن ملكا بلغ منا هذا المبلغ لا ينبغى أن نعصيه ، ونخرج عن طاعته . فحضروا برمتهم طائعين وسلموه مفاتيح القلعة وقالوا أنت أحق بها وأهلها فلما رأى أهل سائر القلاع ما فعل أهل قونية ، وهى عمدة بلاد قرمان رغبوا فى المتابعة بمفاتيح قلاعهم وهى بلدة آق سراى ونيكدة وقيصرية ودولى‌قره حصار وسلموها إلى السلطان المذكور ثم رجع إلى مقر مملكته بروسة بعد ما قتل علاء الدين بن قرمان وحبس ولديه بمدينة بروسة وبقيا إلى أن أطلقهما الخارجى تيمور . وفى سنة خمس وتسعين وسبعمائة استولى السلطان المذكور على سيواس وأماسية ومدينة توقات ونيكسار وجانيك وصامسون وكلها كانت بيد السلجوقية وعمالهم وفى آخر هذه السنة بلغه أن صاحب قسطمونى أغار على بعض البلاد التى بيد السلطان بايزيد وعاث فيها نهباً وتخريباً فلما بلغه ذلك وكان قد جاز البحر لغزو الكفار إلى طرف روم ايلى فترك الغزو ورجع لقتال صاحب قسطمونى فمات قبل أن يصل إليه السلطان بايزيد وتملك ابنه وأرسل إلى السلطان يستعطفه ويسترضيه ويقول إن أبى قد جنى وقد مات وأنا مطيع لأوامر مولانا السلطان ومن جملة مماليكه فالمناسب لعدله أن لا يؤخذ أحداً بذنب غيره وأرجو من مكارمه أن يترك لى مدينة سينوب وهى مدينة أبى ومسقط رأسى ويجعلنى فيها نائباً عنه، فأجابه السلطان إلى سؤاله وعاد إلى مدينة بروسة ثم أرسل السلطان بايزيد إلى صاحب القسطنطينية يقول له إما أن تخرج من البلاد وتسلمها وإما سرت إليك فأتيتك فى أعز منسا كنك فخاف منه ملك القسطنطينية وتراسل معه إلى أن قر الأمر بينهما بأنه يدفع خراجاً فى كل سنة عشرة آلاف ذهب وأن يبنى للمسلمين فى داخل المدينة محلة يسكنون

فيهـا ، ويكون لهم فيهـا مسجد وجامع وقاض يقضى لهم الخصومات فرضى بذلك وفعله واستمر ذلك إلى وقعة تيمور ، فنقض العهد وأخرب الجامع ، وأخرج المسلمين من البلد وساقهم إلى الروم . قال الحافظ ابن حجر فى كتابه أنباء الغمر فى أبناء العمر واشتهر يلدرم بايزيد بالجهاد فى الـكفار حتى بعد صيته وكاتبه الظاهر برقوق صاحب مصر وهاداه ، ووفد إليه أمير بعـد أمير بالهدايا ، ولم يبق أحد من ملوك الأرض حتى كاتبه وهاداه قال الحافظ وسمعت شيخنا ابن خلدون يقول إنمـا نخاف أن تتملك مصر من ابن عثمان . وكذا كان يقول الظاهر برقوق أنا لا أخاف من الـكفار فإن كل أحد يساعدنى عليهم وإنما أخاف من ابن عثمان . والحاصل أن هـذا السلطان افتتح أيالات كثيرة فى الأناضول وروم إيلى واستولى على مدينة سلانيك ثم شن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنج ثم وجه عزمه وهمته لفتح القسطنطينية وأخذ فى تدبير ذلك وشرع فى محاصرتها ثم قدر الله بمسير التيمور إلى قتاله . وفى سنة ٨٠٢ اجتمع كثير من ملوك الروم الذين اقتلع ملـكهم السلطان يلدرم بايزيد وسـار إلى تيمور مستغيثين به يشكون إليه من السلطان بايزيد ويرغبونه فى المسير إلى الروم ويستنجدون به عليه فى رد ممالـكهم فأجاب تيمور سؤالهم وسار بجيوش كثيرة ووقع بينه وبين السلطان بايزيد مكاتبات كثيرة فلم يرجع عن قصده والـكلام على ذلك قد تقدم عند ذكر تيمور مبسوط وكان السلطان بايزيد محاصراً القسطنطينية وقد قارب فتحها وأشرف عليه فتركها وتوجه بعساكره لقتال تيمور ، وكان غالب عسكر السلطان من التتر فأرسل تيمور إلى زعمائهم والـكبار من رؤسائهم وأمرائهم يستميلهم ويذكرهم الجنسية ويعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا فوعدوه بالمعاونة ، وكان تيمور قد نازل أنقورية فقصده السلطان والتقت الجيوش بقرب أنقورية واشتد القتال فانهزم التتر الذين مع السلطان بايزيد فتبعهم كثير من العسكر فى الانهزام فانهزموا وبقى السلطان بايزيد يقاتل بنفسه إلى أن وصل إلى تيمور وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطا وأمسكوه أسيراً وكان رحمه الله من خيار الملوك ، وكان مجاهداً مرابطاً قد فتح من بلاد الـكفار ومدنهم الـكبار ما لم يتسها من

المسلمين خف ولا حافر وكان قوى النفس شديد البطش عالى الهمة ولما أخذ السلطان بايزيد أسيراً صحبه تيمور معه إلى بلاد العراق قاصداً خراسان ومكث فى أثره إلى أن توفى فى تبريز سنة ٨٠٥ ثم وقعت فتن كثيرة فى أراضى الروم بين أولاد بايزيد مع بعضهم واستمرت إلى سنة عشرة وثمانمائة فتم الملك والسلطنة (للسلطان محمد الأول ابن بايزيد) وكان أصغر إخوته فالله سبحانه وتعالى يؤتى الملك من يشاء ولا يسأل عما يفعل وكان دأبه الاشتغال بالحروب وكان من جملة من خرج عليه وحارب (قره‌دولقشاه) من التتر فى نواحى ماسية فسار عليه وهزمه وبدد شمله ثم قصد قتال صاحب سينوب وجرى بين الفريقين قتال شديد انتصر فيه السلطان محمد وانهزم صاحب سينوب أقبح هزيمة واستولى السلطان محمد على جميع ممالكه، ثم بعد ذلك صفى له الدهر وانتظم له الأمر ولم يبق من ينازعه فى ملكه وفتح مدينة أزمير ونقل كرسى السلطنة إلى أدرنة وأتته رسل ملوك الإفرنج بالهدايا وبالتهانى وعقدوا معه صلحا خوفاً منه وأعاد رونق السلطنة ووسع نطاقها، ثم لما بلغه أن ابن قرمان نقض العهد وتعرض لأخذ بعض البلاد سار إليه بجيش عظيم فقاتله فهزمه وتبعه حتى أسره وولديه فأحضر بين يدى السلطان فعاتبه على سوء صنعه ثم عفا عنه وعن ولديه وأطلقهما وعين لهما بعض بلادهما وأخذ عليهما العهد والميثاق أن لا يخونا بعد ذلك واستولى على عدة قلاع لابن قرمان فيها قلعة صورى حصار وقلعة قير شهر وقلعة نيكده وقلعة آق شهر وقلعة سيدى شهر وقلعة أوغازى وقلعة ينى شهر وقلعة سعيد إيلى، ثم سار واستولى على صامسون وغالب هذه البلاد، وكانت قد افتتحها السلطان بايزيد ثم لما قدم تيمور إلى بلاد الروم ردها إلى أصحابها فارتجعها منهم السلطان المذكور، وكان السلطان محمد المذكور ملكا جليلاً مهابا محب للعلماء والصلحاء وهو أول من عين الصرة لأهل الحرمين واستمر فى ملكه ثمانية أعوام وعشرة أشهر وتوفى سنة أربع وعشرين وثمانمائة وعمره ثمان وأربعون سنة وعهد بالسلطنة لولده مراد الثانى، وكان ولده المذكور إذ ذاك غازيا فى أقصى بلاد روم إيلى فأخفى الوزراء موت السلطان محمد مدة إحدى وأربعين يوما حتى وصل ولده (السلطان

مراد) إلى مدينة بروسة واستقر على التخت ثم بعد ذلك أظهروا موت السلطان ، وفى سنة خمس وعشرين وثمانمائة ظهر رجل ادعى أنه مصطفى بن السلطان يلدرم بايزيد وكان مصطفى المذكور فقد فى محاربة التيمور فادعى أنه هو وأقام فى نواحى سلانيك فاجتمع عليه خلق كثير واستولى على جميع بلاد الروم إيلى وعلى مدينة أدرنة ، ثم اجتاز البحر إلى طرف أناضول ليقاتل السلطان مراد ، وكان السلطان مراد بعث قبل ذلك وزيره بايزيد باشا وصحبته عساكر كثيرة إلى أدرنة لقتال الخارجى المذكور فقاتلوه بقرب أدرنة فانتصر الخارجى وانهزم عسكر مراد وأسروا الوزير بايزيد باشا وقتله الخارجى فسار السلطان مراد بنفسه لقتاله بعساكر وافرة فقدر الله أن الخارجى المذكور أصابه الرعاف واستمر به ثلاثة أيام حتى ضعف جداً وجعل يخلط فى الكلام واختل عقله فلما تحقق ذلك أركان دولته ووجوه عسكره تيقنوا خذلانه فداخلهم الخوف فتفرقوا شذر مذر وهرب الخارجى مع ضعفه إلى طرف روم إيلى فلما شاهد ذلك عسكر السلطان مراد اجتازوا خلف المنهزمين فأسروا منهم خلقاً كثيراً وقتلوا غالبهم وغنموا منهم أموالا ودواب كثيرة ثم أمر السلطان بعض أمرائه حتى لحق الخارجى بقرب أدرنة نظفر به فقتله وانتظم الأمر للسلطان مراد وارتجع جميع ممالكه ، وكان حريصاً على فتح القسطنطينية فأقام بمائتى ألف مقاتل وحاصرها حصاراً شديداً فقاومه أهلها أشد مقاومة ثم رفع الحصار عنها ورجع إلى دار ملكه لتسكين الفتن التى أضرمها الروم بتلك النواحى فقاتلهم حتى أخمد تلك الفتن واستخلص تلك المدن وما زال يتقدم حتى داخل بلاد المورة فلما ذاع عند الفرنج خبره نهض البابا وعقد عهوداً بين ملوك الفرنج على محاربته فأجاب إلى ذلك الفرنسيس وجرمانيا والمجر وبولونيا فكان بينه وبينهم حروب كانت الغلبة فى بعضها لهم وفى بعضها له ثم عقد معهم صلحاً سنة ٨٤٧ وفى سنة ٤٩ نزل السلطان مراد عن السلطنة لولده السلطان محمد وخلع نفسه عن السلطنة واختار لنفسه مدينة مغنيسيا فانتقل إليها واعتزل عن الملك وشاع هذا الخبر فى الآفاق وقال ملوك الكفار بعضهم لبعض أن ملك المسلمين قد صار شيخاً كبيراً فاعتزل الملك وجعل منصبه لولده وهو صبى صغير لا يخشى منه

فاتفق قرال أنكروس وقرال الألمان وقرال جه وقرال له وأميرل طين وأمير بوسنة وصاحب أفلاق و بغدان وطوائف الإفرنج على قتال المسلمين وأن لا يدعو من بلاد الإسلام حجراً على حجر ، فلما بلغ ذلك أركان الملك خافوا واستصوبوا أن يدعوا السلطان مراد من مغنيسيا ليكون معهم لأنه سلطان شاع بذكره الأخبار وطال ما أنكى الكفار فأرسلوا يطلبونه فامتنع وقال سلطانكم دونكم تخذوه وخلونى فلم يزالوا يدخلون عليه حتى رضى .

ذكر غزوة عظمى

سار مع ولده السلطان محمد إلى طرف العدو فلما تصاف الطائفتان والتقى الجمعان تكاثر كل من الفريقين على الآخر وانهزم المسلمون وجعل الكفار يطردونهم ويقتلونهم ولم يبق إلا السلطان مرادخان فى القلب ، فلما شاهد ذلك الحال رفع يده إلى الله تعالى وسأله النصر والعون وتوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم فلم تمض ساعة حتى اغتر قرال أنكروس وهو كبيرهم فبرز من بين عساكره فانفرد وجعل يدعو السلطان مراد للمبارزة ثم هجم على المسلمين فتقنطر به فرسه فسار إليه المسلمون فقتلوه وحزوا رأسه ورفعوه على رمح ، وجعلوا يصيحون هذا رأس قرل الملعون فلما رأى الكفار ذلك انهزموا عن آخرهم وساق المسلمون خلفهم وقتلوهم قتلا ذريعاً ، وكان يوم غم ثم سرور والعاقبة للمتقين ، وأما الغنائم والأسرى فلا تحصى ولا تحصر ، ثم إن السلطان مراد لما رجع من الغزو وأمضى سلطنة ولده السلطان محمدخان على ما كان عليه ، وسار هو إلى طرف مغنيسيا واستمر الحال إلى أن تحرك طائفة الينكجرية وعادوا وكبسوا بيوت الأمراء والوزراء ونهبوها وكان ذلك فى سنة ٨٥٠ .

ذكر غزوة أخرى

فعند ذلك رأى الوزراء وسائر أركان الملك أن يعيدوا السلطان مراد إلى الملك ليسترهبونهم فطلبوه وأجلسوه على سرير الملك وعاد ابنه السلطان محمد إلى مكان أبيه

مغنيسا وبقى بها إلى أن توفى أبوه فجلس بعده واستمر على تخت السلطنة السلطان مراد يغزو حتى استولى على معظم بلاد الكفار وسار إلى بلاد المورة وباقى الأقاليم المجاورة بها فأخضعهم وزتب عليهم الخراج وجرت على آثار ذلك حروب كثيرة بينه وبين الأرناؤوط والمجر إلى أن توفى سنة ٨٥٥ وعمره تسع وأربعون سنة ومدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة ، وكان ملكا جليلا صالحاً يعتنى بشأن العلم والعلماء والمشايخ والصلحاء مهد الممالك وأمن المسالك وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين ، وكان مقداما فاتكا شجاعاً كريماً واسع العطاء عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته فى كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة دينار وللشرفاء من خزينته فى كل عام مثل ذلك رحمه الله تعالى وأوصى ابنه محمد أن يهتم بفتح القسطنطينية و يوجه إليها جنوده فتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثانى) فاتح القسطنطينية وهو السلطان الظليل الفاضل النبيل أعظم الملوك جهاداً وأقواهم إقداما واجتهاداً وأكثرهم توكلا على الله واعتماداً وهو الذى أسس ملك بنى عثمان وقنن لهم قوانين وصارت كالطوق فى أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار باقية فى صفحات الليالى والأيام ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام ولما تسلطن كان عمره ١٩ سنة فخرج إلى قتال صاحب قرمان فخاف منه صاحب قرمان وصالحه ، فعاد إلى مقر ملكه .

ذكر فتح القسطنطينية

ثم لم يكن له هم إلا فتح القسطنطينية فشرع فى مهماتها ومقدماتها وهى من أعظم البلدان وأكبرها وأمنعها حصنا لأنها أحاط بها البحر من كل صوب إلا الطرف الغربى وهو طرف يسير ، وقد حصنوه بثلاثة أسوار وعدة خنادق يجرى فيها ماء البحر مع ما فيها من المكاحل والمدافع فأظهر السلطان مسالمة صاحب القسطنطينية وذلك سنه ست وخمسين وثمانمائة ثم طلب من طرف بلاده أرضاً مقدار جلد ثور يهبها له فاستقل ذلك صاحب القسطنطينية ، وقال سبحان الله ما يفعل به ، فهو له فأرسل السلطان المزبور جماعة من البنائين والصناع فاجتازوا الخليج الداخل من بحر نيطش وهو البحر الأسود إليه

بحر الروم فقدوا جلد الثور قداً رقيقاً ، فبسطوه على وجه الأرض على أضيق محل من فم الخليج فبنوا على القدر الذى أحاط ذلك الجلد سورا منيعا شامخا وحصنا رفيعا باذخا ، فركب فيه المدافع الرعدية والمكاحل الشهابية ، ثم بنى السلطان فى مقابلة ذلك الحصن فى بر أناضولى حصناً آخر وهو فى طرف بلاده فشحنه بالآلات النارية والمرامى الرعدية حتى ضبط فم الخليج ، فلم تقدر يسلكه بعده شىء من مراكب البحر الأسود إلى القسطنطينية وإلى بحر الروم ثم وجه عزمه إلى مدينة أدرنة فأمر بإنشاء دار السعادة الجديدة فشرعوا فى بنائها ثم أمر بسبك المدافع الكبار وعمل المكاحل لأجل فتح القسطنطينية فأكثروا منها ثم لما تكاثرت الآلات وتكاملت الأسباب المتعلقة بالقتال قدر الله أن انتقضت المسالمة التى كانت بينه وبين ملك القسطنطينية لأسباب جرت فأرسل ملك القسطنطينية يتهدده بكلام غليظ فكان ذلك سبباً للاستعداد لقتاله وقوة عزمه على ذلك ولما علم ملك القسطنطينية بعزمه على قتاله أرسل إلى ملوك الإفرنج يستنجد بهم ووعدهم بضم الكنيسة الرومية الشرقية إلى الكنيسة الرومانية الغربية ، ففرح البابا بهذا الخبر وكان يتمناه ، وأرسل له نجدة من عساكر ملوك الإفرنج فلم يجد ذلك نفعاً إذ لم يكن للروم اهتمام بهذا الحرب لكراهيتهم ضم الكنيستين معاً ومن ذلك الوقت جرت البغضاء فى قلوبهم لملك القسطنطينية وتخلوا عنه فى المدافعة والمحاماة حتى قال بعض أكابرهم : أحب أن أرى فى القسطنطينية تاج السلطان ولا أرى أكليل البابا فنهض فى أوائل شهر جمادى الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة بعسكر كثير وجيش كبير يبلغ مائتين وستين ألفاً بعزم صارم، ورأى حازم فى أسعد أوقات الحركات متوكلا على فائض الخيرات فخيم على القسطنطينية وبازلها من طرف الشمال وكان له أربعمائة غراب قد أنشأها هو وأبوه قبل ذلك التاريخ فأرسلها عند الحصن الذى أنشأه على مقدار جلد الثور المرسوم ببغاز كسن فأمر بتلك الأغربة فسحبت إلى البر بعد أن جعلت تحتها دواليب تجرى عليها كالعجلة وشحنها بالرجال والأبطال ثم أمر بنشر قلاعها فنشرت فى ريح شديد موفقة فساروا فى البر على هذه الهيئة حتى انصبوا إلى الخليج الواقع شمالى البلد من طرف مدينة غلطه فامتلأ الخليج من تلك

الأغربة ، ثم قربوا بعضها من بعض وربطوها بالسلاسل ، فصار جسراً ممدوداً ومعبراً لطيفا وكان أهل البلد آمنين من هذه الجهة ولم يحصنوها وإنما كان خوفهم من جهة البر فكانوا حصونها وغفلوا عن هذه الجهة لأمر يريده الله تعالى فشرع المسلمون فى الحصار والقتال من جهة البر والبحر مدة واحد وخمسين يوما حتى أعيذ المسلمين أمرها ، ومازالوا مثابرين الحصار والقتال ، فجمع ملك القسطنطينية أعيان الأمراء والقواد ، لما اشتد عليهم الأمر وأخذ يحرضهم على القتال وبعد خطاب طويل أخذوا بالبكاء والعويل وعانق بعضهم بعضا بقصد الوداع ، ثم قصدوا الأسوار وتحصنوا فيها .

ذكر دخول المسلمين القسطنطينية بعد فتحها

فلما كان اليوم التى فتحت فيه وهجم العساكر العثمانية ودخلوها قاتل ملكهم قتالا شديداً إلى أن قتل فى المعركة ، وقتل معه خلق كثير ، فدخلها المسلمون وأسروا أهلها وأحرقوا مكاتبها ، يقال إن عدد ما فقد منها مائة وعشرون ألف مجلد وكان السلطان محمد قد أرسل وزيره أحمد باشا ابن ولى الدين باشا قبل هذا التاريخ إلى خدمة العارف بالله الشيخ آق شمس الدين وإلى خدمة الشيخ آق بيق يدعوهما الجهاد والحضور معه فى فتح القسطنطينية فحضروا ، وبشر الشيخ شمس الدين الوزير المذكور بالنصر وقالا : ستفتتح إن شاء الله تعالى قسطنطينية على يد المسلمين فى هذا العام وأنهم سيدخلونها من الموضع الفلانى فى اليوم الفلانى من هذا العام وقت الضحوة الكبرى ، وأنت تكون حينئذ واقفا عند السلطان محمد فبشر الوزير السلطان بما بشر به الشيخ من خبر الفتح ، فلما كان ذلك الوقت الموعود به ولم تفتح القلعة حصل للوزير خوف شديد من جهة السلطان فذهب إلى الشيخ فمنعوه من الدخول إليه لأنه أوصى جماعته أن لا يدخلوا عليه أحدا فرفع الوزير أطناب الخيمة فنظر فإذا الشيخ ساجد على التراب ورأسه مكشوف وهو يتضرع ويبكى فما رفع الوزير رأسه من أطناب الخيمة إلا وقد قام الشيخ على رجليه وكبر وقال الحمد لله

الذى منحنا فتح هذه المدينة قالوا الوزير فنظرت إلى جانب المدينة فإذا العسكر قد دخلوا بأجمعهم ففتح الله ببركة دعائه فى ذلك الوقت الذى كان أشار به وكانت دعوته تخرق السبع الطباق فلما دخل السلطان محمد خان المدينة نظر إلى جانبه فإذا وزيره ابن ولى الدين يقف عنده فقال هذا ما أخبر به الشيخ وقال ما فرحى بهذا الفتح ، وإنما فرحى بوجود مثل هذا الشيخ فى زمانى (ومن مناقب) هذا الشيخ أنه كان طبيبا يداوى الأبدان كما هو طبيب لدواء الأرواح . يحكى أن الأعشاب كانت تناديه وتقول له أنا أنفع للمرض الفلانى وكان فتح مدينة القسطنطينية نهار الأربعاء لعشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، وكانت أيام محاصرتها واحدا وخمسين يوما فغنم المسلمون من الأموال والأسباب والدواب ما لم يسمع بمثله فى عصر من الأعصار لأن السلطان لما شاهد العى والفتور من العسكر فى الحصار أمر بأن ينادى أن الغنائم كلها لهم ، ويكفينى فتح المدينة فلما بلغهم ذلك بذلوا جهدهم واجتهدوا حتى يسر الله فتح المدينة فلما شاع خبر هذا الفتح فى الآفاق هابه ملوك العالم فأرسل إليه صاحب مصر وصاحب العجم وصاحب الغرب بالمكاتبات والمراسلات يهنئونه بالفتح ولا شك أن هذا الفتح من أعظم الفتوحات الجليلة وكم من الخلفاء والملوك من رام فتح هذه المدينة وصرفوا هممهم وبذلوا جهدهم وأموالهم وأفنوا أعمارهم ، وعساكرهم فلم ينالوه إنما حباه الله تعالى لهذا السلطان الجليل والملك الجميل لكونه أخلصهم نية وطوية وأحسنهم سيرة وضمن بعضهم هذا المعنى فى تاريخ الفتح فقال :

رام أمر الفتح قوم أولون   حازه بالنصر قوم آخرون

وقع لفظ آخرون تاريخا بفتح المدينة المذكورة بعدد حساب الحروب ٨٥٧ وقيل فى تاريخها أيضا بلدة طيبة ٨٥٧ بحساب كل تاء مربوطة بأربعمائة وذلك جائز عن بعضهم وهى كذلك فى طيب الهواء ولما دخل السلطان مدينة القسطنطينية سارع بالتوجه إلى كنيستها العظمى أيا صوفيا فدخلها وطهرها من خبائث الكفر وصلى فيها ودعا الله تعالى وحمده وأثنى عليه وجعلها مسجداً جامعاً للمسلمين وعين له أوقافاً ومرتبات ثم ان السلطان محمداً التمس من الشيخ شمس الدين أن يريه موضع قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه

فقال الشيخ إنى شاهدت فى موضع نوراً لعل قبره هناك فجاء إليه وتوجه زماناً ثم قال اجتمعت مع روحه فهنأنى بهذا الفتح وقال شكر الله سعيكم الذى خلصتمونى به من ظلمة الكفر فأخبر السلطان بذلك فحضر بنفسه إلى هناك وقال ألتمس منك يا مولانا الشيخ أن ترينى علامة أراها بعينى ويطمئن بذلك قلبى فتوجه الشيخ ساعة ثم قال احفروا فى هذا الموضع وهو من جانب الرأس من القبر مقدار ذراعين يظهر لكم رخام عليه خط عبرانى . فلما حفروا ظهر رخام عليه خط عبرانى فقرأه من يعرفه وفسره فإذا هو قبر أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه فغلب على السلطان محمد حال حتى كاد يسقط لولا أن أمسكوه ثم أمر ببناء قبة عليه وقد روى الإمام أحمد بإسناد حسن فى مسنده والحاكم عن بشر الغنوى لتفتحن بالبناء المفعول القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها وهذا حديث معجزة من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم وعلم من أعلام نبوته لأن فيه الأخبار بالغيب ووقع كما أخبر صلى الله عليه وسلم وهو صادق على السلطان محمد خان هذا وعلى جيشه وإن كان الغزو إلى القسطنطينية وقع فى زمن الصحابة ومن بعدهم وافتتحوا طرفاً منها فى خلافة معاوية رضى الله عنه فى الغزوة التى استشهد فيها أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه ثم استرجع الروم الطرف الذى افتتح فى ذلك الزمن فالفتح التام إنما هو هذا الذى فى زمن السلطان محمد الفاتح ففى الحديث منقبة عظيمة له وروى الإمام أحمد والبخارى ومسلم عن أم حرا بنت ملحان رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أو جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم فهذا يحمل على أول غزوة وجهت القسطنطينية وهى التى كانت فى زمن معاوية رضى الله عنه سنة اثنتين وخمسين من الهجرة وكان فيها كثير من الصحابة منهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى وغيرهم رضى الله عنهم وكان فى ذلك الجيش يزيد بن معاوية قيل كان هو أمير الجيش وقيل كان الأمير سفيان بن عوف وقوله مغفور لهم مشروط بكون المغفور له منهم من أهل المغفرة بأن يموت مؤمناً فلو ارتد واحد والعياذ بالله من ذلك الجيش ، ومات كافراً كان خارجا من عموم تلك المغفرة وهكذا يقال فى كل حديث يذكر فيه ، أن من فعل

كذا يغفر له أو دخل الجنة فإن ذلك مشروط بالوفاة على الإيمان ومثل ذلك قد يرد فى كلام بعض الأولياء بأن يقول أحدهم مثلا من رآنى دخل الجنة أو من أكل طعامى دخل الجنة فإن ذلك مشروط بالوفاة على الإيمان فلا يشكل عليك شىء من ذلك . وبنى السلطان محمد عند قبر أبى أيوب جامعاً عظيما وبعد تمام بنائه ذهب إليه بموكب عظيم وأقام الصلاة فيه وقلده الشيخ شمس الدين سيفاً بيده ومن ذلك الوقت جرت العادة أن السلطان الذى يجلس على تخت الملك يذهب إلى هذا الجامع ويتقلد بالسيف وهو بمنزلة التتويج عند ملوك النصارى .

ذكر الغزو إلى بوسنة

وفى سنة ثمان وخمسين وثمانمائة غزا السلطان محمد بلاد بوسنة بعسكر كثير وقاتلهم أشد قتال واستولى على عامة بلادهم ولم يقم للكفار قائم بعد ذلك هناك وفى سنة إحدى وستين وثمانمائة وجه همته إلى افتتاح جزيرة رودس فهدد أهلها وطلب منهم الخراج فامتنعوا وأرسلوا إلى البابا صاحب رومية يستنجدون به فأخذ يحث ملوك الإفرنج على محاربة الدولة العثمانية ، فلما بلغ السلطان محمداً هذا الخبر نهض بمائة وخمسين ألف مقاتل وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها براً وبحراً حتى كاد يفتحها فأخذ أحد الرهبان غيرة شديدة وصار يحث المسيحيين على المدافعة عن ملك المدينة فاستمال نحو أربعين ألفا من العساكر النمساوية وقادهم قائد من المجر فأضر بالسفن العثمانية بواسطة هذه النجدة ، واستمر السلطان محمد أربعين يوما ، وهو يكرر الهجمات على المدينة المذكورة ثم ارتحل عنها ، وأما قائد جيشهم الذى هو من المجر فجرح جرحا بليغاً هلك به وبعد هذه الغزوة زحف السلطان محمد على ولاية أثينا من بلاد اليونان ففتح دوكة وأثينا وهى المدينة الشهيرة فيها .

ذكر الغزو إلى بلاد الصرب والبوسنا والأرناؤوط

وفى سنة ثلاث وستين وثمانمائة توجه إلى بلاد الصرب وفتح فيها فتوحات ، وفى سنة ست وستين فتح إيالة طرابزون وولاية سينوب وأتى بصاحبها أسيراً إلى القسطنطينية فقتله السلطان محمد وكان له أولاد ثمانية فقتلهم معه ، وكان صاحب سينوب يكاتب ملك العجم ويعينه على السلطان محمد ، وفى سنة سبع وستين وثمانمائة توجه إلى إتمام تملك إقليم بوسنة ، وشن الغارات على ولاية الأفلاق والبغدان والصقالبة ، ثم صوب عزيمته إلى فتح بلاد الأرناؤوط وهم صنف من النصارى يتصبرون على المحن ويتكلفون الأعمال الشاقة قيل أصلهم من عرب الشام من بنى غسان ارتحلوا من الشام بعد ما أتى الله بالإسلام فقدموا من الشام وتوطنوا هذه البلاد وقيل أصلهم من البربر عبروا البحر من المغرب إلى هذا الصوب ، ثم غلب عليهم الجهل فتنصروا فدخل السلطان بلاد الأرناؤوط فنهبها واستولى على عدة قلاع هناك ، وأمر ببناء قلعة حصينة فى ثغر عظيم هناك كالسد بينها وبين الكفار وشحنها بالرجال وسماها آق حصار وأودع فيها من المدافع والمكاحل ما يقيها ، وفى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة غضب السلطان محمد على صاحب قونية ولارندة فانتزع منه ولاية قرمان وجعل فيها ابنه السلطان مصطفى ثم استولى على قلاع عاصية هناك مثل قلعة اركلى وقلعة آق سراى وقلعة كولك وقلعة يولى وجعل الجميع لابنه المذكور وفى سنة خمس وسبعين فتح جزيرة أرغبوز من أعمال البندقية بعد أن أوقع بأهلها وقتل أكثرهم ثم استولى على بقية بلاد الأرناؤوط بأسرها.

ذكر إغراء العجم والتتر على الإغارة والنهب

وفى سنة ٨٧٦ بعث صاحب العجم حسن بك الطويل ويوسفجه بك مع عسكر التتر إلى نهب بلاد العثمانيين فجاؤا ونهبوا مدينة توقات وأضرموا فيها النار وأغاروا عليها ثم اغتر يوسفجه بك فهجم على بلاد قرمان وأغار عليها وكان واليها يومئذ السلطان مصطفى ابن السلطان محمد ، وكان فى غاية من الشجاعة فقاتل العدو فهزمه وأسر

رئيسهم يوسفجه بك وكبله فى الحديد وأرسله مع عدة من الأسارى إلى أبيه السلطان محمد فكان ذلك عنوان الفتح ومقدمة النصر وفى سنة ٨٧٧ وقع قتال بين السلطان مصطفى بن السلطان محمد وبين زينل شاه ولد حسن الطويل فانتصر عليه السلطان مصطفى وانهزم جيشه وصارت الجيوش العثمانية يطردونهم ويقتلونهم ويأسرونهم وظفر بزينل شاه فقتله ، ثم صار مصطفى إلى قره حصار الشرقى وهو من بلاد حسن الطويل فاستولى عليها وأدرجها فى جملة ممالكه ، وفى هذه السنة بعث السلطان محمد وزيره كدك أحمد باشا لفتح بلاد كفة فحاصرها حتى غلبها وفتحها ثم افتتح هناك عدة حصون وقلاع .

ذكر الغزو إلى بغدان

وفى سنة ٧٩ سار السلطان محمد إلى قتال كفار البغدان فخاف منه كبيرهم استفان فهرب إلى أقصى بلاده فدخل السلطان بلاد بغدان وتوغل فيها وقتل من قدر عليه فكانوا خلقاً لا يحصى وأسر وسبى ونهب حتى أذعن رئيسهم استفان المذكور بالطاعة وأعطى الجزية ، وفى سنة ٨٨٥ صمم السلطان محمد على افتتاح جزيرة رودس فأرسل إليها أساطيل بحرية مشحونة بمائة ألف مقاتل فحاصر الجزيرة المذكورة ثلاثة أشهر فلم يتيسر فتحها لأنها كانت حصينة ثم ارتحلوا عنها ، وفى ٨٦ جهز جيشين عظيمين أحدهم لمحاربة جزيرة قبرص ، والآخر لقتال العجم وأدركته الوفاة قبل تمام الأمر . فتوفى ليلة الجمعة آخر شهر ربيع الأول من سنة ٨٨٦ وعمره إحدى وخمسون سنة ومدة ملكه استقلالا بعد وفاة أبيه ٣١ سنة وشهران ، وكان ملكا جليلا يعجز الواصفون عن مقدار فضائله ومحاسنه ، وكانت همته لا تكل ولا تعجز ولا تفتر عن الفتوحات رحمه تعالى ، قال العلامة القطبى عن بعض أوصاف السلطان محمد المذكور ، وللمرحوم المقدس قلادات منن لا تحصى فى أعناق المسلمين لا سيما العلماء الأكرمين قلدها فى أجيادهم فهى باقية إلى يوم الدين ولو ذكرت مناقبه لشحنت بها مجلداً أسكنه الله تعالى فسيح الجنان وأنزل على قبره سحائب الرحمة والرضوان ، وتسلطن بعده ولده (السلطان بايزيد الثانى) ونازعه أخوه السلطان جم ووقع بينهما حروب يطول الكلام بذكرها وكان الانتصار

السلطان بايزيد واستقر الملك له ، وكان رحمه الله ملازماً للغزو في سبيل الله مظفراً على أعداء الله محبا لفعل الخيرات ، مكرماً للعلماء والصلحاء ، وفى سنة ٨٨٨ سار بعساكره إلى بلاد قره بغدان فافتتح قلعة كلى وقلعة آق كرمان وفيها أيضاً فتحت قلعة ملوان وقلعة متون وقلعة طرسوس وقلعة نقشة وقلعة كولك والحاصل أنه استولى على كثير من بلدان البغدان وغيرها مما فى تلك الأطراف ، وفى سنة ٨٩٧ توجه الوزير يعقوب باشا لغزو بلاد البوسنة فظفر بملكها درنجيل وقيده فى وثاق وأرسله إلى السلطان بايزيد ، وفى سنة تسعمائة وثلاث بعث جيوشاً إلى بلاد الأرناؤوط براً وبحراً وخرج فى أثرها بنفسه ومعه أيضاً جيوش كثيرة قاصداً السرب وبلاد الأرناؤوط وحارب فى تلك الغزوة بولونيا وأوقع بها واستولى على جانب عظيم منها وأخذ منها عشرة آلاف أسير ثم عاد إليها مرة ثانية فنكبها نكبة عظيمة ، وفى سنة خمس وتسعمائة سار السلطان بايزيد بعساكره فاستولى على قلعة اينه بختى ، وعلى قلعة قرون وكان السلطان بايزيد ابن السلطان محمد من المجاهدين فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا فمازال غازيا فى سبيل الله مظفرا على أعداء الله فكانت به كلمة الإسلام مجموعة وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعة وكان محبا لنيل الخير مثابرا على بذل الأنعام والصدقات محبا للعلماء والمشايخ والأولياء من أهل الكرامات ودخل فى طريق السادة الصوفية ودخل الخلوة وجلس الأربعين وارتاض مثل الصلحاء السالكين ، ولما دخل الخلوة كان معه والد مولانا أبى السعود المفسر وهو مولانا الشيخ محيى الدين أفندى وبنى السلطان بايزيد المذكور الجامع والمدارس والعمارات ودار الضيافات والتكيات والزوايا والخانقاه ودار الشفاء للمرضى والحمامات والجسور ورتب المفتى الأعظم ومن فى رتبته من العلماء العظام فى زمنه فى كل عام عشرة آلاف عثمانى ولكل واحد من مدرس الثمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد فى كل عام سبعة آلاف عثمانى وللمدارس شرح المفتاح لكل واحد أربعة آلاف عثمانى ولكل واحد من مدرس شرح التجريد ألفى عثمانى وكذلك رتب لمشايخ الطريق إلى الله تعالى من أهل الله ومريديهم وأهل الزوايا لكل واحد على قدر مرتبته واستحقاقه

وهذا غير كسوة الصيف من الأصواف ونحوها وغير كسوة الشتاء من الفرو والجوخ لكل واحد على قدر مرتبته وصار ذلك قانونا جاريا مستمرا وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن إليهم إحسانا كثيرا ورتب لهم صررا فى كل عام غير ما كان مرتبا من آبائه الكرام وكان يجهز إلى فقراء الحرمين الشريفين فى كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهبا يصرف نصفها على فقهاء مكة ونصفها الآخر على فقهاء المدينة ولم يكن حكم الحرمين فى ذلك الوقت عنده فكانوا يتسعون بها ويرتقون بها ويدعون له فكان ذلك من أسباب تسهيل دخول أهل الحرمين تحت طاعة ولده السلطان سليم كما سيأتى إن شاء الله تعالى وكان إذا ورد عليه أحد من أهل الحرمين يكرمه ويحسن إليه ويرجع من عنده بصلات عظيمة ومواهب جزيلة .

ذكر ظهور إسماعيل شاه سلطان العجم

مما كان من العجائب فى زمن السلطان بايزيد ابن السلطان محمد ظهور إسماعيل شاه فى بلاد العجم وكان ظهوره واشتهار أمره سنة ٩٠٥ وكان له ظهور عجيب واستيلاء على ملوك العجم يعد من الأعاجيب فانتشر أمره وفتك فى البلاد وسفك دماء العباد وأظهر مذهب الرفض والإلحاد وغير اعتقاد كثير من الخلق وصار يدعو الناس إلى الإنحلال والفساد بعد الصلاح والسداد وأزال من قلوبهم حسن الاعتقاد والله تعالى يفعل فى ملكه ما أراد وظهر من أتباع إسماعيل شاه شيطان تولى بالروم أهلك الحرث والنسل وعم الفساد والقتل وقويت شوكته وعظمت على المسلمين فتنته ، فأرسل السلطان بايزيد وزيره الأعظم على باشا بعسكر كثير لقتال هذا الباغى فاستشهد على باشا فى ذلك القتال ولكن قتل الله ذلك الباغى وانهزم من كان معه من الجنود وقتل كثير منهم وكفى الله شر أولئك الأشرار وذلك سنة ٩١٥ وإسماعيل شاه المذكور هو إسماعيل بن حيدر بن جنيد بن إبراهيم ابن سلطان خواجه بن على بن صدر الدين موسى بن صفى الدين إسحاق الأردبيلى وكان أهل هذا البيت يقال لهم الصفويون نسبة إلى الشيخ صفى الدين الأردبيلى المذكور آنفا

وكانوا من أهل السنة والجماعة ومن أهل ألوية والصلاح والمشايخ أرباب الطريق والسلوك والزوايا وسلسلة طريقهم تنتهى إلى الإمام أحمد الغزالى أخى الإمام أحمد حجة الإسلام الغزالى وقيل أن لهم نسباً ينتهى إلى موسى الكاظم وكان جدهم الشيخ صفى الدين له شهرة كبيرة فى مشيخة الطريق وتوفى سنة ٧٣٥ ، ثم صارت المشيخة إلى ولده صدر الدين ثم فى ولده على ثم فى ولده سلطان خواجه ثم فى ولده إبراهيم ثم فى ولده جنيد ثم فى ولده حيدر ، ولما كانت المشيخة فى جنيد كثر أتباعه ومريدوه واشتهر أمره وانتشر صيته وصار يجاهد الكفار بمن معه من المريدين والأتباع وكان جهان شاه التركمانى صاحب شروان وأذربيجان متغلباً على ملك العراق وبغداد فتوهم من جنيد وكثرة اتباعه وخشى أنه يتغلب عليه وينتزع الملك منه فأخرج جنيداً ومن معه من أردبيل فتوجهوا إلى ديار بكر ثم قوى أمرهم فقاتلوا سلطان شروان فانهزم الشيخ جنيد ثم قتل وتفرق مريدوه ثم اجتمعوا بعد مدة على ابنه حيدر فقاتلوا أيضاً سلطان شروان فقتل الشيخ حيدر وأسر بنوه ومنهم ابنه إسماعيل شاه وكان صغيراً واستمر محبوساً هو وإخوانه وهرب بعض إخوانه من الحبس سنة ٨٩٦ ثم هرب إسماعيل شاه سنة ٩٠٦ وعمره ١٣ سنة واجتمع عليه خلق كثير بعد خروجه من الحبس كانوا يعتقدون الخير فى أبيه حيدر فغير اعتقادهم إلى مذهب الرافضة فقصد بجموعه الأخذ بثأر أبيه وجده وكان قد رفض مذهب آبائه وأهل بيته وتمذهب بمذهب الرافضة تعلم ذلك وسرى إليه وهو صغير حين كان فى الحبس قيل فى تاريخ ظهور مذهبنا حق ٩٠٦ سمع ذلك بعض أهل السنة فقال مذهبنا حق على النفى فإن نافى الفارسى إداة نفى فقاتل بمن اجتمع معه شروان شاه وكان كلما سار منزلا كثرت جنوده فنازلوا شروان شاه وقاتلوه فهزموه ثم أسروه فأتوا به إلى إسماعيل شاه فأمرهم أن يضعوه فى قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ففعلوا كما أمرهم وأكلوه ثم قاتل بمن معه من الجند ملوك العراق وخراسان الذين كانوا متغلبين على الممالك فى تلك الأزمان من التركمان وغيرهم فما كان يهزم له جيش ولا يتوجه إلى بلاد إلا ويفتحها ويقتل جميع من فيها وينهب أموالهم إلى أن ملك تبريز وأذربيجان وبغداد وعراق العجم وعراق العرب وخراسان

وتعاظم أمره حتى كاد يدعى الربوبية وكان ظالما غشوما أفنى وأباد من الأمم بالقتل مالا يحصى من العدد وكان عسكره يسجدون له إذا خرج إليهم ويأتمرون بأمره قال العلامة القطبي فى تاريخه قتل خلقاً لا يحصون ينوفون على ألف ألف نفس بحيث لا يعهد فى الإسلام ولا فى الجاهلية من القتلى ولا فى الأمم السابقة مثل ما قتله إسماعيل شاه وقتل من أعاظم العظماء خلقاً كثيراً ولم يبق أحداً من علماء أهل السنة الذين كانوا فى بلاد العجم وأحرق كتبهم ومصاحفهم لأنها مصاحف أهل السنة وكان كلما مر بقبر من قبور العلماء والمشايخ يأمر بنبشه وإخراج عظامه ثم يحرقها وإذا قتل أميراً من الأمراء أباح زوجته وأمواله لشخص آخر ، ومن جملة خرافاته المضحكة الدالة على سخافة عقله الناشئة عن تكبره وتجبره أنه جعل كلباً من الكلاب الصيد أميرا ورتب له ترتيب الأمراء من الخدم والكواخى والسماط والأطواق والفراش الحرير وجعل له سلاسل من ذهب ومرتبة ومستندة يستند إليها كالأمراء وأقام لخدمة ذلك الكلب جملة من خواص خدمه ومن تكبره وطغيانه أنه أسقط مرة من يده منديلا إلى البحر وفعل ذلك قصدا وكان فى جبل شاهق مشرف على البحر المذكور فصار عسكره وأتباعه وخدمه يلقون أنفسهم فى البحر خلف المنديل ليأتوه به تقرباً إليه وليلتمسوا بركة المنديل الذى مسته يده حتى أحصى من رمى نفسه منهم فكانوا نحو ألف صاروا يتخبطون فى البحر حتى غرقوا قيل أنهم كانوا يعتقدون فيه الألوهية وأنه لا ينهزم له جيش إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة التى كانوا يعتقدونها فيه ، ومما يحكى عن إسماعيل شاه سلطان العجم أنه كان فى ابتداء أمره تنهزم جيوشه ولا يثبت هو أيضاً للقتال بل ينهزم معهم فاتفق أنه اجتاز مرة بامرأة وهو متنكر فأضافته هو ومن معه وقدمت لهم طعاماً حارا فى صفحة فشرع الشاه إسماعيل يأكل من وسط القصعة وهى حارة والمرأة تنظر إليه فقالت له ما أشبهك أيها الرجل إلا باسماعيل شاه الذى ظهر فى هذا الزمان فإنه يريد أن يقضد وسط الدولة محل الشوكة والقوة فيأخذه وذلك خطأ فينبغى له أن يأخذ أطراف البلاد ليبرد الوسط فأنت كل من الأطراف

حتى يبرد الوسط ثم كل منه فتنبه من قولها وعمل بإشارتها فصار يقاتل أطراف الممالك حتى صار له ما صار وملك جميع إقليم العجم وبواسطته انتشر التشيع وظهر فى العجم وسلاطين العجم الموجودون إلى وقتنا هذا من ذريته وسيأتى ذكر ما وقع بينه وبين السلاطين العثمانيين من القتال وكذا ما وقع بينهم وبين ذريته وإنما أطلت الكلام فى بيان أحوال اسماعيل شاه وأصوله ليعلم من ذلك أن كثرة بغيه وطغيانه من جملة الأسباب التى دعت السلطان سليم إلى قتاله الذى سنذكره مع ما انضم إلى ذلك مما كان بينه وبين السلطان سليم من العداوة التى سنذكر أسبابها .

ذكر الحرب والقتال الذى كان بين السلطان بايزيد وولده سليم

لابد قبل ذلك من ذكر الأسباب الإلهية الخفية التى كانت بتقدير الربوبية ليعلم بذلك أن الأسباب الظاهرية لابد معها من أسباب خفية قدرها الله تعالى من الأزل، قال العلامة القطب فى تاريخه : أن منجما حاذقا كان فى عصر السلطان بايزيد الثانى قد أطلعه الله على أمر يتعلق بالسلطان بايزيد فأخبره به وهو أن هلاكه وذهاب ملكه يكون على يد مولود يولد له ، وكان السلطان بايزيد قد ولد له أولاد قبل أخبار المنجم وكان أخباره له بذلك قبل أن يولد السلطان سليم فطلب السلطان بايزيد امرأة كانت معتمدة عنده بيدها أمر جواريه الموطوآت وهى قابلة لمن تضع حملها منهن وكانت من الصالحات، فقال لها إذا وضعت إحدى الجوارى بعد الآن صبيا فاقتليه ولا تبقيه حيا وإذا ولدت أنثى اتركيها لتعيش مع بناتى وأكد عليها فى ذلك غاية التأكيد فاستمرت على ذلك إلى أن ولدت واحدة منهن صبيا ، فلما رأته أمه التى ولدته حزنت عليه لكونه تخنقه القابلة ، فلما تناولته القابلة لتخنقه رأته صورة جميلة ووقع حبه فى قلبها فرقت له وقالت فى نفسها بأى وجه ألقى الله تعالى إذا قتلت هذا الطفل والله لا أقدم على قتله فأظهرت أنه بنت وقالت للسلطان بايزيد أنه حصل له من فلانة بنت جميلة حسنة الصورة فلما أخبرته بذلك سماها سليمة واستمر الأمر على ذلك والحال مكتوم لايعلمه إلا الله تعالى والقابلة وأم الولد ، وصار كلما كبروا نشأ تظهر عليه أوصاف الذكور من الاستيلاء والغلبة والقهر وإذا اجتمع البنات وجلس بينهن لطم من كان منهن إلى

جانبه ونهب ما وجد بأيديهن من معلومات الأطفال وغير ذلك وكن يحذرن منه فدخل السلطان بايزيد يوما إلى داخل السراية وكان يوم عيد واستدعى بيناته وأجلسهن بين يديه وأمر أن يوضع بين يدى كل واحدة منهن أنواع الحلوى والفواكه وحضر معهن ذلك الغلام المسمى سليمة ، فشرع فى فعل ما كان يفعله مع البنات من الخطف والنهب والضرب وكلهن خائفات منه هائبات له فعجب السلطان بايزيد وصار يتأمله جيداً ويفكر فى أمره وفى أثناء ذلك دار بينهن يعسوب كبير وأردن أن يمسكنه فعجزن وهو يلسع من يريد إمساكه فهربوا منه فهابوه ، فمد الغلام المسمى سليمة يده إليه وهو طائر فأمسكه ومرسه وعقصه ورماه من يده فاذداد تعجب السلطان بايزيد منه وقال للنساء الواقفات : هذا لا يكون انثى اكشفوا لى عنه ، فبادرت القابلة وقالت : نعم هـذا صبى وليس ببنت ، فقال لها كيف خالفت أمرى وماقتلتيه ، فقالت: خفت من الله رب العالمين وخلصت ذمتك وذمتى من قتل معصوم ولا ذنب له ، فتفكر طويلا ثم قال : ما قدره الله فهو كائن لا مفر عنه وأمر بتربيته وأن يلبسوه لباس الذكور وسماه سليما إلى أن كان من أمره ما كان والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون والله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ، ولما أراد الله براز ما أراده وقدره من الأزل من ذهاب ملك السلطان بايزيد على يده ولده سليم أنشأ سبحانه وتعالى أسباب الحرب والقتال بينهما بإيجاد أسباب لا يحكم العقل فيها بأنها ينشأ عنها الحرب والقتال وذلك أن السلطان بايزيد شاخ وكبر سنه وتعطلت رجله عن الحركة بعلة النقرس فأراد النزول عن الملك لولده أحمد وكان أكبر أولاده وأحبهم إليه وقد جعله قبل ذلك أمير أماسية ثم جمع الوزراء وأعيان الدولة وعهد إليهم بأن ولده أحمد ولى عهده فاغتاظ سليم من ذلك وعزم على الخروج على أبيه وعلى خلع طاعته وقتاله وكان قد ولاه أبوه أدرنة فجمع العساكر وتوجه بهم إلى القسطنطينية مظهراً أنه يريد زيارة أبيه وتقبيل يده وأنه راض بما يصنعه أبوه من جعل أخيه أحمد ولى العهد وأنه ليس له غرض فى الملك وأطلع أبوه بقرائن الأحوال على مراد ولده سليم

وأنه إنما يريد السلطنة والملك فنهض السلطان بايزيد من القسطنطينية بعساكره وخرج مستقبلا ولده المذكور فلاقاه بين القسطنطينية وأدرنه والتقى الجيشان ووقع القتال بينهما بقرب أدرنة وجرى بينهما حرب شديد ثم انجلى الأمر عن هزيمة سليم وانتصار أبيه عليه وأراد العسكر أن يطردوا خلف سليم ليقبضوا عليه فمنعهم أبوه السلطان بايزيد وقال اتركوه لعله ينصلح وتوجه سليم هاربا وركب البحر وقصد بلاد كفة فبينما هم فيه إذ بعث السلطان بايزيد إلى ولده أحمد يدعوه إلى أن يقلده الملك وينزل له عن السلطنة حالا فامتنع وقال إنه لا يمكن أن يقبل ذلك فى حياة والده تعظما لوالده وقال أيضاً إنه يخاف من عسكر الانكشاريه لأن هواهم رغبتهم فى سليم ، فلما علم أبوه إنه ليس لابنه أحمد نصيب فى الملك وأن الملك لله يؤتيه من يشاء وخاف على الملك أن يتغلب عليه أجنبى أرسل إلى ولده سليم يدعوه لينزل عن الملك ويسلمه له فقدم سليم بالرأى الحازم والسيف الصارم حتى قرب من القسطنطينية فأمر السلطان بايزيد العساكر ووجوه الأمراء والوزراء فاستقبلوه وهنوه بالملك ولما دخل على أبيه قبل يده فدعا له بخير وسلمه الملك وأوصاه بأشياء تليق بالسلطنة ، ثم أمر من يومه بتجهيز أسباب السفر لأبيه للاقامة بمدينة ديمتوقه وقال السيفان لا يجتمعان فى قراب واحد فلما كان السلطان بايزيد ببعض الطريق رام أن يتوضأ لصلاة الظهر فوضعوا له السم فى الماء فلما توضأ تساقط شعر لحيته فأحس بذلك فقال ردونى فردوه فتوفى قبل أن يصل إلى القسطنطينية ثم حمل إليها ودفن أمام مدرسته التى أنشأها بالمدينة المذكورة وكانت مدة ملكه إحدى وثلاثين سنة إلا أياما لأن وفاته سنة ثمان عشرة وتسعمائة وولايته كانت سنة سبع ثمانين وثمانمائة وعمره إثنتان وستون سنة لأن مولده سنة ست وخمسين وثمانمائة وله رحمة الله مناقب كثيرة تقدم بعض منها ، ومن مناقبه أنه كان يجمع فى كل منزل حل فيه من غزواته ما على ثيابه من الغبار ويحفظه فلما دنا أجله أمر بذلك الغبار فضرب منه لبنة صغيرة وأمر بأن توضع معه فى القبر تحت خده الأيمن ففعلوا ذلك فكأنه أراد بذلك فحوى قوله صلى الله عليه وسلم « من أغبرت قدماه فى سبيل الله حرم الله عليه النار » . ولما توفى السلطان بايزيد المذكور واستقر ابنه

سليم (على تخت الملك) نازعه فى ذلك أخوه أحمد وقصد كل منهما الآخر سنة تسع عشرة وتسعمائة بجيش عظيم فتقاتلا أمام مدينة ينى شهر فانتصر السلطان سليم وأمر بأخيه أحمد فخنق وكان إسماعيل شاه سلطان العجم المتقدم ذكر ترجمته يتعصب للسلطان أحمد ويحامى . فلما خنق أحمد هرب بعض له أولاده والتجأوا إلى السلطان الغورى وبعضهم إلى إسماعيل شاه فأرسل له السلطان سليم يطلب منه أن يبعثهم إليه فامتنع فكان ذلك من أسباب قيام الحرب والقتال بين السلطان سليم وإسماعيل شاه مع ماتقدم من انتشار ظلم إسماعيل شاه وسفكه الدماء وإهلاكه الحرث والنسل وكان للسلطان بايزيد أيضا أولاد غير أحمد نازعوا سليما وقاتلوه فانتصر عليهم ولا حاجة بنا إلى ذكر ذلك .

ذكر الحرب بين السلطان سليم واسماعيل شاه سلطان العجم

ذكر كثير من المؤرخين أن السلطان سليما كان سلطانا قاهراً قوى البطش عظيم القتل كثير الفحص عن أخبار الناس شديد التوجه إلى أهل النجدة والبأس عظيم التجسس عن أخبار الممالك عارفا بمسالك الطرق والمهالك يغير زيه ولباسه ويتجسس فى الليل والنهار ويطلع على الأخبار ويستكشف الأسرار وله عدة مصاحبين يدورون تحت القلعة ، وفى الأسواق والجمعيات والمحافل ومهماسمعوا به ذكروه له فى مجلس المصاحبة ، فيعمل بمقتضى مايسمعه بعد الوثوق منهم ، ولما استقر له الملك بعد قتال إخوته وانتصاره عليهم شرع فى قهر الملوك والاستيلاء على الأقاليم والملك وبدأ بقتال شاه اسماعيل بن حيدر الصفوى وكان ذلك سنة عشرين وتسعمائة وكان السبب فى قتاله أن بعض أولاد أخى السلطان سليم التجأ إلى اسماعيل شاه فأرسل يطلبه منه فامتنع مع ماانضم إلى ذلك من بغى اسماعيل شاه وطغيانه وإفساده فى الأرض حتى أهلك الحرث والنسل كما تقدم بيان ذلك فى ترجمة اسماعيل شاه فتوجه السلطان سليم من مقر سلطنته بعسكر كثيف ، وسار نحو الشرق لقتال اسماعيل المذكور فالتقيا فى مكان يقال له جالدزان ، وكان جيش السلطان مائة وأربعين ألفاً فى أول خروجه من مقر سلطنته ثم أردفها بأربعين ألفاً ولما التقى الجيشان واشتد القتال ثم انهزموا عسكر العجم واستولى عسكر السلطان سليم على خزائنهم

وأكثروا القتل فيهم ولم ينج منهم إلا القليل وفر اسماعيل شاه وتحصن بشوامخ الجبال واستولى السلطان سليم على خزائنه وأمواله وخيمه ونسائه ومنع العسكر من المسير خلف المنهزمين ، ودخل السلطان سليم مدينة تبريز وهى كرسى مملكة العجم وصلى فيها الجمعة وخطب باسمه وكان مراده أن يطيل الإقامة ببلاد العجم ليفتتح جميع بلادهم ويدخلها فى ملكه ويرتبها ، ولكن اشتد عليه الغلاء لأن السلطان الغورى قطع الميرة عن السلطان سليم ومنع السائرين بها إليه لأنه كان بينه وبين اسماعيل شاه صداقة ومحبة ومكاتبة حتى أن بعضهم اتهم السلطان الغورى بأنه يعتقد مذهب الرافضة وكان من أسباب الغلاء على جيش السلطان سليم بن اسماعيل شاه كان تحت يده كثير من الغلال والذخائر ، فلما تحقق الهزيمة عليه أمر بحرقها فأحرقت ، قال القطبى وكان من أمر اشتداد الغلاء أن العليقة بيعت بمائتى درهم وبيع الرغيف بمائة درهم قال العلامة وقد أدركت جماعة ممن كانوا مصاحبين لمولانا السلطان سليم وكانوا يكثرون مجالسته وسمعت منهم حسن مصاحبة السلطان سليم معهم ولطف معاشرته لهم وشدة تيقظه وذوقه وفهمه وتحفظه مع كثرة مطالعته للتواريخ وتفرسه فى اللغة الفارسية وحسن نظمه بالفارسية والرومية بحيث فاق فيه على فصحاء الطائفتين ثم قال العلامة القطبى ورأيت بيتين بالعربى بخطه الشريف كتبهما فى علو المقياس فى الكشك الذى أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة والبيتان هما هذان :

الملك لله من يظفر بنيل منى يردده قسراً ويضمن بعده الدركا
لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وتحتهما ماصورته وكتبه سليم قال العلامة القطبى ولعمرى إن كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية فى البراعة ونهاية فى التمكن من الصناعة ، فيدل على مملكته رحمه الله فى اللسان العربى أيضا لأنهما من أعلى طبقات الشعر العربى الفصيح البليغ المنسجم وإن كان قد تمثل بهما وهما لغيره فهذه رتبة عالية فى حسن التمثل ولطف الاستحضار وفهم الأشعار العربية وذوقه بها ، وهذا القدر يستعظم ويستكثر على عظماء العجم المكبين على العلوم

العربية فضلا عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها ، ولما فرغ السلطان من قتال اسماعيل شاه واشتد عليهم الغلاء رجع إلى الروم وشتى فى مدينة أماسية ولما دخل الربيع رجع إلى بلاد الشرق وافتتح قلعة كماخ وهى أمنع الحصون، ثم افتتح مدينة بيبورد وأرسل وزيره فرهاد باشا بعسكر كثير إلى قتال ملك مرعش البستان فانتصر فرهاد باشا واستولى على تلك البلاد وفى هذه السنة أحب أهل آمد أن يدخلوا فى طاعة السلطان سليم فأخرجوا إليهم الذى كان من قبل سلطان العجم وأغلقوا أبواب المدينة وأرسلوا يطلبون أميراً من السلطان فعين لهم بيقلو محمد بيك الآمدى فوصل إلى تلك البلاد ثم حاصر مدينة ماردين مدة أربعين يوماً وافتتحها ثم افتتح بلاد الموصل وجانة وحديثة وهيت وسنجار وحصن كيفا وجشزك حصن سوران وسائر بلاد الأكراد وعامة جزيرة الأكراد فدخلت هذه البلاد كلها فى طاعة السلطان سليم ولم تكن قبل من الممالك العثمانية بل كان بعضها عند العجم وبعضها عند ملوك من غير العجم تغلبوا عليها .

ذكر محاربة السلطان سليم للسلطان الغورى

وفى سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة قصد السلطان سليم محاربة السلطان الغورى صاحب مصر والشام وحلب لأنه كان متواطئاً مع سلطان العجم على محاربة السلطان سليم وقد تقدم أنه قطع الميرة عنه فخرج من القسطنطينية بجيش مقداره مائة وخمسون ألفاً وخرج الغورى من مصر بجيش كثيف لمحاربته والتقى الجيشان فى مرج دابق بقرب حلب ، واقتتل العسكران فانهزم جيش مصر وقتل الغورى فى المعركة ودخل السلطان سليم مدينة حلب واستقبله أهلها بعلمائهم وصلحائهم حاملين المصاحف على رؤوسهم يستقبلون السلطان سليما ويهنونه بالفتح ويسألونه الرفق والصفح فقابلهم بالجميل ، ودخل مدينة حلب وخطب له فيها وكان الخطباء يقولون فى أوصاف سلاطين مصر خادم الحرمين الشريفين فلما خطب الخطيب بحلب قال فى وصف السلطان سليم خادم الحرمين الشريفين ففرح بذلك واستبشر مولانا السلطان سليم وعلم أن الله تعالى ينصره على الغورى حتى تكون خدمة الحرمين الشريفين

نه ، وخلع على الخطيب حلته التى كانت عليه ، وكانت تساوى خمسين ألف غرش ثم سار إلى الشام فاستقبله أهلها بالإكرام والإحترام وسألوا منه اللطف والإنعام . فعاملهم بالجميل ، وصلى عندهم الجمعة وخطب باسمه ومكث بالشام ثلاثة أشهر ونصفاً ، ثم سار يريد البلاد المصرية وافتتح فى مسيره مدينة بيت المقدس ثم سار وفتح مدينة غزة وطبرية وصفد واللجون والرملة ووصل إلى مصر فى الثالث عشر من المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وكان قد تسلطن بمصر بعد مقتل الغورى السلطان الأشرف طومان باى قيل أن الغورى خاله وكان معه أربعين ألفا من الجراكسة فخرج لقتال السلطان سليم ليمنعه من دخول مصر فوقع القتال بين العساكر فانهزم طومان باى وعسكره وقتل منهم خلق عظيم ثم قبض عليه وبعد عشرة أيام صلبه السلطان سليم فى باب زويلة وأقام السلطان بمصر نائباً عنه خير الدين بك الجركسى وخرج السلطان سليم من مصر فى شعبان من السنة المذكورة وقدم إلى دمشق وعين لأمارتها مع أعمالها الأمير جان بردى فاستولى على مدينة ملطية وديوركى ودارنوه وبهسنى وكركر وكاخته البيرة وعنتاب وأنطاكية وقلعة الروم وأطاعته قبائل العرب المجاورون للشام ومصر ، ولما رجع السلطان سليم إلى القسطنطينية أخذ فى تكثير المهمات والاستعداد لحروب وغزوات جديدة فطلع له دمل فى جنبه ولم يزل يتعاظم هذا الدمل حتى اتسع وصار جرحا عظيما واتسع الخرق على الراقع وتعطل السلطان عن الحركة وعجزت حذاق الأطباء فى علاجه وكانت توضع الدجاجة فى جرحه فتذوب واستطال به ذلك المرض إلى أن توفى سنة سبع وعشرين وتسعمائة تاسع شوال وعمره أربع وخمسون سنة ومدة ملكه تسعة أعوام وثمانية أشهر .

فائدتان استطراديتان لهما تعلق بالفتوحات المذكورة هنا

(الأولى) ذكر كثير من المؤرخين أن العلامة ابن كمال باشا استخرج من القرآن العزيز الإشارة إلى الدولة العثمانية وانتصار السلطان سليم وظهور أمره من بعد سنة تسعمائة وعشرين وأن الدولة العثمانية من عباد الله الصالحين وأن السلطان سليما منهم فقال ابن كمال

باشا أن ذلك كله يستخرج بطريق الرمز والايماء والإشارة من قوله تعالى ﴿ولَقَدْ كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أن الأرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِى الصَّالِحُونَ﴾ . وبيان ذلك أن قوله ولقد إذا حسبت على قاعدة الحساب بحروف أبجد يخرج عدده مائة وأربعين ويقابله لفظ سليم فإن حساب عدد حروفه يبلغ مائة وأربعين وقوله من بعد الذكر إشارة إلى أن ذلك بعد تسعمائة وعشرين لأنه عدد حروف ذكر بعد إسقاط أداة التعريف على قاعدتهم فى ذلك فتكون الإشارة فى ذلك سليم بعد تسعمائة وعشرين مكتوب فى الزبور أنه يرث الأرض وأنه من عباد الله الصالحين ، قيل أن السلطان سليما لما أخبروه بهذا الاستخراج فرح واستبشر وكان ذلك من أقوى الأسباب لخروجه لقتال الغورى وقد حقق الله له النصر فظهر بذلك صحة هذا الاستخراج ولله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز أسرار كثيرة وله فى كل شىء حكمة والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه وبغيرها .

الفائدة الثانية

إن مولانا السلطان سليما لما استقر بمصر وتم له تملك الديار المصرية كما تم له تملك الديار الشامية اشتاقت نفسه إلى تملك الأقطار الحجازية ليقوم بخدمة الحرمين الشريفين فأراد أن يجهز جيشا ويسيره إلى الحجاز وينتزعه من عمال السلطان الغورى ، وكان أمير مكة فى ذلك الوقت الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان وقد كان فى سنة ٩١٨ أرسل ولده الشريف أبا نمى إلى مصر لمقابلة السلطان الغورى فأكرمه وأشركه مع أبيه فى إمارة مكة وكان عمر أبى نمى فى ذلك الوقت ثمان سنين وكان السلطان الغورى حبس بمصر جماعة من أعيان أهل مكة منهم العلامة القاضى صلاح الدين بن أبى السعود ابن ظهيرة ، وكان سبب حبسه مع من معه أن الغورى طلب منهم مالا مصادرة وظلما مبلغه عشرة آلاف دينار فعجزوا عن تحصيله فأمر بحملهم إلى مصر واعتقلهم فى الحبس ولما قتل الغورى وتسلطن طومان بك أطلقهم وقيل إنما أطلقهم السلطان سليم ، فلما عزم السلطان سليم على تجهيز جيش إلى الحجاز اجتمع القاضى صلاح الدين بن ظهيرة بوزيره مولانا السلطان سليم وقال له لا حاجة إلى تجهيز جيش فإن الشريف بركات يكفيكم هذا الأمر

ويحصل لمولانا السلطان المطلوب وعرفه عظمة الشريف بركات ومنزلته من الشرف والعلم وأنه أول من يطيع مولانا السلطان ويأخذ البيعة له من أهل الحرمين والأقطار الحجازية ويكفى بدلا عن الجيش أن تبعثوا له توقيعاً شريفا من مولانا السلطان فعرض الوزير ذلك على مولانا السلطان سليم فاستحسنه وأمر بكتابة التوقيع الشريف للشريف بركات وأن يكون ولده أبو نمى مشاركا له كما كان فى مدة السلطان الغورى وكتب القاضى صلاح الدين للشريف بركات الأخبار بذلك ووجه مولانا السلطان ذلك التوقيع الشريف ومعه خلعتان عظيمتان واحدة للشريف بركات والأخرى لولده الشريف أبى نمى وجعل ذلك صحبة الأمير مصلح بك وبعث معه محملا وكان ذلك على إقبال شهر الحج ، فلما قدم الأمير مصلح مع المحمل ومعه الخلعتان والتوقيع الشريف وخلعة للكعبة المعظمة خرج لمقابلته إلى الزاهر الشريف بركات وولده أبو نمى وكثير من الأشراف وغيرهم فى موكب عظيم ولبس الشريف وولده الخلعتان ودخلوا مكة وأخذوا البيعه لمولانا السلطان سليم ودعوا له فى الخطبة وحصلت طاعة الناس وانقيادهم بالرضى والقبول ، ثم أرسل الشريف ولده الشريف أبا نمى سنة ٢٣ إلى مصر لمقابلة مولانا السلطان سليم فقابله وأكرمه وأبقاه على مشاركة أبيه بركات ، ثم توفى بركات سنة ٩٣١ واستقل ولده أبو نمى بالإمارة وجاءه التأييد من مولانا السلطان سليم واستمر الشريف أبو نمى مستقلا بإمارة مكة إلى أن توفى سنة ٩٩٢ وعمره ٨٩ سنة لأن ولادته كانت سنة ٩١١ وكانت مدة ولايته إمارة مكة مشاركة لأبيه استقلالا ٧٣ سنة ولم يعهد ذلك لغيره من أمراء مكة الذين قبله والذين جاءوا بعده وهو جد سادتنا أشراف مكة ، ولما ورد الأمير مصلح بك إلى مكة صحبة المحمل والتوقيع والخلعتين وكسوة الكعبة أقام بعد الحج بمكة بأمر من مولانا السلطان سليم وأجرى له خيرات كثيرة يرجع ثوابها إليه منها أنه قرر لمولانا الشريف صاحب مكة خمسمائة دينار زيادة على ما كان له من سلاطين مصر قبل ذلك وكتب دفتراً قرر فيـــه أسماء جماعة من المجاورين ورتب لـكل شخص منهم مائة دينار تؤخذ من خزينة مصر وقرر ثلاثين نفرا يقرأون كل يوم ختمة وعين لـكل واحد اثنى عشر دينار وقسم الأمير

مصلح أيضاً الذخيرة وهى صدقة كانت تخرج من خزينة مصر تخرجها سلاطين مصر للعربان أصحاب الإدراك وفقراء أهل مكة ، فأبقاها السلطان سليم ورتب مولانا السلطان سليم سبعة آلاف أردب حب لأهل الحرمين الشريفين منها خمسة آلاف لأهل مكة وألفان لأهل المدينة ، وجاء الأمر للأمير مصلح بك أن يوزع ذلك فجلس فى الحرم الشريف وطلب حضور المفاتى وبقية العلماء والأعيان وقرأ عليهم المرسوم السلطانى واستشارهم فى توزيع ذلك ، فقالوا له لا بد من عرض ذلك على شريف مكة مولانا الشريف بركات فكتبوا صورة الأمر السلطانى وأرسلوه إلى مولانا الشريف واستدعوا رأيه العالى فى ذلك فكتب إليهم الجواب يأمرهم بالمبادرة إلى امتثال الأمر الشريف السلطانى وأن يوزع ذلك على المستحقين بحسب الآراء من أعيان المجلس ، فاجتمعوا ثانياً بعد وصول الجواب من مولانا الشريف ، واتفق رأيهم على بيع شىء من ذلك القمح ليصرف فى نقله من جدة إلى مكة وبأن يكتب أسماء الناس على العموم ويصرف لكل واحد ما يخصه فكتبوا بيوت كل محلة وما فى بيوت كل بيت من عدد الأنفار رجالا ونساء وأطفالا وخدما ما عدا التجار والسوقة والعسكر فبلغ عدد الأنفار الذين كتبوهم اثنا عشر ألفا فخص كل نفر ست رباعى بكيل الربع الكبير الذى هو أربع كيل من أربع وعشرين قدحا بالكيل المصرى ودفعوا لكل نفر دينارا من قيمة القمح الذى باعوه لأجل نقله من جدة إلى مكة وجعلوا لكل واحد من المفاتى الأربعة ثلاث أرادب وزيد فى أسماء بعض البيوت بحسب الاعتناء بشأن كبير البيت ، قال العلامة القطبى وهذه الصدقة أول صدقات الحب الشريف السلطانى ، ثم قال فيجب على كافة المسلمين عموما وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصا الدعاء بدوام سلطنة آل عثمان خلد الله سلطنتهم مدى الزمان فإن دولتهم الشريفة عماد الإسلام وإحسانهم ما زال متواصلا إلى كافة الأنام سيما جيران بيت الله الحرام وجيران نبيه الأطهر عليه أفضل الصلاة والسلام فإنهم فازوا بالإنعامات الوافرة فى أيام هذه الدولة الزاهرة وحازوا من الصدقات المتكاثرة فى نوبة هذه السلطنة القاهرة ما لم يتصوروه من الدول الماضية الغابرة فالله تعالى يديم سلطانهم كما أدام علينا إحسانهم اه كلام القطبى

وقال العلامة ابن علان أن السلطان سليما كان كثير المحبة لأهل الحرمين من قبل أن يأخذ مصر وهو أول من بعث إليهم صدقة الحب إنتهى ، ثم إن السبعة الآلاف الأرادب المذكورة لم يزل أبناؤه من السلاطين يزيدون فيها حتى صار لأهل مكة اثنا عشر ألف أردب ولأهل المدينة سبعة آلاف أردب فالله تعالى يديم العز والبقاء لهذه السلطنة العثمانية السنية ويوفق كل قائم منهم بها لكل خصلة حميدة مرضية ومما فعله الأمير مصلح بك من الخيرات لمولانا السلطان سليم أنه جدد بناء مقام الحنفى بمكة فإنه وسعه وجعله قبة بعد أن كان مسقفا على أربعة أعمدة فى صدره محراب وكان صنعة التسقيف المذكورة سنة ثمانمائة واثنتين فى مدة سلطنة السلطان فرج بن برقوق ، واستمر كذلك إلى أن جعله الأمير مصلح قبة سنة تسعمائة وثلاث وعشرين واستمر على ذلك خمساً وعشرين سنة ، ثم هدمت القبة وبنى المقام مربعاً وجعلت الطبقة العليا للمكبرين ، وموضع هذا المقام كان فى الجاهلية موضع دار تجتمع فيها قريش للمشورة ويسمونها دار الندوة ، ثم اشتراها معاوية رضى الله عنه فى زمن خلافته ، وصارت ينزلها الخلفاء إذا قدموا للحج ، ويخرجون منها إلى المسجد للصلاة والطواف ، ثم خربت وتهدمت وعمرت فى خلافته المعتضد سنة مائتين وثمانين وأدخلت فى المسجد وفتحت جوانبها إلى المسجد وجعلت سقوفها على أساطين ، ثم غير هذا البناء وأعيد على وضع أحسن منه سنة ثلاثمائة وست ثم سنة ثمانمائة واثنتين إلى أن كانت عمارة الأمير مصلح ، ثم غيرت عمارته بعد خمس وعشرين سنة وسيأتى ذكر ما يكون بعد ذلك وقد كانت مذاهب الأئمة الأربعة عليها العمل والاعتماد فى الحرمين وغيرهما من أول ظهور الأئمة الأربعة إلى ما بعدهم قد كان الأئمة المجتهدون كثيرين ولكن لم يقدر الله بقاء مذاهبهم وإنما بقيت مذاهب الأئمة الأربعة وتحررت وتوارد عليها أنظار العلماء حتى أن أهل السنة والجماعة أوجبوا تقليد مذهب منها لمن لم يكن فيه أهلية الاجتهاد وحرموا الخروج عنها ، نقل العلامة السنجارى عن التقى الفاسى أن صلاة هذه الأئمة على هذه الصفة قديمة لكن قال لا أعلم فى أى وقت كانت ثم نقل ما يدل على أن الحنفى والمالكى كانا موجودين مع الشافعى سنة أربعمائة وسبع وتسعين وأن الحنبلى لم يكن موجوداً وإنما كان إمام الزيدية

ثم قال ووجدت على ما يدل على أن الحنبلي كان موجوداً فى عشر الأربعين وخمسمائة وفى البحر العميق وكان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة ، وأما كيفية الصلاة فى هذه المقامات فإنهم يصلون مرتين الشافعى ثم الحنفى ثم المالكى ثم الحنبلى وكلام ابن جبير يقتضى أن المالكى كان يصلى قبل الحنفى ثم تقدم عليه الحنفى من بعد سنة تسعين وسبعمائة واضطرب كلام ابن جبير فى الحنفى والحنبلى لأنه ذكر ما يقتضى أن كلا منهما يصلى قبل الآخر ، وهذا كله فى غير صلاة المغرب أما فيها فإنهم يصلون جميعاً فى وقت واحد ثم بطل ذلك كله فى موسم سنة إحدى عشرة وثمانمائة بأمر الملك الناصر ابن برقوق ، وصار الشافعى يصلى بالناس المغرب وحده واستمر ذلك إلى أن ورد أمر من الملك المؤيد صاحب مصر بأن يصلى المغرب الأئمة الثلاثة فى وقت واحد كما كانوا يصلون قبل ذلك ففعلوا ذلك وأول وقت فيه ذلك ليلة السادس من ذى الحجة سنة عشر وثمانمائة إنتهى (والحاصل) أن الأمر كان مختلفاً فى تقدم بعضهم وتأخر بعضهم واستقر الأمر فى عصرنا هذا بعد خروج الوهابى من مكة وجريان أحكام الدولة العلية بالحجاز من سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين أن الشافعى يصلى فى الصبح أولا ، ثم المالكى ثم الحنبلى ثم الحنفى وأما بقية الأوقات فيصلى أولا الحنفى ثم الشافعى ثم المالكى لكن لا يصلى فى المغرب إلا الحنفى ثم الشافعى فقط وكان الحنبلى لا يصلى فى مقامه إلى الصبح فقط . وفى سنة إحدى وثلاثمائة وألف صدر الأمر من سيدنا الشريف عون الرفيق بن المرحوم سيدنا الشريف محمد بن عون ومن والى ولاية الحجاز السيد عثمان نورى باشا بأن الحنبلى يصلى أيضاً بقية الصلوات غير المغرب وتكون صلاته بعد أن يصلى المالكى واستحسن الناس ذلك لأن مكة قد كثر فيها الخلق المجاورون بها فصار كثير من الناس لا يدركون صلاة الأئمة الثلاثة فيصلون جماعة متفرقة ، فلما صار الحنبلى يصلى أيضاً صاروا يصلون معه ومما يدل على أن الناس قد كثروا بمكة وزادوا عما كانوا عليه قبل ذلك ما ذكره العلامة القطبى فى تاريخه حيث ذكر أن عمارة مكة زادت وكثر الناس فيها بوجود دولة الدولة العثمانية خلد الله ملكهم إلى أن قال وكنت أشاهد فى سن الصبا خلو الحرم الشريف

وخلو المطاف من الطائفين حتى أنى أدركت الطواف وحدى من غير أن يكون معى أحداً مراراً كثيرة كنت أترصده خلياً لكثرة ثوابه بأن يكون الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده فى جميع الدنيا وهذا لا يكون إلا بالنسبة إلى الإنسان فقط وأما الملائكة فلا يخلو منهم المطاف الشريف بل يمكن أن لايخلو عن أولياء الله تعالى ممن لا تظهر صورته ويطوف خافياً عن أعين الناس ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يثابر على هذه العبادة كثير من الصلحاء لأنه ليس معنى عبادة يمكن أن ينفرد بها رجل واحد فى جميع الدنيا ولا يشاركه غيره فى تلك العبادة بعينها إلا الطواف فإنه يمكن أن ينفرد به شخص واحد بحسب الظاهر والله أعلم بالسرائر حتى حكى لى والدى رحمه الله إن وَلياً من أولياء الله تعالى رصد الطواف الشريف أربعين عاما ليلا ونهاراً ليفوز بالطواف وحده فرأى بعد هذه المدة خلو المطاف الشريف فتقدم يشرع وإذا بحية تشاركه فى ذلك الطواف فقال لها من أنت من خلق الله تعالى فقالت له إنى من الجن وإنى أرصد ما رصدته قبلك بمائتى عام فقال لها حيث كنت أنت من غير البشر فإنى فزت بالانفراد بهذه العبادة من بين البشر وأتم طوافه قال ، وحكى لى شيخ فى معمر من أهل مكة أنه شاهد الظباء تنزل من جبل أبى قبيس إلى الصفا وتدخل من باب الصفا إلى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس وهو صدوق عندى وكنا نرى سوق المسعى وقت الضحى خالياً من الباعة وكنا نرى القوافل تأتى بالحنطة من بجيلة فلا يجد أهلها من يشترى منهم جميع ما جاؤا به فكانوا يبيعون ما جاؤا به بالأجل اضطراراً ليعودوا بعد ذلك ويأخذوا أثمان ما باعوه وكانت الأسعار رخيصة جداً لقلة الناس وعزة الدراهم ، وأما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع والخير كثير والخلق مطمئنون آمنون فى ظلال السلطنة الشريفة خائضون فى بحر إنعامها وإحسانها ونعمتها الوريفة أدام الله هذه السلطنة الزاهرة وخلد دولتها القاهرة وخلافتها الباهرة وأما بناء المقامات فى المسجد الحرام فأما مقام الحنفى فقد علمت بناءه مما سبق وأما الشافعى فيصلى فى مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأما مقام المالكى والحنبلى ففى البحر العميق كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة وفى تاريخ القطبى

بعد أن ذكر عمارة الحريق الواقع فى زمن سلطنة السلطان فرج بن برقوق ذكر أن فراغ العمارة كان سنة سبع وثمانمائة فى مدة أمارة مكة للشريف حسن بن عجلان وأنهم فى تلك العمارة عمروا ما فى صحن المسجد من المقامات الأربعة التى وضعت للمذاهب الأربعة على الهيئة القديمة اه ومقتضى قوله على الهيئة القديمة أنها كانت موجودة قبل هذا التعمير ولم أقف على كتاب فيه ذكر هذا البناء السابق ولا على فعله ولا على تاريخ فعله وعبارة البحر العميق تقتضى أن التعمير الواقع سنة سبع وثمانمائة هو أول إحداث مقام المالكى والحنبلى حيث قال : كان عمل هذه المقامات على هذه الصفة سنة سبع وثمانمائة ومقام المالكى بين الركن اليمانى والركن الغربى ومقام الحنبلى على حذاء الركن الذى فيه الحجر الأسود فى سنة ١٣٠٠ قال كثير من الناس أن المقام المذكور منحرف وبسبب انحرافه يحصل انحراف لصفوفه فيكون سبباً لعدم تحقق استقبال القبلة لبعض الصفوف وسبباً لانحراف صف الشافعى الأول خلف مقام إبراهيم عليه السلام فإن الصف الأول المذكور عند محاذاته مقام الحنبلى يحصل فيه انحراف وعدم استقامة فلو جعل مقام الحنبلى متوسطا بين الركن اليمانى والركن الذى فيه الحجر الأسود بوضع ليس فيه انحراف لكان أولى ، ورفع الأمر إلى أمير مكة سيدنا الشريف عون باشا ووالى ولاية الحجاز دولتلو السيد عثمان نورى باشا ثم وقع الإشراف على ذلك بحضورهما وحضور جمع من العلماء والمهندسين فاتفق الجميع على استحسان جعله متوسطاً فأنهى الأمر إلى باب السلطنة السنية وجاء الإذن بذلك من مولانا السلطان عبد الحميد الثانى فهدم المقام المذكور سنة ٣٠٠ وجعل متوسطاً كما هو موجود الآن فجاء فى غاية الحسن ، هذا وقد طال الكلام الاستطرادى لارتباط تناسب الكلام مع بعضه تكثيراً للفوائد فلنرجع إلى إتمام الكلام الأول فنقول : أن الأمير مصلح بيك لما أتم ما كان مأمورا بإجرائه بمكة من الخيرات توجه إلى المدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام وقسم الصدقات التى لأهل المدينة المنورة وأجرى كثيراً من الخيرات ثم توجه إلى دار السلطنة السنية .

ذكر ولاية مولانا السلطان سليمان

ولما توفى السلطان سليم كان ولده السلطان سليمان ولى عهده ، وكان غائبا فى سروخان والياً عليها فأخفى الوزراء موت السلطان سليم إلى أن حضر ولده السلطان سليمان فأجلسوه على تخت السلطنة ثم أظهروا موت السلطان سليم ، وكان جلوسه على تخت السلطنة من غير مخالف ولا منازع ، وكان محباً للجهاد ولنصرة دين الله ومرغما أنوف أعدائه بلسان سيفه ولسان قناه وكان مؤيدان فى حروبه ومغازيه مشهوداً فى وقائعه ومراميه أيان سلك ملك وأين توجه فتح وفتك وأين سافر سفر وسفك وصات سراياه وجيوشه أقصى الشرق والغرب ، وافتتح البلدان الشاسعة الواسعة بالقهر والحرب وأخذ الكفار وللملاحدة بقوة الطعان والضرب وأيد الدين الحنيفى بحدود سيفه الباتر وأقام الملة الحنفية وأحيا مالها من مآثر ونصر مذهب السنة السنية وأظهر شعائر الشرائع ودفع أهل الإلحاد وقمعهم فمالهم من ناصر ، وكان رحمه الله سلطانا رفيع القدر حسن الطبع فى الحرب والسلم موصوفاً بالعلم والحلم والحزم قال العلامة القطبى فى وصفه ، وكان مجدد دين هذه الأمة المحمدية فى هذا القرن العاشر فقد ورد أن لكل قرن مجدداً شأنه ظاهر ، هذا مع الفضل الباهر والعلم الزاهر والأدب النضر الذى يقصر عن شأوه كل أديب وشاعر ، وكان يعرف الألسنة الثلاثة العربية والتركية والفارسية وينظم نظما بارعا حسناً ، وكان دائم الفكر فى أحوال الرعية والمملكة وله ديوان فائق بالتركى وآخر عديم النظير بالفارسى يتداولهما أبناء الزمان ، وكان رؤفا شفوقا صادقا صدوقا إذا قال صدق وإذا قيل صدق لا يعرف الغل والخداع ويتحاشى عن سوء الطباع ولا يعرف المكر والنفاق ولا يألف مساوىء الأخلاق بل هو صافى الفؤاد صادق الاعتقاد منور الباطن كامل الإيمان سليم القلب خالص الجنان لا يرتاب أحد فى كمال ديانته ولا يشك فى صلاحه وولايته قال القطبى بعد ما ذكر :

وما تناهيت فى بثى محاسنه   إلا وأكثر مما قلت ما أدع

ولد رحمه الله سنة تسعمائة وجلس على تخت السلطنة سنة ست وعشرين وتسعمائة فى

شوال وأطال الله عمره وطول دولته حتى بلغت ثمانية وأربعين سنة وشهوراً وعاش أربعاً وسبعين سنة ، وكان رحمه الله شجاعا كريماً حسن الخلق والخلقة فإنه كان ذا صورة جميلة ظاهراً وباطناً وهو الذى أسس قواعد الدولة العثمانية ومهد الملك لهم وسهل الأمور وفتح البلاد ووضع كثيراً من القوانين الموافقة للشرع النافعة للعباد رحمه الله رحمة واسعة وكان شديد المحبة للغزو والجهاد للكفار فأكثر الغزوات وفتح الفتوحات .

ذكر أول فتح له وانتصار

أول فتح لمولانا السلطان سليمان وانتصار انتصاره على والى دمشق لما خلع طاعته عند سماعه بموت أبيه وأراد أن يكون سلطانا وهو الأمير جان بردى بيك الغزالى وأصل ذلك أن للمرحوم السلطان سليمان استخدم من أصحاب الغورى أميرين وهما خير الدين بيك وجان بردى بيك الغزالى وكلاهما من الجراكسة ، وكان بينهما وبين الغورى عداوة ، وكان يكرههما وهما يكرهانه ، فلما كان القتال بين الغورى والسلطان سليم بمرج دابق أمرهما الغورى أن يتقدما لقتال السلطان سليم وجعلهما مع عسكرهما حجابا أمامه ووقف الغورى مع خواص عسكره الذين يعتمد عليهم متأخرين عنهما وأراد بذلك أن يقتلا بالبنادق فى أول القتال فيسلم هو ومن معه فتفطن خير الدين بيك والغزالى لذلك ، فأرسلا إلى السلطان سليم وطلبا منه الأمان فأرسل السلطان سليم لهما بالأمان وتعهد لهما بما يطيب خاطرهما وأن يوليهما مملكة مصر والشام فقبلا ذلك منه ووافقاه على ذلك القتال ، فلما تلاقى العسكر فر خير الدين بيك بمن معه من الميمنة وفر الغزالى بمن معه من الميسرة وبقى السلطان الغورى ومن معه فى القلب فهلك من هلك وهرب من هرب وقتل الغورى تحت سنابك الخيل ، فلما تم الأمر للسلطان سليم واستقر له ملك الشام ومصر قرب خير الدين بك والأمير جان بردى وأدناهما ثم ولى الأمير جان بردى دمشق والأمير خير الدين مصر فعلا شأنهما وانتشر ذكرهما فلما بلغ الأمير جان بردى والى دمشق وفاة السلطان سليم خلع الطاعة وأراد أن يتسلطن بدمشق ونواحيها فجمع جموعا ، وسار إلى مدينة حلب ليستولى عليها فحاصرها مدة فلم يقدر عليها ، وكان نائب حلب إذ ذاك قرجه أحمد باشا فجد فى دفعه

واجتهد فرجع جان بردى إلى دمشق وزاد فى تحصين القلعة وترميمها فأرسل إليه السلطان سليمان وزيره فرهاد باشا فى عسكر كثير فالتقوا مع عسكر جان بردى فى موضع يقال له المصطبة بأرض القابون وذلك فى صفر سنة ٩٢٧ فانهزم جان بردى وعسكره وذهبوا تحت أرجل الخيل ولم يبق له ولا لجنوده أثر وقال القطبى أنهم قبضوا عليه وقتلوه وقطعوا رأسه وأرسلوه إلى الباب العالى فدخل فرهاد باشا الشام ورتب أمورها ورجع إلى دار السلطنة فخلع عليه السلطان وزاد فى قدره ورتبته .

ذكر غزوات مولانا السلطان سليمان

الغزوة الأولى قتال قرال انكروس لارش ويقال لهم المجر كان من سعودات السلطان سليمان سليم ، أنه فى أول ولايته كان بين دول الإفرنج اختلاف واضطراب وفتن بين الفرنسيس وأسبانيا وإيطاليا فاغتنم السلطان سليمان هذه الفرصة وزحف بعسكر جرار سنة ٩٢٧ ، وكان رحمه الله محباً للجهاد فى سبيل الله باذلا نفسه وخزائنه لإعلاء كلمة الله لم ترتفع راية الإسلام على رأس أحد من السلاطين العظام أكثر منه جهاداً ونصرة للدين فبرز بجيوشه بنفسه من القسطنطينية براً لإحدى عشر ليلة مضت من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وتسعمائة بعسكر جرار وجيش كثير وأمر بتجهيز أساطيل كثيرة بحراً فجعل منها ٥٠ للمجاهدين وأربعمائة للدواب والأثقال وسيرهم حتى دخلوا فى نهر الطونة فأرسلوا بقرب بلغراد وهى مدينة حصينة لها سور منيع وقد أحاط بها نهران عظيمان ، وهما نهر الطونة ونهر منارة ، قيل أن السبب فى هذه الغزوة أن المجر قتلوا المباشر الذى كان عندهم من طرف السلطان لجمع الخراج فكان ذلك سبباً لغضب السلطان وجعل السلطان خروجه على طريق وارنة ومعه عساكر كثيرة وبعث جيشاً حاصروا قلعة بوكر دلوه وهى قلعة حصينة على شاطىء نهر صاوه فحاصروها حتى ملكوها ثم توجهوا إلى بلغراد ثم لحق بهم السلطان وصاروا جميعاً محاصرين بلغراد ولم يزل يشتد الأمر ويعظم القتال حتى فتح الله على المسلمين وقتلوا كثيراً من الكفار وفازوا بغنائم لاتحصى واستولى السلطان على بلادهم بعد أن أخرب

كثيراً منها ، فلما شاهد الكفار هذا الفتح العظيم جاؤا له بمفاتيح ثمان قلاع منيعة هنالك ثم أمر السلطان بتعمير ماتهدم من قلعة بلغراد وعين لها أميراً وقاضياً ورجع إلى كرسى سلطنته سالماً غانما فى شهر ذى القعدة الحرام من سنته .

الغزوة الثانية غزوة رودس

وهى جزيرة فى وسط البحر مابين القسطنطينية ومصر وبنى الكفار بها حصنا حصينا فكان فى غاية الاستحكام مكينا جعلوه لأخذ المسلمين وأتقنوه فى غاية الإتقان والتمكين بحيث رسخ أساسه إلى تخوم الأرضين ، وارتفع رأسه إلى نجوم الشرطين والبطين ينظرون من أعلى القلعة إلى السفائن التى تمر فى البحر من مسافة بعيدة فيتهيئون للتحصن إن كان ذلك عسكراً من المسلمين ويأخذونهم إن كانوا من سفار البحر واتخذته النصارى معبداً يجهزون أموالهم إليه لتصرف فى استحكام بنائه وإتقانه وجعلوا من أعلاه إلى أسفله من جميع جوانبه ثقوبا وضعوا فيها المدافع الكبيرة ترمى على من يقصدها من الخارج فتصيب كل من قصدها من جميع الجهات ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة فى وسط البحر تمنع المراكب من الوصول إلى الباب ويهيئون أغربة مشحونة بالسلاح والمدافع وللمقاتلة إذا أحسوا بسفينة فى البحر من الحجاج أو التجار أخرجوا إليها تلك الأغربة وأخذوها وغنموا مافيها من الأموال وأسروا المسلمين فيقطعون الطريق على هذا الأسلوب ويجمعون الأموال ويصرفونها على مقاتلتهم ، وكان هذا دأبهم وعجزت ملوك المسلمين عن دفع ضررهم وعم أذاهم المسلمين وقد تكرر غزو المسلمين بلاد رودس وتكرر انتقاضهم وقد تقدم بعض ذلك ، فلما تحقق السلطان سليمان كثرة الأذى الحاصل للمسلمين من أهل رودس تجهز بنفسه لغزوهم وقتالهم وكان سفره الميمون إليها ونزوله ومخيمه الشريف فى اسكدار متوجها إلى هذا الغزو لعشر بقين من شهر رجب سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكان وصوله إلى رودس ونزوله عليها فى شهر رمضان من السنة المذكورة وكان عدة الجيش الذى جهزه مؤلفا من مائتى ألف مقاتل وسفائن بحرية تبلغ أربعمائة سفينة فأحاطت الجيوش برا وبحرا بجزيرة

رودس وحاصرها فأرسل ملكها يستنجد بملك الفرنسيس وملك أسبانيا فلم يجيباه لما كان بين ملوكهم من الفتن فأرسل البابا صاحب رومة إليهما يحثهما على المدافعة والمحاماة عن تلك الجزيرة لأنها من الحصون المانعة للمسيحيين من مصادمة العثمانيين ، فلم يلتفتا إلى كلام البابا وفى رابع رمضان طلع السلطان سليمان على محل رفيع مشرف على حصن رودس فرآها قلعة حصينة كان بانيها ماهرا فى الهندسة بحيث أنه بنى سور القلعة تحت الأرض وعمل لها خندقا عريضا عميقا وجعل للبلد سورين فى عرض سبعة أذرع وملأ ما بينهما وهو مقدار عشرة أذرع بالتراب والحجارة ولها من جانب البحر مينا عظيمة مدورة كالحوض ولها باب مخصوص جعلوا عليه سلسلة من حديد ولها بعض بروج تناغى فى الرفعة والإحكام سمك السماء وحضر خير الدين بك صاحب مصر فى أربعة وعشرين غرابا إمدادا للمسلمين واستمروا فى أمر الحصار يقاتلونهم بالبنادق والمدافع مدة تزيد على ثلاثين يوما وقيل بل ستة أشهر فلم يغنوا شيئا قال العلامة القطبى وما أمكن من فى البحر أن يقرب من حصار رودس للخندق العظيم الذى حولها مع صونه بالمدافع العظيمة ولا أمكن أيضا القرب منها للسلسلة الممدودة من الحديد فى البحر والرمى على من يقربها بالمدافع الكبار فصاروا يصيبون المسلمون بالمدافع ولا يصيبهم مدافع المسلمين لمتانة عرض الحصن وعدم تأثير المدافع فيه فتأخرت عساكر البر قليلا وأمروا بسوق الرمال والتراب أمثال الجبل وتترسوا بها وصاروا يقدمونها قليلا قليلا إلى أن وصل التراب فى الخندق وامتلأ به وقرب من الجدار وارتفع عليه فصار الكفار تحت للمسلمين يصابون ولا يصيبون فطبق الخنادق ونقب الأسوار من تحت الأرض ، ثم أنهم ملأوا الثقوب بالبارود وأضرموها بالنار فانفتح بسبب ذلك عدة من مواضع يمكن العبور منها إلى القلعة ، فلما شاهد الكفار ذلك طلبوا الأمان فأمنهم السلطان ثم رجعوا عن ذلك لأنه أتاهم مدد من الكفار فى عدة مراكب فى الليل فشرع المسلمون فى الحرب ثانيا قيل إنهم ضربوا على رودس أكثر من مائتين وعشرين ألف مدفع فصارت خرابا حتى اضطر الكفار وطلبوا الأمان وأرسل أمير القلعة خمسين نفرا من كبارهم بالرسالة فقبل السلطان سؤالهم فأمنهم وأذن لهم فى المسير مع جماعة

وأمرهم أن يطلقوا أسارى المسلمين الذين كانوا عندهم وكانوا عددا كثيراً مأسورين عندهم من الأشراف والأعيان والعباد من مدة متطاولة فى سلاسل وأغلال فأطلقوهم وخرج صاحب رودس وتبعه أربعة آلاف من أهل رودس فأعطاهم البابا مدينة ويتسربه من بلاد إيطاليا فأقاموا فيها إلى أن نقلهم الملك شركان امبراطور أسبانيا إلى جزيرة مالطة فنسبوا إليها فكانوا يقال لهم شقالرية مالطة وصارت من ذلك العهد دار إقامتهم إلى أن استخلصها منهم بونابرت وهوآت إلى مصر سنة ألف ومائتين وثلاث عشرة ، ثم دخل المسلمون عسكر السلطان سليمان مدينة رودس وأخربوا الكنائس وجعلوها جوامع ثم رتب السلطان أمور رودس وجعل الجزية على من بقى بها وكان فتح رودس لست مضين من شهر صفر الخير سنة تسعمائة وتسع وعشرين وحصل لأهل الإسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم وعمل الناس بذلك تواريخ ألطفها (يفرح المؤمنون بنصر الله) ٩٢٩ وفتحت عدة قلاع فى ذلك العام ورجع السلطان إلى القسطنطينية كرسى ملكه سالماً غانماً .

ذكر عصيان أحمد باشا والى مصر وخلعه السلطان

وأخذ البيعة من الناس لنفسه

كان السلطان سليمان له وزير مقرب تربى معه ونشأ فى خدمته وملازمته اسمه ابراهيم باشا وكان لوالده السلطان سليم وزير آخر يسمى أحمد باشا فظن أن وزارة الصدارة لاتتعداه إلى غيره لكونه من خواص مماليك السلطان سليم ووزرائه فأعطى السلطان سليمان الصدارة لابراهيم باشا فزاحمه أحمد باشا وصار يخدم السلطنة فى كثير مما يتعلق بالصدارة ، فشكاه ابراهيم باشا إلى السلطان ودبر فى إزالته من ذلك المكان فطلبه السلطان سليمان وجعل له ولاية مصر وأعطاه أقطاعاً كثيرة يستجلب بها خاطره فمضى إلى مصر والياً وصار يتعقبه إبراهيم باشا فى أشياء كثيرة للعداوة السابقة ويرميه عند السلطان بما يوجب قتله فبرز الأمر لجماعة من الأمراء المستحفظين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله بالأمر الشريف السلطانى ويتولى أحدهم مكانه إلى أن يرد الأمر الشريف بإقامة من يختاره السلطان وأرسلت

هذه الأحكام إلى الأمراء المذكورين فوقعت تلك الأحكام بيد أحمد باشا قبل أن تصل إلى الأمراء المذكورين فجمعهم فى ديوانه وذكر لهم أن الأمر الشريف السلطانى ورد إليه بقتلهم فأذعنوا للأمر الشريف فقتلهم ثم سولت له نفسه العصيان وظن أنه يأوى إلى جبل يعصمه من السلطان وإنه يقابل ويقاتل بجيش يلفقه من مصر . فأبدى الطغيان وادعى السلطنة لنفسه وأمر الناس أن يبايعوه وأمر أن يخطب باسمه على المنابر فى أيام الجمع ورتب عسكراً بمصر من العوانية وضرب السكة باسمه على الدراهم والدنانير وصادر الناس وجمع المال الكثير وعصى أهل قلعة الجبل وجمع عليهم الشطار فأخذوها بالحيل وقتلوا من فيها من عسكر السلطان وأوقد نيران الفتنة والعصيان وكان ممن حبسه للمصادرة جانم الحمزاوى ومحمود بك وأراد قتلهما وقد أخر الله أجلهما فسمعا أنه دخل الحمام فكسرا الحبس وبرزا ونصبا صنجقاً سلطانيا وناديا من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه ، فاجتمع تحت الصنجق السلطانى خلق كثير وجم غفير وصار سردارهم محمود بك وجانم الحمزاوى بمثابة الوزير وتوجها بالعسكر إلى الحمام فكبسا أحمد باشا وقد حلق نصف رأسه وأعجل النصف الثانى هجوم العسكر السلطانى عليه فهرب إلى السطح وتخلص من مكان إلى مكان وخلص إلى البر والتجأ إلى شيخ من مشايخ العرب بناحية الشرقية يسمى عبد الدائم وقوى العسكر السلطانى ونهبوا ماجمعه من الأموال بالظلم والمصادرة وخرجوا إليه يطلبونه وخوفوا عبد الدائم وحذروه من عصيان السلطنة فأتاهم فقطعوا رأسه وطافوا بها مصر وعلقوها فى باب زويلة ، ثم جهزوها إلى الأعتاب السلطانية وذلك فى سنة تسع وعشرين وتسعمائة وضبط مصر محمود بك وجانم الحمزاوى إلى أن جاء قاسم باشا من دار السلطنة متوالياً مصر واستمر ابراهيم باشا فى وزارته العظمى ، ثم أرسله السلطان وهو وزير أعظم إلى مصر لإصلاحها فجاء إليها بغاية العظمة والإقبال ونظر فى أحوالها وأموالها وولى على مصر قاسم باشا ورجع ابراهيم باشا إلى دار السلطنة فكان مقبولا معظما عند السلطان نافذ الأمر والنهى إلى أن أفرط فى الدلال وزاد فى الإدلال فاستبد بالأمور واستقبل بمصالح الجمهور فأنفت الغيرة السلطانية من ازدياد دلاله وما تحملت زيادة عجبه وإدلاله وكثر حاسدوه فوشوا به إلى السلطان سليمان وقالوا له إنه يريد قتل السلطان

والجلوس على تخت السلطنة ، فلما بلغ السلطان سليمان ذلك أراد أن يختبر حقيقة الأمر ، فقال يوما لإبراهيم باشا وهما فى مجلس أنس أنى أريد أن أجعل السلطنة لك فقال العفو يامولانا السلطان فإن العبد لا يبلغ مرتبة السيد فقال له السلطان لا بد من ذلك فقال ابراهيم باشا يكفى أن يتفضل مولانا السلطان على بأن يأمر فى دار الضرب أن يجعلوا على وجه السكة اسم مولانا السلطان وعلى الوجه الآخر اسمى فإنى أكتفى بالمشاركة فى السكة فلما أطلع السلطان على صحة ذلك الأمر بالقرائن التى ظهرت له أمر بقتله فطلبه السلطان فى ليلة من ليالى أواخر رمضان إلى عنده وأنعم عليه على جارى عادته بنفائس وإنعامات وافرة ووهب له جميع ما كان فى مجلسه من أوانى الذهب المرصعة بالجواهر الغالية وطيب خاطره وطيبه بالعنبر والمسك والغالية وأمره أن يبيت عنده فى مجلس خاص به كان عادته أن يبيت فيه وصبر عليه إلى أن غلب سلطان المنام على مقتلته وأماقيه فأمر بذبحه فذبح وأخطأ الذابح نحره فصاح مستجيراً وكان السلطان قريباً من موضعه ، وقد صمم فى أمر قتله فأمر أن يكمل ذبحه فقطع رأسه وأطفى نبراسه وأخمدت أنفاسه ولعل كثرة إحسانه إلى الناس ونشر مكارمه التى زادت على الحد والقياس نفعته عند الله تعالى فى الدار الآخرة ولعله صدقت نيته فى بعضها فصادفت قبولا وصارت له عند الله ذخرا ، فكم من عمل صالح يكون سببا للنجاة من النار ويدخل بهصاحبه الجنة مع الشهداء الأبرارا ، ومار بك بظلام للعبيد ، وكان قتله فى الليلة السادسة والعشرين من رمضان سنة تسعمائة وإحدى وأربعين وفى قصته وقصة أحمد باشا خصمه عبرة للناظرين وأولى الأبصار والمستبصرين ورحم الله القائل :

ومصاحب السلطان مثل سفينة   فى البحر ترعد دائما من خوفه
إن أدخلت من مائها فى جوفها   أدخلها وماءها فى جوفه

وفى سنة ثلاثين وتسعمائة هلك سلطان العجم اسماعيل شاه وقام بالملك بعده ولده طهما وسب شاه .

ذكر استغاثة ملك الفرنسيس بالسطان سليمان

فى سنة اثنتين وثلاثين حضر إلى دار السلطنة رسل من ملك الفرنسيس ومعهم مكاتبة لمولانا السلطان سليمان مضمونها الشكاية إليه من تغلب بعض الملوك أعدائه على مملكته فهو يستغيث بمولانا السلطان سليمان ويطلب منه أن ينجده بمدده وذكر فى تلك المكاتبة تفخيماً وتبجيلاوتعظيما كثيراًلمولانا السلطان يستعطفه به فأجابه إلى مطلبه وأنجده وجهز له جيوشاً كثيرة برا وبحرا ، فكانت تلك الجنود مع الفرنسيس إلى أن انقضى مرامه ودفع المتغلب عليه بل غلبه وقهره فمن ذلك الوقت صار الفرنسيس يعدون أنفسهم خدما وأتباعا للدولة العثمانية .

الغزوة الثالثة إلى الأنكروس

فى سنة اثنتين وثلاثين وقيل أربع وثلاثين بلغ مولانا السلطان أن طائفة الأنكروس وهم المجر كثر بغيهم وفسادهم وطغيانهم وتكرر ذلك منهم المرة بعد المرة ولم ينجح فيهم التخويف والموعظة ، فتجهز مولانا السلطان لقتالهم وجهز لهم جيشا يبلغ مائتى ألف مقاتل ، وقيل ثلاثمائة ألف ، وخرج بنفسه ، فلما وصل إلى بلغارد لم يزل مشغولا بفتح الحصون والقلاع جاء أكثر أهلها يطلبون الأمان وسلموا مفاتيح القلاع ، ثم سار مولانا السلطان حتى انتهى إلى نهر صاوة وهو من أعظم أنهار الدنيا ، فأمر مولانا السلطان فاتخذوا عليه جسرا ممدوداً أمام قلعة هرسك فاجتاز العسكر منه إلى بلاد الكفار ثم أمر السلطان برفع الجسر فرفع فبقى المسلمون فى بلاد الكفار وذلك يدل على شهامته وقوة عزمه وقطع أطماع العسكر من الفرار إلى بلادهم ، ولما سمع القرال لارش ويقال له أيضا لارس وهو رئيس كفار أنكروس أعنى المجر جمع جنوده ، وسار بهم من كرسى مملكته إلى طرف عسكر المسلمين نحو خمس منازل يريد مهاجمة المسلمين وأن يبادرهم فى القتال اغتراراً بمن معه من الجند وخيم فى مفازة هناك تسمى صهارج وأشرف المسلمون

محل الكفار وربوة القتال فرتبو الميمنة والميسرة والقلب وأخذوا أهبة الحرب وتضرع السلطان إلى الله تعالى رسالة النصر وتوجه إليه بالنبي صلى الله عليه وسلم وجعل أمام العسكر فى هيئة الحاجزين العسكرين مائة وخمسين عجلة كانت تجر المدافع الكبار وركبوا عليها المدافع وقيدوا بعضها ببعض بالسلاسل ووقف عساكر السلطان الأنقشارية تسع صفوف كما هى عادتهم فى الحرب وهجم الكفار بأجمعهم على القلب فرأوا أنه لا سبيل إلى العبور بسبب العجلات فانحازوا إلى طرف اليمين فوقع بينهم وبين عسكر المسلمين أهل روملى مقتلة عظيمة ، فلما علم الكفار أنهم لا طاقة لهم بهم انحازوا إلى طرف عسكر أناطولى فاقتتلوا أيضاً معهم قتالا شديداً ، وكان قد أصاب رئيس الكفرة القرال لارش مدفع من جهة المسلمين كان به هلاكه وتلفه فتضعضعت جنوده عن المقاومة وامتد القتال إلى غروب الشمس ، ثم انتصر المسلمون وانهزم الكافرون وصاروا كحمر مستنفرة فرت من قسورة فتبعهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى صارت أجساد الكفار كالتلال وجرت الدماء كالسيل وغنم المسلمون من الأموال والدواب شيئاً لا يحصى ، قيل أن القتلى من الكفار عشرين ألفاً ثم أغار الجند على بلاد أنكروس وتوغلوا فيها مسيرة عشرة أيام وجاؤا بالأسرى والغنائم واستولى مولانا السلطان على الحصون والقلاع الواقعة فى الجهة الجنوبية من تلك المملكة ، ثم رجع قافلا إلى القسطنطينية فى أواخر شهر ذى القعدة الحرام من السنة المذكورة .

الغزوة الرابعة إلى بلاد النمسا وقرادنز

كانت هذه الغزوة سنة ٩٣٥ وسببها أنه اجتمع كفار النمسا والألمان وقرادنز وأغار على قلعة للمسلمين تسمى بدون أخذوها من المسلمين بحيلة وعلى غرة وغفلة ، فلما بلغ الحضرة السلطانية ما فعلوه استشاط غيظاً وأمر بالتجهيز للغزو ليحصل قمعهم فبرز من دار السلطان إلى حلقة لوبكار لليلتين مضتا من رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة

واستمر راحلا بجيوش كثيرة إلى أن وصل إلى المخيم العالى فجاءته امرأة من ملوك أنكروس تطلب الأمان لجماعة من قومها والتزمت بخراج أنكروس كل عام فقوبلت من الحضرة الشريفة السلطانية بالقبول وخلع عليها الخلع الفاخرة وكتب لها بالأمان وعادت إلى بلادها واستمر الوطاق السلطانى وتوجه كثير من العساكر إلى محاصرة قلعة بدون التى كانوا أخذوها فحاصروها وضيقوا على من فيها إلى أن فتحها الله كما فتح سائر البلاد وخذل أهل الكفر والعناد وكان فتحها بعد حرب شديد ، ثم ولوا هاربين ومأسورين ومقتولين لأربع مضين من محرم سنة ست وثلاثين ثم فتحت قلعة تياق حصارى ثم توجه العساكر إلى محاصرة قلعة أخرى قريب تخت النمسا كانت من أعظم قلاع الكفار فأحاط الجند بها وحاصروها فطلب أهل القلعة الأمان وأتوا بمفاتيحها إلى حضرة مولانا السلطان ، ولما كانت القلعة المذكورة بعيدة عن حدود الإسلام غير مأمونة من هجوم الكفار أمر حضرة مولانا السلطان بهدمها فهدمت وأخربت ونهبوا من كانوا نازلين بأطرافها وحواليها وسبيت أولادهم ونساؤهم وعاد السلطان إلى تخت ملكه بالنصر والتأييد أوائل شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وتسعمائة .

الغزوة الخامسة إلى بلاد النمسا أيضا

فى سنة سبع وثلاثين وتسعمائة غزا مولانا السلطان سليمان بنفسه من القسطنطينية بمائة وعشرين ألف مقاتل وأربعمائة مدفع لحرب النمسا ونازل مدينة فينا عاصمة مملكة النمسا وأقام عليها الحصار فقاتلوا أشد القتال وحصلت أمطار شديدة تأذى المسلمون منها وفاض النهر وأخذ الخيام وجملة من العسكر وصعد بعضهم على الأشجار هربا من الماء ومكثوا يومين وليلتين وهم فى مشقة شديدة حتى انكشفت المياه ، ولما رأى السلطان ذلك تحول وارتحل عن المدينة وقتلت عسكر الانقشارية الأسرى الذين كانوا تحت أيديهم ولما وصل مولانا السلطان إلى مدينة موهكز من بلاد المجر أتاه حاكمها وبذل الطاعة فقبله وأكرمه وأجلسه عن يمين كرسيه ولما أراد الانصراف خلع عليه خلعة ثمينة وأعطاه

ثلاثة أفراس من جياد الخيل عليها سروج مرصعة ورجع السلطان إلى مقر سلطنته سالما .

الغزوة السادسة إلى بلاد الألمان

لما كانت سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وصلت الأخبار إلى الأبواب السلطانية أن قرال النيمسا جمع طائفة من كفار الألمان وأراد الإفساد والطغيان فتوجهت همة مولانا السلطان سليمان إلى المبادرة إلى قتال هذا اللعين فجهز الجيوش براً وبحراً وأرسل فى شعبان من طريق البحر أحمد باشا القبودان لحفظة وجه البحر من النصارى ومعه عشرون غرابا مشحونة بالعساكر الأبطال فافتتح عدة قلاع من بلاد الفرنج وأرعبهم غاية الرعب وقتل وسبي كثيراً منهم وتوجه مولانا السلطان براً من دار السلطنة فى رمضان من السنة المذكورة ، فوصل بجيوشه إلى مملكة الألمان وأحاط بما فيها من الحصون والقلاع بعساكره وضيقوا عليها ونهبوا قراها وضياعها المعمورة وسبوا كثيراً من زرارى الكفار وغنموا ما لا يحصى من الأموال وقتلوا من الرجال ما لا يخطر بالبال وهرب ملوكهم وتركوا صعلوكهم وبذلوا ما بقى معهم من الأموال والذخائر على بذل الأمان لهم ثلاثة أعوام فأجيبوا من جانب السلطنة السنية إلى سؤالهم وكتب لهم توقيع الأمان وعاد مولانا السلطان إلى دار ملكه المسعود مظفر الجنود سعيد الجدود فى أواخر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمائة .

الغزوة السابعة إلى بلاد الصرب

فى سنة تسع وثلاثين خرج مولانا السلطان سليمان بمائتى ألف مقاتل لمحاربة الصرب فافتتح فى طريقه أربع عشرة قلعة واستولى على أكثر حدود بلاد النيمسا ثم رجع إلى القسطنطينية سالما غانما ، وفى سنة أربعين عقد صلحا مع ملوك الفرنج أهل أوروبا ليتفرغ لمحاربة العجم لكثرة الخلاف الحاصل بينهم .

الغزوة الثامنة إلى بلاد العجم

فى سنة أربعين وتسعمائة توجهت همة مولانا السلطان سليمان إلى محاربة العجم فجهز جيوشاً كثيرة وأرسلها مع الصدر الأعظم فى أوائل شهر ربيع الأول فافتتح كثيراً من القلاع والحصون والمدائن ثم خرج مولانا السلطان سليمان بنفسه فى ثامن ذى القعدة حتى انتهى إلى تبريز فاستقبل الصدر الأعظم قبل وصوله إلى تبريز بمن معه من العساكر وتوجها بجميع العساكر لاستئصال مملكة العجم وهرب سلطان العجم وصار ينتقل فى الجهات والأطراف حتى انتهى فى هربه إلى خراسان ولما وصل مولانا السلطان إلى تبريز استقبله أهلها وهنوه بالقدوم ، فلما جاء الشتاء توجه إلى مدينة بغداد ، وكانت بيد سلطان العجم ، وكان له نائب بها وهو بكلو محمد خان فلما سمع بقدوم مولانا السلطان بعث إليه بالطاعة ثم هرب إلى بلاد العجم فدخل مولانا السلطان بعساكره مدينة بغداد وقصد زيارة الإمام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه ، وكان إسماعيل شاه نقض تربته وهدمها فجددها مولانا السلطان وجعل عليه مشهداً عظيما وبنى فيه تكية يطبخ فيها الطعام وبنى فى بغداد قلعة حصينة وشحنها بالمدافع والعساكر ، وكان دخول مولانا السلطان بغداد فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وتسعمائة ولما أقبل الربيع نزل منزلا يقال له صاروجه قمش ، ثم نهض بعساكره يريد سلطان العجم فتوغل فى بلاده حتى وصل إلى مدينة دركزين فجاءته رسل سلطان العجم وتكرر مجيئهم يطلبون الصلح وكتب إليه سلطان العجم أنه لا يقاتل أبداً ويرجوه من كرم السلطان أن يرحم الرعايا فقد خربت ديارهم وهلكت دوابهم ويسأل العفو وأن يعود مولانا السلطان إلى بلاد الروم وأعطى العهود أنه لا يخون وتكون البلاد التى أخذها السلطان تحت حكمه لا ينازع السلطان فيها أبداً وأنه يكون تحت خدمته يلبيه كلما دعاه فلما تحقق السلطان منه ذلك عقد معه صلحاً وأمر العساكر بالرجوع فرحل بهم ورجع إلى مقر سلطنته فدخل دار السلطنة رابع عشر رجب سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وزينت المدينة واستبشروا بقدومه وألطف تاريخ قيل فى ذلك : فتحنا العراق .

الغزوة التاسعة إلى مملكة أسبانيا وجزائر الغرب

كانت هذه الغزوة في سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة كما في التاريخ القبطي وذكر بعض المؤرخين أنها كانت في سنة خمس وأربعين وحاصلها أن مولانا السلطان توجه بنفسه الشريفة من طريق البر ومعه عساكر كثيرة وأرسل من طريق البحر خمسمائة غراب مشحونة بالعساكر والذخائر والسلاح وعليها خير الدين باشا فافتتح عساكر البر والبحر قلاعا وحصونا كثيرة بعد حروب كثيرة وتملكوا أربعة وثلاثين حصناً وخمسا وعشرين جزيرة من جزائر البندقية وهم طائفة من النصارى خليفتهم البابا وضربوا مراكب البندقية ، وكانت مائة وسبعة وستين فشتتوها وسلمت البندقية لمولانا السلطان قلاع نابولي ورومانيا وغيرها ودفعت لمولانا السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع سالماً منصوراً مظفراً وكانت غنيمة المسلمين من أموال الكفار وسباياهم مما لا يحصى .

الغزوة العاشرة إلى البغدان

وكانت هذه الغزوة في سنة أربع وأربعين وتسعمائة توجه مولانا السلطان بنفسه الشريفة ومعه كثير من عساكره المنصورة إلى بلاد البغدان وقتل فيها وأسال الدماء وسفك وافتتح القلاع وغنم أموالا كثيرة وأسر نفوساً عديدة غير محصورة وعاد إلى تخت ملكه الشريف مؤيداً من عند الله سبحانه وتعالى بالنصر والتأييد والفتح الجديد فوصل إلى دار السلطنة لست بقين من ربيع الأول سنة أربع وأربعين وتسعمائة .

الغزوة الحادية عشرة إلى اسطبور من بلاد أنكروس

سبب هذه الغزوة أن مولانا السلطان كان قد أنعم على امرأة من أبناء ملوكهم يقال لها أردل بانو بتلك البلاد ثم توفيت فأراد قرال النمسا أن تتملك تلك البلاد فتوجه مولانا السلطان بعساكره المنصورة سنة ثمان وأربعين وتسعمائة إلى قتال قرال النيمسا ، فلما أحس بوصول العسكر المنصور السلطان فر هاربا إلى الجبال وتقهقر عن القتال فتبعته الأبطال ففر منهم

فجالت العساكر المنصورة فى تلك البلدان وقتلوا أهل البغى والعدوان وسبوا الأولاد والأطفال والنساء وتركوا ديار الكفر قاعاً صفصفا وغنموا مغانم كثيرة وفتحوا قلعة اسطبور وفتحت أيضا قلعة رشوة وقتلوا من الكفار مالا يحصى وعاد مولانا السلطان بعساكره إلى مقر سلطنته منصورين مؤيدين .

الغزوة الثانية عشرة غزوة استرعون

كانت هذه الغزوة سنة ٩٥٠ وذلك أن مولانا السلطان توجهت همته لتنظيف بلاد الروملى من طوائف الكفار بالغزو والجهاد فتوجه من دار سلطنته بالجيوش المتواترة وسار إلى أن أحاط بقلعة واليوه وقلعة شقلا ولاشور وهما من أحكم القلاع وأعظم الحصون فحاصرها إلى أن فتحهما فى غرة ربيع الأول من العام المذكور ثم افتتح قلعة استرعون وهى قلعة فى غاية الاستحكام مشحونة بالذخائر والأموال مملوءة بالعدد والعدد الوافر فحاصروها وألقى الله الرعب فى قلوب أهلها ، ثم افتتحها وأخذ من فيها أخذاً وبيلا وأسروا وقتلوا تقتيلا ونهبت الأموال وسبيت النساء والأولاد والأطفال وأخذوا ماحولها من البلاد والبقاع والقلاع وكذلك فتحت قلعة استوليز بيلغارد وهى قلعة سامية العماد وعين لها ولغيرها من القلاع الأمراء الحفاظ النبلاء الأيقاظ ونصب لكل منها قاضيا يجرى الأحكام الشرعية وسنجقاً للاستحفاظ ، وصارت من الممالك المحروسة السلطانية وصارت البيع والكنائس مساجد للصلاة والعبادات ، ورجع مولانا السلطان إلى كرسى ملكه مظفراً منصوراً .

الغزوة الثالثة عشرة سنة أربع وخمسين وتسعمائة

هذه الغزوة كانت إلى الهند لكن لم يخرج فيها مولانا السلطان بنفسه وإنما جهز الجيوش وأرسلها وسببها إلى طائفة من الفرنج يقال لهم البرتوقال كانوا يغيرون بمراكبهم وعساكرهم فى بحر الهند ، فأرسل سلطان الهند إلى مولانا السلطان سليمان يستغيث به ويشكو إليه بأن الطائفة المذكورة تغلبوا على ممالكه ويطلب نجدة من مولانا السلطان

فجهز إليه عساكر فى مراكب بحرية وبعثهم مع الوزير سليمان باشا فوصل بها إلى الهند ودفع البرتوقال فصار سلطان الهند من جملة المنتسبين إلى السلطنة السليمانية الداعين لها القائمين بخدمتها ورجع سليمان باشا إلى اليمن ثم إلى دار السلطنة غانما سالماً .

الغزوة الرابعة عشر إلى بلاد العجم

كانت هذه الغزوة أيضا سنة أربع وخمسين وتسعمائة إلى بلاد العجم وسببها أن سلطان العجم طهماسب كان له أخ يسمى القاسب ميرزا كان قد ولاه مدينة شروان ، ثم وقع بينهما اختلاف آل الأمر منه إلى القتال ولم يكن للقاسب طاقة لمقاومة أخيه وجيوشه ففر هاربا مع جماعة من خواصه إلى الروم ملتجئاً إلى مولانا السلطان سليمان فلما وصل دار السلطنة السنية أكرمه مولانا السلطان سليمان ووهب له من الذهب الأحمر شيئاً كثيراً ووهب له عدة أحمال من الأقمشة وعدة خيول وأعطاه الطبل والعلم ووعده بالنصر ثم تجهز مولانا السلطان بنفسه إلى المسير لقتال طهماسب وأمر أخاه القاسب ميرزا بالتقدم وقواه بطائفة من العسكر ، وفى الثامن من شهر صفر سنة خمس وخمسين وتسعمائة توجه السلطان سليمان بنفسه قاصداً بلاد العجم ، فلما قرب من حدود أذربيجان نزل ببرهان واستخلص شروان من يد جماعة طهماسب ، وفى عشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة وصل إلى تبريز وفوض أمرها إلى القاسب ميرزا أخى سلطان العجم وأعطاه من العسكر والمدافع الكبار ما يكفيه ، فلما تولى القاسب إمارة تبريز جعل يصادر الرعايا والبرايا ويظلمهم على عادة ملوك العجم فلما تحقق السلطان سليمان منه ذلك استصحبه معه ، وكان قصد السلطان أن يسير على مدينته وأن يخلصها منه لأنه ملكها من نواب السلطان بعد أن ملكوها فوصل إليها فى عاشر رجب ، وكان طهماسب شحنها بالرجال والأبطال وأحصنها غاية الإحصان ولم تزل العساكر يعالجون الحصار بضرب المدافع وعمل النار حتى أخربوا أكثرها ، فلما تيقن من بالقلعة أنهم مأخوذون تدلى بعضهم من القلعة بحبل واجتمع بالقاسب ميرزا وتضرع إليه واستشفع به ، فشفع القاسب عند

السلطان سليمان فى إعطائهم الأمان والعفو عنهم فقبل شفاعته فخرجوا من القلعة وسلموها لصاحبها فدخلها أهل السنة والجماعة ونصبوا عليها الأعلام الإسلامية وولى السلطان اسكندر باشا الدفترى أمير الأمراء بها ، ولما قرب الشتاء قصد السلطان أن يسير إلى طرف ديار بكر فسار يشتى حتى وصل إلى مدينة آمد فبينما هو مخيم فيها إذ ورد أن العجم لما بلغهم عود السلطان دخلوا مدينة أذربيجان وأحرقوها وشردوا أهلها وقتلوا من قدروا عليه وأحرقوا الزروع، فلما بلغ ذلك السلطان أمر الوزير أحمد باشا بالمسير إليهم وعضده بجماعة من العسكر واستخبروا بأن جماعة سلطان العجم مخيمون بقرب مدينة تبريز فساروا وكبسوهم بالليل وقاتلوهم وشردوهم ، ثم أن القاسب أخا سلطان العجم تضرع إلى السلطان سليمان أن يعطيه جماعة من العسكر ليسير بهم إلى بلاد أصفهان وقم وقاشان لأن بها معظم أموال أخيه سلطان العجم وخزائنه فأجابه السلطان سليمان سؤاله وعضده بطائفة من عساكر الأكراد والأعجام واجتاز السلطان سليمان بنهر الفرات ووصل إلى حلب ووصل القاسب بمن معه إلى حدود عراق العجم فتوغل بها وبدأ بالنهب والتحريق والتخريب حتى وصل إلى حدود فارس وأخرب ضياعهم وأحرق بيوتهم وأسر أولادهم وأزواجهم ثم عاد إلى بغداد وشتى بها ووقع بينه وبين الوزير محمد باشا المتولى بغداد من طرف مولانا السلطان سليمان وحشة اقتضت أن عرض محمد باشا إلى السلطان سليمان بأن القاسب ترفض ورفض طاعة السلطان ولم يكن الأمر على حقيقته وإنما هي مكيدة فعلها فى حقه بغضاً وعداوة فلما اطلع القاسب على ذلك خاف على نفسه من صولة السلطان فهرب إلى بلاد الأكراد ولم يزل بها حتى قدر عليه أخوه طهماسب سلطان العجم فقتله قتلة شنيعة .

الغزوة الخامسة عشرة إلى بلاد العجم أيضاً

وفى سنة ستين وتسعمائة كثرت مخالفات سلطان العجم لطاعة مولانا السلطان وكثر ظلمه وكثرت الشكايات فيه من جماعته وغيرهم فقصد مولانا السلطان سليمان التوجه لمحاربة العجم فسار بعساكر كثيرة ودخل حلب فى غرة ذى الحجة ، ولما وصل إلى أذربيجان كتب إلى سلطان العجم يدعوه للمبارزة ويعيره علي ترك الحرب والاختفاء في السكون

ثم توجه مولانا السلطان سليمان حتى وصل إلى مدينة وان وهى من أحسن مدن الدنيا وأنزهها فأخربها العسكر جميعا وكان دأبهم كذلك من حين دخلوا بلاد العجم ثم لم يزالوا كذلك حتى وصلوا فى سادس عشرين شعبان من سنة إحدى وستين وتسعمائة إلى مدينة نخجوان مقر سلطان العجم وفيها دور وقصور شامخة الأركان رفيعة البنيان ودور أولاده وأحفاده ووزرائه وسائر أعيان دولته، فلما دخلها العسكر وجدوها خالية فقطعوا أشجارها وخربوا قصورها فصارت البلد كأنها أرض قفراء ما عمرت قط وأغار بعض العسكر على مدينة تبريز فنهبوها وقتلوا من قدروا على قتله، ثم أغاروا على مراغة فنهبوا وأحرقوا واقتتلوا مع ألوف من جماعة سلطان العجم فانتصروا عليهم. وأخذوا تيجانهم المرصعة وأعلامهم وطبولهم، وفى أثناء ذلك وصل وفد من جانب سلطان العجم ومعه مكتوب محصله أنه ندم على ما أظهر من عداوة وأظهر التذلل والاستغفار والتجأ إلى عتبة السلطان يطلب منه الصلح فأجابه إلى مسئوله وخلع على الوافد ثم توجه السلطان وشتى بمدينة أماسية ثم رجع إلى كرسى مملكة القسطنطينية .

الغزوة السادسة عشرة إلى سلطان المغرب

لهذه الغزوة خبر عجيب غريب لم يذكره تواريخ أهل المشرق وهو يدل على ضخامة ملك مولانا السلطان سليمان وقوة سلطنته وعلو همته فيستحق أن يلحق بالغزوات وإن لم يخرج فيها السلطان بنفسه فينبغى ذكره لغرابته تتميما للفوائد وهو ماذكر فى تواريخ أهل المغرب منها التاريخ المسمى نزهة الحادى فى أخبار أهل القرن الحادى وهو تاريخ مخصوص بذكر ملوك المغرب للعلامة الشيخ محمد بن عبد الله الأفرانى المراكشى وذلك أنه ذكر هذا الخبر فى ترجمة السلطان الملقب بالشيخ أبى عبدالله محمد المهدى بن أبى عبدالله القائم ثالث الخلفاء السعديين الذين ملكوا مراكش وفارس (وحاصل) ذلك الخبر أن السلطان المذكور لما تم له ملك المغرب ودانت له حواضره وبواديه تلقب بالمهدى وتراقت هيبته إلى بلاد المشرق فكان يقول لابد لى أن أذهب إلى مصر وأخرج الأتراك من أحجارهم وأنازلهم فى ديارهم فبلغت مقالته مولانا السلطان سليمان العثمانى وكان أبو عبدالله

لا يسمى سلطان العثمانيين إلا سلطان الحوات لكون الغالب على الأتراك سفرهم في السفاين فانتهى ذلك للسلطان سليمان العثماني فبعث له أناساً برسالة فلم يحتفل بهم بل قال اخبروا صاحبكم أني مقتحم عليه بلاده ومتوجه لقتاله فلما رجعت الرسل للسلطان سليمان وأخبروه بمقالة أبي عبد الله الشيخ وما قاله لهم بعث السلطان سليمان لبعض وزرائه الذين بالجزائر أن يأتوا برأس أبي عبد الله ، فبعثوا رجلا من أبطال جندهم في شرذمة من الأجناد مظهرين أنهم هربوا من السلطان العثماني ورغبوا في خدمة أبي عبدالله ونيتهم المكيدة به والاغتيال له حيث أمكنهم ذلك ، فلما قدموا على السلطان أبي عبد الله فرح بهم غاية الفرح وأظهر السرور لمقدمهم عليه وكان عنده جماعة من الأتراك استخدمهم قبل ذلك وكان يركب معهم ويدنيهم ويأمن بهم ،فلما حضر هؤلاء الأتراك فرح بهم الأولون إذ كل غريب للغريب نسيب وأن من الغريب يعجب الغريب فلم يزل الأتراك القادمون قائمين بخدمته مختصين به يتربصون الفرصة ويترقبون المكيدة للفتك بأبي عبد الله فسافر لقتال بعض العصاة عليه فلما كان بجبال درنة بموضع يقال له أتلاثنة دخلوا عليه خباءه ليلا على حين غفلة من العسكر وبقية الخدم فضربوا رأسه بشافور ضربة واحدة أماتوه بها واحتملوه في مخلاة وذهبوا به في الظلماء عامدين إلى جهة سجلماسة كأنهم رسل إلى تلمسان لئلا يفطن بهم أحد ثم أدركوا في بعض المواضع فقاتل معهم طائفة حتى هلكوا وهرب بعضهم بالرأس إلى أن أبلغوه للسلطان سليمان بالقسطنطينية فلم يزل الرأس معلقاً بها إلى أن تلاشى وكان قتله في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وستين وتسعمائة وحمل جسده إلى مراكش ودفن في قبور الأشراف انتهى .

الغزوة السابعة عشرة لم يخرج فيها السلطان بنفسه

في سنة أربع وستين أيضاً سارت جيوش السلطان سليمان إلى اليمن لإصلاح اليمن وتملكه ودفع المتغلبين فيه فكان لهم غاية النصر والاستيلاء والتمكن وتمام الإصلاح ودفعوا البرتقال التي كانت تقطع البحر وتغير على بلاد الإسلام بعد امتداد الفتن إلى سنة ثمان وستين وتسعمائة .

الغزوة الثامنة عشرة

وفى سنة سبع وستين وتسعمائة توجه القبطان سنان باشا بعمارة عظيمة إلى جزيرة جربا فى إفريقيا وتملكها بعد حصار ثلاثة أشهر وأخذ حاكمها أسيراً وأتى به إلى القسطنطينية ، فلما بلغ ذلك ملك أسبانيا ركب على بلاد الجزائر وأخذ بعض قلاع ومراكب تخص الدولة فغضب السلطان من ذلك وعزم على فتح مالطة ففى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة خرج القبطان سنان باشا من ميناء القسطنطينية بعمارة تحتوى على مائة وإحدى وثمانين مركباً ومعه السر عسكر مصطفى باشا فلما وصلوا إلى الجزيرة المذكورة خرجت العساكر وأخذوا فى عمل خنادق أمام القلعة وأقاموا عليها الحصار الشديد إلى أن أخذوها وأخذوا أسرى كثيرين وسمروا على أخشاب وطرحوا فى البحر أمام المدينة وهى محاصرة وكان قد وقع فى يد حاكم للمدينة أسرى من الأنكشارية فلما رأى ذلك أمر بقطع رؤسهم ووضعها فى المدافع وضرب بها المحاصرين ووقع عشر هجمات على المدينة وفقد عساكر كثيرة فلم يمكن أخذ المدينة فرفعوا الحصار عنها وارتحلوا .

الغزوة التاسعة عشرة

وفى أثناء هذه المدة كان قد وقع الحرب بين الدولة والمجر وأخذت عساكر الدولة جملة بلدان من ممالك المجر فأرسلوا يطلبون الصلح ولم يرسلوا الخراج المنكسر عندهم فغضب السلطان وأمر بحبس رسولهم وعزم على السفر إليهم بنفسه فبلغهم الخبر فخضعوا وأعطوا الطاعة وبذلوا المنكسر وضاعفوه بأضعاف كثيرة فعفا عنهم وأمنهم .

الغزوة العشرون

وفى سنة أربع وسبعين وتسعمائة نهض مولانا السلطان سليمان خان لفتح مدينة لنصارى المجر تسمى سكدوار والحال أنه قد شاخ وكبر وهرم وازدادت عليه علة النقرس وهو روم ووجع فى مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين فمنعه الأطباء عن السفر فلم يقبل

منهم لمحبته الجهاد وقال أريد أن أموت غازياً فخرج لتسع مضين من شوال سنة أربع وسبعين وتسعمائة فسار بعسكر كثير متزاحم الأفواج متلاطم الأمواج ، وبعث وزيره برتو باشا إلى فتح قلعة كولة فلم يلبث إلا قليلا حتى فتحها وأما السلطان فإنه وصل إلى بلغراد بعد مشقة عظيمة بسبب المرض الذى به وكثرة الأمطار وسار منها إلى سملين فتسلمها وفتح جملة قلاع وبلدان وأما قلعة سكدار فهى قلعة فى غاية الحصانة واسعة شاسعة مكينة راسخة البناء فى حضيض الماء شامخة الارتفاع فى الهواء إلى عنان السماء مشحونة بآلات الحرب والمدافع مملوءة بجيوش النصارى وأبطالهم فكانت فى المتانة إلى حد الغاية وقد أحاطت بها المياه والأوحال من كل جانب فلم يزدد أمر القلعة إلا استعصاباً واشتد مرض السلطان وهو محاصر لها حتى أحس بالموت فدعا الله أن يجعل بالفتح ونصر المؤمنين وقال قد تحقق عندى الفتح يتيسر إن شاء الله ويكتب فى التواريخ أن سليمان افتتح هذه القلعة العظيمة وهو ميت فاستجاب الله دعاءه وحقق أمله وهو أوصى بالسلطنة لولده السلطان سليم الثانى ثم انتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وأخفى الوزير الأعظم محمد باشا وفاته شفقة بجيوش المسلمين أن يصيبهم فشل ودعا رئيس الأطباء فشق بطنه وملأه بالأجزاء الحارة ودفن أمعاءه هناك ثم لم يزالوا يجدون فى أمر الفتح حتى فتحوها بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام وقتلوا اصاحبها وقتلوا ثلاثة آلاف ممن معه وكان من جملة أسباب فتحها أن النار اشتعلت فى خزينة بارود الكفار وهى مخزونة فى القلعة المذكورة ، فأخذت جنبا كبيراً من القلعة رفعته إلى عنان السماء . زلزلت الأرض زلزلة هائلة وتطايرت جلاميد الصخار إلى الهواء ورمت شرراً ولهبا ودخانا إلى أن امتلأ الفضاء وقتلت كثيراً من الكفار الذين كانوا بالقلعة فضعفت قلوب من بقى منهم فتزاحم المسلمون على دخولها والهجوم على من فيها فاقتلعوها من أيدى الكفار ووضعوا السيف فى جميع الكفار وقتلوهم عن آخرهم وساقوهم إلى جهنم وبئس القرار وما ذكرنا من أن الفتح إنما كان بعد وفاة السلطان بثلاثة أيام هو ما فى بعض التواريخ وفى تاريخ القطبى أن الفتح كان قبل وفاة السلطان وأنه لما جاءه خبر الفتح وهو فى غاية المرض فرح وحمد الله تعالى على هذه النعمة

واستسلم لربه وقال طاب الموت الآن ، ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى وكان فتحها يوم السبت سابع شهر صفر الخير سنة ٩٧٤ ولم يزل العسكر هناك فى ترميم القلعة وإصلاحها حتى بعث محمد باشا إلى السلطان سليم يدعوه إلى سكدوار ، وكان يومئذ على إمارة كوتاهية فلما جاء الخبر دخل القسطنطينية على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك فى التاسع من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وتمت له البيعة واطمأن الناس ، ثم خرج فى اليوم الثالث وتوجه إلى اسكدوار فاحتق العسكر ولم يختل عليهم شىء فحملوا السلطان سليمان رحمه الله تعالى فى العجلة ونقلوه إلى القسطنطينية ودفن بها وعمره أربع وسبعون سنة ومدة سلطنته ثمان وأربعون سنة ، وكان قدوم ولده السلطان سليم إلى القسطنطينية من سكدوار فى شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، وكان الحرب لم يزل قائماً بين العساكر العثمانية وملك النمسا ، ومن العجائب التدبير الذى حصل من الوزير الأعظم محمد باشا عند وفاة مولانا السلطان سليمان فإنه بعد وفاته كتم وفاته وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والإنعامات وأعطى الأمراء الترقيات ، وأمر بإرسال البشائر إلى سائر الأطراف والجهات بحصول النصر والظفر وأرسل سراً يستدعى ولى العهد السلطان سليمان الثانى ويستعجله فى سرعة الوصول وكتم ذلك عن جميع العسكر والأمراء والوزراء والأنام وأحسن التدبير فى هذا الكتم ، واستمرت أمور المملكة فى غاية الانتظام وهو فى ديار الكفار وذلك من كمال العقل التام والرأى الصائب إلى أن وصل حضرة السلطان سليم والحرب قائم وقع الصلح على المدنة ثمان سنين ودفع ملك النمسا لخزينة السلطان ثلاثمائة ألف ريال ورجع مولانا السلطان سليم إلى مقر تخت سلطنته وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع إلى أوطانها ورثت الشعراء مولانا سليمان بقصائد كثيرة .

ذكر خبر عجيب

يدل على قوة ديانة مولانا السلطان سليمان وشدة ورعه وخوفه من الله تعالى أنه قبل وفاته أحضر بقشة وأوصى أن تجعل معه فى القبر فلما أخبر بذلك شيخ الإسلام المولى أبو السعود العمادى رحمه الله قال لا بد من الإطلاع على ما فى هذه البقشة قبل أن نجعلها معه فى القبر ،

فلما فتحوها وجدوا فيها الأسئلة التى كان مولانا السلطان يسأل عنها شيخ الإسلام المذكور وعلى كل سؤال الجواب منه فبكى شيخ الإسلام المذكور وقال إن مولانا السلطان أراد ليبرىء ذمته عند السؤال عن هذه الأحكام وجعل السؤال متوجهاً إلى من كتب ما فيها فأسأل الله النجاة والخلاص .

الغزوة الحادية والعشرون من غزوات مولانا السلطان سليمان

التى لم يحضرها بنفسه

هذه الغزوة وكانت فى الحجاز وهى مما ينبغى أن تلحق بغزوات مولانا السلطان سليمان وإن كان المباشر لها مولانا الشريف أبانمى ، وحاصلها أن طائفة البرتوقال من طوائف الفرنج قد تقدم أنهم كانوا يقطعون البحر ويغيرون على كثير من ممالك الإسلام فمن ذلك أن نفوسهم الخبيثة سولت لهم الاستيلاء على الحرمين وجزيرة العرب ، وكان ذلك فى أواخر سنة ثمان وأربعين وتسعمائة فدخلت طائفة عظيمة من الفرنج المذكورين كثيراً من بنادر الإسلام وخربت وأفسدت فيها ثم قصدت بندر جدة المعمورة ونزلت بالمرسى المعروف بأبى الدوائر فى خمسة وثمانين برشة مشحونة بالرجال والسلاح والذخائر فقاتلهم مولانا الشريف أبو نمى أمير مكة بنفسه وترك الحج ونزل إلى جدة فى جيش عظيم بعد أن أمر بالنداء بالجهاد فى نواحى مكة وقال من صحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة ، فبلغ المبادرون للجهاد مبلغاً عظيما لا يحد ولا يعد ونفقة مولانا الشريف شاملة للجميع وعيون الكفار تدور عليهم كل حين فتشاهدهم يزيدون عدداً وعيشاً رغداً وخدم مولانا الشريف أبى نمى يتوجهون إلى أطراف البلاد ويحضرون بأنواع الطعام ويشترونه بأغلى الأثمان حتى فرغت الحبوب والأقوات وكادت تعدم فأقبلوا على نحر الإبل ، فكان مولانا الشريف يأمرهم بأن ينحر لكل مائة نفس بعير أو ناقة واستمر الأمر على ذلك مدة فقال له بعض الناس أن هذا الفعل يستأصل ما عندك من الإبل فأجابه بأنى نويت أن أنحر ما عندى من الإبل فإذا فنيت أمر بنحر الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله ، فلما قرب وقت الحج برز أمره الشريف لابنه الشريف أحمد أن يقابل بمكة ويلبس

الخلعة الواردة ويحج الناس على عادة أجداده الكرام ، فلما وصل أمراء الحج قابلهم وفعل مثل ما أمره والده ، وحج بالناس ، فلما قضوا الحج توجهوا إلى جدة لمقابلة مولانا الشريف أبى نمى وإلباسه الخلع الواردة فلاقاهم وهو شاكى السلاح لابساً درعه فى هيئة المقاتل ، ولما قدموا عليه أمر بإطلاق المدافع فأطلقت لمقابلتهم نحو ثلاثمائة مدفع فكان مشهداً عظيما فألبسوه الخلع الواردة وأضافهم وأكرمهم غاية الإكرام وانصرفوا راجعين ولما رأى الكفار صبره وحصاره لهم انقلبوا خاسئين ولما بلغ حضرة مولانا السلطان سليمان ذلك زاد فى إكرام مولانا الشريف أبى نمى وسمح له بنصف معلوم جدة وأوصل إليه غير ذلك من الأنعامات التى لا تحصى وهذه القصة فيها منقبة عظيمة لسيدنا الشريف أبى نمى تدخله فى عداد الغزاة المجاهدين فى سبيل الله ولم تكن لأحد غيره من أسلافه وأحفاده وأمراء مكة فرحم الله الجميع رحمة واسعة .

تنبيه

ذكر العلامة الفاسى فى الأعلام بأخبار بلد الله الحرام أن الحبشة جاءت إلى جدة فى خلافة الرشيد سنة ١٨٣ فأوقعوا بمن فيها فخرج الناس هاربين إلى مكة فخرج معهم أهل مكة مجاهدين وأميرهم حينئذ عبد الله بن محمد بن إبراهيم المخزومى ، فلما رأت الحبشة ذلك هربوا إلى المراكب فجهز وراءهم صاحب مكة غزاة فى البحر وقيل إن هذه القصة كانت سنة ١٧٣ وقد ورد فى فضل ثغر جدة أحاديث كثيرة منها ما ذكره شيخ الإسلام حافظ بن حجر العسقلانى فى كتابه المسمى لسان الميزان عن ابن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا كان على رأس السبعين والمائة فالرباط بجدة من أفضل الرباط وفى روايةعن ابن عمر أيضاً يأتى على الناس زمان يكون أفضل الرباط بجدة وروى أيضاً عن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة من أبواب الجنة فى الدنيا الإسكندرية وعسقلان وقزوين وعبادان وفضل جدة على هؤلاء كفضل بيت الله على سائر البيوت وفى شفاء الغرام للعلامة الفارسى عن عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول صلى الله عليه وسلم مكة رباط وجدة جهاد ، وكان

عطاء يقول إنما جدة خزانة مكة وكل ما يؤتى به إلى مكة لا يخرج إلا منها . وروى ابن جريج أن فضل مرابطي جدة عن المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان وعن فرقد السنجي أنه يكون في آخر الزمان بجدة شهداء ليس على وجه الأرض مثلهم شهداء . وقال الإمام حجة الإسلام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين أن بعض الأولياء كوشف فرأى أن جميع الثغور تسجد لعبادان وعبادان تسجد لجدة اه .قال صاحب السلاح والعدة ينبغي لمن دخل هذا الثغر المبارك أن ينوى الرباط والجهاد والذب عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيئا لدفع أهل الكفر والعداه بالنية يحصل له ثواب ما ينويه من الجهاد إذ العبادات متوقفه على النية لقوله إنما الأعمال بالنيات .

ذكر فتوحات معنوية لمولانا السلطان سليمان

اعلم أن الخيرات والمبرات والمساجد والعمارات والمدارس والخانقات واجراء العيون وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات الجارية للمسلمين في كل الجهات كل ذلك معدود من الفتوحات وفتوحات مولانا السلطان سليمان في ذلك كله كثيرة وأعظمها ما كان بالحرمين الشريفين فمن ذلك أنه جدد عمارة مولد النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٩٣٥ وفي سنة ٩٥٦ أرسل منبراً من الرخام لمكة وهو الموجود الآن وهو من تحف الدنيا ومكتوب عليه إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعث مثله للمدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام ، وفي سنة ٩٦٠ جدد ميزاب الكعبة وجدد للمسجد الحرام منارتين واحدة عند باب علي والأخرى بين باب الدريبة وباب الزيادة وكل من المنارتين تسمى بالسليمانية وهما أحسن منائر المسجد الحرام وبنى أربع مدارس للمذاهب الأربعة بين باب الدريبة وباب الزيادة وعمر تعميراً كثيراً في الكعبة المعظمة وجدد سقفها وأمر بتصفيح باب الكعبة بالذهب وبإصلاح رخام المطاف ، ثم في سنة أربع وستين أمر بتجديد باب الكعبة فجدد ، وفي سنة ٩٦٧ أمر بعمارة عين زبيدة فعمرت حتى دخلت مكة وعم الانتفاع بها وكان الناس قبل ذلك يقاسون غاية المشقة في تحصيل الماء وكان

تمام هذا التعمير فى مدة سلطنة ابنه مولانا السلطان سليم والكلام على هذه التعميرات كلها طويل مبسوط فى التواريخ وبالجملة فمفاخر الدولة العثمانية وفتوحاتها وخيراتها لا تعد ولا تحصى لا سيما ما كان من ذلك لمولانا السلطان سليمان فهو واسطة عقدهم الفريد أدام الله سلطنهم على الأنام ووفقهم لما يحبه ويرضاه على الدوام ، ومن فتوحات مولانا السلطان سليمان فى الحرمين الشريفين تضعيف الصدقات والصرر لأهل الحرمين وهى مادة الحياة لهم وبها معايشهم وقيام أودهم وسبب بقائهم ومددهم فهى وإن كانت قديمة متواصلة من زمن آبائه السلاطين العظام إلا أنه هو الذى ضاعفها وزادها وأنماها وأضاف عليها من خزينته الخاصة مبلغاً كبيراً وقد تقدم أن صدقة الحب أول من أرسلها والده السلطان سليم ، فاعتنى بها مولانا السلطان سليمان وزادها وأفرد لها قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل ريعها لأهل الحرمين وجعل من ريعها لأهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف أردب ولأهل المدينة المنورة ألفى أردب وكتب عند شرائه تلك القرى كتاب وقف حكم بصحة قضاة العسكر بالديوان الشريف العالى ، ومن فتوحاته وخيراته صدقات الجوالى وهى جمع جاليه ومعناها ما يؤخذ من أهل الذمة فى مقابلة استمرارهم فى بلاد الإسلام تحت الذمة وعدم جلاءهم عنها وهى من أجل الأموال إذا أخذت على وجهها المشروع ولأجل حلها جعلت للعلماء والصلحاء والمتقاعدين من الكبراء ، فلما كانت أيام مولانا السلطان سليمان نور الله مرقده وحفه بالرحمة والراضون بحث عنها وتحرى فيها ووجد سلاطين الجراكسة كانوا يخرجون القليل منها فاجتهد فى تحريرها وضبطها واستوعب صرف جميعها المذكورين وزاد على ذلك قدراً كثيراً وأخرجه من خزائنه الخاصة به واستوعب بالضبط حوالى مصر والشام وحلب وغير ذلك من الممالك الإسلامية واستوعب العلماء والصلحاء والفقراء الموجودين فى الممالك الإسلامية وجعل لكل واحد ما يليق به وجعل عمارات وتكيات تطبخ فيها الأطعمة للفقراء وناهيك بكثرة وهذه المصاريف فى وجوه الخيرات فالله تعالى يبقى هذه الدولة الشريفة القاهرة والسلطنة الزاهرة الفاخرة إلى أن تنقضى الدنيا وتقوم الآخرة ومن خيرات مولانا السلطان سليمان

وفتوحاته أنه وقف أوقافا كثيرة متفرقة فى ممالك الإسلام وجعل وظائف للمدرسين والطلبة فى جميع ممالك الإسلام ورتب لهم معلومات جليلة تصرف من ريع تلك الأوقاف والكلام على ذلك طويل مبسوط فى التواريخ . وجعل تلك المرتبات متفاوتة على حسب مراتب من جعلت لهم وعلى قدر ترقيهم فى العلوم ولو استوفينا ما فعله من الحسنات لاحتجنا إلى عدة مجلدات فالله تعالى يجعل سعيه مشكوراً وعمله مبروراً .

ذكر فتوحات مولانا السلطان سليم الثانى

ابن مولانا السلطان سليمان .

كان جلوسه على تخت السلطنة بعد وفاة والده سنة ٩٧٤ وكان دخوله القسطنطينية لتسع مضين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة يوم الاثنين ورجوعه من سكدوار موضع وفاة والده فى شهر جمادى الآخرة كما تقدم . وكان مولانا السلطان سليم المذكور شهما شجاعا ذكيا مائلا إلى التقوى ووجوه الخير مهاب الشكل جميل الصورة جليل القدر صحيح العقيدة حنفى المذهب كبقية أسلافه مكرما للعلماء والصالحين محباً لهم مواظباً على الصلوات الخمس فى الجماعات وكان إحسانه يصل إلى أهل الحرمين الشريفين قبل أن يتسلطن ، فلما جلس على كرسى السلطنة ضاعف لهم الخيرات والعطيات .

ذكر أول غزوة من غزواته

شاع فى أول مدة جلوس مولانا السلطان سليم الثانى على تخت السلطنة عصيان بنى عليان من سكان الجزيرة وخروجهم عن الطاعة فجهز عليهم عساكر كثيرة وجرت حروب وخطوب يطول ذكرها حتى استولوا على معظم قلاعهم وأخربوا أماكنهم وعادوا سالمين فى أواخر سنة خمس وسبعين وتسعمائة . وفى سنة ست وسبعين سارت جيوش للسلطان سليم إلى اليمن لإتمام الإصلاح ودفع المتغلبين صحبة عثمان باشا ثم أردف بسنان باشا وغيره فانتصروا وأزالوا المتغلبين والمتمردين من البرتوقال وملكوا صنعاء وغيرها

الغزوة الثانية إلى قبرس

وهى تتضمن غزوات لايزال أهل قبرس يتمردون ويخرجون عن الطاعة مرة بعد أخرى فتوجهت همة مولانا السلطان سليم المذكور إلى التجهيز على جزيرة قبرس ، فجهز عساكر كثيرة فى البحر ثلاثمائة وستين مركبا وجعل عليها الوزير مصطفى باشا سنة ثمان وسبعين وتسعمائة ، فلما وصلت العساكر إلى الجزيرة المذكورة استقرت الآراء على حصار قلعة لفقوسة أولا إذا هى مدينتهم الكبرى وقاعدة مملكتهم فحاصروها مدة شهر ثم افتتحوها ، وقتلوا كثيراً من عظماء أهل لفقوسة وبعثوا برؤسهم فى طباق من فضة إلى أهل قلعة كرينة فلما شاهدوها خافوا وذلوا فطلبوا الأمان وبعثوا بمفاتيح القلعة فتسلمها، ثم مهد الوزير المذكور قواعد مدينة لفقوسة وبنى ماخرب منها وتوجه إلى حصار قلعة ماغوسة وهى من أمنع الحصون وأصعب المعاقل وقد حصنوها بكثير من المدافع والمكاحل وشحنوها بالرجال وقد أحاط بها خندق واسع عميق بسور عرضه مائة ذراع وعشرة أذرع وعمقه تسعة وعشرون ذراعا وقد ركبت فى هذه القلعة من المدافع سبعمائة وأربعة وستون مدفعاً كبيراً ومن البنادق مالا يعلم عددها إلا الله تعالى فحاصرها العسكر حصاراً شديداً وقاتلوا أهلها بالآلات النارية والأحجار المنجنيقية وشقوا بطون الأرض شقا وفتقوا قصورها فتقا وبعث أهل قبرس إلى ملوك الفرنج يستنجدون بهم فلم ينجدوهم فلما أيسوا من الخلاص طلبوا الأمان فأمنهم الوزير المذكور وطلب كثير منهم المسير إلى بلادهم ، فمكنهم من ذلك ، وتسلم المسلمون ماغوسة ونصبوا فيها أعلام الإسلام ، وعمروا ماتخرب منها وغنم المسلمون غنائم كثيرة ثم سارت الجيوش الإسلامية إلى جزيرة كنالية فنهبوها وهدموا بنيانها ثم إلى جزيرة كورفس وهى مفتاح بلاد البنادقة فحاصروها بعض أيام وعاثوا فيها نهباً وتحريقاً ، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة جزائر هناك ، فلما طال مكثهم على وجه البحر ورأوا أن العدو ماقابلهم اغتروا فأذن الوزير برتو باشا بالتفرق فتفرق غالب العسكر ، وقد ملأوا المراكب بأسباب الغنائم وشحنوها فسابقته العساكر مرسين فى الميناء ، فوصل إليهم الخبر بأن الكفار استخبروا عن تفرقكم ، فهاهم سائرون

عليكم وواصلون إليكم فى جموع كثيرة من ملل شتى وقبائل متفرقة واتحد البابا وملك أسبانيا مع البندقية على حرب العثمانية فتشاور المسلمون بعضهم مع بعض ، فكان رأى الوزير الأعظم برتو باشا فى ذلك أن لايقابلهم ولا يقاتلهم ، وكان ذلك مقتضى طبعه لأنه كان جبانا إلى الغاية وكان مارآه هو الأنسب بمقتضى الحال وخالفه كاشف البحر على باشا فى ذلك وكان رجلا شجاعا بطلا مغواراً فقال لابد من لقاء الكفار فإن وهج العار أشد من وهج النار وقد أيدنا الله بالإسلام ، وزاد فينا قوة وبسطة فلو سارت أغربتنا وهى خالية من عسكر الإسلام لكفت قبائل الكفار وفينا من العسكر مايفى بالمقابلة ولم يزل يناظرهم حتى غلب على رأيهم فاتفق الجميع على لقاء العدو فالتقى الجمعان فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وتسعمائة وتقابل الفريقان فى طرف من بلاد المسلمين فهبت الرياح على المسلمين والجأتهم إلى البر فانهزموا بعد قتال شديد دام من طلوع الشمس إلى الغروب ، وقتل المرحوم على باشا المذكور وجماعة كثيرة لاتحصى وغنم الكفار مامعهم من الأموال والأسباب والأغربة والشوانى وما فيها وقل من سلم من هذه الوقعة وكانت عند الإفرنج أفراح عظيمة وجعلوا زمان تلك الغلبة عيداً يعيدونه كل سنة فسبحان الحكيم الصمد القادر الذى يفعل ما يشاء .

الغزوة الثالثة إلى قبرس أيضاً

لما كان ماتقدم اهتم السلطان فى إنشاء مراكب وسفائن أخرى مع مايناسبها من المدافع فجدوا حتى تم لهم ماراموا فى مدة سبعة أشهر وما كان ذلك إلا عناية من الله تعالى كأن لم يمسهم ضر ولا شر ، وفى سنة ثمانين وتسعمائة خرجت عمارة السلطان من فم الخليج القسطنطينى صحبة كاشف البحر قلج على باشا القبودان فى مائة وخمسين غراباً غير ما انضم إليهم من المراكب ، فسار يحمى البلاد عن هجوم العدو فلما كان ببعض أطراف البلاد صادف عمارة الإفرنج فوقع بين الفريقين بعض مقاتلة ومناوشة فأصاب عدة مدافع بعض سفن العدو فأغرقها ثم انجلى كل من الفريقين نحو بلاده لمصادفة الشتاء وفى هذه السنة

أرسلت مشايخ البندقية تطالب الصلح على شروط تعود إلى شرف الدولة فصدر الأمر بالقبول وتوقف الحرب .

الغزوة الرابعة إلى البغدان

فى تلك الأيام كان حاكم البغدان قد أظهر العصيان وامتنع عن دفع الخراج فأرسلت إليه الجيوش والعساكر وأخذوه أسيراً ولما حضر ضربوا عنقه .

الغزوة الخامسة إلى تونس

كانت هذه الغزوة فى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة خرجت عمارة عظيمة فى سفن وأغربة وغلايين وشوانى مشحونة بالرجال وآلات الحرب صحبة الوزير الشهير سنان باشا وصحبته كاشف البحر على باشا قاصدين فتح حلق الواد وتخليص مدينة تونس فساروا وحاصروا حلق لواد وهو من أمنع الحصون فافتتحوها بعد قتال قتل فيه من الطرفين ناس كثير فقتلوا من بها من الكفار واستولوا عليها وأسروا صاحبها الإفرنجى وأسروا صاحبها الأصلى محمد الحفصى وكان قد تحصن فيها خوفاً من العثمانية واستعان بالإفرنج الأسبانيين ، فلم يغنوا عنه شيئاً فأسرته عساكر السلطنة السنية وجاؤا به إلى القسطنطينية وصارت تونس من الممالك العثمانية وهذه الغزوة كانت عظيمة الشأن اختصرها بعض المؤرخين وبسط الكلام عليها العلامة القطبى ، فقال إن سلاطين تونس كانوا آل حفص وقد تقدم أنهم من فروع دولة ابن تومرت المهدى وأن سلطنتهم كانت بتولية بنى عبد المؤمن لهم من سنة ستمائة وثلاثة واستمر إلى ظهور الدولة العثمانية ، قال القطبى لما ضعف الحفصيون ووهنوا وقع بينهم الاختلاف ، وصار بعضهم يستعين على بعض بنصارى الإفرنج فيأتون بجنود من الكفرة ويقاتلون أهل تونس ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع فى تلك البلاد ويواصلون جنود النصارى إلى بلاد المسلمين ويولى النصارى سلطاناً من الحفصيين يكون تحت حكمهم إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعم أذاهم المسلمين وبنوا قلعة عظيمة محكمة الاتقان مشيدة البنيان بقرب تونس فى موضع يقال له

حلق الواد كأنه بناء شداد وشحنوها بالأبطال وملؤها بآلات الحرب والقتال وصارت الفرنج تمكن للمسلمين ويرسلون منها الأغربة والمراكب فى البحر على بلدان المؤمنين ويقطعون ويرسلون منها المسافرين ويأخذون كل سفينة غصباً وكبير ملوكهم صاحب أشبيلية جزيرة الأندلس بعد أن أخذوها من المسلمين أعادها الله دار إسلام ببركة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام وقد كان خير الدين باشا لما تملك الجزائر استغاث به الرشيد أحد ملوك تونس فأجابه وسار معه بجنود إلى أن تملك تونس فى قصة طويلة ففزع الحسن بن محمد الحفصى إلى أسبانيا فبعثوا معه جنوداً وأخرجوا خير الدين باشا وعساكره وقصة ذلك طويلة فلما كانت سلطنة مولانا السلطان سليم الثانى ابن السلطان سليمان جهز الجيوش الكثيرة وبعثها مع سنان باشا فى مائتى سفينة بالمدافع والآلات الكثيرة والذخائر الوفيرة سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فأحاطوا بتونس وحاصروها وضيقوا عليها ورموا عليها المدافع الكثيرة وقاتلوها قتالا شديداً وطموا خندقها بالتراب بعد تعب شديد ، وكان عمق الخندق ستين ذراعاً وقعره متصل بالبحر ثم حمل الوزير ومن معه من الأبطال حملة واحدة تزلزلت منها الجبال ودخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال وقتلوا من فيها وكان هذا الفتح العظيم لست عشرة مضين من شهر جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ومن أعجب الاتفاق أن هذه القلعة بنتها النصارى فى سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وأحكموا بنيانها واستكملوه فى ثلاث وأربعين سنة وافتتحها الوزير المذكور فى ثلاث وأربعين يوماً من أيام محاصرتها فكانت الأيام بعدد السنين التى أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة ولما تم هذا الفتح رأى الوزير المذكور أن ترميمها وعمارتها وحفظها بالعساكر والآلات الحربية يحتاج إلى مؤنة كثيرة وخزائن من الأموال فأمر بهدمها وتخريبها حتى لا تصير ملجأ للنصارى المخذولين ولما فرغ الوزير من أمر حلق الواد توجه إلى تونس وبها قلعة أخرى حاصرها العساكر أيضا إلى أن فتحوها وأسروا صاحبها الإفرنجى وصاحبها الحفصى وبعثوا بهما إلى دار السلطنة وصارت تونس من الممالك العثمانية وانقضت دولة الحفصيين بعد أن انقضى لهم فيها ثلاثمائة وثمان وسبعون سنة ، هذا حاصل هذا الفتح بغاية الاختصار .

ومن فتوحات مولانا السلطان سليم الثانى المعنوية إضعافه المبرات والخيرات لأهل الحرمين الشريفين وعمارته المسجد الحرام فإنه كان مسقفاً بالخشب وتوالى عليه الحريق والتعمير وصارفى غاية من الخراب والوهن فبرز أمره السلطان بتعميره وأن يتركوا تسقيفه بالخشب بل يجعلوه قبباً وطواجن كما هومشاهد الآن ، وبرز الأمر بالتعمير سنة ٩٧٩ وكان الشروع فيه فى منتصف المحرم سنة ٩٨٠ وتوفى مولانا السلطان سليم المذكور قبل كمال التعمير فأتمه ولده السلطان مولانا مراد فكان التمام سنة ٩٨٤ فجاء نزهة للناظرين والكلام على ذلك طويل مبسوط فى التواريخ وتوفى مولانا السلطان سليم سنة ٩٨٢ وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر ، وكان سبب وفاته أنه أنشأ حماما بدار السعادة وأحكمه غاية الإحكام بحيث أنه لم يبصر أحد مثله ، فلما تم الحمام دخله السلطان المذكور فبينما هو يمشى فيه إذ زلق قدمه فسقط سقطة عظيمة اسود منها جنبه الذى سقط عليه فمرض منها أياماً ثم توفى رحمه الله وأقيم فى السلطنة بعد ابنه (السلطان مراد الثالث) وكان وقت وفاة أبيه غائباً فى مغنيسيا فأخفوا موت أبيه أحد عشر يوماً إلى أن حضر السلطان مراد وجلس على تخت السلطنة فأظهروا موت أبيه ، وكان مولانا السلطان مراد المذكور ملكا جليلا تربى فى حجر السعادة ، واشتغل بالعلوم حتى حصلها وفاق كثيراً من أسلافه واشتغل بعلم التصوف ولم ينقل عنه أنه صدر منه شىء من الكبائر وكان مكرماً للعلماء والصالحين والفقراء محباً لهم كثير الإحسان إليهم وكان واقفاً عند مراد ربه لايتعداه عاملا فى أمره بتقوى الله مراعياً للعدل والإحسان فيم استرماه لم يزل قائماً بنصرة الدين وحماية بيضة الإسلام وتقوية جناح المسلمين ولو لم يكن من مناقبه إلا تكميل بناء المسجد الحرام لكان ذلك دليلا على كرامة الله له بين الأنام وكان له نظم فائق باللسان العربى والتركى والفارسى .

ذكر أول غزوة من غزواته إلى بلاد العجم

كان أهم شىء عنده بعد جلوسه فى السلطنة قتال سلطان العجم لكثرة مايقع منه من الغدر ونقض العهود وهلك سلطان العجم طهماسب شاه سنة أربع وثمانين وتسعمائة وقام

بعده ولده خدا بنده فعين السلطان مراد الوزير مصطفى باشا فاتح بلاد قبرس فتوجه فى سنة ست وثمانين وتسعمائة بعسكر كثير إلى بلاد الشرق فبنى قلعة فارس وشحنها بالمدافع والمكاحل ، ثم سار إلى تخوم بلاد العجم والكرج وحاصر قلعة الكرج إلى أن استولى عليها ثم التقى مع عسكر العجم وقاتلهم قتالا شديداً فهزمهم وحصدهم بالسيوف واستولى على أموالهم وخيولهم واستولى على عدة قلاع وشحنها بالرجال ثم سار وحاصر قلعة تفليس إلى أن افتتحها وكان للسلمون افتتحوها قديما وغلب عليها الكرج ، ولما فتحت مدينة تفليس أرسلت أم منوجهر الكرجى ملكة تلك البلاد ابنها الوزير بالطاعة ومعه مفاتيح ثمان قلاع فرحب بالوزير وآنسه وعين له امرأة تلك البلاد بعد أن أسلم بين يدى الوزير، ثم سار إلى طرف شروان بعد أن نصب أميراً على تفليس وبث سراياه إلى الأطراف وتمكن منها وترك فيها عثمان باشا بن ازدامر واليآ بها فلما أقبل الشتاء توجه الوزير مصطفى باشا إلى طرف بلاد السلطان وشتى هناك للاغارة فى الربيع على بلاد العجم ثم بلغه أن صاحب شروان القديم قصد بنحو اثنى عشر ألفا لقتال عثمان باشا فوقع بينهما قتال شديد وانتصر عثمان باشا وقتل صاحب شروان وأكثر عسكره ، ثم وقع بينه وبين عسكر الشاه هناك ماينوف عن عشرين وقعة وكان النصر فيها دائما لعثمان باشا ثم جاءه عسكر من العجم نحو ثلاثين ألفا وقصدوه فى شروان فقاتلهم أربعة أيام ثم انتصر عليهم وقتل أكثرهم ثم ترك فى شروان جعفر باشا وتوجه إلى القسطنطينية بطلب ليكون صدر أعظم وقاتل فى مسيره عدة أمم اعترضوه بالحرب وغلب عليهم ، ولما وصل إلى بلاد كفة بلغه أن خاقان التتار أظهر العصيان على سلاطين آل عثمان فقاتله وانتصر عليه وقطع رأسه .

الغزوة الثانية إلى بلاد العجم أيضا

وفى سنة ثمانى وثمانين وتسعمائة بعث مولانا السلطان مراد وزيره سنان باشا إلى قتال العجم فسار مع عسكر جرار ووصل إلى حدود العجم فأرسل إليه الشاه فى الصلح وبعث

للسلطان أحد وزرائه يدعى إبراهيم خان بتحف سنية وهدايا جليلة وظن سنان باشا أن هذه الحالة مما تعجب السلطان فلم يكن الأمر كذلك بل عزله السلطان وأقام مقامه فرهاد باشا ، وفى سنة إحدى وتسعين وتسعمائة توجه الوزير فرهاد باشا بالعساكر إلى بلاد العجم فسار وتوغل فى بلاد أذربيجان واستولى على مدينة واكا وبنى بها حصنا حصينا نصب فيه يوسف باشا واليا ، وفى سنة اثنتين وتسعين سار فرهاد باشا بعساكر وافرة إلى بلاد الكرج فبنى هناك عدة قلاع وفى هذه السنة أيضا سار الوزير الأعظم عثمان باشا بعساكر كثيرة إلى قتال العجم فشتى ببلاد قسطمونى وسار إلى بلاد العجم فى سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ومعه من العساكر مالا يعلم عدده إلا الله فعارضه الأعجام فى الطريق فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم دخل تبريز فى أواخر رمضان من السنة المذكورة واستقبله أهل تبريز بمصاحفهم ووجوه الناس فقابلهم الوزير باللطف ، ثم شرع فى بناء قلعة حصينة ثم بناء سور المدينة فأتم الجميع فى مدة خمسة وثلاثين يوما ، ثم ظهر من بعض أهل تبريز بعض الغدر فى أمر العساكر فهجم عليهم العساكر وقتلوهم ونهبوا أموالهم ولم ينج منهم إلا النساء والأطفال ثم مرض الوزير وخرج متوجها إلى بلاد الروم بعد أن أبقى فى مدينة تبريز نحو ثلاثين ألفا صحبة جعفر باشا فلما كان اليوم الرابع من مسيرهم اعترض للوزير حمزة ميراز بن شاه محمد خدابنده سلطان العجم مع العسكر كثير فتهيأ الوزير وهو مريض لقتالهم وركب بغلته الشهباء وهو آخر ركوبه على الدابة فاستمر الحرب من غلس الصبح إلى الظهر فلما رأى الوزير امتداد الأمر أمر برمى المدافع الكبار وكانت ثمانمائة مدفع فأصابت خلقاً كثيراً من عساكر الأعجام وانجلى الأمر عن هزيمتهم ثم نزل الوزير فى ذلك المحل وفتح أبواب الوطاق لأجل إعطاء الترقى والعطية للعساكر ، فلما صار نصف الليل غلق أبواب الوطاق، وانتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وأقام مقامه سنان باشا بمدينة ران فلما رحلوا اعترضهم العدو يمينا وشمالا ووقع بينهما مناوشات فلما وصلوا إلى حدود المملكة العثمانية أمام قلعة سلماس هجم حمزة ميرزا المذكور فى نحو ثلاثين ألفا فوقع بين العسكرين قتال كثير وانجلى الحرب عن هزيمة الأعجام بعد أن حصد غالبهم بالسيف .

عطاء يقول إنما جدة خزانة مكة وكل ما يؤتى به إلى مكة لا يخرج إلا منها . وروى ابن جريج أن فضل مرابطى جدة عن المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان وعن فرقد السنجى أنه يكون فى آخر الزمان بجدة شهداء ليس على وجه الأرض مثلهم شهداء . وقال الإمام حجة الإسلام الغزالى فى كتابه إحياء علوم الدين أن بعض الأولياء كوشف فرأى أن جميع الثغور تسجد لعبادان وعبادان تسجد لجدة اه .قال صاحب السلاح والعدة ينبغى لمن دخل هذا الثغر المبارك أن ينوى الرباط والجهاد والذب عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيئا لدفع أهل الكفر والعداوة بالنية يحصل له ثواب ما ينويه من الجهاد إذ العبادات متوقفة على النية لقوله إنما الأعمال بالنيات .

ذكر فتوحات معنوية لمولانا السلطان سليمان

اعلم أن الخيرات والمبرات والمساجد والعمارات والمدارس والخانقات واجراء العيون وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات الجارية للمسلمين فى كل الجهات كل ذلك معدود من الفتوحات وفتوحات مولانا السلطان سليمان فى ذلك كله كثيرة وأعظمها ما كان بالحرمين الشريفين فمن ذلك أنه جدد عمارة مولد النبى صلى الله عليه وسلم سنة ٩٣٥ وفى سنة ٩٥٦ أرسل منبراً من الرخام لمكة وهو الموجود الآن وهو من تحف الدنيا ومكتوب عليه إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعث مثله للمدينة المنورة على مشرفها أفضل الصلاة والسلام ، وفى سنة ٩٦٠ جدد ميزاب الكعبة وجدد للمسجد الحرام منارتين واحدة عند باب على والأخرى بين باب الدريبة وباب الزيادة وكل من المنارتين تسمى بالسليمانية وهما أحسن منائر المسجد الحرام وبنى أربع مدارس للمذاهب الأربعة بين باب الدريبة وباب الزيادة وعمر تعميراً كثيراً فى الكعبة المعظمة وجدد سقفها وأمر بتصفيح باب الكعبة بالذهب وبإصلاح رخام المطاف ، ثم فى سنة أربع وستين أمر بتجديد باب الكعبة فجدد ، وفى سنة ٩٦٧ أمر بعمارة عين زبيدة فعمرت حتى دخلت مكة وعم الانتفاع بها وكان الناس قبل ذلك يقاسون غاية المشقة فى تحصيل الماء وكان

تمام هذا التعمير فى مدة سلطنة ابنه مولانا السلطان سليم والكلام على هذه التعميرات كلها طويل مبسوط فى التواريخ وبالجملة فمفاخر الدولة العثمانية وفتوحاتها وخيراتها لا تعد ولا تحصى لا سيما ما كان من ذلك لمولانا السلطان سليمان فهو واسطة عقدهم الفريد أدام الله سلطنهم على الأنام ووفقهم لما يحبه ويرضاه على الدوام ، ومن فتوحات مولانا السلطان سليمان فى الحرمين الشريفين تضعيف الصدقات والصرر لأهل الحرمين وهى مادة الحياة لهم وبها معايشهم وقيام أودهم وسبب بقائهم ومددهم فهى وإن كانت قديمة متواصلة من زمن آبائه السلاطين العظام إلا أنه هو الذى ضاعفها وزادها وأنماها وأضاف عليها من خزينته الخاصة مبلغاً كبيراً وقد تقدم أن صدقة الحب أول من أرسلها والده السلطان سليم ، فاعتنى بها مولانا السلطان سليمان وزادها وأفرد لها قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل ريعها لأهل الحرمين وجعل من ريعها لأهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف أردب ولأهل المدينة المنورة ألفى أردب وكتب عند شرائه تلك القرى كتاب وقف حكم بصحة قضاة العسكر بالديوان الشريف العالى ، ومن فتوحاته وخيراته صدقات الجوالى وهى جمع جاليه ومعناها ما يؤخذ من أهل الذمة فى مقابلة استمرارهم فى بلاد الإسلام تحت الذمة وعدم جلاءهم عنها وهى من أجل الأموال إذا أخذت على وجهها المشروع ولأجل حلها جعلت للعلماء والصلحاء والمتقاعدين من الكبراء ، فلما كانت أيام مولانا السلطان سليمان نور الله مرقده وحفه بالرحمة والرضوان بحث عنها وتحرى فيها ووجد سلاطين الجراكسة كانوا يخرجون القليل منها فاجتهد فى تحريرها وضبطها واستوعب صرف جميعها المذكورين وزاد على ذلك قدراً كثيراً وأخرجه من خزائنه الخاصة به واستوعب بالضبط حوالى مصر والشام وحلب وغير ذلك من الممالك الإسلامية واستوعب العلماء والصلحاء والفقراء الموجودين فى الممالك الإسلامية وجعل لكل واحد ما يليق به وجعل عمارات وتكيات تطبخ فيها الأطعمة للفقراء وناهيك بكثرة وهذه المصاريف فى وجوه الخيرات فالله تعالى يبقى هذه الدولة الشريفة القاهرة والسلطنة الزاهرة الفاخرة إلى أن تنقضى الدنيا وتقوم الآخرة ؛ ومن خيرات مولانا السلطان سليمان

وفتوحاته أنه وقف أوقافا كثيرة متفرقة فى ممالك الإسلام وجعل وظائف للمدرسين والطلبة فى جميع ممالك الإسلام ورتب لهم معلومات جليلة تصرف من ريع تلك الأوقاف والكلام على ذلك طويل مبسوط فى التواريخ . وجعل تلك المرتبات متفاوتة على حسب مراتب من جعلت لهم وعلى قدر ترقيهم فى العلوم ولو استوفينا ما فعله من الحسنات لاحتجنا إلى عدة مجلدات فالله تعالى يجعل سعيه مشكوراً وعمله مبروراً .

ذكر فتوحات مولانا السلطان سليم الثانى

ابن مولانا السلطان سليمان

كان جلوسه على تخت السلطنة بعد وفاة والده سنة ٩٧٤ وكان دخوله القسطنطينية لتسع مضين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة يوم الاثنين ورجوعه من سكدوار موضع وفاة والده فى شهر جمادى الآخرة كما تقدم . وكان مولانا السلطان سليم المذكور شهما شجاعا ذكيا مائلا إلى التقوى ووجوه الخير مهاب الشكل جميل الصورة جليل القدر صحيح العقيدة حنفى المذهب كبقية أسلافه مكرما للعلماء والصالحين محباً لهم مواظباً على الصلوات الخمس فى الجماعات وكان إحسانه يصل إلى أهل الحرمين الشريفين قبل أن يتسلطن ، فلما جلس على كرسى السلطنة ضاعف لهم الخيرات والعطيات .

ذكر أول غزوة من غزواته

شاع فى أول مدة جلوس مولانا السلطان سليم الثانى على تخت السلطنة عصيان بنى عليان من سكان الجزيرة وخروجهم عن الطاعة فجهز عليهم عساكر كثيرة وجرت حروب وخطوب يطول ذكرها حتى استولوا على معظم قلاعهم وأخربوا أماكنهم وعادوا سالمين فى أواخر سنة خمس وسبعين وتسعمائة . وفى سنة ست وسبعين سارت جيوش للسلطان سليم إلى اليمن لإتمام الإصلاح ودفع المتغلبين صحبة عثمان باشا ثم أردف بستان باشا وغيره فانتصروا وأزالوا المتغلبين والمتمردين من البرتوقال وملكوا صنعاء وغيرها

الغزوة الثانية إلى قبرس

وهي تتضمن غزوات لايزال أهل قبرس يتمردون ويخرجون عن الطاعة مرة بعد أخرى فتوجهت همة مولانا السلطان سليم المذكور إلى التجهيز على جزيرة قبرس ، فجهز عساكر كثيرة في البحر ثلاثمائة وستين مركبا وجعل عليها الوزير مصطفى باشا سنة ثمان وسبعين وتسعمائة ، فلما وصلت العساكر إلى الجزيرة المذكورة استقرت الآراء على حصار قلعة لفقوسة أولا إذا هي مدينتهم الكبرى وقاعدة مملكتهم فحاصروها مدة شهر ثم افتتحوها ، وقتلوا كثيراً من عظماء أهل لفقوسة وبعثوا برؤسهم في طباق من فضة إلى أهل قلعة كرينة فلما شاهدوها خافوا وذلوا فطلبوا الأمان وبعثوا بمفاتيح القلعة فتسلمها، ثم مهد الوزير المذكور قواعد مدينة لفقوسة وبنى ماخرب منها وتوجه إلى حصار قلعة ماغوسة وهي من أمنع الحصون وأصعب المعاقل وقد حصنوها بكثير من المدافع والمكاحل وشحنوها بالرجال وقد أحاط بها خندق واسع عميق بسور عرضه مائة ذراع وعشرة أذرع وعمقه تسعة وعشرون ذراعا وقد ركبت في هذه القلعة من المدافع سبعمائة وأربعة وستون مدفعاً كبيراً ومن البنادق مالا يعلم عددها إلا الله تعالى فحاصرها العسكر حصاراً شديداً وقاتلوا أهلها بالآلات النارية والأحجار المنجنيقية وشقوا بطون الأرض شقاً وفتقوا قصورها فتقا وبعث أهل قبرس إلى ملوك الفرنج يستنجدون بهم فلم ينجدوهم فلما أيسوا من الخلاص طلبوا الأمان فأمنهم الوزير المذكور وطلب كثير منهم المسير إلى بلادهم ، فمكنهم من ذلك ، وتسلم المسلمون ماغوسة ونصبوا فيها أعلام الإسلام ، وعمروا ماتخرب منها وغنم المسلمون غنائم كثيرة ثم سارت الجيوش الإسلامية إلى جزيرة كفالية فنهبوها وهدموا بنيانها ثم إلى جزيرة كورفس وهي مفتاح بلاد البنادقة فحاصروها بعض أيام وعاثوا فيها نهباً وتحريقاً ، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة جزائر هناك ، فلما طال مكثهم على وجه البحر ورأوا أن العدو ماقابلهم اغتروا فأذن الوزير برتو باشا بالتفرق فتفرق غالب العسكر ، وقد ملأوا المراكب بأسباب الغنائم وشحنوها فسابقته العساكر مرسين في الميناء ، فوصل إليهم الخبر بأن الكفار استخبروا عن تفرقكم ، فهاهم سائرون

عليكم وواصلون إليكم فى جموع كثيرة من ملل شتى وقبائل متفرقة واتحد البابا وملك أسبانيا مع البندقية على حرب العثمانية فتشاور المسلمون بعضهم مع بعض ، فكان رأى الوزير الأعظم برتو باشا فى ذلك أن لا يقابلهم ولا يقاتلهم ، وكان ذلك مقتضى طبعه لأنه كان جبانا إلى الغاية وكان ماراه هو الأنسب بمقتضى الحال وخالفه كاشف البحر على باشا فى ذلك وكان رجلا شجاعا بطلا مغوارا فقال لا بد من لقاء الكفار فإن وهج النار أشد من وهج النار وقد أيدنا الله بالإسلام ، وزاد فينا قوة وبسطة فلو سارت أغربتنا وهى خالية من عسكر الإسلام لكفت قبائل الكفار وفينا من العسكر ما يفى بالمقابلة ولم يزل يناظرهم حتى غلب على رأيهم فاتفق الجميع على لقاء العدو فالتقى الجمعان فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وتسعمائة وتقابل الفريقان فى طرف من بلاد المسلمين فهبت الرياح على المسلمين والجأتهم إلى البر فانهزموا بعد قتال شديد دام من طلوع الشمس إلى الغروب ، وقتل المرحوم على باشا المذكور وجماعة كثيرة لا تحصى وغنم الكفار ما معهم من الأموال والأسباب والأغربة والشوانى وما فيها وقل من سلم من هذه الوقعة وكانت عند الإفرنج أفراح عظيمة وجعلوا زمان تلك الغلبة عيداً يعيدونه كل سنة فسبحان الحكيم الصمد القادر الذى يفعل ما يشاء .

الغزوة الثالثة إلى قبرس أيضاً

لما كان ماتقدم اهتم السلطان فى إنشاء مراكب وسفائن أخرى مع ما يناسبها من المدافع فجدوا حتى تم لهم ما راموا فى مدة سبعة أشهر وما كان ذلك إلا عناية من الله تعالى كأن لم يمسهم ضر ولا شر ، وفى سنة ثمانين وتسعمائة خرجت عمارة السلطان من فم الخليج القسطنطينى صحبة كاشف البحر قلج على باشا القبودان فى مائة وخمسين غرابا غير ما انضم إليهم من المراكب ، فسار يحمى البلاد عن هجوم العدو فلما كان ببعض أطراف البلاد صادف عمارة الإفرنج فوقع بين الفريقين بعض مقاتلة ومناوشة فأصاب عدة مدافع بعض سفن العدو فأغرقها ثم انجلى كل من الفريقين نحو بلاده لمصادفة الشتاء وفى هذه السنة

أرسلت مشايخ البندقية تطلب الصلح على شروط تعود إلى شرف الدولة فصدر الأمر بالقبول وتوقف الحرب .

الغزوة الرابعة إلى البغدان

فى تلك الأيام كان حاكم البغدان قد أظهر العصيان وامتنع عن دفع الخراج فأرسلت إليه الجيوش والعساكر وأخذوه أسيراً ولما حضر ضربوا عنقه .

الغزوة الخامسة إلى تونس

كانت هذه الغزوة فى سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة خرجت عمارة عظيمة فى سفن وأغربة وغلايين وشوانى مشحونة بالرجال وآلات الحرب صحبة الوزير الشهير سنان باشا وصحبته كاشف البحر على باشا قاصدين فتح حلق الواد وتخليص مدينة تونس فساروا وحاصروا حلق لواد وهو من أمنع الحصون فافتتحوها بعد قتال قتل فيه من الطرفين ناس كثير فقتلوا من بها من الكفار واستولوا عليها وأسروا صاحبها الإفرنجى وأسروا صاحبها الأصلى محمد الحفصى وكان قد تحصن فيها خوفاً من العثمانية واستعان بالإفرنج الأسبانيين ، فلم يغنوا عنه شيئاً فأسرته عساكر السلطنة السنية وجاؤا به إلى القسطنطينية وصارت تونس من الممالك العثمانية وهذه الغزوة كانت عظيمة الشأن اختصرها بعض المؤرخين وبسط الكلام عليها العلامة القطبى ، فقال إن سلاطين تونس كانوا آل حفص وقد تقدم أنهم من فروع دولة ابن تومرت المهدى وأن سلطنتهم كانت بتولية بنى عبد المؤمن لهم من سنة ستمائة وثلاثة واستمر إلى ظهور الدولة العثمانية ، قال القطبى لما ضعف الحفصيون ووهنوا وقع بينهم الاختلاف ، وصار بعضهم يستعين على بعض بنصارى الإفرنج فيأتون بجنود من الكفرة ويقاتلون أهل تونس ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع فى تلك البلاد ويواصلون جنود النصارى إلى بلاد المسلمين ويولى النصارى سلطاناً من الحفصيين يكون تحت حكمهم إلى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعم أذاهم للمسلمين وبنوا قلعة عظيمة محكمة الاتقان مشيدة البنيان بقرب تونس فى موضع يقال له

حلق الواد كأنه بناء شداد وشحنوها بالأبطال وملؤها بآلات الحرب والقتال وصارت الفرنج تمكن للمسلمين ويرسلون منها الأغربة والمراكب فى البحر على بلدان المؤمنين ويقطعون ويرسلون منها المسافرين ويأخذون كل سفينة غصباً وكبير ملوكهم صاحب أشبيلية جزيرة الأندلس بعد أن أخذوها من المسلمين أعادها الله دار إسلام ببركة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام وقد كان خير الدين باشا لما تملك الجزائر استغاث به الرشيد أحد ملوك تونس فأجابه وسار معه بجنود إلى أن تملك تونس فى قصة طويلة ففزع الحسن بن محمد الحفصى إلى أسبانيا فبعثوا معه جنوداً وأخرجوا خير الدين باشا وعساكره وقصة ذلك طويلة فلما كانت سلطنة مولانا السلطان سليم الثانى ابن السلطان سليمان جهز الجيوش الكثيرة وبعثها مع سنان باشاف مائتى سفينة بالمدافع والآلات الكثيرة والذخائر الوفيرة سنة إحدى وثمانين وتسعمائة فأحاطوا بتونس وحاصروها وضيقوا عليها ورموا عليها المدافع الكثيرة وقاتلوها قتالا شديداً وطموا خندقها بالتراب بعد تعب شديد ، وكان عمق الخندق ستين ذراعاً وقعره متصل بالبحر ثم حمل الوزير ومن معه من الأبطال حملة واحدة تزلزلت منها الجبال ودخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال وقتلوا من فيها وكان هذا الفتح العظيم لست عشرة مضين من شهر جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ومن أعجب الاتفاق أن هذه القلعة بنتها النصارى فى سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة وأحكموا بنيانها واستكملوه فى ثلاث وأربعين سنة وافتتحها الوزير المذكور فى ثلاث وأربعين يوماً من أيام محاصرتها فكانت الأيام بعدد السنين التى أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة ولما تم هذا الفتح رأى الوزير المذكور أن ترميمها وعمارتها وحفظها بالعساكر والآلات الحربية يحتاج إلى مؤنة كثيرة وخزائن من الأموال فأمر بهدمها وتخريبها حتى لاتصير ملجأ للنصارى المخذولين ولما فرغ الوزير من أمر حلق الواد توجه إلى تونس وبها قلعة أخرى حاصرها العساكر أيضا إلى أن فتحوها وأسروا صاحبها الإفرنجى وصاحبها الحفصى وبعثوا بهما إلى دار السلطنة وصارت تونس من الممالك العثمانية وانقضت دولة الحفصيين بعد أن انقضى لهم فيها ثلاثمائة وثمان وسبعون سنة ، هذا حاصل هذا الفتح بغاية الاختصار .

ومن فتوحات مولانا السلطان سليم الثانى المعنوية إضعافه المبرات والخيرات لأهل الحرمين الشريفين وعمارته المسجد الحرام فإنه كان مسقفاً بالخشب وتوالى عليه الحريق والتعمير وصار فى غاية من الخراب والوهن فبرز أمره السلطان بتعميره وأن يتركوا تسقيفه بالخشب بل يجعلوه قبباً وطواجن كما هو مشاهد الآن ، وبرز الأمر بالتعمير سنة ٩٧٩ وكان الشروع فيه فى منتصف المحرم سنة ٩٨٠ وتوفى مولانا السلطان سليم المذكور قبل كمال التعمير فأتمه ولده السلطان مولانا مراد فكان التمام سنة ٩٨٤ فجاء نزهة للناظرين والكلام على ذلك طويل مبسوط فى التواريخ وتوفى مولانا السلطان سليم سنة ٩٨٢ وعمره اثنتان وخمسون سنة ومدة سلطنته ثمان سنين وخمسة أشهر ، وكان سبب وفاته أنه أنشأ حماما بدار السعادة وأحكمه غاية الإحكام بحيث أنه لم يبصر أحد مثله ، فلما تم الحمام دخله السلطان المذكور فبينما هو يمشى فيه إذ زلق قدمه فسقط سقطة عظيمة اسود منها جنبه الذى سقط عليه فمرض منها أياماً ثم توفى رحمه الله وأقيم فى السلطنة بعده ابنه (السلطان مراد الثالث) وكان وقت وفاة أبيه غائباً فى مغنيسيا فأخفوا موت أبيه أحد عشر يوماً إلى أن حضر السلطان مراد وجلس على تخت السلطنة فأظهروا موت أبيه ، وكان مولانا السلطان مراد المذكور ملكا جليلا تربى فى حجر السعادة ، واشتغل بالعلوم حتى حصلها وفاق كثيراً من أسلافه واشتغل بعلم التصوف ولم ينقل عنه أنه صدر منه شىء من الكبائر وكان مكرماً للعلماء والصالحين والفقراء محباً لهم كثير الإحسان إليهم وكان واقفاً عند مراد ربه لا يتعداه عاملا فى أمره بتقوى الله مراعياً للعدل والإحسان فيم استرعاه لم يزل قائماً بنصرة الدين وحماية بيضة الإسلام وتقوية جناح المسلمين ولو لم يكن من مناقبه إلا تكميل بناء المسجد الحرام لكان ذلك دليلا على كرامة الله له بين الأنام وكان له نظم فائق باللسان العربى والتركى والفارسى .

ذكر أول غزوة من غزواته إلى بلاد العجم

كان أهم شىء عنده بعد جلوسه فى السلطنة قتال سلطان العجم لكثرة مايقع منه من الغدر ونقض العهود وهلك سلطان العجم طهماسب شاه سنة أربع وثمانين وتسعمائة وقام

بعده ولده خدا بنده فعين السلطان مراد الوزير مصطفى باشا فاتح بلاد قبرس فتوجه فى سنة ست وثمانين وتسعمائة بعسكر كثير إلى بلاد الشرق فبنى قلعة قارص وشحنها بالمدافع والمكاحل ، ثم سار إلى تخوم بلاد العجم والكرج وحاصر قلعة الكرج إلى أن استولى عليها ثم التقى مع عسكر العجم وقاتلهم قتالا شديداً فهزمهم وحصدهم بالسيوف واستولى على أموالهم وخيولهم واستولى على عدة قلاع وشحنها بالرجال ثم سار وحاصر قلعة تفليس إلى أن افتتحها وكان المسلمون افتتحوها قديما وغلب عليها الكرج ، ولما فتحت مدينة تفليس أرسلت أم منوجهر الكرجى ملكة تلك البلاد ابنها الوزير بالطاعة ومعه مفاتيح ثمان قلاع فرحب بالوزير وآنسه وعين له امرأة تلك البلاد بعد أن أسلم بين يدى الوزير ، ثم سار إلى طرف شروان بعد أن نصب أميراً على تفليس وبث سراياه إلى الأطراف وتمكن منها وترك فيها عثمان باشا بن ازدامر واليا بها فلما أقبل الشتاء توجه الوزير مصطفى باشا إلى طرف بلاد السلطان وشتى هناك للاغارة فى الربيع على بلاد العجم ثم بلغه أن صاحب شروان القديم قصد بنحو اثنى عشر ألفا لقتال عثمان باشا فوقع بينهما قتال شديد وانتصر عثمان باشا وقتل صاحب شروان وأكثر عسكره ، ثم وقع بينه وبين عسكر الشاه هناك مايتوف عن عشرين وقعة وكان النصر فيها دائما لعثمان باشا ثم جاءه عسكر من العجم نحو ثلاثين ألفا وقصدوه فى شروان فقاتلهم أربعة أيام ثم انتصر عليهم وقتل أكثرهم ثم ترك فى شروان جعفر باشا وتوجه إلى القسطنطينية بطلب ليكون صدر أعظم وقاتل فى مسيره عدة أمم اعترضوه بالحرب وغلب عليهم ، ولما وصل إلى بلاد كفة بلغه أن خاقان التتار أظهر العصيان على سلاطين آل عثمان فقاتله وانتصر عليه وقطع رأسه .

الغزوة الثانية إلى بلاد العجم أيضا

وفى سنة ثمانى وثمانين وتسعمائة بعث مولانا السلطان مراد وزيره سنان باشا إلى قتال العجم فسار مع عسكر جرار ووصل إلى حدود العجم فأرسل إليه الشاه فى الصلح وبعث

للسلطان أحد وزرائه يدعى إبراهيم خان بتحف سنية وهدايا جليلة وظن سنان باشا أن هذه الحالة مما تعجب السلطان فلم يكن الأمر كذلك بل عزله السلطان وأقام مقامه فرهاد باشا ، وفى سنة إحدى وتسعين وتسعمائة توجه الوزير فرهاد باشا بالعساكر إلى بلاد العجم فسار وتوغل فى بلاد أذربيجان واستولى على مدينة وا كا وبنى بها حصنا حصينا نصب فيه يوسف باشا واليا ، وفى سنة اثنتين وتسعين سار فرهاد باشا بعساكر وافرة إلى بلاد الكرج فبنى هناك عدة قلاع وفى هذه السنة أيضا سار الوزير الأعظم عثمان باشا بعساكر كثيرة إلى قتال العجم فشتى ببلاد قسطمونى وسار إلى بلاد العجم فى سنة ثلاث وتسعين وتسعمائة ومعه من العساكر مالا يعلم عدده إلا الله فعارضه الأعجام فى الطريق فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم دخل تبريز فى أواخر رمضان من السنة المذكورة واستقبله أهل تبريز بمصاحفهم ووجوه الناس فقابلهم الوزير باللطف ، ثم شرع فى بناء قلعة حصينة ثم بناء سور المدينة فأتم الجميع فى مدة خمسة وثلاثين يوما ، ثم ظهر من بعض أهل تبريز بعض الغدر فى أمر العساكر فهجم عليهم العساكر وقتلوهم ونهبوا أموالهم ولم ينج منهم إلا النساء والأطفال ثم مرض الوزير وخرج متوجها إلى بلاد الروم بعد أن أبقى فى مدينة تبريز نحو ثلاثين ألفا صحبة جعفر باشا فلما كان اليوم الرابع من مسيرهم اعترض للوزير حمزة ميراز بن شاه محمد خدابنده سلطان العجم مع العسكر كثير فتهيأ الوزير وهو مريض لقتالهم وركب بغلته الشهباء وهو آخر ركوبه على الدابة فاستمر الحرب من غلس الصبح إلى الظهر فلما رأى الوزير امتداد الأمر أمر برمى المدافع الكبار وكانت ثمانمائة مدفع فأصابت خلقاً كثيراً من عساكر الأعجام وانجلى الأمر عن هزيمتهم ثم نزل الوزير فى ذلك المحل وفتح أبواب الوطاق لأجل إعطاء الترقى والعطية للعساكر ، فلما صار نصف الليل غلق أبواب الوطاق، وانتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وأقام مقامه سنان باشا بمدينة ران فلما رحلوا أعترضهم العدو يميناً وشمالا ووقع بينهما مناوشات فلما وصلوا إلى حدود المملكة العثمانية أمام قلعة سلماس هجم حمزة ميرزا المذكور فى نحو ثلاثين ألفاً فوقع بين العسكرين قتال كثير وانجلى الحرب عن هزيمة الأعجام بعد أن حصد غالبهم بالسيف .

الغزوة الثالثة إلى بلاد العجم أيضاً

فى سنة أربع وتسعين وتسعمائة جهز السلطان مراد فرهاد باشا مع عساكر عظيمة إلى بلاد العجم وصلوا إلى مدينة تبريز وحصنوا قلعتها ورموا سورها وكانت الشاهية حاصروها مراراً عديدة وقربوا من أخذها وبنى هناك بين وان وتبريز قلعتين وشحنها رجالا وسلاحا، ولم يزل الوزير المذكور يشتى ببلاد الروم ويرجع فى الصيف إلى بلاد العجم حتى مهد البلاد التى أخذت من الكرج وبنى قلاعا وحصونا كثيرة وقاتل قره باغ محمد خان فكسره وغنم أمواله وعاد إلى بلاد الروم والحاصل أن الحرب بين الدولة العثمانية والعجم كانت سجالا ثم انعقد بينهما صلح وجعل لكل منهم حد لا يتعداه أحد منهما وكان ذلك فى مدة الشاه محمد خدابنده بن طهماسب ابن اسماعيل وخلع محمد خدابنده سنة خمس وتسعين وتسعمائة لأنه كان أعمى وأقيم بعده ولده عباس شاه .

الغزوة الرابعة إلى بلاد المجر

فى سنة إحدى بعد الألف عين السلطان الوزير سنان باشا لمحاربة كفار المجر وأرسل معه العساكر ففتح تلك السنة قلعة بستريم وقلعة طاجة وشتى بمدينة بلغراد وفى السنة الثانية فتح قلعة قران بضم القاف وقلعة بانق وهى من أحصن القلاع وأصعبها قد أحاط بها الماء وهى مدينة ماتت الملوك بحسرتها لحصانتها ومنعتها ومتانتها وكان فتحها عند النصارى بمنزلة المحال لصعوبة مراقيها واستعلاء مراميها وذلك بعد أن نال المسلمون شدة عظيمة قيل أن النصارى رموهم بمدافع فجاء مدفع بصنجق النبى صلى الله عليه وسلم فتلقاه رجل قبل السقوط ، فلم يسقط ثم بعد أيام لما اشتد بهم الحصار سلط الله عليهم موتان فجعلوا يموتون فى فرشهم من غير قتال فسلموا المدينة للمسلمين فدخلوها فوجدوها قد جافت من الموتى وسر المسلمون بذلك سروراً عظيما ، وتوفى السلطان مرادخان الثالث سنة ثلاث بعد الألف وعمره خمسون سنة ومدة ملكه عشرون سنة وثمانية أشهر وتسلطن بعده ولده (السلطان محمد الثالث) قال فى خلاصة الأثر عند ذكره الملك الأعظم الباهر الشأن

كان سلطاناً عظيم القدر مهابا جواداً عالى الهمة مظفراً فى وقائعه صالحاً عابداً ساعياً فى إقامة الشعائر الدينية مراعيا لأحكام الشريعة مطيعاً لأوامر الله منقاداً لما يقرب إليه مداوما للجماعة والأوقات الخمس قائما السنن والرواتب ، ومن عادته المرضية أنه كان إذا ذكر صلى الله عليه وسلم نهض قائما وبالجملة فأوصافه كلها حسنة فائقة ، وقال القرمانى فى تاريخه كان كامل الأوصاف محباً للعدل والإنصاف محباً للعلماء والصلحاء مكرما لهم بأنواع الإكرام شديد المحبة للجهاد ونصر الإسلام .

الغزوة الأولى من غزواته

كانت هذه الغزوة إلى المجر فى أول مدة سلطنته خرج عن الطاعة ميخائيل ملك الأفلاق واجتمع ملك النيمسا وبلاد الأردل وعاثو فى بلاد روم ايلى فبعث السلطان محمد جيشا تحت قيادة فرهاد باشا الصدر الأعظم فكسره الإفرنج كسرة هائلة وقتل من جيشه خلق كثير فقتل السلطان فرهاد باشا وولى مكانه سنان باشا ، وكان شيخا مسناً فلم ينجح بل كسر أيضاً فعزله السلطان وأعاده إلى الصدارة ، ، فأشار على السلطان أن يخرج بنفسه للحرب فخرج بنفسه فى شوال سنة أربع بعد الألف بجيش غفير قاصداً بلاد المجر فوصل بلغراد وحاصر مدينة أكراد ففتحها ، وكان فيها قلعة فى غاية المنعة والتحصين فنازلها بجنوده وأطلق أمره فى ضربها بالمكاحل فاشتد البلاء بمن فيها فخرجوا منها طائعين وسلموها فى أواخر صفر سنة خمس بعد الألف ، ووصل خبر أخذها إلى ملك الأنكروس فقام وقعد وأرغى وأزبد لأنها كانت عندهم من القلاع المعتبرة فكاتب ملوك النصارى فطلب الأمداد منهم بالعساكر والذخائر فاجتمع إليه ملك النيمسا وحاكم الأردل وحاكم البغدان وحاكم الأفلاق وسواكن الجزائر من حكام البحر وكثير من ملوك الفرنج فجاؤا إلى إمداده بسبعة جيوش يضيق عنها الفضاء ، وكان السلطان محمد سار بعسكره بعد الفتح السابق إلى القلعة التى بها المعدن فبينما هو فى أثناء المرحلة الثالثة إذ دهمته النصارى من كل جانب وأحاطوا به ، وكان عسكر الإسلام غير مستعدة والنصارى فى غاية الكثرة جداً بحيث أن

جمعهم المخذول لا يحصى فوقع حرب عظيم فى ذلك اليوم كله إلى أن دخل الليل فتفرقوا ، وكان ذلك يوم الخميس ثانى عشر ربيع الأول ، وأصبحوا يوم الجمعة متحاربين أيضاً واستمدت النصارى أزيد من اليوم الأول فكانوا غرقا فى الفولاذ ثم هجموا دفعة واحدة على المسلمين وفرقوهم بدداً ووصلوا إلى مخيم السلطان فطلب السلطان إليه معلمه الخوجة سعد الدين ، وكان فى صحبته فحضر بين يديه وجعل يثبته والسلطان يستنهض عساكره الخاصة به ويستغيث بالله تعالى فلم يكن بأسرع من أن قوى المسلمين وأدركهم بعض المنهزمين ففرقوا شمل النصارى وأبادوهم ودخلوا بينهم والتحم القتال وتراجع جميع العسكر مستعفين فكسروا النصارى وردوهم على أعقابهم ووقع السيف فيهم وهم فارون حتى قتل بعضهم بعضا من الزحام وغيره ووهب الله تعالى له النصر والتأييد ولم يسلم أحد من الكفار إلا من هرب ، وغنم السلطان ومن معه غنيمة عظيمة وأحصيت قتلى المسلمين فكان الذى استشهد من القواد ما يقرب من أربعمائة ومن الصناجق أصحاب الألوية بضعة عشر رجلا ومن الأمراء الكبار أربعة أنفار ومن العساكر كثير ومن الكفار مالا يحصى والحاصل ما وقع له من النصر لم يقع لأحد من ملوك آل عثمان وذلك إنما هو بمحض لطف إلهى وإمداد ربانى غير متناه ، ولقد حكى أن ملوك الفرنج تطلق على هذا السلطان صاحب القران وهذا الوصف إنما هو لمن بلغ فى الشجاعة المرتبة التى لا تسامى وأنهم على عادتهم يصوورون ملوك آل عثمان فيقدمون هذا فى التصوير على كل الملوك وذلك كله بسبب هذه النصرة التى رزقها ، وفى خلاصة الأثر أن بعض العلماء رأى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه يتذاكرون أمر هذه الغزوة فقال الصديق الأكبر رضى الله عنه أن انهزام المسلمين كان مقدراً لكن لما كان السلطان محمد سعيداً أكرمه الله تعالى فأمده بملائكة حتى حصل له الظفر والتأييد ودخل السلطان إلى مقر ملكه ثالث جمادى الآخرة سنة خمس وألف بموكب حافل .

الغزوة الثانية إلى بلاد الأنكروس

فى هذه السنة عين محمد باشا السطورجى سرداراً على بلاد الأنكروس فتقابل مع

الـكفار بجيش جرار ووقع بينهما قتال ووقع من محافظ بوسنة حسن باشا القرياقى إهمال فى مساعفته ولولا ذلك ما خلص أحد من الـكفار .

الغزوة الثالثة جهز مولانا السلطان محمد جيشا مع محمد باشا

فى سنة سبع بعد الألف فتح محمد باشا المذكور قلعة واردار وفى هذه السنة استولى الـكفار على قلعة يافق وبعض قلاع وفيها أيضاً كبس ميخائيل اللعين على غفلة قرب نيـكبولى ففر محافظ الطونة أحمد باشا منهزما فحاصر اللعين قلعة نيـكبولى مدة ، ثم رحل عنها وفيها غضب السلطان على محمد باشا الساطورجى لإهماله فى أمر المحاربة إليه السلطان وإتعابه العسكر وإسرافه فى المصارف وانتزاع يافق فى زمانه واقتلاع بعض قلاع فأرسل من قتله :

الغزوة الرابعة جهز مولانا السلطان محمد جيشا

فى سنة ثمان بعد الألف ففتحوا قلعة فانيسره ، وكان فتحها على يد الوزير الأعظم إبراهيم باشا ، وكان فتحاً عظيما يعادل فتح إكرى وسر بها المسلمون وزينت البلاد لهذا الفتح ثلاثة أيام ، وكان فى أيام محاصرتها وقع إضراب عظيم فرأى بعض الصلحاء فى منامه شيخ الإسلام صنع الدين جعفر وهو يأمره بقراءة هذا الدعاء وهو اللهم قوى قلوب المؤمنين بقوة الـكرام البررة وألق الرعب فى قلوب الـكفرة الفجرة فشاع هذا الدعاء وداوم على قراءته الناس فظهر أثره ولله الحمد وفى هذه السنة استولت النصارى على استون بلغراد ثم استرجعت منهم .

الغزوة الخامسة إلى بلاد المجر

فى سنة عشر بعد الألف بعث مولانا السلطان سنان باشا ابن جغال لمحاربة المجر ففتح تلك السنة قلعة قنجة .

الغزوة السادسة إلى بلاد العجم

فى سنة إحدى عشر بعد الألف جاء الخبر بأن شاه العجم نقض الصلح واستأسر محافظ تبريز واضطرب أمر المسلمين فضمت تبريز إلى وان وجهتا الكافل حلب نصوح باشا وعين السلطان عسكراً جرارة وأردف بهم نصوح باشا ثم توفى السلطان محمد قبل تمام الأمر ، وكان تمامه فى مدة سلطنة ابنه (السلطان أحمد الأول) وكانت وفاة السلطان محمد سنة إثنتى عشرة بعد الألف وعمره تسع وثلاثون سنة ومدة سلطنته تسع سنين وشهران وتسلطن بعده ابنه السلطان أحمد الأول وهو الرابع عشر من سلاطين آل عثمان والقمر ليلة الرابع عشر يسمى بدراً فلذلك قال بعضهم أن السلطان أحمد يستحق أن يسمى بدراً لأنه أضاء به الملك ، فإنه لما تسلطن كان البغاة والخارجون قد كثروا فى كل ناحية من أواخر سلطنة والده فسعى السلطان أحمد فى إخمادهم وجد فى قطع دابرهم حتى أبادهم ، وكان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر محباً للعلماء وآل البيت والصحابة متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشراً لأرباب الفضائل سمح الكف جواداً لا تزال إحساناته للفقراء واصلة وعطاياه لأ باب الاستحقاق مترادفة وجاء تاريخ جلوسه فى السلطنة (هو خير السلاطين) ومن خيراته ومآثره أنه فى سنة أربع وعشرين وألف أرسل إلى الحجرة الشريفة النبوية فصين من الألماس قيمتهما ثمانون ألف دينار فوضعهما فوق الكوكب الدرى وهذا الكوكب هو الذى تجاه الوجه الشريف فى الجدار وهو فى مسمار الفضة مموه بالذهب فى رخامة حمراء ومن استقبله كان مستقبلا الوجه الشريف وله صدقات كثيرة فى أهل الحرمين .

ذكر غزوة من غزواته

جهز جيشاً فى ابتداء دولته وأرسله مع وزيره الأعظم على باشا فمر إلى بلاد المجر فمات على باشا وهو متوجه فأقام بدله محمد باشا الذى كان سرداراً فى الروم إيلى ثم سعى مراد باشا بالصلح بين مولانا السلطان أحمد والمجر والمدنة عشرين سنة ودخل إلى دار

السلطنة ومعه رسل المجر ومعهم الهدايا والتحف فقبل مولانا السلطان أحمد ذلك .

ذكر غزوة أخرى

فى سنة ثلاث عشرة بعد الألف جهز جيشاً وبعثه مع محمد باشا البوسنوى أحد الوزراء العظام لفتح قلعة استرغون فسار إليها ولم يتمكن من فتحها تلك السنة ثم فتحها فى سنة أربع عشرة .

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

فى سنة أربع عشرة بعد الألف جهز جيوشاً إلى بلاد العجم ، وكان عليها سنان باشا ابن جغال فوصل إليهم وقتلهم وانتصر فى أول الأمر ثم خالف أمره بعض الوزراء الذين كانوا معه فكان ذلك سبباً لانهزام الجيوش فانهزموا وقتل منهم خلق كثير .

ذكر غزوة أخرى إلى بلاد العجم أيضاً

فى سنة ست عشرة بعد الألف جهز جيشاً عظيما يقوده مراد باشا ، وكان قد كبر وشاخ فجعل الأمر لنصوح باشا وتأخر فى ديار بكر ومرض ومات فتقدم نصوح لمحاربة العجم فقاتلهم وقهرهم واستولى على تبريز فهرب سلطانهم عباس شاه والتجأ إلى بعض الجبال ، وأرسل يطلب الصلح فأجابهم نصوح باشا إلى ذلك بعد أن اشترط عليه أن يذكر اسم السلطان فى بلاد العجم ويدعو له فى الخطبة وأن الشاه عباس يدفع مصاريف الحرب ويقوم بالخسارة التى أحدثها فى بلاد السلطنة العثمانية فقبل الشاه عباس ذلك وانعقد الصلح ورجعت العساكر العثمانية إلى بلادها .

ذكر غزوة أخرى إلى بلاد العجم أيضاً

فى سنة خمس وعشرين بعد الألف نقض الشاه عباس تلك العهود ولم يف بالشروط فتجددت الحرب ثانياً بين الدولتين وأرسلت الجيوش العثمانية مع نصوح باشا فغلب وانتصر

واستولت الجيوش على بعض القلاع بعد حرب شديد ، ثم وقفت الحرب بسبب كثرة الثلج والبرد ومات من العسكر جانب عظيم وأشيع أن الشاه إنما نقض الصلح بمكاتبة جاءته من نصوح باشا وعده بالإعانة فأمر مولانا السلطان أحمد بقتل نصوح باشا فقتل سنة خمس وعشرين وألف وفى سنة ست وعشرين توفى السلطان أحمد وعمره خمس وعشرون ومدة سلطنته أربع عشرة سنة وأوصى بالسلطنة لأخيه مصطفى بن محمد لأن أولاد السلطان أحمد كانوا صغاراً وأخوه أكبر منهم وكان أبوه السلطان محمد أوصاه به فكان يرعاه فبويع أخوه (السلطان مصطفى) وخلع بعد ثلاثة أشهر لأنه كان صالحا زاهداً متقشفاً فلم تظهر كفاءته للسلطنة لشدة بذله الأموال وكثرة ركوبه إلى المحلات البعيدة من غير تقييد بأمر مركوب ولا غيره لأنه تارك للدنيا وليس يراغب فيها بحيث أنه كان فى مدة سلطنته لبسه جوخة خضراء بأكام عربية وأما أكله فإنه لم يأكل الدسم مطلقاً وإنما كان يأكل الكعك الناشف واللوز والبندق وأنواع الفواكه وأما أمره فى النساء فإن والدته أحضرت له جوارى عديدة فلم يقبل منهن واحدة ، وكان لا يدرى من أحوال الملك إلا ما يلقى إليه ، فلما رأى أركان الدولة أن الأمر به لا ينتظم ذهب المفتى المولى أسعد بن سعد الدين إلى اسكدار للشيخ محمود المعتقد الصالح العالم العامل يستشيره فى خلعه فأشار بخلعه وأن يولى مكانه السلطان عثمان ابن السلطان أحمد ، ثم جاء من عنده وأخبر قائم مقام الوزير مصطفى أغا ضابط الحرم قريب العشاء من ليلة الأربعاء ثالث ربيع الأول فأرسل القائم مقام إلى الصوباش إذا جاءتك فى غد ورقة مختومة فافعل بما فيها واحترس على الأبواب فقال سمعا وطاعة ، وكان الصدر الأعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم فى مدة السلطان مصطفى وأما مصطفى أغا فإنه أول ما مضى من ليلة الأربعاء ست ساعات ذهب إلى أبواب السيرايا وقفلها جميعاً وكذا أبواب الأمكنة التى فيها أكابر الخدم وأخذ المفاتيح وهيأ المحل الذى فيه تخت السلطنة وأوقد فيه الشموع وفرشه بأحسن الفرش وذهب من حينه إلى السلطان عثمان فى مجلسه الذى هو فيه وهو محل عند مصطفى الذى كان فيه فى حياة السلطان أحمد وفتح عليه الأبواب فحصل له رعب وتخوف من أن يكون

عمه أرسله إليه ليقتله فقال له لا تخف أنت صرت سلطاننا فلم يصدق ذلك فصار يحلف له أن القول صحيح ولا زال يتلطف به إلى أن أدخله إلى محل التخت فألبسه ثياب الملك وأجلسه على التخت وقبل يده وصار يفتح أبواب السرايا باباً باباً ويدخل من كان داخل الأبواب للمبايعة حتى لم يبق أحد في السرايا بغير مبايعة هذا كله والسلطان مصطفى نائم عند والدته ، ثم أرسل مصطفى أغا المفتي وقائم مقام الوزير فحضرا وبايعا ثم ذهبوا إلى السلطان مصطفى قبل الفجر فطلبوه من الداخل فخرج إليهم وقال لهم ما جاء بكم في هذا الوقت فكان أول من تكلم شيخ الإسلام أسعد فقال له : إن أمر المملكة اختل وإن الأعداء تسلطت علينا ونحن نخشى ضياع الملك وأنت لست بلائق للسلطنة فأجابه بقوله أنا ما طلبت منكم الملك ولا أردته وليس لي به مصلحة. فقالوا جميعاً لا نكتفي بقولك هذا ولا بد أن تذهب معنا وتبايع ولد أخيك (السلطان عثمان) فإنا قد أجلسناه على التخت فقال جعله الله مباركا وليس عندي مخالفة وذهب وبايع السلطان عثمان فقالوا الآن نحضر جميع الوزراء وأركان الدولة وأشهد على نفسك بالخلع فقال لهم أفعل ذلك فأرسلوا وأحضروا الوزراء وقاضي العسكر وكتبوا عليه حجة بخلع نفسه وأرسل القائم مقام الورقة الموعود بها إلى الصوباش وفيها الأمر بالمناداة وتولية السلطان عثمان فنودي بذلك وتم الأمر وما انتطح في ذلك عنزان وكان ذلك يوم الأربعاء ثامن من شهر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف وكان السلطان عثمان المذكور من أحسن السلاطين خلقاً وخلقاً وأجملهم سيما وطبعا له أدب وحياء وعرفان وفيه شجاعة وفروسية وكان ينظم الشعر التركي .

ذكر أول غزوة من غزواته

كان الصدر الأعظم محمد باشا قد توجه بجيش لمحاربة العجم في مدة السلطان مصطفى فلما بلغه خلعه رجع يطلب الانتقام ممن خلع السلطان مصطفى ، فلما وصل إلى دار السلطنة وعلم حقيقة الأمر قاد الوزير المذكور الجيش ثانية لمحاربة العجم في مدة السلطان عثمان

سنة ثمان وعشرين وألف ونجح فى هذه التجريدة كل النجاح وارتجع من العجم الممالك التى اختلسوها وأرسل عباس شاه سلطان العجم يطلب الصلح على شروط موافقة للسلطان فأجابوه إلى ذلك .

غزوة ثانية إلى البغدان

كان صاحب البغدان قد ألقى فتنة بين أهل بولونيا والدولة وحرضهم على العصيان فأرسل السلطان عثمان إليهم إسكندر باشا فاستظهر عليهم وقتل منهم عشرين ألفا وأسر عشرة آلاف ثم قتلهم وقطع رأس رئيسهم الذى حملهم على العصيان وأرسله إلى دار السلطنة وألزم أهل بولونيا أن تدفع مائة ألف ريال وألزمهم أيضاً بمصاريف الحرب .

غزوة ثالثة إلى بولونيا

فى سنة ثلاثين خرج السلطان عثمان بنفسه لقتال أهل بولونيا وهم القزاق وكان الذى خرج معه من الجيش ستمائة ألف مقاتل فأرسل أهل بولونيا يستنجدون بملوك الإفرنج فأنجدتهم دولة الروسيا وفرنسا والبابا والمجر والنيمسا وبعد محاربة شديدة طويلة فقد فيها من الطرفين نحو مائتى ألف انتصر عليهم وأخذ عدة قلاع وغنم غنائم كثيرة ، ثم عقد صلحا معهم ورجع إلى مقر ملكه بعد أن أخذ منهم الجزية فهابته ملوك الآفاق وقويت شوكته واتسعت دائرة الملك فى أيامه وكان فيه صلاح وتعطف وخشوع وأمر فى أيامه بتعطيل حانات الخمر ودار عليها بنفسه وقفل أبوابها وطرد أصحابها .

ذكر إرادته الخروج للحج المؤدى إلى قتله

فى شهر رجب من سنة إحدى وثلاثين وألف عزم السلطان عثمان على الحج من طريق البر وأراد التوجه إلى الشام وأخرج خيامه وسرادقه إلى اسكدار سابع رجب وصمم على هذا الأمر فحصل اللغط من العسكر فى ذلك اليوم وقامت الفتنة واجتمعت

العساكر واتفقوا على عدم السفر معه وأخرجوا فتوى أن السلاطين لا يكلفون بالحج ، فلما بلغ السلطان ذلك غضب غضباً شديداً ولم يلتفت إلى كلام المفتى فأخذ المفتى وأصحابه يهيجون العساكر ثم تجمعوا فى المكان المعروف آت ميدانى واتفقوا على قتل الوزير الأعظم دولار باشا وضابط الحرم السلطانى والدفتردار ومعلم السلطان المولى عمر بدعوى أنهم كانوا السبب لتحرك السلطان إلى السفر للحج ، ثم هجموا فى ذلك اليوم بعد الظهر على بيت معلم السلطان ونهبوا أمواله وأرادوا قتله فما وجدوه ، ثم فى وقت العصر اجتمع كبار العلماء بالسلطان وسألوه أن يسلم الوزير الأعظم وضابط الحرم أو يقتلهما هو حتى تسكن الفتنة وأبرموا عليه بالسؤال فامتنع ثم تفرق العسكر ، وفى ثانى يوم وهو يوم الخميس اجتمعوا أيضاً والعسكر كلهم بالأسلحة وآلة الحرب وذهبوا إلى الموالى وجمعوهم بالجامع الجديد الذى عمره السلطان أحمد وأرسلوا قاضى عسكر وقاضى دار السلطنة وبعض الموالى إلى السلطان بطلب الجماعة الذين اتفقوا على قتلهم المذكورين أولا فامتنع من تسليمهم ، واستمروا فى مراجعته إلى وقت الظهر ومل العسكر من الانتظار فهجموا على دار الخلافة فوجدوا السلطان مصطفى فى الموضع المحبوس فيه نائماً على فراش بال وعنده خادمان أخرسان جالسين أمامه ومملوك يدعى درويش أغا فاستيقظ السلطان مصطفى فلما رآهم ظن أنهم يريدون قتله فمد لهم عنقه بكل خضوع فأكبوا على أقدامه يقبلونها قائلين له ياسلطاننا عساكرك ينتظرونك خارجاً قم فانهض بنا ورفعوا السلطان مصطفى وأنزلوه إلى فسحة الجنينة وأركبوه على حصان المفتى وساروا به إلى جامعهم ، ولما علم السلطان عثمان ذلك تحير فى أمره فأخذ معه الوزير الأعظم السابق حسين باشا وذهب به إلى بيت ضابط الجند ليدبر أمره وقال له السلطان يذهب ونأخذ خاطر العسكر ونجعل لكل إنسان منهم خمسين شريفيا وخمسة أذرع من الجوخ وألزمه بذلك فذهب إلى العسكر وكلمهم فى ذلك فما كان جوابهم إلا أن قتلوه وذهبوا من وقتهم إلى بيته وقتلوا حسين باشا وقبضوا على السلطان وأحضروه بين يدى السلطان مصطفى فأرسله إلى يدى قلة وأحضروا دولار باشا ضابط الحرم وقطعوا رأسيهما وعلقوا رؤس الجميع على جامع

السلطان بايزيد ووقعت البيعة العامة (للسلطان مصطفى) فجعل زوج أخته داود باشا وزيراً أعظم وبعد العصر من هذا اليوم ذهب داود باشا إلى يدى قله من غير علم السلطان مصطفى وخنق السلطان عثمان وغسله وكفنه وصلى عليه ودفنه عند أبيه السلطان أحمد وذلك فى اليوم الثامن من رجب وجرت أمور هائلة ونهبت دور كثيرة من دور أركان الدولة وقيل فى تاريخ قتله .

مات سلطان البرايا فهو فى الأخرى سعيد
قال لى الهايف أرخ أن عثمان شهيد
٣١٩ ٦٦١ ٥١
١٠٣١

وكانت ولادته سنة ثلاث عشرة وألف ووفاته سنة إحدى وثلاثين ومدة خلافته أربع سنوات وشهر وعمره سبعة عشر سنة ، وبعد تمام البيعة للسلطان مصطفى بيومين جمهرت العساكر الصباحية أمام سرايا داود باشا وزير الصدارة يسألونه لماذا قتلت السلطان عثمان ونشأ من ذلك فتنة أخرى آل الأمر فيها إلى قتل داود باشا فقتل بعد عشرين يوماً وصار البحث عن الأشخاص الذين تداخلوا فى قتل السلطان عثمان فقتلوهم واضطربت أمور السلطنة والوزارة ، وأقام أهل الأناضول وأمراؤها ونوابها على سباق طلب دم السلطان عثمان وأظهروا الاستقلال التام فى ولايتهم وامتنعوا من الدخول فى بيعة السلطان مصطفى ولم يزل الأمر يزداد شدة إلى أن خلعوا السلطان مصطفى رابع ذى القعدة سنة ألف واثنين وثلاثين فمدة سلطنته سنة واحدة وأربعة أشهر وماعاش بعد ذلك كثيراً وكانت ولادته سنة ألف رحمه الله ولما خلعوه وأقاموا فى السلطنة (السلطان مراد الرابع) أخا السلطان عثمان بن أحمد . قال فى خلاصة الأثر وكان عمره إحدى عشر سنة وسبعة أشهر وجاء تاريخ ولايته (مراد خان العادل) ١٠٣٢ ومع صغر سنه كان ذا عقل ثاقب ورأى سديد ، وكانت تظهر عليه أمارات شجاعة وقوة القلب فكان من أعظم

أبطال ذلك الزمان وكان إسكندر الثانى فى تلك الأيام بل كان من أعلى السلاطين مقداراً وأوسطهم همة واقتداراً خضعت لعظمته رؤساء الأكاسرة وذلت لحرمته وقهره تصلب فى قمع المفسدين سديد الرأى فى أمره لأنه ابتدأ أولا باستئصال الطغاة من العسكر الذين قتلوا أخاه ، فاهتم بأمر تحصيلهم من البلاد وتتبع قتلهم وأجاد وبلغ من قوته أنه رمى بقوس إلى درقة مطبقة إحدى عشرة طبقة فثبت العود فيها فلم يقدر أحد على انتزاع العود منها فأرسلها إلى مصر وبرز أمره إلى العساكر بإخراج العود منها وأن من أخرجه يزاد فى علوفته لحاولوا إخراجه فعجزوا عن ذلك .

ذكر استيلاء العجم على مدينة بغداد

لما بلغ العجم قتل السلطان عثمان وأعاده السلطان مصطفى وعلموا اضطراب الدولة العثمانية وضعوا أيديهم على كثير من البلاد التى افتتحها العثمانيون وملكوها فمن ذلك مدينة بغداد وكانت بغداد فى كفالة الوزير يوسف باشا فوقع بينه وبين واحد من كبار عسكره اختلاف يقال له بكر الصوباش فحاصر بكر الوزير فى قلعة بواسطة العسكر ، فأصاب الوزير رصاصة مات منها فتغلب بكر على بغداد فلما رأى اضطراب أمر الدولة أظهر العصيان والاستبداد فبعث إليه رئيس الدولة جانبا من العسكر لتأديب هذا العاصى وجعلوا أمرهذا العسكر تحت رئاسة حافظ باشا ، فلما بلغه ذلك كتب إلى شاه العجم أن يحضر لكى يسلم له بغداد فأرسل من يستلم منه مفاتيح المدينة مع جانب من العسكر نحو ثلاثمائة وأنعم على بكر الصوباش بعمامة قزل باش وقبل وصول العجم إلى بغداد وصلت عساكر الدولة وأقامت الحصار على بغداد فأرسل بكر الصوباش لحافظ باشا يطلب أن يلقبه بكلس بك لكى يطرد الأعجام فلم يقبل منه حافظ باشا ذلك، وفى أثناء ذلك وصل رسول العجم إلى بغداد وأرسل يقول لحافظ باشا أن بكر الصوباش صار يخص شاه العجم فإذا كنت تريد حفظ الصداقة بيننا فارحل عن بغداد فغضب حافظ باشا من كلامه هذا وأجابه كلاما غليظا واشتبك القتال ، فلما رأى حافظ باشا أنه لا يمكنه

فتح بغداد لأنها كانت حصينة وتكاثرت عليه عساكر العجم قام عنها وذهب على طريق الموصل بعد أن كتب إلى بكر الصوباش أنه والى بغداد يريد بذلك ترغيبه ليمتنع من تسليمها للعجم ففرح بذلك بكر الصوباش ورأى أنه بلغ غاية مرامه فقتل جماعة شاه العجم، وعلق رؤوسهم على شرافات السور وأخذ العمامة التى بعثها إليه الشاه عباس ووطئها برجليه وأرسل رسولا إلى حافظ باشا يشكر فضله على ذلك، وأما الشاه عباس فإنه لما بلغه مافعله بكر من الانتقاض والخيانة حضر بنفسه ومعه جيش جرار وأرسل لبكر يطلب منه تسليم المدينة فامتنع وأجابه بأنه لا يسلمها ولا يقدر الشاه عباس على فتحها، ولو أحضر لحصارها عشرة شاهات نظير الشاه عباس فجاءت جيوش الشاه عباس وأحاطت بأسوار مدينة بغداد، فأمر بكر الصوباش بإطلاق المدافع من الأبراج على الأعجام واشتبك القتال بين الفريقين وأرسل بكر إلى حافظ باشا يخبره بقدوم جيش الأعجام ويستنجده، فأنجد بفرقة العساكر تحت رياسة كور حسين باشا فلما وصل إلى قرب بغداد نزل بعساكره فى موضع يقال له كروان سراى، فلما علم قائد عسكر العجم بقدوم عساكر الدولة صنع خديعة وأرسل يطلب حسين كور باشا ليتحادث معه فى أمر الصلح فذهب ومعه بعض كبار العسكر فبينما هم فى أثناء الطريق وثب عليهم جماعة من الأعجام كانوا كامنين لهم فى الطريق فقتلوهم، وقدموا رؤوسهم لشاه عباس عوضا عما فعله بكر بقتله الأعجام الذين علق رؤوسهم على شرافات السور، ومكث الحصار على بغداد ثلاثة أشهر فكانت الأهالى تشكوا من الجوع، واشتد الحصار حتى أكل الآدميون بعضهم وخرج كثير منهم إلى معسكر الأعجام وكان لبكر ولد يقال له محمد وكان مثل أبيه فى الخيانة وكان هو المتسلم محافظة قلعة بغداد فأرسل له الشاه عباس يغره ويعده ويمنيه بأن يجعله حاكم بغداد عوض أبيه فاغتر وقبل وعد الشاه، وفى الليلة الثانية فتح أبواب القلعة ليلا للأعجام فهجموا ودخلوا المدينة بضجة عظيمة وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين وألف وكان بكر نائما فانتبه مذعورا من ذلك الضجيج وصراخ الأعجام وكانوا أصعدوا ناسا منهم إلى المنائر يصرخون بقولهم قد انتصر الشاه عباس وتملك بغداد فلتطمئن الأهالى وتفتح الأسواق وترجع إلى أشغالها، وذهب منهم جماعة إلى بكر فى منزله

فقبضوا عليه وأتوا به إلى الشاه فلما وصل أمامه رأى ولده جالساً إلى جانب الشاه وأخذ الولد يوبخ أباه على الخيانة الأولى التي حصلت منه في حق الشاه ، ثم أمر الشاه أن تسلب جميع أموال بكر وتعطى لولده ، ثم أنهم أخذوه ووضعوه في قفص من حديد ووكلوا ولده بحراسته وفي اليوم السابع طرحوا ذلك القفص الذي فيه بكر في موقد نار لكي يقرروه عن المكان الذي اختفى فيه الأموال ، ثم أخذوا ذلك القفص ووضعوه في قارب مشحون بالزفت والكبريت وأضرموا فيه النار ليلتهب في الدجلة أمام الناس وحصل في بغداد قتال بين أهل السنة والأعجام بسبب هذه الفتنة ، ولما كان بينهم سابقاً من العداوة حتى جرى الدم في أزقة المدينة وأخذ الأعجام خطيبين مشهورين من أهل السنة أحدهما يدعى نوري أفندي والآخر عمر أفندي وأمروهما أن يسبا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فامتنعا فملقوهما في نخلة وأطلقوا عليهما الرصاص فماتا من ذلك ، وأما الشاه عباس الذي كان قد وعد محمد بن بكر بالولاية في مكان أبيه فإنه أخذه وأرسله إلى خراسان وأمر بقتله هناك فقتل وبعد ذلك أقام الشاه عباس في بغداد مدة ، ثم سار بالعسكر لمقاتلة حافظ باشا ونزل على الموصل وأقام عليها الحصار مدة فلم ينجح فرجع إلى بغداد وذهب حافظ باشا إلى القسطنطينية ثم عاد بعساكر نحو عشرين ألفاً وسار لمحاصرة بغداد وتخليصها من العجم وانتشب فيهم القتال وطال الحصار فسئموا العساكر وقاموا على حافظ باشا فعزلوه وحبسوه في قلعة خارج بغداد وأقاموا عليهم مراد باشا ثم عزلوه وأرجعوا حافظ باشا ، ثم قاموا عليه أيضاً ليقتلوه فهرب منهم واختفى في موضع يقال له قلعة الأمام ثم اصطلح مع العساكر ونهض بهم راجعاً عن حصار بغداد فسير الشاه عباس خلفه جانباً من عساكره ليضربوه في الطريق فقاتلهم حافظ باشا وهزمهم هزيمة هائلة وقليل منهم رجع إلى بغداد ثم قام على مراد باشا فقتله لأنه السبب في اختلال الأمور ثم سار حافظ باشا بعسكره إلى الموصل فأقام مدة ثم جاءت الأوامر من الدولة أن يتقدم إلى حلب إلى أن تأتيه نجدة من العساكر ، وبعد مدة عزل حافظ باشا وأقيم مكانه خليل باشا ، ثم مات وولي بدله خسرو باشا وكان الجيش الذي مع خسرو باشا ١٥٠ ألف مقاتل فجاء وحاصر بغداد وحصل قتال شديد ولم تحصل

نتيجة فرجع إلى الموصل وصنع وليمة لكثير من العساكر ، فلما حضروا قتلهم زاعما أنهم السبب فى اختلال الأمور وأرسل يطلب أربعين ألفا وجرت أمور يطول الكلام بذكرها، ومات الشاه عباس سنة ست وثلاثين وألف وبقيت بغداد بيد العجم إلى سنة ثمان وأربعين وألف ففتحها مولانا السلطان مراد بنفسه .

ذكر فتح بغداد

فى سنة ثمان وأربعين وألف تجهز مولانا السلطان مراد وتوجه لفتح بغداد ومعه مائة ألف مقاتل ثم تتابعت الجنود حتى بلغت ثلاثمائة ألف ، ولما خرج من دار السلطنة كان لابساً لبس العرب القدماء وعلى رأسه خوذة من البولاد اللامع محاطة بشال أحمر مسدولة أطرافها على أكتافه ، ولما وصلوا إلى بغداد أحاط العساكر بأطرافها ولما بلغ الشاه ذلك جاء من تبريز ومعه عساكر كثيرة لينجد بهم عساكره الذين فى بغداد والتقى بعساكر الدولة على شاطىء الدجلة فقاتلوه قتالا شديداً وهزموه هزيمة قبيحة وكان يوما مهولا مشئوما على الأعجام ثم شددوا الحصار على بغداد وضربت مدافع السلطان على الأبراج وكانت مائتى برج فخرقتها وهدمت كثيراً منها ، وأمر السلطان بحفر لغم عظيم ووضع فيه البارود وأطلقت فيه النار فهدم جانبا عظيما من جدار السور ، فلما رأى أهل بغداد ماداهمهم بعثوا إلى الشاه أنهم يريدون التسليم فبعث الشاه إلى السلطان فى طلب الصلح فلم يقبل ، ثم شدد السلطان الحصار ووالى القتال إلى أن يسر الله فتحها يوم الجمعة ثامن شعبان وكان مدة حصارها أربعين يوما ، ودخلها العسكر ومولانا السلطان مرادفى أثرهم وقتلوا من العجم أكثر من عشرين ألفاً وأسروا كثيراً من رؤسائهم وقيل أن الذين قتلوا من العجم فى هذا القتال خمسون ألفاً وبقى منهم ثلاثون ألفاً طرح البعض منهم نفسه فى نهر بغداد والبعض تشتتوا فى القفار وأمر السلطان بقتل كل من يخفى عنده رجلا عجميا فجمعوا منهم بعد ذلك ألف رجل وأتوا بهم إلى السلطان فأمر بقتلهم فقتلوا عن آخرهم وكان الذى فقد من عسكر السلطان عشرة آلاف ، ثم أمر مولانا السلطان بتجديد

عمارة مشهد الإمام الأعظم أبى حنيفة ومشهد الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنهما وأزال ما كان أحدثه الأعاجم فى المشهدين وأمر ببناء ما تهدم من السور والقلعة وشحنها بالعساكر وترك فى بغداد عشرة آلاف من العسكر وعين لكفالة بغداد وولايتها وزيراً ورجع إلى دار سلطنته ومقر ملكه سالماً غانماً منصوراً وكان لدخوله القسطنطينية احتفال عظيم فدخل وكان معه خمسون من خانات العجم مقيدين بالسلاسل وكان حاملا بيده حزمة من السلاح وأكتافه مغطاة بجلد نمر كما فعل اسكندر لما فتح مدينة بابل وبالجملة فقد كان هذا السلطان من أعظم ملوك آل عثمان ، ومما كان فى مدة سلطنته أنه أمر بتبطيل القهاوى فى جميع ممالكه ومنع من شرب الدخان بالتأكيدات البليغة ومما يدل على سعادته العظمى توجه خاطره إلى أهل الحرمين الشريفين وأمره المتولى الجهات خصوصاً مصر بإجراء حبوبهم وإرسال مغلات أوقافهم فما من أمر يرد منه إلا وفيه الحث على ذلك ومن ذلك أيضاً إلتفاته إلى أخبار الرعية مطلقاً والبحث عن أحوال ولاة البلدان إلتفاتاً تاماً بحيث أن ولاة الجهات لايجاوزون حداً ومن سعادته العظمى عمارته الكعبة المشرفة وتجديدها كلها ، وذلك أن فى سنة تسع وثلاثين وألف جاء سيل عظيم بمكة ودخل المسجد الحرام وهدم بعض جوانب الكعبة واتفق العلماء المهندسون أنه لابد من تجديد الجميع فعرضوا الأمر إلى مسامع مولانا السلطان مراد المذكور فبرز أمره العالى بالتعمير فهدموا الباقى وعمروا الجميع فهذا البناء الموجود الآن من مفاخر مولانا السلطان مراد وتم التعمير فى شعبان سنة أربعين وكان أمير مكة فى ابتداء العمارة مولانا الشريف مسعود بن إدريس بن حسن أبى نمى وتوفى أثناء التعمير وولى أمارة مكة مولانا الشريف عبد الله بن حسن بن أبى نمى وهو جد مولانا الشريف محمد بن عون فكان تمام التعمير فى مدته وجاء تاريخ ذلك ، رفع الله قواعد البيت ، ولبعضهم :

١٠٤٠

مراد بنى بيت الإله وزاده   سناء بهاء يزدهى زيد مجده

١٠٣٩   ٢٣٠   ٨٠٩

ولما حصل هذا التعمير أبقوا باب الكعبة القديم على حاله ، ثم فى سنة خمس

وأربعين برز الأمر السلطانى بتجديد الباب لجدد ووضع عليه حلية الباب الأول ووازنت قبل وضعها فجائت مائة وأربعين رطلا خارجا عن الزرافين فوزنها وما شابهها مما كان على الباب ثمانية عشرة رطلا ، وكتب على الباب الجديد اسم مولانا السلطان مراد وذلك موجود إلى الآن ، وأرسل الباب القديم إلى دار السلطنة وجعل فى الخزائن السلطانية وكانت ولادة مولانا السلطان مراد سنة ١٠٢١ وتوفى تاسع شوال سنة ١٠٤٩ وعمره ٢٩ سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وإحدى عشر شهراً وخمسة أيام رحمه الله تعالى .

ذكر ولاية مولانا السلطان ابراهيم بن أحمد مع ذكر أول غزواته

لم يختلف المرحوم السلطان مراد ولدا وبقى من أخواته السلطان ابراهيم فبويع بعد وفاة أخيه قال فى خلاصة الأثر كان ملكا معظما حسن النظر سمح الكف وكان زمانه أنضر الأزمان وعصره أحسن العصور وأطاعته جميع الممالك وسكنت بيمن دولته الفتن واعتدل به الزمن وبعد مضى سنتين من ولايته جهز جيشا لمحاربة القزاق فلم ينجحوا ثم أرسل عساكر وحاصروا أزوفة فلما تضايق أهلها أحرقوا المدينة وانهزموا فدخلها العساكر السلطانية وعمرتها وأقامت فيها جانباً من العساكر للمحافظة .

غزوة أخرى لمحاربة جزيرة كريد

سنة خمس وخمسين وألف جهز السلطان إبراهيم جيشا فى مراكب بحرية نحو أربعمائة مركب لمحاربة جزيرة كريد بمائة ألف مقاتل وسبب ذلك أن مراكب مالطة كانت قد تعدت على بعض مراكب الدولة ثم ذهبت فاحتمت عند مشيخة البندقية فى كريد فلما وصلت عساكر الدولة العلية أقامت الحصار على مدينة قندية وهى من أعظم مدن هذه الجزيرة وفى أقرب زمن استولوا عليها وجعلوا كنائسها جوامع ورجعوا إلى القسطنطينية بعد أن تركوا فيها جانباً من العسكر فأرسلت لهم مشيخة البندقية عساكر فاستولوا على ما كان بأيدى العساكر السلطانية واستأسروا جانباً منهم ، فغضب السلطان من هذا الأمر وجهز عليهم تجهيزاً آخر فأخرجوهم واستولوا على المدينة المذكورة وحاصروا قلعة رتمو وكانت

قلعة حصينة إلى أن ملكوها واستعانوا باللغم حتى أهلك خلقاً كثيراً ثم ملكوا بقية جزيرة كريد إلا قلعة قندية وطال أمره مدة طويلة فتركوها وسيأتي ذكر فتحها في مدة سلطنة السلطان محمد بن إبراهيم وجزيرة كريد من أعظم الجزائر وأكبرها تشتمل على بلاد واسعة ورسانيق كثيرة وذكر بعض من دخلها أن بها من القرى أربعاً وعشرين ألف قرية وأن دورها مسيرة خمسة عشر يوما هي ذات رياض نضرة وبها أنواع الفواكه والثمار وخيراتها وافرة ، ثم أن رجال الدولة خلعوا السلطان إبراهيم سنة ثمان وخمسين وألف بسبب أنه كان منهمكا في اللذات والشهوات مسرفاً في إنفاق الأموال وسلاطين آل عثمان إنما عظم شأنهم بزهدهم وعدلهم ، وقد حكى أن بعض سلاطينهم تواعد مع شيخ الإسلام الذي كان في وقته أن يجتمعا في جامع من جوامع دار السلطنة في وقت مخصوص بالخفية للتشاور في بعض القضايا فحضر السلطان في الوقت الذي تواعد فيه وأبطأ شيخ الإسلام في الحضور وما جاء إلا بعد مضي مدة ، فلما حضر سأله عن سبب تأخيره فقال لما أردت الخروج رأيت عمامتي وسخة فكرهت أن أقابل بها مولانا السلطان فأمرت أهلي أن يغسلوها وانتظرتها حتى جفت فلبستها وجئت فهذا يدل على أنه ليس عند شيخ الإسلام غيرها فقال له السلطان لو كان عندي غير هذه التي على رأسي لأعطيتك إياها فانظر إلى زهد هذا السلطان وزهد شيخ الإسلام فالأصل كله الزهد في الدنيا والعدل في بيت المال فالخلفاء الراشدون إنما فتحوا البلاد ومصروا الأمصار بالزهد في الدنيا والعدل في بيت المال لا بكثرة الصلاة والصيام فالسلطان إبراهيم لما رأوه مسرفاً في الانفاق رأوه مخالفاً لما عليه أسلافه فكانت أفعاله عندهم غير مرضية فخلعوه وأجلسوا في السلطنة محمداً فكانت مدة سلطنة السلطان إبراهيم ثمان سنين وتسعة أشهر وفي ثالث يوم من خلعه قتلوه وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، وكان ميمون النقيبة منصور الكتيبة طالعه سعيد ماجهز جيشاً إلى ناحية إلا انتصر ولا قصد فتح ناحية إلا افتتحها لولا ما نقموا عليه من الإسراف في بيت المال وجميع السلاطين الذين جاؤا من بعده كلهم من ذريته .

(فائدة) في خلاصة الأثر أنه اتفق للسلطان إبراهيم المذكور مالم يتفق لغيره من السلاطين فيما أعلم وذلك أنه رأى سلطنة أبيه وعمه وأخويه ووالده ثم ذكر أنه استقرى

من ولى السلطنة ، وكان اسمه إبراهيم فوجدوا لم يتم لأحدهم أمرها وقال الراغب فى محاضرته قال أبو على النظام كان المهدى يحب ابنه إبراهيم فقالت له أم إبراهيم ألا تراه يلى الخلافة فقال لا ولا يليها من اسمه إبراهيم أن إبراهيم الخليل أول نبى عذب بالنار وأن إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعش وبويع إبراهيم بن المهدى ، فلم يتم له الأمر وأحكم إبراهيم الإمام أمر الملك ليكون أول خلفاء بنى العباس فقتل ، قتله مروان بن محمد بن مروان وطلب الخلافة إبراهيم عبد الله بن الحسن المثنى فقتل وبايع المتوكل لابنه إبراهيم المؤيد فلم يتم له وقتل فسبحان من دبر الأمور على طبق علمه وأجراها بحكمته وفى مروج الذهب للمسعودى قال إبراهيم بن المهدى كنت أنا والرشيد على ظهر حراقه وهو يريد نحو الموصل والمداوون يمدون الشطرنج بين أيدينا فلما فرغنا قال الرشيد يا إبراهيم ما أحسن الأسماء ؟ قلت اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فما الثانى بعده قلت اسم هارون اسم أمير المؤمنين قال فما أسمجها قلت إبراهيم فزبرنى ، وقال ويلك يا إبراهيم خليل الرحمن عز وجل قلت بشؤم هذا الاسم لقى مالقى من النمرود وألقى فى النار قال وإبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت لاجرم لما سمى بهذا الاسم لم يعش قال فإبراهيم الإمام قلت بحرفة اسمه قتله مروان الجعدى فى جراب النورة وأزيدك يا أمير المؤمنين إبراهيم ابن الوليد خلع وإبراهيم بن عبد الله الحسن قتل ولم أجد أحداً سمى بهذ الاسم إلا رأيته مقتولا أو مضروبا أو مطروداً فما انقضى كلامى حتى سمعت ملاحا على بعض الحراقات يهتف بأعلى صوته يا إبراهيم ياعاض كذا وكذا من أمه أى بظرها قال فالتفت إلى الرشيد فضحك حتى فحص برجله اهـ .

ولاية السلطان محمد الرابع ابن ابراهيم

كانت ولايته سنة ١٠٥٨ بعد خلع أبيه ، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين ، وكانت أمور الدولة فى ذلك الوقت مرتبكة عديمة الانتظام مزعزعة الأركان قد كثر حسادها وأعداؤها وكانت من جهة المالية فى ضيق وعسر والعساكر غير منقادة لأولياء أمورها وأصبح وكلاء الدولة فى الولايات غير مبالين فى تنفيذ أوامرها فمن هذه الأحوال نبعت الفتن وكثر الفساد وتقوى الضعفاء على الوزراء والأكابر ، فكان الوزير يتولى أياماً ثم يعزل أو

ينفى واستمر الحال هكذا نحو عشر سنين والدولة فى تعكير والسلطان مع صغر سنه لايزال يبحث هو وأمه عن رجل فيه اللياقة لأن يتبوأ مسند الصدارة إلى أن عثروا على محمد باشا كوبرلى ، وكان مسنا حاذقاً ذا رأى وخبرة وسياسية كاملة لأن طول الأيام علمه مالم يعلمه غيره فولى الصدارة سنة سبع وستين وألف وشرع فى سد الخلل الذى أوقع الدولة فى الانحطاط وبرهة قصيرة انتظمت أمور الدولة على أحسن نظام .

ذكر غزوة فى أيام السلطان محمد لقتال المجر والقزق

كانت هذه الغزوة بتدبير الوزير محمد باشا كوبرلى جهز جيوشاً لقتال القزق والمجر وجميع العصاة الخارجين على الدولة حتى أهلكهم وأبادهم ، وفى سنة ثمان وستين وألف استولى على مراكب للبندقية وأخذ جزيرة بتفداس وجزيرة ليمنوس .

ذكر غزوة أخرى يتبعها أخرى

وجهز جيشاً لقتال الصرب فانتصر عليهم وقتل منهم مائة وخمسين ألفاً وخرج جماعة من الأروام فى بلاد الأفلاق وأظهروا العصيان فأرسل إليهم عسكراً فقاتلوهم وانتصروا عليهم وجهز جيشاً لقتال البندقية فاخترمته الوفاة سنة اثنتين وسبعين وألف قبل إتمام الأمر فأسندت الصدارة لابنه أحمد باشا الفاضل ، وكان أكثر من أبيه فى الحذق وحسن السياسة ، وكان أبوه أقرأه العلوم حتى مهر فيها ، وكان صائب الرأى كامل الفراسة (فراسة عجيبة) مما ينسب إليه من الفطنة أنه جاءه يوما شخص بتوقيع فتفرس فيه أنه مصنوع فأعطاه لبعض أتباعه وأمره بحفظه حتى مضى على ذلك ست سنوات فجاءه يوماً شخص آخر برقعة ، فلما رآها طلب ذلك التوقيع فجىء به فقابله على الرقعة فإذا الخطواحد ثم سأل صاحبها عن كاتبها فأخبره به فلما مثل بين يديه أراه التوقيع ، وقال أليس هذا بخطك فأقر فأمر بقطع يمينه وعين له من بيت المال ما يكفيه .

غزوة إيوار

همن الغزوات التى وقعت فى أيام وزارته غزوة إيوار عينه السلطان محمد لفتحها فسار

بجميع العساكر وحاصرها ووقع بينه وبين كفار المجر وقعة عظيمة ومكروا بعسكره مرات وخلصهم الله تعالى بيمن تدبيره ثم افتتحها سنة أربع وسبعين وألف وهدم مما يليها قلعة تسمى القلعة الجديدة كان الكفار بنوها ليتحصنوا بها .

ذكر غزوة عظمى إلى كريد

وفى سنة سبع وسبعين توجه بجيش إلى جزيرة كريد لفتح بلدة قندية التى كانت بقيت فى هذه الجزيرة من بين بلادها لم تفتح كما تقدم شرح ذلك فلما وصلها بنى بالقرب منها مكانا كان متهدما لتهيئة مهمات الحصار ، ثم نزلها بمن معه من العساكر ، وكان أهل قندية حصنوها بأشياء لا يمكن حصرها وأضافوا لسورها سوراً آخر عمروه من داخل الصور القديم وطال الحرب بين الفريقين مدة وأرسل أهل قندية إلى فرنسا يستنجدونهم فأنجدوهم بعمارة بحرية فيها خمسة عشر ألف مقاتل وجاءهم أيضاً نجدة من مالطة ، ومن البابا فاجتمعت مع عساكر فرنسا ونزلوا إلى البحر وهجموا على العساكر العثمانية ، واقتتلوا قتالا شديداً كان النصر فيه لعساكر الإسلام فقتلوا أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل ، فرجعت مراكب الفرنج بالخيبة ثم أن أهل قندية أرسلوا للوزير يطلبون منه الصلح فأجابهم إلى ذلك وأخرجهم منها ووضع فيها العساكر الإسلامية ورجع الوزير إلى مقر الملك ومعه جملة من مراكب مالطية وغيرهم غنيمة ، وكثير من الأسرى وفى غرة جمادى الأولى سنة ثمانين وألف وردت البشائر إلى الأطراف بالزينة ، وكثرت تباشير الناس بفتحها ، وأكثرت الشعراء من التواريخ لهذا الفتح ومن نوادرها التاريخ اللفظى المعنوى للفاضل الشيخ أحمد الصفدى وهو قوله (فى عام ألف وثمانين عام) .

غزوة إلى بلاد القرم يتبعها أخرى إلى بولونيا

وفى سنة أربع وثمانين توجه الوزير بجيش لمحاربة القرم المعروفين بالليه من النصارى فافتتح قلعة قنجة وفى سنة خمس وثمانين وألف توجه بالعساكر إلى بولونيا وفتح مدينة كمينا كره الشهيرة فى متانة قلعتها وفتح بعدها جملة بلاد وحصون ثم عقد صلحاً مع أهل

بولونيا ووضع عليهم خراجا سنويا ، ولما رجعت العساكر الإسلامية بلغهم أن أهل بولونيا بدسائس النمسا والبابا تحركوا وأظهروا العصيان وانضم إليهم عصاة من الأفلاق والبغدان والقزق واتسع الأمر وتوفى الصدر أحمد باشا الفاضل سنة سبع وثمانين وألف وحزن السلطان وجميع الناس عليه وولى الصدارة مصطفى باشا ، وكان قد خدم الوزير محمد باشا وابنه أحمد باشا الفاضل وترقى فى الخدم والمناصب وتعلم كثيراً من سياستهما وإن لم يكن مثلهما .

ذكر غزوة عظمى إلى جهرين

وكان أول سفرة باشرها بعد ولايته سفرة جهرين فتوجه بجيوش عظيمة وافتتحها واحتوى على المملحة التى بالقرب منها وهذه المملحة من أعظم مجالب النفع لبيت المال حتى إنهم يبالغون فيما يدخل منها حد المبالغة وسبب ذلك أن بلاد النصارى المعروفين بالسكوف والقزق محتاجون إليها وليس فى بلادهم مملحة غيرها ولما فتحت هذه القلعة سر الناس سروراً عظيما لأن فتحها كان فى غاية الصعوبة ، وكان كثير من نصارى الروم يزعمون استحالة فتحها ويهزؤن بالوزير المذكور فى قصدها ، وأشاعوا أخباراً فى انكسار عسكر المسلمين وهزيمتهم وكانوا يظهرون الشماتة وسبب ذلك ما يعرفونه من بينها تابعة لملك المكسوف أكثر ملوك النصارى جيوشاً وأكبرهم ملكا وبالجملة فإن فتح هذه القلعة كان من أعظم الفتوحات وبعد فتحها زينت دار الخلافة ثلاثة أيام ، وكان السلطان محمد إذ ذاك ببلدة سلسترة بروم إيلى فكتب إلى قائمقام القسطنطينية أنه يريد القدوم إلى دار المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدة عمره وأمره بالنداء لتهيئة زينة أخرى ثم قدم السلطان فشرعوا فى الزينة وبذلوا جهدهم فى التأنق فيها واتفق أهل ذلك العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة فى دور من الأدوار ، ثم وقع بعدها حريق فى القسطنطينية حرق فيه نحو اثنى عشر ألف بيت ثم تراسل الحريق فى كثير من المحلات حتى حسب ماوقع منه فكان تسعين حريقة كل ذلك فى سنة واحدة فكان ذلك الفرح سبباً لهذا الترح فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ذكر غزوة إلى بلاد النيمسا

ثم طلب الوزير مصطفى باشا من السلطان محمد الإذن بالسفر إلى بلاد لانكروس وافتتاح مدينة فينا قصبة بلاد النيمسا فأذن له السلطان ، وشرع فى تهيئة الأسباب من الذخائر ومكاتبة نواب البلاد والعساكر وجمع من الجيوش مالا يدخل تحت حصر حاصر ولم يتفق جمع مثله من الزمان الغابر ، ثم طلع الوزير المذكور من القسطنطينية بأبهة عظيمة مصمما على أخذ النصارى بالقوة الجسيمة ولم يزل بمن معه من العساكر سائرين إلى أن وصلوا قلعة يالق يوم الخميس ثانى عشر رجب سنة ١٠٩٤ ، ثم توجه يوم السبت قاصداً قلعة بج وأطلق أمره فى نهب القلاع والقرى التى على الطريق فما كان للعسكر مشغلة إلا نهبها وإحراقها وإتلاف زرعها فأحرقوا من القلاع المعلومة نحو مائة قلعة ومايتبعها من القرى أشياء كثيرة جداً وكل قرية من هذه القرى بمثابة بلدة تحتوى على ألف بيت أو أكثر وجميع هذه القلاع والقرى فى نهاية الإحكام وحسن البناء والبيوت فى غاية من اتقان الصنعة مسورات بالرخام وفيها من السماقى مالا يوصف وأكثر بيوت هذه البلاد ثلاث طبقات الثالثة منها مصنوعة بالدق والخشب ، وعاثت العسكر فى بلاد الكفار إلى قريب قزل ألما التى هى محل الأنكروس المعروف بالبابا ونهبوا ماقدروا عليه وحرقوه ومن أغرب ماوقع فى هذا الأثناء أن سوقة العسكر كانوا كلما يدخلون قلعة من القلاع المذكورة فيرون فيها أناساً قلائل من النساء والرجال العاجزين عن الحركة فيقتلونهم ويستولون على القلعة ثم يطلقون فيها النار ففعلوا هذا فى أكثر من أربعين قلعة وغنم المسلمون غنائم لا تحصر وأسروا نحو مائة ألف أسير بحيث بيعت الجارية مع ولدها بثلاثة قروش وهرب عسكر النصارى من بج ونواحيها وأخذوا معهم كثيراً من الأموال فلحقهم جماعة من العسكر فاستأصلوهم قتلا ، ولما وصل الوزير المذكور إلى بج وهى مدينة فينا وكانت النيمسا قد حصنتها تحصيناً عظيما ، وضرب مخيمة بها وهى قلعة عظيمة يحيط بها من جوانبها الثلاثة الدور والأبنية والعمارات والحدائق ومن جملة ذلك سبعة عشر مكانا باسم الملك تحتوى هذه الأمكنة على عجائب الزخارف

والفواكه والفساق ومن السماق والرخام وقد تقدم أن عسكر بج كانوا قد هربوا وكذلك هرب أهل الخارج من الرعية ولم يبق إلا عشرين ألف رجل وعشرة آلاف من العسكر وعشرة آلاف من الرعية فى داخل القلعة فأمر الوزير بمجاهدة القلعة فنصب عليها المكاحل ، وشرع فى رميها بآلات الحرب من المدافع والقلل حتى هدموا الدور والكنائس فضاق بمن فيها الخناق فى أقل من قليل والتجأوا إلى أن يسلموها طوعا فأبى الوزير خوفاً من أن ينهب العسكر ما فيها من المال فراجعه الوزراء والعسكر فى المبادرة إلى دخولها صلحا خوفاً من يأتى أمر فقال إن ضمنتم لى العسكر فى أن لا يأخذوا شيئاً فعلت فأبوا فتمادى الأمر يومين أو ثلاثة وهو وبقية الوزراء فى أعمال الفكر على أن يفتحوها عنوة ومالهم علم بما سيحدث وكان ملوك النصارى قد تكاتبوا لتجتمع جيوشهم ويستعين بعضهم ببعض على قتال المسلمين وكان ملك النيمسا لما سمع بقدوم المسلمين بالجيوش فر من مقر ملكه واحتمى ببعض القلاع من بلاده وأرسل يخاطب ملك بولونيا فى الاتحاد وقتال من يعاديهما فاتفقت النيمسا وألمانيا وكثير من الفرنج على قتال المسلمين وكان البابا يحرضهم على ذلك ويرغبهم فيه وكانت مدة الحصار ٤٥ يوماً فبينما الوزراء يدبرون فى الفتح عنوة إذا بطلائع الكفار أقبلت وفى أثرها عسكر سد الفضاء وشبت نيران القتال لا يبالون بقتل ولا ضرب بل يقدمون على الموت بجنان من الصخر وهجموا دفعة واحدة والعسكر فى غفلة عما يراد بهم واختلطوا بهم طامعين فى قتلهم وسلبهم وأطلقوا السيوف وجردوا أسنة الحتوف ولم يكن أسرع مما انقلب العيان وجمدت فى الوجوه العينان وكان المقدم من المسلمين من عمد إلى الفرار ولم يقر له فى تلك الحركة القرار فقتل من قتل ونجا من نجا واحتوت الكفار على السرادقات والخيول وفازوا بأمر كان يتعسر إليه الوصول وكر الوزير بمن معه هاربا وتفرق العسكر فى تلك البرارى الوهاد ونفد ما كان معهم من الزاد ونفذ أمر العلى الكبير وهو على جميعهم إذا يشاء قدير ثم اجتمع كثير من العسكر مع الوزير ببلغراد وأظهرت نصارى الأفلاق والبغدان والأردل العصيان وزحف الكفار على بلاد الإسلام ، قال بعض المؤرخين فى وصف

اليوم الذى هجم فيه النصارى على المسلمين وهجموا دفعة واحدة على صفوف العسكر العثمانية واشتبك بينهم قتال مهول دائر من الصباح إلى المساء حتى تخضبت الأرض بالدماء وتغطى من العجاج ودخان البارود كبد السماء وصمت الأذان من صوت المدافع والقنابر ، وكان يوما مهولا لم يسمع بمثله فى زمان غابر وبقى الوزير مصطفى باشا فى بلغراد فى قلق واضطراب مترقبا لما يظهر فى حقه من طرف السلطنة من الجزاء والعقاب. فبرز الأمر السلطانى بقتله وتدميره جزاء على ما جناه من سوء تدبيره فقتل فى المحرم من سنة ألف وخمس وتسعين عليه رحمة المولى المعين وعين للصدارة بعده إبراهيم باشا وبعد تلك الوقائع الشديدة والحروب المهولة أخذ البابا يحرض أهل أوروبا على طرد المسلمين من قرة بلادهم ، فاجتمعت العساكر من كل الجهات وصمموا على إخراج المسلمين من أوروبا فتكفلت النيمسا وتكفلت مقدونيا ببلاد بولونيا والبندقية وغيرهم من ساكنى شطوط البحر الأبيض فى دلمانيا بكثير من البلاد وزحفوا على بلاد الدولة العثمانية من جميع الأطراف فكانت عساكر الدولة تحارب الإفرنج من جملة أماكن والبابا يحرض الإفرنج على التجلد والقتال وأنجدهم بجيوش كثيرة فلم ينجح تدبير إبراهيم باشا السدر فعزل وأقيم مكانه سليمان باشا سنة سبع وتسعين وألف وسار بالعساكر إلى بلاد المجر ، وكان هذا الصدر يريد أن يتمثل بمحمد باشا كوبرلى لكنه كان قاصراً فى التدبير فأراد العساكر قتله فتركهم وهرب إلى القسطنطينية فقتله السلطان سنة ثمان وتسعين وألف وأقيم فى الصدارة سيواس باشا ، وكان السلطان مشغولا بالصيد واللهو وقد حفت المصائب بالدولة من كل جانب وكثرة الجوع والغلاء والحرائق فتآمر أهل الحل والعقد من رجال الدولة وخلعوا السلطان محمداً سنة تسع وتسعين وتوفى سنة أربع ومائة ألف ، وكانت مدة سلطنته أربعين سنة وخمسة أشهر .

﴿ لطيفة ﴾ فى مدة السلطان محمد المذكور ظهر يهودى يدعى أنه المسيح ومسلم يدعى أنه المهدى فى عام واحد وهو عام ١٠٧٢ أما اليهودى فظهر فى أزمير زاعما أنه المسيح وكان اليهود ينتظرون النبى الذى وعدهم به موسى عليه السلام وهو آخر الأنبياء عليهم

السلام فلما بعث عيسى عليه السلام كذبوه ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم كذبوه أيضاً ولم يزالوا ينتظرون النبي الذى وعدهم به موسى عليه السلام فإذا ظهر المسيح الدجال يتبعونه ويقولون أنه هو النبي المبعوث فى آخر الزمان الذى وعدهم به موسى عليه السلام ، فلما ظهر هذا اليهودى بأزمير ادعى أنه المسيح عيسى ليغتر به كل من المسلمين واليهود ويتبعوه وأظهر لليهود أنه هو النبي الذى وعدهم به موسى عليه السلام وكان فصيح اللسان جميل المنظر وزعم أنه يوحى إليه وأنه إنما يتكلم بالوحى فصار يعظ الناس ويجتمعون عليه ، ثم انتقل إلى بيت المقدس وكاتب اليهود الذين هم فى الممالك العثمانية فأجابوه وآمنوا به وصاروا يأتونه أفواجا ليتبركوا به ويبالغون فيما يحكونه عنه من إظهار عجائب وخوارق عادات كان يموه عليهم بها ويصنعها بالحيل كالحواة فيزعمون أنهـا معجزات فانتشر اسمه وكثر أتباعه وكان ذلك كله فى مدة سلطنة السلطان محمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن مراد بن سليم بن سليمان بن سليم فاتح مصر فأراد الوزير المتولى دمشق أن يقبض على ذلك اليهودى المدعى لهذه الدعوى لما رأى من كثرة أتباعه وكان اليهود الذين بالقسطنطينية قد كاتبوه وطلبوا منه أن يأتى إليهم فتوجه إليهم واستعدوا لملاقاته ليأخذوا بيده ويتبعوه ، فأرسل الصدر الأعظم وقبض على ذلك اليهودى وهو فى المركب الذى جاء فيه ووضعه فى السجن فكان اليهود يطلبون الإذن من الصدر الأعظم ليأذن لهم فى زيارته فى السجن وتقبيل أقدامه فكانوا يأتون لذلك من جميع الجهات فوضع الوزير على كل من جاء لزيارته مالاً جزيلا يأخذه منهم وجمع من ذلك مالا كثيراً فكان السجن يضيق عن هؤلاء الذين يأتون لزيارة مسيحهم ثم إن السلطان محمداً أحضر ذلك اليهودى بين يديه فأخذ يتكلم باللسان التركى كلاما ضعيفاً غير فصيح فقال له السلطان محمد أن مسيحاً مثلك يجب أن يكون فصيح اللسان بكل اللغات ثم قال له السلطان هل تصنع شيئاً من العجائب فقال نعم فى بعض الأوقات فقال له السلطان محمد إنى أريد أن أجرب فيك هذه العجيبة وأمر أن يجرد من ثيابه ويوقف فى فسحة الميدان ويرمى عليه بالرصاص فإن نجا ولم يهلك علم صدقه فيما يدعيه فلما سمع هذا الكلام خر راكعاً على الأرض وقال إن قوتى لا تقدر على هذه العجيبة فأمر

السلطان بقتله فرمى نفسه على قدم السلطان يقبلها ويعترف بالتوبة وتكذيب نفسه والدخول فى الإسلام فقبل السلطان محمد منه ذلك فأسلم وحسن إسلامه وصار يعظ اليهود فأسلم خلق كثير وأما الرجل المسلم الذى ادعى أنه المهدى فإنه رجل من الأكراد وظهر أيضاً فى هذا العام فى ناحية الموصل وتبعه خلق كثير فقبض عليه وأتى به إلى السلطان محمد أيضاً فأحضره وعرض عليه مثل ماعرض على اليهودى فأبت نفسه الشقيقة أن يعترف بالتوبة ويكذب نفسه بل رضى أن العساكر ترمى عليه الرصاص فرموا عليه فمات من ذلك وبعده خلع السلطان محمد وأقيم فى السلطنة أخوه السلطان سليمان الثانى ابن ابراهيم .

ولاية السلطان سليمان الثانى

فولى السلطنة وأمور الدولة فى غاية الارتباك وزيادة على ذلك هاج العساكر الانقشارية وقتلوا كبيرهم وقصدوا كثيراً من الوزراء ليقتلوهم وقتلوا الصدر الأعظم سيواس باشا وأقيم بعده اسماعيل باشا واستولت النيمسا على كثير من ممالك الدولة وكذا البندقية وبعد ثلاثة أشهر عزل اسماعيل باشا عن الصدارة وأقيم مكانه تكفور طاغلى مصطفى باشا سنة ألف ومائة وواحدة . وفى تلك السنة توجهت العساكر العثمانية إلى ناحية أدرنة وفى ذلك كانت عساكر النيمسا محاصرة بلغراد ثم ملكوها فى تلك السنة بعد حصار طويل .

ذكر غزوة السلطان سليمان الثانى

ولما بلغ الدولة أخذ بلغراد أمر السلطان بتجهيز العساكر لكى يخرج بنفسه وكانت الخزينة خالية من المال فعرضوا على أهل القسطنطينية أن كل عائلة تجهز خيالين وفى أثناء ذلك توجه من طرف الدولة إلى فينا بلاد النيمسا ذو الفقار أفندى لأجل المخاطبة فى عقد الصلح فعرض عليه امبراطور النيمسا أنه عند دخوله يسجد أولا عند باب القلعة وثانياً فى وسطها وثالثا أمام كرسيه ثم يقبل ذيله ويضع كتاب السلطان بين يديه ويرجع ساجداً كذلك فأبى وأقام عشرة أشهر فى هذه المنازعة ، ولما رأى السلطان أنه قد طال أمر هذه

الخاطبة أمر بالذهاب إلى الحرب فتقدمت العساكر إلى بلاد المجر وحاربتهم وأخرجت قلاعهم واستولت على أكثر البلاد وكان الجرنال درسكوفيس قد خرج على عساكر الدولة فى نواحى بلاد اليونان وكسرهم وكان عددهم خمسين ألفا وأما عساكر النيمسا الذين كانوا فى نواحى الطونة فقتلهم العساكر العثمانية وشتت شملهم فتركوا البلاد والقلاع وفر من بقى منهم .

ذكر غزوة إلى بلاد النيمسا

ولما وصل ذو الفقار من بلاد النيمسا إلى القسطنطينية وأعلم السلطان بما جرى له فى بلاد النيمسا لم يستحسن مصطفى باشا الصدر أن يتغاضى عن ذلك فعزم على حرب النيمسا فأمر بتجهيز العساكر وأخذ فى استجلاب قلوب الناس الذين كانوا تحت حماية النيمسا حتى احتموا بالدولة وأخذ جميع الآنية الفضية والذهبية التى كانت عنده وعند السلطان وأرسلها إلى دار الضرب فسبكها معاملة ثم توجه لمحاربة النيمسا ومعه نحو مائة ألف ففتح يساو ودين سمندريا وبلغراد ثم رجع إلى القسطنطينية مظفراً منصوراً .

ذكر غزوة أخرى

وفى سنة ألف ومائة واثنتين بلغ الدولة تقدم النيمسا فزحف عليهم مصطفى باشا بالعساكر المنصورة ، وتوفى السلطان سليمان فى رمضان من هذه السنة بداء الاستسقاء وعمره خمسون سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وتسعة أشهر .

ذكر ولاية السلطان أحمد الثانى ابن ابراهيم

وأول غزوة من غزواته

وجلس على تخت السلطنة بعد أخوه السلطان أحمد بن إبراهيم وكان الصدر الأعظم مصطفى باشا سائراً بالعساكر لمحاربة النيمسا وكانت عساكر الدولة تقدمت إلى قرب برزدين واشتبك الحرب والقتال بين الجيشين وانهزم من جيش المسلمين رئيس العساكر

الأكرادفلما شاهد ذلك مصطفى باشا صرخ عليهم بصوت عظيم واقتحم فى وسط المعركة يحرض العساكر على القتال والسيف بيده وإذا برصاصة أصابته فى رأسه فوقع قتيلا رحمة الله عليه وبموته تغلبت عساكر النيمسا على العساكر الشاهانية ووقعت الهزيمة وقتل خلق كثير من المسلمين قيل أن عدد القتلى كان ٢٨ ألفا وفى ذلك الوقت كانت عساكر المسلمين البحرية منصورة على الإفرنج نصراً شديداً ، وبعد موت الوزير أقيم مكانه عربجى على باشا ثم عزل سنة أربع وأقيم بيقلو مصطفى باشا وحدث فى هذه السنة حريقة فى القسطنطينية أحرقت ربع المدينة .

ذكر غزوة فى خلافة السلطان أحمد الثانى

فى ذى القعدة من هذه السنة توجه الوزير إلى بلغراد لمحاربة النيمسا وكانت محاصرة بلغراد فلما بلغ النيمسا قدوم الوزير رفع الحصار وهربت من أمامه فأمر الوزير بترميم الأماكن التى أخربتها عساكر النيمسا ورجع بعد ذلك إلى أدرنة وبقى جيش الدولة بمحافظة هناك ، وكانت دولة انجلترا تداخلت مع دولة هولاندا فى إتمام الصلح مع الباب العالى والنيمسا ولم يتم . وفى سنة خمس ومائة وألف توجهت العساكر لمحاربة المجروبسبب الأمطار الكثيرة رجعوا إلى بلغراد . وفى سنة ست توفى السلطان أحمد وعمره أربع وأربعون سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وثمانية أشهر .

ذكر ولاية السلطان مصطفى الثانى وغزوة يتلوها غزوات

وأقيم فى السلطنة بعده السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم وبعد جلوسه عرض عليه قضية الصلح فلم يقبل بل أصدر فرمانا شريفاً يقول فيه لايجوز لعبيد الله أن يتمتعوا بالراحة وهو هم على تخت السلطنة فمن الآن وصاعداً أحتم أن التلذذ والكسل يهجر من دولتى العلية لأن الأعداء قد أحاطوا بمملكة الإسلام واستأسروهم وسوف آخذ ثأرهم إن شاء الله تعالى وأسير أمام جيوشى لأن جدى سليمان المعظم الذى تتصاعد رائحة الطيب من قبره لم يكن يرسل وزرائه فقط للجهاد بل كان يخرج بنفسه

المبارزة فى الجهاد المقدس حتى أن فخره ومجده قد انتشر فى جميع الأقطار المسكونة وأنا سوف أصنع نظيره فأطيعوا أمير المؤمنين والسلام ، وكان السلطان مصطفى المذكور محباً للعلوم والمعارف متديناً عادلا وعلى جانب عظيم من الرقة والحذق ، ثم اجتمع رجال الدولة واتفقوا على أن السلطان لا ينبغى أن يخاطر بنفسه فلم يلتفت إلى كلامهم .

ذكر غزوة من غزوات السلطان مصطفى

ثم عزم على الخروج بالعساكر فأمر بجمع الجيوش وأرسل عمارة بحرية فضربت مراكب مشيخة البندقية بقرب ساقس وكسرتهم كسرة مهولة وشتتتهم فى جهات البحر الأبيض وتملكت عساكر الدولة جزيرة ساقس وسار السلطان بنفسه مع العساكر وعبروا نهر الطونة وقاتلوا عساكر النيمسا وملكوا جملة بلاد وقلاع وقطعوا رأس الجنرال فيترانى ، وكانت عساكره أكثر من عساكر الدولة بخمس مرات وأخذوا مدافعهم ومهماتهم وهدموا القلاع والحصون وعند دخول الشتاء رجع السلطان بجانب من العساكر إلى أدرنة وترك الباقى يحارب النيمسا ، ثم دخل بالعساكر القسطنطينية فى موكب حافل ومعه أسارى كثيرة ومدافع وبيارق من غنائم النيمسا وفى أثناء ذلك حاصر ملك المسكوف قلعة أزوف فكسرته عساكر الدولة تحت أسوارها وقتلت من عساكره ثلاثين ألفاً ورجع عنها بعد حصار ثلاثة أشهر وتملك المسكوف بحر أزوف وبنى على سواحله قلاعا .

ذكر غزوة عظمى

بلغ السلطان أن النيمسا جمعت عساكر كثيرة وجعلت قائدها أوجين الفرنساوى ، وكان متدربا فى الحرب ، فسار السلطان سنة ثمان ومائة وألف بمائة ألف مقاتل إلى مدينة أدرنة وأرسل الجيوش منها لمحاربة النيمسا فالتقوا واقتتلوا قتالا شديداً ، وكان النصر للمسلمين فقتلوا من النصارى عدداً كثيراً وشتتوهم فى جميع الجهات ورجع السلطان إلى مقر ملكه .

غزوة أخرى

فى سنة تسع بلغ الباب العالى رجوع عساكر النيمسا مع الجنرال أوجين الفرنساوى. فخرج السلطان بنفسه بالعساكر وصحب معه وزيره الصدر الأعظم محمد الماس باشا واستولوا فى طريقهم على عدة قلاع ، ثم التقوا بجيوش النيمسا التى مع أوجين الفرنساوى ووقع بينهم وقعات ثم صارت الهزيمة على عساكر المسلمين وقتل الصدر الأعظم فى ميدان الحرب وأقيم مكانه حسين باشا ثم انهزم ورجع إلى بلاد المجر ، وفى أثناء ذلك سعت دولة فرنسا وانجلترا وهولاندا فى الصلح واختاروا مدينة كرلوقر لانعقاد الجمعية بهذا الصدد والسبب أن الدولة كانت كلت وقلت النقود من كثرة الحروب فحصل القبول لهذه الجمعية فاجتمعت عمد الدولة العلية ودولة فرنسا وانكلترا والمسكوف والنيمسا والبندقية وبولونيا وهولاندا وبعد ٣٦ جلسة فى ٧٢ يوما تم الصلح فى رجب سنة ١١١٠ وانعقدت شروطه باتفاق الجميع وتلك الشروط تعرف بشروط كازلاويز ، وكان من جملة الشروط حصول الهدنة ومتاركة الحرب مع النيمسا ٢٥ سنة وأما الموسكوف فلم يقبل إلا بهدنة سنتين وبعد انعقاد الصلح هاجت الناس والعساكر بسببه وانتشر من ذلك فتنة عظمى وطالت إلى أن قاموا على السلطان وخلعوه وقتلوا شيخ الإسلام فيض الله أفندى قيل أن السلطان مصطفى لما بلغه أنهم يريدون خلعه دخل على أخيه أحمد وأخبره بذلك وترك له كرسى السلطنة فكانت مدة تملكه ٨ سنين و ٤ أشهر ، وكان خلعه سنة ١١١٥ ومات فى السنة التى بعدها فعمره ٤١ سنة .

ولاية السلطان أحمد الثالث

تسلطن بعده أخوه السلطان أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم ، وكان من الصالحين المحبين للجهاد وإقامة الحق ولما جلس على تخت السلطنة كان أهم شىء عنده أخذ القصاص من العصاة الذين كانوا سببا فى تلك الفتنة ، وقتل كثيراً منهم .

ذكر غزوة فى زمن السلطان أحمد الثالث

ثم جهز عمارة لمحاربة البندقية فى جهات المورة فملكوا أكثر الجزائر واستأثروا كثيراً من البندقية واستولوا على مراكبهم ، وفى سنة ستة عشر ومائة وألف قامت الحرب على قدم وساق بين قيصر الروسيا بطرس وكارلوس ملك السويد واسترسلت إلى سنة فانكسر أخيراً كارلوس المذكور وفاز عليه قيصر الروسيا بطرس الأكبر ، ولما انهزم ملك السويد دخل فى حدود الدولة فأمر السلطان وقتئذ أن يكرم غاية الإكرام وأن تكون مصاريفه ومصاريف كل تبعته من خزينة الدولة ومكث فى بلاد الدولة مداوماً الإلحاح عليها لمحاربة الروسيا إعانة له فامتنعت الدولة من إجابته .

ذكر غزوة إلى الروسية

ثم أجابته فى سنة ١١٢٣ وأشهرت الحرب على الروسية وجهزت جيشاً تحت قيادة محمد باشا البلطجى ، فاشتبك القتال بين الطرفين عند نهر برت وبعد كفاح شديد تقهقر جيش الروسية وأمسى القيصر فى خطر مبين ولو لم تتدارك الأمر زوجته كاترينا بحذاقتها ودرايتها لأصبح زوجها أسيراً ، فعقدت صلحاً مع الوزير الأعظم تحت شروط منها ترجيع بحر أزوف إلى الدولة وهدم الحصون التى على سواحل هذا البحر ويترك للدولة المدافع التى فيها وعدم مداخلة الروسية فيما يخص القذف ، وأن تتعهد لملك السويد بحرية الرجوع إلى بلاده وبعد المصادقة على هذه العهود من الطرفين أرسل الوزير يعلم السلطان بالنتيجة فغضب وأمر بعزله ونفيه ، فمات بعد شهر وأقيم مكانه يوسف باشا وتم رأى رجال الدولة على إبطال ذلك الصلح مع الروسية وإشهار الحرب عليهم بعد قتل جملة أشخاص كانوا السبب مع ذلك الوزير فى تلك العهود ، وكان يوسف باشا الصدر الجديد لا يريد الحرب ، فلذلك صار يؤخر فى تجهيز المهمات الحربية واجتهد فى تجديد الصلح مع الروسية على هدنة خمسة وعشرون سنة ، فلما بلغ السلطان ذلك أمر بعزل يوسف باشا وأقام مكانه سليمان باشا وذلك سنة أربع وعشرون ومائة بعد الألف ثم إن ملك السويد أراد الرجوع إلى بلاده

وطلب من الدولة ألف كيس ، فأمرت له بها ، ثم طلب ألفاً أخرى فأمرت له بها ، فغضب الوزير وأراد إخراج ملك السويد بالعنف وجرى بينه وبينه أشياء يطول ذكرها ، فعزل السلطان الوزير سليمان باشا وأقيم مكانه إبراهيم باشا ، ثم بعد عشرين يوما عزل وأقيم مكانه داماد على باشا فعقد الصلح مع الروسية على ٢٥ سنة وفى أثناء ذلك حضر ملك إلى السويد كتاب من أخته تقول له : إن حضوره لازم لأجل راحة المملكة ، فعزم على الرحيل واستأذن الدولة فى الرجوع فأمرت له بستمائة جاويش لأجل محافظته فى الطريق وأهدته ثمانية أفراس من جياد الخيل وصيوانا مطرزاً بالذهب وسيفاً مرصعا بالأحجار الثمينة ، فرحل من بلاد الدولة سنة ست وعشرون ومائة بعد الألف شاكراً أفضال الدولة على ماصنعته معه من الغيرة والمساعدة ونحو ذلك من الأعمال الممدوحة التى تستحق أن ترقم فى صحائف التواريخ لتكون تذكاراً بين الملوك وأهل السويد لا ينسون هذا الجميل الذى فعلته الدولة العلية فى حق ملكهم .

ذكر غزوة عظمى

وفى سنة ست وعشرين أيضاً فتحت الدولة والحرب على البندقية واستولت العساكر العثمانية على أكثر بلاد المورة وعلى جزائر البنادقة وذلك سنة سبع وعشرين ومائة وألف ، وكانت مشيخة البنادقة استغاثت بملك النيمسا وهو إذ ذاك امبراطور ألمانيا فلبى دعوتها وبعث إلى الدولة العلية يطلب منها أن ترسل معتمد من طرفها إلى حدود بلاد المجر لأجل المخابرة معه لجهة جمهورية البندقية وإن أبت عن ذلك فإنه مستعد أن يشهر الحرب عليها فلم تجب الدولة هذا الطلب .

ذكر غزوة

بل أرسلت على الفور الصدر الأعظم بمائة وخمسين ألف مقاتل لمحاربة ألمانيا فوافاهم ثمانون ألفاً من عساكر الألمان تحت قيادة الأمير أوجين الفرنساوى والتقى الجيشان عند كارلوفيتز والتحم القتال بين الفريقين مدة أيام ، وكان الصدر الأعظم داماد على باشا من

أحسن أبطال زمانه فكان ينزل فى ميدان الحرب ويقاتل بنفسه أشد القتال فقدر الله أنه قتل فى ميدان القتال فانهزمت الجيوش العثمانية انهزاماً مهولا واستولت عساكر العدو على المهمات والمدافع ، ثم تقدموا إلى مدينة تميغار وحاصروها شهرين وملكوها .

ذكر غزوة أخرى

وولى الصدارة خليل باشا فجهز جيشاً لقتال العدو وسار إلى أدرنة ومنها إلى بلغراد واشتبك القتال بين الجيشين سنة ١١٢٩ ولسوء تدبير هذا الوزير وقعت الهزيمة أيضاً على جيش المسلمين وملك العدو مدينة بلغراد فعزل الصدر وأقيم مكانه محمد باشا وعزل بعد ثمانية أشهر وأقيم مكانه داماد إبراهيم باشا وكان جانب من عساكر الدولة مشتغلا بالحرب مع العدو فى جهة بوسنة ولما بلغت هذه الأخبار ديوان السلطنة فتحت المخابرة فى الصلح سنة ثلاثين ومائة وألف وكان السلطان يريد عقد الصلح مع كل من دولة ألمانيا وجمهورية البندقية على حدته فأجاب الأمير أوجين بأن الإمبراطور لا يفتح المخابرة إلا تحت شرط عقد الصلحين سواء تحت نظره وأردف هذا الطلب بأن يعطى له ما عدا مصاريف الحرب ومدينتى بلغراد وتميغار وإقليما بوسنة والصرب والواقعان فى الجهة اليمنى من نهر الدانوب والأفلاق من حدود بغدان إلى نهر دنيستر وأن ترجع المورة إلى البندقية فعظمت هذه المطالب على السلطان أحمد وفضل فقد التاج على التسليم بشروط مجلبة للعار فتداخلت أخيراً دولتا انكلترا وهولانده فى نقض الخلاف وصار القرار على أن يبقى فى يد كل من الدولتين الأملاك التى تكون فى يدها عند امضاء المعاهدة وأن يبقى إيالة المورة للدولة العلية وفى سنة ٣٣ حدثت حريق مهولة فى القسطنطينية أحرقت نحو ربعها وبعد نهاية الصلح جددت الدولة مع الروسية وملك بولونيا شروط الصلح وروابط العهود .

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

فى سنة ثمان وثلاثين جاء جماعة من أهل السنة يسكنون فى حدود العجم إلى السلطان أحمد يشكون من المظالم والتعدى التى يجريهـا الشيعة عليهم ويستنجدون به ويطلبون خلاصهم من تلك المظالم فأجابهم السلطان أحمد وسير جيشاً إلى بلاد العجم وفتحوا جملة حصون ومدينة أرمقان ونهاوند وتبريز وشتتوا جموع الأعاجم قتلا وأسراً وامتلأت أيديهم من غنائمهم فأرسل شاه العجم يخاطب الدولة فى الصلح فقبلت بشروط أن يرجع إلى الدولة البلاد التى كان استولى عليها وفى أثناء ذلك مات شاه العجم حسين وملك ولده طهماسب فأرسل إلى الدولة يطلب ترجيع الأملاك التى أخذت من أبيه وحاصر تبريز وملـكها واستولى على ستمائة حمل جمل من الأمتعة فصدر الأمر من السلطان أحمد بتجهيز العساكر لحرب الأعجام وعند ما كانوا على هيئة الذهاب وذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هاجت العساكر الانـكشارية وتمردوا وطلبوا من السلطان قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وشيخ الإسلام وقبطان باش وكتخدا بك لشكايا يشكون منها فلم يقبل السلطان منهم ذلك فقالوا نسمح عن شيخ الإسلام فقط ثم قتلوا الصدر الأعظم إبراهيم باشا وكتخدا بك، ثم أن بعض العسكر أنـكروا أن المقتول إبراهيم باشا وقالوا أن المقتول رجل يشبهه وليس هو ورجعوا يطلبون من السلطان إحضار إبراهيم باشا وأخذوا يصرخون يعيش السلطان محمود وساروا يطلبون السلطان محموداً فى المـكان الذى هو فيه وأتوا به إلى الديوان وأجلسوه على كرسى السلطنة وبايعوه بعد أن خلعوا عمه السلطان أحمد فكان خلعه سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف وتوفى سنة تسع وأربعين وعمره ستون سنة ومدة ملـكه سبع وعشرون سنة وأحد عشر شهراً .

ولاية السلطان محمود الأول

وأما ابن أخيه الذى أقيم فى السلطنة بعده فهو السلطان محمود الأول ابن مصطفى بن محمد بن إبراهيم هـكذا ذكرت هذه القصة فى كثير من التواريخ ورأيت فى تاريخ مكة

للرضى حكاية كيفية خلع السلطان أحمد المذكور وكيفية قتل الوزير إبراهيم باشا ، فقال . في تاسع عشر شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف كان جلوس السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم السلطان محمود بن السلطان مصطفى بن محمد ورفع عمه السلطان أحمد بن السلطان محمد المتولى سنة ألف ومائة وخمس عشرة وكان هذا الرفع والجلوس لأسباب وأمور اقتضت وقوع هذا الحادث العظيم والخطب الجسيم، وهو أنه لما تكاثرت المظالم من وزير السلطان أحمد إبراهيم باشا ومن كيخيته حتى زاد الحال على المسلمين اجتمع من أطراف العسكر اثنا عشر نفراً لا زيادة واستمر عشرة أيام وهم فى كل يوم يخرجون ويجتهدون فى أن يعضدهم أحد من العسكر فلم يحصل ذلك وفى اليوم الحادى عشر تكاثرت الأمة عليهم فغاب منهم أحد عشر لا يدرى أين ذهبوا ولم يبق منهم إلا واحد فصار ذلك الواحد أمير تلك الأمة المجتمعة فأركبوه جواداً وامتثلوا له جميع ما أمر ، وصارت عدتهم فوق العشرة آلاف وفى أثناء ذلك السلطان أحمد حافظ للوزير وكيخيته وأمير البحر المسمى بالقبطان وهو فى غاية الذلة والهوان أرسل إليه أمير الأمة المذكور بأن أدفع إلينا الوزير والكيخية ، نريد أن نقتص منهم مظالم الخلق فاضطرب حالهم ضطراباً انجلى عن قتل الوزير لكيخيته بيده ثم قتل القبطان أيضاً بيده ثم قتل الوزير بعض خدم السلطان وأرسل إليهم برؤوس الثلاثة بناء على أن ذلك مرض لهم فزاد الحال وكثر الجدال وقالوا إن قتل القبطان كان ظلماً لأنه لم يصدر منه ما يوجب ذلك وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، وأما قتل الوزير وكيخيته فلم يكن لنا به غرض بل كان مطلوبنا حضورهما حيين نطالبهما بحقوق العباد وما كان يصدر منهما فى البلاد ، ثم صرحوا بعدم الرضا بالسلطان أيضا فعرض عليهم تولية ابنه السلطان سليمان فامتنعوا عن ذلك فرأى هو ومن لديه من أهل الحل والعقد أنه لا يطفىء هذه الثائرة إلا إخراج السلطان محمود من الحبس وتوليته السلطنة ، فقام السلطان أحمد بنفسه وذهب إليه فى الحبس وأخرجه وأجلسه على التخت ثم أرسل إليهم بأن يتفرقوا فأبوا إلا بعزل بعض أشخاص عن مناصبهم وتولية غيرهم وقتل آخرين ونفى جماعة فتم لهم ما طلبوه ، ثم رغب منهم السلطان محمود التفرق فتوقفوا أيضاً ، فأرسل إليهم شيخ الإسلام بأنكم إذا لم تتفرقوا وإلا أخرجت لواء النبى .

صلى الله عليه وسلم وأخذت عليكم فتوى ووجهت الجهاد عليكم ، فعند ذلك تفرقوا فطلب ذلك الرجل الذى كان أمير هذه الأمة المجتمعة ، فلم يوجد له خبر ولا أثر ولا يدرى أين ذهب واستقرت السلطنة للسلطان محمود الأول وصدرت منه الأوامر العلية إلى جميع ممالكه وزينت البلاد وكان من أغرب الاتفاق أن أخرج تاريخ ذلك قوله تعالى ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ .

ذكر غزوة إلى بلاد العجم

وقد وقع فى مدة السلطان محمود المذكور محاربات بينه وبين الروسية وألمانيا عدة سنوات وكذا وقعت أيضا محاربات بينه وبين العجم .

ذكر غزوة إلى العجم

فمنها أن العجم جهزوا جيوشهم وأغاروا على مواضع مما كانت فى حكم الدولة وأخذوها وحاصروا بغداد فجهز السلطان محمود عليهم جيوشاً سنة ست وأربعين ومائة وألف وأزالهم عن محاصرة بغداد وشغلتهم فى الجهاد وقتل منهم مقتلة عظيمة ورجع بعض جيوش الدولة إلى كردستان ليخلصها من أيدى الأعجام واشتبك الحرب وقتل رئيس العساكر العثمانية طوبال عثمان باشا فى ميدان الحرب ، وقد كان فى السنة التى قبلها عقد صلحاً مع العجم على أن تبريز تكون تحت أيدى العجم ، فغضب السلطان محمود ولم يرض بذلك ، ولما قتل طوبال عثمان باشا انهزمت عساكر الدولة ، فلما بلغ الخبر الباب العالى جهز السلطان جيشاً آخر لقتال العجم ، ولما وصل الجيش إلى شط نهر كوبال صدهم الموسكوف عن المسير فرجعوا ودخلت عساكر الموسكوف فى بولونيا فشكتهم الدولة إلى ملوك أوروبا لأن ذلك مخالف للشروط التى كانت بينهم فاعتذر الموسكوف بأن دخول عساكره فى بولونيا لمنع دولة فرنسا من تسليم أحكام بولونيا فلم تقبل الدولة هذا العذر وأشهرت الحرب على الموسكوف .

ذكر غزوة إلى بلاد الموسكوف

وسارت العساكر فى سنة تسعة وأربعون ومائة بعد الألف بعد أن عقدوا صلحاً مع العجم غير الصلح الذى تقدم ذكره على شرط رجوع حدود الدولة على ما كانت أيام السلطان مراد الرابع ، وفى مدة عقد هذا الصلح تقدمت عساكر الموسكوف وأخذت بعض جهات من أراضى الدولة فلما تجهزت عساكر الدولة توجهت إلى القرم واقتتلوا مع الموسكوف فانتصرت عساكر الدولة وهزموهم ثم أن الموسكوف اتحدت مع النيمسا وألمانيا وكانت ألمانيا تابعة للنيمسا ورجعوا واستلموا قلعة أزوف وانهزمت عساكر الدولة أمام هذه القلعة واستولت عساكر النيمسا على ثمان مدن من بلاد الصرب والأفلاق وعلى قلعة نيش .

غزوة أخرى

فرجعت إليهم عساكر الدولة وهزمت عساكر النيمسا قدام بنالوغا وتشتت فى جهات البلاد وامتد الانتصار إلى أن طردت عساكر الدولة النيمسا من الأفلاق والبغدان وأرصوفا واسترجعت قلعة نيش وأحرقت لهم سبع مراكب حربية فى البحر تجاه قلعة اليرابت وتوسطت فرنسا فى الصلح فلم يقبل السلطان ، فلم تزل فرنسا تراجع السلطان إلى أن تم الصلح بشرط أن النيمسا ترجع بلغراد للدولة وكل ما استولت عليه من الأفلاق والصرب وغير ذلك وأن يكون الحد الفاصل بين المملكتين نهر الطونة وعقدوا هدنة طويلة وهى سبعة وعشرون سنة واشترطت الدولة على الموسكوف أن لا يكون لها مراكب حربية ولا تجارية فى البحر الأسود وبحر أزوف وأن الموسكوف يرجع الأماكن التى استولى عليها فى مدة الحرب وأن يهدم قلعة أزوف وبعد هذا الصلح طلبت دولة السويد عقد معاهدة مع الدولة العثمانية بالاتفاق على حرب من يعاديهم فأجابتها الدولة إلى ذلك وعظم أمر السلطنة فى تلك السنة . هذا تلخيص ما كان فى مدة السلطان محمود الأول وكان من أعظم سلاطين آل عثمان عقلا وهمة وتدبيراً ومحبة للجهاد ونصرة الدين وإقامة الشريعة .

وتوفى رحمه الله سنة سبعة وستون ومائة بعد الألف وعمره ستون سنة ومدة ملكه أربع وعشرون سنة (ولاية السلطان عثمان الثالث) وأقيم فى السلطنة بعده أخوه السلطان عثمان بن السلطان مصطفى بن محمد بن إبراهيم ومكث قريبا من أربع سنين وتوفى سنة إحدى وسبعون ومائة بعد الألف (ولاية السلطان مصطفى الثالث) وأقيم بعده فى السلطنة السلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث بن محمد الرابع بن إبراهيم ، فلما استقر فى ملكه أخذ فى تعظيم ملكه وتقوية ما وهن منه وكان ذلك بإسعاف وزيره الصدر الأعظم محمد راغب باشا المشهور بالعلم والتدبير وحسن السياسة ، وفى سنة ست وسبعون ومائة بعد الألف توفى راغب باشا وبعد وفاته شبت نيران الحرب بين الدولة والروسية وفى هذه السنة خلعت كاترينا امرأة ملك الموسكوف بعلها عن كرسى السلطنة وجلست مكانه وسجنته ، ثم أمرت بقتله فقتل وأخذت تسعى فى إخراج اليونان عن طاعة الدولة العثمانية وحركت اليونان فى الموردة والأرناؤوط وأخذوا يستعدون لخلع الطاعة ونهض على بك بمصر وتغلب عليها وعلى الشام وأراد الاستقلال وأرسلت الدولة من عساكرها أربعين ألفاً لحماية البلاد على شاطىء نهر الطونة وأرسلت اليونان إلى كاترينا ملكة الموسكوف تستنجد بها فبعثت لهم جيشاً لم يغن شيئاً فهزمتهم عساكر الدولة غير أن عساكر الموسكوف فى تلك الأيام انتصرت على عساكر الدولة التى كانت على حدود الطونة واستولوا على بندر وا كرمان واسماعيل وقلاع على شاطىء هذا النهر، ولما بلغ الباب العالى هذه الوقائع صدر الأمر بتكثير الجيوش ، وفى السنة الثانية تغلبت عساكر الدولة على عساكر الموسكوف فرجعت إلى بلادها بعد أن فقد منها عساكر كثيرة فى الحرب وبالطاعون وحينئذ أخذت النيمسا وبروسية فى التوسط فى الصلح وتوقيف الحرب ولكن لما رأت الدولة أن مطالب الموسكوف غير مقبولة رفضت هذا الطلب وأشهرت الحرب .

ذكر غزوة إلى بلاد الموسكوف

وفى سنة ألف ومائة وست وثمانين سار الصدر الأعظم محسن باشا بالعساكر لمحاربة الموسكوف فضربهم على نهر الطونة وأخذ منهم ستمائة أسير وسار حسن باشا قبطان باشا

بجانب من العساكر الشهانيه وضرب عسكر الموسكوف على نهر الطونة أيضاً وأخذ مدافعهم وذخائرهم ، وفى أثناء هذه الغلبات توفى السلطان مصطفى سنة سبع وثمانون ومائة بعد الألف وعمره ثمان وخمسون سنة ومدة ملكه ست عشرة سنة .

ولاية السلطان عبد الحميد الأول

وأقيم فى السلطنة بعده أخوه السلطان عبد الحميد الأول ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع بن إبراهيم وكان أخوه السلطان مصطفى قد ترك له نهاية الحرب الجسيم مع الروسية فأمر بإنجاز الجيوش وتكثيرها .

ذكر غزوة للسلطان عبد الحميد الأول

بعث مع الصدر الأعظم أربعمائة ألف مقاتل والتحم القتال بينهم وبين الجيوش الروسية فحصلت لهم هزيمة وانحصروا فى شملة ووقعوا فى صعوبة كلية ، فاجتهد السلطان فى إرجاع قوة الدولة وكانت العساكر قد كلت من الحروب وحدث بين العساكر الانكشارية شغب ، فتركوا الصدر الأعظم فى ميدان الحرب بجانب قليل من العساكر فرجع إلى شملة وأرسل يعلم الباب العالى بذلك فصدر الأمر بعقد الصلح فتم على شروط تعرف بمعهد كوجيك قينارجه ، وهى منطوية على استقلال التتر فى بلاد القرم واليوجاك والكوبان ، وعلى سير السفن الروسية فى بحر الدولة ، وترك أزوف وكيل برون وبعض القلاع إلى الموسكوف وقبول الدولة انقسام بولونيا والموسكوف يترك للدولة الأفلاق والبغدان والجزائر التى كانت فى فى يدها فى البحر الأبيض وبعد إمضاء هذه الشروط عاد الصدر الأعظم محسن باشا بمن معه من العساكر إلى دار السلطنة وتوفى فى طريق مدينة أدرنة وأقيم مكانه محمد عزت باشا وأخذ السلطان عبد الحميد فى إصلاح أمور السلطنة وقمع العصاة الذين فى ممالكه ولم تقنع الروسية بما جرى من الصلح ولم تلتزم الشروط بل كانت تتعدى من حين إلى حين على حدود الدولة حتى أنها أغارت على القرم واستولت عليها وكان السلطان عبد الحميد تلك يتحمل التعديات بمرارة عظيمة زمانا طويلا ويرى سلطنته مشرفة على وهدة السقوط

وهو غير قادر على أن يأتيها بالعلاج الشافى ولما رأى أن كثيراً من ممالكه وقعت فى قبضة الأجانب شرع فى استعدادات جديدة للحرب .

ذكر غزوة أخرى

وبعث جيوشاً متعددة فمنها جيش سار به حسين باشا القبطان فقتل كثيراً من العصاة وبعث برأس ظاهر العمر الذى تغلب فى جانب سورية وبرأس حاكم البغدان الذى كان يحاكيه فى الشقاوة .

غزوة أخرى

ثم توجه حسين باشا المذكور لتأديب اليونان ساكنى المورة فسار إليهم وقتل منهم أصحاب الفتن والدسائس فأرعب قلوبهم وكسر عزائمهم وألزمهم الطاعة وطلب العفو لهم من الباب العالى وكانت كاترينا ملكة الروسية تجتهد دائما فى تخفيض قوة الدولة العثمانية وما اكتفت بتملك القوم فأرسلت أناسا فى كثير من الممالك يزرعون فيهما الفتن فلما نظرت رجال الدولة تعدى الروسية على حقوق الدولة استشاطوا فى ذلك ونادوا بالحرب وكانت الإنكليز تحرض الدولة على ذلك ويؤكد لها الإعانة وأن دولة اسوج وبلونيا ينهضان معها لإسعاف الإسلام وأن بروسية تقاوم النيمسا .

ذكر غزوة أخرى

فصدر الأمر إلى الصدر الأعظم يوسف باشا فتوجه لحرب الروسية والنيمسا وكانت كاترينا ملكة الروسية حضرت إلى بلاد القرم بجيش عظيم وحضر امبراطور النيمسا بجيش عظيم وكان قد تعاهد معها على محاربة الدولة وكانت فرنسا متفقة مع الروسية سراً فاقتتلت عساكر الدولة مع النيمسا فى محل يقال له فتح الإسلام والجزيرة الكبيرة فانتصرت العساكر الإسلامية واستولت على كثير من القلاع والحصون .

غزوة أخرى

وتوجهت فرقة أخرى من عساكر الدولة لمحاربة الروسية تحت رئاسة شاهين على باشا وعندما كانت العساكر العثمانية متغلبة على عساكر النيمسا حتى كاد امبراطور النيمسا يقع أسيرا تقدمت عساكر الروسية واستولت على البغدان وعلى كثير من القلاع والحصون ولم يحضر أحد من باقى الدول الذين وعدوا بالمساعدة والنصر ، فلما شاهد الصدر الأعظم ذلك كتب إلى الباب العالى يستأذن إلى السعى فى عقد الصلح ، وفى أثناء ذلك توفى السلطان عبد الحميد سنة ألف ومائتين وثلاث وعمره ست وستون سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة .

ولاية السلطان سليم الثالث وغزوة من غزواته

وجلس على تخت السلطنة بعده ابن أخيه السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث ابن محمد الرابع ابن إبراهيم وبعد جلوس السلطان سليم وجه همته إلى اصلاح حال العساكر وتقوية العمارة البحرية ، وأمر بجميع الجيوش من جهات البلاد لتكثير الجيوش المجتمعة قبل ذلك فاجتمع فى وقت قريب نحو مائة وخمسين ألف مقاتل وكان اجتماعهم فى مدينة صوفيا وكانت عساكر الروسية سارت مع عساكر النيمسا لمحاربة العساكر الإسلامية التى كانت تحت رئاسة الصدر الأعظم يوسف باشا وقبطان باشا حسين باشا ، فانتشب القتال بينهم وبين عساكر الدولة فى البغدان وبقى نحو شهرين فحصلت هزيمة لعساكر الدولة واستولوا على أكثر مدافعهم ومهماتهم وبسبب ذلك عزل الصدر الأعظم يوسف باشا وأحيلت رتبة الصدارة إلى كتخدا حسن باشا ، ثم عزل وصار بدله حجازى حسن باشا سنة ١٢٠٤ فتوفى وصار بدله شريف حسن باشا ، وأما عساكر الروسية فتقدموا أيضا فى البلاد واستولوا على قلعة بلغراد وقلعة بندر وايالتى الافلاق والصرب وكل المدن التى على شاطىء الطونة وكادوا يستولون على قلعة اسماعيل التى هى أعظم حصن فى بلاد الدولة التى فى تلك الجهات وبينما هم كذلك إذ حضر الخبر بموت امبراطور ألمانيا وكان متعاهداً مع مملكة الروسية على محاربة الدولة وجلس فى مكانه

أخوه فانفصل عن معاهدة الروسية وعقد معاهدة مع الدولة العلية بواسطة انكلترا وبروسية وشرطوا عليه أن يرد للدولة ممالك الدولة التي افتتحها النيمسا ، فرد لهما كل الأراضي التي افتتحها مع النيمسا وأبقى في يده روكزيم إلى حين تمام الصلح بين الدولة والروسية ، وسعى في عقد الصلح بين الروسية والدولة فلم تقبل ملكة الروسية كاترينا وكانت مواظبة على الحرب فتقدمت عساكرها إلى قلعة اسماعيل ، وأقامت الحصار عليها، وكان في القلعة نحو ثلاثين ألفا ، فقطعوا عنهم الزاد والمهمات ، وصرخوا على عساكرهم الموت وإلا قلعة اسماعيل وهجمت عساكرهم على تلك القلعة وافتتحوها ، واشتد القتال بين الجيشين حتى ملأ القتلى خنادق تلك القلعة ، ولما هجم الليل صعدت العساكر على جثث القتلى ودخلوا القلعة وحاربوا فيها حربا شديداً ، فكانت النساء والأولاد يجمعون سلاح القتلى ويهجمون على عساكر المسلمين وما زالوا كذلك حتى قتل رئيس العساكر مع كل الذين كانوا دخلوا القلعة ولم ينج منهم إلا رجل واحد طرح نفسه في النهر وذهب إلى القسطنطينية وأعلمهم بأن الغلبة وقعت على عساكر الدولة لأنهم مكثوا ثلاثة أيام وثلاث ليال والسيف دائر فيهم حتى أن الدم جرى كالسواقي وقتل من النساء والأطفال في تلك المعركة خمسة عشر ألفا ، ولما وصل هذا الخبر إلى القسطنطينية هاجت العساكر هيجانا عظيما وطلبوا من الدولة رأس حسن باشا صدر أعظم قائد العساكر مع أنه كان من أعظم رجال زمانه في الحروب البرية والبحرية ولكن النصر من عند الله ولا أراد لقضاء الله وقدره ولأجل تسكين هذا الهيجان قتل حسن باشا وجيء لهم برأسه وأحيلت الصدارة إلى يوسف باشا الذي عزل سابقاً وبعد ذلك تقدمت عساكر الروسية وقاتلت العساكر الإسلامية في الجهة الثانية من نهر الطونة وذلك في سنة خمس ومائتين وألف فتوسطت دولة الإنكليز والبروسية في الصلح فتم سنة ست ومائتين وألف على شروط وهي أن الروسية ترجع للدولة كل الأماكن التي فتحتها خلا أوكزاكوف والأراضي الواقعة بين بوغ وسليسترة حيث أقامت الملكة كاترينا مدينة أودسا سنة ألف ومائتين وسبع تذكاراً لنصرها وهي مدينة شهيرة أكثر سكانها نصارى على البحر

الأسود سكانها نحو أربعين ألفاً ، ثم سعى السلطان سليم فى ترقية أسباب تقدم بلاده وعمرانها وأرسل يطلب من فرنسا مهندسين أو معلمى صنائع وضباطاً إلى غير ذلك فبعثت له بجانب عظيم ثم أن العلاقات الودادية تكدرت معها لما استولت على مصر سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وأقاموا فيها إلى سنة ست عشرة فالتزمت الدولة العلية أن تشتهر حربها إلى أن أخرجتها من مصر بمعاضدة انكلترا وسيأتى ذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

ذكر فى غزوة مدة السلطان سليم الثالث

وفى سنة ألف ومائتين وأربع عشرة وجه عمارة مع عمارة الروسية وفتحتا السبع الجزائر التى كانت لجمهورية البندقية ، وكانت فرنسا يومئذ متولية عليها وهذه هى المرة الأولى التى اتحد فيها هاتان الدولتان ، وفى سنة خمس عشرة صار الاتفاق أيضاً بين الدولتين المشار إليهما فى صيرورة الجزائر المذكورة حكومة مستقلة خاضعة للسلطنة العثمانية تحت اسم جمهورية السبع الجزائر وفى سنة سبع عشرة ومائتين وألف عقدت معاهدة صلح بين الدولة العلية وفرنسا .

ذكر غزوة إلى بلاد الروسية

وفى سنة إحدى وعشرين اتفقت الدولة مع فرنسا على حرب الروسية فكان ذلك داعياً لتعكيرها مع انكلترا إلا أنها كانت تسعى فى ملاشات شوكة نابليون امبراطور فرنسا ولكن لم تستطع انكلترا أن تمنع السلطان سليما من محاربة الروسية لأن جيوش الروسية كانت تجاوزت الحدود ودخلوا الأفلاق والبغدان وذلك مخالف للعهود ، فاضطر السلطان سليم أن يحافظ على بلاده ويدافع عن حقوقه فجهز الجيوش وأرسلها تحت قيادة الصدر الأعظم مصطفى باشا جلبى ومصطفى باشا البيرقدار إلى الأقليمين المذكورين فحاربوا الروسية ومنعوا تقويهم على الأراضى العثمانية ولما أيست انكلترا من إيقاع المنافرة بين الدولة العلية وفرنسا سارت بمراكبها إلى الإسكندرية وتملكوها فأخرجهم منها محمد على

باشا حاكم مصر ، وكان من الأسباب فى حضور الانكليز لأخذ الإسكندرية أن الصناجق المماليك الذين كانوا متغلبين على مصر كان بينهم وبين محمد على باشا محاربات وشتتهم فى الأرياف ، فأرسل كبيرهم محمد بك الألفى للانكليز يستنجد بهم فحضرت مراكبهم فى ثغر الاسكندرية فى أول محرم سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف وعدتها اثنان وأربعون مركباً مشحونة بالعساكر ، وضربو على الاسكندرية بالقنابر والمدافع الهائلة من البحر فهدموا جانبا من البرج الكبير ، وكذلك الأبراج الصغار والسور فعند ذلك طلب أهل الاسكندرية الأمان فرفعوا عنهم الضرب ، ودخلوا البلد ثم سيروا جيشاً منه إلى رشيد فدخلوها ثم ثار عليهم أهل رشيد وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فرجع الباقون إلى الاسكندرية منهزمين ، واستعد محمد على باشا لمحاربتهم وإخراجهم من الاسكندرية وشرع فى تعمير القلاع واستنفر كافة الناس لقتالهم واستمر الحال إلى أواخر جمادى الآخرة من السنة المذكورة وتوجه محمد على باشا لعساكره إلى جهة البحيرة والاسكندرية وحصل بينه وبين الإنكليز الذين فى الاسكندرية مكاتبات ثم انعقد بينه وبينهم صلح على شروط فخرجو من الاسكندرية وأخلوها فى أوائل رجب من السنة المذكورة أعنى سنة اثنتين وعشرين وتفصيل القصة طويل وهذا حاصلها بالاختصار وكان محمد بك الألفى الذى استنجد بهم قد مات قبل مجيئهم إلى الإسكندرية وفى هذه السنة أيضا كانت فتن كثيرة بدار السلطنة وخلعوا السلطان سليما وقصة ذلك سنذكر ملخصها لكن ينبغى أن يقدم قبل ذلك ذكر أشياء كانت فى مدة السلطان سليم المذكور منها فتنة الوهابية بالحجاز وفتنة الفرنسيس عند دخوله مصر ولنبدأ بذكر فتنة الوهابية لأن مبدأها متقدم على فتنة الفرنسيس وإن كان منتهاها متأخرا .

ذكر فتنة الوهابية وتملك الفرنسيس مصر

اعلم أن السلطان سليما الثالث حدث فى مدة سلطنته فتن كثيرة منها ما تقدم ذكره . ومنها فتنة الوهابية التى كانت فى الحجاز حتى استولوا على الحرمين ومنعوا وصول الحجيج

الشامي والمصري ومنها فتنة الفرنسيس لما استولوا على مصر من سنة ثلاث عشرة سنة ست عشرة ولنذكر ما يتعلق بهاتين الفتنتين على سبيل الاختصار لأن كلا منهما مذكور تفصيلا فى التواريخ وأفرد كل منهما بتأليف رسائل مخصوصة ، أما فتنة الوهابية فكان ابتداء القتال فيها بينهم وبين أمير مكة مولانا الشريف غالب بن مساعد وهو نائب من جهة السلطنة العلية على الاقطار الحجازية وابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والألف وكان ذلك فى مدة سلطنة مولانا السلطان سليم الثالث ابن السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد (وأما ابتداء أول ظهور الوهابية) فكان قبل ذلك بسنين كثيرة وكانت قوتهم وشوكتهم فى بلادهم أولا ثم كثر شرهم وتزايد ضررهم واتسع ملكهم وقتلوا من الخلائق ما لا يحصون واستباحوا أموالهم وسبوا نساءهم وكان مؤسس مذهبهم الخبيث محمد بن عبد الوهاب وأصله من المشرق من بنى تميم وكان من المعمرين فكاد يعد من المنظرين لأنه عاش قريب مائة سنة حتى انتشر عنه ضلالهم ، كانت ولادته سنة ألف ومائة وإحدى عشرة وهلك سنة ألف ومائتين وأرخه بعضهم بقوله :

(بدا هلاك الخبيث) ١٢٠٦

وكان فى ابتداء أمره من طلبة العلم بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وكان أبوه رجلا صالحا من أهل العلم وكذا أخوه الشيخ سليمان وكان أبوه وأخوه ومشايخه يتفرسون فيه أنه سيكون منه زيغ وضلال لما يشاهدونه من أقواله وأفعاله ونزعاته فى كثير من المسائل ، وكانوا يوبخونه ويحذرون الناس منه فحقق الله فراستهم فيه لما ابتدع ما ابتدعه من الزيغ والضلال الذى أغوى به الجاهلين وخالف فيه أئمة الدين وتوصل بذلك إلى تكفير المؤمنين فزعم أن زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم والتوسل به وبالأنبياء والأولياء والصالحين وزيارة قبورهم شرك وأن نداء النبي صلى الله عليه وسلم عند التوسل به شرك وكذا نداء غيره من الأنبياء والأولياء والصالحين عند التوسل بهم شرك وأن من أسند شيئا لغير الله ولو على سبيل المجاز العقلى يكون مشركا نحو نفعنى هذا الدواء وهذا الولى الفلانى عند التوسل به فى شيء وتمسك بأدلة لا تنتج له شيئا من مرامه وأتى

بعبارات مزورة زخرفها ولبس بها على العوام حتى تبعوه وألف لهم فى ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد ، واتصل بأمراء المشرق أهل الدرعية ومكث عندهم حتى نصروه وقاموا بدعوته وجعلوا ذلك وسيلة إلى تقوية ملكهم واتساعه وتسلطوا على الأعراب وأهل البوادى حتى تبعوهم وصاروا جنداً لهم بلا عوض وصاروا يعتقدون أن من لم يعتقد ما قاله ابن عبد الوهاب فهو كافر مشرك مهدر الدم والمال ، وكان ابتداء ظهور أمره سنة ألف ومائة وثلاث وأربعين وابتداء انتشاره من بعد الخمسين ومائة وألف . وألف العلماء رسائل كثيرة للرد عليه حتى أخوه الشيخ سليمان وبقية مشايخه وكان ممن قام بنصرته وانتشار دعوته من أمراء المشرق محمد بن سعود أمير الدرعية وكان من بنى حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ولما مات محمد بن سعود قام بها ولده عبدالعزيز ابن محمد بن سعود ، وكان كثير من مشايخ ابن عبد الوهاب بالمدينة يقولون سيضل هذا أو يضل الله به من أبعده وأشقاه فكان الأمر كذلك وزعم محمد بن عبد الوهاب أن مراده بهذا المذهب الذى ابتدعه إخلاص التوحيد والتبرى من الشرك وأن الناس كانوا على شرك منذ ستمائة سنة وأنه جدد للناس دينهم وحمل الآيات القرآنية التى نزلت فى المشركين على أهل التوحيد كقوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ وهُم عنْ دُعائِهِم غافِلُون﴾ وكقوله تعالى ﴿ ولا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ وكقوله تعالى ﴿ والذينَ يَدْعُونَ مَنْ لايَسْتَجِيبُ لهم إلى يوم القِيامة ﴾ وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثيرة : فقال محمد بن عبد الوهاب من استغاث بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه مثل هؤلاء المشركين ويدخل فى عموم هذه الآيات وجعل زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين مثل ذلك وقال فى قوله تعالى حكاية عن المشركين فى عبادة الأصنام ما نعبدهم إلا لتقربونا إلى الله زلفى إن المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى قال: فإن المشركين ما اعتقدوا فى الأصنام أنها تخلق شيئا بل يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى.

بدليل قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ مما حكم الله عليهم بالكفر والإشراك إلا لقولهم ليقربونا إلى الله زلفى فهؤلاء مثلهم ، ومما ردوا به عليه فى الوسائل المؤلفة للرد عليه أن هذا استدلال باطل فإن المؤمنين ما اتخذوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الأولياء آلهة وجعلوهم شركاء لله بل أنهم يعتقدون أنهم عبيد الله مخلوقون ولا يعتقدون أنهم مستحقون العبادة وأما المشركون الذين نزلت فيهم هذه الآيات فكانوا يعتقدون استحقاق أصنامهم الألوهية ويعظمونها تعظيم الربوبية وإن كانوا يعتقدون أنها لاتخلق شيئاً وأما المؤمنون فلايعتقدون فى الأنبياء والأولياء استحقاق العبادة والألوهية ولا يعظمونهم تعظيم الربوبية بل يعتقدون أنهم عباد الله وأحباؤه الذين اصطفاهم واجتباهم وببركتهم يرحم عباده فيقصدون بالتبرك بهم رحمة الله تعالى ، ولذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنة فاعتقاد المسلمين أن الخالق الضار النافع المستحق العبادة هو الله وحده ولا يعتقدون التأثير لأحد سواه وأن الأنبياء والأولياء لايخلقون شيئاً ولا يملكون ضراً ولا نفعا وإنما يرحم الله العباد ببركتهم فاعتقاد المشركين استحقاق أصنامهم العبادة والألوهية هو الذى أوقعهم فى الشرك لامجرد قولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله لأنهم لما أقيمت عليهم الحجة بأنهم لاتستحق العبادة وهم يعتقدون استحقاقها العبادة قالوا معتذرين مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فكيف يجوز لابن عبد الوهاب ومن تبعه أن يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الأصنام لجميع الآيات المتقدمة وما كان مثلها خاص بالكفار والمشركين ولا يدخل فيه أحد من المؤمنين روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فى وصف الخوارج أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فحملوها على المؤمنين وفى رواية عن بن عمر أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال أخوف ما أخاف على أمتى رجل يتأول القرآن يضعه فى غير موضعه فهو وما قبله صادق على هذه الطائفة ولو كان شىء مما صنعه المؤمنون من التوسل وغيره شركا ما كان يصدر من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها

ففي الأحاديث الصحيحة أنه صلى الله عليه وسلم كان من دعائه « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك » وهذا توسل لاشك فيه وكان يعلم هذا الدعاء أصحابه ويأمرهم بالإتيان به وبسط ذلك طويل مذكور في الكتب وفي الرسائل التي في الرد على ابن عبد الوهاب وصح عنه أنه صلى الله عليه وسلم لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما ألحدها صلى الله عليه وسلم في القبر بيده الشريفة وقال « اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي إنك أرحم الراحمين » وصح أنه صلى الله عليه وسلم سأله أعمى أن يرد الله بصره بدعائه فأمر بالطهارة وصلاة ركعتين ثم يقول « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفعه في » ففعل فرد الله عليه بصره وصح أن آدم عليه السلام توسل بنبينا صلى الله عليه وسلم حين أكل من الشجرة لأنه لما رأى اسمه صلى الله عليه وسلم مكتوبا على العرش وعلى غرف الجنة وعلى جباه الملائكة سأل عنه فقال الله له هذا ولد من أولادك لولاه ما خلقتك ، فقال اللهم بحرمة هذا الولد ارحم هذا الوالد فنودي يا آدم لو تشفعت إلينا بمحمد في أهل السماء والأرض لشفعناك وتوسل عمر بن الخطاب بالعباس رضي الله عنه لما استسقى الناس ، وغير ذلك مما هو مشهور فلا حاجة إلى الإطالة بذكره والتوسل الذي في حديث الأعمى قد استعمله الصحابة والسلف بعد وفاته صلى الله عليه وسلم وفيه لفظ يا محمد وذلك نداء عند التوسل ومن تتبع كلام الصحابة والتابعين يجد شيئاً كثيراً من ذلك كقول بلال بن الحارث الصحابي رضي الله عنه عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله استسق لأمتك كالنداء الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبور وممن ألف في الرد على ابن عبد الوهاب أكبر مشايخه وهو الشيخ محمد بن سليمان الكردي مؤلف حواشي شرح ابن حجر على متن بافضل فقال من جملة كلامه يا ابن عبد الوهاب إني أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين فإن سمعت من شخص أنه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله فعرفه الصواب وأبن له الأدلة على أنه لا تأثير لغير الله فإن أبى فكفره حينئذ بخصوصه ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين ، وأنت

شاذ عن السواد الأعظم فنسبة الكفر إلى من شذ عن السواد الأعظم أقرب لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية اﻫ وأما زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقد فعلها الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من السلف والخلف وجاء من فضلها أحاديث أفردت بالتآليف ومما جاء في النداء لغير الله تعالى من غائب وميت وجماد قوله صلى الله عليه وسلم «إذ أفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد ياعباد الله أحبسوا فإن لله عباداً يجيبونه» وفي حديث آخر «إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عونا وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل يا عباد الله أعينوني وفي رواية أغيثوني فإن لله عباداً لا ترونهم» وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال ياأرض ربي وربك الله وكا صلى الله عليه وسلم إذا زار قال السلام عليكم ياأهل القبور وفي التشهد الذي يأتي به كل مسلم في كل صلاة صورة النداء في قوله السلام عليك أيها النبي والحاصل أن النداء والتوسل ليس في شيء منهما ضرر إلا إذا اعتقد التأثير لمن ناداه أو توسل به ومتى كان معتقداً أن التأثير لله لا لغير الله فلا ضرر في ذلك وكذلك إسناد فعل من الأفعال لغير الله لا يضر إلا إذا اعتقد التأثير ومتى لم يعتقد التأثير فإنه يحمل على المجاز العقلي كقوله نفعني هذا الدواء أو فلان الولي فهو مثل قوله : أشبعني هذا الطعام، وأرواني هذا الماء، وشفاني هذا الدواء فمتى صدر ذلك من مسلم فإنه يحمل على الإسناد المجازي والإسلام قرينة كافية في ذلك فلا سبيل إلى تكفير أحد بشيء من ذلك ويكفي هذا الذي ذكرناه إجمالا في الرد على أبي عبد الوهاب ومن أراد بسط الكلام فليرجع إلى الرسائل المؤلفة في ذلك وقد لخصت ما فيها في رسالة مختصرة فلينظرها من أرادها، ولما قام ابن عبدالوهاب ومن أعانه بدعوتهم الخبيثة التي كفروا بسببها المسلمين ملكوا قبائل الشرق قبيلة بعد قبيلة، ثم اتسع ملكهم فملكوا اليمن والحرمين وقبائل الحجاز وبلغ ملكهم قريبا من الشام فإن ملكهم وصل إلى المزيريب وكانوا في ابتداء أمرهم أوسلوا جماعة من علمائهم ظنا منهم أنهم يفسدون عقائد علماء الحرمين ويدخلون عليهم الشبهة بالكذب

والمين ، فلما وصلوا إلى الحرمين وذكروا لعلماء الحرمين عقائدهم وما تمسكوا به رد عليهم علماء الحرمين وأقاموا عليهم الحجج والبراهين التي عجزوا عن دفعها وتحقق لعلماء الحرمين جهلهم وضلالهم ووجدوهم ضحكة ومسخرة كحمر مستنفرة فرت من قسورة ونظروا إلى عقائدهم فوجدوها مشتملة على كثير من المكفرات فبعد أن أقاموا البرهان عليهم كتبوا عليهم حجة عند قاضي الشرع بمكة تتضمن الحكم بكفرهما بتلك العقائد ليشتهر بين الناس أمرهم ، فيعلم بذلك الأول والآخر ، وكان ذلك فى مدة إمارة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد المتوفى سنة خمس وستين ومائة وألف ، وأمر بحبس أولئك الملحدة فحبسوا وفر بعضهم إلى الدرعية فأخبرهم بما شاهدوا فازدادوا عتواً واستكباراً وصار أمراء مكة بعد ذلك يمنعون وصولهم للحج فصاروا يغيرون على بعض القبائل الداخلين تحت طاعة أمير مكة ثم انتشب القتال بينهم وبين أمير مكه مولانا الشريف غالب بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد وكان ابتداء القتال بينهم وبينه من سنة خمس بعد المائتين والألف ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة قتل فيها خلائق كثيرون ولم يزل أمرهم يقوى وبدعتهم تنتشر إلى أن دخل تحت طاعتهم أكثر القبائل والعربان الذين كانوا تحت طاعة أمير مكة .
وفى سنة سبع عشرة بعد المائتين والألف ساروا بجيوش كثيرة حتى نازلوا الطائف وحاصروا أهله فى شهر ذى القعدة من السنة المذكورة ، ثم تملكوه وقتلوا أهله رجالا ونساء وأطفالا ولا نجا منهم إلى القليل ونهبوا جميع أموالهم ثم أرادوا المسير إلى مكة فعلموا أن مكة فى ذلك الوقت فيها كثير من الحجاج ويقدم إليها الحاج الشامى والمصرى فيخرج الجميع لقتالهم فمكثوا فى الطائف إلى أن انقضى شهر الحج وتوجه الحجاج إلى بلادهم وساروا بجيوشهم يريدون مكة ولم يكن للشريف غالب قدرة على قتال جيوشهم فنزل إلى جدة فخاف أهل مكة أن يفعل الوهابية معهم مثل ما فعلوا مع أهل الطائف فأرسلوا إليهم وطلبوا منهم الأمان لأهل مكة فأعطوهم الأمان ودخلوا مكة ثامن محرم من السنة الثامنة عشر بعد المائتين والألف ومكثوا أربعة عشر يوما يستتيبون الناس ويجددون لهم الإسلام على زعمهم ويمنعونهم من فعل ما يعتقدون أنه شرك كالتوسل وزيارة القبور ، ثم ساروا بجيوشهم إلى

جدة لقتال الشريف غالب فلما أحاطوا بجدة رمى عليهم بالمدافع والقلل فقتل كثيراً منهم ولم يقدروا على تملك جده فارتحلوا بعد ثمانية أيام ورجعوا إلى بلادهم وجعلوا لهم عسكراً بمكة وأقاموا لهم أميراً فيها وهو الشريف عبد المعين أخو الشريف غالب وإنما قبل أمرهم ليرفق بأهل مكة ويدفع ضرر أولئك الأشرار عنهم ، وفى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة سار الشريف غالب من جدة ومعه والى جدة من طرف السلطنة العلية وهو شريف باشا ومعهما العساكر فوصلوا إلى مكة وأخرجوا من كان بها من عساكر الوهابية ورجعت أمارة مكة للشريف غالب ثم بعد ذلك تركوا مكة واشتغلوا بقتال كثير من القبائل وصار الطائف بأيديهم وجعلوا عليه أميراً عثمان المضايفى فصار هو وبعض جنودهم يقاتلون القبائل التى فى أطراف مكة والمدينة ويدخلونهم فى طاعتهم حتى استولوا عليهم وعلى جميع الممالك التى كانت تحت طاعة أمير مكة فتوجه قصدهم بعد ذلك للاستيلاء على مكة فساروا بجيوشهم سنة عشرين وحاصروا مكة وأحاطوا بها من جميع الجهات وشددوا الحصار عليها وقطعوا الطرق ومنعوا الميرة عن مكة فاشتد الحصار على أهل مكة حتى أكلوا الكلاب لشدة الغلاء وعدم وجود القوت فاضطر الشريف غالب إلى الصلح معهم وتأمين أهل مكة فوسط أناساً بينه وبينهم فعقدوا الصلح على شروط فيها رفق بأهل مكة فمن تلك الشروط أن إمارة مكة تكون له فتم الصلح ودخلوا مكة فى أواخر ذى القعدة سنة عشرين وتملكوا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وانتهبوا الحجرة وأخذوا ما فيها من الأموال وفعلوا أفعالا شنيعة وجعلوا على المدينه أميراً منهم مبارك بن مضيان واستمر حكمهم فى الحرمين سبع سنين ومنعوا دخول الحج الشامى والمصرى مع المحامل مكة وصاروا يصنعون للكعبة المعظمة ثوبا من العباء القيلان الأسود وأكرهوا الناس على الدخول فى دينهم ومنعوهم من شرب التنباك ومن فعل ذلك واطلعوا عليه عزروه بأقبح التعزير وهدموا القبب التى على قبور الأولياء وكانت الدوله العثمانية فى تلك السنين فى ارتباك كثير وشدة قتال مع النصارى وفى اختلاف فى خلع السلاطين وقتلهم كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ، ثم صدر الأمر السلطانى لصاحب مصر محمد على باشا

بالتجهيز لقتال الوهابية وكان ذلك في سنه ١٢٢٦ فجهز محمد علي باشا جيشاً فيه عساكر كثيرة جعل عليهم بفرمان سلطان ولده طوسون باشا فخرجوا من مصر في رمضان من السنة المذكورة ولم يزالوا سائرين براً وبحراً حتى وصلوا إلى ينبع فملكوه من الوهابية ، ثم لما وصلت العساكر إلى الصفرا والحديدة وقع بينهم وبين العرب الذين في الحربية قتال شديد بين الصفرا والحديدة وكانت تلك القبائل كلها في طاعة الوهابي وانضم إليها قبائل كثيرة فهزموا ذلك الجيش وقتلوا كثيراً منهم وانتهبوا جميع ما كان معهم وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٢٦ ولم يرجع من ذلك الجيش إلى مصر إلا القليل فجهز جيشاً غيره سنة سبع وعشرين وعزم محمد علي باشا على التوجه إلى الحجاز بنفسه وتوجهت العساكر قبله في شعبان في غاية القوة والاستعداد وكان معهم من المدافع ثمانية عشر مدفعا وثلاثة قنابل فاستولت العساكر على ما كان بيد الوهابية وملكوا الصفراء والحديدة وغيرهما في رمضان بلا قتال بل بالمخادعة ومصانعة العرب بإعطاء الدراهم الكثيرة حتى أنهم أعطوا شيخ مشايخ حرب مائة ألف ريال وأعطوا شيخا من صغار مشايخ حرب أيضاً ثمانية عشر ألف ريال ورتبوا لهم علائف تصرف لهم كل شهر ، وكان ذلك كله بتدبير شريف مكة الشريف غالب وهو في الظاهر تحت طاعة الوهابي وأما المرة الأولى التي هزموا فيها فلم يكونوا كاتبوا الشريف غالب في ذلك حتى يكون الأمر بتدبيره ودخلت العساكر المدينة المنورة في أواخر ذي القعدة ، ولما جاءت الأخبار إلى مصر صنعوا زينة ثلاثة أيام وأكثروا من الشنك وضرب المدافع وأرسلوا بشائر لجميع ملوك الروم واستولت العساكر السائرة من طريق البحر على جدة في أوائل المحرم سنة ثمان وعشرين ثم طلعوا إلى مكة واستولوا عليها أيضاً . وكل ذلك بلا قتال بتدبير الشريف سراً ولما وصلت العساكر إلى جدة فر من كان بمكة من عساكر الوهابية وأمرائهم ، وكان سعود أمير الوهابية حج في سنة سبع وعشرين ثم ارتحل إلى الطائف ، ثم إلى الدرعية ولم يعلم باستيلاء العساكر السلطانية على المدينة إلا بعد ذلك ثم لما وصل إلى الدرعية علم باستيلائهم على مكة ثم الطائف ولما وصلت العساكر إلى جدة

ومكة فر من الطائف أميرها عثمان المضايفى وفر من كان بها من عساكر الوهابية وأمرائهم ، وفى شهر ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين أرسل محمد على باشا مبشرين إلى دار السلطنة ومعهم المفاتيح وكتبوا إليهم أنها مفاتيح مكة والمدينة وجدة والطائف فدخلوا بها دار السلطنة بموكب حافل ووضعوا المفاتيح على صفائح الذهب والفضة وأمامهم البخورات فى مجامر الذهب والفضة وخلفهم الطبول والزمور وعملوا لذلك زينة وشنكا ومدافع وخلعوا على من جاء بالمفاتيح وزادوا فى رتبة محمد على باشا وبعثوا له أطواخا وعدة أطواخ بولايات لمن يختار تقليده ، وفى شهر شوال سنة ثمان وعشرين توجه محمد على باشا بنفسه إلى الحجاز وقيل توجهه من مصر قبض الشريف غالب على عثمان المضايفى الذى كان أميراً على الطائف للوهابية ، وكان من أهل أكبر أعوانهم وأمرائهم فزنجره بالحديد وبعثه إلى مصر فوصل فى ذى القعدة بعد توجه الباشا إلى الحجاز ثم أرسل إلى دار السلطنة فقتلوه ووصل محمد على باشا فى ذى القعدة إلى مكة وقبض على الشريف غالب ابن مساعد وبعثه إلى دار السلطنة وأقام لشرافة مكة ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور ابن مساعد ، وفى شهر محرم من سنة ٢٩ بعثوا إلى السلطنة مبارك بن مضيان الذى كان أميراً على المدينة المنورة للوهابية فطافوا به فى القسطنطينية فى موكب ايراه الناس ثم قتلوه وعلقوا رأسه على باب السرايا وفعل مثل ذلك بعثمان المضايفى وأما الشريف غالب فأرسلوه إلى سلانيك وبقى بها مكرما إلى أن توفى سنة إحدى وثلاثين ودفن بها وبنى عليه قبة تزار ومدة إمارته على مكة ست وعشرون سنة ثم أن محمد على باشا وجه كثيراً من العساكر إلى تربة وبيشة وبلاد غامد وزهران وبلاد عسير لقتال طوائف الوهابية وقطع دابرهم ثم سار بنفسه فى أثرهم فى شعبان سنة تسع وعشرين ووصل إلى تلك الديار وقتل كثيراً منهم وأسر كثيراً وخرب ديارهم ، وفى شهر جمادى الأولى سنة تسع وعشرين هلك سعود أمير الوهابية وقام بالملك بعده ولده عبد الله ورجع محمد على باشا من تلك الديار التى وصلها من ديار الوهابية عند إقبال الحج وحج ومكث بمكة إلى رجب سنة ثلاثين ثم توجه إلى مصر وترك بمكة حسن باشا ووصل الباشا إلى مصر فى منتصف رجب .

سنة ثلاثين ومائتين وألف فتكون إقامته بالحجاز سنة وسبعة أشهر ، وما رجع إلى مصر إلا بعد أن مهد أمور الحجاز ، وأباد طوائف الوهابية التى كانت منتشرة فى جميع قبائل الحجاز والشرق وبقى منهم بقية بالدرعية أميرهم عبد الله بن مسعود فجهز محمد على باشا لقتاله جيشاً وأرسله تحت قيادة ابنه إبراهيم باشا ، وكان عبد الله بن سعود قبل ذلك تكاتب مع طوسون باشا بن محمد على باشا حين كان بالمدينة وعقد معه صلحاً على بقاء إمارته ودخوله تحت طاعة محمد على باشا فلم يرض محمد على باشا بهذا الصلح فجهز ولده إبراهيم باشا وجعل أمر العساكر إليه ، وكان ابتداء ذلك فى أواخر سنة إحدى وثلاثين فوصل إلى الدرعية سنة اثنتين وثلاثين ونازل بجيوشه عبد الله بن سعود ووقع بينهما وقائع وحروب يطول ذكرها إلى أن استولى على عبد الله بن سعود فى ذى القعدة سنة ٣٣ ، ولما جاءت الأخبار إلى مصر ضربوا لذلك ألف مدفع وفعلوا شنكا وزينوا مصر وقراها سبعة أيام ، وكان محمد على باشا له إهتمام كبير فى قتال الوهابية وأنفق فى ذلك خزائن من الأموال حتى أخبر بعض من كان يباشر خدمته أنهم دفعوا فى دفعة من الدفعات لأجرة تحميل بعض الذخائر خمسة وأربعين ألف ريال هذا فى مرة من المرات كان ذلك الحمل من الينبع إلى المدينة عن أجرة كل بعير ست ريال دفع نصفها أمير ينبع والنصف الآخر أمير المدينة وعند وصول الحمل من المدينة إلى الدرعية كان أجر تلك الحملة فقط مائة وأربعين ألف ريال وقبض إبراهيم باشا على عبد الله بن سعود وبعث به وكثير من أمرائهم إلى مصر فوصل فى سابع عشر محرم سنة أربع وثلاثين وصنعوا له موكباً حافلا يراه الناس وأركبوه على هجين وازدحم الناس للتفرج عليه ، ولما دخل على محمد على باشا قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه ، وقال له الباشا ماهذه المطاولة فقال الحرب سجال قال وكيف رأيت ابنى إبراهيم باشا قال ماقصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ماقدره الله تعالى فقال له الباشا أنا أترجى فيك عند مولانا السلطان فقال المقدر يكون ثم ألبسه خلعة وانصرف إلى بيت اسماعيل باشا ببولاق ، وكان بصحبة عبد الله بن سعود صندوق صغير مصفح فقال الباشا له . ماهذا ؟ فقال هذا ما أخذه أبى

من الحجرة أصحبه معى إلى السلطان ، فأمر الباشا بفتحه فوجدوا فيه ثلاثة مصاحف من خزائن الملوك لم ير الراؤون أحسن منها و معها ثلاثمائة حبة من اللؤلؤ الكبار وحبة زمرد كبيرة وشريط من الذهب ، فقال له الباشا الذى أخذتموه من الحجرة أشياء كثيرة غير هذا فقال هذا الذى وجدته عند أبى فإنه لم يستأصل كل ما كان فى الحجرة لنفسه بل أخذه العرب وأهل المدينة وأغاوات الحرم وشريف مكة فقال الباشا صحيح وجدنا عند الشريف أشياء من ذلك ثم أرسلوا عبد الله بن سعود إلى دار السلطنة ورجع إبراهيم باشا من الحجاز إلى مصر فى شهر المحرم من سنة ٣٥ بعد أن أخرب الدرعية خراباً كليا حتى تركوا سكناها ولما وصل عبد الله بن سعود إلى دار السلطنة فى شهر ربيع الأول طافوا به البلد ليراه الناس ثم قتلوه عند باب همايون وقتلوا أتباعه أيضاً فى نواح متفرقة هذا حاصل ما كان فى قصة الوهابى بغاية الاختصار ولو بسط الكلام فى كل قضية لطال ، وكانت فتنتهم من المصائب التى أصيب بها أهل الإسلام فإنهم سفكوا كثيراً من الدماء وانتهبوا كثيراً من الأموال وعم ضررهم وتطاير شررهم فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وكثير من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فيها التصريح بهذه الفتنة كقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج أناس من قبل المشرق يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية سيماهم التحليق » وهذا الحديث جاء بروايات كثيرة بعضها فى صحيح البخارى وبعضها فى غيره لا حاجة لنا إلى الإطالة بنقل تلك الروايات ولا لذكر من خرجها لأنها صحيحة مشهورة ففى قوله سيماهم التحليق تصريح بهذه الطائفة لأنهم كانوا يأمرون كل من اتبعهم أن يحلق رأسه ولم يكن هذا الوصف لأحد من طوائف الخوارج والمبتدعة الذين كانوا قبل زمن هؤلاء ، وكان السيد عبد الرحمن الأهدل مفتى زبيد يقول لا حاجة إلى التأليف فى الرد على الوهابية بل يكفى فى الرد عليهم قوله صلى الله عليه وسلم سيماهم التحليق فإنه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم واتفق مرة أن امرأة أقامت الحجة على ابن الوهاب لما أكرهوها على اتباعهم ففعلت ، أمرها ابن عبد الوهاب أن تحلق رأسها فقالت له حيث إنك تأمر المرأة بحلق رأسها ينبغى لك أن تأمر الرجل بحلق لحيته لأن شعر رأس المرأة

زينتها وشعر لحية الرجل زينته فلم يجد لها جوابا ومما كان منهم أنهم يمنعون الناس من طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم مع أن أحاديث شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأمته كثيرة متواترة وأكثر شفاعته لأهل الكبائر من أمته وكانوا يمنعون من قراءة دلائل الخيرات المشتملة على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى ذكرها كثير من أوصافه الكاملة ويقولون أن ذلك شرك ويمنعون من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم على المنابر بعد الأذان حتى أن رجلا صالحاً كان أعمى ، وكان مؤذنا وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان بعد أن كان المنع منهم ، فأتوا به إلى ابن عبد الوهاب فأمر به أن يقتل فقتل ولو تتبعت لك ما كانوا يفعلونه من أمثال ذلك لملأت الدفاتر والأوراق وفي هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر قتل الصناجق المماليك المتغلبين على مصر

اعلم أن المماليك المذكورين كانوا متغلبين على مصر ، فلما تمكن محمد على باشا من المماليك المصرية احتال عليهم وقتلهم سنة ست وعشرون ومائتين بعد الألف وكانوا هم وعساكرهم وأتباعهم كثيرون وما زالوا يعارضون محمد على باشا في كثير من شؤونه وهو يداهنهم ويتحذر منهم فلما جاء الأمر السلطاني بتوجهه إلى الحجاز لمحاربة الوهابي طلب من الدولة أن يأتيه فرمان بولاية ولده طوسون باشا صارى عسكر على العساكر التي يريد أن يرسلها إلى الحجاز فجاءه فرمان سلطاني بذلك فجعل ذلك وسيلة إلى جمع الصناجق وعساكرهم في القلعة لقراءة الفرمان المذكور وخروجهم بالألاى الحافل مع ابنه المذكور إلى العرض الخارج للحجاز المنتصب خارج مصر عند قبة العرب فنبه على العساكر الصناجق في الحضور إلى القلعة في الثالث من شهر صفر في الساعة الرابعة من النهار ورتب في القلعة عساكر خاصة بهم وجعلهم في الأبراج والمكامن التي في القلعة وأمر البواب القلعة أنهم إذا استكمل دخولهم يغلق الباب ، وأمر العساكر الخاصة به الذين رتبهم في القلعة أن يقتلوا كل من دخل منهم بعد غلق باب القلعة ففعلوا ذلك وصار القتل فيهم من وقت الضحى إلى غروب الشمس فقتل منهم خلقاً كثيراً ثم تتبع الباقين منهم في مصر وبقية

الأرياف بالقتل حتى أبادهم عن آخرهم وذلك شيء كثير وعدد وفير والقصة طويلة لكن هذا حاصلها وتم له انتظام ملكه من غير معارض بعد أن قتلهم وكانت ولايته مصر سنة ٢٠ واستمر فيها إلى سنة ١٢٦٤ وكان فى الأصل من العساكر الذين جاؤا مع يوسف باشا لما أخرج الفرنسيس من مصر سنة ١٦ وأصله من بلاد قوله وجنسه من الأرناؤوط. فلما كان محاربة يوسف باشا الفرنسيس قاتل مع من قاتل واشتهر بالشجاعة فى تلك الحروب، ثم ترقى فى مدة قصيرة إلى رتبة قائم مقام إلى أن تقلد زمام أحكام الديار المصرية سنة ١٢١٩ ولما خرج الفرنسيس من مصر ودخلها يوسف باشا ثم سافر يوسف باشا وأقامت الدولة وزيراً لمصر والياً عليها الوزير محمد خسروا باشا واستمر إلى المحرم سنة ١٨ فوقع بينه وبين العساكر فتنة بسبب طلب مرتباتهم وجوامقهم واتسعت الفتنة حتى أخرجوا الوزير المذكور من مصر واتفق على تولية طاهر باشا قائم مقام بمصر إلى أن يأتى الأمر من الدولة بتولية غيره فألبسه القاضى فرواً سموراً وكان الرئيس الثائر فى تلك الفتنة محمد على باشا ثم بعد ٢٦ يوما ثاروا على طاهر باشا فقتلوه وكان قد حضر من دار السلطنة إلى مصر أحمد باشا والياً على المدينة المنورة فولاه أهل مصر عليهم بعد قتل طاهر باشا فلم يذعن لذلك محمد على وقال أن أحمد باشا لم يكن والياً على مصر وإنما هو وال على المدينة المنورة وإنما ولينا قبله طاهر باشا لكونه كان محافظاً للديار المصرية من الدولة العلية فله شبهة فى التولية، وأما أحمد باشا فليس له تعلق بمصر فهو يخرج خارج مصر وتجهزه بالعساكر ويتوجه إلى محل ولايته ثم اشتدت الفتنة وانتشرت بين العساكر إلى أن أخرجوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته بمصر يوما وليلة ثم نادى مناد بتسكين الناس وتأمينهم وأن الأمر يكون لإبراهيم بك كبير الصناجق وحاكم الولاية وأشركوا معه محمد على وقبضوا على الدفتردار وقطعوا رأسه، ثم قامت العساكر على إبراهيم بك لطلب جوامقهم وانتشرت الفتنة وأرادوا قتل إبراهيم بك ونهبوا داره فهرب فقوى أمر محمد على وصار الحل والعقد بيده ثم جاءت الأخبار من دار السلطنة بولاية مصر لأحمد باشا خورشيد حاكم الاسكندرية ووصل مصر فى ذى الحجة سنة ثمان عشرة، وبعد وصوله طلب من الناس أموالا جزيلة تكون معجلة عما

يلزم الناس من خراج مصر ، فاشتد الأمر على الناس وارتفعت الأسعار وأغلقت الدكاكين والأسواق واجتمع الأطفال بالجامع الأزهر وصعدوا إلى المنابر يصرخون ويتضرعون ويقولون يالطيف فسمعهم الباشا وهو فى القلعة ، فأرسل إلى نقيب الأشراف إنا قد رفعنا عن الناس ما كنا طلبناه وأما إبراهيم بك ومن معه من الأمراء الذين أخرجوهم من مصر فإنهم جمعوا جموعا من الأرياف وجاؤا لقتال الباشا ومن معه بمصر فخرج إليهم بالعساكر ووقع القتال واشتد الأمر وتقطعت الطرق وشرح ذلك كله يطول ثم جاء أمر من الدولة لمحمد على بولاية جده فألبسه الباشا فروا ولما خرج يريد الركوب ثارت على محمد على العساكر وطلبوا منه العلوفة فقال لهم ها هو الباشا عندكم وركب هو إلى داره وصار ينثر الذهب على الناس فى الطريق وأمسك العساكر أحمد باشا ومنعوه من الركوب إلى بعد المغرب ، ثم لاطفهم وركب وأشيع بين الناس أنهم حبسوه وهو قد ذهب إلى القلعة ثم أشيع أنه يريد وضع فردة على الناس فهاج الناس واجتمع كثير من الناس عند بيت القاضى وصاروا يصرخون بقولهم شر الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم ومنهم من يقول يامتجلى اهلك العثملى ومنهم من يقول حسبنا الله ونعم الوكيل ومنهم من يقول لا نريد هذا الباشا حاكما علينا لابد من عزله وذهبوا إلى بيت محمد على يقولون ذلك فقال لهم ومن تريدون أن يكون واليا عليكم فقالوا لا نرضى إلا بك لما نتوسمه فيك من العدالة والخير فامتنع أولا ثم رضى فأحضروا له كركا وقام السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوى فألبساه ونادوا بذلك فى البلد وذلك يوم الاثنين سادس صفر سنة عشرين ومائتين وألف ونادوا فى مصر بولايته وأرسلوا الخبر إلى أحمد باشا فقال إنى متول من السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة إلا بأمر السلطان فكتب الناس سؤالا وكتب عليه المفتى وحكموا بعزله وصحة تولية محمد على باشا وحضروا فى بيت القاضى فحكم بمقتضى ذلك واستمر أحمد باشا فى القلعة وأراد الحرب والقتال مع أهل مصر فحاصروه فى القلعة أياماً إلى أن أخرجوه منها وحصل بينه وبين العلماء كلام كثير وقال لهم كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي

الأمْرِ مِنْكُمْ ﴾ فقالوا أولى الأمر هم العلماء وجرت العادة من القديم أن أهل البلد يعزلون الولاة حتى السلطان إذا جار عليهم يخلعونه والقصة طويلة جداً يطول الكلام بذكرها وطال الأمر بينهم إلى أن جاء الأمر السلطانى بولاية محمد على باشا وإقرار ما فعله العلماء وأهل مصر فى شهر ربيع الثانى فتم الأمر لمحمد على باشا حتى كان من أمره ما كان وأكثر ما تقدم ذكره من القيام على الباشوات الذين تولوا مدة هذه الفتنة كان بتدبير محمد على باشا وترتيبه ولم يزل فى ترق وعلو وارتفاع حتى حارب السلطان محمود وملك عكا والشام فلما توفى السلطان محمود انعقد الصلح بينه وبين السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف وترك الشام والحجاز وأعطوه ولاية الأقطار المصرية مؤيدة له ولأولاده ، وجعلوا عليه خراجا معلوما يدفعه كل سنة واستمر إلى سنة أربع وستين فأصابه مرض اختل به عقله فولى ابنه إبراهيم باشا فى حياة أبيه فكانت مدة ولاية محمد على باشا نحو خمس وأربعين سنة واستمر ابنه إبراهيم باشا نحو سنة ثم توفى فولى عباس باشا ابن طوسون باشا بن محمد على باشا واستمر إلى سنة سبعين فتوفى مقتولا ثم ولى سعيد باشا ابن محمد على باشا وتوفى سنة تسع وسبعين ثم ولى إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد على باشا وخلع سنة ست وتسعين وولى ابنه محمد توفيق باشا وهو الموجود الآن ، وإنما ذكرنا هذا كله استطراداً تتميما للفائدة ليتصل الكلام بعضه ببعض .

ذكر استيلاء الفرنسيس على مصر

كانت مصر قبل أن تتملكها الدولة العثمانية بيد ملوك الجراكسة وكان لهم كثير من المماليك الذين هم أيضاً من الجراكسة ومن غيرهم من الترك ، فلما تملكت الدولة العثمانية مصر لم تزل المماليك باقية وفى كل وقت يزدادون حتى بلغوا غاية الكثرة وكان منهم أمراء ورؤساء فصارت لهم عصبية قوية فتغلبوا على الأملاك والأراضى والأطيان والمحصولات والخراجات والجمارك ، وكانوا إذا جاء الباشا المتولى على مصر من الدولة العلية ينقادون فى الظاهر وفى الباطن هم متغلبون ، فكانوا يبقونه إذا أرادوا ويعزلونه إذا أرادوا ولا يصل إلى الدولة العلية من محصولات مصر إلا القليل والباقى بأيديهم ، وكان لهم رؤساء وعليهم أمير كبير تحت أمر الوزير المتولى من السلطنة صورة وظاهراً

فقط ، فلما تغلبوا هذا التغلب كثر منهم الظلم والعدوان على المسلمين وغيرهم من طوائف النصارى واليهود فيتعدون كثيراً عليهم لاسيما على تجارهم فكانت الدولة العلية مشتغلة عنهم بكثرة الحرب مع النصارى فطمع الفرنسيس فى تملك مصر وإبعاد هؤلاء المماليك المتغلبين وأوهموا على المسلمين أنهم يريدون تخليص مصر منهم وبقاء الحكم فيها للدولة العلية فجهز الفرنسيس عليها جيوشه بالسر والكتمان من غير اطلاع أحد على ذلك وجاءهم بغتة فتملكها على الوجه الآتى ذكره وكان ذلك فى شهر المحرم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ، وكان الوزير المتولى على مصر من السلطنة العلية فى تلك السنة هو أبو بكر باشا الطرابلسى كانت ولايته من سنة إحدى عشرة ومائتين وألف وكان للمماليك المتغلبين على مصر أميران رئيسان على جميعهم وهما ابراهيم بك ومراد بك كان تحت طوعهما جميع الصناجق والعساكر ، فلما شاعت الأخبار بقدوم الفرنسيس للاستيلاء على مصر خرج من مصر الوزير المتولى من السلطنة العلية وهو أبو بكر باشا المتقدم ذكره وتوجه إلى غزة ، ثم منها إلى دار السلطنة وتوجه من مصر يوم السبت سابع شهر صفر من السنة المذكورة وبقيت مصر بيد إبراهيم بيك ومراد بيك وصناجقهما والأمراء والعساكر التى تحت أيديهما وكان أهل مصر عند خروج أبى بكر باشا من مصر وقبل خروجه بأيام يسمعون إشاعات عن مسير الفرنسيس إلى تملك مصر ولم يقفوا على حقيقتها ، فلما كان العشرون من المحرم من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وصلت مراكب للفرنسيس مشحونة بالعساكر وآلات الحرب وتقاتل من كان فيها من العساكر مع أهل الاسكندرية ولم يكن أهل الاسكندرية مستعدين لقتالهم فلم يقدروا على دفعهم لاسيما وقد جاءوهم بغتة فقاتلوهم قليلا ثم طلبوا الأمان منهم فأمنوهم ودخلوا الاسكندرية وملكوها ، فلما جاء الخبر إلى مصر أخذ إبراهيم بيك ومراد بيك فى الاستعداد لهم وأبرزوا جيشاً من العسكر إلى موضع يقال له الجسر الأسود وأخرجوا المدافع وآلات الحرب واضطربت الناس بمصر وكثر الهرج والمرج وتقطعت الطرق وارتفع السعر وكثر السراق ثم جاءهم مكتوب من الفرنسيس فيه بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولاشريك له فى ملكه وبعد ذلك كلام

كثير من جملته أنى أعبدالله واحترم نبيه والقرآن العظيم وأنهم مسلمون (يعنون أنفسهم) مخلصون وإثبات ذلك أنهم نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائماً يحث النصارى على محاربة أهل الإسلام ثم قصدوا مدينة مالطة وطردوا منها الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة أهل الإسلام. وكل ذلك من الكلام الذى كانوا يوهمون به على أهل الإسلام أنهم موحدون لله تعالى وأنهم يحبون أهل الإسلام ويحبون سلطانهم وأنهم إنما جاؤا لنصرة سلطان الإسلام وإبعاد المماليك المتغلبين على ممالكه ودفع ظلمهم عن الرعية ومن جملة مافى ذلك الكتاب خطاباً للمسلمين وماجئتكم لإزالة دينكم وإنما قدمت إليكم لأخلص حقكم من يد الظالمين الصناجق المماليك الذين يتسلطون فى البلاد المصرية ويعاملون الملة الفرنساوية بالذل والصغار ويظلمون تجارهم ويؤذونهم بأنواع الإيذاء والتعدى ويأخذون أموالهم ويفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لايوجد فى كرة الأرض كلها مثله فأما رب العالمين القادر على كل شىء فإنه قد حكم بانقضاء دولتهم وإنى أعبد الله سبحانه أكثر من المماليك واحترم نبيه والقرآن العظيم وقولوا لهم أن جميع الناس متساوون عند الله تعالى وأن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصوا بكل شىء أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة فإن كانت الأرض المصرية إلتزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف وعادل وحليم ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لاييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العلية فالعلماء والفضلاء والعقلاء منهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها وسابقا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتاجر المتكاثرة وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك أيها المشايخ والقضاة والأئمة وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ومع ذلك فالفرنساويون فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى

وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلوا مراتبهم طوبى أيضاً للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المتحاربين فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب لكن الويل ، ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا فلا يجدون بعد ذلك طريقا للخلاص ولا يبقى منهم أثر وأن جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلاء كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وأكحل وأحمر وأن كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار وأن كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضا تنصب صناجق السلطان العثمانى محبنا دام بقاءه والواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم وعلى كل أحد من أهالى البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وتكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكرون الله تعالى على انقضاء دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثمانى أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية وعلى المشايخ فى كل بلد أن يختموا حالا على جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى للمماليك وعليهم الاجتهاد التام أن لا يضيع أدنى شىء منها » . وفى التاسع والعشرين من محرم قدموا إلى مصر فاستقبلهم عسكر مصر عند الرحمانية وهزموا إلى الجيزة والتقوا عند بشتيل وحصلت مقتلة عظيمة وقدر الله أن المسلمين هزموا ففر مراد بيك ومن معه إلى الصعيد وفر إبراهيم بيك ومن معه فى البر الشرقى إلى الشام وقيل لم يقع قتال كثير وإنما هى مناوشة من طلائع العسكر بحيث لم يقتل إلى القليل من الفريقين وكانت مراكب فى البحر لمراد بيك فاحترقت بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية ، واحترق بها رئيس الطبجية واحترق مافيها من المحاربين ، فلما عاين ذلك مراد بيك دخله الرعب وولى منهزما وترك الأثقال والمدافع التى فى البر وتبعته العساكر ، وركب إبراهيم بيك إلى ساحل

بولاق طرف البر الشرقى ورجع الناس منهزمين طالبين مصر فاجتمع الباشا والعلماء ورؤوس الناس يتشاورون فى هذا الحادث العظيم ، فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بيك وكشافته ومماليكه وقد كانت العلماء عند ابتداء هذا الحادث يجتمعون بالأزهر كل يوم ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ الطرائق وأتباعهم وكذلك أطفال المكاتب ، ويذكرون اسم اللطيف وغيره من الأسماء ويوم الاثنين حضر مراد بيك إلى بر انبابه وشرع فى عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل ، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وكان معه فى ذلك على باشا الطرابلسى ونصوح باشا وأحضروا المراكب الكبار والغلايين التى أنشاها بالجيزة وأوقفها على ساحل انبابه وشحنها بالعساكر والمدافع ، فصار البر الغربى والشرقى مملوءين بالعساكر والمدافع والمتاريس والخيالة والمشاة ، ومع ذلك فقلوب الأمراء لم تطمئن بذلك فإنهم من وصول الخبر الأول لهم من الاسكندرية شرعوا فى نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التى لايعرفها أحد واستمروا طول الليالى ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم ، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا أيضاً فى تشهيل الأحمال واستحضار دواب للشيل وأسباب الارتحال ، فلما رأى أهل البلد منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع واستعد الأغنياء وأولوا القدرة للهرب ولولا أن الأمراء منعوهم من ذلك لما بقى بمصر منهم أحد وفى يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياما أو يجلسون فى مكان خراب أو مسجد ويرتبون أمرهم فيمن يصرف لهم مايحتاجون إليه من الدراهم التى جمعوها ويجعلون قيما عليهم يباشر ذلك وبعض الناس يتطوع على بعض فى الانفاق ومن الناس من يجهز جماعة من المغاربة والشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك بحيث أن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا مافى قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم فلم يشح أحد فى ذلك الوقت بشىء يملكه ولكن لم يسعفهم الدهر وخرجت الفقراء وأرباب الأشائر بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون

بأذكار مختلفة ، وصعد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف إلى القلعة ، فأخرج بيرقا كبيراً سمته العامة بيرق النبي صلى الله عليه وسلم فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك ، وأما مصر فإنها صارت خالية الطرق لاتجد بها سوى النساء فى البيوت وضعفاء الرجال الذين لايقدرون على الحركة وغلا سعر البارود والرصاص جداً بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفا والرصاص بتسعين نصفاً ، وغلا جنس أنواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى والمساوق وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بيك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله تعالى بالنصر وأقام غيرهم من الرعايا بالبيوت والزوايا والخيام ، ومحصل الأمر أن جميع من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق وأقام بها من حين أن نصب إبراهيم بيك العرضى هناك إلى وقت الهزيمة سوى القليل من الذين لايجدون لهم مكانا ولا مأوى فيرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق وأرسل إبراهيم بيك إلى العربان المجاورة لمصر ورسم لهم أن يكونوا من المقدمة بنواح شبرا وما والاها وكذلك اجتمع عند مراد بيك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد على والقناوية وغيرهم وفى كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوماً فيوماً لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم فى صعيد واحد وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم وكذلك العرب أغارت على الأطراف والنواحى ، وقامت الأرياف على ساق يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً ، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره فى قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد التى لاتحصى وطلب أمراء مصر تجار الإفرنج الذين بمصر وحبسوهم فى القلعة وفى بعض أماكن غير القلعة من بيوت الأمراء وصاروا يفتشون فى محلات الإفرنج على الأسلحة وغيرها وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأروام والأقباط والكنائس على الأسلحة والعامة لايرضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم

الحكام عنهم ولولا ذلك المنع لقتلهم العامة وقت هـذه الفتنة ، ثم فى كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر وتختلف الناس فى الجهة التى يجيئون منها فمنهم من يقول أنهم واصلون من البر الغربى ومنهم من يقول أنهم واصلون من الشرق ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين وليس لأحد من الأمراء همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم القتال قبل قربهم ووصولهم إلى فناء مصر بل كل من إبراهيم بيك ومراد بيك جمع عساكره ومكث فى مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم وليس هناك قلعة ولا حصن ولا معقل وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو ، ولما كان يوم الجمعة سادس شهر صفر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت فوصل أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون فى ريشهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتبكون فى رؤيتهم مغمورين فى غفلتهم وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين بل أشيع ذلك فلم يأتوا إلا من البر الغربى ولما كان وقت القيلولة ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى وتقدموا إلى ناحية بشتيل بلدة مجاورة لانبابة فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس فكروا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتابعة الرمى وأبلى الفريقان وقتل أيوب بيك الدفتردار وكثير من كشاف محمد بيك الألفى ومماليكهم وتبعهم طابور من الإفرنج نحو الستة آلاف ، وكان رئيسهم الكبير بونابارت لكنه لم يشهد الوقعة بل حضر بعد الهزيمة وكان بعيداً عن هؤلاء بكثير ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بيك ترامى الفريقان بالمدافع وكذلك العسكر المحاربون البحرية وحضر عدة وافرة من عساكر الأرناؤوط من دمياط وطلعوا إلى انبابة وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم فى المتاريس ، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية واخلاط الناس بالصياح ورفعوا الأصوات بقولهم يارب يالطيف ويا رجال الله ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم فكان العقلاء من الناس

يأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم أن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الصوت والصراخ والصياح فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه ومن يقرأ ومن يسمع وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرضى الشرقى ومعهم إبراهيم بيك الوالى وشرعوا فى التعدية إلى البر الغربى فى المراكب فتزاحموا على المعادى لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جداً فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين هذا وريح العاصفة قد اشتد هبوبها وأمواج البحر فى قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه ، ثم أن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بيك انقسم على تراتيب معلومة عندهم فى الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطاً بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتابعة والمدافع ترمى واشتد هبوب الريح وانعقد الغبار وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الريح وصمت الأسماع من توالى الضرب بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت واستمر الحرب والقتال نحو ثلثى ساعة ثم كانت الهزيمة على العسكر الغربى فغرق الكثير من الخيالة فى البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا والبعض وقع أسيراً فى يد الفرنسيس وملكوا المتاريس وفر مراد بيك ومن معه إلى الجيزة فصعد إلى قصره وقضى بعض أشغاله فى نحو ربع ساعة ، ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر إنبابه تحت الأرض وألقى كثير نفسه فى البحر ولما انهزم العسكر الغربى حول الفرنسيس والمدافع والبنادق على البر الشرقى وضربوها وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة فقامت فيهم ضجة عظيمة وركب فى الحال إبراهيم بيك والأمراء والعسكر والرعايا وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هى لم يأخذوا منها شيئاً فأما إبراهيم بيك والأمراء فساروا إلى جهة العادلية وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى جهة المدينة ودخلوها أفواجا أفواجا وهم جميعاً فى غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك وهم

يضجون بالعويل والنحيب ويبتهلون إلى الله تعالى من شر هذا اليوم العصيب والنساء يصرخن بأعلى أصواتهن من البيوت وقد كان ذلك قبل الغروب فلما استقر إبراهيم بيك بالعادلية أرسل يأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الأمراء فأركبوا النساء على الخيول والبغال والحمير والجمال والبعض ماش كالجوارى والخدم واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه ولا يسأل أحد عن أحد بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر البعض لبلاد الصعيد والبعض لجهة الشرق وهم الأكثر وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلا للقضاء متوقعاً للمكروه وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم فى الغربة فاستسلم للمقدور ولله عاقبة الأمور والذى أزعج قلوب الناس بالأكثر أن فى عشاء تلك الليلة شاع فى الناس أن الإفرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنساء وكان السبب فى هذه الإشاعة أن بعض عسكر مراد بيك الذين كانوا فى الغليون لمرسى انبابه لما تحقق الكسرة أضرم النار فى الغليون الذى هو فيه ، وكذلك مراد بيك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى الجهة القبلية فمشوا به قليلا فوقف فى الطين لقلة الماء ، وكان به عدة وافرة من آلات الحرب والجبخانة فأمر بحرقه أيضاً فلما صعد لهيب النار من جهة الجيزة و بولاق ظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فماجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكبرهم ونقيب الأشراف وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك واشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهرب واللحاق بهم والحال أن الجميع لا يدرون أى جهة يسلكون وأى طريق يذهبون وأى محل يستقرون فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على رأسه وزوجته حاملة طفلها ومن قدر على مركوب أركب زوجته وابنته ومشى هو على أقدامه وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات

وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها وأخذ كل إنسان ماقدر على حمله من مال ومتاع فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون ، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه مايستر به عورته أو يسد جوعته فكان ما أخذته العرب شيئاً كثيراً يفوق الحصر بحيث أن الأموال والذخائر التى خرجت من مصر فى تلك الليلة أضعاف مابقى فيها بلاشك لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم وغالب مساتير الناس وأهل القدرة أخرجوا أيضاً ماعندهم والذى أقعده العجز ، وكان عنده مايعجز عليه حمله من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين فذهب ذلك جميعه وربما قتلوا من قدروا على قتله أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان فمنهم من رجع عن قريب وهم الذين تأخروا فى الخروج وبلغهم ماحصل للسابقين ومنهم من جاز متكلا على كثرته وغزوته وخفارته فسلم أو عطب ، وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة جرى فيها مالم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه فى تواريخ المتقدمين قال الشاهد فما راء كمن سمعا ، ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لايدرون مايفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم فى أسوأ حال من العرى والفزع فتبين أن الفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقى وأن الحريق كان فى المركب المتقدم ذكرها فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الفرنج وينتظروا ما يكون من جوابهم ففعلوا ذلك وأرسلوه صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم وآخر صحبته فغابا وعادا وأخبرا أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة فقرأها عليه ترجمانه وأفهم أن مضمونها الاستفهام عن قصدهم فقال على لسان الترجمان وأين عظماؤكم ومشايخكم لم تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة وطمنهم وبش فى وجوههم فقالا نريد أمانا منكم فقال قد أرسلناه لكم سابقا يعنون الكتاب المذكور فيما تقدم فقالا

أيضاً نريد أمانا لأجل اطمئنان الناس فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها أننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم أننا ماحضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار وأخذ مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا البعض ونحن فى طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصرى وأما العلماء والمشايخ وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين فى مساكنهم مرتاحين ونحو ذلك من الكلام ، ثم قال لهم لابد أن المشايخ والشربجية يأتون إلينا لنرتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم وضحك لهم ، وقال لهم أنتم المشايخ الكبار فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا فقال لأى شيء يهربون اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة فكتبوا منه عدة مكاتيب بالحضور والأمان ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاء وحضروا إلى مصر واطمأن برجوعهم الناس ، وكانوا فى وجل وخوف على غيابهم ، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ فحضر شيخ السادات ، والشيخ الشرقاوى والمشايخ ومن انضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية ، وأما عمر أفندى نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر ، وكذلك الروزنامجى والأفندية وفى ذلك اليوم اجتمعت الجعدية وأوباش الناس ونهبوا بيت إبراهيم بيك ومراد بيك وأحرقوهما ونهبوا أيضاً عدة من بيوت الأمراء وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك وباعوا بأبخس الأثمان .

ذكر دخول الفرنسيس مصر

وفى يوم الثلاث عدت الفرنساوية إلى مصر وسكن بونابارته بيت محمد بيك الألفى بالأزبكية الذى أنشاه الأمير المذكور فى السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة وفرشه بالفرش الفاخرة وعند تمامه وسكناه حصلت هذه الحادثة فما دخلوه بل تركوه بما فيه فكأنه إنما كان يبنيه لأمير الفرنسيس ، وكذلك حصل فى بيت حسن

كاشف بالناصرية ولما عدى كبيرهم وسكن بالأزبكية كما ذكر استمر غالبهم بالبر الآخر ولم يدخل بالمدينة إلا القليل منهم ومشوا فى الأسواق من غير سلاح ولا تعديل صاروا يضاحكون الناس ويشترون مايحتاجون إليه بأغلى ثمن فيأخذ أحدهم الدجاجة ويعطى صاحبها فى ثمنها ريالا فرنسى ويأخذ البيضة بنصف فضة قياساً على أسعار بلادهم وأثمان بضائعهم فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم واطمأنوا لهم وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك من السكر والصابون والدخان والبن وصاروا يبيعون لهم بما أحبوا من الأسعار وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى واطمأن الناس .

ذكر ترتيب ديوان لفصل الخصومات

وفى يوم الخميس ثالث عشر شهر صفر أرسلوا يطلبون المشايخ والوجاقلية عند قائم مقام سر عسكر ، فلما حضروا تشاور معهم فى تعيين عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الخصومات فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى وحضر ذلك المجلس أيضاً مصطفى كتخدا والقاضى ، وقلدوا محمد أغا السلمانى أغات مستحفظان وعلى أغا الشعراوى والى الشرط وحسن أغا أمين احتساب وذلك بإشارة أرباب الديوان فإنهم كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك فعرفهم أن سوقة مصر لايخافون إلا من الأتراك ولايحكمهم سواهم وهؤلاء المذكررين من بقايا البيوت القديمة الذين لايتجاسرون على الظلم كغيرهم وقلدوا ذو الفقار كتخدا بيك كتخدا بونابارته وسأل أرباب الديوان المذكورين عما وقع من النهب للبيوت فقالوا هذا فعل الجعدية وأوباش الناس فقالوا لأى شىء يفعلون ذلك وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم عليها فقالوا هذا أمر لا قدرة لنا على منعه وإنما ذلك وظيفة الحكام ، ثم أمروا بالنداء بالأمان وفتح الدكاكين والأسواق والمنع من النهب فلم يسمعوا ولم ينتهوا واستمر غالب الأسواق

والدكاكين معطلة والناس غير مطمئنين وفتح الفرنسيس بعض البيوت المغلوقة التى للأمراء ودخلوها وأخذوا منها أشياء وخرجوا منها وتركوها مفتوحة فعند ما يخرجون منها يدخلها طائفة الجعيدية يستأصلون ما فيها ، ثم إن عسكرهم صارت تدخل المدينة شيئاً شيئاً حتى امتلأت منها الطرقات وسكنوا فى البيوت ولم يشوشوا على الناس ، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها ، وبعد أيام طلبوا سلفة خمسمائة ألف ريال من التجار ، فأخذوا فى تحصيلها بعد مراجعتها فى تخفيفها فلم يفعلوا ، ونادوا بالأمان لنساء الأمراء ، وأمروا كل من عندها شىء من متاع زوجها تأتى به ، وصالحت زوجة مراد بيك عن نفسها وأتباعها من نساء الأمراء بمائة وعشرين ألف ريال ، واستخرجوا من الخبايا شيئاً كثيراً ثم طلبوا من أهل الحرف والأسواق مبلغاً من المال يعجزون عنه فاستغاثوا بالمشايخ فتشفعوا عندهم فلطفوها لهم ، ولما جاء وقت مولد النبى صلى الله عليه وسلم أمروا بصنعه على المعتاد وأعطوا من عندهم إعانة على ذلك ثلاثمائة ريال وصنعوا شنكا ليلة المولد وجاءت مراكب الانكليز وحاربت مراكب الفرنسيس وأحرقوا له مركبا كبيراً واستمر أياما ثم ذهبوا ، وأما إبراهيم بيك ومراد بيك فذهبوا إلى غزة ثم رجعوا إلى جهة الفيوم وفى شهر ربيع الثانى طلبوا من الناس حجج أملاكهم وقيدوها عندهم ووضعوا عليها قدراً معلوما من الدراهم وأمروا المشايخ أن يكتبوا للسلطان كتابا مضمونه الثناء عليهم وحسن سيرتهم وأنهم من المحبين للسلطان وأنهم محترمون للقرآن والإسلام ففعلوا ، وفى عاشر جمادى الأولى جمعوا الناس وقرروا على الأملاك أموالا زيادة عما كان قبل ذلك وهاج عامة الناس ونادوا الجهاد ووقع قتال قتل فيه خلق كثير ثم صار النداء بالأمان ثم تتبعوا كثيراً ممن كان قائما فى تلك الفتنة ، فقتلوهم وأما كيفية مجالسهم وبقية الترتيب فى نظامات دولتهم فهو طويل لاحاجة لذكره وكذا ما كان يجرى من الحوادث ، ولما جاءت أخبار دخول الفرنسيس مصر إلى الحجاز قام شيخ عالم مغربى بمكة يقال محمد الجيلانى واستنفر الناس للجهاد فاجتمع معه خلق كثير ووصلوا إلى الصعيد وقاتلوا من وجدوه من الفرنسيس ولم يقدروا على استخلاص الأقطار المصرية منهم فقاتلوا حتى قتل أكثرهم

ورجع القليل منهم ، ثم جهز الفرنسيس جيشا لمحاربة أحمد باشا الجزار فى عكا فملكوا
كثيراً من قرى الشام وحاصروا أحمد باشا فى عكا ثم عجزوا عن أخذها فارتحلوا عنها.
وأجروا عمل ما يعتاده أهل مصر من مولد السيد أحمد البدوى وغيره على حسب المعتاد
وكذا إخراج المحمل والحج وحصل بينهم وبين أهل الأرياف محاربات كثيرة حتى
ملكوهم كلهم وصاروا يتبعون الأمراء من المماليك ويقتلون من ظفروا به وحضرت
مراكب إلى السويس فيها أموال وبضائع للشريف غالب فسمحوا عن عبورها وحصل بينه
وبينهم مكاتبات ومهادات بهدايا عندهم ووضعوا الشيخ العريشى قاضياً للمسلمين يحكم
بالشرع وتوجه بونابرته إلى بلاد الفرنسيس سنة أربعة عشرة وجعل سارى عسكرهم
نائبا عنه بمصر ، ثم ترقى بونابرته حتى صار ملكا على كافة الفرنسيس ، وفى شهر رجب
من سنة ١٤ جاء جيش من السلطان سليم يقوده يوسف باشا ومعه نصوح باشا جعلوه
واليا على مصر وهو الذى يقال له أيضا ناصف باشا وساروا من جهة الشام حتى وصلوا
إلى العريش فاستعد الفرنسيس بقتالهم وخرج بجنوده إلى الصالحية ثم توسط الانكليز فى
الصلح على شروط كثيرة منها أن الفرنسيس يتنحى عن الديار المصرية بعد ثلاثة أشهر
ففى تلك المدة صار الناس يحتقرونهم ويسخرون بهم ويقول بعضهم لبعض سنة مباركة
ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس وهم يحقدون ذلك
عليهم وكشف همج الناس نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن
والسخرية ولم يفكروا فى عواقب الأمور حتى أن فقهاء الأطفال كانوا يجمعون الأطفال
ويمشون فرقا وطوائف وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم يلعن النصارى
وأعوانهم وأفراد رؤسائهم كقولهم ينصر الله السلطان ويهلك فرط الزمان ولم يملكوا
لأنفسهم صبراً حتى تنقضى الأيام المشروطة على أن ذلك لم يثمر إلا الحقد والعداوة التى
تأسست فى قلوب الفرنسيس وأخذ الفرنساوية فى أهبة الرحيل وشرعوا فى بيع أمتعتهم
وما فضل من سلاحهم ودوابهم وسلموا غالب القصور والقلاع كالصالحية وبلبيس
ودمياط والسويس، ثم أن العثمانيين تدرجوا فى دخول مصر وصار كل يوم يدخل منهم،

جماعة بعد جماعة ووصل الوزير يوسف باشا إلى بلبيس والتقى بالأمراء المصريين ، وأخلى الفرنساوية إلى قلعة الجبل وباقى من العلماء القلاع التى أحدثوها ونزلوا منها فلم يطلع إليها أحد من العثمانيين ، وطلع كثير من العلماء والتجار للسلام على الوزير فى مدينة بلبيس فى رمضان فقابلوه وقابلوا والى مصر نصوح باشا وخلع عليهم خلعاً وانصرفوا ، ثم فى شهر شوال وقعت حادثة كانت سبباً للنقض وذلك أن جماعة من عسكر العثمانيين تشاجروا مع جماعة من عسكر الفرنسيس فقتل بينهم شخص فرنساوى ، فثار من ذلك فتنة ، ثم قتلوا ستة أنفار كانوا سبب الفتنة فسكنت لكن لم تطلب نفوس الفرنسيس ، ثم أن الفرنساوية طلبوا ثمانية أيام مهلة زيادة على المهلة السابقة لما قرب تمامها ، فأعطوهم مهلة الثمانية أيام ونصبوا وجاق عسكرهم وخيامهم بساحل البحر متصلا بأطراف مصر ممتداً إلى شبرا وترددوا إلى القلاع لم يكن بها أحد ، وشرعوا باجتهاد فى رد الجبخانة والذخيرة وآلات الحرب والبارود والقلل والمدافع ، واجتهدوا فى ذلك ليلا ونهاراً والناس يتعجبون من ذلك وأشيع أن الوزير اتفق مع الانكليز على الاحاطة بالفرنساوية بين إذا صاروا بظاهر البحر وكان الفرنساوية عندما تراسلوا وترددوا اجهة العرضى تفرسوا فى عرض العثمانيين وعسكرهم وأوضاعهم وتحققوا حالهم فعلموا ضعفهم عن مقاومتهم ، فلما حصل ما ذكر تأهبوا للمقاومة ونقض الصلح والمحاربة وردوا آلاتهم إلى القلاع ، فلما تمموا أمر ذلك وأحصنوا الجهات وأبقوا من أبقوه من عساكرهم خرجوا بأجمعهم إلى ظاهر المدينة جهة قبة النصر وانتشروا فى تلك النواحى ولم يبق منهم بالمدينة إلا من كان بداخل القلاع وأشخاص ببيت الألفى وبعض بيوت الأزبكية وغلب على ظن الناس أنهم برزوا للرحيل . فلما كان اليوم الثالث والعشرين من شوال ركب صارى عسكرهم قبل طلوع الفجر بعساكره وصحبتهم المدافع وآلات الحرب وقسم عساكره طوابير فمنهم من توجه إلى عرضى الوزير ومنهم من مال على جهة المطرية فضربوا عليهم بالمدافع فلم يسعهم إلا الجلاء والفرار وتركوا خيامهم ووطاقهم وركب نصوح باشا ومن كان معه وطلعوا جهة مصر فتركهم الفرنساوية ولحقوا بالذاهبين إلى جهة العرضى بعد أن نهبوا ما فى عرضى ناصف باشا من المتاع والأغنام وسمروا أفواه المدافع التى

لنصوح باشا وناصف باشا وتركوها وصاروا إلى جهة العرضى ، فلما قاربوه أرسلوا للوزير يأمرونه بالرحيل بعد أربع ساعات فلم يسعه إلا الارتحال والفرنساوية فى أثره وعساكره متفرقون ومنتشرون فى البلاد والقرى والنواحى لجمع المال وظلم الفقراء وأما أهل مصر فإنهم لما سمعوا صوت المدافع كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال فهاجوا وماجوا ورمحوا إلى أطراف البلد وخرج نقيب الأشراف وتبعه كثير من العامة وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى والقليل معه السلاح وتحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات وجعلوا يطوفون بالأزقة ولهم صياح بكلمات يقفونها من اختراعاتهم وخرافاتهم وقاموا على ساق ثم خرج الكثير منهم إلى خارج البلد بتلك الصورة فلما تضحى النهار حضر بعض الأجناد المصريين ودخلوا مصر وفيهم المجاريح وطفق الناس يسألونهم فلم يخبروهم لجهلهم أيضاً حقيقة الحال ، ثم لم يزل الحال كذلك إلى العصر فوصل جمع عظيم من العامة ممن كان خارج البلد ولهم صياح وخلفهم إبراهيم بيك ثم بقية الأمراء ثم نصوح باشا ومعه عدة وافرة من العساكر والسيد عمر نقيب الأشراف وصار نصوح باشا يقول للعامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم فعندما سمعوا قوله هاجوا وماجوا ورفعوا أصواتهم ومروا مسرعين يقتلون من يصادفونه من نصارى القبط والشوام وغيرهم وساروا إلى حارات النصارى يقتلون ويأسرون وينهبون فتحزبت النصارى واحترسوا وجمعوا كل ما قدروا عليه من الفرنساوية والأروام ، فوقع الحرب بين الفريقين وصارت النصارى ترمى من طاقات البيوت على المجتمعين بالأزقة من العامة والعسكر يحامون على أنفسهم والآخرون يرمون من أسفل ويكبسون البيوت ويتسورون عليها فلما أصبح الصباح أرسلوا إلى المطرية وأحضروا منها ثلاثة مدافع فوجدوها مسدودة فعالجوها حتى فتحوها وأمر الباشا بجر المدافع إلى الأزبكية وضربوا منها على بيت الألفى وكان به أشخاص مرابطون من عساكر الفرنساوية فضربوهم أيضاً بالمدافع والبنادق واستمر الحرب بين الفريقين إلى آخر النهار فسكن الحرب وباتوا ينادون بالسهر ، وفى هذا اليوم وضع أهل مصر

والعسكر متاريس بالأطراف كلها وشرعوا فى بناء جهات السور واجتهدوا فى تحصين البلد بقدر الطاقة وبات الناس فى هذه الليلة خلف المتاريس ، فلما أظلم الليل أطلق الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع وولوا الضرب فأجمع رأى الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد فى تلك الليلة لعجزهم عن المقاومة وعدم آلات الحرب وعزة الأقوات لأن غالب قوت أهلها يجلب من قراها كل يوم بيوم وربما امتنع وصول ذلك إذا تجسمت الفتنة فاتفقوا على الخروج بالليل وتسامع الناس بذلك فتجهز المعظم للخروج وغصت الطرق بالازدحام عند الخروج وازدحم الناس بالحمير والبغال والخيول والهجن والجمال وركب الناس بعضهم بعضاً ، ووقع للناس فى هذه الليلة من الكرب والمشقة والخوف ما لا يوصف وأناس من أهل خان الخليلى جاؤا إلى الجمالية وشنعوا على من يريد الخروج وأغلقوا باب النصر وبات فى تلك الليلة معظم الناس على مصاطب الحوانيت وأزقة الحارات ، فلما أصبح يوم السبت تهيأ كبراء العساكر والعساكر ومعظم أهل مصر ماعدا الضعيف الذى لاقوة له على الحرب وذهب المعظم إلى جهة الأزبكية وسكن الكثير فى البيوت الخالية والبعض خلف المتاريس وأخذوا عدة مدافع زيادة عن الثلاثة المتقدمة وأحضروا من حوانيت العطارين من المثقلات التى يزنون بها البضائع من حديد وأحجار استعملوها عوضاً عن القلل للمدافع وصاروا يضربون بها بيت سارى عسكر بالأزبكية ثم فرقوا الناس فى أطراف البلد والمتاريس للاحتراس وكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنسوى ذهب به إلى كتخدا وأخذ البقشيش فيحبس البعض ويقتل البعض وأحضروا الحدادين لإنشاء مدافع وجعلوا معملا البارود والقلل وغير ذلك من المهمات واهتموا لذلك اهتماماً زائداً وأنفقوا أموالا جمة ، وأما الفرنساوية فإنهم تحصنوا بالقلاع المحيطة بالبلد وبيت الألفى وما والاه وأما الوزير فإنه لما ارتحل بالعرضى ووصل إلى الصالحية تكلموا معه فى الرجوع فاعتذر بعدم الاستعداد ثم ساروا إلى الشام فرجع طائفة من عسكر الفرنساوية الذين ساروا خلف الوزير إلى أصحابهم الذين بمصر نجدة لهم وتقويت بهم نفوسهم ووقف جملة منهم بباب النصر ومنعوا الداخل والخارج وذلك كله

بعد مضى ثمانية أيام من ابتداء الحركة وقطعوا الجالب إلى البلد وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم فعظم الكرب وأكثروا من الرمى بالمدافع على البيوت من القلاع وعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار وهلكت البهائم وتهدمت البيوت وكثر صريخ النساء والصغار وفى كل ساعة تهجم الفرنساوية الذين هم خارج البلد على جهة من جهات مصر ويملكون بعض المتاريس واستمر الحال إلى عشرة أيام فرددوا الرسل للصلح فقال الفرنساوية لابد من خروج العثمانيه من مصر ونعطيهم مايحتاجون من المؤونة حتى يصلوا إلى جماعتهم وخرج إليهم الشيخ الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى وغيرهم وتمموا الصلح على ذلك فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه عساكر الانكشارية العثمانية وسائر الناس قاموا على المشايخ وسبوهم وضربوا الشيخ الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس وتكلم السفلة والغوغاء بكثير من الفضول فأرسلوا للفرنسيس أن الباشا والعساكر والناس لم يرضوا بالصلح ، ثم جاء مطر شديد وتوحلت جميع السكك فاشتغل الناس بتخفيف المياه والأوحال فاغتنم الفرصة الفرنسيس وهجموا على مصر وبولاق من كل ناحية ، وعملوا فتائل بالزيت والقطران وكعكات غليظة ماوية معمولة بالنفط ملوية على أعناقها مشربة بقطرات تشعل وتقوى لهبها وتابعوا رمى المدافع والبنبات من القلاع وصاروا يهجمون وأمامهم المدافع وخلفهم بواردية يرمون بالبندق المتتابع وطائفة بأيديهم الفتائل والكعكات المشتعلة بالنيران يلهبون بها السقائف والحوانيت وشبابيك الدور ويزحفون على هذه الصورة شيئا فشيئا والمسلمون بذلوا جهدهم وقاتلوا بشدة وزلزلوا زلزالا شديداً وصرخت النساء والصبيان ونطوا من الحيطان والنار تأخذهم من كل جهة والأمطار متوالية بالليل والنهار ومثل ذلك كان فى بولاق بل زيادة عن ذلك لأنهم فى آخر الأمر قتلوهم وحرقوا بلادهم وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم وذراريهم، والحاصل أن هذه الفتنة قد شاهد الناس فيها من الهول مايشيب منه النواصى وصارت القتلى مطروحة فى الطرقات والأزقة واحترقت الأبنية

والدور والقصور وهرب كثير من الناس عندما أيقنوا بالخذلان فنجوا بأنفسهم إلى الجهة القبلية ، ثم أحاطوا بالبلد واستولوا على الخانات والوكالات والحواصل والبضائع والودائع وملكوا الدور وما بها من الأمتعة والأموال والنساء والخاوندات والصبيان والبنات ومخازن الغلال ومالا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور وكان جماعة من المسلمين فى هذه الفتنة يداهنون الفرنسيس وأخذوا منهم أمانا وهم مع المسلمين فأطلع المسلمون عليهم فآذوهم وعذبوهم بأنواع العذاب وقتلوا بعضهم واتهموا الشيخ البكرى بموالاة الفرنسيس وأنه يرسل إليهم الأطعمة فهجم عليه طائفة من العسكر وبعض أوباش العامة فنهبوا داره وسحبوه مع أولاده وحريمه وأحضروه إلى الجمالية وهو ماش على أقدامه ورأسه مكشوفة وحصلت له إهانة بالغة ، وسمع من العامة كلاما مؤلما وشتما فلما مثلوه بين يدى الكتخدا أهاله ذلك واغتم غما شديداً ووعده بخير وطيب خاطره وأخذه أحمد بن محمود محرم التاجر مع حريمه إلى داره وأكرمهم وكساهم وأقاموا عنده حتى انقضت الفتنة وكان جماعة من الأمراء والرؤساء يذهبون ويجيئون من الفرنسيس إلى المسلمين ومن المسلمين إليهم يسعون فى الصلح بين الفريقين واستمر الحال إلى السادس والعشرين من الشهر حتى هلكت الناس وتمنوا دخول الفرنسيس وخروج العثمانيين ، ثم تم الصلح على وقف الحرب وخروج العثمانيين بعد مهلة ثلاثة أيام، ثم خرجوا وارتحلوا وزودهم الفرنسيس وأعطوهم دراهم وجمالا وغير ذلك وخرج أيضاً إبراهيم بيك وأمراؤه ومماليكه وخرج معهم الرؤساء منهم نقيب الأشراف والمحروقى رئيس التجار سنة ١٢١٥ وأما مراد بيك فكان بالصعيد وكان قد انعقد بينه وبين الفرنسيس صلح ومهادنة وكانت مدة الحرب والحصر بالثلاثة الأيام الهدنة سبعة وثلاثين يوما وقع فيها من الحروب والكروب وعظائم الأمور مالا يحيط به إلا الله تعالى ودخل الفرنسيس مصر وضبطوها فى أوائل ذى الحجة سنة ١٥ وأمنوا الناس واستولوا على ما كان اصطنعه العثمانيون وأعدوه من المدافع والقنابر والبارود وآلات الحرب وركب المشايخ فى عصر ذلك اليوم وذهبوا إلى كبير الفرنسيس فلما جلسوا أبرز لهم ورقة مكتوب فيها النصرة لله الذى

تريته أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس وبناء على ذلك يريد سر عسكر أن ينعم بالعفو العام على أهل مصر ولو كانوا يخالطون العثمانيين فى الحروب ويأمرهم أن يشتغلون بمعاشهم وصنائعهم ثم نبه عليهم بالحضور إلى قبة النصر بكرة تاريخه ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالأطمئنان والأمان فلما كان الغد ذهبوا إلى قبة النصر وصنع لهم سماطا عظيما ضيافة وزينت البلاد ثلاثة أيام ، ثم بعد أيام أمرهم بالحضور بدار الأزبكية ، فلما وصلوا جلسوا حصة طويلة فى الديوان الخارج ثم أدخلوا وجلسوا حصة فخرج إليهم سر عسكر وصحبته ترجمانه وجماعة من أعيانهم فوضع له كرسى فى وسط المجلس وجلس عليه ووقف الترجمان فكلمه السر عسكر بكلام طويل بلسانهم فالتفت الترجمان وأخبرهم بما قاله سر عسكر وملخص ذلك القول أن سر عسكر يقول إننا لما حضرنا إلى بلدكم هذه نظرنا أن أهل العلم هم أعقل الناس والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون ثم أنكم أظهرتم لنا المحبة والمودة وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالإحسان وخفضنا لكم جناح الطاعة وجعلناكم مسموعى القول مقبولى الشفاعة وأوهمتمونا أن الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون فلما حضر العثملى فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم وثبت عند ذلك نفاقكم لنا ، فقالوا له نحن ماقمنا مع العثملى إلا عن أمركم لأنكم عرفتمونا أنكم ونحن فى حكم العثملى وأن البلاد والأموال صارت له وخصوصاً وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين وماشعرنا إلا بحدوث هذا الحادث بينكم وبينهم على حين غفلة ووجدنا أنفسنا فى وسطهم فلم يمكن التخلف عنهم فقال لهم لأى شىء لم تمنعوا الرعية عما فعلوا من قيامهم ومحاربتهم فقال لا يمكننا ذلك خصوصاً وقد وثبوا علينا بغيرنا وسمعتم مافعلوه معنا من ضربنا وإهانتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح فقال لهم وإذا كنتم لا تمكنكم تسكين الفتنة فما فائدة رياستكم وأى شىء يكون نفعكم وحينئذ لا يأتينا منكم إلا الضرر لأنكم إذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم وإياهم علينا وإذا ذهبوا رجعتم إلينا معتذرين فكان جزاؤكم القتل وحرق البلاد وسبى الحريم والأولاد

كما فعلنا بأهل بولاق ولكن حيث أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننا ولا نقتلكم وإنما نأخذ منكم الأموال فالمطلوب منكم عشرة آلاف ألف ألف فرنك عن كل فرنك ثمانية وعشرون فضة يكون فيها ألف ألف فرانسة عنها خمس عشرة خزنة رومى بثلاث عشرة خزنة مصرى منها خمسمائة ألف فرانسة على مائتين على شيخ السادات خاصة من ذلك خمسمائة وخمسة وثلاثون ألفا وعلى الشيخ الجوسرى خمسون ألفاً وعلى أخيه الشيخ فتوح خمسون ألفاً وعلى الشيخ مصطفى الصاوى خمسون ألفاً وعلى الشيخ العنانى مائتان وخمسون ألفاً جعلوا ذلك عليه وعلى الفارين مع العثملى مثل السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والمحروقى وما بقى من المبلغ المطلوب تقررونه وتوزعونه على أهل البلد وتتركون عندنا منكم خمسة عشر شخصا انظروا من يكون منكم عندنا رهينة حتى توفوا ذلك المبلغ ، وقام من كرسيه من فوره ودخل مع أصحابه وأغلق بينه وبينهم الباب ووقفت الحرسية على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسين فبهت الجماعة وامتقعت وجوههم ونظروا إلى بعضهم وتحيرت أفكارهم ولم يخرج عن هذا الأمر إلا البكرى والمهدى لكون البكرى حصل له ما حصل فى صحائفهم والمهدى كان يداهنه وحرق بيته برأى منهم ولم يكن فيه إلا الحصر لأنه كان قد نقل ما فيه بداره التى فى الخرنفش ولم تزل الجماعة فى حيرتهم وسكرتهم وتمنى كل واحد منهم أنه لم يكن شيئا مذكوراً ولم يزالوا على ذلك الحال إلى قريب العصر حتى بال أكثرهم على ثيابه وبعضهم شرشر ببوله من شباك المكان وصاروا يدخلون على نصارى القبط ويقعون فى عرضهم فالذى كان معهم ولم يكن معدوداً من الرؤساء أخرجوه فخرجوا مسرعين حتى أن بعضهم ترك مداسه وخرج حافياً وماصدق بخلاص نفسه هذا والنصارى والمهدى يتشاورون فى تقسيم ذلك وتوزيعه وتدبيره وترتيبه فى قوائم حتى وزعوها على أصحاب الحرف وأهل البيع والشراء وجميع الناس حتى القراداتية جعلوا على كل طائفة مبلغاً له صورة مثل ثلاثين ألف فرانسة وأربعين ألفاً وجعلوا على أجرة الأملاك والعقار أجرة سنة كاملة ثم استأذنوا المشايخ الخالص منهم الذى ليس عليه شى يتوجه حيث أرادوا المشبوك يلازمه جماعة من العسكر حتى يؤدى المطلوب منه وأما الصاوى

وفتوح والجوهرى فحبسوهم ببيت قائم مقام ، والعنانى هرب فلم يجدوه وداره أحرقت فأضافوا غرامته على غرامة شيخ السادات وانفض المجلس على ذلك وركب صارى عسكر من يومه ذلك وذهب إلى الجيزة ووكل يعقوب القبطى يفعل بالمسلمين ما يشاء ونزل شيخ السادات وركب إلى داره فذهب معه عشرة من العسكر وأركبوه وجلسوا على باب داره ، فلما كان حصته من الليل حضر إليه مقدار عشرة من العسكر وطلعوا به إلى القلعة وحبسوه فى مكان ، ثم تشفع له أناس وكفلوه لينزل إلى داره ويحصل له المطلوب منه فتحصل عنده من الدراهم ستة آلاف ريال وقاموا ما وجدوه من المصاغ والفراوى والملابس فبلغ خمسة عشر ألف ريال فكان الجميع إحدى وعشرين ألف ريال ، ثم صاروا يفتشون داره ويحفرون الأرض والخبايا حتى فتحوا الكنيف فلم يجدوا شيئاً ثم نقلوه إلى بيت قائم مقام وضربوه وأهانوه وأودعوا زوجته وابنه عند أغاة الانكشارية ثم أن المشايخ وهم الشيخ الشرقاوى والأمير والمهدى وغيرهم تشفعوا فى نقل الزوجة إلى بيت الفيومى ثم وقعت المراجعة والشفاعة فى غرامة الشيخ فتوح والصاوى فجعلوا على كل واحد خمسة عشر ألف ريال وردوا الباقى على الفردة العامة وأما الجوهرى فاختفى فلم يجدوه فنهبوا داره ، ثم وكلوا بالفردة العامة يعقوب القبطى ، وأعطوه عسكراً لتحصيلها ، ودهى الناس بهذه النازلة التى لا يصابون بمثلها ، وفرغت الدراهم من عند الناس ، وباعوا أمتعتهم وجميع ما عندهم ، ولم يجدوا من يشترى الأثاث والفرش والملبوس بأبخس الأثمان ودفعوا لهم أيضاً جميع ما يملكون من البغال والخيل والحمير ومنعوا المسلمين من ركوبها سوى خمسة أنفار وهم الشرقاوى والمهدى والأمير والفيومى وابن محرم وتطاولت النصارى من الشوام والقبط على المسلمين بالضرب والسب وفى كل وقت يشتد الطلب وتابث المعينون والعسكر فى طلب الناس ، وهجم الدور ، وجرجرة الناس حتى النساء من أكابر وأصاغر وبهدلهم وحبسهم وضربهم والذى لم يجدوه لكونه فر وهرب يقبضون على قريبه أو حريمه أو ينهبون داره فإن لم يجدوا شيئا ردوا غرامته على أبناء جنسه ، وأهل حرفته ، ونالوا من الناس أغراضهم ، وأظهروا حقدهم وصاروا يصرخون بانقضاء ملة

الإسلام وأيام الموحدين هذا والكتبة والمهندسون والبناؤون يطوفون ويحررون أجرة الأملاك والعقارات والوكائل والحمامات ، ويكتبون أسماء أربابها وقيمتها ، وخرج كثير من الناس من المدينة وأجلوا عنها وهربوا إلى القرى والأرياف واستمرت الحوانيت مقفولة والعقول مخبولة والمصائب عميقة والأمر عظيم والخطب جسيم ولا حول ولا قوة إلى بالله العلى العظيم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ واستمر شيخ السادات محبوسا إلى غاية شهر صفر من سنة خمسة عشر فأفرجوا عنه ونزل إلى بيته بعد أن غلق الذى عليه واستولوا على حصصه وأقطاعه وقطعوا مرتباته وكذلك جهات حريمه والحصص الموقوفة على زاوية أسلافه ، وشرطوا عليه عدم الاجتماع بالناس ، وأن لا يركب بدون إذن منهم ويقتصد فى أموره ومعاشه ويقلل أتباعه ، وفى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة نادوا على الناس الفارين من مصر من خوف الفردة وغيرها بأن من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوما من وقت المناداة نهبت داره وأحيل بوجوده من المذنبين واشتد الأمر بالناس وضاقت منافسهم وتابعوا نهب الدور بأدنى شبهة ولا شفيع تقبل شفاعته أو متكلم تسمع كلمته ونزل بالمسلمين الذل والهوان وتطاولت عليهم الفرنساوية وأعوانهم وأنصارهم من نصارى البلد والأقباط والشوام والأروام حتى صاروا يأمرونهم بالقيام لهم عند مرورهم ثم شددوا فى ذلك حتى كانوا إذا مر بعض عظمائهم بالشارع ولم يقم إليه بعض الناس على أقدامه رجعت إليه الأعوان وقبضوا عليه وأصعدوه إلى الحبس بالقلعة وضربوه واستمر عدة أيام فى الحبس ثم يطلق بشفاعة بعض الأعيان وأما الأموال المطلوبة فأخذوها وما بقى شىء للناس إلا واستولوا عليه وما بقى جعلوه على الأطيان والفدادين ومشايخ القرى والبلدان وتفصيل ذلك كله طويل ولم يزل الناس معهم فى شدة وكرب إلى أن قضى الله ما قدره وأذن بخروجهم وانقضاء دولتهم .

ذكر خروج الفرنسيس من مصر

فى أواخر شوال سنة خمسة عشر برز الأمر من مولانا السلطان سليم بالتجهيز إلى مصر براً وبحراً أما العساكر التى من البر فهى بمعية يوسف باشا وأما البحر فتعهدت به الإنكليز ، ثم فى أوائل ذى القعدة ورد جماعة من الإنكليز براكب إلى ثغر الأسكندرية وطلع جماعة منهم إلى البر وتحاربوا مع أمير الأسكندرية ومن معه من الفرنسيس ، ثم فى أول ذى القعدة جاءت الأخبار إلى الفرنسيس بمصر بأن يوسف باشا وعساكره وصلوا إلى العريش فجمعوا المشايخ والأعيان بمصر وقالوا لهم إنه يحب المسلمين ويميل إليهم بالطبع وخصوصا العلماء أهل الفضائل ويفرح لفرحهم ويغتم لغمهم ولا يحب لهم إلا الخير ولكن سياسة الأحكام تقتضى بعض الأمور المخالفة للمزاج والآن بلغنا أن يوسف باشا وعساكر العثمانية تحركوا إلى هذا الطرف فلزم الأمر لتعويق بعض الأعيان وذلك من قوانين الحرب عندنا بل وعندكم ولا يكون عندكم تكدير ولا هم بسبب ذلك فليس إلا الإعزاز والإكرام أينما كنتم ثم انفض المجلس على تعويق أربعة أشخاص من المشايخ وهم الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى والشيخ الصاوى والشيخ الفيومى فأصعدوهم إلى القلعة وفى الساعة الرابعة من الليل مكرمين وكان هؤلاء الأربعة من أهل الديوان المرتب فى مصر لفصل القضايا وكان معهم فى الديوان الشيخ الأمير والبكرى والشربينى فأبقوهم فى الديوان على حالهم السابق ثم وقع حرب أيضا بالأسكندرية فى البر بين الإنكليز والفرنسيس فى الرابع عشر من ذى القعدة وكانت الهزيمة على الفرنسيس وقتل منهم كثير وانحازوا إلى داخل الأسكندرية وأرسل الفرنسيس من كشف عن متاريس الإنكليز فوجدوها فى غاية الوضع والإتقان ، ثم وقع قتال أخر فقتل فيه من الفرنسيس خمسة عشر ألفا ثم طلبوا عساكر من مصر نجدة لهم فأطلق الإنكليز حبوس المياه المالحة حتى أغرقت طرق الأسكندرية وصارت جميعاً لجة ماء ولم يبق لهم طريق مسلوك إلا من جهة العجمى إلى البرية وتترس الإنكليز قبالهم من جهة الباب الغربى ووقع فى مصر فى هذه السنة طاعون مات فيه خلق كثير منهم مراد بيك مات فى الصعيد رابع ذى الحجة من السنة المذكورة.

وكان قد اصطلح مع الفرنسيس وأعطوه أمارة الصعيد وهو من مماليك محمد بيك أبى الذهب ومحمد بيك مملوك على بيك وعلى بيك مملوك إبراهيم بيك كتخدا إشترى مراد بيك سنة ١١٨٢ ثم عتقه وترقى عنده وأكرمه وأنعم عليه بالاقطاعات الجليلة وقدمه على أقرانه ولما انفرد سيده محمد بيك بإمارة مصر كان مراد بيك وإبراهيم بيك أكبر الأمراء المشار إليهما دون غيرهما واتسعت لهما الأموال والأملاك والضياع ، ثم لما مات محمد بيك سنة ١١٨٢ صارت الرئاسة فى ملك مصر لهما ولكن كان إبراهيم بيك مقدما وكان مراد بيك منعكفا على اللذات والملاهى وكان لكل منهما مماليك وهم الصناجق والأمراء وكانت وفاة إبراهيم بيك بدنقلة سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف .

ذكر ما كان من استعداد الفرنسيس

فى خامس المحرم من سنة ست عشرة ومائتين وألف أكثروا من نقل الماء والدقيق والأقوات إلى القلعة بمصر وكذلك البارود والكبريت والقلل والقنابر والبنب ونقلوا الأسوار والبيوت من الفرش والأمتعة والأسرة إلى القلعة ولم يبقوا بالقلاع الصغار الأمهات الحرب وطلبوا الزياتين وألزموهم بمائتى قنطار زيت وسمروا جملة من حوانيتهم لتحصيل ذلك واجتهدوا فى وضع متاريس خارج البلد وحفروا خنادق وطلبوا الفعلة للعمل فكانوا يقبضون على كل من وجدوه ويسوقونه للعمل وأقوا الأحجار العظيمة والمراكب ببحر انبابه لتمنع المراكب من العبور ، وهدموا جانبا من الجيزة من الجهة البحرية ، وبلغهم أن عساكر الإنكليز القادمة من البر الغربى قريب ووصلت ترعة الفرعونية وأن العساكر الشرقية وصلت إلى بنها وأن طائفة من الإنكليز فى جهة الأسكندرية وأن الحرب قائم بها وأن الفرنساوية محاصرون بداخل الأسكندرية ويحاربهم الإنكليز ومن معه من العثمانيين من الخارج وأن جماعة من الإنكليز قعدوا فى الأماكن التى يمكن الفرنسيس النفوذ إليها وقطعوا عليهم الطرق من كل ناحية وأطلقوا الحبوس عن المياه السائلة من البحر المالح منه إلا الجسر المقطوع حتى سالت المياه وردغت الأراضى المحيطة بالأسكندرية وخروج عن طاعة الفرنسيس الأمراء الذين بالصعيد وردوا مكاتبهم التى

أرسلوها لهم بعد مراد بيك وحضرت لهم الأخبار المتواترة بوصول القادمين من الإنكليز والعثمانية إلى الرحمانية وتملكهم القلعة وما بالقرب منها من الحصون وجاءتهم الأخبار أيضاً بأنهم تملكوا رشيد ودمياط ، وفى العشرين من المحرم يوم الإثنين جاءتهم الأخبار بأن الوزير وصل ذيجوة فطلبوا مشايخ الديوان عند قائم مقام فقال لهم أن الخصم قد قرب منا ونرجوكم أن تكونوا على عهدكم مع الفرنسيس وأن تنصحوا أهل البلد والرعية أن يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوهم ولا يتداخلون فى الشر والشغب فإن الرعية بمنزلة الولد وأنتم بمنزلة الوالد الواجب على الوالد نصيح ولده وتأديبه على الطريق المستقيم ، حتى يكون فيه الخير والصلاح ، فإنهم إن داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر ، وإن حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار وأحرقت دورهم ونهبت أموالهم ومتاعهم وسبيت نساهم وتيتمت أولادهم وألزموا بالأموال والفردة التى لا طاقة لهم بها فقد رأيتم ما حصل فى الوقائع السابقة فاحذروا من ذلك فإنكم لا تدرون العاقبة ولا تكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا وإنما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير فأجابوا بالسمع والطاعة وقرأ عليهم ورقة بمعنى ذلك وأمروا بالمناداة على الناس بذلك وأنهم ربما سمعوا ضرب مدافع جهة الجيزة فلا ينزعجوا من ذلك فإنه شنك وعيد لبعض أكابرهم وأمروا أن يجتمع بالديوان فى الغد الأعيان والتجار وكبار الأخطاط ومشايخ الحارات ويتلى عليهم ذلك فكان كذلك وفى غاية شهر محرم جاءتهم الأخبار بأن الوزير وصل إلى الشلقان وكذلك عساكر الإنكليز فجمعوا المشايخ بالديوان وأعلموهم أن أرض مصر استقر ملكها للفرنساوية فيلزم اعتقادكم ذلك وأركزوه فى أذهانكم كما تعتقدون وحدانية الله تعالى ولا يغرنكم هؤلاء القادمون وقربهم فإنهم لا يخرج من أيديهم شىء أبداً وهؤلاء الإنكليز ناس خوارج حرامية وصناعتهم إلقاء العداوة والفتن والعثمانلى مغتربهم فإن الفرنساوية كانت من الأحباب الخلص للعثمانلى فلم يزالوا حتى أوقعوا بينه وبينهم العداوة والشرور وأن بلادهم ضيقة وجزيرتهم ضيقة ولو كان بينه وبين الفرنساوية طريق مسلوكة من البر لا نمحى أثرهم وأنمحى ذكرهم من مكان مديد وتأملوا فى شأنهم

وأى شىء خرج من أيديهم فإن لهم ثلاثة أشهر من حين طلوعهم إلى البر وإلى الآن لم يصلوا إلينا والفرنسيس عند قدومهم وصلوا فى ثمانية عشر يوما ، فلو كان فيهم همة شجاعة لو صلوا مثل وصولنا وكلام كثير من هذا النمط . وفى ثالث صفر وصلت عساكر العثمانيين وانتصبوا إلى العادلية فى الجهة الشرقية وإلى انبابة فى الجهة الغربية وجرى القتال بينهم وبين الفرنسيس وكان النصر لعسكر السلطنة العلية ثم عقد الصلح على خروج الفرنسيس من مصر وتسليمها للدولة العلية فتجهزوا وخرجوا آمنين فى أواخر صفر ولما انعقد الصلح أطلقوا المشايخ الذين كانوا بالقلعة رهائن وهم الشيخ الشرقاوى والمهدى والصاوى والفيومى وكانت مدة حبسهم فى القلعة نحو مائة يوم وسافرت عساكر الفرنسيس على رشيد وأبى قير ودخل الوزير يوسف باشا مصر فى التاسع والعشرين من شهر صفر بموكب حافل وكانت مدة تملك الفرنسيس لمصر ثلاث سنين وشهراً . قال الشيخ الشرقاوى فى تاريخه وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى كاثوليكية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ويقولون أن الله واحد ولكن يقولون بالتعليل ويحكمون العقل ويجمعون منهم مدبرين يدبرون الأحكام ويضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون أن الرسل محمد وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم هى قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان فى ذلك رحمة الله تعالى بأهل مصر فإنهم جعلوا من جملة ذلك ديوانا فيه جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع والسبب الذى أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم وعجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال وأنهم عند قدومهم كتبوا كتباً وفرقوها فى البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون أن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث وأنهم يعظمون محمداً ويحترمون القرآن وإنهم يحبون العثملى ولم يأتوا

إلا لطرد المماليك الظلمة لأنهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا فى شىء لكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا. وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة على البيوت وقتل منهم ما يقرب عن الألف وهتكوا بعض الأعراض فى مصر وقراها فإن كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما ودخلوا بجيوشهم الجامع الأزهر ومكثوا فيه يوماً وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ونهبوا منه أموالا كثيرة وسبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لاتدخله فحولوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع ونشروا الكتب التى فى الخزائن يعتقدون أن بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتباً ومصاحف نفيسة وكان خروجهم بهمة مولانا سلطان سلاطين أهل الأرض مولانا السلطان سليم خان لازال محفوفاً برعاية الحنان المنان وبتدبير وزيره الأعظم وكان مكث بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية فى مصر سبعة أشهر ثم ذهب لقتال أحمد باشا الجزار بعكا ثم توجه إلى بلاد الفرنسيس وجعل له نائباً منهم بمصر ولما وصل بونابرته إلى الفرنسيس ويقال له نابليون استعانوا به فى إصلاح خلل كان حاصلا ثم ساق جيوشاً لمحاربة إيطاليا والنيمسا وانتصر عليهم، وفى سنة ١٢١٩ أقاموه إمبراطوراً على فرنسا كافة وشن الغارات على دول أوروبا وحارب الروسية والنيمسا والانكليز والبروسية ووقائعه طويلة أفردت بالتأليف ثم تجمعت جميع ملوك أوروبا واتفقوا على حرب فرنسا فأصاب فرنسا من ذلك شدائد عظيمة وسئموا من كثرة الحرب فاتفقوا على خلع بونابرته ودعوا الوزير الثامن عشر ليملكوه عليهم فلما علم ذلك بونابرته استعفى وذلك سنة ١٢٣٠ فملكوا الوزير الثامن عشر وأعطوا بونابرته جزيرة الألب ليملك عليها ثم بعد سنة أتى باريس فهرب الوزير الثامن عشر وعاد إلى انكلترا فنهضت الدول لمحاربة بونابرته وإعادة الوزير إلى ملك فرنسا وجرت أمور يطول ذكرها وآخر الأمر تنازل عن الملك إلى ابنه فلم تقبل الدول المتحدة أن يتبوأ الملك أحد من سلالته فذهب بونابرته إلى رشغورت

وطلب من حكومة الانكليز أن تقبله ضيفاً فى بلاده فأجابته أولا إلى ذلك فركب إلى أحد الموانى الانكليزية ، وقبل أن ينزل إلى البر أرسلت إليه الحكومة الانكليزية تخبره أنه أسير الدول المتحدة ثم شيعوه إلى جزيرة هيلانة فبقى أسيراً إلى أن هلك سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف وعمره أربعة وخمسون سنة ولنرجع إلى إتمام الكلام على ما كان فى بقية زمن السلطان سليم .

ذكر خلع السلطان سليم

سبب ذلك أن السلطان سليم كان يرغب أن يلاشى وجاق الانكشارية ويقيم مكانه عسكراً جديداً على الطريقة الافرنكية لأن الانكشارية كانوا قد زعزعوا أركان السلطنة بعصيانهم وعدم انقيادهم ، وكان قد نظم فى العام الماضى بعض الفرق من النظام الجديد ، فهاج الانكشارية من ذلك وأثاروا فى القسطنطينية شغبا عظيما يطول الكلام بذكره ، واعتصبوا عصبة واحدة وكان موافقاً لهم على منع النظام الجديد عطاء الله افندى شيخ الإسلام وقائمقام صدر أعظم ففوى أمرهم به وقال لهم أنه لايجوز أن تكون عساكر الإسلام متشبهة بالكفار ، وحيث أحدثوا النظام الجديد كانوا متشبهين بالكفار ، فقويت هذه الحجة فى صدورهم ، وقالوا سيروا بنا لنلاشى النظام الجديد وننتقم من الوزراء الذين أفسدوا طهارة الإيمان بأفعالهم الشنيعة ، وتحالفوا على ملاشاة وجاقات العساكر الانكشارية الذين هم أعمدة مملكة الدولة العلية وبعد هذا الحديث أخرجوا ورقة فيها أسماء بعض أشخاص من رجال الدولة يريدون قتلهم أرسلها إليهم المفتى عطاء الله افندى فأخذوا يتلونها ويسمعون الأشخاص الذين يريدون قتلهم ، ثم ساروا يفتشون على أولئك الأشخاص فوجدوا بعضاً منهم فقتلوهم واختفى كثير من أولئك الأشخاص فى بيوت النصارى واليهود وقتلوا خلقاً كثيراً وأحضروا ١٧ رأساً من أعظم رجال الدولة وظل الدم جاريا فى القسطنطينية ٣ أيام ثم صمموا على طلب السلطان سليم والقبض عليه ليخلعوه وصاروا يقولون يا أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم نسيت أنك أمير المؤمنين وعوضاً عن اتكالك على الله القادر العظيم الذى يبدد بدقيقة واحدة الجيوش الكثيرة العدد

وأردت أن تشبه الإسلام بالكفار وأغضبت الله فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين ومحامياً عن الدين فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لهم ثقة بك، والمملكة أضحت مضطربة فيجب عليك أن تلاحظ وتفضل على كل شيء شرف الإيمان وسلامة الإسلام وبعد كلام كثير صارت قراءة الفتوى التي مضمونها أن: السلطان الذى يخالف القران الشريف هل يترك على تخت السلطنة ؟ الجواب كلا : ثم قال القارىء قد صار معلوما عندكم أنه تحتم عزل السلطان فما قولكم الآن هل تسلمون له أن يفعل مايخل بالإسلام فصرخت العساكر كلا ثم كلا لا نقبله سلطانا علينا فليعزل وصرحوا باسم السلطان عبد الحميد وقالوا ليعيش السلطان مصطفى، وأرسلوا المفتى للسلطان سليم ليتنازل عن السلطنة من دون مقاومة، فدخل عليه متذللا منخفض الرأس قائلا يامولانا إنى قد حضرت بين يديك برسالة محزنة أرجوك قبولها لتسكين الهيجان، وليس خافيا على مسامعكم الشريفة بأن العساكر الانكشارية قد نادوا باسم السلطان مصطفى ابن عمك سلطانا عليهم فالآن لا سبيل إلى المقاومة فالتسليم لأمر الله أوفق من كل شيء، فلم تظهر على السلطان سليم كآبة من هذا الحديث وقبل كلام المفتى ونزل عن السلطنة وكان ذلك فى ٢١ من ربيع الأول سنة ١٢٢٢ فمدة سلطنة السلطان سليم ثمانى عشرة سنة وثمانية أشهر وإذا كان ذاهبا يختلى فى مكان منفرد عن السرايا التقى بالسلطان مصطفى قادما ليجلس مكانه على تخت السلطنة فقال له يا أخى اهبطنى الله من العرش العتيد لأن تجلس عليه أنت لأننى أردت وضع تنظيمات لتقوية المملكة والدين وصلاح حال العسكر الذين جهلوا تعاليمهم وتركوا قوانينهم، فهاجت على العساكر مع بعض رجال الدولة وأرسلوا يطلبون منى التنازل عن تخت السلطنة ونادوا باسمك وها أنا ماض بكل رضا أعيش منفرداً وأما أنت فإنك سعيد أكثر منى فأرغب إليك أن تسلك معهم بالحكمة اللازمة الحسنى فلم يصغ السلطان مصطفى لكلام السلطان سليم وأراد السلطان سليم أن يعانقه فلم يتمكنه من معانقته فلما وصل السلطان سليم إلى المكان الذى يريدون وضعه فيه وجد السلطان محمود أخا السلطان مصطفى ماكثا فى ذلك الموضع عليه آثار الرقة والنباهة وعند ما شاهد السلطان سليم الاقاه فقبل يده ذارفا دموعا غزيرة فحرك السلطان

سليم إلى البكاء وجلسا فى ذلك الموضع وطالما كانا يتحدثان دائما بالأمور المشيدة أركان الدولة والدين هذا ما كان من أمر السلطان سليم والسلطان محمود .

ذكر ولاية السلطان مصطفى بن عبد الحميد

وأما السلطان مصطفى فإنه بوصوله إلى إمام أولئك العساكر فرحوا به فرحا عظيما وأجلسوه على تخت السلطنة وبسبب هذه الحادثة العظمى والفتنة الظلماء تحصل الخوف لجميع أهل القسطنطينية وقفلت الحوانيت ووقع الرعب فى قلوب الجميع ، ثم أطلقت المدافع علامة على جلوس السلطان مصطفى ونودى فى المنابر باسمه وتقدم المفتى شيخ الإسلام قائمقام موسى باشا إلى الجميع التى كانت مجتمعة فى فسحة آت ميدان وأخبروهم أن السلطان مصطفى قد وعد بإبطال ما كان مهتما به السلطان سليم من موضع النظام الجديد وبإرجاع العوائد القديمة ، فلما سمع الجميع هذا الحديث تفرقوا وبعد أن جلس السلطان مصطفى على تخت السلطنة سلم زمام الأحكام بيد القائمقام كوسج موسى باشا وإلى المفتى شيخ الإسلام عطاء الله أفندى ، ولما بلغت هذه الأخبار الصدر الأعظم حلبى مصطفى باشا وكان رئيس الجيوش التى خرجت لقتال الروسية كما تقدم حزن لذلك وغضب غضبا شديداً هو ومن معه من العساكر وكان من جملتهم مصطفى باشا البيرقدار فعقدوا صلحاً مع الروسية ورجعوا بالعساكر ليتداركوا هذا الأمر وأرسلوا للعساكر الانكشارية الذين بالقسطنطينية يقولون لهم أنهم قادمون لنجدتهم وإتمام رغبتهم ليطمئنوا بذلك، وما دخلوا القسطنطينية إلا بعد مشاق وأراد البيرقدار مصطفى باشا إرجاع السلطان سليم والقبض على السلطان مصطفى وطلب من الصدر الأعظم المساعدة على ذلك فأنكر عليه ذلك مبينا سوء عواقب الأمور فغضب البيرقدار غضبا شديداً وأمر بحبسه وبلغ الخبر السلطان مصطفى فأرسل أناسا يقتلون السلطان سليم فدخلوا عليه وهو يصلى صلاة العصر فلم يمهلوه إلى أن يتم الصلاة بل وثبوا عليه وطرحوه إلى الأرض فنهض حالا عليهم كالأسد وصرعهم وكان قويا جداً ثم تغلبوا عليه وخنقوه حتى مات ورجعوا به إلى السلطان مصطفى

مسرعين وطرحوه ميتا أمامه وكان ذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف وعمر السلطان سليم ثمان وأربعون سنة ، ثم أرسل أناسا وأمرهم بخنق أخيه السلطان محمود وكان البيرقدار هجم بجماعة مسرعين لإنقاذ السلطان سليم فوجدوه قدمات فاهتموا بأمر السلطان محمود وقال لهم البيرقدار عليكم بنجاة السلطان محمود لأنه هو الوارث الوحيد لتخت السلطنة الباقي من سلالة آل عثمان ، فأخذت العساكر تطلب السلطان مصطفى وتبحث عن السلطان محمود لأن السلطان محمود لما جاءه جنود السلطان مصطفى الذين يريدون قتله أراد الفرار فرشقه أحدهم بخنجر أصاب يده فهرب وصعد على سطوح السرايا فلما نظرته جماعة البيرقدار وضعوا له سلماً فنزل إلى صحن الدار حيث كان البيرقدار وعندما نظر إليه البيرقدار فرح فرحاً عظيما وحمد الله تعالى على خلاصه من أخيه وصار يقبل قدميه .

ذكر ولاية السلطان محمود بن عبد الحميد

ثم دخل به القاعة وأجلسه على تخت السلطنة وأرسل جنداً قبضوا على السلطان مصطفى وأمر بحبسه فلما تم جلوس السلطان محمود جعل مصطفى باشا البيرقدار صدراً أعظم وسلمه زمام الأحكام فأخذ يجتهد في أخذ الثأر من الذين قتلوا السلطان سليما ثم شرع في تنظيم العسكر الجديد وأرسل وطلب اجتماع أهل الحل والعقد من رجال الدولة ، فلما حضروا أخذ يبين لهم شدة الاضطرار لتعليم العساكر صناعة الحرب وإنفاذ أوامر السلطان طالباً رأيهم في ذلك فصادقوه مذعنين لأمر السلطان وتعهدوا بالمساعدة في كل ما يؤول لنجاح المملكة وفي الحال أخذ الصدر الأعظم في موضع ترتيبات جديدة أوجبت الملام عليه من كثيرين وأضمروا له السوء وصاروا يطعنون فيه جهاراً ويدعونه بالكافر وعلقوا أوراقاً في الأسواق وعلى باب داره مكتوبا فيها قد قرب موت الصدر الأعظم وساروا بأسلحتهم يطلبون قتل العساكر الذين تعلموا التعليم الجديد فأخذوهم بغتة وشتتوهم وأحاطوا بمنزله وطرحوا فيه النار ووقعت أمور يطول الكلام بذكرها

وانقسم الناس فريقين فريقاً يريد التعليم الجديد وفريقاً يكرهه وقتل بسبب هذه الفتنة خلق كثيرة وأحرقت دور كثيرة وحاصروا الصدر الأعظم في الدار التي كان فيها وأطلق عليهم الرصاص وقتل كثيراً منهم ، ثم ثار على صناديق بارود وكانت في داره فمات بسبب ذلك وكان قد أخرج جواريه ونسائه من الدار قبل ذلك فأحيلت الصدارة إلى يوسف باشا ، وكان ذلك في سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف وعزل شيخ الإسلام عطاء الله أفندي وأحيلت المشيخة إلى عرب زاده محمد عارف أفندي ، وكتب السلطان مصطفى وهو محبوس كتاباً لعساكر الانكشارية يحرضهم على الغيرة وإرجاعه إلى السلطنة فوقع ذلك الكتاب في يد بعض العلماء فذهب إلى شيخ الإسلام فجمع كثيراً من العلماء وأخذوا يتحدثون في عواقب هذه الأمور ويتشاورون في إطفاء هذه الفتنة ورأوا أنه إذا بقي السلطان مصطفى في قيد الحياة لا تنطفيء الفتنة فاختاروا رجلا من بينهم يقال له منيب أفندي كان قاضي اسلامبول ليعرض على السلطان محمود رأى العلماء ويلتمس منه قتل السلطان مصطفى فسار منيب أفندي إلى السلطان محمود وعرض عليه ذلك فأجابه السلطان محمود أن هذا أمر محال وكيف يتصور أن يصدر أمري بقتل أخي مع كوني قادراً على منعه من هذه الأعمال ، وصار بينه وبين السلطان محمود محاورة كثيرة في ذلك وقال له منيب أفندي في غضون تلك المحاورة قد جاء في الحديث الشريف إذا اجتمع خليفتان فاقتلوا أحدهما فشق ذلك على السلطان محمود وحول وجهه إلى شباك هناك ولم يجبه بشيء لشدة أسفه على أخيه فقال منيب أفندي أن السكوت إقرار ، ففي الحال أرسل منيب أفندي إلى كبير البستانجية وقال أن مولانا السلطان قد صدر أمره الشريف بقتل أخيه السلطان مصطفى فاذهب وأتم أمره فذهب البستانجي باشا ومعه جماعة من أعوانه إلى الموضع الذي كان فيه السلطان مصطفى فأحس بهم السلطان مصطفى وعرف مقصدهم فاختبى بين فرش كانت هناك فدخلوا فلم يجدوه ورأوا أمام تلك الفرش خفية فقلبوا تلك الفرش إلى الأرض فوجدوا السلطان مصطفى مختبأ فيه فقتلوه خنقاً وكان العلماء الذين اجتمعوا عند شيخ الإسلام وأرسلوا منيب افندي للسلطان محمود ينتظرون رجوعه إليهم

بالجواب فلما أبطأ عليهم ظنوا أن السلطان محمود لم يقبل ما رأوه فتوجهوا جميعاً للسلطان محمود تقوية لمنيب أفندى وتصديقاً له فدخلوا على السلطان محمود يلتمسون منه تمام ما عرضه عليه منيب أفندى فاتفق أنهم حين دخولهم قبل أن يبتدئوا بالحديث نظر السلطان محمود من الشباك فرأى إخراج جثة أخيه ميتاً فتألم من ذلك جداً ، والتفت إليهم وعيناه ممتلئتان بالدموع وقال لهم اسرعوا واهتموا بتكثير الجيوش وإحضار المهمات وإرسال العساكر لأنى أنا اليوم بحزن عظيم على موت أخى فحينئذ علم العلماء موت السلطان مصطفى فتوقفوا عما كانوا يريدون عرضه عليه وأخذوا يدعون له بطول العمر ويعزونه ويسلونه على فقد أخيه ، وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف فمدة سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة وشهران وعمره ثلاثون سنة ولما استقرت السلطنة للسلطان محمود كانت أمور الدولة فى غاية الارتباك والاضطراب فمن ذلك أن عساكر الروسية كانت تتقدم إلى جهة تطونة مسرعة فبعث السلطان جيشاً عظيماً لمصادمتهم فلم يقدر أن يوقف سيرهم فطلبت دولة فرانسا أن تتوسط فى الصلح ، فرفض السلطان محمود مداخلتها لأنه أثر جداً من الشروط السرية التى عقدها نابليون ملك فرانسا مع اسكندر ملك الروسية فى نيليست التى من شأنها اقتسام دول أوروبا فيما بينهم حتى بلاد الدولة العلية واستمر فى مقاومة الروسية ومحاربتهم ولكن كانت الغلبة لهم فاستولوا على مدينة شملة وقلعة إسماعيل وعلى عدة مراكز حسنة وضايقوا العساكر العثمانية أشد مضايقة وبينما كانت المصائب محيطة بالدولة وإذا بطالع سعيد بزغ فى أفقها وذلك أن نابليون الأول ملك فرانسا أشهر الحرب على الروسية سنة ألف ومائتين وثمان وعشرين ، وسار إليها بجيوشه الجرارة فألزم ذلك الروسية أن تخرج جيوشها من حدود الدولة العلية وعقدت صلحاً مع الباب العالى موافقاً جداً للدولة العثمانية فاغتنم السلطان فرصة هذا الصلح لتسكين الثورات فى ولايتى بغداد وأيدين وغيرهما فإنه فى سنة ألف ومائتين وست وعشرين أظهر سليمان باشا والى بغداد العصيان فأرسل إليه السلطان محمود من قتله .

ذكر حرب المورة

فى سنة ألف ومائتين وسبع وثلاثين تحرك اليونان فى المورة وجاهروا بالعصيان على الدولة وكانوا يهجمون بمراكبهم على سواحل البحر فيقتلون ويسلبون ويرمون الفتن فى جميع الأطراف فشق ذلك على الدولة العلية وأرسلت العساكر لردعهم وإدخالهم فى الطاعة فشبت الحرب بينهما وقامت على ساق وقدم وبعث الباب العالى إلى محمد على باشا والى ولاية مصر يأمره أن يرسل جيشاً لمحاربتهم فأرسل ولده إبراهيم باشا المشهور بخمسة وعشرين ألف مقاتل مع عمارة بحرية ، ولما وصل إلى المورة انضم بجيشه إلى جيش الدولة العثمانية ودارت نيران الحرب ولما أيس الأروام من النجاة ونوال الاستقلال استنجدوا بالدول الأوروبية فبادرت دولتا فرانسا وانكلترا إلى التوسط فى الأمر والسعى بالصلح فلم يجب السلطان محمود سؤالها فانضمت إليهما العمارة الروسية وبعثوا إلى إبراهيم باشا أن يوقف الحرب فأجاب أنه لايقدر على ذلك إلا بأمر من السلطان فعند ذلك أطلقوا النار على عمارتى الدولة ومحمد على باشا فأحرقوهما وكان ذلك سنة ألف ومائتين وإحدى وأربعين ، ولما بلغ الخبر السلطان محمود اضطر إلى إجابة سؤال الدول المتحدة وأمضى الصلح بشروط مخصوصة فيها إبطال الحرب واستقلال الأروام .

ذكر قتل العساكر الإنكشارية

وفى سنة إحدى وأربعين أيضا شرع السلطان محمود فى تعليم بعض العساكر التعليم الجديد وشرع فى تدبير الأمر فى تدمير الإنكشارية وإبطال وجاقهم فأبرز أمراً سلطانيا يتضمن القدح فى وجاق الانكشارية وبيان الخلل الواقع منهم وتغلبهم على الدولة وقتلهم بعض السلاطين وأمر سليم باشا الصدر الأعظم أن يجمع العلماء فى بيت شيخ الإسلام ويتلو عليهم الأمر الشاهانى ففعل ذلك فأجابوا بالامتثال بما يصدر به الأمر السلطانى وتعهدوا بإنفاذه وكان مع الحاضرين جماعة يميلون إلى الإنكشارية فتعصبوا لهم سراً وأخبروهم بما صار عليه الاتفاق فهجموا على بيت الصدر الأعظم وبعض العظماء من رجال

الدولة وأخذوا ينادون فى شوارع اسلامبول ويقولون اليوم قتل العلماء ورجال الدولة وكل من كان السبب فى وضع النظام الجديد ويقتلون كل من صادفوه منهم وينهبون البيوت ويطرحون فيها النار ففر الصدر الأعظم منهم وجاء إلى السلطان محمود وأخبره بتلك الحوادث فأمره أن يجمع الطوبجية وسائر أهل الإسلام أمام باب السرايا فاجتمع فى ذلك النهار جم غفير من العلماء ورجال الدولة ينتظرون خروج السلطان إليهم ، فلما خرج إليهم أخذ يحدثهم بكلام يهيج به نخوتهم ، فأقسموا جميعهم على أنهم يريقون دماءهم فى صيانة أوامره وتنفيذها والتمسوا منه إخراج الصنجق الشريف النبوى ليهجموا على العصاة فأراد السلطان أن يكون معهم فتوسلوا إليه أن لا يتنازل إلى ذلك وأرسلوا ينادون فى شوارع المدينة ويدعون أهل الإسلام للاجتماع تحت الصنجق الشريف ، فلما علم بعض الإنكشارية بذلك أرسلوا أناساً من جماعتهم ينادون لاجتماع الإنكشارية ، فلما قرعت أصوات المنادين آذان أهل الإسلام وأسرعوا إلى فسحة السرايا أفواجا أفواجا ففرقوا عليهم السلاح وسلم السلطان الصنجق الشريف لشيخ الإسلام قاضى زاده طاهر أفندى ، وعاد إلى كرسيه الملوكى ، وكان يشرف على الجميع أمام السرايا ، وسار سليم باشا الصدر الأعظم أمام تلك الجموع التى كانت أكثر من خمسين ألفاً وشنوا الغارة على الإنكشارية صارخين الله أكبر على الأشقياء وهجموا عليهم وأطلقوا المدافع والرصاص ، وكان يوماً مهولا عظيما ، فقتلوا منهم نحو عشرة آلاف والباقون فروا إلى قشلهم وتحصنوا فيها فهجم عليهم العساكر والأهالى ، وطرحوا فيها النار فاحترق كثير منهم ومن بقى ولوا الأدبار ثم قبضوا على كثير منهم فقتلوهم وطرحوهم فى فسحة آت ميدان ، وبعد ذلك دعا السلطان إليه العلماء ووكلاء الدولة وأخذ يريهم أثواب السلاطين العظام الملطخة بالدماء الذين قتلهم العصاة الانكشارية طالبا ثمن دم السلاطين ، فأجاب العلماء أن ثمن دم كل سلطان خمسة وعشرون ألف نفس ، فصدرت الأوامر بتدمير الانكشارية فى الاستانة العلية وفى جميع الجهات فقتل منهم عدد كثير وارتاحت الدولة والناس من مظالمهم ، وألحق بهم بعض الدراويش من البكطاشية لكونهم يميلون إليهم ، ويساعدونهم ويفعلون فى

تكياتهم أفعالا شنيعة محرمة ، وبدعا مسترذلة ، فأمر السلطان بقتل أكثرهم ، وبهدم تكياتهم ، وأخذت الدولة فى تكثير العساكر النظامية والجد فى تعليمهم وأبطلت وجاق الانكشارية وفى أثناء تلك المدة غير السلطان محمود لبسه ، ونزع العمامة والجبة ، وتزيا بزى العسكر الجديد على هيئة الأوروباويين وبالطربوش الصغير ولم يبال بأقوال المعترضين .

ذكر القتال مع الروسية

فى سنة ثلاث وأربعين ومائتين وألف زحفت العساكر الروسية لمحاربة الدولة العلية عند نهر الطونة وسار جيش إلى جهة الأناضول فأرسلت الدولة عساكر لمصادمتهم تحت قيادة الصدر الأعظم سليم باشا فوقع بين الفريقين حرب شديد وتغلبت عساكر الروسية وهزموا عساكر الدولة ، واستولوا على جملة أماكن وتقدمت عساكرهم إلى شوملة وأقاموا الحصار على سليسترة واستولوا على مدينة وارنة ، فعزل السلطان الصدر الأعظم سليم باشا ، وأمر بنفيه وأقيم فى الصدارة محمد عزت باشا وسارت بعض عساكر الدولة إلى جبل البلقان فتركت الروسية محاصرة شوملة ، وكانوا قد استولوا على سليسترة وكانت عساكر الروسية التى فى الأناضول تتقدم ، فملكوا القرص وبايزيد وطبراق وأرض روم واستأسروا صالح باشا وجاء جيش الروسية فيه مائة وستون ألف مقاتل وحاصروا أدرنة حصاراً شديداً إلى أن استولوا عليها ، ولما اشتد الأمر على رجال الدولة وعلى السلطان محمود اضطربت الأمور اضطراباً كثيراً إلا أن السلطان محمود أظهر الثبات وقوة الجنان فى وسط تلك الأخطار المحدقة به وبدولته ، ثم تداخلت دول أوروبا فى الصلح وأتموه بشروط سنة خمس وأربعين ومائتين وألف ومآل تلك الشروط استقلال الأروام وتنازل الدولة عن إقليم الصرب والأفلاق والبغدان لملوك من أهل تلك البلاد تحت نظارة ملك الروسية وعن بعض جزائر عند فم نهر الطونة وعن بعض أراض فى الأناضول مع غرامة حربية قدرها مائة وعشرة ملايين فرنك قال بعض مؤرخى الفرنج وربما استغرب القارىء كيف أن الدولة التى سادت على أغلب ممالك العالم وأوقعت الرعب فى قلوب

جيفهم لم تستمر فى نموها وتقدمها حتى التزم سلاطينها إلى أن يرتضوا هذه الشروط فإذا نظرنا إلى هذا الأمر بعين خالية عن الغرض يحق الاستغراب من وجه آخر وهو كيف أمكن هذه الدولة أن تحتمل هذه الصدمات الشديدة والمقاومات المريعة من أعدائها مع وجود الخلل فى داخليتها بسبب أصحاب البغى والفساد وقلة الأموال ولم تتزعزع أركانها بل استمرت فى سلك الثبات العجيب ولم تستطع قوة أو سبب آخر أن يثنيها وإذا ضممنا إلى هذه الأسباب الخلل الذى أوقعه وجاق الإنكشارية وعدم تمام انتظام الترتيب للعسكر الجديد وعدم تمرن الجيوش بفنون الحرب وملاقاة الأهوال لربما حق العجب كيف لم تنقرض هذه الدولة أصلا واستطاعت أن تناضل إلى هذه الدرجة مستهينة بكل الموانع التى تعرضت لها فهذا أعظم برهان على عظمها وسطوتها انتهى كلامه ، وأقول إن هاهنا سراً إلهياً لتأييدها وهو سر بركة الإسلام وسر بركة النبى صلى الله عليه وسلم وسريان روحانيته لتأييد ملته وأهل دينه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر استيلاء الفرنسيس على الجزائر

وفى سنة خمس وأربعين وألف ومائتين استولت الفرنسيس بقوة جبرية على جزائر الغرب مدعين أن أهلها كانوا يقبضون على مراكبهم التجارية ويربطون عليهم البحر فى تلك الجهات ويفتكون بهم ، فلما بلغ الباب العالى ذلك أرسل طاهر باشا قبودان إلى الجزائر يتعاطى الصلح بينهم وبين أحمد باشا والى الجزائر فلما وصل وأراد النزول إلى البر منعته الفرنساوية فعاد راجعاً إلى القسطنطينية ، والجزائر المذكورة كانت فى حكم الدولة العلية من حين تملكها السلطان سليمان ، فلما طالت المدة صار الولاة الذين فيها يتوارثون الولاية بالتغلب ويدفعون خراجاً للدولة ويكونون تحت أمر الدولة ظاهراً ومتغلبين باطناً فلما أحدثت الدولة العساكر السلطانية بالتعليم الجديد امتنع والى الجزائر من تعاليم عساكرها ولم يمتثل أمر السلطان فى ذلك فقيل أن السلطان محمود هو الذى سلط عليه الفرنسيس لتأديبه فجاؤا بجيوش كثيرة وحاصروا الجزائر إلى أن قبضوا على الباشا المتولى عليها وذهبوا به إلى بلادهم وتملكوا الجزائر وحصنوها بالعساكر ، فلما تملكها الفرنسيس لم ترجع تلك الجزائر

لحكم الدولة بل استولى عليها وبقي على ذلك إلى عصرنا هذا .

ذكر القتال بين محمد على باشا والسلطان محمود

فى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف وجه محمد على باشا والى مصر جيوشه براً وبحراً لتملك الشام وجعل قيادتها لولده إبراهيم باشا فحاصر عكا وافتتحها مظهراً الانتقام من عبد الله باشا والى عكا لأسباب كانت بينهما وفتح فى طريقه غزة ويافا وحيفا ، فلما بلغ الدولة ذلك غضبت وأرسلت تأمر محمد على باشا برجوع العساكر وإنه إذا كان بينهما دعوى يقدمان إلى الباب العالى فيحكم بينهما فلم يمتثل لأوامر الدولة فأبرزت الدولة فرمانا بعصيان محمد على باشا وتنزيله عن ولاية مصر وصدر الأمر السلطانى لوالى حلب بجمع العساكر لمحاربة إبراهيم باشا وخرج حسين باشا بعساكر من الآستانة وحصل القتال بين الفريقين خارج طرابلس فهزمهم إبراهيم باشا واستولى على الأقطار الشامية وقبض على عبدالله باشا والى عكا وأرسله إلى الأسكندرية لأبيه محمد على باشا ولما وصل إبراهيم باشا إلى دارايا قرب دمشق خرج إليه على باشا وزير دمشق واشتبك الحرب بينهما فهزمهم إبراهيم باشا وخرج أهل دمشق يسألونه الأمان فأمانهم ودخلها وتقدم إلى حمص واشتبك القتل بينه وبين والى حلب ، وكان يوما عظيما وحربا شديداً من أشهر الوقائع قتل فيه خلق كثير واستولوا على المهمات جميعها وانهزم والى حلب ورجع إليها فقفلت فى وجوههم الأبواب فساروا إلى أنطاكية ولما وصل إبراهيم باشا إلى حلب خرج أهالى حلب لاستقباله فدخلها وتسلم ما كان فيها من الذخائر والمهمات وأمن أهلها ثم سار إلى أنطاكية وحاربهم فيها ثم إلى بوغاز بيلان ولما بلغ الباب العالى تقدم العساكر المصرية سير رشيد باشا الصدر الأعظم بالجيوش لحربهم فتقدم إلى قونية والتقى الجيشان واشتبك القتال وانهزمت عساكر الدولة وقبض على رشيد باشا الصدر الأعظم وأتى به إلى إبراهيم باشا فقابله بكل إكرام ثم خلى سبيله وامتدت هذه الفتنة والحروب إلى سنة خمس وخمسين ومائتين وألف ، ثم صدرت الأوامر السلطانية إلى حافظ باشا ليسير لمحاربة إبراهيم باشا فالتقى الجيشان بالقرب من مرعش واقتتلا ووقعت الهزيمة أولا على عساكر إبراهيم باشا

وكان فى وادى عسر ، فجمع العساكر وخرج بهم من ذلك الوادى وصعد إلى تل كان تجاه معسكر حافظ باشا وأخذ يطلق عليهم المدافع فعطل أكثر مدافعهم وفرق صفوفهم ثم هجم عليهم بعساكره هجمة هائلة فانهزموا أمامه تاركين مدافعهم ومهماتهم عائدين إلى مرعش وقتل من الفريقين خلق كثير ، وهذه الوقعة من أشهر تلك الوقائع التى وقعت فى تلك الحروب وأعقبها إبراهيم باشا بفتح أكثر الجهات فى تلك البلاد ، ولم تصل أخبارها إلى القسطنطينية إلا بعد وفاة السلطان محمود بثمانية أيام ، ومن فتوحاته إخراج الخوارج الوهابية من مكة والمدينة وتطهير الحرمين منهم ، وقد تقدم ذلك عند ذكر السلطان سليم بن مصطفى لكون ابتداء القتال مع الوهابية كان فى مدة سلطنته لكن اتمام الأمر ما كان إلا فى زمن مولانا السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبدالحميد ، فذلك من فتوحاته ، ومن فتوحاته المعنوية اعتناؤه بأهل الحرمين كال الاعتناء ، فإنه صدرت الإرادة الشاهانية من دولته بتحرير ما كان يصرف لهم من قمح الجراية ، فوجدوا أكثر ذلك بيد الأغنياء ، والتجار كانوا يأخذونه من الفقراء بالفراغ بعوض حقير ، فصار الفقراء ليس لهم شىء ، فصدر الأمر الشاهانى بنقض ذلك وإبطاله وتجديد كتابة دفتر بأسماء المستحقين فحصل تحديد ذلك فى المدة التى كان فيها محمد على باشا بمكة حين جاء لقتال الوهابية وكتب الله ذلك صدقة جارية فى صحيفة مولانا السلطان محمود وصحيفة كل من كان له إعانة ، وتسبب فى ذلك ، ومن حسنات السلطان المذكور وفتوحاته أنه كان فى مدة سلطنته تجديد قبة مولد النبى صلى الله عليه وسلم وقبة السيدة خديجة زوجة النبى صلى الله عليه وسلم وقبة السيدة آمنة والدة النبى صلى الله عليه وسلم وقبة سيدنا عبدالله بن عباس بالطائف فإن القبب المذكورة هدمها الوهابى وجددها مولانا السلطان محمود ، وهدم الوهابى أيضا قببا كثيرة بالمدينة على قبور الصحابة وبعض الأولياء فجددها مولانا السلطان المذكور ، ومن خيراته وفتوحاته المعنوية أنه جدد لأهل الحرمين خيرات ومرتبات زيادة على الذى كان مرتبا لهم من أسلافه وذلك أنه فى سنة إحدى وخمسين بعد المائتين والألف رتب مرتبات للعلماء والخطباء بالحرمين الشريفين والقائمين بخدمة

المسجدين الشريفين مثل المؤذنين والفراشين والكناسين والبوابين ، وجعل للجميع مرتبات جزيلة من النقود الجليلة بعضها شهريات وبعضها سنويات ، واشترى لذلك عقارات كثيرة وأوقفها ليصرف من غلاتها جميع المرتبات المذكورة فصارت حسنة جارية إلى هذا الوقت يحصل منها كال النفع والإعانة للمذكورين على معاشهم ومن وقت هذا الترتيب كان ابتداء وضع المدير والمديرية بمكة والمدينة ولم يكن ذلك موجوداً قبل ذلك ، ثم أن ولده مولانا السلطان عبد المجيد ضم إلى ذلك الترتيب مثله فى مدة سلطنته كما سيأتى ذكر ذلك عند ذكره وكانت مدة سلطنة السلطان محمود ٣٢ سنة وعمره خمس وخمسون سنة وكانت وفاته ١٩ ربيع الأول سنة خمس وخمسين ومائتين وألف .

ذكر ولاية السلطان عبد المجيد

وجلس على تخت السلطنة بعده ولده السلطان عبد المجيد فجهز الجيوش لقتال عساكر محمد على باشا وإخراجها من الشام وأعانه على ذلك دولة انكلترا وكانوا عرضوا على السلطان محمود الإعانة فأبى فلما توفى وتسلطن ولده السلطان عبد المجيد قبل أعانتهم فأعانوه وسير جيوشه إلى الشام فهزموا عساكر إبراهيم باشا وأخرجوهم من الأراضى الشامية وأرادوا التوجه إلى مصر والأسكندرية لإخراج محمد على باشا فتوسطت دولة انكلترا بالصلح إلى أن أتموه بشرط أن تكون الاسكندرية ومصر وأقطارها لمحمد على باشا ولأولاده من بعده وضربوا عليه خراجا معلوما يدفعه فى كل سنة ويرجع إلى الدولة الشام والحجاز ، وتم الأمر على ذلك وكانت مدة تملكه الأقطار الشامية قريباً من مدة تسع سنين وفى مدة السلطان عبد المجيد قوى الإتحاد مع دولتى فرانسا وانكلترا فحسنوا له أحدث القوانين المسماة بالتنظيمات الخيرية فصدر منه الفرمان السلطانى بذلك سنة خمس ومائتين وألف وهى سنة جلوسه على تخت السلطنة .

ذكر الحرب مع الروسية

فى سنة تسع وستين ومائتين وألف كانت الحروب العظيمة بين السلطان عبد المجيد والروسية المسماة بحرب القرم وسببها أنه وقع اختلاف بين طائفتى الروم واللاتين فى القدس من عدة سنين بسبب كنيسة القيامة وبعض الأماكن المقدسة فكانت كل طائفة منهما تدعى لنفسها حق الرياسة والتقدم على الأخرى باستيلاء مفاتيحها ، ثم أخذت هذه المسألة تتعاظم بينهما وتمتد يوما بعد يوم إلى أن آل الأمر إلى النزاع والجدال فى سنة ثمان وستين ومائتين وألف فوقع الباب العالى فى ارتباك وحيرة من جهة تسكينها وإخماد نارها لأن الروسية كانت تحامى عن حقوق الروم وفرانسا تحتشد لطرف اللاتين فتداخل سفير انكلترا فى صرف هذا المشكل ورسم ترتيباً لائتلاف الملتين المتخالفين فقبلته فرانسا ولم تقبله الروسية لأن مقصدها التوحيد ولم يكن مقتصراً على المحاماة عن حقوق الروم بل كان لها غايات أخرى طالما كانت تجتهد على نوالها وتترقب الفرص لاستحصالها وهو إبعاد الدولة العثمانية من قارة أوروبا والاستيلاء على أقاليمها وولايتها فانتهز أمبراطورها نقولا تلك المنازعة فرصة مناسبة لتوال بغيته وبلوغ أربه فبعث سفيراً إلى القسطنطينية لمقابلة السلطان عبد المجيد بعد أن كان بعث جيشا يبلغ مائة وأربعة وأربعين ألفاً إلى نهر الطونة ليكون مستعداً لوقت اللزوم والحاجة ، فلما وصل السفير المذكور إلى القسطنطينية رفض مواجهة فؤاد باشا وزير الخارجية ودخل رأساً على الحضرة الشاهانية وعرض عليه مطالب الأمبراطور نقولا فى المسألة المتعلقة بالأماكن المقدسة وأن جميع الروم الذين هم من تبعة الدولة العلية تتكون تحت حمايته من الآن فصاعداً وأن بطرق الروم القسطنطينى وباقى أساقفة الطائفة يكون انتخابهم وتغييرهم منوطا به وأن الشكاوى والدعاوى التى تصدر عليهم من جهة تصرفاتهم تعرض عليه لينظر فيها ، فاستعظم السلطان هذه المطالب ورفضها لأنها مخلة بناموس السلطنة ومغايرة للأصول وقوانين الدول ، فانثنى السفير راجعا من حيث أتى . وأعلم الأمبراطور نقولا بواقعة الحال فاستشاط غضبا ، ثم أصدر أمراً إلى العساكر التى أرسلها إلى أطراف الطونة أن تعبر النهر وتستولى على تلك الأطراف فاجتازت النهر وشنت الغارات على

إمارات الأفلاق والبغدان واستولت عليها ولما تحقق الباب العالى قدوم ذلك الجيش إلى أطراف بلاده علم أن مقاصد الروسية فى تطلباتها لم تكن إلا وسيلة لإشهار الحرب فجهز جيشاً وأرسله إلى تلك الحدود تحت قيادة عمر باشا المجرى لردع الروسيين ولما تأكدت الدول الأوربية بغية الروسية ومقاصدها بادرت انكلترا والروسية والنيمسا إلى عقد جمعية للنظر فى إجراء الوفاق بين الدولتين وأرسلت كل دولة منهما معتمداً من طرفها إلى مدينة أثينا حيث أقام سفير من طرف الروسية وآخر من طرف الدولة العلية وعقدوا هناك مجلساً فى سنة ألف ومائتين وسبعين لم يأت بالمرغوب فلما لم يكن سبيل للصلح أشهر الباب العالى الحرب وصدم سليم باشا العساكر الروسية فى الأناضول وانتصر عليهم فى عدة مواقع وهاجمهم عمر باشا فى الروم إيلى وانتصر عليهم أيضا ، وأما العمارة التى للروسية بالبحر الأسود فصدمت العمارة العثمانية واستظهرت عليها بعد حرب شديد فأتلفتها ، وكانت مؤلفة من سبعة فركاتات وباخرتين وثلاثة مراكب حربية ثم أن انكلترا وفرانسا لما تيقنتا سوء نتائج هذه الحرب احتشدتا لمعونة السلطان وأعلنتا الحرب على الروسية وفى سنة إحدى وسبعين ابتدأتا فى نقل رجالهما ومهماتهما إلى ساحة الحرب واشتبكتا فى القتال وأما باقى دول أوربا فكانت محافظة على الحياد وكانت دولة انكلترا قد أرسلت عمارة بحرية إلى بحر بلتيك ، فاستولت على قلعة بومارستورد ثم على جزيرة الاندو لكنها لم تقدر على استخلاص القلعة نظراً لحصانتها وإذا كانت سيواسطبول أعظم قوات الروسية التى يعولون عليها فى البحر الأسود وجهت انكلترا وفرانسا قواهما لافتتاحها والاستيلاء عليها فأرسلتا فرقا من عساكرهما عددها ستون ألفا ، وكان أكثرها فرنساويين فنزلوا فى بوپاسرايا وفيما كانوا يتقدمون إلى سيواسطبول صادفهم العساكر الروسية فاقتتل الفريقان قتالا شديداً إلى أن دارت الدائرة على الروسيين فانهزموا عند نهر الماء وكان جيش عساكر الروسية يحاصر مدينة سلسترة ولم تقدر على أخذها فخرجت عليهم العساكر العثمانية من المدينة واقتحمتهم فانتصرت عليهم وفرقتهم فذهبوا عن المدينة خائبين وانضموا إلى آخرين وقصدوا القرم لنجدة حصار قلعة سيواسطبول التى إليها وجهت الروسية كل قوتها من

المهمات والعساكر والذخائر وصادم جيش من الانكليز جيشا للروسيين فغلب بالانكليز فانتصروا عليهم بعد ما فقد منهم خلق كثير وكان جيش الروسية محاصراً في إق كرمان وعددهم ستون ألفا فخرجوا من مكان حصارهم واقتحموا العساكر العثمانية والانكليزية والفرنساوية ودارت بينهم معركة شديدة الخسران على الفريقين وانجلت بانهزام الروسية وألزموهم حصن المدينة ولم يكن حينئذ في قوة الدول المتحدة الاستيلاء على سيواسطبول مع أنهم كانوا يزيدون في قوتهم الحربية ويكثرون هجماتهم وقنابرهم ولم يقدروا على استخلاص تلك القلعة أو أن يمنعوا المساعدات التي كانت تأتيها من داخل البلاد ولقد قاست العساكر المتحدة لا سيما الانكليز في شتاء سنة إحدى وسبعين وشتاء اثنتين وسبعين أهوالا وشدائد يكل اللسان عن وصفها وتعدادها فإن الأمراض والأوجاع قد أخذت في العساكر كل مأخذ وأهلكت كثيراً منهم فضلا عن الجوع والتعرض لبرد تلك البلاد والأبخرة المنتنة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى والحيوانات ، أما إيطاليا فقد هيأت جنودها للحرب وانضمت إلى الدول المتحدة فأرسلت خمس عشر ألف مقاتل بعد ما تعهدت لها انكلترا بدفع مبلغ مليون ليرة على سبيل الإعانة واشتهرت رجالها في تلك الجامع بالشجاعة والثبات وفي خلال ذلك هلك الامبراطور نقولا سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف وجلس ولده اسكندر الثاني مكانه ، وفي خلال ذلك وقعت واقعة هائلة بين الروسية والعساكر المتحدة كانت الدائرة فيها على الروسية واستولت جيوش فرانسا على قلعة ملاكوف وإذا يبق للروسية استطاعة على حفظ مراكزهم تركوا سيواسطبول في مساء ذلك النهار وعولوا على الهزيمة والفرار ودخلت العساكر المتحدة القلعة وامتلكتها فانفتحت حينئذ مخابرات الصلح وعقدت جمعية في باريز سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف حضرها اثنان من طرف كل دولة من الدول الست المتحاربة وهي انكلترا وفرانسا والعثمانية والنمسا وبروسيا وسردانيا وأمضت شروط الصلح متضمنة أربعة وثلاثين بنداً أخصها أن الدولة العلية يكون لها الامتيازات التي لباقي دول أوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية ، وأنها تكون مستقلة في ممالكها كغيرها من الدول وأن البحر

الأسود يكون بمعزل عن جولان مراكب حربية فيه من أى جنس كان ماعدا الدولة العثمانية والروسية فإن لهما حقاً فى إدخال عدد قليل من المراكب الصغيرة الحربية لأجل محافظة أسنا كلها وأن لايكون للدولة العثمانية ولا للروسية ترسانات بحرية حربية على شواطىء البحر الأسود إلى غير ذلك من الشروط ، ثم انسحبت العساكر إلى مواطنها وانتهت الحرب التى لم يكن لها داع سوى المطامع ، وفى سنة اثنتين وسبعين كانت فتنة عظيمة بمكة المشرفة بين أهالى مكة وعساكر الدولة بسبب ورود أمر يمنع بيع الرقيق وانتهت فى رمضان بالقبض على الشريف عبد المطلب ابن غالب أمير مكة وتولية الشريف محمد بن عون والكلام عليها طويل . وفى سنة أربع وسبعين وقعت فتنة فى جدة بين أهالى جدة والنصارى الذين بهـا بسبب اختلاف بعض أهل المراكب فى وضع بندبرة الإسلام أو الانكليز على بعض المراكب والكلام عليها أيضا طويل . وفى سنة ست وسبعين كانت فتنة بالشام بين النصارى وأهل الشام والكلام عليها أيضا طويل ، وفى سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين حدثت فتنة عظمى بين الدروز والنصارى فى جبل لبنان آل الأمر إلى وقوع حرب بين الفريقين وكانت النتيجة رديئة على النصارى بسبب اختلافهم وعدم انضمام بعضهم لبعض وعدم انقيادهم لبعضهم ففتكت بهم الدروز فأرسل الباب العالى فؤاد باشا ليمهد الأمور وينتقم من المذنبين، وأرسلت فرانسا عشرة آلاف جندى للمحافظة ومنع التعدى وكذلك باقى الدول الإفرنجية منها من أرسل مراكب حربية ومنهـا من أرسل نوابا لإصلاح الحال وتمهيد الأمور وبعد جراء مايلزم إجراؤه استحسنت الدولة العلية باتفاق الدول وضع نظامات جديدة لأهل هذا الجبل وأن تتحول أحكامه لمشير من الطائفة النصرانية من غير أهالى الجبل ليكون متصرفا بها ويخابر الرؤساء الباب العالى فتوجهت المتصرفية لداود باشا الأرمنى ومن خيرات السلطان عبد المجيد وفتوحاته المعنوية تجديد مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة فإنه كان على بناء السلطان قايت باى وكان مسقفا بالخشب فطالت مدته وحصل فيه خراب فصدرت إرادة مولانا السلطان عبد المجيد بهدمه وتجديده سنة ١٢٧٠ فهدم وجدد وجعل سقفه قببا وطواجن كالمسجد الحرام وتمم

عمارته بعد مضى أربع سنين فجاء على صفة لم يرا الراؤن أحسن منها وله عمارات كثيرة فى الأماكن المأثورة بالحرمين الشريفين له تجديد ميزاب للكعبة المشرفة سنة خمس وسبعين ومائتين ألف ، وتوفى السلطان عبد المجيد فى سابع عشر ذى القعدة سنة ألف ومائتين وسبع وسبعين وعمره أربعون سنة ومدة سلطنته اثنتان وعشرون سنة وستة أشهر .

ذكر ولاية السلطان عبد العزيز

وأقيم فى السلطنة بعده أخوه السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود الثانى ، وفى سنة ٧٨ أظهر العصيان أهل الجبل الأسود فسير السلطان عبد العزيز إليهم جيشاً فقاتلهم وهزمهم ثم رجعوا إلى الطاعة ، وفى سنة ١٢٨٣ أظهر العصيان كثير من الأروام بجزيرة كريد وكثير من البندقية فجهزت الدولة عليهم جيوشاً براً وبحراً وكذلك جهز صاحب مصر عساكر كثيرة براً وبحراً فكانت مع عساكر الدولة ووقع بينهم وبين العصاة حرب شديد كان النصر فيها لعساكر الإسلام وأذاقوا العصاة الوبال وأرجعوهم إلى الطاعة . وفى سنة ٧٩ توجه السلطان عبد العزيز إلى الديار المصرية للتنزه والتفرج وكان ذلك فى ولاية إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا . وفى سنة أربع وثمانين توجه السلطان المذكور إلى باريس تخت ملك الفرنسيس للتنزه والتفرج أيضاً ثم منها توجه إلى بلاد الانكليز للتفرج والتنزه أيضاً وكان فى رحلته هذه مر على أدرنة وعلى قلعة بلغراد وكان الصرب قد طلبها منه وقيل النيمسا فأعطاها إيام فحين عاين تحصينها غضب لذلك وكانوا أخبروه أنها مهدومة وأنها مدينة كاسدة فأعطاها قبل أن يراها فلما رآها ندم حيث لا ينفع الندم . وفى سنة ٨٨ كانت فتنة عظمى ببلاد عسير فجهزت الدولة جيشاً تحت قيادة رديف باشا فسار حتى صعد جبال عسير وقاتلهم وهزمهم وقتل أميرهم محمد ابن عائض بن مرعى وقتل معه جماعة من عشيرته وأسر كثيراً وأرسلهم إلى الآستانة وصارت بلاد عسير فى حكم الدولة العلية منضمة إلى ولاية صنعاء اليمن . وفى هذه السنة أيضاً كانت فتنة عظمى بين دولة البروسية وفرانسا آل الأمر

فيها إلى هزيمة الفرنسيس وأسر ملكهم نابليون الثانى والكلام عليها طويل مفرد بالتأليف ، وفى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فى السابع من شهر جمادى الأولى خلع السلطان عبد العزيز ومات رحمه الله تعالى بعد خمسة أيام وعمره ٤٨ سنة ومدة سلطنته ست عشرة سنة وأربعة أشهر .

ذكر ولاية السلطان مراد الخامس

وأقيم فى السلطنة بعده السلطان مراد الخامس ابن السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود الثانى ثم خلع بعد ثلاثة أشهر وثلاثة أيام فى ثالث شعبان من السنة المذكورة أعنى سنة ١٢٩٣ (والسبب) فى خلعه أنه وقع له خلل فى عقله وبعد أيام مضت بعد بيعته فلما تحققوا خلل فى عقله استفتوا فيه شيخ الإسلام خير الله أفندى فأفتى بخلعه لأن شرط الخليفة أن يكون متصفاً بالعقل فخلعوه وبايعوا أخاه سلطان الزمن مولانا السلطان عبد الحميد الثانى وبقى السلطان مراد المخلوع فى داره . وأما السلطان عبد العزيز فإنه بعد خلعه بأيام قلائل أقل من الأسبوع توفى فأشيع أنه قتل نفسه بمقص قطع به عرقا فى ذراعه فمات من ذلك . وفى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف نفى جماعة من الوزراء إلى الحجاز فحبسوهم فى قلعة الطائف منهم مدحت باشا ومحمود باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد ونورى باشا داماد مولانا السلطان عبد الحميد أيضا ومعهم جماعة آخرون غير هؤلاء منهم شيخ الإسلام خير الله أفندى وفى سنة ثلاثمائة توفى مدحت باشا ومحمود باشا الداماد فى القلعة المذكورة وكان خلع السلطان عبد العزيز سببا لاضطراب كثير وحوادث شتى ، وكان القائم أكمل القيام فى خلعه حسين عونى باشا وكان السلطان عبد العزيز هو الذى رقاه وأعلى قدره إلى أن جعله رئيسا على العساكر كلها بل صار مقدما على جميع أهل الرتب والمناصب فرتب الأمور مع الوزراء وغيرهم وزعم أن السلطان عبد العزيز تداخل مع الروسية وأنه يريد أن يملكهم دار السلطنة فما زال حسين عونى باشا وغيره يسعون فى ذلك حتى تم لهم خلعه فقدر الله أن رجلا يقال له حسن جركس قتل حسين عونى باشا وذلك أن السلطان عبد العزيز وكان متزوجا بأخته فأخذته حمية حين خلع السلطان عبد العزيز فصمم على قتل حسين عونى

باشا فدخل عليه فى دار الصدر الأعظم محمد رشدى باشا فوجده مع جماعة من الوزراء مجتمعين للمشاورة فى بعض الأمور وكان مع حسن جركس زوج من الطبنجة ذوات الأرواح المتعددة فضربه به ضرباً متعدداً وقتل جماعة من الحاضرين منهم حسين عونى باشا الساعى فى خلع السلطان عبد العزيز ولم يتم لحسين عونى باشا شىء من مراده والله غالب على أمره ثم قبضوا على حسن جركس فقتلوه .

ذكر ولاية سلطان العصر أطال الله عمره

هو السلطان المعظم المفخم سلطان سلاطين العرب والعجم حائز العلم والصلاح والكرم المتشرف بخدمة طيبة والحرم ، صاحب السيف والقلم ، ظل الله فى العالم غياث بنى آدم ، نعمة الله على العباد وفضله على الحاضر والباد ، ناصر الحق والدين ، ومؤيد شريعة سيد المرسلين ، المحفوف بالسبع المثانى ، أمير المؤمنين مولانا السلطان الغازى عبدالحميد الثانى ، أعز اللهم سرير الملك والخلافة بوجوده ، وأعد على القريب والبعيد آثار فضله وجوده وأنفذ فى جميع البلاد أوامره وأحكامه ، وأنشر على البرايا ألوية عدله وأعلامه ، وأيده بتأييدك واجعل سلالة تلك السلطنة العلية مسلسلة إلى منتهى الدوران ، مستمرة على مرور الليالى والأيام باقية إلى آخر الزمان آمين يارب العالمين ، بويع أطال الله عمره لما خلعوا أخاه السلطان مراد فى ثالث شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف فكانت سلطنته زينة وبهجة وسروراً وامتد بها فى مشارق الأرض ومغاربها ما ملأها نوراً ، ومما كان من الحوادث فى أول ولايته أنه وقع عصيان من بعض النصارى الداخلين فى رعية الدولة العلية فى بلاد الروم ايلى وهم طائفة يقال لهم الصرب فجهز عليهم مولانا السلطان المذكور جيشاً فقاتلوهم وكانوا قوما ضعافاً لا يحتاج الاستيلاء عليهم وقهرهم إلى كلفة ولا إلى كثرة عساكر إلا أن الروسية تداخلت معهم وصارت تقويهم بأشياء كثيرة حتى اتسعت فتنتهم وانتشرت وأعانهم طوائف من النصارى الذين كانوا قريباً منهم إلى أن صارت المحاربة بين الدولة والروسية وصارت تلك الطوائف من النصارى مع الروسية وساقت الدولة بهذه الفتنة العساكر الكثيرون وأنفقت الخزائن الوفيرة فقدر الله بانهزام جيوش

الإسلام وأسر كثير منهم فى بلونة ، وذلك بسبب محاصرة عساكر الروسية لهم فى ذلك البلد وعدم إمكان وصول الميرة إليهم لشدة البرد وكثرة الثلج وممن أسر من كبار عساكر الإسلام الوزير عثمان باشا الغازى قوماندا ذلك الجيش فى بلونة ، ثم أطلق مع كثير ممن أسروا وكان إطلاقهم بعد انعقاد الصلح وتملك الروسية كثيراً من المدائن العظام إلى أن وصلوا إلى قريب أدرنة . والكلام على هذه الفتنة طويل قد أفرد بالتأليف ، وختام الأمر أن بقية الدول توسطت فى الصلح بين الدولة العلية ودولة الروسية وانعقد الصلح سنة خمس وتسعين على أن يبقى تحت يد الروسية ماتملكوه من البلاد وأن الدولة العلية تدفع لهم غرامة الحرب وكان شيئا كثيراً وتبقى للدولة أدرنة وما يليها إلى دار سلطنة الدولة العلية وكان هذا الخلل إنما دخل على المسلمين بعد خلع السلطان عبدالعزيز فلا حول ولا قوة إلا بالله . وفى سنة ست وتسعين ومائتين وألف أعطت الدولة العلية جزيرة قبرس للانكليز على أن تكون بأيديهم سنين مؤقتة بشروط أن يدفعوا للدولة العلية قدر الخراج الذى كان يحصل منها وقد تقدم فى هذا الكتاب تكرر وضع اليد على قبرس من المسلمين والنصارى مراراً كثيرة أولها من زمن الصحابة حين افتتحها معاوية رضى الله عنه ، وبعد ذلك صار المسلمون والنصارى يتداولونها تارة تكون بيد هؤلاء وتارة بيد هؤلاء ، ، وفى سنة ست وتسعين ومائتين وألف خلع والى مصر اسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا وقد كان محمد على باشا لما انعقد الصلح بينه وبين مولانا السلطان عبد المجيد سنة خمس وخمسين ومائتين وألف جعلت له مصر ولأولاده من بعده ، فلما صارت ولايتها لاسماعيل باشا أراد حصر الولاية فى أولاده ومنع إخوانه وأولاد إخوانه منها فتوجه إلى دار السلطنة فى مدة السلطان عبد العزيز سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف فتم له مراده وجعلوا ولاية مصر له ولأولاده الأكبر فالأكبر وكان الصدر الأعظم فى ذلك الوقت فى دار السلطنة هو محمد رشدى باشا الشروانى ثم إن الله قضى وقدر أن عاقبة هذا الأمر الذى فعله اسماعيل باشا أول ما ظهر سوؤه عليه فإنه فى سنة ٩٦ ظهرت عليه كثرة ديون أخذها من الدول الأجنبية وأنفقها فى غير حقها فتشاور أهل الديون على أنهم يضبطون خراج مصر ومحصولاتها لأجل استيفاء ديونهم فلما أحس بذلك أراد أن يجعل

له عصبية يمنعهم بها فتداخل مع العلماء وأهل مصر وعقد بينه وبينهم عهوداً ومواثيق على أن الأمور كلها تكون بيد العلماء والأهالى وبمشاورتهم ، فلما أحس الإنكليز والفرنسيس وغيرهما بانعقاد هذه العصبية سعوا فى خلعه ووافقهم على ذلك مولانا السلطان عبد الحميد فخلعوه فى سنة ست وتسعين وجعلوا ولاية مصر لولده الأكبر محمد توفيق باشا عملا بما تقرر قبل ذلك حين نفى إخوته وبنيهم من دخولهم فى الولاية من بعده وأن الولاية من بعده تكون لأكبر أولاده فأقاموا عليها ولده الأكبر وهو محمد توفيق باشا وتوجه والده اسماعيل باشا بعائلته وبقية أولاده إلى نابولى من بلاد إيطاليا وجعل له مرتب من محصولات مصر وخزينتها، وفى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف استولت دولة الفرنسيس على تونس وأعمالها بالمكر والخديعة والحيلة فجهزت دولة الفرنسيس عساكر كثيرة وأظهرت أنها تريد تأديب بعض قبائل العرب العصاة منهم قبيلة يقال لهم الخمير فى أعمال تونس فوصلوا بعساكرهم إليهم وقاتلوهم وقهروهم ثم زحفوا بعساكرهم إلى تونس ولم يستطع أحد أن يدفعهم إلى أن قاربوا دخولها فاضطرب أهلها اضطراباً كثيراً ، ثم عقدوا معهم صلحا وأدخلوا طائفة من عساكرهم تونس وأبقوا الوالى على ولايته بحسب الظاهر واستولوا الباطن على الأحكام والمحصولات والخراجات واستقبلوا الديون التى كانت على والى تونس وصارت الأمور كلها بأيديهم فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وفى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف كانت فتنة بمصر بين والى مصر محمد توفيق باشا وبين عرابى باشا وكان عرابى باشا من رؤساء عساكره محمد توفيق باشا ، واتسع الأمر فى ذلك فجاء الانكليز بعساكرهم البحرية نجدة لمحمد توفيق باشا إلى الإسكندرية وضربوا مدافعهم على الإسكندرية وقاتلوا الذين مع عرابى باشا ، وكان ذلك فى شعبان ورمضان سنة تسع وتسعين واتسع الأمر بما يطول الكلام بذكره ، وكانت الغلبة لتوفيق باشا ومن معه من الانكليز وتملكوا الإسكندرية وذهبوا عرابى باشا ومن معه إلى مصر، ثم سارت الإنكليز بعساكرهم لقتاله بمصر والكلام على ذلك طويل،وفى آخر الأمر انهزم عزم عرابى باشا ومن معه ، ثم دخلوا مصر وقبضوا على عرابى باشا وعلى كثير ممن كانوا معه فقتلوا

جماعة منهم ونفوا جماعة نفياً مؤقتاً وجماعة نفياً مؤبداً وصار العفو عن قتل عرابى باشا ونفوه مع بعض من كانوا معه إلى جزيرة سيلان من أعمال مايبار من بلاد الهند وجعلوا إقامته ومن معه هناك ورتبوا لهم مرتباً يكفيهم واستولى الإنكليز على القطر المصرى، ووضعوا عساكرهم فى القلعة على صورة أنهم إنما فعلوا ذلك إعانة لمحمد توفيق باشا وأبقوه على ولايته، والإنكليز مع ذلك كله يقولون ليس مرادنا الاستيلاء على مصر وإنما مرادنا الإصلاحات والتأييد لمحمد توفيق باشا وإذا استقامت الأمور وانتظمت أحوال مصر نخرج منها ونخرج عساكرنا، وفى سنة سبع وتسعين ظهر رجل بالسودان اسمه محمد أحمد يقال أنه المهدى أو قائم طالب لإظهار الحق ولم يدع أنه المهدى، ويقال أنه شريف حسنى وكان قبل ظهوره مشهوراً بالصلاح ومن مشايخ الطرائق، قيل أنه على طريقة الشيخ السمان. وأول ظهوره أنه لما كثرت أتباعه ومريدوه وقع اختلاف بينه وبين العساكر المصرية المتماسكين السودان عمالا لصاحب مصر محمد توفيق باشا، ثم اتسع الأمر بينهم وبينه إلى القتال، وقاتلهم مراراً وكانت الغلبة لمحمد أحمد عليهم حتى استولى على كثير من بلاد السودان وأخرجهم منها فلما دخل الإنكليز مصر صار الإنكليز هو الذى يجهز عليه العساكر ويقاتله بعساكر الإنكليز ومعهم عساكر مصر ووقع بينهم وبينه وقائع كثيرة يطول الكلام بذكرها والغلبة فى تلك الوقائع كلها له عليهم فتملك كردفان وكسلة والخرطوم وبربرة ودنقلة وغير ذلك وقتل منهم خلقاً كثيراً لا يحصى عددهم وكان أمره معهم عجيباً يأتون إليه بالعساكر الكثيرة والمدافع والآلات الشهيرة التى لا يطيق أحد مقابلتها فقابلهم بجيوشه السودانيين وليس معهم إلا السيف والرمح والسكاكين فيهجمون على تلك العساكر فى موضعهم ومحط جيشهم ولا يبالون بمدافعهم وآلاتهم حتى يخالطوهم ويقتلوا أكثر من قرب طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف والسكاكين ويشتتون شملهم ومنهم جماعة فى برارى سواكن قد ولى محمد أحمد عليهم رجلا يسمى عثمان دقنة فجاء بمن معه من السودان لمحاصرة سواكن وإخراج الإنكليز والعساكر المصرية منها فخرجوا إليه بجيوشهم الكثيرة وآلاتهم ومدافعهم الشهيرة فهزمهم عثمان دقنة ومن معه من السودان هزيمة بعد هزيمة.

وقتل الكثير منهم حتى أنهم جاءوه فى سنة اثنتين وثلاثمائة بنحو من سبعين مركبا مشحونة بالعساكر الكثيرة والآلات والاستعدادات الوفيرة وخرجوا لقتاله فى البرقريبا من سواكن فهزمهم وقتل أكثرهم وشتت شملهم وغنم أكثر أموالهم ودوابهم وذخائرهم وأسبابهم وإلى هذا الوقت وهو شهر ذى الحجة من سنة ثنتين وثلاثمائة وعثمان دقنة ومن معه من السودان فى نواحى سواكن محاصرون لها وفيها عساكر الإنكليز وصاحب مصر قيل أن جيوش محمد أحمد تبلغ ثلاثمائة ألف أو يزيدون ، وأما دعوى أنه المهدى فمختلف فيها فمن الناس من يقول أنه يدعى أنه المهدى ومنهم من يقول لم يدع أنه المهدى بل يقول أنه قائم لإظهار الحق وإقامة الشريعة وإخراج الإنكليز من مصر والله أعلم بحقيقة الحال والأكثر من الناس يقولون أنه رجل صالح على غاية من الاستقامة ومنهم من يقدح فيه وينسب إليه خلاف ذلك ويقول أن جيوشه يقع منهم فساد كثير وليس لهم غرض إلا القتل والنهب وأنهم فى استيلائهم على كردفان والخرطوم وغيرهما قتلوا خلقاً كثيرا من المسلمين فيهم العلماء والصلحاء والنساء والأطفال ، وقيل أن وقوع ذلك كان من بعض المفسدين منهم ولم يرض بذلك محمد أحمد ولم يأمر به والله أعلم بحقيقة الحال وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم بأن انتصار آخر هذه الأمة فى آخر الزمان بالسودان فيحتمل أنهم هؤلاء ويحتمل أن يكونوا غيرهم وانتصار المسلمين بهم فى آخر الزمان مأخوذ مما ذكره الخازن فى تفسيره عند تفسير قوله تعالى ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ من سورة الواقعة فإنه قال ما نصه ثلة من الأولين يعنى من المؤمنين الذين قبل هذه الأمة وثلة من الآخرين يعنى من مؤمنى هذه الأمة ويدل على ما رواه البغوى بإسناد الثعلبى عن عروة بن رويم قال لما أنزل الله عز وجل قوله تعالى ثلة من الأولين وقليل من الآخرين بكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال يارسول الله آمنا برسول الله وصدقناه ومن ينجو منها قليل فأنزل الله عز وجل ثلة من الأولين وقليل من الآخرين فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وقال له قد أنزل الله فيما قلت فقال عمر رضى الله عنه رضينا عن ربنا وصدقنا نبينا صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من آدم إلينا

ثلة ومنا إلى يوم القيامة ثلة ولا يستتمها إلا سودان من رعاة الإبل ممن قال لا إله إلا الله اه ومثل ذلك فى تفسير الخطيب الشربينى وفى التفسير المسمى بالدر المنثور للجلال السيوطى أن عروة بن رويم يروى هذا الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم وأن الحديث المذكور أيضاً رواه ابن مردويه وابن عساكر لكن اللفظ الذى ذكره فى الدر المنثور قال فى آخره وأمتى ثلة ولن تستكمل ثلتنا حتى نستعين بسودان من رعايا الإبل ممن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له اه فيحتمل أن المراد من السودان أن هؤلاء القائمون مع محمد أحمد وعثمان دقنة ويحتمل أن يكون غيرهم والله أعلم بغيبه وكل ما أخبر به النبى صلى الله عليه وسلم لابد من وقوعه وروى ابن مكرم الأفريقى فى كتاب له سماه لسان العرب حديثا لم يذكر من خرجه وقال فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يخرج فى آخر الزمان رجل يسمى أمير الغضب أصحابه محسرون محقرون مقصون عن أبواب السلطان ومجالس الملوك يأتونه من كل أوب كقزع الخريف يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها اه فيمكن أنهم هؤلاء السودان القائمون مع محمد أحمد أو غيرهم وقد ذكر كثير من العلماء الذين ألفوا رسائل فى ظهور المهدى وعلاماته أن من علامات ظهوره وخروج السودان منهم الجلال السيوطى والعلامة بن حجر والعلامة المحقق والعلامة السيد محمد بن رسول البرزنجى فى كتابه المسمى بالإشاعة فى أشراط الساعة ففى رسالة الجلال السيوطى المسماة بالعرف الوردى فى علامات المهدى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم فيه إذا خرجت السودان طلبت العرب ينكشفون حتى يلحقوا ببطن الأردن أو ببطن الأرض فبينما هم كذلك إذ خرج السفيانى فى ٣٦٠ راكباً حتى يأتوا دمشق فلا يأتى عليهم شهر حتى يبايعه من كلب ثلاثون ألفاً والأحاديث التى جاء فيها ذكر السفيانى كثيرة شهيرة والكلام عليها طويل وهو يزيد قتال المهدى عند ظهوره ثم يخسف بجيش السفيانى ويهلكه الله تعالى وفى رسالة ابن حجر المسماة بالقول المختصر فى أخبار المهدى المنتظر أن من علامات ظهور المهدى ألوية تقبل من المغرب وأن خروج أهل المغرب إلى مصر من أمارات خروج السفيانى وذلك إنما يكون عند ظهور المهدى وجهة السودان

بالنسبة إلى مصر مغرب فيحتمل أنهم هؤلاء القائمون مع محمد أحمد ويحتمل أن يكون المراد غيرهم وكذا قوله خروج أهل المغرب إلى مصر يحتمل أن يكونوا هؤلاء لأنه يصدق على الجهة التى ظهروا منها أنهم من المغرب بالنسبة لمصر ويحتمل أن يكونوا غيرهم والله أعلم بأسرار غيبه وأسرار أحاديث نبيه صلى الله عليه وسلم ومن علامات ظهور المهدى الرايات السود التى تخرج من خراسان وجاء فيها أحاديث كثيرة قال فى الإشاعة يمكن أنها هى التى خرجت فى زمن المهدى العباسى بن المنصور ويحتمل أنها أيضاً تخرج عند ظهور المهدى المنتظر ، وفى شرح الشجرة النعمانية للشيخ صلاح الدين الصفدى عبارات تفيد أن الدولة العلية العثمانية تبقى قوتها وسلطنتها إلى ظهور المهدى وأنهم يكونون من أعوانه وأنصاره بأنفسهم وأموالهم وخزائنهم وعساكرهم وآلاتهم وعددهم فيجب الدعاء للدولة العثمانية على كل مسلم والذى يقاتلهم يكون باغيا خارجا عليهم فالواجب على كل مسلم السعى فى تشييد دولتهم وتثبيت قواعدها وإعانتهم فى إظهار الشريعة وإحياء السنن وإماتة البدع والدعاء لهم بالتوفيق فنسأل الله تعالى أن يوفقهم لكل خير وأن يلهمهم كمال الرشد والصلاح وكذا سائر وزرائهم وقضاتهم وعمالهم ، ثم أن القائم بالسودان وهو المسمى محمد أحمد إما أن يكون باغيا خارجا على السلطان فيجب قتاله وإن لم يدع أنه المهدى ، ويمكن أن الله أقامه لإخراج الإنكليز من مصر إعانة للدولة العثمانية ولا يريد الخروج على السلطان وإنما يريد أن يكون من جملة رعايا الدولة العثمانية ثم يكون لإعانة المهدى ويؤيد ذلك ما ذكره الجلال السيوطى فى رسالته التى ألفها فى علامات المهدى فإنه ذكر فيها حديثاً ، أخرجه نعيم بن حماد عن أبى قبيل قال يكون أمير بأفريقية اثنتى عشر سنة ويكون بعده فتنة فيملك رجل يملؤها عدلا ثم يسير إلى المهدى فيؤدى إليه الطاعة ويقاتل عنه فيمكن أنه هو هذا الرجل المسمى محمد أحمد ويمكن أنه غيره والله أعلم بأسرار غيبه ، وقيل أن الذين يشيعون أنه هو المهدى إنما هم بعض أتباعه ليرغبوا عامة الناس فى أتباعه والدخول فى طاعته ، وأما هو فإنه لم يدع أنه المهدى بل قال بعض من اجتمع به أنه سمع منه بلا واسطة أنه يقول إنى لست أنا المهدى المنتظر وإنما أنا قائم

لإظهار الحق وإقامة الشريعة وأما إن ثبت أنه يدعى أنه هو المهدى المنتظر فالأمر مشكل لأن المهدى المنتظر لا يدعى أنه المهدى ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاتل الناس لتحصيلها ولا يبايع إلا وهو مكروه بل لا يبايع الناس حتى يتهددوه بالقتل وذلك أن الله يطلع بعض من اختصه من صالحى عباده عليه وعلى علاماته فيدلون الناس عليه فيطلبونه فيفر منهم مراراً ثم يمسكونه ويكرهونه على البيعة ويتهددونه بالقتل ولا يكون ظهوره والبيعة له إلا والناس بلا خليفة أخذاً من حديث يحصل اختلاف عند موت خليفة وهو أصح حديث روى فى هذا الباب وأما الآن فالناس لله الحمد لهم خليفة وهو أمير المؤمنين مولانا السلطان عبد الحميد ابن المرحوم مولانا السلطان عبد المجيد وبيعته فى أعناق المسلمين وسلسلة سلطنته من أحسن الدول الإسلامية مقيمين للشريعة السنية محبين للصحابة وأهل البيت ناصرين أهل السنة المحمدية قامعين أهل البدعة الردية فلا يجوز خلع بيعته ولا الخروج عن طاعته ثبت الله دولته وأيد سلطنته فمن خلع بيعته أو ترك طاعته أو خرج عليه فهو باغ معتد وأيضا من علامات المهدى المنتظر أن يكون من ولد فاطمة رضى الله عنها وأن يكون ظهوره والبيعة له بمكة بين الركنين ولا يصح أن يكون ظهوره والبيعة له بغير مكة قال الجلال السيوطى فى آخر العرف الوردى فى علامات المهدى وأما قول القرطبى أن ظهور المهدى يكون من المغرب هو باطل وقد تابع السيوطى ذلك العلامة العلقمى والعلامة الصبان فى رسالته التى ألفها فى علامات المهدى فكل منهما قال كما قال السيوطى إن قول القرطبى أن ظهور المهدى يكون بالمغرب باطل وقال بعضهم يمكن حمل كلام القرطبى على غير المهدى المنتظر فإن كثيراً ممن ادعى كل منهم أنه المهدى كان ظهورهم بالمغرب كمحمد بن تومرت وعبيد الله العبيدى جد ملوك أفريقية ومصر وخلق كثير غير هذين أدعى كل منهم أنه المهدى بالمغرب وغيره وذلك لأن المهديين متعددون والمهدى المنتظر واحد وهو يكون الذى من ولد فاطمة يكون ظهوره بمكة والناس بلا خليفة ويبايع مكرهاً ولا يطلب البيعة لنفسه ولا يقاسى لتحصيلها ويكون فى زمنه خروج المسيح الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به ، ومما يدل على أن المهديين متعددون والمهدى

المنتظر واحد ما ذكره العلامة ابن حجر فى الصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقة حيث قال حاكيا لقول من قال أن المهدى من ولد العباس وهو والد هارون الرشيد واسمه محمد المهدى ابن عبد الله المنصور بناء على الأحاديث المذكورة فيها أن المهدى من ولد العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال إنه من أحسن خلفاء بنى العباس وهو فيهم كعمر ابن عبدالعزيز فى بنى أمية ثم قال ابن حجر موجها لقول هذا القائل ويمكن أنه مهدى من ولد العباس وهو غير المهدى المنتظر فإن المهدى المنتظر من ولد فاطمة رضى الله عنها ويكون فى زمنه خروج الدجال ونزول عيسى عليه السلام ويجتمع به فهذه العبارة صريحة فى تعدد المهديين وجمع بعضهم بين الأحاديث التى فيها أنه من ولد فاطمة والأحاديث التى فيها أنه من ولد العباس بطريق آخر فقال أن المهدى المنتظر من ولد فاطمة من جهة أبيه ومن ولد العباس من جهة أمه بأن تكون أمه أو أم بعض آبائه من ولد العباس وكلام ابن حجر فى رسالته التى فى علامات المهدى يقتضى أيضا تعدد المهديين وأن المهدى المنتظر واحد فإنه قال فيها والذى يتعين اعتقاد مادلت عليه الأحاديث الصحيحة من وجود المهدى المنتظر وهو الذى يخرج الدجال وعيسى عليه السلام فى زمنه وهو المراد حيث أطلق المهدى وأما من قبله فليس واحد منهم هو المهدى المنتظر ويكون بعد المهدى أمراء صالحون لكنهم ليسوا مثله فهو الأخير فى الحقيقة وكذلك غير ابن حجر ممن ألفوا رسائل فى علامات المهدى كلهم يقتضى كلامهم تعدد المهديين وأن المهدى المنتظر واحد وإنما قالوا بذلك التعدد لأنه قيل فى محمد ابن الحنفية إنه المهدى وقيل فى عمر بن عبد العزيز أنه المهدى وقيل فى محمد النفس الزكية ابن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط أنه المهدى فهؤلاء أطلق على كل واحد منهم أنه المهدى فثبت بذلك تعدد المهديين قطعاً لكن ليس واحد من هؤلاء هو المهدى المنتظر فالمهدى المنتظر واحد وهو لم يظهر إلى الآن فيمكن حمل كلام القرطبى على غير المهدى المنتظر ممن كان خروجهم بالمغرب ولا يمكن حمل كلامه على المهدى المنتظر لأنه إنما يظهر بمكة والناس بلا خليفة كما تقدم إيضاحه وكذلك لا يصح قول من قال إنما يكون ظهور المهدى المنتظر من ماسة بالمغرب فهو قول باطل

لا أصل له كما نبه على ذلك العلامة ابن خلدون فى تاريخه فإنه قال أن القول بظهوره من ماسة باطل لا أصل له وإنما نشأ ذلك من رجل من المتصوفة خرج بالسوس الأقصى وعمد إلى مسجد ماسة وزعم أنه الفاطمى المنتظر تلبيساً على العامة هناك بما ملأ قلوبهم من الحدثان بانتظاره هنالك وأفهمهم أن من ذلك المسجد تكون أصل دعوته فتهافتت عليه تهافت الفراش طوائف من عامة البربر ثم خشى رؤساؤهم اتساع نطاق الفتنة فدسوا إليه من قتله فى فراشه وانطفأت الفتنة .

(والحاصل) أن الذى تقتضيه الأحاديث النبوية وصرح به العلماء أن المهدى المنتظر إلى هذا الوقت لم يظهر وذكروا له علامات كثيرة بعضها مضى وانقضى وبعضها باق لم يظهر ومن أعظم علاماته أنه يصلحه الله فى ليلته وأنه من ولد فاطمة رضى الله عنها وأنه يبايع مكرها لا أنه يطلب البيعة لنفسه ويقاتل الناس لتحصيلها بل لا يبايع حتى يتهدد بالقتل وأن ظهور البيعة له إنما يكون بمكة بين الركنين وأن ظهوره إنما يكون عند وجود اختلاف بموت خليفة فلا يظهر ولا يبايع إلا والناس بلا خليفة فهذه الأشياء هى أقوى العلامات عليه وله علامات كثيرة غير هذه ذكرها الذين ألفوا الرسائل فى تحقيق أمره لكن تلك الأشياء ظنية ومختلف فى كثير منها وذلك مثل اسمه واسم أبيه وموضع ولادته ومقدار عمره ووقت ظهوره ومدة مكثه فى الأرض بعد ظهوره فكل هذه الأشياء مختلف فيها . فما قيل فى مقدار عمره وقت ظهوره أنه ابن أربعين وقيل أنه ابن عشرين وقيل أنه ابن ثمانية عشر وقيل غير ذلك وقيل فى مدة مكثه بعد ظهوره أنها سبع أو تسع سنين وقيل أنها أربعون وقيل عشرون وقيل غير ذلك وقيل فى اسمه أنه محمد وقيل أحمد وهل هو من ولد الحسن أو الحسين أو العباس وجمع بعضهم بأنه من ولد أحد الحسنين من جهة أبيه ومن ولد الآخر من جهة أمه وفى بعض أمهاته من هى من ولد العباس والأحاديث التى جاء فيها ذكر ظهور المهدى كثيرة متواترة فيها ما هو صحيح وفيها ما هو حسن وفيها ما هو ضعيف وهو الأكثر لكنها لكثرتها وكثرة رواتها وكثرة مخرجيها يقوى بعضها بعضاً حتى صارت تفيد القطع لكن المقطوع به أنه لا بد من ظهوره وأنه من ولد فاطمة

وأنه يملأ الأرض عدلا نبه على ذلك العلامة السيد محمد بن رسول البرزنجي في آخر الإشاعة .
وأما تحديد ظهوره بسنة معينة فلا يصح لأن ذلك غيب لا يعلمه إلا الله ولم ينص من الشارع بالتحديد وقد ذكر كثير من المتقدمين من العلماء تحديد ظهوره في سنين عينوها بالظن والتخمين فلم يخرج فيها فأخطأوا في ظنهم وتحديدهم ويؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم في المهدي أنه يصلحه الله في ليلته أن المهدي لا يعلم بنفسه أنه المهدي المنتظر قبل وقت إرادة الله إظهاره ويؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو أشرف المخلوقات لم يعلم برسالته إلا وقت ظهور جبريل له بغار حراء حين قال له : ﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وأما قبل ذلك فكان يرى منامات كثيرة تأسيساً لرسالته وتقوية لقلبه لكنه لم يعلم أن المراد منها تأسيس الرسالة حتى أنه كان كلما رأى مناماً من تلك المنامات يخبر زوجته خديجة رضى الله عنها ويشكوا إليها حاله فكانت تثبته وتقول له كلاماً يقوى به قلبه كما هو موضح بكتب الحديث فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلم بأنه رسول الله إلا بعد ظهور جبريل عليه السلام وقوله له : ﴿ إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فبالأولى أن المهدي المنتظر لا يعلم بأنه المهدي المنتظر إلا بعد إرادة إظهاره ولذلك يمتنع من البيعة حتى يتهدد بالقتل ويبايع مكرها ، فهذا هو سر قوله صلى الله عليه وسلم يصلحه الله في ليلته ليعلم من ذلك أنه لم يعلم أنه المهدي المنتظر إلا وقت إرادة الله فكل من يدعى أنه المهدي المنتظر ويطلب البيعة لنفسه أو يقاتل الناس لتحصيلها فهو مخالف لما صرحت به أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وقد ادعى هذه الدعوى كثيرون فيما تقدم من الأزمان ، ولم تثبت دعواهم ، وكان لهم مع الخلفاء وقائع وحروب مذكورة في التواريخ ، وقد جمعت أسماءهم ووقائعهم باختصار في رسالة مستقلة ليعلم من وقف عليها أن كل من ادعى هذه الدعوى لا تتم له ولاتتم إلا إذا جاءت على طبق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ، وقد ذكر العلامة ابن خلدون في تاريخه كلاماً فيه فوائد تتعلق بهذا البحث فلنذكر ملخص ذلك تتميما للفائدة ، وحاصل ذلك أن الذين يدعون هذه الدعوى إما أن يكونوا موسوسين أو مجانين فلا علاج لهم إلا التنكيل بالقتل أو

الضرب إن أحدثوا فتنة وإلا يسخر بهم وتذاع السخرية بهم والصفع فى الطرق أو الأسواق ، وإما أن يكونوا من طالبى الرياسة والملك فيجعلون هذه الدعوى وسيلة لذلك ويغفلون عما ينالهم من الملكة وإسراع الهلاك والقتل من الملوك والسلاطين عند إحداثهم فتنة بهذه الدعوى ، وقد يكون بعض من ادعى هذه الدعوى من الصالحين ويريد إظهار الحق ويتخيل له أنه هو المهدى فيخطىء ظنه ولا يعرف ما يلزمه وما يحتاج إليه فى إقامة الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن الله لم يكتب عليه فى ذلك إثارة فتنه وإنما أمره الله تعالى به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وأحوال الملوك والدول قوية راسخة لا يزحزحها ولا يزلزلها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التى من ورائها العصبية بالقبائل والعشائر وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى دعوتهم إلى الله تعالى بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله تعالى بالكون كله لو شاء لكنه سبحانه وتعالى إنما أجرى الأمور على مستقر العادة وأنه حكيم عليم فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان محقاً قصر به الانفراد عن العصبية فطاح فى هوة الهلاك وأما إن كان من المتلبسين بذلك فى طلب الرياسة فأجدر أن تعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لأن أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانته والإخلاص له والنصيحة للمسلمين ولا يشك فى ذلك مسلم ولا يرتاب فيه ذو بصيرة وكل أمر يجتمع عليه كافة الخلق لابد له من العصبية وفى الحديث الصحيح « ما بعث الله نبيا إلا فى منعة من قومه » وإذا كان هذا فى الأنبياء وهم أولى من الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق لهم العوائد فى الغلبة بغير عصبية والغفلة عن هذا هى أكثر أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء ، فإن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طريق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء ، داعين إلى تغيير المنكر والنهى عنه والأمر بالمعروف رجاء الثواب عليه من الله تعالى، فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم فى ذلك للمهالك ، وأكثرهم يهلكون

فى تلك السبيل مأزورين غير مأجورين ، وكثير منهم يدعى أنه المهدى المنتظر ولم تصح دعواهم ، ويتبعهم كثير من العامة والأغمار ممن لا يرجعون إلى عقل يهديهم ، ولا علم يفيدهم يستجيبون لكثير ممن يدعون هذه الدعوى لما اشتهر من ظهور فاطمى، ولا يعلمون حقيقة الأمر وأكثر ما يكون ذلك فى الممالك القاصية ، وأطراف العمران بإفريقية ، والسوس من المغرب وتجد الكثير من ضعفاء البصائر يقصدون رباطا بماسة لما كان بذلك الرباط بالمغرب من الملثمين من كدالة واعتقادهم هو أنهم قائمون بدعوة الفاطمى ، يزعمون ذلك زعما لا مستند له إلا البعد عن القاصية عن مشار الدولة وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الأوهام فى ظهور الفاطمى من ذلك الموضع لخروجه عن رتبة الدولة ومشار الأحكام والقهر ولا محصول لديهم فى ذلك إلا هذا الوهم وقد يقصد ذلك الوضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة تنشأ عن وسواس وحمق وقد قتل الملوك والرؤساء كثيراً منهم ثم قال أخبرنى شيخنا محمد بن إبراهيم الايلى قال خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب المرينى رجل من منتحلى التصوف يعرف بالتوزرى وادعى أنه الفاطمى المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من كدالة وكزولة وعظم أمره وخافه رؤساء المصادمة وعلماؤهم فدس عليه السكسوى من قتله بياتاً وانحل أمره وكذلك ظهر فى غمارة فى آخر المائة السابعة فى عشر التسعين منها رجل يعرف بالعباس وادعى أنه الفاطمى المنتظر وتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتحل إلى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط ، وأخبرنى شيخنا المذكور بغرسية عن مثل هذا وهو أنه صحب فى حجه رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان متبوعا معظما كثير التلامذة ، وكان يتلقونه بالنفقات فى أكثر البلدان وتأكدت الصحبة بيننا فى الطريق ، ثم كشف لى عن أمرهم وأنهم إنما جاؤا من مواطنهم بكربلاء قاصدين أرض المغرب لإظهار دعوى أنه الفاطمى المنتظر ، فلما وصل المغرب وعاين دولة بنى مرين وكان أمير المسلمين يوسف بن يعقوب فى ذلك الوقت منازلا لا تلمسان فلما رأوا قوة ملكه قال ذلك الرجل لأصحابه ارجعوا بنا فقد أزرى بنا الغلط وليس هذا الوقت

وقتنا وهذا يدل على أن ذلك الرجل استبصر بأن الأمر لايتم إلا بالعصبية الكافية لأهل الوقت فلما علم أنه غريب فى ذلك الوطن ولا شوكة له وأن عصبية بنى مرين فى ذلك الوقت لايقاومها أحد من أهل المغرب استكان ورجع إلى الحق واقتصر عن مطامعه وبقى عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لاسيما فى المغرب إلا أن المتعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول والله يعلم وأنتم لاتعلمون ، وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة لاينتحلون فيها دعوة فاطمى ولاغيره وإنما ينزع منهم فى بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر ويعتنى بذلك ويكثر تابعوه وأكثر مايعتنون بإصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الأعراب فيها لما فيها من طيب معاشهم فيأخذون فى تغيير المنكر بما استطاعوا إلا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون به الإقصار عن الغارة والنهب ولا يعقلون فى توبتهم وإقبالهم إلى مناحى الديانة غير ذلك لأنها المعصية التى كانوا عليها ومنها توبتهم ، وتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة وغير متعمق فى فروع الاقتداء والاتباع وإنما دينهم الأعراض عن النهب والبغى وإفساد السابلة ثم الإقبال على طلب الدنيا والمعاش أقصى قصدهم وشتان بين هذا الطالب للدنيا وبين من أراد إصلاح الخلق لكل مايحتاجون إليه من أمر دينهم فاتفاقهما ممتنع لاتستحكم للأول صبغة فى الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل ويختلف حال صاحب الدعوة معهم فى استحكام دينه وولايته فى نفسه دون تابعيته ، فإذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك فأفريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة فى المائة السابعة ثم من بعده لرجل من بادية رياح كان أشد دينا من الأول وأقوم طريقة فى نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمرهما وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها وينتحلون اسم السنة وليسوا عليها إلا الأقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شىء من أمرهم وأول ابتداء هذه النزعة فى الملة ببغداد حين وقعت الفتنة بين الأمين والمأمون ابنى الرشيد وقتل الأمين وكان المأمون بخرسان فأبطأ عن مقدم العراق وأراد انتزاع الخلافة من بنى العباس ونقلها

للعلويين فجعل ولى عهده عليا الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق فهاج من ذلك فتن كثيرة ببغداد واجتمع بنو العباس وكشفوا وجه النكير على المأمون وتداعوا للقيام وخلعوه وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى فوقع الهرج وكثر القتل والنهب ببغداد وانطلقت يدى الذعار بها من الشطار والحربية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب الناس وباعوها علانية فى الأسواق ورفع أهلوها أمرهم إلى الحكام وقد ضعف أمرهم فلم ينصفوهم فتوافر أهل الدين والصلاح وتعاقدوا على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد الدريوس، ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأجابه خلق وقاتل بهم أهل الذعارة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتنكيل ثم قام من بعده رجل آخر يعرف بسهل بن سلامة الأنصارى وعلق مصحفا فى عنقه ودعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بنى هاشم فمن دونهم ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد ومنع كل من أخاف المارة ومنع الخفارة لأولئك الشطار فقال له القائم الأول وهو خالد الدريوس أنا لا أعيب على السلطان فقال له سهل لكنى أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائنا من كان وذلك سنة إحدى ومائتين فجهز إبراهيم بن المهدى بعد أن بايعه بنو العباس جيشاً لقتال سهل بن سلامة فغلبه وأسره وانحل أمره سريعاً وذهب ونجا بنفسه ، ثم اقتدى بهذا العمل بعده كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ولا يعرفون ما يحتاجون إليه فى إقامته من العصبية ولا يشعرون بمغبة أمرهم ومآل أحوالهم ثم ذكر كثيراً من الأحاديث التى جاءت فى المهدى وضعف كثيراً منها ثم قال والحق الذى يتقرر لديك أنه لا تتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله فيه وقررنا لك ذلك من قبل بالبراهين القطعية وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخرون وقد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا ما بقى بالحجاز فى مكة وينبع والمدينة من الطالبيين من حسن وحسين بن جعفر منتشرون فى تلك البلاد

وغالبون عليها وهم عصائب متفرقة فإن صح ظهور هذا المهدى فلا وجه لظهور دعوته إلا يكون منهم ويؤلف الله قلوبهم فى اتباعه حتى يتم له شوكة وعصبية وافيه لإظهار كلمته وحمل الناس عليها وأما على غير هذا الوجه فلا يتم ذلك لما أسلفناه من البراهين الصحيحة إنتهى ماأردت نقله من كلام ابن خلدون . ورأيت فى كثير من الرسائل المؤلفة فى شأن المهدى أنه لايتم أمره إلا بالقيام بالشريعة الغراء وأنه يكون على مثل ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون ويفيض الله على الخلق نوراً ببركته فيتبعونه ويقتدون به فى جميع شؤونه وأفعاله وأقواله وأحواله حتى يكون حالهم كحاله ووصفهم كحال أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ووصفتهم لأن الناس على دين ملوكهم فإذا استقام خليفة المسلمين وصار كالخلفاء الراشدين فإنهم كانوا يستقيمون وإذا زهد فى الدنيا يزهدون وملاك الأمر كله هو الزهد فى الدنيا وعدم التبسط فيها ومن الأمثال القديمة الناس على دين ملوكهم ، وذكروا أن السبب فى هذا المثل أن الوليد بن عبد الملك بن مروان كان مشغوفاً بتشييد البنيان فكان الناس فى زمانه ليس لهم همة إلا تشييد البنيان والقصور وفى ذلك طول الأمل والغرور ، ثم ولى بعده أخوه سليمان بن عبد الملك بن مران فكان مشغوفاً بكثرة الأكل وتنويع الأطعمة وتكثير الألوان فكان الناس فى زمانه يتفاخرون بالتوسعة فى تنويع المأكولات وينهمكون فى التلذذ بالشهوات وفى ذلك أعظم البليات ، ثم ولى بعد سليمان بن عمه عمر ابن عبد العزيز بن مروان الملحق بالخلفاء الراشدين فكانت همته فى الاشتغال بالطاعات والعدل وإقامة الدين فكان الناس فى زمنه راغبين فى فعل الطاعات مستكثرين من فعل الخيرات فقالوا الناس على دين ملوكهم فالخليفة الأعظم هو القدوة لجميع المسلمين وأعظم شىء يقتدون به هو فيه فيكون به صلاحهم وانتظام أمرهم واتفاق كلمتهم والزهد فى الدنيا والتناول منها بقدر الضرورة والحاجة وترك الفضول الذى لايحصل إلا بتعب وحاجة فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة وبلية والزهد فيها أصل كل خصلة سنية ولا يكون الزهد من العامة إلا بعد زهد الخاصة فإن الخاصة هم العمدة فى ذلك والمراد من الخاصة الملوك والسلاطين والأمراء والقضاة والعلماء وأولى من يطلب

للزهد فى الدنيا الخليفة الأعظم الذى أقامه الله لإصلاح الدنيا والدين وإحياء الشريعة وقتال الكفار ودفع المفسدين قال الإمام الطرطوشى فى كتابه المسمى سراج الملوك أن الخليفة إذا عدل فى بيت المال وساوى نفسه بالمسلمين فى الأخذ من بيت المال بقدر الحاجة كان المسلمون كلهم عسكراً للاسلام اه .

والحاصل أنه إذا زهد فى الدنيا واقتصر على قدر الحاجة والضرورة فى جميع الأحوال يتبعه على ذلك الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وجميع الناس من الرجال والنساء والأغنياء والفقراء فإذا حصل ذلك يسهل حينئذ إقامة الشريعة والقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتصير همة الجميع متوجهة لاتحاد الكلمة والاجتماع على منهج الشرع المتطهر فتحيا بذلك السنن التى أميتت وتزول تلك البدع التى أذيعت وتقبل الناس على جهاد الكفار وفعل كل الطاعات فإن الكفار إنما تغلبوا على المسلمين بسبب رغبة المسلمين فى الدنيا واقتحامهم المعاصى لتحصيلها فلا يزيلون منكراً لأن أكثر المنكرات يتوصلون بها إلى تحصيلها وإزالتها مخالفة لأغراضهم الذين هم بصددها فلا يمكن استقامتهم على مثل ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما داموا لم يكونوا كذلك لا يستقيم لهم أمر وقد صح عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان كثيراً ما يقول فى خطبه ومجالسه أن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه فهذه العبارة نص صريح فى أنه لا يستقيم أمر المسلمين حتى يكونوا كما كان الصحابة رضى الله عنهم وما دام الخليفة الأعظم يتبسط فى الدنيا ويأخذ من بيت المال ما أراد مما زاد عن حاجته الضرورية ويتكرم فى العطاء بما شاء على من شاء ولا يراعى فى ذلك القواعد المشروعة ولا يسلك مسلك الخلفاء الراشدين فإن الناس يتبعونه فلا يمكن حصول الاستقامة لهم ولا تتحد كلمتهم ولا ينتظم أمرهم ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر بل يصيرون كلهم يطلبون الدنيا ويتلذذون بالشهوات ويرتكبون لتحصيلها أنواع الخطيئات لأن الله تعالى أجرى عادته بين العباد أن يكون الناس على دين ملوكهم فهذا هو السبب فى عدم اتحاد المسلمين واتفاق كلمتهم وأما فى زمن المهدى فإنه

بسلك هو مسلك الخلفاء الراشدين ويزهد فى الدنيا ولا يأخذ من بيت المال إلا بقدر الضرورة والناس يكونون فى زمنه على طريقته يفعلون كما يفعل فظهر بهذا أنه إذا زهد الخليفة الأعظم فى الدنيا وعدل فى بيت المال وأخذ منه بقدر حاجته الضرورية من غير زيادة له ولخدمه وأتباعه واتخذ له من الخدم الذين يقومون بخدمته بقدر الحاجة الضرورية أيضا من غير زيادة يتبعه على ذلك كافة الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وجميع الأبرار والفجار والخليفة أمين على مال بيت المسلمين لا يتصرف فى شىء منه إلا بحسب المصلحة العائدة بالنفع على الإسلام والمسلمين فهو مثل قيم مال اليتيم لا يتصرف إلا بالمصلحة الظاهرة فإن كان له مال خاص يستعف به عن الأخذ من مال المسلمين فلا يأخذ شيئاً وإن لم يكن له مال يأخذ بقدر الحاجة والضرورة كما قال تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِياً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُل بالمَعْرُوفِ﴾ فإذا فعل ذلك اقتدى به الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء وكافة الخلق فتتحد قلوبهم وتجتمع كلمتهم ويقبلون على فعل الطاعات ويعرضون عن فعل السيئات ويتركون التلذذ بالشهوات فيتم اجتماعهم على نصرة الدين ويصيرون كلهم عسكراً لنصرة للاسلام ويقوى عزمهم على قتال أعدائهم من القوم الكافرين وأما إذا تبسط الخليفة فى مال المسلمين وتبعه الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء ، فلا تطيب قلوب بقية المسلمين ببذل أموالهم وأنفسهم وأولادهم فى قتال الكافرين حيث يرون لو كهم لم يساووهم وما كان انتصار الصحابة على القوم الكافرين وفتحهم البلاد الواسعة مع الاتحاد واتفاق الكلمة إلا بسبب مساواة أمرائهم لهم فى جميع شؤونهم وما حصل افتراق الكلمة وعدم ائتلاف القلوب إلا لما استبد الملوك بالأموال وتبسطوا فيها وترفعوا على بقية المسلمين وأكثروا من المكوسات والظلم بأخذ أموالهم وصرفوها فى غير مصارفها ، فشق على المسلمين تميزهم منهم وترفعهم عليهم بأموالهم التى أخذوها منهم بغير حق ، ولا يظن ظان أن الخلفاء الراشدين إنما فتحوا الأمصار وانتصروا على الكفار بكثرة الصلاة والصيام بل إنما كان ذلك بزهده فى الدنيا وعدم تبسطهم بما وعدلهم فى بيت المال والحرص على مساواتهم للمسلمين فطابت قلوب بقية المسلمين فبذلوا أموالهم

وأنفسهم وأولادهم وجاهدوا الكفار وفتحوا البلاد حتى كان الغزاة يتجهزون للغزو من أموال أنفسهم ويجهزون منها غيرهم إن قدروا على ذلك ونفوسهم طيبة بذلك وتأبى نفوسهم أن يأخذوا من بيت المال شيئاً إذا كان لهم ما بقى بذلك لأنهم يرون أمراءهم مساوين لهم فى جميع تلك الشئون ، وإذا سلك الخليفة والأمراء والعلماء هذا المسلك يرتفع عن المسلمين المكوسات والضرائب وينتفى عنهم جور الحكام لأنهم إنما يجورون عليهم ليتبسطوا فى أموالهم ويتلذذوا بها ، وإذا ساوى الحكام رعاياهم وعدلوا فى بيت المال تستحى نفوس الأغنياء باعطاء الفقراء ويواسونهم وتقنع نفوس الجميع بأقل القليل فلا يبقى من المسلمين فقير وينقاد الناس للحق وينصفون من أنفسهم وتزول المخاصمات التى كانت بينهم وتقل مرافعاتهم إلى الحكام ويحصل بينهم كمال المحبة والائتلاف ويرتفع كل شقاق واختلاف وإذا عدل الخليفة فى بيت المال وسلك فى ترك التبسط فى الدنيا طريق النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كان قدوة للمسلمين ويكون له من الأجر مثل أجر من عمل بمثل عمله من المسلمين وكان سببا فى اتحاد المسلمين وائتلاف قلوبهم واتفاق كلمتهم وانتصارهم على القوم الكافرين ، ويكون له فى ذلك من الله الرضا والرضوان فى الدنيا وجنات النعيم وتقر بذلك عين النبى صلى الله عليه وسلم فإنه بالمؤمنين رؤف رحيم ويستحيل أن يحصل لهم شىء من ذلك والخليفة لم يكن كذلك لأنهم إنما يفعلون وحالهم عن ذلك لا يتحول والتبسط فى الدنيا من أعظم أسباب الفسق الموجب للهلاك قال تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ وعدم التبسط فى الدنيا هو ملاك الأمر وليس على الخليفة فى سلوك هذا الطريق مشقة ولا ضيق ولا منع من إدراك الحق ولا تعويق وينال بغيته من الأكل والشرب والنكاح بغاية الراحة والتلذذ والحاصل أن استقامة الخليفة حتى يكون كالخلفاء الراشدين فى عدله فى بيت المال هو السبب الأعظم فى اجتماع كلمة المسلمين واتحادهم فى جميع الأحوال وعدم عدله فى بيت المال سبب للافتراق فى الحال والمآل ولو صام النهار وقام الليالى الطوال وبدون استقامة الخليفة وعدله فى بيت المال كالخلفاء الراشدين لا يرجى

المسلمين فلاح ولا يتم لهم اتحاد ولا نجاح ولنذكر لك نبذة مما كان من الزهد وترك التبسط فى الدنيا مما كان صادراً من النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لتعلم أن انتظام أمور المسلمين بدون ذلك محال واتحادهم بغير سلوكه مكابرة وجدال .

خاتمة

نسأل الله حسبها نذكر فيها ما كان من النبى صلى الله عليه وسلم
والخلفاء الراشدين من الاقتصاد وحسن السيرة

ذكر ما كان من النبى صلى الله عليه وسلم من الاقتصاد فى الدنيا وما كان عليه من مكارم الأخلاق ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف الناس لم تمس يده قط امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وأن فضل شىء ولم يجد من يعطيه وفجأة الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه لا يأخذ مما أتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك فى سبيل الله لا يسأل شيئاً إلا أعطاه ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام أن لم يأته شىء وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة أهله ويقطع اللحم معهن وكان أشد الناس حياء لا يبت بصره فى وجه أحد ويجيب دعوة العبد والحر ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها ويأكلها ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين يغضب لربه ولا يغضب لنفسه وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده فى عدد من معه ، فأبى وقال أنا لا أنتصر بمشرك ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة وأن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال وإن وجد تمراً دون خبز أكله وإن وجد شواء أكله وإن وجد خبزاً بر أو

شعير أكله وإن وجد حلواً أو عسلا أكله وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله لا يأكل متكئا ولا على خوان منديله باطن قدميه لم يشبع من خبز بر ثلاثه أيام متوالية حتى لقى الله تعالى إيثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلا يجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويمشى وحده بين أعدائه بلا حارس أشد الناس تواضعا وأسكتهم فى غير كبر وأبلغهم فى غير تطويل وأحسنهم بشراً لا يهوله شيء من أمور الدنيا ويلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس وخاتمه فضه يلبسه فى خنصره الأيمن مرة والأيسر مرة أخرى يردف خلفه عبده أو غيره ويركب ما أمكنه مرة فرساً ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشى راجلا حافيا بلا رداء ولاعمامة ولاقلنسوة يعود المرضى فى أقصى المدينة يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل فى أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم لايجفون على أحد يقبل معذرة إليه يمزح ولا يقول إلا حقاً يضحك من غير قهقهة يرى اللعب المباح فلا ينكره يسابق أهله وترفع الأصوات عليه ويصبر وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها ، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس ولا يمضى له وقت من غير عمل لله تعالى أو فيما لابد له من صلاح نفسه يخرج إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا لملكه يدعوا هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى فقر وفى رعاية الغنم يتيما لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز فى الآخرة والغبطة والخلاص فى الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول ، وفقنا الله لطاعته فى أمره والتأسى به فى فعله آمين يارب العالمين وماعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغضه إلى غيره وكان فى بيته أشد حياء من العاتق لايسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم إن أطعموه أكل وما أعطوه قبل

وما سقوه شرب وكان ربما قام فأخذما يأكل بنفسه أو يشرب وكان أكثر طعامه الماء والتمر وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميها الأطيبين ، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول وكان يأكل ما وجد وكان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدى وكان إذا وضعت المائدة قال اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة وكان يأكل ما يليه ويأكل بأصابعه الثلاث وربما استعان بالرابعة ولم يكن يأكل بأصبعين ويقول إن ذلك أكلة الشيطان وكان لا يأكل الحار ويقول أنه غير ذى بركة وأن الله لم يطعمنا نارا فأبردوه وكان أحب الطعام إليه اللحم ويقول هو يزيد فى السمع وهو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة ولو سألت ربى أن يطعمنيه كل يوم لفعل وكان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع ويقول «أنها شجرة أخى يونس عليه السلام» قالت عائشة رضى الله عنها وكان يقول « ياعائشة إذا طبختم قدرا فأكثروا فيها من الدباء فإنه يشد قلب الحزين» وكان يأكل لحم الطير الذى يصاد له وكان لا يتبعه ولا يصيده ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله وكان يلعق بأصابعه الصفحة ويقول آخر الطعام أكثر بركة وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول أنه لا يدرى فى أى الطعام بركة ، وإذا فرغ قال اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وأسقيت فأرويت لك الحمد غير مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلا جيدا ثم يمسح بفضل الماء على وجهه وكان يشرب فى ثلاث دفعات وله فيها ثلاث تسميات وفى آخرها ثلاث تحميدات وكان يمص الماء مصا ولا يعب عبا وأتى بإناء فيه لبن وعسل فأبى أن يشربه وقال «شربتان فى شربة وأدمان فى إناء واحد» ثم قال صلى الله عليه وسلم «لا أحرمه ولكنى أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله» وكان يعجبه الثياب الخضر ، وكان أكثر لباسه البياض وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق وكان قميصه مشدود الأزرار وربما حل الأزرار فى الصلاة وغيرها وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه فى غير الجمعة وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره

ويعقد طرفيه بين كتفيه وربما أم بهـا النـاس على الجنائز وربما صلى فى بيته فى الإزار الواحد ملتحفاً به مخالفاً بين طرفيه ، ويكون ذلك الإزار الذى جامع فيه يومئذ وكان ربما صلى بالليل فى الإزار ويرتدى ببعض الثوب مما يلى هدبه ويلقى البقية على بعض نسائه فيصلى كذلك ولقد كان له كساء أسود فوهبه لإنسان ، فقالت له أم سلمة رضى الله عنها : بأبى أنت وأمى ما فعل ذلك الـكساء الأسود ؟ فقال كسوته فقال ما رأيت شيئاً قط أحسن من بياضك على سواده وقال أنس رضى الله عنه وربما رأيته يصلى بنا الظهر فى شملة عاقداً بين طرفيها وكان صلى الله عليه وسلم يتختم وربما خرج وفى خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشىء وكان يختم به على الـكتب ويقول الخاتم على الـكتاب خير من التهمة وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى إليها وربما لم تـكن العمامة فيشد العمامة على جبهته وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على رضى الله عنه فربما طلع على فيها فيقول صلى الله عليه وسلم «أتاكم على فى السحاب» وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ويقول «الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى الناس» وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول « ما من مسلم يكسو مسلما من شمل ثيابه لا يكسوه إلا لله إلا كان فى ضمان الله وحرزه وخيره ماواراه حيا وميتا» وكان له فراش من أدم حشوه ليف ، طوله ذراعا ونحوه وعرضه ذراعا وشبراً أو نحوه وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقين تحته وكان ينام على الحصير ليس تحته شىء غيره وماعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مضطجعا إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله تعالى وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس وما رؤى قط ماداً رجليه بين أصحابه وكان أكثر مايجلس مستقبلا القبلة وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التى تحته فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل وما استصفاه أحد إلا ظن أنه

أكرم الناس عليه حتى يعطى لكل من جالس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ومجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة قال تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به ويكنى أيضاً النساء اللاتى لهن الأولاد واللاتى لم يلدن يبتدىء لهن الكنى ويكنى الصبيان فيسلى به قلوبهم ، وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ولم تكن ترفع فى مجلسه الأصوات وكان إذا قام من مجلسه قال «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» واستحب بعض العلماء زيادة وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله تعالى وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول «اللهم أرنى الحق حقا فأتبعه وأرنى المنكر منكراً وارزقنى اجتنابه وأعذنى من أن يشتبه على فأتبع هواى بغير هدى منك واجعل هواى تبعا لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسى فى عافية واهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبى صلى الله عليه وسلم قال : كان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله وما سئل عن شىء قط على الإسلام إلا أعطاه وأن رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة وماسئل شيئا قط فقال لا وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ماعندى شىء ولكن ابتع على فإذا جاء شىء قضيناه فقال عمر ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبى صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الرجل أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وعرف السرور فى وجهه ، ولما قفل صلى الله عليه وسلم

من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « أعطونى ردائى لو كان لى عدد هذه العضاة نعما لقسمته عليكم ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذابا ولا جبانا » صلى الله عليه وسلم وسيرته المذكور فيها محاسن صفاته صلى الله عليه وسلم طويلة وفى هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما كان من أبى بكر الصديق رضى الله عنه

من الاقتصاء فى الدنيا وحسن السيرة

لما بويع أبو بكر رضى الله عنه بالخلافة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم أصبح وعلى ساعده أبراد وهو ذاهب إلى السوق فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه أين تريد قال السوق قال تصنع ماذا ، وقد وليت أمر المسلمين قال فمن أين أطعم عيالى قال انطلق يفرض لك أبو عبيدة أى لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » ففرض له قوت رجل من المهاجرين ليس بأوكسهم ولا أكيسهم وكسوة الشتاء والصيف ، وقال إذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره وفى رواية ففرض له نصف شاة وما كساه فى البطن والظهر وفى رواية أنهم قوموا ذلك بألف وخمسمائة من الدراهم وفى رواية أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما تذاكرا أيضاً فى ذلك وفرضاه ما قاله له بمثل أبو عبيدة وفى رواية أن عمراً وعلياً لما فرضا ذلك قال أبو بكر رضى الله عنه إنما أنتما رجلان من المهاجرين لا أدرى أرضى بذلك بقية المهاجرين أم لا فانطلق أبو بكر فصعد المنبر فاجتمع الناس فخطبهم وذكر لهم ذلك فقال الناس رضينا وأخرج ابن سعد أيضاً عن ميمونة قال لما استخلف أبو بكر رضى الله عنه جعلوا له ألفى درهم ثم نظروا فرأوا ذلك لا يكفيه وعياله فزادوه خمسمائة فلعل الفرض الأول كان ألفاً وخمسمائة ، ثم زادوا فى ذلك حتى أوصلوه ألفين وخمسمائة درهم فى كل سنة وأخرج ابن أبى الدنيا عن أبى بكر بن حفص قال : قال أبو بكر رضى الله عنه لما احتضر لعائشة رضى الله عنها يابنية إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لأنفسنا ديناراً ولا درهم ولكنا أكلنا

من جريش طعامهم فى بطوننا ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا وأنه لم يبق عندنا من فىء المسلمين لا قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى وهذا البعير الناضح وجرد هذه القطيفة ، فإذا مت فابعثى بهن إلى عمر بن الخطاب وأخرج الطبرانى عن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهما قال لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه قال يا عائشة انظرى اللقحة التى كنا نشرب من لبنها والجفنة التى كنا نصطبغ فيها والقطيفة التى كنا نلبسها فإنا كنا ننتفع بذلك حين نلى أمر المسلمين فإذا مت فارددیه إلى عمر ، فلما مات أبو بكر رضى الله عنه أرسلت به إلى عمر رضى الله عنه فقال عمر رحمك الله يا أبا بكر لقد أتعبت من جاء بعدك وفى رواية فبكى عمر رضى الله عنه حتى سالت دموعه إلى الأرض ، وجعل يقول رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاء بعده ويكرر ذلك وأمر برفعه إلى بيت المال فأراد عبد الرحمن بن عوف أن يرجعه إلى عيال أبى بكر فقال لعمر سبحان الله تسلب عيال أبى بكر وعبداً وناضحا وسحق قطيفة ثمنها خمس دراهم فلو أمرت بردها عليهم فقال عمر لا والذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم لا يكون هذا فى ولايتى ولا يخرج أبو بكر منه وأتقلده أنا وفى رواية إن عمراً قال ورب الكعبة لا يتأثم بها أبو بكر فى حياته وأتحملها من بعد موته أى لا يأمر بردها خوفا من الوقوع فى الأثم وأتحمل إثمها بعد موته ، ثم قال رحم الله أبا بكر لقد كلف من بعده تعباً وفى رواية وأوصى أبو بكر أن يرد بعد وفاته جميع ما أخذوه من بيت المال لنفقته وفى رواية فلما حضرته الوفاة أوصى أن تباع أرض له ويصرف ثمنها عوض ما أخذه من مال المسلمين وروى أن زوجته اشتهت حلواً فقال ليس لنا مانشترى به فقالت أنا أستفضل من نفقتنا فى عدة أيام ما نشترى به حلواً فقال افعلى ففعلت ذلك فاجتمعت لها فى أيام كثيرة شىء يسير ، فلما عرفته ذلك ليشترى به حلواً أخذه فرده إلى بيت المال ، وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بقدر مانقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ثمن ملك كان له رضى الله عنه . قال المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب فى صفة أبى بكر رضى الله عنه ، كان أزهد الناس ، وأكثرهم تواضعاً فى أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه ، وكان لباسه فى خلافته الشملة

والعباءة وقدم عليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل والبرد المثقل بالذهب والتيجان والحبرة ، فلما شاهدوا عليه من اللباس والتواضع والتنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كانوا عليهم ، وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى فلما شاهد من أبى بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزى بزى حتى أنه رؤى يوماً فى سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ، قال أردتم أن أكون ملكاً جباراً فى الجاهلية جباراً فى الإسلام لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله والزهد فى الدنيا وتواضعت الملوك ومن وردمن الوفود بعد التكبر وتذللوا بعد التجبر انتهى كلام المسعود ولما دفن أبو بكر رضى الله عنه دعا عمر رضى الله عنه الأمناء ودخل بهم بيت المال منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ففتحوا بيت المال فلم يجدوا فيه لا ديناراً ولا درهما وقيل وجدوا ديناراً سقط من غرارة فترحموا عليه قال أبو صالح الغفارى كان عمر يتعهد امرأة عمياء فى المدينة بالليل فيقوم بأمرها فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ففعل ما أرادت فرصده عمر ، فإذا هو أبو بكر يأتيها ويقضى أشغالها سراً وهو خليفة فقال أنت هو لعمرى ولما ولى الخلافة ، وارتدت العرب خرج شاهراً سيفه إلى ذى القصة فجاءه على بن أبى طالب رضى الله عنه وأخذ بزمام راحلته وقال له إلى أين ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول لك ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد شم سيفك لا تفجعنا بنفسك والله لئن أصبنا بك لا يكون للاسلام نظام فرجع وأمضى الجيوش مع خالد بن الوليد رضى الله عنه ، قال ابن الأثير وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما رعيت له وربما خرج هو بنفسه فيها وكان يحلب للحى أغنامهم فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لا يحلب لنا منايح دارنا فسمعها فقال بلى لعمرى لأحلبنها لكم وإنى لأرجو أن لا يغير بى ما دخلت فيه فكان يحلب لهم وكان ذلك لما كان نازلا بالسنح فى عوالى المدينة عند زوجته حبيبة بنت خارجة ، فكان يغدو على رجليه إلى المدينة وربما ركب فرسه ويأتى المدينة فيصلى بالناس فإذا صلى العشاء

رجع إلى السنح فمكث على ذلك بعد أن بويع بالخلافة ستة أشهر ، ثم تحول إلى المدينة
وقال : كان فى بعض الأيام يغدو إلى السوق فيبيع ويبتاع فرأى ذلك يشغله ثم قال ما تصلح
أمور الناس مع التجارة ومايصلح إلا التفرغ لهم والنظر فى شأنهم ، فترك التجارة وأنفق
من مال المسلمين مايصلحه وعياله يوماً بيوم ومايحج به ويعتمر . ثم أوصى أن تباع أرض
له ويصرف ثمنها لبيت المال عوض ماأخذه من مال المسلمين وفى خلافته انفتح معدن
لبنى سليم ، فكان يسوى فى قسمته بين السابقين الأولين والمتأخرين فى الإسلام وبين
الحر والعبد والذكر والأنثى ، فقيل له فى تقديم أهل السبق على قدر منازلهم فقال : إنما
أسلموا لله ووجب أجرهم عليه يوفيهم ذلك فى الآخرة وإنما هذه الدنيا بلاغ وكان يشترى
الأكسية ويفرقها فى الأرامل فى الشتاء ، ولما أسلم رضى الله عنه كان له أربعون ألفاً
أنفقها فى الله مع ما كسب من التجارة وأعتق فى أول الإسلام سبعة نفر كلهم كانوا
يعذبون فى الله لما أسلموا منهم بلال وعامر بن فهيرة وكان أبو بكر أجود الصحابة لأنه
جاء بجميع ماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أبقى لنفسه شيئاً وتخلل بالعباء وكان
أبو بكر يقول أكيس الكيس التقوى وأحمق الحمق الفجور وأصدق الصدق الأمانة وأكذب
الكذب الخيانة وكان إذا أكل طعاما فيه شبهة ثم علم به استقاءه من بطنه ويقول اللهم
لاتؤاخذنى بما باشرته العروق وخالط الأمعاء ، قال الشعرانى فى الطبقات وكان رضى الله
عنه يقول إن هذا الأمر لايصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يحتمله إلا أفضلكم
مقدرة وأملككم لنفسه وهذا نص صريح فى أن أمر هذه الأمة لايصلح إلا إذا كانوا
على سيرة الصحابة وكان خليفتهم كالخلفاء الراشدين فيسير بهم سيرهم ، وكان أبو بكر
يقول إن العبد إذا دخله العجب بشىء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة
وكان رضى الله عنه يقول يامعشر المسلمين استحيوا من الله تعالى فوالذى نفسى بيده إنى لأظل
حين أذهب إلى الغائط فى الفضاء متقنعاً استحياء من ربى عز وجل وكان رضى الله عنه
يقول ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل وكان رضى الله عنه يأخذ بطرف لسانه ويقول
هذا الذى أوردنى الموارد وكان رضى الله عنه إذا سقط خطام ناقته ينيخها ويأخذه

فيقال له هلا أمرتنا فيقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن لا أسأل الناس شيئا . وكان رضى الله عنه يقول للصحابة رضى الله عنهم قد وليت أمركم ولست بخيركم فأعينونى . وإذا رأيتمونى استقمت فاتبعونى وإذا رأيتمونى زغت فقومونى وغلب عليه الخوف حتى كان يشم فى فمه رائحة الكبد المشوى ، ولما بويع أبو بكر خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخير منكم وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ بحقه وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه ، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن أحسنت فأعينونى وإن زغت فقومونى وكان رضى الله عنه لم يشرب خمراً قط لا جاهلية ولا إسلاما ولم يسجد لصنم قط ولما سمع الحسن البصرى قول أبى بكر رضى الله عنه قد وليت عليكم ولست بخير منكم قال بلى ولكن المؤمن يهضم نفسه ويروى أن أبا بكر رضى الله عنه مر على طائر واقع على شجرة فقال طوبى لك ياطائر تطير فتقع على الشجرة وتأكل من الثمر وليس عليك حساب ولا عقاب ياليتنى كنت مثلك والله لوددت أنى شجرة إلى جنب طريق فمر على بعير فأخذنى فلاكنى ثم ازدردنى ثم أخرجنى بعراً ولم أك بشراً وأخرج ابن السماك والحافظ السلفى وغيرهما أن أبا بكر رضى الله عنه بعد ما بويع وبعد أن بايعه على رضى الله عنه وأصحابه أقام ثلاثا يقول للناس قد أقلتكم بيعتكم هل من كاره فيقوم على رضى الله عنه فى أول الناس يقول والله لا نقيلك ولا نستقيلك قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذا الذى يؤخرك وقوله قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى فى الصلاة حيث قال مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالى الصحابة رضى الله عنهم فلا نرضى لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا . وفى رواية احتجب أبو بكر رضى الله عنه عن الناس ثلاثا يشرف عليهم كل يوم فيقول قد أقلتكم بيعتى فبايعوا من شئتم فيقول على ابن أبى طالب رضى الله عنه لا نقيلك ولا نستقيلك قدمك رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذا الذى يؤخرك وأخرج الحاكم عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أن أبا بكر قال فى خطبته بعد أن بويع والله ما كنت حريصا على الإمارة يوما ولا ليلة قط ولا كنت راغبا فيها ولا سألتها والله فى

عمر ولا علانية ولـكن أشفقت من الفتنة ومالى فى الإمارة من راحة لقد قلدت أمراً عظيماً
مالى به من طاقة إلا بتقوية الله تعالى وقوله أشفقت من الفتنة يعنى لما رأى الناس اختلفوا
بعد وفاة النبى فيمن يبايع فأراد المهاجرون أن يكون منهم وأراد الأنصار أن يكون منهم
فخشى أبو بكر أن يفتتنوا فلما طلب منه أبو عبيدة وعمر بن الخطاب أن يبايعه الناس
بايعهم خوفا من افتتانهم ، وقال فى خطبته أيضا أطيعونى ما أطعت الله تعالى ورسوله
فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم وكان أبو بكر قبل أن يبايعوه أخذ بيد
أبى عبيدة وعمر بن الخطاب وقال للناس بايعوا أحد هذين الرجلين فى ضمن كلام كثير
ذكره قال عمر والله ما كرهت من كلامه كلمة غير هذه ولأن أقدم فتضرب عنقى فيما
لا يقربنى إلى إثم أحب إلى من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر وقال أبو عبيدة والله
لا نتولى عليك هذا الأمر وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله فى الصلاة وهى أفضل
دين المسلمين أبسط يدك نبايعك فبايعه أبو عبيدة وعمر ، ثم بقية الناس ، وأخرج
الحافظ أبو ذر الهروى والدارقطنى وغيرهما من طرق كثيرة عن أبى جحيفة قال دخلت
على على فى بيته فقلت له يا خير الناس بعد رسول الله ، فقال مهلا يا أبا جحيفة ألا أخبرك
بخير الناس بعد رسول الله أبو بكر وعمر ويحك يا أبا جحيفة لا يجتمع حبى وبغض
أبى بكر وعمر فى قلب مؤمن وكان أبو جحيفة من أخص أصحاب على الملازمين له وهذا
الذى ذكره عن على من تفضيل أبى بكر وعمر كان يخطب به على منبر الـكوفة زمن
خلافته ورواه عن على سبعون رجلا من أصحابه وقيل رواه عنه نيف وثمانون رجلا من
أصحابه وأخرج الإمام أحمد رضى الله عنه أن أبا بكر رضى الله عنه بعد شهر من خلافته
نادى فى الناس الصلاة جامعة ثم خطب فقال أيها الناس وددت أن هذا الأمر كفانيه
غيرى وفى رواية إنى وليت هذا الأمر وأنا له كاره والله لوددت أن بعضكم كفانيه ألا
وإنـكم إن كلفتمونى أن أعمل فيـكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد أكرمه الله بالوحى وعصمه به إنما أنا بشر
ولست بخير من أحدكم فراقبونى فإن رأيتمونى زغت فقومونى وفى رواية فإذا

رأيتمونى لا أوثر فى أشعاركم وأبشاركم وفى رواية إنما أنا متبع ولست بمبتدع فإن أحسنت فأعينونى وإن أنا زغت فقومونى قال الإمام مالك رضى الله عنه : لا يكون أحد إماما أبداً إلا على هذا الشرط وكان عثمان بن عفان كاتب أبى بكر رضى الله عنهما وربما كتب له أيضاً زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم وحنظلة ابن الربيع رضى الله عنهم ، فلما مرض أبو بكر رضى الله عنه مرضه الذى توفى فيه استخلف على الأمة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فأمر عثمان بن عفان رضى الله عنه أن يكتب صحيفة الاستخلاف وهذه صورتها بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجا منها وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيه حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر ويصدق الكاذب ، إنى أستخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً أى لم أقصر فيه وفى رواية فإنى والله ما ألوت من جهدى الرأى ، فإن عدل فذلك ظنى فيه وعلمى به ، وإن بدل فكل امرىء ما اكتسب والخير أردت ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون والسلام عليكم ثم أمر بالكتاب فختمه ، ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوما وأخرج ابن عساكر عن يسار بن حسن قال أشرف أبو بكر رضى الله عنه على الناس من كوة فقال : أيها الناس إنى قد عهدت عهدا أفترضون به ، وفى رواية أفترضون بمن استخلفته عليكم فإنى ذا قرابة ، فقال الناس : قد رضينا ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال لانرضى إلا أن يكون عمر بن الخطاب قال أبو بكر : فإنه عمر فبايع على وبايع الناس ورضوا به ، فرفع أبو بكر ودعا فقال : اللهم إنى لا أريد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت الفتنة عليهم فعملت بما أنت أعلم به ، واجتهدت لهم رأيى فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه ، وأحرصهم على ما يرشدهم ، وقد حضرنى من أمرك ما حضرنى فأخلفنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك اللهم اصلح ولايته واجعله من خلفائك الراشدين واصلح له رعيته ، ومما أوصاه به أبو بكر لما استخلفه أن قال له : إنى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أوصاه

بتقوى الله تعالى ، ثم قال يا عمر إن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار وحقا فى النهار لا يقبله فى الليل وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ألم تر يا عمر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق الميزان أن لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلا ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق الميزان أن لا يوضع فيه إلا باطل أن يكون خفيفاً ألم تر يا عمر إنما نزلت آية الرجاء ليكون المؤمن راغبا راهبا لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ماليس له ، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه إلى التهلكة . ألم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم ، فإذا ذكرتهم قلت أنى لا أرجو أن لا أكون منهم وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سوء ، فإذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم ، فإن حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ولا بد لك منه وإن أنت ضيعت وصيتى هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه ، اللهم إنى لا أريد بذلك إلا إصلاحهم وخفت الفتنة عليهم فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيى فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليه وأحرصهم على ما يرشدهم وقد حضرنى من أمرك ما حضرنى فاخلفنى فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك اللهم أصلح ولايته واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته ، وأخرج ابن سعد والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة أبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب وصاحبه موسى عليه السلام حين قالت يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين والعزيز حين تفرس فى يوسف فقال لامرأته أكرمى مثواه قال الزهرى استخلف أبو بكر عمر ، فقام بالأمر أتم قيام وكثرت الفتوحات فى أيامه كثرة عظيمة لم يقع نظايرها فى أيام خليفة بعد ، وفتح الله فى أيامه الشام ومصر والروم والاسكندرية والعراق وفارس وقد أشار إلى ذلك النبى فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما أنه عليه الصلاة والسلام قال رأيت كأنى أنزع بدلو على قليب فنزعت منها ماشاء الله ثم أخذها أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين وفى نزعه ضعف والله يغفر له ثم أخذها عمر بن الخطاب فاستحالت غربا فلم أر عبقريا يفرى فرية

حتى ضرب الناس بعطن قال النووى فى شرح مسلم ، ففى هذا الحديث إشارة إلى خلافة أبى بكر وعمر وإلى كثرة الفتوحات وظهور الإسلام فى خلافة عمر وفى قوله فى أبى بكر فنزع ذنوبا أوذنوبين وفى نزعه ضعف إشارة إلى قصر مدة خلافته وقوله والله يغفرله ليس فيه إشارة إلى نقص أو تقصير أو ذنب وقع منه وإنما هى كلمة تقولها العرب عند الاعتناء بالأمروقوله ثم أخذها عمر بن الخطاب فاستحالت غربا أى دلواً عظيما إلى آخر الحديث إشارة إلى طول مدة خلافته وإلى كثرة انتفاع الناس بهاواتساع دائرة الإسلام بكثرة الفتوحات وتمصر الأمصار وتدوين الدواوين وقوله عبقريا أى رجلا قويا شديداً من الناس يفرى فرية أى يعمل عمله حتى ضرب الناس بعطن أى رووا وضربوا بعطن والعطن ماتناخ به الإبل إذا رويت ومن أعظم فضائل أبى بكر قتال العرب الذين ارتدوا عند وفاة النبى والذين منعوا الزكاة وقال والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى وإن منعونى عقالا أو عناقوا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عمر وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله تعالى» فقال أبو بكر والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال وقد قال إلا بحقها قال عمر فوالله ماهو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال ، فعرفت أنه الحق قال سيدى محيى الدين العربى فى المسامرة لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب أبو بكر الزكاة كفر بها قوم وقالوا قد كنا ندفع أموالنا إلى محمد فما بال ابن أبى قحامة يسألنا والله لانعطيه منها شيئاً أبداً فاستشار أبو بكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجمع القوم على التمسك بدينهم فى أنفسهم وأن يتركوا الناس مع ما اختاروه لأنفسهم وتخيلوا أنهم لايقدرون على من ارتد من المسلمين فقال أبو بكر لو لم أجد أحداً يؤازرنى لجاهدتهم بنفسى وحدى حتى أموت أو يرجعوا إلى الإسلام ولو منعونى عقالا مما كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لجاهدتهم حتى ألحق بالله تعالى فلم يزل أبو بكر يجاهد بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عاد الناس جميعاً إلى الإسلام ودخلوا فيه كما خرجوا منه وبعث

خالد بن الوليد إلى بنى أسد وغطفان فقتل من قتل وأسر من أسر ورجع الباقون إلى الإسلام ثم بعث خالداً إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة ودام الحصار أياماً ثم قتل مسيلمة الكذاب لعنه الله قتله وحشى قاتل حمزة . وفى السنة الثانية من خلافته بعث العلاء بن الحضرمى إلى البحرين وكانوا قد ارتدوا فقاتلهم ونصر الله المسلمين عليهم وقتل من قتل من المرتدين ورجع من بقى منهم إلى الإسلام وبعث عكرمة بن أبى جهل إلى عمان وكانوا قد ارتدوا أيضاً وبعث المهاجرين أبى أمية إلى طائفة من المرتدين وزياد بن لبيد الأنصارى إلى طائفة آخرين وماتوفى أبى بكر حتى رجع العرب كلهم إلى الإسلام وابتدأ التجهيز لفتوح الشام وقتال الروم حتى أن فتح الشام كان ليلة وفاة أبى بكر رضى الله عنه ومن ثم أخرج البيهقى وابن عساكر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال والله الذى لا إله إلا هو لولا أن أبا بكر استخلف ما عبد الله ثم قال الثانية والثالثة فقيل له مه يا أبا هريرة فقال أن رسول الله جهز جيش أسامة بن زيد ليسير فى سبعمائة إلى الشام ، وتوفى رسول الله قبل أن يتوجه ذلك الجيش وارتدت العرب حول المدينة واجتمع أصحاب النبى وقالوا لأبى بكر رد هذا الجيش كيف توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة فقال والله الذى لا إله إلا هو لوجرت الكلاب بأرجل أزواج النبى ما رددت جيشاً وجهه رسول الله ولا حللت لواء عقده فوجه أسامة فجعل أسامة لايمر بقبيلة يريدون الارتداء إلا قالوا لولا أن لهؤلاء قوة ماخرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم فلقوهم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام واستدل العلماء على عظم علم أبو بكر بقوله والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة بقوله والله لومنعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله فقاتلهم على منعه وقال العلماء أيضا أن أبا بكر كان أعلم الصحابة لأنهم كلهم وقفوا عن فهم الحكم فى المسألة إلا هو ثم ظهر لهم بمباحثته أن قوله هو الصواب فرجعوا إليه واستدلوا بذلك أيضا على عظم شجاعته بتصميمه على قتالهم من قوله لأجاهدنهم ما استمسك السيف فى يدى ومما يدل على شجاعته ثباته يوم وفاة النبى وتثبيته لجميع الصحابة ولم يثبت ذلك اليوم أحد غيره وما ثبتوا بعد ذلك إلا بتثبيته والقصة مشهورة

فلا حاجة لذكرها وأخرج ابن عساكر عن على يوم وفاة أبى بكر دخل عليه وهو مسجى، فقال ما أحب أن ألقى الله بصحبة أحب إلى من هذا المسجى وقد صح عنه من طرق كثيرة لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان الأمة لرجحهم ، وقال عمر بن الخطاب مخبراً عن نفسه إنه ما سبق أبا بكر إلى خير إلا سبقه أبو بكر رضى الله عنهما ، وأخرج أبو يعلى عن على قال أعظم الناس أجراً فى المصاحف أن أبا بكر أول من جمع بين اللوحين لأن أبا بكراً لما كان قتال أهل اليمامة وقتل كثير من الصحابة قال أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن فأمر زيد بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع والأكتاف والكتب وصدور الرجال لجمع فى صحف إلى أن كان زمن خلافة عثمان فجمع فى المصاحف فما جمعه عثمان إلا من الصحف التى جمعها أبو بكر وكان جعل ولاية بيت المال فى زمن خلافته لأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح وأخرج البخارى ومسلم عن جابر ، قال قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا يعنى ثلاث حفنات ، فلما جاء مال البحرين بعد وفاة رسول الله وقال أبو بكر من كان له عند رسول الله عدة أو دين فليأتنا فجئت فأخبرته فقال خذ فأخذت مقداراً فوجدت عدد تلك الدراهم التى أخذتها خمسمائة فأعطانى ألفا وخمسمائة وفاء بقول النبى هكذا وهكذا وهكذا ولما مرض أبو بكر مرض الوفاة قال له الناس ألا ندعوا لك طبيبا قال قد أتانى وقال لى أنا فاعل ما أريد فعلموا مراده وسكتوا عنه وكان سبب مرضه أنه سمه يهودى فى أرز وقيل فى خزيرة أهديت لأبى بكر فأكل هو والحارث بن كلدة طبيب العرب فكف الحارث وقال لأبى بكر ارفع يدك ياخليفة رسول الله أكلنا طعاما مسموما سم سنة فماتا بعد سنة فى يوم واحد وفى رواية والله أن فيها سم سنة وأنا وأنت نموت فى يوم واحد فرفع يده فلم يزالا عليلين حتى ماتا فى يوم واحد وقيل سبب موته سم الحية التى لدغته فى الغار تحرك عليه أثره قبل وفاته ولا مانع من تعدد هذه الأسباب وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال كان سبب موت أبى بكر رضى الله عنه وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمداً وحزنا فما زال جسده ينقص حتى مات وأخرج الحاكم عن الشعبى قال ماذا يتوقع من هذه الدنيا الدنية وقد سم

رسول الله صلى الله عليه وسلم وسم أبو بكر وكان ابتداء مرض أبى بكر الذى منعه من الخروج أنه اغتسل يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة وكان يوما باردا فحم خمسة عشرة يوما لا يخرج وتوفى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشر ليالى وعن عائشة رضى الله عنها قالت لما ثقل أبو بكر قعدت عند رأسه فتمثلت بقول القائل :

لعمرك مايغـــنى الثراث عن الفتى ‏ إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فقال لا تقولى هذا ولـكن قولى « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، ثم قال انظرا ثوبى هذين فاغسلوها فـكفنونى فيهما فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت » وصلى عليه عمر بن الخطاب ودفن ليلا إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجرة عائشة رضى الله عنها وكان آخر ما تـكلم به توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ولما توفى أبو بكر رضى الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء ودهش القوم كيوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المحب الطبرى فى الرياض النضرة أخرج الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله الخوارزمى وابن السماك عن أسد بن صفوان وكان قد أدرك النبى صلى الله عليه وسلم قال لما قبض أبو بكر ارتجت المدينة عليه بالبكاء كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء على بن أبى طالب يقول إنا لله وإنا إليه راجعون انقطعت خلافة النبوة حتى وقف على باب البيت الذى فيه أبو بكر رضى الله عنه وهو مسجى فقال رحمك الله يا أبا بكر كنت إلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته كنت أول القوم إسلاما وأخلصهم إيمانا وأشدهم يقينا وأخوفهم لله وأعظمهم غناء فى دين الله وأحوطهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيمنهم على أصحابه وأحسنهم صحبة وأكثرهم مناقب وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم هديا وسمتا ورحمة وفضلا وأشرفهم منزلة وأكرمهم عليه وأشفقهم عليه فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله صلى الله عليه واسلم خيرا كنت

عنده بمنزلة السمع والبصر صدقت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كذبه الناس.
فسماك الله فى تنزيله صديقا فقال تعالى ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ الذى جاء
بالصدق محمد صلى الله عليه وسلم والذى صدق به أبو بكر وأخرج البزار وابن عساكر
عن على بن أبى طالب أنه قال فى تفسير قوله تعالى الذى جاء بالصدق هو محمد صلى الله
عليه وسلم والذى صدق به أبو بكر وجاء مثل ذلك فى آيات كثيرة من آيات القرآن
العزيز . فمن ذلك ما أخرجه الحاكم والطبرانى أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله
تعالى فأنزل الله تعالى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي﴾ إلى آخر السورة ، قال ابن الجوزى.
أجمعوا على أنها نزلت فى أبى بكر وفيها التصريح بأنه أتقى من سائر الأمة والأتقى هو
الأكرم عند الله تعالى لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ والأكرم عنده تعالى
هو الأفضل فدلت الآية على أنه أفضل هذه الأمة وجاءت أحاديث كثيرة صريحة بأن
سورة والليل إذا يغشى نزلت فى أبى بكر وفى أمية بن خلف وذلك أن أمية بن خلف
كان يعذب بلالا لما أسلم فاشتراه أبو بكر وأعتقه فأنزل الله السورة فقوله تعالى :
﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أول داخل فيه أبو بكر وأمية بن خلف أى أن سعى أبى بكر
وأمية مفترق افتراقا عظيما فشتان ما بينهما ثم شرح ذلك وبينه بالآيات التى بعد هذه الآية
فقوله ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ هو أبو بكر وقوله
تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ هو أمية
بن خلف وكذا قوله تعالى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ وقوله تعالى ﴿لَا يَصْلَاهَا
إِلَّا الأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ كل هذه الآيات فى أمية بن خلف وختمت السورة
بقوله تعالى ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ
تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ وهو أبو بكر وتأمل قوله تعالى
﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى﴾ فإنها تدل على كمال
إخلاص أبى بكر ولهذا عقب ذلك بقوله ولسوف يرضى ولا شىء أعلى من هذا الوعد
من الرب الكريم ومن الآيات قوله تعالى ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ

لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ أجمع المسلمون على أن المراد بالصاحب هنا أبو بكر ومن ثم قالوا من أنكر صحبته فقد كفر بالاجماع ومن الآيات الدالة على صحة خلافته قوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم وليمكنن لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ قال ابن كثير هذه الآية منطبقة عن خلافة الصديق وقد أخرج ابن حاتم عن عبد الرحمن بن عبد الحميد الهروى أنه قال أن خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب فى كتاب الله فى قوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعملوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرض ﴾ الآية ومن الآيات الدالة على خلافته قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَومٍ أُولِي بَأْسٍ شديدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فإن تُطيعوا يُؤْتِكُمُ اللهُ أَجْرًا حَسَنًا وإِنْ تَتَوَلَّوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فقد أخرج ابن حاتم وابن قتيبة أن هذه الآية حجة على خلافة الصديق والقوم المذكورون فى الآية هم بنو حنيفة الذين ارتدوا بعد وفاة النبى واتبعوا مسيلمة الكذاب وأبو بكر هو الذى دعا المخلفين من الأعراب إلى قتالهم قال الشيخ أبو الحسن الأشعرى إمام أهل السنة سمعت أبا العباس بن سريج يقول خلافة الصديق فى القرآن فى هذه الآية قال لأن أهل العلم أجمعوا على أنه لم يكن بعد نزولها قتال دعوا إليه إلا والداعى إليه أبو بكر وافتراض طاعته لأن الله تعالى يقول ﴿ فإن تطيعوا يُؤْتِكُم اللهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وأخبر أن المتولى عن ذلك يعذب بقوله ﴿ وإِنْ تَتَوَلَّوا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أليمًا ﴾ قال ابن كثير ومن فسر القوم بأنهم فارس والروم فأبو بكر الصديق هو الذى دعا إلى قتالهم ، وهو أول من جهز الجيوش إلى قتالهم وتمام أمرهم كان على يد عمر وعثمان فهما فرعان تفرعا من خلافة أبى بكر فإن قلت يمكن أن يراد بالداعى فى هذه الآية النبى صلى الله عليه وسلم قلت لا يمكن ذلك مع قوله تعالى قبل ذلك لن تتبعونا ، ومن ثم لم يدع أولئك الذين تخلفوا إلى محاربة فى حياته صلى الله عليه وسلم وأما على رضى الله عنه فلم يتفق له فى زمن

خلافته قتال للكفار لطلب الإسلام بل كان قتاله لتحقيق أمر الإمامة ورعاية حقوقها فتعين أن ذلك الداعى الذى يكون له الأجر الحسن باتباعه والعذاب الأليم بعصيانه أحد الخلفاء الثلاثة ، وأبو بكر هو أولهم وأصلهم وأساسهم ، فيلزم صحة خلافته على كل تقدير ، والآيات الدالة على فضله وصحة خلافته كثيرة لاحاجة إلى ذكرها فمن راجع تفاسير القرآن وكتب السنة وقف على ذلك ، وكان أبو بكر كثيراً ما يقول فى خطبه : أين القضاة الحسنة وجوههم المعجبون بشأنهم ، أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ، أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ، قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور ، الوحا الوحا النجا النجا ، ولما أراد أبو بكر استنفار الناس لقتال أهل الردة ثم لقتال الروم كتب إلى أهل مكة (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أبى بكر إلى أهل مكة وسائر المؤمنين فإنى أحمد الله الذى لا إله إلاهو وأصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأما بعد فإنى استنفرت الناس إلى الجهاد وقد كتبت إليكم وإلى المسلمين أن تسرعوا إلى ما أمركم به ربكم تبارك وتعالى ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وهذه الآية أنتم أحق بها وأهلها وأول من صدق بها وقال بحكمها من ينصر دين الله فالله ناصره ومن بخل استغنى الله عنه والله غنى حميد ، فسارعوا إلى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمجاهدين والأنصار ومن اتبع سبيلهم من الأولياء الأخيار وحسبنا الله ونعم الوكيل وختم الكتاب ودفعه إلى عبد الله ابن حذافة السهمى فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ فى أهلها فاجتمعوا إليه فدفع إليهم الكتاب فقرأوه ، فلما سمعوا قام سهيل أبو عمرو والحارث بن هشام وعكرمة بن أبى جهل وقالوا : أجبنا داعى الله ، وصدقنا قول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقال عكرمة بن أبى جهل إلى متى نبسط لأنفسنا ، وقد سبقنا القوم إلى المواطن وقد فاز بالصدق ، وإن كنا تأخرنا عن السبق فاللحاق اللحاق ، والسباق السباق فلعلنا نكتب فى الحال ثم خرج عكرمة بن أبى جهل فى بنى مخزوم ، وخرج عمه الحارث بن هشام معهم ، وتلاحق أهل مكة حتى بلغوا خمسمائة رجل ، وكتب أبو بكر بمثل ذلك لأهل الطائف فخرجوا

فى أربعمائة ثم كتب لأهل اليمن بعد فراغه من قتال المرتدين وصورة كتابه إليهم بسم الله الرحمن الرحيم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من قرئ عليه كتابى من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن سلام عليكم أما بعد فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالا ، قال الله تعالى ﴿ إنفروا خِفافا وثقالا وجاهِدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ﴾ فالجهادفريضةمفروضة وثوابه عند الله عظيم ، وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، وقد سارعوا إلى ذلك وشكروا وخرجوا وحسنت فى ذلك نيتهم وعظمت فى الخير حسنتهم فسارعوا عباد الله إلى فريضة ربكم وإلى أحد الحسنيين إما الشهادة وإما الفتح والغنيمة فإن الله لم يرض من عباده بالقول دون الفعل ولا يترك أهل عداوته حتى يدينوا بالحق ويقروا بحكم الكتاب أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون حفظ الله لكم دينكم وهدى قلوبكم وزكى أعمالكم ورزقكم أجر المجاهدين والصابرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعث بهذا الكتاب مع أنس بن مالك ، قال أنس فأتيت أهل اليمن جناحا جناحا وقبيلة قبيلة أقرأ عليهم كتاب أبى بكر. فإذا فرغت من قراءته قلت الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإنى رسول المسلمين إليكم ألا وإنى قد تركتهم معسكرين لم يمنعهم من الشخوص إلى عدوهم إلا انتظاركم فعجلوا إلى إخوانكم رحمة الله عليكم أيها المسلمون ، قال : وكان كل من قرئ عليه ذلك الكتاب ويسمع منى هذا القول يحسن الرد على ، ويقول : نحن سائرون وكأن قد فعلنا حتى انتهيت إلى ذى الكلاع ملك حمير ، فلما قرأت عليه الكتاب وقلت هذا المقال دعا بسلاحه وفرسه ونهض فى قومه من ساعته ولم يؤخر ذلك وأمر بالعسكر فما برحنا حتى عسكر وعسكر معه جموع كثيرة من أهل اليمن ، وسارعوا فلما اجتمعوا إليه قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس إن من رحمة الله إياكم ونعمته عليكم أن بعث فيكم رسولا وأنزل عليكم كتابا فأحسن عنه البلاغ فعلمكم ما يرشدكم ونهاكم عما يفسدكم وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ورغبكم

فى الخير مالم تكونوا ترغبون ثم قد دعاكم إخوانكم الصالحون إلى جهاد المشركين واكتساب الأجر العظيم فلينفر من أراد معى النفر الساعة فنفر بعدد كثير من أهل اليمن وقدموا على أبى بكر قال فرجعنا نحن فسبقناه بأيام فوجدنا أبا بكر بالمدينة ووجدنا ذلك العسكر على حاله ووجدنا أبا عبيدة يصلى بأهل ذلك العسكر فقدمت حمير على أبى بكر ومعها نساؤها وأولادها ففرح أبو بكر بقدمهم ولما رآهم أبو بكر قال عباد الله ألم نكن نتحدث فنقول إذا أقبلت حمير تحمل أولادها ومعها نساؤها نصر الله المسلمين وخذل المشركين فأبشروا أيها المسلمون فقد جاءكم النصر من الله تعالى قال وجاء قيس بن هبيرة ابن مكسوح المرادى وكان من فرسان العرب فى الجاهلية ومن أشرافهم وأشدائهم ومعه جمع كثير من قومه حتى أتى أبا بكر فسلم ثم جلس إليه فقال ما تنتظر ببعثة هذه الجنود فقال أبو بكر ما كنا ننتظر إلا قدومكم قال فقد قدمنا فابعث الناس الأول فالأول فإن هذه البلدة ليست ببلدة خف ولا كراع قال فخرج أبو بكر يمشى فدعا يزيد بن أبى سفيان فعقد له ودعا زمعة بن الأسود بن عامر من بنى عامر بن لؤى وأوصاهم وبعثهم وقد كان أبو بكر قبل بعث الكتب حدث نفسه بغزو الروم وأسر ذلك فى نفسه ولم يطلع عليه أحداً فبينما هو فى ذلك إذ جاءه شرحبيل بن حسنة رضى الله عنه فقال ياخليفة رسول الله أتحدث نفسك أن تبعث إلى الشام جنداً فقال نعم قد حدثت نفسى بذلك وما أطلعت عليه أحداً وما سألتنى عنه إلا لشىء عندك قال أجل إنى رأيت فيما يرى النائم كأنك فى ناس من المسلمين فوق جبل فأقبلت تمشى معهم حتى صعدت على قبة عالية على الجبل فأشرفت على أناس ومعك أصحابك أولئك ، ثم هبطت من تلك القبة إلى أرض سهلة دمثة فيها القرى والعيون والزروع والحصون فقلت يامعشر المسلمين شنوا الغارات على المشركين فإنى ضامن لكم الفتح والغنيمة وأنا فيهم ومعى راية فتوجهت إلى قرية فدخلتها فسألونى الأمان فأمنتهم ثم جئت فوجدتك قد انتهيت إلى حصن عظيم ففتح لك وألقوا إليك السلم وجعل لك عرشاً فجلست عليه ثم قال لك قائل فاسأل يفتح الله لك وتنصر فاشكر ربك واعمل بطاعته ثم قرأ عليك ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ

الله أفواجاً فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إنَّه كَانَ تَوَّاباً ﴾ قال ثم انتبهت فدمعت عينا أبى بكر رضى الله عنه ثم قال أما الجبل الذى رأيتنا نمشى عليه حتى صعدنا منه إلى القبة العالية فأشرفنا على الناس فإنا نكابد من أمر هذا الجند مشقة ويكابدون ثم نعلو بعد ويعلوا أمرنا وأن نزولنا من القبة العالية إلى الأرض السهلة الدمثة والزروع والحصون والعيون والقرى فإنا نزلنا إلى أمر أسهل مما كنا فيه من الخصب والمعاش وأما قولى شنوا عليهم الغارة فإنى ضامن لكم بالفتح والغنيمة فإن ذلك توجيهى للمسلمين إلى بلاد المشركين وأمرى إياهم بالجهاد فى سبيل الله وأما الراية التى كانت معك فتوجهت بها إلى قرية من قراهم فدخلتها فاستأمنوك فأمنتهم فإنك تكون أحد أمراء المسلمين ويفتح الله على يديك وأما الحصن الذى فتحه الله على يدى فهو الفتح الذى يفتحه الله على يدى وأما العرش الذى رأيتنى جالساً عليه فإن الله يرفعنى ويضع المشركين وأما أمرى بطاعة ربى وقراءة القارىء على هذه السورة فإنه نعى إلى نفسى فإن هذه السورة حين أنزلت علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفسه نعيت إليه ، ثم سالت عينا أبى بكر رضى الله عنه فقال لآمرن بالمعروف ولأنهين عن المنكر ولأجاهدن من ترك أمر الله عز وجل ولأجهزن الجيوش إلى العادلين بالله فى مشارق الأرض ومغاربها حتى يقولوا الله أحد ، ويؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون فإذا توفانى ربى لم يجدنى مقصراً ولا فى ثواب المجاهدين زاهداً ثم أنه أمر الأمراء وبعث إلى الشام قال عبدالله بن أبى أوفى رضى الله عنه لما أراد أبو بكر رضى الله عنه تجهيز الأجناد ، إلى الشام دعا بعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد لرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد ووجوه المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم فدخلوا عليه وأنا فيهم فقال أن الله تبارك وتعالى لا تحصى نعمه ولا تبلغ الأعمال جزاءها فله الحمد كثيراً على ما اصطنع عندكم قد جمع كلمتكم وأصلح ذات بينكم وهداكم إلى الإسلام ونفى عنكم الشيطان فليس يطمع أن تشركوا بالله ولا تتخذوا إلها غيره فالعرب بنو أم وأب وقد أردت أن أبعثهم إلى الروم بالشام فمن هلك منهم هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار

ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين هذا رأيى الذى رأيت فأشار امرؤ على بمبلغ رأيه فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال الحمد لله الذى يخص بالخير من شاء من خلقه والله ما استبقنا إلى شىء من الخير قط إلا استبقنا إليه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قدر الله إنى أردت لقاءك لهذا الأمر والرأى الذى ذكرت فما قضى الله أن يكون ذلك حتى ذكرته الآن فقد أصبت وأصاب الله بك سبل الرشاد وأبعث إليهم الخيل فى أثر الخيل وأبعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود فإن الله عز وجل ناصر دينه ومعز الإسلام وأهله ومنجزها وعد رسوله صلى الله عليه وسلم ثم أن عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه قام فقال ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما الروم وبنوا الأصفر حد حديد وركن شديد والله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاما ولكن تبعث الخيل تغير عليهم فى أدانى أراضيهم ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك فإذا فعلوا ذلك أضروا بعدوهم وغنموا من أدنى أراضيهم فقووا بذلك على قتالهم ثم تبعث إلى أقاصى أهل اليمن وإلى أقاصى ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جمعاً فإن شئت بعد ذلك غزوتهم بنفسك وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك ثم جلس وسكت وسكت الناس فقال لهم أبو بكر ما ترون رحمكم الله فقام عثمان ابن عفان فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال إنى أرى أنك لأهل هذا الدين مشفق وإذا رأيت رأياً لعامتهم رشداً وصلاحاً وخيراً فاعزم على إمضائه فإنك غير ظنين ولا متهم فقال طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار صدق عثمان فيما قال ما رأيت من أمر فامضه فإنا سامعون ولك مطيعون لا نخالف أمرك ولا نتهم رأيك ولا نتخلف عن دعوتك وإجابتك فذكروا هذا وشبهه وعلى بن أبى طالب فى القوم لا يتكلم فقال له أبو بكر ما ترى ياأبا الحسن قال رأيى إنك مبارك ميمون الناصية وإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نصرت إن شاء الله تعالى فقال له أبو بكر بشرك الله بخير من أين علمت هذا قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «لا يزال هذا الدين

ظاهراً على من ناوأه حتى يقوم الدين وأهله ظاهرين » فقال أبو بكر سبحان الله ما أحسن هذا الحديث لقد سررتنى سرك الله فى الدنيا والآخرة ثم أن أبا بكر قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه وذكره بما هو أهله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال « أيها الناس إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأعزكم بالجهاد وفضلكم بهذا الدين على أهل كل دين. فتجهزوا عباد الله إلى غزو بلاد الروم بالشام فإن مؤمر عليكم أمراء وعاقد لهم عليكم فأطيعوا أمر ربكم ولا تخالفوا أمراءكم ولتحسن نيتكم وسيرتكم وطعمتكم فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » فسكت الناس فوالله ما أجابه أحد هيبة لغزو الروم لما يعلمون من كثرة عددهم وشدة شوكتهم فقام عمر بن الخطاب فقال يامعشر المسلمين مالكم لاتجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم فقام خالد بن سعيد بن العاص فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم، ثم قال الحمد لله الذى لا إله إلا هو بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فإن الله منجز وعده ومعز دينه ومهلك عدوه ثم أقبل على أبى بكر فقال إنا غير مخالفين لك ولا متخلفين عنك وأنت الوالى الناصح الشفيق ننفر إذا استنفرتنا ونجيبك إذا دعوتنا ففرح أبو بكر بمقالته وقال جزاك الله من أخ خيراً فقد أسلمت مرتضيا وهاجرت محتسبا وهربت بدينك من الكفار لكى يطاع الله ورسوله وتكون كلمة الله هى العليا فسر رحمك الله فتجهز خالد بن سعيد بأحسن الجهاز ثم أتى أبا بكر وعنده من المهاجرين والأنصار أجمع ما كانوا فسلم على أبى بكر ثم قال والله لأن أخر من رأس حالق ويخطفنى الطير فى الهواء بين السماء والأرض أحب إلى أن أبطىء عنك وأخالف أمرك والله ما أنا فى الدنيا راغب ولا على البقاء فيها بحريص وإنى أشهدكم أنى وإخوانى وفتيانى ومن أطاعنى من أهلى حبيس فى سبيل الله مقاتل للمشركين أبداً حتى يهلكهم الله أو نموت عن آخرنا فقال أبو بكر خيراً ودعا له المسلمون بخير وقال له أبو بكر أنى لأرجو أن تكون من نصحاء الله فى عباده بإقامة كتابه واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فخرج هو وإخوانه وغلمانه ومن تبعه من أهل بيته وكان أول من عسكر فأمر أبو بكر بلالا فنادى فى الناس أن انفروا إلى

عدوكم بالشام وأرسل يزيد بن أبى سفيان وإلى أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة فقال إنى باعثكم فى هذا الوجه ومؤمركم على هذه الجنود وأنا موجه مع كل رجل من الرجال ما قدرت عليه فإذا قدمتم البلد ولقيتم العدو واجتمعتم على قتالهم فأميركم أبو عبيدة بن الجراح وأن لم يلقكم أبو عبيدة ولقيكم حرب فأميركم يزيد بن أبى سفيان فانطلقوا فتجهزوا فانطلق القوم يتجهزون وكان خالد بن سعيد من عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكره الإمارة واستعفى أبا بكر رضى الله عنه فأعفاه ثم أن الناس خرجوا إلى معسكرهم من عشرة وعشرين وثلاثين وأربعين وخمسين ومائة فى كل يوم حتى اجتمع الناس وكثروا فخرج أبو بكر ذات يوم ومعه رجال من أصحابه كثير حتى انتهى إلى عسكرهم فرأى عدة حسنة ولم يرض كثرتها للروم فقال لأصحابه ماذا ترون فى هؤلاء أترون أن نشخصهم إلى الشام فى هذه العدة فقال له عمر ما أرضى هذه العدة لبنى الأصفر فأقبل أبو بكر على أصحابه فقال لهم ماذا ترون فقالوا نحن نرى أيضاً ما رأى عمر فقال أبو بكر أفلا نكتب كتابا إلى أهل اليمن ندعوهم إلى الجهاد ونرغبهم فى ثوابه فرأى ذلك جميع الصحابة فقالوا له نعم مارأيت فكتب إليهم فأجابوه وأقبلوا كما تقدم بيان ذلك مفصلا وتجهزوا إلى الشام فكان النصر والفتوح وكان أول جيش بعثه أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم جيش أسامة وكان بعض الصحابة استصغروا أسامة بن زيد أمير الجيش وقالوا لعمر بن الخطاب امض إلى أبى بكر وأبلغه عنا واطلب منه أن يولى أمرنا أقدم سنا من أسامة فلما أبلغه عمر ذلك ووثب أبو بكر وكان جالساً وأخذ بلحية عمر وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أعزله ثم خرج أبو بكر حتى أتى ذلك الجيش وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال أبو بكر والله لا نزلت ولا أركب وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله فإن للغازى بكل خطوة يخطوها سبعمائة حسنة تكتب له وسبعمائة درجة ترفع له وسبعمائة سيئة تمحى عنه فلما أراد أن يرجع أوصى أسامة ومن معه فقال لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا

ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تقدمون على قوم من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا أوساط رؤوسهم حتى كأنها أفاحيص القطا وفى رواية وتركوا حولها مثل العصائب فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا إلى الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون استودعكم الله اندفعوا باسم الله وفعل مع يزيد بن أبى سفيان عند موادعته مثل ما فعل مع أسامة وأوصاه بمثل ما أوصاه وزاد بعضهم فى وصيته ليزيد قوله إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك فى سيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم فى الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا شيخاً ولا امرأة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم وقال فى وصيته لخالد بن الوليد لما خرج لقتال أهل الردة سر على بركة الله فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن كله فإنى لا آمن عليك الجملة واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه واحترس من البيات فإن فى العرب غرة وأقلل من الكلام فإن مالك ما وعى عنك وأقبل من الناس علانيتهم وكلهم إلى الله تعالى فى سريرتهم واستودعتك الله الذى لا تضيع ودائعه فسار أسامة قبل كل جيش جهزه أبو بكر وأوقع بقبائل من قضاعة كانوا قد ارتدوا وغنم وعاد وكانت غيبته أربعين يوماً وكان نفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعاً للمسلمين فإن العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا أرادوا أن يفعلوه قال أبو بكر بن عياش سمعت أبا حصين يقول ما ولد بعد النبيين مولود أفضل من أبى بكر لقد قام مقام نبى من الأنبياء فى قتال أهل الردة وقال أنس بن مالك كرهت الصحابة قتال مانعى الزكاة وقالوا إنهم أهل القبلة يعنون أنهم مسلمون فتقلد أبو بكر رضى الله عنه سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بداً من الخروج على أثره وهذا دليل على شجاعة أبو بكر

ثم أشار عليه على رضى الله عنه بالرجوع وأن يبعث الجيوش ففعل ما أشار عليه وتقدم أن عمر كان ممن توقف فى قتالهم ثم شرح الله صدره كما شرح صدر أبى بكر فقال بعد ذلك والله لقد رجح إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة جميعاً فى قتالهم وقتال بقية المرتدين وكان من جملة مقالة عمر لما راجع أبا بكر فى قتالهم أن قال ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وارفق بهم فإنهم بمنزلة الوحش فقال له أبو بكر رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك جباراً فى الجاهلية وخواراً فى الإسلام بماذا شئت أتألفهم بشعر مفتعل أو بسحر مفترى هيهات هيهات قد تم الدين وانقطع الوحى أينقص وأنا حى والله لو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى وقال بعض الصحابة فى مراجعتهم إياه أرفق بالعرب حتى ينفرج هذا الأمر فإن هذا الأمر شديد غوره ومهلكه من غير وجه فلو أن طائفة من العرب ارتدت قلنا قاتل من ارتد بمن ثبت معك وقد أصفقت العرب على الارتداد ، فهم بين مرتد ومانع صدقة فهو مثل المرتد ، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك قد قدم رجلا وأخر أخرى » وقالوا له أيضاً قد شحت العرب على أموالها وأنت لا تصنع بتفريق العرب عنك شيئا فلو تركت للناس صدقة هذه السنة وقدم عيينة بن حصن الفزارى وأقرع بن حابس فى رجال من أشراف العرب فدخلوا على رجال من المهاجرين فقالوا إنه قد ارتد عامة من ورائنا عن الإسلام ، وليس فى أنفسهم أن يؤدوا إليكم من أموالهم ما كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن تجعلوا لنا جعلا نرجع فنكفيكم من وراءنا فدخل المهاجرون والأنصار على أبى بكر فعرضوا عليه ما عرضوه عليهم وقالوا : نرى أن نطعم الأقرع وعيينة طعمة يرضيان بها ويكفيانك من ورائهما حتى يرجع إليك أسامة وجيشه ويشتد أمرك فإنا اليوم قليل فى كثير ولا طاقة لنا بقتال العرب فقال لهم أبو بكر : هل ترون غير ذلك قالوا لا فقال أبو بكر : إنكم قد علمتم أنه كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المشهورة فيما لم يمض فيه أمر من نبيكم ، ولا نزل به الكتاب عليكم ، وإن الله لن يجمعكم على ضلال وإنى سأشير عليكم وإنما أنا رجل منكم تنظرون فيما أشرته عليكم وفيما أشرتم به فتجمعون على أرشد ذلك فإن الله يوفقكم أما أنا فأرى

أن نشد على عدونا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وأن لا ترشوا على الإسلام أحداً وأن تتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فنجاهد عدوه كما جاهدهم والله لو منعونى عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه من أهله وأدفعه إلى مستحقه فائتمروا برشدكم الله فهذا رأيى فقالوا لأبى بكر لما سمعوا رأيه أنت أفضلنا رأيا ورأينا لرأيك تبع فأمر أبو بكر بالتجهيز ، قال عبدالله بن مسعود كرهنا ذلك فى الابتداء ثم حمدنا عليه فى الانتهاء وقال أبو هريرة والله لو لم يستخلف أبو بكر لما عبد الله وأخرج الدارقطنى أن أبا بكر لما أراد قتال أهل الردة أراد أن يخرج إليهم بنفسه فلما برز واستوى على راحلته أخذ على بن أبى طالب بزمامها وقال إلى أين ياخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول لك ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك وارجع إلى المدينة فوالله لئن فجعنا بك لا يكون الإسلام نظام أبداً فرجع وبعث خالد بن الوليد لقتال أهل الردة وكان الصحابة قد شاهدوا من أبى بكر الثبات الذى هو أعظم من هذا وهو ثباته يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم فإن الناس قد تزلزلت أقدامهم ، وذهلت عقولهم يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشك بعضهم فى موته ، وكان أبو بكر غائبا بمنزله بالسنح فى عوالى المدينة وعمر حاضر ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قام عمر فقال إن رجالا من المنافقين يزعمون إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات وأنه والله مامات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات وأخرس بعض وأقعد بعض واضطرب الناس فجاء أبو بكر من منزله بالسنح ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسجى فى ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قبله وقال: بأبى أنت وأمى قد طبت حيا وميتا أما الموتة التى كتبها الله عليك فقد متها إذ كرنى يارسول الله عند ربك ثم رد الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكوت فأبى فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت

ثم تلا قوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ . فوالله لكأن الناس ماسمعوها إلا منه وقد كان نزولها يوم أحد فى السنة الثالثة من الهجرة فكأنهم نسوها لما أصابهم من الحزن بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر فوالله ماهو إلا أن سمعتها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملنى رجلاى وعلمت حينئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات فما زال عنهم رضى الله عنهم ذلك الدهش إلا بتثبيت أبى بكر حين خطب الناس فرجعت إليهم عقولهم وعرفوا حقيقة الأمر فدل ذلك على أنه كان أشد الصحابة رأياً وأكملهم عقلا وأوفرهم علماً وأخرج البزار فى مسنده عن على بن أبى طالب أنه قال يوماً لأصحابه أخبرونى عن أشجع الناس فقال أنت فقالوا أنا فما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن أخبرونى بأشجع الناس قالوا لا نعلم فمن قال أبو بكر إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشا فقلنا من يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العريش لئلا يهوى إليه أحد من المشركين فوالله مادنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً سيفه واقفاً على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لايهوى إليه أحد إلا أهوى إليه فهذا أشجع الناس ثم قال على لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذه قريش يعنى بمكة قبل الهجرة فهذا يجره وهذا يتلتله ويقولون أنت الذى جعلت الآلهة إلهاً واحداً قال فوالله مادنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويتلتل هذا وهو يقول تقتلون رجلا يقول ربى الله ثم رفع على بن أبى طالب بردة كانت عليه فبكى حتى أخضلت لحيته ثم قال أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر فسكت القوم فقال ألا تجيبونى فوالله لساعة من أبى بكر خير من مؤمن آل فرعون ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه فهذا الذى ذكره مع ما انضم إليه من ثبات أبى بكر يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم وثباته لقتال أهل الردة هو الذى حمل أهل السنة أن يجزموا بأن أبا بكر أشجع الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأخرج فى الطوريات عن الإمام محمد الباقر ابن زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم قال . قال رجل لعلى بن

أبى طالب نسمعك تقول فى الخطبة اللهم أصلحنا بما أصلحت به الخلفاء الراشدين فمن هم فاغرورقت عيناه بالدموع ثم أهملها فقال هما حبيباى أبو بكر وعمر إماما الهدى وشيخا الإسلام ورجلا قريش والمقتدى بهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اقتدى بهما عصم ومن اتبع آثارهما هدى إلى الصراط المستقيم ومن تمسك بهما فهو من حزب الله وحزب الله هم المفلحون وأخرج البيهقى عن الشافعى قال إن الناس بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجدوا تحت أديم السماء خيراً من أبى بكر فولوه رقابهم وأخرج أبو ذر الهروى والدارقطنى من طرق أن بعضهم مر بنفر يسبون الشيخين فأخبر علياً وقال له لولا أنهم يرون أنك تضمر ما أعلنوا ما اجترؤا على ذلك فقال على أعوذ بالله رحمهما الله تعالى ثم نهض فأخذ بيد ذلك المخبر وأدخله المسجد وأمر باجتماع الناس فصعد المنبر ثم قبض على لحيته وهى بيضاء فجعلت دموعه تتحادر على لحيته وجعل ينظر البقاع حتى اجتمع النـــاس ثم خطب خطبة بليغة من جملتها مابال أقوام يذكرون بسوء أخوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى رواية وصاحبيه وسيدى قريش وأبوى المسلمين وأنا برىء مما يذكرون وعليه معاقب صحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجد والوفاء فى أمر الله يأمران وينهيان ويقضيان ويعاقبان لا يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كرأيهما رأيا ولا يحب كحبهما حباً لما يرى من عزمهما فى أمر الله فقبض وهو عنهما راض والمسلمون راضون فما تجاوزوا فى أمرهما وسيرتهما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره فى حياته وبعـــد موته فقبضا على ذلك رحمهما الله تعالى فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة لا يحبهما إلا مؤمن ولا يبغضهما ويخالفهما إلا شقى مارق وحبهما قربة وبغضهما مروق ثم ذكر أمر النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر أن يصلى بالناس وهو يرى مكان على ثم ذكر أنه بايع أبا بكر ثم ذكر استخلاف أبى بكر لعمر ثم قال ألا لا يبلغنى عن أحد أنه يباغضهما إلا جلدته حد المفترى وكان أول من حمل على التكلم فى الشيخين عبد الله بن سبأ وكان يهوديا فأسلم وكان إسلامه ظاهراً فقط وهو باق على يهوديته وإنما أراد بإسلامه التوصل إلى إيقاع الافتراق بين المسلمين وإدخال التشكيك

عليهم فيما بينهم لأن الطعن فى الصحابة طعن فى الشريعة لأنها إنما وصلت إلى الأمة من طريق الصحابة فإذا انتفت العدالة عنهم لم يوثق بصحة شيء من القرآن ولا الشريعة ولما بلغ علياً أمر ابن سبأ أحضره وسأله عما نسب إليه فأنكر وسيره إلى المدائن وقال لاتساكنى فى بلدة أبداً وأخرج الدارقطنى من طرق أن علياً بلغه أن رجلا يعيب أبا بكر وعمر فأحضره وعرض له بعيبهما لعله يعترف ففطن فأنكر فقال على أما والذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق أن لوسمعت منك الذى بلغنى ونبئته عنك أو ثبت عليك لأفعلن بك كذا وكذا . ومما استدل به أهل السنة والجماعة على صحة خلافة أبى بكر واعتراف على بها ما أخرجه الدارقطنى وابن عساكروغيرهما أن علياً لما قام بالبصرة قام إليه رجلان فقالا له أخبرنا عن مسيرك هذا الذى سرت فيه تستولى على الأمة أعهد من رسول الله عهده إليك فحدثنا فأنت الموثوق به والمأمون على ماسمعت فقال أما أن يكون عندى عهد من النبى صلى الله عليه وسلم عهده إلى فى ذلك فلا والله ولئن كنت أول من صدق به فلا أكون آخر من كذب عليه ولو كان عندى منه عهد فى ذلك ماتركت أخا بن تيم بن مرة وعمر بن الخطاب يثبان على منبره ولقاتلتهما بيدى ولولم أجد إلا بردى هذه ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلا ولم يمت فجأة مكث فى مرضه أياما وليالى يأتيه المؤذن يعرفه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلى بالناس وهو يرى مكانى وإنى حاضر لست بغائب وفى رواية ومابى من مرض ولقد أرادت امرأة من نسائه تصرفه عن أبى بكر فأبى وغضب وقال انتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرنا فى أمرنا فاخترنا لدنيانا من رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا وكانت الصلاة معظم الإسلام وقوام الدين فبايعنا أبا بكر وكان لذلك أهلا لم يختلف منا اثنان وفى رواية فأقام بين أظهرنا الكلمة واحدة والأمر واحد لا يختلف عليه منا اثنان فأديت لأبى بكر حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه فى جنوده وكنت آخذ إذا أعطانى وأغزوا إذا أغزانى وأضرب بين يديه الحدود بسوطى فلما قبض ولاها عمر فأخذها بسنة صاحبه وما يعرف من أمره فبايعنا عمر لم يختلف عليه إثنان

سنا فأديت له حقه وعرفت له وغزوت معه فى جيوشه وكنت آخذ إذا أعطانى وأغزوا إذا أغزانى وأضرب بين يديه الحدود بسوطى فلما قبض تذكرت فى نفسى قرابتى وسابقتى وفضلى وأنا أظن أن لا يعدل بى ولكن خشى أن لا يعمل الخليفة بعده شيئا إلا لحقه فى قبره فأخرج منها نفسه وولده ولو كانت محاباة لآثر ولده بها وبرىء منها لرهط أنا أحدهم وظننت أن لا يعدلوا بى فأخذ عبد الرحمن بن عوف مواثيقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه الله أمرنا ثم بايع عثمان فنظرت فإذا طاعتى قد سبقت بيعتى وإذا ميثاقى قد أخذ لغيرى فبايعنا عثمان فأديت له حقه وعرفت له طاعته وغزوت معه فى جيوشه وكنت آخذ إذا أعطانى وأغزو إذا غزانى وأضرب بين يديه الحدود بسوطى فلما أصيب نظرت فإذا الخليفتان اللذان أخذاها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهما بالصلاة قد مضيا وهذا الذى أخذ له ميثاقى قد أصيب فبايعنى أهل الحرمين وأهل هذين المصرين أى الكوفة والبصرة فوثب عليها من ليس مثلى ولا قرابته كقرابتى ولا علمه كعلمى ولا سابقته كسابقتى وكنت أحق بها منه يعنى معاوية وصح من طرق كثيرة أن العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى بعد وفاة النبى أبسط يدك أبايعك فلا يختلف عليك اثنان فأبى على ولو علم وجود نص لقبل ذلك ولم يتأخر عنه ولا سيما ومعه العباس والزبير وبنو هاشم وغيرهم وأقبح من كل قبيحة قول الشيعة أنه علم النص وكتمه تقية حاشا لله من ذلك والحاصل أن الأخبار عن على بصحة خلافة أبى بكر وعمر وكونهما خير الأمة بعد النبى صلى الله عليه وسلم تثبت عنه من طرق كثيرة بروايات كثيرة من الثقات العدول منهم ابنه محمد بن الحنفية وغيره بحيث يجزم من تتبعها بصدور ذلك القول من على جزما قاطعا ليس فيه شك ولا ارتياب قال الحافظ الذهبى تواتر ذلك عن على ورواه عنه نيف وثمانون من أصحابه وصرح بذلك فى الخلو والملأ وخطب بذلك على منبر الكوفة زمن خلافته مع حضور الجمع العظيم، ولهذا اتفق الأئمة الأربعة وأئمة الحديث مثل البخارى ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم وأئمة السلف، وبقية أهل السنة والجماعة على اعتقاد صحة خلافته، قال سفيان الثورى من قال أن عليا كان أحق بالخلافة من أبى بكر .

فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار وما أراه يرتفع له مع هذا الاعتقاد عمل إلى أسماء وأخرج الدارقطني عن عمار ابن ياسر مثل ذلك ولم ينقل عن على أنه ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على خلافته بل إذا سئل عن ذلك أنكر وأما الرافضة فإنهم لما لم يمكنهم إنكار ذلك ولم يمكنهم أيضا إنكار اعترف على بصحة خلافة أبي بكر وعمر لظهوره وانتشاره عنه بحيث لا ينكره إلا جاهل بالآثار أو مباهت مكابر قالوا إنما قال ذلك تقية ومداراة وذلك منهم كذب وافتراء وأحسن ما يقال في هذا المحل ألا لعنة الله على الكاذبين وكيف يتوهم من له أدنى عقل أو فهم صدور ذلك من على تقية ومداراة مع ما أعطاه الله من كمال الإيمان وعظم الشجاعة والإقدام حتى أنه لا يهاب أحداً ولا يخشى في الله لومة لائم وكيف يتوهم عاقل أن يقول ذلك في الخلاء وعلى رؤس الملا وفي زمن خلافته وعلى منبر الكوفة وهو في ذلك الوقت أقوى ما كان أمراً وأنفذ حكما بعد مدة طويلة من وفاة أبي بكر وعمر فما أحق أن يقال فيما افتروه سبحانك هذا بهتان عظيم ومن قبيح افترائهم زعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بالخلافة لعلى وأنه كتم ذلك وأن الصحابة خالفوا أمر النبي وأن عليا إنما سكت على النزاع في أمر الخلافة لأن النبي أوصاه أن لا يوقع بعده فتنة ولا يسل سيفا وهذا منهم كذب وافتراء وحمق وجهالة مع عظيم الغباوة عما يترتب على ذلك إذ كيف يعقل هذا الذي زعموه وكيف يعقل أنه جعل إماما وواليا على الأمة بعده ويمنعه من سل السيف على من امتنع من قبول الحق ولو كان مازعموه صحيحا لما سل السيف في حرب صفين والجمل وقتال الخوارج وقاتل هو بنفسه وقاتل معه أهل بيته وأصحابه وجالد وبارز الألوف من مقاتليه وحده أعاذه الله من مخالفة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيضا كيف يعقل أنه يوصيه بعدم سل السيف على قوم زعم فيهم الرافضة أنهم كفار مرتدون تجاهروا بأقبح أنواع الكفر مع ما أوجب الله من جهاد الكفار قال بعض أئمة أهل البيت النبوي قد تأملت كلام هؤلاء الضالين فرأيتم قوما أعمى الهوى بصائرهم فما يبالون بما يترتب على مقالاتهم من المفاسد فأورثتهم غباوتهم العار والفضيحة ولم يبالوا بما يترتب على ذلك من نسبة على إلى الذل والعجز بل ونسبة جميع بني هاشم إلى ذلك العار اللاحق

بهم الذى لا أقبح منه وبنو هاشم أهل النجدة والشجاعة والأنفة بل يلزمهم أيضا نسبة جميع الصحابة إلى ذلك وكيف يتوهم مؤمن عاقل أن الصحابة يطلعون على النص على خلافة على فلا يعملون به ولا يرجعون إليه وهم أطوع الناس لله وأشد الناس وقوفا عند حدود الله تعالى وأبعد عن اتباع حظوظ النفس ، وقد قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم » كيف يكون ذلك وفيهم العشرة المبشرون بالجنة ومنهم أبو عبيدة أمين هذه الأمة بنص قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة وكيف يتوهم فيهم شىء من ذلك وهم بهذه الأوصاف الجليلة معاذ الله أن يتركوا العمل بما ثبت النبي صلى الله عليه وسلم لأن ذلك خيانة فى الدين فلا يجوز عليهم ذلك لا شرعا ولا عقلا ولا عادة لأنه يلزم من وقوع ذلك منهم تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فى شهادته لهم بالخير وثنائه عليهم وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم كفر ووقوع الكذب منه محال لثبوت صدقه بالمعجزات فما أدى إليه محال أيضاً كيف يكون هذا ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تجتمع أمتى على ضلالة » ولو جاز وقوع مثل ذلك منهم لارتفع الأمان والثقة فى كل ما نقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والأحكام ولم يحصل الجزم بشىء من أمور الدين من أن جميع الدين أصوله وفروعه إنما أخذه الأئمة عنهم ووصل إليهم بواسطتهم وفى نسبة الرافضة سيدنا علياً إلى الكتمان للنص غاية النقص لما يلزم عليه من نسبته إلى الجبن والظلم والخيانة والكتمان حاشاه الله من ذلك وبمقالة الرافضة هذه المقالة القبيحة توصل بعد الملحدة إلى تكفير على اعتماداً على قولهم لأنه كتم النص وكل ذلك زور وبهتان وكيف يسع من له أدنى إيمان أن ينسب علياً وبقية الصحابة إلى الكتمان مع ما استفاض وتواتر عنهم من غيرتهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم ، وشدة غضبهم عند انتهاك حرماته حتى قاتلوا دونه وقتلوا الآباء والأبناء فى طلب مرضاته ، فلا يتوهم مؤمن بالله تعالى لحوق أدنى نقص لهم أو سكوت على باطل فقد طهر الله هذه العصابة من كل رجس ودنس ونقص ، وقد شهد الله لهم بالصدق بقوله ﴿ أولئك هم

الصَّادِقُونَ﴾ وأخبر أنه رضي الله عنه بقوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ووعدهم بالحسنى بقوله ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ وشهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بكل خير، وتوفى وهو راض عنهم فلا يقدم على شيء مما افتراه الرافضة وأمثالهم إلا عبد أضله الله وخذله فباء بعظيم الخسار والبوار وأحله الله نار جهنم وبئس القرار فنسأل الله السلامة مما وقع هؤلاء الأشرار فما أقبح قولهم أن الصحابة علموا النص على خلافة على فلم ينقادوا له عناداً ومكابرة بالباطل وأقبح من ذلك قولهم أن علياً ترك ذلك تقية كل ذلك كذب وزور وتوصلوا به إلى تكفير الصحابة رضي الله عنه، وقد أخرج البيهقي عن الإمام أبي حنيفة أنه قال أصل عقيدة الشيعة تضليل الصحابة وإنما نبه على الشيعة لأنهم أقل فحشاً في عقائدهم من الرافضة، وذلك لأن الرافضة يقولون بتكفير الصحابة لأنهم على زعمهم عاندوا بترك العمل بالنص على خلافة على بل زاد أبو كامل، وكان من رؤوس الرافضة فكفر علياً زاعما أنه أعان الكفار على كفرهم، وعلى كتمان الأمر بإمامته بل تواتر عن على الاعتراف بصحة خلافة أبي بكر وعمر وأنهما أفضل الأمة وقبل من عمر إدخاله إياه الشورى بل تواتر عنه كما تقدم ذلك عنه وإنما اتخذ الملحدون كلام الرافضة والشيعة وأمثالهم ذريعة للطعن في الدين والقرآن، لأن ذلك إنما وصل إلينا من طريق الصحابة ومن جملة ما قاله أولئك الملحدون كيف يقول الله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقد ارتدوا بعد وفاة نبيهم إلا نحو ستة أنفس منهم في زعمهم، وجعل سبب الارتداد وامتناعهم من قبول النص بتقديم على، فانظر إلى كلام هذا الملحد تجده مأخوذاً مما اختلقه الرافضة وأمثالهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون بل هم أشد ضرراً على الدين من اليهود والنصارى، وسائر فرق الضلالة وقد جاء التصريح بذلك على على رضى الله عنه فإنه صح عنه أنه قال: «تفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعون فرقة شرها من ينتحل حبنا ويفارق أمرنا» ووجهه ما اشتمل عليه كلامهم من افتراء الكذب، وارتكاب قبائح البدع والعناد، حتى تسلطت الملاحدة بسبب ذلك على الطعن في الدين وأئمة المسلمين، بل قال القاضي أبو بكر الباقلاني فيما ذهبت الرافضة مما ذكروه

أبطال للاسلام رأساً لأنه إذا أمكن اجتماع الصحابة على الإنكار للنصوص أمكن فيهم نقل الكذب والتواطؤ عليه لغرض فيمكن أن سائر مانقلوه من الأحاديث كذب وزور وحاشاهم من ذلك ، وكذلك ما ذكره سائر الأمم عن جميع الرسل يجوز الكذب فيه والزور والبهتان على زعمهم لأنهم إذا دعوا ذلك فى هذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس فادعاؤهم إياه فى باقى الأمم أحرى وأولى فتأمل هذه المفاسد التى ترتبت على ما أسسه هؤلاء الملحدة قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وقد أخرج البيهقى عن الشافعى أنه قال مامن أهل الأهوال أشد بالزور من الرافضة ، وكان إذا ذكرهم عابهم أشد العيب وأخرج الدارقطنى عن عمار بن ياسر قال من قال أن علياً كان أحق بالولاية من أبى بكر فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار وقال الإمام مالك قوله تعالى فى حق الصحابة ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ أن الرافضة كفار لأن الصحابة يغيظونهم ، ومن أغاظه الصحابة فهو كافر وهو مأخذ حسن يشهد له ظاهر هذه الآية ومن ثم وافقه الشافعى فى أحد قوليه بكفرهم ووافقه أيضاً جماعة من الأئمة قال ابن الأثير فى تاريخه المسمى بالكامل فى حوادث سنة ست وتسعين ومائتين عند ذكره ابتداء دولة العبيديين مانصه لما بعث الله سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عظم ذلك على اليهود والنصارى والروم والفرس وقريش وسائر العرب لأنه سفه أحلامهم وعاب أديانهم وآلهتهم وفرق جمعهم فاجتمعوا يداً واحدة فكفاه الله كيدهم ونصره عليهم فأسلم منهم من هداه الله تعالى فلما قبض صلى الله عليه وسلم نجم النفاق وارتدت العرب وظنوا أن الصحابة يضعفون بعده فجاهد أبو بكر رضى الله عنه فى سبيل الله فقتل مسيلمة ورد أهل الردة وأذل الكفر ووطأ جزيرة العرب وغزا فارس والروم فلما حضرته الوفاة ظنوا أن بوفاته ينتقص الإسلام فاستخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأذل فارس والروم وغلب على ممالكهما فدس عليه المنافقون أبا لؤلؤة فقتله ظنا منهم أن بقتله ينطفىء نور الإسلام فولى بعده عثمان رضى الله عنه فزاد فى الفتوح واتسعت ممالك الإسلام فلما قتل ولى بعده أمير المؤمنين على فقام بالأمر أحسن قيام فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة أخذوا فى موضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك

ضعفة العقول فى دينهم بأمور قد ضبطها المحدثون وأفسد الصحيح بالتأويل والطعن عليه. وكانوا يظهرون التشيع لآل النبي ليستروا أمرهم ويستميلوا العامة وتفرق أصحابهم فى البلاد. وأظهروا الزهد والعبادة يغرون الناس بذلك وهم على خلافه وأكثروا الطعن فى الصحابة. لأنهم علموا أن الطعن فيهم طعن فى الشريعة فبطريقهم وصلت إلى من بعدهم وأنفقوا مالا عظيما على من تبعهم لتنتشر مذاهبهم انتهى ، فعلم من ذلك كله أن أساس مذاهبهم الطعن فى الصحابة ليتوصلوا بذلك إلى إبطال الشريعة قاتلهم الله أنى يؤفكون (ولنرجع) إلى إتمام الكلام على مايتعلق بخلافة أبى بكر رضى الله عنه وذكره شيء آخر من محاسنه فمن ذلك خطبه التى كان يخطب بها وهى كثيرة منها خطب مرة فقال بعد حمد الله بما هو أهله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم أن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك فرفع الناس رؤوسهم فقال مالكم أيها الناس أنكم لطاعون عجلون أن من الملوك من إذا ملك زهده لله فيما بيده ورغبه فيما بيد غيره وانتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الإشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنه لذة البقاء لا يستعمل العبرة ولا يسكن إلى الثقة فهو كالدرهم القيسى والسراب الخادع جذل الظاهر حزين الباطن فإذا أوجبت نفسه ونضب عمره وضحى ظله حاسبه الله فأشد حسابه وأقل عفوه الأوان الفقراء هم المرحومون إلا أن من آمن بالله حكم بكتابه وسنة نبيه وإنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة وسترون بعدى ملكا عضوضا وملكا عنودا وأمة شعاعا ودما مباحا فإن كانت للباطل نزوة ولأهل الحق جولة يعفو لها أثر الخير ويموت لها فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة وليكن الأبرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر ، أى بلاد جوسه إن الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها وقال رضى الله عنه فى خطبه إن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم للناس كافة رحمة لهم وحجة عليهم والناس يومئذ على شر حال فى ظلمات الجاهلية دينهم بدعة ودعوتهم فرية فأعز الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فأصبحتم بنعمته إخوانا أوصيكم بتقوى الله العظيم فى كل أمر وعلى كل حال. ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير من يكذب يفجر.

ومن يفخر يهلك وإياكم والفخر وما فخر من خلق من التراب وإلى التراب يعود هو اليوم حي وغداً ميت فاعملوا وعدوا أنفسكم فى الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه إلى الله تعالى وقدموا لأنفسكم تجدوه محضراً فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها إلا ما غفر الله إنه غفور رحيم بأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله إن وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما اللهم صل على محمد عبدك ورسولك أفضل ماصليت على أحد من خلقك وزكنا بالصلاة عليه والحقنا به واحشرنا فى زمرته وأوردنا حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوك ، وقال فى خطبة أخرى بعد أن حمد الله وأثنى عليه أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله وإن تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الألحاف بالمسألة فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ثم اعلموا عباد الله إن الله قد ارتهن بحقه أنفسكم وأخذ على ذلك مواثيقكم وعوضكم بالقليل الفانى الكثير الباقى وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره فثقوا بقوله وانتصحوا كتابه وتبصروا فيه ليوم الظلمة فإنه خلقكم لعبادته ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون ثم اعلموا عباد الله إنكم تغدون وتروحون فى أجل قد غيب عنكم علمه فإن استطعتم إن تنقضى الآجال وأنتم فى عمل الله ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله فسابقوا فى مهل أعمالكم قبل أن تنقضى آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم فالوحا الوحا النجا النجا فإن وراءكم طالبا حثيثاً أمره سريعا سيره وكان آخر دعاء أبى بكر الصديق فى خطبته اللهم اجعل خير زمانى آخره وخير عملى خواتمه وخير أيامى يوم لقائك وخطب مرة خطبة فقال أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتؤولونها على غير تأويلها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما من قوم عملوا بالمعاصى وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده»

ومن كلامه أنه قال لخالد بن الوليد رضى الله عنه فر من الشرف يتبعك الشرف واحرص على الموت توهب لك الحياة ولما وفد عليه أهل اليمامة بعد قتل مسيلمة الكذاب قال لهم أبو بكر ما كان يقول صاحبكم يعنى مما يزعم أنه وحى قالوا أعفنا ياخليفة رسول الله قال لابد أن تقولوا قالوا كان يقول كم ياضفدع تنقنقين لا الشرب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قريش قوم لا يعدلون فقال لهم أبو بكر ويحكم ماخرج هذا من آل ولا بر فأين ذهب بكم ، الآل الله تعالى والبر الرجل الصالح ومن دعاء الصديق اللهم إنى أسألك الذل عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف ولما نزل قوله تعالى ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ قال أبو بكر يارسول الله كيف الفرح بعد هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ألست يصيبك الأذى ألست تحزن فهذا مما تجزون به يعنى أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك وكان أبو بكر إذا مدح يقول اللهم أنت أعلم بى من نفسى وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفر لى مالا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون وروى الصديق عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية فما أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

ومن كلامه من استطاع أن يبكى فليبك ومن لم يستطع فليتباك ورأى رضى الله عنه مرة طائرا فقال ليتنى مثلك ياطائر ولم أكن بشراً قال الإمام الغزالى فى الأحياء إن أبا بكر رضى الله عنه حسب جميع ما كان أخذه من بيت المال فبلغ ستة آلاف درهم فغرمها لبيت المال وشرب أبو بكر مرة لبنا من كسب عبده ثم سأل عبده فقال تكهنت لقوم فأعطونيه فأدخل أصبعه فى فيه وجعل يقىء حتى ظنوا أن نفسه ستخرج ثم قال اللهم إنى أعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء ولما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك قال أو ماعلمتم أن الصديق لايدخل جوفه إلا طيبا ، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال فيه يعنى أبا بكر نزل ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن عبداً خير بين الدنيا وما عند الله فاختار ماعند الله بكى » أبو بكر وفهم أن العبد هو رسول الله

صلى الله عليه وسلم وإن ذلك إشارة إلى قرب أجله ولم يفهم ذلك المعنى أحد من الصحابة الحاضرين غير أبي بكر فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر سدوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر إشارة إلى أنه الخليفة بعده فيفتح باب له على المسجد ليدخل منه ويصلى بالناس ثم قال صلى الله عليه وسلم إني لا أعلم أمراً عندي أفضل في الصحبة من أبي بكر ولما مرض أبو بكر مرض الوفاة دخل عليه سلمان الفارسي فقال يا أبا بكر أوصنا فقال ان الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك واعلم أن من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته .

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر أتاه ناس من الصحابة فقالوا ياخليفة رسول الله زودنا فقال : ومن قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق المبين قالوا وما الأفق قال قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار يغشاه كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في ذلك المكان اللهم انك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا للسعير فاجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقيا وسعيداً وغويا ورشيداً فلا تشقني بمعاصيك اللهم إنك علمت ماتكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت فاجعلني ممن تستعمله بطاعتك اللهم إن أحداً لايشاء حتى تشاء فاجعل مشيئتك إن أشاء مايقربني إليك اللهم إنك قدرت حركات العباد فلا يتحرك شيء إلا بإذنك فاجعل حركاتي في تقواك اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا يعمل به فاجعلني من خير القسمين اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا فاجعلني من سكان جنتك اللهم إنك أردت بقوم الهدى وشرحت به صدورهم وأردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم فاشرح للايمان وزينه في قلبي وكره إلى الكفر والفسوق

والعصيان واجعلنى من الراشدين اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأحينى بعد الموت حياة طيبة وقربنى إليك زلفى اللهم من أصبح وأمسى وثقته ورجاؤه غيرك فأنت ثقتى ورجائى ولاحول ولاقوة إلا بالله قال أبو بكر هذا كله فى كتاب الله عزوجل وروى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة فعلية لعنه الله لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم ومن أعطى حمى الله فقد انتهك من حمى الله ومن أخذ شيئا بغير حقه فعليه لعنة الله » وروى أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: السلطان العادل المتواضع ظل الله ورمحه فى الأرض ويرفع له كل يوم وليلة عمل ستين صديقاً وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ماترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب وروى أيضاً أن النبى صلى الله علية وسلم قال النظر إلى على عبادة وسئل أبو بكر يوماً عن آية فى كتاب الله تعالى فقال أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى وإذا قلت فى كتاب الله مالاأعلم وقال فى قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ هى النظر إلى وجه الله عز وجل وكان رضى الله عنه إذا عزى رجلا قال ليس مع العزاء مصيبة وليس مع الجزع فائدة الموت أهون مما قبله وأشد مما بعده واذكروا فقد رسول الله تصغر مصيبتكم ويعظم الله أجركم وكان إذا صلى على الميت قال اللهم عبدك أسلمه الأهل والمال والعشيرة والذنب عظيم وأنت غفور رحيم وغضب وماعلى رجل فاشتد غضبه فقال له أبو برزة الأسلمى ياخليفة رسول الله اضرب عنقه فقال له ويلك ماهى لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين وروى أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اشدد الإسلام بعمر » وروى أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لو لم أبعث فيكم لبعث عمر » وسيرة أبى بكر طويلة وفى هذا القدر كفاية والقصد من ذلك كله بيان أن ملاك الأمر كله العدل فى بيت المال وأن سيرة الخليفة على المسلمين بسيرة الخلفاء الراشدين وقد تقدم فى كلام أبى بكر أنه قال لن يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها فلا بد لصلاح هذه الأمة من خليفة يسلك

الخلفاء الراشدين ولا يكون ذلك إلا بالزهد فى الدنيا وروى الحافظ ابن القيم عن زيد بن أرقم قال إن أبا بكر الصديق استسقى فأتى بماء فيه عسل فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله ثم سكت فسكتوا ثم عاد فبكى حتى ظنوا أن لا يقدر أحد على مسألته ثم مسح وجهه فأفاق فقالوا ما هاجك على هذا البكاء قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يدفع عنه شيئا يقول إليك عنى إليك عنى ولم أر معه أحداً فقلت يارسول الله إنك تدفع عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً قال هذه الدنيا تمثلت لى بما فيها فقلت لها إليك عنى فتنحت وقالت أما والله لئن انفلت منى لا ينفلت منى من بعدك فخشيت أن تكون قد لحقتنى فذلك الذى أبكانى وقال عبد الرحمن بن عوف دخلت على أبى بكر فى مرض موته فقال والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يسبح فى غمرة الدنيا قال الحسن البصرى لما ثقل أبو بكر رضى الله عنه فى مرض موته جمع الناس إليه فقال إنه قد نزل بى ما قد ترون وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى وحل عنكم عقدى ورد عليكم أمركم فأمروا عليكم من أحببتم فإنكم أن أمرتم فى حياة منى كان أجدر أن لا تختلفوا بعدى فقاموا فى ذلك وخلوا عنه فلم يستتم لهم رأى فرجعوا إليه وقالوا رأينا يا خليفة رسول الله رأيك فقال لعلكم تختلفون قالوا لا وقال على رضى الله عنه يا خليفة رسول الله امض لما رأيت فإنا سامعون مطيعون فقال فلعلكم تختلفون قالوا لا قال فعليكم عهد على الرضا قالوا نعم قال فأمهلونى و نصر الله لدينه ولعباده وفى رواية قال لهم قد حضر ما ترون ولا بد من قائم يأمركم يجمع فئتكم ويمنع ظالمكم من الظلم ويرد على الضعيف حقه فإن شئتم اخترتم لأنفسكم وإن شئتم جعلتم ذلك إلى فوالله لا آلوكم ونفسى خيراً وفى رواية لهم أترضون بخلافة خليفة أعينه لكم والله ما أعين لكم أحدا من أقربائى قالوا قد رضينا من اخترت لنا ثم أرسل لكثير منهم واختلى بكل واحد وحده فكانوا يشيرون عليه باستخلاف عمر بن الخطاب فقبل إشارتهم وأمر عثمان بكتابة الصحيفة التى فيها استخلاف عمر بن الخطاب ثم أمر عثمان أن يخرج للناس ويقرأها عليهم وقال لهم أبو بكر قبل قراءتها أترضون بمن استخلفه عليكم قالوا نعم وقال على لا نرضى إلا أن يكون عمر فقال هو عمر فقال على ياخليفة رسول الله

امض لرأيك فما نعلم به إلا أخيراً وقال عثمان وسعيد بن زيد وأسيد بن حضير وغيرهم من المهاجرين والأنصار أنت أخبرنا به وهو أعلمنا بالخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط وسريرته خير من علانيته وليس فينا مثله ولن يلي هذا الأمر الذى أقوى عليه منه ثم قرئت عليهم الصحيفة فرضوا بما فيها . وعن عاصم بن عدى قال جمع أبو بكر رضى الله عنه الناس وهو مريض وأمر من يحمله إلى المنبر وكانت آخر خطبة خطبها بعد أن عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس أحذروا الدنيا ولا تغتروا بها فإنها غرارة وآثروا الآخرة على الدنيا فأحبوها فبحب كل واحدة منهن تبغض الأخرى وأن هذا الأمر الذى هو ثبت بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ولا يحتمله إلا أفضلكم مقدرة وملككم لنفسه وأرشدكم فى حال الشدة وألينكم فى حال اللين وأعلمكم برأى ذوى الرأى لا يتشاغل بمالا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحى من التعلم ولا يتحير عند البديهة قوى على الأمور لا يجوز لشىء منها حدة بعدوان ولا يقصر برصد لما هو آت عتاده من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب ثم قد نزل فدخل داره وقال له قائل ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر وقد ترى غلظته فقال أبو بكر اجلسونى أبالله تخوفنى خاب من تزود من أمركم بظلم أقول اللهم استخلف عليهم أفضلهم وأقواهم وفى رواية قال أبالله تخوفنى أقول استعملت عليهم خيرهم وأشدهم حباً لله تعالى فستعلمون إذا فارقتموه وتنافستموه، وذكر صاحب الاكتفاء أن عمر ابن الخطاب التوى وامتنع من قبول عهد أبى بكر له بالخلافة وقال لا أطيق القيام بأمر الناس فقال أبو بكر لابنه عبد الرحمن ارفعنى وناولنى السيف فقال عمر أو تعفنى قال لا فعند ذلك قبل وفى رواية أن عمر راجع أبا بكر وقال يا خليفة رسول الله لا حاجة لى فيها فقال إن لم تكن محتاجاً إليها فهى محتاجة إليك وإنى ما حبوتك بالخلافة ولكن حبوتها بك ومع ذلك فإنى أحذرك نفسك فإن النفس لأمارة بالسوء وأحذرك الناس وأعلم أنهم خائفون منك ما خفت الله عز وجل وآثرت رضاه جل جلاله على هواك وكتب أبو عبيدة إلى أبى بكر بعد توجه الجنود إلى قتال الروم بلغنى أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى

الشام تدعى أنطاكية وأنه بعث إلى أهل مملكتهم فحشدهم إليه وأنهم نفروا إليه على الصعب والذلول وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك والسلام فكتب إليه أبو بكر أما بعد فقد بلغنى كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له ولأصحابه وفتح من الله عليك وعلى المسلمين وأما حشده أهل مملكته وجمعه لكم الجموع فإن ذلك ما كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم ما كان قوم أن يدعوا سلطانهم ويخرجوا من مملكتهم بغير قتال ولقد علمت والحمد لله أن قد غزاهم رجال بسيف من المسلمين يحبون الموت حب عدوهم الحياة يحتسبون من الله فى قتالهم الأجر العظيم ويحبون الجهاد فى سبيل الله أشد من حبهم أبكار نسائهم وعقائل أموالهم الرجل منهم عند أهيج خير من ألف رجل من المشركين فألقهم بجنودك ولا تتوحش لمن غاب عنك من المسلمين فالله تعالى ذكره معك فائت وذكره معك وأنا مع ذلك ممدك بالرجال بعد الرجال حتى تكتفى ولا تريد أن تزداد والسلام وقوله فأما منزله بأنطاكية فهزيمة لعله أخذ ذلك من أنطاكية لغة فى أعطى وكتب يزيد بن سفيان إلى أبى بكر أما بعد فإن هرقل ملك الروم لما بلغه مسيرنا إليه ألقى الله الرعب فى قلبه فتحول ونزل أنطاكية وخلف أمراء من جنده على جند الشام وأمرهم بقتالنا وقد تسيروا لنا واستعدوا وقد نبأنا مسالمة الشام أن هرقل استنفر أهل مملكته وأنهم جاءوا يجرون الشوك والشجر فمرنا بأمرك وعجل علينا فى ذلك برأيك نتبعه نسأل الله تعالى النصر والصبر والفتح وعاقبة المسلمين والسلام عليك فكتب له أبو بكر أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر فيه تحول ملك الروم إلى أنطاكية وألقى الله الرعب فى قلبه من جموع المسلمين فإن الله تبارك وتعالى وله الحمد قد نصرنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرعب وأيدنا بملائكته الكرام وإن ذلك الدين الذى نصرنا الله فيه بالرعب هو هذا الدين الذى تدعوا الناس إليه اليوم فوربك لا يجعل الله المسلمين كالمجرمين ولا من يشهد أن لا إله غيره كمن يعبد آلهة أخرى ويدين بعبادة آلهة شتى فإذا لقيتهم فانبذ إليهم بمن معك وقاتلهم فإن الله لن يخذلك وقد نبأنا الله تعالى أن الفئة القليلة منا تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله وأنا مع ماهنا ممدكم

بالرجال فى أثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجون إلى زيادة إنسان إن شاء الله تعالى
والسلام، وقال للرسول أخبرهم أن مدد المسلمين آتيهم مع هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، وسعيد
بن عامر الجمحى فلما قدم الرسول بالكتاب على يزيد قرأه على المسلمين فتباشروا وفرحوا
ثم أن أبا بكر دعا هاشم بن عتبة وبعثه فى ألف من المسلمين فسلم على أبى بكر وودعه ثم خرج
من عنده فلزم طريق أبى عبيدة حتى قدموا عليه فسر المسلمون بقدومه وتباشروا به وبلغ
سعيد بن عامر الجمحى أن أبا بكر يريد أن يبعثه فلما أبطا ذلك عليه أتاه فقال يا أبا بكر والله
لقد بلغنى أنك كنت أردت أن تبعثنى فى هذا الوجه ثم رأيتك قد سكت فما أدرى ما بدا لك
فى فإن كنت تريد أن تبعث غيرى فابعثنى معه وإن كنت لا تريد أن تبعث أحداً فإنى راغب
فى الجهاد فأذن لى رحمك الله كيما ألحق بالمسلمين فقد ذكر لى أن الروم قد جمعت لهم جمعاً
عظيما فقال أبو بكر رحمك الله أرحم الراحمين ياسعيد فأمر بلالا فنادى فى الناس أن انتدبوا
أيها المسلمون مع سعيد بن عامر إلى الشام فانتدب معه سبعمائة رجل فى أيام فلما أراد سعيد
الشخوص جاء بلال فقال يا خليفة رسول الله إن كنت إنما اعتقتنى لله تعالى لا لأملك
نفسى وأتصرف فيما ينفعنى فخل سبيلى حتى أجاهد فى سبيل ربى فإن الجهاد أحب إلى من
المقام قال أبو بكر فإن الله يشهد أنى لم أعتقك إلا له وإنى لا أريد منك جزاء ولا شكوراً
فهذه الأرض ذات الطول والعرض فاسلك أى فجاجها أحببت فقال أيها الصديق كأنك
عتبت على مقالتى ووجدت فى نفسك منها على قال لا والله ما وجدت فى نفسى من ذلك
وإنى لا أحب أن تدع هواك لهواى كيف وهواك إلى طاعة ربك قال فإن شئت أقمت
معك قال أما إذا كان هواك فى الجهاد فلم أكن آمرك بالمقام وإنما أردت للأذان ولا
وجدت لفراقك وحشة يا بلال ولا بد من التفرقة فرقة لا التقاء بعدها حين يوم البعث
فاعمل صالحاً يا بلال وليكن زادك من الدنيا ما يذكرك الله ما حييت ويحسن لك الثواب
إذا توفيت فقال له بلال جزاك الله من ولى نعمة ومن أخ بالإسلام خيراً فوالله ما أقرك
لنا بالصبر على الجود والمداومة على العمل ثم قال وما كنت لأؤذن لأحد بعد النبى

صلى الله عليه وسلم وخرج بلال مع سعيد بن عامر وأمر سعيد بن عامر مع من معه أن يلحقوا يزيد بن أبي سفيان فأقام بلال فى الشام بقصد الجهاد وتوفى بدمشق وقيل بحلب سنة عشرين أو ثمانية وعشرين وقدم مرة المدينة للزيارة فطلب منه أهل المدينة أن يؤذن فقال لا أفعل بعد أن أذنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فألحوا عليه فصعد فاجتمع أهل المدينة رجالهم ونساؤهم وصغارهم وكبارهم وقالوا هذا بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يؤذن فهلموا نسمع آذانه فلما قال الله أكبر الله أكبر تذكروا زمن النبى صلى الله عليه وسلم فصاحوا وبكوا جميعاً فلما قال أشهد أن لا إله إلا الله ضجوا جميعاً فلما قال أشهد أن محمداً رسول الله لم يبق فى المدينة ذو روح إلا بكى وصاح وخرجت العذارى والأبكار من خدورهن يبكين وصاروا كيوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فرغ من أذانه فقال أبشركم أنه لا تمس النار عيناً بكت على النبى صلى الله عليه وسلم وأذن مرة بالشام فكان أيضاً مثل ذلك وكان أبو بكر يحب على بن أبى طالب وكافة أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال النظر إلى على بن أبى طالب عبادة وروى مثله عبد الله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم وأخرج البخارى فى صحيحه عن أبى بكر الصديق أنه قال والذى نفسى بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلى من أن أصل قرابتى وفى رواية والله لأن أصلكم أحب إلى من أن أصل قرابتى لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج أبو الشيخ عن أبى بكر يا أيها الناس إن الفضل والشرف والمنزلة والولاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وذريته فلا تذهبن بكم الأباطيل وكان أبو بكر كثيراً مايعمل بما يشير به على عند بعث الجنود للجهاد ولا يأذن له فى الخروج مع المجاهدين حرصا على بقائه للانتفاع برأيه ومشورته وكذا لم يأذن فى الخروج لعمر وعثمان للاستعانة بكل منهم على تدبير أمور المسلمين ولا يفعل شيئاً إلا بعد استشارتهم مع غيرهم من وجوه أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، قال الجلال السيوطى كان أبو بكر يصوم الصيف ويفطر الشتاء وكأنه يختار الصيف للصوم لأنه أشق على النفس وتقدم أن من دعاء الصديق اللهم إنى أسألك الذل عند النصف من نفسى والزهد فيما جاوز الكفاف

قال فى الإحياء إذا كان الصديق فى كال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك فى أن فقد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حلالا وينفق طيباً ومع ذلك فيطول حسابه فى عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن نوقش الحساب عذب وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة وقال إن أردت اللحوق بى فإياك ومجالسة الأغنياء ولاتنزعى قميصا حتى ترقعيه وكان أبو بكر جعل ولاية بيت المال فى زمن خلافته لأمين هذه الأمة أبى عبيدة بن الجراح وقد تقدم أنه جاء له فى زمن خلافته مال من البحرين فقسمه بين الناس وقال من كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أو دين فليأتنا فجاء جابر بن عبد الله فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجاء مال من البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا يعنى ثلاث حفنات فقال أبو بكر خذ فأخذت مقداراً فوجدت عدد تلك الدراهم التى أخذتها ٥٠٠ فأعطانى ١٥٠٠ وفاء بقول النبى صلى الله عليه وسلم هكذ وهكذا وهكذا ولم يأخذ أبو بكر لنفسه من ذلك المال شيئاً وفى هذا القدر كفاية والله سبحانه وتعالى اعلم .

ذكر ماكان لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه

من الاقتصاد فى الدنيا وحسن السيرة

أخرج بن سعد عن آصف بن قيس قال كنا جلوساً بباب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فمرت جارية فقالوا سرية أمير المؤمنين فسمعهم عمر رضى الله عنه فقال ماهى لأمير المؤمنين بسرية ولاتحل له أنها من مال الله فقلنا ماذا يحل اه من مال الله تعالى فقال إنه لايحل لعمر من مال الله تعالى إلا حلتان حلة للشتاء وحلة للصيف وما حج به واعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأفقرهم ولا بأغناهم ثم أنا بعد رجل من المسلمين وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد وغيرهما من طرق عن عمر رضى الله عنه قال إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة ولى اليتيم من ماله أن أيسرت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف فإن أيسرت قضيت واتفق فى بعض السنين أنه لم يأخذ من بيت المال شيئاً حتى أصابته خصاصة وحاجة فاستشار الصحابة وقال مايصلح لى أن آخذه فقال على غداء وعشاء فأخذ بذلك عمر وذكر الجلال السيوطى فى تاريخ الخلفاء

أن ذلك كان من عمر فى ابتداء ولايته فذكر أنه فى أول ولايته لم يأخذ من بيت المال شيئا حتى أصابته خصاصة فقال ما يصلح لى أن آخذه فقال على غداء وعشاء فأخذ بذلك عمر وقال ابن سعد قال محمد بن إبراهيم كان عمر ينفق كل يوم درهمين له ولعياله واحتاج مرة عسلا للتداوى به وكان فى بيت المال عكة من عسل فقال إن أذنتم لى وإلا فذلك على حرام فأذنوا له فأخذ من العكة مقدار الحاجة وكان رضى الله عنه يأكل خبز الشعير ويأتدم بالزيت ويلبس المرقوع ويخدم نفسه وكان يقول ما نعبأ بلذات العيش ولكنا نبقى طيباتنا لآخرتنا ولما كلمته ابنته حفصة وابنه عبد الله وغيرهما قالوا له لو أكلت طعاماً طيباً لكان أقوى لك على الحق. قال أكلكم على هذا الرأى قالوا نعم قال قد علمت نصحكم ولكنى تركت صاحبى على جادة فإن تركت جادتهما لم أدركهما فى المنزل ويعنى بصاحبيه النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر واجتمع مرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد زهاء خمسين رجلا فقالوا أما ترون إلى زهد هذا الرجل وإلى حليته وقد فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر وطرفى المشرق والمغرب والعجم يأتونه فيرون عليه هذه الجبة وقد رقعها باثنتى عشر رقعة فلو سألتموه معاشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يغير هذه الجبة بثوب لين فيهاب منظره ، ويغدى عليه بجفنة من الطعام يراح عليه بجفنة يأكل منها من حضره من المهاجرين والأنصار فقال القوم جميعهم ليس هذا القول إلا لعلى بن أبى طالب فإن صهره لكونه زوجه بنته أم كلثوم فقال على لست بفاعل ذلك ولكن عليكم بأزواج النبى صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين فإنهن يتجرأن عليه قال الأحنف بن قيس فسألوا عائشة وحفصة وكانتا مجتمعين فقالت عائشة أسألك ذلك وقالت حفصة ما أراه يفعل وسيتبين لك ذلك فدخلتا عليه فقربهما وأدناهما فقالت عائشة أتأذن لى أن أكلمك فقال تكلمى يا أم المؤمنين فقالت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مضى إلى جنة ربه ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده وكذلك مضى أبو بكر على أثره وقد فتح الله عليك كنوز كسرى وقيصر وديارهما وحمل إليك أموالهما وذل لك الطرفان المشرق والمغرب ورجوا من الله المزيد ورسل العجم يأتونك ووفود العرب تفد إليك وعليك هذه الجبة قد رقعتها

اثنتى عشر رقعة فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك ويغدى عليك بجفنة من طعام ويراح عليك بأخرى تأكل منها أنت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار فبكى عمر عند ذلك بكاء شديداً ثم قال سألتك الله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شبع من خبز بر عشرة أيام أو خمسة أيام أو ثلاثة أيام وجمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله عز وجل. قالت لا أنشدك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرب إليه طعام على مائدة فى ارتفاع شبر من الأرض إلا كان يأمر بالطعام فيوضع على الأرض قالت اللهم نعم ثم قال أنتما زوجتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمهات المؤمنين لكما على المؤمنين حق وعلى خاصة وقد أتيتمانى ترغبانى فى الدنيا وإنى لأعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة من الصوف وربما حك جلدته من خشونتها أتعلمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرقد على عباء على طاق واحد وكان مسح فى بيتك يا عائشة يكون بالنهار بساطاً وبالليل فراشاً ينام عليه وكان يرى أثر الحصير فى جنبه ألا يا حفصة أنت حدثتينى أنك ثنيت له المسح ليلة فوجد لينه فرقد عليه فلم يستيقظ إلا بأذان بلال فقال يا حفصة ماذا صنعت ثنيت المهاد حتى ذهب بى النوم إلى الصباح ، مالى وللدنيا وما للدنيا ولى ، شغلتمونى بلين الفراش ، يا حفصة أما تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مغفوراً له ، ولم يزل جائعا ساجداً راكعا باكيا متضرعا آناء الليل وأطراف النهار إلى أن قبضه الله تعالى إلى رحمته ورضوانه لا أكل عمر طيبا ولا لبس لينا فله أسوة بصاحبيه ولا جمع بين إدامين إلا الماء والزيت ولا أكل لحما إلا فى كل شهر فخرجنا من عنده فأخبرنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل كذلك حتى لحق عمر بالله عز وجل ، وكان يقول إن من ولى أمر المسلمين فهو عبداً للمسلمين يجب لهم عليه مايجب على العبد من النصح وأداء الأمانة ، ولما أصاب الناس القحط فى العام الذى كانوا يسمونه عام الرمادة ما أكل عمر فى ذلك العام سمنا ولا سمينا قال أنس رضى الله عنه قد قرقرت بطن عمر عام الرمادة من أكل الزيت فطمن بطنه بأصبعه وقال ليس عندنا غيره حتى يحيا الناس ومن ثم تغير لونه فى هذا العام حتى صار أسمر وقال مرة لمن كلمه طعامه ويحك آكل طيباتى فى الدنيا واستمتع بها ، وقال لابنه عاصم وهو يأكل لحما كفى

بالمرء سرفا أن يأكل كل ما اشتهى وكان رضى الله عنه يداوم على أكل التمر، ولا يداوم على أكل اللحم ويقول : إياكم واللحم فإنه ضراوة كضراوة الخمر ، أى إن له عادة تنزع النفس إليها كعادة الخمر ، وعن جعفر بن أبى العاص رضى الله عنه قال أكلت مع عمر ابن الخطاب الخبز والزيت والخبز واللبن ، والخبز والخل ، والخبز واللحم القديد وأعلى ذلك اللحم الغريض ، أى الطرى ، وكان رضى الله عنه يقول : لاتنخلوا الدقيق فإنه كله طعام ، وأتى مرة بخبز غليظ فجعل يأكل ويقول لنا : كلوا فجعلنا نعتذر فقال ما لكم لاتأكلون ؟ فقلنا لا كل أنت والله يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام هو ألين من طعامك وعن حفصة رضى الله عنها قالت دخل على عمر مرة فقدمت له مرقة باردة وصببت عليها زيتاً فقال أدمان فى إناء واحد لا أذوقة أبداً حتى ألقى الله عز وجل وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال دخل علينا أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ونحن على مائدة فأوسعت له عن صدر المجلس فقال باسم الله ثم ضرب بيده فى لقمة فلقمها ثم ثنى بأخرى ثم قال إنى لأجد طعم دسم غير دسم اللحم فقال عبد الله يا أمير المؤمنين إنى خرجت إلى السوق أطلب السمن لأشتريه فوجدته غالياً فاشتريت بدرهم من اللحم المهزل وجعلت عليه بدرهم سمناً فقال عمر ما اجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر فقال عبد الله يا أمير المؤمنين إذن فلم يجتمعا عندى أبداً إلا فعلت ذلك وعن جابر قال رأى عمر بن الخطاب لحماً معلقاً فى يدى فقال ما هذا ياجابر قلت اشتهيت لحماً فاشتريت فقال عمر أو كلما اشتهيت اشتريت ياجابر أما تخاف الآية ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فى حَيَاتِكُم الدُّنيا واسْتَمتعتُم بِهَا﴾ وجىء له مرة بلحم فيه سمن فأبى أن يأكله ، وقال كل واحد منهما أدام وكان يقول والله ما يمنعنا أن نأمر بصغار المعز فيسمط لنا ونأمر بلباب الحنطة فيخبز لنا ونأمر بالزبيب فينبذ لنا فنأكل هذا ونشرب هذا إلا أن نستبقى طيباتنا لأنا سمعنا الله يقول ﴿ أذهبتم طَيِّباتِكُمْ فى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيا واستَمتعتُم بها﴾ وكان رضى الله عنه يلبس وهو خليفة جبة من صوف مرقوعاً بعضها بأدم وفى رواية من جراب ويطوف فى الأسواق وعلى عاتقه الدرة يؤدب الناس ويمر بالنوى فيلتقطه ويلقيه فى منازل الناس

ينتفعون به وتأكله شياههم وقال أنس رأيت بين كتفى عمر أربع رقاع فى قميصه وقال أبو عثمان النهدى رأيت على عمر إزاراً مرقوعا بأدم ، وقال على بن أبى طالب رأيت عمر يطوف بالكعبة وعليه أزار فيه إحدى وعشرون رقعة فيهـا أدم ، وقال الحسن خطب عمر الناس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة فيها أدم ولما حج لم يتظلل إلا تحت كساء أو نطع يلقيه على شجرة وكانت جملة نفقته فى حجته ستة عشر ديناراً ومع ذلك يقول أسرفنا فى هذا المال وقال نافع العبسى دخلت دار الصدقة مع عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان رضى الله عنهم فجلس عثمان فى الظل يكتب ومعه على قائم على رأسه يملى عليه ما يقول وعمر قائم فى الشمس فى يوم شديد الحر عليه بردان أسودان اتزر بأحدهما ، وواف الآخر على رأسه يتفقد إبل الصدقة يكتب ألوانها وأسنانها فقال على لعثمان قال الله فى كتابه ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ هذا هو القوى الأمين ، وخطب عمر رضى الله عنه الناس مرة فقال والذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق لو أن جملاهلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسألنى الله عنه وخطب مرة فقال أيها الناس إنى لم أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم وإنما أرسلتهم إليكم ليعلموكم أمر دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى فو الذى نفسى بيده لأقصنه منه وقال سلام بن مسكين كان عمر إذا احتاج شيئاً أتى عبد الله بن مسعود وكان هو صاحب بيت المال فاستقرضه فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال ليتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر فيعطيه أو يسأله الإمهال حتى يخرج عطاؤه فإذا خرج عطاؤه قضاه قال سالم بن عبد الله بن عمر كان عمر إذا أنهى الناس عن شىء جمع أهله فقال إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وأن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً فعله منكم إلا أضعفت عليه العقوبة وقال محمد بن سيرين قدم على عمر صهر له من مكة فطلب أن يعطيه من بيت المال فانتهره وقال أردت أن ألقى الله ملكا خائنا ثم أعطاه من صلب ماله عشرة آلاف درهم وكان يقول أحب الناس إلى من دفع إلى عيوبى وكان مرة يقسم مالا للمسلمين فدخلت ابنة له وأخذت درهما فنهض عمر

بقى طالبها حتى سقطت المحفة من أحد منكبية ودخلت الصبية إلى بيت أهلها تبكى ، وجعلت الدرهم فى فيها فأدخل عمر أصبعه فى فيها فأخرجه وطرحه على الخراج وقال أيها الناس ليس لعمر ولا لآل عمر إلا ما للمسلمين قريبهم وبعيدهم . كسح أى كنس أبو موسى الأشعرى بيت المال مرة بأمر عمر فوجد درهما فمر ابن لعمر فأعطاه إياه فرأى عمر ذلك فى يد الغلام فسأله عنه فقال أعطانيه أبو موسى فقال يا أبا موسى ما كان من أهل المدينة أهل بيت أهون عليك من آل عمر أردت أن لا يبقى أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا طلبنا بمظلمة ورد الدرهم إلى بيت المال مع أن المال كان حلالا ولكنه خاف أن لا يستحق هو ذلك القدر فكان يستبرىء لدينه ويقتصر على الأقل امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم دع ما يريبك إلى مالا يريبك ولقوله صلى الله عليه وسلم من تركها أى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه وعن طارق بن شهاب قال قدم عمر بن الخطاب الشام فلقيه الجنود وعليه إزار ورداء وخفان وعمامة وهو آخذ برأس راحلته يخوض الماء قد خلع خفيه وجعلهما تحت إبطه فقالوا له يا أمير المؤمنين الآن يلقاك الجنود وبطارقة الشام وأنت على هذه الحال فقال عمر إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نلتمس العز فى غيره وروى أنه قال يوما وهو على المنبر يا معشر المسلمين ماذا تقولون لو ملت برأسى إلى الدنيا كذا وميل رأسه فقام إليه رجل فاستل سيفه وقال نقول بالسيف كذا وأشار إلى قطعة فقال عمر رحمك الله والحمد لله الذى جعل فى رعيتى من إذا تعوجت قامنى وجاءته مرة برود من اليمن ففرقها على الناس بردا بردا ثم صعد المنبر يخطب وعليه بردان إزار ورداء فقال اسمعوا رحمكم الله فقام إليه رجل من القوم فقال لا نسمع والله لا نسمع فقال عمر لم يا عبد الله قال لأنك أعطيتنا بردا بردا وخرجت تخطب فى بردين فقال عمر أين عبد الله بن عمر فقال عبد الله هنا يا أمير المؤمنين فقال لمن أحد هذين البردين اللذين على قل إلى فقال للرجل عجلت على يا عبد الله إنى كنت غسلت ثوبى الخلق فاستعرت ثوب عبد الله فقال الرجل قل الآن نسمع ونطع ولما رجع من الشام ووصل إلى المدينة وانفرد عن الناس يوما ليعرف أخبارهم فمر بعجوز فى خبائها فقصدها فقالت يا هذا ما فعل عمر لما رجع من الشام

قال هو ذاقد أقبل من الشام ووصل إلى المدينة قالت لاجزاه الله عنى خيراً قال ويحك لم
قالت لأنه والله ما نالني من عطائه منذ ولى الخلافة إلى يومنا هذا دينار ولا درهم قال ويحك
وما يدرى عمر حالك وأنت فى هذا الموطن فقالت سبحان الله ما ظننت أن أحدا يلى
على الناس ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها فصار يبكى ويقول واعمراه واخصوماه
كل أحد أفقه منك يا عمر ثم لم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً
فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود فقال السلام عليك
يا أمير المؤمنين فوضعت المرأة يدها على رأسها وقالت واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين فى
وجهه فقال لها عمر لا بأس عليك يرحمك الله ثم طلب عمر قطعة فكتب فيها بسم الله
الرحمن الرحيم هذا مااشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى إلى يومنا هذا بخمسة وعشرين
ديناراً فما تدعى عند وقوفه فى المحشر بين يدى الله عز وجل فعمر منه برىء شهد على
ذلك على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود ورفع الكتاب إلى على رضى الله عنه وقال له
إذا تقدمتك أى مت قبلك فاجعلها فى كفنى وعن الأوزاعى أن عمر بن الخطاب عنه خرج
ليلة فى سواد الليل فرآه طلحة فتتبعه فذهب عمر فدخل بيتا فلما أصبح ذهب إلى ذلك
البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقال لها ما بال هذا الرجل يأتيك فقالت إنه يتعهدنى منذ
كذا وكذا بما يصلحنى ويخرج عنى الأذى فقال طلحة لنفسه ثكلتك أمك ياطلحة أعثرات
عمر تتتبع رضى الله عنهما وعن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب
رضى الله عنهم عن مولى لعثمان بن عفان رضى الله عنه قال بينما أنا مع عثمان فى مال له بالعالية
فى يوم صائف إذ رأى رجلا يسوق بكرين وعلى الأرض مثل الفراش من الحر فقال عثمان
رضى الله عنه ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى برد ثم تروح ثم دنا الرجل فقال أنظر فنظرت
فإذا عمر بن الخطاب فقلت له هذا أمير المؤمنين فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب فإذا
لفح السموم فأعاد رأسه حتى حاذاه . قال ما أخرجك هذه الساعة ، قال بكران من إبل
الصدقة تخلفا وقد مضى الراعى بإبل الصدقة أردت أن ألحقهما بالحمار وخشيت أن يضيعا
فيسألنى الله عنهما فقال عثمان هلم يا أمير المؤمنين إلى الماء والظل ونكفيك . قال عد إلى

ظالك وسار فقلت عندنا من يكفيك فقال عد إلى ظالك ومضى فقال عثمان من أحب أن
ينظر إلى القوى الأمين فلينظر إلى هذا أخرجه الشافعى رحمه الله تعالى فى مسنده ولما جهز
الجيوش لفتح العراق ، جعل الأمير عليهم سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ولما فتحت
القادسية كتب سعد بن أبى وقاص بالفتح و بعدة من قتل و بعدة من أصيب من المسلمين وأرسل
ذلك مع سعد بن عميلة الفزارى ، وكان عمر يخرج خارج المدينة كل يوم يسأل الركبان من
حين يصبح إلى انتصاف النهار يسأل عن أهل القادسية ثم يرجع إلى أهله ومنزله فلقى هذا
البشير المرسل فى يوم من تلك الأيام التى كان يخرج فيها ، فقال له من أين فأخبره والرجل
المرسل راكب على ناقته يسير بسرعة وعمر رضى الله عنه يخب على رجليه معه وهو يسأله
والبشير لا يعرفه فقال له عمر أخبرنى يا عبد الله قال هزم الله المشركين فأخبره الخبر فلم
يزل عمر سائراً تحت ناقة هذا البشير يسأله حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه
بإمرة المؤمنين فقال البشير هلا خبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين قال لا بأس عليك
يا أخى وعن الأحنف بن قيس قال أخرجنا عمر فى سرية إلى العراق ففتح الله علينا العراق
وبلاد فارس فأصبنا فيها من بياض فارس وخراسان وحملناه معنا واكتسبنا منها ، فلما
قدمنا على عمر أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا فاشتد ذلك علينا فشكونا إلى ابنه
عبد الله بن عمر فقال إن عمر زاهدا فى الدنيا وقد رأى عليكم لباساً لم يلبسه رسول
الله صلى الله عليه وسلم ولا الخليفة من بعده فأتينا منازلنا فنزعنا ما كان
علينا وأتيناه فى برد يعهدها منا فقام فسلم علينا رجلا رجلا واعتنقنا رجلا
رجلا حتى كأنه لم يرنا قبل فقدمنا إليه الغنائم فقسمها بيننا بالسوية فعرض فى
الغنائم شىء من أنواع الخبيص من أصفر وأحمر فذاقه عمر فوجده طيب الطعم والريح
فأقبل علينا بوجهه وقال يامعشر المهاجرين والأنصار ليقتلن منكم الابن أباه والأخ أخاه
على هذا الطعام ثم أمر به فحمل إلى أولاد من قتل من المسلمين بين يدى رسول الله صلى
الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار ثم إن عمر قام وانصرف ولم يأخذ لنفسه شيئاً من
تلك الغنائم وعن الأحنف أيضاً قال لما فتح العراق وحملت إلى عمر خزائن كسرى قال له

صاحب بيت المال ألا تدخله بيت المال قال لا والله لا تأوى تحت سقف حتى أقسمه فبسط الأنطاع فى المسجد وكشفوا عن الأموال فرأى شيئاً عظيما من الذهب والجوهر فقال إن الذى أدى هذا الأمين فقالوا أنت أمين الله وهم يؤدون إليك ما أديت إلى الله تعالى فقسمه ولم يأخذ منه شيئاً وفى صحيح البخارى قال النبى صلى الله عليه وسلم أن هذا المال خضرة حلوة وقال الله تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ الآية وقال عمر اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا اللهم إنى أسألك أن أنفقه فى حقه ، وفى رواية للدارقطنى لما فتح العراق وجاء إلى عمر خزائن كسرى وأمواله بكى وقرأ ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ الآية ثم قال اللهم أنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا فقنى شره وارزقنى أن أنفقه فى حقه وقسم تلك الأموال فما قام حتى ما بقى منها شىء وكان رضى الله عنه لما جاءت تلك الأموال يبكى ويقول إن الله زوى الدنيا عن النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه وفتحها لى فأخاف أن أكون مستدرجا وفى رواية رواها الشافعى لما قدم على عمر ما أصيب من مال العراق قال له صاحب بيت المال أدخله فى بيت المال فقال لا ورب الكعبة لا يأوى تحت سقف بيت حتى أقسمه فأمر به فوضع فى المسجد ووضعت عليه الأنطاع وحرسه رجال من المهاجرين والأنصار فلما أصبح غدا ومعه العباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن ابن عوف فلما كشفوا الانطاع عن الأموال رأى منظراً لم ير مثله من الذهب والياقوت والزبرجد واللؤلؤ يتلألأ فبكى عمر فقال له أحدهما إنه والله ما هو بيوم بكاء ولكنه يوم شكر وسرور فقال والله ما ذهبت حيث ذهبت ولكنه والله ما أكثر هذا فى قوم قط إلا وقع بأسهم بينهم ثم أقبل على القبلة ورفع يديه إلى السماء وقال اللهم إنى أعوذ بك أن أكون مستدرجا فإنى أسمعك تقول ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِن حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ثم قسم ذلك المال ولم يأخذ لنفسه منه شيئاً وكان من جملة ما غنمه المسلمون بالعراق بساط كسرى ويقال له بهار كسرى والقطيف وهو بساط واحد طوله ستون ذراعا وعرضه ستون ذراعا كانت الأكاسرة ملوك فارس تعده للشتاء إذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم فى رياض فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالأنهار أرضها مذهبة ، وخلاف ذلك فصوص كالدر ،

وفى جافانه كالأرض المزروعة والأرض المبقلة بالنبات فى الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهرة الذهب والفضة وثمرة الجواهر وأشباه ذلك وكانت العرب تسميه القطيف ، فلما قسم سعد بن أبى قاص الغنائم بين يدى الغانمين أراد أن يخرج خمس القطيف لبيت المال ، ويقسم أربعة أخماسه على الغانمين ، فلم تعتدل قسمته فقال للمسلمين هل تطيب أنفسكم على أربعة أخماسه فنبعث به إلى أمير المؤمنين يضعه حيث شاء فإنا لا نراه ينقسم وهو بيننا قليل ، وهو يقع من أهل المدينة موقع فقالوا نعم ، فبعثه إلى عمر ، فلما قدموا بالقطيف مع خمس الغنائم قال عمر بعد أن قسم الأموال : أشيروا على فى هذا القطيف فمن مشير بقبضه وإبقائه فى بيت المال وآخر مفوض إليه ، فقال له على بن أبى طالب لم يجعل الله علمك جهلا ويقينك شكا أنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت أنك إن تبقه عن هذا اليوم لم تعدم فى غد من يستحق به ما ليس له ، فقال : صدقتنى ونصحتنى ، فقطعه وقسمه بينهم ، قال فى السيرة الحلبية فأصاب على بن أبى طالب قطعة منه فباعها بعشرين ألف دينار ولم يأخذ عمر من ذلك لنفسه شيئاً ولما فرض للمهاجرين الأولين العطاء فرض لابنه عبد الله ثلاثة آلاف وكان من المهاجرين الأولين فقيل له إنك فرضت للمهاجرين الأولين أربعة آلاف فلم نقصته عن أربعة آلاف فقال إنما هاجر به أبوه فليس هو كمن هاجر بنفسه وقسم مرة مالا فأعطى الحسن والحسين رضى الله عنهما ألفا ألفا وأعطى ابنه عبد الله خمسمائة فقيل له يا أمير المؤمنين إن ابنك عبد الله كان يضرب بالسيف بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم والحسن والحسين طفلان يدرجان فى سكك المدينة تعطيهما ألفا ألفا وتعطيه خمسمائة فقال إذهب فائتنى بأب كأبيهما وأم كأمهما وجد كجدهما وجدة كجدتهما وعم كعمهما وخال كخالهما وخالة كخالتهما فإنك لا تأتى به أما أبوهما فعلى وأمهما ففاطمة الزهراء وأما جدهما فمحمد المصطفى صلى الله عليه وسلم وأما جدتهما فخديجة الكبرى وأما عمهما فجعفر بن أبى طالب وأما خالهما فإبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأما خالتهما فرقية وأم كلثوم بنتا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت صلته لأقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من غيرهم قال الزهرى كان

جعلبر إذا أتاه مال من العراق أو غيره لم يدع رجلا عذبا من بنى هاشم إلا زوجه ولا رجلا منهم ليس له خادم إلا أخدمه وعن محمد الباقر ابن زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب قال قدمت على عمر حلل من اليمن فقسمها بين المهاجرين والأنصار ولم يكن فيها على قدر الحسن والحسين فكتب إلى صاحب اليمن أن يعمل حلتين على قدرهما ففعل وبعث بهما إلى عمر فألبسهما إياهما فلبساهما فلما دون الدواوين وفرض العطاء بدأ ببنى هاشم وعن عبد الله بن عمر قال اشتريت إبلا وارتجعتها إلى الحما فلما سمنت قدمت بها قال فدخل عمر السوق فرأى إبلا سمانا فقال لمن هذه فقيل لعبد الله بن عمر فجعل يقول بخ بخ ياعبد الله ابن أمير المؤمنين قال فجئته أسعى فقلت مالك يا أمير المؤمنين قال ما هذه الإبل فقلت إبل أنضاء يعنى مهازيل إشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغى مايبتغى المسلمون فقال ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين اشبعوا إبل ابن أمير المؤمنين ياعبد الله اغد على رأس مالك وأتنى بباقيه اجعله فى بيت مال المسلمين ففعل ذلك وفى رواية أنه أخذ شطر الربح وجعله فى بيت المال فكأنه غرمه شطر الربح وجعله بالاجتهاد قيمة للكلا الذى للمسلمين وذكر بعضهم أن تلك الإبل كانت لعبد الله وأخيه عبيد الله شركة وأخذ مرة ابناه عبد الله وعبيد الله مالا من أبى موسى حين ولايته بالعراق ليوصلاه إلى عمر بالمدينة فاستأذنا أبا موسى أن يتجرا فى المال على سبيل القراض ويشتريا به شيئا يبيعانه فأذن لهما فأخذ عمر ربح مال القراض وأدخله بيت المال وقال لهما إنما أعطيتما لمكانكما منى أى إنما كان إعطاؤهما المال والأذن لهما فى التجارة فيه لأجل أنهما ابنا أمير المؤمنين ، وعن قتادة قال بعث عمر رسولا إلى ملك الروم فاستقرضت أم كلثوم بنت على وكانت امرأة عمر دينارا فاشترت به عطرا وجعلته فى قارورة وبعثت به مع الرسول إلى امرأة ملك الروم فلما أتاها بعثت لها شيئا من الجواهر وقالت للرسول إذهب به إلى امرأة عمر فلما أتاها أفرغته على البساط فدخل عمر فقال ما هذا فأخبرته فأخذ الجواهر وخرج بها إلى المسجد ونادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس أخبرهم الخبر وأراهم الجواهر وقال ماترون فى ذلك فقالوا إنا نراها تستحق ذلك لأنه هدية جاءتها من امرأة لا جزية ولا خراج

عليها ولا يتعلق بها حكم من أحكام الرجال فقال لكن الزوجة زوجة أمير المؤمنين والرسول رسول أمير المؤمنين والراحلة التى ركبها المؤمنين وماجاءذلك كلهلولا المؤمنون فأرى أن ذلك لبيت مال المسلمين ونعطيها رأس مالها فباع الجواهر ودفع لزوجته ديناراً وجعل ما بقى فى بيت المسلمين ويروى أن امرأة أبى عبيدة أرسلت إلى امرأة ملك الروم هدية مثل تلك الهدية فكافأتها بجوهر فبلغ ذلك عمر فأخذ فباعه وأعطاها ثمن هديتها ورد باقيه إلى بيت مال المسلمين وأتى عمر مرة بمسك فأمر أن يقسم بين المسلمين ثم سد أنفه فقيل له فى ذلك فقال وهل ينتفع منه إلا بريحه ودخل يوماً على زوجته فوجد معها ريح مسك فقال ما هذا قالت إنى بعت من مسك فى بيت المسلمين ووزنت بيدى فلما وزنت مسحت أصبعى فى متاعى هذا فقال ناولينى متاعك فأخذه فصب عليه الماء فلم يذهب فجعل يدلكه فى التراب ويصب عليه الماء حتى ذهب ريحه وعن سفيان بن عيينة أن سعد بن أبى وقاص بعد أن فتح العراق وهو على الكوفة كتب إلى عمر يستأذنه فى بناء منزل يسكنه فكتب إليه إن ما يسترك من الشمس ويكنك من الغيث وعن أبى عثمان المهدى قال كتب عمر إلينا بأذربيجان مع عتبة بن فرقد يقول ياعتبة أنه ليس من كدك ولا من كد أبيك فأشبع المسلمين فى رحالهم مما تشبع منه فى رحلك ، وإياك والتنعم وزى أهل الشرك ولبوس الحرير فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لبوس الحرير وأخرج ابن السماك عن أبى جعفر محمد الباقر قال بينما عمر يمشى فى طريق من طرق المدينة إذ لقيه على والحسن والحسين فسلم عليه وأخذ بيده وأكتنفهما الحسن والحسين عن يمينهما وشمالها فعرض لعمر رضى الله عنه من البكاء ما كان يعرض له فقال له على ما يبكيك يا أمير المؤمنين فقال عمر رضى عنه الله من أحق منى بالبكاء ياعلى ، وقد وليت أمر هذه الأمة أحكم فيها ولا أدرى أمسىء أنا أم محسن فقال له على والله إنك لتعدل فى كذا وتعدل فى كذا فما منعه ذلك من البكاء ثم تكلم الحسن بما شاء الله فذكر من ولايته وعدله فلم يمنعه ذلك فتكلم الحسين مثل كلام الحسن فانقطع البكاء ثم قال أتشهد أن لى بذلك يعنى العدل فقال على أشهدا وأنا معكما شهيد وعن الشعبى أن

على بن أبى طالب قال لأهل نجران إن عمر كان سيد الأمة ولن أغير شيئاصنعه وعنه أيضاً أن عليا لما دخل الكوفة قال ما كنت أحل عقدة شدها عمر وعن الحسن بن على قال لا أعلم أن عليا خالف عمر ولا غير شيئا مما صنعه وعن يزيد بن على بن الحسين أن عليا كان يشبه بعمر فى السيرة وعن أبى إسحاق عمن حدثه أنه كان جليسا لعلى فبكى بكاء شديداً فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين قال ذكرت أخى عمر وهذا البرد على كسائه خليلى وصفيى وصديقى وصاحبى عمر بن الخطاب ، وقال مرة أن عمر ناصح نبيه صلى الله عليه وسلم فنصحه الله ثم بكى . وكان على يقول إذا ذكر الصالحون فحيهلا بعمر ، وكان على يقول لا يبلغنى أن أحد أفضلنى على عمر إلا جلدته حد المفترى وخطب مرة على عنه خطبة طويلة وقال فيها وأن الله تعالى صير الأمر إلى عمر فى المسلمين فمنهم من رضى ومنهم من سخط فكنت ممن رضى فوالله مافارق الدنيا حتى رضى به من سخط فأعز الله بإسلامه الإسلام وجعله للدين قواماً وضرب الله الحق على لسانه حتى ظننا أن ملكا ينطق على لسانه وقذف الله فى قلوب المؤمنين الحب له وفى قلوب المنافقين الرهبة منه سيرته سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن لكم مثله ، وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لما توفى عمر وسجى رضى الله عنه وقف عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه وقال ماعلى الأرض رجل أحب إلى أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى زاد فى رواية لابن السماك ثم بكى على حتى اختلت لحيته بالدموع وفى رواية أخرى أن علياً قال رحمك الله يا ابن الخطاب إن كنت لآيات الله لعالما وإن كان الله فى صدرك لعظيما وإن كنت لتخشى الله ولا تخشى الناس فى الله جواداً بالحق بخيلا بالباطل خميصاً من الدنيا بطينا من الآخرة وعن أوس بن حكيم قال رأيت على بن أبى طالب حين موت عمر نكس رأسه ثم رفعها فقال واعمراه يانقى الثوب قليل العيب واعمراه ذهب بالسنة وأبقى الفتنة أصاب والله ابن الخطاب خيرها وانتحى شرها وروى أن ملك الموت لما دخل دار عمر ليقبض روحه سمع عمر وهو يقول هذا بيت أمير المؤمنين ليس فيه شىء كأنه القبر فأجابه عمر وقال ياملك الموت من تكون أنت خلفه هكذا يكون بيته وأخرج أبو يعلى عمار بن ياسر

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتانى جبريل آنفا فقلت ياجبريل حدثنى بفضائل عمر بن الخطاب فقال لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح فى قومه مانفدت فضائل عمر وأن عمر حسنة من حسنات أبى بكر له ربما أن العقول القاصرة تستبعد كثرة هذه الفضائل لعمر لكن من كان ذا بصيرة وأمكن فكره فيما خص الله به عمر من الفضائل فى نفسه وفيما أجراه الله على يديه وما حصل للاسلام وأهله بسببه من كونه أعز الله به الإسلام فى ابتدائه ومن كثرة الفتوحات التى فتحها الله على يده حتى كثر العلم واتسع الإسلام وكثر المسلمون يتضح له أن كل خير وقع لأهل الإسلام منذ خلافة عمر إلى يوم القيامة كله من فضائل عمر ومن حسناته ويكتب الله له مثل أجورهم وذلك كثير لا يمكن ضبطه ولا إحصاؤه ولو مكث العبد منذ لبث نوح فى قومه وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند عن أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنى لأرجو لأمتى فى حبهم لأبى بكر وعمر ما أرجو لهم فى قوله لا إله إلا الله وأخرج أبو ذر الهروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عمر معى وأنا مع عمر والحق بعدى مع عمر حيث كان وهذا مثل ما قاله صلى الله عليه وسلم فى حق على حيث قال وأدر الحق معه حيث دار فكل من عمر وعلى كان مع الحق ولهذا كان على مع الخلفاء الثلاثة قبله فى زمن خلافتهم ولم ينازع أحداً منهم لعلمه بأنهم كانوا مع الحق فكان هو معهم فلما جاءت نوبة خلافته ونوزع فى ذلك قاتل من نازعه فلا يصح أن ينسب إليه أن سكوته فى زمن خلافة الخلفاء الثلاثة كان تقية حماة الله من المحاباة فى دين الله تعالى والله سبحانه وتعالى أعلم ، قال المسعودى فى تاريخه المسمى مروج الذهب فى صفة عمر بن الخطاب ، وكان متواضعاً خشن الملبس شديد فى ذات الله واتبعه عماله فى سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه كل منهم يتشبه به ممن غاب أو حضر ، وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل بالعباء ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رزقها ، وكان أكثر ركابه الإبل ورحله مشدودة بالليف وكذلك عماله مع مافتح الله عليه من البلاد وأوسعهم من الأموال ، وكان من عماله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم الجمحى ، فلما قدم عمر الشام شكاه أهل حمص إليه وسألوه عزله

فقال عمر اللهم لا تضع فراستى فيه ماذا تشكون منه ، قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل وله يوم فى السفر لا يخرج إلينا فقال عمر على به ، فلما جمع بينهم و بينه قال ماذا تنقمون منه قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار فقال ما تقول يا سعيد قال يا أمير المؤمنين أنه ليس لأهلى خادم فأعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ، ثم أتوضأ ، وأخرج إليهم قال وماذا تنقمون منه قالوا لا يجيب بليل قال ماتقول يا سعيد قال قد كنت أكره أن أذكر هذا إنى قد جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم قال وماذا تنقمون منه قالوا له يوم فى الشهر لا يخرج إلينا ، قال نعم ليس لى خادم فاغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى ، فقال عمر الحمد لله الذى لم يضيع فراستى فيك ، ثم قال عمر ياأهل حمص ماتقولون ، فقالوا مانريد غيره فابقه لنا يا أمير المؤمنين ، فقال استوصوا به خيراً ثم بعث إليه عمر بألف دينار وقال استعن بها ، فقال فقالت امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك فقال لها ألا ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما كنا إليها يعنى يوم القيامة قالت بلى فصرها صرراً ثم دفعها إلى من يثق به وقال انطلق بهذه إلى فلان وبهذه إلى فلان يتيم آل فلان مسكين آل فلان حتى بقى منها شىء يسير فدفعه إلى امرأته فقال انفقى هذه وعاد إلى خدمته ، فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشترى لنا منه خادماً ، فقال سيأتيك أحوج ماتكونين إليه يعنى يوم القيامة ، وذكر بعضهم هذه القصة وزاد فيها فقال وأرسل عمر إلى سعيد بن عامر ألف دينار فجاء إلى أهله حزيناً كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك قال أرينى درعك الخلق فشقه وجعله صرراً وفرقه ثم قام يصلى ويبكى إلى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام حتى أن الرجل من الأغنياء يدخل فى غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج » وروى بعضهم هذه القصة فقال لما بعث عمر سعيد بن عامر والياً على حمص اشتدت فاقته حتى تحدث الناس بفقره ، فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه بأربعمائة دينار وكتب إليه يعزم عليه لينفقها على نفسه وأهله ، فلما قرأ الكتاب اهتم هما شديداً حتى تبين عليه ، فقالت امرأته نفسى فداك مالى أراك مهتما أبلغك موت أمير المؤمنين قال أعظم من ذلك

قالت أبلغك من ثغور المؤمنين شيء فقال أعظم من ذلك قالت وما هو قال ابتليت بالدنيا وقد كنت صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ابتل بها وصحبت أبا بكر فلم ابتل بها وابتليت بها فى صحبة عمر ألا فشر أيامى أيام عمر قالت وما ذاك بأبى أنت وأمى قال إنى أخافك قالت إياى تعنى قال نعم قالت فأنت آمن من هذا فقال فإن أمير المؤمنين أرسل إلى بأربعمائة دينار وعزم على أن أنفقها على وعليك وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً والله ما أحب أن لى بها حمر النعم وأنى أحبس عن الفوج الأول قالت فدونكها فاصنع بها ماشئت فقال هل من خرق فأعطته درعا لها خلقاً فرقه خرقا ، ثم صرفيه مابين أربعة إلى عشرة ثم طرحها فى مخلاة ، ثم خرج إلى باب الرستاق من حمص فجعل يعطى الناس صرة صرة حتى بقيت صرة فى المخلاة فدفعها والمخلاة إلى رجل ثم رجع فذهب عنه ماقام به واستراح وذكر أبو نعيم فى الحلية هذه القصة فقال مانصه قال خالد بن معدان استعمل علينا عمر ابن الخطاب سعد بن عامر بن حذيم الجمحى فلما قدم عمر بن الخطاب حمص قال يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم فشكوا إليه ، وكان يقال لأهل حمص الكوفة الصغرى لشكايتهم العمال قالوا نشكوا أربعا لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار قال أعظم بها قال وماذا قالوا لا يجيب أحداً بليل قال وعظيمة قال وماذا قالوا له يوم من الشهر لا يخرج فيه إلينا قال وعظيمة وماذا قالوا يغط الغطة بين الأنام حتى تأخذه موتة يعنون أنه يغشى عليه قال فجمع عمر بينهم وبينه ، وقال اللهم لا يفل فيه رأيي اليوم ما تشكون منه قالوا لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار ، قال سعيد والله إنى كنت لأكره ذكره ليس لأهلى خادم فأعجن عجينى فأجلس حتى يختمر ، ثم أخبز ثم أتوضأ خبزى ثم أخرج إليهم فقال ما تشكون منه أيضا قالوا لا يجيب أحدنا بالليل فقال إن كنت لأكره ذكره إنى جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله عز وجل ، قال وما تشكون منه أيضا قالوا إن له يوما من الشهر لا يخرج إلينا فيه فقال ليس لى خادم يغسل ثيابى ولا لى ثياب أبدلها فأغسل ثيابى وأجلس حتى تجف فألبسها ثم أخرج إليهم آخر النهار ، قال وما تشكون منه أيضا قالوا يغط الغطة بين الأنام فقال

شهدت مصرع خبيب الأنصارى حين قبضت عليه قريش بمكة ، وقد بضعت أى قطعت قريش لحمه ثم صلبوه على جزع ثم قال ألا تحب أن محمداً مكانك فقال والله ما أحب أنى فى أهلى وأن محمد يشاك بشوكة ثم نادى يامحمد فما ذكرت ذلك اليوم وتركى نصرته هو فى تلك الحالة وأنا مشرك لا أومن بالله العظيم إلا ظننت أن الله يغفر لى بذلك الذنب أبداً ، قال فتصيبنى تلك الغطة فقال عمر الحمد لله الذى لم يفل رأيى فيك فبعث إليه بألف دينار ، وقال استعن بها على فقرك فقالت امرأته الحمد لله الذى أغنانا عن خدمتك فقال لها فهل من خير من ذلك ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ماتكون إليها قالت نعم فدعا رجلا من أهله يثق به فصرها صرراً شديداً ثم قال انطلق بهذه إلى أرملة آل فلان وإلى يتيم آل فلان وإلى مسكين آل فلان وإلى مبتلى آل فلان فبقيت منه ذهبة فقال انفقى هذه ثم عاد إلى عمله فقالت ألا يشترى لنا خادماً قال سيأتيك أحوج ماتكونين إليه ، والظاهر أن القصة واحدة والاختلاف من تصرف الرواة الذين رووا القصة بالمعنى وروى أيضا أن عمر ابن الخطاب كتب إلى أهل حمص اكتبوا إلى فقراءكم فكتبوا له أسماء الفقراء وكتبوا له عمير بن سعيد ولعله ابنه كان أميراً بعده قال عمر لما قرأ اسمه قال من عمير بن سعيد قالوا أميرنا قال أو فقير هو قالوا ليس أهل بيت أفقر منه قال أين عطاؤه قالوا يخرجه كله لا يمسك منه شيئاً قال فوجه إليه بمائة دينار فأخرجها كلها فقالت امرأته لو كنت حبست لنا منها ديناراً واحداً فقال لو ذكرتنى فعلت ذكر هذه الحكاية أبو طالب المكى فى القوت ونسبها لعمير بن سعيد وكتب لسعيد ابن عامر عمر يطلب قدومه إلى المدينة فلم ير معه إلا عكازاً وقدحا فقال له عمر ليس معك إلا ماأرى . فقال سعيد بن عامر وماأكثر من هذه عكاز أحمل عليه زادى وقدح آكل فيه وأشرب به وعبارة الأحياء فى هذه القصة نسبها لابنه عمير فقال : ولما قدم عمير بن سعيد أمير حمص على عمر قال له مامعك من الدنيا فقال معى عصاى أتوكأ عليها وأقتل بها حية إن لقيتها ومعى جرابى أحمل فيه طعامى وقصعتى آكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ومعى مطهرتى أحمل فيها شرابى وطهورى للصلاة وما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معى فقال عمر صدقت رحمك

الله فهكذا كان الأمراء فى خلافة عمر بن الخطاب واتفق بعض عمال عمر عنده عشرة دراهم لاتخاذ بيت خلاء لقضاء حاجته وأخذها من بيت المال فعزله من إمارته ، وقال أما وجدت موضعاً تقضى فيه الحاجة حتى أخذت عشرة دراهم من بيت المال اتخذت بها بيت خلاء لقضاء حاجتك ، وكان رضى الله عنه إذا استعمل عاملا كتب أهله ليعلم بعد ذلك ما يكون عنده من المال ، وكان يأمر عمار بعد مضى مدة من إماراتهم يكتبون أموالهم فيأخذ شطر أموالهم و يدخله فى بيت المال احتياطاً لهم و براءة لذمتهم وكانوا يرضون بذلك و يرون المنة له عليهم ، وقال بعض العلماء أن عمر رأى أن كل ذلك لا يستحقه العامل ورأى شطر ذلك كافياً على حق عملهم وقدره بالشطر اجتهاداً ومن عماله على المدائن سلمان الفارسى دخل عليه رجل وهو يعجن فقال ما هذا ياأبا عبدالله فقال بعثنا الخادم فى شغل فكرهنا أن نجمع له عملين وكان يلبس الصوف ويركب الحمار بغير اكاف ويأكل خبز الشعير ، وكان ناسكا زاهداً فلما احتضر جعل يبكى ويقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون » وأرى هذه الاساودة حولى فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا إداوة ومطهرة وركوة . ومن عماله رضى الله عنه أبوعبيدة بن الجراح وكان أميراً على الشام وعلى جميع الأجناد وأمرائها كان يلبس الصوف الجافى ويأكل الخشن من الطعام فعير على ذلك ، وقيل له أنك بالشام وحولنا الأعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر فى منزله بالشام فلم يجد فيه غير سرج فرسه ورحل بعيره وسيفه ورمحه وركوة ومطهرة ، فقال له عمر أين متاعك يا أبا عبيدة لا أرى إلا لبداً أو شناً أو صفحة وأنت أمير الشام أعندك طعام فقام أبو عبيدة إلى جونة فأخرج منها كسرات فبكى عمر فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين يكفى من الدنيا ما بلغ المقيل فاحتقر عمر نفسه فى الزهد بالنسبة لأبى عبيدة فقال غرتنا بعدك الدنيا يا أبا عبيدة ويروى أن عمر صر أربعمائة دينار وقال للغلام إذهب بها إلى أبى عبيدة ثم تلكأ فى البيت ساعة فقال أبو عبيدة يا جارية اذهبى بهذه السبعة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى

فلان حتى أنفذها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره ووجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ففعل مثل أبي عبيدة إلى أن بقي ديناران فقالت امرأة معاذ ونحن والله مساكين فأعطنا فرمى بهما إليها فرجع الغلام فأخبر عمر بذلك فقال هما أخوة بعضهم من بعض ووقف أعرابي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال :

يا عمر الخير جزيت الجنة ... يوم تكون الأعطيات منه

والواقف المسئول بينهنه ... إما إلى نار وإما إلى جنة

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته وقال لغلامه يا غلام اعطه قميصي هذا لذلك اليوم أما والله لا أملك غيره وكان رضي الله عنه يقول في الخلافة من يأخذها بما فيهاوكان يقول رضي الله عنه ليتني لم أخلق ليت أمي لم تلدني ليتني لم أك شيئاً ليتني كنت نسياً منسياً وأخذ مرة تبنة من الأرض فقال ليتني كنت هذه وكان يدخل يده في دبرة البعير ويقول إني أخاف أن أسأل عنك وكان رضي الله عنه يدني يده من النار ثم يقول يا ابن الخطاب هل لك على هذا من صبر وكان رضي الله عنه كثير البكاء حتى كان بوجهه خطان أسودان من البكاء وكان رضي الله عنه يقول ليتني كنت كبشاً أهلي سمنوني مابدالهم ، ثم ذبحوني فأكلوني فأخرجوني عذرة ولم أكن بشراً وكان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه فكان يعاد أياماً وكان يقول من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع مايريد ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون وقرأ مرة ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ وانتهى إلى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ نخر مغشياً عليه ومر يوما بدار إنسان وهو يصلي ويقرأ سورة ﴿ والطُّور ﴾ فوقف عمر يستمع فلما بلغ قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِـعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِـعٍ ﴾ نزل عن حماره واستند إلى حائط ومكث زمانا ورجع إلى منزله فمرض شهراً يعوده الناس ولا يدرون مامرضه ولما طعن وأيقن بالموت كان يقول ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي والله إني وددت أن أخرج من الدنيا كفافاً لا أجر لي ولا وزر علي وقال أيضاً لو أن لي ماطلعت عليه الشمس وغربت لافتديت من هول المطلع وخرج عمر يوماً من المسجد ومعه الجارود والعبدي وبينما هما يمشيان إذا بامرأة على ظهر

الطريق فسلم عليها عمر فردت عليه السلام ثم قالت رويدك ياعمر حتى أكلمك كلمات قليلة قال لها قولى قالت ياعمر عهدى بك وأنت تسمى أميراً فى سوق عكاظ وتصارع الصبيان فلم تذهب الأيام حتى تسميت عمر ثم لم تذهب الأيام حتى تسميت أمير المؤمنين فاتق الله فى الرعية واعلم أن من خاف الموت خشى الفوت فبكى عمر فقال الجارود قد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته فقال عمر دعها أما تعرف هذه ياجارود هذه خولى بنت حكيم التى أنزل الله فيها ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ ﴾ فإذا سمع الله قولها فعمر أحرى أن يسمع كلامها قال ابن سعد : اتخذ عمر داراً للدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه لإعانة المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة بالطريق ما يصلح به شأن من انقطع وهدم المسجد النبوى وزاد فيه ووسعه وفرشه بالحصى وكذا وسع مسجد مكة وأخرج اليهود من الحجاز إلى الشام وأخرج أهل نجران إلى الكوفة وقال أسلم مولى عمر بن الخطاب خرجت مع عمر بن الخطاب مرة إلى موضع بظاهر المدينة فرأى ناراً فقال يا أسلم انظر إلى تلك النار هل هو ركب أضرم بهم الليل والبرد فقلت لا أعلم يا أمير المؤمنين فقال : انطلق بنا إليهم قال فخرجنا نهرول فإذا امرأة معها صغار ، ولها قدر منصوب على تلك النار وصبيانها يبكون فقال عمر : السلام عليكم يا أهل هذا الضوء وكره أن يقول يا أهل هذه النار فقالت المرأة وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ادن بخير أو فدع فقال لها ما بال هذه الصبية يتضاغون فقالت من الجوع قال فما هذا القدر قالت ماء جعلته فى القدر اسكتهم به حتى يناموا والله بيننا وبين عمر بن الخطاب قال : يرحمك الله وما يدرى عمر بكم قالت يتولى أمرنا ثم يتغافل عنا قال أسلم فأقبل على عمر فقال انطلق بنا فخرجنا حتى أتينا إلى دار الدقيق فأخذ حقا من دقيق وكبة من شحم فقال احمله على فقلت : أنا أحمله عنك فقال أنت تحمل وزرى لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه إليها وهو يهرول حتى أتينا إليها فألقى ذلك العدل عندها ثم أخرج قطعة من دهن وألقاها فى القدر ، وجعل يقول للمرأة : ذرى من الدقيق وأنا أحرك لك فكان يحرك تارة وينفخ فى النار تارة أخرى قال أسلم : فوالله لقد رأيت أمير المؤمنين وهو

ينفخ فى النار والدخان يخرج من خلال شعر ذقنه حتى طبخ القدر ثم أنزله بيده وقال للمرأة اعطنى شيئاً فأتته بقصعة أو قال بصحفة فأفرغ الطعام وقال لهم وأنا أسطح لكم ثم توارى عن المرأة وجعل يربض كما يربض الأسد وأنا أقول يا أمير المؤمنين ما خلقت لهذا فلم يلتفت إلى حتى رأيت الصغار يضحكون ثم قام عمر وهو يضحك ويحمد الله تعالى ثم جعل يده على يدى وقصدنا المدينة وقال لى يا أسلم إن الجوع عدو وقد رأيتهم وهم يبكون فأحببت أن أفارقهم وهم يضحكون ، وعن الأعمش قال أتى عمر بن الخطاب مرة باثنين وعشرين ألف درهم فلم يقم حتى فرقها بين المسلمين ولم يأخذ منها شيئاً ، وكان إذا أعجبه شىء من ماله تصدق به وكان كثيراً ما يتصدق بالسكر فقيل له فى ذلك فقال إنى أحبه وقد قال الله تعالى ﴿ لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وكان يأتى المجزرة ومعه الدرة ، فكل من رآه يشترى لحما يومين متتابعين يضربه بالدرة ويقول له هلا طويت بطنك لجارك وابن عمك وأبطأ يوما عن الخروج لصلاة الجمعة ثم خرج واعتذر للناس وقال إنما حبسنى عنكم ثوبى هذا كان يغسل وليس عندى غيره وكان إزاره مرفوعا بقطعة من جراب وعدوا مرة فى قميصه أربع عشرة رقعة إحداها من أدم أحمر وكان أبيض اللون تعلوه حمرة وإنما صار فى لونه سمرة عام الرمادة حين أكثر من أكل الزيت توسعة على الناس أيام الغلاء فترك لهم اللحم والسمن واللبن وكان قد حلف لا يأكل غير الزيت فى تلك الأيام حتى يوسع الله على المسلمين ومكث ذلك الغلاء تسعة أشهر وصارت الأرض سوداء مثل الرماد وكان يخرج فى تلك الأيام يطوف على البيوت ويقول من كان محتاجا فليأتنا وكان يقول اللهم لاتجعل هلاك أمة محمد صلى الله عليه وسلم على يدى ، ومن كلامه من خاف الله لا يفعل مايريد ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون ، ومن كلامه حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم من الحساب غداً والذى بعث محمداً بالحق لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت الله يسألنى عنه . ولما طعن دعا بلبن

فشربه فخرج من طعنته فقال الله أكبر فجعل جلساؤه يثنون عليه فقال وددت أن أخرج منها كفافا كما دخلت فيها لو أن لى اليوم ما طلعت عليه الشمس وغربت لافتديت به من هول المطلع وجاء رجل شاب فى ذلك اليوم فقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل قد كان لك صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم فى الإسلام ماقد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا على ولا لى ، فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض فقال ردوا على الغلام فقال يابن أخى ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك واتقى لربك ودخل عليه يوم طعن على بن أبى طالب يعود فقعد عند رأسه وجاء ابن عباس فأثنى عليه وقال كنت وكنت ووعده بخير من ربه فقال له عمر أنت لى بهذا يا ابن عباس فأومأ إليه على أن قل نعم فقال عمر لاتغرنى أنت وأصحابك وفى رواية أخرى يا ابن عباس المغرور من غررتموه لوأن طلاع الأرض ذهبا لافتديت به من هول المطلع والله وددت أن أخرج منها كفافا لاعلى ولا لى وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت لى وفى رواية عن ابن عباس لما طعن عمر دخلت عليه فقلت أبشر يا أمير المؤمنين فإن الله تعالى مصر بك الأمصار ودفع بك النفاق وأفشى بك من الرزق فقال عمر فى الأمارات تثنى على يا ابن عباس فقلت وغيرها فقال والذى نفسى بيده لوددت أنى خرجت منها كما دخلت لا أجر ولا وزر وقال حماد بن زيد قال ابن عباس لما طعن عمر كنت قريبا منه فمسست بعض جلده وقلت هنيئا لك جلد لا تمسه النار فنظر إلى نظرة جعلت أرثى له منها ثم قال وما علمك بذلك قلت يا أمير المؤمنين صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسنت صحبته ففارقك وهو عنك راض ثم صحبت المسلمين وأحسنت صحبتهم فإن فارقتهم فهم راضون فقال أما ما ذكرت من صحبتى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما كان ذلك منا من الله عز وجل من به على فلو أن لى ما فى الأرض من شىء لافتديت به من عذاب الله قبل أن أراه وقال صالح بن كيسان قال ابن عباس رضى الله عنهما دخلت على عمر رضى الله عنه فى أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس قال لئن لم

يكن على اليوم ليكونن بعد اليوم وأن للحياة لنصيباً من القلب وأن للموت الكربة وقد كنت أحب أن أنجى نفسى وأنجوا منكم وما كنت من أمركم إلا كالفريق الذى يرى الجنة والنار وهو مشغول ولقد تركت زهرتكم كما هى ما لبستها فأخلقتها وثمرتكم يانعة فى أكمامها ما أكلتها وماجنيت وماحنيت إلا لكم ولا تركت درهما ماعدا ثلاثين أو أربعين درهما ثم بكى وبكى الناس معه فقلت يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وأن المسلمين راضون عنك فقال المغرور والله من غررتموه أما والله لو أن لى ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هو المطلع قال عبدالله ولما حضرت عمر الوفاة غشى عليه فأخذت رأسه فوضعتها فى حجرى فقال ضع رأسى بالأرض لعل الله يرحمنى فمسح يديه بالتراب وقال ويل لعمرو يل لأمه إن لم يغفر الله له فقلت وهل لخذاى والأرض إلا سواء يا أبتاه فقال ضع رأسى بالأرض لا أم لك كما آمرك فوضعته فى الأرض فوضع عمر خده على الأرض وقال ويل لعمر ولأم عمر إن لم يغفر الله له ويعفو عنه ثم قال فاذا قضيت فأسرعوا بى إلى حفرتى وإنما هو خير تقدمونى إليه أو شر تضعوا به على رقابكم ثم بكى فقيل له مايبكيك قال خبر السماء لا أدرى إلى جنة ينطلق بى أو إلى نار قال عروة بن الزبير ولما طعن عمر قالوا له استخلفت قال إن تركتكم فقد ترككم من هو خير منى وإن استخلفت فقد استخلفت عليكم من هو خير منى ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول إنه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لاستخلفته فإن سألنى ربى قلت له سمعت نبيك صلى الله عليه وسلم يقول إن سالما ليحب الله حباً لو لم يخفه لم يعصه فقالوا له لو إنك عهدت إلى إبنك عبد الله بن عمر فإنه لذلك أهل فى دينه وفضله وقديم إسلامه فقال بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولوددت أنى نجوت من هذا الأمر كفافا لا على ولا لى ثم كلموه مرة أخرى فقالوا لو عهدت فقال كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أولى رجلا أمركم يحملكم على الحق وأشار إلى على بن أبى طالب ثم رأيت أن لا أتحملها حياً وميتاً ثم دعا أصحاب الشورى الذين

سيأتي ذكرهم فلم يكلم أحداً منهم غير علي وعثمان فقال ياعلي لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك قرابتك من النبي صلى الله عليه وسلم وصهرك ما أتاك الله من الفقه والعلم فإن وليت هذا الأمر فاتق الله فيه ثم دعا عثمان فقال يا عثمان لعل هؤلاء القوم أن يعرفوا لك صهرك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنك وشرفك فإن وليت فاتق الله فيه ولا تحملن بني معيط على قارنب الناس ، ثم جعل عمر الأمر شورى بين الستة الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض كما روى ذلك ابن عمر وغيره وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص على أن يكون الخليفة واحداً منهم أن يتفقوا عليه فإن اختلفوا فمن يتفق عليه أكثرهم فإن تساووا يحكمون عبد الله بن عمر بينهم فإن لم يرضوا بحكمه يقدم قول الحزب الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف وأمر أن يحضر معهم إبنه عبد الله بن عمر كالتعزية له وليس هو منهم في أمر الخلافة ، فلما خرجوا من عنده قال لو ولوها علياً سلك بهم الطريق فقال له إبنه عبد الله فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تستخلفه قال أكره أن أتحملها حياً وميتاً ، وروى أن عمر عرض على عبد الرحمن ابن عوف أن يستخلفه ويجعله ولي عهده فقال عبد الرحمن أتشير علي بذلك إذا استشرتك فقال لا والله فقال عبد الرحمن إذا لا أرضى أن أكون خليفة بعدك وبعد أن ذكر عمر الستة أصحاب الشورى قال ما أظن يلي إلا أحد هذين الرجلين وأشار إلى علي وعثمان فإن ولي عثمان فرجل فيه لين وإن ولي علي ففقيها وعابد وأحرى أن يحملهم على طريق الحق وإن ولوا سعداً فهو أهل وإلا فليستعن به الوالي فإني لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ونعم ذو الرأي عبد الرحمن بن عوف فاسمعوا منه وأطيعوا وفي رواية قال عمر ما أرى أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى الستة وقال يشهد عبد الله بن عمر معهم وليس له من الأمر شيء فإن أصاب الأمر سعد فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر فإني لم أعزله يعني عن إمارة الكوفة عن عجز ولا خيانة ثم قال أوصى الخليفة من بعدي بتقوى الله تعالى وأوصيه بالمهاجرين والأنصار وأوصيه بأهل الأمصار ، ثم لما توفي عمر وفرغوا من دفنه عند النبي صلى الله عليه

وسلم وأبى بكر فى حجرة عائشة تفرغ أصحاب الشورى للاجتماع فلما اجتمعوا قال عبد الرحمن ابن عوف اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم فقال الزبير جعلت أمرى إلى على وقال سعد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف وقال طلحة جعلت أمرى إلى عثمان وقيل أن طلحة كان غائباً وماحضر إلا بعد تمام الأمر ، ثم خلا هؤلاء الثلاثة وهم عبدالرحمن بن عوف وعلى وعثمان فقال عبد الرحمن أنا لا أريدها فأيكما يبرأ من هذا الأمر ويفوض الأمر إليه فيولين أفضل الرجلين الباقيين وليحرص على صلاح الأمة فسكت الشيخان على وعثمان فقال عبد الرحمن بن عوف اجعلا الأمر إلى والله على والإسلام أن اجتهد فأولى أولا كما فقال نعم ثم خاطب كلا منهما بما فيه من الفضل وأخذ عليه العهد الميثاق لئن ولاه عليه وليسمعن وليطيعن فقال كل واحد منهما نعم ، ثم خلا بعلى فقال له رأيت إن لم أولك فمن تشير على به قال قال عثمان وخلا بعثمان فقال له إن لم أولك فمن تشير على به قال على بن أبى طالب ثم تفرقوا ومكث عبد الرحمن ثلاث ليال يستشير فيمن يوليه ويجمع برؤوس الناس وأمراء الأجناد وأشراف الناس وغيرهم جمعاً وأشتاتا مثنى وفرادى سراً وجهرا حتى ذهب إلى النساء المخدرات فى حجالهن حتى سأل الولدان فى المكاتب وسأل من يرد من الركبان والأعراب الواردين إلى المدينة فى ثلاث أيام بلياليهن قال فلم أجد اثنين يختلفان فى تقديم عثمان على على رضى الله عنهما إلا ما ينقل عن عمار والمقداد فإنهما أشارا بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال بعض العلماء وكان السبب فى ذلك إن الأكثرين اختاروا عثمان إن عثمان كان فيه لين وعدم شدة ، وكان على يشبه عمر بن الخطاب فى الشدة ومضت خلافة عمر وهى عشر سنين ونصف سنة وهم منقادون له يسيرون بسيرته وفتحت لهم الأمصار وكثرت عندهم الأموال فأحبوا أن يكون لهم بعض التخفيف من تشديد عمر وعلموا أنه لوكان الأمر لعلى رضى الله عنه لم يحصل التخفيف الذى يريدونه بل يسلك بهم سبيل عمر ويسير بسيرته سواء أو أشد من ذلك هذا هو السبب فى تقديمهم عثمان على على وليس عندهم طعن فى على ولا كراهة لشىء من أخلاقه ولا يشكون فى حصول العدل منه هـــذا هو اللائق الذى ينبغى حمل أفعاله

الصحابة عليه رضى الله عنهم أجمعين وربما أن الذى يقف على مايذكره المؤرخون فى شرح هذه القصة يفهم منه أن كلا من على وعثمان وبقية أصحاب الشورى كان لكل واحد منهم رغبة فى أن تكون الخلافة فهذا إن صح فليحمل على أن كل واحد منهم يريد أن يكون منه القيام بالعدل وإقامة الدين والقيام بمصالح المسلمين لما فى ذلك من الأجر والثواب عند الله تعالى ولا يتوهم من له قوة إيمان أن يكون مرادهم الرياسة واستيفاء حظوظ النفس حاهم الله من ذلك بل لا يريد كل واحد منهم إلا القيام بإظهار الحق كما شهد لهم الله سبحانه وتعالى بذلك فى آيات كثيرة وأخبر أنهم رضى الله عنهم ورضوا عنه وكذلك الأحاديث الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حقهم تشهد لهم بذلك فاحذر أن تتوهم ظن سوء بأحد من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فإن المظنة المتعلقة بأحد منهم مما لا يغفر كما جاء ذلك فى أحاديث كثيرة . والحاصل أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه اجتهد فى ذلك ثلاثة أيام بلياليهن كل الاجتهاد بحيث أنه لم يغتمض بكثير نوم ولم يزل فى صلاة ودعاء واجتهاد واستخارة وسؤال من ذوى الرأى وغيرهم حتى حاول ربات الحجال فى خدورهن فلم يجد أحداً يعدل بعثمان زاد فى رواية أنه قال فى آخر ليلة للمسور بن مخرمة ، وكان ابنا لأخت عبد الرحمن بن عوف أدع الزبير وسعد بن أبى وقاص فدخلا عليه فشاورهما ثم انصرفا ثم قال أدع لى عليا قال فدعوته فناجاه إلى ثلث الليل ثم قام من عنده وكان من جملة ما قال له رأيت لو صرف هذا الأمر عنك من كنت ترى أحق به قال عثمان قال المسور بن مخرمة ، فلما خرج من عنده قال ادع لى عثمان فدعوته فناجاه طويلا حتى فرق بينهما مؤذن الصبح وقال له مثل ما قال لعلى لو صرف هذا الأمر عنك من كنت ترى أحق به قال على بن أبى طالب وقال للزبير كذلك فأشار بعثمان ، وقال لسعد كذلك فأشار بعثمان وكذلك شاور المهاجرين والأنصار وكلهم أشار بعثمان وجاء فى رواية عن المسور بن مخرمة أنه قال فلما كانت الليلة التى يسفر صاحبها عن اليوم الرابع من موت أمير المؤمنين عمر جاء عبد الرحمن إلى منزلى وأنا نائم فقال أنائم أنت يامسور والله لم أغتمض بكثير نوم منذ ثلاث أيام اذهب فادع عليا وعثمان قال المسور ياخالى بأيهما أبدأ

فقال بأيهما شئت قال فذهبت إلى على فقلت أجب خالى قال أمرك أن تدعو معى أحداً فقلت نعم قال من قلت عثمان بن عفان قال أيهما بدأ قلت لم يأمرنى بذلك بل قال ادع أيهما شئت أولا فجئت إليك فخرج معى فلما مررنا بدار عثمان جلس على حتى دخلت على عثمان فوجدته يوتر مع الفجر فدعوته فقال لى ما قال على سواء ثم خرج فدخلت بهما على خالى وهو قائم يصلى فلما انصرف أقبل على على وعثمان فقال إنى سألت الناس عليكما فلم أجد أحد يعدل بكما ثم أخذ العهد على كل واحد منهما لئن ولاه ليعدلن ولئن ولى عليه ليسمعن إلى وليطعن فقالا نعم ثم خرج بهما إلى المسجد وقد لبس عبد الرحمن العمامة التى عممه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقلد سيفاً وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ليحضروا فى المسجد ونودى فى الناس عامة الصلاة جامعة وامتلأ المسجد حتى غص بالناس وازدحم الناس وتراصوا حتى أنه لم يحصل لعثمان بن عفان موضع يجلس فيه إلا فى أخريات الناس ، وكان رجلا شديد الحياء ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام على الدرجة التى كان يجلس عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقف وقوفا طويلا ودعا دعاء طويلا لم يسمعه الناس ثم تكلم فقال أيها الناس إنى قد سألتكم سراً وجهراً مثنى وفرادى وجمعا وأشتاتا ، فلم أجد أحداً منكم يعدل بأحد هذين الرجلين إما على وإما عثمان فقم إلى يا على فقام إليه فوقف تحت المنبر وأخذ عبد الرحمن بيده فقال هل أنت مبايعى على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وفعل أبى بكر وعمر فقال على على قدر جهدى وطاقتى قال فأرسل يده قال قم يا عثمان فأخذه بيده فقال هل أنت مبايعى على كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وفعل أبى بكر وعمر فقال اللهم نعم ، قال فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد وقال اللهم أسمع وأشهد اللهم أسمع وأشهد اللهم أسمع وأشهد اللهم قد جعلت ما فى رقبتى من ذاك فى رقبة عثمان وبايعه وازدحم الناس يبايعون عثمان حتى غشوه تحت المنبر قال وقعد عبد الرحمن ابن عوف مقعد النبى صلى الله عليه وسلم وأجلس عثمان تحته على الدرجة الثانية ، وجاء الناس يبايعونه وبايعه على بن أبى طالب أولا ويقال آخر أو ما ذكرناه هو

الثابت فى ولاية عثمان كما حققه العلماء المحققون من أهل السنة منهم السيد الشريف طاهر بن هاشم بعلوى فى كتابه المسمى مجمع الأحباب ثم قال ولا تغتر بما سوى هذا مما ينقله الروافض فإنه لا أصل له والله سبحانه وتعالى أعلم ، واعترض بعض المبتدعة على عمر بن الخطاب فى عدم إدخاله العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشورى وأجاب أهل السنة عن ذلك بأن العباس كان صديقاً لعمر وإنما لم يدخله فى أهل الشورى لأن الأمر عندهم كان مبنيا على تقديم السابقة فى الإسلام والعباس كان ممن تأخر إسلامه ، وكان صديقاً لعمر هذا عذر عمر فى عدم إدخاله العباس فى أهل الشورى ولم ينكر عليه ذلك العباس ولا أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعلمهم بأن الأمر عندهم مبنى على الأسبقية فى الإسلام ، قال الامام محمد بن الحسن وإنما لم يدخل معهم سعيد بن زيد مع أنه أحد العشرة المبشرين بالجنة لأنه كان ابن عم لعمر ابن الخطاب فخشى أنه إذا أدخله معهم يكون ذلك منة محاباة له لكونه من أقاربه فما أحب أن يتقلدها ابنه ولا أحد من أقاربه فهكذا كان احتياط عمر وورعه ، ثم أن الناس مكثوا ست سنين من خلافة عثمان وهم على غاية من الاتفاق والرضا كما كانوا فى خلافة عمر بل قال بعضهم أحبوا عثمان أكثر من محبتهم لعمر للينه ورفقه ، ثم فى الست السنين الثانية وقع الاختلاف وأوقعه جماعة لم تكن لهم سابقية فى الإسلام وكان الأصل فى ذلك عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ظاهراً وليس له غرض فى الإسلام إلا قصد إيقاع الفرقة بين أهل الإسلام وأدخل على الناس شبهة من حيث تولية عثمان كثيراً من أقاربه على كثير من الأمصار مع أن عثمان كان يفعل ذلك باجتهاد منه يراه هو الصواب ويرى أن أقاربه أقرب إلى أعانته على العدل فلا لوم عليه فى ذلك على أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك كله فكان فى ذلك معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بذلك قبل وقوعه فوقع كما أخبر وكل ذلك كان بقضاء الله وقدره ليكتب له الشهادة ويحقق قول النبى صلى الله عليه وسلم فى عثمان أنه يقتل مظلوما وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى عبد الرحمن بن عوف أمين فى السماء وأمين فى الأرض فكفى بهذا حجة على صحة ما فعله واجتهد فيه ، قال القائلون

بأن طلحة كان غائباً وقد جعله عمر من أهل الشورى قدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه عثمان فقيل له أن الناس قد بايعوا عثمان فقال أكل قريش رضوا به قالوا نعم فأتى عثمان فقال عثمان أنت على رأس أمرك قال طلحة : فإن أبيت أتردها قال نعم قال أكل الناس بايعوك قال نعم فقال طلحة قد رضيت لا أرغب عما اجتمعت الناس عليه وبايعه ثم أن عمر بعد أن جعل أمر الخلافة للستة أصحاب الشورى حسب ما عليه من الدين فوجده ستة وثمانين ألفاً ولزمته هذه الديون من انفاق كان ينفقه من ماله على الفقراء والمحتاجين لم يأكل منها خبيصاً ولا لبس منها قميصا بل كانت جبته مرقعة بالجلود وباب منزله من الجريد لكنه أنفق هذا المال فى سبيل الخير لا غير فلما فرغت حياته وحانت وفاته قال لابنه عبد الله وابنته حفصة إنى أصبت من مال الله شيئا وإنى أحب أن ألقى الله عزوجل وليس فى عنقى منه شىء فبيعا فيه ما عندى من المال حتى تقضياه فإن عجز عنه مالى فسلافى بنى عدى فإن بلغ وإلا فسلا فى قريش ولا تعدو قريشاً فباع عبد الله من معاوية دار عمر التى يقال لها دار القضاء بالمدينة وباع مالا كان له بالغابة فقضى دينه فلذلك قيل لتلك الدار دار القضاء ، وقد كان عمر كثير الانفاق على الفقراء والمحتاجين وإذا لم يكن فى بيت المال شىء يستقرض للانفاق عليهم لاسيا فى عام الرمادة فإنه كان منه العجب العجاب فى الاعتناء بالفقراء وأهل الحاجة وعن يزيد بن أسلم عن أبيه أسلم قال لما كان عام الرمادة جاءت العرب من كل ناحية لشدة الجدب والقحط فقدموا المدينة وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر رجالا يقومون عليهم ويقسمون عليهم الطعام فكان كل رجل على ناحية من المدينة وكانوا إذا اجتمعوا عند أمير المؤمنين يخبرونه بكل ما كانوا فيه فسمعت أمير المؤمنين قال فى ليلة وقد تعشى الناس عنده أحصوا من يتعشى عندنا ، فأحصوا فوجدوهم نحو سبعة آلاف رجل فقال أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان ، فأحصوا فوجدوهم أربعين ألفا ثم مكث ليالى فزاد الناس حتى صار من يتعشى عنده نحو عشرة آلاف رجل والآخرون خمسون ألفا وكانت تلك المجاعة التى أصابت الناس عام الرمادة مجاعة شديدة لم يعهد مثلها لشدة القحط والجدب ، وكانت

الريح تسفى ترابا كالرماد فسمى عام الرمادة ، وكان ذلك كله فى سنة ثمان عشرة من الهجرة ومكث تسعة أشهر واشتد الجوع حتى جعلت الوحوش تأوى إلى المواضع المأنوسة تطلب ما تأكله ، وجعل الرجل يذبح الشاة فيعافها من قبحها وأقسم عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن لا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما حتى يحيا الناس فقدمت السوق عكة سمن ووطب من لبن فاشتراهما غلام لعمر بأربعين درهما وجاء بهما إلى عمر وكان ذلك عند ابتداء انجلاء القحط والشدة ، وقال يا أمير المؤمنين : قد حيى الناس وأبر الله بيمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهما فقال عمر تصدق بهما فإنى أكره أن آكل إسرافا وكيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يصبنى ما أصابهم ، وفى مدة ذلك القحط كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف راحلة من طعام جاء بها من الشام ، فولاه قسمتها فيمن حول المدينة ، فقسمها وانصرف إلى عمله وتتابع الناس واستغنى أهل الحجاز وأصلح عمر بن العاص بحر القلزم وأرسل فيه الطعام إلى المدينة حتى صار الطعام بالمدينة كسعر مصر ولم ير أهل المدينة بعد الرمادة مثلها حتى حبس عنهم البحر مع مقتل عثمان فذلوا وتقاصروا وكان الناس فى مدة الرمادة وعمر كالمحصورين عن أهل الأمصار فقال أهل بيت من مزينة لصاحبهم وهو بلال بن الحارث قد هلكنا فاذبح لنا شاة ، قال ليس فيهن ما يصلح للذبح فلم يزالوا به حتى ذبح فسلخ عن عظم أحمر فنادى يا محمداه فرأى فى المنام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ، فقال أبشر بالحياة ائت عمر فاقرأه منى السلام وقل له إنى عهدتك وأنت فى العهد شديد العقد فالكيس الكيس يا عمر فجاء حتى أتى باب عمر ، فقال لغلامه : استأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى عمر فأخبره ففزع وقال رأيت به مساءة فقال لا : فأدخله وأخبره الخبر ، فخرج فنادى فى الناس وصعد المنبر فقال نشدتكم الله الذى هداكم هل رأيتم شيئا تكرهونه؟ قالوا اللهم لا ولم ذاك فأخبرهم ففطنوا ولم يفطن عمر فقالوا إنما سنبطأك فى الاستسقاء فاستسق لنا فنادى فى الناس وخرج للاستسقاء وخرج معه العباس ماشيا فخطب وأوجز

وصلى ثم جثى على ركبتيه ، وقال اللهم عجزت عنا أنصارنا وعجز عنا حولنا وقوتنا وعجزت عنا أنفسنا ولا حول ولا قوة إلا بك اللهم فاسقنا واحى العباد والبلاد وأخذ بيد العباس ابن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه وأن دموع العباس لتتحادر على لحيته فقال اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك صلى الله عليه وسلم وبقية آبائه وأكبر رجاله فإنك تقول وقولك الحق ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ فحفظتهما بصلاح أبيهما فاحفظ اللهم نبيك صلى الله عليه وسلم في عمه ، فقد دلو به إليك مستشفعين مستغفرين ، ثم أقبل على الناس فقال استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، وقد كان العباس قد طال عمره وابيضت لحيته فوقف وعيناه تذرفان ولحيته تجول على صدره وهو يقول اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك صلى الله عليه وسلم وهذه أيدينا إليك بالذنوب نواصيها إليك بالتوبة ، اللهم أنت الراعى فلا تهمل الضالة ولا تدع الكسير بدار مضيعة فقد صرخ الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، فنشأت طريرة من سحاب فقال الناس : تروون تروون ، ثم التأمت ومشت فيها ريح ثم هدأت ودرت ، فوالله ما تروحوا حتى اعتنقوا الجدر وقلصوا المآزر فطفق الناس بالعباس يمسحون أركانه ويقولون له هنيئا لك ساقى الحرمين فقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب .

بعمى سقى الله الحجاز وأهله ‏ ‏ ‏ عشية يستسقى بشيبته عمر
توجه بالعباس فى الجدب راغبا ‏ ‏ ‏ إليه فما أن رام حتى أتى المطر
ومنا رسول الله فينا تراثه ‏ ‏ ‏ فهل فوق هذا للمفاخر مفخر

قال زيد بن أسلم عن أبيه كنا نقول لو لم يرفع الله عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هما بالمسلمين ، قال ابن شهاب : إن عمر بن الخطاب كان يدعو عام الرمادة ويقول اللهم اجعل أرزاقهم على رؤوس الجبال فاستجاب الله له وللمسلمين فكانت تأتيهم

ارزاقهم وقال حين نزل الغيث الحمد لله فوالله لو أن الله لم يفرجها ما تركت بأهل بيت المسلمين سعة إلا أدخلت عليهم أعدادهم من الفقراء فلم يكن اثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم واحداً ، وعن أنس رضى الله عنه قال كتب عمر بن الخطاب إلى عماله اكتبوا عن الزاهدين فى الدنيا فإن الله عز وجل وكل بهم ملائكة وضعوا أيديهم على أفواههم لا يتكلمون إلا بما هيأه الله تعالى لهم ، وألقى الله فى قلوب العباد هيبة شديدة لعمر وعن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق قال بينما عمر يمشى وخلفه عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ بدا له فالتفت فلم يبق أحد إلا سقط لركبتيه خافضاً فأرسل عمر عينيه بالبكاء ثم قال اللهم إنك تعلم أنى أشد خوفا منهم منى وقال عمر لولا مخافة الحساب لأمرت بحمل أى كبش يشوى لنا فى التنور وعن سفيان ، قال : كان عمر يشتهى الشىء لعله يكون ثمنه بدرهم فيؤخره سنة وعن أنس قال : سمعت عمر بن الخطاب يوما وبينى وبينه حائط يقول مكلما نفسه أمير المؤمنين بخ بخ والله يا ابن الخطاب لتتقين الله أو ليعذبنك ، وزار عمر أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء : أتذكر حديثا حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أى حديث قال « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب » قال نعم قال فما فعلنا بعده يا عمر فما زالا يتجاوبان حتى أصبحا وعن نافع قال كان من دعاء عمر اللهم أوجب لى فى موالاتك وموالاة أولئك ولايتك ومعونتك وأبرئنى بمعاداة عدوك من الآفات ، اللهم لا تكثر لى من الدنيا فأطغى ، ولا تقلل لى منها أنسى فإن ما قل وكفى خير مما كثر فألهى ، اللهم إنى أعوذ بك أن تأخذنى على غرة أو تذرنى فى غفلة أو تجعلنى من الغافلين وعن قيس بن الحجاج قال لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له أيها الأمير أن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها فقال لهم وما ذاك قال إذا كان لاثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أبويها وحملنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها فى النيل فقال لهم عمرو بن العاص هذا لا يكون فى الإسلام وأن الإسلام يهدم ما قبله فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى والنيل لا يجرى قليلا ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء منها فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر

بن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر إنك قد أصبت بالذى فعلت لأن الإسلام يهدم ما قبله وكتب بطاقة فى داخل كتابى وكتب إلى عمرو بن العاص إلى قد بعثت إليك بطاقة فى داخل كتابى هذا فألقها فى النيل فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو وإذا فيها (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر وإن كان الله تعالى الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى الواحد القهار أن يجريك فألقى البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب بيوم وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج لأنهم لا تقوم مصلحتهم إلا بالنيل فلما ألقى البطاقة أصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعا فى ليلة واحدة فقطع الله تلك السنة السيئة عن أهل مصر فتلك كرامة من كرامات عمر التى أكرمه الله بها ، ومن كراماته ماروواه البيهقى وأبو نعيم وغيرهما عن نافع بن عبد الله بن عمر قال وجه عمر جيشاً ورأس عليهم رجلا يدعى سارية بن زنيم فبينما عمر يخطب يوم جمعة إذ جعل ينادى ياسارية الجبل ثلاثا من استرعى الذئب ظلم فالتفت الناس بعضهم لبعض فقال على بن أبى طالب ليخرجن مما قال خير فلما فرغ سألوه فقال وقع فى قلبى أن المشركين هزموا إخواننا وأنهم يمرون بجبل أن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد وإن جاوزه هلكوا فخرج منى ما تزعمون أنكم سمعتموه فجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوت عمر فى ذلك اليوم قال فعدنا إلى الجبل ففتح الله علينا وفى رواية لابن نعيم عن عمرو ابن الحارث رضى الله عنه قال بينما عمر رضى الله عنه يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة وقال ياسارية الجبل مرتين أو ثلاثا ثم أقبل على الخطبة فقال بعض الحاضرين لقد جن فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه وكان يطمئن إليه فقال له إنك لتجعل لهم على نفسك مقالا بينما أنت تخطب إذ أنت تصيح ياسارية الجبل أى شىء هذا قال إنى والله ما ملكت نفسى إذ رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت ياسارية الجبل ليلحقوا بالجبل فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتاب أن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى إذا حضرت الجمعة سمعنا مناديا ينادى ياسارية الجبل مرتين فلحقنا بالجبل فلم نزل قاهرين لعدونا حتى هزمهم الله تعالى وقتلهم وفى رواية ثم

تقدم رسول الجيش فسأله عمر فقال يا أمير المؤمنين هذمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتا ينادى ياسارية الجبل ثلاثا أسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله تعالى وكان ذلك الجبل بنهاوند من أرض العجم وأخرج الإمام مالك فى الموطأ عن نافع عن ابن عمر قال قال عمر بن الخطاب لرجل ما اسمك ؟ قال جمرة قال ابن من ؟ قال ابن شهاب ، قال فمن؟ قال من الحرقة ، قال أين مسكنك ؟ قال الحرة ، قال بأيها . قال بذات لظى فقال عمر . أدرك أهلك فقد احترقوا فرجع الرجل فوجد أهله قد احترقوا ؟ وأخرج ابن عساكر عن طارق بن شهاب قال إن كان الرجل ليحدث عمر بالحديث فيكذبه الكذبة فيقول أحبس هذه ثم يحدثه بالحديث فيقول له كل ماحدثتك به حق إلا ماأمرتنى أن أحبسه وأخرج ابن عساكر أيضا عن الحسن البصرى إن كان أحد يعرف الكذب إذاحدث به أنه كذب فهو عمر بن الخطاب ، وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى هدبة الحمصى ، قال أخبر عمر أن أهل العراق قد حصروا أميرهم فخرج غضبان فصلى فسها فى صلاته فلما سلم قال اللهم قد لبسوا على فلبس عليهم وعجل لهم بالغلام الثقفى لايقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم يعنى الحجاج قال ابن لهيعة وما ولد الحجاج يومئذ . وقال على بن أبى طالب إن الله ضرب الحق على لسان عمر حتى ظننا أن ملكا ينطق على لسانه . وقال عبد الله بن مسعود كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إمامته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى عندالبيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا ، وقال حذيفة رضى الله عنه لما أسلم عمر رضى الله عنه كان الإسلام كالرجل المقبل لايزداد إلا قرباً ، فلما قتل كان الإسلام كالرجل المدبر لايزداد إلا بعداً ، وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » وهو الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل ، وقال عبد الله بن مسعود لما توفى عمر ذهب تسعة أعشار العلم ولو أن علمه وضع فى كفة ميزان ووضع علم أحياء الأرض فى كفة لرجح على علمهم فقيل له أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة فقال لم أرد علم الفتيا والأحكام وإنما أريد العلم بالله عز وجل ، قال الإمام الغزالى فى إحياء علوم الدين : كانت شهرة عمر بالسياسة ، وكان فضله بالعلم

بالله الذى مات تسعة أعشاره بموته وبقصد التقرب إلى الله عز وجل فى ولايته وعدله وشفقته على خلقه وذلك كله أمر باطن فى سره ، وعن على بن أبى طالب قال ما علمت أحداً هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتفض فى يده أسهماً وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها فطاف سبعا ، ثم صلى ركعتين عند المقام ، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة ، فقال شاهت الوجوه من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده وترمل زوجته فيلقنى وراء هذا الوادى فما تبعه منهم أحد . وقال سعد بن أبى وقاص قد علمت بأى شىء فضلنا عمر رضى الله عنه كان أزهدنا فى الدنيا ، وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بينا أنا نائم ثم رأيت الناس يعرضون على وعليهم قميص فمنها مايبلغ الثدى ومنهم دون ذلك وعرض على عمر ابن الخطاب وعليه قميص يجره قالوا ما أولته يارسول الله قال الدين . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينا أنا نائم ثم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى أنى لا أرى الرى يخرج من أظفارى ثم أعطيت فضلى عمر ابن الخطاب قالوا فما أولته يارسول الله قال العلم . وعن سعد بن أبى وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . لعمر بن الخطاب : والذى نفسى بيده مالقيك الشيطان سالكا فجاء غير فجك . وقال النبى صلى الله عليه وسلم لما أراد عمر أن يعتمر لاتنسنا يا أخى من دعائك ، قال عمر رضى الله عنه أنها كلمة ما يسرنى أن لى بها الدنيا . وروى مالك فى الموطأ أن عمر كان يحمل فى العام الواحد على أربعين ألف جمل يحمل الرجل إلى الشام على بعير والرجلان إلى العراق على بعير وكان عمر أول من جمع الناس لصلاة التراويح فكان على ابن أبى طالب إذا مر على المساجد ورأى القناديل فى رمضان يدعو لعمر ويقول نور الله على عمر قبره كما نور علينا مساجدنا وعن ابن عباس قال جاء جبريل عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال اقرأ على عمر السلام وأخبره أن رضاه وغضبه حكم وقال على بن أبى طالب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا غضب عمر فإن الله يغضب لغضبه » . ولما توفى عبد الله بن أبى رأس المنافقين سأله ابنه الحباب وسماه النبى صلى الله عليه وسلم

عبد الله أن يصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبيه رجاء أن الله يرحمه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابنه مؤمنا صادقا فأراد النبى صلى الله عليه وسلم تطييب قلب ابنه فتقدم ليصلى عليه فأراد عمر أن يمنع النبى صلى الله عليه وسلم من الصلاة عليه ، وقال يارسول الله أنه فعل كذا وكذا وقال كذا وكذا فجذب النبى صلى الله عليه وسلم ثوبه من يد عمر وتقدم وصلى عليه فأنزل الله تعالى ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبداً ولاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِه ﴾ فجاءت الآية على رأى عمر واختصم منافق ويهودى فى شىء فقال اليهودى للمنافق نذهب إلى أبى القاسم فنتحاكم على يديه وقال المنافق بل نذهب إلى كعب بن الأشرف وكان من رؤساء اليهود يأخذ الرشوة فى حكمه فامتنع اليهودى من الذهاب إلى كعب بن الأشرف وذهبا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فحكم على المنافق لليهودى فلما خرجا قال المنافق نذهب إلى كعب بن الأشرف فامتنع اليهودى وقال نذهب إلى عمر بن الخطاب فرضى المنافق فلما دخلوا على عمر أخبره اليهودى بما كان له من الدعوى على المنافق ثم أخبره بقضاء النبى صلى الله عليه وسلم على المنافق وأنه لم يرض بحكمه وقال نذهب إلى كعب بن الأشرف فلم أوافقه ثم اتفقنا على التحاكم إليك ، فقال عمر للمنافق : أحق ماقال هذا ، فقال المنافق نعم فدخل عمر بيته وأخرج سيفه وضرب عنق ذلك المنافق ، وقال هذا جزاء من لم يرض بحكم النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أن عشيرة ذلك المنافق شكوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وطلبوا القصاص منه واعتذروا بأن صاحبهم لم يكن منافقا وإنما أراد بالمحاكمة إلى عمر تأييد حكم النبى صلى الله عليه وسلم وألحوا على النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك الدعوى وكاد يحصل من ذلك شر فأيد الله تعالى مافعله عمر وأهدر دم ذلك المنافق وأنزل فى ذلك قوله تعالى ﴿ألم ترَ إلى الّذينَ يَزْعَمُونَ أنهمُ آمَنُوا بِما أُنزِلَ إليْكَ وماأُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتحاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ﴾ الآيات وختمها بقوله ﴿ أُولئِكَ الذينَ يَعلم اللهُ مافِي قُلوبهم فأعْرِضْ عنْهم وعظهُم وقل لهم فى أنفُسهِمَ قَوْلاً بليغاً ﴾ فكان فى ذلك كله تأييداً لما فعل عمر ولما قال عبد الله بن أبى ﴿ لَئِنْ رَجَعْنا إلى المدِينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْها الأذَلَّ ﴾ وعنى بالأعز نفسه وبالأذل النبى

صلى الله عليه وسلم وأصحابه فأراد عمر بن الخطاب أن يذهب إلى عبد الله بن أبى ويقتله فأبى النبى صلى الله عليه وسلم وقال لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه وأنزل الله تعالى ترضية لعمر قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ولما أشار على النبى صلى الله عليه وسلم بقتل أسرى بدر وعدم قبول الفداء منهم وأشار أبو بكر بقبول الفداء وقال يارسول الله هم قومك وذوو رحمك ورجوا أن الله يهديهم للاسلام فقبل النبى صلى الله عليه وسلم ما أشار به أبو بكر فى أخذ الفداء فأنزل الله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ عَرَضَ الآخِرَةِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلاَ كِتَابٌ مِنْ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ، فكانت الآية مؤيدة لما أشار به عمر والنبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يبكيان فقال عمر يا رسول الله أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما فقال النبى صلى الله عليه وسلم أبكى للذى عرض على من الفداء وفى رواية قال له النبى صلى الله عليه وسلم كاد يصيبنا فى خلافك شر ثم أنزل الله امضاء أخذ الفداء بقوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ولما طاف النبى صلى الله عليه وسلم بالبيت قال له عمر رضى الله عنه يا رسول الله ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فكان ذلك من موافقات عمر رضى الله عنه ، وكان رضى الله عنه يقول للنبى صلى الله عليه وسلم أحجب نساءك فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ ولما أكثر نساء النبى صلى الله عليه وسلم من التغاير بينهن دخل عليهن عمر رضى الله عنه وزجرهن وخوفهن بالطلاق وأن الله يبدل النبى صلى الله عليه وسلم خيراً منهن فأنزل الله تعالى : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ وكان رضى الله عنه يكره شرب الخمر ويسأل الله أن يحرمه فأنزل الله تعالى : ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فلم يكتف بذلك عمر وقال اللهم أرنا فى الخمر فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ

مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾ فحرم الله الخمر فكان ذلك موافقاً لما كان مرغوباً لعمر . قال الشعبي لما سمع الناس قول عمر ورأوا عمله فكان ذلك يمشي في الأسواق ويطوف في الطرقات ويقضي بين الناس في قبائلهم ويعلمهم في أماكنهم ذكروا أبا بكر والنبي صلى الله عليه وسلم ثم قالوا كان النبي صلى الله عليه وسلم أعلم بأبي بكر ، وكان أبو بكر أعلم بعمر فجرى أبو بكر وعمر مجرى واحد وقد كانوا يخافون من لين هذا وشدة هذا فكان أبي بكر مع لينه أقواهم فيما لابد منه وألينهم فيما ينبغي ، وكان عمر ألينهم فيما ينبغي وأقواهم فيما لابد منه وقدم الأحنف بن قيس على عمر بن الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو معتجر بعباءة له فشرد بعير من إبل الصدقة فسعى خلفه وقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة فيه حق لليتيم والمسكين والأرملة فقال رجل يا أمير المؤمنين يغفر الله لك فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة فيكفيك هذا فقال عمر وأي عبد هو أعبد مني ومن الأحنف بن قيس أن من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب لهم عليه ما يجب على العبد من النصح وأداء الأمانة وقال عمر من استعمل رجلا لمودة أو قرابة لا يحمله على استعماله إلا ذلك فقد خان الله رسوله والمؤمنين ومن استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله ولما افتتح المسلمون سواد العراق قالوا لعمر بن الخطاب أقسمه بين الغانمين لأنهم افتتحوه عنوة ، قال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين فإني أخاف أن تفاسدوا بينكم في المياه وأخاف أن تقتتلوا فأمر أن يقروا أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤوسهم الضرائب يعني الجزية وعلى أرضهم الخراج ولم يقسمها بينهم لتكون للمسلمين الذين يأتون بعدهم ولما قدم عمر مكة أقبل أهل مكة يشكون أبا سفيان بأنه حبس سيل الماء عليهم فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبو سفيان نصب أحجاراً فقال أرفع هذا وهذا فرفعهما ثم قال هذا وهذا حتى رفع أحجاراً خمسة أو تسعة ، ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عميراً يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه ، وعن الحسن البصري قال حضر باب عمر ابن الخطاب سهيل بن عمرو والحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب ونفر من قريش

من تلك الرؤوس وصهيب وبلال ونفر من أولئك الموالى الذين شهدوا بدراً فخرج إذن عمر للموالى وترك أولئك فقال أبو سفيان لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا فقال سهيل ابن عمرو، وكان رجلا عاقلا أيها القوم أنى والله لقد أرى الذى فى وجوهكم إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم وفى رواية فإذا كان هذا فى دار عمر فكيف الجنة فجلسوا يبكون على تأخر دخولهم فى الإسلام حتى ارتفعت أصواتهم فسمعهم عمر فأمر بإدخالهم ، وكان صدر المجلس فى زمن خلافته للسابقين فى الإسلام فإذا سبقهم غيرهم ثم جاء أحد من السابقين يتأخرون عن صدر المجلس ليجلس فيه السابقون فى الإسلام ولو كانوا من الموالى وربما أنهم لا يزالون يتأخرون حتى يكون غير السابقين فى آخر المجلس ولو كانوا من أشراف قريش وعن الحسن البصرى أن رجلا أتى أهل ماء فاستسقاهم فلم يسقوه حتى مات عطشاً فأغرمهم عمر بن الخطاب ديته ، وعن أنس بن مالك قال كنا عند عمر بن الخطاب إذ جاء رجل من أهل مصر فقال يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك قال ما شأنك قال أجرى عمرو بن العاص الخيل بمصر فأقبلت فرسى فلما حضر الناس قام محمد بن عمرو بن العاص يقول هذه فرسى ورب الكعبة فلما دنا منى قلت له هذه فرسى ورب الكعبة فقام يضربنى بالسوط ويقول خذها وأنا ابن الأكرمين قال فوالله مازاد عمر على أن قال أجلس ، ثم كتب إلى عمرو بن العاص إذا جاءك كتابى هذا فأقبل وأحضر معك ابنك محمداً قال فدعا عمرو ابنه محمداً فقال هل أحدثت حدثا أو جنيت جناية قال لا. قال فما بال أمير المؤمنين عمر يكتب فيك فقدم عمرو وابنه على عمر قال أنس فوالله إنا لعند عمر إذا نحن بعمرو وقد أقبل فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه محمداً فإذا هو خلف أبيه فقال عمر أين المصرى فقال ها أنذا قال دونك الدرة أضرب ابن الأكرمين. أضرب ابن الأكرمين أضرب ابن الأكرمين فضربه قال فضربه ثم أجملها على صلعة أبيه عمرو فوالله ماضربك إلا بفضل سلطانه فقال عمرو ياأمير المؤمنين قد ضرب من ضربه فقال أما والله لو ضرب من ضربه لما أقدمناك ياعمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهم أحراراً ، ثم التفت

إلى المصرى فقال انصرف راشداً فإن رابك شىء فاكتب إلى ، وكان عمر إذا استعمل عاملا كتب عليه كتابا وأشهد عليه رهطا من الأنصار أن لا يركب برذونا ولا يأكل نقياً ولا يلبس دقيقا ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ثم يقول اللهم أشهد وعن الحسن البصرى ، قال : قال عمر لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع عنى أما هم فلا يصلون إلى ، وأما عمالهم فلا يرفعونها إلى فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، وعن الزهرى أن عمر جلد صبيغا التيمى لكثرة مساءلته عن حروف القرآن حتى اضطربت الدماء فى ظهره . وعن النعمان ابن بشير رضى الله عنه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتوى مايجد مايملأ بطنه من الدقل . وعن هشام ابن عروة قال : قال عمر بن الخطاب إذا رأيتم الرجل يضيع الصلاة فهو والله لغيرها من حق الله تعالى أشد تضييعا . وعن يحيى بن جعدة قال : قال عمر لولا ثلاثة لأحببت أن ألحق بالله عز وجل لولا أن أسير فى سبيل الله أو أضع وجهى لله تعالى أو أجالس أقواما يلتقطون طيب الكلام كما يلتقط طيب التمر وروى عن على رضى الله عنه أنه كان يبكى عند موت عمر فقيل له : فى ذلك فقال أبكى على موت عمر ان موت عمر ثلمة فى الإسلام لا ترتق إلى يوم القيامة وقال على كان أبو بكر أواها حليما ، وكان عمر مخلصا ناصحا لله منصحة الله . وإن كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن متوافرون لنرى أن السكينة تنطق على لسان عمر وإن كنا لنرى أن شيطانه ليهابه أن يأمره بالخطيئة . وشهد عند عمر ابن الخطاب رجل فقال ائتنى بمن يعرفك فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً فقال عمر أنت جاره الأدنى تعرف مدخله ومخرجه فقال لا. فقال كنت رفيقه فى السفر الذى يسفر عن أخلاق الرجال ومكارم الأخلاق فقال لا قال فعاملته بالدراهم والدنانير التى يتبين بها ورع الرجل. فقال لا قال أظنك رأيته فى المسجد يهمهم بالقرآن يرفع رأسه طوراً ويخفضه طوراً قال نعم . اذهب فلست تعرفه ، وقال للرجل اذهب فائتنى بمن يعرفك ، وقالت عائشة رضى الله

عنها من رأى ابن الخطاب علم أنه إنما خلق غناء أى نفعاً للاسلام وعن لاحق بن حميد قال بعث عمر بن الخطاب عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف رضى الله عنهم إلى الكوفة ، وجعل عمار بن ياسر على الصلاة وعلى الجيوش وعبد الله بن مسعود على القضاء وبيت المال وعثمان بن حنيف على مساحة أرض الخراج ، وجعل بينهم كل يوم شاة شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر والنصف بين هذين قال الراوى ولا أحفظ الطعام ثم قال أنزلتكم وإياى من هذا المال منزلة والى اليتيم من كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف وما أرى قرية يؤخذ منها كل يوم شاة إلا كان سريعا فى خرابها . ولما قدم عليه أول عير عام الرمادة دعا الزبير ، وقال أخرج فى أول هذه العير فاستقبل بها نجداً فاحمل إلى أهل كل بيت ما قدرت أن تحملهم ومن لم يستطع حمله فمر لأهل بيت ببعير بما عليه فليكسوا كساءين من ذلك ولينحروا البعير فليجملوا شحمه وليقددوا لحمه ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وجفنة من دقيق فيطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق فاعتذر الزبير من الخروج ، ثم دعا طلحة فاعتذر فأمر أبا عبيدة فخرج فلما رجع بعث له بألف دينار فقال أبو عبيدة إنى لا أعمل لك يا ابن الخطاب إنى عملت لله عز وجل ولست آخذ فى ذلك شيئا فقال عمر : قد أعطانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أشياء بعثنا لها فكرهنا ذلك فأبى علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبلها أيها الرجل فاستعن بها على دينك ودنياك ، فقبلها أبو عبيدة وتصدق بها وقد قال صلى الله عليه وسلم ماجاءك من هذا المال وأنت غير مستشرف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسك ولما جىء له بغنائم العراق كان فيها تاج كسرى وأساوره وكان النبى صلى الله عليه وسلم وعد بذلك سراقة بن مالك لما تعرض لأن يمسكه لكفار قريش عام الهجرة فساخت به قوائم فرسه ، ثم سأل النبى صلى الله عليه وسلم الأمان ، وعقد التوبة فخرجت قوائم فرسه فعرض عليه النبى صلى الله عليه وسلم الإسلام فأبى فقال له كيف بك ياسراقة إذا لبست تاج كسرى وأساوره ثم أسلم سراقة عام ثمان من الهجرة بالجعرانة فلما جاءت غنائم العراق وفيها تاج كسرى وأساوره قال عمر ائتونى بسراقة بن مالك لألبسه إياهما لتتحقق بذلك

معجزة النبي صلى الله عليه وسلم في وعده سراقة بذلك فجيء له بسراقة فألبسه التاج والأساور وقال له قل الله أكبر الحمد لله الذى سلبهما كسرى وألبسهما سراقة بن مالك ابن جعشم أعرابيا من بنى مدلج وأركبه جملا وطيف به في المدينة لإظهار تلك المعجزة وقال عمر لما جيء له بغنائم العراق اللهم إنى قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب أن يصيب مالا فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك ، فزويت ذلك عنه نظراً منك واختياراً اللهم إنى قد علمت أن أبا بكر كان يحب أن يصيب مالا فينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت ذلك عنه نظراً منك واختياراً اللهم إنى أعوذ بك أن يكون هذا مكراً بعمر واستدراجا ثم قال ﴿ أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ وعن أبى هريرة قال قدمت من عند أبى موسى الأشعرى من العراق على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بثمانمائة ألف درهم فقال لى : بماذا قدمت ؟ قلت قدمت بثمانمائة ألف درهم قال قدمت بثمانمائة ألف درهم قلت بل قدمت بثمانمائة ألف درهم قال ألم أقل لك إنما قدمت بثمانمائة ألف درهم فكم ثمانين ألف درهم فعددت مائة ألف ومائة ألف حتى عددت ثمانمائة ألف درهم قال أطيب هو ويلك قلت نعم وإنما سأله عن طيبه تعجبا من كثرته فاستبعد أن يكون طيباً حلالا قال فبات عمر ليلته أرقا حتى إذا نودى بصلاة الصبح قالت امرأته ما نمت يا أمير المؤمنين الليلة قال كيف ينام عمر ابن الخطاب وقد جاء الناس مالم يكن يأتيهم مثله منذ كان الإسلام فما يأمن عمر لو هلك وذلك المال عنده فلم يضعه فى حقه فلما صلى الصبح اجتمع إليه نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم أنه قد جاء الناس الليلة مالم يأتهم مثله منذ كان الإسلام وقد رأيت رأيا فأشيروا على ، رأيت أن أكيل للناس بالمكيال فقالوا لا تفعل يا أمير المؤمنين أن الناس يدخلون فى الإسلام ويكثر المال ولكن أعطهم على كتاب الله وكلما كثر الناس وكثر المال أعطيتهم عليه قال فأشيروا على بمن أبدأ منهم فقال له على وعبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنهما إبدأ بنفسك أنك ولى ذلك فقال لا بل أبدأ بالعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الأقرب فالأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان مجيء هذا المال سببا لفرض العطاء كل سنة وتدوين الدواوين للعطاء كل سنة فكتب الناس

ودون الدواوين فهو أول من فعل ذلك فرتب ذلك أولا باعتبار التقدم فى الذكر والتأخر ثم باعتبار المقدار الذى لكل إنسان أما باعتبار التقدم والتأخر فى الذكر فى ذلك الديوان الذى رتبه فبدأ ببنى هاشم والمطلب بن عبد مناف فأعطاهم جميعا ثم أعطى بنى عبد شمس ابن عبد مناف ثم بنى نوفل بن عبد مناف وإنما قدم بنى عبد شمس على بنى نوفل لأن عبد شمس كان أخا لهاشم من أبيه وأمه وأما نوفل فكان أخاً لهاشم لأبيه فقط ثم استوت له عبد العزى وعبد الدار إبناقصى بن كلاب فقدم بنى أسد بن عبد العزى وهم قوم خديجة لصهر النبى صلى الله عليه وسلم فيهم ثم انفردت له بنو زهرة بن كلاب بن مرة فدعاها تتلوا عبد الدار ثم استوت له بنو تيم بن مرة وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة فقدم بنى تيم لأنهم كانوا من أهل حلف الفضول والمطيبين وفيها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأن أبا بكر من بنى تيم ثم دعا مخزوما تتلوهم ثم استوت لهم سهم وجمح إبنا هصيص ابن كعب وعدى بن كعب وكان عمر من عدى فقالوا له إبدأ بعدى فقال بل أقر نفسى حيث كنت فإن الإسلام دخل وأمرنا وأمر بنى سهم واحد إنظروا بين سهم وجمح فقدم بنى جمح ثم بنى سهم فكان ديوان جمح وسهم كالدعوة الواحدة فلما خلصت إليه دعوته بعد بنى سهم وجمح كبر تكبيرة عالية ، ثم قال الحمد لله الذى أوصل إلى حظى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيأتى ذكر ما فرض لنفسه لأن الكلام الآن فى الترتيب فى التقدم والتأخر فقط لا فى ذكر المقدار المفروض ثم دعا بنى عامر بن لؤى بن فهر وكان أبو عبيدة بن الجراح من بنى فهر فتكون دعوته بعد بنى عامر ، فلما دعا بنى عامر بن لؤى قبل فهر قال أبو عبيدة أكل هؤلاء يدعون أمامى فقال يا أبا عبيدة أصبر كما صبرت أو كلم قومك فمن قدمك على نفسه لم أمنعه فأما أنا وبنو عدى فنقدمك إن أحببت على أنفسنا فقال أبو عبيدة اصبر كما صبرت أنت ولا حاجة إلى ذكر ترتيب القبائل لأنه يطول وبقى هذا الترتيب الذى رتبه عمر إلى زمن خلافة بنى العباس فوقع تشاجر بين بنى سهم وبنى جمح فى خلافة المهدى بن المنصور فافترقوا فقدم المهدى عليهما بنى عدى ، وأما بنو هاشم والمطلب فكانا على ترتيب عمر فى مرتبة واحدة لقول النبى صلى الله عليه

وسلم إنما نحن وبنو المطلب كشىء واحد فإذا كان السن فى الهاشمى قدمه على المطلبى وإذا كان المطلبى قدمه وبقى ذلك إلى خلافة عبد الملك بن مروان فقدم بنى هاشم على بنى المطلب ثم أن عمر بعد ترتيب القبائل فى الديوان الأقرب فالأقرب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فرض المقدار الذى يعطى لكل إنسان وجعل التفاوت على السابقة للإسلام وأما أبو بكر فكان يسوى بين المسلمين فى القسم ولا ينظر إلى أسبقية الإسلام فراجعه عمر فى ذلك فلم يقبل مراجعته فى ذلك وقال إنما فضلهم عند الله وإنما الدنيا بلاغ فلما صارت الخلافة لعمر فاضل بينهم بالنسبة للأسبقية فى الإسلام ولا ينكر على أحد منهما لأن ذلك اجتهاد وجعل صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمر ومع من أسلم عام الفتح وكان ذلك أقل من عطاء من أسلموا قبل ذلك فامتنعوا من أخذه ، وقالوا لانعترف أن يكون أحد أكرم منا فقال إنما أعطيتكم على السابقية فى الإسلام لاعلى الأحساب قالوا فنعم إذا وأخذوا وخرج الحارث وسهيل بأهليهما نحو الشام فلم يزالا مجاهدين وفرض لأهل بدر خمسة آلاف كل سنة ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف أربعة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى تمام قتال أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لمن كان منهم مشهوراً بالشجاعة ولاقى بلاء فى تلك الوقائع ألفين وخمسمائة فقيل له لوجعلت أهل القادسية مثل هؤلاء بألفين وخمسمائة فقال لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا وقيل له قد سويت من بعدت داره بمن قربت داره وقاتلهم على فنائه فقال من قربت داره أحق بالزيادة لأنهم كانوا ردءاً للحتوف وشجى للعدو فهلا قال المهاجرون مثل قولكم حين سوينا بين السابقين منهم والأنصار فقد كانت نصرة الأنصار بفنائهم وهاجروا إليهم المهاجرون من بعد ، وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً ثم فرض لمن بعدهم خمسمائة للروادف بعدهم ثلاثمائة سوى فى كل طبقة بين قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم وفرض بعدهم للروادف على مائتين وخمسين ولمن بعدهم على مائتين وفرض للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنى عشر ألفاً وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهل بدر وهم الحسن والحسين أبو ذر وسلمان الفارسى رضى الله عنهم وفرض لزوجات رسول الله صلى الله

عليه وسلم عشرة آلاف عشرة آلاف إلا من جرى عليها الملك كصفية ومارية وجويرة. فقال نسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضلنا عليهن فى القسمة فسو بيننا ففعل وفضل عائشة رضى الله عنهـا بألفين لمحبة رسول الله صلى الله عليه وسـلم إياها فلم تأخذ إلا مثلهن ، وامتنعت من أخذ الزيادة وجعل نساء أهل بدر فى خمسمائة خمسمائة ونساء من بعـدهم إلى الحديبية فى أربعمائة أربعمائة ونسـاء من بعـد ذلك إلى تمـام قتـال أهل الردة فى ثلاثمائة ثلاثمائة ونسـاء أهل القـادسية مائتين مائتين ، ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء على مائة مائة ثم جمع ستين مسكينا وأطعمهم الخبز فأحصوا ما أكلوا فوجدوه يخرج من جريبتين ففرض لـكل إنسان منهم ولعياله جريبتين فى الشهر والجريب مكيال قدر أربعـة أقفزة والقفيز مكيال يسع ٨ مكاكيك والمـكوك مكيال يسع صاعا ونصفاً فتـكون الجريبتين ٩٦ صاعا ٤٨ له و ٤٨ لعياله وأشار عليه بعض الصحابة أن يبقى فى بيت المال شيئاً من المال عدة لـكون إن كان ، فقال عمر هذه كلة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها وهى فتنة لمن بعدى بل أعد لهم ما أعد الله ورسوله طاعة لله ورسوله هما عدتنا التى بها أفضينا إلى ماترون فإذا كان المال ثمن دين أحدكم هلـكتم وفى رواية قدم على عمر مال من العراق فقسمه فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين لو أبقيت من هذا المال لعدوان حضر أو نازلة أو نائبة إن نزلت فقال عمر قاتلك الله نطق بها على لسانك الشيطان لقننى الله حجتها والله لاأعصى الله اليوم ولـكن أعد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال عمر للمسلمين فى شأن نفسه إنى كنت أمرأ تاجراً يغنى الله عيالى بتجارتى وقد شغلتمونى بأمركم هذا فما ترون أنه يحل لى فى هذا المـال فأكثر القوم وعلى ساكت فقـال ماتقول يا أبا الحسن فقال ماأصلحك وعيالك بالمعروف ليس لك غيره فقال القول ما قال على فأخذ بما قال على. واشتدت مرة حاجة عمر فاجتمع نفر من الصحابة منهم عثمان وطلحة والزبير فقالوا لو قلنا لعمر فى زيادة نزيده إياها فى رزقه فقال عثمان هلموا فلنستبرىء ما عنده من وراء وراء فأتوا حفصة ابنتـه فأعلموها الحال واستـكتموها أن لاتخبر بهم عمر فلقيت عمر فى ذلك

فغضب وقال من هؤلاء لأسوء بهم قالت لا سبيل إلى علمهم قال أنت بينى وبينهم ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع قال فأى الطعام ناله عنـدك أرفع قالت حرفا من خبز شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجلعتها دسمة حلوة فأكل منها قال وأى مبسط كان يبسط عنـدك كان أوطأ قالت كساء ثخين كنا نربعه فى الصيف فإذا كان الشتاء بسط نصفه وتدثر بنصفه قال ياحفصة فأبلغيهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فضل الفضول فوضعها مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولا تبلغن بالترجية وإنما مثلى ومثل صاحبى كثلاثة سلـكوا طريقا فمضى الأول وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليـه ثم اتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما ألحق بهما وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما وكان فرض العطاء وتدوين عمر الدواوين سنة ١٥ من الهجرة ، وخطب عمر بالجابية لما كان بالشام فقال إن الله جعلنى خازناً لهذا المال وقاسما له ثم قال بل الله يقسمه وأنا بادىء بأهل النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أشرافهم ففرض لأزواج النبى صلى الله عليـه وسلم إلا جويرة وصفية ومارية رضى الله عنهن ثم قالت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان يعدل بيننا فعدل عمر بينهن رضى الله عنهن ثم قال إنى بادىء بالمهـاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم ظلما وعدوانا ثم أشرافهم فمن أسرع فى الهجرة أسرع به العطـاء ومن أبطـأ فى الهجرة أبطأ به العطاء فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته ولمـا قدم الشام استقبله الناس وهو على بعيره وقالوا يا أمير المؤمنين لو ركبت برذونا يلقاك عظماء الناس ووجوههم فقال لا أراكم ههنا إنما الأمر ههنا وأشار بيده إلى السماء خلوا سبيل جملى ودخل مرة على مزبلة فاحتبس عندها فـكان أصحابه تأذوا بها فقال هذه دنيا كم التى تحرصون عليها ، وقال نظرت فى هذا الأمر إذا أردت الدنيا أضر بالآخرة وإذا نظرت للآخرة أضر بالدنيا فإذا كان الأمر هكذا فأضروا بالفانية وعن على بن أبى طالب إن الله عز وجل جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيـامة سبقا والله سبقا بعيداً وأتعبا من بعدهما تعبـاً

شديداً وعن الإمام مالك قال كان السلف يعلمون أولادهم حب أبى بكر وعمر كما يعلمونهم السورة من القرآن ، وعن شعيب بن حرب قال قلت لمالك أوصنى قال أوصيك بحب الشيخين أبى بكر وعمر فقلت إن الله عز وجل أعطانى من ذلك شيئاً كثيراً قال والله إنى لأرجو لك على حبهما ما أرجوا لك على التوحيد وهذا الفرض الذى فرض عمر فى العطاء غير الفرض الذى فرض أبو بكر فإن أبا بكر سوى بين الناس فى الفرض والعطاء نظراً لاستوائهم فى الإسلام وأكثر مال جاء قسمه عشرين درهما عشرين درهما وفضلت فضلة فقسمها للخدم خمسة دراهم وقال أن لكم خدماً يخدمونكم ويعالجون لكم فرضخنا لهم ، فلما فتحت الفتوحات فى خلافة عمر وجاءته الأموال قال أن أبا بكر رأى فى هذا المال رأيا ولى فيه رأى آخر وفاضل بين الناس فى الفرض كما تقدم ، وقال لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه وفاضل بين أسامة بن زيد وعبدالله ابن عمر ففرض لأسامة أربعة آلاف ولعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف فقيل له لم زدت لأسامة ألفا وفضلته على ابنك عبد الله فقال ما كان لأبى عبد الله ما كان لأبى أسامة من الفضل ، وما كان لعبد الله ما كان لأسامة فإن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبى عبد الله وكان أسامة أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عبد الله وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار ألفين ألفين فمر به عمر بن أبى سلمة ربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال زيدوه ألفا ، وقال إنى فرضت له بأبيه أبى سلمة ألفين وزدته بأمه أم سلمة ألفاً ، فمن كانت أمه كأمه زدناه ألفا ، وجاءه طلحة بن عبيد الله بأخيه عثمان ففرض له ثمانمائة فمر به النضر بن أنس بن النضر فقال افرضوا له ألفين فقال له طلحة جئتك بمثله ففرضت له ثمانمائة وفرضت لهذا ألفين فقال إن أبا هذا وهو أنس بن النضر لقينى يوم أحد حين اضطرب الناس وصرخ الشيطان أن محمداً قتل فقال لى ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أن الناس يقولون أنه قد قتل فسل سيفه وكسر غمده وقال إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل فإن الله حى لا يموت فقاتل حتى قتل فإن كان أبو أخيك عثمان مثل أبيه . نفرض له مثل ما فرضنا له وجعل الفرض لمن يفرض له من

الصبيان من بعد الفطام من الرضاع ثم غير ذلك وجعل الفرض لمن يفرض له من الصبيان من حين الولادة وسبب ذلك أنها جاءت قافلة تحمل طعاما إلى المدينة وغربت الشمس قبل دخول القافلة المدينة فباتت القافلة خارج المدينة فبلغ ذلك عمر فقال لعبد الرحمن بن عوف إنى أخشى على هذه القافلة من السراق أخرج بنا نحرسهم من بعد فخرج ومعه عبد الرحمن بن عوف يحرسان القافلة من بعد وقاما يتهجدان بالصلاة فسمع عمر بكاء صبى بالمدينة فقال لعبد الرحمن بن عوف أحرس القافلة حتى أنظر سبب بكاء هذا الصبى فتوجه نحو الصبى وقال لأمه اتقى الله واحسنى إلى صبيك ، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه مرة ثانية فعاد إلى أمه فقال لها مثل ما قال فى المرة الأولى ثم عاد إلى مكانه فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فعاد إلى أمه فقال : ويحك إنى لا أراك أم سوء مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة فقالت وهى لا تعرف أنه عمر يا عبد الله إنى أحاوله على الفطام فيأبى ، قال ولم ؟ قالت لأن عمر لا يفرض للمولود إلا بعد الفطام ، فأريد أن أفطمه قبل أوان فطامه ليفرض له عمر ، قال فكم له ؟ قالت كذا وكذا شهراً فقال: تعجليه ورجع إلى عبد الرحمن بن عوف هو يبكى ويقول يا بؤسا لعمر كم قتل من أبناء المسلمين ، فلما صلى الفجر أمر مناديا ينادى أن لا تعجلوا على صبيانكم الفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام من حين يولد وكتب بذلك إلى الآفاق أن يفرقوا لكل مولود فى الإسلام من حين يولد ، وكان رضى الله عنه شديد الخوف من الله تعالى قوى الرجاء حتى كاد خوفه ورجاؤه كجناحى طائر فى الاعتدال فكان يقول لو نادى مناد من السماء لا يدخل النار إلا رجل واحد خفت أن أكون أنا ولو نادى مناد لا يدخل الجنة إلا رجل واحد لرجوت أن أكون أنا وكان عمر رضى الله عنه مدة خلافته لا ينام ليلا ولا نهاراً إلا خفقات يخفقها ويقول إن نمت ليلا أضعت نفسى وإن نمت نهاراً أضعت رعيتى وقرأ يوما ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ حتى بلغ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ خر مغشيا عليه أياما يعاد وأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف يستسلفه أربعمائة درهم فقال عبد الرحمن : تستسلفنى وعندك بيت المال ألا تأخذ منه ثم ترده ؟ فقال عمر : إنى أتخوف أن يصيبنى قدرى يعنى الموت فتقول أنت وأصحابك

أتركوها لأمير المؤمنين حتى تأخذ من يوم القيامة ولكن أستسلفها منك فإذا مت جئته واستوفيتها من ميراثى . وعن عبد الرحمن بن مسعود قال والله لو أعلم أن كلبا يحب عمر لأحببته وودت أنى كنت خادما لعمر حتى أموت ولقد وجد فقده كل شىء حتى العضاه وإن هجرته كانت نصراً وإن سلطانه كان رحمة وقال ابن مسعود لابنه عبد الله وهو فى حلقة فى المسجد الحرام يا أبا عبد الرحمن ما الصراط المستقيم إلا الذى كان عليه أبوك ثابتا حتى دخل الجنة ورأى ربه ، وحلف ثلاث أيمان على ذلك . قال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لى عمر بن الخطاب قال : كان عالما برعيته ، عادلا فى نفسه ، قليل الكبر ، قبولا للعذر ، سهل الحجاب ، مفتوح الباب ، متحريا الصواب ، بعيداً عن الإساءة ، رفيقا بالضعيف ، غير صخاب ، كثير الصمت ، بعيداً من ، العبث وكتب عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص وهو على مصر كن لرعيتك كما يحب لك أميرك وعن عبد الله بن العباس قال دخل عيينة بن حصن على عمر فقال هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال الحر بن قيس يا أمير المؤمنين إن الله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الكافرين فوالله ما تجاوز عمر حين تلاها وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل وعن الحسن البصرى قال يجىء الإسلام يوم القيامة فيتصفح وجوه الناس حتى يجىء إلى عمر فيصعد فيقول : أى رب كنت خفيا وأهان وهذا أظهرنى وأنت أعلم ، قال فتجىء ملائكة فتأخذ بيده فتدخله الجنان ، والناس فى الحساب ، وعن عبد الله بن عمر قال كان عمر إذا نهى الناس عن شىء دخل على أهله أو قال جمع أهله فقال إنى قد نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم فإن وقعتم وقعوا وإن هبتم هابوا وإنى والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا أضعفت له العقوبة لمكانه منى فمن شاء منكم فليتقدم ومن شاء فليتأخر وعن ضبة بن محصن العنزى قال كان علينا أميراً بالبصرة أبو موسى الأشعرى فكان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وأنشأ يدعو لعمر قال فغاظنى ذلك منه فقمت إليه

حيث لا يذكر أبا بكر فقلت له أين أنت من صاحبه يعنى أبا بكر تفضله عليه فصنع ذلك جمعاً ، ثم كتب إلى عمر يشكونى يقول إن ضبة ابن محصن العنزى يتعرض لى فى خطبتى فكتب إليه عمر أن أشخصه إلى قال فأشخصنى إليه وقدمت فضربت عليه الباب فخرج إلى فقال من أنت ؟ فقلت أنا ضبة فقال لا مرحباً ولا أهلا قلت أما المرحب فمن الله وأما الأهل فلا أهل لى ولا مال فيما استحللت يا عمر أشخاصى من بلدى بلا ذنب أذنبته ولا شىء أتيته قال ما الذى شجر بينك وبين عاملى قال قلت الآن أخبرك أنه كان إذا خطبنا حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يدعوا لك فغاظنى ذلك منه فقمت له فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليك فصنع ذلك جمعاً ثم كتب إليك يشكونى قال فاندفع عمر باكيا وهو يقول : أنت والله أوفق منه وأرشد فهل أنت غافر ذنبى يغفر الله لك ؟ فقلت : غفر الله لك يا أمير المؤمنين قال ثم اندفع باكياً وهو يقول : والله ليلة من أبى بكر ويوم خير من عمر وآل عمر ، فهل لك أن أحدثك بليلته ويومه ؟ قلت : نعم ، قال : أما الليلة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد الخروج من مكة هاربا من المشركين خرج ليلا ومعه أبو بكر فجعل يمشى مرة أمامه ومرة خلفه ، ومرة عن يمينه ومرة عن يساره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا يا أبا بكر ، ما أعرف هذا من أفعالك؟ فقال: يارسول الله أذكر الرصد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك لا آمن عليك قال فمشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلته على أطراف أصابعه ، أى حتى لا يظهر أثر قدميه فى الأرض حتى حفيت فلما رأى أبو بكر أنها حفيت حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله ثم قال والذى بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شىء نزل بى قبلك قال فدخل فلم يرى فيه شيئاً فأدخله وكان فى الغار خرق فيه حيات وأفاع فألقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شىء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيؤذيه وجعلن يضربن أبابكر فى قدمه وجعلت دموعه تنحدر على خديه من ألم ما يجد ورسول الله يقول له يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه أى الطمأنينة لأبى بكر فهذه ليلته وأما يومه

فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتدت العرب فقال بعضهم نصلى ولا نزكى فأتيته لا آلوه نصحا فقلت يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تألف الناس وأرفق بهم فقال لى إجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام فبماذا تألفهم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفع الوحى فوالله لو منعونى عقالا كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر فهذا يومه ثم كتب إلى أبى موسى يلومه وقال الأوزاعى فى وعظ به المنصور بلغنى أن عمر بن الخطاب قال لو ماتت سخلة على شاطىء الفرات ضيعة لخشيت إن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك وحدثنى يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرو الأنصارى أن عمر بن الخطاب استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيما فقال له ما منعك من الخروج إلى عملك أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين فى سبيل الله قال لا قال وكيف ذلك قال انه بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من وال يلى شيئا من أمور الناس إلا أتى يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه لا يفكها إلا عدله فيوقف على جسر من النار ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه، ثم يعاد فيحاسب فإن كان محسنا نجا بإحسانه وإن كان مسيئا انخرق به ذلك الجسر فيهوى به فى النار سبعين خريفا فقال له عمر ممن سمعت هذا قال من أبى ذر وسلمان فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر واعمراه من يتولاها بما فيها فقال أبو ذر من سلب الله أنفه وألصق خده من الأرض فأخذ عمر المنديل على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكانى وقال عمر لا يقيم أمر الناس إلا حصين العقل أريب الفقه لا يطلع منه على عورة ولا يخاف منه على حرة ولا تأخذه فى الله لومة لائم، وقال أيضا الأمراء أربعة فأمير قوى ظلم نفسه أى منعها وعماله فذلك كالمجاهد فى سبيل الله يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأمير ظلم نفسه وأرتع عماله لضعفه فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله وأمير ظلم عماله وأرتع نفسه فذلك الحطمة الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده وأميراً أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعاً وقال عمر

أيضا اللهم إن كنت تعلم أنى أبالى إذا قعد الخصمان بين يدى على من مال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلنى طرفة عين ، وكان الخليفة المنصور مهابا شديد الهيبة لا يتجرأ أحد أن يعظه بمثل ما وعظه به الأوزاعى على ذلك لأنه طلبه وأحضره من الشام إلى بغداد وسأله أن يعظه فقال الأوزاعى أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به فصاح به الربيع وزير المنصور وأهوى بيده إلى السيف فانتهره المنصور وقال هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة قال الأوزاعى فطابت نفسى وانبسطت فى الكلام ومن جملة ما قال له فى ذلك المجلس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أى عبد جاءته موعظة من الله فى دينه فإنها نعمة من الله تعالى سيقت إليه فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد الله بها إثما ويزداد بها سخطا عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة » ومن كره الحق كره الله إن الله هو الحق المبين إن الله الذى لين قلوب رعيتكم لكم حين ولاكم أمورهم لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان بهم رؤفا رحيما مواسيا لهم بنفسه فى ذات يده محمودا عند الله وعند الناس فحقيق بك أن تقوم فيهم بالحق وأن تكون بالقسط له قائما ولعوراتهم ساترا لا تغلق عليك دونهم الأبواب ولا تقم دونهم الحجاب تبتهج بالنعمة عندهم وتبتئس بما أصابهم من سوء يا أمير المؤمنين قد كنت فى شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين تملكهم أحمرهم وأسودهم مسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك إذا انبعث منهم فئام وراء فئام وليس منهم أحد إلا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه أو ظلامة سقتها إليه يا أمير المؤمنين كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ويردع بها المنافقين فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد ما هذه الجريدة التى كسرت بها قلوب أمتك وملأت قلوبهم رعبا فكيف بمن شقق أستارهم وسفك دماءهم وخرب ديارهم وأجلاهم عن بلادهم وغيبهم الخوف ، يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا القصاص من نفسه فى خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد لم يبعثك الله جبارا ولا متكبرا ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم الأعرابى فقال

اقتص منى فقال الأعرابى قداحتك بأبى أنت وأمى وما كنت لأفعل ذلك أبداً ولو على نفسى فدعا له بخير يا أمير المؤمنين رض نفسك لنفسك وخذ لها الأمان من ربك وارغب جنة عرضها السموات والأرض التى يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم «لقيد قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها» يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقى لمن قبلك لم يصل إليك وكذا لا يبقى لك ولم يبق لغيرك يا أمير المؤمنين أتدرى ما جاء عن جدك فى تأويل هذه الآية ﴿ مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ قال الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك فكيف بما عملته الأيدى وحصدته الألسن يا أمير المؤمنين أتدرى ماجاء عن جدك فى تأويل هذه الآية ﴿ يَادَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ قال فى الزبور ياداود إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك فى أحدهما هوى فلا تتمنين فى نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك من نبوتى ثم لا تكون خليفتى ولا كرامة ياداود إنما جعلت رسلى إلى عبادى رعاء كرعاء الإبل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة ليجبروا الكسير السموات ويدلوا الهزيل على الكلا والماء ، يا أمير المؤمنين أنك قد بليت بأمر لو عرض على الأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه ، يا أمير المؤمنين قد سأل جدك العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة أو الطائف فقال له النبى صلى الله عليه وسلم «ياعباس ياعم رسول الله نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها» نصيحة منه لعمه وشفقة عليه وأخبره أنه لا يغنى عنه من الله شيئاً إذ أوحى الله إليه ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ فقال «ياعباس ياعم رسول الله وياصفية عمة رسول الله ويافاطمة بنت محمد إنى لست أغنى عنكم من الله شيئاً إن لى عملى ولكم عملكم» وقد بلغنى يا أمير المؤمنين أن جبريل عليه السلام أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تسعر ليوم القيامة فقال له ياجبريل «صف لى النار» فقال إن الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهى سوداء مظلمة لا يضىء جمرها ولا يطفأ لهبها والذى بعثك بالحق

لو أن ثوبا من ثياب أهل النار أظهر لأهل الأرض لماتوا جميعا ولو أن ذنوبا من شرابها صب فى مياه الأرض جميعا لقتل من ذاقه ولو أن ذراعا من السلسلة التى ذكرها الله تعالى وضع على جبال الأرض جميعا لذابت وما استقلت ولو أن رجلا أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه فبكى النبى صلى الله عليه وسلم وبكى جبريل عليه السلام لبكائه فقال أتبكى يا محمد وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال أفلا أكون عبداً شكوراً ولم بكيت أنت ياجبريل وأنت الروح الأمين أمين الله على وحيه قال أخاف أن أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت فهو الذى منعنى من اتكالى على منزلتى عند ربى فأكون قد أمنت مكره فلم يزالا يبكيان حتى نودى من السماء [ياجبريل ويامحمد إن الله أمنكما أن تعصيا فيعذبكما وفضلك على سائر الأنبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة] عليهم السلام ، يا أمير المؤمنين إن أشد الشدة القيام إلى الله بحقه ، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى وأن من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه وهذه نصيحتى إليك والسلام عليك ، ثم نهض الأوزاعى فقال له المنصور إلى أين فقال إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى قال قد أذنت لك وشكرت لك نصيحتك ، وقبلتها والله الموفق للخير والمعين عليه وبه أستعين عليه أتوكل وهو حسبى ونعم الوكيل ، فلا تخلنى من مطالعتك إياى بمثل هذا ، فإنك المقبول القول ، غير المتهم فى النصيحة قلت أفعل إن شاء الله تعالى ، ثم أمر المنصور للأوزاعى بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال أنا فى غنى عنه وما كنت لأبيع نصيحتى بعرض من الدنيا وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه فى ذلك ، وروى ابن المهاجر أن المنصور قدم مكة شرفها الله حاجا فكان يخرج من دار الندوة إلى الطواف فى آخر الليل يطوف ويصلى ولا يعلم به أحد فإذا طلع الفجر رجع إلى دار الندوة وجاءه المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فيصلى الناس فخرج ذات ليلة حين أسحر ، فبينما هو يطوف إذ سمع رجلا عند الملتزم وهو يقول اللهم إنى أشكوا إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع فأسرع المنصور فى مشيه حتى ملأ مسامعه من قوله ، ثم خرج فجلس فى ناحية من المسجد وأرسل إليه فدعاه فأتاه

الرسول وقال له أجب أمير المؤمنين فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه فقال له المنصور وما هذا الذى سمعتك تقول من ظهور البغى والفساد بالأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع والظلم فوالله لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى وأقلقنى فقال ياأمير المؤمنين إن أمنتنى على نفسى أنبأتك بالأمور من أصولها وإلا اقتصرت على نفسى ففيها لى شغل شاغل فقال له أنت آمن على نفسك فقال الذى دخله الطمع حتى بينه وبين الحق وإصلاح ما ظهر من البغى والفساد فى الأرض أنت فقال ويحك وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى يدى والحلو والحامض فى قبضتى ، قال وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك يا أمير المؤمنين إن الله تعالى استرعاك أمور المسلمين وأموالهم فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجبة معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك فيها منهم وبعثت عمالك بجميع الأموال واتخذت وزراء وأعوانا ظلمة إن نسيت لم يذكروك وإن ذكرت لم يعينوك وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والكراع والسلاح وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان نفر سميتهم ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع ولا العارى ولا الضعيف ولا الفقير ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا عنك تجبى الأموال ولا تقسمها قالوا هذا قد خان الله فمالنا لا نخونه وقد سخر لنا فأتمروا أن يصل إليك من علم أخبار الناس شىء إلا أرادوا أن لا يخرج لك عامل فيخالف لهم أمراً إلا قصوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وكان أول من صانعهم عمالك بالهداية والأموال ليتقووا بهم على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم من الرعية فامتلأت بلاد الله من الطمع بغيا وفسادا وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل فإن جاءك متظلم حيل بينه وبين الدخول إليك وإن أراد رفع صوته أو قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك وأوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم فإن جاء ذلك

الرجل فيبلغ بطاعتك سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته وكانت المتظلم بها حرمة وإجابة لم يمكنه مما يريد خوفا منهم فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعه ويعتل عليه فإذا جهدوا خرج وظهر وصرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر ولا تنكر ولا تغير فما بقاء الإسلام وأهله على هذا ولقد كانت بنو أمية وكانت العرب لا ينتهى إليهم المظلوم إلا رجعت ظلامته إليهم فينصف ولقد كان الرجل يأتى من أقصى البلاد حتى يبلغ باب سلطانهم فينادى يا أهل الإسلام فيبتدرونه مالك مالك فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم فينتصف له ولقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين وبها ملك فقدمتها مرة وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى فقال وزراؤه مالك تبكى لا بكت عيناك فقال أما أنى لست أبكى على المصيبة التى نزلت بى ولكن أبكى لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته ثم قال أما إن كان قد ذهب سمعى فإن بصرى لم يذهب نادوا فى الناس ألا يلبس ثوبا أحمر إلا المظلوم فكان يركب الفيل ويطوف طرفى النهار هل يرى مظلوما فينصفه هذا ياأمير المؤمنين مشرك بالله قد غلبت رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه وأنت مؤمن بالله وابن عم نبى الله لا يغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك فإنك لاتجمع الأموال إلا لواحد من ثلاثة إن قلت أجمعها لولدى فقد أراك الله عبرا فى الطفل الصغير يسقط من بطن أمه وماله على الأرض مال وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه وليس تعطى بل الله يعطى من يشاء وإن قلت أجمع المال لأشيد سلطانى فقد أراك عبرا فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ماجمعوه من الذهب والفضة وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع وماضرك وولد أبيك ما كنتم فيه من قلة الجدة والضعف حين أراد الله بكم ما أراد وإن قلت أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها فوالله مافوق ما أنت فيه إلا منزلة لاتدرك إلا بعمل صالح يا أمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشد من القتل قال لا قال فكيف تصنع بالملك الذى خولك الله وما أنت عليه من ملك الدنيا وهو تعالى لا يعاقب من عصاه بالقتل

ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم وهو الذى يرى منك ماعقد عليه قلبك وأضمرته جوارحك فماذا تقول إذا انتزع الملك الحق المبين ملك الدنيا من يدك ودعاك إلى الحساب هل يغنى عنك عنده شىء مما كنت فيه مما شححت عليه من ملك الدنيا فبكى المنصور بكاء شديداً حتى نحب وارتفع صوته ثم قال ياليتنى لم أخلق ولم أك شيئا ثم قال كيف احتيالى فيما خولت فيه ولم أر من الناس إلا خائنا قال يا أمير المؤمنين عليك بالأئمة الأعلام المرشدين قال ومن هم قال العلماء قال قد فروا منى ، قال هربوا منك مخافة أن تحملهم على ماظهر من طريقتك من قتل عمالك ولكن افتح الأبواب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم من الظالم وامنع المظالم وخذ الشىء مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل وأنا ضامن لك على أن من هرب منك يأتيك فيعاونك على صلاح أمرك ورعيتك فقال المنصور اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل وجاء المؤذنون فسلموا عليه وأقيمت الصلاة فخرج فصلى بهم ثم قال للحرسى عليك بالرجل إن لم تأتنى به لأضربن عنقك واغتاظ عليه غيظاً شديداً فخرج الحرس يطلب الرجل فبينما هو يطوف فى طلب الرجل ويفتش عليه فإذا هو بالرجل فى بعض الشعاب فقعد حتى صلى ثم قال ياذا الرجل أما تتقى الله قال بلى قال ماتعرفه قال فانطلق معى إلى الأمير فقد آلى أن يقتلنى إن لم آته بك قال ليس لى إلى ذلك من سبيل قال يقتلنى قال لا قال كيف ، قال تحسن تقرأ ؟ قال لا ، فأخرج من مزود كان معه ورقا مكتوبا فيه شىء فقال خذه فاجعله فى جيبك فإن فيه دعاء للفرج ، قال وما دعاء الفرج قال لا يرزقه إلا الشهداء قلت يرحمك الله قد أحسنت إلى فإن رأيت أن تخبرنى ما هذا الدعاء وفضله ، قال من دعا به مساء وصباحا هدمت ذنوبه ودام سروره ومحيت خطاياه واستجيب دعاؤه وبسط له فى رزقه وأعطى أمله وأعين على عدوه وكتب عند الله صديقا ولا يموت إلا شهيداً تقول (اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ماتحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك وإنقاد كل شىء لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لى من كل هم أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً اللهم إن

عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك مالا استوجبه مما قصرت فيه، أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً إنك المحسن إلى وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك تتودد إلى بنعمتك وأتبغض إليك بالمعاصي ولكن الثقة بك حملتني على الجرأة عليك فتب على بفضلك وإحسانك إنك أنت التواب الرحيم) قال فأخذته فصيرته في جيبي، ثم لم يكن لى هم غير أمير المؤمنين فدخلت عليه فرفع رأسه فنظر إلى وتبسم ثم قال ويلك أو تحسن السحر فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ثم قصصت عليه أمرى مع الشيخ فقال هات الورق الذى أعطاك ثم جعل يبكى وقال قد نجوت وأمر بنسخه وأعطانى عشرة آلاف درهم ثم قال أتعرفه قلت لا، قال ذاك الخضر عليه السلام وعن أبى عمران الجونى قال لما ولى هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء فهنوه بما صار إليه من أمور الخلافة ففتح بيوت الأموال وأقبل يجزيهم بالجوائز مسنية، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد وكان يظهر التنسك والتقشف وكان مؤاخياً لسفيان بن سعيد الثورى قديماً فهجره سفيان ولم يزره فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلو به ويحدثه فلم يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه فاشتد ذلك على هارون فكتب إليه كتابا يقول فيه (بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان ابن سعيد . أما بعد يا أخى قد علمت أن الله تبارك وتعالى وأخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم أنى قد واخيتك مؤاخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك وإنى منطو لك على أفضل المحبة والإرادة ولولا هذه القلادة التى قلدنيها الله لأتيتك ولو حبواً لما أجد لك فى قلبى من المحبة واعلم يا أبا عبدالله أنه مابقى من إخوانى وإخوانك أحد إلا وقد زارنى وهنأنى بما صرت إليه وقد فتحت بيوت الأموال وأعطيتهم من الجوائز السنية مافرحت به نفسى وقرت عينى وأنى استبطأتك فلم تأتنى وقد كتبت إليك كتاباً شوقاً منى إليك شديداً ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء فى فضل المؤمن وزيارته ومواصلته فإذا ورد إليك كتابى فالعجل العجل) فلما كتب الكتاب التفت إلى من عنده ، فإذا كلهم يعرفون سفيان الثورى وخشونته فقال على برجل من الباب. فدخل عليه رجل يقال له عباد الطالقانى فقال يا عباد خذ كتابى هـذا فانطلق به إلى

الكوفة فإذا دخلتها فسل عن قبيلة بنى ثور ثم اسأل عن سفيان الثورى فإذا رأيته فألق كتابى هذا وع بسمعك وقلبك جميع مايقول فاحص عليه دقيق أمره وجليله لتخبرنى به فأخذ عباد الكتاب وانطلق به حتى ورد الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد إليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هو فى المسجد ، قال عباد فأقبلت إلى المسجد فلما رآنى قام قائماً ، وقال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعوذ بك اللهم من طارق يطرق إلا بخير ، قال عباد فوقعت الكلمة فى قلبى فخرجت فلما رآنى نزلت بباب المسجد قام يصلى ولم يكن وقت صلاة فربطت فرسى بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته فسلمت فما رفع إلى أحداً رأسه وردوا السلام على برؤس والأصابع فبقيت واقفاً فما منهم يعرض على الجلوس وقد علانى من هيبتهم الرعدة ومددت عينى إليهم فقلت إن المصلى هو سفيان فرميت بالكتاب إليه ، فلما رأى الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له فى محرابه فركع وسجد وسلم وأدخل يده فى كمه ولفها بعبائه وأخذه فقلبه فى يده ، ثم رماه إلى من كان خلفه وقال يأخذه بعضكم يقرؤه فإنى أستغفر الله أن أمس شيئاً مسه ظالم بيده قال عباد فأخذه بعضهم فحله كأنه خائف من حية تنهشه ثم فضه وقرأه وأقبل سفيان يتبسم تبسم المعجب فلما فرغ من قراءته قال أقلبوا واكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه فقيل له يا أبا عبد الله إنه خليفة فلو كتبت له فى قرطاس نقى فقال اكتبوا إلى الظالم فى ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به وإن اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شىء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا فقيل له مانكتب ، فقال اكتبوا (بسم الله الرحمن الرحيم من العبد المذنب سفيان بن سعيد الثورى إلى العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذى سلب حلاوة الإيمان أما بعد : فإنى قد كتبت إليك أعرفك أنى قد صرمت حبلك ، وقطعت ودك ، وقليت موضعك فإنك قد جعلتنى شاهداً عليك بإقرارك على نفسك فى كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فأنفقته فى غير حقه وأنفذته فى غير حكمه ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت تشهدنى على

نفسك أما أنى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين شهدوا عليك قراءة كتابك ، وستؤدى الشهادة عليك غداً بين يدى الله تعالى ، يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل يرضى بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها فى أرض الله تعالى والمجاهدون فى سبيل الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حملة القرآن وأهل العلم والأرامل والأيتام ؟ أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد يا هارون مئزرك وأعد للمسلمين جوابا ، وللبلاء جلبابا ، واعلم أنك ستقف بين يدى الحكم العدل ، فقد رزئت فى نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين إماما ، يا هارون قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسبلت ستراً دون بابك ، وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك ، يظلمون الناس ولا ينصفون ، ويشربون الخمر ويضربون من يشربها ، ويزنون ويحدون الزانى ويسرقون ويقطعون يد السارق أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ، فكيف بك يا هارون غداً إذا نادى المنادى من قبل الله تعالى احشروا الذين ظلموا أزواجهم ، أين الظلمة وأعوان الظلمة فقدمت بين يد الله عز وجل ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك والظالمون حولك وأنت لهم سائق وإمام إلى النار كأنى بك يا هارون وقد أخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك فى ميزان غيرك وسيئات غيرك فى ميزانك زيادة على سيئاتك بلاء وظلمة فوق ظلمة فاحتفظ بوصيتى واتعظ بموعظتى التى وعظتك بها واعلم أنى نصحتك وما أبقيت لك فى النصح غاية فاتق الله يا هارون فى رعيتك واحفظ محمداً صلى الله عليه وسلم فى أمته وأحسن الخلافة عليهم واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل إليك وهو سائر إلى غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحداً بعد واحد فمنهم من تزود زاداً نفعه ومنهم من خسر دنياه وآخرته وإنى أحسبك يا هارون ممن خسر دنياه وآخرته فإياك إياك أن تكتب لى كتاباً بعد هذا فلا أجيبك عنه والسلام) قال عباد فألقى إلى الكتاب منشوراً غير مطوى ولا مختوم فأخذته وأقبلت إلى سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة فى

قلبي فناديت يا أهل الكوفة فأجابوني فقلت لهم يا قوم من يشتري رجلا هرب من الله إلى الله فأقبلوا إلىّ بالدنانير والدراهم فقلت لا حاجة لي في المال ولكن جبة صوف خشنة وعباءة قطوانية قال فأتيت بذلك ونزعت ما كان على من اللباس الذى كنت ألبسه مع أمير المؤمنين وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذى كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافياً راجلا فهزأ بي من كان على باب الخليفة ، ثم استؤذن لى فلما دخلت عليه وبصرني على تلك الحالة قام وقعد ، ثم قام قائماً وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول انتفع الرسول خاب المرسل مالى والدنيا مالى وللملك يزول عني سريعاً ، ثم ألقيت الكتاب إليه منشوراً كما دفع إلى فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه يا أمير المؤمنين لقد اجترأ عليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه في السجن كنت تجعله عبرة لغيره ، فقال هارون اتركونا يا عبيد الدنيا المغرور من غررتموه والشقى من أهلكتموه وأن سفيان أمه وحده فاتركوا سفيان وشأنه ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرأه عند كل صلاة حتى توفى رحمه الله تعالى . فرحم الله عبداً نظر لنفسه واتقى الله فيما يقدم عليه غداً من عمله فإنه عليه يحاسب وبه يجازى والله ولى التوفيق ، فهذه كانت سيرة العلماء وعادتهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لكنهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم رضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة فلما أخلصوا لله النية أثر كلامهم فى قلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها ، وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ففساد الرعايا بفساد الملوك وفساد الملوك بفساد العلماء وفساد العلماء بحب المال والجاه ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر الحسبة على الأراذل فكيف على الملوك والأكابر والله الموفق ووصف النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب فقال قرن من حديد لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وتركه قوله الحق ماله من صديق . وشرب عمر مرة من لبن إبل الصدقة غلطا فأدخل أصبعه وتقيأ . روى أن عمر وصله مسك

من البحرين فقال : وددت لو امرأة وزنت حتى أقسمه بين المسلمين فقالت امرأته عاتكة أنا أجيد الوزن فسكت عنها ، ثم أعاد القول فأعادت الجواب فقال لا أحببت أن تضيعه بكفة ثم تقولين فيها أثر الغبار فتمسحين بها عنقك فأصيب بذلك فضلا على المسلمين وكان لعمر لما ولى الخلافة زوجة كان يحبها فطلقها خيفة أن تشير عليه بشفاعة في باطل فيطيعها ويطلب رضاها ، وسمع عمر سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانياً يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدى إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد لولا أن سؤاله كان حراما لما ضربه ولما أخذ مخلاته وأما ضربه فتأديب وقد ورد الشرع بالتعزير وأما أخذ مخلاته فإن مافيها جمعه بلا حق لأن الذى أعطاه اعتقد أنه محتاج فهو مال ضائع لا يعرف مالكه وأمره للامام يصرفه فى المصالح ، وأتى عمر رضى الله عنه مرة بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال اعزلوا عنى حسابها وقد اقتدى فى ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم فإنه لما أتى قباء أتاه أهل قباء بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال : أما أنى لست أحرمه ولكن أتركه تواضعاً لله تعالى ، وقال علىّ لعمر إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الإزار واخصف النعل وكل دون الشبع ، وقال عمر اخشوشنوا وإياكم وزى العجم كسرى وقيصر ومن تزيا بزى قوم فهو منهم . وقال عمر كان لى صاحبان سلكا طريقا فإن سلكت غير طريقهما سلك بى غير طريقهما وأنى والله سأصبر على عيشهما الشديد لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد ، وقال الزهادة فى الدنيا راحة القلب والجسد . قال بعض الصحابة تابعنا الأعمال كلها فلم نر فى أمر الآخرة أبلغ من زهد فى الدنيا وكان عمر يحب على بن أبى طالب وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء عنه فى ذلك شىء كثير ، فن ذلك أنه لما قال النبى صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلى مولاه قال أبو بكر وعمر أمسيت يا ابن أبى طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة ، وحكم على مرة على إعرابى بحكم فلم يرض بحكمه فتلببه عمر بن الخطاب وقال له ويلك إنه مولاك

هو مولى كل مؤمن ومؤمنة وأخرج الطبرانى أنه قيل لعمر إنك تصنع بعلى من التعظيم شيئا لا تصنعه مع أحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقال إنه مولاى، والمراد من قوله صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلى مولاه الولاية هى المحبة والقرب والاتباع مثل قول الله تعالى ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبراهِيم لِلَّذِينَ اتَّبَعُوه وهَذَا النَّبِي والَّذِين آمَنوا ﴾ وأخرج ابن سعد عن أبى هريرة قال قال عمر بن الخطاب على أقضانا ، وأخرج أيضا عن سعيد بن المسيب قال قال عمر أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن يعنى عليا ، وأخرج أبو يعلى عن أبى هريرة ، قال : قال عمر بن الخطاب لقد أعطى على ثلاث خصال لأن تكون لى خصلة منها أحب إلى من حمر النعم ؟ فسئل وما هى قال تزويجه ابنته صلى الله عليه وسلم ، وسكناه فى المسجد لا يحل فيه ما يحل له وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وأخرج أبو يعلى والطبرانى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب من على ابنته أم كلثوم رضى الله عنهما بنت فاطمة رضى الله عنهما ، وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببى ونسبى وكل بنى أنثى عصبتهم لأبيهم ما خلا ولدى فاطمة فأنى أبوهم وعصبتهم » ثم قال عمر وإنى وإن كانت لى صحبة للنبى صلى الله عليه وسلم فأحببت أن يكون لى معها سبب ونسب . وقصة تزوج عمر بأم كلثوم بنت على رواها الأئمة من طرق كثيرة منهم الطبرانى والبيهقى والدارقطنى ، وأكثر طرق الحديث مروية عن أكابر أهل البيت النبوى منهم جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه زين العابدين أن عليا عزل بناته لولد أخيه جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فلقى عمر عليا رضى الله عنه فقال يا أبا الحسن أنكحنى ابنتك أم كلثوم بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد حبستها لولد أخى جعفر فقال عمر والله ما على وجه الأرض يرصد من حسن صحبتها ما أرصد فأنكحنى يا أبا الحسن فقال على صغيرة فقال عمر ما ذاك بك ولكن أردت منعى فإن كانت كما تقول فابعثها إلى وفى رواية أنه لما قال له أنها صغيرة قال له ما بى حاجة إلى الباءة ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة ما خلا سببى ونسبى وكل بنى أنثى عصبتهم لأبيهم ما خلا

ولد فاطمة فأنا أبوهم وعصبتهم » فأحببت أن يكون لى من رسول الله سبب ونسب وفى رواية وأنه كان لى صحبة فأحببت أن يكون لى معها سبب فقال على إن لى أمراء حتى استأذنهم وفى رواية أن لى أسدين حتى استأذنهما يعنى الحسن والحسين فاستأذن ولد فاطمة فأذنوا له وفى رواية أنه لما استأذن الحسن والحسين ، وقال إنى كرهت أن أقضى أمراً دونكما فسكت الحسين لكون أخيه الحسن أكبر منه وتكلم الحسن فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أبتاه فمن بعد عمر ، صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى وهو عنه راض ثم ولى الخلافة فعدل فقال له أبوه صدقت ولكن كرهت أن أقطع أمراً دونكما ثم قال لها على انطلقى إلى أمير المؤمنين فقولى له إن أبى يقرئك السلام ويقول لك إنا قد قضينا حاجتك وفى رواية فأعطاها حلة وقال لها قولى له هذا البرد الذى قال لك فقالت ذلك لعمر ، فقال قولى له قد رضيت حصان كريم ما أحسنها وأجملها ووضع يده على ساقها وفى رواية فضمها إليه فقالت : تفعل هذا لولا أنك أمير المؤمنين لكسرت أنفك ، ثم خرجت حتى أتت أباها فأخبرته الخبر قالت بعثتنى إلى شيخ سوء فقال يا بنية أنه زوجك ثم زوجه إياها فجاء عمر إلى مجلسه بين الروضة والمنبر حيث يجلس المهاجرين والأنصار وذكر لهم الخبر وفى رواية قال لهم رفونى أى قولوا إلى بالرفاء والبنين فقالوا بمن يا أمير المؤمنين فقال تزوجت أم كلثوم بنت على سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر لهم الحديث السابق وجعل لها مهراً أربعين ألفا فولدت له زيداً ورقية لم يعقبا ومات عمر عنها وتزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر بن أبى طالب فمات عنها وتزوجها بعده أخوه محمد ابن جعفر فمات عنها وتزوجها بعده أخوه عبدالله بن جعفر فماتت عنده ولم تلد لأحد من الثلاثة شيئا . واتفق الصحابة على أن عمر كان متصفا بكمال الزهد والعلم والورع والعقل وكانوا يقولون هو أكرم من أن يبخل وأعقل من أن يخدع وعن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يطلبون أنواع الطعام وألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام » . ودخل عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط فجلس فرأى أثر الشريط فى جنبه صلى الله عليه وسلم فدمعت عينا عمر فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « ما الذى أبكاك يابن الخطاب » قال ذكرت

كسرى وقيصر وماهما فيه من الملك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم «أما ترضى ياعمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة» قال بلى يارسول الله «قال فذلك كذلك»، ودخل رجل على أبى ذر فجعل يقلب بصره فى بيته فقال يا أبا ذر ما أرى فى بيتك متاعاً ولا غير ذلك من الأثاث فقال إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا فقال إنه لابد لك من متاع مادمت هاهنا فقال إن صاحب المنزل لايدعنا فيه ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فدخل على فاطمة فرأى على باب منزلها ستراً وفى يدها قلبين أى سوارين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل الستر والسوارين فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها بأبى أنت وأمى قد أحسنت ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة ستراً فهتكه وقال كلما رأيته ذكرت الدنيا أرسلى به إلى آل فلان ، وفرشت له عائشة ذات ليلة فراشاً جديداً وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فمازال يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعيدى العباءة الخلقة ونحى هذا الفراش عنى قد أسهرنى الليلة ، وكذلك أتته صلى الله عليه وسلم دنانير خمسة أو ستة ليلا فبيتها فسهر حتى أخرجها آخر الليل قالت عائشة رضى الله عنها فنام حتى سمعت غطيطه ، ثم قال ماظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه . وقال الحسن البصرى أدركت سبعين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لأحدهم إلا ثوبه وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوبا قط كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه وجعل ثوبه فوقه وقال الحسن ودخلنا على صفوان بن محيريز وهو فى بيت من قصب قد مال عليه فقيل له لو أصلحته فقال كم من رجل قد مات وهذا قائم على حاله وقال النبى صلى الله عليه وسلم من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة وفى الخبر كل نفقة للعبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه فى الماء و الطين وفى قوله تعالى «تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى

الأرْضِ وَلاَ فَسَادًا ﴾ قالوا إنه الرئاسة والتطاول فى البنيان وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذى شكا إليه ضيق منزله اتسع فى السماء أى فى الجنة وقال صلى الله عليه وسلم كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكنه من حر أو برد ونظر عمر فى طريق الشام إلى صرح قد بنى بجص وآجر فكبر وقال ما كنت أظن أن يكون فى هذه الأمة من يبنى بنيان هامان لفرعون يعنى قول فرعون فأوقد لى ياهامان على الطين يعنى به الآجر وأول من عمله هامان وأن فرعون أول من بنى له بالآجر والجص فسموا الجبابرة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعاً فى بعض الأمصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيته مبنيا من الرهص أى الطين الذى يبنى به فيجعل بعضه على بعض ثم رأيته الآن مبنيا باللبن فكان أصحاب السعف خيراً من أصحاب الرهص وكان أصحاب الرهص خيراً من أصحاب اللبن وكان فى السلف من يبنى داره مراراً فى مدة عمره لضعف بنائه وقصر أمله وزهده فى أحكام البنيان وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فإذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود وهى عادة العرب الآن ببلاد اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة ، قال الحسن البصرى كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت بيدى إلى السقف وقال ابن مسعود يأتى قوم يرفعون الطين ويدعون الدين ويستعملون البراذين ويصلون إلى قبلتكم ويموتون على غير ملتكم قالت عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة من أدم حشوها ليف وكان عمر يقول لا أبالى أصبحت غنياً أو فقيراً إلا أدرى أيهما خيراً لى وكان يقول ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم إذ لم يكن فى دينى وإذا لم يكن فى أعظم منه وإذ لم أحرم الرضا به وإذ أرجو الثواب عليه وسمع عمر بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم يبكى ويقول بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذم فقال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم،

بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال ﴿ وإذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُوحٍ ﴾ الآية بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول بأبى أنت وأمى يا رسول لئن كان موسى ابن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع الماء منها صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سربت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك فقالت لك الذراع لاتأكلنى فإنى مسمومة ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد دعا نوح على قومه فقال ﴿رَبِّ لاتَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيَّاراً﴾ ولو دعوت بمثلها علينا لهلكنا كلنا لقد وطىء ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك مالم يتبع نوحاً فى كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل بأبى أنت وأمى يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفؤاً ماجالستنا ولو لم تنكح إلا كفؤا مانكحت إلينا ولولم تواكل إلا كفؤا ماواكلتنا فلقد والله جالستنا ونكحت إلينا وآكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت الطعام على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك ، وقال عمر رضى الله عنه إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العالم خاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليست عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء وكان عمر يقول لأبى موسى الأشعرى ذكرنا ربنا وكان أبو موسى حسن الصوت حسن القراءة فيقرأ أبو موسى حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة فيقول أو لسنا فى الصلاة إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ وكتب عمر إلى أمراء الأجناد اخلولقوا واخشوشنوا أى

البسوا الخلق واستعملوا الخشن فى الأشياء وأهدى عمر نجيبه أى نوى أن يجعلها هدية فطلبت منه بثلاثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها ففعل أى لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون ، وقال عمر إذا أصاب أحدكم وداً من أخيه فليستمسك به فقلما يصيب ذلك وعن عبد الرحمن ابن عوف قال خرجت مع عمر ليلة فى المدينة فبينما نحن نمشى إذ ظهر لنا سراج فانطلقنا نؤمه فلما دنونا منه إذا باب مغلق على قوم لهم أصوات ولغط فأخذ عمر بيدى وقال أتدرى بيت من هذا قلت لا قال هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم على شرب فما ترى قلت أرى أنا أتينا ما نهانا الله عنه قال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ فرجع عمر وتركهم وهذا يدل على وجوب الستر وترك التتبع وقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاوية «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم» وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو كان فى جوف بيته » وكان عمر ليلة يعس بالمدينة فسمع رجلا فى بيت يتغنى فتسور عليه فوجد عنده امرأة ودنا من خمر فقال ياعدو الله ظننت أن الله يسترك وأنت على معصيته فقال وأنت يا أمير المؤمنين فلا تعجل فإنى إن كنت عصيته الله واحدة فقد عصيت الله ثلاثا قال الله تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ وقد تجسست وقال تعالى ﴿ وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وقد تسورت على وقال تعالى ﴿ لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ وقد دخلت بيتى بغير إذن ولا سلام فقال عمر رضى الله عنه هل عندك من خير إن عفوت عنك قال نعم والله يا أمير المؤمنين لئن عفوت عنى لا أعود إلى مثلها أبداً فعفا عنه وخرج وتركه ، وقال عمر رضى الله عنه من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء الظن به . ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال يا أمير المؤمنين أنها امرأتى فقال هلا كلمتها حيث لا يراك الناس وقال عمر لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور وكان يكثر النكاح ويقول إنى لا أتزوج إلا لأجل الولد ، وقال عمر ما أعطى العبد بعد الإيمان بالله خيراً من امرأة صالحة وتزوج

رجل على عهد عمر وكان قد خضب فينصل فى خضابه فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا حسبناه شابا فأوجعه عمر ضربا ، وقال غررت القوم وكان عمر ينهى عن المغالاة فى الصداق ويقول تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت وكان ذلك الأساس رحى وجرة ووسادة من أدم حشوها ليف وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير وعلى أخرى بمدين من تمر ومدين من سويق وخطب مرة ونهى عن المغالاة فى الصداق وقال ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولازوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت له امرأة : كيف تنهى وقد قال الله تعالى ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً﴾ فقال : كل الناس أفقه منك يا عمر حتى النساء ، وفى رواية قال امرأة أصابت وأخطأ عمر وراجعت امرأة عمر فى الكلام فقال لها أتراجعيني يالكعى ؟ فقالت : إن أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يراجعنه وهو خير منك فقال عمر خابت حفصة وخسرت إن راجعته ثم دخل على حفصة فقال لها لا تغترى بابنة أبى قحافة فإنها حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفها من المراجعة . وروى أن امرأة من نساء النبى صلى الله عليه وسلم دفعت فى صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فزبرتها أمها فقال صلى الله عليه وسلم دعيها فإنهن يصنعن أكثر من ذلك ، وجرى مرة بينه وبين عائشة يوماً كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر حكما فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمى أو أتكلم فقالت بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقا فلطمها أبو بكر حتى دمى فوها وقال ياعدوة نفسها أو يقول غير الحق فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا وقالت له مرة فى كلام غضبت عنده إنك الذى تزعم أنك نبى الله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتمل ذلك حلما وكرما وكان يقول لها إنى لأعرف غضبك من رضاك قالت وكيف تعرفه قال إذا رضيت قلت لا وإله محمد وإذا غضبت قلت لا وإله إبراهيم قالت صدقت إنما أهجر أسمك وقالوا أول حب وقع فى الإسلام حب النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة وكان يقول

لها « كنت لك كأبى زرع لأم زرع غير أنى لا أطلقك » . « وكان يقول لنسائه « لا تؤذونى فى عائشة فإنه والله ما نزل على الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكم غيرها وقال أنس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان وكان يمزح مع نسائه وينزل إلى درجات عقولهن مرة فى الأعمال والأخلاق حتى روى عنه أنه كان يسابق عائشة فى العدو وسبقت يوما وسبقها فى بعض الأيام فقال عليه الصلاة والسلام « هذه بتلك » ، وفى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم كان من أفكه الناس مع نسائه وقالت عائشة سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عيد ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتحبين أن ترى لعبهم ؟ » قالت قلت نعم فأرسل إليهم فجاؤا وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ومد يديه ووضعت ذقنى على يده وجعلوا يلعبون وأنظر وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حسبك وأقول اسكت مرتين أو ثلاثا ثم قال يا عائشة حسبك فقالت نعم فأشار إليهم فانصرفوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » وقال صلى الله عليه وسلم « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » وفى رواية خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائى ، وقال عمر رضى الله عنه مع خشونته ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى فإذا التمس ما عنده وجد رجلا ، وقال رضى الله عنه خالفوا النساء فإن فى خلافهن بركة ، وقد قيل شاوروهن وخالفوهن وقد برز عمر رضى الله عنه امرأته بمراجعته ، وقال ما أنت إلا لعبة فى جانب البيت إن كانت لنا إليك حاجة وإلا جلست كما أنت ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ليلة أسرى بى فى الجنة قصراً وبفنائه جارية فقلت لمن هذا القصر فقيل لعمر فأردت أن أنظر إليها فذكرت غيرتك يا عمر » فبكى عمر رضى الله عنه وقال أعليك أغار يا رسول الله وقال عمر رضى الله عنه : أعروا النساء يلزمن الحجال لا تلبسوهن زينة وإنما قال ذلك لأنهن حينئذ لا يرغبن فى الخروج فى الهيئة الرثة وبعث عمر رضى الله عنه حكما إلى زوجين فعاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال إن الله تعالى يقول ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ فعاد الرجل وأحسن النية وتلطف بهما فأصلح بينهما وقال عمر لا يقعد أحدكم

عن طلب الرزق وهو يقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لم تمطر ذهباً ولا فضة وقال ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب إلى من موطن أطلب فيه القوت لأهلى أبيع وأشترى وكان يطوف فى السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول لا يبيع فى سوقنا إلا من يفقه وإلا أكل الربا شاء أو أبى ، قال قتادة لما قدم عمر رضى الله عنه الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله فقال هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه لهم الجنة فاغرورقت عينا عمر وقال لئن كان حظنا هذا الطعام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بعيداً ، ومر عمر رضى الله عنه يوما ببناء يبنى بحجارة وجص فقال لمن هذا فقالوا لعامل من عمالك بالبحرين فقاسمه ماله وكان يقول لى على كل خائن أمينان الماء والطين وكان إذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم وعمن يعرف من أهل البلاد التى قدموا منها وعن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض فإن قالوا نعم حمد الله تعالى وإن قالوا لا عزله ، وكتب له أن أقبل وكان يقول مثل السلطان إذا ولى العمال الظالمين مثل من يسترعى غنمه الذئاب ومثل من يربط الكلب العقور ببابه وقد تقدم أنه كان يشاطر العمال أموالهم فيأخذ نصف أموالهم فيجعلها فى بيت المال وإنما شاطرهم حين ظهرت لهم أموال بعد الولاية لم تكن تعرف لهم وولى أبا هريرة عملا ثم رأى له مالا فقال له من أين لك هذا المال فقال أبو هريرة دواب تناتجت وتجارات تداولت وأسهم من الغنيمة فقال أد الشطر وكأنه رأى أن ما أصاب العامل من غير رشوة وإن كان حلالا فإنه لا يستحق ذلك لأن له بالإمارة قوة على أن ينال بالحلال مالا يناله غيره وفعله هذا مأخوذ من فعل النبى صلى الله عليه وسلم ففى الصحيحين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن اللتبية عاملا على صدقات الأزد ، فلما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمسك بعض ما معه وقال هذا لكم وهذا لى أهدى إلى فقال صلى الله عليه وسلم إلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ثم خطب فقال مالى أستعمل الرجل منكم فيقول هذا لكم وهذا لى هدية إلا جلس فى بيت أبيه وبيت أمه ليهدى له فوالذى نفسى بيده لا يأخذ

منكم أحد شيئا بغير حقه إلا أتى به يوم القيامة يحمله فيأتين أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ثم رفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه ثم قال اللهم قد بلغت وكان إذا قدم عليه العمال يأمرهم أن يدخلوا نهاراً ولا يدخلوا ليلا كى لا يحجبوا شيئاً من المال وقال عتاب بن أسيد لما ولاه النبي صلى الله عليه وسلم مكة والله ما أصبت فى عملى الذى ولانى النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثوبين معقدين كسوتهما مولاى كيسان وكان يقول رحم الله امرأ أهدى إلى أخيه عيوبه ، وقال مرة لسلمان الفارسى رضى الله عنه ما الذى بلغك عنى مما تكرهه فاستعفاه فألح عليه فقال بلغنى عنك أن لك حلتين تلبس إحداهما بالنهار والأخرى بالليل وبلغنى عنك أنك تجمع بين أدامين على مائدة واحدة فقال عمر رضى الله عنه أما هذان فقد كفيتهما فهل بلغك غيرهما قال لا وإنما قال عمر لسلمان فقد كفيتهما موافقة لسلمان فيما بلغه مع أن ذلك مكذوب على عمر لم يقع منه شىء من ذلك ، وسأل عمر بعض من قدم عليه من الشام عن أخ كان واخاه فى الله تعالى نخرج إلى الشام فقال ما فعل أخى فلان قال ذاك أخو الشيطان قال عمر مه قال انه قارف الكبائر حتى وقع فى الخمر فقال عمر إذا أردت الخروج فآذنى فكتب له عند خروجه ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ حٰم تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ ثم كتب له بعد ذلك كلاما يعاتبه فيه ويعذله فلما قرأ الكتاب بكى وقال صدق الله وقد نصح لى عمر فتاب مما كان قد وقع فيه وكان عمر يحب عبد الله ابن العباس ويقربه ويدنيه ويستشيره ويقدمه على الأشياخ فقال العباس لابنه عبد الله إنى أرى هذا الرجل يعنى عمر يقدمك على الأشياخ فاحفظ عنى خمسا لا تفشين له سراً ولا تغتابن عنده أحداً ولا تجربن عليه كذبا ولا تعصين له أمراً ولا يطلعن منك على خيانة قال الشعبى كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف وكان عمر يقول ثلاث يصفون لك ود أخيك أن تسلم عليه إذا لقيته أولا وأن توسع له فى المجلس وأن تدعوه بأحسن أسمائه إليه ، وكان عمر يوما جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت ثناياه فقال عمر يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما الذى أضحكك

فقال رجلان من أمتي جثيا بين يدى الله عز وجل فقال أحدهما يارب خذ لى مظلمتى من هذا فقال الله تعالى [رد على أخيك مظلمته] فقال يارب لم يبق لى من حسناتى شىء فقال الله تعالى للطالب [كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شىء] فقال يارب فليحمل عنى من أوزارى ثم فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء فقال « إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم » قال فيقول الله تبارك وتعالى [للمتظلم ارفع بصرك فانظر فى الجنان] فقال يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأى صديق هذا أو لأى شهيد هذا فيقول الله تعالى [لمن أعطى الثمن] قال يارب ومن يملك ذلك [قال أنت تملكه] قال بماذا يارب قال [بعفوك عن أخيك] قال يارب قد عفوت عنه فيقول الله تعالى [خذ بيد أخيك فأدخله الجنة] ثم قال صلى الله عليه وسلم « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين يوم القيامة » وروى أن عمر كان يعس ذات ليلة بالمدينة فرأى رجلا وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس أرأيتم لو أن إماما رأى رجلا وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين قالوا إنما أنت إمام فقال على ابن أبى طالب ليس ذلك لك إذن يقام عليك الحد إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ثم تركهم ما شاء الله أن يتركهم ، ثم سألهم فقال القوم مثل مقالتهم الأولى وقال على مثل مقالته الأولى فكان عمر متردداً فى أن الوالى هل له أن يقضى بعلمه فى حدود الله تعالى فلذلك راجعهم فى مقام التقرير لا فى مقام الأخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفا بأخباره ومال على رضى الله عنه إلى أنه ليس له ذلك فأخذ عمر بقوله وهذا هو المختار عند الفقهاء فإن من قال أن القاضى يقضى بعلمه استثنى من ذلك الحدود ، وروى النخعى أن عمر بعث مصدقين فأبطأوا عليه وبالناس حاجة شديدة فلما جاؤا بالصدقات قام عمر متزراً بعباءة يختلف فى أولها وآخرها يقسم تلك الصدقة ويقول هذه لآل فلان وهذه لآل فلان حتى انتصف النهار وجاع فدخل بيته فأكل من أكل بيته وقال فى مال الصدقة من أدخله بطنه أبعده الله قال العلامة الطرطوشى فى كتابه المسمى سراج الملوك كانت الخلفاء تعدل فى بيت المال فكانت الرعية هم الأجناد وهذه

هى سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم وكان جوعه أكثر من شبعه وتوفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة فى آصع من شعير وإذا لم يكن العدل فى بيت المال ضعف الملك وقويت الأعداء، كان الهرمزان من ملوك الفرس فأسره المسلمون وأرسلوه إلى عمر بن الخطاب، فلما وصل إلى المدينة وجد عمر فى المسجد مستلقياً متوسداً فأخذت كوما من الحصا ودرقته بين يديه فقال له عدلت فأمنت فنمت، وعن زيد بن ثابت قال: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه على عاتقه قربة وهو يتخلل الناس فقلت مالك يا أمير المؤمنين فقال لى لا تتكلم وأقول لك فسرت معه حتى صبها فى بيت عجوز وعدنا إلى منزله فقلت له فى ذلك فقال أنه حضرنى رسول ملك الروم ورسول ملك الفرس فقالا لى لله درك يا عمر قد اجتمع الناس على علمك وفضلك وعدلك، فلما خرجا من عندى تداخلنى ما يتداخل البشر فقمت ففعلت بنفسى ما فعلت وحمل مرة أخرى قربة على عنقه فقيل له فى ذلك فقال إن نفسى أعجبتنى فأردت أن أذلها وقال له كعب الأحبار يوما إنا لنجدك فى كتابنا أنك تكون على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقعوا فيها فإذا مت لم يزالوا يقتحمون فيها إلى يوم القيامة وكان كعب الأحبار حبراً من أحبار اليهود ثم هداه الله للاسلام زمن خلافة عمر وكان عنده علم كثير من التوراة وكتب بنى إسرائيل وكان فيها صفات النبى صلى الله عليه وسلم وصفات خلفائه وأصحابه وكثير من حوادث هذه الأمة فكان يجلس مع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ويخبرهم بها وقد رأوا كثيراً مما أخبرهم به من الحوادث التى تجرى فى المستقبل فرأوها كما أخبر وقال له عمر يوماً خوفنا يا كعب فقال لعمر اعمل عمل وجل لو وافيت القيامة بعمل سبعين نبيا لا زدريت عملهم مما ترى فنكس عمر وأطرق ملياً، ثم أفاق فقال زدنا يا كعب فقال يا أمير المؤمنين لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالمشرق ورجل بالمغرب لغلا دماغه حتى يسيل من حرها فنكس عمر، ثم أفاق فقال يا كعب زدنا فقال يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا خر على ركبتيه حتى يخر إبراهيم خليل الرحمن يقول يارب لاأسألك اليوم إلا نفسى وقال معاوية لصعصعة بن صوحان صف لى عمر بن الخطاب فقال: كان

عالماً برعيته عادلا فى قضيته عاريا من التكبر قابلا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحريا للصواب رفيقاً بالضعيف غير محاب للقوى وغير جاف للقريب وعن سليمان بن داود عليهما السلام الرحمة والعدل يحرزان الملك وروى عمر بن الخطاب عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا التقى المسلمان وسلم كل منهما على صاحبه وتصافحا زلت بينهما مائة رحمة للبادى تسعون وللمصافح عشر » والتقى مرة عمر وأبو عبيدة فصافحه أبو عبيدة وقبل يده وتنحيا يبكيان ، وأخذ عمر مرة بغرز زيد بن ثابت تعظيما له لعلمه وقال هكذا فافعلوا بزيد وأمثاله وكتب عمر إلى عماله مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا وإنما قال ذلك لأن التجاور يورث التزاحم على الحقوق وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم وكان عمر يذهب إلى قباء والعوالى كل سبت ويتفقد عمل العبيد فإذا وجد عبداً فى عمل لا يطيقه وضع عنه منه وكان يقول خذوا بحظكم من العزلة راحة من قرين السوء وعن الشافعى الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنبسط وقال عمر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر وقال صلى الله عليه وسلم « لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم » وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس إن الله يقول لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر قبل أن تدعو فلا يستجاب لكم » وقال أبو الدرداء لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم وتستغفرون فلا يغفر لكم وتستنصرون فلا تنصرون وقال صلى الله عليه وسلم « ما أعمال البر عند الجهاد فى سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كنفثة فى بحر لجى وما جمع أعمال البر والجهاد فى سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا كنفثة فى بحر لجى » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادرون على إنكاره فلا ينكرونه » وكان عمر يوما يعطى الناس عطاياهم إذ جاءه رجل معه ابن له فقال له عمر ما رأيت

أحد أشبه بأحد من هذا بك فقال الرجل أحدثك عنه ياأمير المؤمنين بأمر إني أردت أن أخرج من السفر وأمه حامل به فقالت تخرج وتدعنا على هذه الحالة فقلت أستودع الله ما في بطنك فخرجت ثم تقدمت فإذا هي قد ماتت فجلسنا نتحدث فإذا نار على قبرها فقلت للقوم ماهذه النار فقالوا هذه النار على قبر فلانة يعنون زوجته نراها كل ليلة فقلت والله إن كانت لصوامة قوامة فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا فإذا سراج وإذا هذا الغلام يدب فقيل لى أن هذه وديعتك ولو كنت استودعت أمه لوجدتها فقال عمر لهو أشبه بك من الغراب بالغراب وكان عمر كبقية أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبالغون فى تطهير قلوبهم وبواطنهم من الصفات الذميمة كالعجب والكبر يتساهلون فى الطهارة الظاهرة حتى أن عمر توضأ من ماء فى جرة نصرانية وكان بعض المنافقين يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهم عمر أن يقتله ورأى أن فعله ذلك حرام وركب عمر مرة على فرس هملاج ثم نزل عنه وقطع ذنبه لأنه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مشيته وسمع عمر مرة رجلا يقرأ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ فصاح صيحة وخر مغشيا عليه فحمل إلى بيته فلم يزل مريضا شهراً وكان عمر يقول إذا أعطيتم فاغنوا وكان يعطى أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فما فوقها ، وأعطى مرة ناقة بولدها وقال اللهم اجعل الفضلى عند خيارنا وكان يقول أن الأعمال تباهت فقالت الصلة أنا أفضلكن ، وقال له رجل من أهل الكتاب فى قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ولو نزلت هذه الآية علينا لجعلنا يوم نزولها عيد فقال عمر رضى الله عنه أشهد لقد نزلت هذه الآية يوم عيدين إثنين يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة وقد اتخذناه عيداً وكان رضى الله عنه يقول الحاج مغفور له ولمن يستغفر له فى ذى الحجة ومحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول وحج رضى الله عنه فلما قبل الحجر الأسود قال أنى لأعلم أنك حجر لاتضر ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك ثم بكى حتى علا نحيبه والتفت فرأى على بن أبى طالب رضى الله عنه ورآه فقال يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب

الدعوات فقال الله رضى الله عنه ، ياأمير المؤمنين بل هو يضر وينفع قال وكيف قال إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء ويشهد على الكافرين بالجحود فقال عمر رضى الله عنه لا أبقانى الله فى قوم لست فيهم يا أبا الحسن قال العلماء ولهذا المعنى الذى ذكره على رضى الله عنه استحب للطائف أن يقول عند استلام الحجر اللهم إيمانا بك ووفاء بعهدك يشيرون بذلك إلى العهد الذى ألقمه الله الحجر وكان عمر يقول أخشى أن كثرة المقام بمكة تسقط هيبة البيت الحرام من القلوب فكان يقول للحجاج إذا حجوا يا أهل اليمن يمنكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم ولذلك هم بمنع الناس من كثرة الطوائف وقال خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت فتسقط هيبته من قلوبهم وقال لقد هممت أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا وقال عمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه للدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه وكان رضى الله عنه يقول يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن الله سبحانه وتعالى رداء يحبه فمن طلب بابا من العلم رداه الله عز وجل بردائه فإذا أذنب استعتبه ثلاث مرات لئلا يسلبه رداءه وقال رضى الله عنه موت ألف عابد صائم النهار قائم الليل أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه وقال رضى الله عنه من حدث حديثا فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل وقال رضى الله عنه أن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم قالوا وكيف يكون منافقا وعليما فقال عليم اللسان جاهل القلب والعمل وقال رضى الله عنه إذ أزل العالم زل بزلته عالم من الخلق وقال رضى الله عنه ثلاث بهن ينهدم الدين أحداهن زلة العالم وكان عمر رضى الله عنه يسأل حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما عن نفسه هل فيه شيء من النفاق فبرأه من ذلك وكان إذا دعى إلى جنازة ليصلى عليها نظر فإن حضر حذيفة للصلاة عليها صلى عليها وإلا ترك وكان حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنافقين والفتن وكان لا يحضر جنازة منافق وكان عمر رضى الله عنه يقول ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وماتم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله وقال تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم

وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم وقال إن الرجل يشيب فى الإسلام وما أكمل لله صلاة فقيل له وكيف ذلك قال لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل وقال ما كنا نعرف الأشنان زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رضى الله عنه لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يترك إنكار المنكر ولا النصح للمسلمين فكان مرة يخطب الجمعة فدخل المسجد عثمان بن عفان فأنكر عليه تأخره إلى ذلك الوقت وترك البكور إلى المسجد فقال فى خطبته أ هذه الساعة تجىء ياعثمان فقال عثمان مازدت بعد أن سمعت الأذان على أن توضأت وخرجت فقال عمر والوضوء أيضاً أى اقتصرت عليه وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالغسل وأخر عمر مرة صلاة المغرب حتى طلع نجم فأعتق رقبة وسئل عن جهد البلاء فقال كثرة العيال وقلة المال وخطب رضى الله عنه مرة فقال أيها الناس ، أنه قد أتى على زمان وأنا أرى أن قراءة القرآن يريدون به الله عز وجل وماعنده فخيل إلى الآن أن قوماً يقرؤنه يريدون به الناس والدنيا ألا فأريدوا الله عز وجل بأعمالكم إلا إنما كنا نعرفكم إذ يتنزل الوحى وإذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا من أخباركم فقد انقطع الوحى وذهب النبى فإنما نعرفكم الآن بالقول فمن رأينا منه خيراً ظننا به خيراً وأحببناه عليه ومن رأينا منه شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه عليكم سر أمركم بينكم وبين ربكم ألا وإنى إنما أبعث عمالى ليعلموكم دينكم وسنتكم ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم إلا من رابه شىء من ذلك فليرفعه إلى فو الذى نفسى بيده لأقصنكم منه فقام عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت أن بعثت عاملا من عمالك فأدب رجلا من رعيتك فضربه أتقصه منه قال نعم والذى نفس عمر بيده لاقتصه منه فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه وخطب لما ولى الخلافة فقال يا أيها الناس إنى داع فأمنوا اللهم إنى غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير ولا رياء ولا سمعة واجعلنى

أبتغى بذلك وجهك والدار الآخرة ، اللهم ارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال وذكرنى الموت فى كل حين اللهم إنى ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التى لاتكون إلا بعزتك وتوفيقك، اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك وارزقنى الخشوع فيما يرضيك عنى والمحاسبة لنفسى وإصلاح الساعات والحذر من الشبهات ، اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك والفهم له والمعرفة بمعانيه والنظر فى عجائبه والعمل بذلك مابقيت ، أنك على كل شىء قدير وكان آخر كلام عمر الذى إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته، اللهم لاتدعنى فى غمرة ولا تأخذنى على غرة ولا تجعلنى من الغافلين وكان الذين يكتبون له زيد ابن ثابت وعبد الله بن أرقم وعبد الله بن خلف الخزاعى الذى يقال له طلحة الطلحات كان على ديوان البصرة وكتب له ديوان الكوفة أبو حبيرة بن الضحاك فلم يزل إلى أن ولى عبد الله بن زياد فعزله وولى مكانه حبيب بن القيسى روى أن عمر رضى الله عنه خطب امرأة من ثقيف وخطبها المغيرة ابن شعبة فزوجوها المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا زوجتم عمر فإنه خير قريش أولها وآخرها إلاماجعل الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وعن الحسن البصرى قال مافضل عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان أطولهم صلاة وأكثرهم صياما ولكنه كان أزهدهم فى الدنيا وأشدهم فى أمر الله عز وجل قال قال ابن عباس خرجت يوما أريد عمر فى خلافته فألقيته راكبا على حمار قد أرسنه بحبل أسود وفى رجليه نعلان مخصوفتان وعليه إزار قصير وقميص قد انكشفت منه ساقاه فمشيت إلى جنبه وجعلت أجذب الإزار عليه فجعل يضحك ويقول أنه لايطيعك حتى أتى العالية فصنع له طعاما من خبز ولحم فدعوه إليه وكان عمر صائما فجعل ينبذ إلى الطعام ويقول كل لى ولك .

ذكر مقتل عمر رضى الله عنه

قال الحسن كان للمغيرة بن شعبة غلام نصرانى وقيل مجوسى يقال له فيروز أبو لؤلؤة وكان نجاراً جيداً نقاشا يصنع الرحى وحدادا وكان خراجه ثقيلا عليه فشكا إلى عمر ثقل الخراج وسأله أن يكلم مولاه أن يخفف من خراجه فقال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال وما صناعتك قال نجار نقاش حداد قال ما أرى هذا خراجا ثقيلا فى مثل صناعتك فقد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت قال نعم لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدث بها من المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد وعدنى العبد الآن ، فلما كان الغد جاءه كعب الأحبار فقال له يا أمير المؤمنين أعهد فإنك ميت فى ثلاث ليال قال وما يدريك قال أجد ذلك فى كتاب عندى قال عمر أتجد عمر بن الخطاب قال اللهم لا ولكنى أجد حليتك وصفتك وإنك قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعا ، فلما كان الغد جاءه كعب فقال بقى يومان فلما كان الغد جاءه كعب فقال مضى يومان وبقى يوم فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالا فإذا استوت كبر فاستعمل أبو لؤلؤة خنجراً له رأسان محدد الطرفين نصابه فى وسطه وكان عمر قد رأى فى المنام ديكا أحمر ينقره ثلاث نقرات فتأوله بأنه رجل من العجم يطعنه ثلاث طعنات وكان عمر يوكل بالصفوف رجالا يسوونها فإذا استوت أخبروه فكبر وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فلما كان ذلك اليوم الذى طعن فيه كمن له أبو لؤلؤة فى المسجد فى غمار الناس وأمهله إلى أن كبر ودخل فى صلاة الصبح فطعنه ثلاث طعنات وقيل ست طعنات إحداهن تحت سرته هى التى قتلته فلما وجد عمر حد سلاح سقط وقال دونكم والكلب فإنه جنى على وفى رواية قتلنى أو أكلنى الكلب فماج الناس وأسرعوا إليه وصار العلج لا يمر على أحد يمينا وشمالا إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة حتى جاء رجل فاحتضنه من خلفه وقيل ألقى عليه برنسا فأدلى السكين إلى حلقه فقتل نفسه وقال عمر عندما سقط أفى الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا : نعم هو ذا فتناوله بيده وقال تقدم صل بالناس فصلى بهم

عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة وحمل عمر إلى منزله ثم سأل عمن طعنه فقالوا له أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فقال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام ثم أذن للناس فدخلوا عليه ودخل فى الناس كعب الأحبار فلما نظر إليه عمر أنشأ يقول :

وواعدنى كعب ثلاثا أعدها ولا شك أن القول ما قاله كعب
وما بى حذار الموت أنى لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم أوصى بجعل الخلافة شورى بين ستة وتقدم الكلام على ذلك مستوف ثم قال لابنه عبد الله انظر ما على من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً فقال إن وفى له مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا فسل بنى عدى بن كعب وإن لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم إلى غيرهم فادعنى هذا المال ثم قال انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم أميراً وقل يستأذن عمر أن يدفن مع صاحبيه فضى وسلم واستأذن ثم دخل على عائشة فوجدها قاعدة تبكى فقال : يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى ، فلما أقبل قيل هذا عبد الله قد جاء وهو متطلع إليه قال ارفعونى فأسنده رجل إليه فقال ما لديك فقال الذى تحب ياأمير المؤمنين أذنت فقال عمر الحمد لله ما كان شىء من الأمر أهم إلى من ذلك فإذا أنا قضيت فاحملونى وقل يستأذن عمر بن الخطاب فإن أذنت لى فأدخلونى وإن ردتنى فردونى ، وفى رواية وإلا فاصرفنى إلى مقابر المسلمين فلما توفى خرجوا به فصلى عليه صهيب بن سنان الرومى ثم حملوه واستأذنو به على عائشة فأذنت فدفنوه فى بيتها عند النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وطعن فى يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ودفن يوم الأحد صبيحة هلال المحرم سنة أربع وعشرين وعمره ثلاث وستون سنة ، ومدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام وفى تاريخ ابن الوردى مر يوما عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام لا يزال بينكم وبين الفتنة باب شديد الغلق ما دام هذا بين أظهركم فإذا فارقكم انفتح ذلك الباب فكان كما قال عليه الصلاة والسلام لأن الفتنة كلها قد تجمعت

بعد مقتله واتصل بعضها ببعض ولا تزال الفتن كذلك إلى يوم القيامة انتهى ذكر ما كان لعمر رضى الله عنه ، وذلك نذر يسير من سيرته رضى الله عنه .

ذكر ما كان لسيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه

من الاقتصاد فى الدنيا وحسن السيرة

كان عثمان رضى الله عنه زاهداً فى الدنيا راغبا فى الآخرة عادلا فى بيت المال لا يأخذ لنفسه منه شيئاً لأنه كان غنياً وغناه كان مشهوراً من حياة النبى صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته وكان كثير الانفاق فى نهاية الجود والسماحة والبذل فى القريب والبعيد وأنزل الله فيه ﴿ الذينَ يُنفِقُونَ أَمْوالهُم فى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يَتبِعُونَ مَا أنفقُوا مَنًّا وَلا أذى لَهُم أَجْرُهُم عِنْد رَبِّهم وَلاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ وقوله تعالى ﴿ أمنْ هُوقانت آناء الليْل سَاجِداًوَقَائماً يَحْذَر الآخِرةوَيرْجو رَحْمةَ رَبّه ﴾ وقوله تعالى ﴿ رِجَالٌ صَدَقوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ﴾ وكان يخطب الناس وعليه إزار غليظ عدنى ثمنه أربعة دراهم وكان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته يأكل الخل والزيت قال الحسن البصرى دخلت المسجد فإذا أنا بعثمان متكئاً على ردائه فأتاه سقاآن يختصمان إليه فقضى بينهما وعن عبدالله بن شداد قال رأيت عثمان رضى الله عنه يوم الجمعة يخطب وهو يومئذ أمير المؤمنين وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم وسئل الحسن البصرى ما كان رداء عثمان ؟ قال : كان قطرى قالوا كم ثمنه ؟ قال ثمانية دراهم وكان رضى الله عنه شديد التواضع قال الحسن البصرى رأيت عثمان وهو أمير المؤمنين نائما فى المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجى الرجل فيجلس إليه ، ثم يجيء الرجل فيجلس إليه فيجلس هو كأنه أحدهم وروى خيثمة قال رأيت عثمان نائما فى المسجد فى ملحفة ليس حوله أحد وهو أمير المؤمنين وفى رواية أخرى خيثمة أيضاً رأيت عثمان يقيل فى المسجد ويقوم وأثر الحصاة فى جنبه فيقول الناس هذا يا أمير المؤمنين وكان يلى وضوءه فى الليل بنفسه فقيل له لو أمرت بعض الخدم لكفوك فقال لا الليل لهم يستريحون فيه وكان رضى الله عنه يعتق فى كل جمعة رقبة منذ أسلم إلا أن لا يجد ذلك تلك الجمعة فيجمعها فى الجمعة الأخرى قال العلامة ابن حجر فى الصواعق أن جملة ما أعتقه عثمان

رضى الله عنه ألفان وأربعمائة ومن تواضعه أنه كان يردف غلامه خلفه أيام خلافته ولا يعيب ذلك .
وكان يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعة من أوله وكان يختم القرآن كل ليلة فى صلاته وكان
كثيراً مايختمه فى ركعة وكان إذا مر على المقبرة يبكى حتى تبتل لحيته وكان من العشرة
المبشرين بالجنة ومن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم توفى وهو عنهم راض وكان من
السابقين للاسلام فإنه أسلم بعد أبى بكر وعلى وزيد بن حارثة وشهد له النبى صلى الله
عليه وسلم بالجنة والزهد فى الدنيا فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال رحمك الله ياعثمان
ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك وكثرت الفتوحات فى زمن خلافته فقد فتح فى زمنه
أفريقية وسواحل الأردن وسواحل الروم واصطخر وفارس وطبرستان وسجستان وغير
ذلك وكثرت أموال الصحابة فى خلافته حتى بيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف ونخلة
بألف وعن الحسن البصرى قال كانت الأرزاق فى زمن عثمان وافرة وكان الخير كثيراً
وأصاب الناس مجاعة فى غزوة تبوك فاشترى طعاما يصلح العسكر وأخرج أبو يعلى عن
جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال عثمان بن عفان «ولبى فى الدنيا والآخرة » وأخرج ابن
عساكر عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم : قال «عثمان فى الجنة وقال لكل نبى خليل فى
الجنة وأن خليلى عثمان بن عفان» وفى رواية لكل نبى رفيق فى الجنة ورفيقى فيها عثمان ابن
عفان وقال صلى الله عليه وسلم « ليدخلن بشفاعة عثمان سبعون ألفا كلهم استحقوا النار ، الجنة
بغير حساب » وأخرج أبو يعلى عن أنس رضى الله عنه أول من هاجر إلى الحشبة بأهله عثمان
ابن عفان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «صحبهما الله أن عثمان لأول من هاجر إلى الله
تعالى بأهله بعد لوط» ولما زوج النبى صلى الله عليه وسلم بنته أم كلثوم لعثمان قال لها أن بعلك
لأشبه الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم أشد
أمتى حياء عثمان بن عفان وقال صلى الله عليه وسلم أن الله أوحى إلى أن أزوج كريمتى يعنى
رقية وأم كلثوم من عثمان وقال صلى الله عليه وسلم إن عثمان حيى تستحى منه الملائكة وقال
صلى الله عليه وسلم إنما يشبه عثمان بأبينا إبراهيم وقال صلى الله عليه وسلم مازوجت عثمان
بأم كلثوم إلا بوحى من السماء وقال صلى الله عليه وسلم لعثمان ياعثمان هذا جبريل يخبرنى

أن الله زوجك أم كلثوم بمثل صداق رقية وعلى مثل صحبتها » وأخرج الترمذى عن عبد الرحمن بن خباب قال شهدت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان يا رسول الله على مائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله ثم حض على الجيش فقال عثمان يا رسول الله على ثلثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها فى سبيل الله فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول «ما على عثمان ما فعل بعد اليوم» وعن عبد الرحمن ابن سمرة قال جاء عثمان إلى النبى صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز العسرة فنثره فى حجره فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها ويقول «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم» قالها مرتين وفى رواية عن حذيفة رضى الله عنه أنها عشرة آلاف دينار فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقلبها ويقول «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة ما يبالى عثمان ما عمل بعدها» وأخرج الواحدى إن الله أنزل بسبب ذلك فى حق عثمان ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وعن أبى سعيد الخدرى قال ارتقبت النبى صلى الله عليه وسلم ليلة من أول الليل إلى أن طلع الفجر يدعو لعثمان بن عفان يقول «اللهم عثمان بن عفان رضيت عنه فارض عنه فما زال رافعاً يديه حتى طلع الفجر» وأخرج البغوى عن جابر بن عطية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «غفر الله لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت وما هو كائن إلى يوم القيامة» وأخرج الإمام أحمد عن أم عمر بنت حسان وكانت امرأة صدق قالت سمعت أبى يقول إن عثمان جهز جيش العسرة مرتين ولما أمر صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان رسول النبى صلى الله عليه وسلم إلى مكة فبايع الناس فقال النبى صلى الله عليه وسلم أن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله فضرب بإحدى يديه على الأخرى نيابة عنه فكانت يد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم وأخرج الترمذى عن عمر قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة فقال «يقتل فيها هذا مظلوما لعثمان رضى الله عنه» وأخرج الترمذى وابن ماجه والحاكم وصححه عن مرة بن كعب قال سمعت رسول الله يذكر فتنة يقربها فمر

رجل مقنع فى ثوب فقال هذا يومئذ على الهدى ، فقمت إليه فإذا هو عثمان بن عفان فأقبلت إليه بوجهى فقلت هذا قال نعم وأخرج الترمذى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعثمان « إن الله مقمصك قميصا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعها حتى تلقانى » فلما حصره المنافقون وأرادوا منه أن يخلع نفسه امتنع لهذا الحديث وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلى عهداً فأنا صابر عليه وروى الحاكم عن أبى هريرة قال اشترى عثمان الجنة من النبي صلى الله عليه وسلم مرتين حين حفر بئر رومة وحين جهز جيش العسرة ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة لم يكن بها ماء مستعذب غير بئر رومة فقال صلى الله عليه وسلم « من يشترى بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة » فاشتراها عثمان بخمسة وثلاثين ألف درهم وجعلها للمسلمين وكانت بقعة إلى جنب المسجد فقال النبي صلى الله عليه وسلم « من يشتريها ويوسعها فى المسجد فله مثلها فى الجنة » فاشتراها عثمان بعد ذلك فوسعها فى المسجد وقال صلى الله عليه وسلم « رحم الله عثمان تستحيه الملائكة » وجهز جيش العسرة وزاد فى مسجدنا حتى وسعنا وعن أبى الفرات قال كان لعثمان عبد فقال له يوماً إنى كنت عركت أذنك فاقتص منى وألزمه أن يفعل فأخذ بأذنه ثم قال قصاص فى الدنيا لاقصاص فى الآخرة وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه وزن إيمان عثمان بإيمان الأمة فرجحهم وأخرج الطبرانى عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « رأيت أنى وضعت فى كفة وأمتى فى كفة فعدلتها ، ثم وضع أبو بكر فى كفة وأمتى فى كفة فعدلها ثم وضع عمر فى كفة وأمتى فى كفة فعدلها ثم وضع عثمان فى كفة وأمتى فى كفة فعدلها » . وأخرج ابن عساكر عن عائشة قالت والله ماقال أبو بكر شعراً قط فى جاهلية ولا إسلام ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر فى الجاهلية وأخرج أبو نعيم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعصمة بن مالك إذا أنا مت وأبو بكر وعمر وعثمان فإن استطعت أن تموت فمت وروى ابن عساكر عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال القائم بعدى فى الجنة والذى يقوم بعده فى الجنة والثالث والرابع فى الجنة وروى ابن عساكر أيضاً عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أربعة لا يجتمع حبهم فى قلب منافق ولا يحبهم إلا مؤمن أبو بكر وعمر وعثمان

وعلى» وأتى صلى الله عليه وسلم مرة لجنازة رجل فلم يصل عليها فقيل له يارسول الله ماتركت الصلاة على أحد قبل هذا فقال «إنه كان يبغض عثمان فأبغضه الله عز وجل» وروى الإمام أحمد والبخارى وغيرهما عن أنس قال صعد النبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان أحداً فرجف بهم فضربه النبى صلى الله عليه وسلم برجله وقال أثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان وتكرر مثل ذلك وهو على حراء وعلى ثبير وعن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض حصيات فسبحن فى يده حتى سمع لهن حنين كحنين النعل ثم ناولهن أبا بكر فسبحن فى يده وكذا فى يد عمر وعثمان ثم دفعهن إلينا فلم يسبحن مع أحد منا وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله افترض عليكم حب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى كما افترض عليكم الصلاة والزكاة والصوم والحج فمن أنكر فضلهم فلا تقبل منهم الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج» وقال صلى الله عليه وسلم لأبى موسى «بشر عثمان بالجنة على بلوى تصيبه» فلما أخبره قال الله المستعان وروى الشافعى بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كنت أنا وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى أنواراً على يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألف عام» وأصاب الناس مجاعة فى خلافة أبى بكر فجاءت عير من الشام لعثمان تحمل براً وزبيباً ، وكانت ألف بعير فأعطاه التجار لكل درهم خمسة دراهم فقال إن الله أعطانى لكل درهم عشرة أشهدكم أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله تعالى ، قال الزهرى كان عثمان أحب إلى قريش من عمر بن الخطاب لأن عمر كان شديداً عليهم فلما وليهم عثمان لان لهم ووصلهم وكان عثمان حليما سخيا محببا إلى قريش حتى كان يقال أحبك الرحمن حب قريش لعثمان وكان لعثمان على طلحة بن عبيد الله خمسون ألفاً فقال له يوما قد تهيأ مالك فاقبضه قال هو لك معونة على مروءتك وكان شديد الشفقة على رعيته قال سليمان بن موسى : دعى عثمان إلى قوم كانوا على أمر قبيح فخرج إليهم فوجدهم قد تفرقوا ورأى أمراً قبيحا فحمد الله إذ لم يصادفهم وأعتق رقبة كفارة لقيامه وخروجه وكان شديد الخوف من الله تعالى فكان إذا مر بقبر يبكى حتى تبتل لحيته وكان يقول يا ليتنى إذا مت لم أبعث وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا عثمان إنك مبتلى

بعدى فلا تقاتل» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يوم يموت عثمان يصلى عليه ملائكة السماء» ودخل عثمان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت ركبته صلى الله عليه وسلم بادية فغطاها فقيل له دخل عليك أبو بكر وعمر وعلى فلم تغطها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى لأستحى ممن استحيت منه الملائكة» وكان رضى الله عنه يقال له ذو النورين لأنه تزوج بنتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلم أحد، أرسل ستراً على ابنتى نبى غيره زوجه ابنته رقية فلما ماتت زوجه أم كلثوم فلما ماتت قال «لو كان عندى ثالثة لزوجتكها» وعن على قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لو أن لى أربعين بنتا لزوجت عثمان واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى منهن واحدة» وقال صلى الله عليه وسلم «إنما يشبه بأبينا إبراهيم عليه السلام» وعن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول مر بى عثمان وعندى ملك من الملائكة فقال شهيد يقتله قومه إنا نستحى منه وفى رواية عن بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الملائكة تستحى من عثمان كما تستحى من الله ورسوله» وروى الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقتل هذا مظلوماً وأشار إلى عثمان». وروى ابن عساكر عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أن لله سيفاً مغموداً فى غمده ما دام عثمان حياً فإذا قتل عثمان جرد ذلك السيف فلم يغمد ذلك السيف إلى يوم القيامة» وفى الشفاء للقاضى عياض أنه صلى الله عليه وسلم قال «يقتل عثمان وهو يقرأ فى المصحف وأن الله عسى أن يلبسه قميصاً وأنهم يريدون خلعه وأنه يسيل دمه» على قوله تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ ولما حصروه استأذنه جماعة من الصحابة أنهم يقاتلونهم فأبى وممن استأذنه ليقاتلهم على بن أبى طالب وعبد الله بن عمر وأبو هريرة فامتنع أن يأذن لهم وكان يامن قتلة عثمان ويقول اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان ولقد طاش عقلى يوم قتل عثمان وكان على يقول أيضاً والله الذى لا إله إلا هو ماقتلت عثمان ولا ما لأت ولقد نهيت فعصونى وعن عبد الله بن عمر قال كنت مع عثمان يوم الدار فقال أعزم على كل من رأى أن لى عليه سمعاً وطاعة أن يكف يده ويلتى

سلاحه فألقى القوم أسلحتهم وقال سمرة أن الإسلام كان فى حصن حصين وأنهم ثلموا فى الإسلام ثلمة عظيمة بقتلهم عثمان لا تنسد إلى يوم القيامة وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن مهدى خصلتان لعثمان ليستا لأبى بكر ولا لعمر صبره على نفسه حتى قتل وجمعه الناس على المصحف، وكان له عبيد عشرون حملوا السلاح ليقاتلوا عنه يوم حصره فمنعهم وقال من ألقى السلاح فهو حر لوجه الله تعالى فامتنعوا عن القتال وألقوا السلاح ولما قتل فتشوا خزائنه فوجدوا فيها صندوقاً مقفلا ففتحوه فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها هذه وصية عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الله يبعث من فى القبور ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد عليها نحيا وعليها نموت وعليها نبعث إن شاء الله من الآمنين وأخرج الحاكم عن عبد الله بن مسعود أنه قال لما بويع عثمان بايعنا خير من بقى وعن يزيد بن أبى حبيب قال بلغنى أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان وحاصروه جنوا وعن حذيفة أن أول الفتن قتل عثمان وآخر الفتن خروج الدجال والذى نفسى بيده لايموت رجل وفى قلبه مثقال حبة من حب قتلة عثمان إلا اتبع الدجال إن أدركه وإن لم يدركه آمن به فى قبره وعن ابن عباس قال لولم يطلب الناس بدم عثمان لرموا بالحجارة من السماء، وقال ابن عباس أيضا لوأمطرت السماء دماً لقتل عثمان لكان قليلا له، وكان ابن عباس يقول ليغلبن معاوية وأصحابه علياً وأصحابه لأن الله تعالى يقول ﴿ومَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّه سُلطاناً فلاَ يُسرف فى القَتل إنَّه كانَ مَنْصُوراً﴾، وكان آخر خطبة خطبها عثمان، أيها الناس إن الله إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، فلم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى والآخرة تبقى لاتبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية فآثروا ما يبقى على مايفنى فإن الدنيا منقطعة وأن المصير إلى الله، اتقوا الله فإن تقواه جنة من بأسه ووسيلة عنده واحذروا من الله الغيرة والزموا جماعتكم ولاتكونوا أحذابا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان وهو محصور لأسلم عليه فدخلت عليه فقال مرحباً بأخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة فى هذه الخوخة وهى خوخة فى البيت فقال

يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى إلى دلوا فيه ماء فشربت حتى رويت . حتى إنى لأجد برده بين ثديى وبين كتفى قال لى إن شئت نصرت عليهم ، وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم ، و قال عبدالله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان فى الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط قالوا سمعناه يقول اللهم أجمع أمة محمد ثلاثاً فقال ابن سلام والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيرى قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان فقال أنشدكم بالله والإسلام وهل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال« من يشترى رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة »فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها ومن ماء البحر قالوا اللهم نعم ، قال . أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى قالوا نعم قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة» فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض قال فركضه برجله ، وقال «أسكن ثبير فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان »قالوا اللهم نعم قال الله وكم شهدوا لى ورب الكعبة إنى شهيد وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين اللهم إنى استعديك عليهم واستعينك على جميع أمورى واسألك الصبر على ما ابتليتنى قال المحب الطبرى فى الرياض النضرة إن الشيعة اختلقوا أشياء جعلوها طعناً فى عثمان وهو برىء منها فمنها قالوا إنه زوج ابنه بابنة الحارث بن الحكم وأعطاه مائة ألف من بيت المال فقد كذبوا فى ذلك فإنه إنما أعطى ذلك من ماله لا من بيت المال وهو مشهور بالغنى قبل أن يلى الخلافة وقالوا أيضاً أنكح ابنته أم أبان من مروان وأعطاها مائة ألف من

بيت المال وذلك أيضا كذب محض بل إنما كان ذلك من ماله وقالوا أيضا أنه أعطى الحارث ابن الحكم عشور أسواق المدينة وذلك غير صحيح وإنما الصحيح أن الحارث المذكور جعله عثمان محتسبا على السوق ليحافظ على الأسواق كي لا يقع التطفيف والخيانة والجور فى المكاييل والموازين فقام بالأمر يومين أو ثلاثة فاشتكى أهل المدينة منه وقالوا إنه كان يشترى النوى ويمنع غيره من شرائه فلا يحصل من النوى شيء لإبل المسلمين فعزله عثمان فوراً ووبخه وأى عيب يعود إلى عثمان من ذلك بل هو عين الإنصاف والعدل فإن عزله له كان بمجرد سماع الشكاية مع أنه من قرابته وعابوا عليه أيضاً أنه ولى بعض أقاربه ولايات وذلك لا يعاب عليه فيه لأنه كان باجتهاد منه وطلباً لإظهار العدل لأنه رأى أن أقاربه يعينونه على إظهار العدل وإقامة الحق وهكذا جميع الأشياء التى عابوه بها كلها كانت باجتهاد منه وله فيها أعذار ومخارج تدل على أنه إنما أراد بذلك العدل وإظهار الحق وكلها مبسوطة فى كتب أهل السنة ولما حصروه المنافقون وقتلوه بايع الناس بعده على ابن أبى طالب وبايعه أيضاً القوم الذين حصروا عثمان وقتلوه فوقعت الفتنة بين الصحابة لذلك فقال الذين امتنعوا من بيعته لا نبايعك حتى تعطينا قتلة عثمان نقتص منهم فقال على بايعونى أولا ثم بعد ذلك نتتبع قتلة عثمان فمن ثبت عليه شرعا موجب القصاص نقتص منه وأما الاقتصاص منهم قبل دخولكم فى البيعة فإنه عسر جداً لأن لهم قبائل وعشائر يتعصبون لهم فتنتشر الفتنة وتزداد هذا هو السبب فى الاختلاف الذى وقع بينهم فنشأ عنه وقعة الجمل ووقعة صفين وتمسك كل الفريقين بحجج وأدلة وتعارضت الأدلة عند بعضهم فاعتزلوا الفريقين منهم سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ومحمد ابن مسلمة والمغيرة بن شعبة وبقى الأمر متشبها بين الناس إلى زمن الأئمة الأربعة فنظروا فى الحجج والأدلة التى تمسك بها كل فريق فظهر لهم واتضح تصويب اجتهاد على وتخطئة اجتهاد غيره لكن لما كان ذلك الخطأ ناشئاً عن اجتهاد لم يأثموا به لقول النبى صلى الله عليه وسلم « من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد » فلا سبيل إلى الحكم بتأثيم أحد منهم فلذلك كان مذهب أهل السنة السكوت عما جرى بين الصحابة رضى الله عنهم وتأويله وحمله على أحسن المحامل تحسينا للظن بهم لأن الله تعالى أثنى عليهم وشهد لهم بالصدق وأخبر بأنهم رضى الله عنهم ورضوا عنه

وكذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فى أحاديث كثيرة فالقدح فيهم يوجب تكذيب الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ويوجب أيضاً الحكم عليهم بالفسق فيستلزم ذلك إسقاط ما جاء عنهم من السنة والتشريع الذى نقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيستلزم ذلك إبطال الشريعة بخلاف ما إذا حمل ما وقع منهم على الاجتهاد الذى لا إثم فيه فمذهب أهل السنة هو المذهب الحق الذى من عدل عنه فقد زاغ وضل ومن تمسك به فقد نجا ومما يؤيد مذهب أهل السنة أن علياً سأله أبو سلامة الدلانى عن القوم الثائرين لطلب قتلته فقال أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا هذا من الدم إن كانوا أرادوا الله بذلك قال نعم وقال أفترى لك حجة بتأخير ذلك قال نعم إن الشيء إذا كان لايدرك أن الحكم فيه أحوطه وأعمه نفعا قال فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً قال إنى لأرجو أن لا يقتل منا ومنهم أحد نقى قلبه الله إلا أدخله الله الجنة واستشهد سيدنا عثمان لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة ٤٥ يوم الجمعة وقيل كان قتله أيام التشريق وكانت خلافته اثنتى عشرة سنة إلا اثنتى عشر يوما وكان عمره ٨٢ سنة وقيل ٨٨ وقيل ٩٠ وقصة حصاره وقتله طويلة مبسوطة فى التواريخ لاحاجة لنا بذكرها والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ما كان لسيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه

من الاقتصاد فى الدنيا وحسن السير

كان على رضى الله عنه شديد الزهد فى الدنيا بل قال عمر بن عبد العزيز أن على بن أبى طالب كان أزهد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى الدنيا وكذا قال سفيان ابن عيينة وكان رضى الله عنه عادلا فى بيت المال لا يأخذ منه إلا بقدر حاجته وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالزهد فى الدنيا وأن الله زينه بذلك فقد روى عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى «أن الله قد زينك بزينة لم يزين العباد بزينة أحب منها هى زينة الأبرار عند الله تعالى الزهد فى الدنيا فجعلك لاترزأ من الدنيا ولا الدنيا ترزأ منك شيئاً وحبب إليك المساكين فجعلك ترضى بهم

تباعا ويرضون بك إماما » وأخرج الإمام أحمد عن على بن أبى ربيعة أن عليا جاءه بن التياح فقال يا أمير المؤمنين امتلأ بيت المال من صفراء وبيضاء فقال الله أكبر ثم قام متوكأ على بن التياح حتى قام على المال فنودى فى الناس فأعطى جميع ما فى بيت المال وهو يقول ياصفراء يابيضاء غرى غيرى هاوها حتى ما بقى منه دينار ولا درهم ، ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين وفى رواية رواها الإمام أحمد أيضاً أن علياً دخل بيت المال فرأى فيه شيئاً فقال لا أرى هذا ههنا وبالناس إليه حاجة فأمر به فقسم وأمر بالبيت فكنس ثم نضح فصلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة وكان أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خازنا لعلى رضى الله عنه على بيت المال قال فدخل على يوما وقد زينت ابنته فرأى عليها لؤلؤة كان قد عرفها لبيت المال فقال من أين لها هذه لأقطعن يدها فلما رأى أبو رافع جده فى ذلك قال أنا والله يا أمير المؤمنين زينتها بها فقال على لقد تزوجت بفاطمة ومالى ولها فراش إلا جلد كبش ننام عليه بالليل ونعلف عليه ناضحنا بالنهار ومالى خادم غيرها وقال هارون بن عنترة عن أبيه قال دخلت على على بالخورنق فى فصل الشتاء وعليه خلق قطيفة فقلت يا أمير المؤمنين أن الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبا وأنت تفعل هذا بنفسك فقال والله ما أرزقكم شيئاً وما هى إلا قطيعتى التى خرجت بها من المدينة وقال يحيى بن سلمة استعمل على عمرو بن سلمة على إصبهان فقدم ومعه مال وزقاق فيها عسل وسمن فأرسلت أم كلثوم بنت على إلى عمرو تطلب منه سمنا وعسلا فأرسل إليها ظرف عسل وظرف سمن فلما كان الغد خرج على وأحضر المال والعسل والسمن ليقسم فعد الزقاق فنقصت زقين فسأله عنهما فكتمه وقال نحن نحضرهما فعزم عليه ألا ذكرهما فأخبره فأرسل إلى أم كلثوم فأخذ الزقين منها فرآها قد نقصا فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما فكان ثلاثة دراهم فأرسل إليها فأخذها منها ثم قسم الجميع . وقال عاصم بن كليب عن أمية قدم على على مال من أصبهان فقسمه على سبعة أسهم فوجد فيه رغيفا فقسمه على سبعة ودعا أمراء الأسباع فأقرع بينهم لينظر أيهم يعطى أولا وقال سفيان أن عليا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وإن كان ليؤتى بحبوبه من المدينة فى جراب من أرض تودع له

وأخرج يوماسيفا إله إلى السوق فباعه وقال لو كان عندى أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه وعن أبى حيان التيمى عن أبيه قال سمعت على بن أبى طالب ورأيته وهو يقول على المنبر من يشترى منى سيفى هذا فلو كان معى ثمن إزار ما بعته فقام إليه رجل فقال أسلفتك ثمن إزار ولعل هذه مرة أخرى غير المرة التى باع فيها سيفه بالسوق وكان يقول إنما أحفظ المال للمسلمين وكان لا يشترى ممن يعرفه وإذا رأى قميصا قد ركمه على طول يده وقطع الباقى ويقول الحمد لله الذى كسانى هذا من فضله وعن عبدالله بن أبى الهزيل قال رأيت عليا خرج وعليه قميص غليظ إذا مد كم قميصه بلغ إلى الظفر وإذا أرسله صار إلى نصف الساعد وفى رواية رأيت على بن أبى طالب يخرج من مسجد الكوفة وعليه قطريان متزر بواحد ومرتد بالآخر وإزاره إلى نصف الساق وهو يطوف بالأسواق ومعه درة يأمرهم بتقوى الله وصدق الحديث وحسن البيع ووفاء الكيل وعن أبى سعيد الأزدى قال رأيت على بن أبى طالب فى السوق وهو يقول من عنده قميص يباع بثلاثة دراهم فقال رجل عندى فجاء به فأعجبه ثم لبسه فإذا هو يفضل عن أطراف أصابعه فأمر به فقطع ما يفضل من أطراف أصابعه وعن ابن عباس قال اشترى على بن أبى طالب قميصا بثلاثة دراهم وهو خليفة فقطع كمه من موضع الرسغين وعن أم سلمة وقد سئلت عن لباس على فقالت كان لباسه الكرابيس السيلانية والكرابيس ثياب غليظة من القطن وغيره وعن زيد بن وهب أن الجعد بن بعجه عاتب على فى ملبوسه فقال مالك وللبوسى هذا أبعد من الكبر وأجدر أن يقتدى به المسلم ، وقيل لعلى لم ترفع قميصك قال يخشع القلب ويقتدى به المؤمن ، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير الذى يأكل منه ويقول لا أحب أن يدخل بطنى إلا ما أعلم وقال الشعبى وجد على درعا له عند نصرانى فأقبل به إلى قاضيه شريح وجلس إلى جانبه وقال لو كان خصمى مسلماً اساويته فى المجلس وقال هذه درعى فقال النصرانى ماهى إلا درعى ولم يكذب أمير المؤمنين ، فقال شريح لعلى ألك بينة قال لا وهو يضحك وقيل أنه استشهد بابنه الحسن ومولاه قنبر فلم يقبل شريح شهادتهما لكون الحسن ابنه وقنبر مولاه فأخذ النصرانى الدرع ومشى يسيراً ثم عاد وقال أن هذه أحكام الأنبياء

أمير المؤمنين قدمنى إلى قاضيه وقاضيه يقض عليه ثم أسلم واعترف أن الدرع سقط من على عند مسيره إلى صفين ففرح على بإسلامه ووهب له الدرع وفرسا وشهد معه قتال الخوارج ورؤى على رضى الله عنه وهو يحمل فى ملحفته تمراً قد اشتراه بدرهم فقيل له يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك فقال أبو العيال أحق بحمله وفى رواية ما ينقص الكامل من كماله ما جر من نفع إلى عياله وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فكان يشترى الشىء فيحمله إلى بيته بنفسه فيقول صاحبه أعطنى أحمله فيقول صاحب الشىء أحق بحمله وكان الحسن بن على يمر وهو راكب على بغلته بالسؤال وبين أيديهم كسر فيقولون هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ثم يركب بغلته ويقول إن الله لا يحب المستكبرين وقال الحسن بن صالح تذاكروا الزهاد عند عمر ابن عبد العزيز فقال عمر أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب وكان يقول لعمر بن الخطاب إن أردت أن تلحق بصاحبيك فأقصر الأمل وكل دون الشبع وارقع القميص والبس الإزار واخصف النعل تلحق بهما ، ولما سئل فى خلافة عمر عما يستحقه الخليفة فى بيت المال فقال مايشبعه وأهله غداء وعشاء ومايكسوه وأهله صيفاً وشتاء من أوسط القوت والكسوة لا من أعلاها ولا من أدناها فعمل عمر بما قال على فلما صارت الخلافة لعلى عمل بذلك أيضاً وأخرج الإمام أحمد عن عبدالله بن زرير قال دخلت على على بن أبى طالب وهو أمير المؤمنين يوم عيد الأضحى فقرب لنا خزيرة فقلت أصلحك الله لو قربت لنا من هذا البط يعنى الأوز فإن الله قد كثر الخير فقال يا ابن زرير سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحل الخليفة من مال إلا قصعتان قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدى الناس » والخزيرة لحم يقطع صغاراً على ماء كثيرة فإذا نضج ذر عليه الدقيق فإن لم يكن فيه لحم فهو العصيد وعن زاذان قال رأيت علياً وهو أمير المؤمنين يمشى فى الأسواق فيمسك الشسوع بيده فيناول الرجل الشسع ويرشد الضال ويعين الحمال على الحمولة وهو يقرأ هذه الآية ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فى الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ثم يقول هذه الآية نزلت فى ذوى القدرة من

الناس وعن أبي مطر البصري أنه شهد علياً أتى صاحب تمر وجارية تبكي عند الثمار فقال ما شأنك فقالت باعني تمراً بدرهم فرده مولاى فأبى أن يقبله فقال ياصاحب التمر خذ تمرك واعطها درهمها فإنها جارية وليس لها أمر فدفع عليا فقال المسلمون أتدرى لمن تدفع قال لا قالوا أمير المؤمنين فصب تمرها وأعطاها درهما وقال لعلى أحب أن ترضى عنى فقال ما أرضانى عنك إذ دفعت للناس حقوقهم رواه الإمام أحمد كالذى قبله وكان على يقسم بيت المال فى كل جمعة حتى لا يبقى منه شيئاً ثم يرش له ويصلى فيه ثم يقيل فيه وكان إذا دخل بيت المال ونظر إلى ما فيه من الذهب والفضة يقول يابيضاء ياصفراء غرى غيرى قد طلقتك ثلاثا وأتى على بفالوذج فوضع قدامه فقال إنه لطيب الريح حسن اللون طيب الطعم ولكنى أكره أن أعود نفسى مالم تعتد ولم يأكل منه وقصة مفارقة أخيه عقيل له ولحوقه بمعاوية مشهورة رواها كثير من المحدثين بألفاظ متقاربة ففى رواية أنه كان يعطيه من الشعير كل يوم ما يكفى عياله فاشتهى عليه أولاده مريسا فصار يوفر كل يوم شيئا قليلا حتى اجتمع عنده ما اشترى به سمنا وتمراً وصنع لهم فدعوا عليا إليه ، فلما جاء وقدم له ذلك سأل عنه فقصوا عليه ذلك فقال أوكان يكفيكم ذاك بعد الذى عزلتم منه قالوا نعم فنقص مما كان يعطيه مقدار ما كان يعزل كل يوم وقال لا يحل لى أن أزيدك من ذلك فغضب عقيل فحمى له حديدة وقربها من خده وهو غافل فتأوه فقال تجزع من هذه وتعرضنى لنار جهنم فقال أذهب إلى من يعطينى براً ويطعمنى تمراً فلحق بمعاوية وقد قال معاوية يوما لولا علم بأنى خير له من أخيه ما أقام عندنا وتركه فقال له عقيل أخى خير لى فى دينى وأنت خير لى فى دنياى وقد آثرت دنياى وأسأل الله خاتمة خير وأخرج ابن عساكر أن عقيلا سأل عليا فقال إنى محتاج وإنى فقير فأعطنى قال أصبر حتى يخرج عطاؤك مع المسلمين فأعطيك معهم فألح عليه فقال على لرجل خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق فقال له دق على هذه الأقفال وخذ ما فى هذه الحوانيت فقال عقيل تريد أن تتخذنى سارقا فقال على وأنت تريد أن تتخذنى سارقا أن آخذ أموال المسلمين فأعطيكها دونهم قال لآتين معاوية قال أنت وذاك فأتى معاوية فسأله فأعطاه مائة ألف ثم قال اصعد المنبر فاذكر

ما أولاك به على وما أوليتك فصعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس أنى أخبركم أنى أردت معاوية على دينه فاختارنى على دينه وفى رواية أن عقيلا رضى الله عنه لزمه دين فقدم على على رضى الله عنه بالكوفة فأنزله وأمر ابنه الحسن فكساه. فلما أمسى دعا بعشائه فإذا خبز وملح وبقل فقال عقيل لعلى رضى الله عنه ما هو إلا ما أرى. فقال على ما هو إلا ما ترى قال أتقضى دينى قال وكم دينك قال أربعون ألفا قال على ماهى عندى ولكن أصبر حتى يخرج عطائى فادفعه إليك فقال له عقيل بيوت المال بيدك وأنت تسوفنى بخروج عطائك قال أفتأمرنى أن أدفع إليك أموال المسلمين وقد إئتمنونى عليها قال فإنى آتى معاوية فأذن له فأتى معاوية فأعطاه خمسين ألفا ثم خمسين ألفا حتى كملت مائة ألف وجلس أياما عند معاوية ثم رجع إلى أخيه على وحضر مع معاوية فى وقعة صفين ولم يقاتل ولم يترك نصح أخيه والتعب له وكان سريع الجواب ، روى أن معاوية قال يوم صفين لا نبالى وأبو يزيد معنا يعنى عقيلا فقال له عقيل وقد كنت معكم يوم بدر فلم أغن عنكم من الله شيئا وله فى سرعة الجواب أخبار كثيرة وكان على بعد نهب الدار عند مقتل عثمان يتحرى فى مأكله غاية التحرى خوفا من أن يدخل فى بطنه حرام فكان لا يأكل طعاما إلا مختوما حذرا من الشبهة وكان على يقول أتدرون على من حرمت النار قالوا الله ورسوله أعلم فقال على الهين واللين السهل وكان يقول ومن موجبات النفر أن بذل السلام حسن الكلام ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على على رضى الله عنه وهو مريض فقال له قل اللهم إنى أسألك تعجيل عافيتك أو صبراً على بليتك أو خراجا من الدنيا إلى رحمتك فإنك ستعطى احداهن ورأى على مرة رجلين يقتتلان ففرق بينهما ثم مضى فسمع صوتا ياغوثاه فصعد الصوت وهو يقول أتاك الغوث فإذا رجل يلازم رجلا فقال يا أمير المؤمنين بعت هذا ثوبا بسبعة دراهم وشرطت عليه أن لا يعطينى مغموزا ولا مقطوعا وكان ذلك شرطهم يومئذ فأتانى بهذه الدراهم فأبيت ولزمته فلطمنى فقال اللاطم ماتقول فقال صدق يا أمير المؤمنين قال أعطه شرطه فأعطاه وقال للملطوم اقتص قال أو عفو يا أمير المؤمنين قال ذلك إليك ثم قال يامعشر المسلمين خذوه فحمل ظهر رجل كما يحمل

صبيان الكتب ثم ضربه خمس عشرة درة وقال هذا نكال لما انتهكت من حرمته. وكان يقول لا شيء أحب إلى الله تعالى من عدل ورفقه ولا شيء أبغض إليه من جوره وخرقه وكان يقول أصب المعروف فى أهله وفى غير أهله فإن أصبت أهله فهو أهل وإن لم تصب أهله فأنت من أهله وقال رضى الله عنه رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس واصطناع المعروف إلى كل بر وفاجر وقال على شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح فأوحى الله إليه يحيى وجدت داراً خيراً لك من دارى أو وجدت جواراً خيراً لك من جوارى فوعزتى وجلالى يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقا ولو اطلعت إلى جهنم اطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بدل الدموع ولبست الجلد بدل المسوح وقال على إن الله أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ولا يزرى بهم الفقير ، ولما عوتب فى خشونة لباسه قال : هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به المسلم وقال إن لله تعالى عباداً ليسوا بالمتنعمين ورؤى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أشعث حافياً ، فقيل له : أنت الأمير وتفعل هذا ، فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الارفاه وأمرنا أن نحتفى وقال على إن أردت أن تلحق بصاحبيك فارفع القميص ونكس الإزرار وأخصف النعل وكل دون الشبع وقال اخشوشنوا وإياكم وزى العجم وكسرى وقيصر ، وقال من تزيا بزى قوم فهو منهم ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتشدقون فى الكلام » وكان على أصغر أولاد أبى طالب الأربعة فى السن وأفضلهم قدراً وهم : طالب ، وعقيل وجعفر ، وكان طالب أسن من عقيل بعشر سنين وكان عقيل أسن من جعفر بعشر سنين وجعفر أسن من على بعشر سنين وبعضهم قدم جعفراً على عقيل فقال إن جعفراً أسن من عقيل بعشر سنين أما على وجعفر وعقيل واختاهم فأخته وحمانة وقيل جمانة بالجيم وكلهم لأم وأب أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم وأبوهم أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم وفاختة اسمها هند وتكنى بأم هانى أسلمت وهاجرت

وكان زوجها أبو وهب هبيرة بن عمرو المخزومى مات مشركا ، وأما جمانة فكان بعلها سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أسلمت وهاجرت وماتت بالمدينة زمن النبى صلى الله عليه وسلم وأما طالب فلا يعلم له إسلام يقال إن الجن اختطفته فذهب وكان خرج مع كفار قريش يوم بدر فلم يعلم له خبر وكان على قد أعطاه الله علما كثيراً وكشفا غزيرا قال أبو الطفيل شهدت عليا يخطب وهو يقول : سلونى من كتاب الله فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم فى سهل أم فى جبل ولو شئت أو قرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه «أنا مدينة العلم وعلىّ بابها» فمن أراد العلم فليأته من بابه وقال ابن العباس علم رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم الله تبارك وتعالى وعلم على من علم النبى صلى الله عليه وسلم وعلمى من علم على وماعلمى وعلم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى علم على إلا كقطرة فى سبعة أبحر ويقال إن عبد الله بن عباس أكثر البكاء على على حتى ذهب بصره وقال ابن عباس أيضا لقد أعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم وأيم الله لقد شارك الناس فى العشر العاشر وكان معاوية يسألة ويكتب له فيما ينزل به فلما توفى على قال معاوية لقد ذهب الفقه والعلم بموت على بن أبى طالب وكان عمر بن الخطاب يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن وسئل عطاء أكان فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحد أعلم من على قال لا والله ما أعلمه ، وفضائله كثيرة قد جمعها الناس ودونوها وأجمعها لنعته ما وصفه به ضرار الصدائى إذ قال له معاوية : صف لى عليا ، فقال اعفنى يا أمير المؤمنين قال لتصفنه : قال أما إذ لابد من وصفه فكان والله بعيد المدى شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير العبرة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ماخشن كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لانكاد هيبة له يعظم الدين ويقرب المساكين لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله أشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله قابضاً لحيته م يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ويقول

يا دنيا غرى غيرى إلى تعرضت أم إلى تشوفت هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك قليل آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق فبكى معاوية وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه يا ضرار قال حزنى حزن من ذبح ولدها فى حجرها وسئل الحسن البصرى عن على بن أبى طالب فقال كان على والله سهما صائبا من مرامى الله عز وجل ربانى هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بالنومة عن أمر الله ولا باللومة فى دين ولا بالسرقة فى مال الله أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة ذاك على بن أبى طالب وأعز من مدحه وأخزى من قدحه وكان لا يستأثر من الفىء بشىء بل يقسم ما فى بيت المال بين المسلمين ثم يأمر به فيكنس فيصلى فيه رجاء أن يشهد له يوم القيامة ويكفيه فضلا قول النبى صلى الله عليه وسلم من كنت مولاه فعلى مولاه وقوله صلى الله عليه وسلم لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق ، وهو أول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خديجة وهو ابن ثلاث عشرة سنة وقيل ابن عشر سنين وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أقضانا على رضى الله عنه وقال ابن مسعود رضى الله عنه أعلم أهل المدينة بالفرائض على ابن أبى طالب رضى الله عنه كم لعلى رضى الله عنه من تشقيق فى العلوم وترقيق وبصر بالحساب وتدقيق حتى كأنه ينظر إلى الغيب من ستر رقيق وكم من قضية قضاها لما بلغت إلى النبى صلى الله عليه وسلم أمضاها وربما تبسم صلى الله عليه وسلم إذا سمعها استصوابا ثم أنفذها إذ رآها صوابا وكم مسألة بديعة دقيقة دقق فيها فأتى بالعبر وروى عن زر بن حبيش قال جلس رجلان يتغذيان مع أحدهما خمسة أرغفة ومع الآخر ثلاثة أرغفة فلما وضعا الغذاء بين أيديهما مر بهما رجل فسلم فقالا له أجلس للغذاء فجلس وأكل معهما واستوفوا فى أكلهم الأرغفة الثمانية ، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم وقال خذ هذا عوضا مما أكلت لكما ونلته من طعامكما فتنازعا فقال صاحب الخمسة الأرغفة لى خمسة دراهم ولك ثلاثة فقال صاحب الأرغفة الثلاثة لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين فترافعا إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب فقصا عليه قصتهما فقال لصاحب الثلاثة قد عرض

عليك صاحبك ماعرض وخبزه أكثر من خبزك فارض بالثلاثة فقال والله لارضيت منه إلا بمر الحق فقال على ليس لك فى مر الحق إلا درهم واحد وله سبعة فقال الرجل سبحان الله هو يعرض على ثلاثة فلم أرض وأشرت على بأخذها فلم أرض وتقول لى الآن إنه لايجب لى فى مر الحق إلا درهم واحد فعرفنى بالوجه فى مر الحق حتى أقبله فقال على أليس الثمانية أرغفة أربعة وعشرين ثلثا أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس ولا يعلم الأكثر منكم أكلا ولا الأقل فتحملون فى أكلكم على السواء قال بلى قال فأكلت أنت ثمانية أثلاث وإنما لك تسعة أثلاث وأكل صاحبك ثمانية أثلاث وله خمسة عشر ثلثا أكل منها ثمانية وتبقى سبعة وأكل لك واحداً من تسعة فلك واحد وله سبعة فقال الرجل رضيت الآن .

ومن كلام على أول مايرى الحليم من بركة حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل وأما شجاعة على فيكفى فى إثباتها مبارزته لعمرو بن ود الذى بلغ النهاية فى الشهرة بالشجاعة وقتله إياه . وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن ود خرج يوم الخندق فنادى هل من يبارزنى؟ فقام على بن أبى طالب وهو مقنع بالحديد فقال أنا له يا نبى الله فقال إنه عمرو أجلس ، ونادى عمرو ألا رجل يبارزنى وهو يؤنبهم ويقول أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون لى رجلا فقام على رضى الله عنه فقال ألا أبرز يا رسول الله فقال أجلس إنه عمرو ، ثم نادى الثالثة فقال :

ولقد بححت من الندا ء بجمعكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشـــجع موقف القرن المناجز
وكذاك إنى لم أزل متسرعا قبل الهزاهز
أن الشجاعة فى الفتى والجود من خير الغرائز

فقام على فقال يا رسول الله أنا له فقال إنه عمرو فقال وإن كان عمراً فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى إليه حتى أتاه وهو يقول :

لاتعجلن فقـــد أتاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نيـــــة وبصيرة والصدق منجى كل فائز

إنى لأرجو أن أقيم عليك نائحه الجنائز
من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز

فقال عمرو من أنت ، قال أنا على ، قال ابن عبد مناف وهو اسم أبى طالب قال أنا على بن أبى طالب قال غيرك يابن أخى من أعمامك من هو أسن منك فإنى أكره أن أريق دمك فإن أباك كان صديقاً لى فقال له على لكننى والله ما أكره أن أريق دمك فغضب عمرو ونزل فسل سيفه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو على مغضباً ويروى أنه مانزل عن فرسه إلا بعد أن قال له على رضى الله عنه كيف أقاتلك وأنت على فرسك ولكن أنزل معى فنزل عن فرسه ، ثم أقبل نحوه فاستقبله على رضى الله عنه بدرقته وضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأس على فشجه وضربه على رضى الله عنه على حبل العاتق فسقط وثار العجاج وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير فعرف أن علياً قد قتله ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متهلل فقال عمر بن الخطاب هلاسلبته درعه فإنه ليس فى العرب درع خير منها فقال على إنى حين ضربته استقبلنى بسوءته فاستحييت أن أسلبه ثم خرجت خيله منهزمة حتى اقتحمت الخندق فمن هنا لم يأخذ على سلبه وقيل تنزه عن أخذها وقيل أنهم كانوا فى الجاهلية إذا قتلوا القتيل لا يسلبونه ثيابه وكذا قصته عند فتح خيبر لما قال النبى صلى الله عليه وسلم لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار فأعطاه الراية فكان كما قال النبى صلى الله عليه وسلم قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجنا مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطرح ترسه من يده فتناول على بابا كان عند الحصن وكان ذلك الباب من حديد فترس به فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه وراء ظهره من يده حين فرغ فكان بعده عنه حين ألقاه ثمانين شبر قال أبو رافع فلقد رأيتنى فى نفر معى سبعة أناس منهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه وعن جابر أنه جرب بعد ذلك فلم يحمله أربعون وفى

رواية البيهقى فاجتمع عليه بعده سبعون رجلا فكان جهداً أن أعادوا الباب إلى مكانه فى شرح المواقف قال على ما قلعت باب خيبر بقوة جسمانية ولكن بقوة إلهية وكان على إذا استعلى الفارس قده وإذا اعترضه قطه وكانت درعه صدراً بلا ظهر فقيل له فى ذلك فقال إذا وليت فلا وألت أى لا نجوت يعنى أنه كان لا يولى ظهره أبداً والموئل المرجع وفى حديث آخر كانت ضربات على ابكارا إذا استعلى قد وإذا استعرض قط وقوله ابكارا يقال ضربة أبى بكر أى لا تثنى ومن شجاعته أنه يوم خيبر قتل أخا مرحب ثم مرحباً وكل منهما كان شجاعا مشهورا وذلك أنه بارز أولا أخا مرحب فقتل فخرج إليه مرحب ولم يكن فى أهل خيبر أشجع منه ولم يقدر أحد من أهل الاسلام أن يقاومه فى الحرب وخرج وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرب
اضرب أحيانا وحينا أضرب   إذا الحروب أقبلت تلهب
إن حمامى للحمى لا يقرب

وكان قد لبس درعين وتقلد سيفين واعتم بعمامتين ولبس فوقهن مغفرا وحجرا قد ثقبه قد البيضة على رأسه وله رمح سنانه ثلاثة أسنان فبرز على كرم الله وجهه وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره   ضرغام آجام وليث قسوره

وفى رواية بدل هذا المصراع :

كليث غابات كريه المنظره   عبل الذراعين غليظ القصره
أو فيهم بالصاع كيل السندره

وفى رواية أكيلكم بالصاع كيل السندره قوله عبل الذراعين أى ضخمهما والقصرة أصل العنق والسندرة ضرب من الكيل كبير واسم امرأة كانت تبيع الحنطة وتوفى الكيل والنكتة فى ارتجاز على بهذا الرجز أن مرحبا كان قد رأى فى المنام أن أسداً يفترسه فلعل عليا أطلعه الله رؤيا مرحب فأراد أن يقذف فى قلبه الرعب فلما اختلط أراد

مرحب أن يضرب علياً ، فسبقه على بالسيف ذو الفقار فترس مرحب ، فوقع السيف على الترس فقده وقد الحجر والمغفرة والعمامتين وفلق هامته حتى أخذ فى أضراس ، فقتله ثم حمل المسلمون على الكفار وقتلوا ثمانية من رؤسائهم ، وفر الباقون إلى الحصن وتبعهم المسلمون ، وكان ضرار بن حمزة الصدائى من أولياء على فكان لما تمت البيعة لمعاوية بنزول الحسن له عن الخلافة تباعد منه معتزلا يعبد الله تعالى ثم ألجأته ضرورة فوفد على معاوية[1] فقال له معاوية : صف لى عليا فقال : أعفني يا أمير المؤمنين قال : أقسمت عليك لتصفه فقال : كان والله بعيد المدى شديد القوى يقول فصلا ويحكم عدلا يتفجر العلم من جوانبه وينطق بالحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير العبرة طويل الفكر يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما قصر وكان فينا كأحد يجيبنا إذا سألناه ويأتينا إذا دعوناه ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربنا منه لا نكاد نكلمه هيبة له يعظم أهل الدين ويقرب المساكين لا يطمع القوى فى باطله وييأس الضعيف من عدله وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم أى اللديغ ويبكى بكاء الحزين ويقول يادنيا غرى غيرى إلى تعرضت أم إلى تشوفت هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثا لا رجعة لى فيك فعمرك قصير وحظك قليل آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق فبكى معاوية ، وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه ياضرار فقال حزن من ذبح ولدها فى حجرها وسئل الحسن البصرى عن على فقال كان والله سهماً صائبا من مرامى الله عز وجل على عدوه وربانى هذه الأمة وإذا فضلها وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن متراخيا عن أمر الله ولا باللومة فى دين الله ولا بالسرقة لمال الله أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة ذلك على بن أبى طالب وقال صلى الله عليه وسلم « على مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا

---

(١) قد تقدم قريبا وصف سيدنا ضرار رضى الله عنه لسيدنا على رضى الله عنه بسؤال سيدنا معاوية رضى الله عنه مرة أخرى ولكن ببعض تغيير فلينظر اهـ

على الحوض » وقال صلى الله عليه وسلم « النظر إلى على عبادة » وقال صلى الله عليه وسلم «على إمام البررة وقاتل الفجرة منصور من نصره مخذول من خذله» وقال صلى الله عليه وسلم « عنوان صحيفة المؤمن حب على بن أبى طالب » وقال صلى الله عليه وسلم «حب على يأكل الذنوب كما تأكل النار الحطب» وقال صلى الله عليه وسلم « إن السعيد كل السعيد حق السعيد من أحب عليا فى حياته وبعد مماته» وقال صلى الله عليه وسلم «من أحب عليا فقد أحبنى ومن أحبنى فقد أحب الله ومن أبغض عليا فقد أبغضنى ومن أبغضنى فقد أبغض الله وقال صلى الله عليه وسلم «على يزهر فى الجنة ككوكب الصبح لأهل الدنيا »قال ابن عباس نزل فى على ثلاثمائة آية من آيات القرآن منها قوله تعالى﴿إِنَّ الذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعل لَهُم الرحمٰنُ وُداً﴾ قال محمد بن الحنيفة لا يبقى مؤمن إلا وفى قلبه ود لعلى وأهل بيته ولما نزل قوله تعالى ﴿ وَتَعِيها أُذُنٌ وَاعِية ﴾ قال النبى صلى الله عليه وسلم «اجعلها أذن على» قال على ما نسيت بعد ذلك شيئاً وفضائل على وبقية الخلفاء الراشدين كثيرة مفردة بالتأليف والقصد من ذلك كله بيان عدلهم فى بيت المال وأنهم إنما فتحوا الفتوحات حتى اتسع الإسلام بالعدل فى بيت المال وقصة استشهاد على رضى الله عنه مشهورة لا حاجة لنا بذكرها ، وكان استشهاده سابع عشر رمضان سنة أربعين من الهجرة وعمره ثلاث وستون سنة ومما ينبغى أن يلحق بالخلفاء الأربعة فى العدل فى بيت المال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فإن كثيراً من الأئمة ألحقوه بالخلفاء الراشدين .

ذكر ما كان لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

من الاقتصاد فى الدنيا وحسن السيرة .

كان رضى الله عنه زاهداً عادلا فى بيت المال كانت نفقته التى يأخذها من بيت المال كل يوم درهمين وقال رجاء بن حيوة قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة باثنى عشر درهما لفة وقميصه ورداؤه وقباؤه وسراويله وعمامته وقلنسوته وخفاه ، وكان يلبس القميص مرقعا كما كان يفعل عمر بن الخطاب قال سعيد بن سويد صلى عمر بن عبد العزيز بالناس الجمعة وعليه قميص مرقوع مجيب من بين يديه ومن خلفه فقال له رجل يا أمير المؤمنين

إن الله أعطاك فلو لبست فنكس ملياً ثم رفع رأسه فقال إن أفضل الزهد القصد عند الجدة وأفضل العفو عند القدرة وقال عون بن المعتمر دخل عمر بن عبد العزيز يوما على امرأته فاطمة بنت عبد الملك فقال يا فاطمة عندك درهم أشترى به عنباً قالت لا : ثم قالت وأنت أمير المؤمنين لا تقدر على درهم تشترى به عنباً قال هذا أهون علينا من معالجة الأغلال غداً فى جهنم وقال أبو أمية الخصى غلام عمر دخلت يوما على مولاتى فغدتنى عدساً فقلت لها كل يوم عدس فقالت يا بنى هذا طعام مولاك أمير المؤمنين ولما أفضت الخلافة إليه وفرغ من دفن ابن عمه سليمان بن عبد الملك قربوا إليه من الخيل مراكب الخلافة يركب ما شاء منها وكانت مراكب كثيرة مزينة بأنواع الزينة فأبى أن يركب شيئا منا وقال تكفينى بغلتى وباع تلك المراكب وما كان عليها من أنواع الزينة وجعل ذلك الثمن فى بيت المال وكذا ما كان يصرف عليها من النفقات وما يصرف على خدمها القائمين عليها جعل ذلك كله فى بيت مال المسلمين وأمر بالستور فهتكت والفرش التى كانت تبسط للخلفاء فحملت وأمر ببيعها وإدخال ثمنها فى بيت مال المسلمين قال مالك بن دينار الناس يقولون مالك زاهد إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز وقال عبد الله بن المبارك لما قيل له زاهد قال لست بزاهد إنما الدنيا زهدتنى وتركتنى الزاهد عمر بن عبد العزيز جاءته الدنيا فزهد فيها وتركها وكان ابن سيرين إذا سئل عن الطلا قال نهى عنها الإمام المهدى يعنى عمر ابن عبد العزيز وقال مسلمة بن عبد الملك دخلت على عمر بن عبد العزيز أعوده فى مرضه الذى توفى فيه فإذا عليه قميص وسخ ، فقلت لأختى فاطمة بنت عبد الملك ألا تغسلينه ، ثم رجعت مرة أخرى فوجدت القميص بحاله لم يغسل ، فقلت ألا تغسلين قميصه فقالت والله ماله غيره ، وقال قيس بن جبير مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية مثل مؤمن آل فرعون ، وقال ميمون بن مهران إن الله كان يتعهد الناس بنبي بعد نبي وإن الله لعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز وقال حسن القصاب رأيت الذئاب ترعى مع الغنم فى البادية فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، فقلت سبحان الله ذئب فى غنم لا يضرها ، فقال الراعى إذا صلح الرأس فليس على الجسد بأس ، وقال مالك ابن دينار لما ولى عمر بن عبد العزيز

قالت رعاء الشاء من هذا الصالح الذى قام على الناس خليفة عدل تكف الذئاب عن شياهنا فقيل لهم وما علمكم بذلك فقالوا إذا قام على الناس خليفة عدل تكف الذئاب عن الشياه. وكانت الشياه والذئاب ترعى فى مكان واحد فبينما هم كذلك ذات ليلة إذ عرض الذئاب لشاة فقالوا ما نرى الرجل الصالح إلا هلك وكان ذلك فى زمان موته فلما بلغهم خبر موته بعد نحو شهر حسبوا ذلك فوجدوا موته فى تلك الليلة وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه أن مدينتنا قد خربت فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالا نرمها به فكتب إليه عمر إذا قرأت كتابى هذا فحصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم فإنه مرمها والسلام وكانت زوجته فاطمة بنت عمه عبد الملك بن مروان عندها حلى وجواهر لم ير مثلها أمر لها بها أبوها حين زوجها به فلما أفضت الخلافة إليه قال لها اختارى إما أن تردى حليك إلى بيت المال لأنه أخذ بغير حق وإما أن تأذنى لى فى فراقك فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهذا الحلى فى بيت واحد فقالت بل أختارك عليه وعلى أضعافه فأمر به فحمل حتى وضع فى بيت المال ، فلما مات عمر واستخلف أخوها يزيد بن عبد الملك قال لأخته فاطمة إن شئت رددته عليك لأن عمر أخذه منك بغير حق وأدخله بيت المال فأبت أن ترده وقالت لا أطيب به نفساً فى حياته وأرجع فيه بعد موته فأخذه يزيد فقسمه بين أهله ولما ولى عمر الخلافة أخذ من بنى عمه وقرابته أموالا كثيرة وضياعا وعقارات وأدخلها بيت المال وقال أنهم أخذوها بغير حق وسمى ذلك مظالم ففزع بنى أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان وسألوها أنها تكلمه وتراجعه فى ذلك فأتته فقالت له تكلمنى أنت يا أمير المؤمنين فقال إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم منه سواء ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ، ثم عمر فعمل عملها ، ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبد الملك ابنه والوليد وسليمان أبناء عبد الملك حتى أفضى الأمر إلى وقد يبس النهر الأعظم فلم يروا أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً فرجعت إليهم فأخبرتهم بكلامه وقيل إنها قالت له أن بنى أمية يقولون كذا وكذا ،

فلما قال لها هذا الـكلام قالت إنهم يحذرونك يوما من أيامهم تعنى أنهم يخرجون عليه ويقاتلونه فغضب وقال كل يوم أخافه غير يوم القيامة قد أمنت شره فرجعت إليهم فأخبرتهم وقالت أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر فجاء يشبه جده فسكتوا أى لأن أم عمر بن عبد العزيز هى أم عاصم بن عمر بن الخطاب واسمها حفصة وكان رضى الله عنه بوجهه شجة ضربته فرس فى جبينه وهو غلام فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول إن كنت أشج بنى مروان لسعيد وكان عمر بن الخطاب يقول : من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا فـكان هو عمر بن عبد العزيز وفى رواية كان عمر بن الخطاب يقول ليت شعرى من ذو الشين من ولدى الذى يملؤها عدلا كما ملئت جوراً وكان عبد الله بن عمر يقول كنا نتحدث أن الدنيا لا تنقضى حتى يلى رجل من آل عمر يعمل بمثل عمر فـكان بلال بن عبد الله بن عمر بوجهه شجة فكابرا يظنون أنه ذو الشين الذى ذكره عمر فلم يكن هو وما عرفوا ذا الشين حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز فولى الخلافة وسار بسيرة عمر بن الخطاب وعن عبيد الله بن مسلم عن أبيه قال دخلت على عمر بن عبد العزيز ، عنده كاتب يـكتب وشمعة تزهر وهو ينظر فى أمور المسلمين فلما فرغ الـكاتب وخرج أطفئت الشمعة وجىء بسراج إلى عمر من ماله وكان سراجه على ثلاث قصبات فوقهن طين ولما ولى الخلافة أمر مناديا ينادى من كانت له مظلمة فليرفعها فقام إليه ذمى من أهل حمص أبيض الرأس واللحية فقال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى قال وما ذاك قال العباس ابن الوليد بن عبد الملك غصبنى أرضى والعباس جالس فقال ما تقول يا عباس قال اقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبدالملك وكتب لى بها سجلا فقال عمر ما تقول يا ذمى فقال يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله عز وجل فقال عمر كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، قم فاردد إليه يا عباس ضيعته فردها عليه وجعل لا يدع شيئاً مما كان فى يده ويد أهل بيته من المظالم إلى ردها مظلمة مظلمة ولما ولى عمر بن عبد العزيز كان عمر بن الوليد بن عبد الملك غائبا فسمع أن عمر ابن عبد العزيز أخذ أموالا من بنى عمه وعشيرته وردها إلى بيت المال فـكتب كتابا

لعمر بن عبدالعزيز يقول فيه أنك قد أزريت على من قبلك من الخلفاء وغبت عليهم وسرت بغير سيرتهم بغضا لهم وشيئاً لمن بعدهم من أولادهم وقطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدوانا ولن تترك على هذا أى فلا بد أن يخرجوا عليك ويقاتلوك فلما قرأ كتابه كتب إليه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمر ابن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، أما بعد فإنه بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه فأنا أول سائل فان كنت ابن الوليد كما زعم فأمك بنانة بنت السكن كانت تطوف فى سوق حمص وتدخل حوانيتها ثم الله عز وجل بها أعلم فاشتراها ذبيان من فىء المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك بئس المحمول وبئس المولود ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً تزعم أنى من الظالمين لما حرمتك وأهل بيتك فىء الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل وأن أظلم منى وأترك لعهد الله سبحانه وتعالى من استعملك صبيا سفيها على جيش المسلمين تحكم فيهم برأيك ولم يكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد ولده فويل لك وويل لأبيك ما أكثر خصماءكما يوم القيامة وكيف ينجو والدك من خصمائه وأن أظلم منى وأترك لعهد الله تعالى من استعمل قرة بن شريك أعرابياً جافيا على مصر وأذن فى المعازف واللهو والشرب ومن جعل الغالية البربرية سهما فى خمس خمس العرب فرويداً ابن بنانة ، فلو التقيت حلقتا البطان ورد الفىء إلى أهله لتفرغت لك ولأهل بيتك فوضعتك على المحجة البيضاء فطالما تركتم الحق ومن وراء هذا ما أرجوا أن أكون رأيته من بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فإن لكل فيك حقا والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ولا ينال سلام الله الظالمين وكان عمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة على خير وعلم وصلاح وعبادة إلا أنه كان متنعما فى مأكله ومشربه وملبسه فلما ولى الخلافة اخشوشن وترك ما كان عليه من التنعم وكان قبل أن يلى الخلافة لا يأكل إلا أحسن الطعام ولا يلبس إلا أحسن الثياب وكان يشترى له الحلة بألف دينار فإذا لبسها استخشنها ولم يستحسنها ، وكان يؤتى له بالثوب الحسن الناعم فيلمسه بيده فيقول ما أحسنه لولا خشونة فيه فلما جاءته الخلافة

واخشوشن فكان يؤتى له بالقميص الخشن الذى لاقيمة له فيلمسه بيده فيقول ماأحسنه لولا نعومة فيه فسئل عن ذلك فقال إن لى نفسا تواقة لا تنال شيئا إلا تاقت لما هو أرفع منه فلما نالت الخلافة اشتاقت إلى الجنة . وحدث الهيثم بن عدى قال كان لفاطمة بنت عبد الملك إمرأة عمر بن عبد العزيز جارية حسناء وكان عمر بن عبد العزيز يهوى تلك الجارية فطلبها من زوجته فاطمة لنفسه قبل أن يلى الخلافة فامتنعت من إعطائها ، فلماولى الخلافة أرادت فاطمة التقرب إليه والحظوة عنده فأمرت باصلاح الجارية وأدخلتها عليه وأعطته إياها فى أحسن صورة وقالت هى لك قد طبت بها نفسا فسر بقولها وظهر الفرح فى وجهه ثم لما خلا بالجارية لم يمسها بل سألها وقال لها لمن كنت ومن أين أتيت لفاطمة فقالت كان الحجاج أغرم عاملا كان له بالكوفة مالا وكنت فى رق ذلك العامل فأخذنى الحجاج فبعثنى إلى عبد الملك بن مروان وأنا صبية فوهبنى عبد الملك لابنته فاطمة قال وما فعل ذلك العامل قالت هلك قال وترك ولدا قالت بلى قال فما حاله قالت سىء فكتب عمر إلى عامله أن سرح إلى فلان بن فلان على البريد فلما قدم عليه قال له ارفع إلا جميع ما أغرمه الحجاج أباك فما رفع شيئا حتى دفعه له ثم دفع إليه الجارية وقال له : إياك وإياها ولعل أباك قد وطئها فحرمت عليك فقال الغلام هى لك يا أمير المؤمنين وأراد إعطاءه إياها قال لا حاجة لى فيها فابتعها منى قال إذاً لست ممن ينهى النفس عن الهوى فمضى بها الفتى فقالت الجارية لعمر فأين وجدك ومحبتك لى فقال على حالة ولقد ازدادت قيل فمازالت فى نفس عمر حتى مات . وكان مسلمة بن عبد الملك بن مروان متنعما ينفق كل يوم على مائدته ألف درهم فبعث إليه عمر بن عبد العزيز يوما أن يتغدى عنده فهيأ له طعاما وأمر أن يحبس الطعام وأن يقدم إليه قبل ذلك العدس لكن أخروا تقديمه حتى جاع مسلمة جوعا طويلا فقال عمر لخادمه ويحك أبا سعيد لا يصبر على الجوع فأتنا بما عندك فأتاه بالعدس فأكل مسلمة من ذلك أكلا عنيفا منكراً لشدة جوعه حتى شبع ثم جىء بالطعام الذى هيأه فقال عمر كل يا أبا سعيد فقال قد اكتفيت فقال عمر يا أبا سعيد تكفيك أكلة بدانقين وعلى مائدتك ألف درهم كل يوم فيتاب وأعطى الله

عهداً أن لا يعود لمثل ذلك ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز فى مرضه الذى توفى فيه فقال يا أمير المؤمنين ألا توصى قال وهل من مال أوصى فيه فقال مسلمة هذه مائة ألف أبعث بها إليك أوص فيها فقال له عمر أو غير ذلك يامسلمة قال وما هو يا أمير المؤمنين قال تردها من حيث أخذتها فبكى مسلمة وقال رحمك الله يا أمير المؤمنين لقد ألنت منا قلوبا قاسية وزرعت فى قلوب الناس لنا مودة وأبقيت لنا فى الصالحين ذكراً ثم قال مسلمة فأوص إلى بنيك فقال عمر أوصى بهم إلى الله عز وجل وهو يتولى الصالحين وفى رواية أن بنى أحد رجلين إما رجل يتقى الله تعالى فسيجعل الله له مخرجا وإما رجل مكب على المعاصى فإنى لم أكن لأقويه على معاصى الله وفى رواية إن كانوا صالحين فالله يتولى الصالحين وإن كانوا مجرمين فلن أكون ظهيراً للمجرمين ولما مات بلغت تركته سبعة عشر ديناراً كفن منها بخمسة دنانير واشترى موضع قبر له بدينارين وكان بنوه أحد عشر ابنا فأصاب كل واحد من بنيه تسعة عشر درهما ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابنا فأصاب كل واحد من تركته ألف ألف ثم رؤى واحد من ولد عمر بن عبد العزيز جهز فى يوم واحد مائة فارس ورؤى واحد من ولد هشام يسأل الناس ويتصدق عليه وكان سليمان ابن عبد الملك يقتل الخوارج كثيراً فكان عمر بن عبد العزيز يشير عليه بحبسهم حتى يتوبوا وينهاه عن قتلهم فجاء خارجى مرة لسليمان بن عبد الملك وقال له يا فاسق يا ابن الفاسق فقال سليمان على بعمر بن عبد العزيز ، فلما جاء قال له سليمان اسمع مقالة هذا فأعاد الخارجى قوله يافاسق يا ابن الفاسق فقال سليمان لعمر ماذا ترى فسكت عمر فقال له سليمان عزمت عليك لتخبرنى بما ترى قال عمر أرى أن تشتمه كما شتمك فقال سليمان ليس إلا هذا قال نعم ثم أمر سليمان الخارجى فأمر بضرب عنقه فلما خرج عمر أدركه خالد بن الريان صاحب حرس سليمان فقال ياعمر كيف تقول لأمير المؤمنين ما أرى عليه إلا أن تشتمه كما شتمك والله لقد كنت متوقعا أن يأمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك قال ولو أمرك لفعلت قال أى والله فلما أفضت الخلافة إلى عمر جاء خالد فقام مقام صاحب الحرس فقال له عمر ياخالد ضع هذا السيف عنك ثم قال اللهم إنى وضعت لك خالد بن الريان

فلا ترفعه أبداً ثم نظر إلى وجوه الحرس فدعا ابن مهاجر الأنصارى وقال يا عمرو والله ليعلمن الله أن ما بينى وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام ولكن قد سمعتك تكثر تلاوة القرآن ورأيتك تصلى فى موضع تظن أنه لا يراك أحد إلا الله ورأيتك تحسن الصلاة وأنت رجل من الأنصار نخذ هذا السيف فقد وليتك حرسى فوضع الله ذكر خالد بدعوة عمر بن عبد العزيز حتى كان لا يذكر ولا يدرى أحى هو أم ميت قال يحيى بن يحيى فما رأيت شريفاً حمل ذكره حتى لا يذكر مثل خالد بن الريان حتى أن كاد الناس يقولون ما فعل خالداً أحى هو أو قد مات لخمول ذكره بدعواه عمر بن عبد العزيز ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قال لميمون بن مهران كيف لى بأعوان على هذا الأمر أثق بهم فقال لا تشغل قلبك بهذا فإنك سوق وإنما تحمل إلى كل سوق ما ينفق فيه فإذا عرف الناس منك النصح لم يأتوك إلا بالنصح فكان الأمر كذلك وكان رضى الله عنه يجمع الفقهاء عنده كل ليلة فيذكرون الموت والقيامة ويبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة وكان رضى الله عنه يقول مالى فى الأمور هوى سوى مواقع قضاء الله فيها وما كنت على حالة من حالات الدنيا فسرنى أنى على غيرها وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنا له إشترى فصا بألف درهم وتختم به فأمره أن يبيع الفص ويتصدق بثمنه وأن يشترى فصا وينقش عليه رحم الله أمرأ عرف قدر نفسه وعن الأوزاعى قال قال عمر بن عبد العزيز لجلسائه من صحبنى منك فليصحبنى بخمس خصال يدلنى من العدل على ما لا أهتدى له ويكون على خير عونا ويبلغنى حاجة من لا يستطيع بلاغا ولا يغتاب عندى أحداً ويؤدى الأمانة التى حملها منى ومن الناس فإذا كان كذلك فحيهلا به وإلا فهو فى حرج من صحبتى والدخول على . وعن الزهرى قال كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة وقال ميمون بن مهران عمر عبد العزيز معلم العلماء أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه ولما ظهر من عدله ما ظهر وضع له جماعة من بنى أمية من سقاه السم فقيل له تدارك نفسك فقال والله لقد عرفت الساعة التى سقيت فيها ولو كان شفائى أن أمس شحمة أذنى ما فعلت وسأل الذى سقاه السم فأقر فقال له كم أعطوك فقال ألف دينار فقال أئتنى بها فأتاه بها فوضعها فى بيت المال وقال له غيب وجهك

عنى ولم يعاقبه وجاء رجل إلى هشام بن عبد الملك فقال يا أمير المؤمنين أن عبد الملك أقطع جدى قطيعة فأقرها الوليد وسليمان حتى استخلف عمر رحمه الله نزعها منى فقال هشام أعد مقالك فقال يا أمير المؤمنين أن عبد الملك أقطع جدى قطيعة فأقرها الوليد وسليمان حتى استخلف عمر رحمه الله نزعها منى فقال هشام والله إن فيك لعجبا أنك تذكر من أقطع جدك القطيعة ومن أقرها فلا تترحم عليه وتذكر من انتزعها منك فتترحم عليه وأنا قد أمضينا ما صنع عمر رحمه الله وقال سفيان الثورى والشافعى وكثير من الأئمة ، الخلفاء خمسة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز ولما عهد إليه سليمان بن عبد الملك بالخلافة امتنع من القبول فأكرهوه على البيعة فلما فرغوا من البيعة صعد المنبر فقال . يا أيها الناس قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى منى ولا مشورة من المسلمين وأنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم فصاح المسلمون صيحة واحدة قد اخترناك يا أمير المؤمنين ورضيناك فى أمرنا باليمن والبركة فلما رأى الأصوات قد هدأت ورضوا به جميعاً حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم وقال أوصيكم بتقوى الله . إلى أن قال إن هذه الأمة لم تختلف فى ربها ولا فى نبيها ولا فى كتابها وإنما اختلفوا فى الدنانير والدراهم والله لا أعطى أحداً باطلا ولا أمنع أحداً حقاً ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال : أيها الناس من أطاع الله فقد وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له أطيعونى إن أطعت الله تعالى فإذا عصيت الله تعالى فلا طاعة لى عليكم ثم نزل فدخل داره وكانت فاطمة بنت الحسين بن على بن أبى طالب تكثر من الترحم على عمر بن عبد العزيز فقيل لها فى ذلك فقالت دخلت عليه وهو أمير المؤمنين فأخرج عنه كل خصى حتى لم يبق فى البيت غيرى وغيره ثم قال والله ما على وجه الأرض أهل بيت أحب إلى منكم ولأنتم أحب إلى من أهل بيتى وما ترك لى حاجة إلا قضاها وقال الإمام محمد الباقر زين العابدين أن عمر بن عبد العزيز نجيب بنى أمية وأنه يبعث يوم القيامة أمة وحده وعن حماد أن عمر بن عبد العزيز لما استخلف بكى فقال يا فلان تخشى على قلت كيف حبك للدراهم قال لا أحبه قلت لا تخف فإن الله سيعينك وقال فى بعض

خطبه أيها الناس أنه لا كتاب بعد القرآن ولا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم وأنى لست بقاض ولكن منفذ ولست بمبتدع ولكنى متبع ولست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا أن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وقال بعض علماء التابعين أن عمر بن عبد العزيز هو المهدى الذى أخبر عنه النبى صلى الله عليه وسلم أنه يملأ الأرض عدلا لكن الصحيح الذى عليه جمهور العلماء أنى مهدى من جملة المهديين وأما المهدى المنتظر فإنه من ولد فاطمة ويجتمع بعيسى عليه السلام ويكون خروج الدجال فى أيامه ، وذلك من أعظم علاماته ومما استدل به القائلون بأن عمر بن عبد العزيز هو المهدي كثرة المال فى زمانه وزهد الناس فى الدنيا وذلك من علامات المهدى ، قال معمر بن أسيد والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول أجعلوا هذا حيث ترون فما يبرح حتى يرجع بماله كله وقد أغنى عمر الناس وقد علمت أنه مهدى من جملة المهديين وليس هو المهدى المنتظر وإن وجد كثير من علامات المهدى المنتظر فى زمانه وكان عمر بن عبد العزيز كثير العبادة والزهد والخوف والبكاء ، قال عطاء بن أبى رباح حدثتنى فاطمة امرأة عمر بن عبد العزيز أنها دخلت عليه وهو فى مصلاة تسيل دموعه على خديه فقالت يا أمير المؤمنين أشيء حدث قال يافاطمة إنى تقلدت أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم أسودها وأحمرها فتفكرت فى الفقير الجائع والمريض الضائع والعادى المجهود والمظلوم المقهور والغريب الأسير والشيخ الكبير وذى العيال الكثير والمال القليل وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد فعلمت أن ربى سيسألنى عنهم يوم القيامة فخشيت أن لا تثبت لى حجتى فبكيت ، قال عطاء الخراسانى أمر عمر ابن عبد العزيز غلامه أن يسخن له ماء فانطلق فسخن قمقما فى مطبخ بيت المال فلما علم عمر أمر الغلام أن يشترى حطبا بدرهم ويجعله فى مطبخ بيت المال وأهدى إليه رجل من أهل بيته تفاحا طيب الطعم والريح فقال عمر ما أطيب ريحه وأحسنه ادفعه ياغلام للذى أتى به وقل له إن هديتك عندنا وقعت بحيث تحب وكان عنده عمرو بن مهاجر فقال ياأمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهدية فقال ويحك أن الهدية كانت

للنبي صلى الله عليه وسلم هدية وهى اليوم لنا رشوة وقال مكحول لوحلفت لصدقت ما رأيت ازهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز وقال سعيد بن أبي عروبة كان عمر ابن عبد العزيز إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله واجتمع بنومروان يوما وقالوا لعبد الملك ابن عمر بن عبد العزيز قل لأبيك إن من كان قبلك من الخلفاء يعطوننا ويعرفون لنا مواضع حقوقنا وأن أباك قد أحرمنا مافى يده فدخل على أبيه فأخبره فقال قل لهم ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وقال أرطاة بن المنذر قيل لعمر بن عبد العزيز: لو اتخذت حرساً واحترست فى طعامك وشرابك ، فقال اللهم إن كنت تعلم أنى أخاف شيئا دون يوم القيامة فلا تؤمن خوفى وكتب إليه عامل خراسان أن أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم ولا يصلحهم إلا السيف والسوط فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى ذلك ، فكتب إليه عمر أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط فقد كذبت بل يصلحهم العدل والحق فأبسط ذلك فيهم والسلام وكان رضى الله عنه إذا أملى على كاتبه يقول اللهم إنى أعوذ بك من شر لسانى ، وبكى رضى الله عنه مرة فبكت لبكائه فاطمة زوجته فبكى أهل الدار لبكائهما ، ولا يدرى أحد منهم ما سبب البكاء ، فلما تجلى عنهم قالت له فاطمة بأبى أنت وأمى يا أمير المؤمنين مم بكيت ، قال ذكرت منصرف القوم من بين يدى الله عز وجل فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ثم صرخ وغشى عليه ورفع مرة بيده كفا من تمر وقال لمسلمة بن عبد الملك إن الماء على التمر طيب أرأيت لو أن رجلا أكل هذا ثم شرب عليه الماء كان يجزيه إلى الليل قال نعم قال فعلام تدخل النار قال مسلمه فما وقعت منى موعظة موقعها ، وجاء ابن سليمان ابن عبد الملك إلى مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز وحاجبه فقال إن لى حاجة إلى أمير المؤمنين عمر فاستأذن له فإذن له فلما دخل قال له يا أمير المؤمنين رد على قطيعتى التى أخذت منى فقال عمر معاذ الله أن أرد قطيعة أصبحت فى الإسلام فقال هذا كتابى وأخرج كتابا من كمه فقرأه عمر فقال لمن كانت هذه الأرض قبلك قال للفاسق ابن الحجاج فقال عمر فهو أولى بدعواها قال فإنها من بيت مال المسلمين قال فالمسلمون أولى بها قال يا أمير

المؤمنين رد على كتابى قال لا أفعل لو لم تأتنى به لم أسألكه فأما إذا جئتنى به فلم ندعك تطلب باطلا فبكى ابن سليمان ، فقال مزاحم يا أمير المؤمنين ابن سليمان تصنع به هذا قال ويحك يا مزاحم أنها نفسى أجادل عنها وأنى لأجد له من الشفقة ما أجد لولدى وكتب سالم بن عبد الله بن عمر لعمر بن عبد العزيز بعضا من سيرة عمر بن الخطاب لما طلب منه ذلك عمر بن عبد العزيز ثم قال سالم إن عمر بن الخطاب عمل فى غير زمانك وكان له مساعد ومعين على مايريد من الحق فإن عملت فى زمانك بمثل ماعمل فى زمانه كنت أفضل منه وأرسل مرة عمر بن عبد العزيز غلاما له يشوى له لحما فعجل الغلام بهما فقال عمر له أسرعت بها فقال شويتها فى نار مطبخ بيت مال المسلمين وكان للمسلمين مطبخ يغديهم ويعشيهم منه فقال عمر لغلامه اذهب فكلها يابنى فإنك رزقتها ولم أرزقها وكان لعمر بن عبد العزيز سفط فيه دراعة من شعر وغل وكان له بيت فى جوف بيت يصلى فيه لا يدخل عليه فيه أحد فإذا كان فى آخر الليل فتح ذلك السفط ولبس تلك الدراعة ووضع الغل فى عنقه فلا يزال يصلى ويناجى ربه ويبكى حتى يطلع الفجر ، ثم يعيده فى السفط وقال الإمام الغزالى فى الإحياء دخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز على عمر فسلمت عليه ثم قامت إلى المسجد فى بيته فصليت فيه ركعتين ثم غلبتها عيناها فرقدت واسترسلت فى منامها ثم استيقظت وقالت يا أمير المؤمنين إنى والله رأيت عجباً قال وماذاك قالت رأيت النار وهى تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط فوضع على متنها فقالت هيه فقالت فجىء بعبد الملك بن مروان فحمل عليه فما مضى إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال هيه ، قالت ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فما مضى إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط فهوى فى جهنم فقال عمر هيه ، قالت ثم جىء بسليمان ابن عبدالملك فامضى عليه إلا يسيراً حتى انكفأ به الصراط فهوى فى جهنم فقال عمر هيه ، قالت ثم جىء بك يا أمير المؤمنين فصاح عمر صيحة وخر مغشيا عليه فقامت إليه فجعلت تنادى فى أذنيه يا أمير المؤمنين إنى والله رأيتك نجوت حتى نجوت ، قال فما زالت تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله وهو عدى بن أرطاة وكان قد ولاه البصرة فلما أراد

عزله كتب له بعزله وقال فى كتابه أما بعد فإنك غررتنى بعمامتك السوداء وإرسالك طرفها من ورائك ومجالستك القراء وأنك أظهرت لى الخير فأحسنت بك الظن وقد أظهرنى الله على ما كنت تكتم والسلام وذكر الفضيل بن عياض أن بعض عمال عمر ابن عبدالعزيز شكا إليه مشقة القيام بعمله فكتب إليه يا أخى أذكر سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عندالله عز وجل فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء فلما قرأ العامل الكتاب ترك عمله وانصرف وطوى الأرض حتى قدم على عمر فقال له ما أقدمك قال خلعت قلبى بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله عزوجل ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه دخل عليه سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب وهو كئيب حزين فقال لأحدهما عظنى فقال يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى لم يجعل أحداً من خلقه فوقك فلا ترضى لنفسك أن يكون أحد من خلقه أطوع منك ولا ترضى أن يكون أحداً أولى بالشكر منك فبكى عمر رحمه الله حتى غشى عليه ثم أفاق فقال هيه يا أبا خالد لم يرض أن يكون فوقى فوالله لأخافنه خوفا ولأحذرنه حذراً ولأرجونه رجاء ولأحبنه محبة ولأشكرنه شكراً ولأحمدنه حمداً يكون ذلك كله غاية طاقتى ولأجتهدن فى العدل والنصفة والزهد فى الدنيا والرغبة فى باقى الآخرة ودوامها حتى ألقى الله عز وجل لعلى أنجو مع الناجين وأفوز مع الفائزين ثم بكى حتى غشى عليه وقال له الآخر اجعل الناس ثلاثة الكبير بمنزلة الأب والوسط بمنزلة الأخ والصغير بمنزلة الولد فبر أباك وصل أخاك وأعطف على ولدك قال زياد مولى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يا أمير المؤمنين أخبرنى عن رجل له خصم ألد ماحاله قال سيىء الحال قال فإن كانا خصمين ألدين قال ذاك حاله أسوأ قال فإن كانوا ثلاثة قال ذاك حين لا يهنأه عيش قال فوالله يا أمير المؤمنين ماأحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا وهو خصم لك ، قال فبكى عمر حتى تمنيت أن لا أكون قلت له وعن نعيم قال قلت لعمر بن عبد العزيز وقد رأيته قاعداً يا أمير المؤمنين ما يقعدك ههنا قال أنتظر ثيابى تغسل لأصعد بهما المنبر قلت وماهى قال قميص وإزار قيمتهن أربعة عشر درهما وقال إسماعيل بن عياش قلت لعمر بن المهاجر ماكان يلبس عمر فى بيته ؟ قال : جبة سوداء مبطنة . وكان رضى الله عنه يقول ماتركت

شيئاً من الدنيا إلا أعقبني في قلبي ما هو أفضل منه يعني بالزهد وما أنعم الله على في ديني أفضل وقال أحمد بن أبي الحوارى سمعت أبا سليمان الدارانى وأبا صفوان يتناظران أن عمر بن عبدالعزيز أزهد وأويس القرنى فقال له ولم قال لأن عمر ملك الدنيا فزهد فيها فقال له أبو صفوان وأويس لو ملكها لزهد فيها مثل مافعل عمر فقال أبو سليمان لاتجعل من جرب كمن لم يجرب إن من جرت الدنيا على يديه وليس لها في قلبه موقع أفضل ممن لم تجر على يديه وإن لم يكن لها في قلبه موقع وكان في دارعمر بن عبد العزيز درجة فيها لبنة تتحرك فكان كلما نزل أو صعد ارتاع منها فعمد مولى له فشدها بطين فلما صعد عمر لم يرها فسأل عنها فقال له مولاه رأيتك ترتاع منها فشددتها فقال له عمر أعدها إلى حالها فإني أعطيت الله عهداً إن وليت هذا الأمر أن لا أضع لبنة ولا آجرة على آجرة وكان يقول ليس لى في الأمور هوى إلا مواقع القضاء أي مايقضيه الله على وفي رواية ما كنت على حالة من حالات الدنيا فسرني أني على غيرها . وفي دعائه اللهم إني أطيعك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الشرك فاغفرلى ما بينهما . ومن كلامه ذكر الله عز وجل عظيم ، والفكر في نعيم الله عز وجل أفضل العبادة . ومن دعائه اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح لأمة محمد صلى الله عليه وسلم وأهلك من كان في هلاكه صلاح لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ولما سقى السم قيل له تدارك نفسك فقال والله لقد عرفت الساعة التي سقيت فيها ولو كان شفائي أن أمس شحمة أذنى ما فعلت وكان يبغض الحجاج على ظلمه بغضاً كثيراً كان يقول ما حسدت الحجاج على شيء إلا على حبه للقرآن وإعطائه أهله وقوله حين حضرته الوفاة اللهم اغفر لى فإن عبادك يزعمون أنك لاتفعل ولما حضرت الوفاة عمر بن عبد العزيز قال اجلسونى فأجلسوه فقال أنا الذى أمرتنى فقصرت ونهيتنى فعصيت ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه وأحد النظر فقيل له : إنك لتنظر نظراً شديداً قال إني لأرى أناساً ما هم بإنس ولا جن ، ثم قال ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُواً فى الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً ﴾ ثم قال لا إله إلا الله لمثل هذا فليعمل.

العاملون وقال يوسف بن ماهك بينما نحن نسوى التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا رق من السماء فيه بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله تعالى لعمر بن العزيز ووفاء واستشهد رجل بالشام فكان يأتى إلى أبيه كل ليلة جمعة فى المنسام فيحدثه ويأنس به فغاب عنه جمعة ثم جاءفى الجمعة الأخرى فقال يابنى لقد تأخرت عنى وشق على تخلفك فقال إنما شغلنى عنك أن الشهداء أمروا أن يتلقوا عمر بن عبد العزيز فتلقيناه وكان ذلك عند موت عمر بن عبد العزيز، وكانت وفاته سنة إحدى ومائة وعمره تسع وثلاثون سنة وأشهر ، ومدة خلافته سنتان وخمسة أشهر ومناقبه كثيرة أفردت بالتأليف رضى اللهعنه ، وقد تقدم فى مناقب السلطان صلاح الدين الأيوبى أنه كان زاهداً مقتصداً فى الدنيا وأنه لما مات لم يخلف سوى سبعة وأربعين درهما وديناراً واحداً ، وقد خلف سبعة عشر ولداً ذكراً وأنثى وتقدم أيضا فى مناقب السلطان نور الدين محمود ابن زنكى أنه كان يقول فى أموال بيت المال إنما هى أموال المسلمين وإنى خازن لهم فلا أخونهم فيها وإن زوجته قلت النفقة عنها فلم يعطها من بيت المال وأعطاها ثلاث دكاكين بحمص كانت له اشتراها من ماله الذى خصه من الغنيمة وقد علم من ذلك كله أن الزهد فى الدنيا والاقتصاد فيها هو ملاك الأمر كله وإن الخلفاء الراشدين والسلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين إنما فتح كل منهم مافتح من البلاد ومكن الله لهم فى الأرض بين العباد بالزهد فى الدنيا والاقتصاد فيها والعدل فى بيت المال قال العلامة القطبى فى تاريخه لما أراد الله بأهل الأرض إحسانًا وأفضالا وقدر ظهور العدل والفضل فيهم إكراماً لهم وإجلالا وقضى بإطفاء نيران الظلم والفتن ورفع مواد الفساد والمحن وتأييد دين الإسلام وتقوية أهل السنة السنية المتمسكين بسنن سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وإقامة الشرع الشريف على رغم الملحدة اللئام أطلع فى أفق الخلافة العظمى شموس الإيالة العثمانية وأسطع من أوج أسماء السلطنة الكبرى كمال المعدلة الخاقانية وأجلسهم على سرير الملك وملكهم أعظم ممالك الإسلام وفتح على أيديهم الممالك العظام ونشر بهم جناح الأمن والأمان لا زالت دولتهم باقية إلى آخر الزمان اهـ .

ثم ذكر فى تراجمهم مايبهر العقول من محاسن الصفات ومن الزهد والعدل والجهاد وفعل الخيرات وقد تقدم فى هذا الكتاب كثير من ذلك ومن تأمل فى سيرة الملوك والسلاطين الذين كانوا بعد الخلفاء الراشدين يحصل له كمال اليقين بأن الدولة العثمانية أحسن الدول الإسلامية بين العالمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لأنهم اتصفوا بصفات لم يتصف بها كثير من دول الإسلام وجمعوا فضائل لم تكن لغيرهم على ممر الليالى والأيام فمنها أن لهم كثيراً من الفتوحات الواسعة والغزوات الشهيرة فى الأقطار الشاسعة حتى اتسع بفتوحاتهم الإسلام وانتشر العلم والأمن والأمان بين الأنام ومنها أن عقائدهم صحيحة مطابقة لعقيدة أهل السنة والجماعة ليس فيهم مبتدع ولا خارج عن الطاعة ومنهم أنهم ناصرون لمذهب أهل السنة وقائمون بشعائر الدين كافة فى مدن الإسلام لاسيما فى الحرمين الشريفين الذين هما منبع الدين وأساسه ومطلع نوره ونبراسه فإنهم موظفون لأهل الحرمين والوظائف التى بها قوام الدين ومظهرون شعائر الأئمة الأربعة الذين انحصر فيهم مذهب أهل السنة والجماعة ومرتبون للقائمين بوظائف الدين أعظم المرتبات ومنعمون عليهم بأنواع كثيرة من أصناف البر الذى به تكثر الحسنات ومرتبون أيضاً للأشراف والسادات والعلماء والصلحاء الأبرار مايقوم بكفايتهم فى المعيشة التى عليها المدار فأعانوا الجميع على القيام بالعبادة والاشتغال بالعلم النافع فقاموا بأداء الشكر لله تعالى وبذل الدعوات الخيرية للدولة العلية العثمانية فى كل مسجد وجامع ومن محاسنهم الجليلة ومناقبهم الأثيلة أنهم دافعون كيد الكفرة الفجار والمبتدعة الأشرار بعساكرهم وخزائنهم فى سائر الأقطار ومؤمنون الطرقات للحجاج والزوار والتجار والمسافرين باذلون غاية جهدهم فى نصرة الإسلام وصيانة الدين فيجب على كافة المسلمين السعى فى تشييد دولتهم وتثبيت قواعد سلطنتهم والدعاء لهم بدوام التوفيق والنصر الذى يكون به تأييد مملكتهم اللهم وفقهم لكل خير وادفع عنهم كل مكروه وضير ووفق سائر الوزراء والأمراء والقضاة والعلماء والعمال للعدل ونصرة الدين ، وقد من الله على أهل هذا العصر الحميد بسلطنة واسطة عقد الدولة العثمانية الفريد من تشرفت بذكره فى الحرمين الشريفين المنابر والمنائر وعمر مساجدهما فصدق عليه قوله

تعالى ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ السلطان الأعظم والخاقان الأكرم الأفخم خير خلف خلفاء الرحمن أشرف سلف آل عثمان السلطان ابن السلطان ابن السلطان الملك المنصور المظفر المعان (مولانا السلطان الغازى عبدالحميدخان) بن المرحوم مولانا السلطان الغازى عبد المجيد خان متع الله المسلمين بوجوده وأفاض عليهم سحائب فضله وجوده وأدام له النصر والتمكين وأيده بروح القدس الأمين فكان له من حين ولايته إلى هذا الزمان من محاسن الصفات وفعل الخير مايعجز عن بيانه اللسان فمن ذلك أنه عمر عمارة فائقة فى الكعبة المعظمة وفرش باطنها بالرخام على أعجب الأوصاف المنظمة وبذل على ذلك كثيراً من الأموال وأنعم على مباشريها بما لا يخطر بالبال ، وكان ذلك فى سنة تسع وتسعين بعد المائتين والألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم ، ومن مآثره وخيراته الجليلة صدور أمره الكريم بوضع مطبعة فى مكة المشرفة تطبع فيها كتب العلوم ليكثر انتشار العلم فى موضع مهبط الوحى الذى هو مرجع الخصوص والعموم ليحصل له بذلك ثواب نشر العلم وتأييد قواعد الدين اللذين هما من أقوى أسباب التأييد والتمكين فكان وضع المطبعة المذكورة سنة ثلاثمائة بعد الألف من هجرة من له العز و شرف صلى الله عليه وسلم فامتثل أمره وقام بوضعها واجتهد غاية الاجتهاد وبذل وسعه حتى كملت واشتهرت بين العباد الوزير المعظم والمشير المفخم دولتلو السيد عثمان نورى باشا والى ولاية الحجاز وشيخ الحرم المحترم لا زال فعله مبروراً وسعيه مشكوراً وأقام فى المطبعة المذكورة مديراً شويكى زاده السيد عبد الغنى أفندى الدمشقى فصارت الناس تهرع إليها من جميع الجهات لطبع كتب العلوم فيها ويطبع فيها باللسان العربى والتركى والجاوى ففاقت بذلك جميع المطابع فنسأل الله تعالى أن يديم هذه السلطنة السنية و يوفقها لكل خصلة مرضية ويزيدها توفيقا على ممر الزمان حتى تكون أهل هذه الملة بهذه الدولة فى أعلى مقامات الاستقامة والإحسان ويتحقق بها ما تقدم عن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه من قوله لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ونسأل الله

بالجميع التوفيق والإعانة والإخلاص والقبول وحسن الختام بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الكرام وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ، وكان التمام للفتوحات الإسلامية فى أول شهر رمضان المعظم سنة أربع وخمسون بعد الثلاثمائة والألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم آمين .

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق ، سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه المجاهدين الطيبين الطاهرين ، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فقد تم بعون الله وحسن توفيقه طبع كتاب « الفتوحات الإسلامية بعد مضى الفتوحات النبوية » للعالم السيد أحمد بن زينى دحلان .

وكان الفراغ من طبعه يوم الخميس ٤ صفر سنة ١٣٨٨هـ الموافق ٢ مايو سنة ١٩٦٨م .

نسأل الله تعالى أن يمدنا بنصر من عنده كما نصر أولوا العزم من الرسل فهو نعم المولى ونعم النصير ؟

الناشر
مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع
١٤ شارع جواد حسنى بالقاهرة

فهرس

الجزء الثانى

من كتاب « الفتوحات الإسلامية »

الموضوع	صفحة

الموضوع | صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع | صفحة

تم فهرس الجزء الثانى

